في الاب ثم قال هو التكلف فما عليك أن لا تدريه وهذا كله محمول على انهما رضي الله عنهما انما اراد استكشاف علم كيفية الاب والا فكونه نبتا من الارض ظاهر لا يجهل كقوله تعالى فانبتنا فيها حبا وعنبا الآية وقال ابن جرير حدثنا يعقوب بن ابراهيم حدثنا ابن علية عن أيوب عن ابن أبي مليكة ان ابن عباس سئل عن آية لو سئل عنها بعضكم لقال فيها فابى ان يقول فيها اسناده صحيح وقال أبو عبيد حدثنا اسمعيل بن ابراهيم عن أيوب عن ابن أبي مليكة قال سأل رجل ابن عباس عن يوم كان مقداره ألف سنة فقال له ابن عباس فما يوم كان مقداره خمسين ألف سنة فقال له الرجل انما سألتك

لتحدثني فقال ابن عباس هما يومان ذكرهما الله في كتابه الله أعلم بهما فكره ان يقول في كتاب الله ما لا يعلم وقال ابن جرير أيضا حدثني يعقوب يعني ابن ابراهيم حدثنا ابن علية عن مهدي ابن ميمون عن الوليد بن مسلم قال جاء طلق بن حبيب الى جندب بن عبد الله فسأله عن آية من القرآن فقال أحرج عليك ان كنت مسلما لما قمت عني أو قال أن تجالسني وقال مالك عن يحيى بن سعيد عن سعيد ابن المسيب أنه كان اذا سئل عن تفسير آية من القرآن قال انا لا نقول في القرآن شيأ وقال الليث عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب انه كان لا يتكلم الا في المعلوم من القرآن وقال شعبة عن عمرو بن مرة قال سأل رجل سعيد بن المسيب عن آية من القرآن فقال لا تسألني عن القرآن وسل من يزعم أنه لا يخفى عليه منه شئ يعني عكرمة وقال ابن شوذب حدثني يزيد بن أبي يزيد قال كنا نسأل سعيد بن المسيب عن الحرام والحلال وكان أعلم الناس فاذا سألناه عن تفسير آية من القرآن سكت كأن لم يسمع وقال ابن جرير حدثني أحمد بن عبدة الضبي حدثنا حماد بن زيد حدثنا عبيد الله بن عمر قال لقد أدركت فقهاء المدينة وانهم ليعظمون القول في التفسير منهم سالم بن عبد الله والقاسم بن محمد وسعيد بن المسيب ونافع وقال أبو عبيد حدثنا عبد الله بن صالح عن ليث عن هشام بن عروة قال ما سمعت أبي يؤول آية من كتاب الله قط وقال أيوب وابن عون وهشام الدستوائي عن محمد بن سيرين سألت عبيدة يعني السلماني عن آية من القرآن فقال ذهب الذين كانوا يعلمون فيما أنزل القرآن فاتق الله وعليك بالسداد وقال أبو عبيد حدثنا معاذ عن ابن عون عن عبد الله بن مسلم بن يسار عن أبيه قال اذا حدثت عن الله حديثا فقف حتى تنظر ما قبله وما بعده حدثنا هشيم عن مغيرة عن ابراهيم

فان وجدت فيه هذه الشرائط فلا طعن فيه والا فهو بمعزل عن القبول قال الزمخشري من حق التفسير أن يتعاهد بقاء النظم على حسنه والبلاغة على كمالها وما وقع به التحدي سليما من القادح وكما يتوافى التفسير شرائط يتوافى المفسر أيضا شرائط لا يحل التعاطي لمن عرى عنها أو هو فيها راجل وهي أن يعرف اللغة والنحو والتصريف والاشتقاق والمعاني والبيان والبديع والقرا آت وأصول الدين وأصول الفقه وأسباب النزول والقصص والناسخ والمنسوخ والفقه والاحاديث المبينة لتفسير المجمل والمبهم وعلم الموهبة وهو علم يورثه الله سبحانه لمن عمل بما علم انتهى * ثم ان تفسير القرآن ثلاثة أقسام الاول ما لم يطلع الله عليه أحدا من خلقه وهو ما استأثر به من علوم أسرار كتابه من معرفة كنه ذاته ومعرفة حقائق أسمائه وصفاته وهذا لا يجوز لاحد الكلام فيه الثاني ما أطلع الله سبحانه نبيه عليه من أسرار الكتاب واختصه به فلا يجوز الكلام فيه الا له صلى الله عليه وسلم أو لمن أذن له قيل وأوائل السور من هذا القسم وقيل من الاول وهو الراجح * والثالث علوم علمها الله نبيه وأمره بتعليمها وهذا ينقسم الى قسمين منه ما لا يجوز الكلام فيه الا بطريق السمع كأسباب النزول والناسخ والمنسوخ واللغات والقرا آت وقصص الامم وأخبار ما هو كائن ومنه ما يؤخذ بطريق النظر والاستنباط من الالفاظ وهو قسمان قسم اختلفوا في جوازه وهو تأويل الآيات المتشابهات وقسم اتفقوا عليه وهو استنباط الاحكام الاصلية والفرعية والاعرابية وكذلك فنون البلاغة وضروب المواعظ والحكم والاشارات لا يمتنع استنباطها منه لمن له أهلية ذلك وما عدا هذه الامور هو التفسير بالرأي الذي نهى عنه * وفيه خمسة أنواع .. الاول التفسير من غير حصول العلوم التي يجوز معها التفسير * الثاني تفسير المتشابه الذي لا يعلمه الا الله سبحانه وتعالى * الثالث التفسير المقرر للمذهب الفاسد بان يجعل المذهب أصلا والتفسير تابعا له فيرد اليه بأي طريق أمكن وان كان ضعيفا * الرابع التفسير بان مراد الله سبحانه كذا على القطع من غير دليل . الخامس التفسير بالاستحسان والهوى والتقليد (أقول) ان التفسير الذي ينبغي الاعتماد به والرجوع اليه هو تفسير كتاب الله جل جلاله باللغة العربية حقيقة ومجازا ان لم تثبت في ذلك حقيقة شرعية فان ثبتت فهي مقدمة على غيرها وكذلك اذا ثبت تفسير ذلك من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فهو أقدم من كل شئ بل حجة متبعة لا يسوغ مخالفتها لشئ

قال كان أصحابنا يتقون التفسير ويهابونه وقال شعبة عن عبد الله بن أبي السفر قال قال الشعبي والله مامن آية الا وقد سألت
عنها ولكنها الرواية عن الله عز وجل وقال أبو عبيد حدثنا هشيم حدثنا عمر بن أبي زائدة عن الشعبي عن مسروق قال اتقوا
التفسير فانما هو الرواية عن الله فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف محمولة على تحرجهم عن الكلام في التفسير
بما لا علم لهم فيه فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعا فلا حرج عليه ولهذا روي عن هؤلاء وغيرهم أقوال في التفسير
ولا منافاة لانهم تكلموا فيما علموه وسكتوا عما جهلوه وهذا هو الواجب على كل أحد فانه كما يجب السكوت عما لا علم له به

فكذلك يجب القول فيما سئل عنه
مما يعلمه لقوله تعالى لتبيننه للناس
ولا تكتمونه ولما جاء في الحديث الذي
روي من طرق من سئل عن علم
فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار
وأما الحديث الذي رواه أبو جعفر
ابن جرير حدثنا عباس بن عبد
العظيم حدثنا محمد بن خالد بن عثمة
حدثنا أبو جعفر بن محمد الزبيري
حدثني هشام بن عروة عن أبيه عن
عائشة قالت ما كان النبي صلى الله
عليه وسلم يفسر شيأ من القرآن
الا آيا بعدد علمهن اياه جبرائيل
عليه السلام ثم رواه عن أبي بكر
محمد بن يزيد الطرسوسي عن معن بن
عيسى عن جعفر بن خالد عن هشام
به فانه حديث منكر غريب وجعفر
هذا هو ابن محمد بن خالد بن الزبير بن
العوام القرشي الزبيري قال البخاري
لا يتابع في حديثه وقال الحافظ أبو
الفتح الأزدي منكر الحديث
وتكلم عليه الامام أبو جعفر بما
حاصله ان هذه الآيات مما لا يعلم
الا بالتوقيف عن الله تعالى مما وقفه
عليها جبرائيل وهذا تأويل صحيح
لو صح الحديث فان من القرآن
ما استأثر الله تعالى بعلمه ومنه ما يعلمه العلماء ومنه ما تعلمه العرب من لغاتها ومنه ما لا يعذر أحد في جهالته كما صرح
بذلك ابن عباس فيما قال ابن جرير حدثنا محمد بن بشار حدثنا مؤمل حدثنا سفيان عن أبي الزناد قال قال ابن عباس التفسير على
أربعة أوجه وجه تعرفه العرب من كلامها وتفسير لا يعذر أحد بجهالته وتفسير يعلمه العلماء وتفسير لا يعلمه أحد الا الله قال ابن
جرير وقد روي نحوه في حديث في اسناده نظر حدثني يونس بن عبد الاعلى الصدفي أنبأنا ابن وهب سمعت عمرو بن الحرث يحدث
عن الكلبي عن أبي صالح مولى أم هانئ عن ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أنزل القرآن على أربعة أحرف حلال

آخر ثم تفاسير علماء الصحابة المختصين برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فانه يبعد كل البعد
أن يفسر أحدهم كتاب الله تعالى ولم يسمع في ذلك شيأ عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم
وعلى فرض عدم السماع فهو أحد العرب الذين عرفوا من اللغة دقها وجلها وأما تفاسير
غيرهم من التابعين ومن بعدهم فان كان من طريق الرواية نظرنا في صحتها سواء كان المروي
عنه الشارع أو أهل اللغة وان كان بمحض الرأي فليس ذلك بشيء ولا يحل التمسك به ولا جعله
حجة بل الحجة ما قدمناه ولا نظن بعالم من علماء الاسلام أن يفسر القرآن برأيه فان ذلك مع
كونه من الاقدام على ما لا يحل بما لا يحل قد ورد النهي عنه في حديث من فسر القرآن
برأيه فاصاب فقد أخطأ ومن فسر القرآن برأيه فاخطأ فقد كفر أو كما قال الأئمة نتعبد بمجرد
هذا الاحسان للظن على أن نقبل تفسير كل عالم كيفما كان بل اذا لم نجده مستندا الى
الشارع ولا الى أهل اللغة لم يحل لنا العمل به مع التمسك بحمل صاحبه على السلامة ونظير
ذلك اختلاف العلماء في المسائل العلمية فلو كان احسان الظن مسوغا للعمل بما ورد عن كل
واحد منهم لوجب علينا قبول الاقوال المتناقضة في تفسير آية واحدة أو في مسئلة علمية
واللازم باطل فالملزوم مثله واذا عرفت هذه الفوائد فاعلم ان كتب التفاسير كثيرة ذكر منها
ملا كاتب الچلبي في كشف الظنون ما يزيد على ثلثمائة تفسير مرتبا على حروف الهجاء
وزدنا عليه في كتابنا الاكسير في أصول التفسير فمنها تفسير ابن أبي حاتم عبد الرحمن بن محمد
الرازي الحافظ المتوفى سنة خمس وتسعين ومائتين وانتقاه الشيخ جلال الدين عبد الرحمن
ابن أبي بكر السيوطي المتوفى سنة احدى عشرة وتسعمائة في مجلد ومنها تفسير ابن جرير
أبي جعفر محمد الطبري المتوفى سنة عشرة وثلثمائة قال السيوطي في الاتقان وكتابه أجل
التفاسير وأعظمها فانه يتعرض لتوجيه الاقوال وترجيح بعضها على بعض والاعراب
والاستنباط فهو يفوق بذلك على تفاسير الاقدمين اه وقد قال النووي أجمعت الامة
على أنه لم يصنف مثل تفسير الطبري وعن أبي حامد الاسفرايني أنه قال لو سافر رجل الى
الصين حتى يحصل له تفسير ابن جرير لم يكن ذلك كثيرا ومنها تفسير ابن كثير الامام الحافظ
أبي الفداء اسمعيل بن عمر القرشي الدمشقي المتوفى سنة أربع وسبعين وسبعمائة تلميذ شيخ
الاسلام ابن تيمية الحراني رحمه الله تعالى وهو كبير في عشر مجلدات فسر بالاحاديث
والآثار مسندة عن أصحابها مع الكلام على ما يحتاج اليه جرحا وتعديلا ومنها تفسير ابن

المنذر

وحرام لايعذر أحد بالجهالة به وتفسير تفسره العرب وتفسير تفسره العلماء ومتشابه لايعلمه الا الله عزوجل ومن ادعى علمه سوى الله فهو كاذب والنظر الذى أشار اليه فى اسناده هو من جهة محمد بن السائب الكلبى فانه متروك الحديث لكن قد يكون انما وهم فى رفعه ولعله من كلام ابن عباس كما تقدم والله أعلم * (مقدمة) * مفيدة تذكر فى أول التفسير قبل الفاتحة قال أبو بكر بن الانبارى حدثنا اسمعيل بن اسحق القاضى حدثنا حجاج بن منهال حدثنا همام عن قتادة قال نزل فى المدينة من القرآن البقرة وآل عمران والنساء والمائدة وبراءة والرعد والنحل والحج والنور والاحزاب ومحمد والفتح والحجرات والرحمن والحديد والمجادلة والحشر والممتحنة والصف والجمعة والمنافقون والتغابن والطلاق ويا أيها النبى لم تحرم والى رأس العشر واذا زلزلت واذا جاء نصر الله هؤلاء السور نزلت بالمدينة وسائر السور بمكة فاما عدد آيات القرآن العظيم فستة آلاف آية ثم اختلف فيما زاد على ذلك على أقوال فمنهم من لم يزد على ذلك ومنهم من قال ومائتى آية وأربع آيات وقيل وأربع عشرة آية وقيل ومائتان وتسع عشرة آية وقيل ومائتان وخمس وعشرون آية أوست وعشرون آية وقيل ومائتان وست وثلاثون حكى ذلك أبو عمرو الدانى فى كتابه البيان واما كلماته فقال الفضل بن شاذان عن عطاء بن يسار سبع وسبعون ألف كلمة وأربعمائة وتسع وثلاثون كلمة وأما حروفه فقال عبدالله بن كثير عن مجاهد هذا ما أحصينا من القرآن وهو ثلثمائة ألف حرف وأحد وعشرون ألف حرف ومائة وثمانون حرفا وقال الفضل بن عطاء بن يسار ثلثمائة ألف حرف وثلاثة وعشرون ألفا وخمسة عشر حرفا وقال سلام أبو محمد الحمانى ان الحجاج جمع القراء والحفاظ والكتاب فقال أخبرونى عن القرآن كله كم من حرف هو قال فحسبنا فأجمعوا أنه ثلثمائة ألف وأربعون ألفا وسبعمائة وأربعون حرفا قال فأخبرونى عن نصفه فاذا هو الى الفاء من قوله فى الكهف وليتلطف وثلثه الاول عند رأس مائة آية من براءة والثانى على رأس مائة أو احدى ومائة من الشعراء والثالث الى آخره وسبعه الاول الى الدال من قوله تعالى فمنهم من آمن به ومنهم من صد والسبع الثانى الى التاء من قوله تعالى فى سورة الاعراف أولئك حبطت والثالث الى الالف الثانية من قوله تعالى فى الرعد أكلها والرابع الى الالف فى الحج من قوله جعلنا منسكا والخامس الى الهاء من قوله

المنذر وهو الامام أبو بكر محمد بن ابراهيم النيسابورى المتوفى سنة ثمان عشرة وثلثمائة ومنها تفسير البخارى وهو ماذكره فى صحيحه وجعله كتابا منه وله التفسير الكبير غير هذا ذكره الفربرى ومنها تفسير النحاس وهو أبو جعفر أحمد بن محمد النحوى المصرى المتوفى سنة ثمان وثلاثين وثلثمائة قصد فيه الاعراب لكن ذكر القراآت التى يحتاج أن يبين اعرابها والعلل التى فيها وما يحتاج فيه من المعانى ومنها تفسير الواحدى البسيط والوسيط والوجيز وتسمى هذه الثلاثة الحاوى لجميع المعانى ومنها تفسير المهدوى وهو أبو العباس أحمد بن عمار التميمى المتوفى بعد الثلاثين وأربعمائة ثم من المفسرين من اقتصر فى تفسيره على مجرد الرواية وقنع برفع هذه الراية كجلال الدين السيوطى فى الدر المنثور وغيره فى غيره من المسطور ومنهم من اكتفى بمجرد الدراية وجرد نظره الى مقتضى اللغة العربية بصحيح العناية وهم الاكثرون ومنهم من جمع بين الامرين وسلك المسلكين وقليل ماهم وقليل من عبادى الشكور ومن أحسن التفاسير جمعا بين الرواية والدراية فيما علمت تفسير الامام الحافظ القاضى محمد بن على بن محمد الشوكانى اليمنى المتوفى سنة خمسين ومائتين وألف الهجرية وهو تفسير كبير بالقول فى مجلدات أربع وطالما يدور فى خلدى ان أحرر فى التفسير كتابا يحتوى على أمرين ويجمع طريقين على الوجه المعتبر فى الورد والصدر غير مشوب بشىء من التفسير بالرأى الذى هو من أعظم الخطر وكنت أنتهز له الفرصة فى البلاد والقرى وأقدم رجلا وأؤخر أخرى لصعوبة المرام وعزة المقام فاين الحضيض من الذرى والثريا من الثرى فحال بينى وبين ما كنت أخال تراكم المهمات وتزاحم الاشغال وابتليت بتدبير مصالح العباد فى مدينة بهوبال وانصرمت عرى الآمال عن الفوز بفراغ البال وأنا أصرف جهدى والمراد ينصرف والمقصود يتقاعس عن الحصول وينحرف والايام تحول وتحجز والليالى تعدو ولا تنجز حتى سألنى جماعة من أهل العلم ممن يتحرى اتباع السنة والكتاب ويجتنب الابتداع فى كل باب وألحوا على وأظهروا الفقر الى ولم يسعنى الا اسعاف ما أملوه وانجاح ما سألوه فاجبتهم معتمدا على فضل الله وتيسيره ممتثلا بوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم فيما يرويه أبو سعيد الخدرى ويرفعه ان رجالا يأتونكم من أقطار الارض يتفقهون فى الدين فاذا أتوكم فاستوصوا بهم خيرا ومقتديا بالسلف الماضين فى تدوين علوم الدين ابقاء على الخلق

فى الاحزاب وما كان لمؤمن ولا مؤمنة والسادس الى الواو من قوله تعالى فى الفتح الظانين بالله ظن السوء والسابع الى آخر القرآن قال سلام ابو محمد عملنا ذلك فى أربعة أشهر قالوا وكان الحجاج يقرأ فى كل ليلة ربع القرآن فالاول الى آخر الانعام والثانى الى وليتلطف من سورة الكهف والثالث الى آخر الزمر والرابع الى آخر القرآن وقد حكى الشيخ أبو عمرو الدانى فى كتابه البيان خلافا فى هذا كله فالله أعلم (وأما التحزيب والتجزئة) فقد اشتهرت الاجزاء من ثلاثين كما فى الربعات بالمدارس وغيرها وقد ذكرنا فيما تقدم الحديث الوارد فى تحزيب الصحابة (١٢) للقرآن والحديث فى مسند الامام أحمد وسنن أبى داود وابن ماجه وغيرهم عن أوس بن حذيفة انه سأل اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حياته كيف تحزبون القرآن قالوا ثلث وخمس وسبع وتسع واحدى عشر وثلاثة عشر وحزب المفصل حتى تختم

(فصل) واختلف فى معنى السورة مما هى مشتقة فقيل من الابانة والارتفاع قال النابغة

ألم تر ان الله أعطاك سورة
ترى كل ملك دونها يتذبذب

فكان القارئ يتنقل بها من منزلة الى منزلة وقيل لشرفها وارتفاعها كسور البلدان وقيل سميت سورة لكونها قطعة من القرآن وجزأ منه مأخوذ من اسآر الاناء وهو البقية وعلى هذا فيكون أصلها مهموزا وانما خففت الهمزة فابدلت الهمزة واوا لانضمام ماقبلها وقيل لتمامها وكمالها لان العرب يسمون الناقة التامة سورة (قلت) ويحتمل ان يكون من الجمع والاحاطة لآياتها كما يسمى سور البلد لاحاطته بمنازله ودوره وجمع السورة سور بفتح الواو وقد يجمع على سورات وسوارات وأما الآية فمن العلامة على انقطاع الكلام الذى قبلها عن الذى بعدها وانفصالها أى هى بائنة عن أختها ومنفردة قال الله تعالى ان آية ملكه وقال النابغة ضعف توهمت آيات لها فعرفتها * لستة أعوام وذا العام سابع وقيل لانها جماعة حروف من القرآن وطائفة منه كما يقال خرج القوم بآيتهم أى بجماعتهم قال الشاعر خرجنا من النقبين لاحى مثلنا * بآيتنا نزجى اللقاح المطافلا وقيل سميت آية لانها عجب يعجز البشر عن التكلم بمثلها قال سيبويه وأصلها أيية مثل أكمة وشجرة تحركت الياء وانفتح ماقبلها فقلبت ألفا فصارت آية بهمزة بعدها مدة وقال الكسائى أصلها آيية على وزن آمنة فقلبت ألفا ثم حذفت لالتباسها وقال الفراء أصلها أيّة بتشديد الياء الاولى

وابقاء الحق وليس على ماجمعوه مصنفوه مزيد ولكن لابد فى كل زمان من تجديد ماطال به العهد وقصر للطالبين فيه الجد والجهد ايقاظا للنائمين وتحريضا للمتثبطين فحررت بعون الله تعالى وحسن توفيقه فيما سألوه واستنحوه كتابا فى أيسر زمان وأحسن تقدير متوسطا بين الطويل الممل والقصير المخل وجمعته جمعا حسنا بعبارة سهلة وألفاظ يسيرة مع تعرض للترجيح بين التفاسير المتعارضة فى مواضع كثيرة وبيان للمعنى العربى والاعرابى واللغوى مع حرص على ايراد صفوة الصفوة مما ثبت من التفسير النبوى ومن عظماء الصحابة وعلماء التابعين ومن دونهم من سلف الامة وأئمتها المعتبرين كابن عباس حبر هذه الامة ومن بعده من الائمة مثل مجاهد وعكرمة وعطاء والحسن وقتادة وأبى العالية والقرظى والكلبى والضحاك ومقاتل والسدى وغيرهم من علماء اللغة والنحو كالفراء والزجاج وسيبويه والمبرد والخليل والنحاس ولكن الثابت الصحيح من التفسير المرفوع الى النبى صلى الله عليه وآله وسلم وان كان المصير اليه متعينا وتقديمه متحتما هو تفسير آيات قليلة بالنسبة الى جميع القرآن والثابت من التفسير عن الصحابة ومن تبعهم بالاحسان ان كان من اللفظ الذى قد نقله الشرع الى معنى مغاير للمعنى اللغوى فهو مقدم على غيره وان كان من الالفاظ التى لم ينقلها الشرع فهو كواحد من أهل اللغة الموثوق بعربيتهم فاذا خالف ذلك المشهور المستفيض لم تقم الحجة علينا بتفسيره الذى قاله على مقتضى لغة العرب العرباء فبالاولى تفاسير من بعدهم من تابعيهم وسائر الائمة وأيضا كثيرا ما يقتصر الصحابى ومن بعده من السلف على وجه واحد مما يقتضيه النظم القرآنى باعتبار المعنى اللغوى ومعلوم ان ذلك لا يستلزم اهمال سائر المعانى التى تفيدها اللغة العربية ولا اهمال ما يستفاد من العلوم التى تتبين بها دقائق العربية وأسرارها كعلم المعانى والبيان فان التفسير بذلك هو تفسير باللغة لا تفسير بمحض الرأى المنهى عنه وقد قال سفيان ليس فى تفسير القرآن اختلاف انما هو كلام جامع يراد منه هذا وهذا وقال أبو الدرداء لا تفقه كل الفقه حتى ترى للقرآن وجوها وأخرج ابن سعد أن عليا قال لابن عباس اذهب اليهم يعنى الخوارج ولا تخاصمهم بالقرآن فانه ذو وجوه ولكن خاصمهم بالسنة وأيضا لا يتيسر فى كل تركيب من التراكيب القرآنية تفسير ثابت عن السلف بل قد يخلو عن ذلك كثير من القرآن ولا اعتبار بما لا يصح كالتفسير المنقول باسناد

فقلبت الفا كراهية للتشديد فصارت آية وجمعها آى وآياى وآيات وأما الكلمة فهى اللفظة الواحدة وقد تكون على حرفين مثل ما ولا وله ونحو ذلك وقد تكون أكثر وأكثر ما تكون عشرة أحرف مثل ليستخلفنهم وانلزمكموها فاسقيناكموه وقد تكون الكلمة الواحدة آية مثل والفجر والضحى والعصر وكذلك الم وطه ويس وحم فى قول الكوفيين وحم عسق عندهم كلمتان وغيرهم لا يسمى هذه آيات بل يقول هذه فواتح السور وقال أبو عمرو الدانى لا أعلم كلمة هى وحدها آية الا قوله تعالى مدهامتان بسورة الرحمن *(فصل)* قال القرطبى اجمعوا على انه ليس فى القرآن شئ من التراكيب الاعجمية واجمعوا أن فيه اعلاما من الاعجمية كابراهيم ونوح ولوط واختلفوا هل فيه شئ من غير ذلك بالاعجمية فأنكر ذلك الباقلانى والطبرى وقالا ما وقع فيه ما يوافق الاعجمية فهو من باب ما توافقت فيه اللغات

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(سورة الفاتحة) يقال لها الفاتحة أى فاتحة الكتاب خطا وبها تفتتح القراءة فى الصلوات ويقال لها أيضا أم الكتاب عند الجمهور وكره أنس والحسن وابن سيرين كرها تسميتها بذلك قال الحسن وابن سيرين انما ذلك اللوح المحفوظ وقال الحسن الآيات المحكمات هن أم الكتاب ولذا كرها أيضا أن يقال لها أم القرآن وقد ثبت فى الصحيح عند الترمذى وصححه عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الحمد لله رب العالمين أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثانى والقرآن العظيم ويقال لها الحمد ويقال لها الصلاة لقوله صلى الله عليه وسلم عن ربه قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين فاذا قال العبد الحمد لله رب العالمين قال الله حمدنى عبدى الحديث فسميت الفاتحة صلاة لانها شرط فيها ويقال لها الشفاء لما رواه الدارمى عن أبى سعيد مرفوعا فاتحة الكتاب شفاء من كل سم ويقال لها الرقية لحديث أبى سعيد فى الصحيح حين رقى بها الرجل السليم فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يدريك انها رقية وروى الشعبى عن ابن عباس أنه سماها اساس القرآن قال واساسها بسم الله الرحمن الرحيم وسماها سفيان بن عيينة بالواقية وسماها يحيى بن أبى كثير الكافية لانها تكفى عما عداها ولا يكفى ما سواها عنها كما جاء فى بعض الاحاديث المرسلة أم القرآن عوض من غيرها وليس غيرها عوضا منها ويقال لها سورة الصلاة والكنز ذكرهما

ضعيف ولا بتفسير من ليس بثقة منهم وان صح اسناده اليه وبهذا تعرف انه لا بد من الجمع بين الامرين والتحلى بالوصفين وعدم الاقتصار على مسلك أحد الفريقين وهذا هو المقصد الذى أردته والمسلك الذى قصدته وأذكر الحديث معزوا الى راويه من غير بيان حال الاسناد لانى آخذه من الاصول التى نقلت عنها كذلك كما يقع فى تفسير ابن جرير والقرطبى وابن كثير والسيوطى ويبعد كل البعد أن يعلموا فى الحديث ضعفا ولا يبينوه ولا ينبغى ان يقال فيما أطلقوه انهم قد علموا ثبوته فان من الجائز أن ينقلوه من دون كشف عن حال الاسناد بل هذا هو الذى يغلب به الظن لانهم لو كشفوا عنه فثبتت عندهم صحته لم يتركوا بيان ذلك كما يقع منهم كثيرا التصريح بالصحة والحسن فمن وجد الاصول التى يروون عنها ويعزون ما فى تفاسيرهم اليها فلينظر فى أسانيدها موفقا ان شاء الله تعالى، واعلم ان تفسير السيوطى المسمى بالدر المنثور قد اشتمل على غالب ما فى تفسيرات السلف من التفاسير المرفوعة الى النبى صلى الله عليه وآله وسلم وتفاسير الصحابة ومن بعدهم وما فاته الا القليل النادر وقد اشتمل هذا التفسير منى على جميع ما تدعو اليه الحاجة مما يتعلق بالتفسير مع اختصار لما تكرر لفظا واتحد معنى بقولى ومثله أو ونحوه وضممت الى ذلك فوائد لم يشتمل عليها زبر أهل الرواية ووجدتها فى غيرها من تفاسير علماء الدراية وعوائد لاحت لى من تصحيح أو تحسين أو تضعيف أو تعقب أو جمع أو ترجيح مع تحرير للمقاصد بحسب ما يراد ولا يذاد وتقرير للمعاقد بحيث لا يضاد ولا يصاد ولم آل جهدا فى حسن تحريره وتهذيبه وسعيا فى لطافة مزجه بالمفسر وترتيبه بالفاظ تنفتح لها الآذان وتنشرح بها الصدور ومعان تمتلئ بها وجوه الاوراق وتبتسم ثغور السطور رغبة الى الدخول من أبوابه والكون من أحزابه ونشاطا الى القعود فى محرابه وبذلا للقوة فى ايراد مباحث قلت عناية المتأخرين بها من المفسرين وقد بالغ فى الاعتناء بها المحققون من المتقدمين لاسيما السمعيات التى هى المطلب الاعلى والمقصد الاقصى فى أصول الدين والعروة الوثقى والعمدة القصوى لاهل الحق واليقين مع تنقيح للكلام وتوضيح للمرام يهتز له علماء البلاد فى كل ناد ولا يغض منه الا كل هائم فى واد من يهد الله فهو المهتدى ومن يضلله فماله من هاد ووطنت النفس على سلوك طريقة هى بالقبول عند الفحول حقيقة مقتصرا فيه على أرجح الاقوال واعراب ما يحتاج اليه عند السؤال وترك التطويل

بذكر أقوال غير مرضية وقصص لاتصح وأعاريب محلها كتب العربية وحيث ذكرت فيه شيأ من القراآت فهو من السبع المشهورات الا ماشاء الله وقد أذكر بعض أقوال وأعاريب لقوة مداركها أو لورودها واذا قرع سمعك مالم تسمع به من المحصلين فلا تسرع وقف وقفة المتأملين لعلك تطلع بوميض برق الهي وتألق نور رباني من شاطئ الوادي الايمن في البقعة المباركة على برهان له جلي أو بيان من سلف صالح واضح وضي وقد تلقيت هذا التفسير بحمد الله من تفاسير متعددة عن أئمة ظهرت وبهرت مفاخرهم وانتشرت واشتهرت مآثرهم جمعني الله واياهم وجميع المسلمين ومن أخلفهم في مستقر رحمته من فراديس جنته فهذا التفسير وان كبر حجمه فقد كثر علمه وتوفر من التحقيق قسمه وأصاب غرض الحق سهمه مفيد لمن أقبل على تحصيله مفيض على من تمسك بذيل اجماله وتفصيله وقد اشتمل على جميع مافي كتب التفاسير من بدائع الفوائد مع زوائد فرائد وقواعد شوارد من صحيح الدراية وصريح الرواية فان أحببت ان تعتبر صحة هذا فهذه كتب التفسير على ظهر البسيطة انظر تفاسير المعتمدين على الرواية ثم ارجع الى تفاسير المعتمدين على الدراية ثم انظر في هذا التفسير بعد النظرين فعند ذلك يسفر الصبح لذي عينين ويتبين لك أن هذا الكتاب هو لب اللباب وعجب العجاب وذخيرة الطلاب ونهاية مآرب أرباب الالباب وأسوة المتبعين وقدوة الناسكين وهدى للمتقين وقد جاء بحمد الله كنزا مدفونا من جواهر الفوائد وبحرا مشحونا بنفائس الفرائد في لطائف طالما كانت مخزونة وعن الاضاعة مصونة بتقارير ترتاح لها نفوس المحصلين الكاملين وتنزاح منها شبه المبطلين وتحريف الغالين وتأويل الجاهلين وتضحى أنوارها في قلوب السعداء وتطلع نيرانها على أفئدة الاعداء لايعقل بيناتها الا العالمون ولايجحد بآياتها الا القوم الظالمون *(وسميته فتح البيان في مقاصد القرآن)* وهو اسم له تاريخي مستمدا من الله سبحانه بلوغ الغاية والوصول بعد هذه البداية الى النهاية راجيا منه جل جلاله ان يديم به الانتفاع ويجعله من الذخائر التي ليس لها انقطاع ولاحول ولاقوة الا بالله العلي العظيم * اعلم ان الاحاديث في فضائل القرآن كثيرة جدا ولايتم لصاحب القرآن مايطلبه من الاجر الموعود به في الاحاديث الصحيحة حتى يفهم معانيه فان ذلك هو الثمرة من قراءته قال القرطبي ينبغي له ان يتعلم أحكام القرآن فيفهم عن الله مراده ومافرض عليه فينتفع

الزمخشري في كشافه وهي مكية قاله ابن عباس وقتادة وأبو العالية وقيل مدنية قاله أبو هريرة ومجاهد وعطاء بن يسار والزهري ويقال نزلت مرتين مرة بمكة ومرة بالمدينة والاول أشبه لقوله تعالى ولقد آتيناك سبعا من المثاني والله أعلم وحكى أبو الليث السمرقندي ان نصفها نزل بمكة ونصفها الآخر نزل بالمدينة وهو غريب جدا نقله القرطبي عنه وهي سبع آيات بلا خلاف وقال عمرو بن عبيد ثمان وقال حسين الجعفي ستة وهذان القولان شاذان وانما اختلفوا في البسملة هل هي آية مستقلة من أولها كما هو عند جمهور قراء الكوفة وقول جماعة من الصحابة والتابعين وخلق من الخلف أو بعض آية أو لاتعد من أولها بالكلية كما هو قول اهل المدينة من القراء والفقهاء على ثلاثة أقوال كما سيأتي تقريرها في موضعه ان شاء الله تعالى وبه الثقة قالوا وكلماتها خمس وعشرون كلمة وحروفها مائة وثلاثة عشر حرفا قال البخاري في أول كتاب التفسير وسميت أم الكتاب لانه يبدأ بكتابتها في المصاحف ويبدأ بقراءتها في الصلاة وقيل انما سميت بذلك لرجوع معاني القرآن كله الى ماتضمنته قال ابن جرير والعرب تسمي كل جامع أمر أو مقدم لامر اذا كانت له توابع تتبعه هو لها امام جامع أمّا فتقول للجلدة التي تجمع الدماغ أم الرأس ويسمون لواء الجيش ورايتهم التي يجتمعون تحتها أمّا واستشهد بقول ذي الرمة

على رأسه أم لنا نقتدي بها
جماع أمور ليس نعصي لها أمرا

يعني الرمح قال وسميت مكة أم القرى لتقدمها امام جميعها وجمعها ماسواها وقيل لان الارض دحيت منها ويقال لها أيضا الفاتحة لانها تفتتح بها القراءة وافتتحت الصحابة بها كتابة المصحف الامام وصح تسميتها بالسبع المثاني قالوا لانها تثنى في الصلاة فتقرأ في كل ركعة وان كان للمثاني معنى آخر غير هذا بما كما سيأتي بيانه في موضعه ان شاء الله تعالى قال الامام أحمد حدثنا يزيد بن هرون انبأنا ابن أبي ذئب وهاشم بن هاشم عن ابن أبي ذئب عن المقبري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال في أم القرآن هي أم القرآن وهي السبع المثاني وهي القرآن العظيم ثم رواه عن اسمعيل بن عمر عن ابن أبي ذئب به وقال أبو جعفر محمد بن جرير الطبري حدثني يونس بن عبد الاعلى أنبأنا ابن وهب أخبرني ابن أبي ذئب عن سعيد المقبري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال هي أم القرآن وهي

فاتحة الكتاب وهى السبع المثانى وقال الحافظ ابو بكر أحمد بن موسى بن مردويه فى تفسيره حدثنا أحمد بن محمد بن زياد حدثنا محمد بن غالب بن حارث حدثنا اسحق بن عبد الواحد الموصلى حدثنا المعافى بن عمران عن عبد الحميد بن جعفر عن نوح بن أبى بلال عن المقبرى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الحمد لله رب العالمين سبع آيات بسم الله الرحمن الرحيم احداهن وهى السبع المثانى والقرآن العظيم وهى أم الكتاب وفاتحة الكتاب وقد رواه الدارقطنى أيضا عن أبى هريرة مرفوعا بنحوه أو مثله وقال كلهم ثقات وروى البيهقى عن على وابن عباس وأبى

هريرة انهم فسروا قوله سبعا من المثانى بالفاتحة وان البسملة هى الآية السابعة منها وسيأتى تمام هذا عند البسملة وقد روى الاعمش عن ابراهيم قال قيل لابن مسعود لم لم تكتب الفاتحة فى مصحفك فقال لو كتبتها لكتبتها فى أول كل سورة قال أبو بكر بن أبى دواد يعنى حيث يقرأ فى الصلاة قال واكتفيت بحفظ المسلمين لها عن كتابتها وقد قيل ان الفاتحة أول شئ أنزل من القرآن كما ورد فى حديث رواه البيهقى فى دلائل النبوة ونقله الباقلانى أحد أقوال ثلاثة وقيل يا أيها المدثر كما فى حديث جابر فى الصحيح وقيل اقرأ باسم ربك الذى خلق وهذا هو الصحيح كما سيأتى تقريره فى موضعه وبالله المستعان (ذكر ما ورد فى فضل الفاتحة) قال الامام أحمد بن محمد بن حنبل رحمه الله تعالى فى مسنده حدثنا يحيى بن سعيد عن شعبة حدثنى خبيب بن عبد الرحمن عن حفص بن عاصم عن أبى سعيد بن المعلى رضى الله عنه قال كنت أصلى فدعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم أجبه حتى صليت قال فأتيته فقال ما منعك ان تأتينى قال قلت يا رسول الله انى كنت أصلى قال ألم يقل الله تعالى يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم ثم قال لأعلمنك أعظم سورة فى القرآن قبل ان تخرج من المسجد قال فأخذ بيدى فلما اراد أن يخرج من المسجد قلت يا رسول الله انك قلت لأعلمنك أعظم سورة فى القرآن قال نعم الحمد لله رب العالمين هى السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أوتيته وهكذا رواه البخارى عن مسدد وعلى بن المدينى كلاهما عن يحيى بن سعيد القطان به ورواه فى موضع آخر من التفسير وابو داود والنسائى وابن ماجه من طرق عن شعبة به ورواه الواقدى عن محمد بن معاذ الانصارى عن خبيب بن عبد الرحمن

بما يقرأ ويعمل بما يتلو فما أقبح بحامل القرآن ان يتلو فرائضه وأحكامه عن ظهر قلب وهو لا يفهم معنى ما يتلوه فكيف يعمل بما لا يفهم معناه وما أقبح به أن يسأل عن فقه ما يتلوه ولا يدريه فما مثل من هذه حالته الا كمثل الحمار يحمل أسفارا وينبغى له ان يعرف المكى من المدنى ليفرق بين ما خاطب الله به عباده فى أول الاسلام وما ندبهم اليه فى آخره وما فرض فى أول الاسلام وما زاد عليهم من الفرائض فى آخره فالمدنى هو الناسخ للمكى فى أكثر القرآن انتهى وقد جمعت فى بيان ناسخ القرآن والحديث ومنسوخهما مؤلفا سميته افادة الشيوخ بمقدار الناسخ والمنسوخ وهو بالفارسية وأجاب الشوكانى رحمه الله تعالى عمن سأله عن العوام والنساء الذين يقرؤن القرآن من غير معرفة حلاله وحرامه ومعانيه هل لهم الاجر الوارد من غير نقص أم لا فقال الاجر على تلاوة القرآن ثابت لكنه اذا كان بتدبر معانيه فأجره مضاعف وأما أصل الثواب بمجرد التلاوة فلا شك فى حصوله والله سبحانه لا يضيع عمل عامل منهم انتهى فيمكن حمل ما ذكرهنا أولا على مضاعفة الاجر الموعود به لا لمجرد الاثابة على نفس التلاوة وأما ما جاء عن الصحابة والتابعين فى فضل التفسير فعن على انه ذكر جابر بن عبد الله ووصفه بالعلم وقال انه كان يعرف تفسير قوله تعالى ان الذى فرض عليك القرآن لرادك الى معاد وقال مجاهد أحب الخلق الى الله أعلمهم بما أنزل الله وقال الشعبى رحل مسروق فى تفسير آية الى البصرة فقيل له ان الذى يفسرها رحل الى الشام فتجهز ورحل الى الشام حتى علم تفسيرها وقال عكرمة فى قوله سبحانه ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله طلبت اسم هذا الرجل أربع عشرة سنة حتى وجدته قال ابن عبد البر هو ضمرة بن حبيب وقال ابن عباس مكثت سنتين أريد أن أسأل عمر عن المرأتين اللتين تظاهرتا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما يمنعنى الا مهابته فسألته فقال هى حفصة وعائشة وقال اياس بن معاوية مثل الذين يقرؤن القرآن وهم لا يعلمون تفسيره كمثل قوم جاءهم كتاب من عند مليكهم ليلا وليس عندهم مصباح فتداخلتهم روعة ولا يدرون ما فى الكتاب ومثل الذى يعرف التفسير كمثل رجل جاءهم بمصباح فقرؤا ما فى الكتاب وللسلف رحمهم الله من هذا الجنس ما لا يأتى عليه الحصر وعن عثمان قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خيركم من تعلم القرآن وعلمه رواه البخارى وعن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة والذى يقرأ القرآن ويتعتع

عن حفص بن عاصم عن أبي سعيد بن المعلى عن أبي بن كعب فذكر نحوه وقد وقع في الموطأ للامام مالك بن أنس رحمه الله ما ينبغي التنبيه عليه فانه رواه مالك عن العلاء بن عبد الرحمن بن يعقوب الحرقي ان أبا سعيد مولى ابن عامر بن كريز أخبرهم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم نادى أبي بن كعب وهو يصلي في المسجد فلما فرغ من صلاته لحقه قال فوضع النبي صلى الله عليه وسلم يده على يدي وهو يريد أن يخرج من باب المسجد ثم قال صلى الله عليه وسلم اني لأرجو أن لا تخرج من باب المسجد حتى تعلم سورة ما أنزل في التوراة ولا في الانجيل (١٦) ولا في القرآن مثلها قال أبي رضي الله عنه فجعلت أبطئ في المشي رجاء ذلك ثم قلت يارسول الله ما السورة التي وعدتني قال كيف تقرأ اذا افتتحت الصلاة قال فقرأت عليه الحمد لله رب العالمين حتى أتيت على آخرها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هي هذه السورة وهي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أعطيت فأبو سعيد هذا ليس بأبي سعيد بن المعلى كما اعتقده ابن الأثير في جامع الاصول ومن تبعه فان ابن المعلى صحابي أنصاري وهذا تابعي من موالي خزاعة وذاك الحديث متصل صحيح وهذا ظاهره انه منقطع ان لم يكن سمعه أبو سعيد هذا من أبي بن كعب فان كان قد سمعه منه فهو على شرط مسلم والله أعلم على انه قد روى عن أبي بن كعب من غير وجه كما قال الامام احمد حدثنا عفان حدثنا عبد الرحمن بن ابراهيم حدثنا العلاء ابن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبي بن كعب وهو يصلي فقال يا أبي فالتفت ثم لم يجبه ثم قال أبي تخفف أبي ثم انصرف الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال السلام عليك أي رسول الله قال وعليك السلام ما منعك أي أبي اذ دعوتك أن تجيبني قال أي رسول الله اني كنت في الصلاة قال أولست تجد فيما أوحى الله الي استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم قال بلى يارسول الله لا أعود قال اتحب ان أعلمك سورة لم تنزل في التوراة ولا في الانجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها قلت نعم أي رسول الله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اني لأرجو ان لا أخرج من هذا الباب حتى تعلمها قال فاخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي يحدثني وأنا أتباطأ مخافة ان يبلغ قبل ان يقضي الحديث فلما دنونا من الباب قلت أي رسول الله ما السورة التي وعدتني قال ما تقرأ في الصلاة قال

فيه وهو عليه شاق له أجران متفق عليه وعن عمر بن الخطاب قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان الله يرفع بهذا الكتاب أقواما ويضع به آخرين رواه مسلم وعن أبي أمامة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول اقرؤا القرآن فانه يأتي يوم القيامة شفيعا لاصحابه رواه مسلم وعن عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقال لصاحب القرآن اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فان منزلك عند آخر آية تقرؤها رواه أحمد والترمذي وأبو داود والنسائي وأخرج الدارمي والترمذي عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب قال الترمذي هذا حديث صحيح وعن أبي سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول الرب تبارك وتعالى من شغله القرآن عن ذكري ومسئلتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه رواه الترمذي والدارمي والبيهقي في شعب الايمان وقال الترمذي هذا حديث حسن غريب وعن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول الم حرف ألف حرف ولام حرف وميم حرف رواه الترمذي وصححه والدارمي وعن عقبة بن عامر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول لو جعل القرآن في اهاب ثم ألقي في النار ما احترق رواه الدارمي وعن علي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ القرآن فاستظهره فأحل حلاله وحرم حرامه أدخله الله الجنة وشفعه في عشرة من أهل بيته كلهم قد وجبت لهم النار رواه أحمد والترمذي واستغربه وابن ماجه والدارمي وفيه حفص بن سليمان يضعف في الحديث وعن أبي موسى الاشعري قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تعاهدوا القرآن فوالذي نفسي بيده لهو أشد تفصيا من الابل في عقلها متفق عليه وقد وردت أحاديث كثيرة في الاعتصام بالكتاب والسنة * وأما أحاديث فضائل القرآن سورة سورة فلا خلاف بين من يعرف الحديث انها موضوعة مكذوبة وقد أقر به واضعها أخزاه الله بانه الواضع لها وليس بعد الاقرار شيء ولا اغترار بمثل ذكر الزمخشري لها في آخر كل سورة فانه وان كان امام اللغة والآلات على اختلاف أنواعها فلا يفرق في الحديث بين أصح الصحيح وأكذب الكذب ولا يقدح ذلك في علمه الذي بلغ فيه غاية التحقيق ولكل علم رجال وقد وزع الله سبحانه

فقرأت عليه أم القرآن قال والذي نفسي بيده ما أنزل في التوراة ولا في الانجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها انها السبع المثاني ورواه الترمذي عن قتيبة عن الدراوردي عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه فذكره وعنده انها من السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أعطيته ثم قال هذا حديث حسن صحيح وفي الباب عن أنس بن مالك ورواه عبد الله بن الامام أحمد عن اسمعيل بن أبي معمر عن أبي أسامة عن عبد الحميد بن جعفر عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة عن أبي بن كعب فذكره مطولا بنحوه أو قريبا منه وقد رواه الترمذي والنسائي جميعا عن أبي عمار (١٧) حسين بن حريث عن الفضل بن موسى عن عبد الحميد بن جعفر عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة عن أبي بن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أنزل الله في التوراة ولا في الانجيل مثل أم القرآن وهي السبع المثاني وهي مقسومة بيني وبين عبدي نصفين هذا لفظ النسائي وقال الترمذي حديث حسن غريب وقال الامام أحمد حدثنا محمد بن عبيد حدثنا هاشم يعني ابن البريد حدثنا عبد الله بن محمد بن عقيل عن جابر قال انتهيت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أهراق الماء فقلت السلام عليك يا رسول الله فلم يرد علي قال فقلت السلام عليك يا رسول الله فلم يرد علي قال فقلت السلام عليك يا رسول الله فلم يرد علي قال فانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشي وأنا خلفه حتى دخل رحله ودخلت أنا المسجد فجلست كئيبا حزينا فخرج علي رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد تطهر فقال عليك السلام ورحمة الله وبركاته وعليك السلام ورحمة الله وبركاته وعليك السلام ورحمة الله ثم قال ألا أخبرك يا عبد الله بن جابر بأخير سورة في القرآن قلت بلى يا رسول الله قال اقرأ الحمد لله رب العالمين حتى تختمها هذا اسناد جيد وابن عقيل هذا يحتج به الائمة الكبار وعبد الله بن جابر هذا الصحابي ذكر ابن الجوزي انه هو العبدي والله أعلم ويقال انه عبد الله بن جابر الانصاري البياضي فيما ذكره الحافظ بن عساكر واستدلوا بهذا الحديث وأمثاله على تفاضل بعض الآيات والسور على بعض كما هو المحكي عن كثير من العلماء منهم اسحق بن راهويه وأبو بكر بن العربي وابن الحصار من المالكية وذهبت طائفة أخرى الى انه لا تفاضل في ذلك لان الجميع كلام الله ولئلا يوهم التفضيل نقص المفضل

الفضائل بن عباده والزمخشري نقل هذه الاحاديث عن تفسير الثعلبي وهو مثله في عدم المعرفة بعلم السنة وقد أخطأ من قال انه يجوز التساهل في الاحاديث الواردة في فضائل الاعمال وذلك لان الاحكام الشرعية متساوية الاقدام لا فرق بين واجبها ومحرمها ومسنونها ومكروهها ومندوبها فلا يحل اثبات شئ منها الا بما تقوم به الحجة والا فهو من التقول على الله بما لم يقل ومن التجري على الشريعة المطهرة بادخال ما لم يكن منها فيها وقد صح تواترا ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار فهذا الكذاب الذي كذب على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم محتسبا للناس بحصول الثواب لم يربح الا كونه من أهل النار وأما الذي يقرأ القرآن ولا يعرف معناه كالعوام فالاجر على تلاوة القرآن ثابت لكنه اذا كان يتدبر معانيه ويمكنه فهمها فاجره مضاعف وأما أصل الثواب بمجرد التلاوة فلا شك فيه والله سبحانه لا يضيع عمل عامل وتلاوة القرآن كتابه سبحانه من أشرف الاعمال لفاهم ولغير فاهم واذا أضاع أحد ما اشتمل عليه القرآن من الاحكام أثم من جهة الاضاعة لا من جهة التلاوة والله أعلم * عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نزل القرآن على خمسة أوجه حلال وحرام ومحكم ومتشابه وأمثال فأحلوا الحلال وحرموا الحرام واعملوا بالمحكم وآمنوا بالمتشابه واعتبروا بالامثال أخرجه البغوي وعن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار رواه الترمذي وعن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المراء في القرآن كفر وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال سمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم قوما يتدارؤن في القرآن فقال انما هلك من كان قبلكم بهذا ضربوا كتاب الله بعضه ببعض وانما نزل كتاب الله يصدق بعضه بعضا فلا تكذبوا بعضه ببعض فما علمتم منه فقولوا وما جهلتم فكلوه الى عالمه رواه أحمد وابن ماجه قال البغوي في تفسيره قد جاء الوعيد في حق من قال في القرآن برأيه وذلك فيمن قال من قبل نفسه شيئا من غير علم فاما التأويل وهو صرف الآية الى معنى يحتمل موافق لما قبلها وما بعدها غير مخالف للكتاب والسنة من طريق الاستنباط فقد رخص فيه لاهل العلم أما التفسير وهو الكلام في أسباب نزول الآية وشأنها وقصتها فلا يجوز الا بالسماع بعد ثبوته من طريق النقل * وأصل التفسير من التفسرة وهو الدليل الذي ينظر فيه الطبيب فيكشف

عليه وان كان الجميع فاضلا نقله القرطبي عن الاشعري وأبي بكر الباقلاني وأبي حاتم ابن حبان البستي وأبي حيان ويحيى بن يحيى ورواية عن الامام مالك أيضا حديث آخر قال البخاري في فضائل القرآن حدثنا محمد بن المثنى حدثنا وهب حدثنا هشام عن محمد بن معبد عن أبي سعيد الخدري قال كنا في مسير لنا فنزلنا فجاءت جارية فقالت ان سيد الحي سليم وان نفرنا غيب فهل منكم راق فقام معها رجل ما كنا نأبنه برقية فرقاه فبرأ فأمر له بثلاثين شاة وسقانا لبنا فلما رجع قلنا له أكنت تحسن رقية أو كنت ترقي قال لا ما رقيت الا بأم الكتاب قلنا لا تحدثوا شيأ (١٨) حتى نأتي أو نسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما قدمنا المدينة ذكرناه للنبي صلى الله عليه وسلم فقال وما كان يدريه انها رقية اقسموا واضربوا لي بسهم وقال أبو معمر حدثنا عبد الوارث حدثنا هشام حدثنا محمد بن سيرين حدثني معبد بن سيرين عن أبي سعيد الخدري بهذا وهكذا رواه مسلم وأبو داود من رواية هشام وهو ابن حسان عن ابن سيرين به وفي بعض روايات مسلم لهذا الحديث ان أبا سعيد الخدري هو الذي رقى ذلك السليم يعني اللديغ يسمونه بذلك تفاؤلا * حديث آخر روى مسلم في صحيحه والنسائي في سننه من حديث أبي الاحوص سلام بن سليم عن عمار بن زريق عن عبد الله بن عيسى بن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده جبرائيل اذ سمع نقيضا فوقه فرفع جبريل بصره الى السماء فقال هذا باب قد فتح من السماء ما فتح قط قال فنزل منه ملك فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال أبشر بنورين قد أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لم تقرأ حرفا منهما الا أوتيته وهذا لفظ النسائي * ولمسلم نحوه حديث آخر قال مسلم حدثنا اسحق بن ابراهيم الحنظلي هو ابن راهويه حدثنا سفيان ابن عيينة عن العلاء يعني ابن عبد الرحمن بن يعقوب الحرقي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج ثلاثا غير تمام فقيل لأبي هريرة انا نكون خلف الامام فقال اقرأ بها في نفسك فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قال الله عز وجل قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل فاذا قال الحمد لله رب العالمين قال الله حمدني عبدي واذا قال الرحمن الرحيم قال الله أثنى علي عبدي فاذا قال مالك يوم الدين قال الله مجدني عبدي وقال

عن علة المريض كذلك المفسر يكشف عن شأن الآية وقصصها واشتقاق التأويل من الأول وهو الرجوع يقال أولته فآل أي صرفته فانصرف انتهى والفرق بينهما ان التفسير موقوف على النقل المسموع والتأويل موقوف على الفهم الصحيح وفي الحديث أنزل القرآن على سبعة أحرف واختلفوا في المراد بها على أقوال ذكرتها في الاكسير والسور باعتبار الناسخ والمنسوخ على أقسام ذكر سليمان الجمل بعض ذلك في حاشيته على الجلالين وقد أوضحت المرام في افادة الشيوخ بما لا مزيد عليه وتفصيل حروف القرآن ذكرها النسفي في كتابه مجمع العلوم ومطلع النجوم وليست هذه من التفسير في شئ وأما علوم القرآن فقد استوعبها السيوطي في الاتقان على وجه البسط والايقان ولا دخل لكلها في فن التفسير وعقد النظام النيسابوري في تفسيره مقدمات أكثرها بمعزل عن علم التفسير ولهذا لم نتكلم عليها في تفسيرنا هذا الا في الشئ اليسير وها أنا أشرع الآن بحمد الله في تحرير ما هو بصائر أولي النهى والتمييز في تفسير الكتاب العزيز وبحسن توفيقه أقول وهو الموفق لكل خير والمعطي كل سؤل

* (سورة الفاتحة) *

أي فاتحة الكتاب معناها أول ما من شأنه أن يفتتح به الكتاب ثم أطلقت على أول كل شئ كالكلام والتاء للنقل من الوصفية الى الاسمية أو هي مصدر بمعنى الفتح أطلقت عليه تسمية للمفعول باسم المصدر واشعارا بأصالته كأنه نفس الفتح والاضافة بمعنى اللام كما في جزء الشئ لا بمعنى من كما في خاتم فضة لما عرفت ان المضاف جزء من المضاف اليه لا جزئي له وسميت بذلك لان القرآن افتتح بها اذ هي أول ما يكتبه الكاتب من المصحف وأول ما يتلوه التالي من الكتاب العزيز وان لم تكن أول ما نزل من القرآن وقد اشتهرت بهذا الاسم في أيام النبوة قيل انها مكية وهو قول أكثر العلماء وقيل مدنية وهو قول مجاهد وقيل انها نزلت مرتين مرة بمكة حين فرضت الصلوات الخمس ومرة بالمدينة حين حولت القبلة جمعا بين الروايات والاول أصح قاله البغوي ورجحه البيضاوي وأسماء السور توقيفية وكذا ترتيب السور والآيات أي تتوقف على نقلها عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقيل غير ذلك وانما هذا على الراجح والسورة طائفة من القرآن لها اول وآخر وترجمة باسم خاص بها بتوقيف والسورة قد يكون لها اسم واحد وقد يكون لها اسمان أو أكثر وأسماء السور في المصاحف لم يثبتها الصحابة في

مصاحفهم

مرة فوض الى عبدي فاذا قال اياك نعبد واياك نستعين قال هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل فاذا قال اهدنا الصراط
المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين قال الله هذا لعبدي ولعبدي ما سأل وهكذا رواه النسائي
عن اسحق بن راهويه وقد روياه أيضا عن قتيبة عن مالك عن العلاء عن أبي السائب مولى هشام بن زهرة عن أبي هريرة وفي هذا
السياق فنصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل وهكذا رواه ابن اسحق عن العلاء وقد رواه مسلم من حديث ابن جريج عن
العلاء عن أبي السائب هكذا ورواه أيضا من حديث ابن أبي أويس عن العلاء (١٩) عن أبيه وأبي السائب كلاهما عن أبي هريرة

مصاحفهم وانما هو شيء ابتدعه الحجاج كما ابتدع اثبات الاعشار والاسباع وسميت هذه
أم القرآن لكونها أصلا ومنشأ له اما لمبدئيتها له واما لاشتمالها على ما فيه من الثناء على الله
عز وجل والتعبد بأمره ونهيه وبيان وعده ووعيده أو على جملة معانيه من الحكم النظرية
والاحكام العملية التي هي سلوك الصراط المستقيم والاطلاع على معارج السعداء ومنازل
الاشقياء والمراد بالقرآن هو المراد بالكتاب وسميت أيضا أم الكتاب لانه يبدأ بقراءتها في
الصلاة قاله البخاري في الصحيح وقال أبو السعود ومناط التسمية ما ذكر في أم القرآن لا ما
أورده البخاري فانه مما لا تعلق له بالتسمية كما أشير اليه قال ابن كثير وصح تسميتها بالسبع
المثاني لانها سبع آيات وتثنى في الصلاة فتقرأ في كل ركعة أو لتكرر نزولها وأخرج أحمد عن
أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم هي أم القرآن وهي السبع المثاني وهي القرآن
العظيم وأخرج ابن جرير عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال هي أم القرآن وهي
فاتحة الكتاب وهي السبع المثاني وأخرج نحوه ابن مردويه والدارقطني من حديثه وقال
كلهم ثقات ومن أسمائها كما حكاه في الكشاف سورة الكنز والوافية وسورة الحمد وسورة
الصلاة وتسمى الكافية لانها تكفي عن سواها في الصلاة ولا يكفي سواها عنها وسورة
الشفاء والشافية لقوله صلى الله عليه وآله وسلم هي الشفاء من كل داء وأخرج الثعلبي
عن الشعبي ان رجلا اشتكى اليه وجع الخاصرة فقال عليك بأساس القرآن وأخرج
البيهقي في الشعب عن أنس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال ان الله أعطاني فيما من به
علي فاتحة الكتاب وقال هي كنز من كنوز عرشي وأخرج اسحق بن راهويه في مسنده عن
علي نحوه مرفوعا وذكر القرطبي للفاتحة اثني عشر اسما وقد ذكر السيوطي في الاتقان خمسة
وعشرين اسما للفاتحة وهي سبع آيات بلا خلاف كما حكاه ابن كثير في تفسيره قال القرطبي
أجمعت الامة على انها سبع آيات الا ما روي عن حسين الجعفي انها ست وهو شاذ وعن عمرو
ابن عبيد انه جعل اياك نعبد آية فهي عنده ثمان وهو شاذ انتهى وانما اختلفوا في البسملة
كما سيأتي وقد أخرج عبد بن حميد ومحمد بن نصر في كتاب الصلاة وابن الانباري
في المصاحف عن محمد بن سيرين ان أبي بن كعب وعثمان بن عفان كانا يكتبان فاتحة
الكتاب والمعوذتين ولم يكتب ابن مسعود شيأ منهن وقد خالف في ذلك اجماع الصحابة
وسائر أهل البيت ومن بعدهم وأخرج ابن حميد عن ابراهيم قال كان عبد الله بن مسعود

وقال الترمذي هذا حديث حسن
وسألت أبا زرعة عنه فقال كلا
الحديثين صحيح من قال عن العلاء
عن أبيه وعن العلاء عن أبي
السائب وقد روى هذا الحديث
عبد الله بن الامام أحمد من حديث
العلاء عن أبيه عن أبي هريرة عن
أبي بن كعب مطولا وقال ابن جرير
حدثنا صالح بن مسمار المروزي حدثنا
زيد بن الحباب حدثنا عنبسة بن سعيد
عن مطرف بن طريف عن سعيد
ابن اسحق عن كعب بن عجرة عن
جابر بن عبد الله قال قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى
قسمت الصلاة بيني وبين عبدي
نصفين وله ما سأل فاذا قال العبد
الحمد لله رب العالمين قال حمدني
عبدي واذا قال الرحمن الرحيم قال
أثنى على عبدي ثم قال هذا لي وله
ما بقي وهذا غريب من هذا الوجه
* الكلام على ما يتعلق بهذا
الحديث مما يختص بالفاتحة من
وجوه احدها انه قد أطلق فيه لفظ
الصلاة والمراد القراءة كقوله تعالى
ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها
وابتغ بين ذلك سبيلا أي بقراءتك كما
جاء مصرحا به في الصحيح عن ابن عباس وهكذا قال في هذا الحديث قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين فنصفها لي ونصفها
لعبدي ولعبدي ما سأل ثم بين تفصيل هذه القسمة في قراءة الفاتحة فدل على عظمة القراءة في الصلاة وانها من أكبر أركانها
اذ أطلقت العبادة وأريد بها جزء واحد منها وهو القراءة كما أطلق لفظ القراءة والمراد به الصلاة في قوله وقرآن الفجر ان قرآن
الفجر كان مشهودا والمراد صلاة الفجر كما جاء مصرحا به في الصحيحين انه يشهدها ملائكة الليل وملائكة النهار فدل هذا كله
على أنه لابد من القراءة في الصلاة وهو اتفاق من العلماء ولكن اختلفوا في مسألة نذكرها في الوجه الثاني وذلك انه هل تتعين

للقراءة في الصلاة غير فاتحة الكتاب أم تجزئ هي أو غيرها على قولين مشهورين فعند أبي حنيفة ومن وافقه من أصحابه وغيرهم انها لا تتعين بل مهما قرأ به من القرآن أجزأ في الصلاة واحتجوا بعموم قوله تعالى فاقرؤا ما تيسر من القرآن وبما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة في قصة المسيء في صلاته ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له اذا قمت الى الصلاة فكبر ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن قالوا فأمره بقراءة ما تيسر ولم يعين له الفاتحة ولا غيرها فدل على ما قلنا والقول الثاني انه تتعين قراءة الفاتحة في الصلاة ولا تجزئ الصلاة بدونها وهو (٢٠) قول بقية الأئمة مالك والشافعي وأحمد بن حنبل وأصحابهم وجمهور العلماء واحتجوا على ذلك بهذا الحديث المذكور حيث قال صلوات الله وسلامه عليه من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج والخداج هو الناقص كما فسر به في الحديث غير تمام واحتجوا أيضا بما ثبت في الصحيحين من حديث الزهري عن محمود بن الربيع عن عبادة بن الصامت قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب وفي صحيح ابن خزيمة وابن حبان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تجزئ صلاة لا يقرأ فيها بأم القرآن والاحاديث في هذا الباب كثيرة * ووجه المناظرة ههنا يطول ذكره وقد أشرنا الى مأخذهم في ذلك رحمهم الله ثم ان مذهب الشافعي وجماعة من أهل العلم انه يجب قراءتها في كل ركعة وقال آخرون انما تجب قراءتها في معظم الركعات وقال الحسن وأكثر البصريين انما تجب قراءتها في ركعة واحدة من الصلوات أخذا بمطلق الحديث لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب وقال أبو حنيفة وأصحابه والثوري والاوزاعي لا تتعين قراءتها بل لو قرأ بغيرها أجزأه لقوله تعالى فاقرؤا ما تيسر من القرآن فاتحة

والله أعلم وقد روى ابن ماجه من حديث أبي سفيان السعدي عن أبي نضرة عن أبي سعيد مرفوعا لا صلاة لمن لم يقرأ في كل ركعة بالحمد وسورة في فريضة أو غيرها وفي صحة هذا نظر وموضع تحرير هذا كله في كتاب الاحكام الكبير والله أعلم * الوجه الثالث هل تجب قراءة الفاتحة على المأموم فيه ثلاثة أقوال للعلماء أحدها انه تجب عليه قراءتها كما تجب على امامه لعموم الاحاديث المتقدمة والثاني لا تجب على المأموم قراءة بالكلية للفاتحة ولا غيرها لا في صلاة الجهرية ولا في صلاة السرية لما رواه الامام

لا يكتب فاتحة الكتاب في المصحف وقال لو كتبتها لكتبت في أول كل شيء وقد ورد في فضل هذه السورة أحاديث منها ما أخرجه البخاري وأحمد وأبو داود والنسائي من حديث أبي سعيد بن المعلى ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال له لأعلمنك أعظم سورة في القرآن قبل أن تخرج من المسجد قال فأخذ بيدي فلما أراد أن يخرج من المسجد قلت يا رسول الله انك قلت لأعلمنك أعظم سورة في القرآن قال نعم الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته وأخرج أحمد والنسائي والترمذي وصححه من حديث أبي ابن كعب ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال له أتحب أن أعلمك سورة لم ينزل في التوراة ولا في الانجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها ثم أخبره انها الفاتحة وأخرج أحمد في المسند من حديث عبد الله بن جابر ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال له ألا أخبرك بأخير سورة في القرآن قلت بلى يا رسول الله قال اقرأ الحمد لله رب العالمين حتى تختمها وفي سنده ابن عقيل وقد احتج به كبار الائمة وبقية رجاله ثقات وابن جابر هذا هو العبدي كما قال ابن الجوزي وقيل الانصاري البياضي كما قال ابن عساكر وفي الصحيحين وغيرهما من حديث أبي سعيد ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لما أخبره بأن رجلا رقى سليما بفاتحة الكتاب وما كان يدريه انها رقية الحديث وأخرج مسلم والنسائي عن ابن عباس قال بينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعنده جبرائيل اذ سمع نقيضا فوقه فرفع جبريل بصره الى السماء فقال هذا باب قد فتح من السماء ما فتح قط قال فنزل منه ملك فأتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال أبشر بنورين قد أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لن تقرأ حرفا منهما الا أوتيته وأخرج مسلم والنسائي والترمذي وصححه عن أبي هريرة من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج ثلاثا غير تمام وأخرج البزار في مسنده بسند ضعيف عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اذا وضعت جنبك على الفراش وقرأت فاتحة الكتاب وقل هو الله أحد فقد أمنت من كل شيء الا الموت وأخرج سعيد بن منصور في سننه والبيهقي في شعب الايمان عن أبي سعيد الخدري قال ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال فاتحة الكتاب شفاء من كل سقم وأخرج أبو الشيخ نحوه من حديثه وحديث أبي هريرة مرفوعا وأخرج الدارمي والبيهقي في شعب الايمان بسند رجاله ثقات عن عبد الملك بن عمير قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في

أحمد بن حنبل في مسنده عن جابر بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من كان له امام فقراءة الامام له قراءة ولكن
في اسناده ضعف ورواه مالك عن وهب بن كيسان عن جابر من كلامه وقد روى هذا الحديث من طرق ولا يصح شيء منها عن
النبي صلى الله عليه وسلم والله أعلم والقول الثالث انه تجب القراءة على المأموم في السرية لما تقدم ولا يجب ذلك في الجهرية
لما ثبت في صحيح مسلم عن أبي موسى الاشعري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انما جعل الامام ليؤتم به فاذا كبر فكبروا
واذا قرأ فانصتوا وذكر بقية الحديث وهكذا رواه بقية أهل السنن أبو داود (٢١) والترمذي والنسائي وابن ماجه عن أبي
هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال واذا قرأ فانصتوا وقد صححه مسلم بن الحجاج أيضا فدل هذان الحديثان على صحة هذا القول وهو قول قديم للشافعي رحمه الله والله أعلم ورواية عن الامام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى والغرض من ذكر هذه المسائل ههنا بيان اختصاص سورة الفاتحة بأحكام لا تتعلق بغيرها من السور وقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا ابراهيم بن سعيد الجوهري حدثنا غسان بن عبيد عن أبي عمران الجوني عن أنس رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا وضعت جنبك على الفراش وقرأت فاتحة الكتاب وقل هو الله أحد فقد أمنت من كل شيء الا الموت

تفسير الاستعاذة وأحكامها قال الله تعالى خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه سميع عليم وقال تعالى ادفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون وقال تعالى ادفع بالتي
هي أحسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم وما يلقاها الا الذين صبروا وما يلقاها الا ذو حظ عظيم واما ينزغنك
من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه هو السميع العليم فهذه ثلاث آيات ليس لهن رابعة في معناها وهو ان الله تعالى يأمر بمصانعة
العدو الانسي والاحسان اليه ليرده عنه طبعه الطيب الاصل الى الموالاة والمصافاة ويأمر بالاستعاذة به من العدو الشيطاني
لا محالة اذ لا يقبل مصانعة ولا احسانا ولا يبتغي غير هلاك ابن آدم لشدة العداوة بينه وبين أبيه آدم من قبل كما قال
تعالى يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة وقال تعالى ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا انما يدعو

فاتحة الكتاب شفاء من كل داء وأخرج أحمد وأبو داود والنسائي وابن السني في عمل اليوم
والليلة وابن جرير والحاكم وصححه عن خارجة بن الصلت التميمي عن عمه انه أتى رسول
الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم أقبل راجعا من عنده فمر على قوم وعندهم رجل مجنون
موثق بالحديد فقال أهله أعندك ما تداوي به هذا فان صاحبكم قد جاء بخير قال فقرأت
عليه فاتحة الكتاب ثلاثة أيام في كل يوم مرتين غدوة وعشية أجمع بزاقي ثم أتفل فبرأ
فأعطاني مائة شاة فأتيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم فذكرت ذلك له فقال كل فمن أكل
برقية باطلة فقد أكلت برقية حق وعن ابن عباس قال فاتحة الكتاب ثلثا القرآن وأخرج
الطبراني في الاوسط بسند ضعيف عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من
قرأ أم القرآن وقل هو الله أحد فكأنما قرأ ثلث القرآن وأخرج عبد بن حميد في مسنده
بسند ضعيف عن ابن عباس يرفعه الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فاتحة الكتاب تعدل
ثلثي القرآن وأخرج الحاكم وصححه وأبو ذر الهروي في فضائله والبيهقي في الشعب عن أنس
قال كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم في مسير له فنزل فمشى رجل من أصحابه الى جنبه
فالتفت اليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال ألا أخبرك بأفضل القرآن فتلا عليه الحمد لله
رب العالمين وأخرج أبو نعيم والديلمي عن أبي الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه
وآله وسلم فاتحة الكتاب تجزئ ما لا يجزئ شيء من القرآن ولو أن فاتحة الكتاب جعلت في
كفة الميزان وجعل القرآن في الكفة الاخرى لفضلت فاتحة الكتاب على القرآن
سبع مرات وأخرج أبو عبيد في فضائله عن الحسن مرسلا قال قال رسول الله صلى الله
عليه وآله وسلم من قرأ فاتحة الكتاب فكأنما قرأ التوراة والانجيل والزبور والفرقان
الى غير ذلك من الاحاديث * ثم الاستعاذة قبل القراءة سنة عند الجمهور لقوله تعالى فاذا
قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم واختلفوا في لفظها المختار ولا يأتي
بكثير فائدة ومعنى أعوذ بالله ألتجئ اليه وأمتنع به مما أخشاه من عاذ يعوذ والشيطان
أصله من شطن أي تباعد من الرحمة أو من شاط اذا هلك واحترق والاول أولى والشيطان
اسم لكل عات من الجن والانس والرجيم من يرجم بالوسوسة أو مرجوم بالشهب عند
استراق السمع أو بالعذاب أو مطرود عن الرحمة والاستعاذة تطهر القلب عن كل شيء شاغل
عن الله ومن لطائفها أن قوله أعوذ بالله من الشيطان الرجيم اقرار من العبد بعجزه وضعفه

حزبه ليكونوا من أصحاب السعير وقال أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا وقد أقسم للوالد
آدم عليه السلام انه لمن الناصحين وكذب فكيف معاملته لنا وقد قال فبعزتك لاغوينهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين وقال
تعالى فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون انما سلطانه
على الذين يتولونه والذين هم به مشركون* قالت طائفة من القراء وغيرهم يتعوذ بعد القراءة واعتمدوا على ظاهر سياق الآية
والدفع الاعجاب بعد فراغ العبادة وممن ذهب الى ذلك حمزة فيما نقله عنه ابن قلوقا وأبو حاتم السجستاني حكى ذلك أبو القاسم
يوسف بن علي بن جنادة الهذلي
المغربي في كتاب العبادة الكامل
وروى عن أبي هريرة أيضا وهو
غريب ونقله محمد بن عمر الرازي
في تفسيره عن ابن سيرين في رواية
عنه قال وهو قول ابراهيم النخعي
وداود بن علي الاصبهاني الظاهري
وحكى القرطبي عن أبي بكر
ابن العربي عن المجموعة عن مالك
رحمه الله ان القارئ يتعوذ بعد
الفاتحة واستغربه ابن العربي وحكى
قولا ثالثا وهو الاستعاذة أولا
وآخرا جمعا بين الدليلين نقله الرازي
والمشهور الذي عليه الجمهور أن
الاستعاذة انما تكون قبل التلاوة
لدفع الموسوس عنها* ومعنى الآية
عندهم فاذا قرأت القرآن فاستعذ
بالله من الشيطان الرجيم أي اذا
أردت القراءة كقوله تعالى اذا قمتم
الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم
وأيديكم الآية أي اذا أردتم القيام
والدليل على ذلك الاحاديث عن
رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك
قال الامام أحمد بن حنبل رحمه الله
حدثنا محمد بن الحسن بن انس
حدثنا جعفر بن سليمان عن علي
ابن علي الرفاعي اليشكري عن أبي المتوكل الناجي عن أبي سعيد الخدري قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم
اذا قام من الليل فاستفتح صلاته وكبر قال سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا اله غيرك ثم يقول لا اله الا الله
ثلاثا ثم يقول أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه وقد رواه أهل السنن الاربعة من رواية
جعفر بن سليمان عن علي بن علي وهو الرفاعي وقال الترمذي هو أشهر شئ في هذا الباب وقد فسر الهمز بالموتة وهي الخنق
والنفخ بالكبر والنفث بالشعر كما رواه أبو داود وابن ماجه من حديث شعبة عن عمرو بن مرة عن عاصم العنزي عن نافع بن جبير

و بقدرة الباري على دفع جميع المضرات

* (بسم الله الرحمن الرحيم) *

اختلف أهل العلم هل هي آية مستقلة في أول كل سورة كتبت في أولها أو هي بعض آية من
أول كل سورة أو هي كذلك في الفاتحة فقط دون غيرها أو انها ليست بآية في الجميع وانما
كتبت للفصل والاقوال وأدلتها مبسوطة في موضع الكلام على ذلك وقد اتفقوا على انها
بعض آية في سورة النمل وقد جزم قراء مكة والكوفة وفقهاؤهما بانها آية من الفاتحة ومن
كل سورة وخالفهم قراء المدينة والبصرة والشام وفقهاؤها فلم يجعلوها آية لا من الفاتحة
ولا من غيرها من السور وقالوا انها آية فذة من القرآن أنزلت للفصل والتبرك للابتداء بها
وبالاول قال ابن عباس وابن عمر وأبو هريرة وسعيد بن جبير وعطاء وابن المبارك وأحمد
في أحد قوليه واسحق وعلي بن أبي طالب والزهري ومحمد بن كعب والثوري وهو القول
الجديد للشافعي ولذلك يجهر بها عنده وبالثاني قال الاوزاعي ومالك وأبو حنيفة وأصحابه
قال أبو السعود وهو الصحيح من مذهب الحنفية وقد أثبتها السلف في المصحف مع الامر
بتجريد القرآن عما ليس منه ولذا لم يكتبوا آمين وقد أخرج أبو داود باسناد صحيح عن ابن
عباس ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان لا يعرف فصل السورة وفي رواية انقضاء
السورة حتى ينزل عليه بسم الله الرحمن الرحيم وأخرجه الحاكم في المستدرك وقال صحيح
على شرط الشيخين وأخرج ابن خزيمة في صحيحه عن أم سلمة ان رسول الله صلى الله عليه وآله
وسلم قرأ البسملة في أول الفاتحة في الصلاة وعدها آية وفي اسناده عمر بن هرون البلخي وفيه
ضعف وروى نحوه الدارقطني مرفوعا عن أبي هريرة وعنه قال قال رسول الله صلى الله
عليه وآله وسلم اذا قرأتم الحمد لله فاقرؤا بسم الله الرحمن الرحيم فانها أم القرآن وأم الكتاب
والسبع المثاني وبسم الله الرحمن الرحيم احدى آياتها رواه الدارقطني وقال رجال اسناده
كلهم ثقات ورواه البخاري في تاريخه وروى موقوفا أيضا وأخرج مسلم عن أنس قال قال
رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنزلت علي آنفا سورة فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم انا
أعطيناك الكوثر الحديث قال البيهقي أحسن ما احتج به أصحابنا في ان البسملة من القرآن
وانها من فواتح السور سوى سورة براءة ما رويناه في جمع الصحابة كتاب الله عز وجل
في المصاحف وانهم كتبوا فيها البسملة على رأس كل سورة سوى سورة براءة فكيف يتوهم
متوهم

اطعم عن أبيه قال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دخل في الصلاة قال الله أكبر كبيرا ثلاثا الحمد لله كثيرا ثلاثا سبحان الله بكرة وأصيلا ثلاثا اللهم اني أعوذ بك من الشيطان من همزه ونفخه ونفثه قال عمرو همزه الموتة ونفخه الكبر ونفثه الشعر وقال ابن ماجه حدثنا علي بن المنذر حدثنا ابن فضيل حدثنا عطاء بن السائب عن أبي عبد الرحمن السلمي عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال اللهم اني أعوذ بك من الشيطان الرجيم وهمزه ونفخه ونفثه قال همزه الموتة ونفخه الكبر ونفثه الشعر وقال الامام أحمد حدثنا اسحق بن يوسف حدثنا شريك (٢٣) عن يعلى بن عطاء عن رجل حدثه انه سمع أبا أمامة الباهلي يقول كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا قام الى الصلاة كبر ثلاثا ثم قال لا اله الا الله ثلاث مرات وسبحان الله وبحمده ثلاث مرات ثم قال أعوذ بالله من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه وقال الحافظ أبو يعلى احمد بن علي بن المثنى الموصلي في مسنده حدثنا عبد الله ابن عمر بن أبان الكوفي حدثنا علي ابن هشام بن البريد عن يزيد بن زياد عن عبد الملك بن عمير عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال تلاحى رجلان عند النبي صلى الله عليه وسلم فتمزع أنف أحدهما غضبا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اني لاعلم شيأ لو قاله لذهب عنه ما يجد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم وكذا رواه النسائي في اليوم والليلة عن يوسف ابن عيسى المروزي عن الفضل ابن موسى عن يزيد بن زياد بن أبي الجعد به وقد روى هذا الحديث احمد بن حنبل عن أبي سعيد عن زائدة وأبو داود عن يوسف بن موسى عن جرير بن عبد الحميد والترمذي والنسائي في اليوم والليلة عن بندار عن ابن مهدي عن الثوري والنسائي أيضا من حديث زائدة بن قدامة ثلاثتهم عن عبد الملك بن عمير عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال استب رجلان عند النبي صلى الله عليه وسلم فغضب أحدهما غضبا شديدا حتى يخيل الى أن أحدهما يتمزع أنفه من شدة غضبه فقال النبي صلى الله عليه وسلم اني لاعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد من الغضب فقال ما هي يا رسول الله قال يقول اللهم اني أعوذ بك من الشيطان الرجيم قال فجعل معاذ يأمره فأبى وجعل يزداد غضبا وهذا لفظ أبي داود وقال الترمذي مرسل يعني ان عبد الرحمن بن أبي ليلى لم يلق معاذ بن جبل

متوهم انهم كتبوا فيها مائة وثلاث عشرة آية ليست من القرآن وقد علمنا بالروايات الصحيحة عن ابن عباس انه كان يعد البسملة آية من الفاتحة ويقول انتزع الشيطان منهم خير آية في القرآن رواه الشافعي * وكما وقع الخلاف في اثباتها وقع الخلاف في الجهر بها في الصلاة وقد أخرج النسائي في سننه وابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما والحاكم في المستدرك عن أبي هريرة انه صلى فجهر في قراءته بالبسملة وقال بعد أن فرغ اني لاشبهكم صلاة برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وصححه الدارقطني والخطيب والبيهقي وغيرهم وروى أبو داود والترمذي عن ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يفتتح الصلاة بسم الله الرحمن الرحيم قال الترمذي وليس اسناده بذاك وقد أخرجه الحاكم في المستدرك عن ابن عباس بلفظ كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يجهر بسم الله الرحمن الرحيم ثم قال صحيح وأخرج البخاري في صحيحه عن أنس أنه سئل عن قراءة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال كانت قراءته مدا ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم يمد بسم الله ويمد الرحمن ويمد الرحيم وأخرج أحمد في المسند وأبو داود في السنن وابن خزيمة في صحيحه والحاكم في مستدركه عن أم سلمة انها قالت كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقطع قراءته بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين وقال الدارقطني اسناده صحيح وبهذا قال من الصحابة أبو هريرة وابن عباس وابن عمر وابن الزبير ومن التابعين فمن بعدهم سعيد بن جبير وأبو قلابة والزهري وعكرمة وعطاء وطاوس ومجاهد وعلي بن الحسين وسالم ابن عبد الله ومحمد بن كعب القرظي وابن سيرين وابن المنكدر ونافع مولى ابن عمر وزيد بن أسلم ومكحول وغيرهم واليه ذهب الشافعي واحتج من قال انه لا يجهر بالبسملة في الصلاة بما في صحيح مسلم عن عائشة قالت كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يفتتح الصلاة بالتكبير والقراءة بالحمد لله رب العالمين وفي الصحيحين عن أنس قال صليت خلف النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأبي بكر وعمر وعثمان فكانوا يستفتحون بالحمد لله رب العالمين ولمسلم لا يذكرون بسم الله الرحمن الرحيم في أول القراءة ولا في آخرها وأخرج أهل السنن نحوه عن عبد الله بن مغفل والى هذا ذهب الخلفاء الاربعة وجماعة من الصحابة كابن مسعود وعمار بن ياسر وابن مغفل وغيرهم ومن التابعين الحسن والشعبي وابراهيم النخعي وقتادة والاعمش والثوري واليه ذهب مالك وأبو حنيفة وأحمد وغيرهم وأحاديث الترك وان

فانه مات قبل سنة عشرين (قلت) وقد يكون عبد الرحمن بن أبي ليلى سمعه من أبي بن كعب كما تقدم وبلغه عن معاذ بن جبل فان
هذه القصة شهدها غير واحد من الصحابة رضي الله عنهم قال البخاري حدثنا عثمان بن أبي شيبة حدثنا جرير عن الاعمش عن
عدي بن ثابت قال قال سليمان بن صرد رضي الله عنه استب رجلان عند النبي صلى الله عليه وسلم ونحن عنده جلوس فأحدهما
يسب صاحبه مغضبا قد احمر وجهه فقال النبي صلى الله عليه وسلم اني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد لو قال أعوذ بالله من
الشيطان الرجيم فقالوا للرجل ألا تسمع ما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اني لست بمجنون وقد رواه أيضا
مع مسلم وأبي داود النسائي من
طرق متعددة عن الاعمش به وقد
جاء في الاستعاذة أحاديث كثيرة
يطول ذكرها ههنا وموطنها كتاب
الاذكار وفضائل الاعمال والله
أعلم وقد روي ان جبريل عليه
السلام أول ما نزل بالقرآن على
رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره
بالاستعاذة كما قال الامام أبو جعفر
ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا
عثمان بن سعيد حدثنا بشر بن
عمارة حدثنا أبو روق عن الضحاك
عن عبد الله بن عباس قال أول
ما نزل جبريل على محمد صلى الله
عليه وسلم قال يا محمد استعذ قال
استعيذ بالله السميع العليم من
الشيطان الرجيم ثم قال قل بسم الله
الرحمن الرحيم ثم قال اقرأ باسم ربك
الذي خلق قال عبد الله وهي أول
سورة أنزلها الله على محمد صلى الله
عليه وسلم بلسان جبريل وهذا
الاثر غريب وانما ذكرناه ليعرف فان
في أسناده ضعفا وانقطاعا والله أعلم
(مسئلة) وجمهور العلماء على ان
الاستعاذة مستحبة ليست بمتحتمة
يأثم تاركها وحكى الرازي عن عطاء
ابن أبي رباح وجوبها في الصلاة وخارجها كلما أراد القراءة قال وقال ابن سيرين اذا تعوذ مرة واحدة في عمره
فقد كفى في اسقاط الوجوب واحتج الرازي لعطاء بظاهر الآية فاستعذ وهو أمر ظاهره الوجوب وبمواظبة النبي صلى الله عليه
وسلم عليها ولانها تدرأ شر الشيطان وما لا يتم الواجب الا به فهو واجب ولان الاستعاذة أحوط وهو أحد مسالك الوجوب وقال
بعضهم كانت واجبة على النبي صلى الله عليه وسلم دون أمته وحكى عن مالك انه لا يتعوذ في المكتوبة ويتعوذ لقيام رمضان في
أول الليلة منه (مسئلة) وقال الشافعي في الاملاء يجهر بالتعوذ وان أسر فلا يضر وقال في الام بالتخيير لانه أسر ابن عمر وجهر

كانت أصح ولكن الاثبات أرجح مع كونه خارجا من مخرج صحيح فالاخذ به أولى ولاسيما
مع امكان تأويل الترك وهذا يقتضي الاثبات الذاتي أعني كونها قرآنا والوصفي أعني
الجهر بها عند الجهر بقراءة ما يفتتح بها من السور في الصلاة والحاصل ان البسملة آية
من الفاتحة ومن غيرها من السور وحكمها من الجهر والاسرار حكم الفاتحة فيجهر بها
مع الفاتحة في الصلاة الجهرية ويسر بها مع الفاتحة في الصلاة السرية وبهذا يحصل الجمع
بين الروايات ولتنقيح البحث والكلام على أطرافه استدلالا وردا وتعقبا ودفعا ورواية
ودراية موضع غير هذا وقد استوفاه الشوكاني في شرحه للمنتقى وله جواب عن سؤال
نظما ونثرا * ومتعلق الباء محذوف وهو اقرأ أو اتلو وتقديم المعمول للاعتناء به والقصد
الى التخصيص ويظهر رجحان تقدير الفعل متأخرا في مثل هذا المقام ولا يعارضه
قوله تعالى اقرأ باسم ربك لان المقام مقام القراءة فكان الامر بها أهم وأما الخلاف بين
أئمة النحو في كون المقدر اسما أو فعلا فلا يتعلق بذلك كثير فائدة والباء للاستعانة أو
للمصاحبة تبركا ورجح الثاني الزمخشري والاسم هو اللفظ الدال على المسمى ومن زعم ان
الاسم هو المسمى كما قاله أبو عبيدة وسيبويه والباقلاني وابن فورك وحكاه الرازي
عن الحشوية والكرامية والاشعرية فقد غلط غلطا بينا وجاء بما لا يعقل مع عدم ورود
ما يوجب المخالفة للعقل لا من الكتاب ولا من السنة ولا من لغة العرب بل العلم الضروري
حاصل بان الاسم الذي هو أصوات مقطعة وحروف مؤلفة غير المسمى الذي هو مدلوله
والبحث مبسوط في علم الكلام وثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة ان لله تسعة
وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة وقال الله عز وجل ولله الاسماء الحسنى فادعوه
بها وقال تعالى قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياما تدعوا فله الاسماء الحسنى والله علم
عربي مرتجل جامد عند الاكثر خاص لذات الواجب الوجود تفرد به الباري سبحانه لم يطلق
على غيره ولا يشركه فيه أحد وعند الزمخشري اسم جنس صار علما بالغلبة والاول هو
الصحيح ولم يقل بالله للفرق بين اليمين والتيمن أو لتحقيق ما هو المقصود بالاستعانة ههنا
فانها تكون تارة بذاته تعالى وتارة باسمه عز وعلا فوجب تعيين المراد بذكر الاسم وعند
المحققين انه اسم الله الاعظم وقد ذكره الله تعالى في ألفين وثلثمائة وستين موضعا من
القرآن والرحمن من الصفات الغالبة لم يستعمل في غير الله عز وجل قال أبو علي الفارسي

الرحمن

أبو هريرة واختلف قول الشافعي فيما عدا الركعة الاولى هل يستحب التعوذ فيها على قولين ورجح عدم الاستحباب والله اعلم فاذا قال المستعيذ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم كفى ذلك عند الشافعي وأبي حنيفة وزاد بعضهم أعوذ بالله السميع العليم وقال آخرون بل يقول أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ان الله هو السميع العليم قاله الثوري والاوزاعي وحكى عن بعضهم انه يقول أستعيذ بالله من الشيطان الرجيم لمطابقة أمر الآية ولحديث الضحاك عن ابن عباس المذكور والاحاديث الصحيحة كما تقدم أولى بالاتباع من هذا والله أعلم (مسئلة) ثم الاستعاذة في الصلاة انما هي للتلاوة وهو قول (٢٥) أبي حنيفة ومحمد وقال أبو يوسف بل للصلاة فعلى هذا يتعوذ المأموم وان كان لا يقرأ ويتعوذ في العيد بعد الاحرام وقبل تكبيرات العيد والجمهور بعدها قبل القراءة ومن لطائف الاستعاذة انها طهارة للفم مما كان يتعاطاه من اللغو والرفث وتطييب له وهو لتلاوة كلام الله وهي استعانة بالله واعتراف له بالقدرة وللعبد بالضعف والعجز عن مقاومة هذا العدو المبين الباطني الذي لا يقدر على منعه ودفعه الا الله الذي خلقه ولا يقبل مصانعة ولا يدارى بالاحسان بخلاف العدو من نوع الانسان كما دلت على ذلك آيات من القرآن في ثلاث من المثاني وقال تعالى ان عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا وقد نزلت الملائكة لمقابلة العدو البشري فمن قتله العدو الظاهري البشري كان شهيدا ومن قتله العدو الباطني كان طريدا ومن غلبه العدو الظاهري كان مأجورا ومن قهره العدو الباطني كان مفتونا أو موزورا ولما كان الشيطان يرى الانسان من حيث لا يراه استعاذ منه بالذي يراه ولا يراه الشيطان *(فصل)* والاستعاذة هي الالتجاء

الى الله تعالى والالتصاق بجنابه من شر كل ذي شر والعياذة تكون لدفع الشر واللياذ يكون لطلب جلب الخير كما قال المتنبي يا من ألوذ به فيما أؤمله * ومن أعوذ به مما أحاذره لا يجبر الناس عظما أنت كاسره * ولا يهيضون عظما أنت جابره ومعنى أعوذ بالله من الشيطان الرجيم أي أستجير بجناب الله من الشيطان الرجيم ان يضرني في ديني أو دنياي أو يصدني عن فعل ما أمرت به أو يحثني على فعل ما نهيت عنه فان الشيطان لا يكفه عن الانسان الا الله ولهذا أمر تعالى بمصانعة شيطان الانس ومداراته باسداء الجميل اليه ليرده طبعه عما هو فيه من الاذى وأمر بالاستعاذة به من شيطان الجن

الرحمن اسم عام في جميع أنواع الرحمة يختص به الله تعالى والرحيم انما هو في جهة المؤمنين قال تعالى وكان بالمؤمنين رحيما وعن ابن عباس قال هما اسمان أحدهما أرق من الآخر وقيل معناهما ذو الرحمة جمع بينهما للتأكيد وقيل غير ذلك والاول أولى وفي الرحمن من المبالغة ما ليس في الرحيم والرحمة ارادة الخير والاحسان لاهله وقيل ترك عقوبة من يستحق العقاب واسداء الخير والاحسان الى من لا يستحق فهو على الاول صفة ذات وعلى الثاني صفة فعل وأسماء الله تؤخذ باعتبار الغايات التي هي أفعال دون المبادي التي هي انفعالات وافراد الوصفين الشريفين بالذكر لتحريك سلسلة الرحمة وهل الرحمن مصروف أولا فيه قولان مال التفتازاني الى جواز الامرين وقد ورد في فضلها أحاديث ينبغي البحث عن أسانيدها والكلام عليها وقد شرعت التسمية في مواطن كثيرة قد بينها الشارع منها عند الوضوء وعند الذبيحة وعند الاكل وعند الجماع وغير ذلك (الحمد لله) هو الثناء باللسان على الجميل الاختياري على قصد التبجيل وبهذا فارق المدح وقال الزمخشري انهما اخوان والحمد أخص من الشكر موردا وأعم منه متعلقا وبه صرح في الفائق لكن الاوفق ما عليه الاكثر انهما غير مترادفين بل متشابهان معنى أو اشتقاقا كبيرا وتعريفه لاستغراق افراد الحمد وانها مختصة بالرب سبحانه على معنى ان حمد غيره لا اعتداد به لان المنعم هو الله عز وجل أو على ان حمده هو الفرد الكامل فيكون الحصر ادعائيا ورجح الزمخشري ان التعريف هنا هو تعريف الجنس لا الاستغراق واليه نحا أبو السعود والصواب ما ذكرناه وعليه الجمهور وقد جاء في الحديث اللهم لك الحمد كله قال ابن جرير الحمد ثناء أثنى به على نفسه وفي ضمنه أمر عباده ان يثنوا عليه فكأنه قال قولوا الحمد لله ثم رجح اتحاد الحمد والشكر مستدلا على ذلك بما حاصله ان جميع أهل المعرفة بلسان العرب يوقعون كلا من الحمد والشكر مكان الآخر قال ابن كثير وفيه نظر لانه اشتهر عند كثير من العلماء المتأخرين ان الحمد هو الثناء بالقول على المحمود بصفاته اللازمة والمتعدية والشكر لا يكون الا على المتعدية ويكون بالجنان واللسان والاركان انتهى ولا يخفى أن المرجع في مثل هذا الى معنى الحمد في لغة العرب لا الى ما قاله جماعة من العلماء المتأخرين فان ذلك لا يرد على ابن جرير ولا تقوم به الحجة هذا اذا لم يثبت للحمد حقيقة شرعية فان ثبتت وجب تقديمها روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال الحمد لله كلمة الشكر واذا قال العبد الحمد لله قال

لانه لا يقبل رشوة ولا يؤثر فيه جميل لانه شرير بالطبع ولا يكفه عنك الا الذى خلقه وهذا المعنى فى ثلاث آيات من القرآن لا أعلم لهن رابعة قوله فى الاعراف خذ العفو وأمر بالعرف واعرض عن الجاهلين فهذا فيما يتعلق بمعاملة الاعداء من البشر ثم قال واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه سميع عليم وقال تعالى فى سورة قد أفلح المؤمنون ادفع بالتى هى أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب ان يحضرون وقال تعالى فى سورة حم السجدة ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى (٢٦) بينك وبينه عداوة كانه ولى حميم وما يلقاها الا الذين صبروا وما يلقاها الاذو حظ عظيم واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه هو السميع العليم والشيطان فى لغة العرب مشتق من شطن اذا بعد فهو بعيد بطبعه عن طباع البشر وبعيد بفسقه عن كل خير وقيل مشتق من شاط لانه مخلوق من نار ومنهم من يقول كلاهما صحيح فى المعنى ولكن الاول أصح وعليه يدل كلام العرب قال أمية بن أبى الصلت فى ذكر ما أوتى سليمان عليه السلام

أيما شاطن عصاه عكاه

ثم يلقى فى السجن والاغلال

فقال أيما شاطن ولم يقل أيما شائط وقال النابغة الذبيانى وهو زياد بن عمرو ابن معاوية ابن جابر بن ضباب بن يربوع بن مرة ابن سعد بن ذبيان

نأت بسعاد عنك نوى شطون

فباتت والفؤاد بها رهين

يقول بعدت بها طريق بعيدة وقال سيبويه العرب تقول تشيطن فلان اذا فعل فعل الشياطين ولو كان من شاط لقالوا تشيط فالشيطان مشتق من البعد على الصحيح ولهذا يسمون كل من تمرد من جنى وانسى وحيوان شيطانا قال الله تعالى وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الانس والجن يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا وفى مسند الامام أحمد عن أبى ذر رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا أبا ذر تعوذ بالله من شياطين الانس والجن فقلت أو للانس شياطين قال نعم وفى صحيح مسلم عن أبى ذر أيضا قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقطع الصلاة المرأة والحمار والكلب الاسود فقلت يا رسول الله ما بال الكلب الاسود من الاحمر والاصفر فقال الكلب الاسود شيطان وقال ابن وهب أخبرنى هشام ابن سعد عن زيد بن أسلم عن أبيه أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ركب برذونا فجعل يتبختر به فجعل يضربه فلا يزداد الا تبخترا فنزل

اى

الله شكرنى عبدى وروى ابن جرير عن الحكم بن عمير وكانت له صحبة قال قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم اذا قلت الحمد لله رب العالمين فقد شكرت الله فزادك وأخرج عبد الرزاق فى المصنف والحكيم الترمذى فى نوادر الاصول والخطابى فى الغريب والبيهقى فى الادب والديلمى فى مسند الفردوس عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال الحمد رأس الشكر ما شكر الله عبد لا يحمده وأخرج الطبرانى فى الاوسط بسند ضعيف عن النواس بن سمعان قال سرقت ناقة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال لئن ردها الله على لاشكرن ربى فرجعت فلما رآها قال الحمد لله فانتظروا هل يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صوم أو صلاة فظنوا انه نسى فقالوا يا رسول الله كنت قد قلت لئن ردها الله على لأشكرن ربى قال ألم أقل الحمد لله وقد ورد فى فضل الحمد أحاديث منها ما أخرجه أحمد والنسائى والحاكم وصححه البخارى فى الأدب المفرد عن الاسود بن سريع قال قلت يا رسول الله الا أنشدك محامد حمدت بها ربى تبارك وتعالى فقال اما ان ربك يحب الحمد وأخرج الترمذى وحسنه والنسائى وابن ماجه وابن حبان والبيهقى عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أفضل الذكر لا اله الا الله وأفضل الدعاء الحمد لله وأخرج البيهقى فى شعب الايمان عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما من عبد ينعم عليه بنعمة الا كان الحمد أفضل منها وأخرج مسلم والنسائى وأحمد عن أبى مالك الاشعرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الطهور شطر الايمان والحمد لله تملأ الميزان وأخرج البيهقى عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما شئ أحب الى الله من الحمد وفى الباب أحاديث وأخرج أهل السنن وابن حبان والبيهقى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه بحمد الله فهو أقطع وأخرج مسلم عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان الله ليرضى عن العبد أن يأكل الاكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها وايثار الرفع على النصب الذى هو الاصل للايذان بان ثبوت الحمد له تعالى اذاته لا لاثبات مثبت وان ذلك أمر دائم مستمر لا حادث متجدد كما تفيده قراءة النصب

(رب العالمين) قال فى الصحاح الرب اسم من أسماء الله تعالى ولا يقال فى غيره الا بالاضافة وقد قالوه فى الجاهلية للملك وقال الزمخشرى الرب المالك كما يقال رب الدار ورب الشئ

عنه وقال ما حملتموني الا على شيطان ما زلت عنبه حتى أنكرت نفسي اسناد صحيح والرجيم فعيل بمعنى مفعول أي انه مرجوم مطرود عن الخير كله كما قال تعالى ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين وقال تعالى انا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب وحفظا من كل شيطان مارد لا يسمعون الى الملا الاعلى ويقذفون من كل جانب دحورا ولهم عذاب واصب الا من خطف الخطفة فاتبعه شهاب ثاقب وقال تعالى ولقد جعلنا في السماء بروجا وزيناها للناظرين وحفظناها من كل شيطان رجيم الا من استرق السمع فاتبعه شهاب مبين الى غير ذلك من الآيات وقيل (٢٧) رجيم بمعنى راجم لانه يرجم الناس بالوساوس والربائث والاول أشهر وأصح

(بسم الله الرحمن الرحيم) افتتح بها الصحابة كتاب الله واتفق العلماء على انها بعض آية من سورة النمل ثم اختلفوا هل هي آية مستقلة في أول كل سورة أو من أول كل سورة كتبت في أولها أو انها بعض آية من كل سورة أو انها كذلك في الفاتحة دون غيرها أو انها انما كتبت للفصل لا أنها آية على أقوال للعلماء سلفا وخلفا وذلك مبسوط في غير هذا الموضع وفي سنن أبي داود باسناد صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يعرف فصل السورة حتى ينزل عليه بسم الله الرحمن الرحيم وأخرجه الحاكم أبو عبد الله النيسابوري في مستدركه أيضا وروى مرسلا عن سعيد بن جبير وفي صحيح ابن خزيمة عن أم سلمة رضي الله عنها ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ البسملة في أول الفاتحة في الصلاة وعدها آية لكنه من رواية عمر بن هرون البلخي وفيه ضعف عن ابن جريج عن ابن أبي مليكة عنها وروى له الدارقطني متابعا عن أبي هريرة مرفوعا وروى مثله عن علي وابن عباس وغيرهما وممن حكي عنه انها آية من كل سورة الا براءة ابن عباس وابن عمر وابن الزبير وأبو هريرة وعلي ومن التابعين عطاء وطاوس وسعيد بن جبير ومكحول والزهري وبه يقول عبد الله بن المبارك والشافعي وأحمد بن حنبل في رواية عنه واسحق بن راهويه وأبو عبيد القاسم بن سلام رحمهم الله وقال مالك وأبو حنيفة وأصحابهما ليست آية من الفاتحة ولا من غيرها من السور وقال الشافعي في قول في بعض طرق مذهبه هي آية من الفاتحة وليست من غيرها وعنه انها بعض آية من أول كل سورة وهما غريبان وقال داود هي آية مستقلة في أول كل سورة لا منها وهذا رواية عن الامام أحمد بن حنبل وحكاه أبو بكر الرازي

أي مالكه قال القرطبي والرب السيد ومنه قوله تعالى اذكرني عند ربك وفي الحديث ان تلد الامة ربها والرب المصلح والمدبر والمربي والجابر والقائم قال والرب المعبود والعالمين جمع عالم لا واحد له من لفظه وهو اسم لما يعلم به غلب فيما يعلم به الصانع من المصنوعات قال أبو السعود وهو الاحق الاظهر أو اسم لكل موجود سوى الله تعالى قاله قتادة فيدخل فيه جميع الخلق وهو ظاهر كلام الجوهري وقيل أهل كل زمان عالم قاله الحسين بن مفضل وقال ابن عباس العالمون هم الجن والانس وقيل اسم جمع عالم بالفتح وليس جمعا له لان العالم عام في العقلاء وغيرهم والعالمين مختص بالعقلاء والخاص لا يكون جمعا لما هو أعم منه قاله ابن مالك وتبعه ابن هشام في توضيحه وذهب كثير الى انه جمع عالم على حقيقة الجمع وقال الفراء وأبو عبيد العالم عبارة عما يعقل وهم أربعة أمم الانس والجن والملائكة والشياطين ولا يقال للبهائم عالم لان هذا الجمع انما هو جمع ما يعقل حكاها القرطبي وذكر أدلتها وقال ان القول الاول أصح هذه الاقوال لانه شامل لكل مخلوق موجود دليله قوله تعالى قال فرعون وما رب العالمين قال رب السموات والارض وما بينهما وقيل عني به الناس فان كل واحد منهم عالم وفيه بعد قال الزجاج العالم كل ما خلقه الله تعالى في الدنيا والآخرة وعلى هذا يكون جمعه بالياء والنون تغليبا للعقلاء على غيرهم وعن ابن عباس في الآية قال اله الخلق كله السموات كلهن ومن فيهن والارضين كلهن ومن فيهن ومن بينهن مما يعلم ولا يعلم وفيه دليل على ان رب العالمين جرى مجرى الدليل على وجود الاله القديم وبيان لشمول ربوبيته تعالى لجميع الاجناس فآثار تربيته عز وجل الفائضة على كل فرد من أفراد الموجودات في كل آن من آنات الوجود غير متناهية فسبحانه ما أعظم شأنه لا تلاحظه العيون بانظارها ولا تطالعه العقول بافكارها شأنه لا يضاهى واحسانه لا يتناهى ونحن في معرفته حائرون وفي اقامة مراسم شكره قاصرون وأتى بجمع القلة تنبيها على أنهم وان كثروا قليلون في جنب عظمته وكبريائه تعالى واختلف في مبلغ عدد العالم على أقوال لم يصح شيء منها والحق ما قاله سبحانه وتعالى وما يعلم جنود ربك الا هو (الرحمن الرحيم) اسمان مشتقان من الرحمة على طريق المبالغة والرحمن أشد مبالغة من الرحيم وفي كلام ابن جرير ما يفهم حكاية الاتفاق على هذا ولذلك قالوا رحمن الدنيا والآخرة ورحيم الدنيا وقد تقرر ان زيادة البناء تدل على زيادة المعنى وقال ابن الانباري والزجاج ان

عن أبي الحسن الكرخي وهما من اكابر أصحاب أبي حنيفة رحمهم الله هذا ما يتعلق بكونها آية من الفاتحة أم لا فأما الجهر بها فالمفرع على هذا فمن رأى انها ليست من الفاتحة فلا يجهر بها وكذا من قال انها آية في أولها واما من قال بأنها من أوائل السور فاختلفوا فذهب الشافعي رحمه الله الى انه يجهر بها مع الفاتحة والسورة وهو مذهب طوائف من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين سلفا وخلفا فجهر بها من الصحابة أبو هريرة وابن عمر وابن عباس ومعاوية وحكاه ابن عبد البر والبيهقي عن عمر وعلى ونقله الخطيب عن الخلفاء الاربعة وهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وهو غريب (٢٨) ومن التابعين عن سعيد بن جبير وعكرمة وأبي قلابة والزهري وعلي بن الحسن وابنه محمد وسعيد بن المسيب وعطاء وطاوس ومجاهد وسالم ومحمد بن كعب القرظي وعبيد وأبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم وأبي وائل وابن سيرين ومحمد بن المنكدر وعلي بن عبد الله ابن عباس وابنه محمد ونافع مولى ابن عمر وزيد بن أسلم وعمر بن عبد العزيز والازرق بن قيس وحبيب بن أبي ثابت وأبي الشعثاء ومكحول وعبد الله بن معقل بن مقرن زاد البيهقي وعبد الله بن صفوان ومحمد ابن الحنفية زاد ابن عبد البر وعمرو ابن دينار والحجة في ذلك انها بعض الفاتحة فيجهر بها كسائر ابعاضها وأيضا فقد روى النسائي في سننه وابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما والحاكم في مستدركه عن أبي هريرة أنه صلى جهر في قراءته بالبسملة وقال بعد ان فرغ اني لأشبهكم صلاة برسول الله صلى الله عليه وسلم وصححه الدارقطني والخطيب والبيهقي وغيرهم وروى أبو داود والترمذي عن ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يفتتح الصلاة ببسم الله الرحمن الرحيم ثم قال الترمذي وليس اسناده بذاك وقد رواه الحاكم في مستدركه عن ابن عباس قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم ثم قال صحيح وفي صحيح البخاري عن أنس بن مالك انه سئل عن قراءة النبي صلى الله عليه وسلم فقال كانت قراءته مدا ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم يمد بسم الله ويمد الرحمن ويمد الرحيم وفي مسند الامام أحمد وسنن أبي داود وصحيح ابن خزيمة ومستدرك الحاكم عن أم سلمة رضي الله عنها قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقطع قراءته بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين وقال الدارقطني اسناد صحيح وروى الامام أبو عبد الله الشافعي والحاكم في مستدركه عن أنس ان

الرحمن عبراني والرحيم عربي وخالفهما غيرهما قال القرطبي وصف نفسه بهما لانه لما كان باتصافه برب العالمين ترهيب قرنه بالرحمن الرحيم لما تضمن من الترغيب ليجمع في صفاته بين الرهبة منه والرغبة اليه فيكون أعون على طاعته وأمنع وقيل فائدة تكريره هنا بعد الذكر في البسملة ان العناية بالرحمة اكثر من غيرها من الامور وان الحاجة اليها أكثر فنبه سبحانه بتكرير ذكر الرحمة على كثرتها وانه هو المتفضل بها على خلقه وفيه اثبات الصفات الذاتية كما في التي قبلها اثبات الصانع وحدوث العالم (مالك) قد اختلف العلماء أيما أبلغ ملك أو مالك والقراءتان مرويتان عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأبي بكر وعمر ذكرهما الترمذي فذهب الى الاول أبو عبيد والمبرد ورجحه الزمخشري والى الثاني أبو حاتم والقاضي أبو بكر بن العربي والحق ان لكل واحد من الوصفين نوع أخصية لا يوجد في الآخر فالمالك يقدر على ما لا يقدر عليه الملك من التصرفات بما هو مالك له بالبيع والهبة والعتق ونحوها والملك يقدر على ما لا يقدر عليه المالك من التصرفات العائدة الى تدبير الملك وحياطته ورعاية مصالح الرعية فأحدهما أقوى من الآخر في بعض الامور والفرق بين الوصفين بالنسبة الى الرب سبحانه ان الملك صفة لذاته والمالك صفة لفعله وقيل بينهما عموم مطلق فكل ملك مالك ولا عكس لعموم ولاية الملك التزاما لا مطابقة قاله التفتازاني وقيل هما بمعنى وقد أخرج الترمذي عن أم سلمة ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يقرأ ملك بغير ألف وأخرج نحوه ابن الانباري عن أنس وأخرج أحمد والترمذي عن أنس أيضا ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأبا بكر وعمر وعثمان كانوا يقرؤن مالك بالالف وأخرج نحوه سعيد بن منصور عن ابن عمر مرفوعا وأخرج نحوه أيضا وكيع في تفسيره وعبد بن حميد وأبو داود عن الزهري يرفعه مرسلا وأخرجه أيضا عبد الرزاق في تفسيره وعبد بن حميد وأبو داود عن ابن المسيب مرفوعا مرسلا وقد روي هذا من طرق كثيرة فهو أرجح من الاول ومالك بمعنى المستقبل قاله القرطبي واضافته الى ما بعده حقيقية او لفظية والتعويل على القرائن والمقامات قاله الكرخي وهذا أمس بالعربية وأقعد في طريقها قاله أبو القاسم الزجاجي قال الخطيب والتقييد بقوله (يوم الدين) لا ينافي الاستمرار لانه من غير اعتبار حدوث في أحد الازمنة انتهى واليوم في العرف عبارة عما بين طلوع الشمس وغروبها من الزمان وفي الشرع عما بين طلوع الفجر الثاني وغروب الشمس

معاوية صلى بالمدينة فترك البسملة فأنكر عليه من حضره من المهاجرين ذلك فلما صلى المرة الثانية بسمل وفي هذه الاحاديث والآثار التي أوردناها كفاية ومقنع في الاحتجاج لهذا القول عما عداها فاما المعارضات والروايات الغريبة وتطريقها وتعليلها وتضعيفها وتقريرها فله موضع آخر وذهب آخرون الى انه لا يجهر بالبسملة في الصلاة وهذا هو الثابت عن الخلفاء الاربعة وعبد الله بن معقل وطوائف من سلف التابعين والخلف وهو مذهب أبي حنيفة والثوري وأحمد بن حنبل وعند الامام مالك انه لا يقرأ البسملة بالكلية لا جهرا ولا سرا واحتجوا بما في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفتتح الصلاة بالتكبير والقراءة بالحمد لله رب العالمين وبما في الصحيحين عن أنس بن مالك قال صليت خلف النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر وعثمان فكانوا يفتتحون بالحمد لله رب العالمين ولمسلم لا يذكرون بسم الله الرحمن الرحيم في أول قراءة ولا في آخرها ونحوه في السنن عن عبد الله بن معقل رضي الله عنه فهذه مآخذ الائمة رحمهم الله في هذه المسئلة وهي قريبة لانهم أجمعوا على صحة صلاة من جهر بالبسملة ومن أسر ولله الحمد والمنة

(فصل)* في فضلها قال الامام العالم الحبر العابد أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم رحمه الله في تفسيره حدثنا أبي حدثنا جعفر بن مسافر حدثنا زيد بن المبارك الصنعاني حدثنا سلام بن وهب الجندي حدثنا أبي عن طاوس عن ابن عباس ان عثمان بن عفان سال رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بسم الله الرحمن الرحيم فقال هو اسم من أسماء الله وما بينه وبين اسم الله الاكبر الا كما بين سواد العينين وبياضهما من القرب وهكذا رواه ابو بكر بن مردويه عن سليمان بن احمد عن علي بن المبارك عن زيد بن المبارك به وقد روى الحافظ ابن مردويه من طريقين عن اسمعيل بن عياش عن اسمعيل بن يحيى عن مسعر عن عطية عن أبي سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان عيسى بن مريم عليه السلام اسلمته أمه الى الكتاب ليعلمه فقال له المعلم اكتب فقال ما أكتب قال بسم الله قال له عيسى وما بسم الله قال المعلم ما أدري قال له عيسى الباء بهاء الله والسين سناؤه والميم مملكته والله اله الآلهة والرحمن رحمن الدنيا والآخرة والرحيم رحيم الآخرة وقد رواه ابن جرير من حديث ابراهيم بن العلاء الملقب بابن زبريق عن اسمعيل بن عياش عن

الشمس والمراد هنا مطلق الوقت والدين الجزاء خيرا كان أو شرا ويوم الدين يوم الجزاء من الرب لعباده يقال كما تدين تدان أي كما تفعل تجازى ويدل له قوله تعالى وما أدراك ما يوم الدين يوم لا تملك نفس لنفس شيأ والامر يومئذ لله والاضافة هذه على طريق الاتساع لأدنى ملابسة أي مالك الامر كله في يوم الجزاء للعباد لان الامر فيه لله وحده ولذا خص بالذكر وعن ابن مسعود وناس من الصحابة انهم فسروا يوم الدين بيوم الحساب وقال قتادة يوم يدين الله العباد بأعمالهم وقيل في معنى الدين غير ذلك والاولى ما ذكرناه وهذه الاوصاف التي أجريت على الله من كونه ربا للعالمين موجدا لهم ومنعما بالنعم كلها ومالكا للامر كله يوم الجزاء بعد الدلالة على اختصاص الحمد به في قوله الحمد لله دليل على ان من كانت هذه صفاته لم يكن أحد أحق منه بالحمد والثناء عليه بل لا يستحقه على الحقيقة سواه فان ترتب الحكم على الوصف مشعر بعليته له وفي هذه الآية اثبات المعاد (اياك نعبد واياك نستعين) أي نخصك بالعبادة ونوحدك ونطيعك خاضعين لك ومنك نطلب المعونة على عبادتك وعلى جميع أمورنا وفي هذه الآية ابطال الجبر والقدر معا كما أشار اليه الثعلبي في تفسيره وايا عند سيبويه اسم مضمر والكاف حرف خطاب ولا محل له من الاعراب وهو الاصح وقد ارتضاه القاضي وعند الخليل اسم مضمر أضيف ايا اليه لانه يشبه المظهر لتقدمه على الفعل والفاعل وقال الكوفيون اياك بكمالها اسم وجملة الاقوال فيه سبعة عد منها الخفاجي خمسة فقط وتقديم المفعول على الفعل لقصد الاختصاص والحصر والقصر وقيل للاهتمام والصواب انه لهما ولا تزاحم بين المقتضيات والعبادة أقصى غايات الخضوع والتذلل والعبودية أدنى منها وسمي العبد عبدا لذلته وانقياده ولا تستعمل الا في الخضوع لله تعالى قال ابن كثير وفي الشرع عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف والاستعانة طلب المعونة وهي ضرورية وغير ضرورية والعدول عن الغيبة الى الخطاب لقصد الالتفات وتلوين النظم من باب الى باب وفيه الترقي من البرهان الى العيان والانتقال من الغيبة الى الشهود ومن المعقول الى المحسوس اللهم اجعلنا من الواصلين الى العين دون السامعين للاثر وقد يكون من الخطاب الى الغيبة ومن الغيبة الى التكلم كقوله تعالى حتى اذا كنتم في الفلك وجرين بهم أي بكم وقوله والله الذي أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه أي فساقه وقد يكون من التكلم الى الغيبة فهذه أربعة

اسمعيل بن يحيى عن ابن ابى مليكة عمن حدثه عن ابن مسعود ومسعر عن عطية عن أبى سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
فذكره وهذا غريب جدا وقد يكون صحيحا الى من دون رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد يكون من الاسرائيليات لا من المرفوعات
والله أعلم وقد روى جويبر عن الضحاك نحوه من قبله وقد روى ابن مردويه من حديث يزيد بن خالد عن سليمان بن بريدة وفى رواية
عن عبد الكريم ابى أمية عن ابى بريدة عن أبيه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أنزلت على آية لم تنزل على نبى غير سليمان بن
داود وغيرى وهى بسم الله الرحمن الرحيم . (٣٠) وروى باسناده عن عبد الكريم الكبير بن المعافى بن عمران عن أبيه عن
عمر بن ذر عن عطاء بن أبى رباح عن
جابر بن عبد الله قال لما نزل بسم الله
الرحمن الرحيم هرب الغيم الى
المشرق وسكنت الرياح وهاج البحر
وأصغت البهائم بآذانها ورجمت
الشياطين من السماء وحلف الله
تعالى بعزته وجلاله ان لا يسمى اسمه
على شئ الا بارك فيه وقال وكيع
عن الاعمش عن أبى وائل عن ابن
مسعود قال من أراد أن ينجيه الله
من الزبانية التسعة عشر فليقرأ بسم
الله الرحمن الرحيم فيجعل الله له من
كل حرف منها جنة من كل واحد
ذكره ابن عطية والقرطبى ووجهه
ابن عطية ونصره بحديث لقد رأيت
بضعة وثلاثين ملكا يتبدرونها
لقول الرجل ربنا ولك الحمد حمدا
كثيرا طيبا مباركا فيه من أجل انها
بضعة وثلاثون حرفا وغير ذلك وقال
الامام أحمد بن حنبل فى مسنده
حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة
عن عاصم قال سمعت أبا تميمة يحدث
عن رديف النبى صلى الله عليه وسلم
قال عثر بالنبى صلى الله عليه وسلم
فقلت تعس الشيطان فقال النبى
صلى الله عليه وسلم لا تقل تعس
الشيطان فانك اذا قلت تعس الشيطان تعاظم وقال بقوتى صرعته واذا قلت بسم الله تصاغر حتى يصير مثل
الذباب هكذا وقع فى رواية الامام أحمد وقد روى النسائى فى اليوم والليلة وابن مردويه فى تفسيره من حديث خالد الحذاء عن أبى
تميمة وهو الهجيمى عن أبى المليح بن اسامة بن عمير عن أبيه قال كنت رديف النبى صلى الله عليه وسلم فذكره وقال لا تقل هكذا
فانه يتعاظم حتى يكون كالبيت ولكن قل بسم الله فانه يصغر حتى يكون كالذبابة فهذا من تأثير بركة بسم الله ولهذا تستحب فى أول كل
عمل وقول فتستحب فى أول الخطبة لما جاء كل أمر لا يبدأ فيه بسم الله الرحمن الرحيم فهو أجذم وتستحب البسملة عند دخول

أقسام ذكرها البيضاوى والتحقيق انها ستة وهى ظاهرة لان الملتفت منه والملتفت اليه
اثنان وكل منهما اما غيبة او خطاب او تكلم والعرب يستكثرون منه لفوائد تستدعيه
ويرون الكلام اذا انتقل من أسلوب الى أسلوب آخر كان أدخل فى القبول عند السامع
وأحسن تطرية لنشاطه واملأ لاستلذاذ اصغائه وأكثر ايقاظا له كما تقرر فى علم المعانى وقد
تختص مواقعه بفوائد ولطائف قلما تتضح الا للحذاق المهرة وقليل ماهم ومما اختص به هذا
الموضع انه لما ذكر الحقيق بالحمد والثناء وأجرى عليه تلك الصفات تعلق العلم بمعلوم على
الذات سمى الصفات حرى بالثناء وغاية التذلل والاستعانة فى المهمات فخوطب ذلك المعلوم
للتميز بتلك الاوصاف فقيل اياك يامن هذه صفاته نعبد ونستعين لا غيرك والمجئ بالنون فى
الفعلين لقصد الاخبار من الداعى عن نفسه وعن جنسه من العباد أو عن سائر الموحدين
وفيه اشعار على التزام الجماعة وقدمت العبادة على الاستعانة لتوافق رؤس الآى
ولكون الاولى وسيلة الى الثانية وتقديم الوسائل سبب لتحصيل المطالب واطلاق العبادة
والاستعانة لقصد التعميم لتتناول كل معبود به ومستعان فيه واستحسنه الزمخشرى
وقال لتلاؤم الكلام وأخذ بعضه بحجزة بعض وتكرير الضمير للتنصيص على تخصيصه
تعالى بكل واحدة منهما ولابراز الالتذاذ بالمناجاة والخطاب وأخرج مسلم عن أبى هريرة عن
رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول الله قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين فنصفها
لى ونصفها لعبدى ولعبدى ماسأل فاذا قال العبد الحمد لله رب العالمين قال الله حمدنى عبدى
واذا قال الرحمن الرحيم قال اثنى على عبدى واذا قال مالك يوم الدين قال مجدنى عبدى
وربما قال فوض الى عبدى واذا قال اياك نعبد واياك نستعين قال هذا بينى وبين عبدى
ولعبدى ماسأل فاذا قال اهدنا الصراط المستقيم الخ قال هذا لعبدى ولعبدى ماسأل
وعن أبى طلحة قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى غزاة نلقى العدو فسمعته
يقول يامالك يوم الدين اياك نعبد واياك نستعين قال فلقد رأيت الرجال تصرع فتضربها
الملائكة من بين يديها ومن خلفها أخرجه البغوى والباوردى معا فى معرفة الصحابة
والطبرانى فى الاوسط وأبو نعيم فى الدلائل (اهدنا الصراط المستقيم) افراد لمعظم أفراد
المعونة المسؤلة بالذكر وتعيين لما هو الاهم أو بيان لها أى أرشدنا وقيل ثبتنا على المنهاج
الواضح او اهدنا فى الاستقبال كما هديتنا فى الحال وهذا الدعاء من المؤمنين مع كونهم على
الهداية

الخلاء لما ورد من الحديث في ذلك وتستحب في أول الوضوء لما جاء في مسند الامام احمد والسنن من رواية أبي هريرة وسعيد بن زيد وأبي سعيد مرفوعا لا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه وهو حديث حسن ومن العلماء من أوجبها عند الذكر ههنا ومنهم من قال بوجوبها مطلقا وكذا تستحب عند الذبيحة في مذهب الشافعي وجماعة وأوجبها آخرون عند الذكر ومطلقا في قول بعضهم كما سيأتي بيانه في موضعه ان شاء الله وقد ذكر الرازي في تفسيره في فضل البسملة أحاديث منها عن أبي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا أتيت أهلك فسم الله فانه ان وجد لك ولد كتب لك بعدد (٣١) انفاسه وانفاس ذريته حسنات وهذا لا أصل له ولا رأيته في شيء من الكتب المعتمد عليها ولا غيرها وهكذا يستحب عند الاكل لما في صحيح مسلم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لربيبه عمر بن أبي سلمة قل بسم الله وكل بيمينك وكل مما يليك ومن العلماء من أوجبها والحالة هذه وكذلك تستحب عند الجماع لما في الصحيحين عن ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لو أن أحدكم اذا أراد أن يأتي أهله قال بسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا فانه ان يقدر بينهما ولد لم يضره الشيطان أبدا ومن ههنا ينكشف لك ان القولين عند النحاة في تقدير المتعلق بالباء في قوله بسم الله هل هو اسم أو فعل متقاربان وكل قد ورد به القرآن أما من قدره باسم تقديره بسم الله ابتدائي فلقوله تعالى وقال اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها ان ربي لغفور رحيم ومن قدره بالفعل أمرا أو خبرا نحو ابدأ بسم الله أو ابتدأت بسم الله فلقوله تعالى اقرأ باسم ربك الذي خلق وكلاهما صحيح فان الفعل لابد له من مصدر فلك ان تقدر الفعل ومصدره وذلك بحسب الفعل الذي سميت قبله ان كان قياما أو قعودا أو أكلا أو شربا أو قراءة أو وضوءا أو صلاة فالمشروع ذكر اسم الله في الشروع في ذلك كله تبركا وتيمنا واستعانة على الاتمام والتقبل والله أعلم ولهذا روى ابن جرير وابن أبي حاتم من حديث بشر بن عمارة عن أبي روق عن الضحاك عن ابن عباس قال ان أول ما نزل به جبريل على محمد صلى الله عليه وسلم قال يا محمد قل استعيذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ثم قال قل بسم الله الرحمن الرحيم قال قال له جبريل بسم الله يا محمد يقول اقرأ بذكر الله ربك وقم واقعد بذكر الله تعالى لفظ ابن جرير وأما مسألة الاسم هل هو المسمى أو غيره ففيها للناس

الهداية بمعنى سؤال التثبيت وطلب مزيد الهداية والثبات عليه لان الالطاف والهدايات من الله تعالى لا تتناهى قال الله تعالى والذين اهتدوا زادهم هدى الآية وقال تعالى والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا والهداية هي الارشاد والتوفيق والتبيين أو الالهام أو الدلالة بلطف على ما يوصل الى البغية ثم هي قد يتعدى فعلها بنفسه كما هنا وكقوله وهديناه النجدين وقد يتعدى بالى كقوله اجتباه وهداه الى صراط مستقيم وقوله فاهدوهم الى صراط الجحيم وانك لتهدي الى صراط مستقيم وقد يتعدى باللام كقوله هدانا لهذا وقوله يهدي للتي هي أقوم وقال الزمخشري أصله ان يتعدى باللام أو بالى انتهى وفرق كثير من المتأخرين بين المتعدي بنفسه وغير المتعدي فقالوا معنى الاول الايصال ومعنى الثاني الدلالة والصراط بالصاد الخالصة لغة قريش وهي الجادة والسين قراءة ابن كثير في كل القرآن ويذكر ويؤنث كالطريق والسبيل فالتذكير لغة تميم والتأنيث لغة الحجاز وجمعه صرط وقد تشم الصاد صوت الزاي تحريا للقرب من المبدل منه وقد قرئ بهن جميعا وفصحاهن الصاد وهي الثابتة في الامام أي في مصحف عثمان رضي الله عنه كتابة وخطا المسمى اماما عند القراء والمفسرين وغيرهم فان الامام لغة ما يؤتم ويقتدى به فيتبع وان لم يكن من العقلاء ولهذا أطلق على اللوح والكتاب كما قال تعالى ومن قبله كتاب موسى اماما ورحمة فسمي الكتاب اماما على وجه وقد كان سنة ثلاثين لما سار حذيفة رضي الله تعالى عنه لبعض الغزوات وعاد قال لعثمان رضي الله تعالى عنه اني رأيت أمرا عجيبا رأيت الناس يقول بعضهم لبعض قراءتي خير من قراءتك فان تركوا اختلفوا في القرآن فيكون لذلك أمر فجمع عثمان الصحابة رضي الله عنهم واستشارهم فاشاروا عليه بجمعهم على مصحف واحد فأرسل الى حفصة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها ان ترسل الصحف لتنسخ وكان أبو بكر رضي الله تعالى عنه جمعها لما كثر قتل الصحابة رضي الله تعالى عنهم باليمامة وهو الجمع الاول فأرسلتها اليه فأمر عثمان رضي الله تعالى عنه زيد بن ثابت وابن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحرث فنسخوها في مصاحف اختلف في عددها كما في شرح الرائية للسخاوي رحمه الله تعالى وأرسل الى كل مصر مصحفا وحرق ما سواها فسمي كل من تلك المصاحف اماما لا المصحف الذي كان عند عثمان رضي الله تعالى عنه وحده كما قيل ذكره الخفاجي والمستقيم المستوي والمراد به طريق الحق وملة الاسلام قال

ثلاثة أقوال أحدها ان الاسم هو المسمى وهو قول أبي عبيدة وسيبويه واختاره الباقلاني وابن فورك وقال الرازي وهو محمد ابن عمر المعروف بابن خطيب الرازي في مقدمات تفسيره قالت الحشوية والكرامية والاشعرية الاسم نفس المسمى وغير نفس التسمية وقالت المعتزلة الاسم غير المسمى ونفس التسمية والمختار عندنا ان الاسم غير المسمى وغير التسمية ثم نقول ان كان المراد بالاسم هذا اللفظ الذي هو أصوات مقطعة وحروف مؤلفة فالعلم الضروري حاصل أنه غير المسمى وان كان المراد بالاسم ذات المسمى فهذا يكون من باب ايضاح الواضحات وهو عبث فثبت ان الخوض في هذا البحث على جميع التقديرات يجري مجرى العبث ثم شرع يستدل على مغايرة الاسم للمسمى بأنه قد يكون الاسم موجودا والمسمى مفقودا كلفظة المعدوم وبانه قد يكون للشيء أسماء متعددة كالمترادفة وقد يكون الاسم واحدا والمسميات متعددة كالمشترك وذلك دال على تغاير الاسم والمسمى وأيضا فالاسم لفظ وهو عرض والمسمى قد يكون ذاتا ممكنة أو واجبة بذاتها وأيضا فلفظ النار والثلج لو كان هو المسمى لوجد اللافظ بذلك حر النار أو برد الثلج ونحو ذلك ولا يقوله عاقل وأيضا فقد قال الله تعالى ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها وقال النبي صلى الله عليه وسلم ان لله تسعة وتسعين اسما فهذه أسماء كثيرة والمسمى واحد وهو الله تعالى وأيضا فقوله ولله الاسماء أضافها اليه كما قال فسبح باسم ربك العظيم ونحو ذلك فالاضافة تقتضي المغايرة وقوله تعالى فادعوه بها أي فادعوا الله باسمائه وذلك دليل على انها غيره واحتج من قال الاسم هو المسمى بقوله تعالى تبارك اسم ربك ذو الجلال والاكرام والمتبارك هو الله تعالى والجواب ان الاسم معظم لتعظيم الذات المقدسة فهو وأيضا فاذا قال الرجل زينب طالق يعني امرأته طلقت ولو كان الاسم غير المسمى لما وقع الطلاق والجواب ان المراد ان الذات المسماة بهذا الاسم طالق قال الرازي وأما التسمية فانها جعل الاسم معينا لهذه الذات فهي غير الاسم أيضا والله أعلم (الله) علم على الرب تبارك وتعالى يقال انه الاسم الاعظم لانه يوصف بجميع الصفات كما قال تعالى هو الله الذي لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم هو الله الذي لا اله الا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار

ابن كثير أجمعت الامة من أهل التأويل جميعا على ان الصراط المستقيم هو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه وهو كذلك في لغة جميع العرب وهي الملة الحنيفية السمحة المتوسطة بين الافراط والتفريط وعن جابر بن عبد الله انه قال هو دين الاسلام وهو أوسع مما بين السماء والارض وعن النواس بن سمعان عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال ضرب الله مثلا صراطا مستقيما وعلى جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة وعلى الابواب ستور مرخاة وعلى باب الصراط داع يقول يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعا ولا تتفرقوا وداع يدعو من فوق الصراط فاذا أراد الانسان أن يفتح شيأ من تلك الابواب قال ويحك لا تفتحه فانك ان تفتحه تلجه فالصراط الاسلام والسوران حدود الله والابواب المفتحة محارم الله وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله والداعي من فوق واعظ الله تعالى في قلب كل مسلم قال ابن كثير هو اسناد حسن صحيح وعن ابن مسعود هو كتاب الله وقيل السنة والجماعة وعن أبي العالية هو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وصاحباه من بعده وعن الفضيل بن عياض انه طريق الحج وقيل معناه اهدنا صراط المستحقين الجنة وعن ابن عباس ان معناه ألهمنا دينك الحق وهو الاولى لاعتبار العموم (صراط الذين أنعمت عليهم) بدل كل من كل وفائدته التوكيد والتنصيص على ان صراط المسلمين هو المشهود عليه بالاستقامة والاستواء على آكد وجه وأبلغه بحيث لا يذهب الوهم عند ذكره الا اليه والانعام ايصال النعمة والاحسان الى الغير اذا كان من العقلاء ونعم الله تعالى مع استحالة احصائها ينحصر أصولها في دنيوي وأخروي وأطلقه ليشمل كل انعام فان نعمة الاسلام عنوان النعم كلها فمن فاز بها فقد حازها بحذافيرها ثم المراد بالموصول هم الاربعة المذكورة في سورة النساء حيث قال ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا وقال ابن عباس هم قوم موسى وعيسى الذين لم يغيروا ولم يبدلوا وقيل هم أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته وقيل هم الانبياء خاصة وقيل مطلق المؤمنين والاول أولى وفيه الاشارة الى الاقتداء بالسلف الصالح وهو غير التقليد (غير المغضوب عليهم) بدل كل من كل أي غير صراط الذين غضبت عليهم وهم اليهود لقوله تعالى فيهم من لعنه الله وغضب عليه قال القرطبي الغضب في اللغة الشدة وفي صفة الله ارادة العقوبة

فهو صفة ذاته أو نفس العقوبة ومنها حديث ان الصدقة لتطفئ غضب الرب فهو صفة فعله وغضب الله لا يلحق عصاة المؤمنين وانما يلحق الكافرين والعدول عن اسناد الغضب اليه تعالى كالانعام جرى على منهاج الآداب التنزيلية في نسبة النعم والخيرات اليه عز وجل دون اضدادها وفي عليهم عشر لغات وكلها صواب قاله ابن الانباري (ولا الضالين) لا زائدة قاله الطبري والزمخشري وقيل هي تأكيد حكاه مكي والمهدوي وقيل بمعنى غير قاله الكوفيون والمحلي أي وغير الضالين عن الهدى وهم النصارى لقوله عز وجل قد ضلوا من قبل الآية وأصل الضلال الغيبوبة والهلاك ومنه ضل اللبن في الماء أي غاب وقال القرطبي هو في لسان العرب الذهاب عن سنن القصد وطريق الحق أخرج أحمد وعبد بن حميد والترمذي وحسنه وابن حبان وصححه قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان المغضوب عليهم هم اليهود وان الضالين النصارى ورواه أبو الشيخ عن عبد الله بن شقيق مرفوعا وابن مردويه عن أبي ذر مثله وبه قال ربيع بن انس ومجاهد وابن جبير وانما سموا بها لاختصاص كل منهما بما غلب عليه وقيل أراد المغضوب عليهم بالبدعة والضالين عن السنة قاله القرطبي وقيل اللفظ يعم الكفار والعصاة والمبتدعة لقول الله تعالى في القاتل عمدا وغضب الله عليه وقال فماذا بعد الحق الا الضلال وقال الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وقيل غير ذلك وأنت خبير بأن جعل الموصول عبارة عما ذكر من طائفة غير معينة مخل ببدلية ما أضيف اليه مما قبله فالمصير الى التفسير النبوي متعين وهو الذي أطبق عليه أئمة التفسير من السلف قال ابن أبي حاتم لا أعلم خلافا بين المفسرين في هذا التفسير ويشهد له آيات من القرآن كما تقدم قال القرطبي سورة الفاتحة مشتملة على أربعة أنواع من العلوم هي مناط الدين أحدها علم الاصول واليه الاشارة بقوله الحمد لله الى الرحيم ومعرفة النبوات وهي قوله أنعمت عليهم ومعرفة المعاد وهي قوله مالك يوم الدين وثانيها علم الفروع وأعظمه العبادات وهي اياك نعبد والعبادة مالية وبدنية وثالثها علم الاخلاق وهو قوله اياك نستعين الى المستقيم ورابعها علم القصص والاخبار عن الامم السالفة السعداء منهم والاشقياء وهو المراد بقوله أنعمت عليهم الى آخر السورة انتهى ملخصا وللامامين الغزالي والرازي في تقرير اشتمالها على علوم القرآن بسط كثير حتى استخرج الرازي منها عشرة آلاف مسئلة وأول

المتكبر سبحان الله عما يشركون هو الله الخالق البارئ المصور له الاسماء الحسنى يسبح له ما في السموات والارض وهو العزيز الحكيم فأجرى الاسماء الباقية كلها صفات له كما قال تعالى ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها وقال تعالى قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الاسماء الحسنى وفي الصحيحين عن أبي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان لله تسعة وتسعين اسما مائة الا واحدا من أحصاها دخل الجنة وجاء تعدادها في رواية الترمذي وابن ماجه وبين الروايتين اختلاف زيادة ونقصان وقد ذكر الرازي في تفسيره عن بعضهم ان لله خمسة آلاف اسم ألف في الكتاب والسنة الصحيحة وألف في التوراة وألف في الانجيل وألف في الزبور وألف في اللوح المحفوظ وهو اسم لم يسم به غيره تبارك وتعالى ولهذا لا يعرف في كلام العرب له اشتقاق من فعل يفعل فذهب من ذهب من النحاة الى انه اسم جامد لا اشتقاق له وقد نقله القرطبي عن جماعة من العلماء منهم الشافعي والخطابي وامام الحرمين والغزالي وغيرهم وروى عن الخليل وسيبويه أن الالف واللام فيه لازمة قال الخطابي ألا ترى انك تقول يا الله ولا تقول يا الرحمن فلولا انه من أصل الكلمة لما جاز ادخال حرف النداء على الالف واللام وقيل انه مشتق واستدلوا عليه بقول رؤبة بن العجاج

لله در الغانيات المده

سبحن واسترجعن من تألهي

فقد صرح الشاعر بلفظ المصدر وهو التأله من أله يأله الهة وتألها كما روى عن ابن عباس انه قرأ ويذرك والهتك قال عبادتك أي انه كان يعبد ولا يعبد وكذا قال مجاهد وغيره وقد استدل بعضهم على كونه مشتقا بقوله تعالى وهو الله في السموات وفي الارض كما قال تعالى وهو الذي في السماء اله وفي الارض اله ونقل سيبويه عن الخليل ان أصله اله مثل فعال فادخلت الالف واللام بدلا من الهمزة قال سيبويه مثل الناس أصله اناس وقيل أصل الكلمة لاه فدخلت الالف واللام للتعظيم وهذا اختيار سيبويه قال الشاعر لاه ابن عمك لا أفضلت في حسب * عني ولا أنت دياني فتخزوني قال القرطبي بالخاء المعجمة أي فتسوسني وقال الكسائي والفراء أصله الاله حذفوا الهمزة وادغموا اللام الاولى في الثانية كما قال لكنا هو الله ربي أي لكن أنا وقد قرأها كذلك الحسن قال القرطبي ثم قيل هو مشتق من وله اذا تحير والوله ذهاب العقل يقال رجل واله وامرأة والهة

وولوهة اذا أرسل فى الصحراء فالله تعالى يحير أولئك والفكر فى حقائق صفاته فعلى هذا يكون ولاه فابدلت الواو همزة كما قالوا فى
وشاح اشاح ووسادة اسادة وقال الرازى وقيل انه مشتق من ألهت الى فلان أى سكنت اليه فالعقول لا تسكن الا الى ذكره والارواح
لا تفرح الا بمعرفته لانه الكامل على الاطلاق دون غيره قال الله تعالى ألا بذكر الله تطمئن القلوب الذين آمنوا قال وقيل من لاه
يلوه اذا احتجب وقيل اشتقاقه من أله الفصيل أولع بأمه والمعنى ان العباد مألوهون مولعون بالتضرع اليه فى كل الاحوال قال وقيل
مشتق من أله الرجل يأله اذا فزع من أمر نزل به فآلهه اى اجاره فالمجير لجميع الخلائق من كل المضار هو الله سبحانه

لقوله تعالى وهو يجير ولا يجار عليه
وهو المنعم لقوله تعالى وما بكم من
نعمة فمن الله وهو المطعم لقوله تعالى
وهو يطعم ولا يطعم وهو الموجد
لقوله تعالى قل كل من عند الله
وقد اختار الرازى أنه اسم غير
مشتق البتة قال وهو قول الخليل
وسيبويه وأكثر الاصوليين
والفقهاء ثم أخذ يستدل على ذلك
بوجوه منها انه لو كان مشتقا لاشترك
فى معناه كثيرون ومنها أن بقية
الاسماء تذكر صفات له فتقول الله
الرحمن الرحيم الملك القدوس فدل
انه ليس بمشتق قال فأما قوله تعالى
العزيز الحميد الله على قراءة الجر
فجعل ذلك من باب عطف البيان
ومنها قوله تعالى هل تعلم له سميا وفى
الاستدلال بهذه على كون هذا الاسم
جامدا غير مشتق نظر والله أعلم وحكى
الرازى عن بعضهم ان اسم الله
تعالى عبرانى لا عربى ثم ضعفه وهو
حقيق بالتضعيف كما قال وقد حكى
الرازى هذا القول ثم قال واعلم ان
الخلائق قسمان واصلون الى
ساحل بحر المعرفة ومحرومون قد
بقوا فى ظلمات الحيرة وتيه الجهالة
فكأنهم قد فقدوا عقولهم وأرواحهم وأما الواجدون فقد وصلوا الى عرصة النور وفسحة الكبرياء والجلال فذكره
فتاهوا فى ميادين الصمدية وبادوا فى عرصة الفردانية فثبت ان الخلائق كلهم والهون فى معرفته وروى عن الخليل بن أحمد انه
قال لان الخلق يألهون اليه بنصب اللام وكسرها لغتان وقيل انه مشتق من الارتفاع فكانت العرب تقول لكل شئ مرتفع لاها
وكانوا يقولون اذا طلعت الشمس لاهت وقيل انه مشتق من أله الرجل اذا تعبد وتأله اذا تنسك وقرأ ابن عباس ويذرك والهتك
وأصل ذلك الاله فحذفت الهمزة التى هى فاء الكلمة فالتقت اللام التى هى عينها مع اللام الزائدة فى أولها للتعريف فأدغمت

السورة مشتمل على الحمدلة وآخرها على الذم للمعرضين عن الايمان وذلك يدل على ان
مطلع الخيرات وعنوان السعادات هو الاقبال على الله ورأس الآفات وأس المخالفات
هو الاعراض عنه والبعد عن طاعته وعاقبة ذلك الغضب والضلال واعلم ان السنة
الصحيحة الصريحة الثابتة تواترا قد دلت على مشروعية التأمين بعد قراءة الفاتحة فمن
ذلك ما أخرجه أحمد وأبو داود والترمذى عن وائل بن حجر قال سمعت رسول الله صلى الله
عليه وآله وسلم قرأ غير المغضوب عليهم ولا الضالين فقال آمين مد بها صوته ولابى داود رفع
بها صوته وقد حسنه الترمذى وأخرجه أيضا النسائى وابن أبى شيبة وابن ماجه والحاكم
وصححه وفى لفظ من حديثه انه صلى الله عليه وآله وسلم قال رب اغفر لى آمين أخرجه
الطبرانى وأخرج مسلم وأبو داود والنسائى وابن ماجه عن أبى موسى قال قال رسول الله
صلى الله عليه وآله وسلم اذا قرأ يعنى الامام غير المغضوب عليهم ولا الضالين فقولوا آمين
يجبكم الله وأخرج البخارى ومسلم وأهل السنن وأحمد وابن أبى شيبة وغيرهم ان رسول
الله صلى الله عليه وآله وسلم قال اذا أمن الامام فامنوا فان من وافق تأمينه تأمين
الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه زاد الجرجانى فى أماليه وما تأخر قيل هم الحفظة وقيل
غيرهم من الملائكة ويعنى الذنوب الصغائر دون الكبائر وفى الباب احاديث بين صحيح منها
وضعيف وآمين اسم فعل بمعنى اللهم اسمع واستجب لنا وتقبل عند أكثر أهل العلم قاله
القرطبى وفى الصحاح معناه كذلك فليكن وبه قال ابن عباس وعنه قال قلت يا رسول
الله ما معنى آمين قال رب افعل أخرجه جويبر فى تفسيره وعن هلال بن يساف ومجاهد
قالا آمين اسم من أسماء الله وقال الترمذى معناه لا تخيب رجانا وقيل هو خاتم الله على
عباده يدفع به عنهم الآثام رواه الطبرانى عن على بسند ضعيف وعنه صلى الله عليه وآله
وسلم انه كالختم على الكتاب رواه أبو داود والاول أولى قيل وليس من القرآن اجماعا بدليل
انه لم يثبت فى المصاحف وفيه لغتان المد وهو اسم أعجمى لانه بزنة قابيل وهابيل والقصر
على وزن يمين قال مجنون ليلى

يارب لا تسلبنى حبها أبدا * ويرحم الله عبدا قال آمينا

أى بالمد وقال جبير لما سال فطحلا

تباعد عنى فطحل اذ سألته * أمين فزاد الله ما بيننا بعدا

احداهما فى الاخرى فصار تافى اللفظ لاما واحدة مشددة ونخمت تعظيما فقيل الله (الرحمن الرحيم) اسمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة ورحمن أشد مبالغة من رحيم وفى كلام ابن جرير ما يفهم منه حكاية الاتفاق على هذا وفى تفسير بعض السلف ما يدل على ذلك كما تقدم فى الاثر عن عيسى عليه السلام انه قال والرحمن رحمن الدنيا والآخرة والرحيم رحيم الآخرة وقد زعم بعضهم انه كان غير مشتق اذ لو كان كذلك لاتصل بذكر المرحوم وقد قال وكان بالمؤمنين رحيما وحكى ابن الانبارى فى الزاهر عن المبرد أن الرحمن اسم عبرانى ليس بعربى وقال أبو اسحق الزجاج فى معانى القرآن وقال أحمد بن يحيى الرحيم عربى والرحمن عبرانى فلهذا جمع بينهما قال أبو اسحق وهذا القول مرغوب عنه وقال القرطبي والدليل على انه مشتق ما خرجه الترمذى وصححه عن عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قال الله تعالى أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسما من اسمى فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته قال وهذا نص فى الاشتقاق فلا معنى للمخالفة والشقاق قال وانكار العرب لاسم الرحمن لجهلهم بالله وبما وجب له قال القرطبي ثم قيل هما بمعنى واحد كندمان ونديم قاله أبو عبيد وقيل ليس بناء فعلان كفعيل فان فعلان لا يقع الا على مبالغة الفعل نحو قولك رجل غضبان للرجل الممليء غضبا وفعيل قد يكون بمعنى الفاعل والمفعول قال أبو على الفارسى الرحمن اسم عام فى جميع أنواع الرحمة يختص به الله تعالى والرحيم انما هو من جهة المؤمنين قال الله تعالى وكان بالمؤمنين رحيما وقال ابن عباس هما اسمان رقيقان أحدهما أرق من الآخر أى أكثر رحمة ثم حكى عن الخطابى وغيره انهم استشكلوا هذه الصفة وقالوا لعله أرفق كما فى الحديث ان الله رفيق يحب الرفق فى الامر كله وانه يعطى على الرفق ما لا يعطى على العنف وقال ابن المبارك الرحمن اذا سئل أعطى والرحيم اذا لم يسئل يغضب وهذا كما جاء فى الحديث الذى رواه الترمذى وابن ماجه عن حديث أبى صالح الفارسى الخوزى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من لم يسأل الله يغضب عليه وقال بعض الشعراء

الله يغضب ان تركت سؤاله * وبنى آدم حين يسئل يغضب

وقال ابن جرير حدثنا السرى بن يحيى التميمى حدثنا عثمان

فذكره مقصورا قال الجوهرى وتشديد الميم خطأ ولكنه روى عن الحسن وجعفر الصادق التشديد وبه قال الحسين بن الفضل من أم اذا قصد اى نحن قاصدون خيرك يا الله وهو مبنى على الفتح مثل أين وكيف لاجتماع الساكنين ويقال منه أمن فلان تأمينا وهذه الكلمة لم تكن قبلنا الا لموسى وهرون كذا ذكر الحكيم الترمذى فى نوادر الاصول عن أنس بن مالك مرفوعا وقيل بل هى خاصة بهذه الامة لما روى عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم ما حسدتكم اليهود على شئ ما حسدتكم على السلام والتأمين أخرجه ابن ماجه وفى الباب أحاديث وقد اختلف أهل العلم فى الجهر بها وفى ان الامام يقولها أم لا وذلك مبين فى مواطنه وكذلك اختلفوا فى وجوب قراءة الفاتحة فذهب جمهور العلماء منهم مالك والشافعى وأحمد الى وجوبها وانها متعينة فى الصلاة لا تجزئ الا بها لقوله صلى الله عليه وآله وسلم لا صلاة لمن لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب أخرجه الشيخان عن عبادة بن الصامت وذهب أبو حنيفة الى أنها لا تتعين على المصلى بل الواجب عليه قراءة آية من القرآن طويلة أو ثلاث آيات قصار لقوله تعالى فاقرؤا ما تيسر منه والاول أرجح ويدل عليه حديث أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا تجزئ صلاة لمن لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب أخرجه الدارقطنى وقال اسناده صحيح والكلام فى هذا يطول وقد بينه الشوكانى فى نيل الاوطار وأوضحناه فى مسك الختام وسيأتى ان شاء الله تعالى فى آخر الاعراف شئ مما يتعلق بهذا المقام هذا وقد اتفق أهل العلم على أن أعظم المقصود من تنزيل الكتاب العزيز هو اخلاص التوحيد لله عزوجل وقطع علائق الشرك كائنة ما كانت وذلك لا يحتاج الى ان تنقل فيه أقوال الرجال أو يستدل عليه بالادلة فانه الامر الذى بعث الله لاجله رسله وأنزل فيه كتبه وفى هذا الاجمال ما يغنى عن التفصيل ومن شك فى هذا فعليه بالتفكر فى القرآن الكريم فانه سيجده من أعظم مقاصده وأكبر موارده فان عجز عن ذلك فلينظر فى سورة من سوره فان قلت اريد منك مثالا اقتدى به وأمشى على طريقته وأهتدى الى التفكر الذى أرشدتنى اليه بتقديم النظر فيه فنقول ها نحن نقرب لك المسافة ونسهل عليك ما استصعبته هذه فاتحة الكتاب العزيز التى يكررها كل مصل فى كل صلاة ويفتتح بها التالى لكتاب الله والمتعلم له فان فيها الارشاد الى اخلاص التوحيد فى ثلاثين موضعا * الاول قوله تعالى بسم الله الرحمن الرحيم فان

علماء المعاني والبيان ذكروا أنه يقدر المتعلق متأخرا ليفيد اختصاص البداية باسم الله تعالى لا باسم غيره وفي هذا المعنى مالا يخفى من اخلاص التوحيد * الثاني والثالث الاسم الشريف أعني لفظ الله عز وجل فان مفهومه كما حققه علماء هذا الشأن الواجب الوجود المختص بجميع المحامد فكان في هذا المفهوم اشارة الى اخلاص التوحيد أحدهما تفرده بوجوب الوجود وثانيهما اختصاصه بجميع المحامد فاستفيد من الاسم الشريف الذي أضيف اليه لفظ اسم هذان الامران * الرابع تحلية الرحمن باللام فانها من أدوات الاختصاص سواء كانت موصولة كما هو شأن آلة التعريف اذا دخلت على المشتقات او لمجرد التعريف كما يكون اذا دخلت على غيرها من الاسماء والصفات وقد أوضح هذا المعنى أهل البيان بما لا مزيد عليه * الخامس اللام الداخلة على قوله الرحيم والكلام فيها كالكلام في الرحمن * السادس اللام الداخلة على قوله الحمد لله فانها تفيد أن كل حمد له لا يشاركه فيه غيره وفي هذا أعظم دلالة على اخلاص توحيده * السابع لام الاختصاص الداخلة على الاسم الشريف وقد تقرر ان الحمد هو الثناء باللسان على الجميل الاختياري لقصد التعظيم فلا ثناء الا عليه ولا جميل الا منه ولا تعظيم الا له وفي هذا من أدلة اخلاص التوحيد مالا يقادر قدره * الثامن والتاسع والعاشر والحادي عشر والثاني عشر قوله رب العالمين فان لفظ الرب باعتبار معناه اللغوي مشعر أتم اشعار باخلاص توحيده هذا باعتبار معناه الافرادي دون الاضافي ثم في معناه الاضافي دلالة أخرى فان كونه رب العالمين يدل على ذلك أبلغ دلالة ثم في لفظ العالمين معنى ثالث لما تقرر لغة وشرعا أن العالم هو اسم لما عدا الله عز وجل فيدخل في هذا كل شيء غير الله سبحانه فلا رب غيره وكل ماعداه فهو مربوب وصيغ الحصر اذا تتبعتها من كتب المعاني والبيان والتفسير والاصول بلغت ثلاث عشرة صيغة فصاعدا ومن شك في هذا فليتتبع كشاف الزمخشري فانه سيجد فيه ماليس له ذكر في كتب المعاني والبيان كالقلب فانه جعله من مقتضيات الحصر ولعله ذكر ذلك عند تفسيره للطاغوت وغير ذلك مما لا يقتضي المقام بسطه ومع الاحاطة بصيغ الحصر المذكورة تكثر الأدلة الدالة على اخلاص التوحيد وابطال الشرك بجميع أقسامه ولو أراد رجل أن يجمع ماورد في هذا المعنى من الكتاب والسنة لكان مجلدا ضخما ثم في تعريفه باللام معنى رابع كمثل ماقدمنا فانها تفيد زيادة الاختصاص

ابن زفر سمعت العزرمي يقول الرحمن الرحيم قال الرحمن لجميع الخلق الرحيم قال بالمؤمنين قالوا ولهذا قال ثم استوى على العرش الرحمن وقال الرحمن على العرش استوى فذكر الاستواء باسمه الرحمن ليعم جميع خلقه برحمته وقال وكان بالمؤمنين رحيما فخصهم باسمه الرحيم قالوا فدل على ان الرحمن أشد مبالغة في الرحمة لعمومها في الدارين لجميع خلقه والرحيم خاصة بالمؤمنين لكن جاء في الدعاء المأثور رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما واسمه تعالى الرحمن خاص به لم يسم به غيره كما قال تعالى قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياما تدعوا فله الاسماء الحسنى وقال تعالى واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ولما تجهرم مسيلمة الكذاب وتسمى برحمن اليمامة كساه الله جلباب الكذب وشهر به فلا يقال له الا مسيلمة الكذاب فصار يضرب به المثل في الكذب بين أهل الحضر من أهل المدر وأهل الوبر من أهل البادية والاعراب وقد زعم بعضهم ان الرحيم أشد مبالغة من الرحمن لانه أكد به والمؤكد لا يكون الا أقوى من المؤكد والجواب ان هذا ليس من باب التأكيد وانما هو من باب النعت ولا يلزم فيه ماذكروه وعلى هذا فيكون تقدير اسم الله الذي لم يسم به أحد غيره ووصفه أولا بالرحمن الذي منع من التسمية به لغيره كما قال تعالى قل ادعوا الله او ادعوا الرحمن أياما تدعوا فله الاسماء الحسنى وانما تجهرم مسيلمة اليمامة في التسمي به ولم يتابعه على ذلك الا من كان معه في الضلالة وأما الرحيم فانه تعالى وصف به غيره حيث قال لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤف رحيم كما وصف غيره بذلك من أسمائه كما قال تعالى انا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا والحاصل ان من أسمائه تعالى مايسمى به غيره ومنها ما لا يسمى به غيره كاسم الله والرحمن والخالق والرزاق ونحو ذلك فلهذا بدأ باسم الله ووصفه بالرحمن لانه أخص وأعرف من الرحيم لان التسمية أولا انما تكون بأشرف الاسماء فلهذا ابتدأ بالاخص فالاخص فان قيل فاذا كان الرحمن أشد مبالغة فهلا اكتفى به عن الرحيم فقد روى عن عطاء الخراساني مامعناه انه لما تسمى غيره تعالى بالرحمن جيء بلفظ الرحيم ليقطع الوهم بذلك فانه لا يوصف بالرحمن الرحيم الا الله تعالى كذا رواه ابن جرير عن عطاء ووجهه بذلك والله أعلم وقد زعم بعضهم ان العرب لا تعرف الرحمن حتى رد الله عليهم ذلك بقوله

قل ادعوا الله اوادعوا الرحمن ايا ما تدعوا فله الاسماء الحسنى ولهذا قال كفار قريش يوم الحديبية لما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلى اكتب بسم الله الرحمن الرحيم فقالوا لا نعرف الرحمن ولا الرحيم رواه البخارى وفى بعض الروايات لا نعرف الرحمن الا رحمن اليمامة وقال تعالى واذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا والظاهر ان انكارهم هذا انما هو جحود وعناد وتعنت فى كفرهم فانه قد وجد فى أشعارهم فى الجاهلية تسمية الله تعالى بالرحمن قال ابن جرير وقد أنشد بعض الجاهلية الجهال ألا ضربت تلك الفتاة هجينها * الا قضب الرحمن ربى (٣٧) يمينها وقال سلامة بن جندب الطهوى

عجلتم علينا اذ عجلنا عليكم
وما يشا الرحمن يعقد ويطلق

وقال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا عثمان بن سعيد حدثنا بشر ابن عمارة حدثنا أبو روق عن الضحاك عن عبد الله بن عباس قال الرحمن الفعلان من الرحمة وهو من كلام العرب قال الرحمن الرحيم الرفيق الرقيق لمن أحب أن يرحمه والبعيد الشديد على من أحب أن يعنف عليه وكذلك اسماؤه كلها وقال ابن جرير أيضا حدثنا محمد ابن بشار حدثنا حماد بن مسعدة عن عوف عن الحسن قال الرحمن اسم ممنوع وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو سعيد بن يحيى بن سعيد القطان حدثنا زيد بن الحباب حدثنى أبو الاشهب عن الحسن قال الرحمن اسم لا يستطيع الناس أن ينتحلوه تسمى به تبارك وتعالى وقد جاء فى حديث أم سلمة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقطع قراءته حرفا حرفا بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين فقرأ بعضهم كذلك وهم طائفة ومنهم من وصلها بقوله الحمد لله رب العالمين وكسرت الميم لالتقاء الساكنين وهم الجمهور وحكى الكسائى من الكوفيين عن بعض العرب انها تقرأ بفتح الميم وصلة الهمزة فيقولون بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين فنقلوا حركة الهمزة الى الميم بعد تسكينها كما قرئ قوله تعالى الم الله لا اله الا هو قال ابن عطية ولم ترد هذه قراءة عن أحد فيما علمت (الحمد لله رب العالمين) القراء السبعة على ضم الدال فى قوله الحمد لله هو مبتدأ وخبر وروى عن سفيان بن عيينة ورؤبة بن العجاج انهما قالا الحمد لله بالنصب وهو على اضمار فعل وقرأ ابن أبى عبلة الحمد لله بضم الدال واللام اتباعا للثانى الاول وله شواهد لكنه شاذ وعن الحسن وزيد بن على الحمد لله بكسر الدال

الاختصاص وتقرر ذلك المفهوم فى هذا الموضع ثم فى صيغة الجمع معنى خامس بزيادة تأكيد وتقرير فان العالم ان كان اسما لما عدا الله لم يكن جمعه الا لمثل هذا المعنى وعلى فرض انهدامه باللام فهو لا يقتضى ذهاب هذا المعنى المستفاد من أصل الجمع * الثالث عشر والرابع عشر قوله الرحمن الرحيم وتقرير الكلام فيهما كما سلف * الخامس عشر * والسادس عشر * قوله مالك يوم الدين فان لفظ مالك معناه الافرادى من غير نظر الى معناه الاضافى يفيد استحقاقه باخلاص توحيده ثم فى معناه الاضافى الى يوم الدين معنى ثان فان من كان له الملك فى مثل هذا اليوم الذى هو يوم الجزاء لكل العباد وفيه يجتمع العالم أولهم وآخرهم سابقهم ولاحقهم جنهم وانسهم وملائكتهم فيه اشارة الى استحقاقه اخلاص توحيده * السابع عشر ما يستفاد من نفس لفظ الدين من غير نظر الى كونه مضافا اليه * الثامن عشر ما يستفاد من تعريفه فان فى ذلك زيادة احاطة وشمول فان ذلك الملك اذا كان فى يوم هو يوم الدين الذى يشتمل على كل دين كان من له هذا الملك حقيقا بان يخلص العباد توحيده ويفردونه بالعبادة كما تفرد بملك يوم له هذا الشأن فان قلت ان هذين المعنيين الكائنين فى لفظ الدين باعتبار أصله وباعتبار تعريفه قد أخذا فى المعنى الاضافى حسبما ذكرته سابقا قلت لا تزاحم بين المقتضيات ولا يستنكر النظر الى الشئ باعتبار معناه الافرادى تارة وباعتبار معناه الاضافى اخرى وليس ذلك بممنوع ولا محجور عند من يعرف العلم الذى تستفاد منه دقائق العربية واسرارها وهم أهل علم المعانى والبيان * التاسع عشر والموفى عشرين والحادى والعشرون قوله اياك نعبد فان تقديم الضمير معمولا للفعل الذى بعده يفيد اختصاص العبادة به ومن اختص بالعبادة فهو الحقيق باخلاص توحيده ثم مادة هذا الفعل أعنى لفظ نعبد تفيد معنى آخر ثم المجئ بنون الجماعة الموجبة لكون هذا الكلام صادرا عن كل من تقوم به العبادة من العابدين كذلك فكانت الدلالات فى هذه الجملة ثلاثا الاولى فى اياك مع النظر الى الفعل الواقع بعده الثانية ما تفيده مادة نعبد مع ملاحظة كونها واقعة لمن ذلك الضمير عبارة عنه واشارة اليه الثالثة ما تفيده النون مع ملاحظة الامرين المذكورين ولا تزاحم بين المقتضيات (الثانى والعشرون والثالث والعشرون والرابع والعشرون) قوله واياك نستعين فان تقديم الضمير معمولا لهذا الفعل له معنى ثم مادة هذا الفعل لها معنى آخر فان

أسماء الاول الثاني قال ابو جعفر بن جرير معنى الحمد لله الشكر لله خالصا دون سائر ما يعبد من دونه ودون كل ما برأ من خلقه بما
أنعم على عباده من النعم التي لا يحصيها العدد ولا يحيط بعددها غيره أحد في تصحيح الآلات لطاعته وتمكين جوارح أجسام
المكلفين لأداء فرائضه مع ما بسط لهم في دنياهم من الرزق وغذاهم به من نعيم العيش من غير استحقاق منهم ذلك عليه ومع ما نبههم
عليه ودعاهم اليه من الاسباب المؤدية الى دوام الخلود في دار المقام في النعيم المقيم فلربنا الحمد على ذلك كله أولا وآخرا وقال ابن
جرير رحمه الله الحمد لله ثناء أثنى به على نفسه (٣٨) وفي ضمنه أمر عباده أن يثنوا عليه فكأنه قال قولوا الحمد لله قال وقد قيل ان
قول القائل الحمد لله ثناء عليه
باسمائه الحسنى وصفاته العلى
وقوله الشكر لله ثناء عليه بنعمه
وأياديه ثم شرع في رد ذلك بما حاصله
ان جميع أهل المعرفة بلسان العرب
يوقعون كلا من الحمد والشكر مكان
الآخر وقد نقل السلمي هذا المذهب
انهما سواء عن جعفر الصادق وابن
عطاء من الصوفية وقال ابن
عباس الحمد لله كلمة كل شاكر وقد
استدل القرطبي لابن جرير بصحة
قول القائل الحمد لله شكرا وهذا
الذي ادعاه ابن جرير فيه نظر لانه
اشتهر عند كثير من العلماء من
المتأخرين ان الحمد هو الثناء بالقول
على المحمود بصفاته اللازمة والمتعدية
والشكر لا يكون الا على المتعدية
ويكون بالجنان واللسان والاركان
كما قال الشاعر

أفادتكم النعماء مني ثلاثة
يدي ولساني والضمير المحجبا

ولكنهم اختلفوا أيهما أعم الحمد
أو الشكر على قولين والتحقيق ان
بينهما عموما وخصوصا فالحمد أعم
من الشكر من حيث ما يقعان
عليه لانه يكون على الصفات اللازمة
والمتعدية يقول حمدته لفروسيته وحمدته لكرمه وهو أخص لانه لا يكون الا بالقول والشكر أعم من حيث ما يقعان من
عليه لانه يكون بالقول والفعل والنية كما تقدم وهو أخص لانه لا يكون الا على الصفات المتعدية لا يقال شكرته لفروسيته
ويقول شكرته على كرمه واحسانه الي هذا حاصل ما حرره بعض المتأخرين والله أعلم وقال أبو نصر اسمعيل بن حماد
الجوهري الحمد نقيض الذم تقول حمدت الرجل أحمده حمدا ومحمدة فهو حميد ومحمود والتحميد أبلغ من الحمد والحمد أعم من
الشكر وقال في الشكر هو الثناء على المحسن بما أولاه من المعروف يقال شكرته وشكرت له وباللام أفصح وأما المدح فهو أعم من

من كان لا يستعان بغيره لا ينبغي ان يكون له شريك بل يجب افراده بالعبادة واخلاص
توحيده اذ وجود من لا يستعان به كعدمه وتقرير الكلام في الثلاث الدلالات كتقريره في
اياك نعبد فلا نعيده (الخامس والعشرون والسادس والعشرون والسابع والعشرون)
قوله اهدنا الصراط المستقيم فان طلب الهداية منه وحده باعتبار كون هذا الفعل واقعا
بعد الفعلين اللذين تقدم معمولهما فكان له حكمهما وان كان قد تغير أسلوب الكلام في
الجملة حيث لم يقل نستهدي او نطلب الهداية حتى يصح ان يكون ذلك الضمير المتقدم
المنصوب معمولا له تقدير الكن مع بقاء الخاطبة وعدم الخروج عما يقتضيه لم يقطع
النظر عن ذلك الضمير الواقع على تلك الصورة لتوسطه بين هذا الفعل اعني اهدنا وبين
من أسند اليه ثم في ضمير الجماعة معنى يشير الى استحقاقه سبحانه اخلاص التوحيد
على الوجه الذي قدمناه في الفعلين السابقين ثم في كون هذه الهداية هي هداية الصراط
المستقيم التي هي الهداية بالحقيقة ولا اعتبار بهداية الى صراط لا استقامة فيه معنى
ثالث يشير الى ذلك المدلول (الثامن والعشرون) قوله صراط الذين أنعمت عليهم فان
من يهدي الى هذا الصراط الذي هو صراط من أنعم الله عليهم يستحق أن لا يشتغل بغيره
ولا ينظر الى سواه لان الايصال الى طرائق النعم هو المقصود من المنى والمراد بحركات
السائرين وذلك كناية عن الوصول الى النعم نفسها اذ لا اعتبار بالوصول الى طرائقها من
دون وصول اليها فكان وقوع الهداية على الصراط المستقيم نعمة بمجرده الان الاستقامة
اذا تصورت عند تصور الاعوجاج كان فيها راحة بهذا الاعتبار فكيف اذا كان ذلك كناية
عن طريق الحق فكيف اذا كان حقا وصلا الى الفوز بنعم الله سبحانه (التاسع
والعشرون) قوله غير المغضوب عليهم ووجه ذلك ان الوصول الى النعم قد يكون منغصا
مكدرا بشيء من غضب المنعم سبحانه فاذا اصفا ذلك عن هذا الكدر وانضم الى الظفر بالنعم
الظفر بما هو أحسن منها موقعا عند العارفين وأعظم قدرا في صدور المتقين وهو رضا رب
العالمين كان في ذلك من البهجة والسرور ما لا يمكن التعبير عنه ولا الوقوف على حقيقته
ولا تصور معناه واذا كان المولي لهذه النعمة والمتفضل بها هو الله تعالى ولا يقدر على ذلك
غيره ولا يتمكن منه سواه فهو المستحق لاخلاص توحيده وافراده بالعبادة (المرفي
ثلاثين) قوله ولا الضالين ووجهه أن الوصول الى النعم مع الرضا قد يكون مشوبا بشيء

الحمد لانه يكون للحى وللميت وللجماد أيضا كما يمدح الطعام والمكان ونحو ذلك ويكون قبل الاحسان وبعده وعلى الصفة المتعدية واللازمة أيضا فهو أعم (ذكر أقوال السلف فى الحمد) قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا أبو معمر القطيعى حدثنا حفص عن حجاج عن ابن أبى مليكة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال عمر رضى الله عنه قد علمنا سبحان الله ولا اله الا الله فما الحمد فقال على كلمة رضيها الله لنفسه ورواه غير أبى معمر عن حفص فقال قال عمر لعلى وأصحابه عنده لا اله الا الله وسبحان الله والله أكبر قد عرفناها فما الحمد لله قال على كلمة أحبها الله تعالى لنفسه ورضيها لنفسه (٣٩) وأحب أن تقال وقال على بن زيد بن جدعان عن يوسف بن مهران قال ابن عباس الحمد لله كلمة الشكر واذا قال العبد الحمد لله قال شكرنى عبدى رواه ابن أبى حاتم وروى أيضا هو وابن جرير من حديث بشر بن عمارة عن أبى روق عن الضحاك عن ابن عباس انه قال الحمد لله هو الشكر لله هو الاستخذاء له والاقرار له بنعمه وهدايته وابتدائه وغير ذلك وقال كعب الاحبار الحمد لله ثناء الله وقال الضحاك الحمد لله رداء الرحمن وقد ورد الحديث بنحو ذلك قال ابن جرير حدثنا سعيد بن عمرو السكونى حدثنا بقية بن الوليد حدثنى عيسى بن ابراهيم عن موسى بن أبى حبيب عن الحكم بن عمير وكانت له صحبة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا قلت الحمد لله رب العالمين فقد شكرت الله فزادك وقد روى الامام أحمد بن حنبل حدثنا روح حدثنا عوف عن الحسن عن الاسود بن سريع قال قلت يارسول الله ألا أنشدك محامد حمدت بها ربى تبارك وتعالى فقال أما ان ربك يحب الحمد ورواه النسائى عن على بن حجر عن ابن علية عن يونس بن عبيد عن الحسن عن الاسود بن سريع به وروى أبو عيسى الحافظ الترمذى والنسائى وابن ماجه من حديث موسى بن ابراهيم بن كثير عن طلحة بن خراش عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل الذكر لا اله الا الله وأفضل الدعاء الحمد لله وقال الترمذى حسن غريب وروى ابن ماجه عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أنعم الله على عبد نعمة فقال الحمد لله الا كان الذى أعطى أفضل مما أخذ وقال القرطبى فى تفسيره وفى نوادر الاصول عن أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال لو أن الدنيا بحذافيرها فى يد رجل من أمتى ثم قال الحمد لله لكان الحمد لله أفضل من ذلك

من الغواية مكدرا بنوع من أنواع المخالفة وعدم الهداية وهذا باعتبار أصل الوصول الى نعمة من النعم مع رضا المنعم بها فانه لا يستلزم سلب كون المنعم عليه على ضلالة لا باعتبار هذه النعمة الخاصة من هذا المنعم عز وجل ولما كان الامر فى الاصل هكذا كان فى وصول النعم الى المنعم عليه من المنعم بها مع كونه راضيا عليه غير غاضب عنه اذا كان ذلك الوصول مصحوبا بكون صاحبه على ضلالة فى نفسه قصور عن وصولها الى من كان جامعا بين كونه واصلا الى المنعم فائزا برضا المنعم عليه خالصا من كدر كونه فى نفسه على ضلالة وتقرير الدلالة من هذا الوجه على اخلاص التوحيد كتقريرها فى الوجه الذى قبله فهذه ثلاثون دليلا مستفادة من سورة الفاتحة باعتبار ما يستفاد من تراكيبها العربية مع ملاحظة ما يفيده ما اشتملت عليه من تلك الدقائق والاسرار التى هى راجعة الى العلوم الآلية وداخلة فيما تقتضيه تلك الالفاظ بحسب المادة والهيئة والصورة مع قطع النظر عن التفسير بمعنى خاص قاله بعض السلف أو وقف عنده من بعدهم من الخلف فان قلت هذه الأدلة التى استخرجتها من هذه السورة المباركة وبلغت بها الى هذا العدد وجعلتها ثلاثين دليلا على مدلول واحد لم نجد لك فيها سلفا ولا سبقك بها غيرك قلت * هذى شكاة ظاهر عنك عارها * واعتراض غير واقع موقعه ولا مصادف محزه فان القرآن عربى وهذا الاستخراج لما ذكرناه من الادلة هو على مقتضى اللغة العربية وبحسب ما تقتضيه علومها التى دونها الثقات ورواها العدول الاثبات وليس هذا من التفسير بالرأى الذى ورد النهى عنه والزجر لفاعله بل من الفهم الذى يعطاه الرجل فى كتاب الله كما أشار اليه على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه فى كلامه المشهور وما كان من هذا القبيل فلا يحتاج فيه الى سلف وكفى بلغة العرب وعلومها المدونة بين ظهرانى الناس وعلى ظهر البسيطة سلفا وبالجملة فهذه ثلاثون موضعا فى فاتحة الكتاب يفيد كل واحد منها اخلاص التوحيد مع أن فاتحة الكتاب ليست الا سبع آيات فما ظنك بما فى سائر الكتاب العزيز فذكرنا لهذه المواضع فى فاتحة الكتاب كالبرهان على ما ذكرناه من أن فى الكتاب العزيز من ذلك ما يطول تعداده وتتعسر الاحاطة به

(سورة البقرة)

قال القرطبي وغيره أي لكان إلهامه الحمد لله أكثر نعمة عليه من نعم الدنيا لان ثواب الحمد لا يفنى ونعيم الدنيا لا يبقى قال الله تعالى
المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا وفي سنن ابن ماجه عن ابن عمر ان رسول الله
صلى الله عليه وسلم حدثهم ان عبدا من عباد الله قال يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك فعضلت بالملكين فلم
يدريا كيف يكتبانها فصعدا الى الله فقالا يا ربنا ان عبدا قد قال مقالة لا ندري كيف نكتبها قال الله وهو أعلم بما قال عبده ماذا قال
عبدي قالا يا رب انه قال لك الحمد يا رب كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك فقال الله لهما اكتباها كما قال عبدي حتى
يلقاني فأجزيه بها وحكى القرطبي
عن طائفة انهم قالوا قول العبد
الحمد لله رب العالمين أفضل من قوله
لا اله الا الله لاشتمال الحمد لله رب
العالمين على التوحيد مع الحمد
وقال آخرون لا اله الا الله أفضل
لانها التفصيل بين الايمان والكفر
وعليها يقاتل الناس حتى يقولوا لا اله
الا الله كما ثبت في الحديث المتفق
عليه وفي الحديث الآخر أفضل
ما قلت أنا والنبيون من قبلي لا اله
الا الله وحده لا شريك له وقد تقدم
عن جابر مرفوعا أفضل الذكر لا اله
الا الله وأفضل الدعاء الحمد لله وحسنه
الترمذي والالف واللام في الحمد
لاستغراق جميع أجناس الحمد
وصنوفه لله تعالى كما جاء في الحديث
اللهم لك الحمد كله ولك الملك كله
وبيدك الخير كله واليك يرجع
الامر كله الحديث والرب هو
المالك المتصرف ويطلق في اللغة
على السيد وعلى المتصرف للاصلاح
وكل ذلك صحيح في حق الله تعالى
ولا يستعمل الرب لغير الله بل بالاضافة
تقول رب الدار رب كذا وأما الرب
فلا يقال الا لله عز وجل وقد قيل انه
الاسم الاعظم * والعالمين جمع عالم وهو كل موجود سوى الله عز وجل والعالم جمع لا واحد له من لفظه والعوالم أصناف
المخلوقات في السموات وفي البر والبحر وكل قرن منها وجيل يسمى عالما أيضا قال بشر بن عمارة عن أبي روق عن الضحاك عن ابن
عباس الحمد لله رب العالمين الحمد لله الذي له الخلق كله السموات والارض ومافيهن وما بينهن مما نعلم ومما لا نعلم وفي رواية سعيد بن
جبير وعكرمة عن ابن عباس رب الجن والانس وكذلك قال سعيد بن جبير ومجاهد وابن جريج وروى عن علي نحوه قال ابن أبي
حاتم باسناد لا يعتمد عليه واستدل القرطبي لهذا القول بقوله تعالى ليكون للعالمين نذيرا وهم الجن والانس قال الفراء وأبو عبيد

قال القرطبي مدنية نزلت في مدد شتى وقيل هي أول سورة نزلت بالمدينة الا قوله تعالى
واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله فانها آخر آية نزلت من السماء ونزلت يوم النحر في يوم
حجة الوداع بمنى قاله ابن عباس وآيات الربا أيضا من أواخر ما نزل من القرآن وقد ورد
في فضلها أحاديث وآثار كثيرة في الصحاح والسنن وغيرها ومن فضائلها ما هو خاص بآية
الكرسي وما هو خاص بخواتيم هذه السورة وما هو في فضلها وفضل آل عمران وما هو
في فضل السبع الطوال ولتطلب ذلك من مواطنه وهي مائتان وست وقيل وسبع
وثمانون آية قال ابن العربي فيها ألف أمر وألف نهي وألف حكم وألف خبر أخذها بركة
وتركها حسرة لا تستطيعها البطلة وهم السحرة

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الم) قال القرطبي اختلف أهل التأويل في الحروف التي في أوائل السور فقال الشعبي
وسفيان الثوري وجماعة من المحدثين هي سر الله في القرآن ولله في كل كتاب من كتبه سر
فهي من المتشابه الذي انفرد الله بعلمه ولا نحب أن نتكلم فيها ولكن نؤمن بها ونمرها كما
جاءت وروى هذا القول عن أبي بكر الصديق وعلي بن أبي طالب قال وذكر أبو الليث
السمرقندي عن عمر وعثمان وابن مسعود أنهم قالوا الحروف المقطعة من المكتوم الذي
لا يفسر وفائدة ذكرها طلب الايمان بها ولا يلزم البحث عنها فهي مما استأثر الله بعلمه
وقال ابو حاتم لم نجد الحروف في القرآن الا في أوائل السور ولا ندري ما أراد الله عز وجل
وقال جمع من العلماء كثير بل نحب أن نتكلم فيها ونلتمس الفوائد التي تحتها والمعاني التي
تخرج عليها واختلفوا في ذلك على أقوال عديدة فروى عن ابن عباس وعلي أيضا ان
الحروف المقطعة من القرآن اسم الله الاعظم الا أنا لا نعرف تأليفه منها وقال قطرب
والمبرد والفراء وغيرهم واختاره جمع عظيم من المحققين هي اشارة الى حروف الهجاء
أعلم الله بها العرب حين تحداهم بالقرآن انه مؤتلف من الحروف التي بنى كلامهم عليها
ليكون عجزهم عنه أبلغ في الحجة عليهم اذ لم يخرج عن كلامهم قال قطرب كانوا ينفرون عند
استماع القرآن فلما نزل الم المص استنكروا هذا اللفظ فلما أنصتوا له صلى الله عليه
وآله وسلم أقبل عليهم بالقرآن المؤتلف ليثبته في أسماعهم وآذانهم ويقيم الحجة عليهم

وقال جماعة هي حروف دالة على أسماء أخذت منها وحذفت بقيتها كقول ابن عباس وغيره الالف من الله واللام من جبريل والميم من محمد وذهب الى هذا الزجاج فقال أذهب الى ان كل حرف منها يؤدي عن معنى وقد تكلمت العرب بحروف مقطعة كقوله فقلت لها قفي فقالت قاف أي وقفت وفي الحديث من أعان على قتل مسلم بشطر كلمة قال شقيق هو أن يقول في اقتل أق كما قال صلى الله عليه وآله وسلم كفى بالسيف شا أي شافيا وقال بعضهم الالف واحدة واللام ثلاثون والميم أربعون والمعنى ان الله الواحد أنزل ثلاثين جزأ من القرآن على محمد صلى الله عليه وآله وسلم بعد مابلغ أربعين سنة التي بعثه عندها الى الخلق وقال زيد بن أسلم هي أسماء للسور وقال الكلبي هي أقسام أقسم الله بها لشرفها وفضلها وهي من أسمائه وقيل ان النطق بالحروف أنفسها كانت العرب مستوية فيها بخلاف النطق بأساميها وهو خاص بمن خط وقرأ والنبي صلى الله عليه وآله وسلم أمي فأتى بها كذلك زيادة في الاعجاز وقيل غير ذلك مما لا يأتي عليه الحصر وقد ذكر شطرا منها الرازي في تفسيره ومن أدق ما أبرزه المتكلمون في معاني هذه الحروف ماذكره الزمخشري في الكشاف حيث قال انك اذا تأملت ما أورده الله عز سلطانه في الفواتح من هذه الاسماء وجدتها نصف أسامي حروف المعجم أربعة عشر سواء وهي الالف واللام والميم والصاد والراء والكاف والهاء والياء والعين والطاء والسين والحاء والقاف والنون في تسع وعشرين سورة على عدد حروف المعجم ثم اذا نظرت في هذه الاربعة عشر وجدتها مشتملة على أنصاف أجناس الحروف بيان ذلك ان فيها من المهموسة نصفها الصاد والكاف والهاء والسين والحاء ومن المجهورة نصفها الالف واللام والميم والراء والعين والطاء والقاف والياء والنون ومن الشديدة نصفها الالف والكاف والطاء والقاف ومن الرخوة نصفها اللام والميم والراء والصاد والهاء والعين والسين والحاء والياء والنون ومن المطبقة نصفها الصاد والطاء ومن المنفتحة نصفها الالف واللام والميم والراء والكاف والهاء والعين والسين والحاء والقاف والياء والنون ومن المستعلية نصفها القاف والصاد والطاء ومن المنخفضة نصفها الالف واللام والميم والراء والكاف والهاء والياء والعين والسين والحاء والنون ومن حروف القلقلة نصفها القاف والطاء ثم اذا استقريت الكلم وتراكيبها رأيت الحروف التي ألغى الله ذكرها

العالم عبارة عما يعقل وهم الانس والجن والملائكة والشياطين ولا يقال للبهائم عالم وعن زيد بن أسلم وأبي محيصن العالم كل ماله روح ترفرف وقال قتادة رب العالمين كل صنف عالم وقال الحافظ ابن عساكر في ترجمة ابن مروان بن الحكم وهو أحد خلفاء بني أمية وهو يعرف بالجعد ويلقب بالحمار انه قال خلق الله سبعة عشر ألف عالم أهل السموات وأهل الارض عالم واحد وسائرهم لا يعلمهم الا الله عزوجل وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية في قوله تعالى رب العالمين قال الانس عالم والجن عالم وماسوى ذلك ثمانية عشر ألف أو أربعة عشر ألف عالم هو يشك الملائكة على الارض (٤١) وللارض أربع زوايا في كل زاوية ثلاثة آلاف عالم وخمسمائة عالم خلقهم الله لعبادته رواه ابن جرير وابن أبي حاتم وهذا كلام غريب يحتاج مثله الى دليل صحيح وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا هشام بن خالد حدثنا الوليد ابن مسلم حدثنا الفرات يعني ابن الوليد عن معتب بن سمي عن سبيع يعني الحميري في قوله تعالى رب العالمين قال العالمين ألف أمة فستمائة في البحر وأربعمائة في البر وحكى مثله عن سعيد بن المسيب وقد روى نحو هذا مرفوعا كما قال الحافظ أبو يعلى أحمد بن علي بن المثنى في مسنده حدثنا محمد بن المثنى حدثنا عبيد بن واقد القيسي أبو عباد حدثني محمد بن عيسى بن كيسان حدثنا محمد ابن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال قل الجراد في سنة من سني عمر التي ولي فيها فسأل عنه فلم يخبر بشيء فاغتم لذلك فأرسل راكبا يضرب الى اليمن وآخر الى الشام وآخر الى العراق يسأل هل رؤي من الجراد شيء أم لا قال فأتاه الراكب الذي من قبل اليمن بقبضة من جراد فألقاها بين يديه فلما رآها كبر ثم قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول خلق الله ألف أمة ستمائة في البحر وأربعمائة في البر فأول شيء يهلك من هذه الامم الجراد فاذا هلكت تتابعت مثل النظام اذا قطع سلكه محمد بن عيسى هذا وهو الهلالي ضعيف وحكى البغوي عن سعيد بن المسيب انه قال لله ألف عالم ستمائة في البحر وأربعمائة في البر وقال وهب بن منبه لله ثمانية عشر ألف عالم الدنيا عالم منها وقال مقاتل العوالم ثمانون ألفا وقال كعب الاحبار لا يعلم عدد العوالم الا الله عزوجل نقله كله البغوي وحكى القرطبي عن أبي سعيد الخدري انه قال ان لله أربعين ألف عالم الدنيا من شرقها الى مغربها عالم واحد منها وقال الزجاج العالم كل ما خلق الله في الدنيا والآخرة قال

القرطبي وهذا هو الصحيح انه شامل لكل العالمين كقوله قال فرعون ومارب العالمين قال رب السموات والارض وما بينهما ان كنتم موقنين والعالم مشتق من العلامة (قلت) لانه علم دال على وجود خالقه وصانعه ووحدانيته كما قال ابن المعتز فياعجبا كيف يعصى الاله * أم كيف يجحده الجاحد وفي كل شئ له آية * تدل على انه واحد وقوله تعالى الرحمن الرحيم تقدم الكلام عليه في البسملة بما أغنى عن الاعادة قال القرطبي انما وصف نفسه بالرحمن الرحيم بعد قوله رب العالمين ليكون من باب قرن الترغيب بعد الترهيب كما قال تعالى نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم وأن عذابي هو العذاب الاليم وقوله تعالى ان ربك لسريع العقاب وانه لغفور رحيم قال فالرب فيه ترهيب والرحمن الرحيم ترغيب وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع في جنته أحد ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من رحمته أحد (مالك يوم الدين) قرأ بعض القراء ملك يوم الدين وقرأ آخرون مالك وكلاهما صحيح متواتر في السبع ويقال مالك بكسر اللام وباسكانها ويقال مليك أيضا وأشبع نافع كسرة الكاف فقرأ ملكي يوم الدين وقد رجح كلا من القراءتين مرجحون من حيث المعنى وكلاهما صحيحة حسنة ورجح الزمخشري ملك لانها قراءة أهل الحرمين ولقوله لمن الملك اليوم وقوله الحق وله الملك وحكى عن أبي حنيفة انه قرأ ملك يوم الدين على انه فعل وفاعل ومفعول وهذا شاذ غريب جدا وقد روى أبو بكر بن أبي داود في ذلك شيأ غريبا حيث قال حدثنا أبو عبد الرحمن الازدي حدثنا عبد الوهاب بن عدي بن الفضل عن أبي المطرف عن ابن شهاب انه بلغه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر وعثمان ومعاوية وابنه يزيد بن معاوية كانوا يقرؤن مالك يوم الدين قال ابن شهاب وأول من أحدث ملك مروان قلت مروان عنده علم بصحة ما قرأه لم يطلع عليه ابن شهاب والله أعلم وقد روى من طرق متعددة أوردها ابن مردويه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأها مالك يوم الدين ومالك مأخوذ من الملك كما قال تعالى انا نحن نرث الارض ومن عليها والينا يرجعون وقال قل أعوذ برب الناس ملك الناس وملك مأخوذ من الملك كما قال تعالى لمن الملك اليوم لله الواحد القهار وقال قوله الحق وله الملك وقال الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوما على الكافرين عسيرا وتخصيص الملك بيوم الدين لا ينفيه عما عداه لانه

من هذه الاجناس المعدودة مكثورة بالمذكورة منها فسبحان الذي دقت في كل شئ حكمته وقد علمت أن معظم الشئ وجله ينزل منزلة كله وهو المطابق للطائف التنزيل واختصاراته فكأن الله عز اسمه عدد على العرب الالفاظ التي منها تراكيب كلامهم اشارة الى ما ذكرت من التبكيت لهم والزام الحجة اياهم ومما يدل على انه تعمد بالذكر من حروف المعجم أكثرها وقوعا في تراكيب الكلم ان الالف واللام لما تكاثر وقوعهما فيها جاءتا في معظم هذه الفواتح مكررتين وهي فواتح سورة البقرة وآل عمران والروم والعنكبوت ولقمان والسجدة والاعراف والرعد ويونس وابراهيم وهود ويوسف والحجر انتهى وتبعه في ذلك جماعة من أهل التفسير منهم الخازن والنسفي والبيضاوي والخطيب وأبو السعود وغيرهم (أقول) هذا التدقيق لا يأتي بفائدة يعتد بها وبيانه انه اذا كان المراد منه الزام الحجة والتبكيت كما قال فهذا متيسر بأن يقال لهم هذا القرآن هو من الحروف التي تتكلمون بها ليس من حروف مغايرة لها فيكون هذا تبكيتا والزاما يفهمه كل سامع منهم من دون الغاز وتعمية وتفريق لهذه الحروف في فواتح تسع وعشرين سورة فان هذا مع ما فيه من التطويل الذي لا يستوفيه سامعه الا بسماع جميع هذه الفواتح هو أيضا مما لا يفهمه أحد من السامعين ولا يتعقل شيأ منه فضلا أن يكون تبكيتا له والزاما للحجة اياه فان ذلك هو أمر وراء الفهم مترتب عليه ولم يفهم السامع هذا ولا ذكر أهل العلم عن فرد من أفراد الجاهلية الذين وقع التحدي لهم بالقرآن أنه بلغ فهمه الى بعض هذا فضلا عن كله ثم كون هذه الحروف مشتملة على النصف من جميع الحروف التي تركبت لغة العرب منها وذلك النصف مشتملا على أنصاف تلك الانواع من الحروف المتصفة بتلك الاوصاف هو أمر لا يتعلق به فائدة لجاهلي ولا اسلامي ولا مقر ولا منكر ولا مسلم ولا معارض ولا يصلح أن يكون مقصدا من مقاصد الرب سبحانه الذي أنزل كتابه للارشاد الى شرائعه والهداية به وهب ان هذه صناعة عجيبة ونكتة غريبة فليس ذلك مما يتصف بفصاحة ولا بلاغة حتى يكون مفيدا أنه كلام بليغ او فصيح وذلك لان هذه الحروف الواقعة في الفواتح ليست من جنس كلام العرب حتى تتصف بهذين الوصفين وغاية ما هنالك انها من جنس حروف كلامهم ولا مدخل لذلك فيما ذكر وأيضا لو فرض أنها كلمات متركبة بتقدير شئ قبلها أو بعدها لم يصح وصفها بذلك لانها تعمية غير مفهومة للسامع الا

قد تقدم الاخبار بانه رب العالمين وذلك عام فى الدنيا والآخرة وانما أضيف الى يوم الدين لانه لايدعى أحد هنالك شيأ ولا يتكلم أحد الا باذنه كما قال تعالى يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون الا من أذن له الرحمن وقال صوابا وقال تعالى وخشعت الاصوات للرحمن فلا تسمع الا همسا وقال تعالى يوم يأتى لا تكلم نفس الا باذنه فنهم شقى وسعيد وقال الضحاك عن ابن عباس مالك يوم الدين يقول لا يملك أحد معه فى ذلك اليوم حكما كملكهم فى الدنيا قال ويوم الدين يوم الحساب للخلائق وهو يوم القيامة يدينهم بأعمالهم ان خيرا فخير وان شرا فشر الا من عفا عنه وكذلك قال غيره من الصحابة (٤٣) والتابعين والسلف وهو ظاهر وحكى ابن جرير عن بعضهم انه ذهب الى ان تفسير مالك يوم الدين انه القادر على اقامته ثم شرع يضعفه والظاهر انه لامنافاة بين هذا القول وما تقدم وان كلا من القائلين لهذا القول وبما قبله يعترف بصحة القول الآخر ولا ينكره ولكن السياق أدل على المعنى الاول من هذا كما قال تعالى الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوما على الكافرين عسيرا والقول الثانى يشبه قوله تعالى ويوم يقول كن فيكون والله أعلم والملك فى الحقيقة هو لله عز وجل قال الله تعالى هو الله الذى لا اله الا هو الملك القدوس السلام وفى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه مرفوعا أخنع اسم عند الله رجل يسمى بملك الاملاك ولا مالك الا الله وفيهما عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يقبض الله الارض ويطوى السماء بيمينه ثم يقول انا الملك أين ملوك الارض أين الجبارون أين المتكبرون وفى القرآن العظيم لمن الملك اليوم لله الواحد القهار فاما تسمية غيره فى الدنيا بملك فعلى سبيل المجاز كما قال تعالى ان الله قد بعث لكم طالوت ملكا وكان وراءهم ملك وفى الصحيحين مثل الملوك على الاسرة اذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا والدين الجزاء والحساب كما قال تعالى يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون وقال أئنا لمدينون أى مجزيون محاسبون وفى الحديث الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت أى حاسب نفسه لنفسه كما قال عمر رضى الله عنه حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا وتأهبوا للعرض الاكبر على من لا تخفى عليه أعمالكم يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية (اياك نعبد واياك نستعين) قرأ السبعة والجمهور بتشديد الياء من اياك وقرأ عمرو بن فايد بتخفيفها مع الكسر وهى قراءة شاذة مردودة لان ايا ضوء الشمس وقرأ

الا بأن يأتى من يريد بيانها بمثل ما يأتى به من أراد بيان الالغاز والتعمية وليس ذلك من الفصاحة والبلاغة فى ورد ولا صدر بل من عكسهما وضد رسمهما واذا عرفت هذا فاعلم ان من تكلم فى بيان معانى هذه الحروف جازما بأن ذلك هو ما أراده الله عز وجل فقد غلط أقبح الغلط وركب فى فهمه ودعواه أعظم الشطط فانه ان كان تفسيره لها بما فسرها به راجعا الى لغة العرب وعلومها فهو كذب بحت فان العرب لم يتكلموا بشئ من ذلك واذا سمعه السامع منهم كان معدودا عنده من الرطانة ولا ينافى ذلك انهم قد يقتصرون على حرف أو حروف من الكلمة التى يريدون النطق بها فانهم لم يفعلوا ذلك الا بعد ان تقدمه ما يدل عليه ويفيد معناه بحيث لا يلتبس على سامعه كمثل ما تقدم ذكره ومن هذا القبيل ما يقع منهم من الترخيم وأين هذه الفواتح الواقعة فى أوائل السور من هذا واذا تقرر لك انه لا يمكن استفادة ما ادعوه من لغة العرب وعلومها لم يبق حينئذ الا أحد أمرين الاول التفسير بمحض الرأى الذى ورد النهى عنه والوعيد عليه وأهل العلم أحق الناس بتجنبه والصد عنه والتنكب عن طريقه وهم أتقى لله سبحانه من أن يجعلوا كتاب الله سبحانه ملعبة لهم يتلاعبون به ويضعون حماقات أنظارهم وخزعبلات أفكارهم عليه الثانى التفسير بتوقيف عن صاحب الشرع وهذا هو المهيع الواضح والسبيل القويم بل الجادة التى ما سواها مردوم والطريقة العامرة التى ما عداها مهدوم فمن وجد شيأ من هذا فغير ملوم أن يقول بملء فيه ويتكلم بما وصل اليه علمه ومن لم يبلغه شئ من ذلك فليقل لا أدرى أو الله أعلم بمراده فقد ثبت النهى عن طلب فهم المتشابه ومحاولة الوقوف على علمه مع كونه ألفاظا عربية وتراكيب مفهومة وقد جعل الله تتبع ذلك صنيع الذين فى قلوبهم زيغ فكيف بما نحن بصدده فانه ينبغى أن يقال فيه انه متشابه المتشابه على فرض ان للفهم اليه سبيلا ولكلام العرب فيه مدخلا فكيف وهو خارج عن ذلك على كل تقدير وانظر كيف فهم اليهود عند سماع الم فانهم لما لم يجدوها على نمط لغة العرب فهموا أن الحروف المذكورة رمز الى ما يصطلحون عليه من العدد الذى يجعلونه لها كما أخرج ابن اسحق والبخارى فى تاريخه وابن جرير بسند ضعيف عن ابن عباس عن جابر بن عبد الله قال مر أبو ياسر بن أخطب فى رجال من يهود برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يتلو فاتحة سورة البقرة الم ذلك الكتاب لاريب فيه فأتى

بعضهم أياك بفتح الهمزة وقرأ بعضهم أيّاك بفتح الهمزة وتشديد الياء وقرأ بعضهم هياك بالهاء بدل الهمزة كما قال الشاعر

فهياك والامر الذي ان تراحبت * موارده ضاقت عليك مصادره

ونستعين بفتح النون أول الكلمة في قراءة الجميع سوى يحيى بن وثاب والأعمش فانهما كسراها وهي لغة بني أسد وربيعة وبني تميم والعبادة في اللغة من الذلة يقال طريق معبد وبعير معبد أي مذلل وفي الشرع عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف وقدم المفعول وهو اياك وكرر للاهتمام والحصر أي لا نعبد الا اياك ولا نتوكل الا عليك وهذا هو كمال (٤٤) الطاعة والدين كله يرجع الى هذين المعنيين وهذا كما قال بعض السلف الفاتحة سر القرآن وسرها هذه الكلمة اياك نعبد واياك نستعين فالاول تبرؤ من الشرك والثاني تبرؤ من الحول والقوة والتفويض الى الله عز وجل وهذا المعنى في غير آية من القرآن كما قال تعالى فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا رب المشرق والمغرب لا اله الا هو فاتخذه وكيلا وكذلك هذه الآية الكريمة اياك نعبد واياك نستعين وتحول الكلام من الغيبة الى المواجهة بكاف الخطاب وهو مناسبة لانه لما أثنى على الله فكأنه اقترب وحضر بين يدي الله تعالى فلهذا قال اياك نعبد واياك نستعين وفي هذا دليل على ان أول السورة خبر من الله تعالى بالثناء على نفسه الكريمة بجميل صفاته الحسنى وارشاد لعباده بان يثنوا عليه بذلك ولهذا لا تصح صلاة من لم يقل ذلك وهو قادر عليه كما جاء في الصحيحين عن عبادة بن الصامت قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب وفي صحيح مسلم من حديث العلاء بن عبد الرحمن مولى الحرقة عن أبيه عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين فنصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل اذا قال العبد الحمد لله رب العالمين قال الله حمدني عبدي واذا قال الرحمن الرحيم قال الله أثنى علي عبدي فاذا قال مالك يوم الدين قال الله مجدني عبدي واذا قال اياك نعبد واياك نستعين قال هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل فاذا قال اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين قال هذا لعبدي ولعبدي ما سأل وقال الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما اياك نعبد يعني اياك نوحد ونخاف ونرجو يا ربنا لا غيرك واياك نستعين

أخاه حيي بن أخطب في رجال من اليهود فقال تعلمون والله لقد سمعت محمدا يتلو فيما أنزل عليه الم ذلك الكتاب فقال أنت سمعته فقال نعم فمشى حيي في أولئك النفر الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا يا محمد ألم يذكر أنك تتلو فيما أنزل عليك الم ذلك الكتاب قال بلى قالوا أجاءك بهذا جبريل من عند الله قال نعم قالوا لقد بعث الله من قبلك الانبياء ما نعلمه بين لنبي منهم ما مدة ملكه وما أجل أمته غيرك فقال حيي بن أخطب وأقبل على من كان معه الالف واحدة واللام ثلاثون والميم أربعون فهذه احدى وسبعون سنة أفتدخلون في دين نبي انما مدة ملكه وأجل أمته احدى وسبعون سنة ثم أقبل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال يا محمد هل مع هذا غيره قال نعم قال وماذاك قال المص قال هذه أثقل وأطول الالف واحدة واللام ثلاثون والميم أربعون والصاد تسعون فهذه احدى وستون ومائة سنة هل مع هذا يا محمد غيره قال نعم قال وماذاك قال الر قال هذه أثقل وأطول الالف واحدة واللام ثلاثون والراء مائتان هذه احدى وثلاثون سنة ومائتان فهل مع هذا غيره قال نعم المر قال فهذه أثقل وأطول الالف واحدة واللام ثلاثون والميم أربعون والراء مائتان فهذه احدى وسبعون سنة ومائتان ثم قال لقد لبس علينا أمرك يا محمد حتى ما ندري أقليلا أعطيت أم كثيرا ثم قاموا فقال أبو ياسر لاخيه حيي ومن معه من الاحبار ما يدريكم لعله قد جمع هذا لمحمد كله احدى وسبعون واحدى وستون ومائة واحدى وثلاثون ومائتان واحدى وسبعون ومائتان فذلك سبعمائة وأربع وثلاثون سنة فقالوا لقد تشابه علينا أمره فيزعمون أن هذه الآيات نزلت فيهم هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فانظر ما بلغت اليه أفهامهم من هذا الامر المختص بهم من عدد الحروف مع كونه ليس من لغة العرب في شيء وتأمل أي موضع أحق بالبيان من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من هذا الموضع فان هؤلاء الملاعين قد جعلوا ما فهموه عند سماع الم ذلك الكتاب من ذلك العدد موجبا للتثبيط عن الاجابة له والدخول في شريعته فلو كان لذلك معنى يعقل ومدلول يفهم لدفع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما ظنوه بادئ بدء حتى لا يتأثر عنه ما جاؤا به من التشكيك على من معهم فان قلت هل ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في هذه الفواتح شيء يصلح للتمسك به قلت لا أعلم أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تكلم في شيء من معانيها بل غاية ما ثبت عنه هو مجرد

على طاعتك وعلى أمورنا كلها وقال قتادة اياك نعبد واياك نستعين يأمركم ان تخلصوا له العبادة وان تستعينوا على أموركم وانما قدم اياك نعبد على واياك نستعين لان العبادة له هي المقصودة والاستعانة وسيلة اليها والاهتمام والحزم تقديم ماهو الاهم فالاهم والله أعلم فان قيل فما معنى النون في قوله تعالى اياك نعبد واياك نستعين فان كانت للجمع فالداعي واحد وان كانت للتعظيم فلا يناسب هذا المقام وقد أجيب بان المراد من ذلك الاخبار عن جنس العباد والمصلى فرد منهم ولاسيما ان كان في جماعة أو امامهم فاخبر عن نفسه وعن اخوانه المؤمنين بالعبادة التي خلقوا لاجلها وتوسط لهم بخير ومنهم من قال يجوز أن تكون للتعظيم كأن العبد قيل له اذا كنت داخل العبادة فانت شريف وجاهك عريض فقل اياك نعبد واياك نستعين وان كنت خارج العبادة فلا تقل نحن ولا فعلنا ولو كنت في مائة ألف أو ألف ألف لاحتياج الجميع الى الله عز وجل وفقرهم اليه ومنهم من قال اياك نعبد ألطف في التواضع من اياك عبدنا لما في الثاني من تعظيم نفسه من جعله نفسه وحده أهلا لعبادة الله تعالى الذي لا يستطيع أحد أن يعبده حق عبادته ولا يثني عليه كما يليق به والعبادة مقام عظيم يشرف به العبد لانتسابه الى جناب الله تعالى كما قال بعضهم

لا تدعني الا بيا عبدها
فانه أشرف أسمائي

وقد سمى الله رسوله صلى الله عليه وسلم بعبده في أشرف مقاماته فقال الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب وانه لما قام عبد الله يدعوه سبحان الذي أسرى بعبده ليلا فسماه عبدا عند انزاله عليه وعند قيامه في الدعوة واسرائه به وأرشده الى القيام بالعبادة في أوقات يضيق صدره من تكذيب المخالفين حيث يقول ولقد نعلم انك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين وقد حكى الرازي في تفسيره عن بعضهم ان مقام العبودية أشرف من مقام الرسالة لكون العبادة تصدر من الخلق الى الحق والرسالة من الحق الى الخلق قال ولان الله يتولى مصالح عبده والرسول يتولى مصالح أمته وهذا القول خطأ والتوجيه أيضا ضعيف لا حاصل له ولم يتعرض له الرازي بتضعيف ولا رد وقال بعض الصوفية العبادة اما لتحصيل ثواب أو درء عقاب قالوا وهذا ليس بطائل اذ مقصوده تحصيل مقصوده واما للتشريف بتكاليف الله تعالى وهذا أيضا عندهم ضعيف بل العالي ان يعبد الله لذاته المقدسة

عدد حروفها فاخرج البخاري في تاريخه والترمذي وصححه والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول الم حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف وله طرق عن ابن مسعود وأخرج ابن أبي شيبة والبزار بسند ضعيف عن عوف بن مالك الاشجعي نحوه مرفوعا فان قلت هل روى عن الصحابة شيء من ذلك باسناد متصل بقائله أم ليس الا ما تقدم من حكاية القرطبي عن ابن عباس وعلى قلت قد روى عن ابن مسعود انه قال الم حرف اشتقت من حروف اسم الله وعنه قال هي اسم الله الاعظم وعن ابن عباس في قوله الم وحم ون قال اسم مقطع وعنه في فواتح السور قال هو قسم أقسمه الله وهو من أسماء الله وعن الربيع بن أنس قال ألف مفتاح اسمه الله ولام مفتاح اسمه لطيف وميم مفتاح اسمه مجيد وقد روى نحو هذه التفاسير عن جماعة من التابعين فيهم عكرمة والشعبي والسدى وقتادة ومجاهد والحسن فان قلت هل يجوز الاقتداء بأحد من الصحابة قال في تفسير شيء من هذه الفواتح قولا صح اسناده اليه قلت لا لما قدمنا الا أن يعلم انه قال ذلك عن علم أخذه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فان قلت هذا مما لا مجال للاجتهاد فيه ولا مدخل للغة العرب فلم لا يكون له حكم الرفع قلت تنزيل هذا منزلة المرفوع وان قال به طائفة من أهل الاصول وغيرهم فليس مما تنشرح له صدور المنصفين ولاسيما اذا كان في مثل هذا المقام وهو التفسير لكلام الله سبحانه فانه دخول في أعظم الخطر بما لا برهان عليه صحيح الا مجرد قولهم انه يبعد من الصحابي كل البعد ان يقول بمحض رأيه فيما لا مجال للاجتهاد فيه وليس مجرد هذا الاستبعاد مسوغا للوقوع في خطر الوعيد الشديد على انه يمكن أن يذهب بعض الصحابة الى تفسير بعض المتشابه كما تجده كثيرا في تفاسيرهم المنقولة عنهم ويجعل هذه الفواتح من جملة المتشابه ثم ههنا مانع آخر وهو ان المروى عن الصحابة في هذا مختلف متناقض فان عملنا بما قاله أحدهم دون الآخر كان تحكما لا وجه له وان عملنا بالجميع كان عملا بما هو مختلف متناقض ولا يجوز ثم ههنا مانع غير هذا المانع وهو أنه لو كان شيء مما قالوه مأخوذا عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لاتفقوا عليه ولم يختلفوا كسائر ما هو مأخوذ عنه فلما اختلفوا في هذا علمنا انه لم يكن مأخوذا عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثم لو كان عندهم شيء عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في هذا لما تركوا حكايته عنه

المرء رقة بالسؤال قالوا ولهذا يقول المصلى أصلى لله ولو كان لتحصيل الثواب ودرء العقاب لبطلت الصلاة وقد رد ذلك عليهم آخرون وقالوا كون العبادة لله عزوجل لا ينافى أن يطلب معها ثوابا ولا يدفع عذابا كما قال ذلك الاعرابى أما انى لا احسن دندنتك ودندنة معاذ انما أسأل الله الجنة وأعوذ به من النار فقال النبى صلى الله عليه وسلم حولها ندندن (اهدنا الصراط المستقيم) قراءة الجمهور بالصاد وقرئ السراط وقرئ بالزاى قال الفراء وهى لغة بنى عذرة وبنى كلب لما تقدم الثناء على المسؤل تبارك وتعالى ناسب ان يعقب بالسؤال كما قال فنصفها لى ونصفها لعبدى ولعبدى ما سأل وهذا أكمل أحوال السائل ان يمدح مسؤله ثم يسأل حاجته وحاجة اخوانه المؤمنين بقوله اهدنا الصراط المستقيم لانه أنجح للحاجة وأنجع للاجابة ولهذا أرشد الله اليه لانه الاكمل وقد يكون السؤال بالاخبار عن حال السائل واحتياجه كما قال موسى عليه السلام رب انى لما أنزلت الى من خير فقير وقد يتقدمه مع ذلك وصف مسؤل كقول ذى النون لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين وقد يكون بمجرد الثناء على المسؤل كقول الشاعر

أأذكر حاجتى أم قد كفانى ... حباؤك ان شيمتك الحباء
اذا أثنى عليك المرء يوما ... كفاه من تعرضه الثناء

والهداية ههنا الارشاد والتوفيق وقد تعدى الهداية بنفسها كما هنا اهدنا الصراط المستقيم فتضمن معنى ألهمنا أو وفقنا أو ارزقنا أو أعطنا وهديناه النجدين أى بينا له الخير والشر وقد تعدى بالى كقوله تعالى اجتباه وهداه الى صراط مستقيم فاهدوهم الى صراط الجحيم وذلك بمعنى الارشاد والدلالة وكذلك قوله وانك لتهدى الى صراط مستقيم وقد تعدى باللام كقول أهل الجنة الحمد لله الذى هدانا لهذا أى وفقنا لهذا وجعلنا له أهلا وأما الصراط المستقيم فقال الامام أبو جعفر بن جرير أجمعت الامة من أهل التأويل جميعا على ان الصراط المستقيم هو الطريق الواضح الذى لا اعوجاج فيه وذلك فى لغة جميع العرب فمن ذلك قول جرير بن عطية الخطفى

أمير المؤمنين على صراط ... اذا اعوج الموارد مستقيم

قال والشواهد على ذلك أكثر من أن تحصر قال ثم تستعير العرب الصراط فتستعمله فى كل قول وعمل ووصف باستقامة أو اعوجاج فتصف المستقيم باستقامته والمعوج باعوجاجه ثم اختلفت عبارات

ورفعه اليه لا سيما عند اختلافهم واضطراب أقوالهم فى مثل هذا الكلام الذى لا مجال للغة العرب فيه ولا مدخل لها ولا يقال قد اختلفوا فى غيره من الاحكام فيلزم عدم الاخذ به لانا نقول اختلافهم فى ذلك من قبيل الاخذ بالاخص أو الاعم أو المتقدم أو المتأخر وفى كثير مما اختلفوا فيه ان علموا بالنص تركوا ذلك بخلاف ما هنا والله تعالى أعلم والذى أراه لنفسى ولكل من أحب السلامة واقتدى بسلف الائمة ان لا يتكلم بشئ من ذلك مع الاعتراف بأن فى انزالها حكمة لله عزوجل لا تبلغها عقولنا ولا تهتدى اليها أفهامنا واذا انتهيت الى السلامة فى مداك فلا تجاوز وسيأتى لنا عند تفسير قوله تعالى منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات كلام طويل الذيول وتحقيق تقبله صحيحات الافهام وسليمات العقول (ذلك الكتاب) أى القرآن وقيل فيه اضمار أى هذا الكتاب الذى وعدتك به أو وعدت به على لسان موسى وعيسى أن أنزله عليك قال ابن عباس فى الآية يعنى هذا الكتاب وبه قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والسدى ومقاتل وزيد بن أسلم وابن جريج وحكاه البخارى عن أبى عبيدة والاشارة الى الكتاب المذكور بعده والعرب قد تستعمل الاشارة الى البعيد الغائب مكان الاشارة الى القريب الحاضر ومنه قوله تعالى ذلك عالم الغيب والشهادة وقوله تلك حجتنا آتيناها ابراهيم وقوله تلك آيات الكتاب وقوله ذلكم حكم الله قال أبو السعود وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار اليه للايذان بعلو شأنه وكونه فى الغاية القاصية من الفضل والشرف انتهى وقيل ان الاشارة الى غائب واختلف فى ذلك الغائب فقيل هو الكتاب الذى كتب على الخلائق بالسعادة والشقاوة والاجل والرزق وقيل الكتاب الذى كتبه الله على نفسه فى الازل كما فى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما قضى الله الخلق كتب فى كتاب على نفسه فهو موضوع عنده ان رحمتى تغلب غضبى وفى رواية سبقت وقيل الاشارة الى ما قد نزل بمكة وقيل الى ما فى التوراة والانجيل وقيل الى قوله قبله الم ورجحه الزمخشرى وقد وقع الاختلاف فى ذلك الى تمام عشرة أقوال حسبما حكاه القرطبى وأرجحها ما صدرناه والكتاب مصدر بمعنى المكتوب وأصله الضم والجمع ومنه يقال للجند كتيبة لاجتماعها والكتابة بجمع الحروف بعضها الى بعض وهو اسم من أسماء القرآن (لاريب فيه) أى لا شك فيه أنه من عند الله وأنه الحق والصدق وقيل هو خبر بمعنى النهى أى لا ترتابوا فيه

المفسرين من السلف والخلف في تفسير الصراط وان كان يرجع حاصلها الى شيء واحد وهو المتابعة لله وللرسول فروى أنه كتاب الله
قال ابن أبي حاتم حدثنا الحسن بن عرفة حدثني يحيى بن يمان عن حمزة الزيات عن سعيد وهو ابن المختار الطائي عن ابن أخي الحرث
الاعور عن الحرث الاعور عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الصراط المستقيم كتاب الله
وكذلك رواه ابن جرير من حديث حمزة بن حبيب الزيات وقد تقدم في فضائل القرآن فيما رواه احمد والترمذي من رواية الحرث
الاعور عن علي مرفوعا وهو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم وقد روى موقوفا على علي
رضي الله عنه وهو أشبه والله أعلم
وقال الثوري عن منصور عن أبي
وائل عن عبد الله قال الصراط
المستقيم كتاب الله وقيل هو
الاسلام قال الضحاك عن ابن عباس
قال قال جبريل لمحمد عليهما السلام
قل يا محمد اهدنا الصراط المستقيم
يقول ألهمنا الطريق الهادي وهو
دين الله الذي لا عوج فيه وقال
ميمون بن مهران عن ابن عباس في
قوله تعالى اهدنا الصراط المستقيم
قال ذاك الاسلام وقال اسمعيل
ابن عبد الرحمن السدي الكبير
عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن
عباس وعن مرة الهمداني عن ابن
مسعود وعن ناس من أصحاب النبي
صلى الله عليه وسلم اهدنا الصراط
المستقيم قالوا هو الاسلام وقال
عبد الله بن محمد بن عقيل عن جابر
اهدنا الصراط المستقيم قال هو
الاسلام أوسع مما بين السماء
والارض وقال ابن الحنفية في قوله
تعالى اهدنا الصراط المستقيم قال
هو دين الله الذي لا يقبل من العباد
غيره وقال عبد الرحمن بن زيد بن
أسلم اهدنا الصراط المستقيم قال
هو الاسلام وفي هذا الحديث الذي رواه الامام احمد في مسنده حيث قال حدثنا الحسن بن سوار أبو العلاء حدثنا ليث يعني
ابن سعد عن معاوية بن صالح ان عبد الرحمن بن جبير بن نفير حدثه عن أبيه عن النواس بن سمعان عن رسول الله صلى الله عليه
وسلم قال ضرب الله مثلا صراطا مستقيما وعلى جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة وعلى الابواب ستور مرخاة وعلى باب
الصراط داع يقول يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعا ولا تعوجوا وداع يدعو من فوق الصراط فاذا أراد الانسان أن يفتح شيأ
من تلك الابواب قال ويحك لا تفتحه فانك ان تفتحه تلجه فالصراط الاسلام والسوران حدود الله والابواب المفتحة محارم الله

والريب الشك مع التهمة مصدر وهو قلق النفس واضطرابها ومنه قوله صلى الله عليه
وآله وسلم دع ما يريبك الى ما لا يريبك فان الشك ريبة وان الصدق طمأنينة ومنه ريب
الزمان وهو ما يقلق النفوس ويشخص بالقلوب من نوائبه وقيل الريب هو الشك مطلقا
وقال ابن أبي حاتم لا أعلم في هذا خلافا وقد يستعمل الريب في التهمة والحاجة حكى ذلك
القرطبي ومعنى هذا النفي العام ان الكتاب ليس بمظنة للريب لوضوح دلالته وضوحا يقوم
مقام البرهان المقتضي لكونه لا ينبغي الارتياب فيه بوجه من الوجوه (هدى) أي رشاد
وبيان وانه يذكر وهو الكثير وبعضهم يؤنث أي هو هدى أو هذه هدى أو هو هاد لهم الى
الحق والهدى مصدر وهذا وزن نادر في المصادر لم يرد منه فيما قيل الا الهدى والتقى
والسرى والبكا بالقصر في لغة وزاد الشاطبي لقى بالضم في لغة أيضا قال الزمخشري وهو
الدلالة الموصلة الى البغية بدليل وقوع الضلال في مقابلته انتهى قال القرطبي الهدى
هديان هدى دلالة وهو الذي يقدر عليه الرسل واتباعهم قال الله تعالى ولكل قوم هاد
وقال وانك لتهدي الى صراط مستقيم فأثبت لهم الهدى الذي معناه الدلالة والدعوة
والتنبيه وتفرد سبحانه بالهدى الذي معناه التأييد والتوفيق فقال لنبيه صلى الله عليه وآله
وسلم انك لا تهدي من أحببت فالهدى على هذا يجيء بمعنى خلق الايمان في القلب ومنه قوله
تعالى أولئك على هدى من ربهم وقوله ولكن الله يهدي من يشاء (للمتقين) أي من ثبتت
لهم التقوى وتخصيص الهدى بالمتقين لما انهم المقتبسون من أنواره المنتفعون بآثاره
وان كانت هدايته شاملة لكل ناظر من مؤمن وكافر ولذا أطلقت في قوله هدى للناس قاله
أبو السعود قال ابن فارس وأصلها في اللغة قلة الكلام وقال في الكشاف المتقي في اللغة
اسم فاعل من قولهم وقاه فاتقى والوقاية الصيانة وهو في الشريعة الذي يقي نفسه تعاطي
ما يستحق به العقوبة من فعل أو ترك انتهى قال ابن مسعود هم المؤمنون وعن معاذ بن
جبل انه قيل له من المتقون فقال قوم اتقوا الشرك وعبادة الاوثان وأخلصوا لله العبادة
وعن أبي هريرة ان رجلا قال له ما التقوى قال هل وجدت طريقا ذا شوك قال نعم قال
فكيف صنعت قال اذا رأيت الشوك عدلت عنه أو جاوزته أو قصرت عنه قال ذاك
التقوى وعن أبي الدرداء قال تمام التقوى ان يتقي الله العبد حتى يتقيه من مثقال ذرة حتى
يترك بعض ما يرى أنه حلال خيفة أن يكون حراما يكون حجابا بينه وبين الله وقد روى نحو

وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله والداعي من فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مسلم وهكذا رواه ابن أبي حاتم وابن جرير من حديث الليث بن سعد به ورواه الترمذي والنسائي جميعا عن علي بن حجر عن بقية عن بحير بن سعد عن خالد بن سعدان عن جبير ابن نفير عن النواس بن سمعان به وهو اسناد حسن صحيح والله أعلم وقال مجاهد اهدنا الصراط المستقيم قال الحق وهذا أشمل ولا منافاة بينه وبين ما تقدم وروى ابن أبي حاتم وابن جرير من حديث أبي النضر هاشم بن القاسم انا حمزة بن المغيرة عن عاصم الاحول عن أبي العالية اهدنا الصراط ٤٨ المستقيم قال هو النبي صلى الله عليه وسلم وصاحباه من بعده قال عاصم فذكرنا ذلك للحسن فقال صدق أبو العالية ونصح وكل هذه الاقوال صحيحة وهي متلازمة فان من اتبع النبي صلى الله عليه وسلم واقتدى باللذين من بعده أبي بكر وعمر فقد اتبع الحق ومن اتبع الحق فقد اتبع الاسلام ومن اتبع الاسلام فقد اتبع القرآن وهو كتاب الله وحبله المتين وصراطه المستقيم فكلها صحيحة يصدق بعضها بعضا ولله الحمد وقال الطبراني حدثنا محمد بن الفضل السقطي حدثنا ابراهيم بن مهدي المصيصي حدثنا يحيى بن زكريا بن أبي زائدة عن الاعمش عن أبي وائل عن عبد الله قال الصراط المستقيم الذي تركنا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولهذا قال الامام أبو جعفر بن جرير رحمه الله والذي هو أولى بتأويل هذه الآية عندي أعني اهدنا الصراط المستقيم أن يكون معنيا به وفقنا للثبات على ما ارتضيته ووفقت له من أنعمت عليه من عبادك من قول وعمل وذلك هو الصراط المستقيم لان من وفق لما وفق له من أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين فقد وفق للاسلام وتصديق الرسل والتمسك بالكتاب والعمل بما أمره الله وقد به والانزجار عما زجره عنه واتباع منهاج النبي صلى الله عليه وسلم ومنهاج الخلفاء الاربعة وكل عبد صالح وكل ذلك من الصراط المستقيم فان قيل فكيف يسأل المؤمن الهداية في كل وقت من صلاة وغيرها وهو متصف بذلك فهل هذا من باب تحصيل الحاصل أم لا فالجواب أن لا ولولا احتياجه ليلا ونهارا الى سؤال الهداية لما أرشده الله تعالى الى ذلك فان العبد مفتقر في كل ساعة وحالة الى الله تعالى في تثبيته على الهداية ورسوخه فيها وتبصره وازدياده منها واستمراره عليها فان العبد لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا

هذا عن جماعة من التابعين وأخرج أحمد وعبد بن حميد والبخاري في تاريخه والترمذي وحسنه وابن ماجه وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي في الشعب عن عطية السعدي قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذر ما به بأس فالمصير الى ما أفاده هذا الحديث واجب ويكون هذا معنى شرعيا للمتقي أخص من المعنى الذي قدمناه عن صاحب الكشاف زاعما أنه المعنى الشرعي وقد أطال القوم في ذكر تعاريف التقوى ورسوم المتقي لا حاجة لنا الى التطويل بذكر تلك الاقوال فالمرفوع يغني عن المرقوع والصباح يغني عن المصباح (الذين يؤمنون بالغيب) هو وصف للمتقين كاشف وأصل الايمان في اللغة التصديق قال تعالى وما أنت بمؤمن لنا أي بمصدق وتعديته بالباء لتضمنه معنى الاعتراف وقد يطلق بمعنى الوثوق وكلا الوجهين حسن هنا والغيب في كلام العرب كل ما غاب عنك قال القرطبي واختلف المفسرون في تأويل الغيب هنا فقالت فرقة الغيب هو الله سبحانه وضعفه ابن العربي وقال آخرون القضاء والقدر وقال آخرون القرآن وما فيه من الغيوب وقيل القلب أي يصدقون بقلوبهم وقيل الغيب الخفاء وقال آخرون الغيب كل ما أخبر به الرسول مما لا تهتدي اليه العقول من أشراط الساعة وعذاب القبر والحشر والنشر والصراط والميزان والجنة والنار قال ابن عطية وهذه الاقوال لا تتعارض بل يقع الغيب على جميعها قال وهذا هو الايمان الشرعي المشار اليه في حديث جبريل حين قال للنبي صلى الله عليه وآله وسلم فأخبرني عن الايمان قال أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره قال صدقت انتهى وهذا الحديث هو ثابت في الصحيح بلفظ والقدر خيره وشره وقد أخرج ابن أبي حاتم والطبراني وابن منده وأبو نعيم كلاهما في معرفة الصحابة عن نويلة بنت أسلم قالت صليت الظهر أو العصر في مسجد بني حارثة واستقبلنا مسجد ايلياء فصلينا سجدتين ثم جاءنا من يخبرنا بأن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد استقبل البيت فتحول الرجال مكان النساء والنساء مكان الرجال فصلينا السجدتين الباقيتين ونحن مستقبلون البيت الحرام فبلغ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال أولئك قوم آمنوا بالغيب وأخرج البزار وأبو يعلى والحاكم وصححه عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال كنت جالسا مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال أنبئوني بأفضل أهل الايمان ايمانا فقالوا يا رسول الله الملائكة قال هم كذلك ويحق لهم وما يمنعهم

الا ما شاء الله فارشده تعالى الى ان يسأله فى كل وقت ان يمده بالمعونة والثبات والتوفيق فالسعيد من وفقه الله تعالى لسؤاله فانه تعالى قد تكفل باجابة الداعى اذا دعاه ولا سيما المضطر المحتاج المفتقر اليه آناء الليل وأطراف النهار وقد قال تعالى يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل الآية فقد أمر الذين آمنوا بالايمان وليس ذلك من باب تحصيل الحاصل لان المراد الثبات والاستمرار والمداومة على الاعمال المعينة على ذلك والله أعلم وقال تعالى آمرا لعباده المؤمنين ان يقولوا ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة انك أنت (٤٩) الوهاب وقد كان الصديق رضى الله عنه يقرأ بهذه الآية فى الركعة الثالثة من صلاة المغرب بعد الفاتحة سرا فمعنى قوله تعالى اهدنا الصراط المستقيم أى استمر بنا عليه ولا تعدل بنا الى غيره (صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) قد تقدم الحديث فيما اذا قال العبد اهدنا الصراط المستقيم الى آخرها ان الله يقول هذا لعبدى ولعبدى ما سأل وقوله تعالى صراط الذين أنعمت عليهم مفسر للصراط المستقيم وهو بدل منه عند النحاة ويجوز ان يكون عطف بيان والله أعلم والذين أنعم الله عليهم هم المذكورون فى سورة النساء حيث قال تعالى ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما وقال الضحاك عن ابن عباس صراط الذين أنعمت عليهم بطاعتك وعبادتك من ملائكتك وأنبيائك والصديقين والشهداء والصالحين وذلك نظير ما قال ربنا تعالى ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم الآية وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس صراط الذين أنعمت عليهم قال هم النبيون وقال ابن جريج عن ابن عباس هم المؤمنون وكذا قال مجاهد وقال وكيع هم المسلمون وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم هم النبى صلى الله عليه وسلم ومن معه والتفسير المتقدم عن ابن عباس رضى الله عنهما أعم وأشمل والله أعلم وقوله تعالى غير المغضوب عليهم ولا الضالين قرأ الجمهور غير بالجر على النعت قال الزمخشرى وقرئ بالنصب على الحال وهى قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمر بن الخطاب ورويت عن ابن كثير وذو الحال الضمير فى عليهم والعامل أنعمت والمعنى اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم

وقد أنزلهم الله المنزلة التى أنزلهم بها قالوا يا رسول الله الانبياء الذين اكرمهم الله برسالته ونبوته قال هم كذلك ويحق لهم وما يمنعهم وقد أنزلهم الله المنزلة التى أنزلهم بها قالوا يا رسول الله الشهداء الذين استشهدوا مع الانبياء قال هم كذلك وما يمنعهم وقد أكرمهم الله بالشهادة قالوا فمن يا رسول الله قال أقوام فى أصلاب الرجال يأتون من بعدى يؤمنون بى ولم يرونى ويصدقونى ولم يرونى يجدون الورق المعلق فيعملون بما فيه فهؤلاء أفضل أهل الايمان ايمانا وفى اسناده محمد بن أبى حميد وفيه ضعف وأخرج حسن ابن عرفة فى جزئه المشهور والبيهقى فى الدلائل عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فذكر نحو الحديث الاول وفى اسناده المغيرة ابن قيس البصرى وهو منكر الحديث وأخرج نحوه الطبرانى عن ابن عباس مرفوعا والاسمعيلى عن أبى هريرة مرفوعا أيضا والبزار عن أنس مرفوعا وأخرج ابن أبى شيبة فى مسنده عن عوف بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يا ليتنى قد لقيت اخوانى قالوا يا رسول الله ألسنا اخوانك قال بلى ولكن قوم يجيئون من بعدكم يؤمنون بى ايمانكم ويصدقونى تصديقكم وينصرونى نصركم فيا ليتنى قد لقيت اخوانى وعن أبى جمعة الانصارى قال قلت يا رسول الله هل من قوم أعظم منا أجرا آمنا بك واتبعناك قال ما يمنعكم من ذلك ورسول الله بين أظهركم يأتيكم بالوحى من السماء بل قوم يأتون من بعدكم يأتيهم كتاب الله بين لوحين فيؤمنون بى ويعملون بما فيه أولئك أعظم منكم أجرا أخرجه أحمد والدارمى والباوردى وابن قانع معا فى معجم الصحابة والبخارى فى تاريخه والطبرانى والحاكم عن أبى أمامة الباهلى قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم طوبى لمن رآنى وآمن بى وطوبى لمن آمن بى ولم يرنى سبع مرات أخرجه الطيالسى وأحمد والبخارى فى تاريخه والطبرانى والحاكم وأخرج أحمد وابن حبان عن أبى سعيد ان رجلا قال يا رسول الله طوبى لمن رآك وآمن بك قال طوبى لمن رآنى وآمن بى وطوبى ثم طوبى ثم طوبى لمن آمن بى ولم يرنى وأخرج الطيالسى وعبد بن حميد عن ابن عمر نحوه وأخرج أحمد وأبو يعلى والطبرانى من حديث أنس نحو حديث الباهلى المتقدم وعن ابن مسعود أنه قال والذى لا اله غيره ما آمن أحد أفضل من ايمان بغيب ثم قرأ الم الآية وللتابعين أقوال والراجح ما تقدم من ان الايمان الشرعى يصدق على جميع ما ذكرناه وذكر الحافظ ابن حجر

ممن تقدم وصفهم ونعتهم وهم أهل الهداية والاستقامة والطاعة لله ورسله وامتثال أوامره وترك نواهيه وزواجره غير صراط المغضوب عليهم وهم الذين فسدت ارادتهم فعلموا الحق وعدلوا عنه ولا صراط الضالين وهم الذين فقدوا العلم فهم هائمون في الضلالة لا يهتدون الى الحق وأكد الكلام بلا ليدل على ان ثم مسلكين فاسدين وهما طريقة اليهود والنصارى وقد زعم بعض النحاة ان غير ههنا استثنائية فيكون على هذا منقطعا لاستثنائهم من المنعم عليهم وليسوا منهم وما أوردناه أولى لقول الشاعر

كأنك من جمال بني أقيش * يقعقع عند رجليه بشن (٥٠)

أي كأنك جمل من جمال بني أقيش فحذف الموصوف واكتفى بالصفة وهكذا غير المغضوب عليهم أي غير صراط المغضوب عليهم اكتفي بالمضاف اليه عن ذكر المضاف وقد دل عليه سياق الكلام وهو قوله تعالى اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم ثم قال تعالى غير المغضوب عليهم ومنهم من زعم ان لا في قوله تعالى ولا الضالين زائدة وان تقدير الكلام عنده غير المغضوب عليهم والضالين واستشهد ببيت العجاج

* في بئر لا حور سرى وما شعر *

أي في بئر حور والصحيح ما قدمناه ولهذا روى أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب فضائل القرآن عن أبي معاوية عن الأعمش عن ابراهيم عن الاسود عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه انه كان يقرأ غير المغضوب عليهم وغير الضالين وهذا اسناد صحيح وكذلك حكي عن أبي بن كعب أنه قرأ كذلك وهو محمول على انه صدر منهما على وجه التفسير فيدل على ما قلناه من انه انما جيء بلا لتأكيد النفي لئلا يتوهم انه معطوف على الذين أنعمت عليهم وللفرق بين الطريقتين ليجتنب كل واحد منهما فان طريقة أهل الايمان مشتملة على العلم بالحق والعمل به واليهود فقدوا العمل والنصارى فقدوا العلم ولهذا كان الغضب لليهود والضلال للنصارى لان من علم وترك استحق الغضب بخلاف من لم يعلم والنصارى لما كانوا قاصدين شيأ لكنهم لا يهتدون الى طريقه لانهم لم يأتوا الامر من بابه وهو اتباع الحق ضلوا وكل من اليهود والنصارى ضال مغضوب عليه لكن أخص أوصاف اليهود الغضب كما قال تعالى عنهم من لعنه الله وغضب عليه وأخص أوصاف النصارى الضلال كما قال تعالى عنهم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل وبهذا جاءت الأحاديث والآثار وذلك واضح بين فيما قال الامام أحمد حدثنا محمد بن جعفر ثنا شعبة قال

في الفتح كلاما مفيدا في حديث عمر بن الخطاب المتقدم باعتبار ما ورد في الصحابة وحاصله ان فضيلة الصحابة لا يعدلها عمل لمشاهدة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومجرد زيادة الأجر لا يستلزم أفضلية غير الصحابة على الصحابة لان الاجر انما يقع مفاضلة بالنسبة الى ما يماثله من العمل ومشاهدة النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا يعدلها عمل هذا حاصل ما أشار اليه وهو محتاج اليه لانه كثيرا ما يستشكل الجمع بين الاحاديث والله أعلم قال ابن جرير في هذه الآية والاولى أن يكونوا موصوفين بالايمان بالغيب قولا واعتقادا وعملا وتدخل الخشية لله في معنى الايمان الذي هو تصديق القول بالعمل والايمان كلمة جامعة للاقرار بالله وكتبه ورسله وتصديق الاقرار بالفعل وقال ابن كثير ان الايمان الشرعي المطلوب لا يكون الا اعتقادا وقولا وعملا هكذا ذهب اليه أكثر الائمة بل قد حكاه الشافعي وأحمد وأبو عبيد وغير واحد اجماعا أن الايمان قول وعمل يزيد وينقص وقد ورد فيه آثار كثيرة انتهى وقد أنكر أكثر المتكلمين زيادة الايمان ونقصانه وقال أهل السنة ان نفس التصديق لا يزيد ولا ينقص والايمان الشرعي يزيد وينقص بزيادة الاعمال ونقصانها وبهذا أمكن الجمع بين ظواهر النصوص من الكتاب والسنة التي جاءت بزيادة الايمان ونقصانه وبين أصله من اللغة والدليل على ان الاعمال من الايمان قوله صلى الله عليه وآله وسلم الايمان بضع وسبعون شعبة أفضلها قول لا اله الا الله وأدناها اماطة الاذى عن الطريق والحياء شعبة من الايمان أخرجه الشيخان عن أبي هريرة ولشيخ الاسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام كلام في معنى الغيب وعالمه في كتاب العقل والنقل حاصله ان من زعم ان عالم الغيب الذي أخبر به الله والرسل هو العالم العقلي الذي يثبته هؤلاء الفلاسفة فهو من أضل الناس فان ابن سينا ومن سلك سبيله في هذا كالشهرستاني والرازي وغيرهما يقولون ان الالهيين يثبتون العالم العقلي ويردون على الطبعيين منهم الذين لا يثبتون الا العالم الحسي ويدعون ان العالم العقلي الذي يثبتونه هو ما أخبرت به الرسل من الغيب الذي أمروا بالايمان به مثل وجود الرب والملائكة والجنة وليس الامر كذلك فان ما يثبتونه من العقليات اذا حقق الامر لم يكن لها وجود الا في العقل وسميت مجردات ومفارقات لان العقل يجرد الامور الكلية عن المعينات وانما سموها مفارقات فكان أصله ان النفس الناطقة تفارق البدن وتصير حينئذ عقلا وكانوا يسمون ما جامع المادة بالتدبير لها كالنفس قبل الموت

سمعت سماك بن حرب يقول سمعت عباد بن حبيش يحدث عن عدي بن حاتم قال جاءت خيل رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذوا عمتي وناسا فلما أتوا بهم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم صفوا له فقالت يا رسول الله نأى الوافد وانقطع الولد وأنا عجوز كبيرة ما بي من خدمة فمن علي من الله عليك قال من وافدك قالت عدي بن حاتم قال الذي فر من الله ورسوله قالت فمن علي فلما رجع ورجل الى جنبه ترى انه علي قال سليه حملانا فسألته فأمر لها قال فأتتني فقالت لقد فعلت فعلة ما كان أبوك يفعلها فانه قد أتاه فلان فأصاب منه وأتاه فلان فأصاب منه فأتيته فاذا عنده امرأة وصبيان وذكر قربهم من النبي صلى الله عليه وسلم قال فعرفت انه ليس بملك كسرى ولا قيصر فقال يا عدي ما أفرك أن يقال لا اله الا الله فهل من اله الا الله ما أفرك أن يقال الله أكبر فهل شيء أكبر من الله عز وجل قال فأسلمت فرأيت وجهه استبشر وقال ان المغضوب عليهم اليهود وان الضالين النصارى وذكر الحديث ورواه الترمذي من حديث سماك بن حرب وقال حسن غريب لا نعرفه الا من حديثه قلت وقد رواه حماد بن سلمة عن سماك عن مري بن قطري عن عدي بن حاتم قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى غير المغضوب عليهم قال هم اليهود ولا الضالين قال النصارى هم الضالون وهكذا رواه سفيان بن عيينة عن اسمعيل بن أبي خالد عن الشعبي عن عدي بن حاتم به وقد روي حديث عدي هذا من طرق وله ألفاظ كثيرة يطول ذكرها وقال عبد الرزاق أنا معمر عن بديل العقيلي أخبرني عبد الله بن شقيق انه أخبره من سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بوادي القرى على فرسه وسأله رجل من بني القين فقال يا رسول الله من هؤلاء قال المغضوب عليهم وأشار الى اليهود والضالون هم النصارى وقد رواه الجريري وعروة وخالد الحذاء عن عبد الله بن شقيق فأرسلوه ولم يذكروا من سمع النبي صلى الله عليه وسلم ووقع في رواية عروة تسمية عبد الله بن عمرو فالله أعلم وقد روى ابن مردويه من حديث ابراهيم ابن طهمان عن بديل بن ميسرة عن عبد الله بن شقيق عن أبي ذر قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المغضوب عليهم قال اليهود قلت الضالين قال النصارى وقال السدي عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم غير المغضوب عليهم هم اليهود ولا الضالين هم النصارى وقال الضحاك وابن جريج عن ابن عباس

الموت نفسا وما فارقها بالكلية فلم يتعلق بها الا تعلق تدبير ولا غيره عقلا ولا ريب ان النفس الناطقة قائمة بنفسها باقية بعد الموت منعمة أو معذبة كما دل على ذلك نصوص الكتاب والسنة واجماع سلف الامة وأئمتها ثم تعاد الى الابدان والمقصود هنا ان ما يثبتونه من العقليات اذا حققت لم يكن الا ما ثبت في عقل الانسان ولهذا كان منتهى تحقيقهم الوجود المطلق وهو الوجود المشترك بين الموجودات وهذا انما يكون مطلقا في الاذهان لا في الاعيان والمتفلسفة يجعلون الكلي المشترك موضوع العلم الالهي وأما الوجود الواجب فتارة يقولون هو الوجود المقيد بالقيود السلبية كما يقوله ابن سينا وتارة يجعلونه المجرد عن كل قيد سلبي وثبوتي كما يقوله بعض الملاحدة من باطنية الرافضة والاتحادية وتارة يجعلونه نفس وجود الموجودات فلا يجعلون للممكنات وجودا غير الوجود الواجب وغايتهم أنهم يجعلون في أنفسهم شيأ و يظنون ان ذلك موجود في الخارج ولهذا اعدهم الشياطين فان الشياطين تتصرف في الخيال وتلقي في خيالات الناس أمورا لا حقيقة لها ومحققو هؤلاء يقولون أرض الحقيقة هي أرض الخيال وأما ما أخبرت به الرسل صلوات الله عليهم من الغيب فهو أمور موجودة ثابتة أكمل وأعظم مما نشاهده نحن في هذه الدار وتلك أمور محسوسة تشاهد وتحس ولكن بعد الموت وفي الدار الآخرة ويمكن ان يشاهدها في هذه الدار من يختصه الله بذلك ليست عقلية قائمة بالعقل ولهذا كان الفرق بينها وبين الحسيات التي نشاهدها أن تلك غيب وهذه شهادة قال تعالى الذين يؤمنون بالغيب وكون الشيء غائبا وشاهدا أمر اضافي بالنسبة الينا فاذا غاب عنا كان غيبا واذا شاهدناه كان شهادة ليس هو فرقا يعود الى ان ذاته تعقل ولا تشاهد ولا تحس بل كل ما يعقل ولا يمكن أن يشاهد بحال فانما يكون في الذهن والملائكة يمكن ان يشاهدوا ويروا الرب تعالى ويمكن رؤيته بالابصار والمؤمنون يرونه يوم القيامة وفي الجنة كما تواترت النصوص في ذلك عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم واتفق على ذلك سلف الامة وأئمتها وامكان رؤيته يعلم بالدلائل العقلية القاطعة لكن ليس هو الدليل الذي سلكه طائفة من أهل الكلام كأبي الحسن وأمثاله حيث ادعوا ان كل موجود يمكن رؤيته بل قالوا ويمكن ان يتعلق به الحواس الخمس السمع والبصر والشم والذوق واللمس فان هذا مما يعلم فساده بالضرورة عند جماهير العلماء وهذا من أغاليط بعض المتكلمين هذا

غير المغضوب عليهم اليهود ولا الضالين النصارى وكذلك قال الربيع بن أنس وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغير واحد وقال ابن أبي حاتم ولا أعلم بين المفسرين في هذا اختلافا وشاهد ما قاله هؤلاء الائمة من ان اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون الحديث المتقدم وقوله تعالى في خطابه مع بني اسرائيل في سورة البقرة بئس ما اشتروا به أنفسهم ان يكفروا بما أنزل الله بغيا ان ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباؤا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين وقال في المائدة قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل (٥٢) منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكانا وأضل عن سواء السبيل وقال تعالى لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون وفي السيرة عن زيد بن عمرو ابن نفيل انه لما خرج هو وجماعة من أصحابه الى الشأم يطلبون الدين الحنيف قالت له اليهود انك لن تستطيع الدخول معنا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله فقال أنا من غضب الله أفر وقالت له النصارى انك لن تستطيع الدخول معنا حتى تأخذ بنصيبك من سخط الله فقال لا أستطيعه فاستمر على فطرته وجانب عبادة الاوثان ودين المشركين ولم يدخل مع أحد من اليهود ولا النصارى واما أصحابه فتنصروا ودخلوا في دين النصرانية لانهم وجدوه أقرب من دين اليهود اذ ذاك وكان منهم ورقة بن نوفل حتى هداه الله ببعثة نبيه لما بعثه آمن بما وجد من الوحي رضي الله عنه * (مسئلة) * والصحيح من مذاهب العلماء انه يغتفر الاخلال بتحرير ما بين الضاد والظاء لقرب مخرجيهما وذلك ان الضاد مخرجها من أول حافة اللسان وما يليها من الاضراس ومخرج الظاء من طرف اللسان وأطراف الثنايا العليا ولان كلا من الحرفين من الحروف المجهورة ومن الحروف الرخوة ومن الحروف المطبقة فلهذا كله اغتفر استعمال أحدهما مكان الآخر لمن لا يميز ذلك والله أعلم واما حديث أنا أفصح من نطق بالضاد فلا اصل له والله أعلم * (فصل) * اشتملت هذه السورة الكريمة وهي سبع آيات على حمد الله وتمجيده والثناء عليه بذكر أسمائه الحسنى المستلزمة لصفاته العليا وعلى ذكر المعاد وهو يوم الدين وعلى ارشاده عبيده الى سؤاله والتضرع اليه والتبري من حولهم وقوتهم والى اخلاص العبادة له وتوحيده بالالوهية تبارك

(ويقيمون الصلوة) أي يداومون عليها والاقامة في الاصل الدوام والثبات وليس من القيام على الرجل وانما هو من قولك قام الحق أي ظهر وثبت واقامة الصلاة أداؤها بأركانها وسننها وهيآتها في أوقاتها وحفظها من ان يقع فيها خلل في فرائضها وحدودها وزيغ في أفعالها واتمام أركانها والصلاة أصلها في اللغة الدعاء من صلى يصلي اذا دعا ذكر هذا الجوهري وغيره وقال قوم هي مأخوذة من الصلا وهو عرق في وسط الظهر ويفترق عند العجب ذكر هذا القرطبي وهذا هو المعنى اللغوي وأما المعنى الشرعي فهو هذه الصلاة التي هي ذات الاركان والاذكار قال ابن عباس المراد به الصلوات الخمس وقال قتادة ان اقامة الصلاة المحافظة على مواقيتها ووضوئها وركوعها وسجودها (ومما رزقناهم ينفقون) أي يخرجون ويتصدقون في طاعة الله وفي سبيله والرزق عند الجمهور ما صلح للانتفاع به حلالا كان أو حراما خلافا للمعتزلة فقالوا ان الحرام ليس برزق وللبحث في هذه المسئلة موضع غير هذا والانفاق اخراج المال من اليد وأنفق الشئ وأنفده أخوان ولو استقريت الالفاظ وجدت كل ما فاؤه نون وعينه فاء دالا على معنى الذهاب والخروج وفي المجئ بمن التبعيضية هنا نكتة سرية هي الارشاد الى ترك الاسراف والتبذير وتقديم المفعول للاهتمام به والمحافظة على رؤس الآي قال أبو بكر الباقلاني ذهب الاشاعرة كلهم الى نفي السجع عن القرآن وذهب كثير ممن خالفهم الى اثباته انتهى قال البقاعي الثاني فاسد وأطال في بيان ذلك بلا طائل والحق أنه في القرآن من غير التزام له في الاكثر وكأن من نفاه نفى التزامه او أكثريته ومن أثبته أراد وروده فيه في الجملة فاحفظه ولا تلتفت لما سواه والذي عليه العلماء انه تطلق الفواصل عليه دون السجع قاله الخفاجي قال ابن عباس يعني زكاة أموالهم وعن قتادة يعني الانفاق في فرائض الله التي افترض عليهم في طاعته وسبيله كان ذلك النذر وفي الجهاد وعلى النفس وقال ابن مسعود هي نفقة الرجل على أهله واختار ابن جرير ان الآية عامة في الزكاة والنفقات وهو الحق من غير فرق بين النفقة على الاقارب وغيرهم وصدقة الفرض والنفل وعدم التصريح بنوع من الانواع التي يصدق عليها اسم الانفاق يشعر أتم اشعار بالتعميم (والذين يؤمنون) أي يصدقون (بما أنزل اليك) المراد به ما أنزل على محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهو القرآن باسره والشريعة عن آخرها والتعبير بالماضي مع كون بعضه

وتعالى وتنزيهه ان يكون له شريك أو نظير أو مماثل والى سؤالهم اياه الهداية الى الصراط المستقيم وهو الدين القويم وتثبيتهم عليه حتى يفضي لهم بذلك الى جواز الصراط الحسية يوم القيامة المفضي بهم الى جنات النعيم في جوار النبيين والصديقين والشهداء والصالحين واشتملت على الترغيب في الاعمال الصالحة ليكونوا مع أهلها يوم القيامة والتحذير من مسالك الباطل لئلا يحشروا مع سالكيها يوم القيامة وهم المغضوب عليهم والضالون وما أحسن ما جاء اسناد الانعام عليه في قوله تعالى صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم وحذف الفاعل في الغضب في قوله تعالى غير المغضوب عليهم وان كان هو الفاعل لذلك في الحقيقة كما قال تعالى ألم تر الى الذين تولوا قوما غضب الله عليهم الآية وكذلك اسناد الضلال الى من قام به وان كان هو الذي أضلهم بقدره كما قال تعالى من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا وقال من يضلل الله فلا هادي له ويذرهم في طغيانهم يعمهون الى غير ذلك من الآيات الدالة على انه سبحانه هو المنفرد بالهداية والاضلال لا كما تقول الفرقة القدرية ومن حذا حذوهم من ان العباد هم الذين يختارون ذلك ويفعلونه ويحتجون على بدعتهم بمتشابه من القرآن ويتركون ما يكون فيه صريحا في الرد عليهم وهذا حال أهل الضلال والغي وقد ورد في الحديث الصحيح اذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم يعني في قوله تعالى فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله فليس بحمد الله لمبتدع في القرآن حجة صحيحة لان القرآن جاء ليفصل الحق من الباطل مفرقا بين الهدى والضلال وليس فيه تناقض ولا اختلاف لانه من عند الله تنزيل من حكيم حميد * (فصل) * يستحب لمن يقرأ الفاتحة أن يقول بعدها آمين مثل يس ويقال أمين بالقصر أيضا ومعناه اللهم استجب والدليل على استحباب التأمين ما رواه الامام أحمد وأبو داود والترمذي عن وائل بن حجر قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم قرأ غير المغضوب عليهم ولا الضالين فقال آمين مد بها صوته ولابي داود رفع بها صوته وقال الترمذي هذا حديث حسن وروي عن علي وابن مسعود وغيرهم وعن أبي هريرة قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا تلا غير المغضوب عليهم ولا الضالين قال آمين حتى يسمع من يليه من الصف الاول رواه أبو داود وابن ماجه وزاد فيه فيرتج بها المسجد والدارقطني

مترقبا لتغليب المحقق على المقدر أو لتنزيل ما في شرف الوقوع منزلة الواقع قال القاضي الانزال نقل الشيء من أعلى الى أسفل وهو انما يلحق المعاني بتوسط لحوقه الذوات الحاملة لها قال الامام المراد من انزال القرآن ان جبريل عليه السلام في السماء سمع كلام الله فنزل به على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كما يقال نزلت رسالة الامير من القصر والرسالة لا تنزل ولكن كان المستمع في علو فنزل وادى في سفل وقول الامير لا يفارق ذاته اهـ قال الخفاجي وذهب بعض السلف الى أنه من المتشابه أي يجزم بالنزول من غير معرفة بكيفيته وهو الحق اذ مثل هذا من التدقيقات الفلسفية لا ينبغي ذكره في التفسير اهـ حاصله قلت ويرد على مذهب بعض السلف ما ورد في الاحاديث الصحيحة من بيان كيفية الوحي وبدئه وبه ترجم البخاري وهو أول باب عنون به كتابه الصحيح وقد نطق به القرآن ولا شك أن كلامه سبحانه المنزل على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم مسموع بالآذان مقروء بالالسنة محفوظ في الصدور مكتوب في المصاحف له حرف وصوت كما دلت عليه السنة المطهرة في غير موضع من دواوين الاسلام وزبر الايمان وليس هذا موضع بسطه وسيأتي الكلام عليه تحت تفسير قوله تعالى حتى اذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير (وما أنزل من قبلك) وهو الكتب السالفة المنزلة على الانبياء من قبل كالتوراة والانجيل والزبور وصحف ابراهيم وغيرها والايمان بالكل جملة فرض عين وبالقرآن تفصيلا فرض كفاية قيل هو مؤمنو أهل الكتاب وفيهم نزلت وقد رجح هذا ابن جرير ونقله السدي عن ابن عباس وابن مسعود وأناس من الصحابة واستشهد له ابن جرير بقوله تعالى وان من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل اليكم وما أنزل اليهم وبقوله تعالى والذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون والآية الاولى نزلت في مؤمني العرب وقيل ان الآيتين جميعا في المؤمنين على العموم وعلى هذا فالجملة عطف على الجملة الاولى صفة للمتقين بعد صفة أو مرفوعة على الاستئناف أو عطف على المتقين والتقدير هدى لهم وللذين يؤمنون والحق ان هذه الآية في المؤمنين كالتي قبلها وليس مجرد ذكر الايمان بما أنزل الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وما أنزل الى من قبله بمقتض لجعل ذلك وصفا لمؤمني أهل الكتاب ولم يأت ما يوجب المخالفة لهذا ولا في نظم القرآن ما يقتضي ذلك وقد ثبت الثناء على من جمع بين الامرين من المؤمنين في غير آية فمن ذلك قوله يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب

الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل وقوله تعالى وقولوا آمنا بالذى أنزل الينا وأنزل اليكم وقوله تعالى آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقال والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم (وبالآخرة) أى بالدار الآخرة تأنيث الآخر الذى هو نقيض الاول كما أن الدنيا تأنيث الادنى غلبتا على الدارين فجرتا مجرى الاسماء وهى صفة الدار بدليل قوله تعالى تلك الدار الآخرة وسميت آخرة لتأخرها عن الدنيا وكونها بعدها (هم يوقنون) الايقان اتقان العلم بانتفاء الشك والشبهة عنه قال فى الكشاف فالمراد انهم يوقنون بالبعث والنشور وسائر أمور الآخرة من دون شك وفى تقديم الظرف مع بناء الفعل على الضمير اشعار بالحصر وان ما عدا هذا الامر الذى هو أساس الايمان ورأسه ليس بمستأهل عندهم للايقان به والقطع بوقوعه وفيه تعريض بمن عداهم من أهل الكتاب فان اعتقادهم فى أمور الآخرة بمعزل من الصحة فضلا عن الوصول الى مرتبة اليقين (أولئك) أى الذين هذه صفتهم وما فيه من البعد للاشعار بعلو درجتهم ورفعة مرتبتهم فى الفضل وهو مبتدأ وخبره (على هدى من ربهم) أى على رشاد ونور وقيل على استقامة منحوها من عنده وأوتوها من قبله وهو اللطف والتوفيق الذى اعتضدوا به على أعمال الخير والترقى الى الافضل فالافضل والابهام المفهوم من التنكير فى هدى لكمال تفخيمه أى على هدى أى هدى لا يبلغ كنهه ولا يقادر قدره وهذا كلام مستأنف بيانى ويمكن أن يكون خبرا عن الذين يؤمنون بالغيب فيكون متصلا بما قبله قال فى الكشاف قوله على هدى مثل لتمكنهم من الهدى واستقرارهم عليه وتمسكهم به شبهت حالهم بحال من اعتلى الشئ وركبه ونحوه هو على الحق وعلى الباطل وقد صرحوا بذلك فى قوله جعل الغواية مركبا وامتطى الجهل واقتعد غارب الهوى اه وقال أبو السعود وايراد كلمة الاستعلاء على استعارتها لتمسكهم بالهدى استعارة تبعية متفرعة على تشبيهه باعتلاء الراكب واستوائه على مركوبه أو على جعلها قرينة للاستعارة بالكناية بين الهدى والمركوب للايذان بقوة تمكنهم منه وكمال رسوخهم فيه انتهى وقال الخفاجى الاستعارة فى الحرف تبعية متعلقة وهو المعنى الكلى الشامل له كما حققوه والتمثيل ضرب المثل والاتيان بمثال ومطلق التشبيه والمركب منه وهذا ظاهر

وقال هذا اسناد حسن وعن بلال انه قال يارسول الله لا تسبقنى بآمين رواه أبو داود ونقل أبو نصر القشيرى عن الحسن وجعفر الصادق انهما شددا الميم من آمين مثل آمين البيت الحرام قال أصحابنا وغيرهم ويستحب ذلك لمن هو خارج الصلاة ويتأكد فى حق المصلى وسواء كان منفردا أو اماما أو مأموما وفى جميع الاحوال لما جاء فى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا أمن الامام فأمنوا فانه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه ولمسلم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا قال أحدكم فى الصلاة آمين والملائكة فى السماء آمين فوافقت احداهما الاخرى غفر له ما تقدم من ذنبه قيل بمعنى من وافق تأمينه تأمين الملائكة فى الزمان وقيل فى الاجابة وقيل فى صفة الاخلاص وفى صحيح مسلم عن أبى موسى مرفوعا اذا قال يعنى الامام ولا الضالين فقولوا آمين يجبكم الله وقال جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال قلت يارسول الله ما معنى آمين قال رب افعل وقال الجوهرى معنى آمين كذلك فليكن وقال الترمذى معناه لا تخيب رجاءنا وقال الاكثرون معناه اللهم استجب لنا وحكى القرطبى عن مجاهد وجعفر الصادق وهلال بن يساف ان آمين اسم من أسماء الله تعالى وروى عن ابن عباس مرفوعا ولا يصح قاله أبو بكر بن العربى المالكى وقال أصحاب مالك لا يؤمن الامام ويؤمن المأموم لما رواه مالك عن سمى عن أبى صالح عن أبى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال واذا قال يعنى الامام ولا الضالين فقولوا آمين الحديث واستأنسوا أيضا بحديث أبى موسى عند مسلم واذا قرأ ولا الضالين فقولوا آمين وقد قدمنا فى المتفق عليه اذا أمن الامام فأمنوا وانه عليه الصلاة والسلام كان يؤمن اذا قرأ غير المغضوب عليهم ولا الضالين وقد اختلف أصحابنا في الجهر بالتأمين للمأموم فى الجهرية وحاصل الخلاف ان الامام ان نسى التأمين جهر المأموم به قولا واحدا وان أمن الامام جهرا فالجديد انه لا يجهر المأموم وهو مذهب أبى حنيفة ورواية عن مالك لانه ذكر من الاذكار فلا يجهر به كسائر أذكار الصلاة والقديم انه يجهر به وهو مذهب الامام أحمد بن حنبل والرواية الاخرى عن مالك لما تقدم حتى يرتج المسجد ولنا قول آخر ثالث انه ان كان المسجد صغيرا لم يجهر المأموم لانهم يسمعون قراءة الامام وان كان كبيرا جهر ليبلغ التأمين من فى أرجاء المسجد والله أعلم

لا نزاع

وقد روى الامام أحمد فى مسنده عن عائشة رضى الله عنها ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكرت عنده اليهود فقال انهم لن يحسدونا على شئ كما يحسدونا على الجمعة التى هدانا الله لها وضلوا عنها وعلى القبلة التى هدانا الله لها وضلوا عنها وعلى قولنا خلف الامام آمين ورواه ابن ماجه ولفظه ماحسدتكم اليهود على شئ ماحسدتكم على السلام والتأمين وله عن ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ماحسدتكم اليهود على شئ ماحسدتكم على قول آمين فاكثروا من قول آمين وفى اسناده طلحة بن عمرو وهو ضعيف وروى ابن مردويه عن أبى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال آمين خاتم رب العالمين على عباده المؤمنين وعن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطيت آمين فى الصلاة وعند الدعاء لم يعط أحد قبلى الا ان يكون موسى كان موسى يدعو وهرون يؤمن فاختموا الدعاء بآمين فان الله يستجيبه لكم قلت ومن هنا نزع بعضهم فى الدلالة بهذه الآية الكريمة وهى قوله وقال موسى ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الاليم قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعانّ سبيل الذين لا يعلمون فذكر الدعاء عن موسى وحده ومن سياق الكلام ما يدل على ان هرون أمن فنزل منزلة من دعا لقوله تعالى قد أجيبت دعوتكما فدل ذلك على ان من أمن على دعاء فكأنما قاله فلهذا قال من قال ان المأموم لا يقرأ لان تأمينه على قراءة الفاتحة بمنزلة قراءتها ولهذا جاء فى الحديث من كان له امام فقراءة الامام له قراءة رواه أحمد فى مسنده وكان بلال يقول لا تسبقنى بآمين يارسول الله فدل هذا المنزع على ان المأموم لا قراءة عليه فى الجهرية والله أعلم ولهذا قال ابن مردويه حدثنا أحمد بن الحسن حدثنا عبد الله بن محمد بن سلام حدثنا اسحق بن ابراهيم حدثنا جرير عن ليث عن ابن أبى سليم عن كعب عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا قال الامام غير المغضوب عليهم ولا الضالين فقال آمين فوافق آمين أهل الارض آمين أهل السماء غفر الله للعبد ما تقدم من ذنبه ومثل من لا يقول آمين كمثل رجل غزا مع قوم فاقترعوا فخرجت سهامهم ولم يخرج سهمه فقال لم لم يخرج سهمى فقيل انك لم تقل آمين

(بسم الله الرحمن الرحيم) رب يسر وأعن يا كريم *(تفسير سورة البقرة)* *(ذكر ما ورد فى فضلها)* قال الامام أحمد حدثنا

لا نزاع فيه وانما النزاع فى الاستعارة التبعية هل تكون تمثيلية أم لا فذهب الفاضل المحقق الى جوازه متمسكا بما صرح العلامة فى مواضع من كشافه كما صرح به هنا وقد سبقه اليه الطيبى وقال انه مسلك الشيخين الزمخشرى والسكاكى ولم يرتضه المدقق فى الكشف فأول ما فى عباراتهم وتبعه فيه السيد وشنع على الفاضل حتى كأنه أبو عذرته وهى المعركة العظمى التى عقدت لها المجالس وصنفت فيها الرسائل مما هو أشهر من قفا نبك والحاصل ان الاستعارة على استعارة تبعية تستلزم كون الاستعلاء مشبها به وتركب الطرفين يستلزم ان لا يكون مشبها به فلا يجتمعان ومن الفضلاء من رده وانتصر للسعد سعد جده فقال هو ممنوع والحاصل انه يجرى فى الحرف التمثيل بمعنى انتزاع الحالة من الامور المتعددة ولا يجرى فيه التشبيه فى المتصل المركب قصدا والذى يخطر بالبال بعد طى شقة القيل والقال ان الخلاف بينهم فى حرف واحد اذ لا خلاف فى ان التمثيل التفصيلى المعروف يستدعى تركب الطرفين حقيقة وان التمثيل الآخر الذى هو محل النزاع هل يشترط فيه التركيب بعد الاتفاق على انه لا يلزم التصريح بأجزائه لفظا ولا تقديرا فذهب الشريف الى انه يشترط فيه أن تكون أجزاؤه مرادة منوية فلا يكون ما اقتصر عليه من الحرف ونحوه مما هو عمدة المعنى المجازى مستعملا فى معنى مجازى بل حقيقة والا كان مجازا مفردا لا تمثيلا أو لا يشترط فيه ذلك بل يكفى تركب المأخذ المنتزع منه ذلك ويكون الحرف المذكور مع ما يدل عليه بالالتزام من طرفى التشبيه وما يتممه متجوزا فيه والا لم يصح دخول على على الهدى كما مشى عليه السعد ومن مشى على جادته فالنزاع كاللفظى انتهى حاصله قلت وقد أطال المحققون الكلام على هذا بما لا يتسع له المقام واختلف من بعدهم فى ترجيح الراجح من القولين وقد جمع العلامة الشوكانى فى ذلك رسالة مستقلة سماها الطود المنيف فى ترجيح ما قاله السعد على ما قاله الشريف فليرجع اليها من أراد ان يتضح له المقام ويجمع بين أطراف الكلام على التمام وحاصلها ان الحق فى جانب السعد وان الصواب بيده وقد تقدمه الى مثل هذا العلوى فى حاشيته على الكشاف وليس للسعد فيه زيادة على ما يفيده كلام الزمخشرى الا مجرد الايضاح ولم يات بشئ من طرفه يستحق المؤاخذة عليه انتهى أقول فالحق اجتماع الاستعارة التبعية والتمثيلية وذلك هو محل النزاع وقد اعترف الشريف بان المقام صالح لهما لكن ادعى

عارم حدثنا معتمر عن أبيه عن رجل عن أبيه عن معقل بن يسار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال البقرة سنام القرآن وذروته نزل
مع كل آية منها ثمانون ملكا واستخرجت الله لا اله الا هو الحي القيوم من تحت العرش فوصلت بها أو فوصلت بسورة البقرة ويس
قلب القرآن لا يقرؤها رجل يريد الله والدار الآخرة الا غفر له واقرؤها على موتاكم انفرد به أحمد وقد رواه أحمد أيضا عن عارم عن
عبد الله بن المبارك عن سليمان التيمي عن أبي عثمان وليس بالنهدي عن أبيه عن معقل بن يسار قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
اقرؤها على موتاكم يعني يس فقد تبينا بهذا الاسناد (٥٦) معرفة المبهم في الرواية الأولى وقد أخرج هذا الحديث على هذه الصفة
في الرواية الثانية أبو داود والنسائي وابن ماجه وقد روى الترمذي من حديث حكيم بن جبير وفيه ضعف عن أبي صالح عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لكل شيء سنام وان سنام القرآن سورة البقرة وفيها آية هي سيدة آي القرآن آية الكرسي وفي مسند أحمد وصحيح مسلم والترمذي والنسائي من حديث سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا تجعلوا بيوتكم قبورا فان البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله الشيطان وقال الترمذي حسن صحيح وقال أبو عبيد القاسم ابن سلام حدثني ابن أبي مريم عن ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب عن سنان بن سعد عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الشيطان يخرج من البيت اذا سمع سورة البقرة تقرأ فيه سنان ابن سعد ويقال بالعكس ووثقه ابن معين واستنكر حديثه أحمد بن حنبل وغيره وقال أبو عبيد حدثنا محمد بن جعفر عن شعبة عن سلمة بن كهيل
عن أبي الأحوص عن عبد الله يعني ابن مسعود رضي الله عنه قال ان الشيطان يفر من البيت يسمع فيه سورة البقرة خطب
ورواه النسائي في اليوم والليلة وأخرجه الحاكم في مستدركه من حديث شعبة ثم قال الحاكم صحيح الاسناد ولم يخرجاه وقال
ابن مردويه حدثنا أحمد بن كامل حدثنا أبو اسمعيل الترمذي حدثنا أيوب بن سليمان بن بلال حدثني أبو بكر بن أبي أويس عن
سليمان بن بلال عن محمد بن عجلان عن أبي اسحق عن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
لا ألفين أحدكم يضع احدى رجليه على الأخرى يتغنى ويدع سورة البقرة يقرؤها فان الشيطان ينفر من البيت تقرأ فيه سورة البقرة

امتناع اجتماعهما ويدل على ان الاستعارة التبعية تمثيلية الاستقراء وبه يشعر قول امام
الفن السكاكي صاحب المفتاح وهذا صريح فيما صرح به السعد والله أعلم (وأولئك)
في تكرير اسم الاشارة دلالة على ان كلا من الهداية الماضية والفلاح الآتي بحيث
لو انفرد أحدهما لكفى مميزا على حياله (هم المفلحون) أي المنجحون الناجون الفائزون
نجوا من النار وفازوا بالجنة والمفلح الظافر بالمطلوب والفلاح أصله في اللغة الشق والقطع
قاله أبو عبيد قال القرطبي وقد يستعمل في الفوز والبقاء وهو أصله أيضا في اللغة فمعناه
الفائزون بالجنة والباقون فيها وقال في الكشاف المفلح الفائز بالبغية كأنه الذي انفتحت
له وجوه الظفر ولم تستغلق عليه انتهى وقد استعمل الفلاح في السحور ومنه الحديث
الذي رواه أبو داود حتى كاد يفوتنا الفلاح قلت ما الفلاح قال السحور وكان معنى
الحديث ان السحور به بقاء الصوم فلهذا سمي فلاحا وضمير الفصل ويسمى عمادا له فوائد
ذكرها الخفاجي منها الدلالة على اختصاص المسند اليه بالمسند دون غيره وقد ورد في فضل
هذه الآيات الشريفة أحاديث ثم ذكر سبحانه فريق الشر بعد الفراغ من ذكر فريق
الخير قاطعا لهذا الكلام عن الكلام الاول معنونا له بما يفيد ان شأن جنس الكفرة عدم
اجداء الانذار لهم وانه لا يترتب عليه ما هو المطلوب منهم من الايمان وان وجود ذلك
كعدمه فقال (ان الذين) التعريف للعهد أو للجنس والثاني أولى (كفروا) أي جحدوا
وأنكروا وأصل الكفر في اللغة الستر والتغطية ومنه سمي الكافر كافرا لانه يغطي بكفره
ما يجب أن يكون عليه من الايمان (سواء عليهم) أي متساو لديهم وسواء اسم مصدر بمعنى
الاستواء وارتفاعه على انه خبر لان (أأنذرتهم) أي خوفتهم وحذرتهم والانذار الابلاغ
والاعلام مع التخويف فكل منذر معلم وليس كل معلم منذرا قرئ بتحقيق الهمزتين
وابدال الثانية الفا قال البيضاوي وهذا الابدال لحن ورد عليه علي القاري بان ما قاله
تقليد للكشاف خطأ لان القراءة به متواترة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم فانكارها
كفر وتمام هذا البحث في الجمل (أم لم تنذرهم لا يؤمنون) اي لا يصدقون قال القرطبي
واختلف العلماء في تأويل هذه الآية فقيل هي عامة ومعناها الخصوص فيمن حقت عليه
كلمة العذاب وسبق في علم الله انه يموت على كفره أراد الله تعالى أن يعلم الناس ان فيهم من
هذا حاله دون ان يعين أحدا وقال ابن عباس والكلبي نزلت في رؤساء اليهود حيي بن

اخطب وكعب بن الاشرف ونظرائهما وقال الربيع بن أنس نزلت فيمن قتل يوم بدر من قادة
الاحزاب والاول أصح فان من عين أحدا فانما مثل عن كشف الغيب بموته على الكفر
انتهى (ختم الله على قلوبهم) أي طبع الله عليها واستوثق فلا تعي خيرا ولا تفهمه والختم
والكتم اخوان وأصل الختم مصدر معناه التغطية على الشئ والاستيثاق منه حتى
لا يدخله شئ ولا يخرج منه ما حصل فيه ومنه ختم الكتاب والباب وما يشبه ذلك حتى
لا يوصل الى ما فيه ولا يوضع فيه غيره فشبه هذا المعنى بضرب الخاتم على الشئ تشبيه
معقول بمحسوس والجامع انتفاء القبول لمانع منع منه وكذا يقال في الختم على الاسماع
واسناد الختم الى الله قد احتج به أهل السنة على المعتزلة وحاولوا دفع هذه الحجة بمثل ما ذكره
صاحب الكشاف والكلام على مثل هذا مستقر في مواطنه (وعلى سمعهم) أي مواضعه
وانما وحد السمع مع جمع القلوب كما تقدم والابصار كما سيأتي لانه مصدر يقع على القليل
والكثير أو لوحدة المسموع وهو الصوت وانما خص هذه الاعضاء بالذكر لانها طرق العلم
فالقلب محله وطريقه اما السماع واما الرؤية (وعلى أبصارهم غشاوة) الغشاوة الغطاء
وهذا البناء لما يشتمل على الشئ كالعصابة والعمامة ومنه غاشية السرج وهي غطاء
التعامي عن آيات الله ودلائل توحيده قيل المراد بالختم والغشاوة ههنا ما المعنويان
لا الحسيان ويكون الطبع والختم على القلوب والاسماع والغشاوة على الابصار
كما قاله جماعة قال تعالى فان يشا الله يختم على قلبك وقال ختم على سمعه وقلبه وجعل على
بصره غشاوة (ولهم عذاب عظيم) يعني في الآخرة وقيل الاسر والقتل في الدنيا والعذاب
الدائم في العقبى والعذاب هو كل ما يؤلم الانسان وهو مأخوذ من الحبس والمنع يقال في
اللغة أعذبه عن كذا حبسه ومنعه ومنه عذوبة الماء لانها حبست في الاناء حتى صفت
وقيل هو الايجاع الشديد والعظيم نقيض الحقير والكبير نقيض الصغير فكان العظيم
فوق الكبير كما أن الحقير دون الصغير ويستعملان في الجثث والاحداث جميعا
(ومن الناس) جمع انسان أو اسم جمع لانسان قاله سيبويه والجمهور وأصله اناس
وذهب الكسائي الى أنه اسم تام وقال سلمة كل من ناس واناس مادة مستقلة والفرق
بين الجمع واسم الجمع ان اسم الجمع ما دل على ما فوق الاثنين ولم يكن على أوزان الجموع
سواء كان له مفرد أولا ويشترط فيه أيضا أن لا يفرق بينه وبين واحده بالتاء كتمر وتمرة ولا

وان أصغر البيوت الجوف الصفر من كتاب الله وهكذا رواه النسائي في اليوم والليلة عن محمد بن نصر عن أيوب بن سليمان به وروى
الدارمي في مسنده عن ابن مسعود قال ما من بيت تقرأ فيه سورة البقرة الا خرج منه الشيطان وله ضراط وقال ان لكل شئ سناما
وان سنام القرآن سورة البقرة وان لكل شئ لبابا وان لباب القرآن المفصل وروى أيضا من طريق الشعبي قال قال عبد الله
ابن مسعود من قرأ عشر آيات من سورة البقرة في ليلة لم يدخل ذلك البيت شيطان تلك الليلة أربع من أولها وآية الكرسي وآيتان
بعدها وثلاث آيات من آخرها وفي رواية لم يقربه ولا أهله يومئذ شيطان ولا (٥٧) شئ يكرهه ولا يقرأن على مجنون الا أفاق وعن
سهل بن سعد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان لكل شئ سناما وان سنام القرآن البقرة وان من قرأها في بيته ليلة لم يدخله الشيطان ثلاث ليال ومن قرأها في بيته نهارا لم يدخله شيطان ثلاثة أيام رواه أبو القاسم الطبراني وأبو حاتم بن حبان في صحيحه وابن مردويه من حديث الازرق بن علي حدثنا حسان بن ابراهيم حدثنا خالد بن سعيد المدني عن أبي حازم عن سهل به وعند ابن حبان خالد ابن سعيد المدني وقد روى الترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث عبد الحميد بن جعفر عن سعيد المقبري عن عطاء مولى أبي أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثا وهم ذو عدد فاستقرأهم فاستقرأ كل واحد منهم ما معه من القرآن فأتى على رجل من أحدثهم سنا فقال ما معك يا فلان فقال معي كذا وكذا وسورة البقرة فقال أمعك سورة البقرة قال نعم قال اذهب فأنت أميرهم فقال رجل من أشرافهم والله ما منعني أن أتعلم
سورة البقرة الا اني خشيت ان لا أقوم بها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم تعلموا
القرآن واقرؤه فان مثل القرآن لمن تعلمه فقرأه وقام به كمثل جراب محشو مسكا يفوح ريحه في كل مكان ومثل من تعلمه فيرقد وهو
في جوفه كمثل جراب أوكي على مسك هذا لفظ رواية الترمذي ثم قال هذا حديث حسن ثم رواه من حديث الليث عن سعيد عن
عطاء مولى أبي أحمد مرسلا فالله أعلم قال البخاري وقال الليث حدثني يزيد بن الهاد عن محمد بن ابراهيم عن أسيد بن حضير رضي
الله عنه قال بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة وفرسه مربوطة عنده اذ جالت الفرس فسكتت فقرأ فجالت الفرس فسكتت

فسكنت ثم قرأ فجالت الفرس فانصرف وكان ابنه يحيى قريبا منها فأشفق أن تصيبه فلما أخذه رفع رأسه الى السماء حتى ما يراها
فلما أصبح حدث النبي صلى الله عليه وسلم فقال اقرأ يا ابن حضير قال قد أشفقت يا رسول الله على يحيى وكان منها قريبا فرفعت رأسي
وانصرفت اليه فرفعت رأسي الى السماء فاذا مثل الظلة فيها أمثال المصابيح فخرجت حتى لا أراها قال وتدري ما ذاك قال لا
قال تلك الملائكة دنت لصوتك ولو قرأت لأصبحت ينظر الناس اليها لا تتوارى منهم وهكذا رواه الامام العالم أبو عبيد القاسم
ابن سلام في كتاب فضائل القرآن عن عبد الله (٥٨) بن صالح ويحيى بن بكير عن الليث به وقد روي من وجه آخر عن أسيد
ابن حضير كما تقدم والله أعلم وقد وقع
نحو من هذا لثابت بن قيس بن
شماس رضي الله عنه وذلك فيما
رواه أبو عبيد حدثنا عباد بن عباد
عن جرير بن حازم عن عمه جرير بن
يزيد ان أشياخ أهل المدينة
حدثوه ان رسول الله صلى الله عليه
وسلم قيل له ألم تر ثابت بن قيس بن
شماس لم تزل داره البارحة تزهر
مصابيح قال فلعله قرأ سورة البقرة
قال فسألت ثابتا فقال قرأت
سورة البقرة وهذا اسناد جيد الا
ان فيه ابهاما ثم هو مرسل والله أعلم

(ذكر ما ورد في فضلها مع آل عمران)

قال الامام أحمد حدثنا أبو نعيم
حدثنا بشر بن مهاجر حدثني
عبد الله بن بريدة عن أبيه قال كنت
جالسا عند النبي صلى الله عليه وسلم
فسمعته يقول تعلموا سورة البقرة
فان أخذها بركة وتركها حسرة ولا
تستطيعها البطلة قال ثم سكت
ساعة ثم قال تعلموا سورة البقرة وآل
عمران فانهما الزهراوان يظلان
صاحبهما يوم القيامة كأنهما
غمامتان أو غيايتان أو فرقان من
طير صواف وان القرآن يلقى صاحبه
يوم القيامة حين ينشق عنه قبره كالرجل الشاحب فيقول له هل تعرفني فيقول ما أعرفك فيقول أنا صاحبك القرآن
الذي أظمأتك في الهواجر وأسهرت ليلك وان كل تاجر من وراء تجارته وانك اليوم من وراء كل تجارة فيعطى الملك بيمينه والخلد
بشماله ويوضع على رأسه تاج الوقار ويكسى والداه حلتان لا يقوم لهما أهل الدنيا فيقولان بما كسينا هذا فيقال بأخذ ولدكما
القرآن ثم يقال اقرأ واصعد في درج الجنة وغرفها فهو في صعود ما دام يقرأ هذا كان أو ترتيلا وروى ابن ماجه من حديث بشر
ابن المهاجر بعضه وهذا اسناد حسن على شرط مسلم فان بشرا هذا خرج له مسلم ووثقه ابن معين وقال النسائي ما به بأس الا أن الامام

بالياء كزنج وزنجي فانه اسم جنس جمعي ويعرف باطراد تصغيره من غير رد الى المفرد وقد
يراد باسم الجمع الجمع الوارد على خلاف القياس وهذا في عرف النحاة وأما أهل اللغة فاسم
الجمع عندهم يسمى جمعا حقيقة ذكره الخفاجي سمي به لانه عهد اليه فنسي أو لانه يستأنس
بمثله ولام التعريف فيه للجنس أو للعهد (ومن يقول آمنا بالله وباليوم الآخر) ذكر سبحانه في
أول هذه السورة المؤمنين الخلص ثم ذكر بعدهم الكفرة الخلص ثم ذكر ثالثا المنافقين في
الآيات الثلاث عشرة وهم الذين لم يكونوا من احدى الطائفتين بل صاروا فرقة ثالثة لانهم
وافقوا في الظاهر الطائفة الاولى وفي الباطن الطائفة الثانية ولذا نزل فيهم ان المنافقين في
الدرك الاسفل من النار قيل نزلت في عبد الله بن أبي ومعتب بن قشير وجد بن قيس
وأصحابهم والمراد باليوم الآخر الوقت الذي لا ينقطع بل هو دائم أبدا وهو يوم القيامة
(وما هم بمؤمنين) نفي عنهم الايمان بالكلية في جميع الازمنة كما تفيده الجملة الاسمية ففيه
من التوكيد والمبالغة ما ليس في غيره (يخادعون الله) أي يخالفونه (والذين آمنوا)
والخداع في أصل اللغة الفساد حكاه ثعلب عن ابن الاعرابي وقيل أصله الاخفاء حكاه ابن
فارس وغيره والمراد أنهم صنعوا صنع الخادعين وان كان العالم الذي لا يخفى عليه شيء
لا يخدع وصيغة فاعل تفيد الاشتراك في أصل الفعل والمراد بالمخادعة من الله انه لما أجرى
عليهم أحكام الاسلام مع أنهم ليسوا منه في شيء فكأنه خادعهم بذلك كما خادعوه باظهار
الاسلام وابطان الكفر مشاكلة لما وقع منهم بما وقع منه والمراد بمخادعة المؤمنين لهم
هو أنهم أجروا عليهم ما أمرهم الله به من أحكام الاسلام ظاهرا وان كانوا يعلمون فساد
بواطنهم كما أن المنافقين خادعوهم باظهار الاسلام وابطان الكفر وقد يكون الخداع
حسنا اذا كان الغرض منه استدراج الغير من الضلال الى الرشد ومن ذلك استدراجات
التنزيل على لسان الرسل في دعوة الامم قاله الطيبي والآية من قبيل الاستعارة التمثيلية
حيث شبه حالهم في معاملتهم لله بحال المخادع مع صاحبه من حيث القبح أو من باب المجاز
العقلي في النسبة الايقاعية وأصل التركيب يخادعون رسول الله أو من باب التورية حيث
ذكر معاملتهم لله بلفظ الخداع والمراد بقوله (وما يخدعون الا أنفسهم) الاشعار بأنهم لما
خادعوا من لا يخدع كانوا مخادعين لانفسهم لان الخداع انما يكون مع من لا يعرف
البواطن وأما من عرف البواطن فمن دخل معه في الخداع فانما يخدع نفسه وما يشعر
بذلك

أحمد قال فيه هو منكر الحديث قد اعتبرت أحاديثه فاذا هي تاتي بالعجب وقال البخاري يخالف في بعض حديثه وقال أبو حاتم الرازي يكتب حديثه ولا يحتج به وقال ابن عدي روى ما لا يتابع عليه وقال الدارقطني ليس بالقوي (قلت) ولكن لبعضه شواهد فمن ذلك حديث أبي امامة الباهلي قال الامام أحمد حدثنا عبد الملك بن عمرو حدثنا هشام عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلام عن أبي امامة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اقرؤا القرآن فانه شافع لأهله يوم القيامة اقرؤا الزهراوين البقرة وآل عمران فانهما ياتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو كأنهما غيايتان أو كأنهما فرقان من طير صواف يحاجان عن أهلهما يوم القيامة ثم قال اقرؤا البقرة فان أخذها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة وقد رواه مسلم في الصلاة من حديث معاوية بن سلام عن أخيه زيد بن سلام عن جده أبي سلام ممطور الحبشي عن أبي امامة صدي بن عجلان الباهلي به الزهراوان المنيرتان والغياية ما أظلك من فوقك والفرق القطعة من الشيء والصواف المصطفة المتضامة والبطلة السحرة ومعنى لا تستطيعها أي لا يمكنهم حفظها وقيل لا تستطيع النفوذ في قارئها والله أعلم ومن ذلك حديث النواس بن سمعان قال الامام أحمد حدثنا يزيد بن عبد ربه حدثنا الوليد بن مسلم عن محمد بن مهاجر عن الوليد ابن عبد الرحمن الجرشي عن جبير بن نفير قال سمعت النواس بن سمعان الكلابي يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به تقدمهم سورة البقرة وآل عمران وضرب لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أمثال ما نسيتهن بعد قال كأنهما غمامتان أو ظلتان سوداوان بينهما شرق أو كأنهما فرقان من طير صواف يحاجان عن صاحبهما ورواه مسلم عن اسحاق بن منصور عن يزيد ابن عبد ربه به والترمذي من حديث الوليد بن عبد الرحمن الجرشي به وقال حسن غريب وقال أبو عبيد حدثنا حجاج عن حماد بن سلمة عن عبد الملك بن عمير قال قال حماد أحسبه عن أبي منيب عن عمه ان رجلا قرأ البقرة وآل عمران فلما قضى صلاته قال له كعب أقرأت البقرة وآل عمران قال نعم قال فو الذي نفسي بيده ان فيهما اسم الله الذي اذا دعي به استجاب قال فاخبرني به قال لا والله لا أخبرك به ولو أخبرتك به لاوشكت أن تدعوه بدعوة أهلك فيها أنا وأنت وحدثنا عبد الله بن صالح عن معاوية بن صالح

بذلك والمراد انهم يمنونها الاماني الباطلة وهي كذلك تمنيهم والنفس ذات الشيء وحقيقته ثم قيل للقلب والروح والدم والماء نفس والمراد بالانفس هنا ذواتهم أو قلوبهم ودواعيهم وآراؤهم (وما يشعرون) أي لا يعلمون أن وبال خداعهم راجع عليهم قال أهل اللغة شعرت بالشيء فطنت قال في الكشاف الشعور علم الشيء علم حس من الشعار ومشاعر الانسان حواسه وقيل الشعور ادراك الشيء من وجه يدق ويخفى من الشعر لدقته والاول أولى قال ابن عباس انهم المنافقون من الاوس والخزرج ومن كان على أمرهم عن ابن سيرين قال لم يكن عندهم شيء أخوف من هذه الآية (في قلوبهم مرض) المرض كل ما يخرج به الانسان عن حد الصحة من علة أو نفاق أو تقصير في أمر قاله ابن فارس وقيل هو الألم فيكون على هذا مستعارا للفساد الذي في عقائدهم اما شكا ونفاقا أو جحدا وتكذيبا (فزادهم الله مرضا) أي كفرا ونفاقا والمراد بزيادة المرض الاخبار بأنهم كذلك بما يتجدد لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من النعم ويتكرر له من منن الله الدنيوية والدينية ويحتمل أن يكون دعاء عليهم بزيادة الشك وترادف الحسرة وفرط النفاق وفسر ابن عباس المرض بالشك والنفاق وقال ابن زيد هذا مرض في الدين وليس مرضا في الاجسام وقال عكرمة وطاوس المرض الرياء والقراء مجمعون على فتح الراء من مرض الا أبا عمرو فانه قرأ بالسكون (ولهم عذاب) أي نكال (أليم) أي مؤلم يخلص وجعه الى قلوبهم قال ابن عباس كل شيء في القرآن أليم فهو الموجع انتهى ووصف به العذاب للمبالغة (بما كانوا يكذبون) أي يبدلون ويحرفون قاله ابن مسعود وقيل المعنى بتكذيبهم الله ورسوله في السر وقيل بكذبهم اذ قالوا آمنا وهم غير مؤمنين والكذب هو الخبر عن الشيء على خلاف ما هو به وهو حرام كله لانه علل به استحقاق العذاب (واذا قيل لهم لا تفسدوا في الارض) يعني المنافقين والقائل لهم هو الله أو الرسول أو المؤمنون والمعنى لا تفسدوا بالنفاق وموالاة الكفر وتعويق الناس عن الايمان بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وبالقرآن فانكم اذا فعلتم ذلك فسد ما في الارض بهلاك الابدان وخراب الديار وبطلان الذرائع وخراب العالم كما هو مشاهد عند ثوران الفتن وهيج الحروب والتنازع والفساد خروج الشيء عن الحالة اللائقة به والاعتدال والصلاح ضده وكلاهما يعمان كل ضار ونافع (قالوا انما نحن مصلحون) يعني يقولونه كذبا وانما من أدوات القصر كما هو مبين في علم

ابن عامر انه سمع أبا امامة يقول ان أخا لكم أري في المنام ان الناس يسلكون في صدع جبل وعر طويل وعلى رأس الجبل شجرتان خضراوان يهتفان هل فيكم قارئ يقرأ سورة البقرة وهل فيكم قارئ يقرأ سورة آل عمران قال فاذا قال الرجل نعم دنتا منه باعذاقهما حتى يتعلق بهما فيخطران به الجبل وحدثنا عبد الله بن صالح عن معاوية بن صالح عن أبي عمران انه سمع أم الدرداء تقول ان رجلا ممن قرأ القرآن أغار على جار له فقتله وانه أقيد به فقتل فما زال القرآن ينسل منه سورة سورة حتى بقيت البقرة وآل عمران جمعة ثم ان آل عمران انسلت منه وأقامت البقرة جمعة فقيل لها ما يبدل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد قال فخرجت كأنها السحابة العظيمة قال أبو عبيد أراه يعني انهما كانتا معه في قبره يدفعان عنه ويؤنسانه فكانتا من آخر ما بقي معه من القرآن وقال أيضا حدثنا أبو مسهر الغساني عن سعيد ابن عبد العزيز التنوخي ان يزيد بن الاسود الجرشي كان يحدث انه من قرأ البقرة وآل عمران في يوم برئ من النفاق حتى يمسي ومن قرأهما في ليلة برئ من النفاق حتى يصبح قال فكان يقرؤهما كل يوم وليلة سوى جزئه وحدثنا يزيد عن ورقاء ابن اياس عن سعيد بن جبير قال قال عمر ابن الخطاب رضي الله عنه من قرأ البقرة وآل عمران في ليلة كان أو كتب من القانتين فيه انقطاع ولكن ثبت في الصحيحين ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ بهما في ركعة واحدة (ذكر ما ورد في فضل السبع الطوال) * قال أبو عبيد حدثنا هشام بن اسمعيل الدمشقي عن محمد بن شعيب عن سعيد بن بشير عن قتادة عن أبي المليح عن واثلة بن الاسقع عن النبي صلى الله عليه وسلم قال أعطيت السبع مكان التوراة وأعطيت المئين مكان الانجيل وأعطيت المثاني مكان الزبور وفضلت بالمفصل هذا حديث غريب وسعيد بن أبي بشير فيه لين وقد رواه أبو عبيد عن عبد الله بن صالح عن الليث عن سعيد بن أبي هلال قال بلغنا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فذكره والله أعلم ثم قال حدثنا اسمعيل بن جعفر عن عمرو بن أبي عمرو مولى المطلب بن عبد الله بن حنطب عن حبيب بن هند الاسلمي عن عروة عن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم قال من أخذ السبع فهو حبر وهذا أيضا غريب وحبيب بن هند بن اسماء بن هند بن حارثة الاسلمي وروى عنه عمرو بن عمرو وعبد الله بن أبي بكرة وذكره أبو حاتم الرازي ولم يذكر فيه جرحا فالله أعلم وقد رواه الامام أحمد

المعاني والصلاح ضد الفساد وهذا الجواب منهم رد للناصح على أبلغ وجه لانهم تصوروا الفساد بصورة الصلاح لما في قلوبهم من المرض (ألا انهم هم المفسدون) في الارض بالكفر وهو أشد الفساد رد لما ادعوه أبلغ رد للاستئناف به وتصديره بحرفي التأكيد وألا حرف تنبيه ينبه بها المخاطب وهي المنبهة على تحقيق ما بعدها قال ابن مسعود الفساد هنا الكفر والعمل بالمعصية (ولكن لا يشعرون) وذلك لانهم يظنون ان ما هم عليه من النفاق وابطان الكفر صلاح وهو عين الفساد وقيل لا يشعرون ما أعد الله لهم من العذاب والاول أولى (واذا قيل لهم) أي للمنافقين (آمنوا) نصحوهم من وجهين أحدهما النهي عن الفساد وهو عبارة عن التخلي عن الرذائل وثانيهما الامر بالايمان وهو عبارة عن التحلي بالفضائل فان كمال الايمان بمجموع الامرين (كما آمن الناس) يعني أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم من المهاجرين والانصار وقيل الناس عبد الله بن سلام وأصحابه وما مصدرية أو كافة واللام للعهد أو للجنس واستدل به على قبول توبة الزنديق وأن الاقرار باللسان ايمان (قالوا) أي أجابوا بأحمق جواب وأبعده عن الحق والصواب (أنؤمن كما آمن السفهاء) أي الجهال الهمزة للانكار واللام مشار بها الى الناس أو للجنس بأسره وهم مندرجون فيه نسبوا الى المؤمنين السفه استهزاء واستخفافا فتسببوا بذلك الى تسجيل الله عليهم بالسفه بأبلغ عبارة وآكد قول وحصر كما قال تعالى (ألا انهم هم السفهاء) أي الجهال وأصل السفه والسفاهة رقة الحلوم وفساد البصائر وسخافة العقول وخفة النهى وانما سمى الله المنافقين سفهاء لانهم كانوا عند أنفسهم عقلاء فقلب ذلك عليهم وسماهم سفهاء ورد أبلغ رد في تجهيلهم (ولكن لا يعلمون) أنهم كذلك اما حقيقة أو مجازا تنزيلا لاصرارهم على السفه منزلة عدم العلم وانما ذكر العلم هنا والشعور فيما قبل لانه أكثر طباقا بذكر السفه والتمييز بين الحق والباطل يفتقر الى نظرة وفكرة والنفاق يدرك بأدنى تفطن وتأمل من قولهم وفعلهم عن ابن عباس أنها نزلت في شأن اليهود (واذا لقوا الذين آمنوا) أي المهاجرين والانصار ومعنى لقيته ولاقيته استقبلته قريبا (قالوا آمنا) كايمانكم (واذا خلوا الى شياطينهم) أي رجعوا اليهم قيل هو من الخلوة وقيل الى بمعنى الباء وقيل بمعنى مع وخلوت بفلان واليه اذا انفردت معه أو من خلاك ذم أي مضى عنك ومنه القرون الخالية أو من خلوت به اذا سخرت منه وعدى بالى لتضمين معنى الانهاء والمراد بالشياطين رؤساؤهم.

عن سليمان بن داود وحسين كلاهما عن اسمعيل بن جعفر به ورواه أيضا عن أبي سعيد عن سليمان بن بلال عن حبيب بن هند عن عروة عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من أخذ السبع الاول من القرآن فهو حبر قال أحمد وحدثنا حسين حدثنا ابن أبي الزناد عن الاعرج عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم مثله قال عبد الله بن أحمد وهذا أرى فيه عن أبيه عن الاعرج ولكن كذا كان في الكتاب فلا أدري أغفله أبي أو كذا هو مرسل وروى الترمذي عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث بعثا وهم ذو وعدد وقدم عليهم أحدثهم سنا لحفظه سورة البقرة وقال له اذهب فأنت أميرهم وصححه الترمذي ثم قال أبو عبيد حدثنا هشيم أنا أبو بشر عن سعيد بن جبير في قوله تعالى ولقد آتيناك سبعا من المثاني قال هي السبع الطوال البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والانعام والاعراف ويونس قال وقال مجاهد هي السبع الطوال وهكذا قال مكحول وعطية بن قيس وأبو محمد الفارسي وشداد بن أوس ويحيى بن الحرث الذماري في تفسير الآية بذلك وفي تعدادها وان يونس هي السابعة

(فصل) والبقرة جميعها مدنية بلا خلاف وهي من أوائل ما نزل بها لكن قوله تعالى فيها واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله الآية يقال انها آخر ما نزل من القرآن ويحتمل أن تكون منها وكذلك آيات الربا من آخر ما نزل وكان خالد بن معدان يسمي البقرة فسطاط القرآن قال بعض العلماء وهي مشتملة على ألف خبر وألف أمر وألف نهي وقال العادون آياتها مائتان وثمانون وسبع آيات وكلماتها ستة آلاف كلمة ومائتان واحدى وعشرون كلمة وحروفها خمسة وعشرون ألفا وخمسمائة حرف فالله أعلم قال ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس نزلت بالمدينة سورة البقرة وقال خصيف عن مجاهد عن عبد الله بن الزبير قال نزلت بالمدينة سورة البقرة وقال الواقدي حدثني الضحاك بن عثمان عن أبي الزناد عن خارجة بن زيد بن ثابت عن أبيه قال نزلت البقرة بالمدينة وهكذا قال غير واحد من الائمة والعلماء والمفسرين ولا خلاف فيه وقال ابن مردويه حدثنا محمد بن معمر حدثنا الحسن بن علي بن الوليد الفارسي حدثنا خلف بن هشام حدثنا عيسى بن ميمون عن موسى بن أنس بن مالك عن أبيه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تقولوا سورة البقرة ولا سورة آل عمران ولا سورة النساء وكذا القرآن كله ولكن قولوا السورة التي يذكر فيها

رؤساؤهم وكهنتهم وقيل المراد بالشياطين المماثلون منهم للشياطين في التمرد والعناد المظهرون لكفرهم أو كبار المنافقين والقائلون صغارهم (قالوا انا معكم) في الدين والاعتقاد أي انا مصاحبوكم في دينكم وموافقوكم عليه (انما نحن مستهزؤن) أي بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه بما نظهر لهم من الاسلام لنأمن من شرهم ونقف على سرهم ونأخذ من غنائمهم تأكيد لما قبله أو بدل منه أو استئناف قال ابن عباس نزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي وأصحابه والهزء السخرية واللعب والاستخفاف يقال هزأت واستهزأت بمعنى وأصله الخفة وهو القتل السريع وهزأ يهزأ مات فجاءة وتهزأ به ناقته أي تسرع به وتخف والمراد درؤهم للاسلام ودفعهم للحق (الله يستهزئ بهم) أي ينزل بهم الهوان والحقارة وينتقم منهم ويستخف بهم انتصافا منهم لعباده المؤمنين وجزاء لاستهزائهم بهم فسمي الجزاء باسمه لانه في مقابلته وورد ذلك في القرآن كثيرا ومنه وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم والجزاء لا يكون سيئة والقصاص لا يكون اعتداء لانه حق ومنه ومكروا ومكر الله وانهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا وتعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك وهو في السنة كثير كقوله صلى الله عليه وآله وسلم ان الله لا يمل حتى تملوا وانما قال الله يستهزئ بهم لانه يفيد التجدد وقتا بعد وقت وهو أشد عليهم وأنكى لقلوبهم وأوجع لهم من الاستهزاء الدائم الثابت المستفاد من الجملة الاسمية لانه يألفه ويوطن نفسه عليه قال ابن عباس يفتح لهم باب الجنة فاذا انتهوا اليه سد عنهم وردوا الى النار (ويمدهم) أي يتركهم ويمهلهم ويطيل لهم المدة كما قال انما نملي لهم ليزدادوا اثما والمد الزيادة قال يونس بن حبيب يقال مد في الشر وأمد في الخير ومنه وأمددناهم بأموال وبنين وأمددناهم بفاكهة وقال الاخفش مددت له اذا تركته وأمددته اذا أعطيته (في طغيانهم) أي في ضلالهم وأصل الطغيان مجاوزة الحد ومنه انا لما طغى الماء والغلو في الكفر (يعمهون) أي يترددون في الضلالة متحيرين والعمه والعامه الحائر المتردد والعمه في القلب كالعمى في العين قال في الكشاف العمه مثل العمى الا ان العمى في البصر والرأي والعمه في الرأي خاصة انتهى فبينهما عموم وخصوص مطلقا (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى) يعني المنافقين استبدلوا الكفر بالايمان وانما أخرجه بلفظ الشراء والتجارة توسعا على سبيل الاستعارة فالشراء ههنا مستعار

عمران وكذا القرآن كله هذا حديث غريب لا يصح رفعه وعيسى بن ميمون هذا هو أبو سلمة الخواص وهو ضعيف الرواية لا يحتج به
وقد ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود انه رمى الجمرة من بطن الوادي فجعل البيت عن يساره ومنى عن يمينه ثم قال هذا مقام الذي أنزلت
عليه سورة البقرة أخرجاه وروى ابن مردويه من حديث شعبة عن عقيل بن طلحة عن عتبة بن مرثد قال رأى النبي صلى الله عليه
وسلم في أصحابه تأخرا فقال يا أصحاب سورة البقرة وأظن هذا كان يوم حنين يوم ولوا مدبرين أمر العباس فناداهم يا أصحاب الشجرة
يعني أهل بيعة الرضوان وفي رواية يا أصحاب سورة البقرة لينشطهم بذلك فجعلوا يقبلون من كل وجه وكذلك يوم
اليمامة مع أصحاب مسيلمة جعل الصحابة يفرون لكثافة جيش بني حنيفة فجعل المهاجرون والانصار يتنادرون يا أصحاب سورة البقرة حتى فتح الله عليهم رضي الله عن أصحاب رسول الله أجمعين

(بسم الله الرحمن الرحيم الم) قد اختلف المفسرون في الحروف المقطعة التي في أوائل السور فمنهم من قال هي مما استأثر الله بعلمه فردوا علمها الى الله ولم يفسروها حكاه القرطبي في تفسيره عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وابن مسعود رضي الله عنهم أجمعين وقاله عامر الشعبي وسفيان الثوري والربيع ابن خثيم واختاره أبو حاتم بن حبان ومنهم من فسرها واختلف هؤلاء في معناها فقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم انما هي أسماء السور قال العلامة أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري في تفسيره وعليه اطباق الأكثر ونقله عن سيبويه انه نص عليه ويعتضد لهذا بما ورد في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ في صلاة الصبح يوم الجمعة الم السجدة
وهل أتى على الانسان وقال سفيان الثوري عن ابن أبي نجيح عن مجاهد انه قال الم وحم والمص وص فواتح افتتح الله لا
بها القرآن وكذا قال غيره عن مجاهد وقال مجاهد في رواية أبي حذيفة موسى بن مسعود عن شبل عن ابن أبي نجيح عنه انه قال الم اسم
من أسماء القرآن وهكذا وقال قتادة وزيد بن أسلم ولعل هذا يرجع الى معنى قول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم انه اسم من أسماء السور
فان كل سورة يطلق عليها اسم القرآن فانه يبعد أن يكون المص اسما للقرآن كله لان المتبادر الى فهم سامع من يقول قرأت المص
انما ذلك عبارة عن سورة الاعراف لا لمجموع القرآن والله اعلم وقيل هي اسم من أسماء الله تعالى فقال الشعبي فواتح السور من

للاستدلال كقوله تعالى فاستحبوا العمى على الهدى فاما ان يكون معنى الشراء المعاوضة كما هو أصله حقيقة فلا لان المنافقين لم يكونوا مؤمنين وما كانوا على الهدى فيبيعوا ايمانهم والعرب قد تستعمل ذلك في كل من استبدل شيأ بشيء وأصل الضلالة الحيرة والجور عن القصد وفقد الاهتداء ويطلق على النسيان ومنه قوله تعالى فعلتها اذا وانا من الضالين وعلى الهلاك كقوله تعالى أئذا ضللنا في الارض والهدى التوجه الى القصد وقد استعير الاول للعدول عن الصواب في الدين والثاني للاستقامة عليه قال ابن عباس في الآية اشتروا الكفر بالايمان وقال مجاهد آمنوا ثم كفروا وقال قتادة قد والله رأيتموهم خرجوا من الهدى الى الضلالة ومن الجماعة الى الفرقة ومن الامن الى الخوف ومن السنة الى البدعة (فما ربحت تجارتهم) أي ما ربحوا في تجارتهم وأصل الربح الفضل عن رأس المال والتجارة صناعة التاجر وأسند الربح اليها على عادة العرب في قولهم ربح بيعك وخسرت صفقتك وهو من الاسناد المجازي وهو اسناد الفعل الى ملابس للفاعل كما هو مقرر في علم المعاني والمراد ربحوا وخسروا (وما كانوا مهتدين) أي مصيبين في تجارتهم لان رأس المال هو الايمان فلما أضاعوه واعتقدوا الضلالة فقد ضلوا عن الهدى وقيل في شرائهم الضلالة وقيل في سابق علم الله (مثلهم كمثل الذي استوقد نارا) المثل قول يشبه قولا آخر بينهما مشابهة ليبين أحدهما الآخر ويصوره ولهذا ضرب الله الامثال في كتابه وهو أحد أقسام القرآن السبعة ولما ذكر حقيقة وصف المنافقين عقبه بضرب المثل زيادة في الكشف والبيان لانه يؤثر في القلوب ما لا يؤثره وصف الشيء في نفسه ولان المثل تشبيه الشيء الخفي بالجلي فيتأكد الوقوف على ماهيته وذلك هو النهاية في الايضاح وشرطه أن يكون قولا فيه غرابة من بعض الوجوه واستوقد بمعنى أوقد مثل استجاب بمعنى أجاب فالسين والتاء زائدتان ووقود النار سطوعها وارتفاع لهبها (فلما أضاءت ما حوله) يعني النار والاضاءة فرط الانارة وفعلها يكون لازما ومتعديا (ذهب الله بنورهم) الذهاب زوال الشيء (وتركهم) أي ابقاهم وترك في الاصل بمعنى طرح وخلى (في ظلمات) جمع ظلمة والظلمة عدم النور (لا يبصرون) هذا المثل للمنافقين لبيان ما يظهرونه من الايمان مع ما يبطنونه من النفاق لا يثبت لهم به أحكام الاسلام كمثل المستوقد الذي اضاءت ناره ثم طفئت فانه يعود الى الظلمة ولا تنفعه تلك الاضاءة اليسيرة فكان بقاء المستوقد في ظلمات

أسماء الله تعالى وكذلك قال سالم بن عبد الله واسمعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير وقال شعبة عن السدي بلغني ان ابن عباس قال الم اسم من أسماء الله الاعظم هكذا رواه ابن أبي حاتم من حديث شعبة ورواه ابن جرير عن بندار عن ابن مهدي عن شعبة قال سألت السدي عن حم وطس والم فقال قال ابن عباس هي اسم الله الاعظم وقال ابن جرير وحدثنا محمد بن المثنى حدثنا أبو النعمان حدثنا شعبة عن اسمعيل السدي عن مرة الهمداني قال قال عبد الله فذكر نحوه وحكى مثله عن علي وابن عباس وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس هو قسم أقسم الله به وهو من أسماء الله تعالى وروى

ابن أبي حاتم وابن جرير من حديث ابن علية عن خالد الحذاء عن عكرمة أنه قال الم قسم. ورويا أيضا من حديث شريك بن عبد الله عن عطاء بن السائب عن أبي الضحى عن ابن عباس الم قال أنا الله أعلم وكذا قال سعيد بن جبير وقال السدي عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم الم قال أما الم فهي حروف استفتحت من حروف هجاء أسماء الله تعالى وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية في قوله تعالى الم قال هذه الاحرف الثلاثة من التسعة والعشرين حرفا دارت فيها الالسن كلها ليس منها حرف الا وهو مفتاح اسم من أسمائه وليس منها حرف الا وهو من آلائه وبلائه وليس منها حرف الا وهو في مدة أقوام وآجالهم قال عيسى بن مريم عليه السلام وعجب فقال اعجب انهم ينطقون باسمائه ويعيشون في رزقه فكيف يكفرون به فالالف مفتاح اسم الله واللام مفتاح اسمه لطيف والميم مفتاح اسمه مجيد فالالف آلاء الله واللام لطف الله والميم مجد الله والالف سنة واللام ثلاثون سنة والميم أربعون سنة هذا لفظ ابن أبي حاتم ونحوه رواه ابن جرير ثم شرع يوجه كل واحد من هذه الاقوال ويوفق بينها وانه لا منافاة بين كل واحد منها وبين الآخر وان الجمع ممكن فهي أسماء للسور ومن أسماء الله تعالى يفتتح بها السور فكل حرف منها دل على اسم من أسمائه وصفة من صفاته كما افتتح سورا كثيرة بتحميده وتسبيحه وتعظيمه قال ولا مانع من دلالة الحرف منها على اسم من أسماء الله وعلى صفة من صفاته وعلى مدة وغير ذلك كما ذكره الربيع بن أنس عن أبي العالية لان الكلمة الواحدة تطلق على معاني كثيرة كلفظة الامة فانها تطلق ويراد بها الدين كقوله تعالى انا وجدنا آباءنا على أمة وتطلق ويراد

لا يبصر كبقاء المنافق في حيرته وتردده قال ابن عباس في الآية نزلت في المنافقين يقول مثلهم في نفاقهم كمثل رجل أوقد نارا في ليلة مظلمة في مفازة فاستدفأ ورأى ما حوله فاتقى مما يخاف فبيناهو كذلك اذ طفئت ناره فبقي في ظلمة حائرا متخوفا فكذلك حال المنافقين أظهروا كلمة الايمان وأمنوا بها على أنفسهم وأموالهم وأولادهم وناكحوا المسلمين وقاسموهم في الغنائم فذلك نورهم فلما ماتوا عادوا الى الظلمة والخوف وقيل ذهاب نورهم ظهور عقيدتهم للمؤمنين على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقيل في القبر أو على الصراط والاول أولى وانما وصفت هذه النار بالاضاءة مع كونها نارا باطل لان الباطل كذلك يسطع لهب ناره لحظة ثم تخفت ومنه قولهم للباطل صولة ثم يضمحل وقد تقرر عند علماء البلاغة ان لضرب الامثال شأنا عظيما في ابراز خفيات المعاني ورفع أستار محجبات الدقائق ولهذا استكثر الله تعالى ذلك في كتابه العزيز وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يكثر من ذلك في مخاطباته ومواعظه قال ابن جرير وصح ضرب مثل الجماعة بالواحد كما قال رأيتهم ينظرون اليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت وقال تعالى مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا (صم) أي عن استماع الحق لانهم لا يقبلونه واذا لم يقبلوه فكأنهم لم يسمعوه والصمم الانسداد (بكم) أي خرس عن النطق بالخير فهم لا يقولونه والابكم الذي لا ينطق ولا يفهم فاذا فهم فهو الاخرس وقيل الابكم والاخرس واحد (عمي) أي لا بصائر لهم يميزون بها بين الحق والباطل ومن لا بصيرة له كمن لا بصر له فهو أعمى والعمى ذهاب البصر كانت حواسهم سليمة ولكن لما سدوا عن سماع الحق آذانهم وأبوا ان تنطق به ألسنتهم وان ينظروا اليه بعيونهم جعلوا كمن تعطلت حواسه وذهب ادراكه كما قال الشاعر

صم اذا سمعوا خيرا ذكرت به * وان ذكرت بسوء كلهم أذن

(فهم لا يرجعون) أي عن ضلالتهم ونفاقهم (أو كصيب من السماء) أو حرف الشك لقصد التخيير بين المثلين أي مثلوهم بهذا أو هذا وهي وان كانت في الاصل للشك فقد توسع فيها حتى صارت لمجرد التساوي من غير شك وقال الفراء وغيره انها بمعنى الواو والصيب المطر واشتقاقه من صاب يصوب اذا نزل وكل ما نزل من الاعلى الى الاسفل فهو صيب والسماء في الاصل كل ما علاك فاظلك ومنه قيل لسقف البيت سماء والسماء أيضا المطر سمي بها

به الرجل المطيع لله كقوله تعالى ان ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين وتطلق ويراد بها الجماعة كقوله تعالى وجد عليه أمة من الناس يسقون وقوله تعالى ولقد بعثنا في كل أمة رسولا وتطلق ويراد بها الحين من الدهر كقوله تعالى وقال الذي نجا منهما وادكر بعد أمة أي بعد حين على أصح القولين قال فكذلك هذا هذا حاصل كلامه موجها ولكن هذا ليس كما ذكره أبو العالية فان أبا العالية زعم ان الحرف دل على هذا وعلى هذا وعلى هذا معا ولفظة الامة وما اشبهها من الالفاظ المشتركة في الاصطلاح انما دل في القرآن في كل موطن على معنى واحد دل عليه سياق الكلام فاما حمله على مجموع محامله اذا أمكن فمسئلة مختلف فيها بين علماء الاصول ليس هذا موضع البحث فيها والله أعلم ثم ان لفظة الامة تدل على كل من معانيها في سياق الكلام بدلالة الوضع فأما دلالة الحرف الواحد على اسم يمكن أن يدل على اسم آخر من غير أن يكون أحدهما أولى من الآخر في التقدير أو الاضمار بوضع ولا بغيره فهذا مما لا يفهم الا بتوقيف والمسئلة مختلف فيها وليس فيها اجماع حتى يحكم به وما أنشدوه من الشواهد على صحة اطلاق الحرف الواحد على بقية الكلمة فان في السياق ما يدل على ما حذف بخلاف هذا كما قال الشاعر

قلنا قفي لنا فقالت قاف

لا تحسبي انا نسينا الايجاف

تعني وقفت وقال الآخر

ما للظليم عال كيف لا يا

ينقد عنه جلده اذا يا

فقال ابن جرير كأنه أراد أن يقول اذا يفعل كذا وكذا فاكتفى بالياء من يفعل وقال الآخر

بالخير خيرات وان شرا فا

ولا أريد الشر الا ان تا

يقول وان شرا فشر ولا أريد الشر الا ان تشا فاكتفى بالفاء والتاء من الكلمتين عن بقيتهما ولكن هذا ظاهر من سياق الكلام والله أعلم قال القرطبي وفي الحديث من اعان على قتل مسلم بشطر كلمة الحديث قال سفيان هو ان يقول في اقتل اق وقال خصيف عن مجاهد انه قال فواتح السور كلها ق وص وحم وطسم والر وغير ذلك هجاء موضوع وقال بعض أهل العربية هي حروف من حروف المعجم استغنى بذكر ما ذكر منها في أوائل السور عن ذكر بواقيها التي هي تتمة الثمانية والعشرين حرفا كما يقول القائل ابني يكتب في ا ب ت ث أي في حروف المعجم الثمانية والعشرين فيستغني بذكر بعضها عن مجموعها حكاه ابن جرير قلت مجموع الحروف

لنزوله منها واطلاق السماء على المطر واقع كثيرا في كلام العرب وقيل من السماء بعينها وانما ذكر الله تعالى من السماء وان كان المطر لا ينزل الا منها الرد على من زعم ان المطر ينعقد من ابخرة الارض فابطل مذهب الحكماء بقوله من السماء ليعلم ان المطر منها لا كما هو زعمهم الباطل (فيه ظلمات) أي في الصيب وبه قال جمهور المفسرين وقال السيوطي في السحاب وهو خلاف ظاهر نظم الآية وقيل في بمعنى مع وانما جمع الظلمات اشارة الى انه انضم الى ظلمة الليل ظلمة الغيم والمطر (ورعد) اسم لصوت الملك الذي يزجر السحاب وقد أخرج الترمذي من حديث ابن عباس قال سألت اليهود النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن الرعد ما هو قال ملك من الملائكة بيده مخاريق من نار يسوق بها السحاب حيث يشاء الله قالوا فما هذا الصوت الذي يسمع قال زجره بالسحاب اذا زجره حتى ينتهي الى حيث أمر قالت صدقت الحديث بطوله وفي اسناده مقال وعلى هذا التفسير أكثر العلماء وقيل هو اضطراب أجرام السحاب عند نزول المطر منها والى هذا ذهب جمع من المفسرين تبعا للفلاسفة وجهلة المتكلمين وقيل غير ذلك قال ابن عباس الرعد اسم ملك يسوق السحاب والبرق لمعان سوطه من نور يزجر به السحاب وقيل الرعد اسم ملك يزجر السحاب اذا تبددت جمعها وضمها فاذا اشتد غضبه يخرج من فيه النار فهي البرق (وبرق) النار التي تخرج منه أي مخراق بيد الملك الذي يسوق السحاب واليه ذهب كثير من الصحابة وجمهور علماء الشريعة للحديث السابق وقال بعض المفسرين تبعا للفلاسفة ان البرق ما ينقدح من اصطكاك أجرام السحاب المتراكمة من الابخرة المتصعدة المشتملة على جزء ناري يلتهب عند الاصطكاك (يجعلون) أي أصحاب الصيب (أصابعهم في آذانهم من الصواعق) اطلاق الاصابع على بعضها مجاز مشهور والعلاقة الجزئية والكلية لان الذي يجعل في الاذن انما هو رأس الاصبع لا كلها والصواعق ويقال الصواقع هي قطعة نار تنفصل من مخراق الملك الذي يزجر السحاب عند غضبه وشدة ضربه لها ويدل على ذلك حديث ابن عباس المذكور قريبا وبه قال كثير من علماء الشريعة ومنهم من قال انها نار تخرج من فم الملك وقال الخليل هي الوقعة الشديدة من صوت الرعد يكون معها أحيانا قطعة نار تحرق ما أتت عليه وقال أبو زيد الصاعقة نار تسقط من السماء في رعد شديد وقال بعض المفسرين تبعا للفلاسفة ومن قال بقولهم انها نار لطيفة تنقدح من السحاب اذا

اصطكت

المذكورة في أوائل السور بحذف المكرر منها أربعة عشر حرفا وهي ا ل م ص ر ك ه ي ع ط س ح ق ن يجمعها قولك نص حكيم قاطع له سر وهي نصف الحروف عددا والمذكور منها أشرف من المتروك وبيان ذلك من صناعة التصريف قال الزمخشري وهذه الحروف الاربعة عشر مشتملة على أصناف أجناس الحروف يعني من المهموسة والمجهورة ومن الرخوة والشديدة ومن المطبقة والمفتوحة ومن المستعلية والمنخفضة ومن حروف القلقلة وقد سردها مفصلة ثم قال فسبحان الذي دقت في كل شيء حكمته وهذه الاجناس المعدودة مكثورة بالمذكورة منها (٦٥) وقد علمت ان معظم الشيء وجله ينزل منزلة كله ومن ههنا لخص بعضهم في هذا المقام كلاما فقال لاشك ان هذه الحروف لم ينزلها سبحانه وتعالى عبثا ولا سدى ومن قال من الجهلة ان في القرآن ماهو تعبد لامعنى له بالكلية فقد أخطأ خطأ كبيرا فتعين ان لها معنى في نفس الامر فان صح لنا فيها عن المعصوم شيء قلنا به والا وقفنا حيث وقفنا وقلنا آمنا به كل من عند ربنا ولم يجمع العلماء فيها على شيء معين وانما اختلفوا فمن ظهر له بعض الاقوال بدليل فعليه اتباعه والا فالوقف حتى يتبين هذا مقام. المقام الآخر في الحكمة التي اقتضت ايراد هذه الحروف في أوائل السور ماهي مع قطع النظر عن معانيها في أنفسها فقال بعضهم انما ذكرت ليعرف بها أوائل السور حكاه ابن جرير وهذا ضعيف لان الفصل حاصل بدونها فيما لم تذكر فيه وفيما ذكرت فيه البسملة تلاوة وكتابة وقال آخرون بل ابتدئ بها لتفتح لاستماعها اسماع المشركين اذ تواصوا بالاعراض عن القرآن حتى اذا استمعوا له تلا عليهم المؤلف منه حكاه ابن جرير أيضا وهو ضعيف

أيضا لانه لو كان كذلك لكان ذلك في جميع السور لا يكون في بعضها بل غالبها ليس كذلك ولو كان كذلك أيضا لانبغى الابتداء بها في أوائل الكلام معهم سواء كان افتتاح سورة أو غير ذلك ثم ان هذه السورة والتي تليها أعني البقرة وآل عمران مدنيتان ليستا خطابا للمشركين فانتقض ماذكروه بهذه الوجوه وقال آخرون بل انما ذكرت هذه الحروف في أوائل السور التي ذكرت فيها بيانا لاعجاز القرآن وان الخلق عاجزون عن معارضته بمثله هذا مع انه مركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها وقد حكى هذا المذهب الرازي في تفسيره عن المبرد وجمع من المحققين وحكى القرطبي عن الفراء وقطرب نحو هذا

اصطكت أجرامها وسيأتي في سورة الرعد ان شاء الله تعالى في تفسير الرعد والبرق والصواعق ماله مزيد فائدة وايضاح وعن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان اذا سمع صوت الرعد والصواعق قال اللهم لاتقتلنا بغضبك ولاتهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك أخرجه الترمذي وقال حديث غريب (حذر الموت) أي مخافة الهلاك والموت ضد الحياة (والله محيط بالكافرين) أي عالم بحالهم وقيل يجمعهم ويعذبهم والاحاطة الاخذ من جميع الجهات حتى لايفوت المحاط به بوجه من الوجوه (يكاد البرق) أي يقرب يقال كاد يفعل ولم يفعل (يخطف أبصارهم) أي يختلسها والخطف استلاب الشيء والاخذ بسرعة (كلما أضاء لهم) يعني البرق (مشوا فيه) أي في اضاءته ونوره (واذا أظلم عليهم قاموا) أي وقفوا متحيرين (ولو شاء الله لذهب بسمعهم) أي بصوت الرعد (وأبصارهم) بوميض البرق (ان الله على كل شيء قدير) أي هو الفاعل لما يشاء لامنازع له فيه والآية على عمومها بلا استثناء وفيه دليل على ان الحادث حال حدوثه والممكن حال بقائه مقدوران لا كما زعم المعتزلة من أن الاستطاعة قبل الفعل وهذا مثل آخر ضربه الله للمنافقين والمنافقون أصناف منهم من يظهر الاسلام ويبطل الكفر ومنهم من قال فيه النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثلاث من كن فيه كان منافقا خالصا ومن كانت فيه واحدة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها من اذا حدث كذب واذا وعد أخلف واذا اؤتمن خان وورد بلفظ أربع وزاد واذا خاصم فجر وورد بلفظ اذا عاهد غدر وقد ذكر ابن جرير ومن تبعه من المفسرين ان هذين المثلين لصنف واحد من المنافقين (يا أيها الناس) لم يقع النداء في القرآن بغير يا من الادوات والنداء في الاصل طلب الاقبال والمراد به هنا التنبيه وأي مبني على الضم في محل نصب والناس نعت لأي على اللفظ وحركته اعرابية وحركة أي بنائية واستشكل رفع التابع مع عدم عامل الرفع والنداء على سبع مراتب نداء مدح كقوله يا أيها النبي ويا أيها الرسول ونداء ذم كقوله يا أيها الذين هادوا يا أيها الذين كفروا ونداء تنبيه كقوله يا أيها الانسان يا أيها الناس ونداء اضافة كقوله يا عبادي ونداء نسبة كقوله يا بني آدم يا بني اسرائيل ونداء تسمية كقوله يا داود يا ابراهيم ونداء تضيف كقوله يا أهل الكتاب قاله الكرخي قال ابن عباس يا أيها الناس خطاب لاهل مكة ويا أيها الذين آمنوا خطاب لاهل المدينة وهو هنا خطاب عام لسائر المكلفين والحق ان ماقاله ابن عباس أكثري لا كلي فان

وقرره الزمخشري في كشافه ونصره أتم نصر واليه ذهب الشيخ الامام العلامة أبو العباس ابن تيمية وشيخنا الحافظ المجتهد أبو الحجاج المزي وحكاه لي عن ابن تيمية قال الزمخشري ولم ترد كلها مجموعة في أول القرآن وانما كررت ليكون أبلغ في التحدي والتبكيت كما كررت قصص كثيرة وكرر التحدي بالصريح في أماكن قال وجاء منها على حرف واحد كقوله ص ن ق وحرفين مثل حم وثلاثة مثل الم وأربعة مثل المر والمص وخمسة مثل كهيعص وحمعسق لان أساليب كلامهم على هذا من الكلمات ماهو على حرف وعلى حرفين وعلى ثلاثة

وعلى أربعة وعلى خمسة لا أكثر من ذلك قلت ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف فلابد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن وبيان اعجازه وعظمته وهذا معلوم بالاستقراء وهو الواقع في تسع وعشرين سورة ولهذا يقول تعالى الم ذلك الكتاب لا ريب فيه الم الله لا اله الا هو الحي القيوم نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه المص كتاب أنزل اليك فلا يكن في صدرك حرج منه الر كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور باذن ربهم الم تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين حم تنزيل من الرحمن الرحيم حمعسق كذلك يوحي اليك والى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم وغير ذلك من الآيات الدالة على صحة ما ذهب اليه هؤلاء لمن أمعن النظر والله أعلم وأما من زعم انها دالة على معرفة المدد وانه يستخرج من ذلك أوقات الحوادث والفتن والملاحم فقد ادعى ما ليس له وطار في غير مطاره وقد ورد في ذلك حديث ضعيف وهو مع ذلك أدل على بطلان هذا المسلك من التمسك به على صحته وهو مارواه محمد بن اسحق بن يسار صاحب المغازي حدثني الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس عن جابر بن عبد الله بن رياب قال مر أبو ياسر بن أخطب في رجال من يهود برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتلو فاتحة سورة البقرة الم ذلك الكتاب لا ريب فيه فأتى أخاه حيي بن أخطب في رجال من اليهود فقال تعلمون والله لقد سمعت محمدا يتلو فيما أنزل الله تعالى عليه الم ذلك الكتاب لا ريب فيه فقال أنت سمعته قال نعم قال فمشى حيي بن أخطب في أولئك النفر من اليهود الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا محمد ألم يذكر أنك تتلو فيما أنزل الله عليك الم ذلك الكتاب فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بلى فقالوا أجاءك بهذا جبريل من عند الله فقال نعم قالوا لقد بعث الله قبلك أنبياء ما نعلمه بين لنبي منهم

البقرة والنساء والحجرات مدنيات وفاقا وقد قال في كل منها يا أيها الناس (اعبدوا ربكم الذي خلقكم) قال ابن عباس وحبذا وكل ماورد في القرآن من العبادة قيل معناه التوحيد وأصل العبادة غاية التذلل وقد تقدم تفسيرها والمعنى ابتدع خلقكم من غير مثال سبق وانما خص نعمة الخلق وامتن بها عليهم لان جميع النعم مترتبة عليها وهي أصلها الذي لا يوجد شيء منها بدونها وأيضا فالكفار يقرون بان الله هو الخالق ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فامتن عليهم بما يعترفون به فلا ينكرونه وفي أصل معنى الخلق وجهان أحدهما التقدير يقال خلقت الاديم للسقاء اذا قدرته قبل القطع الثاني الانشاء والاختراع والابداع (والذين من قبلكم) بالذات أو الزمان أي وخلقهم (لعلكم تتقون) ولعل أصلها الترجي والطمع والتوقع والاشفاق وذلك مستحيل على الله تعالى ولكنه لما كان في المخاطبة منه للبشر كان بمنزلة قوله لهم افعلوا ذلك على الرجاء منكم والطمع وبهذا قال جماعة من أهل العربية منهم سيبويه وقيل بمعنى لام كي أي لتتقوا وبهذا قال جماعة منهم قطرب والطبري وقيل انها بمعنى التعرض للشيء كأنه قال متعرضين للتقوى واليه مال أبو البقاء وغيره (الذي جعل لكم الارض فراشا) أي خلق لكم الارض بساطا ووطاء مذللة ولم يجعلها حزنة لا يمكن القرار عليها والحزن ما غلظ من الارض وجعل هنا بمعنى صير وجاء بمعنى صار وطفق وأوجد والتصيير يكون بالفعل تارة وبالقول والعقد أخرى والفراش وطاء يستقرون عليها واستدل به أكثر المفسرين على ان شكل الارض بسيط ليس بكري (والسماء بناء) أي سقفا مرفوعا قيل اذا تأمل الانسان المتفكر في العالم وجده كالبيت المعمور فيه كل ما يحتاج اليه فالسماء مرفوعة كالسقف والارض مفروشة كالبساط والنجوم كالمصابيح والانسان كمالك البيت وفيه ضروب النبات المهيأ لمنافعه وأصناف الحيوان مصروفة في مصالحه فيجب على الانسان المسخر له هذه الاشياء شكر الله تعالى عليها والسماء اسم جنس يقع على الواحد والمتعدد وقيل جمع سماءة والبناء مصدر سمي به المبني بيتا كان أو قبة أو خباء وأصل البناء وضع لبنة على أخرى فجعل السماء كالقبة المضروبة عليهم والسقف للبيت الذي يسكنونه كما قال وجعلنا السماء سقفا محفوظا (وأنزل من السماء) يعني السحاب (ماء) يعني المطر (فأخرج به) أي بذلك الماء (من الثمرات) جمع ثمرة (رزقا لكم) والمعنى أخرجنا لكم ألوانا من الثمرات وأنواعا من النبات ليكون ذلك

متاعا

ما مدة ملكه وما أجل أمته غيرك فقام حيي بن أخطب وأقبل على من كان معه فقال ابسم الالف واحدة واللام ثلاثون والميم أربعون فهذه احدى وسبعون سنة أفتدخلون في دين نبي انما مدة ملكه وأجل أمته احدى وسبعون سنة ثم أقبل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا محمد هل مع هذا غيره فقال نعم قال ماذاك قال المص قال هذه أثقل وأطول الالف واحد واللام ثلاثون والميم أربعون والصاد تسعون فهذه احدى وثلاثون ومائة سنة هل مع هذا يا محمد غيره قال نعم قال ماذاك قال الر قال هذه أثقل وأطول الالف واحدة واللام ثلاثون والراء مائتان فهذه احدى وثلاثون ومائتا سنة فهل مع هذا يا محمد قال نعم قال ماذا قال المر قال هذه أثقل وأطول الالف واحدة واللام ثلاثون والميم أربعون والراء مائتان (٦٧) فهذه احدى وسبعون ومائتان ثم قال لقد لبس علينا أمرك يا محمد حتى ماندري أقليلا أعطيت أم كثيرا ثم قال قوموا عنه ثم قال أبو ياسر لاخيه حيي بن أخطب ولمن معه من الاحبار ما يدريكم لعله قد جمع هذا لمحمد كله احدى وسبعون واحدى وثلاثون ومائة واحدى وثلاثون ومائتان واحدى وسبعون ومائتان فذلك سبعمائة وأربع سنين فقالوا لقد تشابه علينا أمره فيزعمون ان هؤلاء الآيات نزلت فيهم هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فهذا الحديث مداره على محمد بن السائب الكلبي وهو ممن لا يحتج بما انفرد به ثم كان مقتضى هذا المسلك ان كان صحيحا ان يحسب ما لكل حرف من الحروف الاربعة عشر التي ذكرناها وذلك يبلغ منه جملة كثيرة وان حسبت مع التكرر فاطم وأعظم والله أعلم (ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين) قال ابن جريج قال ابن عباس ذلك الكتاب أي هذا الكتاب وكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والسدي ومقاتل بن حيان وزيد بن أسلم وابن جريج ان ذلك بمعنى هذا والعرب تعارض بين اسمي الاشارة فيستعملون كلا منهما مكان الآخر وهذا معروف في كلامهم وقد حكاه البخاري عن معمر بن المثنى عن أبي عبيدة وقال الزمخشري ذلك اشارة الى الم كما قال تعالى لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك وقال تعالى ذلكم حكم الله يحكم بينكم وقال ذلكم الله وأمثال ذلك مما أشير به الى ما تقدم ذكره والله أعلم وقد ذهب بعض المفسرين فيما حكاه القرطبي وغيره ان ذلك اشارة الى القرآن الذي وعد الرسول صلى الله عليه وسلم بانزاله عليه أو التوراة أو الانجيل أو نحو ذلك في أقوال عشرة وقد ضعف هذا المذهب كثيرون والله أعلم والكتاب القرآن ومن قال ان المراد بذلك الكتاب الاشارة الى

متاعا لكم ولانعامكم الى حين وهو قادر على ان يوجد الاشياء كلها بلا أسباب ومواد كما أبدع نفوس الاسباب والمواد ولكن له في الانشاء مدرجا من حال الى حال صنائع وحكما يجدد فيها لاولي الابصار عبرا وسكونا الى عظيم قدرته ليس ذلك في ايجادها دفعة (فلا تجعلوا لله أندادا) جمع ند وهو المثل والنظير وفي جعله جمع نديد نظر (وأنتم تعلمون) بعد ولكم ان هذه الاشياء والامثال لا يصح جعلها أندادا لله وانه واحد خالق لجميع الاشياء وانه لا مثل له ولا ند ولا ضد وفي الآية دليل على وجوب استعمال الحجج وترك التقليد وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والبخاري في الادب المفرد والنسائي وابن ماجه وأبو نعيم في الحلية عن ابن عباس قال قال رجل للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ماشاء الله وشئت قال جعلتني لله ندا ماشاء الله وحده وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه والبيهقي عن حذيفة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا تقولوا ماشاء الله وشاء فلان قولوا ماشاء الله ثم شاء فلان وأخرج البخاري ومسلم عن ابن مسعود قال قلت يا رسول الله أي الذنب أعظم قال ان تجعل لله ندا وهو خلقك (وان كنتم في ريب) أي شك (٢) لان الله عليم بانهم شاكون (مما نزلنا على عبدنا) أي القرآن أنزله على محمد صلى الله عليه وآله وسلم وفيه التفات من الغيبة الى التكلم للتفخيم لان قبله اعبدوا ربكم فكان حق المقام ان يقول مما نزل على عبده والعبد مأخوذ من التعبد وهو التذلل وعبدنا اضافة تشريف لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم والتنزيل التدريج والتنجيم (فأتوا بسورة) أي من سورة والسورة الطائفة من القرآن المسماة باسم خاص سميت بذلك لانها مشتملة على كلماتها كاشتمال سور البلدة عليها وأقل ما تألف منه السورة ثلاث آيات استدل به من قال انه يتعلق الاعجاز بأقل من سورة ورد به على من قال من المعتزلة بانه يتعلق بجميع القرآن (من مثله) الضمير عائد على القرآن عند جمهور أهل العلم وقيل على التوراة والانجيل لان المعنى انها تصدق ما فيه وقيل يعود على النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمعنى من بشر مثل محمد صلى الله عليه وآله وسلم أمي لا يكتب ولا يقرأ والاول أوجه وأولى ويدل عليه ان ذلك مطابق لسائر الآيات الواردة في التحدي وانما وقع الكلام في المنزل لا في المنزل عليه (وادعوا شهداءكم) جمع شهيد بمعنى الحاضر أو القائم بالشهادة أو المعاون والمراد هنا الآلهة أي استعينوا بآلهتكم التي تعبدونها (من دون الله) وقيل المعنى وادعوا ناسا يشهدون لكم ومعنى

التوراة والانجيل كما حكاه ابن جرير وغيره فقد أبعد النجعة وأغرق في النزع وتكلف مالا علم له به والريب الشك قال السدي عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ريب فيه لا شك فيه وقال أبو الدرداء وابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وأبو مالك ونافع مولى ابن عمر وعطاء وأبو العالية والربيع ابن أنس ومقاتل بن حيان والسدي وقتادة واسمعيل بن أبي خالد وقال ابن أبي حاتم لا أعلم في هذا خلافا وقد يستعمل الريب في التهمة قال جميل

بثينة قالت يا جميل أربتني ... فقلت كلانا يا بثين مريب (٦٨)

واستعمل أيضا في الحاجة كما قال بعضهم

قضينا من تهامة كل ريب ... وخيبر ثم أجمعنا السيوفا

ومعنى الكلام هنا ان هذا الكتاب هو القرآن لا شك فيه انه نزل من عند الله كما قال تعالى في السجدة الم تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين وقال بعضهم هذا خبر ومعناه النهي أي لا ترتابوا فيه ومن القراء من يقف على قوله تعالى لا ريب ويبتدئ بقوله تعالى فيه هدى للمتقين والوقف على قوله تعالى لا ريب فيه أولى للآية التي ذكرناها ولانه يصير قوله تعالى هدى صفة للقرآن وذلك أبلغ من كون فيه هدى وهدى يحتمل من حيث العربية ان يكون مرفوعا على النعت ومنصوبا على الحال وخصت الهداية للمتقين كما قال قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين الا خسارا الى غير ذلك من الآيات الدالة على اختصاص المؤمنين بالنفع بالقرآن لانه هو في نفسه هدى ولكن لا يناله الا الابرار كما قال تعالى يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين وقد قال السدي حتى عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم هدى للمتقين يعني نورا للمتقين وقال أبو روق عن الضحاك عن ابن عباس قال هدى للمتقين قال هم المؤمنون الذين يتقون الشرك بي ويعملون بطاعتي وقال محمد بن اسحق عن محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس للمتقين قال الذين يحذرون من الله عقوبته في ترك ما يعرفون من الهدى ويرجون رحمته في التصديق بما جاء به وقال سفيان الثوري

دون ادنى مكان من الشيء واتسع فيه حتى استعمل في تخطي شيء الى شيء آخر ومنه ما في هذه الآية وله معان أخر منها التقصير عن الغاية والحقارة والعرب تقول هذا دون ذلك أي أقرب منه (ان كنتم صادقين) فيما قلتم انكم تقدرون على المعارضة وهذا تعجيز لهم وبيان لانقطاعهم أو ان محمدا صلى الله عليه وآله وسلم يقوله من تلقاء نفسه والاول أولى والصدق خلاف الكذب وهو مطابقة الخبر للواقع أو للاعتقاد أولهما على الخلاف المعروف في علم المعاني (فان لم تفعلوا) فيما مضى (ولن تفعلوا) ذلك فيما يأتي وتبين لكم عجزكم عن المعارضة وذلك ان النفوس الأبية اذا قرعت بمثل هذا التقريع استفرغت الوسع في الاتيان بمثل القرآن أو بمثل سورة منه ولو قدروا على ذلك لاتوا به فحيث لم يأتوا بشيء ظهرت المعجزة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وبان عجزهم وهم أهل الفصاحة والبلاغة والقرآن من جنس كلامهم وكانوا أحرص على اطفاء نوره وابطال أمره ثم مع هذا الحرص الشديد لم توجد المعارضة من أحدهم ورضوا بسبي الذراري وأخذ الاموال والقتل واذا ظهر عجزهم عن المعارضة صح صدق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واذا كان الامر كذلك وجب ترك العناد وهذا من الغيوب التي أخبر بها القرآن قبل وقوعها لانها لم تقع المعارضة من أحد من الكفرة في أيام النبوة وفيما بعدها والى الآن وقد كرر الله سبحانه تحدي الكفار لهذا في مواضع من القرآن منها هذا ومنها قوله تعالى في سورة القصص قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه ان كنتم صادقين وقال في سورة سبحان قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا وقال في سورة هود أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين وقال في سورة يونس أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين وقد وقع الخلاف بين أهل العلم هل وجه الاعجاز في القرآن هو كونه في الرتبة العلية من البلاغة الخارجة عن طوق البشر أو كان العجز عن المعارضة للصرفة من الله سبحانه لهم عن أن يعارضوه والحق الاول فان القرآن يأتي تارة بالقصة باللفظ الطويل ثم يعيدها باللفظ الوجيز ولا يخل بالمقصود وانه فارقت أساليبه أساليب الكلام وأوزانه أوزان الاشعار والخطب والرسائل ولهذا تحدت العرب به فعجزوا عنه وتحيروا فيه واعترفوا بفضله وهم معدن البلاغة وفرسان الفصاحة

عن رجل عن الحسن البصري قوله تعالى للمتقين قال اتقوا ما حرم الله عليهم وأدوا ما افترض عليهم وقال أبو بكر بن عياش سألني الاعمش عن المتقين قال فاجبته فقال لي سل عنها الكلبي فسألته فقال الذين يجتنبون كبائر الاثم قال فرجعت الى الاعمش فقال يرى انه كذلك ولم ينكره وقال قتادة للمتقين هم الذين نعتهم الله بقوله الذين يؤمنون بالغيب و يقيمون الصلاة الآية والتي بعدها واختيار ابن جرير ان الآية تعم ذلك كله وهو كما قال وقد روى الترمذي وابن ماجه من رواية أبي عقيل عبد الله بن عقيل عن عبد الله بن يزيد عن ربيعة بن يزيد وعطية بن قيس عن عطية السعدي قال قال (٦٩) رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذرا مما به بأس ثم قال الترمذي حسن غريب وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا عبد الله ابن عمران عن اسحق بن سليمان يعني الرازي عن المغيرة بن مسلم عن ميمون أبي حمزة قال كنت جالسا عند أبي وائل فدخل علينا رجل يقال له أبو عفيف من أصحاب معاذ فقال له شقيق بن سلمة يا أبا عفيف ألا تحدثنا عن معاذ بن جبل قال بلى سمعته يقول يحبس الناس يوم القيامة في بقيع واحد فينادي مناد أين المتقون فيقومون في كنف من الرحمن لا يحتجب الله منهم ولا يستتر قلت من المتقون قال قوم اتقوا الشرك وعبادة الاوثان وأخلصوا لله العبادة فيمرون الى الجنة و يطلق الهدى ويراد به ما يقر في القلب من الايمان وهذا لا يقدر على خلقه في قلوب العباد الا الله عز وجل قال الله تعالى انك لا تهدي من أحببت وقال ليس عليك هداهم وقال من يضلل الله فلا هادي له وقال من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا الى غير ذلك من الآيات و يطلق و يراد به بيان الحق وتوضيحه والدلالة عليه والارشاد اليه قال الله تعالى وانك لتهدي الى صراط مستقيم وقال انما أنت منذر ولكل قوم هاد وقال تعالى وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى وقال وهديناه النجدين على تفسير من قال المراد بهما الخير والشر وهو الارجح والله أعلم وأصل التقوى التوقي مما يكره لان أصلها وقوى من الوقاية قال النابغة

سقط النصيف ولم ترد اسقاطه * فتناولته واتقتنا باليد

وقال الآخر

فالقت قناعا دونه الشمس واتقت * باحسن موصولين كف ومعصم

وقد قيل ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه سأل أبي بن

حتى قال الوليد بن المغيرة في وصف القرآن ان له لحلاوة وان عليه لطلاوة وان أصله لمغدق وان أعلاه لمثمر والكلام في هذا مبسوط في مواطنه (فاتقوا النار) بالايمان بالله وكتبه ورسله والقيام بفرائضه واجتناب مناهيه وقيل المعنى فاحترزوا من انكار كونه منزلا من عند الله فانه مستوجب للعقاب بالنار (التي وقودها الناس والحجارة) أي حطبها والوقود بالفتح الحطب وبالضم التوقد وقيل كل من الفتح والضم يجري في الآلة والمصدر والمراد بالحجارة الاصنام التي كانوا يعبدونها لانهم قرنوا أنفسهم بها في الدنيا فجعلت وقود النار معهم ويدل على هذا قوله تعالى انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم وقيل المراد بها حجارة الكبريت لانها أكثر التهابا قاله ابن عباس وقيل جميع الحجارة وفيه دليل على عظم تلك النار وقوتها وفي هذا من التهويل ما لا يقادر قدره من كون هذه النار تتقد بالناس والحجارة فاوقدت بنفس ما يراد احراقه بها (أعدت للكافرين) أي لمن كان مثل ما أنتم عليه من الكفر قاله ابن عباس والمعنى جعلت عدة لعذابهم وهيئت لذلك وأخرج ابن مردويه والبيهقي في شعب الايمان عن أنس قال تلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذه الآية وقودها الناس والحجارة قال أوقد عليها ألف عام حتى احمرت وألف عام حتى ابيضت وألف عام حتى اسودت فهي سوداء مظلمة لا يطفأ لهبها وأخرج ابن أبي شيبة والترمذي وابن مردويه والبيهقي عن أبي هريرة مرفوعا مثله وأخرج أحمد ومالك والبخاري ومسلم عن أبي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال نار بني آدم التي يوقدون جزء من سبعين جزأ من نار جهنم قالوا يا رسول الله ان كانت لكافية قال فانها قد فضلت عليها بتسعة وستين جزأ كلهن مثل حرها وعن أبي هريرة قال أترونها حمراء مثل ناركم هذه التي توقدون انها لاشد سوادا من القار والآية دلت على انها مخلوقة الآن اذ الاخبار عن اعدادها بلفظ الماضي دليل على وجودها والا لزم الكذب في خبر الله تعالى فما زعمته المعتزلة من أنها تخلق يوم الجزاء مردود وتأويلهم بأنه يعبر عن المستقبل بالماضي لتحقق الوقوع ومثله كثير في القرآن مدفوع بأنه خلاف الظاهر ولا يصار اليه الا بقرينة والاحاديث الصحيحة المتقدمة تدفعه (وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات) لما ذكر تعالى جزاء الكافرين عقبه بجزاء المؤمنين ليجمع بين الترغيب والترهيب والوعد والوعيد كما هي عادته سبحانه وتعالى في كتابه العزيز لما في ذلك من تنشيط عباده المؤمنين لطاعاته وتثبيط

كعب عن التقوى فقال له أما سلكت طريقا ذا شوك قال بلى قال فما عملت قال شمرت واجتهدت قال فذلك التقوى وقد أخذ هذا المعنى ابن المعتز فقال:

خل الذنوب صغيرها * وكبيرها ذاك التقى
واصنع كماش فوق أر * ض الشوك يحذر ما يرى
لا تحقرن صغيرة * ان الجبال من الحصى

وأنشد أبو الدرداء يوما:

يريد المرء أن يؤتى مناه * ويأبى الله الا ما أرادا
يقول المرء فائدتي ومالي * وتقوى الله أفضل ما استفادا

وفي سنن ابن ماجه عن أبي أمامة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما استفاد المرء

بعد تقوى الله خيرا من زوجة صالحة ان نظر اليها سرته وان أمرها أطاعته وان أقسم عليها أبرته وان غاب عنها نصحته في نفسها وماله (الذين يؤمنون بالغيب) قال أبو جعفر الرازي عن العلاء بن المسيب ابن رافع عن أبي اسحق عن أبي الاحوص عن عبد الله قال الايمان التصديق وقال علي بن أبي طلحة وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما يؤمنون يصدقون وقال معمر عن الزهري الايمان العمل وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس يؤمنون يخشون قال ابن جرير والاولى أن يكونوا موصوفين بالايمان بالغيب قولا واعتقادا وعملا وقد تدخل الخشية لله في معنى الايمان الذي هو تصديق القول بالعمل والايمان كلمة جامعة للايمان بالله وكتبه ورسله وتصديق الاقرار بالفعل * قلت أما الايمان في اللغة فيطلق على التصديق المحض وقد يستعمل في القرآن والمراد به ذلك كما قال تعالى يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين وكما قال اخوة يوسف لابيهم وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين وكذلك اذا استعمل مقرونا مع الاعمال كقوله تعالى الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فأما اذا استعمل مطلقا فالايمان الشرعي المطلوب لا يكون الا اعتقادا وقولا وعملا. هكذا ذهب اليه أكثر الأئمة بل قد حكاه الشافعي وأحمد بن حنبل وأبو عبيدة وغير واحد اجماعا أن الايمان قول وعمل يزيد وينقص وقد ورد فيه آثار كثيرة وأحاديث أفردنا الكلام فيها في أول شرح البخاري ولله الحمد والمنة ومنهم من فسره بالخشية كقوله تعالى ان الذين يخشون ربهم بالغيب وقوله من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب والخشية خلاصة الايمان والعلم كما قال تعالى انما يخشى الله من عباده العلماء وقال بعضهم يؤمنون بالغيب كما يؤمنون بالشهادة وليسوا كما قال تعالى عن المنافقين

كيف

عباده الكافرين عن معاصيه والتبشير الاخبار بما يظهر أثره على البشرة وهي الجلدة الظاهرة من البشر والسرور والمأمور بالتبشير قيل هو النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقيل هو كل أحد كما في قوله صلى الله عليه وآله وسلم بشر المشائين في الظلم الى المساجد بالنور التام يوم القيامة والصالحات الاعمال المستقيمة والمراد هنا الاعمال المطلوبة منهم المفترضة عليهم وفيه رد على من يقول ان الايمان بمجرده يكفي فالجنة تنال بالايمان والعمل الصالح قيل هو ما كان فيه أربعة أشياء العلم والنية والصبر والاخلاص يعني عن الرياء قاله عثمان (ان لهم جنات) جمع جنة وهي البساتين وانما سميت جنات لانها تجن من فيها أي تستره بشجرها أو تسترها بالاشجار والاوراق وقيل الجنة ما فيه نخل والفردوس ما فيه كرم وهي اسم لدار الثواب كلها وهي مشتملة على جنات كثيرة (تجري) أي على ظهر الارض من غير حفيرة بل هي متماسكة بقدرة الله (من تحتها) أي تحت الجنات لاشتمالها على الاشجار أي من تحت أشجارها قال مسروق انها تجري من غير أخدود الانهار جمع نهر وهو المجرى الواسع فوق الجدول ودون البحر كالنيل والفرات والمراد الماء الذي يجري فيها لان الانهار لا تجري وأسند الجري اليها مجازا فالجاري حقيقة هو الماء كما في قوله تعالى واسأل القرية التي كنا فيها أي أهلها والنهر يجوز فيه فتح الهاء وسكونها وكذا كل ما عينه حرف حلقي وجمع الاول أنهر وجمع الآخر أنهار وأخرج ابن أبي حاتم وابن حبان والطبراني والحاكم وابن مردويه والبيهقي في البعث عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهار الجنة تفجر من تحت جبال مسك (كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا) أي أطعموا من الجنة طعاما والمراد بثمرة النوع لا الفرد قاله سعد التفتازاني وأطال الكلام فيه (قالوا هذا الذي رزقنا من قبل) في الدنيا (وأتوا به متشابها) وصف آخر للجنات أو جملة مستأنفة والمراد أنه شبيهه ونظيره لا أنه هو لان ذات الحاضر لا يكون عين ذات الغائب لاختلافهما وذلك ان اللون يشبه اللون وان كان الحجم والطعم والرائحة والمائية متخالفة والضمير في به عائد الى الرزق وقيل المراد انهم أتوا بما يرزقونه في الجنة متشابها فما يأتيهم في أول النهار يشابه الذي يأتيهم في آخره فيقولون هذا الذي رزقنا من قبل فاذا أكلوا وجدوا له طعما غير طعم الاول عن ابن عباس ليس في الدنيا مما في الجنة شيء الا الاسماء وعن الحسن في قوله متشابها قال خيار كله يشبه بعضه بعضا لا رذال فيه ألم تروا الى ثمار الدنيا

واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم انما نحن مستهزؤن وقال اذا جاءك المنافقون قالوا نشهد انك لرسول الله والله يعلم انك لرسوله والله يشهد ان المنافقين لكاذبون فعلى هذا يكون قوله بالغيب حالا أي في حال كونهم غيبا عن الناس وأما الغيب المراد ههنا فقد اختلفت عبارات السلف فيه وكلها صحيحة ترجع الى ان الجميع مراد قال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية في قوله تعالى يؤمنون بالغيب قال يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وجنته وناره ولقائه ويؤمنون بالحياة بعد الموت وبالبعث فهذا غيب كله وكذا قال قتادة بن دعامة وقال السدي عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أما الغيب فما غاب عن العباد من أمر الجنة وأمر النار وما ذكر في القرآن وقال محمد ابن اسحق عن محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس بالغيب قال بما جاء منه يعني من الله تعالى وقال سفيان الثوري عن عاصم عن زر قال الغيب القرآن وقال عطاء بن أبي رباح من آمن بالله فقد آمن بالغيب وقال اسمعيل ابن أبي خالد يؤمنون بالغيب قال بغيب الاسلام وقال زيد بن أسلم الذين يؤمنون بالغيب قال بالقدر فكل هذه متقاربة في معنى واحد لان جميع هذه المذكورات من الغيب الذي يجب الايمان به وقال سعيد ابن منصور حدثنا أبو معاوية عن الاعمش عن عمارة بن عمير عن عبد الرحمن بن يزيد قال كنا عند عبد الله بن مسعود جلوسا فذكرنا أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وما سبقونا به فقال عبد الله ان أمر محمد صلى الله عليه وسلم كان بينا لمن رآه والذي لا اله غيره ما آمن أحد قط ايمانا أفضل من ايمان بغيب ثم قرأ الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب الى قوله المفلحون وهكذا رواه ابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم في مستدركه من طرق عن الاعمش به وقال الحاكم صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وفي معنى هذا الحديث الذي رواه أحمد حدثنا أبو المغيرة نا الاوزاعي حدثني أسد بن عبد الرحمن عن خالد بن دريك عن ابن محيريز قال قلت لابي جمعة حدثنا حديثا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال نعم أحدثك حديثا جيدا تغدينا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعنا أبو عبيدة بن الجراح فقال يارسول الله هل أحد خير منا أسلمنا معك وجاهدنا معك قال نعم قوم

كيف تزلون بعضه وعن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أهل الجنة يأكلون ويشربون ولا يبولون ولا يتغوطون ولا يتمخطون ولا يبزقون يلهمون الحمد والتسبيح كما يلهمون النفس طعامهم جشاء ورشحهم كرشح المسك وفي لفظ ورشحهم المسك أخرجه مسلم والمعنى ان فضول طعامهم يخرج في الجشاء وهو تنفس المعدة والرشح العرق (ولهم فيها أزواج مطهرة) أي في الجنات من الحور العين المطهرة من البول والغائط والحيض والولد وسائر الاقذار وقيل هن عجائز الدنيا الغمص العمش طهرن من قذرات الدنيا وقيل طهرن من مساوي الاخلاق والمعنى انه لا يصيبهن ما يصيب النساء من قذر الحيض والنفاس والغائط والبزاق والنخامة وسائر الادناس التي لا يمتنع تعلقها بنساء الدنيا والازواج جمع زوج وهو ما يكون معه آخر فيقال زوج للرجل والمرأة وزوجة بالتاء قليل وانها لغة تميم قاله الفراء والزوج أيضا الصنف والتثنية زوجان والطهارة النظافة (وهم فيها خالدون) أي ماكثون أبدا والخلد والخلود البقاء الدائم الذي لا ينقطع وقد يستعمل مجازا فيما يطول دام أو لم يدم والمراد هنا الاول لما يشهد له الآيات والاحاديث والمعنى لا يخرجون منها ولا يموتون وعن ابن عباس في قوله وهم فيها خالدون قال يخبرهم ان الثواب بالخير والشر مقيم على أهله أبدا لا انقطاع له وعن سعيد بن جبير خالدون يعني لا يموتون وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ثم يقوم مؤذن بينهم يا أهل النار لا موت يا أهل الجنة لا موت كل خالد فيما هو فيه وأخرج الطبراني وابن مردويه وأبو نعيم من حديث ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لو قيل لاهل النار انكم ماكثون في النار عدد كل حصاة في الدنيا لفرحوا ولو قيل لاهل الجنة انكم ماكثون عدد كل حصاة لحزنوا ولكن جعل لهم الابد وقد أخرج ابن ماجه وابن أبي الدنيا في صفة الجنة والبزار وابن أبي حاتم وابن حبان والبيهقي وابن مردويه عن أسامة بن زيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ألا هل مشمر للجنة فان الجنة لا خطر لها هي ورب الكعبة نور يتلألأ وريحانة تهتز وقصر مشيد ونهر مطرد وثمرة نضيجة وزوجة حسناء جميلة وحلل كثيرة ومقام في أبد في دار سليمة وفاكهة خضراء الحديث والاحاديث في وصف الجنة كثيرة جدا ثابتة في الصحيحين وغيرهما وكذلك في صفات نساء أهل الجنة ما لا يتسع المقام لبسطه فلينظر في

من بعدكم يؤمنون بي ولم يروني * طريق أخرى قال أبو بكر بن مردويه في تفسيره حدثنا عبد الله بن جعفر حدثنا اسمعيل عن عبد الله
ابن مسعود حدثنا عبد الله بن صالح حدثنا معاوية بن صالح عن صالح بن جبير قال قدم علينا أبو جمعة الانصاري صاحب رسول الله
صلى الله عليه وسلم بيت المقدس يصلي فيه ومعنا يومئذ رجاء بن حيوة رضي الله عنه فلما انصرف خرجنا نشيعه فلما أراد الانصراف
قال ان لكم جائزة وحقا أحدثكم بحديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم قلنا هات رحمك الله قال كنا مع رسول الله صلى
الله عليه وسلم ومعنا معاذ بن جبل عاشر عشرة فقلنا يا رسول الله هل من قوم أعظم منا أجرا آمنا بالله واتبعناك قال
ما يمنعكم من ذلك ورسول الله بين أظهركم يأتيكم بالوحي من السماء بل قوم بعدكم يأتيهم كتاب من بين لوحين يؤمنون به ويعملون بما فيه أولئك أعظم منكم أجرا مرتين ثم رواه من حديث ضمرة بن ربيعة عن مرزوق بن نافع عن صالح بن جبير عن أبي جمعة بنحوه وهذا الحديث فيه دلالة على العمل بالوجادة التي اختلف فيها أهل الحديث كما قررته في أول شرح البخاري لانه مدحهم على ذلك وذكر انهم أعظم أجرا من هذه الحيثية لا مطلقا وكذا الحديث الآخر الذي رواه الحسن بن عرفة العبدي حدثنا اسمعيل بن عياش الحمصي عن المغيرة بن قيس التميمي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أي الخلق أعجب اليكم ايمانا قالوا الملائكة قال ومالهم لا يؤمنون وهم عند ربهم قالوا فالنبيون قال ومالهم لا يؤمنون والوحي ينزل عليهم قالوا فنحن قال ومالكم لا تؤمنون وانا بين أظهركم قال فقال رسول الله صلى الله عليه
وسلم ألا ان أعجب الخلق الي ايمانا لقوم يكونون من بعدكم يجدون صحفا فيها كتاب يؤمنون بما فيها قال أبو أعظم
حاتم الرازي المغيرة بن قيس البصري منكر الحديث (قلت) ولكن قد روى أبو يعلى في مسنده وابن مردويه في تفسيره والحاكم
في مستدركه من حديث محمد بن ابي حميد وفيه ضعف عن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم بمثله أو نحوه وقال
الحاكم صحيح الاسناد ولم يخرجاه وقد روى نحوه عن أنس بن مالك مرفوعا والله أعلم وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا عبد الله بن
محمد المسندي حدثنا اسحق بن ادريس أخبرني ابراهيم بن جعفر بن محمود بن سلمة الانصاري أخبرني جعفر بن محمود عن جدته بديلة

دواوين الاسلام وقد ألف الحافظ محمد بن أبي بكر القيم الجوزي كتابا في أحوال الجنة سماه حادي الارواح الى بلاد الافراح لم يؤلف في الاسلام قبله مثله وهو أجمع ما جمع في هذا الباب وقد لخصته بحذف الزوائد والاسانيد وسميته مثير ساكن الغرام الى روضات دار السلام فليرجع اليه وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في صفات أهل الجنة في الصحيحين وغيرهما من طريق جماعة من الصحابة ان أهل الجنة لا يبصقون ولا يمتخطون ولا يتغوطون (ان الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما بعوضة) أنزل الله هذه الآية ردا على الكفار لما أنكروا ما ضربه سبحانه من الامثال كقوله مثلهم كمثل الذي استوقد نارا وقوله أو كصيب من السماء فقالوا ان الله أجل وأعلى من أن يضرب الامثال وقد قال الرازي انه تعالى لما بين بالدليل كون القرآن معجزا أورد ههنا شبهة أوردها الكفار قدحا في ذلك وأجاب عنها وتقرير الشبهة انه جاء في القرآن ذكر النحل والعنكبوت والنمل وهذه الاشياء لا يليق ذكرها بكلام الفصحاء فاشتمال القرآن عليها يقدح في فصاحته فضلا عن كونه معجزا وأجاب الله عنها بأن صغر هذه الاشياء لا يقدح في الفصاحة اذا كان ذكرها مشتملا على حكمة بالغة انتهى ولا يخفاك ان تقرير هذه الشبهة على هذا الوجه وارجاع الانكار الى مجرد الفصاحة لا مستند له ولا دليل عليه وقد تقدمه الى شئ من هذا صاحب الكشاف والظاهر ما ذكرناه أولا لكون هذه الآية جاءت بعقب المثلين اللذين هما مذكوران قبلها ولا يستلزم استنكارهم لضرب الامثال بالاشياء المحقرة أن يكون ذلك لكونه قادحا في الفصاحة والاعجاز والحياء تغير وانكسار يعتري الانسان من تخوف ما يعاب به ويذم كذا في الكشاف وتبعه الرازي في مفاتيح الغيب وقال القرطبي الاستحياء الانقباض عن الشئ والامتناع منه تخوفا من مواقعة القبيح وهذا محال على الله انتهى وقد اختلفوا في تأويل ما في هذه الآية من ذكر الحياء فقيل ساغ ذلك لكونه واقعا في الكلام المحكي عن الكفار وقيل هو من باب المشاكلة كما تقدم وقيل هو جار على سبيل التمثيل وضرب المثل اعتماده وصنعه والبعوض صغار البق الواحدة بعوضة سميت بذلك لصغرها قاله الجوهري وغيره وهو من عجيب خلق الله في غاية الصغر شديد اللسع وله ستة أرجل وأربعة أجنحة وله ذنب وخرطوم مجوف وهو مع صغره يغوص خرطومه في جلد الفيل والجاموس والجمل فيبلغ منه الغاية (فما فوقها) يعني الذباب والعنكبوت وما هو

بنت أسلم قالت صليت الظهر أو العصر في مسجد بني حارثة فاستقبلنا مسجد ايلياء فصلينا سجدتين ثم جاءنا من يخبرنا ان رسول الله
صلى الله عليه وسلم قد استقبل البيت الحرام فتحول النساء مكان الرجال والرجال مكان النساء فصلينا السجدتين الباقيتين ونحن
مستقبلون البيت الحرام قال ابراهيم فحدثني رجال من بني حارثة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بلغه ذلك قال أولئك قوم
آمنوا بالغيب هذا حديث غريب من هذا الوجه (ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون) قال ابن عباس ويقيمون الصلاة أي
يقيمون الصلاة بفروضها وقال الضحاك عن ابن عباس اقامة الصلاة اتمام الركوع والسجود والتلاوة والخشوع
والاقبال عليها فيها وقال قتادة اقامة الصلاة المحافظة على مواقيتها ووضوئها وركوعها وسجودها وقال مقاتل بن حيان اقامتها المحافظة على مواقيتها واسباغ الطهور فيها وتمام ركوعها وسجودها وتلاوة القرآن فيها والتشهد والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فهذا اقامتها وقال علي بن أبي طلحة وغيره عن ابن عباس ومما رزقناهم ينفقون قال زكاة أموالهم وقال السدي عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومما رزقناهم ينفقون قال نفقة الرجل على أهله وهذا قبل ان تنزل الزكاة وقال جويبر عن الضحاك كانت النفقات قربانا يتقربون بها الى الله على قدر ميسرتهم وجهدهم حتى نزلت فرائض الصدقات سبع آيات في سورة براءة مما يذكر فيهن الصدقات هن الناسخات المثبتات وقال قتادة ومما رزقناهم ينفقون فانفقوا مما أعطاكم الله هذه
 الاموال عوار وودائع عندك يا ابن آدم يوشك ان تفارقها واختار ابن جرير ان الآية عامة في الزكاة
والنفقات فانه قال وأولى التأويلات وأحقها بصفة القوم ان يكونوا لجميع اللازم لهم في أموالهم مؤدين زكاة كانت ذلك أو نفقة من
لزمته نفقته من أهل أو عيال وغيرهم ممن يجب عليهم نفقته بالقرابة والملك وغير ذلك لان الله تعالى عم وصفهم ومدحهم بذلك وكل
من الانفاق والزكاة ممدوح به محمود عليه (قلت) كثيرا ما يقرن الله تعالى بين الصلاة والانفاق من الاموال فان الصلاة حق الله
وعبادته وهي مشتملة على توحيده والثناء عليه وتمجيده والابتهال اليه ودعائه والتوكل عليه والانفاق هو من الاحسان الى المخلوقين

أعظم منهما في الجثة قال الكسائي والفراء الفاء هنا بمعنى الى وقيل معناه فما دونها
وأصغر منها وهذا القول أشبه بالآية لان الغرض بيان ان الله تعالى لا يمتنع من التمثيل
بالشيء الصغير الحقير وقد ضرب النبي صلى الله عليه وآله وسلم مثلا للدنيا بجناح البعوضة
وهو أصغر منها وقد ضربت العرب المثل بالمحقرات فقيل هو أحقر من ذرة وأجمع من
نملة وأطيش من فراشة وألح من ذبابة (فأما الذين آمنوا) بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم
والقرآن (فيعلمون أنه) يعني ضرب المثل (الحق) أي الثابت الواقع موقعه وهو المقابل
للباطل والحق واحد الحقوق والمراد هنا الاول وقد اتفق المسلمون على انه يجوز اطلاق
هذا اللفظ على الله سبحانه (من ربهم) لا يجوز انكاره لان ضرب الامثال من الامور
المستحسنة في العقل وعند العرب (وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا
مثلا) أي بهذا المثل والارادة نقيض الكراهة وقيل هي نزوع أي اشتياق النفس وميلها
الى فعل بحيث يحملها عليه أو هي قوة هي مبدأ النزوع والاول مع الفعل والثاني قبله
وارادته سبحانه ترجيح أحد مقدوريه على الآخر بالايقاع أو معنى يوجب هذا الترجيح
والارادة صفة له ذاتية قديمة زائدة على العلم (يضل به كثيرا) أي من الكفار وذلك انهم
يكذبونه فيزدادون به ضلالا (ويهدي به كثيرا) يعني المؤمنين يصدقونه ويعلمون أنه حق
وهو كالتفسير للجملتين السابقتين المصدرتين بأما فهو خبر من الله سبحانه وقيل هو حكاية
لقول الكافرين كأنهم قالوا ما مراد الله بهذا المثل الذي يفرق به الناس الى ضلالة والى
هدى وليس هذا بصحيح فان الكافرين لا يقرون بان في القرآن شيأ من الهداية ولا
يعترفون على أنفسهم بشيء من الضلالة وقد أطال المتكلمون الخصام في تفسير الضلال
المذكور هنا وفي نسبته الى الله سبحانه وقد نقح الرازي في تفسيره في هذا الموضع تنقيحا
نفيسا وجوده وطوله وأوضح فروعه وأصوله فليرجع اليه فانه مفيد جدا وأما صاحب
الكشاف فقد اعتمد هنا على عصاه التي يتوكأ عليها في تفسيره فجعل اسناد الاضلال الى
الله سبحانه لكونه سببا فهو من الاسناد المجازي الى ملابس للفاعل الحقيقي وحكى
القرطبي عن أهل الحق من المفسرين ان المراد بقوله يضل يخذل (وما يضل به الا
الفاسقين) يعني الكافرين وقيل المنافقين وقيل اليهود ولا خلاف في ان هذا من كلام الله
سبحانه قاله القرطبي فيه دلالة لمذهب أهل السنة أن الهدى والضلال من الله والفسق

بالنفع المتعدى اليهم وأولى الناس بذلك القرابات والأدلون والمماليك ثم الاجانب فكل من النفقات الواجبة والزكاة المفروضة داخل فى قوله تعالى ومما رزقناهم ينفقون ولهذا ثبت فى الصحيحين عن ابن عمر رضى الله عنهما ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال بنى الاسلام على خمس شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت والاحاديث فى هذا كثيرة وأصل الصلاة فى كلام العرب الدعاء قال الاعشى

لها حارس لا يبرح الدهر بيتها * وان ذبحت صلى عليها وزمزما

وقال أيضا

وقابلها الريح فى دنها * وصلى على دنها وارتسم

انشدهما ابن جرير مستشهدا على ذلك وقال الآخر وهو الاعشى أيضا

تقول بنتى وقد قربت مرتحلا * يارب جنب أبى الاوصاب والوجعا
عليك مثل الذى صليت فاغتمضى * نوما فان لجنب المرء مضطجعا

يقول عليك من الدعاء مثل الذى دعيته لى وهذا ظاهر ثم استعملت الصلاة فى الشرع فى ذات الركوع والسجود والافعال المخصوصة فى الاوقات المخصوصة بشروطها المعروفة وصفاتها وأنواعها المشهورة قال ابن جرير وأرى ان الصلاة سميت صلاة لان المصلى يتعرض لاستنجاح طلبته من ثواب الله بعمله مع ما يسأل ربه من حاجاته وقيل هى مشتقة من الصلوين اذا تحركا فى الصلاة عند الركوع والسجود وهما عرقان يمتدان من الظهر حتى يكتنفان عجب الذنب ومنه سمى المصلى وهو التالى للسابق فى حلبة الخيل وفيه نظر وقيل هى مشتقة من الصلى وهو الملازمة للشئ من قوله تعالى لا يصلاها أى لا يلزمها ويدوم فيها الا الاشقى وقيل مشتقة من تصلية الخشبة فى النار لتقوم كما ان المصلى يقوم عوجه بالصلاة ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر واشتقاقها من الدعاء أصح وأشهر والله أعلم وأما الزكاة فسيأتى الكلام عليها فى موضعه ان شاء الله تعالى (والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون) قال ابن عباس والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك أى يصدقون بما جئت به من الله وما جاء به من قبلك من المرسلين لا يفرقون بينهم ولا يجحدون ما جاؤهم به من ربهم وبالآخرة هم يوقنون أى بالبعث والقيامة والجنة والنار والحساب والميزان وانما سميت الآخرة لانها بعد الدنيا وقد اختلف المفسرون فى الموصوفين هنا هل هم الموصوفون

الخروج عن الشئ ذكر معنى هذا الفراء وقد زعم ابن الاعرابى انه لم يسمع قط فى كلام الجاهلية ولا فى شعرهم فاسق وهذا مردود عليه فقد حكى ذلك عن العرب وانه من كلامهم جماعة من أئمة اللغة كابن فارس والجوهرى وابن الانبارى وغيرهم وقد ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم انه قال خمس فواسق الحديث وقال فى الكشاف الفسق الخروج عن القصد ثم قال والفاسق فى الشريعة الخارج عن أمر الله بارتكاب الكبيرة اه وقال القرطبى الفسق فى عرف الاستعمال الشرعى الخروج عن طاعة الله عز وجل فقد يقع على من خرج بكفر وعلى من خرج بعصيان اه وهذا هو أنسب للمعنى اللغوى ولا وجه لقصره على بعض الخارجين دون بعض قال الرازى فى تفسيره واختلف أهل القبلة هل هو مؤمن أو كافر فعند أصحابنا هو مؤمن وعند الخوارج انه كافر وعند المعتزلة انه لا مؤمن ولا كافر واحتج المخالف بقوله بئس الاسم الفسوق بعد الايمان وقوله ان المنافقين هم الفاسقون وقوله حبب اليكم الايمان وزينه فى قلوبكم وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان وهذه المسئلة طويلة مذكورة فى علم الكلام اه (الذين ينقضون عهد الله) النقض افساد ما أبرم من بناء أو حبل أو عهد والنقاضة ما نقض من حبل الشعر وقيل أصل النقض الفسخ وفك المركب والمعنى متقارب والمعنى يتركون ويخالفون واصل العهد حفظ الشئ ومراعاته حالا بعد حال والعهد قيل هو الذى أخذه الله على بنى آدم حين استخرجهم من ظهره وهو قوله ألست بربكم قالوا بلى وقيل هو وصية الله الى خلقه وأمره اياهم بما أمرهم به من طاعته ونهيه اياهم عما نهاهم عنه من معصيته فى كتبه على ألسن رسله ونقضهم ذلك ترك العمل به وقيل بل هو نصب الادلة على وحدانيته بالسموات والارض وسائر مخلوقاته ونقضه ترك النظر فيه وقيل هو ما عهده الى الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس (من بعد ميثاقه) الضمير للعهد أو لله تعالى قاله السمين وعلى الاول مصدر مضاف الى المفعول وعلى الثانى مضاف للفاعل ومن لابتداء الغاية فان ابتداء النقض بعد الميثاق والميثاق العهد المؤكد باليمين مفعال من الوثاقة وهى الشدة فى العقد والربط جميعا والجمع المواثيق والمياثيق واستعمال النقض فى ابطال العهد على سبيل الاستعارة (ويقطعون ما أمر الله به ان يوصل) القطع معروف والمصدر فى الرحم القطيعة واختلفوا ما هو الشئ الذى أمر الله بوصله فقيل الارحام وموالاة المؤمنين وقيل وصل القول بالعمل

بما تقدم من قوله تعالى الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ومن هم على ثلاثة أقوال حكاها ابن جرير أحدها ان الموصوفين أولا هم الموصوفون ثانيا وهم كل مؤمن مؤمنو العرب ومؤمنو أهل الكتاب وغيرهم قاله مجاهد وأبو العالية والربيع بن أنس وقتادة والثانى هما واحد وهم مؤمنو أهل الكتاب وعلى هذين تكون الواو عاطفة صفات على صفات كما قال تعالى سبح اسم ربك الاعلى الذى خلق فسوى والذى قدر فهدى والذى أخرج المرعى فجعله غثاء احوى وكما قال الشاعر
الى الملك القرم وابن الهمام * وليث الكتيبة فى المزدحم
فعطف الصفات بعضها على بعض والموصوف واحد والثالث أن الموصوفين أولا مؤمنو العرب والموصوفون ثانيا بقوله والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون لمؤمنى أهل الكتاب نقله السدى فى تفسيره عن ابن عباس وابن مسعود وأناس من الصحابة واختاره ابن جرير رحمه الله ويستشهد لما قال بقوله تعالى وان من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل اليكم وما أنزل اليهم خاشعين لله الآية وبقوله تعالى الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون واذا يتلى عليهم قالوا آمنا به انه الحق من ربنا انا كنا من قبله مسلمين أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرؤن بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون وبما ثبت فى الصحيحين من حديث الشعبى عن أبى بردة عن أبى موسى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وبى ورجل مملوك أدى حق الله وحق مواليه ورجل أدب جاريته فاحسن تاديبها ثم أعتقها وتزوجها وأما ابن جرير فما استشهد على صحة ما قال الا بمناسبة وهى ان الله وصف فى أول هذه السورة المؤمنين والكافرين فكما انه صنف الكافرين الى صنفين كافر ومنافق فكذلك المؤمنون صنفهم الى صنفين عربى وكتابى (قلت) والظاهر قول مجاهد فيما رواه الثورى عن رجل عن مجاهد ورواه غير واحد عن ابن أبى نجيح عن مجاهد انه قال أربع آيات من أول سورة البقرة فى نعت المؤمنين وآيتان فى نعت الكافرين وثلاثة عشر فى المنافقين فهذه الآيات الاربع عامات فى كل مؤمن اتصف بها من عربى وعجمى وكتابى من انسى وجنى وليس تصح واحدة من هذه الصفات بدون الاخرى بل كل واحدة مستلزمة للاخرى وشرط معها فلا يصح الايمان بالغيب

لزوم الجماعات المفروضة وقيل أمر أن يوصل التصديق بجميع أنبيائه فقطعوه بتصديق بعضهم وتكذيب البعض الآخر وقيل المراد به حفظ شرائعه وحدوده التى أمر فى كتبه المنزلة على ألسن رسله بالمحافظة عليها وقيل سائر ما فيه رفض خيراً وتعاطى شر فانه يقطع الوصلة بين الله وبين عبده فهى عامة وبه قال الجمهور وهو الحق والامر هو القول الطالب للفعل وقيل مع العلو وقيل مع الاستعلاء وبه سمى الامر الذى هو واحد الامور تسمية للمفعول به بالمصدر فانه مما يؤمر به (ويفسدون فى الارض) يعنى بالمعاصى وتعويق الناس عن الايمان بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم والقرآن والاستهزاء بالحق وقطع الوصل التى بها نظام العالم وصلاحه فالمراد بالفساد فى الارض الافعال والاقوال المخالفة لما أمر الله به كعبادة غيره والاضرار بعباده وتغيير ما أمر بحفظه وبالجملة فكل ما خالف الصلاح شرعا أو عقلا فهو فساد وهؤلاء لما استبدلوا النقض بالوفاء والقطع بالوصل كان عملهم فسادا لما نقصوا أنفسهم من الفلاح والربح عن قتادة قال ما نعلم الله أوعد فى ذنب ما أوعد فى نقض هذا الميثاق فمن أعطى عهد الله وميثاقه من ثمرة قلبه فليوف به الله وقد ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى أحاديث ثابتة فى الصحيح وغيره من طريق جماعة من الصحابة النهى عن نقض العهد والوعيد الشديد عليه (أولئك هم الخاسرون) أى المغبونون باهمال العقل عن النظر واقتناص ما يفيدهم الحياة الابدية وأصل الخسار والخسران النقصان والخاسر هو الذى نقص نفسه من الفلاح والفوز قال مقاتل الخاسرون هم أهل النار وقال ابن عباس كل شئ نسبه الله الى غير أهل الاسلام مثل خاسر ومسرف وظالم ومجرم وفاسق فانما يعنى به الكفر وما نسبه الى أهل الاسلام فانما يعنى به الذم (كيف) هو للسؤال عن الاحوال والمراد هنا الاحوال التى يقع عليها الكفر على الطريق البرهانى من العسر واليسر والسفر والاقامة والكبر والصغر والعز والذل وغير ذلك وهذا الاستفهام هو للانكار عليهم والتعجيب من حالهم وفيه تبكيت وتعنيف لهم (تكفرون بالله) بعد نصب الدلائل ووضع البراهين الدالة على وحدانيته والخطاب على طريقة الالتفات ثم ذكر الدلائل فقال (وكنتم أمواتا) يعنى نطفا فى أصلاب آبائكم وعلقا ومضغا (فأحياكم) يعنى فى الارحام بنفخ الروح وفى الدنيا (ثم يميتكم) أى عند انقضاء آجالكم (ثم يحييكم) بالنشور يوم نفخ الصور واختلف المفسرون فى ترتيب هاتين الموتتين

وأقام الصلاة والزكاة الامع الايمان بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم وما جاء به من قبله من الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين والايقان بالآخرة كما ان هذا لا يصح الا بهذا وقد أمر الله المؤمنين بذلك كما قال يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل الآية وقال تعالى ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن الا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذى أنزل الينا وأنزل اليكم والهنا والهكم واحد الآية وقال تعالى يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم وقال تعالى قل يا أهل الكتاب (٧٦) لستم على شئ حتى تقيموا التوراة والانجيل وما أنزل اليكم من ربكم وأخبر تعالى عن المؤمنين كلهم بذلك فقال تعالى آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقال تعالى والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم الى غير ذلك من الآيات الدالة على جميع أمر المؤمنين بالايمان بالله ورسله وكتبه لكن لمؤمنى أهل الكتاب خصوصية وذلك انهم يؤمنون بما بأيديهم مفصلا فاذا دخلوا فى الاسلام وآمنوا به مفصلا كان لهم على ذلك الاجر مرتين وأما غيرهم فانما يحصل له الايمان بما تقدم مجملا كما جاء فى الصحيح اذا حدثكم أهل الكتاب فلا تكذبوهم ولا تصدقوهم ولكن قولوا آمنا بالذى أنزل الينا وأنزل اليكم ولكن قد يكون ايمان كثير من العرب بالاسلام الذى بعث به محمد صلى الله عليه وسلم أتم وأكمل وأعم وأشمل من ايمان من دخل منهم فى الاسلام فهم وان حصل لهم أجران من تلك الحيثية فغيرهم يحصل له من التصديق ما ينيف ثوابه على الاجرين اللذين حصلا لهم والله أعلم (أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) يقول تعالى أولئك أى المتصفون بما تقدم من الايمان بالغيب وأقام الصلاة والانفاق من الذى رزقهم الله والايمان بما أنزل الى الرسول ومن قبله من الرسل والايقان بالدار الآخرة وهو مستلزم الاستعداد لها من الاعمال الصالحة وترك المحرمات على هدى أى على نور وبيان وبصيرة من الله تعالى وأولئك هم المفلحون أى فى الدنيا والآخرة وقال محمد بن اسحق عن محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس أولئك على هدى من ربهم أى على نور من ربهم واستقامة على ما جاءهم به وأولئك هم المفلحون أى الذين أدركوا ما طلبوا ونجوا من شر ما منه هربوا

والحياتين والحاصل ان المراد بالموت الاول العدم السابق وبالحياة الاولى الخلق وبالموت الثانى الموت المعهود وبالحياة الثانية الحياة للبعث فجاءت الفاء وثم على بابيهما من التعقيب والتراخى على هذا التفسير وهو أحسن الاقوال وقد ذهب الى هذا جماعة من الصحابة فمن بعدهم قال ابن عطية وهذا القول هو المراد بالآية وهو الذى لا محيد للكفار عنه واذا أذعنت نفوس الكفار بكونهم كانوا معدومين ثم احياء فى الدنيا ثم أمواتا فيها لزمهم الاقرار بالحياة الاخرى قال غيره والحياة التى تكون فى القبر على هذا التأويل فى حكم حياة الدنيا وقيل ان المراد كنتم أمواتا فى ظهر آدم عليه السلام ثم أخرجكم من ظهره كالذر ثم يميتكم موت الدنيا ثم يبعثكم وقيل كنتم أمواتا أى نطفا فى اصلاب الرجال ثم يحييكم حياة الدنيا ثم يميتكم بعد هذه الحياة ثم يحييكم فى القبور ثم يميتكم فيها ثم يحييكم الحياة التى ليس بعدها موت قال القرطبى فعلى هذا التأويل هى ثلاث موتات وثلاث احياآت وكونهم موتى فى ظهر آدم واخراجهم من ظهره والشهادة عليهم غير كونهم نطفا فى أصلاب الرجال فعلى هذا يجئ أربع موتات وأربع احياآت وقد قيل ان الله أوجدهم قبل خلق آدم كالهباء وأماتهم فيكون على هذا خمس موتات وخمس احياآت وموتة سادسة للعصاة من أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم كما ورد فى الحديث ولكن ناسا أصابتهم النار بذنوبهم فاماتهم الله اماتة حتى اذا كانوا فحما أذن فى الشفاعة فجئ بهم الى أن قال فينبتون نبات الحبة فى حميل السيل وهو فى الصحيح من حديث أبى سعيد (ثم اليه ترجعون) أى تردون فى الآخرة الى الله سبحانه فيجازيكم بأعمالكم قال فى الكشاف عطف الاول بالفاء وما بعده بثم لان الاحياء الاول قد تعقب الموت بغير تراخ وأما الموت فقد تراخى عن الاحياء والاحياء الثانى كذلك متراخ عن الموت ان أريد به النشور تراخيا ظاهرا وان أريد به احياء القبر فمنه يكتسب العلم بتراخيه والرجوع الى الجزاء أيضا متراخ عن النشور انتهى ولا يخفاك انه ان أراد بقوله ان الاحياء الاول قد تعقب الموت انه وقع على ما هو متصف بالموت فالموت الآخر وقع على ما هو متصف بالحياة وان أراد انه وقع الاحياء الاول عند أول اتصافه بالموت بخلاف الثانى فغير مسلم فانه وقع عند آخر أوقات موته كما وقع الثانى عند آخر أوقات حياته فتأمل هذا وقد أخرج ابن جرير عن ابن مسعود وناس من الصحابة قال لم تكونوا شيأ فخلقكم ثم يميتكم ثم يحييكم يوم القيامة (هو الذى خلق

لكم مافي الارض) قال ابن كيسان أي خلق من أجلكم مافيها من المعادن والنبات والحيوان والجبال والبحار لتنتفعوا به في مصالح الدين والدنيا أما الدين فهو الاعتبار والتفكر في عجائب مخلوقات الله الدالة على وحدانيته وأما الدنيا فهو الانتفاع بما خلق فيها وقيل اللام للاختصاص وقيل للملك والاباحة وفيه دليل على ان الاصل في الاشياء المخلوقة الاباحة حتى يقوم دليل يدل على النقل عن هذا الاصل ولا فرق بين الحيوانات وغيرها مما ينتفع به من غير ضرر وفي التأكيد بقوله (جميعا) أقوى دلالة على هذا وقد استدل بهذه الآية على تحريم أكل الطين لانه تعالى خلق لنا مافي الارض دون نفس الارض وقال الرازي في تفسيره ان لقائل ان يقول ان في جملة الارض ما يطلق عليه انه في الارض فيكون جامعا للوصفين ولا شك ان المعادن داخلة في ذلك وكذلك عروق الارض وما يجري مجرى البعض لها ولأن تخصيص الشيء بالذكر لا يدل على نفي الحكم عما عداه اه وقد ذكر صاحب الكشاف ماهو أوضح من هذا فقال فان قلت هل لقول من زعم ان المعنى خلق لكم الارض ومافيها وجه صحة قلت ان أراد بالارض الجهات السفلية دون الغبراء كما تذكر السماء وتراد الجهات العلوية جاز ذلك فان الغبراء ومافيها واقعة في الجهات السفلية اه وأما التراب فقد ورد في السنة تحريمه وهو أيضا ضار ليس مما ينتفع به أكلا ولكنه ينتفع به في منافع أخرى وليس المراد منفعة خاصة كمنفعة الاكل بل كل ما يصدق عليه انه ينتفع به بوجه من الوجوه وأما السم القاتل ففيه نفع لاجل دفع الحيوانات المؤذية وقتلها فلا يرد انه لا نفع فيه (ثم استوى الى السماء) أي قصد وأقبل على خلقها وقيل عمد وقال ابن عباس ارتفع وقال الازهري صعد أمره وكذا ذكره صاحب المحكم وذلك ان الله خلق الارض أولا ثم عمد الى خلق السماء وأصل ثم يقتضي تراخيا زمانيا ولا زمان هنا فقيل هي اشارة الى التراخي بين رتبتي خلق الارض والسماء قاله القرطبي والاستواء في اللغة الاعتدال والانتصاب والاستقامة وضده الاعوجاج قاله في الكشاف والرازي ويطلق على الارتفاع والعلو على الشيء قال تعالى فاذا استويت أنت ومن معك على الفلك وقال لتستووا على ظهوره وهذا المعنى هو المناسب لهذه الآية وقد قيل ان هذه الآية من المشكلات وقد ذهب كثير من الائمة الى الايمان بها وترك التعرض لتفسيرها وخالفهم آخرون وقد استدل بقوله ثم استوى على ان خلق الارض

وقال ابن جرير وأما معنى قوله تعالى أولئك على هدى من ربهم فان معنى ذلك فانهم على نور من ربهم وبرهان واستقامة وسداد بتسديد الله اياهم وتوفيقه لهم وتأويل قوله تعالى وأولئك هم المفلحون أي المنجحون المدركون ما طلبوا عند الله بأعمالهم وايمانهم بالله وكتبه ورسله من الفوز بالثواب والخلود في الجنات والنجاة مما أعد الله لاعدائه من العقاب وقد حكى ابن جرير قولا عن بعضهم انه أعاد اسم الاشارة في قوله تعالى أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون الى مؤمني أهل الكتاب الموصوفين بقوله تعالى والذين يؤمنون بما أنزل اليك الآية على ما تقدم من الخلاف وعلى هذا فيجوز (٧٧) ان يكون قوله تعالى والذين يؤمنون بما أنزل اليك منقطعا مما قبله وان يكون مرفوعا على الابتداء وخبره أولئك هم المفلحون واختار انه عائد الى جميع من تقدم ذكره من مؤمني العرب وأهل الكتاب لما رواه السدي عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أما الذين يؤمنون بالغيب فهم المؤمنون من العرب والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك هم المؤمنون من أهل الكتاب ثم جمع الفريقين فقال أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون وقد تقدم من الترجيح ان ذلك صفة للمؤمنين عامة والاشارة عائدة عليهم والله أعلم وقد نقل عن مجاهد وأبي العالية والربيع ابن أنس وقتادة رحمهم الله وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا يحيى بن عثمان بن صالح المصري حدثنا أبي حدثنا ابن لهيعة حدثني عبيد الله بن المغيرة عن أبي الهيثم واسمه سليمان ابن عبد الله عن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم وقيل له يارسول الله انا نقرأ من القرآن فنرجو ونقرأ من القرآن فنكاد أن نيأس أو كما قال قال أفلا أخبركم عن أهل الجنة وأهل النار قالوا بلى يارسول الله قال الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الى قوله تعالى المفلحون هؤلاء أهل الجنة قالوا انا نرجو أن نكون هؤلاء ثم قال ان الذين كفروا سواء عليهم الى قوله عظيم هؤلاء أهل النار قالوا لسنا هم يارسول الله قال أجل (ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون) يقول تعالى ان الذين كفروا أي غطوا الحق وستروه وقد كتب الله تعالى عليهم ذلك سواء عليهم انذارك وعدمه فانهم لا يؤمنون بما جئتهم به كما قال تعالى ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى

يروا العذاب الاليم وقال تعالى فى حق المعاندين من أهل الكتاب ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك الآية أى ان من كتب الله عليه الشقاوة فلا مسعد له ومن أضله فلا هادى له فلا تذهب نفسك عليهم حسرات وبلغهم الرسالة فمن استجاب لك فله الحظ الاوفر ومن تولى فلا تحزن عليهم ولا يهمنك ذلك فانما عليك البلاغ وعلينا الحساب انما انت نذير والله على كل شئ وكيل وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله تعالى ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرص ان يؤمن جميع

الناس ويتابعوه على الهدى فأخبره الله تعالى انه لا يؤمن الا من سبق له من الله السعادة فى الذكر الاول ولا يضل الا من سبق له من الله الشقاوة فى الذكر الاول وقال محمد ابن اسحق حدثنى محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس ان الذين كفروا أى بما أنزل اليك وان قالوا انا قد آمنا بما جاءنا قبلك سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون أى أنهم قد كفروا بما عندهم من ذكرك وجحدوا ما أخذ عليهم من الميثاق وقد كفروا بما جاءك وبما عندهم مما جاءهم به غيرك فكيف يسمعون منك انذارا وتحذيرا وقد كفروا بما عندهم من علمك وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية قال نزلت هاتان الآيتان فى قادة الاحزاب وهم الذين قال الله فيهم ألم تر الى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها والمعنى الذى ذكرناه أولا وهو المروى عن ابن عباس فى رواية على بن أبى طلحة أظهر ويفسر ببقية الآيات التى فى معناها والله أعلم وقد ذكر ابن أبى حاتم ههنا حديثا فقال حدثنا أبى حدثنا يحيى بن عثمان بن صالح المصرى حدثنا أبى حدثنا ابن لهيعة حدثنى عبد الله بن المغيرة عن أبى الهيثم عن عبد الله بن عمرو قال قيل يا رسول الله انا نقرأ من القرآن فنرجو ونقرأ فنكاد أن نيأس فقال ألا أخبركم ثم قال ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون هؤلاء أهل النار قالوا لسنا منهم يا رسول الله قال أجل وقوله تعالى لا يؤمنون محله من الاعراب انه جملة مؤكدة للتى قبلها سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون أى هم كفار فى كلا الحالين فلهذا أكد ذلك بقوله تعالى لا يؤمنون ويحتمل أن يكون لا يؤمنون خبرا لان تقديره ان الذين كفروا لا يؤمنون ويكون قوله تعالى سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم

متقدم على خلق السماء وكذلك الآية التى فى حم السجدة وقال تعالى فى النازعات أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها فوصف خلقها ثم قال والارض بعد ذلك دحاها فكأن السماء على هذا خلقت قبل الارض وكذلك قوله تعالى الحمد لله الذى خلق السموات والارض وقد قيل ان خلق جرم الارض متقدم على السماء ودحوها متأخر وقد ذكر نحو هذا جماعة من أهل العلم وهذا جمع جيد لابد من المصير اليه ولكن خلق ما فى الارض لا يكون الا بعد الدحو والآية المذكورة هنا دلت على انه خلق ما فى الارض قبل خلق السماء وهذا يقتضى بقاء الاشكال وعدم التخلص عنه بمثل هذا الجمع قاله الشوكانى قلت ذكر رحمه الله فى السورتين المذكورتين ان ثم للتراخى الرتبى لا للتراخى الزمانى أو ان بعد بمعنى مع كما فى قوله عتل بعد ذلك زنيم أو انها بمعنى قبل كقوله ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أى من قبل الذكر فيزول ما ذكره رحمه الله تعالى من بقاء الاشكال وقال الفراء الاستواء فى كلام العرب على وجهين أحدهما ان يستوى الرجل وينتهى شبابه وقوته أو يستوى من اعوجاج وقال البيهقى الاستواء بمعنى الاقبال صحيح لان الاقبال هو القصد والقصد هو الارادة وذلك جائز فى صفات الله وقال سفيان بن عيينة أى قصد اليها وقيل علا دون تكييف ولا تحديد واختاره الطبرى وقال أبو العالية استوى ارتفع وقال قتادة ان السماء خلقت أولا حكاه عنه الطبرى والبحث فى ذلك يطول وقد استوفاه الرازى فى تفسيره وأجاب عنه بوجوه ثم قال الجواب الصحيح ان قوله ثم ليس للترتيب ههنا وانما هو على جهة تعديد النعم والله أعلم (فسواهن) أى عدل خلقهن فلا اعوجاج فيه ولا فطور وقيل معناه سوى سطوحهن بالاملاس وقيل جعلهن سواء (سبع سموات) مستويات لا صدع فيها ولا فطور وفى هذا التصريح بان السموات سبع وأما الارض فلم يأت فى ذكر عددها الا قوله تعالى ومن الارض مثلهن فقيل فى العدد وقيل فى غلظهن وما بينهن وقال الماوردى ان الارض سبع ولكن لم يشق بعضها من بعض والصحيح انها سبع كالسموات وعلى انها سبع أرضين متفاصلة بعضها فوق بعض تختص دعوة الاسلام بأهل الارض العليا ولا تلزم من فى غيرها من الارضين وان كان فيها من يعقل من خلق مميز وفى مشاهدتهم السماء واستمدادهم الضوء منها قولان أحدهما انهم يشاهدون السماء من كل جانب من أرضهم ويستمدون الضياء منها وهذا قول من جعل الارض مبسوطة والثانى انهم لا يشاهدون

السماء

لا يؤمنون جملة معترضة والله أعلم (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم) قال السدى ختم
الله أى طبع الله وقال قتادة فى هذه الآية استحوذ عليهم الشيطان اذ أطاعوه فختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم
غشاوة فهم لا يبصرون هدى ولا يسمعون ولا يفقهون ولا يعقلون وقال ابن جريج قال مجاهد ختم الله على قلوبهم قال الطبع
ثبتت الذنوب على القلب فحفت به من كل نواحيه حتى تلتقى عليه فالتقاؤها عليه الطبع والطبع الختم قال ابن جريج الختم
على القلب والسمع قال ابن جريج وحدثنى عبد الله بن كثير أنه سمع مجاهدا يقول الران أيسر من الطبع والطبع
أيسر من الاقفال والاقفال أشد
من ذلك كله وقال الاعمش أرانا
مجاهد بيده فقال كانوا يرون أن
القلب فى مثل هذه يعنى الكف
فاذا أذنب العبد ذنبا ضم منه وقال
باصبعه الخنصر هكذا فاذا أذنب
ضم وقال باصبع أخرى فاذا
أذنب ضم وقال باصبع أخرى
هكذا حتى ضم أصابعه كلها ثم قال
يطبع عليه بطابع وقال مجاهد
كانوا يرون ان ذلك الرين ورواه ابن
جرير عن أبى كريب عن وكيع عن
الاعمش عن مجاهد بنحوه قال ابن
جرير وقال بعضهم انما معنى قوله
تعالى ختم الله على قلوبهم اخبار
من الله عن تكبرهم واعراضهم عن
الاستماع لما دعوا اليه من الحق كما
يقال ان فلانا أصم عن هذا
الكلام اذا امتنع من سماعه ورفع
نفسه عن تفهمه تكبرا قال
وهذا لا يصح لان الله تعالى قد أخبر
انه هو الذى ختم على قلوبهم
واسماعهم قلت وقد أطنب
الزمخشرى فى تقرير ما رده ابن جرير
ههنا وتأول الآية من خمسة أوجه
وكلها ضعيفة جدا وما جرأه على
ذلك الا اعتزاله لان الختم على قلوبهم ومنعها من وصول الحق اليها قبيح عنده يتعالى الله عنه فى اعتقاده ولو فهم قوله تعالى فلما
زاغوا أزاغ الله قلوبهم وقوله ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون وما أشبه ذلك من
الآيات الدالة على انه تعالى انما ختم على قلوبهم وحال بينهم وبين الهدى جزاء وفاقا على تماديهم فى الباطل وتركهم الحق وهذا
عدل منه تعالى حسن وليس بقبيح فلو أحاط علما بهذا لما قال ما قال والله أعلم قال القرطبى وأجمعت الامة على ان الله عز وجل قد
وصف نفسه بالختم والطبع على قلوب الكافرين مجازاة لكفرهم كما قال بل طبع الله عليها بكفرهم وذكر حديث تقلب القلوب

السماء فان الله تعالى خلق لهم ضياء يستمدون منه وهذا قول من جعل الارض كرية وفى
الآية قول ثالث حكاه الطيبى عن أبى صالح عن ابن عباس انها سبع أرضين منبسطة ليس
بعضها فوق بعض تفرق بينها البحار وتظل جميعها السماء انتهى وسيأتى تحقيق ما هو الحق
فى آخر سورة الطلاق ان شاء الله تعالى وقد ثبت فى الصحيح قوله صلى الله عليه وآله وسلم من
أخذ من الارض شبرا ظلما طوقه الله من سبع أرضين وهو ثابت من حديث عائشة وسعيد
ابن زيد وقد أطنب الرازى فى تفسيره فى بيان السموات هل هى سبع أو تسع وذكر مذاهب
الحكماء فى ذلك وأجابهم بوجوه ثم قال اعلم ان هذا الخبط مما ينبهك على انه لا سبيل للعقول
البشرية الى ادراك هذه الاشياء وانه لا يحيط بها الا علم فاطرها وخالقها فوجب الاقتصار
فيه على الدلائل السمعية فان قال قائل فهل يدل التنصيص على سبع سموات على نفى
العدد الزائد قلنا الحق ان تخصيص العدد بالذكر لا يدل على نفى الزائد انتهى وفى هذا اشارة
الى ما ذكره الحكماء من الزيادة على السبع ونحن نقول انه لم يأتنا عن الله ولا عن رسوله الا
السبع فنقتصر على ذلك ولا نعمل بالزيادة الا اذا جاءت من طريق الشرع ولم يأت شىء من
ذلك عن ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة فى هذه الآية قالوا ان الله كان عرشه
على الماء ولم يخلق شيأ قبل الماء فلما أراد أن يخلق الخلق أخرج من الماء دخانا فارتفع فوق
الماء فسما عليه فسماه سماء ثم أيبس الماء فجعله أرضا واحدة ثم فتقها سبع أرضين فى
يومين الاحد والاثنين فخلق الارض على حوت وهو الذى ذكره فى قوله ن والقلم والحوت
قائم على ظهر صفاة والصفاة على ظهر ملك والملك على صخرة والصخرة فى الريح وهى الصخرة
التى ذكر لقمان ليست فى السماء ولا فى الارض فتحرك الحوت فاضطرب فتزلزلت الارض
فارسى عليها الجبال فقرت فذلك قوله تعالى وجعل لها رواسى أن تميد بكم وخلق الجبال
فيها وأقوات أهلها وشجرها وما ينبغى لها فى يومين فى الثلاثاء والاربعاء وذلك قوله أئنكم
لتكفرون بالذى خلق الارض الى قوله وبارك فيها يقول أنبت شجرها فيها وقدر فيها أقواتها
يقول أقوات أهلها فى أربعة أيام سواء للسائلين يقول من سأل فهكذا الامر ثم استوى الى
السماء وهى دخان وكان ذلك الدخان من تنفس الماء حين تنفس فجعلها سماء واحدة ثم
فتقها فجعلها سبع سموات فى يومين فى الخميس والجمعة وانما سمى يوم الجمعة لانه جمع فيه
خلق السموات والارض وأوحى فى كل سماء أمرها قال خلق فى كل سماء خلقها من

ويا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك وذكر حديث حذيفة الذى فى الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودا عودا فأى قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء وأى قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين على أبيض مثل الصفاء فلا تضره فتنة مادامت السموات والارض والآخر أسود مربادا كالكوز مجخيا لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا الحديث قال ابن جرير والحق عندى فى ذلك ما صح بنظيره الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ما حدثنا به محمد بن بشار حدثنا صفوان بن عيسى حدثنا ابن عجلان (٨٠) عن القعقاع عن أبى صالح عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان المؤمن اذا أذنب ذنبا كانت نكتة سوداء فى قلبه فان تاب ونزع واستعتب صقل قلبه وان زاد زادت حتى تعلو قلبه فذلك الران الذى قال الله تعالى كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون هذا الحديث من هذا الوجه قد رواه الترمذى والنسائى عن قتيبة والليث بن سعد وابن ماجه عن هشام بن عمار عن حاتم ابن اسمعيل والوليد بن مسلم ثلاثتهم عن محمد بن عجلان به وقال الترمذى حسن صحيح ثم قال ابن جرير فاخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الذنوب اذا تتابعت على القلوب أغلقتها واذا أغلقتها أتاها حينئذ الختم من قبل الله تعالى والطبع فلا يكون للايمان اليها مسلك ولا للكفر عنها مخلص فذلك هو الختم والطبع الذى ذكر فى قوله تعالى ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم نظير الختم والطبع على ما تدركه الابصار من الاوعية والظروف التى لا يوصل الى ما فيها الا بفض ذلك عنها ثم حلها فكذلك لا يصل الايمان الى قلوب من وصف الله انه ختم على قلوبهم وعلى سمعهم الا بعد فض خاتمه وحل رباطه عنها واعلم ان الوقف التام على قوله تعالى ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وقوله وعلى أبصارهم غشاوة جملة تامة فان الطبع يكون على القلب وعلى السمع والغشاوة وهى الغطاء الذى يكون على البصر كما قال السدى فى تفسيره عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمدانى عن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم يقول فلا يعقلون ولا يسمعون يقول وجعل على أبصارهم غشاوة يقول على أعينهم فلا يبصرون وقال ابن جرير حدثنى محمد بن سعد حدثنا أبى حدثنى عمى الحسين بن

الملائكة والخلق الذى فيها من البحار وجبال البرد وما لا يعلم ثم زين السماء الدنيا بالكواكب فجعلها زينة وحفظا من الشياطين فلما فرغ من خلق ما أحب استوى على العرش أخرجه البيهقى وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن جرير وقد ثبت عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم من حديث أبى هريرة فى الصحيح قال أخذ النبى صلى الله عليه وآله وسلم بيدى فقال خلق الله التربة يوم السبت وخلق فيها الجبال يوم الاحد وخلق الشجر يوم الاثنين وخلق المكروه يوم الثلاثاء وخلق النور يوم الاربعاء وبث فيها الدواب يوم الخميس وخلق آدم يوم الجمعة بعد العصر وقد ثبت عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم من طرق عند أهل السنن وغيرهم عن جماعة من الصحابة أحاديث فى وصف السموات وان غلظ كل سماء مسيرة خمسمائة عام وما بين كل سماء الى سماء خمسمائة عام وانها سبع سموات وان الارض سبع أرضين ولم يات فى التنزيل ولا فى السنة المطهرة تصريح بان فيهن من يعقل من العوالم والاوادم وأنبيائهم والآثار من الصحابة ومن بعدهم ان جاءت بسند صحيح لا تصلح للاحتجاج على ذلك فكيف بما لم يصح سنده أو صح ولكن لم يتابع عليه أو توبع ولكن لم يساعده نص من الله ورسوله وكذلك ثبت فى وصف السماء آثار من جماعة من الصحابة وقد ذكر السيوطى فى الدر المنثور بعض ذلك فى تفسير هذه الآية وانما تركت ذكره هنا لكونه غير متعلق بهذه الآية على الخصوص بل هو متعلق بما هو أعم منها (وهو بكل شئ عليم) أى يعلم الجزئيات كما يعلم الكليات وانما أثبت سبحانه لنفسه العلم بكل شئ لانه يجب ان يكون عالما بجميع ما ثبت انه خالقه (واذ قال ربك) أى واذكر يا محمد اذ قال وكل ما ورد فى القرآن من هذا النحو فهذا سبيله وقيل اذ زائدة والاول أوجه (للملائكة) جمع ملك بوزن فعل قاله ابن كيسان وقيل جمع ملأك بوزن مفعل قاله أبو عبيدة وأراد بالملائكة الذين كانوا فى الارض وذلك ان الله تعالى خلق الارض وأسكن فيها الجن وأسكن فى السماء الملائكة فافسدت الجن فى الارض فبعث اليهم طائفة من الملائكة فطردتهم الى جزائر البحار ورؤس الجبال وأقاموا مكانهم وقيل القول لمطلق الملائكة وكان ذلك تعليما للمشاورة وتعظيما لآدم وبيانا لكون الحكمة تقتضى ايجاد ما يغلب خيره على شره واللام فى للملائكة للتبليغ وهو أحد المعانى التى جاءت لها اللام (انى جاعل فى الارض خليفة) أى خالق بدلا منكم ورافعكم الى وجاعل هنا من جعل المتعدى الى مفعولين وذكر

المطرزى

الحسن عن أبيه عن جده عن ابن عباس ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم والغشاوة على أبصارهم قال وحدثنا القاسم حدثنا الحسين يعني ابن داود وهو سنيد حدثني حجاج هو ابن محمد الاعور حدثني ابن جريج قال الختم على القلب والسمع والغشاوة على البصر قال الله تعالى فان يشا الله يختم على قلبك وقال وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة قال ابن جرير ومن نصب غشاوة من قوله تعالى وعلى أبصارهم غشاوة يحتمل انه نصبها باضمار فعل تقديره وجعل على ابصارهم غشاوة ويحتمل ان يكون نصبها على الاتباع على محل وعلى سمعهم كقوله تعالى وحور عين وقول الشاعر (٨١) علفتها تبنا وماء باردا * حتى شتت همالة عيناها وقال الآخر

ورأيت زوجك في الوغا
متقلدا سيفا ورمحا

تقديره وسقيتها ماء باردا ومعتقلا رمحا * لما تقدم وصف المؤمنين في صدر السورة باربع آيات ثم عرف حال الكافرين بهاتين الآيتين شرع تعالى في بيان حال المنافقين الذين يظهرون الايمان ويبطنون الكفر ولما كان أمرهم يشتبه على كثير من الناس أطنب في ذكرهم بصفات متعددة كل منها نفاق كما أنزل سورة براءة فيهم وسورة المنافقين فيهم وذكرهم في سورة النور وغيرها من السور تعريفا لاحوالهم لتجتنب ويجتنب من تلبس بها أيضا فقال تعالى (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وماهم بمؤمنين يخادعون الله والذين آمنوا ومايخدعون الا أنفسهم ومايشعرون) النفاق هو اظهار الخير واسرار الشر وهو أنواع اعتقادي وهو الذي يخلد صاحبه في النار وعملي وهو من أكبر الذنوب كما سيأتي تفصيله في موضعه ان شاء الله تعالى وهذا كما

قال ابن جريج المنافق يخالف قوله فعله وسره علانيته ومدخله مخرجه ومشهده مغيبه وانما نزلت صفات المنافقين في السور المدنية لان مكة لم يكن فيها نفاق بل كان خلافه من الناس من كان يظهر الكفر مستكرها وهو في الباطن مؤمن فلما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المدينة وكان بها الانصار من الاوس والخزرج وكانوا في جاهليتهم يعبدون الاصنام على طريقة مشركي العرب وبها اليهود من أهل الكتاب على طريقة اسلافهم وكانوا ثلاث قبائل بنو قينقاع حلفاء الخزرج وبنو النضير وبنو قريظة حلفاء الاوس فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وأسلم من أسلم من الانصار من قبيلتي الاوس

المازري انه بمعنى الخالق وذلك يقتضي انه متعد الى مفعول واحد وصيغة اسم الفاعل بمعنى المستقبل والارض هنا هي هذه الغبراء ولا يختص ذلك بمكان دون مكان وقيل انها مكة كما ورد في مرسل ضعيف وقال ابن كثير انه مدرج والخليفة هنا معناه الخالف لمن كان قبله من الملائكة ويجوز ان يكون بمعنى المخلوف أي يخلفه غيره قيل هو آدم كما دل عليه السياق وقيل كل من له خلافة في الارض ويقوي الاول قوله خليفة دون الخلائف واستغنى بذكر آدم عن ذكر من بعده والصحيح أنه انما سمي خليفة لانه خليفة الله في أرضه لاقامة حدوده وتنفيذ قضاياه قيل خاطب الله الملائكة بهذا الخطاب لا للمشورة ولكن لاستخراج ماعندهم قيل وفيه ارشاد عباده الى المشاورة وان الحكمة تقتضي اتخاذ مايغلب خيره وان كان فيه نوع شر وانه لا رأي مع وجود النص وهو أصل في المسائل التعبدية قال بعض المفسرين ان في الكلام حذفا والتقدير اني جاعل في الارض خليفة يفعل كذا وكذا فكرهوا ذلك و(قالوا) أي استكشافا عما خفي عليهم من الحكمة الباهرة وليس باعتراض على الله ولا طعن في بني آدم على وجه الغيبة فانهم أعلى من أن يظن بهم ذلك لقوله بل عباد مكرمون وانما عرفوا ذلك باخبار من الله أو تلق من اللوح المحفوظ أو قياس لاحد الثقلين على الآخر (أتجعل فيها من يفسد فيها) بالمعاصي بمقتضى القوة الشهوانية والفساد ضد الصلاح (ويسفك الدماء) بغير حق بمقتضى القوة الغضبية كما فعل الجن وسفك الدم صبه قاله ابن فارس والجوهري والمهدوي ولا يستعمل السفك الا في الدم (ونحن نسبح) أي نقول سبحان الله وبحمده وهي صلاة الخلق وعليها يرزقون عن أبي ذر أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سئل أي الكلام أفضل قال ما اصطفى الله للملائكة أو لعباده سبحان الله وبحمده أخرجه مسلم وقال ابن عباس كل ماجاء في القرآن من التسبيح فالمراد منه الصلاة فيكون المعنى ونحن نصلي لك وأصل التسبيح في كلام العرب التنزيه والتبعيد من السوء على وجه التعظيم فيكون المعنى ونحن ننزهك عن كل سوء ونقيصة (بحمدك) أي حامدين لك أو متلبسين بحمدك فانه لولا انعامك علينا بالتوفيق لم نتمكن من ذلك (ونقدس لك) وأصل التقديس التطهير أي ونطهرك عن النقائص وعن كل مالا يليق بك من سوء ومما نسبه اليك الملحدون وافتراه الجاحدون وذكر في الكشاف ان معنى التسبيح والتقديس واحد وهو تبعيد الله من السوء وفي القاموس وغيره من

والخزرج وقل من أسلم من اليهود الا عبد الله بن سلام رضى الله عنه ولم يكن اذ ذاك نفاق أيضا لانه لم يكن للمسلمين بعد شوكة تخاف
بل قد كان عليه الصلاة والسلام وادع اليهود وقبائل كثيرة من أحياء العرب حوالى المدينة فلما كانت وقعة بدر العظمى وأظهر الله
كلمته وأعز الاسلام وأهله قال عبد الله بن أبي بن سلول وكان رأسا فى المدينة وهو من الخزرج وكان سيد الطائفتين فى الجاهلية
وكانوا قد عزموا على ان يملكوه عليهم فجاءهم الخير وأسلموا واشتغلوا عنه فبقى فى نفسه من الاسلام وأهله فلما كانت وقعة بدر قال
هذا أمر قد توجه فاظهر الدخول فى الاسلام (٨٢) ودخل معه طوائف ممن هو على طريقته ونحلته وآخرون من أهل الكتاب
فمن ثم وجد النفاق فى أهل المدينة ومن حولها من الاعراب فاما المهاجرون فلم يكن فيهم أحد هاجر لانه لم يكن أحد يهاجر مكرها بل يهاجر فيترك ماله وولده وأرضه رغبة فيما عند الله فى الدار الآخرة قال محمد بن اسحق حدثنى محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وماهم بمؤمنين يعنى المنافقين من الاوس والخزرج ومن كان على أمرهم وكذا فسرها بالمنافقين من الاوس والخزرج أبو العالية والحسن وقتادة والسدى ولهذا نبه الله سبحانه على صفات المنافقين لئلا يغتر بظاهر أمرهم المؤمنون فيقع بذلك فساد عريض من عدم الاحتراز منهم ومن اعتقاد ايمانهم وهم كفار فى نفس الامر وهذا من المحذورات الكبار أن يظن بأهل الفجور خير فقال تعالى ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وماهم بمؤمنين أى يقولون ذلك قولا ليس وراءه شئ آخر كما قال تعالى اذا جاءك المنافقون قالوا نشهد انك
لرسول الله والله يعلم انك لرسوله أى انما يقولون ذلك اذا جاؤك فقط لا فى نفس الامر ولهذا يؤكدون فى الشهادة ذلك
بان ولام التأكيد فى خبرها أكدوا أمرهم قالوا آمنا بالله وباليوم الآخر وليس الامر كذلك كما كذبهم الله فى شهادتهم وفى خبرهم
هذا بالنسبة الى اعتقادهم بقوله تعالى والله يشهد ان المنافقين لكاذبون وبقوله وماهم بمؤمنين وقوله تعالى يخادعون الله والذين
آمنوا أى باظهارهم ما أظهروه من الايمان مع اسرارهم الكفر يعتقدون بجهلهم انهم يخدعون الله بذلك وان ذلك نافعهم عنده
وانه يروج عليه كما قد يروج على بعض المؤمنين كما قال تعالى يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون انهم على

كتب اللغة ما يرشد الى ما ذكرناه والتأسيس خير من التأكيد خصوصا فى كلام الله سبحانه
وقيل معناه نطهر أنفسنا لطاعتك وعبادتك والاول أولى وعن ابن مسعود وناس من
الصحابة نقدس لك أى نصلى لك وقال مجاهد نعظمك ونكبرك واللام زائدة والجملة حال أى
فنحن أحق بالاستخلاف ولما كان سؤالهم واقعا على صفة تستلزم اثبات شئ من العلم
لانفسهم أجاب الله سبحانه عليهم فقال انى أعلم ما لا تعلمون وفى هذا الاجمال ما يغنى عن
التفصيل لان من علم ما لا يعلم المخاطب له كان حقيقا بان يسلم له ما يصدر عنه وعلى من
لا يعرف أن يعترف لمن يعلم بان أفعاله صادرة على ما يوجبه العلم وتقتضيه المصلحة الراجحة
والحكمة البالغة ولم يذكر متعلق قوله تعلمون ليفيد التعميم ويذهب السامع عند ذلك كل
مذهب ويعترف بالعجز ويقر بالقصور عن ابن عباس قال ان الله أخرج آدم من الجنة قبل
ان يخلقه قال وقد كان فيها أى فى الارض قبل ان يخلق بالفى عام الجن بنو الجان فأفسدوا
فى الارض وسفكوا الدماء فلما أفسدوا فى الارض بعث الله عليهم جنودا من الملائكة
فضربوهم حتى ألحقوهم بجزائر البحور فلما قال انى جاعل فى الارض خليفة قالوا أتجعل
فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء كما فعل أولئك الجان فقال انى أعلم ما لا تعلمون أخرجه
الحاكم وصححه عنه وفى الباب آثار من الصحابة كثيرة وعن قتادة كان فى علم الله انه
سيكون من الخليفة أنبياء ورسل وقوم صالحون وساكنوا الجنة وقيل أعلم انهم يذنبون
ويستغفرون فاغفر لهم وقيل أعلم من وجود المصلحة والحكمة ما لا تعلمون أنتم وقد ثبت
فى كتب الحديث المعتبرة أحاديث من طريق جماعة من الصحابة فى صفة خلقه سبحانه لآدم
وهى موجودة فلا نطول بذكرها قيل خاطبهم بذلك لاجل ان يصدر منهم ذلك السؤال
فيجابون بذلك الجواب وقيل لاجل تعليم عباده مشروعية المشاورة لهم وظاهره انهم
استنكروا استخلاف بنى آدم فى الارض لكونهم مظنة للافساد فى الارض وانما قالوا هذه
المقالة قبل أن تتقدم لهم معرفة ببنى آدم بل قبل وجود آدم فضلا عن ذريته لعلم قد علموه من
الله سبحانه بوجه من الوجوه لانهم لا يعلمون الغيب قال بهذا جماعة من المفسرين (وعلم آدم
الاسماء كلها) سمى آدم لانه خلق من أديم الارض وهو وجهها وقيل لانه كان آدم اللون
والادمة هى السمرة ولما خلق الله آدم وتم خلقه علمه اسماء الاشياء كلها قال فى الكشاف وما
آدم الا اسم أعجمى وأقرب أمره أن يكون على فاعل كآزر وعازر وعابر وشالخ وفالغ وأشباه

حتى لا يلومهم ... [illegible] ... يخادعون الا أنفسهم وما يشعرون
وما يخدعون الا أنفسهم وما يشعرون ... كما قال تعالى ان المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم ... ومن القراء من
قرأ وما يخادعون الا أنفسهم وكلا القراءتين ترجع الى معنى واحد قال ابن جرير فان قال قائل كيف يكون المنافق لله وللمؤمنين
مخادعا وهو لا يظهر بلسانه خلاف ما هو له معتقد الا تقية قيل لا تمتنع العرب أن تسمي من أعطى بلسانه غير الذي في ضميره تقية لينجو
مما هو له خائف مخادعا فكذلك المنافق سمي مخادعا لله وللمؤمنين باظهاره (٨٣) ما أظهر بلسانه تقية تخلصا به من القتل

والسبي والعذاب العاجل وهو لغير ما أظهره مستبطن وذلك من فعله وان كان خداعا للمؤمنين في عاجل الدنيا فهو لنفسه بذلك من فعله خادع لانه يظهر لها بفعله ذلك بها انه يعطيها أمنيتها ويسقيها كأس سرورها وهو موردها حياض عطبها ومجرعها به كأس عذابها ومزيرها من غضب الله وأليم عقابه ما لا قبل لها به فذلك خديعته نفسه ظنا منه مع اساءته اليها في أمر معادها انه اليها محسن كما قال تعالى وما يخدعون الا أنفسهم وما يشعرون اعلاما منه عباده المؤمنين ان المنافقين باساءتهم الى أنفسهم في اسخاطهم عليها ربهم بكفرهم وشكهم وتكذيبهم غير شاعرين ولا دارين ولكنهم على عمى من أمرهم مقيمين وقال ابن أبي حاتم أنبأنا علي بن المبارك فيما كتب الي حدثنا زيد بن المبارك حدثنا محمد بن ثور عن ابن جريج في قوله تعالى يخادعون الله قال يظهرون لا اله الا الله يريدون أن يحرزوا بذلك دماءهم وأموالهم وفي أنفسهم غير ذلك وقال سعيد عن قتادة ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين يخادعون الله والذين آمنوا وما يخادعون الا أنفسهم وما يشعرون نعت المنافق عند كثير خنع الاخلاق يصدق بلسانه وينكر بقلبه ويخالف بعمله يصبح على حال ويمسي على غيره ويمسي على حال ويصبح على غيره ويتكفأ تكفأ السفينة كلما هبت ريح هبت معها (في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون) قال السدي عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الآية في قلوبهم مرض قال شك فزادهم الله مرضا قال شكا وقال ابن اسحق عن محمد بن أبي محمد عن عكرمة

ذلك الله واشتقاقه من الادمة وغيرها انتهى قاله البيضاوي وقال السمين بعد كلام كثير بل ان ادعاء الاشتقاق فيه بعيد لان الاسماء الاعجمية لا يدخلها اشتقاق ولا تصريف انتهى والاسماء هي العبارات والمراد أسماء المسميات قال بذلك أكثر العلماء وهو المعنى الحقيق للاسم والتأكيد بقوله كلها يفيد انه علمه جميع الاسماء ولم يخرج عن هذا شيء منها كائنا ما كان وقال ابن جرير انها أسماء الملائكة وأسماء ذرية آدم ثم رجح هذا وهو غير راجح وقيل صنعة كل شيء قال ابن عباس علمه اسم كل شيء حتى القصعة والقصيعة وقيل خلق الله كل شيء من الحيوان والجماد وغير ذلك وعلم آدم الاسماء كلها فقال يا آدم هذا بعير وهذا فرس وهذه شاة حتى أتى على آخرها وقيل علمه اللغات كلها أي جميع اللغات لكن بورود تفرق في اللغات خص بعضهم العربية وفي غيرها والمراد علم الاسماء لفظا ومعنى مفردا ومركبا حقيقة ومجازا والمراد بالاسم ما يدل على معنى ذاتا كان أو عرضا فهو أعم من الاسم والفعل والحرف وقال في المظهري وعندي ان الله علم آدم الاسماء الالهية كلها ثم رجح هذا بكلام طويل وهو غير راجح مع ما فيه من البعد والتكلف ولم يقل به أحد من المفسرين ويأباه ظاهر النظم وسياقه واستدل بالآية من قال ان اللغات توقيفية وضعها الله وعلمها بالوحي (ثم عرضهم على الملائكة) يعني تلك الاشخاص وانما قال عرضهم ولم يقل عرضها لتغليب العقلاء عليهم واختلف أهل العلم هل عرض على الملائكة المسميات أو الاسماء والظاهر الاول لان عرض نفس الاسماء غير واضح وعرض الشيء اظهاره قال ابن عطية والذي يظهر أن الله علم آدم الاسماء وعرض عليه مع ذلك الاجناس أشخاصا ثم عرض تلك على الملائكة وسألهم عن أسماء مسمياتها التي قد تعلمها آدم فقال لهم آدم هذا اسمه كذا وهذا اسمه كذا قال الماوردي فكان الاصح توجه العرض الى المسمى ثم في زمن عرضهم قولان أحدهما انه عرضهم بعد ان خلقهم الثاني انه صورهم بقلوب الملائكة ثم عرضهم (فقال أنبئوني) أي أخبروني أمر تعجيز والنبأ خبر ذو فائدة عظيمة وايثاره على الاخبار للايذان برفعة شأن الاسماء وعظم خطرها (بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين) اني لم أخلق خلقا الا كنتم أفضل منهم وأعلم أمره سبحانه للملائكة بهذا لقصد التبكيت لهم مع علمه بأنهم يعجزون عن ذلك (قالوا) يعني الملائكة (سبحانك) تنزيها لك وذلك لما ظهر عجزهم وفيه اشعار بان سؤالهم كان استفسارا ولم يكن اعتراضا

أوسعيد بن جبير عن ابن عباس في قلوبهم مرض قال شك وكذلك قال مجاهد وعكرمة والحسن البصري وأبو العالية والربيع ابن أنس وقتادة وعن عكرمة وطاوس في قلوبهم مرض يعني الرياء وقال الضحاك عن ابن عباس في قلوبهم مرض قال نفاق فزادهم الله مرضا قال نفاقا وهذا كالاول وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قلوبهم مرض قال هذا مرض في الدين وليس مرضا في الاجساد وهم المنافقون والمرض الشك الذي دخلهم في الاسلام فزادهم الله مرضا قال زادهم رجسا وقرأ فأما الذين آمنوا فزادتهم ايمانا وهم يستبشرون وأما الذين في قلوبهم ٨٤ مرض فزادتهم رجسا الى رجسهم قال شرا الى شرهم وضلالة الى ضلالتهم وهذا الذي قاله عبد الرحمن رحمه الله حسن وهو الجزاء من جنس العمل وكذلك قاله الاولون وهو نظير قوله تعالى أيضا والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم وقوله بما كانوا يكذبون وقرئ يكذبون وقد كانوا متصفين بهذا وهذا فانهم كانوا كذبة ويكذبون بالغيب يجمعون بين هذا وهذا وقد سئل القرطبي وغيره من المفسرين عن حكمة كفه عليه الصلاة والسلام عن قتل المنافقين مع علمه باعيان بعضهم وذكروا أجوبة عن ذلك منها ما ثبت في الصحيحين أنه صلى الله عليه وسلم قال لعمر رضي الله عنه أكره ان يتحدث العرب ان محمدا يقتل أصحابه ومعنى هذا خشية ان يقع بسبب ذلك تغير لكثير من الاعراب عن الدخول في الاسلام ولا يعلمون حكمة قتله لهم وان قتله اياهم انما هو على الكفر فانهم انما يأخذونه بمجرد ما يظهر لهم فيقولون ان محمدا يقتل أصحابه قال القرطبي وهذا قول علمائنا وغيرهم كما كان يعطي المؤلفة مع علمه بسوء اعتقادهم قال ابن عطية وهي طريقة أصحاب مالك نص عليه محمد بن الجهم والقاضي اسمعيل والابهري وعن ابن الماجشون ومنها ما قال مالك انما كف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المنافقين في ليبين لامته ان الحاكم لا يحكم بعلمه قال القرطبي وقد اتفق العلماء عن بكرة أبيهم على ان القاضي لا يقتل بعلمه وان اختلفوا في سائر الاحكام قال ومنها ما قال الشافعي انما منع رسول الله صلى الله عليه وسلم من قتل المنافقين ما كانوا يظهرونه من الاسلام مع العلم بنفاقهم لان ما يظهرونه يجب ما قبله ويؤيد هذا قوله عليه الصلاة والسلام في الحديث المجمع على صحته في الصحيحين وغيرهما أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله فاذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم الا بحقها وحسابهم على الله عز وجل ومعنى هذا ان

وسبحان مصدر لا يكاد يستعمل الا مضافا منصوبا باضمار فعله كمعاذ الله (لا علم لنا الا ما علمتنا) أي انك أجل من ان نحيط بشيء من علمك الا ما علمتنا (انك أنت العليم) أي بخلقك وهو من أسماء الصفات التامة وهو المحيط بكل المعلومات (الحكيم) أي في أمرك وله معنيان أحدهما انه القاضي العدل الثاني المحكم للامر كي لا يتطرق اليه الفساد (قال) يعني الله تعالى (يا آدم) استدل به على ان آدم نبي متكلم (أنبئهم باسمائهم) وذلك لما ظهر عجز الملائكة فسمى كل شيء باسمه وذكر وجه الحكمة التي خلق لاجلها بان قال لهم هذا الجرم يسمى القصعة وحكمته وضع الطعام فيه وهكذا (فلما أنبأهم باسمائهم) فيه دليل على مزية العلم وانه شرط في الخلافة وفضل آدم على الملائكة قال الامام لما أراد الله اظهار فضل آدم على الملائكة لم يظهره الا بالعلم فلو كان في الامكان شيء أشرف من العلم كان اظهار فضله بذلك الشيء لا بالعلم ولذلك أمر الله تعالى الملائكة بالسجود له لاجل فضيلة العلم قلت ويؤخذ من هذا استحباب القيام للعالم وقال الطيبي أفادت هذه الآية أن علم اللغة فوق التحلي بالعبادة فكيف علم الشريعة (قال) يعني الله تعالى (ألم أقل لكم) يا ملائكتي (اني أعلم غيب السموات والارض) يعني ما كان وما سيكون وذلك انه سبحانه علم أحوال آدم قبل ان يخلقه وفي اختصاصه بعلم غيب السموات والارض رد لما يتكلفه كثير من العباد من الاطلاع على شيء من علم الغيب كالمنجمين والكهان وأهل الرمل والسحر والشعوذة (وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون) أي ما تظهرون وما تسرون كما يفيده معنى ذلك عند العرب ومن فسره بشيء خاص فلا يقبل منه ذلك الا بدليل (واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) قيل هذا خطاب مع ملائكة الارض والاصح انه خطاب مع جميع الملائكة وهو الظاهر من قوله فسجد الملائكة كلهم أجمعون والسجود معناه في كلام العرب التذلل والخضوع وغايته وضع الوجه على الارض والاسجاد ادامة النظر وفي هذه الآية فضيلة لآدم عليه السلام عظيمة حيث أسجد الله له ملائكته وقيل ان السجود كان لله ولم يكن لآدم وانما كانوا مستقبلين له عند السجود ولا ملجئ لهذا فان السجود للبشر قد يكون جائزا في بعض الشرائع بحسب ما تقتضيه المصالح وقد دلت هذه الآية على ان السجود لآدم وكذلك الآية الاخرى أعني قوله فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين وقال تعالى ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا فلا يستلزم تحريمه لغير الله

من قال هاجرت عليه أحكام الاسلام ظاهرا فان كان يعتقدها وجد ثواب ذلك فى الدار الآخرة وان لم يعتقدها لم ينفعه جريان الحكم
عليه فى الدنيا وكونه كان خليط اهل الايمان ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم
الامانى حتى جاء أمر الله الآية فهم يخالطونهم فى بعض المحشر فاذا حقت الحقوقية تميزوا منهم وتخلفوا بعدهم وحيل بينهم وبين
ما يشتهون ولم يمكنهم ان يسجدوا معهم كما نطقت بذلك الاحاديث ومنها ما قاله بعضهم انه انما لم يقتلهم لانه كان لا يخاف من شرهم مع
وجوده عليه الصلاة والسلام بين أظهرهم يتلو عليهم آيات الله مبينات فاما بعده فيقتلون اذا أظهروا النفاق وعلمه
المسلمون قال مالك المنافق فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الزنديق اليوم قلت وقد اختلف العلماء فى قتل الزنديق اذا أظهر الكفر هل يستتاب أم لا أو يفرق بين أن يكون داعية أم لا أو يتكرر منه ارتداده أم لا أو يكون اسلامه ورجوعه من تلقاء نفسه أو بعد ان ظهر عليه على أقوال متعددة موضع بسطها وتقريرها وعزوها كتاب الاحكام (تنبيه) قول من قال كان عليه الصلاة والسلام يعلم أعيان بعض المنافقين انما مستنده حديث حذيفة بن اليمان فى تسمية أولئك الاربعة عشر منافقا فى غزوة تبوك الذين هموا ان يفتكوا برسول الله صلى الله عليه وسلم فى ظلماء الليل عند عقبة هناك عزموا على ان ينفروا به الناقة ليسقط عنها فأوحى الله اليه أمرهم فاطلع على ذلك حذيفة ولعل الكف عن قتلهم كان لمدرك من هذه المدارك أو لغيرها والله أعلم فاما غير هؤلاء فقد قال الله تعالى وممن حولكم من الاعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا
على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم الآية وقال تعالى لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم
ثم لا يجاورونك فيها الا قليلا ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا ففيها دليل على انه لم يغربهم ولم يدرك على أعيانهم وانما كان
تذكر له صفاتهم فيتوسمها فى بعضهم كما قال تعالى ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم فى لحن القول وقد كان من
أشهرهم بالنفاق عبد الله بن أبي بن سلول وقد شهد عليه زيد بن أرقم بذلك الكلام الذى سبق فى صفات المنافقين ومع هذا لما مات
صلى الله عليه وسلم وشهد دفنه كما يفعل ببقية المسلمين وقد عاتبه عمر بن الخطاب رضى الله عنه فيه فقال انى أكره ان تتحدث

فى شريعة نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ان يكون كذلك فى سائر الشرائع ومعنى
السجود هنا وضع الجبهة على الارض واليه ذهب الجمهور وقال قوم هو مجرد التذلل
والانقياد والاول أولى وقد وقع الخلاف فى هل كان السجود من الملائكة لآدم قبل تعلمه
الاسماء أم بعده وقد أطال البحث فى ذلك البقاعى فى تفسيره وظاهر السياق انه وقع
التعليم وتعقبه الامر بالسجود وتعقبه اسكانه الجنة ثم اخراجه منها واسكانه الارض وفى
هذه الآية دليل لمذهب أهل السنة فى تفضيل الانبياء على الملائكة وهذه القصة ذكرت
فى القرآن فى سبع سور فى هذه السورة والاعراف والحجر والاسراء والكهف وطه وص
ولعل السر فى تكريرها تسلية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فانه كان فى محنة عظيمة فى
قومه وأهل زمانه فكأنه قال أولا ترى ان أول الانبياء وهو آدم كان فى محنة عظيمة للخلق
ذكره الخطيب والظاهر انه لاظهار شرف آدم وفضله على سائر الخلق حتى الملائكة وليس
فى هذه القصة ما يدل على محنة آدم (فسجدوا) وكان السجود يوم الجمعة من وقت الزوال
الى العصر قيل أول من سجد لآدم جبرائيل ثم ميكائيل ثم اسرافيل ثم عزرائيل ثم
الملائكة المقربون والله أعلم (الا ابليس) استثناء متصل لانه كان من الملائكة على ما قاله
الجمهور قال شهر بن حوشب وبعض الاصوليين كان من الجن الذين كانوا فى الارض
فيكون الاستثناء على هذا منقطعا واستدلوا على هذا بقوله تعالى لا يعصون الله ما أمرهم
ويفعلون ما يؤمرون وبقوله تعالى الا ابليس كان من الجن والجن غير الملائكة وأجاب
الاولون بانه لا يمتنع ان يخرج ابليس عن جملة الملائكة لما سبق فى علم الله من شقائه عدلا
منه لا يسئل عما يفعل وليس فى خلقه من نار ولا تركب الشهوة فيه حين غضب الله عليه
ما يدفع انه من الملائكة وأيضا على تسليم ذلك لا يمتنع ان يكون الاستثناء متصلا تغليبا
للملائكة الذين هم ألوف مؤلفة على ابليس الذى هو فرد واحد بين أظهرهم وسمى به لانه
أبلس من رحمة الله أى يئس وكان اسمه عزازيل بالسريانية وبالعربية الحرث فلما عصى
غير اسمه فسمى ابليس وغيرت صورته قال ابن عباس كان ابليس من الملائكة بدليل انه
استثناه منهم وقيل انه من الجن وانه أصل الجن كما ان آدم أصل الانس والاول أصح لان
الخطاب كان مع الملائكة فهو داخل فيهم ثم استثناه منهم وعليه أكثر المفسرين كالبغوى
والواحدى والقاضى وقالوا المعنى كان من الجن فعلا ومن الملائكة نوعا أولان الملائكة

العرب ان محمدا يقتل أصحابه وفي رواية في الصحيح اني خيرت فاخترت وفي رواية لو أعلم اني لو زدت على السبعين يغفر له لزدت (واذا قيل لهم لاتفسدوا في الارض قالوا انما نحن مصلحون الا انهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون) قال السدي في تفسيره عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة الطيب الهمداني عن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم واذا قيل لهم لاتفسدوا في الارض قالوا انما نحن مصلحون قال هم المنافقون أما لاتفسدوا في الارض قال الفساد هو الكفر والعمل بالمعصية وقال أبو جعفر عن الربيع بن أنس عن أبي العالية في قوله تعالى واذا قيل لهم لاتفسدوا في الارض قال يعني لاتعصوا في الارض وكان فسادهم ذلك معصية الله لانه من عصى الله في الارض أو أمر بمعصيته فقد أفسد في الارض لان صلاح الارض والسماء بالطاعة وهكذا قال الربيع بن أنس وقتادة وقال ابن جريج عن مجاهد واذا قيل لهم لاتفسدوا في الارض قال اذا ركبوا معصية الله فقيل لهم لاتفعلوا كذا وكذا قالوا انما نحن على الهدى مصلحون وقال وكيع وعيسى بن يونس وعثام بن علي عن الاعمش عن المنهال بن عمرو عن عباد بن عبد الله الاسدي عن سلمان الفارسي واذا قيل لهم لاتفسدوا في الارض قالوا انما نحن مصلحون قال سلمان لم يجئ أهل هذه الآية بعد وقال ابن جرير حدثني أحمد بن عثمان بن حكيم حدثنا عبد الرحمن بن شريك حدثني أبي عن الاعمش عن زيد بن وهب وغيره عن سلمان الفارسي في هذه الآية قال ما جاء هؤلاء قال ابن جرير يحتمل ان سلمان رضي الله عنه أراد بهذا ان الذين يأتون بهذه الصفة أعظم فسادا من الذين كانوا في زمن النبي صلى الله عليه وسلم لا انه عنى انه لم يمض ممن تلك صفته أحد قال ابن جرير فأهل النفاق مفسدون في الارض بمعصيتهم فيها ربهم وركوبهم فيها ما نهاهم عن ركوبه وتضييعهم فرائضه وشكهم في دينه الذي لا يقبل من أحد عمل الا بالتصديق به والايقان بحقيقته وكذبهم المؤمنين بدعواهم غير ما هم عليه مقيمون من الشك والريب ومظاهرتهم أهل التكذيب بالله وكتبه ورسله على أولياء الله اذا وجدوا الى ذلك سبيلا فذلك افساد المنافقين في الارض وهم يحسبون أنهم بفعلهم ذلك مصلحون فيها وهذا الذي قاله حسن فان من الفساد في الارض اتخاذ المؤمنين الكافرين أولياء كما قال تعالى والذين كفروا بعضهم أولياء بعض الا تفعلوه تكن فتنة في الارض

قد يسمون جنا لاختفائهم (أبى) امتنع من فعل ما أمر به من السجود فلم يسجد فيه رد على الجبرية اذ لا يوصف بالاباء الا من هو قادر على المطلوب (واستكبر) أي تعظم عن السجود لآدم والاستكبار الاستعظام للنفس وقد ثبت في الصحيح عنه صلى الله عليه وآله وسلم ان الكبر بطر الحق وغمط الناس وفي رواية غمص الناس وانما قدم الاباء عليه وان كان متأخرا عنه في الترتيب لانه من الافعال الظاهرة بخلاف الاستكبار فانه من أفعال القلوب واقتصر في سورة ص على ذكر الاستكبار وفي سورة الحجر على ذكر الاباء (وكان من الكافرين) أي من جنسهم في علم الله تعالى وانما وجبت له النار لسابق علم الله تعالى بشقاوته وقيل ان كان هنا بمعنى صار قال ابن فورك انه خطأ ترده الاصول وأفادت الآية استقباح التكبر والخوض في سر الله تعالى وان الامر للوجوب وان الذي علم الله من حاله انه يتوفى على الكفر هو الكافر على الحقيقة اذ العبرة بالخواتيم وان كان بحكم الحال مؤمنا وهذه مسئلة الموافاة المنسوبة الى أبي الحسن الاشعري ومعناها أن العبرة بالايمان الذي يوافي العبد عليه أي يأتي متصفا به في آخر حياته وأول منازل آخرته وحيث أطلقت مسئلة الموافاة فالمراد بها ذلك وهي مما اختلف فيها الشافعية والحنفية والماتريدية وللسبكي فيها تأليف مستقل ومن فروعها انه يصح أن يقول أنا مؤمن ان شاء الله ويبتني عليها مسئلة الاحباط في الاعمال بالردة قال الخفاجي مسئلة الموافاة من أمهات المسائل وفصلها النسفي في شرح التمهيد فقال ما حاصله ان الشافعي يقول ان الشقي شقي في بطن أمه وكذا السعيد فلا تبديل في ذلك ويظهر ذلك عند الموت ولقاء الله وهو معنى الموافاة والماتريدية يقولون يمحو الله ما يشاء ويثبت فيصير السعيد شقيا والشقي سعيدا الا انهم يقولون من مات مسلما مخلد في الجنة ومن مات كافرا مخلد في العذاب باتفاق الفريقين فلا ثمرة للخلاف أصلا الآن يقال ان من كان مسلما وورث أباه المسلم اذا مات كافرا يرد ما أخذه الى بقية الورثة المسلمين وكذا الكافر ويبطل جميع أعماله والمنقول في المذهب خلافه فحينئذ لا ثمرة له الا انه يصح منه أن يقول أنا مؤمن ان شاء الله بقصد التعليق في المستقبل حتى لا يكون شكا في الايمان حالا ولا حاجة لتأويله والماتريدية يمنعون ذلك مطلقا اهـ (وقلنا) هو من خطاب الاكابر والعظماء أخبر سبحانه عن نفسه بصيغة الجمع لانه ملك الملوك (يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة) أي اتخذ الجنة مأوى ومنزلا ومسكنا وهو محل السكون وأما

وفساد كبير فقطع الله الموالاة بين المؤمنين والكافرين كما قال تعالى يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا ثم قال ان المنافقين فى الدرك الاسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا فالمنافق لما كان ظاهره الايمان اشتبه أمره على المؤمنين فكان الفساد من جهة المنافق حاصل لانه هو الذى غر المؤمنين بقوله الذى لا حقيقة له ووالى الكافرين على المؤمنين ولو انه استمر على حاله الاول لكان شره أخف ولو أخلص العمل لله وتطابق قوله وعمله لافلح وأنجح ولهذا قال تعالى واذا قيل لهم لا تفسدوا فى الارض قالوا انما نحن مصلحون أى نريد (٨٧) أن نداري الفريقين من المؤمنين والكافرين ونصطلح مع هؤلاء كما قال محمد بن اسحق عن محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس واذا قيل لهم لا تفسدوا فى الارض قالوا انما نحن مصلحون أى انما نريد الاصلاح بين الفريقين من المؤمنين وأهل الكتاب يقول الله ألا انهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون يقول ألا ان هذا الذى يعتمدونه و يزعمون انه اصلاح هو عين الفساد ولكن من جهلهم لا يشعرون بكونه فسادا (واذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا انهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون) يقول تعالى واذا قيل للمنافقين آمنوا كما آمن الناس أى كايمان الناس بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والجنة والنار وغير ذلك مما أخبر المؤمنين به وعنه وأطيعوا الله ورسوله فى امتثال الاوامر وترك الزواجر قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء يعنون لعنهم الله أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رضى الله عنهم قاله أبو العالية والسدى فى تفسيره بسنده عن ابن عباس وابن مسعود وغير واحد من الصحابة وبه يقول الربيع بن أنس وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم يقولون أنصير نحن وهؤلاء بمنزلة واحدة وعلى طريقة واحدة وهم سفهاء والسفهاء جمع سفيه لان الحكماء جمع حكيم والحلماء جمع حليم والسفيه هو الجاهل الضعيف الرأى القليل المعرفة بمواضع المصالح والمضار ولهذا سمى الله النساء والصبيان سفهاء فى قوله تعالى ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما قال عامة علماء التفسير هم النساء والصبيان وقد تولى الله سبحانه جوابهم فى هذه المواطن كلها فقال ألا انهم هم السفهاء فأكد وحصر السفاهة فيهم ولكن لا يعلمون يعنى ومن تمام جهلهم انهم لا يعلمون بحالهم

ما قاله بعض المفسرين ان قوله اسكن تنبيه على الخروج لان السكنى لا يكون ملكا وأخذ ذلك من قول جماعة من العلماء ان من أسكن رجلا منزلا له فانه لا يملكه بذلك وان له ان يخرجه منه فهو معنى عرفى والواجب الاخذ بالمعنى العربى اذا لم يثبت فى اللفظ حقيقة شرعية والزوج هى حواء بالمد وهى فى اللغة الفصيحة بغير هاء وقد جاء بها قليلا كما فى صحيح مسلم قال يا فلان هذه زوجتى فلانة الحديث وكان خلق حواء من ضلعه الايسر فلهذا كان كل انسان ناقصا ضلعا من الجانب الايسر فجهة اليمين اضلاعها ثمانية عشر وجهة اليسار اضلاعها سبعة عشر وقصة خلقها مبسوطة فى كتب السنة لا نطول بذكرها هنا فهذه دلالة على ان الجنة مخلوقة الآن واختلفوا فى الجنة التى أمر آدم بسكناها فقيل انها جنة كانت فى الارض وقيل هى دار الجزاء والثواب لانها المعهودة وقيل هى جنة بارض فلسطين أو بين فارس وكرمان خلقها الله امتحانا لآدم وحمل الاهباط على النقل منها الى أرض الهند كما فى قوله تعالى اهبطوا مصرا لما ان خلق آدم كان فى الارض بلا خلاف ولم يذكر فى هذه القصة رفعه الى السماء ولو وقع ذلك لكان أولى بالذكر والتذكير لما أنه من أعظم النعم ولانها لو كانت دار الخلد لما دخلها ابليس وقيل انها كانت فى السماء السابعة بدليل اهبطوا ثم ان الاهباط الاول كان منها الى السماء الدنيا والثانى منها الى الارض وقيل الكل ممكن والادلة النقلية متعارضة فوجب التوقف وترك القطع قاله أبو السعود قلت وقد استوعب الحافظ ابن القيم فى كتابه حادى الارواح الى بلاد الافراح دلائل الفريقين من غير تصريح برجحان أحد القولين والله تعالى أعلم (وكلا منها) أى اجمعا بين الاستقرار والاكل من رزق الجنة (رغدا) رغد العيش اتسع ولان أى رزقا واسعا لينا وأرغد القوم أخصبوا والرغيدة الزبد (حيث شئتما) أى فى أى مكان من الجنة شئتما وسع الامر عليهما ازاحة للعلة والعذر فى التناول من الشجرة المنهى عنها من بين أشجارها التى لا تنحصر (ولا تقربا هذه الشجرة) يعنى للاكل والقرب الدنو قال الاصمعى والنهى عن القرب فيه سد للذريعة وقطع للوسيلة ولهذا جاء به عوضا عن الاكل ولا يخفى ان النهى عن القرب لا يستلزم النهى عن الاكل لانه قد يأكل من ثمرة الشجرة من هو بعيد عنها اذا حمل اليه فالاولى أن يقال المنع من الاكل مستفاد من المقام والشجر ما كان له ساق من نبات الارض وواحده شجرة واختلف أهل العلم فى تعيين هذه الشجرة فقيل هى الكرم وقيل هى السنبلة

في الضلالة والخبل وذلك أردى لهم وأبلغ في العمى والبعد عن الهدى (واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا واذا خلوا الى شياطينهم
قالوا انا معكم انما نحن مستهزؤن الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون) يقول تعالى واذا لقي هؤلاء المنافقون المؤمنين قالوا
آمنا أظهروا لهم الايمان والموالاة والمصافاة غرورا منهم للمؤمنين ونفاقا ومصانعة وتقية وليشركوهم فيما أصابوا من خير
ومغنم واذا خلوا الى شياطينهم يعني اذا انصرفوا وذهبوا وخلصوا الى شياطينهم فضمن خلوا معنى انصرفوا لتعديته بالى ليدل
على الفعل المضمر والفعل الملفوظ به ومنهم (٨٨) من قال الى هنا بمعنى مع والاول أحسن وعليه يدور كلام ابن جرير وقال
السدى عن أبي مالك خلوا يعني
مضوا وشياطينهم سادتهم وكبراؤهم
ورؤساؤهم من أحبار اليهود
ورؤس المشركين والمنافقين قال
السدى في تفسيره عن أبي مالك وعن
أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة
الهمداني عن ابن مسعود وعن ناس
من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم
واذا خلوا الى شياطينهم يعني هم
رؤساءهم في الكفر وقال الضحاك
عن ابن عباس واذا خلوا الى أصحابهم
وهم شياطينهم وقال محمد بن اسحق
عن محمد بن أبي محمد عن عكرمة
أو سعيد بن جبير عن ابن عباس واذا
خلوا الى شياطينهم من يهود الذين
يأمرونهم بالتكذيب وخلاف
ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم
وقال مجاهد واذا خلوا الى
شياطينهم الى أصحابهم من المنافقين
والمشركين وقال قتادة واذا خلوا
الى شياطينهم قال الى رؤسهم
وقادتهم في الشرك والشر وبنحو
ذلك فسره أبو مالك وأبو العالية
والسدي والربيع بن أنس قال ابن
جرير وشياطين كل شئ مردته
ويكون الشيطان من الانس
والجن كما قال تعالى وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الانس والجن يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول من
غرورا وفي المسند عن أبي ذر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم نعوذ بالله من شياطين الانس والجن فقلت يا رسول الله أو
للانس شياطين قال نعم وقوله تعالى قالوا انا معكم قال محمد بن اسحق عن محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس
أي انا على مثل ما أنتم عليه انما نحن مستهزؤن أي انما نحن نستهزئ بالقوم ونلعب بهم وقال الضحاك عن ابن عباس
قالوا انما نحن مستهزؤن ساخرون بأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وكذلك قال الربيع بن أنس وقتادة وقوله تعالى جوابا لهم

قاله ابن عباس وله عنه طرق صحيحة وقيل التين وقيل الحنطة وقيل اللوز وقيل النخلة وقيل
هي شجرة العلم وقيل الكافور وقيل الاترج وقيل هي شمه البر وتسمى الدعة وهذا مروي
عن جماعة من الصحابة فمن بعدهم وقيل عن جنس من الشجرة وقيل ليس في ظاهر الكلام
ما يدل على التعيين اذ لا حاجة اليه لانه ليس المقصود تعرف عين تلك الشجرة وما لا يكون
مقصودا لا يجب بيانه (فتكونا من الظالمين) يعني ان أكلتما من هذه الشجرة ظلمتما أنفسكما
فمن جوز ارتكاب الذنوب على الانبياء قال ظلم نفسه بالمعصية والظلم أصله وضع الشئ في غير
موضعه ومن لم يجوز ذلك على الانبياء حمل الظلم على انه فعل ما كان الاولى ان لا يفعله
وكلام أهل العلم في عصمة الانبياء واختلاف مذاهبهم في ذلك مدون في مواطنه وقد أطال
البحث في ذلك الرازي في تفسيره في هذا الموضع فليرجع اليه فانه مفيد (فأزلهما الشيطان)
أي استزل آدم وحواء (عنها) أي الجنة ودعاهما الى الزلة وهي الخطيئة أي استزلهما
وأوقعهما فيها وقيل من الازالة وهي التنحية أي نحاهما وقيل من الزوال وقد اختلف أهل
العلم في الكيفية التي فعلها الشيطان في ازلالهما فقيل انه كان ذلك بمشافهة منه لهما واليه
ذهب الجمهور واستدلوا على ذلك بقوله تعالى وقاسمهما اني لكما لمن الناصحين والمقاسمة
ظاهرها المشافهة وقيل لم يصدر منه الا مجرد الوسوسة والمفاعلة ليست على بابها بل
للمبالغة وقيل غير ذلك (فأخرجهما مما كانا فيه) أي صرفهما عما كانا عليه من الطاعة الى
المعصية وقيل الضمير للجنة وعلى هذا فالفعل مضمن معنى أبعدهما وانما نسب ذلك الى
الشيطان لانه هو الذي تولى اغواء آدم حتى أكل من الشجرة (وقلنا اهبطوا) أي انزلوا الى
الارض خطاب لآدم وحواء وخوطبا بما يخاطب به الجمع لان الاثنين أقل الجمع عند
البعض من أئمة العربية وقيل انه خطاب لهما ولابليس والحية فهبط آدم بسرنديب من
أرض الهند على جبل يقال له نود وأهبطت حواء بجدة وابليس بالابلة من أعمال البصرة
والحية بأصبهان وقيل خطاب لهما ولذريتهما لانهما لما كانا أصل هذا النوع الانساني
جعلا بمنزلته ويدل على ذلك قوله (بعضكم لبعض عدو) فان هذه الجملة الواقعة حالا
مبينا للهيئة الثابتة للمامورين بالهبوط تفيد ذلك يعني العداوة التي بين المؤمنين من
ذرية آدم وبين ابليس واليه الاشارة بقوله تعالى ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا
والعدو خلاف الصديق وهو من عدا اذا ظلم والعدوان الظلم الصراح وقيل انه مأخوذ

من المجاوزة يقال عداه اذا جاوزه والمعنيان متقاربان فان من ظلم فقد تجاوز قال ابن فارس العدو اسم جامع للواحد والاثنين والثلاثة والعداوة التى بين ذرية آدم والحية هى ماروى عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من ترك الحيات مخافة طلبهن فليس منا ماسالمناهن منذ حاربناهن أخرجه أبو داود وله عن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال اقتلوا الحيات كلهن فمن خاف من ثارهن فليس منى وفى رواية الا الجان الابيض الذى كأنه قضيب فضة وعن أبى سعيد الخدرى ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال ان بالمدينة جنا قد أسلموا فاذا رأيتم منهم شيأ فآذنوه ثلاثة أيام فان بدا لكم بعد ذلك فاقتلوه فانما هو شيطان وفى رواية ان بهذه البيوت عوامر فاذا رأيتم منها شيأ فحرجوا عليه ثلاثا فان ذهب والا فاقتلوه فانه كافر (ولكم فى الارض مستقر) المراد بالمستقر موضع الاستقرار ومنه أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وقد يكون بمعنى الاستقرار ومنه الى ربك يومئذ المستقر فالآية محتملة للمعنيين ومثلها قوله جعل لكم الارض قرارا (ومتاع) المتاع مايستمتع به من المأكول والمشروب والملبوس ونحوها أى بلغة ومستمتع (الى حين) أى الى وقت انقضاء آجالكم واختلف المفسرون فى قوله حين فقيل الى الموت وقيل الى قيام الساعة وأصل معنى الحين فى اللغة الوقت البعيد ومنه هل أتى على الانسان حين من الدهر والحين الساعة ومنه أو تقول حين ترى العذاب والحين القطعة من الدهر ومنه فذرهم فى غمرتهم حتى حين أى حتى تفنى آجالهم ويطلق على السنة وقيل على ستة أشهر ومنه تؤتى أكلها كل حين ويطلق على المساء والصباح ومنه حين تمسون وحين تصبحون قال ابن العربى الحين المجهول لايتعلق به حكم والحين المعلوم سنة (فتلقى آدم من ربه كلمات) ومعنى التلقى أخذه لها وقبوله لما فيها وعلمه بها وقيل فهمه لها وفطانته لما تضمنته وأصل معنى التلقى الاستقبال أى استقبل الكلمات الموحاة اليه وقيل ان معنى تلقى تلقن ولا وجه له فى العربية واختلف السلف فى تعيين هذه الكلمات فعن ابن عباس قال هى قوله ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين وعنه قال علم شان الحج وهى الكلمات وعن عبد الله بن زيد قال لا اله الا أنت سبحانك وبحمدك عملت سوأ وظلمت نفسى فارحمنى انك أنت أرحم الراحمين وروى نحوه عن أنس وسعيد بن جبير (فتاب عليه) أى فتجاوز عنه وغفر له وأصل التوبة من تاب يتوب اذا رجع (انه هو التواب) أى الرجاع

ومقابلة على صنيعهم الله يستهزئ بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون وقال ابن جرير أخبر تعالى انه فاعل بهم ذلك يوم القيامة فى قوله تعالى يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب الآية وقوله تعالى ولا تحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لانفسهم انما نملى لهم ليزدادوا اثما الآية قال فهذا وما أشبهه من استهزاء الله تعالى ذكره وسخريته ومكره وخديعته للمنافقين وأهل الشرك به عند قائل هذا القول ومتأول هذا التأويل قال وقال آخرون بل استهزاؤه بهم توبيخه اياهم ولومه لهم على ماركبوا من معاصيه والكفر به قال وقال آخرون هذا وأمثاله على سبيل الجواب كقول الرجل لمن يخدعه اذا ظفر به أنا الذى خدعتك ولم يكن منه خديعة ولكن قال ذلك اذا صار الامر اليه قالوا وكذلك قوله تعالى ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين والله يستهزئ بهم على الجواب والله لايكون منه المكر ولا الهزء والمعنى ان المكر والهزء حاق بهم وقال آخرون قوله تعالى انما نحن مستهزؤن الله يستهزئ بهم وقوله يخادعون الله وهو خادعهم وقوله فيسخرون منهم سخر الله منهم ونسوا الله فنسيهم وما أشبه ذلك اخبار من الله تعالى انه مجازيهم جزاء الاستهزاء ومعاقبهم عقوبة الخداع فأخرج خبره عن جزائه اياهم وعقابه لهم مخرج خبره عن فعلهم الذى عليه استحقوا العقاب فى اللفظ وان اختلف المعنيان كما قال تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله وقوله تعالى فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه فالاول ظلم والثانى عدل فهما وان اتفق لفظهما فقد اختلف معناهما قال والى هذا المعنى وجهوا كل مافى القرآن من نظائر ذلك قال وقال آخرون ان معنى ذلك ان الله أخبر عن المنافقين انهم اذا خلوا الى مردتهم قالوا انا معكم على دينكم فى تكذيب محمد صلى الله عليه وسلم وماجاء به وانما نحن بما نظهر لهم من قولنا لهم مستهزؤن فأخبر تعالى أنه يستهزئ بهم فيظهر لهم من أحكامه فى الدنيا يعنى من عصمة دمائهم وأموالهم خلاف الذى لهم عنده فى الآخرة يعنى من العذاب والنكال ثم شرع ابن جرير يوجه هذا القول وينصره لان المكر والخداع والسخرية على وجه اللعب والعبث منتف عن الله عز وجل بالاجماع واما على وجه الانتقام

والمقابلة بالعدل والمجازاة فلا يمتنع ذلك قال وبنحو ما قلنا فيه روى الخبر عن ابن عباس حدثنا أبو كريب حدثنا أبو عثمان حدثنا بشر عن أبي روق عن الضحاك عن ابن عباس في قوله تعالى الله يستهزئ بهم قال يسخر بهم للنقمة منهم وقوله تعالى ويمدهم في طغيانهم يعمهون قال السدى عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يمدهم يملي لهم وقال مجاهد يزيدهم وقال تعالى أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون وقال سنستدرجهم من حيث لا يعلمون قال بعضهم كلما أحدثوا ذنبا أحدث لهم نعمة وهي في الحقيقة نقمة وقال تعالى فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شئ حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين قال ابن جرير والصواب نزيدهم على وجه الاملاء والترك لهم في عتوهم وتمردهم كما قال تعالى ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون والطغيان هو المجاوزة في الشئ كما قال تعالى انا لما طغى الماء حملناكم في الجارية وقال الضحاك عن ابن عباس في طغيانهم يعمهون في كفرهم يترددون وكذا فسره السدى بسنده عن الصحابة وبه يقول أبو العالية وقتادة والربيع بن أنس ومجاهد وأبو مالك وعبد الرحمن بن زيد في كفرهم وضلالتهم قال ابن جرير والعمه الضلال يقال عمه فلان يعمه عمها وعموها اذا ضل قال وقوله في طغيانهم يعمهون في ضلالتهم وكفرهم الذي غمرهم دنسه وعلاهم رجسه يترددون حيارى ضلالا لا يجدون الى المخرج منه سبيلا لأن الله قد طبع على قلوبهم وختم عليها وأعمى أبصارهم عن الهدى عليهم وأغشاها فلا يبصرون رشدا ولا يهتدون سبيلا وقال بعضهم العمى في العين والعمه في القلب وقد يستعمل العمى في القلب أيضا قال الله تعالى فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور وتقول عمه الرجل يعمه عموها فهو عمه وعامه وجمعه عمه وذهبت ابله العمهاء اذا لم يدر أين ذهبت (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين) قال السدى في تفسيره عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة أولئك الذين

على عباده بقبول التوبة (الرحيم) بخلقه (قلنا اهبطوا منها جميعا) اما في زمان واحد أو في أزمنة متفرقة لأن المراد الاشتراك في أصل الفعل وهذا هو الفرق بين جاؤا جميعا وجاؤا معا يعني هؤلاء الاربعة أو آدم وحواء وذريتهما وكرر قوله اهبطوا للتوكيد والتغليظ وقيل انه لما تعلق به حكم غير الحكم الاول كرره ولا تزاحم بين المقتضيات فقد يكون التكرير للأمرين معا أخرج عبد بن حميد والحاكم وصححه عن ابن عباس قال ما سكن آدم الجنة الا ما بين صلاة العصر الى غروب الشمس وعنه ما غابت الشمس من ذلك اليوم حتى أهبط من الجنة وعن الحسن قال لبث آدم في الجنة ساعة من نهار تلك الساعة مائة وثلاثون سنة من أيام الدنيا وأخرج البخاري والحاكم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لولا بنو اسرائيل لم يخنز اللحم ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها وقد ثبت أحاديث كثيرة عن جماعة من الصحابة في الصحيحين وغيرهما في محاجة آدم وموسى عليهما السلام وحج موسى بقوله أتلومني على أمر قدره الله على قبل أن أخلق وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال أول ما أهبط الله آدم الى أرض الهند وعنه الى أرض بين مكة والطائف وعن علي أطيب ريح الارض الهند هبط بها آدم فعلق شجرها من ريح الجنة وقد روى عن جماعة من الصحابة ان آدم أهبط الى أرض الهند منهم جابر وابن عمر وعلي وقد روى عن جماعة من الصحابة والتابعين ومن بعدهم حكايات في صفة هبوط آدم من الجنة وما أهبط معه وما صنع عند وصوله الى الارض ولا حاجة لنا ببسط جميع ذلك وقد ذكر طرفا منها الحافظ ابن القيم في الحادى (فاما يأتينكم مني هدى) أي رشد وبيان وشريعة وقيل كتاب ورسول وقيل التوفيق للهداية (فمن تبع هداي فلا خوف عليهم) فيما يستقبلهم وقيل عند الفزع الاكبر (ولا هم يحزنون) أي على ما خلفوا وفاتهم من الدنيا وقال ابن جبير لا خوف عليهم في الآخرة ولا يحزنون للموت والخوف هو الذعر ولا يكون الا في المستقبل والحزن ضد السرور قال اليزيدى حزنه لغة قريش وأحزنه لغة تميم (والذين كفروا) أي جحدوا عطف على فمن تبع قسيم له (وكذبوا بآياتنا) أي بالقرآن (أولئك أصحاب النار) أي يوم القيامة وصحبة أهل النار لها بمعنى الاقتران والملازمة (هم فيها خالدون) أي لا يخرجون منها ولا يموتون فيها وبقي قسم ثالث وهو من آمن ولم يعمل الطاعات فليس داخلا في الآيتين وقد تقدم تفسير الخلود (يا بني اسرائيل) اتفق المفسرون على ان اسرائيل هو يعقوب بن اسحق بن ابراهيم

اشتروا الضلالة بالهدى قال أخذوا الضلالة وتركوا الهدى وقال ابن اسحق عن محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى أي الكفر بالايمان وقال مجاهد آمنوا ثم كفروا وقال قتادة استحبوا الضلالة على الهدى وهذا الذي قاله قتادة يشبهه في المعنى قوله تعالى في ثمود فأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى وحاصل قول المفسرين فيما تقدم ان المنافقين عدلوا عن الهدى الى الضلال واعتاضوا عن الهدى بالضلالة وهو معنى قوله تعالى أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى أي بذلوا الهدى ثمنا للضلالة وسواء في ذلك من كان منهم قد حصل له الايمان ثم رجع عنه الى الكفر كما قال تعالى فيهم ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم أو أنهم استحبوا الضلالة على الهدى كما يكون حال فريق آخر منهم فانهم أنواع وأقسام ولهذا قال تعالى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين أي ما ربحت صفقتهم في هذه البيعة وما كانوا مهتدين أي راشدين في صنيعهم ذلك وقال ابن جرير حدثنا بشر حدثنا يزيد حدثنا سعيد عن قتادة فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين قد والله رأيتموهم خرجوا من الهدى الى الضلالة ومن الجماعة الى الفرقة ومن الامن الى الخوف ومن السنة الى البدعة وهكذا رواه ابن أبي حاتم من حديث يزيد بن زريع عن سعيد عن قتادة بمثله سواء (مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون صم بكم عمي فهم لا يرجعون) يقال مثل ومثل ومثيل أيضا والجمع أمثال قال الله تعالى وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون

وتقدير هذا المثل ان الله سبحانه شبههم في اشترائهم الضلالة بالهدى وصيرورتهم بعد البصيرة الى العمى بمن استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله وانتفع بها وأبصر بها ما عن يمينه وشماله وتأنس بها فبينا هو كذلك اذ طفئت ناره وصار في ظلام شديد لا يبصر ولا يهتدي وهو مع هذا أصم لا يسمع أبكم لا ينطق أعمى لو كان ضياء لما أبصر فلهذا لا يرجع الى ما كان عليه قبل ذلك فكذلك هؤلاء المنافقون في استبدالهم الضلالة عوضا عن الهدى واستحبابهم الغي على الرشد وفي هذا المثل دلالة على انهم آمنوا ثم كفروا كما أخبر تعالى عنهم في غير هذا الموضع والله أعلم وقد حكى هذا الذي قلناه الرازي في تفسيره عن السدي ثم قال والتشبيه ههنا في غاية الصحة لانهم

عليهم السلام ومعناه عبد الله لان اسر في لغتهم هو العبد وايل هو الله وكذلك جبريل وهو عبد الله وميكائيل عبد الله قال القفال ان اسر بالعبرانية في معنى انسان فكأنه قيل رجل الله وقيل معناه صفوة الله والاول أولى والمعنى يا أولاد يعقوب والخطاب مع جماعة اليهود الذين كانوا بالمدينة من ولد يعقوب في أيام محمد صلى الله عليه وآله وسلم قيل ان له اسمين وقيل ان اسرائيل لقب له وهو اسم أعجمي غير منصرف وقد تصرفت فيه العرب بلغات كثيرة أفصحها لغة القرآن وهي قراءة الجمهور استدل به على دخول أولاد الاولاد في الوقف على الاولاد (اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم) أي اشكروا وانما عبر عنه بالذكر لان من ذكر النعمة فقد شكرها ومن جحدها فقد كفرها والذكر بالكسر هو ضد الانصات وبالضم ضد النسيان وجعله بعض أهل العلم مشتركا بين ذكر القلب واللسان وقال الكسائي ما كان بالقلب فهو مضموم الذال وما كان باللسان فهو مكسور الذال قال ابن الانباري والمعنى في الآية اذكروا واشكروا نعمتي فحذف الشكر اكتفاء بذكر النعمة وهي اسم جنس وحدها أنها المنفعة المفعولة على جهة الاحسان الى الغير وقيل المنفعة الحسنة والاول أولى والكلام على قيود هذا الحد وضروب النعمة مستوفى في تفسير الرازي فليراجعه والنعم المخصوصة ببني اسرائيل كثيرة من جملتها أنه جعل منهم أنبياء وأنزل عليهم الكتاب والمن والسلوى وأخرج لهم الماء من الحجر ونجاهم من آل فرعون وفلق لهم البحر وأغرق فرعون وظللهم بالغمام وغير ذلك من نعم كثيرة وقيل ان هذه النعمة هي ادراك المخاطبين بها زمن محمد صلى الله عليه وآله وسلم والاول أولى قال ابن الفارس فيه دليل على أن لله على الكفار نعمة خلافا لمن قال لا نعمة لله عليهم وانما النعمة للمؤمنين (وأوفوا بعهدي) أي امتثلوا أمري يقال أوفى ووفى مشددا ووفى مخففا ثلاث لغات بمعنى وقيل يقال وفيت ووفيت بالعهد وأوفيت بالكيل لا غير واختلف أهل العلم في العهد المذكور في هذه الآية ما هو فقيل هو المذكور في قوله تعالى خذوا ما آتيناكم بقوة وقيل هو ما في قوله ولقد أخذ الله ميثاق بني اسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا وقيل هو قوله ولقد أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس وقيل ان المراد من هذا العهد ما أثبته في الكتب المتقدمة من وصف محمد صلى الله عليه وآله وسلم وانه سيبعثه على ما صرح بذلك في سورة المائدة بقوله ولقد أخذ الله ميثاق بني اسرائيل الى قوله لأكفرن عنكم سيآتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الانهار وقال في سورة الاعراف ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها

[illegible] وهو في حيرة عظيمة فانه لا حيرة أعظم من حيرة الدين وزعم ابن جرير أن
المضروب لهم المثل هاهنا لم يؤمنوا في وقت من الأوقات واحتج بقوله تعالى ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم
بمؤمنين والصواب أن هذا اخبار عنهم في حال نفاقهم وكفرهم وهذا لا ينفي أنه كان حصل لهم ايمان قبل ذلك ثم سلبوه وطبع على
قلوبهم ولم يستحضر ابن جرير هذه الآية ههنا وهي قوله تعالى ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون فلهذا
وجه هذا المثل بأنهم استضاؤا بما أظهروه من كلمة الايمان أي في الدنيا ثم أعقبهم ظلمات يوم القيامة قال وصح
ضرب مثل الجماعة بالواحد كما
قال رأيتهم ينظرون اليك تدور
أعينهم كالذي يغشى عليه من
الموت أي كدوران الذي يغشى عليه
من الموت وقال تعالى ما خلقكم
ولا بعثكم الا كنفس واحدة
وقال تعالى مثل الذين حملوا التوراة
ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل
أسفارا وقال بعضهم تقدير الكلام
مثل قصتهم كقصة الذين استوقدوا
نارا وقال بعضهم المستوقد واحد
لجماعة معه وقال آخرون الذي
ههنا بمعنى الذين كما قال الشاعر

وان الذي حانت بفلج دماؤهم
هم القوم كل القوم يا أم خالد

قلت وقد التفت في أثناء المثل من
الواحد الى الجمع في قوله تعالى فلما
أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم
وتركهم في ظلمات لا يبصرون صم
بكم عمي فهم لا يرجعون وهذا
أفصح في الكلام وأبلغ في النظام
وقوله تعالى ذهب الله بنورهم أي
ذهب عنهم بما ينفعهم وهو النور
وأبقى لهم ما يضرهم وهو الاحراق
والدخان وتركهم في ظلمات وهو
ما هم فيه من الشك والكفر
والنفاق لا يبصرون لا يهتدون الى سبل خير ولا يعرفونها وهم مع ذلك صم لا يسمعون خيرا بكم لا يتكلمون
بما ينفعهم عمي في ضلالة وعماية البصيرة كما قال تعالى فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور فلهذا
لا يرجعون الى ما كانوا عليه من الهداية التي باعوها بالضلالة ❊ ذكر أقوال المفسرين من السلف بنحو ما ذكرناه ❊ قال السدي
في تفسيره عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة في قوله تعالى فلما
أضاءت ما حوله زعم ان ناسا دخلوا في الاسلام مقدم نبي الله صلى الله عليه وسلم المدينة ثم انهم نافقوا فكان مثلهم كمثل رجل كان

للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون الذين يتبعون الرسول النبي الأمي
الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل وأما وعد الله معهم فهو أن يضع عنهم
ما يعدهم من وضع ما كان عليهم من الاصر والاغلال التي كانت في أعناقهم وقال واذ أخذ
الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق الآية وقال
واذ قال عيسى ابن مريم يا بني اسرائيل اني رسول الله اليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة
ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد وقال ابن عباس ان الله تعالى كان عهد الى بني
اسرائيل في التوراة اني باعث من بني اسمعيل نبيا أميا فمن تبعه وصدق بالنور الذي يأتي به
أي بالقرآن غفرت له ذنبه وأدخلته الجنة وجعلت له أجرين أجرا باتباع ما جاء به موسى
وجاءت به سائر أنبياء بني اسرائيل وأجرا باتباع ما جاء به محمد النبي الأمي من ولد اسمعيل
وتصديق هذا في القرآن في قوله تعالى الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون الى قوله
أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا وكان علي بن عيسى يقول تصديق ذلك في قوله
تعالى يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته وتصديقه أيضا
فيما روى أبو موسى الاشعري عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه قال ثلاثة يؤتون
أجرهم مرتين رجل من أهل الكتاب آمن بعيسى ثم آمن بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم فله
أجران ورجل أدب أمته فأحسن تأديبها وعلمها فأحسن تعليمها ثم أعتقها وتزوجها فله
أجران ورجل أطاع الله وأطاع سيده فله أجران ولنذكر الآن بعض ما جاء في كتب
الانبياء المتقدمين من البشارة بمقدم محمد صلى الله عليه وآله وسلم فالاول جاء في الفصل
التاسع من السفر الاول من التوراة ان هاجر لما غضبت عليها سارة تراآى لها ملك الله فقال
لها يا هاجر أين تريدين ومن أين أقبلت قالت أهرب من سيدتي سارة فقال لها ارجعي الى
سيدتك واخفضي لها فان الله سيكثر زرعك وذريتك وستحبلين وتلدين ابنا وتسميه اسمعيل
من أجل ان الله سمع تبتلك وخشوعك وهو يكون عين الناس وتكون يده فوق الجميع
ويد الجميع مبسوطة اليه بالخضوع وهو يسكن على رغم جميع اخوته واعلم ان الاستدلال
بهذا الكلام أن هذا الكلام خرج مخرج البشارة وليس يجوز أن يبشر الملك من قبل الله
بالظلم والجور وبأمر لا يتم الا بالكذب على الله تعالى ومعلوم أن اسمعيل وولده لم يكونوا
متصرفين في الكل أعني في معظم الدنيا ومعظم الامم ولا كانوا مخالطين للكل على سبيل
الاستيلاء

في ظلمة فاوقد نارا فلما أضاءت ما حوله من قذى أو أذى فابصره حتى عرف ما يتقى منه فبينما هو كذلك اذ طفئت ناره فاقبل لا يدرى
ما يتقى من أذى فذلك المنافق كان فى ظلمة الشرك فاسلم فعرف الحلال والحرام والخير والشر فبينما هو كذلك اذ كفر فصار
لا يعرف الحلال من الحرام ولا الخير من الشر وقال العوفى عن ابن عباس فى هذه الآية قال أما النور فهو ايمانهم الذى كانوا
يتكلمون به وأما الظلمة فهى ضلالتهم وكفرهم الذى كانوا يتكلمون به وهم قوم كانوا على هدى ثم نزع منهم فعتوا بعد ذلك وقال
مجاهد فلما أضاءت ما حوله أما اضاءة النار فاقبالهم الى المؤمنين والهدى وقال عطاء الخراسانى فى قوله تعالى مثلهم
كمثل الذى استوقد نارا قال هذا مثل المنافق يبصر أحيانا ويعرف أحيانا ثم يدركه عمى القلب وقال ابن أبى حاتم وروى عن عكرمة والحسن والسدى والربيع بن أنس نحو قول عطاء الخراسانى وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله تعالى مثلهم كمثل الذى استوقد نارا قال هذا مثل المنافق يبصر أحيانا ويعرف أحيانا ثم يدركه عمى القلب وقال عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم فى قوله تعالى مثلهم كمثل الذى استوقد نارا الى آخر الآية قال هذه صفة المنافقين كانوا قد آمنوا حتى أضاء الايمان فى قلوبهم كما أضاءت النار لهؤلاء الذين استوقدوا نارا ثم كفروا فذهب الله بنورهم فانتزعه كما ذهب بضوء هذه النار فتركهم فى ظلمات لا يبصرون وأما قول ابن جرير فيشبه ما رواه على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله تعالى مثلهم كمثل الذى استوقد نارا قال هذا مثل ضربه الله للمنافقين انهم كانوا يعتزون بالاسلام فيناكحهم المسلمون ويوارثونهم ويقاسمونهم
الفىء فلما ماتوا سلبهم الله ذلك العز كما سلب صاحب النار ضوءه وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية مثلهم
كمثل الذى استوقد نارا فانما ضوء النار ما أوقدتها فاذا خمدت ذهب نورها وكذلك المنافق كلما تكلم بكلمة الاخلاص بلا اله الا الله
أضاء له فاذا شك وقع فى الظلمة وقال الضحاك ذهب الله بنورهم أما نورهم فهو ايمانهم الذى تكلموا به وقال عبد الرزاق عن معمر
عن قتادة مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله فهى لا اله الا الله أضاءت لهم فاكلوا بها وشربوا وآمنوا فى الدنيا
وأنكحوا النساء وحقنوا دماءهم حتى اذا ماتوا ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون وقال سعيد عن قتادة فى هذه الآية

الاستيلاء الا بالاسلام لانهم كانوا قبل الاسلام محصورين فى البادية لا يتجاسرون على
الدخول فى أوائل العراق وأوائل الشام الا على أتم خوف فلما جاء الاسلام استولوا على
الشرق والغرب بالاسلام ومازجوا الامم ووطؤا بلادهم ومازجتهم الامم وحجوا بيتهم
ودخلوا باديتهم بسبب مجاورة الكعبة فلو لم يكن النبى صلى الله عليه وآله وسلم صادقا
لكانت هذه المخالطة منهم للامم ومن الامم لهم معصية لله تعالى وخروجا عن طاعته الى
طاعة الشيطان والله يتعالى عن أن يبشر بما هذا سبيله والثانى جاء فى الفصل الحادى عشر
من السفر الخامس ان الرب الهكم يقيم لكم نبيا مثلى من بينكم ومن اخوانكم وفى هذا
الفصل ان الرب تعالى قال لموسى انى مقيم لهم نبيا مثلك من بين اخوانهم وأيما رجل لم يسمع
كلماتى التى يؤديها عنى ذلك الرجل باسمى أنا أنتقم منه وهذا الكلام يدل على ان النبى
الذى يقيمه الله تعالى ليس من بنى اسرائيل كما أن من قال لبنى هاشم انه سيكون من
اخوانكم امام عقل منه أنه لا يكون من بنى هاشم ثم ان يعقوب عليه السلام هو اسرائيل
ولم يكن له أخ الا العيص ولم يكن للعيص ولد من الانبياء سوى أيوب وانه كان قبل موسى
عليه السلام فلا يجوز أن يكون موسى عليه السلام مبشرا به واما اسمعيل فانه كان أخا
لاسحق والد يعقوب ثم ان كل نبى بعث بعد موسى كان من بنى اسرائيل فالنبى عليه السلام
ما كان منهم لكنه كان من اخوانهم لانه من ولد اسمعيل الذى هو أخو اسحق عليهم السلام
فان قيل قوله من بينكم يمنع من أن يكون المراد محمدا صلى الله عليه وآله وسلم لانه لم يقم من
بين بنى اسرائيل قلنا بل قد قام من بينهم لانه عليه السلام ظهر بالحجاز فبعث بمكة وهاجر الى
المدينة وبها تكامل أمره وقد كان حول المدينة بلاد اليهود كخيبر وبنى قينقاع والنضير
وغيرهم وأيضا فان الحجاز يقارب الشام وجمهور اليهود كانوا اذ ذاك بالشام فاذا قام محمد
صلى الله عليه وآله وسلم بالحجاز فقد قام من بينهم وأيضا فانه اذا كان من اخوانهم فقد قام
من بينهم فانه ليس ببعيد منهم والثالث قال فى الفصل العشرين من هذا السفر ان الرب
تعالى جاء فى طور سيناء وطلع لنا من ساعير وظهر من جبال فاران وصف عن يمينه عنوات
القديسين فمنحهم العز وحببهم الى الشعوب ودعا لجميع قديسيه بالبركة وجه الاستدلال
ان جبل فاران هو بالحجاز لان فى التوراة ان اسمعيل تعلم الرمى فى برية فاران ومعلوم أنه
انما سكن بمكة اذا ثبت هذا فنقول ان قوله فمنحهم العز لا يجوز أن يكون المراد اسمعيل

[illegible] لا اله الا الله أضاءت له فى الدنيا فناكح بها المسلمين وغازاهم بها ووارثهم بها وحقن بها دمه وماله فلما مات سلبها المنافق لانه لم يكن لها أصل فى قلبه ولا حقيقة فى عمله وتركهم فى ظلمات لا يبصرون قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس وتركهم فى ظلمات لا يبصرون يقول فى عذاب اذا ماتوا وقال محمد بن اسحق عن محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس وتركهم فى ظلمات أى يبصرون الحق ويقولون به حتى اذا خرجوا من ظلمة الكفر أطفؤه بكفرهم ونفاقهم فيه فتركهم فى ظلمات الكفر فهم لا يبصرون هدى ولا يستقيمون على حق (٩٤) وقال السدى فى تفسيره بسنده وتركهم فى ظلمات فكانت الظلمة نفاقهم وقال الحسن البصرى وتركهم فى ظلمات لا يبصرون فذلك حين يموت المنافق فيظلم عليه عمله عمل السوء فلا يجد له عملا من خير عمل به يصدق به قول لا اله الا الله صم بكم عمى قال السدى بسنده صم بكم عمى فهم خرس عمى وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس صم بكم عمى يقول لا يسمعون الهدى ولا يبصرونه ولا يعقلونه وكذا قال أبو العالية وقتادة بن دعامة فهم لا يرجعون قال ابن عباس أى لا يرجعون الى هدى وكذا قال الربيع بن أنس وقال السدى بسنده صم بكم عمى فهم لا يرجعون الى الاسلام وقال قتادة فهم لا يرجعون أى لا يتوبون ولا هم يذكرون * (أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه واذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم ان الله على كل شئ قدير)

هذا مثل آخر ضربه الله تعالى لضرب آخر من المنافقين وهم قوم يظهر لهم الحق تارة ويشكون تارة أخرى فقلوبهم ماجاء فى حال شكهم وكفرهم وترددهم كصيب والصيب المطر قاله ابن مسعود وابن عباس وناس من الصحابة وأبو العالية ومجاهد وسعيد ابن جبير وعطاء والحسن البصرى وقتادة وعطية العوفى وعطاء الخراسانى والسدى والربيع بن أنس وقال الضحاك هو السحاب والاشهر هو المطر نزل من السماء فى حال ظلمات وهى الشكوك والكفر والنفاق ورعد وهو ما يزعج القلوب من الخوف فان من شأن المنافقين الخوف الشديد والفزع كما قال تعالى يحسبون كل صيحة عليهم وقال ويحلفون بالله انهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم

عليه السلام لانه لم يحصل عقيب مجئ اسمعيل عليه السلام هذا العز ولا اجتمع هناك ربوات القديسين فوجب حمله على محمد صلى الله عليه وآله وسلم قالت اليهود المراد أن النار لما ظهرت من طور سيناء ظهرت من ساعير نار أيضا ومن جبل فاران أيضا فانتشرت فى هذه المواضع قلنا هذا لا يصح لان الله تعالى لو خلق نارا فى موضع فانه لا يقال جاء الله من ذلك الموضع الا اذا تبع تلك الواقعة وحى نزل فى ذلك الموضع أو عقوبة وما أشبه ذلك وعندكم أنه لم يتبع ظهور النار وحى ولا كلام الا من طور سيناء فما كان ينبغى الا أن يقال جاء الله من طور سيناء فاما أن يقال ظهر من ساعير ومن جبل فاران فلا يجوز وروده كما لا يقال جاء الله من الغمام اذا ظهر فى الغمام احتراق ونيران كما يتفق ذلك فى أيام الربيع وأيضا ففى كتاب حبقوق بيان ما قلناه وهو جاء الله من طور سيناء والقدس من جبل فاران وانكشفت السماء من بهاء محمد وامتلأت الارض من حمده يكون شعاع منظره مثل النور يحفظ بلده بعزه تسير المنايا أمامه ويصحب سباع الطير أجناده قام فمسح الارض وتأمل الامم وبحث عنها فتضعضعت الجبال القديمة واتضعت الروابى الدهرية وتزعزعت ستور أهل مدين ركبت الخيول وعلوت مراكب الانقياد والغوث وستنزع فى قسيك اغراقا ونزعا وترتوى السهام بامرك يا محمد ارتواء وتخور الارض بالانهار ولقد رأتك الجبال فارتاعت وانحرف عنك شؤبوب السيل ونفرت المهارى نفيرا ورعبا ورفعت أيديها وجلا وفرقا وتوقفت الشمس والقمر عن مجراهما وسارت العساكر فى برق سهامك ولمعان بيانك تدوخ الارض غضبا وتدوس الامم زجرا لانك ظهرت بخلاص أمتك وانقاذ تراب آبائك هكذا نقل عن ابن رزين الطبرى أما النصارى فقال أبو الحسين رحمه الله تعالى فى كتاب الغرر قد رأيت فى نقولهم وظهر من جبال فاران لقد تقطعت السماء من بهاء محمد المحمود وترتوى السهام بامرك المحمود لانك ظهرت بخلاص أمتك وانقاذ مسيحك فظهر بما ذكرنا ان قوله تعالى فى التوراة ظهر الرب من جبال فاران ليس معناه ظهور النار منه بل معناه ظهور شخص موصوف بهذه الصفات وما ذاك الا رسولنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فان قالوا المراد مجئ الله تعالى ولهذا قال فى آخر الكلام وانقاذ مسيحك قلنا لا يجوز وصف الله تعالى بانه ركب الخيول وبان شعاع منظره مثل النور وبانه جاز المشاعر القديمة وأما قوله وانقاذ مسيحك فان محمدا عليه السلام أنقذ المسيح من كذب اليهود والنصارى والرابع

قوم يفرقون لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلا لولوا اليه وهم يجمحون والبرق هو ما يلمع في قلوب هؤلاء الضرب من المنافقين
في بعض الاحيان من نور الايمان ولهذا قال يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين أي و
يجدي عنهم حذرهم شيأ لان الله محيط بقدرته وهم تحت مشيئته وارادته كما قال هل أتاك حديث الجنود فرعون وثمود بل الذين
كفروا في تكذيب والله من ورائهم محيط بهم ثم قال يكاد البرق يخطف أبصارهم أي لشدته وقوته في نفسه وضعف بصائرهم وعدم
ثباتها للايمان وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس يكاد البرق يخطف (٩٥) أبصارهم يقول يكاد محكم القرآن يدل على
عورات المنافقين وقال ابن اسحق حدثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس يكاد البرق يخطف أبصارهم أي لشدة ضوء الحق كلما أضاء لهم مشوا فيه واذا أظلم عليهم قاموا أي كلما ظهر لهم من الايمان شئ استأنسوا به واتبعوه وتارة تعرض لهم الشكوك أظلمت قلوبهم فوقفوا حائرين وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس كلما أضاء لهم مشوا فيه يقول كلما أصاب المنافقين من عز الاسلام اطمأنوا اليه واذا أصاب الاسلام نكبة قاموا ليرجعوا الى الكفر كقوله تعالى ومن الناس من يعبد الله على حرف فان أصابه خير اطمأن به وقال محمد ابن اسحق عن محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس كلما أضاء لهم مشوا فيه واذا أظلم عليهم قاموا أي يعرفون الحق ويتكلمون به فهم من قولهم به على استقامة فاذا ارتكسوا منه الى الكفر قاموا أي متحيرين وهكذا قال أبو العالية والحسن البصري وقتادة والربيع بن أنس
والسدي بسنده عن الصحابة وهو أصح وأظهر والله أعلم وهكذا يكونون يوم القيامة عندما يعطى الناس النور بحسب ايمانهم
فمنهم من يعطى من النور ما يضيء له مسيرة فراسخ وأكثر من ذلك وأقل من ذلك ومنهم من يطفأ نوره تارة ويضيء أخرى ومنهم من
يمشي على الصراط تارة ويقف أخرى ومنهم من يطفأ نوره بالكلية وهم الخلص من المنافقين الذين قال تعالى فيهم يوم يقول
المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا وقال في حق المؤمنين يوم ترى
المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الانهار الآية وقال تعالى يوم لا يخزي الله

ما جاء في كتاب شعيا في الفصل الثاني والعشرين منه قومي فازهري مصباحك يريد مكة
فقد دنا وقتك وكرامة الله تعالى طالعة عليك فقد تجلل الارض الظلام وغطى على الامم
الضباب والرب يشرق عليك اشراقا ويظهر كرامته عليك تسير الامم الى نورك والملوك
الى ضوء طلوعك وارفعي بصرك الى ما حولك وتاملي فانهم مستجمعون عندك
ويحجونك ويأتيك ولدك من بعيد لانك أم القرى فاولاد سائر البلاد كأنهم أولاد مكة
وتتزين ثيابك على الارائك والسرر حتى ترين ذلك تسرين وتبتهجين من أجل انه يميل
اليك ذخائر البحر ويحج اليك عساكر الامم ويساق اليك كباش مدين ويأتيك أهل سبا
ويتحدثون بنعم الله ويمجدونه وتسير اليك أغنام فاران ويرفع الى مذبحي ما يرضيني وأحدث
حينئذ لبيت محمدتي حمدا فوجه الاستدلال ان هذه الصفات كلها موجودة لمكة فانه قد
حج اليها عساكر الامم ومال اليها ذخائر البحر وقوله أحدث لبيت محمدتي حمدا معناه ان
العرب كانت تلبي قبل الاسلام فتقول لبيك لا شريك لك الا شريك هو لك تملكه وما ملك
ثم صار في الاسلام لبيك اللهم لبيك لا شريك لك لبيك فهذا هو الحمد الذي جدده الله لبيت
محمدته فان قيل المراد بذلك بيت المقدس وسيكون ذلك فيما بعد قلنا لا يجوز أن يقول
الحكيم قد دنا وقتك مع أنه ما دنا بل الذي دنا أمر لا يوافق رضاه ومع ذلك لا يحذر منه
وأيضا فان كتاب شعيا مملوء من ذكر البادية وصفتها وذلك يبطل قولهم الخامس روى
السمان في تفسيره في السفر الاول من التوراة أن الله تعالى أوحى الى ابراهيم عليه السلام
قال قد أجبت دعاءك في اسمعيل وباركت عليه فكبرته وعظمته جدا جدا وسيلد اثني عشر
عظيما وأجعله لامة عظيمة والاستدلال به أنه لم يكن في ولد اسمعيل من كان لامة عظيمة غير
نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فاما دعاء ابراهيم عليه السلام واسمعيل فكان لرسولنا
عليه الصلاة والسلام لما فرغا من بناء الكعبة وهو قوله ربنا وابعث فيهم رسولا منهم
يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك أنت العزيز الحكيم ولهذا كان
يقول عليه الصلاة والسلام انا دعوة أبي ابراهيم وبشارة عيسى وهو قوله ومبشرا برسول
يأتي من بعدي اسمه أحمد فانه مشتق من الحمد والاسم المشتق من الحمد ليس الا لنبينا فان
اسمه محمد وأحمد ومحمود وقيل ان صفته في التوراة ان مولده بمكة ومسكنه بطيبة وملكه
بالشام وأمته الحمادون والسادس قال المسيح للحواريين أنا أذهب وسيأتيكم الفارقليط

النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا انك على كل شئ قدير * (ذكر الحديث الوارد في ذلك) * قال سعيد بن أبي عروبة في قوله تعالى يوم ترى المؤمنين والمؤمنات الآية ذكر لنا ان نبي الله صلى الله عليه وسلم كان يقول من المؤمنين من يضيء نوره من المدينة الى عدن أبين بصنعاء ودون ذلك حتى ان من المؤمنين من لا يضيء نوره الا موضع قدميه رواه ابن جرير ورواه ابن أبي حاتم من حديث عمران بن داود القطان عن قتادة بنحوه وهذا كما قال المنهال بن عمرو عن قيس ابن السكن عن عبد الله بن مسعود قال يؤتون (٩٦) نورهم على قدر أعمالهم فمنهم من يؤتى نوره كالنخلة ومنهم من يؤتى نوره كالرجل القائم وأدناهم نورا على ابهامه يطفأ مرة ويتقد مرة وهكذا رواه ابن جرير عن ابن مثنى عن ابن ادريس عن أبيه عن المنهال وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا محمد بن علي بن محمد الطنافسي حدثنا ابن ادريس سمعت أبي يذكر عن المنهال بن عمرو عن قيس بن السكن عن عبد الله بن مسعود نورهم يسعى بين أيديهم قال على قدر أعمالهم يمرون على الصراط منهم من نوره مثل الجبل ومنهم من نوره مثل النخلة وأدناهم نورا من نوره في ابهامه يتقد مرة ويطفأ أخرى. وقال ابن أبي حاتم أيضا حدثنا محمد بن اسمعيل الاحمسي حدثنا أبو يحيى الحماني حدثنا عتبة بن اليقظان عن عكرمة عن ابن عباس قال ليس أحد من أهل التوحيد الا يعطى نورا يوم القيامة فاما المنافق فيطفأ نوره فالمؤمن مشفق مما يرى من اطفاء نور المنافقين فهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا وقال الضحاك بن مزاحم يعطى كل من كان يظهر الايمان في الدنيا يوم القيامة نورا فاذا انتهى الى الصراط طفئ نور المنافقين فلما رأى ذلك المؤمنون أشفقوا فقالوا ربنا أتمم لنا نورنا فاذا تقرر هذا صار الناس أقساما مؤمنون خلص وهم الموصوفون بالآيات الاربع في أول البقرة وكفار خلص وهم الموصوفون بالآيتين بعدها ومنافقون وهم قسمان خلص وهم المضروب لهم المثل الناري ومنافقون يترددون تارة يظهر لهم لمع الايمان وتارة يخبو وهم أصحاب المثل المائي وهم أخف حالا من الذين قبلهم وهذا المقام يشبه من بعض الوجوه ما ذكر في سورة النور من ضرب مثل المؤمن وما جعل الله في قلبه من الهدى والنور بالمصباح في الزجاجة التي كأنها كوكب دري وهي قلب المؤمن المفطور على الايمان

روح الحق الذي لا يتكلم من قبل نفسه انما يقول كما يقال له وتصديق ذلك ان أتبع الا ما يوحى الي وقوله قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي ان أتبع الا ما يوحى الي أما الفارقليط ففي تفسيره وجهان أحدهما انه الشافع المشفع وهذا أيضا صفته عليه الصلاة والسلام الثاني قال بعض النصارى الفارقليط هو الذي يفرق بين الحق والباطل وكان في الاصل فاروق كما يقال راووق للذي يروق به وأما لط فهو التحقيق في الامر كما يقال شيب أشيب ذو شيب وهذا أيضا صفة شرعنا لانه هو الذي يفرق بين الحق والباطل والسابع قال دانيال لبخت نصر حين سأله عن الرؤيا التي كان رآها من غير ان قصها عليه رأيت أيها الملك منظرا هائلا رأسه من الذهب الابريز وساعده من الفضة وبطنه وفخذاه من نحاس وساقاه من حديد وبعض رجليه من حديد وبعضها من خزف ورأيت حجرا يقطع من غير قاطع وصك رجل ذلك الصنم ودقها دقا شديدا فتفتت الصنم كله حديده ونحاسه وفضته وذهبه وصارت رفاتا وعصفت بها الرياح فلم يوجد لها أثر وصار ذلك الحجر الذي صك ذلك الرجل من ذلك الصنم جبلا عاليا امتلأت به الارض فهذا رؤياك أيها الملك وأما تفسيرها فأنت الرأس الذي رأيته من الذهب ويقوم بعدك مملكة أخرى دونك والمملكة الثالثة التي تشبه النحاس تنبسط على الارض كلها والمملكة الرابعة تكون قوتها مثل الحديد وأما الرجل التي كان بعضها من حديد وبعضها من خزف فان بعض المملكة يكون عزيزا وبعضها يكون ذليلا وتكون كلمة الملك متفرقة ويقيم اله السماء في تلك الايام مملكة أبدية لا تتغير ولا تزول وانها تزيل جميع الممالك وسلطانها يبطل جميع السلاطين وتقوم هي الى الدهر الدهر فهذا تفسير الحجر الذي رأيت أنه يقطع من جبل بلا قاطع حتى دق الحديد والنحاس والخزف والله أعلم بما يكون في آخر الزمان فهذه هي البشارات الواردة في الكتب المتقدمة بمبعث رسولنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وبارك وسلم ذكره الرازي وقال الزجاج المراد بالعهد ما أخذ عليهم في التوراة من اتباع محمد صلى الله عليه وآله وسلم وقيل هو أداء الفرائض وقيل أراد جميع ما أمر الله به من غير تخصيص ببعض التكاليف دون بعض ولا مانع من حمله على جميع ذلك (أوف بعهدكم) أي بما ضمنت لكم من الجزاء وقيل بالقبول والثواب عليه بدخول الجنة (واياي فارهبون) أي خافون في نقضكم العهد والرهب والرهبة الخوف ويتضمن الامر به معنى التهديد وتقديم

معقول

واستمداده من الشريعة الخالصة الصافية الواصلة اليه من غير كدر ولا تخليط كما سيأتي تقريره في موضعه ان شاء الله ثم ضرب مثل العباد من الكفار الذين يعتقدون أنهم على شئ وليسوا على شئ وهم أصحاب الجهل المركب في قوله تعالى والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا الآية ثم ضرب مثل الكفار الجهال الجهل البسيط وهم الذين قال تعالى فيهم أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض اذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فماله من نور فقسم الكفار ههنا الى قسمين داعية ومقلد كما ذكرهما في أول سورة الحج ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد وقال ومن الناس من يجادل (٩٧) في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير وقد قسم الله المؤمنين في أول الواقعة وفي آخرها وفي سورة الانسان الى قسمين سابقون وهم المقربون وأصحاب يمين وهم الابرار فتلخص من مجموع هذه الآيات الكريمات ان المؤمنين صنفان مقربون وأبرار وان الكافرين صنفان دعاة ومقلدون وان المنافقين أيضا صنفان منافق خالص ومنافق فيه شعبة من نفاق كما جاء في الصحيحين عن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم ثلاث من كن فيه كان منافقا خالصا ومن كانت فيه واحدة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها من اذا حدث كذب واذا وعد أخلف واذا أئتمن خان استدلوا به على ان الانسان قد تكون فيه شعبة من ايمان وشعبة من نفاق اما عملي لهذا الحديث أو اعتقادي كما دلت عليه الآية كما ذهب اليه طائفة من السلف وبعض العلماء كما تقدم وكما سيأتي ان شاء الله قال الامام أحمد حدثنا أبو النضر حدثنا أبو معاوية يعني شيبان عن ليث عن عمرو بن مرة عن أبي البختري عن أبي سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم القلوب أربعة قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر وقلب أغلف مربوط على غلافه وقلب منكوس وقلب مصفح فاما القلب الاجرد فقلب المؤمن فسراجه فيه نوره وأما القلب الاغلف فقلب الكافر وأما القلب المنكوس فقلب المنافق الخالص عرف ثم أنكر وأما القلب المصفح فقلب فيه ايمان ونفاق ومثل الايمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والدم فاي المادتين غلبت على الاخرى غلبت عليه وهذا اسناد جيد حسن وقوله تعالى ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم ان الله على

معمول الفعل يفيد الاختصاص قال صاحب الكشاف وهو آكد في افادة التخصيص من اياك نعبد والفاء جواب أمر مقدر أي تنبهوا فارهبون أو زائدة وسقطت الياء من قوله فارهبون لانها رأس آية (وآمنوا بما أنزلت) يعني القرآن (مصدقا لما معكم) أي لما في التوراة من التوحيد والنبوة والاخبار ونعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم (ولا تكونوا أول كافر به) المراد أهل الكتاب لانهم العارفون بما يجب للانبياء وما يلزم من التصديق أي لا تكونوا يا معشر اليهود أول كافر بهذا النبي صلى الله عليه وآله وسلم مع كونكم قد وجدتموه مكتوبا عندكم في التوراة والانجيل مبشرا به في الكتب المنزلة عليكم وقد حكى الرازي في تفسيره في هذا الموضع ما وقف عليه من البشارات برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الكتب السابقة وقيل الضمير في به عائد الى القرآن المدلول عليه بقوله بما أنزلت وقيل عائد الى التوراة المدلول عليها بقوله لما معكم والخطاب لجماعة والكافر لفظه واحد وهو في معنى الجمع أي أول الكفار أو أول فريق كافر ومفهوم الصفة غير مراد هنا فلا يرد أن المعنى بل آخر كافر وانما ذكرت الاولية لانها أفحش لما فيها من الابتداء بالكفر بل يجب ان تكونوا أول فريق مؤمن به لانكم أهل نظر في معجزاته والعلم بشأنه وصفاته (ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا) أي لا تستبدلوا ببيان صفة محمد صلى الله عليه وآله وسلم التي في التوراة عوضا يسيرا من الدنيا لان الدنيا بالنسبة الى الآخرة كالشئ اليسير الحقير الذي لا قيمة له والذي كانوا يأخذونه من الدنيا كالشئ اليسير بالنسبة الى جميعها فهو قليل القليل وهذه الآية وان كانت خطابا لبني اسرائيل ونهيا لهم فهي متناولة لهذه الامة بفحوى الخطاب أو بلحنه فمن أخذ من المسلمين رشوة على ابطال حق أمر الله به أو اثبات باطل نهى الله عنه أو امتنع من تعليم ما علمه الله وكتم البيان الذي أخذ الله عليه ميثاقه به فقد اشترى بآيات الله ثمنا قليلا (واياي فاتقون) بالايمان واتباع الحق والاعراض عن حطام الدنيا ولما كانت الآية السابقة مشتملة على ما هو كالمبادي لما في الآية الثانية فصلت بالرهبة التي هي من مقدمات التقوى أولان الخطاب بها لما عم العالم والمقلد أمر فيها بالرهبة المتناولة للفريقين واما الخطاب بالثانية فحيث خص بالعلماء أمر فيها بالتقوى الذي هو المنتهى وباقي الكلام فيه كالكلام في قوله واياي فارهبون وقد تقدم قريبا (ولا تلبسوا الحق بالباطل) أي ولا تكتبوا في التوراة ما ليس فيها فيختلط الحق المنزل

كل شئ قدير قال محمد بن اسحق حدثنى محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله تعالى ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم قال لما تركوا من الحق بعد معرفته ان الله على كل شئ قدير قال ابن عباس أى ان الله على كل ما أراد بعباده من نقمة أو عفو قدير وقال ابن جرير انما وصف الله تعالى نفسه بالقدرة على كل شئ فى هذا الموضع لانه حذر المنافقين بأسه وسطوته وأخبرهم انه بهم محيط وعلى اذهاب أسماعهم وأبصارهم قدير ومعنى قدير قادر كما معنى عليم عالم وذهب ابن جرير ومن تبعه من كثير من المفسرين الى ان هذين المثلين مضروبان لصنف واحد من المنافقين وتكون أو فى قوله تعالى أو كصيب من السماء بمعنى الواو كقوله تعالى ولا تطع منهم آثما أو كفورا (٩٨) أو تكون للتخيير أى اضرب لهم مثلا بهذا وان شئت بهذا قال القرطبى أو للتساوى مثل جالس الحسن أو ابن سيرين على ما وجهه الزمخشرى ان كلا منهما مساو للآخر فى اباحة الجلوس اليه ويكون معناه على قوله سواء ضربت لهم مثلا بهذا أو بهذا فهو مطابق لحالهم (قلت) وهذا يكون باعتبار جنس المنافقين فانهم أصناف ولهم أحوال وصفات كما ذكرها الله تعالى فى سورة براءة ومنهم ومنهم ومنهم يذكر أحوالهم وصفاتهم وما يعتمدونه من الافعال والاقوال فجعل هذين المثلين لصنفين منهم أشد مطابقة لاحوالهم وصفاتهم والله أعلم كما ضرب المثلين فى سورة النور لصنفى الكفار الدعاة والمقلدين فى قوله تعالى والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة الى أن قال أو كظلمات فى بحر لجى الآية فالاول للدعاة الذين هم فى جهل مركب والثانى لذوى الجهل البسيط من الاتباع المقلدين والله أعلم بالصواب (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون الذى جعل لكم الارض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون) شرع تبارك وتعالى فى بيان وحدانية ألوهيته بانه تعالى هو المنعم على عبيده باخراجهم من العدم الى الوجود واسباغه عليهم النعم الظاهرة والباطنة بان جعل لهم الارض فراشا أى مهدا كالفراش مقررة موطأة مثبتة بالرواسى الشامخات والسماء بناء وهو السقف كما قال فى الآية الاخرى وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون وأنزل لهم من السماء ماء والمراد به السحاب ههنا فى وقته عند احتياجهم اليه فأخرج لهم به من أنواع الزروع والثمار ما هو مشاهد رزقا لهم ولانعامهم كما قرر هذا فى غير موضع من

بالباطل الذى كتبتم وقيل لا تخلطوا الحق من صفة محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالباطل من تغيير صفته واللبس الخلط وقيل هو مأخوذ من التغطية أى لا تغطوا الحق بالباطل والاول أولى والباء للالصاق على الاول وقيل للاستعانة واستبعده أبو حيان وقال فيه صرف عن الظاهر من غير ضرورة قال السمين ولا أدرى ما هذا الاستبعاد مع وضوح هذا المعنى الحسن والباطل فى كلام العرب الزائل والباطل الشيطان والمراد به هنا خلاف الحق والمراد النهى عن كتم حجج الله التى أوجب عليهم تبليغها وأخذ عليهم بيانها ومن فسر اللبس أو الكتمان بشئ معين ومعنى خاص كما تقدم فلم يصب ان أراد أن ذلك هو المراد دون غيره لا ان أراد انه مما يصدق عليه (وتكتموا الحق) لما فيه من الضرر والفساد وفيه ان العالم بالحق يجب عليه اظهاره ويحرم عليه كتمانه وفيه تنبيه لسائر الخلق وتحذير من مثله فصار هذا الخطاب وان كان خاصا فى الصورة عاما فى المعنى فعلى كل أحد أن لا يلبس الحق بالباطل ولا يكتم الحق (وأنتم تعلمون) فيه أن كفرهم كفر عناد لا كفر جهل وذلك أغلظ للذنب وأوجب للعقوبة وهذا التقييد لا يفيد جواز اللبس والكتمان مع الجهل لان الجاهل يجب عليه أن لا يقدم على شئ حتى يعلم بحكمه خصوصا فى أمور الدين فان التكلم فيها والتصدى للاصدار والايراد فى أبوابها انما أذن الله به لمن كان رأسا فى العلم فردا فى الفهم وما للجهال والدخول فيما ليس من شأنهم والقعود فى غير مقاعدهم واعلم ان كثيرا من المفسرين جاؤا بعلم متكلف وخاضوا فى بحر لم يكلفوا سباحته واستغرقوا أوقاتهم فى فن لا يعود عليهم بفائدة بل أوقعوا أنفسهم فى التكلم بمحض الرأى المنهى عنه فى الامور المتعلقة بكتاب الله سبحانه وذلك انهم أرادوا ان يذكروا المناسبة بين الآيات القرآنية المسرودة على هذا الترتيب الموجود فى المصاحف فجاؤا بتكلفات وتعسفات يتبرأ منها الانصاف ويتنزه عنها كلام البلغاء فضلا عن كلام الرب سبحانه حتى أفردوا ذلك بالتصنيف وجعلوه المقصد الاهم من التاليف كما فعله البقاعى فى تفسيره ومن تقدمه ومن تأخره وان هذا لمن أعجب ما يسمعه من يعرف ان هذا القرآن ما زال ينزل مفرقا على حسب الحوادث المقتضية لنزوله منذ نزل الوحى على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الى أن قبضه الله عز وجل اليه وكل عاقل فضلا عن عالم لا يشك ان هذه الحوادث المقتضية لنزول القرآن متخالفة باعتبار نفسها بل قد تكون متناقضة كتحريم أمر كان حلالا وتحليل أمر

القرآن ومن أشبه آية بهذه الآية قوله تعالى الله الذى جعل لكم الارض قرارا والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين ومضمونه أنه الخالق الرازق مالك الدار وساكنيها ورازقهم فبهذا يستحق أن يعبد وحده ولا يشرك به غيره ولهذا قال فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون وفى الصحيحين عن ابن مسعود قال قلت يارسول الله أى الذنب أعظم عند الله قال أن تجعل لله ندا وهو خلقك الحديث وكذا حديث معاذ أتدرى ماحق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيأ الحديث وفى الحديث الآخر لا يقولن أحدكم ماشاء الله (٩٩) وشاء فلان ولكن ليقل ماشاء الله ثم شاء فلان وقال حماد بن سلمة حدثنا عبد الملك بن عمير عن ربعى بن حراش عن الطفيل بن سخبرة أخى عائشة أم المؤمنين لأمها قال رأيت فيما يرى النائم كأنى أتيت على نفر من اليهود فقلت من أنتم قالوا نحن اليهود قلت انكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون عزير ابن الله قالوا وانكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون ماشاء الله وشاء محمد قال ثم مررت بنفر من النصارى فقلت من أنتم قالوا نحن النصارى قلت انكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون المسيح ابن الله قالوا وانكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون ماشاء الله وشاء محمد فلما أصبحت أخبرت بها من أخبرت ثم أتيت النبى صلى الله عليه وسلم فأخبرته فقال هل أخبرت بها أحدا قلت نعم فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أما بعد فان طفيلا رأى رؤيا أخبر بها من أخبر منكم وانكم قلتم كلمة كان يمنعنى كذا وكذا أن أنهاكم عنها فلا تقولوا ماشاء الله وشاء محمد ولكن قولوا ماشاء الله وحده هكذا رواه ابن مردويه فى تفسير هذه الآية من حديث حماد بن سلمة به وأخرجه ابن ماجه من وجه آخر عن عبد الملك بن عمير به بنحوه وقال سفيان بن سعيد الثورى عن الاجلح بن عبد الله الكندى عن يزيد بن الاصم عن ابن عباس قال قال رجل للنبى صلى الله عليه وسلم ماشاء الله وشئت فقال أجعلتنى لله ندا قل ماشاء الله وحده رواه ابن مردويه وأخرجه النسائى وابن ماجه من حديث عيسى بن يونس عن الاجلح به وهذا كله صيانة وحماية لجناب التوحيد والله أعلم وقال محمد بن اسحق حدثنى محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس قال قال الله تعالى يا أيها الناس اعبدوا ربكم للفريقين جميعا من الكفار والمنافقين أى وحدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم

كان حراما واثبات أمر لشخص أو أشخاص يناقض ما كان قد ثبت لهم قبله وتارة يكون الكلام مع المسلمين وتارة مع الكافرين وتارة مع من مضى وتارة مع من حضر وحينا فى عبادة وحينا فى معاملة ووقتا فى ترغيب ووقتا فى ترهيب وآونة فى بشارة وآونة فى نذارة وطورا فى أمر دنيا وطورا فى أمر آخرة ومرة فى تكاليف آتية ومرة فى أقاصيص ماضية واذا كانت أسباب النزول مختلفة هذا الاختلاف ومتباينة هذا التباين الذى لا يتيسر معه الائتلاف فالقرآن النازل فيها هو باعتبار نفسه مختلف كاختلافها فكيف يطلب العاقل المناسبة بين الضب والنون والماء والنار والملاح والحادى وهل هذا الا من فتح أبواب الشك وتوسيع دائرة الريب على من فى قلبه مرض أو كان مرضه مجرد الجهل والقصور فانه اذا وجد أهل العلم يتكلمون فى التناسب بين جميع آى القرآن ويفردون ذلك بالتصنيف تقرر عنده أن هذا أمر لابد منه وأنه لا يكون القرآن بليغا معجزا الا اذا ظهر الوجه المقتضى للمناسبة وتبين الامر الموجب للارتباط فان وجد الاختلاف بين الآيات رجع الى ماقاله المتكلمون فى ذلك فوجده تكلفا محضا وتعسفا بينا انقدح فى قلبه ما كان عنه فى عافية وسلامة هذا على فرض أن نزول القرآن كان مترتبا على هذا الترتيب الكائن فى المصحف فكيف وكل من له أدنى علم بالكتاب وأيسر حظ من معرفته يعلم علما يقينا أنه لم يكن كذلك ومن شك فى هذا وان لم يكن مما يشك فيه أهل العلم رجع الى كلام أهل العلم العارفين بأسباب النزول المطلعين على حوادث النبوة فانه ينثلج صدره ويزول عنه الريب بالنظر فى سورة من السور المتوسطة فضلا عن المطولة فانه لا محالة يجدها مشتملة على آيات نزلت فى حوادث مختلفة وأوقات متباينة لا مطابقة بين أسبابها وما نزل فيها فى الترتيب بل يكفى المقصر أن يعلم ان أول ما نزل اقرأ باسم ربك الذى خلق وبعده يا أيها المدثر يا أيها المزمل وينظر أين موضع هذه الآيات والسور فى ترتيب المصحف واذا كان الامر هكذا فأى معنى لطلب المناسبة بين آيات نعلم قطعا أنه قد تقدم فى ترتيب المصحف ما أنزله الله متأخرا وتأخر ما أنزله الله متقدما فان هذا عمل لا يرجع الى ترتيب نزول القرآن بل الى ماوقع من الترتيب عند جمعه ممن تصدى لذلك من الصحابة وما أقل نفع مثل هذا وأنزر ثمرته وأحقر فائدته بل هو عند من يفهم مايقول وما يقال له من تضييع الاوقات وانفاق الساعات فى

وبه عن ابن عباس فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون أى لا تشركوا بالله غيره من الانداد التى لا تنفع ولا تضر وأنتم تعلمون أنه لا رب لكم يرزقكم غيره وقد علمتم أن الذى يدعوكم اليه الرسول صلى الله عليه وسلم من التوحيد هو الحق الذى لا شك فيه وهكذا قال قتادة وقال ابن أبى حاتم حدثنا أحمد بن عمرو بن أبى عاصم حدثنا أبى عمرو حدثنا أبى الضحاك بن مخلد أبو عاصم حدثنا شبيب بن بشر حدثنا عكرمة عن ابن عباس فى قول الله عز وجل فلا تجعلوا لله أندادا قال الانداد هو الشرك أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء فى ظلمة الليل وهو أن يقول والله وحياتك يا فلان وحياتى ويقول لولا كلبة هذا لأتانا اللصوص البارحة ولولا البط فى الدار لأتى اللصوص وقول الرجل لصاحبه ماشاء الله وشئت وقول الرجل لولا الله وفلان لا تجعل فيها فلان هذا كله به شرك وفى الحديث ان رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ماشاء الله وشئت قال أجعلتنى لله ندا وفى الحديث الآخر نعم القوم أنتم لولا أنكم تنددون تقولون ماشاء الله وشاء فلان قال أبو العالية فلا تجعلوا لله أندادا أى عدلاء شركاء وهكذا قال الربيع بن أنس وقتادة والسدى وأبو مالك واسمعيل بن أبى خالد وقال مجاهد فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون قال تعلمون أنه اله واحد فى التوراة والانجيل * ذكر حديث فى معنى هذه الآية الكريمة قال الامام أحمد حدثنا عفان حدثنا أبو خلف موسى بن خلف وكان يعد من البدلاء حدثنا يحيى بن أبى كثير عن زيد بن سلام عن جده ممطور عن الحرث الاشعرى أن نبى الله صلى الله عليه وسلم قال ان الله عز وجل أمر يحيى بن زكريا عليه السلام بخمس كلمات أن يعمل بهن وأن يأمر بنى اسرائيل أن يعملوا بهن وأنه كاد أن يبطئ بها فقال له عيسى عليه السلام انك قد أمرت بخمس كلمات أن تعمل بهن وتأمر بنى اسرائيل أن يعملوا بهن فاما أن تبلغهن واما أن أبلغهن فقال يا أخى انى أخشى ان سبقتنى أن أعذب أو يخسف بى قال فجمع يحيى بن زكريا بنى اسرائيل فى بيت المقدس حتى امتلأ المسجد فقعد على الشرف فحمد الله وأثنى عليه ثم قال ان الله أمرنى بخمس كلمات أن أعمل بهن وآمركم أن تعملوا بهن أولهن أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيأ فان مثل ذلك كمثل رجل اشترى عبدا من خالص ماله بورق أو ذهب فجعل يعمل ويؤدى غلته الى غير سيده فأيكم يسره أن يكون عبده كذلك وان الله خلقكم ورزقكم

أمر لا يعود بنفع على فاعله ولا على من يقف عليه من الناس وأنت تعلم أنه لو تصدى رجل من أهل العلم للمناسبة بين ما قاله رجل من البلغاء من خطبه ورسائله وانشاآته أو الى ما قاله شاعر من الشعراء من القصائد التى تكون تارة مدحا وأخرى هجاء وحينا تشبيبا وحينا رثاء وغير ذلك من الانواع المتخالفة فعمد هذا المتصدى الى ذلك المجموع فناسب بين فقره ومقاطعه ثم تكلف تكلفا آخر فناسب بين الخطبة التى خطبها فى الجهاد والخطبة التى خطبها فى الحج والخطبة التى خطبها فى النكاح ونحو ذلك وناسب بين الانشاء الكائن فى العزاء والانشاء الكائن فى الهناء وما يشابه ذلك لعد هذا المتصدى لمثل هذا مصابا فى عقله متلاعبا بأوقاته عابثا بعمره الذى هو رأس ماله واذا كان مثل هذا بهذه المنزلة وهو ركوب الاحموقة فى كلام البشر فكيف تراه يكون فى كلام الله سبحانه الذى أعجزت بلاغته بلغاء العرب وأبكمت فصاحته فصحاء عدنان وقحطان وقد علم كل مقصر وكامل أن الله سبحانه وصف هذا القرآن بأنه عربى وأنزله بلغة العرب وسلك فيه مسالكهم فى الكلام وجرى فيه مجاريهم فى الخطاب وقد علمنا أن خطيبهم كان يقوم المقام الواحد فيأتى بفنون مختلفة وطرائق متباينة فضلا عن المقامين فضلا عن المقامات فضلا عن جميع ما قاله مادام حيا وكذلك شاعرهم ولنكتف بهذا التنبيه على هذه المفسدة التى يعثر فى ساحاتها كثير من المحققين وانما ذكرنا هذا البحث فى هذا الموطن لان الكلام هنا قد انتقل مع بنى اسرائيل بعد أن كان قبله مع أبى البشر آدم عليه السلام فاذا قال متكلف كيف ناسب هذا ما قبله قلنا لا كيف

فدع عنك نهبا صيح فى حجراته * وهات حديثا ما حديث الرواحل

(وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) المراد هنا الصلاة المعهودة وهى صلاة المسلمين يعنى الصلوات الخمس بمواقيتها وحدودها وجميع أركانها على أن التعريف للعهد ويجوز أن يكون للجنس ومثلها الزكاة والايتاء الاعطاء والزكاة مأخوذة من الزكاء وهو النماء وسمى اخراج جزء من المال زكاة أى زيادة مع أنه نقص منه لانها تكثر بركته أو يكثر أجر صاحبه وقيل الزكاة مأخوذة من التطهير كما يقال زكى فلان أى طهر والظاهر ان الصلاة والزكاة والحج والصوم ونحوها قد نقلها الشرع الى معان شرعية هى المرادة بما هو مذكور فى الكتاب والسنة منها وقد تكلم أهل العلم على ذلك بما لا يتسع المقام

فاعبدوه ولا تشركوا به شيأ وأمركم بالصلاة فان الله ينصب وجهه لوجه عبده مالم يلتفت فاذا صليتم فلا تلتفتوا وأمركم بالصيام فان مثل ذلك كمثل رجل معه صرة من مسك فى عصابة كلهم يجد ريح المسك وان خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك وأمركم بالصدقة فان مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فشدوا يديه الى عنقه وقدموه ليضربوا عنقه وقال لهم هل لكم ان أفتدى نفسى منكم فجعل يفتدى نفسه منهم بالقليل والكثير حتى فك نفسه وأمركم بذكر الله كثيرا وان مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعا فى أثره فأتى حصنا حصينا فتحصن فيه وان العبد أحصن ما يكون (١٠١) من الشيطان اذا كان فى ذكر الله قال

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا آمركم بخمس الله أمرنى بهن الجماعة والسمع والطاعة والهجرة والجهاد فى سبيل الله فانه من خرج من الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الاسلام من عنقه الا أن يراجع ومن دعا بدعوى جاهلية فهو من جثى جهنم قالوا يارسول الله وان صام وصلى فقال وان صلى وصام وزعم أنه مسلم فادعوا المسلمين بأسمائهم على ما سماهم الله عز وجل المسلمين المؤمنين عباد الله هذا حديث حسن والشاهد منه فى هذه الآية قوله وان الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيأ وهذه الآية دالة على توحيده تعالى بالعبادة وحده لا شريك له وقد استدل به كثير من المفسرين كالرازى وغيره على وجود الصانع تعالى وهى دالة على ذلك بطريق الاولى فان من تأمل هذه الموجودات السفلية والعلوية واختلاف أشكالها وألوانها وطباعها ومنافعها ووضعها فى مواضع النفع بها محكمة علم قدرة خالقها وحكمته وعلمه واتقانه

وعظيم سلطانه كما قال بعض الاعراب وقد سئل ما الدليل على وجود الرب تعالى فقال ياسبحان الله ان البعر ليدل على البعير وان أثر الاقدام لتدل على المسير فسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج وبحار ذات أمواج ألا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير* وحكى الرازى عن الامام مالك أن الرشيد ساله عن ذلك فاستدل له باختلاف اللغات والاصوات والنغمات وعن أبى حنيفة ان بعض الزنادقة سألوه عن وجود البارى تعالى فقال لهم دعونى فانى مفكر فى أمر قد اخبرت عنه ذكروا لى أن سفينة فى البحر موقرة فيها أنواع من المتاجر وليس بها أحد يحرسها ولا يسوقها وهى مع ذلك تذهب وتجىء وتسير بنفسها وتخترق الامواج العظام حتى تتخلص

المقام لبسطه وقد اختلف أهل العلم فى المراد بالزكاة هنا فقيل المفروضة لاقترانها بالصلاة وقيل صدقة الفطر والظاهر أن المراد ما هو أعم من ذلك (واركعوا مع الراكعين) أى صلوا مع المصلين يعنى محمدا صلى الله عليه وآله وأصحابه وسلم والركوع فى اللغة الانحناء وكل منحن راكع ويستعار الركوع أيضا للانحطاط فى المنزلة وانما خص الركوع بالذكر هنا لان اليهود لا ركوع فى صلاتهم وقيل لكونه كان ثقيلا على أهل الجاهلية وقيل انه أراد بالركوع جميع أركان الصلاة والركوع الشرعى هو أن ينحنى الرجل ويمد ظهره وعنقه ويفتح أصابع يديه ويقبض بهما على ركبتيه ثم يطمئن راكعا ذاكرا بالذكر المشروع وقد ورد فى ذلك من الاحاديث الصحيحة الثابتة فى الصحيحين وغيرهما ما هو معروف وفى الآية حث على اقامة الصلاة فى الجماعة وقد أوجب حضور الجماعة بعض أهل العلم على خلاف بينهم فى كون ذلك عينا أو كفاية وذهب الجمهور الى أنه سنة مؤكدة مرغب فيها وليس بواجب وهو الحق للاحاديث الصحيحة الثابتة عن جماعة من الصحابة من أن صلاة الجماعة تفضل صلاة الفرد بخمس وعشرين درجة أو سبع وعشرين درجة وثبت فى الصحيح عنه صلى الله عليه وآله وسلم الذى يصلى مع الامام أفضل من الذى يصلى وحده ثم ينام والبحث طويل الذيول كثير النقول استوفاه الشوكانى رحمه الله تعالى فى شرحه للمنتقى (أتأمرون الناس بالبر) الهمزة للاستفهام مع التوبيخ للمخاطبين وليس المراد توبيخهم على نفس الامر بالبر فانه فعل حسن مندوب اليه بل بسبب ترك فعل البر المستفاد من قوله (وتنسون أنفسكم) تتركونها فلا تأمرونها به مع تزكية النفس والقيام فى مقام دعاة الخلق الى الحق ايهاما للناس وتلبيسا عليهم نزلت فى علماء اليهود والبر الطاعة والعمل الصالح وسعة الخير والمعروف والصدق فالبر اسم جامع لجميع أعمال الخير والطاعات والنسيان هو هنا بمعنى الترك وفى الاصل خلاف الذكر والحفظ أى زوال الصورة التى كانت محفوظة عن المدركة والحافظة وانما عبر عن الترك بالنسيان لان نسيان الشئ يلزمه تركه فهو من استعمال الملزوم فى اللازم أو السبب فى المسبب وسر هذا التجوز الاشارة الى أن ترك ما ذكر لا ينبغى أن يصدر عن العاقل الا نسيانا والنفس الروح ومنه قوله تعالى الله يتوفى الانفس حين موتها يريد الارواح والنفس الجسد والمعنى وتعدلون عما لها فيه نفع (وأنتم تتلون

منها وتسير حيث شاءت بنفسها من غير ان يسوقها أحد فقالوا هذا شئ لا يقوله عاقل فقال ويحكم هذه الموجودات بما فيها من العالم العلوى والسفلى وما اشتملت عليه من الاشياء المحكمة ليس لها صانع فبهت القوم ورجعوا الى الحق وأسلموا على يديه وعن الشافعى انه سئل عن وجود الصانع فقال هذا ورق التوت طعمه واحد تأكله الدود فيخرج منه الابريسم وتأكله النحل فيخرج منه العسل وتأكله الشاة والبقر والانعام فتلقيه بعرا وروثا وتأكله الظباء فيخرج منها المسك وهو شئ واحد وعن الامام أحمد ابن حنبل انه سئل عن ذلك فقال ههنا حصن (١٠٢) حصين أملس ليس له باب ولا منفذ ظاهره كالفضة البيضاء وباطنه كالذهب الابريز فبيناهو كذلك اذا انصدع جداره فخرج منه حيوان سميع بصير ذو شكل حسن وصوت مليح يعنى بذلك البيضة اذا خرج منها الدجاجة وسئل أبو نواس عن ذلك فأنشد

تأمل فى نبات الارض وانظر
الى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات
بأحداق هى الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهدات
بأن الله ليس له شريك

وقال ابن المعتز

فيا عجبا كيف يعصى الا
له أم كيف يجحده الجاحد
وفى كل شئ له آية
تدل على أنه واحد

وقال آخرون من تأمل هذه السموات فى ارتفاعها واتساعها وما فيها من الكواكب الكبار والصغار النيرة من السيارة ومن الثوابت وشاهدها كيف تدور مع الفلك العظيم فى كل يوم وليلة دويرة ولها فى أنفسها سير يخصها ونظر الى البحار المكتنفة للارض من كل جانب والجبال الموضوعة فى الارض لتقر ويسكن ساكنوها مع اختلاف أشكالها وألوانها كما قال تعالى ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف كانوا ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والانعام مختلف ألوانه كذلك انما يخشى الله من عباده العلماء وكذلك هذه الانهار السارحة من قطر الى قطر للمنافع وما ذرأ فى الارض من الحيوانات المتنوعة والنبات المختلف الطعوم والارايج والاشكال والالوان مع اتحاد طبيعة التربة والماء استدل على وجود الصانع وقدرته العظيمة وحكمته ورحمته بخلقه ولطفه بهم واحسانه اليهم وبره بهم لا اله غيره ولا رب سواه عليه توكلت واليه أنيب والآيات فى القرآن الدالة على هذا المقام كثيرة جدا (وان كنتم فى

الكتاب) جملة حالية مشتملة على أعظم تقريع وأشد توبيخ وأبلغ تبكيت اى كيف تتركون البر الذى تأمرون الناس به وأنتم من أهل العلم العارفين بقبح هذا الفعل وشدة الوعيد عليه كما ترونه فى الكتاب الذى تتلونه وتدرسونه والآيات التى تقرؤنها من التوراة والتلاوة القراءة وهى المراد هنا وأصلها الاتباع (أفلا تعقلون) استفهام للانكار عليهم والتقريع لهم وهو أشد من الاول وأشد ولشد ما قرع الله فى هذا الموضع من يأمر بالخير ولا يفعله من العلماء الذين هم غير عاملين بالعلم فاستنكر عليهم أولا أمرهم للناس بالبر مع نسيان أنفسهم من ذلك الامر الذى قاموا به فى المجامع ونادوا به فى المجالس ايهاما للناس بأنهم مبلغون عن الله ما تحملوه من حججه ومبينون لعباده ما أمرهم ببيانه وموصلون الى خلقه ما استودعهم وائتمنهم عليه وهم أترك الناس لذلك وأبعدهم من نفعه وأزهدهم فيه ثم ربط هذه الجملة بجملة أخرى جعلها مبينة لحالهم وكاشفة لعوارهم وهاتكة لاستارهم وهى أنهم فعلوا هذه الفعلة الشنيعة والخصلة الفظيعة على علم منهم ومعرفة بالكتاب الذى أنزل عليهم وملازمة لتلاوته وهم فى ذلك كما قال المعرى

وانما حمل التوراة قارئها * كسب الفوائد لا حب التلاوات

ثم انتقل معهم من تقريع الى تقريع ومن توبيخ الى توبيخ فقال انكم لو لم تكونوا من أهل العلم وحملة الحجة وأهل الدراسة لكتب الله لكان مجرد كونكم ممن يعقل حائلا بينكم وبين ذلك ذائدا لكم عنه زاجرا لكم منه فكيف أهملتم ما يقتضيه العقل بعد اهمالكم لما يوجبه العلم والعقل فى أصل اللغة المنع ومنه عقال البعير لانه يمنعه عن الحركة ومنه العقل فى الدية لانه يمنع الولى عن قتل الجانى والعقل نقيض الجهل ويصح تفسير ما فى الآية بما هو أصل معنى العقل عند أهل اللغة أى أفلا تمنعون أنفسكم من مواقعة هذه الحال المزرية ويصح أن يكون معنى الآية أفلا تنظرون بعقولكم التى رزقكم الله اياها حيث لم تنتفعوا بما لديكم من العلم والعقل قوة تهيئ قبول العلم ويقال للعلم الذى يستفيده الانسان بتلك القوة العقل وأخرج أحمد وابن أبى شيبة وعبد بن حميد والبزار وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو نعيم فى الحلية وابن حبان وابن مردويه والبيهقى عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رأيت ليلة أسرى بى رجالا تقرض شفاههم بمقاريض من نار كلما قرضت رجعت فقلت لجبريل من هؤلاء قال هؤلاء خطباء من أمتك

ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين) ثم شرع تعالى في تقرير النبوة بعد أن قرر أنه لا اله الا هو فقال مخاطبا للكافرين وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا يعني محمدا صلى الله عليه وسلم فأتوا بسورة من مثل ما جاء به ان زعمتم أنه من عند غير الله فعارضوه بمثل ما جاء به واستعينوا على ذلك بمن شئتم من دون الله فانكم لا تستطيعون ذلك قال ابن عباس شهداءكم أعوانكم وقال السدي عن أبي مالك شركاءكم أي قوما آخرين يساعدونكم على ذلك أي استعينوا (١٠٣) بآلهتكم في ذلك يمدونكم وينصرونكم وقال مجاهد وادعوا شهداءكم قال ناس يشهدون به يعني حكام الفصحاء وقد تحداهم الله تعالى بهذا في غير موضع من القرآن فقال في سورة القصص قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه ان كنتم صادقين وقال في سورة سبحان قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا وقال في سورة هود أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين وقال في سورة يونس وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة من مثله وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين وكل هذه الآيات مكية ثم تحداهم بذلك أيضا في المدينة فقال في هذه الآية وان كنتم في ريب أي شك مما نزلنا على عبدنا يعني محمدا صلى الله عليه وسلم فأتوا بسورة من مثله يعني من مثل القرآن قاله مجاهد وقتادة واختاره ابن جرير الطبري والزمخشري والرازي ونقله عن عمر وبن مسعود وابن عباس والحسن البصري وأكثر المحققين ورجح ذلك بوجوه من أحسنها انه تحداهم كلهم متفرقين ومجتمعين سواء في ذلك أميهم وكتابيهم وذلك أكمل في التحدي وأشمل من أن يتحدى آحادهم الاميين ممن لا يكتب ولا يعاني شيأ من العلوم وبدليل قوله تعالى فأتوا بعشر سور مثله وقوله لا يأتون بمثله وقال بعضهم من مثل محمد صلى الله عليه وسلم يعني من رجل أمي مثله والصحيح الاول لان التحدي عام لهم كلهم مع أنهم أفصح الامم وقد تحداهم بهذا في مكة والمدينة مرات عديدة مع شدة عداوتهم له وبغضهم لدينه ومع هذا عجزوا عن ذلك ولهذا قال

كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون وثبت في الصحيحين من حديث أسامة بن زيد قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق به أقتابه فيدور بها كما يدور الحمار برحاه فيطيف به أهل النار فيقولون يا فلان مالك ما أصابك ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر فيقول كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه وأنهاكم عن المنكر وآتيه وفي الباب أحاديث معناها جميعا أن يطلع قوم من أهل الجنة على قوم من أهل النار فيقولون لهم بم دخلتم النار وانما دخلنا الجنة بتعليمكم قالوا انا كنا نأمركم ولا نفعل وأخرج الطبراني والخطيب في الاقتضاء والاصبهاني في الترغيب بسند جيد عن جندب بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مثل العالم الذي يعلم الناس الخير ولا يعمل به كمثل السراج يضيء للناس ويحرق نفسه (واستعينوا بالصبر والصلاة) قيل ان المخاطبين بهذا هم المؤمنون وقيل اليهود لما عاقهم عن الايمان الشره وحب الرياسة فأمروا بالصبر وهو الصوم لانه يكسر الشهوة والصلاة لانها تورث الخشوع وتنفي الكبر وأفرد الصلاة بالذكر تعظيما لشأنها والمعنى استعينوا على حوائجكم الى الله وقيل على ما يشغلكم من أنواع البلايا وقيل على طلب الآخرة بالصبر والصبر في اللغة الحبس والمراد هنا استعينوا بحبس أنفسكم عن الشهوات وقصرها على الطاعات على دفع ما يرد عليكم من المكروهات وقيل الصبر هنا هو خاص بالصبر على تكاليف الصلاة وأداء الفرائض واستدل هذا القائل بقوله تعالى وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها وليس في هذا الصبر الخاص بهذه الآية ما ينفي ما يفيده الالف واللام الداخلة على الصبر من الشمول كما أن المراد بالصلاة هنا جميع ما يصدق عليه الصلاة الشرعية من غير فرق بين فريضة ونافلة وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اذا حزبه أمر فزع الى الصلاة وعن ابن عباس أنه نعي له أخوه قثم وهو في سفر فاسترجع ثم تنحى عن الطريق فصلى ركعتين أطال فيهما السجود ثم قام الى راحلته وهو يقول واستعينوا بالصبر والصلاة وقد وردت أحاديث كثيرة في مدح الصبر والترغيب فيه والجزاء للصابرين ولم نذكرها هنا لانها ليست بخاصة بهذه الآية بل هي واردة في مطلق الصبر وقد ذكر السيوطي في الدر المنثور هنا منها شطرا صالحا وفي الكتاب العزيز من الثناء

تعالى فان لم تفعلوا ولن تفعلوا ولن لنفي التأبيد في المستقبل أي ولن تفعلوا ذلك أبدا وهذه أيضا معجزة أخرى وهو أنه أخبر خبرا جازما قاطعا مقدما غير خائف ولا مشفق ان هذا القرآن لا يعارض بمثله أبد الآبدين ودهر الداهرين وكذلك وقع الامر لم يعارض من لدنه الى زماننا هذا ولا يمكن وأنى يتأتى ذلك لاحد والقرآن كلام الله خالق كل شيء وكيف يشبه كلام الخالق كلام المخلوقين ومن تدبر القرآن وجد فيه من وجوه الاعجاز فنونا ظاهرة وخفية من حيث اللفظ ومن جهة المعنى قال الله تعالى الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير فأحكمت ألفاظه وفصلت معانيه أو بالعكس على الخلاف فكل من لفظه ومعناه فصيح لا يحادى ولا يدانى فقد أخبر عن مغيبات ماضية كانت ووقعت طبق ما أخبر سواء بسواء وأمر بكل خير ونهى عن كل شر كما قال تعالى وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا أي صدقا في الاخبار وعدلا في الاحكام فكله حق وصدق وعدل وهدى ليس فيه مجازفة ولا كذب ولا افتراء كما يوجد في أشعار العرب وغيرهم من الاكاذيب والمجازفات التي لا يحسن شعرهم الا بها كما قيل في الشعر ان أعذبه أكذبه وتجد القصيدة الطويلة المديدة قد استعمل غالبها في وصف النساء أو الخيل أو الخمر أو في مدح شخص معين أو فرس أو ناقة أو حرب أو كائنة أو مخافة أو سبع أو شيء من المشاهدات المتعينة التي لا تفيد شيأ الا قدرة المتكلم المعين على الشيء الخفي أو الدقيق أو ابرازه الى الشيء الواضح ثم تجد له فيه بيتا أو بيتين أو أكثر هي بيوت القصيد وسائرها هذر لا طائل تحته وأما القرآن فجميعه فصيح في غاية نهايات البلاغة عند من يعرف ذلك تفصيلا واجمالا ممن فهم كلام العرب وتصاريف التعبير فانه ان تأملت أخباره وجدتها في غاية الحلاوة وسواء كانت مبسوطة أو وجيزة وسواء تكررت أم لا وكلما تكرر حلا وعلا لا يخلق عن كثرة الرد ولا يمل منه العلماء وان أخذ في الوعيد والتهديد جاء منه ما تقشعر منه الجبال الصم الراسيات فما ظنك بالقلوب الفاهمات وان وعد أتى بما يفتح القلوب والآذان ويشوق الى دار السلام ومجاورة عرش الرحمن كما قال في الترغيب فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون وقال وفيها ما تشتهيه الانفس وتلذ الاعين وأنتم فيها خالدون وقال في الترهيب أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم

على ذلك والترغيب فيه الكثير الطيب وأخرج أحمد وأبو داود وابن جرير عن حذيفة قال كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اذا حزبه أمر فزع الى الصلاة وأخرج أحمد والنسائي وابن حبان عن صهيب عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال كانوا يعني الانبياء يفزعون اذا فزعوا الى الصلاة وعن ابن عباس انه كان في مسير له فنعي اليه ابن له فنزل فصلى ركعتين ثم استرجع فقال فعلنا كما أمرنا الله تعالى واستعينوا بالصبر والصلاة وقد روي نحو ذلك عن جماعة من الصحابة والتابعين واختلف المفسرون في مرجع الضمير في قوله (وانها لكبيرة) فقيل انه راجع الى الصلاة وان كان المتقدم هو الصبر والصلاة فقد يجوز ارجاع الضمير الى أحد الامرين المتقدم ذكرهما كما قال تعالى والله ورسوله أحق أن يرضوه اذا كان أحدهما داخلا تحت الآخر بوجه من الوجوه وقيل انه عائد الى الصلاة من دون اعتبار دخول الصبر تحتها لان الصبر هو عليها كما قيل سابقا وقيل ان الضمير راجع الى الصلاة وان كان الصبر مرادا منه لكن لما كانت آكد وأعم تكليفا وأكثر ثوابا كانت الكناية بالضمير عنها ومنه قوله تعالى والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله كذا قيل وقيل ان الضمير راجع الى الاشياء المكنوزة ومثل ذلك قوله واذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا اليها فأرجع الضمير هنا الى الفضة والتجارة لما كانت الفضة أعم نفعا وأكثر وجودا والتجارة هي الحاملة على الانفضاض والفرق بين هذا الوجه والوجه الاول أن الصبر هنالك جعل داخلا تحت الصلاة وهنا لم يكن داخلا وان كان مرادا وقيل ان المراد الصبر والصلاة ولكن أرجع الضمير الى أحدهما استغناء به عن الآخر ومنه قوله تعالى وجعلنا ابن مريم وأمه آية أي ابن مريم آية وأمه آية وقيل رجع الضمير الى ما بعد تأويلهما بالعبادة وقيل رجع الى المصدر المفهوم من قوله واستعينوا وهو الاستعانة وقيل رجع الى جميع الامور التي نهى عنها بنو اسرائيل والاول هو الظاهر الجاري على قاعدة كون الضمير للاقرب والكبيرة التي يكبر أمرها ويتعاظم شأنها على حاملها لما يجده عند تحملها والقيام بها من المشقة ومنه كبر على المشركين ما تدعوهم اليه (الا) استثناء مفرغ وشرطه أن يسبق بنفي فيؤول الكلام هنا بالنفي أي انها لا تخف ولا تسهل الا (على الخاشعين) يعني المؤمنين وقيل الخائفين وقيل المطيعين المتواضعين لله والخاشع هو المتواضع قال في الكشاف الخشوع هو الاخبات والتطامن وأما الخضوع فاللين والانقياد انتهى وقال الزجاج

الارض فاذا هي تمور أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصبا فستعلمون كيف نذير وقال في الزخرف كلا أخذنا بذنبه وقال في الوعظ أفرأيت ان متعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون الى غير ذلك من أنواع الفصاحة والبلاغة والحلاوة وان جاءت الآيات في الاحكام والاوامر والنواهي اشتملت على الامر بكل معروف حسن نافع طيب محبوب والنهي عن كل قبيح رذيل دنيء كما قال ابن مسعود وغيره من السلف اذا سمعت الله تعالى يقول في القرآن يا أيها الذين آمنوا فأرعها سمعك فانها خير يأمر به أو شر ينهى عنه ولهذا قال تعالى يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والاغلال التي كانت عليهم الآية (١٠٥) وان جاءت الآيات في وصف المعاد وما فيه من الاهوال وفي وصف الجنة والنار وما أعد الله فيهما لاوليائه وأعدائه من النعيم والجحيم والملاذ والعذاب الاليم بشرت به وحذرت وأنذرت ودعت الى فعل الخيرات واجتناب المنكرات وزهدت في الدنيا ورغبت في الاخرى وثبتت على الطريقة المثلى وهدت الى صراط الله المستقيم وشرعه القويم ونفت عن القلوب رجس الشيطان الرجيم ولهذا ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما من نبي من الانبياء الا قد أعطي من الآيات ما آمن على مثله البشر وانما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله الي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة لفظ مسلم وقوله صلى الله عليه وسلم وانما كان الذي أوتيته وحيا أي الذي اختصصت به من بينهم هذا القرآن المعجز للبشر أن يعارضوه بخلاف غيره من الكتب الالهية فانها ليست معجزة عند كثير من العلماء والله أعلم وله عليه الصلاة والسلام من الآيات الدالة على نبوته وصدقه فيما جاء به

ما لا يدخل تحت حصر ولله الحمد والمنة وقد قرر بعض المتكلمين الاعجاز بطريق يشمل قول أهل السنة وقول المعتزلة في الصرفة فقال ان كان هذا القرآن معجزا في نفسه لا يستطيع البشر الاتيان بمثله ولا في قواهم معارضته فقد حصل المدعى وهو المطلوب وان كان في امكانهم معارضته بمثله ولم يفعلوا ذلك مع شدة عداوتهم له كان ذلك دليلا على أنه من عند الله لصرفه اياهم عن معارضته مع قدرتهم على ذلك وهذه الطريقة وان لم تكن مرضية لان القرآن في نفسه معجز لا يستطيع البشر معارضته كما قررنا الا انها تصلح على سبيل التنزل والمجادلة والمنافحة عن الحق وبهذه الطريقة أجاب الرازي في تفسيره عن سؤاله في السور القصار كالعصر وانا أعطيناك الكوثر وقوله تعالى فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين أما

الزجاج الخاشع الذي يرى أثر الذل والخشوع عليه وخشعت الاصوات أي سكنت وخشع بصره اذا غضه وقال سفيان الثوري سألت الاعمش عن الخشوع فقال يا ثوري أنت تريد أن تكون اماما للناس ولا تعرف الخشوع ليس الخشوع بأكل الخشن ولبس الخشن وتطأطئ الرأس لكن الخشوع أن ترى الشريف والدنيء في الحق سواء وتخشع لله في كل فرض افترض عليك انتهى وما أحسن ما قاله بعض المحققين في بيان ماهيته انه هيئة في النفس يظهر منها في الجوارح سكون وتواضع واستثنى سبحانه الخاشعين مع كونهم باعتبار استعمال جوارحهم في الصلاة وملازمتهم لوظائف الخشوع الذي هو روح الصلاة واتعابهم لانفسهم اتعابا عظيما في الاسباب الموجبة للحضور والخضوع لانهم لما يعلمونه من تضاعف الاجر وتوفر الجزاء والظفر بما وعد الله به من عظيم الثواب تسهل عليهم تلك المتاعب ويتذلل لهم ما يركبونه من المصاعب بل يصير ذلك لذة لهم خالصة وراحة عندهم محضة (الذين يظنون) أي يستيقنون وقيل يعلمون والظن هنا عند الجمهور بمعنى اليقين ومنه قوله تعالى اني ظننت اني ملاق حسابيه وقوله وظنوا انهم مواقعوها وقيل ان الظن في الآية على بابه ويضمر في الكلام بذنوبهم فكأنهم توقعوا لقاءه مذنبين ذكره الماوردي والاول أولى وأصل الظن الشك مع الميل الى أحد الطرفين وقد يقع موقع اليقين في مواضع منها هذه الآية ومعنى (انهم ملاقوا ربهم) ملاقوا جزائه والمفاعلة هنا ليست على بابها ولا أرى في حمله على أصل معناه من دون تقدير المضاف بأسا أي يوقنون أنهم يرونه وفي هذا مع ما بعده من قوله (وأنهم اليه راجعون) اقرار بالبعث وما وعد الله به في اليوم الآخر وفيه دليل على ثبوت رؤية الله تعالى في الآخرة (يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم) انما كرر ذلك سبحانه توكيدا للحجة عليهم وتحذيرا لهم من ترك اتباع محمد صلى الله عليه وآله وسلم ثم قرنه بالوعيد وهو قوله واتقوا يوما قيل المراد بالنعمة أيادي الله عندهم وأيامه قاله سفيان بن عيينة وعن مجاهد التي أنعم بها على بني اسرائيل فيما سمى وفيما سوى ذلك فجر لهم الحجر وأنزل عليهم المن والسلوى وأنجاهم من عبودية آل فرعون وكان عمر بن الخطاب اذا تلى هذه الآية قال مضى القوم وانما يعني أنتم (وأني فضلتكم على العالمين) يعني على عالمي زمانكم فلا يتناول من مضى ولا من يوجد بعدهم وهذا التفضيل وان كان في حق الآباء ولكن يحصل به الشرف

الوقود بفتح الواو هو ما يلقى في النار لاضرامها كالحطب ونحوه كما قال تعالى وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا وقال تعالى انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون والمراد بالحجارة ههنا هي حجارة الكبريت العظيمة السوداء الصلبة المنتنة وهي أشد الاحجار حرا اذا حميت أجارنا الله منها وقال عبد الملك بن ميسرة الزراد عن عبد الرحمن بن سابط عن عمرو بن ميمون عن عبد الله بن مسعود في قوله تعالى وقودها الناس والحجارة قال هي حجارة من كبريت خلقها الله يوم خلق السموات والارض في السماء الدنيا يعدها للكافرين رواه ابن جرير وهذا لفظه وابن أبي حاتم والحاكم في مستدركه وقال على شرط الشيخين وقال السدي في تفسيره عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة اتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أما الحجارة فهي حجارة في النار من كبريت أسود يعذبون به مع النار وقال مجاهد حجارة من كبريت أنتن من الجيفة وقال أبو جعفر محمد بن علي حجارة من كبريت وقال ابن جريج حجارة من كبريت أسود في النار وقال لي عمرو بن دينار أصلب من هذه الحجارة وأعظم وقيل المراد بها حجارة الاصنام والانداد التي كانت تعبد من دون الله كما قال تعالى انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم الآية حكاه القرطبي والرازي ورجحه على الاول قال لان أخذ النار في حجارة الكبريت ليس بمستنكر فجعلها هذه الحجارة أولى وهذا الذي قاله ليس بقوي وذلك ان النار اذا أضرمت بحجارة الكبريت كان ذلك أشد لحرها وأقوى لسعيرها ولا سيما على ما ذكره السلف من انها حجارة من كبريت معدة لذلك ثم ان أخذ النار بهذه الحجارة أيضا مشاهد وهذا الجص يكون أحجارا فيعمل فيه بالنار حتى يصير كذلك وكذلك سائر الاحجار تفخرها النار وتحرقها وانما سيق هذا في حر هذه النار التي وعدوا بها وشدة ضرامها وقوة لهبها كما قال تعالى كلما خبت زدناهم سعيرا وهكذا رجح القرطبي أن المراد بها الحجارة التي تسعر بها النار لتحمر ويشتد لهبها قال ليكون ذلك أشد عذابا لاهلها قال وقد جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال كل مؤذ في النار وهذا الحديث ليس بمحفوظ ولا معروف ثم قال القرطبي وقد فسر بمعنيين احدهما ان كل من آذى الناس دخل النار والآخر أن كل ما يؤذي في النار يتأذى به أهلها من السباع والهوام وغير ذلك وقوله تعالى أعدت للكافرين الاظهر ان الضمير في أعدت عائد الى النار التي وقودها الناس والحجارة ويحتمل عوده الى الحجارة كما قال ابن مسعود ولا منافاة بين القولين في المعنى لانهما

للانبياء قيل فيه وورود العام المراد به الخصوص لان المراد بالعالمين عالمو زمانهم وقيل على جميع العالمين بما جعل فيهم الانبياء وقال في الكشاف على الجم الغفير من الناس كقوله باركنا فيها للعالمين يقال رأيت عالما من الناس يراد الكثرة انتهى قال الرازي في تفسيره وهذا ضعيف لان لفظ العالم مشتق من العلم وهو الدليل وكلما كان دليلا على الله كان علما وكان من العالم وهذا التحقيق قول المتكلمين العالم كل موجود سوى الله وعلى هذا لا يمكن تخصيص لفظ العالم ببعض المحدثات انتهى أقول هذا الاعتراض ساقط اما أولا فدعوى اشتقاقه من العلم لا برهان عليه وأما ثانيا فلو سلمنا صحة هذا الاشتقاق كان المعنى موجودا بما يتحصل معه مفهوم الدليل على الله الذي يصح اطلاق اسم العلم عليه وهو كائن في كل فرد من افراد المخلوقات التي يستدل بها على الخالق وغايته ان جمع العالم يستلزم ان يكونوا مفضلين على أفراد كثيرة من المحدثات وأما انهم مفضلون على كل المحدثات في كل زمان فليس في اللفظ ما يفيد هذا ولا في اشتقاقه ما يدل عليه وأما من جعل العالم أهل العصر فغايته أن يكونوا مفضلين على أهل عصور لا على أهل كل عصر فلا يستلزم ذلك تفضيلهم على أهل العصر الذين فيهم نبينا صلى الله عليه وآله وسلم ولا على ما بعده من العصور ومثل هذا الكلام ينبغي استحضاره عند تفسير قوله تعالى وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين وعند قوله تعالى ولقد اخترناهم على علم على العالمين وعند قوله تعالى ان الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين فان قيل ان التعريف في العالمين يدل على شموله لكل عالم قلت لو كان الامر هكذا لم يكن ذلك مستلزما لكونهم أفضل من أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم لقوله تعالى كنتم خير أمة أخرجت للناس فان هذه الآية ونحوها تكون مخصصة لتلك الآيات (واتقوا يوما) أي واخشوا عذاب يوم أمر معناه الوعيد والمراد باليوم يوم القيامة أي عذابه (لا تجزي) لا تكفي ولا تقضي (نفس عن نفس شيأ) يعني حقا لزمها وقيل معناه لا تنوب نفس عن نفس يوم القيامة ولا تردعنها شيأ مما أصابها بل يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وقيل ان طاعة المطيع لا تقضي عن العاصي ما كان واجبا عليه والنفس الاولى هي المؤمنة والثانية هي الكافرة ومعنى التنكير التحقير أي شيأ يسيرا حقيرا (ولا يقبل منها شفاعة) أي في ذلك اليوم وذلك أن اليهود قالوا يشفع لنا آباؤنا فرد الله عليهم ذلك والشفاعة مأخوذة من الشفع وهو الاثنان تقول

استشفعته

متلازمان وأعدت أي أرصدت وجعلت للكافرين بالله ورسوله كما قال ابن اسحق عن محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن
عباس أعدت للكافرين اي لمن كان على مثل ما أنتم عليه من الكفر وقد استدل كثير من أئمة السنة بهذه الآية على أن النار
موجودة الآن لقوله تعالى أعدت أي أرصدت وهيئت وقد وردت أحاديث كثيرة في ذلك منها تحاجت الجنة والنار ومنها
استأذنت النار ربها فقالت رب أكل بعضي بعضا فأذن لها بنفسين نفس في الشتاء ونفس في الصيف وحديث ابن مسعود سمعنا
وجبة فقلنا ما هذه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا حجر ألقي به من شفير جهنم منذ سبعين سنة الآن وصل الى قعرها وهو
عند مسلم وحديث صلاة الكسوف وليلة الاسرى وغير ذلك من

الاحاديث المتواترة في هذا المعنى وقد خالفت المعتزلة بجهلهم في هذا ووافقهم القاضي منذر بن سعيد البلوطي قاضي الاندلس * (تنبيه ينبغي الوقوف عليه) * قوله تعالى فأتوا بسورة من مثله وقوله في سورة يونس بسورة مثله يعم كل سورة في القرآن طويلة كانت أو قصيرة لانها نكرة في سياق الشرط فتعم كما هي في سياق النفي عند المحققين من الاصوليين كما هو مقرر في موضعه فالاعجاز حاصل في طوال السور وقصارها وهذا ما أعلم فيه نزاعا بين الناس سلفا وخلفا وقد قال الرازي في تفسيره فان قيل قوله تعالى فأتوا بسورة من مثله يتناول سورة الكوثر وسورة العصر وقل يا أيها الكافرون ونحن نعلم بالضرورة ان الاتيان بمثله أو بما يقرب منه ممكن فان قلتم ان الاتيان بمثل هذه السور خارج عن مقدار البشر كان مكابرة والاقدام على هذه المكابرات مما يطرق بالتهمة الى الدين قلنا فلهذا السبب اخترنا الطريق الثاني وقلنا ان بلغت هذه السورة في الفصاحة حد الاعجاز فقد حصل المقصود وان لم يكن
كذلك كان امتناعهم من المعارضة مع شدة دواعيهم الى توهين أمره معجزا فعلى التقديرين يحصل المعجز هذا لفظه بحروفه
والصواب ان كل سورة من القرآن معجزة لا يستطيع البشر معارضتها طويلة كانت أو قصيرة قال الشافعي رحمه الله لو تدبر الناس
هذه السورة لكفتهم والعصر ان الانسان لفي خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر وقد روينا عن
عمرو بن العاص انه وفد على مسيلمة الكذاب قبل ان يسلم فقال له مسيلمة ماذا أنزل على صاحبكم بمكة في هذا الحين فقال له عمرو
لقد أنزل عليه سورة وجيزة بليغة فقال وما هي فقال والعصر ان الانسان لفي خسر ففكر ساعة ثم رفع رأسه فقال ولقد أنزل علي
مثلها قال وما هو فقال يا وبر يا وبر انما أنت أذنان وصدر وسائرك حقر فقر ثم قال كيف ترى يا عمرو فقال له عمرو والله انك لتعلم اني

استشفعته أي سألته ان يشفع لي أي يضم جاهه الى جاهك عند المشفوع اليه ليصل النفع
الى المشفوع له وضمير منها يرجع الى النفس المذكورة ثانيا أي ان جاءت بشفاعة شفيع
ويجوز ان يرجع الى النفس المذكورة أولا أي اذا شفعت لم يقبل منها (ولا يؤخذ
منها عدل) أي فدية وهو مثل الشيء بالشيء والعدل بفتح العين الفداء وبكسرها
المثل وقيل بالفتح المساوي للشيء قيمة وقدرا وبالكسر المساوي له في جنسه وجرمه وأما
العدل واحد الاعدال فهو بالكسر لا غير قاله السمين والضمير يرجع الى النفوس
المدلول عليها بالنكرة في سياق النفي والنفس تذكر وتؤنث والمعنى كما قال السدي لا تغني
نفس مؤمنة عن نفس كافرة من المنفعة شيأ (ولا هم ينصرون) أي لا يمنعون من
العذاب والنصر العون والانصار الاعوان ومنه من أنصاري الى الله والنصر أيضا
الانتقام يقال انتصر زيد لنفسه من خصمه اي انتقم منه لها والنصر أيضا الاتيان يقال
نصرت أرض بني فلان أي أتيتها (واذ نجيناكم من آل فرعون) أي واذكروا اذ خلصنا
اسلافكم وأجدادكم فاعتده نعمة ومنة عليهم لانهم نجوا بنجاة أسلافهم وهذا شروع في
تفصيل نعم الله عليهم وفصلت بعشرة أمور تنتهي بقوله واذ استسقى موسى والنجاة النجوة
من الارض وهي ما ارتفع منها ثم سمي كل فائز وخارج من ضيق الى سعة ناجيا وان لم يلق
على نجوة وآل فرعون قومه والآل لا يضاف الا الى ذوي الخطر ولا يضاف الى البلدان فلا
يقال من آل المدينة وجوزه الاخفش واختلفوا هل يضاف الى المضمر أم لا فمنعه قوم
وسوغه آخرون وهو الحق وفرعون قيل هو اسم ذلك الملك بعينه وقيل انه اسم لكل ملك
من ملوك العمالقة أولاد عمليق بن لاوذ بن ارم بن سام بن نوح كما يسمى من ملك الفرس
كسرى ومن ملك الروم قيصر ومن ملك الحبشة النجاشي وقيل فرعون اسم علم لمن كان
يملك مصر من القبط والعماليق واسم فرعون موسى المذكور هنا قابوس في قول أهل
الكتاب وقال وهب اسمه الوليد بن مصعب بن الريان وعمر أكثر من أربعمائة سنة
وعاش موسى مائة وعشرين سنة قال المسعودي لا يعرف لفرعون تفسير بالعربية
وقال الجوهري ان كل عات يقال له فرعون وقد تفرعن وهو ذو فرعنة أي دهاء ومكر
وقال في الكشاف تفرعن فلان اذا عتى وتجبر (يسومونكم) أي يكلفونكم
ويولونكم قاله أبو عبيدة وقيل يذيقونكم ويلزمونكم اياه وأصل السوم الدوام ومنه

لا أعلم أنك تكذب (وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الانهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابها ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون) لما ذكر تعالى ما أعده لاعدائه من الاشقياء الكافرين به وبرسله من العذاب والنكال عطف بذكر حال أوليائه من السعداء المؤمنين به وبرسله الذين صدقوا ايمانهم بأعمالهم الصالحة وهذا معنى تسمية القرآن مثاني على أصح أقوال العلماء كما سنبسطه في موضعه وهو أن يذكر الايمان ويتبع بذكر الكفر أو عكسه أو حال السعداء ثم الاشقياء أو عكسه وحاصله ذكر الشيء ومقابله وأما ذكر الشيء ونظيره فذاك التشابه كما سنوضحه ان شاء الله فلهذا قال تعالى وبشر (١٠٨) الذين آمنوا وعملوا الصالحات ان لهم جنات تجري من تحتها الانهار

فوصفها بأنها تجري من تحتها الانهار أي من تحت أشجارها وغرفها وقد جاء في الحديث ان انهارها تجري في غير أخدود وجاء في الكوثر ان حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف ولا منافاة بينهما فطينها المسك الاذفر وحصباؤها اللؤلؤ والجوهر نسأل الله من فضله انه هو البر الرحيم وقال ابن أبي حاتم قرأ على الربيع بن سليمان حدثنا أسد ابن موسى حدثنا أبو ثوبان عن عطاء ابن قرة عن عبد الله بن ضمرة عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهار الجنة تفجر من تحت تلال أو من تحت جبال المسك وقال أيضا حدثنا أبو سعيد حدثنا وكيع عن الاعمش عن عبد الله بن مرة عن مسروق قال قال عبد الله انهار الجنة تفجر من جبل مسك وقوله تعالى كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل قال السدي في تفسيره عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة قالوا هذا الذي رزقنا من قبل قال انهم أوتوا بالثمرة في الجنة فلما نظروا اليها قالوا هذا الذي رزقنا من قبل في الدنيا وهكذا قال قتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ونصره ابن جرير وقال عكرمة قالوا هذا الذي رزقنا من قبل قال معناه مثل الذي كان بالامس وكذا قال الربيع بن أنس وقال مجاهد يقولون ما أشبهه به قال ابن جرير وقال آخرون بل تأويل ذلك هذا الذي رزقنا من قبل ثمار الجنة من قبل هذا لشدة مشابهة بعضه بعضا لقوله تعالى وأتوا به متشابها قال سنيد بن داود حدثنا شيخ من أهل المصيصة عن الاوزاعي عن يحيى بن أبي كثير قال يؤتى أحدهم بالصحفة من الشيء فيأكل منها ثم يؤتى بأخرى فيقول هذا الذي أتينا به من قبل فتقول الملائكة كل فاللون واحد والطعم مختلف وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا سعيد بن سليمان حدثنا عامر بن يساف عن يحيى بن أبي كثير قال عشب الجنة الزعفران

سائمة الغنم لمداومتها الرعي وفي الكشاف أصله من سام السلعة اذا طلبها كأنه بمعنى يبغونكم سوء العذاب ويريدونكم عليه انتهى (سوء العذاب) أي أشده وأسوأه وأفظعه وان كان كله سيأ والسوء كل ما يغم الانسان من أمر دنيوي أو أخروي (يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم) الذبح في الاصل الشق وهو فري أوداج المذبوح قيل ذبحوا منهم اثني عشر ألفا وقيل سبعين ألفا وهل نساء جمع نسوة أو جمع امرأة من حيث المعنى قولان والمراد يتركون نساءكم أحياء ليستخدموهن ويمتهنوهن وانما أمر بذبح الابناء واستحياء النساء لان الكهنة أخبروه بأنه يولد مولود يكون هلاكه على يده وعبر عن البنات باسم النساء لانه جنس يصدق عليهن وقالت طائفة انه أمر بذبح الرجال واستدلوا بقوله نساءكم والاول أصح بشهادة السبب ولا يخفى ما في قتل الابناء واستحياء البنات للخدمة ونحوها من انزال الذل بهم والصاق الاهانة الشديدة بجميعهم لما في ذلك من العار والاشارة بقوله (وفي ذلكم) الى جملة الامر من الانجاء والذبح قاله ابن عطية (بلاء من ربكم عظيم) اى اختبار وامتحان والبلاء يطلق تارة على الخير وتارة على الشر فان أريد به هنا الشر كانت الاشارة الى ما حل بهم من النقمة بالذبح ونحوه وان أريد به الخير كانت الاشارة الى النعمة التي أنعم الله عليهم بالانجاء وما هو مذكور قبله من تفضيلهم على العالمين وقد اختلف السلف ومن بعدهم في مرجع الاشارة فرجح الجمهور الاول ورجح الآخرون الآخر قال ابن كيسان أبلاه وبلاه في الخير والشر وقيل الاكثر في الخير أبليته وفي الشر بلوته وفي الاختبار ابتليته وبلوته قاله النحاس استدل به بعض من يقول بالتناسخ وقال ان القوم كانوا هم بأعيانهم فلما تطاولت عليهم مدة التلاشي والبلى نسوا فذكروا قال الكرماني وهذا محال وجهل بكلام العرب فان العرب تخاطب بمثل هذا وتعني الجد الاعلى والاب الابعد (واذ فرقنا بكم البحر) أي فلقنا وأصل الفلق الفرق والفصل ومنه فرق الشعر ومنه وقرآنا فرقناه أي فصلناه والباء في بكم بمعنى اللام أو السببية والمراد أن فرق البحر كان بسبب دخولهم فيه لما صاروا بين الماءين صار الفرق بهم وأصل البحر في اللغة الاتساع أطلق على البحر الذي هو مقابل البر لما فيه من الاتساع بالنسبة الى النهر والخليج ويطلق على الماء المالح وقال السيوطي في مفحمات الاقران البحر هو القلزم وكنيته أبو خالد كما روى عن قيس بن عباد قال ابن عساكر كأنه كني بذلك

لطول

ونشانها المسك ويطوف عليهم الولدان بالفواكه فيأكلونها ثم يؤتون بمثلها فيقول لهم أهل الجنة هذا الذى أتيتمونا آنفا به فتقول لهم الولدان كلوا فاللون واحد والطعم مختلف وهو قول الله تعالى وأتوا به متشابها وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية وأتوا به متشابها قال يشبه بعضه بعضا ويختلف فى الطعم قال ابن أبى حاتم وروى عن مجاهد والربيع بن أنس والسدى نحو ذلك وقال ابن جرير باسناده عن السدى فى تفسيره عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة فى قوله تعالى وأتوا به متشابها يعنى فى اللون والمرأى وليس يشتبه فى الطعم وهذا اختيار ابن جرير وقال عكرمة وأتوا به متشابها قال يشبه ثمر الدنيا غير أن ثمر الجنة أطيب وقال سفيان

الثورى عن الاعمش عن أبى ظبيان عن ابن عباس لا يشبه شئ مما فى الجنة ما فى الدنيا الا فى الاسماء وفى رواية ليس فى الدنيا مما فى الجنة الا الاسماء ورواه ابن جرير من رواية الثورى وابن أبى حاتم من حديث أبى معاوية كلاهما عن الاعمش به وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله تعالى وأتوا به متشابها قال يعرفون اسماءه كما كانوا فى الدنيا التفاح بالتفاح والرمان بالرمان قالوا فى الجنة هذا الذى رزقنا من قبل فى الدنيا وأتوا به متشابها يعرفونه وليس هو مثله فى الطعم وقوله تعالى ولهم فيها أزواج مطهرة قال ابن أبى طلحة عن ابن عباس مطهرة من القذر والاذى وقال مجاهد من الحيض والغائط والبول والنخام والبزاق والمنى والولد وقال قتادة مطهرة من الاذى والمأثم وفى رواية عنه لا حيض ولا كلف وروى عن عطاء والحسن والضحاك وأبى صالح وعطية والسدى نحو ذلك وقال ابن جرير حدثنى يونس بن عبد الاعلى أنبأنا ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال المطهرة التى لا تحيض قال وكذلك خلقت حواء عليها السلام فلما عصت قال الله تعالى انى خلقتك مطهرة وسأدميك كما أدميت هذه الشجرة وهذا غريب وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه حدثنا ابراهيم بن محمد حدثنى جعفر بن محمد بن حرب واحمد بن محمد الخوارى قالا حدثنا محمد بن عبيد الكندى حدثنا عبد الرزاق بن عمر البزيعى حدثنا عبد الله بن المبارك عن شعبة عن قتادة عن أبى نضرة عن أبى سعيد عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى ولهم فيها أزواج مطهرة قال من الحيض والغائط والنخاعة والبزاق هذا حديث غريب وقد رواه الحاكم فى مستدركه عن محمد بن يعقوب عن الحسن بن على بن عفان عن محمد بن عبيد به وقال صحيح على شرط الشيخين وهذا الذى ادعاه فيه نظر فان عبد الرزاق بن عمر البزيعى هذا قال فيه أبو حاتم بن حبان البستى لا يجوز الاحتجاج به قلت والاظهر أن هذا من كلام قتادة كما تقدم

لطول بقائه وروى أبو يعلى بسند ضعيف عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال فلق البحر لبنى اسرائيل يوم عاشوراء انتهى (فأنجيناكم) أى أخرجناكم منه (وأغرقنا آل فرعون) فيه ووافق ذلك يوم عاشوراء فصام موسى ذلك اليوم شكرا لله عز وجل والمراد بآل فرعون هنا هو وقومه وأتباعه والغرق الرسوب فى الماء وتجوز به عن المداخلة فى الشئ تقول غرق فلان فى اللهو فهو غرق قاله السمين (وأنتم تنظرون) يعنى الى اهلاكهم وقيل الى مصارعهم أى حال كونكم ناظرين اليهم بأبصاركم أو المعنى ينظر بعضكم الى بعض آخر من السالكين فى البحر وقيل نظروا الى أنفسهم ينجون والى آل فرعون يغرقون قيل ان البحر قذفهم حتى نظروا اليهم وهذه الواقعة كما أنها لموسى معجزة عظيمة تخر لها أطم الجبال ونعمة عظيمة لاوائل بنى اسرائيل موجبة عليهم شكرها باللسان والبال كذلك اقتصاصها على ماهى عليه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم معجزة جليلة تطمئن بها القلوب الأبية وتنقاد لها النفوس الغبية موجبة لاعقابهم أن يتلقوها بالاذعان ويقبلوها بصميم الجنان فلا تأثرت أوائلهم بمشاهدتها ورؤيتها ولا تذكرت أواخرهم بتذكيرها وروايتها فيالها من عصابة ما أعصاها وطائفة ما أطغاها وقد ثبت فى الصحيحين وغيرهما من حديث ابن عباس قال قدم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المدينة فرأى اليهود يصومون يوم عاشوراء فقال ماهذا اليوم قالوا هذا يوم صالح نجى الله فيه بنى اسرائيل من عدوهم فصامه موسى فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نحن أحق بموسى منكم فصامه وأمر بصومه (واذ واعدنا) قراءة الجمهور واعدنا قال النحاس وهى أجود وأحسن وليس هو من الوعد والوعيد فى شئ وانما هو من باب الموافاة يعنى من المواعدة وهو من الله الامر ومن موسى القبول وذلك ان الله وعده بمجئ الميقات و(موسى) اسم أعجمى عبرى معرب غير منصرف فمو فى العبرية الماء والشجر سمى موسى لانه أخذ من بين الماء والشجر ثم قلبت الشين سينا فسمى موسى (أربعين ليلة) قال الزجاج تمام أربعين ليلة وهى عند أكثر المفسرين ثلاثون من ذى القعدة وعشر من ذى الحجة وبه قال أبو العالية وانما خص الليالى بالذكر دون الايام لانها غرر الشهور ولان الليلة أسبق من اليوم فهى قبله فى الرتبة وقيل لان الاشهر العربية وضعت على سير القمر وقيل لان الظلمة أقدم من الضوء والمعانى متقاربة (ثم اتخذتم العجل) أى جعلتم العجل الها قال الحسن البصرى

والله أعلم (وقوله تعالى وهم فيها خالدون) هذا هو تمام السعادة فانهم مع هذا النعيم في مقام أمين من الموت والانقطاع فلا آخر له ولا انقضاء بل في نعيم سرمدي أبدي على الدوام والله المسؤل أن يحشرنا في زمرتهم انه جواد كريم بر رحيم (ان الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا وما يضل به الا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الارض أولئك هم الخاسرون) قال السدي في تفسيره عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة لما ضرب الله هذين المثلين للمنافقين يعني قوله تعالى مثلهم كمثل الذي استوقد نارا وقوله أو كصيب من السماء الآيات الثلاث قال المنافقون الله أعلى وأجل من أن يضرب هذه الامثال فأنزل الله هذه الآية الى قوله تعالى هم الخاسرون وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة لما ذكر الله تعالى العنكبوت والذباب قال المشركون ما بال العنكبوت والذباب يذكران فأنزل الله ان الله لا يستحيي ان يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها وقال سعيد عن قتادة اي ان الله لا يستحيي من الحق أن يذكر شيأ ما قل أو كثر وان الله حين ذكر في كتابه الذباب والعنكبوت قال اهل الضلالة ما اراد الله من ذكر هذا فأنزل الله ان الله لا يستحيي ان يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها قلت العبارة الاولى عن قتادة فيها اشعار أن هذه الآية مكية وليس كذلك وعبارة رواية سعيد عن قتادة أقرب والله اعلم وروى ابن جريج عن مجاهد نحو هذا الثاني عن قتادة وقال ابن أبي حاتم روي عن الحسن واسمعيل بن ابي خالد نحو قول السدي وقتادة وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس في هذه الآية قال هذا مثل ضربه الله للدنيا ان البعوضة تحيا ما جاعت فاذا سمنت ماتت وكذلك مثل هؤلاء القوم الذين ضرب لهم هذا المثل في القرآن اذا امتلؤا من الدنيا ريا أخذهم الله عند ذلك ثم تلى فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم ابواب كل شئ هكذا رواه ابن جرير ورواه ابن ابي حاتم من حديث ابي جعفر عن الربيع بن أنس عن ابي العالية بنحوه فالله اعلم فهذا اختلافهم في سبب النزول وقد اختار ابن جرير ما حكاه السدي لانه أمس بالسورة وهو مناسب ومعنى الآية انه تعالى أخبر أنه لا يستحيي اي لا يستنكف وقيل لا يخشى أن يضرب مثلا ما اي مثل كان بأي شئ كان صغيرا كان او كبيرا وما ههنا للتقليل وتكون بعوضة منصوبة على البدل كما تقول لاضربن ضربا ما فيصدق بأدنى شئ او تكون ما نكرة موصوفة ببعوضة واختار ابن جرير أن

كان اسم عجل بني اسرائيل الذي عبدوه بهموت وقيل بهبوت (من بعده) أي بعد مضي موسى الى الطور وقد ذكر بعض المفسرين انهم عدوا عشرين يوما وعشرين ليلة وقالوا قد اختلف موعده فاتخذوا العجل وهذا غير بعيد منهم فقد كانوا يسلكون طرائق من التعنت خارجة عن قوانين العقل مخالفة لما يخاطبون به بل ويشاهدونه بأبصارهم فلا يقال كيف يعدون الايام والليالي على تلك الصفة وقد صرح لهم في الوعد بأنها أربعون ليلة والمعنى من بعد عبادتكم العجل وسمي العجل عجلا لاستعجالهم عبادته كذا قيل وليس بشئ لان العرب تطلق هذا الاسم على ولد البقر وقد كان جعله لهم السامري على صورة العجل (وأنتم ظالمون) أي وأنتم ضارون لأنفسكم بالمعصية حيث وضعتم العبادة في غير موضعها وقيل انما سماهم ظالمين لانهم أشركوا بالله وخالفوا موعد نبيهم قيل والذين عبدوه منهم ثمانية آلاف وقيل كلهم الا هرون مع اثني عشر ألفا وهذا أولى (ثم عفونا عنكم) أي محونا ذنوبكم وتجاوزنا عنكم والعفو يجوز أن يكون بعد العقوبة والغفران لا يكون معها وهذا هو الفرق بينهما وهو من الاضداد يقال عفت الريح الاثر أي أذهبته وعفا الشئ أي كثر ومنه حتى عفوا وقال أبو السعود العفو محو الجريمة من عفاه درسه وقد يجئ لازما قال

عرفت المنزل الخالي * عفا من بعد أحوال
عفاه كل هتان * كثير الوبل هطال

(من بعد ذلك) أي من بعد عبادتكم العجل (لعلكم تشكرون) ما أنعم الله به عليكم من العفو عن ذنبكم العظيم الذي وقعتم فيه وتستمرون بعد ذلك على الطاعة وأصل الشكر في اللغة الظهور قال الجوهري الشكر الثناء على المحسن بما أولاك من المعروف يقال شكرته وشكرت له وباللام أفصح والشكران خلاف الكفران (وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان) الكتاب التوراة بالاجماع من المفسرين واختلفوا في الفرقان فقال الفراء وقطرب المعنى آتينا موسى التوراة ومحمدا الفرقان وقد قيل ان هذا غلط أوقعهما فيه أن الفرقان مختص بالقرآن وليس كذلك فقد قال تعالى ولقد آتينا موسى وهرون الفرقان قال الزجاج ان الفرقان هو الكتاب أعيد ذكره تأكيدا وقيل ان الواو صلة وهي قد تزاد في النعوت وقيل ان المعنى ذلك المنزل جامع بين كونه كتابا وفارقا بين الحق والباطل وهو كقوله آتينا موسى الكتاب تماما على الذي أحسن وتفصيلا لكل شئ

تماموصولة وبعوضة معربة باعرابها قال وذلك سائغ فى كلام العرب انهم يعربون صلة ما ومن باعرابهما لانهما يكونان معرفة تارة
ونكرة اخرى كما قال حسان بن ثابت يكفى بنا فضلا على من غيرنا ۞ حب النبى محمد ايانا قال ويجوز ان تكون بعوضة منصوبة
بحذف الجار وتقدير الكلام ان الله لا يستحيى ان يضرب مثلا ما بين بعوضة الى مافوقها وهذا الذى اختاره الكسائى والفراء
وقرأ الضحاك وابراهيم بن عبلة بعوضة بالرفع قال ابن جنى وتكون صلة لما وحذف العائد كما فى قوله تماما على الذى أحسن أى على
الذى هو أحسن وحكى سيبويه ما انا بالذى قائل لك شيأ أى بالذى هو قائل لك شيأ وقوله تعالى فمافوقها فيه قولان احدهما فمادونها
فى الصغر والحقارة كما اذا وصف رجل باللؤم والشح فيقول السامع نعم وهو فوق ذلك يعنى فيما وصفت وهذا قول
الكسائى وأبى عبيد قاله الرازى وأكثر المحققين وفى الحديث لوأن الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ماسقى كافرا منها شربة ماء والثانى فمافوقها لما هو أكبر منها لانه ليس شئ أحقر ولا أصغر من البعوضة وهذا قول قتادة بن دعامة واختيار ابن جرير فانه يؤيده ماروا مسلم عن عائشة رضى الله عنها ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال مامن مسلم يشاك شوكة فمافوقها الا كتب له بها درجة ومحيت عنه بها خطيئة فأخبر انه لا يستصغر شيأ يضرب به مثلا ولو كان فى الحقارة والصغر كالبعوضة كما لا يستنكف عن خلقها كذلك لا يستنكف من ضرب المثل بها كما ضرب المثل بالذباب والعنكبوت فى قوله يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيأ لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب وقال مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وان اوهن البيوت لبيت العنكبوت
لو كانوا يعلمون وقال تعالى ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل
حين باذن ربها ويضرب الله الامثال للناس لعلهم يتذكرون ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الارض مالها من
قرار يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله مايشاء وقال تعالى ضرب
الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شئ الآية ثم قال وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شئ وهو كل على مولاه أينما
يوجهه لا يأت بخير هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل الآية كما قال ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم مما ملكت أيمانكم
من شركاء فيما رزقناكم الآية وقال ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون الآية وقال وتلك الامثال نضربها للناس وما

شئ وقيل الفرقان الفرق بينهم وبين قوم فرعون أنجى الله هؤلاء وأغرق هؤلاء وقال
ابن زيد الفرقان انفراق البحر والشرع الفارق بين الحلال والحرام وقيل الفرقان
الفرج من الكرب أو النصر وقيل انه الحجة والبيان بالآيات التى أعطاه الله من
العصا واليد وغيرهما وهذا أولى وأرجح ويكون العطف على بابه كأنه قال آتينا موسى
التوراة والآيات التى أرسلناه بها معجزة له (لعلكم تهتدون) يعنى بالتوراة أى لكى
تهتدوا التدبر والتفكر فيه والعمل والاعتقاد بما يحويه (واذ قال موسى لقومه)
يعنى الذين عبدوا العجل والقوم يطلق تارة على الرجال دون النساء ومنه قوله تعالى
لا يسخر قوم من قوم ثم قال ولا نساء من نساء ومنه ولوطا اذ قال لقومه أراد الرجال
وقد يطلق على الجميع كقوله تعالى انا أرسلنا نوحا الى قومه والمراد هنا بالقوم عبدة العجل
وهذا شروع فى بيان كيفية العفو والقوم ليس له واحد من لفظه ومفرده رجل (ياقوم
انكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل) يعنى الها تعبدونه فكأنهم قالوا اما نصنع قال (فتوبوا
الى بارئكم) أى ارجعوا الى خالقكم واعزموا وصمموا على التوبة والبارئ الخالق وقيل
البارئ هو المبدع المحدث والخالق هو المقدر الناقل من حال الى حال وفى ذكر البارئ هنا
اشارة الى عظيم جرمهم أى فتوبوا الى الذى خلقكم وقد عبدتم معه غيره وأصل التركيب
لخلوص الشئ عن غيره اما على سبيل التفصى كبرئ المريض من مرضه والمديون من
دينه أو الانشاء كبرأ الله آدم من الطين (فاقتلوا أنفسكم) أى اجعلوا القتل متعقبا
للتوبة تماما لها قال القرطبى وأجمعوا على انه لم يؤمر كل واحد من عبدة العجل بأن يقتل
نفسه بيده قيل قاموا صفين وقتل بعضهم بعضا وقيل وقف الذين عبدوا العجل ودخل
الذين لم يعبدوه عليهم بالسلاح فقتلوهم فتاب الله على الباقين منهم عن ابن عباس قال
أمر موسى قومه عن أمر ربه أن يقتلوا أنفسهم واحتبى الذين عكفوا على العجل فجلسوا
وقام الذين لم يعكفوا فأخذوا الخناجر بأيديهم وأصابتهم ظلمة شديدة فجعل يقتل بعضهم
بعضا فانجلت الظلمة عنهم عن سبعين ألف قتيل كل من قتل منهم كانت له توبة وكل من بقى
كانت له توبة وعن على قال قالوا لموسى ما توبتنا قال يقتل بعضكم بعضا فأخذوا
السكاكين فجعل الرجل يقتل أخاه وأباه وابنه لا يبالى من قتل حتى قتل منهم سبعون
ألفا فأوحى الله الى موسى مرهم فليرفعوا أيديهم وقد غفر لمن قتل وتيب على من بقى



يعقلها الا العالمون وفي القرآن أمثال كثيرة قال بعض السلف اذا سمعت المثل في القرآن فلم أفهمه بكيت على نفسي لان الله قال
وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون وقال مجاهد في قوله تعالى ان الله لا يستحيي ان يضرب مثلا ما بعوضة فما
فوقها الامثال صغيرها وكبيرها يؤمن بها المؤمنون ويعلمون أنه الحق من ربهم ويهديهم الله بها وقال قتادة فأما الذين آمنوا
فيعلمون أنه الحق من ربهم أي يعلمون انه كلام الرحمن وانه من عند الله وروى عن مجاهد والحسن والربيع بن أنس نحو ذلك
وقال أبو العالية فأما الذين آمنوا فيعلمون انه الحق من ربهم يعني هذا المثل وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا
كما قال في سورة المدثر وما جعلنا أصحاب النار الا ملائكة وما جعلنا عدتهم الا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين
أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا
ايمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب
والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم
مرض والكافرون ماذا أراد الله
بهذا مثلا كذلك يضل الله من يشاء
ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك
الا هو وكذلك قال ههنا يضل به
كثيرا ويهدي به كثيرا وما يضل به الا
الفاسقين قال السدي في تفسيره
عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن
عباس وعن مرة عن ابن مسعود
وعن ناس من الصحابة يضل به كثيرا
يعني به المنافقين ويهدي به كثيرا يعني
به المؤمنين فيزيد هؤلاء ضلالة الى
ضلالتهم لتكذيبهم بما قد علموه
حقا يقينا من المثل الذي ضربه
الله بما ضرب لهم وانه لما ضرب له
موافق فذلك اضلال الله اياهم به
ويهدي به يعني المثل كثيرا من أهل
الايمان والتصديق فيزيدهم هدى
الى هداهم وايمانا الى ايمانهم
لتصديقهم بما قد علموه حقا يقينا
انه موافق لما ضربه الله له مثلا
واقرارهم به وذلك هداية من الله
لهم به وما يضل به الا الفاسقين قال
هم المنافقون وقال أبو العالية وما
يضل به الا الفاسقين قال هم أهل النفاق وكذا قال الربيع بن أنس وقال ابن جريج عن مجاهد عن ابن
عباس وما يضل به الا الفاسقين قال يقول يعرفه الكافرون فيكفرون به وقال قتادة وما يضل به الا الفاسقين فسقوا فأضلهم الله على
فسقهم وقال ابن أبي حاتم حدثنا عن اسحاق بن سليمان عن أبي سنان عن عمرو بن مرة عن مصعب بن سعد عن سعد يضل به كثيرا
يعني الخوارج وقال شعبة عن عمرو بن مرة عن مصعب بن سعد قال سألت أبي فقلت قوله تعالى الذين ينقضون عهد الله من بعد
ميثاقه الى آخر الآية فقال هم الحرورية وهذا الاسناد وان صح عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه فهو تفسير على المعنى لان
الآية اريد منها التنصيص على الخوارج الذين خرجوا على علي بالنهروان فان أولئك لم يكونوا حال نزول الآية وانما هم داخلون

(ذلكم) يعني هذا القتل وتحمل هذه الشدة (خير لكم) لان الموت لا بد منه (عند
بارئكم) من حيث انه طهرة من الشرك ووصلة الى الحياة الأبدية والبهجة السرمدية
(فتاب عليكم) أي فعلتم ما أمرتم به فتجاوز عنكم وهذه الفاء فاء التفسير وفاء التفصيل
وهذا من كلام الله تعالى خاطبهم به على طريق الالتفات من التكلم الذي يقتضيه السياق
الى الغيبة وقيل انه من جملة كلام موسى لقومه والاول أولى (انه هو التواب) أي
الرجاع بالمغفرة القابل للتوبة البالغ في قبولها منهم (الرحيم) بخلقه (واذ قلتم يا موسى
لن نؤمن لك) أي لا نصدق بان ما نسمعه كلام الله (حتى نرى الله جهرة) أي عيانا
ظاهر السياق أن القائلين بهذه المقالة هم قوم موسى قيل هم السبعون الذين اختارهم ممن
لم يعبدوا العجل وذلك أنهم لما سمعوا كلام الله قالوا له بعد ذلك هذه المقالة معتذرين عن
عبادة أصحابهم العجل فخرج بهم موسى وقيل عشرة آلاف من قومه والمؤمن به والجهرة
استعيرت للمعاينة وأصلها الظهور (فأخذتكم الصاعقة) لفرط العناد والتعنت
وطلب المستحيل قيل هي الموت وفيه ضعف وقيل سبب الموت واختلفوا في ذلك
السبب فقيل ان نارا نزلت من السماء فأحرقتهم وقيل جاءت صيحة من السماء وقيل أرسل
جنودا من الملائكة فسمعوا بحسهم فخروا صعقين ميتين يوما وليلة والاول أولى والمراد
بأخذ الصاعقة اصابتها اياهم وسيأتي في الاعراف انهم ماتوا بالرجفة أي الزلزلة ويمكن
الجمع بأنه حصل لهم الجميع وقيل المراد بالصاعقة الموت واستدل عليه بقوله الآتي ثم
بعثناكم من بعد موتكم ولا موجب للمصير الى هذا التفسير لان المصعوق قد يموت كما في هذه
الآية وقد يغشى عليه ثم يفيق كما في قوله تعالى وخر موسى صعقا فلما أفاق ومما يوجب
بعد ذلك قوله (وأنتم تنظرون) فانها لو كانت الصاعقة عبارة عن الموت لم يكن لهذه
الجملة كثير معنى بل قد يقال انه لا يصح ان ينظروا الموت النازل بهم الا أن يكون المراد نظر
الاسباب المؤثرة للموت قيل انهم نظروا أوائل الصاعقة النازلة بهم الواقعة عليهم
لا آخرها الذي ماتوا عنده والمعنى ينظر بعضكم الى بعض كيف يأخذه الموت وكيف
يحيا وانما عوقبوا بأخذ الصاعقة لهم لانهم طلبوا ما لم يأذن به الله من رؤيته في الدنيا
(ثم بعثناكم من بعد موتكم) المراد بذلك الاحياء لهم لوقوعه بعد الموت فبعثوا بعد الموت
ليستوفوا آجالهم قاله أنس ولو أنهم كانوا قد ماتوا لا انقضاء آجالهم لم يبعثوا الى يوم
القيامة

القيامة وأصل البعث الاثارة للشيء من محله وقد تكون عن اغماء ونوم ولهذا قيد البعث بالموت وقد ذهبت المعتزلة ومن تابعهم الى انكار الرؤية في الدنيا والآخرة وذهب من عداهم الى جوازها في الدنيا والآخرة ووقوعها في الآخرة وقد تواترت الاحاديث الصحيحة بأن العباد يرون ربهم في الآخرة وهي قطعية الدلالة لا ينبغي لمنصف أن يتمسك في مقابلها بتلك القواعد الكلامية التي جاء بها قدماء المعتزلة وزعموا ان العقل قد حكم بها دعوى مبنية على شفا جرف هار وقواعد لا يغتر بها الا من لم يحظ من العلم النافع بنصيب وسيأتيك بيان ما تمسكوا به من الادلة القرآنية وكلها خارج عن محل النزاع بعيد من موضع الحجة وليس هذا موضع المقال في هذه المسألة وقد استوعب الحافظ ابن القيم الكلام عليها في كتابه حادي الارواح بما يشفي العليل ويروي الغليل فليرجع اليه (لعلكم تشكرون) انعامنا بذلك اي بالبعث بعد الموت قاله أبو السعود أو ما كفرتموه قاله البيضاوي (وظللنا عليكم الغمام) اي جعلناه كالظلة والغمام جمع غمامة قاله الاخفش قال الفراء ويجوز غمائم قال ابن عباس غمام أبرد من هذا وأطيب وهو الذي يأتي الله فيه يوم القيامة وهو الذي جاءت فيه الملائكة يوم بدر وكان معهم في التيه وقال قتادة كان هذا الغمام في البرية ظلل عليهم من الشمس وجعل لهم عمودا من نور يضيء لهم بالليل اذا لم يكن قمر والتيه واد بين الشام ومصر وقدره تسعة فراسخ مكثوا فيه أربعين سنة متحيرين لا يهتدون الى الخروج (وأنزلنا عليكم المن والسلوى) يعني في التيه قال قتادة أطعمهم ذلك حين برزوا الى البرية فكان المن يسقط عليهم في محلتهم من طلوع الفجر الى طلوع الشمس سقوط الثلج أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل فيأخذ الرجل قدر ما يكفيه يومه ذلك فان تعدى ذلك فسد ما يبقى عنده حتى اذا كان يوم سادسه يوم جمعة أخذ ما يكفيه ليوم سادسه ويوم سابعه فبقي عنده لانه كان يوم عيد لا يشخص فيه لامر المعيشة ولا لطلبه شيء وهذا كله في البرية وقد ذكر المفسرون ان هذا جرى في التيه بين مصر والشام لما امتنعوا من دخول مدينة الجبارين وقالوا لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا وسيأتي بسطه في سورة المائدة وكان عدد الذين تاهوا ستمائة ألف وماتوا كلهم في التيه الا من لم يبلغ العشرين ومات فيه موسى وهرون وكان موت موسى بعد هرون بسنة والمن قيل هو الترنجبين وعلى هذا أكثر المفسرين وهو طل ينزل من السماء

بوصفهم فيها مع من دخل لانهم سموا خوارج لخروجهم عن طاعة الامام والقيام بشرائع الاسلام والفاسق في اللغة هو الخارج عن الطاعة أيضا وتقول العرب فسقت الرطبة اذا خرجت من قشرتها ولهذا يقال للفأرة فويسقة لخروجها عن جحرها للفساد وثبت في الصحيحين عن عائشة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم الغراب والحدأة والعقرب والفأرة والكلب العقور فالفاسق يشمل الكافر والعاصي ولكن فسق الكافر أشد وأفحش والمراد من الآية الفاسق الكافر والله أعلم بدليل انه وصفهم بقوله تعالى الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به ان يوصل ويفسدون في الارض أولئك هم الخاسرون وهذه الصفات صفات الكفار المباينة لصفات المؤمنين كما قال تعالى في سورة الرعد أفمن يعلم انما انزل اليك من ربك الحق كمن هو أعمى انما يتذكر اولوا الالباب الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب الآيات الى أن قال والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الارض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار وقد اختلف أهل التفسير في معنى العهد الذي وصف هؤلاء الفاسقين بنقضه فقال بعضهم هو وصية الله الى خلقه وأمره اياهم بما أمرهم به من طاعته ونهيه اياهم عما نهاهم عنه من معصيته في كتبه وعلى لسان رسله ونقضهم ذلك هو تركهم العمل به وقال آخرون بل هي في كفار أهل الكتاب والمنافقين منهم وعهد الله الذي نقضوه هو ما أخذه الله عليهم في التوراة من العمل بما فيها واتباع محمد صلى الله عليه وسلم اذا بعث والتصديق به وبما جاء به من عند ربهم ونقضهم ذلك هو جحودهم به بعد معرفتهم بحقيقته وانكارهم ذلك وكتمانهم علم ذلك الناس بعد اعطائهم الله من أنفسهم الميثاق ليبيننه للناس ولا يكتمونه فأخبر تعالى أنهم نبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا وهذا اختيار ابن جرير رحمه الله وهو قول مقاتل بن حيان وقال آخرون بل عنى بهذه الآية جميع أهل الكفر والشرك والنفاق وعهده الى جميعهم في توحيده ما وضع لهم من الادلة الدالة على ربوبيته وعهده اليهم في أمره ونهيه ما احتج به لرسله من المعجزات التي لا يقدر أحد من الناس غيرهم ان يأتي بمثله الشاهدة لهم على صدقهم قالوا ونقضهم ذلك تركهم الاقرار بما قد تبينت لهم صحته بالادلة وتكذيبهم الرسل والكتب مع علمهم ان ما أتوا به حق وروي عن مقاتل بن حيان أيضا نحو هذا وهو حسن واليه مال الزمخشري فانه قال فان قلت فما المراد بعهد الله قلت ما ركز في

عهدوليهم من الحجة على التوحيد كان أمر وصاهم به ووثقه عليهم وهو معنى قوله تعالى وأشهدهم على أنفسهم الست بربكم قالوا بلى اذ أخذ الميثاق عليهم من الكتب المنزلة عليهم كقوله وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وقال آخرون العهد الذى ذكره تعالى هو العهد الذى أخذه عليهم حين أخرجهم من صلب آدم الذى وصف فى قوله واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا الآيتين ونقضهم ذلك تركهم الوفاء به وهكذا روى عن مقاتل بن حيان ايضا حكى هذه الاقوال ابن جرير فى تفسيره وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية فى قوله تعالى الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه الى قوله أولئك هم الخاسرون قال هى ست خصال من المنافقين اذا كانت فيهم الظهرة على الناس أظهروا هذه الخصال اذا حدثوا كذبوا واذا وعدوا أخلفوا واذا ائتمنوا خانوا ونقضوا عهد الله من بعد ميثاقه وقطعوا ما أمر الله به ان يوصل وأفسدوا فى الارض واذا كانت الظهرة عليهم أظهروا الخصال الثلاث اذا حدثوا كذبوا واذا وعدوا أخلفوا واذا اؤتمنوا خانوا وكذا قال الربيع بن أنس أيضا وقال السدى فى تفسيره باسناده قوله تعالى الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه قال هو ما عهد اليهم فى القرآن فأقروا به ثم كفروا فنقضوه وقوله ويقطعون ما أمر الله به ان يوصل قيل المراد به صلة الارحام والقرابات كما فسره قتادة كقوله تعالى فهل عسيتم ان توليتم ان تفسدوا فى الارض وتقطعوا أرحامكم ورجحه ابن جرير وقيل المراد أعم من ذلك فكل ما أمر الله بوصله وفعله فقطعوه وتركوه وقال مقاتل بن حيان فى قوله تعالى أولئك هم الخاسرون قال فى الآخرة وهذا كما قال تعالى أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار وقال الضحاك عن ابن عباس كل شئ نسبه الله الى غير أهل الاسلام من اسم مثل خاسر فانما يعنى به الكفر وما نسبه الى أهل الاسلام فانما يعنى به الذنب واسم وقال ابن جرير فى قوله تعالى أولئك هم الخاسرون الخاسرون جمع خاسر وهم الناقصون أنفسهم حظوظهم بمعصيتهم الله من رحمته كما يخسر الرجل فى تجارته بأن يوضع من رأس ماله فى بيعه وكذلك المنافق والكافر خسر بحرمان الله اياه رحمته التى خلقها لعباده فى القيامة أحوج ما كانوا الى رحمته يقال منه خسر الرجل يخسر خسرا وخسرانا وخسارا كما قال جرير بن عطية

ان سليطا فى الخسار انه * أولاد قوم خلقوا اقنه

(كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم اليه ترجعون) يقول تعالى محتجا على وجوده وقدرته وانه الخالق المتصرف فى عباده كيف تكفرون بالله أى كيف تجحدون

على شجر أو حجر ويحلو وينعقد عسلا ويجف جفاف الصمغ ذكر معناه فى القاموس وقيل المن العسل وقيل شراب حلو وقيل خبز الرقاق قاله وهب وقيل هو مصدر يعم جميع ما من الله به على عباده من غير تعب ولا زرع ومنه ما ثبت فى صحيح البخارى ومسلم من حديث سعيد بن زيد عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم ان الكمأة من المن الذى أنزل على موسى وقد ثبت مثله من حديث أبى هريرة عند احمد والترمذى ومن حديث جابر وأبى سعيد وابن عباس عند النسائى وقد قالوا ياموسى قد قتلنا المن بحلاوته فادع لنا ربك أن يطعمنا اللحم فأرسل الله عليهم السلوى قيل هو السمانى كحبارى طائر يذبحونه فما كانوا يعيشها عليهم الجنوب قال ابن عطية السلوى طائر باجماع المفسرين قال القرطبى ما ادعاه من الاجماع لا يصح وقد قال المؤرج أحد علماء اللغة والتفسير انه العسل وبه قال الجوهرى وقال ابن يحيى السلوى طائر يشبه السمانى وخاصيته ان أكل لحمه يلين القلوب القاسية يموت اذا سمع صوت الرعد كما ان الخطاف يقتله البرد فيلهمه الله تعالى ان يسكن جزائر البحر التى لا يكون فيها مطر ولا رعد الى انقضاء أوان المطر والرعد فيخرج من الجزائر وينتشر فى الارض قال الاخفش السلوى لا واحد له من لفظه مثل الخير والشر وهو يشبه أن يكون واحده سلوى مثل جماعته وقال الخليل واحده سلواة وقال الكسائى السلوى واحدة وجمعه سلاوى وقيل هو السمانى بعينه فكان الرجل يأخذ ما يكفيه يوما وليلة فاذا كان يوم الجمعة يأخذ ما يكفيه ليومين لانه لم يكن ينزل يوم السبت شئ (كلوا) أى وقلنا لهم كلوا (من طيبات) اى حلالات أو مستلذات (ما رزقناكم) ولا تدخروا لغد استدل به على أن الضيف لا يملك ما قدم له وانه لا يتصرف الا باذن (وما ظلمونا) اى وما بخسوا حقنا (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) بأخذهم أكثر مما حد لهم فاستحقوا بذلك عذابى وقطع مادة الرزق الذى كان ينزل عليهم بلا مؤنة ولا تعب فى الدنيا ولا حساب فى العقبى فعصوا ولم يقابلوا النعم بالشكر وتقديم الانفس يفيد الاختصاص وفيه ضرب تهكم بهم والجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل للدلالة على تماديهم فى الظلم واستمرارهم على الكفر (واذ قلنا ادخلوا هذه القرية) سميت قرية لاجتماع الناس فيها وقد يطلق عليهم مجازا وقوله تعالى واسأل القرية يحتمل الوجهين مشتقة من قريت اى جمعت لجمعها الاهلها تقول قريت الماء فى الحوض اى جمعته

وجوده أو تعبدون معه غيره وكنتم أمواتا فأحياكم أي قد كنتم عدما فأخرجكم الى الوجود كما قال تعالى أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون أم خلقوا السموات والارض بل لا يوقنون وقال تعالى هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيأ مذكورا والآيات في هذا كثيرة وقال سفيان الثوري عن أبي اسحق عن أبي الاحوص عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا قال هي التي في البقرة وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم وقال ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس كنتم أمواتا فأحياكم أمواتا في أصلاب آبائكم لم تكونوا شيأ حتى خلقكم ثم يميتكم موتة الحق ثم يحييكم حين يبعثكم قال وهي مثل قوله تعالى أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين وقال

الضحاك عن ابن عباس في قوله تعالى ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين قال كنتم ترابا قبل أن يخلقكم فهذه ميتة ثم أحياكم فخلقكم فهذه حياة ثم يميتكم فترجعون الى القبور فهذه ميتة أخرى ثم يبعثكم يوم القيامة فهذه حياة فهذه ميتتان وحياتان فهو كقوله كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم وهكذا روى عن السدي بسنده عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة وعن أبي العالية والحسن ومجاهد وقتادة وأبي صالح والضحاك وعطاء الخراساني نحو ذلك وقال الثوري عن السدي عن أبي صالح كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم اليه ترجعون قال يحييكم في القبر ثم يميتكم وقال ابن جرير عن يونس عن ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال خلقهم في ظهر آدم ثم أخذ عليهم الميثاق ثم أماتهم ثم خلقهم في الأرحام ثم أماتهم ثم أحياهم يوم القيامة وذلك كقوله تعالى قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين وهذا غريب والذي قبله والصحيح ما تقدم عن ابن مسعود وابن عباس وأولئك الجماعة من التابعين وهو كقوله تعالى قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم الى يوم القيامة لا ريب فيه الآية كما قال تعالى في الاصنام أموات غير أحياء وما يشعرون الآية وقال وآية لهم الارض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون (هو الذي خلق لكم ما في الارض جميعا ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شيء عليم) لما ذكر تعالى دلالة من خلقهم وما يشاهدونه من أنفسهم ذكر دليلا آخر مما يشاهدونه من خلق السموات والارض فقال هو الذي خلق لكم ما في الارض جميعا ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سموات أي قصد الى السماء والاستواء ههنا مضمن معنى القصد والاقبال لانه عدي بالى فسواهن أي فخلق السماء

واسم ذلك الماء قرى بكسر القاف قال جمهور المفسرين القرية هي بيت المقدس وبه قال مجاهد وقال ابن عباس هي أريحاء قرية الجبارين قال ابن الاثير قرية بالغور قريبة من بيت المقدس وجزم القاضي وغيره بالاول وقيل كان فيها قوم من بقية عاد يقال لهم العمالقة فعلى هذا يكون القائل يوشع بن نون لانه هو الذي فتح اريحاء بعد موسى لان موسى مات في التيه وعلى الاول القائل موسى عليه السلام وقيل قرية من قرى الشام (فكلوا منها حيث شئتم رغدا) أمر اباحة ورغدا كثيرا واسعا أي أكلا رغدا (وادخلوا الباب) الذي أمرتم بدخوله هو باب في بيت المقدس يعرف اليوم بباب حطة وقيل هو باب القبة التي كان يصلي اليها موسى وبنو اسرائيل ومن قال ان القرية اريحاء قال ادخلوا من أي باب كان من أبوابها وكان لها سبعة أبواب (سجدا) أي منحنين كالراكعين أو خضعا متواضعين والسجود قيل هو هنا الانحناء وقيل التواضع والخضوع واستدلوا على ذلك بانه لو كان المراد السجود الحقيقي الذي هو وضع الجبهة على الارض لامتنع الدخول المأمور به لانه لا يمكن الدخول حال السجود قال في الكشاف انهم أمروا بالسجود عند الانتهاء الى الباب شكرا لله وتواضعا واعترضه أبو حيان في النهر الماد فقال لم يؤمروا بالسجود بل هو قيد في وقوع المأمور به وهو الدخول والاحوال نسب تقييدية والاوامر نسب اسنادية انتهى ويجاب عنه بان الامر بالمقيد أمر بالقيد فمن قال أخرج مسرعا فهو أمر بالخروج على هذه الهيئة فلو خرج غير مسرع كان عند أهل اللسان مخالفا للامر ولا ينافي هذا كون الاحوال نسبا تقييدية فان اتصافها بكونها قيودا مأمورا بها هو شيء زائد على مجرد التقييد (وقولوا حطة) قيل الحطة في الاصل اسم للهيئة من الحط كالجلسة والقعدة وقيل هي التوبة معناه الاستغفار وقال ابن فارس في المجمل حطة كلمة أمروا بها ولو قالوها لحطت أوزارهم اي لا يدري معناها قال الرازي في تفسيره أمرهم بأن يقولوا ما يدل على التوبة وذلك لان التوبة صفة القلب فلا يطلع الغير عليها واذا اشتهر واحد بالذنب ثم تاب بعده لزمه أن يحكي توبته لمن شاهد منه الذنب لان التوبة لا تتم الا به انتهى وكون التوبة لا تتم الا بذلك لا دليل عليه بل مجرد عقد القلب عليها يكفي سواء اطلع الناس على ذنبه أم لا وربما كان التكتم بالتوبة على وجه لا يطلع عليها الا الله عز وجل أحب الى الله وأقرب الى مغفرته وأما رفع ما عند الناس من اعتقادهم

سبعا والسماء ههنا اسم جنس فلهذا قال فسواهن سبع سموات وهو بكل شيء عليم أي وعلمه محيط بجميع ما خلق كما قال ألا يعلم
من خلق وتفصيل هذه الآية في سورة حم السجدة وهو قوله تعالى قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الارض في يومين وتجعلون له
أندادا ذلك رب العالمين وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ثم استوى الى السماء
وهي دخان فقال لها وللارض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا
السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم ففي هذا دلالة على انه تعالى ابتدأ بخلق الارض أولا ثم خلق السموات سبعا
وهذا شأن البناء ان يبدأ بعمارة أسافله ثم أعاليه بعد ذلك وقد صرح المفسرون بذلك كما سنذكره بعد هذا ان شاء
الله فأما قوله تعالى أأنتم أشد خلقا
أم السماء بناها رفع سمكها فسواها
وأغطش ليلها وأخرج ضحاها
والارض بعد ذلك دحاها أخرج
منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها
متاعا لكم ولأنعامكم فقد قيل ان
ثم ههنا انما هي لعطف الخبر على
الخبر لا لعطف الفعل على الفعل
كما قال الشاعر

قل لمن ساد ثم ساد أبوه
ثم قد ساد قبل ذلك جده

وقيل ان الدحي كان بعد خلق
السموات والارض رواه علي بن
أبي طلحة عن ابن عباس وقد قال
السدي في تفسيره عن أبي مالك
وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن
مرة عن ابن مسعود وعن ناس من
الصحابة هو الذي خلق لكم ما في
الارض جميعا ثم استوى الى السماء
فسواهن سبع سموات وهو بكل شيء
عليم قال ان الله تبارك وتعالى
كان عرشه على الماء ولم يخلق شيأ
غير ما خلق قبل الماء فلما أراد أن
يخلق الخلق أخرج من الماء دخانا
فارتفع فوق الماء فسما عليه فسماه
سماء ثم أيبس الماء فجعله أرضا
واحدة ثم فتقها فجعلها سبع أرضين في يومين في الاحد والاثنين فخلق الارض على حوت والحوت هو الذي يظلمون
ذكره الله في القرآن ن والقلم والحوت في الماء والماء على ظهر صفاة والصفاة على ظهر ملك والملك على صخرة والصخرة في الريح
وهي الصخرة التي ذكر لقمان ليست في السماء ولا في الارض فتحرك الحوت فاضطرب فتزلزلت الارض فأرسى عليها الجبال فقرت
فالجبال تفخر على الارض فذلك قوله تعالى وجعلنا في الارض رواسي أن تميد بهم وخلق الجبال فيها وأقوات أهلها وشجرها
وما ينبغي لها في يومين في الثلاثاء والاربعاء وذلك حين يقول قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الارض في يومين وتجعلون له أندادا
ذلك رب العالمين وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها يقول أنبت شجرها وقدر فيها أقواتها لاهلها في أربعة أيام سواء للسائلين

بقاءه على المعصية فذلك باب آخر (نغفر لكم خطاياكم) اي نسترها عليكم من الغفر وهو
الستر لان المغفرة تستر الذنوب وخطايا جمع خطية (وسنزيد المحسنين) اي نزيدهم ثوابا
أو احسانا الى احسانهم المتقدم وهو اسم فاعل من احسن وقد ثبت في الصحيحين ان
رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سئل عن الاحسان فقال أن تعبد الله كأنك تراه فان لم
تكن تراه فانه يراك (فبدل الذين ظلموا قولا غير الذي قيل لهم) قيل انهم قالوا حنطة وقيل
قالوا بلسانهم حطا سمقاثا اي حنطة حمراء استخفافا منهم بأمر الله وقيل غير ذلك
والصواب انهم قالوا حبة في شعرة قالوا ذلك استهزاء أخرجه البخاري ومسلم من حديث
أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وفي رواية عن ابن عباس عند ابن جرير وابن
المنذر حنطة في شعيرة والاول أرجح لكونه في الصحيحين وبدلوا الفعل أيضا حيث دخلوا
يزحفون على استاههم قال الكيا الهراسي فيه دليل على انه لا يجوز تغيير الاقوال
المنصوص عليها وانه يتعين اتباعها وقال الرازي يحتج به فيما ورد من التوقيف في الاذكار
والاقوال وانه غير جائز تغييرها وربما احتج به علماء المخالف في تجويز تحريمة الصلاة بلفظ
التعظيم والتسبيح وفي تجويز القراءة بالفارسية وفي تجويز النكاح بلفظ الهبة وما جرى
مجرى ذلك (فأنزلنا على الذين ظلموا) هو من وضع الظاهر موضع المضمر لنكتة تقدر في كل
محل بما يناسبه تعظيما كقوله أولئك حزب الله ألا ان حزب الله وتحقيرا كقوله أولئك
حزب الشيطان ألا ان حزب الشيطان أو ازالة لبس أو غير ذلك وهي مبسوطة في الاتقان
للجلال السيوطي وكما تقرر في علم البيان وهي هنا تعظيم الامر عليهم ومبالغة في تقبيح
فعلهم وشأنهم (رجزا من السماء) يعني عذابا والرجز العذاب قيل أرسل الله عليهم
طاعونا فهلك منهم في ساعة واحدة سبعون ألفا وأخرج مسلم وغيره من حديث اسامة
ابن زيد وسعد بن مالك وخزيمة بن ثابت قالوا قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان
هذا الطاعون رجز وبقية عذاب عذب به اناس من قبلكم فاذا كان بأرض وأنتم بها
فلا تخرجوا منها واذا بلغكم انه بأرض فلا تدخلوها ومن المعلوم ان الطاعون ضرب
الجن للانس فهو أرضي لا سماوي وانما قيل فيه من السماء لان القضاء به يقع فيها قال
الجلال السيوطي فهلك منهم في ساعة سبعون ألفا أو أقل انتهى وهذا الوباء غير الذي حل
بهم في التيه (بما كانوا يفسقون) أي يعصون ويخرجون عن أمر الله تعالى وفي الاعراف

يقول من سأل فهكذا الامر ثم استوى الى السماء وهي دخان وذلك الدخان من تنفس الماء حين تنفس فجعلها سماء واحدة ثم فتقها فجعلها سبع سموات في يومين في الخميس والجمعة وانما سمي يوم الجمعة لانه جمع فيه خلق السموات والارض وأوحى في كل سماء أمرها قال خلق الله في كل سماء خلقها من الملائكة والخلق الذي فيها من البحار وجبال البرد ومما لا يعلم ثم زين السماء الدنيا بالكواكب فجعلها زينة وحفظا تحفظ من الشياطين فلما فرغ من خلق ما أحب استوى على العرش فذلك حين يقول خلق السموات والارض في ستة أيام ثم استوى على العرش و يقول كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي وقال ابن جرير حدثني المثنى حدثنا عبد الله بن صالح حدثني أبو معشر

عن سعيد بن أبي سعيد عن عبد الله بن سلام انه قال ان الله بدأ الخلق يوم الاحد فخلق الارضين في الاحد والاثنين وخلق الاقوات والرواسي في الثلاثاء والاربعاء وخلق السموات في الخميس والجمعة وفرغ في آخر ساعة من يوم الجمعة فخلق فيها آدم على عجل فتلك الساعة التي تقوم فيها الساعة وقال مجاهد في قوله تعالى هو الذي خلق لكم ما في الارض جميعا قال خلق الله الارض قبل السماء فلما خلق الارض ثار منها دخان فذلك حين يقول ثم استوى الى السماء وهي دخان فسواهن سبع سموات قال بعضهن فوق بعض وسبع أرضين يعني بعضها تحت بعض وهذه الآية دالة على ان الارض خلقت قبل السماء كما قال في آية السجدة قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الارض في يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللارض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم فهذه وهذه دالتان على ان الارض خلقت قبل السماء وهذا ما لا أعلم فيه نزاعا بين العلماء الا ما نقله ابن جرير عن قتادة انه زعم أن السماء خلقت قبل الارض وقد توقف في ذلك القرطبي في تفسيره لقوله تعالى أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها رفع سمكها فسواها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها والارض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها قالوا فذكر خلق السماء قبل الارض وفي صحيح البخاري ان ابن عباس سئل عن هذا بعينه فأجاب بان الارض خلقت قبل السماء وان الارض انما دحيت بعد خلق السماء وكذلك أجاب غير واحد من علماء التفسير قديما وحديثا وقد حررنا ذلك في سورة النازعات وحاصل ذلك ان الدحي مفسر بقوله تعالى

يظلمون تنبيها على انهم جامعون بين هذين الوصفين (واذ استسقى موسى لقومه) أي طلب السقيا لقومه وذلك انهم عطشوا في التيه فسألوا موسى أن يستسقي لهم ففعل والاستسقاء انما يكون عند عدم الماء وحبس القطر ومعناه في اللغة طلب السقيا وفي الشرع ما ثبت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في صفته من الصلاة والدعاء وهذا تذكير لنعمة أخرى كفروها (فقلنا اضرب بعصاك الحجر) وكانت العصا من آس الجنة طولها عشرة أذرع على طول موسى ولها شعبتان تتقدان في الظلمة نورا واسمها عليق وقيل نبعة حملها آدم معه من الجنة فتوارثها الانبياء حتى وصلت الى شعيب فأعطاها موسى كذا قيل والله أعلم والحجر يحتمل ان يكون معينا فيكون اللام للعهد وهو الذي فر بثوبه فلما سألوه السقيا ضربه ويحتمل أن لا يكون معينا فتكون للجنس وهو أظهر في المعجزة وأقوى للحجة (فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا) يعني على عدد أسباط بني اسرائيل والمعنى فضرب به فانفجرت والانفجار الانشقاق وانفجر الماء انفتح قال المفسرون انفجرت وانبجست بمعنى واحد وقيل انبجست عرقت وانفجرت سالت قال ابن عطية ولا خلاف انه كان حجرا مربعا يخرج من كل جهة ثلاث عيون اذا ضرب موسى سالت العيون واذا استغنوا عن الماء جفت (قد علم كل أناس مشربهم) المشرب موضع الشرب وقيل هو المشروب نفسه وفيه دليل على انه يشرب من كل عين قوم منهم لا يشاركهم غيرهم قيل كان لكل سبط عين من تلك العيون لا يتعداها الى غيرها والاسباط ذرية الاثني عشر من أولاد يعقوب وكل عين تسيل في قناة الى سبط وكانوا ستمائة ألف وسعة العسكر اثنا عشر ميلا (كلوا) أي قلنا لهم كلوا المن والسلوى (واشربوا) أي الماء المتفجر من الحجر (من رزق الله) فهذا كله من رزقه كان يأتيهم بلا مشقة ولا كلفة (ولا تعثوا في الارض مفسدين) عثي يعثى عثيا وعثا يعثو عثوا وعاث يعيث عيثا لغات بمعنى أفسد قال في الكشاف العثي أشد الفساد فقيل لهم لا تمادوا في الفساد في حال فسادكم لانهم كانوا متمادين فيه انتهى وفي هذه الآية معجزة عظيمة لموسى عليه السلام حيث انفجر من الحجر الصغير ما روى منه الجمع الكثير ومعجزة نبينا صلى الله عليه وآله وسلم أعظم منه لانه انفجر الماء من بين أصابعه فروى منه الجم الغفير لأن انفجار الماء من بين الدم واللحم أعظم من انفجاره من الحجر (واذ قلتم) أي اذكروا يا بني اسرائيل اذ قال أسلافكم وهذا

والارض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها ففسر الدحى باخراج ما كان . ودعا فيها بالقوة الى الفعل لما
أكملت صورة المخلوقات الارضية ثم السماوية دحى بعد ذلك الارض فاخرجت ما كان مودعا فيها من المياه فنبتت النباتات على
اختلاف أصنافها وصفاتها وألوانها وأشكالها وكذلك جرت هذه الافلاك فدارت بما فيها من الكواكب الثوابت والسيارة
والله سبحانه وتعالى أعلم وقد ذكر ابن أبي حاتم وابن مردويه في تفسير هذه الاية الحديث الذي رواه مسلم والنسائي في التفسير أيضا
من رواية ابن جريج قال أخبرني اسمعيل بن أمية عن أيوب بن خالد عن عبد الله بن رافع مولى أم سلمة عن أبي هريرة قال أخذ رسول
الله صلى الله عليه وسلم بيدي فقال خلق الله التربة يوم السبت وخلق الجبال فيها يوم الاحد وخلق الشجر فيها يوم
الاثنين وخلق المكروه يوم الثلاثاء وخلق النور يوم الاربعاء وبث فيها الدواب يوم الخميس وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة من آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر الى الليل وهذا الحديث من غرائب صحيح مسلم وقد تكلم عليه علي بن المديني والبخاري وغير واحد من الحفاظ وجعلوه من كلام كعب وان أبا هريرة انما سمعه من كلام كعب الاحبار وانما اشتبه على بعض الرواة فجعلوه مرفوعا وقد حرر ذلك البيهقي (واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الارض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال انى أعلم مالا تعلمون) يخبر تعالى بامتنانه على بنى آدم بتنويهه بذكرهم فى الملأ الاعلى قبل ايجادهم فقال تعالى واذ قال ربك للملائكة أى واذكر يا محمد اذ قال ربك للملائكة واقصص على قومك ذلك وحكى ابن جرير عن بعض أهل العربية وهو أبو عبيدة أنه زعم ان اذ ههنا زائدة وان تقدير
الكلام وقال ربك ورده ابن جرير قال القرطبي وكذا رده جميع المفسرين حتى قال الزجاج هذا اجتراء
من أبي عبيدة انى جاعل فى الارض خليفة أى قوما يخلف بعضهم بعضا قرنا بعد قرن وجيلا بعد جيل كما قال تعالى هو الذى جعلكم
خلائف الارض وقال ويجعلكم خلفاء الارض وقال ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة فى الارض يخلفون وقال فخلف من بعدهم
خلف وقرئ فى الشاذ انى جاعل فى الارض خليقة حكاها الزمخشرى وغيره ونقل القرطبى عن زيد بن على وليس المراد ههنا بالخليفة
آدم عليه السلام فقط كما يقوله طائفة من المفسرين وعزاه القرطبى الى ابن عباس وابن مسعود وجميع أهل التأويل وفى ذلك نظر بل
الخلاف فى ذلك كثير حكاه الرازى فى تفسيره وغيره والظاهر انه لم يرد آدم عينا اذ لو كان ذلك لما حسن قول الملائكة أتجعل فيها

تذكير لجناية أخرى صدرت منهم واسناد الفعل الى فروعهم وتوجيه التوبيخ اليهم لما بينهم وبين أصولهم من الاتحاد (ياموسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الارض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها) هذا تضجر منهم بما صاروا فيه من النعمة والرزق الطيب والعيش المستلذ ونزوع الى ما ألفوه قبل ذلك من خشونة العيش ويحتمل أن لا يكون هذا منهم تشوقا الى ما كانوا فيه وبطرا لما صاروا اليه من المعيشة الرافهة بل هو باب من تعنتهم وشعبة من شعب تجبرهم كما هو دأبهم وهجيرهم فى غالب ما قص علينا من أخبارهم وقال الحسن البصرى انهم كانوا أهل كراث وأبصال وأعداس فنزعوا الى عكرهم عكر السوء واشتاقت طباعهم الى ما جرت عليه عادتهم فقالوا لن نصبر على طعام واحد أى نوع منه والمراد بالطعام الواحد هو المن والسلوى وهما وان كانا طعامين لكن لما كانوا يأكلون أحدهما بالآخر جعلوهما طعاما واحدا وقيل لتكررهما فى كل يوم وعدم وجود غيرهما معهما ولا تبدلة بهما والبقل كل نبات ليس له ساق والشجر ماله ساق وقال فى الكشاف البقل ما أنبتته الارض من الخضر والمراد به أطائب البقول التى يأكلها الناس كالنعناع والكرفس والكراث وأشباهها انتهى وجمعه بقول والقثاء معروف الواحد قثاءة وفيها لغتان كسر القاف وضمها والمشهور الكسر والفوم قيل هو الثوم وقد قرأه ابن مسعود بالثاء وروى نحو ذلك عن ابن عباس وقيل الفوم الحنطة واليه ذهب أكثر المفسرين كما قال القرطبى وقد رجح هذا ابن النحاس قال الجوهرى وممن قال بهذا الزجاج والاخفش وقال بالاول الكسائى والنضر بن شميل وقيل الفوم السنبلة وقيل الحمص وقيل الفوم كان حب يختبز والعدس والبصل معروف وقيل انما طلبوا هذه الانواع لانها تعين على تقوية الشهوة أو لانهم ملوا من البقاء فى التيه فسألوا هذه الاطعمة التى لا توجد الا فى البلاد وكان غرضهم الوصول الى البلاد لا تلك الاطعمة والاول أولى (قال) يعنى موسى عليه السلام لهم وقيل القائل هو الله والاول اولى (أتستبدلون الذى هو أدنى) أى اخس وأردأ وهو الذى طلبوه والاستبدال وضع الشئ موضع الآخر قال الزجاج ادنى مأخوذ من الدنو أى القرب وقيل من الدناءة وقيل أصله أدون من الدون أى الردىء والهمزة للانكار مع التوبيخ والمراد أتضعون هذه الاشياء التى هى دون موضع المن والسلوى اللذين هما خير منهما من جهة

الاستلذاذ

من يفسد فيها ويسفك الدماء فانهم ارادوا ان من هذا الجنس من يفعل ذلك وكأنهم علموا ذلك بعلم خاص او بما فهموه من الطبيعة البشرية فانه أخبرهم انه يخلق هذا الصنف من صلصال من حمإ مسنون أو فهموا من الخليفة انه الذى يفصل بين الناس ما يقع بينهم من المظالم ويردعهم عن المحارم والمآثم قاله القرطبى أو انهم قاسوهم على من سبق كما سنذكر أقوال المفسرين فى ذلك وقول الملائكة هذا ليس على وجه الاعتراض على الله ولا على وجه الحسد لبنى آدم كما قد يتوهمه بعض المفسرين وقد وصفهم الله تعالى بانهم لا يسبقونه بالقول أى لا يسألونه شيأ لم يأذن لهم فيه وههنا لما أعلمهم بانه سيخلق فى الارض خلقا قال قتادة وقد تقدم اليهم انهم يفسدون فيها فقالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء الآية وانما هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة فى ذلك يقولون ياربنا ما الحكمة فى خلق هؤلاء مع ان منهم من يفسد فى الارض ويسفك الدماء فان كان المراد عبادتك فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك اى نصلى لك كما سيأتى اى ولا يصدر منا شئ من ذلك وهلا وقع الاقتصار علينا قال الله تعالى مجيبا لهم عن هذا السؤال انى أعلم ما لا تعلمون اى انى أعلم من المصلحة الراجحة فى خلق هذا الصنف على المفاسد التى ذكرتموها ما لا تعلمون أنتم فانى سأجعل فيهم الانبياء وأرسل فيهم الرسل ويوجد منهم الصديقون والشهداء والصالحون والعباد والزهاد والاولياء والابرار والمقربون والعلماء العاملون والخاشعون والمحبون له تبارك وتعالى المتبعون رسله صلوات الله وسلامه عليهم وقد ثبت فى الصحيح ان الملائكة اذا صعدت الى الرب تعالى بأعمال عباده يسألهم وهو أعلم كيف تركتم عبادى فيقولون أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون وذلك لانهم يتعاقبون فينا ويجتمعون فى صلاة الصبح وفى صلاة العصر فيمكث هؤلاء ويصعد اولئك بالاعمال كما قال عليه الصلاة والسلام يرفع اليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل فقولهم أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون من تفسير قوله لهم انى أعلم ما لا تعلمون وقيل معنى قوله تعالى جوابا لهم انى أعلم ما لا تعلمون انى لى حكمة مفصلة فى خلق هؤلاء والحالة ما ذكرتم لا تعلمونها وقيل انه جواب ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك فقال انى أعلم ما لا تعلمون أى من وجود ابليس بينكم وليس هو كما وصفتم أنفسكم به وقيل بل تضمن قولهم أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك طلبا منهم ان يسكنوا الارض بدل بنى آدم فقال الله تعالى لهم انى أعلم ما لا تعلمون من ان بقاءكم فى السماء أصلح لكم وأليق بكم ذكرها الرازى مع غيرها من الاجوبة والله أعلم * ذكر أقوال المفسرين ببسط

الاستلذاذ والوصول من عند الله بغير واسطة أحد من خلقه والحل الذى لا تطرقه الشبهة وعدم الكلفة بالسعى له والتعب فى تحصيله (بالذى هو خير) أى أشرف وأفضل وهو ما هم فيه (اهبطوا مصرا) أى انزلوا مصرا او انتقلوا من هذا المكان الى مكان آخر فالهبوط لا يختص بالنزول من المكان العالى الى الاسفل بل قد يستعمل فى الخروج من أرض الى أرض مطلقا قاله الشهاب وظاهر هذا ان الله أذن لهم بدخول مصر وقيل ان الامر للتعجيز والاهانة لانهم كانوا فى التيه لا يمكنهم هبوط مصر لانسداد الطرق عليهم اذ لو عرفوا طريق مصر لما أقاموا أربعين سنة متحيرين لا يهتدون الى طريق من الطرق فهو مثل قوله تعالى كونوا حجارة أو حديدا قال الخليل وسيبويه أراد مصرا من الامصار ولم يرد المدينة المعروفة وهو خلاف الظاهر بل يجوز صرفه مع حصول العلمية والتأنيث لانه ثلاثى ساكن الأوسط وبه قال الاخفش والكسائى والمصر فى الاصل الحد الفاصل بين الشيئين وقيل المصر البلدة العظيمة (فان لكم ما سألتم) يعنى من نبات الارض (وضربت عليهم) أى على فروعهم وأخلافهم (الذلة) أى الهوان وقيل الجزية وزى اليهودية وفيه بعد والاول أولى والمعنى جعلت الذلة محيطة بهم مشتملة عليهم وألزموا الذل والهوان بسبب قتلهم عيسى فى زعمهم والذلة بالكسر الصغار والحقارة والذلة بالضم ضد العجز (والمسكنة) أى الفقر والفاقة وسمى الفقير مسكينا لان الفقر أسكنه وأقعده عن الحركة ومعنى ضرب الذلة والمسكنة الزامهم بذلك والقضاء به عليهم قضاء مستمرا لا يفارقهم ولا ينفصل عنهم مع دلالته على ان ذلك مشتمل عليهم اشتمال القباب على من فيها أو لازم لهم لزوم الدرهم المضروب لسكته وهذا الخبر الذى أخبر الله تعالى به وهو معلوم فى جميع الازمنة فان اليهود أقماهم الله أذل الفرق وأشدهم مسكنة وأكثرهم تصاغرا لم ينتظم لهم جمع ولا خفقت على رؤسهم راية ولا ثبتت لهم ولاية بل ما زالوا عبيد العصى فى كل زمن وطروقة كل فحل فى كل عصر ومن تمسك منهم بنصيب من المال وان بلغ فى الكثرة أى مبلغ فهو متظاهر بالفقر مرتد بأثواب المسكنة ليدفع عن نفسه اطماع الطامعين فى ماله اما بحق كتوفير ما عليه من الجزية أو بباطل كما يفعله كثير من الظلمة من التجارى على الله بظلم من لا يستطيع الدفع عن نفسه فلا ترى أحدا من أهل الملل أذل ولا أحرص على المال من اليهود كأنهم فقراء وان كانوا أغنياء مياسير (وباؤا) رجعوا يقال باء بكذا أى

ما ذكرناه قال ابن جرير حدثني القاسم بن الحسن حدثني الحجاج عن جرير بن حازم ومبارك عن الحسن وأبي بكر عن الحسن وقتادة قالوا قال الله للملائكة اني جاعل في الارض خليفة قال لهم اني فاعل هذا ومعناه انه أخبرهم بذلك وقال السدي استشار الملائكة في خلق آدم رواه ابن أبي حاتم وقال وروى عن قتادة نحوه وهذه العبارة ان لم ترجع الى معنى الاخبار ففيها تساهل وعبارة الحسن وقتادة في رواية ابن جرير احسن والله أعلم في الارض قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو سلمة حدثنا حماد بن عطاء بن السائب عن عبد الرحمن بن سابط ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال دحيت الارض من مكة وأول من طاف بالبيت الملائكة فقال الله اني جاعل في الارض يعني (١٢٠) مكة وهذا مرسل وفي سنده ضعف وفيه مدرج وهو أن المراد بالارض مكة والله أعلم فان الظاهر ان المراد بالارض أعم من ذلك خليفة قال السدي في تفسيره عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة ان الله تعالى قال للملائكة اني جاعل في الارض خليفة قالوا ربنا وما يكون ذلك الخليفة قال يكون له ذرية يفسدون في الارض ويتحاسدون ويقتل بعضهم بعضا قال ابن جرير فكان تأويل الآية على هذا اني جاعل في الارض خليفة مني يخلفني في الحكم بالعدل بين خلقي وان ذلك الخليفة هو آدم ومن قام مقامه في طاعة الله والحكم بالعدل بين خلقه وأما الافساد وسفك الدماء بغير حقها فمن غير خلفائه قال ابن جرير وانما معنى الخلافة التي ذكرها الله انما هي خلافة قرن منهم قرنا قال والخليفة الفعيلة من قولك خلف فلان فلانا في هذا الامر اذا قام مقامه فيه بعده كما قال تعالى ثم جعلناكم خلائف في الارض من بعدهم لننظر كيف تعملون ومن ذلك قيل للسلطان الاعظم خليفة لانه خلف الذي كان قبله فقام بالامر فكان منه خلفا قال وكان محمد بن اسحق يقول في قوله تعالى اني جاعل في الارض خليفة يقول ساكنا وعامرا يعمرها ويسكنها خلقا ليس منكم قال ابن جرير وحدثنا أبو كريب حدثنا عثمان ابن سعيد حدثنا بشر بن عمارة عن أبي روق عن الضحاك عن ابن عباس قال ان اول من سكن الارض الجن فافسدوا فيها وسفكوا فيها الدماء وقتل بعضهم بعضا قال فبعث الله اليهم ابليس فقتلهم ابليس ومن معه حتى الحقهم بجزائر البحور وأطراف الجبال ثم خلق آدم فاسكنه اياها فلذلك قال اني جاعل في الارض خليفة وقال سفيان الثوري عن عطاء بن السائب عن ابن سابط اني جاعل في الارض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء قال يعنون به بني آدم وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم

رجع والمراد أنهم رجعوا (بغضب من الله) أو صاروا أحقاء بغضبه وقال أبو عبيدة والزجاج احتملوه وقيل أقروا به وقيل استحقوه وقيل لازموه وهو الاوجه يقال بوأته منزلا فتبوأ أي الزمته فلزمه (ذلك) أي ما تقدم من ضرب الذلة وما بعده (بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق) أي بسبب كفرهم بالله وقتلهم الانبياء بغير حق يحق عليهم اتباعه والعمل به ولم يخرج هذا مخرج التقييد حتى يقال انه لا يكون قتل الانبياء بحق في حال من الاحوال لمكان العصمة بل المراد نعي هذا الامر عليهم وتعظيمه وانه ظلم بحت في نفس الامر ويمكن ان يقال انه ليس بحق في اعتقادهم الباطل لان الانبياء لم يعارضوهم في مال ولا جاه بل أرشدوهم الى مصالح الدين والدنيا كما كان من شعيا وزكريا ويحيى فانهم قتلوهم وهم يعلمون ويعتقدون انهم ظالمون وانما حملهم على ذلك حب الدنيا واتباع الهوى عن ابن مسعود قال كانت بنو اسرائيل في اليوم تقتل ثلثمائة نبي ثم يقيمون سوق بقلهم في آخر النهار (ذلك) تكرير الاشارة لقصد التأكيد وتعظيم الامر عليهم وتهويله ومجموع ما بعد الاشارة الاولى والاشارة الثانية هو السبب لضرب الذلة وما بعده وقيل يجوز أن يكون الاشارة الثانية الى الكفر والقتل فيكون ما بعدها سببا للسبب قاله الزمخشري وهو بعيد جدا (بما عصوا) أمري (وكانوا يعتدون) الاعتداء تجاوز الحد في كل شئ أي يتجاوزون أمري ويرتكبون محارمي (ان الذين آمنوا) قيل ان المراد بهم المنافقون بدلالة جعلهم مقترنين باليهود والنصارى والصابئين أي آمنوا في الظاهر والاولى ان يقال ان المراد الذين صدقوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم وصاروا من جملة أتباعه وكأنه سبحانه أراد ان يبين ان حال هذه الملة الاسلامية وحال من قبلها من سائر الملل يرجع الى شئ واحد وهو أن من آمن منهم بالله واليوم الآخر وعمل صالحا استحق ما ذكره الله من الاجر ومن فاته ذلك فاته الخير كله والاجر دقه وجله والمراد بالايمان ههنا هو ما بينه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من قوله لما سأله جبريل عليه السلام عن الايمان فقال ان تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والقدر خيره وشره ولا يتصف بهذا الايمان الا من دخل في الملة الاسلامية فمن لم يؤمن بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ولا بالقرآن فليس بمؤمن ومن آمن بهما صار مسلما مؤمنا ولم يبق يهوديا ولا نصرانيا ولا مجوسيا (والذين هادوا) معناه صاروا يهودا قيل هو نسبة لهم الى يهوذ

ابن

ابن يعقوب بالذال المعجمة فقلبتها العرب دالا مهملة وقيل معنى هادوا تابوا التوبتهم عن عبادة العجل ومنه قوله تعالى انا هدنا اليك أى تبنا وقيل ان معناه السكون والموادعة وقال فى الكشاف معناه دخل فى اليهودية (والنصارى) قال سيبويه مفرده نصران ونصرانة كندمان وندمانة ولكن لايستعمل الا بياء النسب فيقال رجل نصرانى وامرأة نصرانية وقال الخليل واحد النصارى نصرى وقال الجوهرى ونصران قرية بالشام تنسب اليها النصارى و يقال ناصرة فعلى هذا فالياء للنسب وقال فى الكشاف ان الياء للمبالغة كالتى فى أحمرى سموا بذلك لانهم نصروا المسيح (والصابئين) جمع صابئ وقيل صاب والصابئ فى اللغة من خرج ومال من دين الى دين ولهذا كانت العرب تقول لمن أسلم قد صبأ سموا هذه الفرقة صابئة لانها خرجت من دين اليهود والنصارى وعبدوا الملائكة وقيل عبدوا الكواكب وقال البيضاوى انهم قوم بين اليهود والمجوس انتهى ثم جعل هذا اللقب علما للطائفة من الكفار وقيل هم يدعون أنهم على دين صابى بن شيث بن آدم والاول أولى قال شيخ الاسلام ابن تيمية فى كتابه فى الرد على المنطقيين ان حران كانت دار هؤلاء الصابئة وفيها ولد ابراهيم عليه السلام أو انتقل اليها من العراق على اختلاف القولين وكان بها هيكل العلة الاولى هيكل العقل الاول هيكل النفس الكلية هيكل زحل هيكل المشترى هيكل المريخ هيكل الشمس وكذلك الزهرة وعطارد والقمر وكان هذا دينهم قبل ظهور النصرانية فيهم ثم ظهرت النصرانية فيهم مع بقاء أولئك الصابئة المشركين حتى جاء الاسلام ولم يزل بها الصابئة والفلاسفة فى دولة الاسلام الى آخر وقت ومنهم الصابئة الذين كانوا ببغداد وغيرها أطباء وكتابا وبعضهم لم يسلم ولما قدم الفارابى حران فى اثناء المائة الرابعة دخل عليهم وتعلم منهم وأخذ عنهم ما أخذ من المتفلسفة وكان ثابت بن قرة الحرانى صاحب الزيج قد شرح كلام ارسطو فى الالهيات وقد رأيته و بينت بعض ما فيه من الفساد فان فيه ضلالا كثيرا وكذلك كان دين أهل دمشق وغيرها قبل ظهور دين النصرانية وكانوا يصلون الى القطب الشمالى ولهذا يوجد فى دمشق مساجد قديمة فيها قبلة الى القطب الشمالى وتحت جامع دمشق معبد كبير له قبلة الى القطب الشمالى كان لهؤلاء فان الصابئة نوعان صابئة حنفاء موحدون وصابئة مشركون فالاول هم الذين أثنى الله عليهم بهذه الآية فأثنى على من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا من هذه

قال الله للملائكة انى أريد أن اخلق فى الارض خلقا وأجعل فيها خليفة وليس لله عزوجل خلق الا الملائكة والارض وليس فيها خلق قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها وقد تقدم مارواه السدى عن ابن عباس وابن مسعود وغيرهما من الصحابة ان الله أعلم الملائكة بما تفعله ذرية آدم فقالت الملائكة ذلك وتقدم آنفا مارواه الضحاك عن ابن عباس ان الجن أفسدوا فى الارض قبل بنى آدم فقالت الملائكة ذلك فقاسوا هؤلاء بأولئك وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا على بن محمد الطنافسى حدثنا أبو معاوية عن الاعمش عن بكير بن الاخنس عن مجاهد عن عبد الله بن عمرو قال كان الجن بنو الجان فى الارض قبل أن يخلق آدم بألفى سنة فأفسدوا فى الارض وسفكوا الدماء فبعث الله جندا من الملائكة فضربوهم حتى ألحقوا بجزائر البحور فقال الله للملائكة انى جاعل فى الارض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها و يسفك الدماء قال انى أعلم مالا تعلمون وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية فى قوله تعالى انى جاعل فى الارض خليفة الى قوله أعلم ماتبدون وما كنتم تكتمون قال خلق الله الملائكة يوم الاربعاء وخلق الجن يوم الخميس وخلق آدم يوم الجمعة فكفر قوم من الجن فكانت الملائكة تهبط اليهم فى الارض فتقاتلهم بغيهم وكان الفساد فى الارض فمن ثم قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها كما أفسدت الجن و يسفك الدماء كما سفكوا قال ابن أبى حاتم وحدثنا الحسن بن محمد بن الصباح حدثنا سعيد بن سليمان حدثنا مبارك بن فضالة أخبرنا الحسن قال قال الله للملائكة انى جاعل فى الارض خليفة قال لهم انى فاعل فآمنوا بربهم فعلمهم علما وطوى عنهم علما علمه ولم يعلموه فقالوا بالعلم الذى علمهم أتجعل فيها من يفسد فيها و يسفك الدماء قال انى أعلم مالا تعلمون قال الحسن ان الجن كانوا فى الارض يفسدون و يسفكون الدماء ولكن جعل الله فى قلوبهم ان ذلك سيكون فقالوا بالقول الذى علمهم وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة فى قوله أتجعل فيها من يفسد فيها كان الله أعلمهم انه اذا كان فى الارض خلق أفسدوا فيها وسفكوا الدماء فذلك حين قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا هشام الرازى حدثنا ابن المبارك عن معروف يعنى ابن خربوذ المكى عمن سمع أبا جعفر محمد بن على يقول السجل ملك وكان هروت وماروت من أعوانه وكان له فى كل يوم ثلاث لمحات فى أم الكتاب فنظر نظرة لم تكن له فأبصر فيها خلق آدم وما كان فيه من الامور فاسر ذلك الى هروت وماروت وكانا من أعوانه فلما قال تعالى انى جاعل فى الارض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها

ويسفك الدماء قالا ذلك استطالة على الملائكة وهذا أثر غريب وبتقدير صحته الى أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين الباقر فهو
نقله عن أهل الكتاب وفيه نكارة توجب رده والله أعلم ومقتضاه ان الذين قالوا ذلك انما كانوا اثنين فقط وهو خلاف السياق
وأغرب منه ما رواه ابن أبي حاتم أيضا حيث قال حدثنا أبي حدثنا هشام بن أبي عبيد الله حدثنا عبد الله بن يحيى بن أبي كثير قال
سمعت أبي يقول ان الملائكة الذين قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك كانوا عشرة
آلاف فخرجت نار من عند الله فأحرقتهم وهذا أيضا اسرائيلي منكر كالذي قبله والله أعلم قال ابن جريج انما تكلموا بما أعلمهم
الله انه كائن من خلق آدم فقالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء قال ابن جرير وقال بعضهم انما قالت
الملائكة ما قالت أتجعل فيها من
يفسد فيها ويسفك الدماء لان الله
أذن لهم في السؤال عن ذلك بعد
ما أخبرهم ان ذلك كائن من بني آدم
فسألته الملائكة فقالت على
التعجب منها وكيف يعصونك يارب
وأنت خالقهم فأجابهم ربهم اني
أعلم مالا تعلمون يعني ان ذلك كائن
منهم وان لم تعلموه أنتم ومن بعض
ماترونه لي طائعا قال وقال بعضهم
ذلك من الملائكة على وجه
الاسترشاد عما لم يعلموا من ذلك
فكأنهم قالوا يارب خبرنا مسئلة
استخبار منهم لا على وجه الانكار
واختاره ابن جرير وقال سعيد عن
قتادة قوله تعالى واذ قال ربك
للملائكة اني جاعل في الارض
خليفة قالوا استشار الملائكة في
خلق آدم فقالوا أتجعل فيها من
يفسد فيها ويسفك الدماء وقد علمت
الملائكة انه لا شئ أكره عند
الله من سفك الدماء والفساد في
الارض ونحن نسبح بحمدك
ونقدس لك قال اني أعلم مالا تعلمون
فكان في علم الله انه سيكون من
تلك الخليفة أنبياء ورسل وقوم

الملل الاربع المؤمنين واليهود والنصارى والصابئين فهؤلاء كانوا يدينون بالتوراة قبل
النسخ والتبديل وكذلك الذين دانوا بالانجيل قبل النسخ والتبديل والصابئون الذين
كانوا قبل هؤلاء كالمتبعين لملة ابراهيم امام الحنفاء قبل نزول التوراة والانجيل وهذا
بخلاف المجوس والمشركين فانه ليس فيهم مؤمن فلهذا قال تعالى ان الذين آمنوا والذين
هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا ان الله يفصل بينهم يوم القيامة
ان الله على كل شئ شهيد فذكر الملل الست هؤلاء وأخبر أنه يفصل بينهم يوم القيامة لم يذكر
في الست من كان مؤمنا وانما ذكر ذلك في الاربعة فقط ثم ان الصابئين ابتدعوا الشرك
فصاروا مشركين والفلاسفة المشركون من هؤلاء المشركين وأما قدماء الفلاسفة الذين
كانوا يعبدون الله وحده لا يشركون به شيأ ويؤمنون بان الله محدث لهذا العالم ويقرون
بمعاد الابدان فأولئك من الصابئة الحنفاء الذين أثنى الله عليهم ثم المشركون من الصابئة
كانوا يقرون بحدوث هذا العالم كما كان المشركون من العرب يقرون بحدوثه وكذلك
المشركون من الهند وقد ذكر أهل المقالات أن أول من ظهر عنه القول بقدمه من هؤلاء
الفلاسفة المشركين هو ارسطو انتهى المقصود منه (من آمن بالله واليوم الآخر)
في زمن نبينا (وعمل صالحا) بشريعته (فلهم أجرهم) أي ثواب أعمالهم والاجر في
الاصل مصدر يقال أجره الله يأجره أجرا وقد يعبر به عن نفس الشئ المجازى به والآية
الكريمة تحتمل المعنيين (عند ربهم) عند ظرف مكان لازم للاضافة لفظا ومعنى أي لهم
أجرهم ثابتا عند ربهم وقد تقدم تفسير قوله تعالى (ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) أي في
الآخرة حين يخاف الكفار من العذاب ويحزن المقصرون على تضييع العمر وتفويت
الثواب (واذ أخذنا ميثاقكم) أي عهدكم يا معشر اليهود والمراد انه أخذ سبحانه عليهم
الميثاق أن يعملوا بما شرعه لهم في التوراة أو بما هو أعم من ذلك أو أخص (ورفعنا فوقكم
الطور) يعني الجبل العظيم والطور اسم الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام
وأنزل عليه التوراة فيه قال ابن عباس وكان بنو اسرائيل أسفل منه وقيل هو
اسم لكل جبل بالسريانية وفي القاموس يطلق على أي جبل كان وصرح به السمين
ويطلق أيضا على جبال مخصوصة بأعيانها وهذا الجبل الذي رفع فوقهم كان من جبال
فلسطين وعن ابن عباس الطور ما أنبت من الجبال وما لم ينبت فليس بطور وقد ذكر كثير

صالحون وساكنوا الجنة قال وذكر لنا عن ابن عباس انه كان يقول ان الله لما أخذ في خلق آدم عليه السلام من
قالت الملائكة ما الله خالق خلقا أكرم عليه منا ولا أعلم منا فابتلوا بخلق آدم وكل خلق مبتلى كما ابتليت السموات والارض
بالطاعة فقال الله تعالى ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين وقوله تعالى ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال عبد الرزاق
عن معمر عن قتادة قال التسبيح التسبيح والتقديس الصلاة وقال السدي عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن
مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال يقولون نصلي لك وقال مجاهد ونحن نسبح بحمدك
ونقدس لك قال نعظمك ونكبرك وقال الضحاك التقديس التطهير وقال محمد بن اسحق ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال

لانعصى ولاناتى شيأ تكرهه وقال ابن جرير التقديس هو التعظيم والتطهير ومنه قولهم سبوح قدوس يعنى بقولهم سبوح
تنزيه له وبقولهم قدوس طهارة وتعظيم له وكذلك قيل للارض أرض مقدسة يعنى بذلك المطهرة فعنى قول الملائكة اذاونحن
نسبح بحمدك ننزهك ونبرئك مما يضيفه اليك أهل الشرك بك ونقدس لك ننسبك الى ماهو من صفاتك من الطهارة من الادناس
وما أضاف اليك أهل الكفر بك وفى صحيح مسلم عن أبى ذر رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل أى الكلام أفضل
قال ما اصطفى الله لملائكته سبحان الله وبحمده وقال روى البيهقى عن عبد الرحمن بن قرط ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة
أسرى به سمع تسبيحا فى السموات العلا سبحان العلى الاعلى سبحانه وتعالى (١٢٣) قال انى أعلم مالا تعلمون قال قتادة فكان
فى علم الله انه سيكون فى تلك الخليفة أنبياء ورسل وقوم صالحون وساكنوا الجنة وسيأتى عن ابن مسعود وابن عباس وغير واحد من الصحابة والتابعين أقوال فى حكمة قوله تعالى قال انى أعلم مالا تعلمون وقد استدل القرطبى وغيره بهذه الآية على وجوب نصب الخليفة ليفصل بين الناس فيما اختلفوا فيه ويقطع تنازعهم وينتصر لمظلومهم من ظالمهم ويقيم الحدود ويزجر عن تعاطى الفواحش الى غير ذلك من الامور المهمة التى لا تمكن اقامتها الا بالامام ومالا يتم الواجب الا به فهو واجب والامامة تنال بالنص كما يقوله طائفة من أهل السنة فى أبى بكر أو بالايماء اليه كما يقول آخرون منهم أو باستخلاف الخليفة آخر بعده كما فعل الصديق بعمر بن الخطاب أو بتركه شورى فى جماعة صالحين كذلك كما فعله عمر أو باجتماع أهل الحل والعقد على مبايعته أو بمبايعة واحد منهم له فيجب التزامها عند الجمهور وحكى على ذلك امام الحرمين
الاجماع والله أعلم أو بقهر واحد الناس على طاعته فتجب لئلا يؤدى ذلك الى الشقاق والاختلاف وقد نص عليه الشافعى وهل
يجب الاشهاد على عقد الامامة فيه خلاف فنهم من قال لا يشترط وقيل بلى ويكفى شاهدان وقال الجبائى يجب أربعة وعاقد
ومعقود له كما ترك عمر رضى الله عنه الامر شورى بين ستة فوقع الامر على عاقد وهو عبد الرحمن بن عوف ومعقود له وهو عثمان
واستنبط وجوب الاربعة الشهود من الاربعة الباقين وفى هذا نظر والله أعلم ويجب أن يكون ذكرا بالغا عاقلا مسلما عدلا
مجتهدا بصيرا سليم الاعضاء خبيرا بالحروب والآراء قرشيا على الصحيح ولا يشترط الهاشمى ولا المعصوم من الخطا خلافا للغلاة
الروافض ولو فسق الامام هل ينعزل أم لا فيه خلاف والصحيح انه لا ينعزل لقوله عليه الصلاة والسلام الا ان تروا كفرا بواحا

من المفسرين أن موسى لما جاء بنى اسرائيل من عند الله بالالواح قال لهم خذوها
والتزموها فقالوا لا الا أن يكلمنا الله بها كما كلمك فصعقوا ثم أحيوا فقال لهم خذوها
والتزموها فقالوا لا الا أمر الله الملائكة فاقتلعت جبلا من جبال فلسطين طوله فرسخ فى
مثله وكذلك كان عسكرهم فجعل عليهم مثل الظلة وأوتوا ببحر من خلفهم ونار من قبل
وجوههم وقيل لهم خذوها وعليكم الميثاق أن لا تضيعوها والاسقط عليكم الجبل
فسجدوا توبة لله وأخذوا التوراة بالميثاق قيل وسجدوا على انصاف وجوههم اليسرى
وجعلوا يلاحظون الجبل بأعينهم اليمنى وهم سجود فصار ذلك سنة فى سجود اليهود وقيل
فكأنه حصل لهم بعد هذا القسر والالجاء قبول واذعان اختيارى أو كان يكفى فى الامم
السابقة مثل هذا الايمان قال ابن جرير عن بعض العلماء لو أخذوها أول مرة لم يكن
عليهم ميثاق قال ابن عطية والذى لا يصح سواه أن الله سبحانه اخترع وقت سجودهم
الايمان لأنهم آمنوا كرها وقلوبهم غير مطمئنة انتهى وهذا تكلف ساقط حمله عليه
المحافظة على ماقد ارتسم لديه من قواعد مذهبية قد سكن قلبه اليها كغيره وكل عاقل يعلم
أنه لا سبب من أسباب الاكراه أقوى من هذا أو أشد منه ونحن نقول أكرههم الله على
الايمان فآمنوا مكرهين ورفع عنهم العذاب بهذا الايمان وهو نظير ما ثبت فى شرعنا من
رفع السيف عمن تكلم بكلمة الاسلام والسيف مصلت قد هزه حامله على رأسه وقد ثبت فى
الصحيح أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال لمن قتل من تكلم بكلمة الاسلام معتذرا عن
قتله بأنه قالها تقية ولم يكن عن قصد صحيح أأنت فتشت عن قلبه وقال لم أومر أن انقب
عن قلوب الناس قال القفال انه ليس اجبارا على الاسلام لان الجبر ما سلب الاختيار
بل كان اكراها وهو جائز ولا يسلب الاختيار كالمحاربة مع الكفار فأما قوله لا اكراه
فى الدين وقوله أفأنت تكره الناس فقد كان قبل الامر بالقتال ثم نسخ ذكره الشهاب
(خذوا ما آتيناكم) أى قلنا لهم خذوا ما أعطيناكم (بقوة) القوة الجد والاجتهاد
(واذكروا ما فيه) أى ادرسوا ولا تنسوه والمراد بذكر ما فيه أن يكون محفوظا عندهم
ليعملوا به (لعلكم تتقون) أى لكى تنجوا من الهلاك فى الدنيا والعذاب فى العقبى أو رجاء
منكم أن تكونوا متقين (ثم توليتم) أصل التولى الادبار عن الشئ والاعراض بالجسم
ثم استعمل فى الاعراض عن الامور والاديان والمعتقدات اتساعا ومجازا (من بعد ذلك)

عندكم من الله فيه برهان وهل له أن يعزل نفسه فيه خلاف وقد عزل الحسن بن علي رضي الله عنه نفسه وسلم الامر الى معاوية
لكن هذا لعذر وقد مدح على ذلك فأما نصب امامين في الارض أو أكثر فلا يجوز لقوله عليه الصلاة والسلام من جاءكم وأمركم
جميع يريد أن يفرق بينكم فاقتلوه كائنا من كان وهذا قول الجمهور وقد حكى الاجماع على ذلك غير واحد منهم امام الحرمين
وقالت الكرامية يجوز اثنين فأكثر كما كان علي ومعاوية امامين واجبي الطاعة قالوا واذا جاز بعث نبيين في وقت واحد وأكثر
جاز ذلك في الامامة لان النبوة أعلى رتبة بلا خلاف وحكى امام الحرمين عن الاستاذ أبي اسحق انه جوز نصب امامين فأكثر
اذا تباعدت الاقطار واتسعت الاقاليم (١٢٤) بينهما وتردد امام الحرمين في ذلك قلت وهذا يشبه حال الخلفاء بني
العباس بالعراق والفاطميين بمصر والأمويين بالمغرب ولنقرر هذا كله في موضع آخر من كتاب الاحكام ان شاء الله تعالى (وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم اني أعلم غيب السموات والارض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون) هذا مقام ذكر الله تعالى فيه شرف آدم على الملائكة بما اختصه من علم أسماء كل شئ دونهم وهذا كان بعد سجودهم له وانما قدم هذا الفصل على ذلك لمناسبة ما بين هذا المقام وعدم علمهم بحكمة خلق الخليفة حين سألوا عن ذلك فأخبرهم تعالى بانه يعلم ما لا يعلمون ولهذا ذكر الله هذا المقام عقيب هذا ليبين لهم شرف آدم بما فضل به عليهم في العلم فقال تعالى وعلم آدم الاسماء كلها قال السدي عمن حدثه عن ابن عباس وعلم آدم الاسماء كلها
قال علمه أسماء ولده انسانا انسانا والدواب فقيل هذا الحمار هذا الجمل هذا الفرس وقال الضحاك عن
ابن عباس وعلم آدم الاسماء كلها قال هي هذه الاسماء التي يتعارف بها الناس انسان ودواب وسماء وأرض وسهل وبحر وخيل
وحمار وأشباه ذلك من الامم وغيرها وروى ابن أبي حاتم وابن جرير من حديث عاصم بن كليب عن سعيد بن معبد عن ابن
عباس وعلم آدم الاسماء كلها قال علمه اسم الصحفة والقدر قال نعم حتى الفسوة والفسية وقال مجاهد وعلم آدم الاسماء كلها قال
علمه اسم كل دابة وكل طير وكل شئ وكذلك روي عن سعيد بن جبير وقتادة وغيرهم من السلف انه علمه أسماء كل شئ وقال الربيع
في رواية عنه أسماء الملائكة وقال حميد الشامي أسماء النجوم وقال عبد الرحمن بن زيد علمه أسماء ذريته كلهم واختار ابن

أي الميثاق أو رفع الطور أو ايتاء التوراة والمراد هنا اعراضهم عن الميثاق المأخوذ عليهم
من بعد البرهان لهم والترهيب بأشد ما يكون وأعظم ما تجوزه العقول وتقدره الافهام
وهو رفع الجبل فوق رؤسهم كأنه ظلة عليهم (فلولا) حرف امتناع لوجود تختص بالجمل
الاسمية (فضل الله عليكم) بأن تدارككم بلطفه والفضل الزيادة والخير والافضال
والاحسان قاله ابن فارس في المجمل (ورحمته) حتى أظهروا التوبة (لكنتم من الخاسرين)
أي المغبونين بذهاب الدنيا والهالكين بالعذاب في العقبى والخسران النقصان (ولقد
علمتم) أي عرفتم فيتعدى لواحد فقط والفرق بينهما أن العلم يستدعي معرفة الذات وما هي
عليه من الاحوال والمعرفة تستدعي معرفة الذات أو الفرق أن المعرفة يسبقها جهل
بخلاف العلم ولذلك لا يجوز اطلاقها عليه سبحانه (الذين اعتدوا منكم) أي جاوزوا الحد
(في السبت) يقال سبت اليهود لانهم يعظمونه ويقطعون فيه أعمالهم وأصل السبت
في اللغة القطع لان الاشياء تمت فيه وانقطع العمل وقيل هو مأخوذ من السبوت وهو
الراحة والدعة وقال في الكشاف السبت مصدر سبتت اليهود اذا عظمت يوم السبت
انتهى وفيه نظر فان هذا اللفظ موجود واشتقاقه مذكور في لسان العرب قبل فعل اليهود
ذلك وقد ذكر جماعة من المفسرين أن اليهود افترقت فرقتين ففرقة اعتدت في السبت
أي جاوزت ما أمر الله به من العمل فيه فصادوا السمك الذي نهاهم الله عن صيده فيه
والفرقة الاخرى انقسمت الى فرقتين ففرقة جاهرت بالنهي واعتزلت وفرقة لم توافق
المعتدين ولا صادوا معهم لكنهم جالسوهم ولم يجاهروهم بالنهي ولا اعتزلوا عنهم فمسخهم
الله جميعا ولم ينج الا الفرقة الاولى فقط وهذه من جملة المحن التي امتحن الله بها هؤلاء الذين
بالغوا في العجرفة وعاندوا أنبياءهم وما زالوا في كل موطن يظهرون من حماقاتهم وسخف
عقولهم وتعنتهم نوعا من أنواع التعسف وشعبة من شعب التكلف فان الحيتان كانت في
يوم السبت كما وصف الله سبحانه بقوله اذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون
لا تأتيهم كذلك نبلوهم فاحتالوا للصيد بها وحفروا الحفائر وشقوا الجداول فكانت
الحيتان تدخلها يوم السبت فيصيدونها يوم الاحد فلم ينتفعوا بهذه الحيلة الباطلة
وكانت هذه القصة في زمن داود بقرية بأرض أيلة (فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين) أمر
تحويل وتسخير وتكوين وهو عبارة عن تعلق القدرة بنقلهم عن الحقيقة البشرية الى
حقيقة

جرير أنه علمه أسماء الملائكة وأسماء الذرية لانه قال ثم عرضهم وهذا عبارة عما يعقل وهذا الذى رجح به ليس بلازم فانه لاينفى ان يدخل معهم غيرهم ويعبر عن الجميع بصيغة من يعقل للتغليب كما قال تعالى والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع يخلق الله مايشاء ان الله على كل شئ قدير وقد قرأ عبد الله بن مسعود ثم عرضهن وقرأ أبى بن كعب ثم عرضها أى المسميات والصحيح انه علمه أسماء الاشياء كلها ذواتها وصفاتها وأفعالها كما قال ابن عباس حتى الفسوة والفسية يعنى أسماء الذوات والافعال المكبر والمصغر ولهذا قال البخارى فى تفسير هذه الآية فى كتاب التفسير من صحيحه حدثنا مسلم بن ابراهيم حدثنا هشام عن قتادة عن (١٢٥) أنس بن مالك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وقال لى خليفة حدثنا يزيد ابن زريع حدثنا سعيد عن قتادة عن أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون لو استشفعنا الى ربنا فيأتون آدم فيقولون أنت أبو الناس خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شئ فاشفع لنا الى ربك فيريحنا من مكاننا هذا فيقول لست هناكم ويذكر ذنبه فيستحى ائتوا نوحا فانه أول رسول بعثه الله الى أهل الارض فيأتونه فيقول لست هناكم ويذكر سؤاله ربه ماليس له به علم فيستحى فيقول ائتوا خليل الرحمن فيأتونه فيقول لست هناكم فيقول ائتوا موسى عبدا كلمه الله وأعطاه التوراة فيأتونه فيقول لست هناكم ويذكر قتل النفس بغير نفس فيستحى من ربه فيقول ائتوا عيسى عبد الله ورسوله وكلمة الله وروحه فيأتونه فيقول لست هناكم ائتوا محمدا عبدا غفر له ماتقدم من ذنبه وماتأخر فيأتونى فانطلق حتى أستأذن على ربى فيؤذن لى فاذا رأيت ربى وقعت ساجدا فيدعنى ماشاء الله ثم يقال ارفع رأسك وسل تعطه وقل يسمع واشفع تشفع فأرفع رأسى فأحمده بتحميد يعلمنيه ثم أشفع فيحد لى حدا فأدخلهم الجنة ثم أعود اليه فاذا رأيت ربى مثله ثم أشفع فيحد لى حدا فأدخلهم الجنة ثم أعود الثالثة ثم أعود الرابعة فأقول مابقى فى النار الا من حبسه القرآن ووجب عليه الخلود هكذا ساق البخارى هذا الحديث ههنا وقد رواه مسلم والنسائى من حديث هشام وهو ابن أبى عبد الله الدستوائى عن قتادة به وأخرجه مسلم والنسائى وابن ماجه من حديث سعيد وهو ابن أبى عروبة عن قتادة ووجه ايراده ههنا والمقصود منه قوله عليه الصلاة والسلام فيأتون آدم فيقولون أنت أبو الناس خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شئ فدل هذا على أنه علمه أسماء جميع المخلوقات ولهذا قال ثم عرضهم على الملائكة يعنى المسميات كما قال عبد الرزاق عن

حقيقة القردة أى كونوا مبعدين عن الرحمة مطرودين عن الشرف وقيل فيه تقديم وتأخير معناه كونوا خاسئين قردة ولهذا لم يقل خاسئات والخاسئ المبعد ومنه قوله تعالى ينقلب اليك البصر خاسئا أى مبعدا وقوله اخسئوا فيها أى تباعدوا تباعد سخط ويكون الخاسئ بمعنى الصاغر والمراد هنا كونوا بين المصير الى أشكال القردة مع كونهم مطرودين صاغرين فقردة خبر الكون وخاسئين خبر آخر وقيل انه صفة لقردة والاول أظهر وعن ابن عباس قال مسخهم الله قردة بمعصيتهم ولم يعش مسخ قط فوق ثلاثة أيام ولم يأكل ولم يشرب ولم ينسل قال الحسن انقطع ذلك النسل وقال مجاهد مسخت قلوبهم ولم يمسخوا قردة وانما هو مثل ضربه الله لهم كقوله مثل الحمار يحمل أسفارا وقال ابن عباس صار شباب القوم قردة والمشيخة صاروا خنازير واختلف فى مرجع الضمير فى قوله (فجعلناها) فقيل المسخة والعقوبة وقيل الامة وقيل القرية وقيل القردة وقيل الحيتان والاول أظهر (نكالا) أى عقوبة وعبرة والنكال الزجر والعقاب والنكل القيد لانه يمنع صاحبه (لما بين يديها وما خلفها) أى عقوبة لما مضى من ذنوبهم وعبرة لمن بعدهم الى يوم القيامة وقيل من الذنوب التى عملوا قبل وبعد قاله ابن عباس (وموعظة للمتقين) من قومهم أو لكل متق سمعها الموعظة مأخوذ من الاتعاظ والانزجار والوعظ التخويف وقال الخليل الوعظ التذكير بالخير (واذ قال موسى لقومه) توبيخ آخر لأخلاف بنى اسرائيل بتذكير بعض جنايات صدرت من أسلافهم أى اذكروا وقت قول موسى لأصولكم وقد قتل لهم قتيل لايدرى قاتله وسألوه أن يدعو الله أن يبينه لهم فدعاه والقتيل اسمه عاميل (ان الله يأمركم أن تذبحوا بقرة) قيل ان قصة ذبح البقرة المذكورة هنا مقدم فى التلاوة ومؤخر فى المعنى على قوله تعالى واذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها ويجوز أن يكون قوله اذ قتلتم مقدما فى النزول ويكون الامر بالذبح مؤخرا قال الكرخى وانما أخر أول القصة تقديما لذكر مساويهم وتعديدا لها ليكون أبلغ فى توبيخهم على القتل ويجوز أن يكون ترتيب نزولها على حسب تلاوتها فكأن الله أمرهم بذبح البقرة حتى ذبحوها ثم وقع ماوقع من أمر القتل فأمروا ان يضربوا ببعضها هذا على فرض أن الواو تقتضى الترتيب وقد تقرر فى علم العربية أنها لمجرد الجمع من دون ترتيب ولامعية والبقرة اسم للانثى ويقال للذكر ثور وقيل انها تطلق عليهما وأصله من البقر وهو الشق

معمر عن قتادة قال ثم عرض تلك الاسماء على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين وقال السدي في تفسيره عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرض الخلق على الملائكة وقال ابن جريج عن مجاهد ثم عرض أصحاب الاسماء على الملائكة وقال ابن جرير حدثنا القاسم حدثنا الحسين حدثني الحجاج عن جرير بن حازم ومبارك بن فضالة عن الحسن وأبي بكر عن الحسن وقتادة قالا علمه اسم كل شئ وجعل يسمي كل شئ باسمه وعرضت عليه أمة أمة وبهذا الاسناد عن الحسن وقتادة في قوله تعالى ان كنتم صادقين اني لم أخلق خلقا الا كنتم أعلم منه فأخبروني بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين (١٢٦) وقال الضحاك عن ابن عباس ان كنتم صادقين ان كنتم تعلمون اني لم أجعل في الارض خليفة وقال السدي عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة ان كنتم صادقين ان بني آدم يفسدون في الارض ويسفكون الدماء وقال ابن جرير وأولى الاقوال في ذلك تأويل ابن عباس ومن قال بقوله ومعنى ذلك فقال أنبئوني بأسماء من عرضته عليكم أيها الملائكة القائلون أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء من غيرنا أم منا فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك ان كنتم صادقين في قيلكم اني ان جعلت خليفتي في الارض من غيركم عصاني وذريته وأفسدوا وسفكوا الدماء وان جعلتكم فيها أطعتموني واتبعتم أمري بالتعظيم لي والتقديس فاذا كنتم لا تعلمون أسماء هؤلاء الذين عرضت عليكم وأنتم تشاهدونهم فأنتم بما هو غير موجود من الامور الكائنة التي لم توجد أحرى ان تكونوا غير عالمين قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم هذا تقديس وتنزيه من الملائكة لله تعالى أن يحيط أحد بشئ من علمه الا بما شاء وأن يعلموا شيئا الا ما علمهم الله تعالى ولهذا قالوا سبحانك وهذا لا علم لنا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم أي العليم بكل شئ الحكيم في خلقك وأمرك وفي تعليمك من تشاء ومنعك من تشاء لك الحكمة في ذلك والعدل التام قال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الاشج حدثنا حفص بن غياث عن حجاج عن ابن أبي مليكة عن ابن عباس سبحان الله قال تنزيه الله نفسه عن السوء قال ثم قال عمر لعلي وأصحابه عنده لا اله الا الله قد عرفناها فما سبحان الله فقال له علي كلمة أحبها الله لنفسه ورضيها وأحب أن تقال قال وحدثنا أبي حدثنا ابن فضيل بن النضر بن عدي قال سأل رجل ميمون ابن مهران عن سبحان الله قال اسم يعظم الله به ويحاشى به من السوء وقوله تعالى قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم

لانها تشق الارض بالحرث قال الازهري البقر اسم جنس وجمعه باقر (قالوا أتتخذنا هزوا) أي نحن نسألك أمر القتيل وأنت تأمرنا بذبح بقرة وانما قالوا ذلك لبعد ما بين الامرين في الظاهر ولم يعلموا ما وجه الحكمة فيه والهزو هنا اللعب والسخرية وانما يفعل ذلك أهل الجهل لانه نوع من العبث الذي لا يفعله العقلاء ولهذا أجابهم موسى بالاستعاذة بالله سبحانه من الجهل (قال) يعني موسى (أعوذ بالله) أي أمتنع به (أن أكون من الجاهلين) أي بالجواب لا على وفق السؤال أو من المستهزئين بالمؤمنين وهذا أبلغ من قولك أن أكون جاهلا (قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي) أي ما سنها وهذا السؤال عن صفة البقرة لا عن حقيقتها فانها معروفة وهذا نوع من أنواع تعنتهم المألوفة فقد كانوا يسلكون هذه المسالك في غالب ما أمرهم الله به ولو تركوا التعنت والاسئلة المتكلفة لاجزأهم ذبح بقرة من عرض البقر ولكنهم شددوا فشدد الله عليهم (قال انه يقول انها بقرة لا فارض ولا بكر) أي لا هي كبيرة ولا صغيرة والفارض المسنة التي لم تلد ومعناه في اللغة الواسع قال في الكشاف وكأنها سميت فارضا لانها فرضت سنها أي قطعتها وبلغت آخرها انتهى ويقال للشئ القديم فارض والبكر الصغيرة القمية التي لم تحمل ولم تلد ويطلق في اناث البهائم وبني آدم على ما لم يفتحله الفحل ويطلق أيضا على الاول من الاولاد (عوان بين ذلك) أي نصف بين سنين والعوان المتوسطة بين سني الفارض والبكر وهي التي قد ولدت بطنا أو بطنين ويقال هي التي قد ولدت مرة بعد مرة والجمع عون بالضم والاشارة الى الفارض والبكر وهما وان كانا مؤنثين فقد أشير اليهما بما هو للمذكر على تأويل المذكور كأنه قال ذلك المذكور وجاز دخول بين المقتضية لشيئين لان المذكور متعدد (فافعلوا ما تؤمرون) به أي من ذبح البقرة ولا تكثروا السؤال وهذا تجديد للامر وتأكيد له وزجر لهم عن التعنت فلم ينفعهم ذلك ولا نجع فيهم بل رجعوا الى طبيعتهم وعادوا الى عكرهم واستمروا على عادتهم المألوفة و(قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها قال انه يقول انها بقرة صفراء فاقع لونها) اللون واحد الالوان وجمهور المفسرين على أنها كانت جميعها صفراء قال بعضهم حتى قرنها وظلفها وقال الحسن وسعيد بن جبير انها كانت صفراء القرن والظلف فقط وهو خلاف الظاهر والمراد بالصفرة هنا الصفرة المعروفة وروي عن الحسن أن صفراء معناه سوداء

قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والارض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون قال زيد بن أسلم قال أنت جبرائيل أنت ميكائيل أنت اسرافيل حتى عدد الاسماء كلها حتى بلغ الغراب وقال مجاهد في قول الله قال يا آدم أنبئهم باسمائهم قال اسم الحمامة والغراب واسم كل شئ وروى عن سعيد بن جبير والحسن وقتادة نحو ذلك فلما ظهر فضل آدم عليه السلام على الملائكة عليهم السلام في سرده ما علمه الله تعالى من أسماء الاشياء قال الله تعالى للملائكة ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والارض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون أي ألم أتقدم اليكم اني أعلم الغيب الظاهر والخفي كما قال تعالى وان تجهر بالقول فانه يعلم السر وأخفى وكما قال اخبارا عن الهدهد انه قال لسليمان ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات والارض ويعلم ما تخفون وما تعلنون الله لا اله الا هو رب العرش العظيم وقيل في قوله تعالى وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون غير ما ذكرناه فروى الضحاك عن ابن عباس وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون قال أعلم السر كما أعلم العلانية يعني ما كتم ابليس في نفسه من الكبر والاغترار وقال السدى عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة قال قولهم أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء الآية فهذا الذي أبدوا وما كنتم تكتمون يعني ما أسر ابليس في نفسه من الكبر وكذلك قال سعيد بن جبير ومجاهد والسدى والضحاك والثوري واختار ذلك ابن جرير وقال أبو العالية والربيع ابن أنس والحسن وقتادة هو قولهم لم يخلق ربنا خلقا الا كنا أعلم منه وأكرم عليه منه وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون فكان الذي أبدوا هو قولهم أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء وكان الذي كتموا بينهم قولهم لن يخلق ربنا خلقا الا كنا أعلم منه وأكرم فعرفوا ان الله فضل عليهم آدم في العلم والكرم وقال ابن جرير حدثنا يونس حدثنا ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قصة الملائكة وآدم فقال الله للملائكة كما لم تعلموا هذه الاسماء فليس لكم علم انما أردت أن أجعلهم ليفسدوا فيها هذا عندي قد علمته فكذلك أخفيت عنكم أني أجعل فيها من يعصيني ومن يطيعني قال وقد سبق من الله لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين قال ولم تعلم الملائكة ذلك ولم يدروه قال فلما رأوا ما أعطى الله آدم من العلم أقروا له بالفضل وقال ابن جرير وأولى الاقوال في ذلك قول ابن عباس وهو أن معنى قوله تعالى وأعلم ما تبدون وأعلم مع علمي غيب السموات والارض ما تظهرونه بألسنتكم وما كنتم تخفون في أنفسكم فلا يخفى على شئ سواء عندي سرائركم وعلانيتكم والذي أظهروه

وهذا من بدع التفاسير ومنكراتها وليت شعري كيف يصدق على اللون الاسود الذي هو أقبح الالوان انه يسر الناظرين وكيف يصح وصفه بالفقوع الذي يعرف كل من يعرف لغة العرب أنه لا يجرى على الاسود بوجه من الوجوه فانهم يقولون في وصف الاسود حالك وحلكوك ودجوجي وغربيب قال الكسائي يقال فقع لونها اذا خلصت صفرته وقال في الكشاف الفقوع أشد ما يكون من الصفرة وأنصعه ومعنى (تسر الناظرين) تدخل عليهم السرور اذا نظروا اليها اعجابا بها واستحسانا للونها قال وهب كانت كأن شعاع الشمس يخرج من جلدها يعجبهم حسنها وصفاء لونها (قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي) أي سائمة أو عاملة وعلى هذا فليس هذا السؤال تكريرا للسؤال الاول كما ادعاه بعضهم قاله الخطيب (ان البقر تشابه علينا) أي التبس واشتبه أمرها علينا أي ان جنس البقر متشابه عليهم لكثرة ما يتصف منها بالعوان الصفراء الفاقعة (وانا ان شاء الله لمهتدون) وعدوا من أنفسهم بالاهتداء الى ما دلهم عليه والامتثال لما أمروا به قيل لو لم يستثنوا لما بينت لهم آخر الدهر (قال انه يقول انها بقرة لا ذلول) أي ليست مذللة والذلول التي يذللها العمل (تثير الارض) أي تقلبها للزراعة (ولا تسقي الحرث) أي ليست بسانية يعني من النواضح التي يسنى عليها ويسقى الزرع وحرف النفي الآخر توكيد للاول أي هذه بقرة غير مذللة بالحرث ولا بالنضح ولهذا قال الحسن كانت البقرة وحشية وقال قوم ان قوله تثير فعل مستأنف والمعنى ايجاب الحرث لها والنضح بها والاول أرجح لانها لو كانت مثيرة ساقية لكانت مذللة ريضة وقد نفى الله ذلك عنها (مسلمة) أي بريئة من العيوب والمسلمة هي التي لا عيب فيها وقيل مسلمة من العمل وهو ضعيف لان الله سبحانه قد نفى ذلك عنها والتأسيس خير من التأكيد والافادة أولى من الاعادة (لا شية فيها) أي لا لون فيها غير لونها والشية مأخوذة من وشي الثوب اذا نسج على لونين مختلفين وثور موشى في وجهه وقوائمه سواد ويقال ثور أشيه وفرس أبلق وكبش أخرج وتيس أبرق وغراب أبقع كل ذلك بمعنى أبلق والمراد ان هذه البقرة خالصة الصفرة ليس في جسمها لمعة من لون آخر فلما سمعوا هذه الاوصاف التي لا يبقى بعدها ريب ولا يخالج سامعها شك ولا تحتمل الشركة بوجه من الوجوه أقصروا من غوايتهم وانتبهوا من رقدتهم وعرفوا مقدار ما أوقعهم فيه تعنتهم من التضييق عليهم (قالوا الآن جئت بالحق)

بالسنتهم قولهم أتجعل فيها من يفسد فيها والذي كانوا يكتمون ما كان عليه منطويا ابليس من الخلاف على الله في أوامره والتكبر
عن طاعته قال وصح ذلك كما تقول العرب قتل الجيش وهزموا وانما قتل الواحد أو البعض وهزم الواحد أو البعض فيخرج الخبر
عن المهزوم منه والمقتول مخرج الخبر عن جميعهم كما قال تعالى ان الذين ينادونك من وراء الحجرات ذكر أن الذي نادى انما كان
واحدا من بني تميم قال وكذلك قوله وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون (واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس أبى
واستكبر وكان من الكافرين) وهذه كرامة عظيمة من الله تعالى لآدم امتن بها على ذريته حيث أخبر انه تعالى أمر الملائكة
بالسجود لآدم وقد دل على ذلك أحاديث أيضا (١٢٨) كثيرة منها حديث الشفاعة المتقدم وحديث موسى عليه السلام
رب أرني آدم الذي أخرجنا ونفسه
من الجنة فلما اجتمع به قال أنت
آدم الذي خلقه الله بيده ونفخ فيه
من روحه وأسجد له ملائكته قال
وذكر الحديث كما سيأتي ان شاء الله
وقال ابن جرير حدثنا أبو كريب
حدثنا عثمان بن سعيد حدثنا بشر
ابن عمارة عن أبي روق عن الضحاك
عن ابن عباس قال كان ابليس
من حي من احياء الملائكة يقال
لهم الجن خلقوا من نار السموم
من بين الملائكة وكان اسمه الحرث
وكان خازنا من خزان الجنة قال
وخلقت الملائكة كلهم من نور
غير هذا الحي قال وخلقت الجن
الذين ذكروا في القرآن من مارج
من نار وهو لسان النار الذي يكون
في طرفها اذا ألهبت قال وخلق
الانسان من طين فأول من سكن
الارض الجن فأفسدوا فيها
وسفكوا الدماء وقتل بعضهم بعضا
قال فبعث الله اليهم ابليس في جند
من الملائكة وهم هذا الحي الذين
يقال لهم الجن فقتلهم ابليس ومن
معه حتى ألحقهم بجزائر البحور
وأطراف الجبال فلما فعل ابليس
ذلك اغتر في نفسه فقال قد صنعت شيئا لم يصنعه أحد قال فاطلع الله على ذلك من قلبه ولم تطلع عليه الملائكة
الذين كانوا معه فقال الله تعالى للملائكة الذين كانوا معه اني جاعل في الارض خليفة فقالت الملائكة مجيبين له أتجعل فيها من
يفسد فيها ويسفك الدماء كما أفسدت الجن وسفكت الدماء وانما بعثتنا عليهم لذلك فقال الله تعالى اني أعلم ما لا تعلمون يقول اني
قد اطلعت على قلب ابليس على ما لم تطلعوا عليه من كبره واغتراره قال ثم أمر بتربة آدم فرفعت فخلق الله آدم من طين لازب
واللازب اللازج الطيب من حمإ مسنون منتن وانما كان حمأ مسنونا بعد التراب فخلق منه آدم بيده قال فمكث أربعين ليلة
جسدا ملقى وكان ابليس يأتيه فيضربه برجله فيصلصل فيصوت فهو قول الله تعالى من صلصال كالفخار يقول كالشيء المنفرج

أي أوضحت لنا الوصف وبينت لنا الحقيقة التي يجب الوقوف عندها فحصلوا تلك البقرة
الموصوفة بتلك الصفات قيل أل في الآن للتعريف الحضوري وقيل زائدة لازمة
(فذبحوها) أي امتثلوا الامر الذي كان يسيرا فعسروه وكان واسعا فضيقوه (وما كادوا
يفعلون) ما أمروا به لما وقع منهم من التثبط والتعنت وعدم المبادرة فكان ذلك مظنة
للاستبعاد محلا للمجيء بعبارة مشعرة بالتثبط والتعنت الكائن منهم وقيل انهم ما كادوا
يفعلون لعدم وجدان البقرة المتصفة بهذه الاوصاف وقيل لارتفاع ثمنها وقيل لخوف
انكشاف أمر المقتول والاول أرجح وقد استدل جماعة من المفسرين والاصوليين
بهذه الآية على جواز النسخ قبل امكان الفعل وليس ذلك عندي بصحيح لوجهين الاول
ان هذه الاوصاف المزيدة بسبب تكرار السؤال هي من باب التقييد للمأمور به لا من
باب النسخ وبين البابين بون بعيد كما هو مقرر في علم الاصول الثاني انا لو سلمنا أن هذا من
باب النسخ لا من باب التقييد لم يكن فيه دليل على ما قالوه فانه قد كان يمكنهم بعد الامر
الاول ان يعمدوا الى بقرة من عرض البقر فيذبحوها ثم كذلك بعد الوصف بكونها جامعة
بين الوصف بالعوان والصفرة ولا دليل يدل على أن هذه المحاورة بينهم وبين موسى عليه
السلام واقعة في لحظة واحدة بل الظاهر أن هذه الاسئلة المتعنتة كانوا يتواطؤن
عليها ويديرون الرأي بينهم في أمرها ثم يوردونها وأقل الاحوال الاحتمال القادح
في الاستدلال وعن عبيدة السلماني قال كان رجل من بني اسرائيل عقيما لا يولد له وكان
له مال كثير وكان ابن أخيه وارثه فقتله ثم احتمله ليلا فوضعه على باب رجل منهم ثم أصبح
يدعيه عليهم حتى تسلحوا وركب بعضهم الى بعض فقال ذو الرأي منهم علام يقتل
بعضكم بعضا وهذا رسول الله فيكم فأتوا موسى فذكروا ذلك له فقال ان الله يأمركم أن
تذبحوا بقرة الآية قال فلو لم يعترضوا لاجزأت عنهم أدنى بقرة ولكنهم شددوا فشدد
عليهم حتى انتهوا الى البقرة التي أمروا بذبحها فوجدوها عند رجل ليس له بقرة غيرها
فقال والله لا أنقصها من ملء جلدها ذهبا فأخذوها بملء جلدها ذهبا فذبحوها فضربوه
ببعضها فقام فقالوا من قتلك فقال هذا لابن أخيه ثم مال ميتا فلم يعط من ماله شيأ ولم يورث
قاتل بعده وعن ابن عباس ان القتيل وجد بين قريتين وان البقرة كانت لرجل كان يبر
أباه فاشتروها بوزنها ذهبا وقد روي في هذا قصص مختلفة لا يتعلق بها كثير فائدة وفي

القصة

الذي ليس بعصمت قال ثم يدخل في فيه و يخرج من دبره و يدخل من دبره و يخرج من فيه ثم يقول لست شيئا للصلصلة ولشيء ما خلقت ولئن سلطت عليك لأهلكنك ولئن سلطت علي لأعصينك قال فلما نفخ الله فيه من روحه أتت النفخة من قبل رأسه فجعل لا يجري شيء منها في جسده الا صار لحما ودما فلما انتهت النفخة الى سرته نظر الى جسده فأعجبه ما رأى من جسده فذهب لينهض فلم يقدر فهو قول الله تعالى وخلق الانسان عجولا قال ضجر لاصبر له على سراء ولا ضراء قال فلما تمت النفخة في جسده عطس فقال الحمد لله رب العالمين بالهام الله فقال الله له يرحمك الله يا آدم قال ثم قال تعالى للملائكة الذين كانوا مع ابليس خاصة دون الملائكة الذين في السموات اسجدوا لآدم فسجدوا كلهم أجمعون الا ابليس أبى واستكبر لما كان حدث نفسه من الكبر والاغترار فقال لا أسجد له وأنا خير منه وأكبر سنا وأقوى خلقا خلقتني من نار وخلقته من طين يقول ان النار أقوى من الطين قال فلما أبى ابليس أن يسجد أبلسه الله أي آيسه من الخير كله وجعله شيطانا رجيما عقوبة لمعصيته ثم علم آدم الأسماء كلها وهي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس انسان ودابة وأرض وسهل وبحر وجبل وحمار وأشباه ذلك من الامم وغيرها ثم عرض هذه الأسماء على أولئك الملائكة يعني الملائكة الذين كانوا مع ابليس الذين خلقوا من نار السموم وقال لهم أنبئوني بأسماء هؤلاء أي يقول أخبروني بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين ان كنتم تعلمون لم أجعل في الأرض خليفة قال فلما علمت الملائكة موجدة الله عليهم فيما تكلموا به من علم الغيب الذي لا يعلمه غيره الذي ليس لهم به علم قالوا سبحانك تنزيها لله من أن يكون أحد يعلم الغيب غيره تبنا اليك لاعلم لنا الا ما علمتنا تبريا منهم من علم الغيب الا ما علمتنا كما علمت آدم فقال يا آدم أنبئهم بأسمائهم يقول أخبرهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم أيتها الملائكة خاصة اني أعلم غيب السموات والأرض ولا يعلم غيري وأعلم ما تبدون يقول ما تظهرون وما كنتم تكتمون يقول أعلم السر كما أعلم العلانية يعني ما كتم ابليس في نفسه من الكبر والاغترار هذا سياق غريب وفيه أشياء فيها نظر يطول مناقشتها وهذا الاسناد الى ابن عباس يروى به تفسير مشهور وقال السدي في تفسيره عن أبي مالك وعن أبي صالح عن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم لما فرغ الله من خلق ما أحب استوى على العرش فجعل ابليس على ملك السماء الدنيا وكان من قبيلة من الملائكة يقال لهم الجن وانما سموا الجن لأنهم خزان الجنة وكان ابليس مع ملكه خازنا فوقع في صدره وقال ما أعطاني الله هذا الا لمزية لي

القصة أحكام منها الاستدلال بقوله ان الله يأمركم على أن الآمر لا يدخل في عموم الامر فان موسى لم يدخل في الامر بدليل قوله فذبحوها ومنها الاستدلال على أن السنة في البقرة الذبح ومنها الاستدلال على جواز ورود الامر مجملا وتأخير بيانه ومنها دلالة قوله لافارض ولا بكر وقوله مسلمة على جواز الاجتهاد واستعمال غالب الظن في الاحكام لان ذلك لا يعلم الا بالاجتهاد ومنها ان المستهزئ يستحق سمة الجهل ومنها دلالة قوله ان شاء الله على الاستثناء في الامور ومنها دليل أهل السنة في أن الامر لا يستلزم المشيئة ومنها الدلالة على حصر الحيوان بالوصف وجواز السلم فيه ومنها دلالة قوله فافعلوا ما تؤمرون على أن الامر على الفور ويدل على ذلك انه استقصرهم حين لم يبادروا الى فعل ما أمرهم به وقال فذبحوها وما كادوا يفعلون (واذ قتلتم نفسا) أي واذكروا يا بني اسرائيل وقت قتل هذه النفس وما وقع فيه من القصة والخطاب لليهود المعاصرين للنبي صلى الله عليه وآله وسلم واسناد القتل والتدارئ اليهم لان ما يصدر عن الاسلاف ينسب للاخلاف توبيخا وتقريعا قال الرازي في تفسيره اعلم أن وقوع القتل لابد أن يكون متقدما لامره تعالى بالذبح فأما الاخبار عن وقوع القتل وعن أنه لابد أن يضرب القتيل ببعض تلك البقرة فلا يجب أن يكون متقدما على الاخبار عن قصة البقرة فقول من يقول هذه القصة يجب أن تكون متقدمة في التلاوة على الاولى خطأ لان هذه القصة في نفسها يجب أن تكون متقدمة على الاولى في الوجود فأما التقدم في الذكر فغير واجب لانه تارة يقدم ذكر السبب على الحكم وأخرى على العكس من ذلك فكأنهم لما وقعت لهم تلك الواقعة أمرهم الله بذبح البقرة فلما ذبحوها قال واذ قتلتم نفسا من قبل ونسب القتل اليهم لكون القاتل منهم انتهى والقتيل اسمه عاميل ذكره الكرماني وقيل نكار حكاه الماوردي وقاتله ابن أخيه وقيل أخوه (فادارأتم فيها) اختلفتم وتنازعتم لان المتنازعين يدرأ بعضهم بعضا أي يدفعه (والله مخرج ما كنتم تكتمون) أي ما كتمتم بينكم من أمر القتل فالله مظهره لعباده ومبينه لهم وعن المسيب بن رافع قال ما عمل رجل حسنة في سبعة أبيات الا أظهرها الله وما عمل رجل سيئة في سبعة أبيات الا أظهرها الله وتصديق ذلك في كتاب الله والله مخرج ما كنتم تكتمون وأخرج أحمد والحاكم وصححه عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لو أن رجلا عمل عملا في صخرة صماء

لاباب لها ولا كوة تخرج عمله الى الناس كائنا ما كان وأخرج البيهقى من حديث عثمان قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من كانت له سريرة صالحة أو سيئة أظهر الله عليه منها رداء يعرف به والموقوف أصح وللجماعة من الصحابة والتابعين كلمات تفيد هذا المعنى (فقلنا اضربوه ببعضها) يعنى القتيل واختلف فى تعيين البعض الذى أمروا بأن يضربوا به القتيل فقيل بلسانها وقيل بعجب الذنب وقيل بفخذها اليمين وقال ابن عباس بالعظم الذى يلى الغضروف وهو أصل الاذن ولا حاجة الى ذلك مع ما فيه من القول بغير علم ويكفينا أن نقول أمرهم الله بأن يضربوه ببعضها فأى بعض ضربوا به فقد فعلوا ما أمروا به وما زاد على هذا فهو من فضول العلم اذا لم يرد به برهان وليس فى الكتاب العزيز والسنة المطهرة ما يدل على ذلك البعض ما هو وذلك يقتضى التخيير (كذلك يحيى الله الموتى) أى كمثل هذا الاحياء يوم القيامة فلا فرق بينهما فى الجواز والامكان والغرض من هذا الرد عليهم فى انكار البعث وهذا يقتضى أن يكون الخطاب مع العرب لا مع اليهود لانهم يقرون بالبعث والجزاء وعلى هذا الجملة اعتراض فى خلال الكلام المسوق فى شأن اليهود (ويريكم آياته) أى علاماته ودلائله الدالة على كمال قدرته وهذا يحتمل أن يكون خطابا لمن حضر القصة ويحتمل أن يكون خطابا للموجودين عند نزول القرآن والرؤية هنا بصرية (لعلكم تعقلون) أى تمنعون أنفسكم عن المعاصى وقد أخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ فى العظمة عن وهب ابن منبه قصة طويلة فى ذكر البقرة وصاحبها لا حاجة الى التطويل بذكرها وقد استوفاها السيوطى فى الدر المنثور (ثم) موضوعة للتراخى فى الزمان ولا تراخى هنا فهى محمولة على الاستبعاد مجازا (قست قلوبكم) أى يبست وجفت وقيل غلظت واسودت وصلبت وقساوة القلب انتزاع الرحمة منه والقسوة الصلابة واليبس وهى عبارة عن خلوها من الانابة والاذعان لآيات الله مع وجود ما يقتضى خلاف هذه القسوة من احياء القتيل وتكلمه وتعيينه لقاتله وفيه استعارة تبعية تمثيلية تشبيها لحال القلوب فى عدم الاعتبار والاتعاظ بالقسوة والاشارة بقوله (من بعد ذلك) الى ما تقدم من الآيات الموجبة للين القلب ورقته التى جاء بها موسى أو احياء القتيل بعد ضربه ببعض البقرة وهذا مؤكد للاستبعاد المذكور أشد تأكيد (فهى) أى القلوب فى الغلظة والشدة (كالحجارة) أى كالشئ الصلب الذى لا تخلل فيه قيل أو فى قوله (أو أشد قسوة) بمعنى الواو

على الملائكة فلما وقع ذلك الكبر فى نفسه اطلع الله على ذلك منه فقال الله للملائكة انى جاعل فى الارض خليفة فقالوا ربنا وما يكون ذلك الخليفة قال يكون له ذرية يفسدون فى الارض ويتحاسدون ويقتل بعضهم بعضا قالوا ربنا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال انى أعلم ما لا تعلمون يعنى من شأن ابليس فبعث الله جبريل الى الارض ليأتيه بطين منها فقالت الارض انى أعوذ بالله منك ان تنقص منى أو تشيننى فرجع ولم يأخذ وقال يا رب انها عاذت بك فأعذتها فبعث ميكائيل فعاذت منه فأعاذها فرجع فقال كما قال جبريل فبعث ملك الموت فعاذت منه فقال وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفذ أمره فأخذ من وجه الارض وخلط ولم يأخذ من مكان واحد وأخذ من تربة حمراء وبيضاء وسوداء فلذلك خرج بنوا آدم مختلفين فصعد به فبل التراب حتى عاد طينا لازبا واللازب هو الذى يلتزق بعضه ببعض ثم قال للملائكة انى خالق بشرا من طين فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين فخلقه الله بيده لئلا يتكبر ابليس عنه ليقول له تتكبر عما عملت بيدى ولم أتكبر أنا عنه بخلقه بشرا فكان جسدا من طين أربعين سنة من مقدار يوم الجمعة فمرت به الملائكة ففزعوا منه لما رأوه فكان أشدهم فزعا منه ابليس فكان يمر به فيضربه فيصوت الجسد كما يصوت الفخار يكون له صلصلة فذلك حين يقول من صلصال كالفخار ويقول لامر ما خلقت ودخل من فيه فخرج من دبره وقال للملائكة لا ترهبوا من هذا فان ربكم صمد وهذا أجوف لئن سلطت عليه لاهلكنه فلما بلغ الحين الذى يريد الله عز وجل ان ينفخ فيه الروح قال للملائكة اذا نفخت فيه من روحى فاسجدوا له فلما نفخ فيه الروح فدخل الروح فى رأسه عطس فقالت الملائكة قل الحمد لله فقال الحمد لله فقال له الله يرحمك ربك فلما دخلت الروح فى عينيه نظر الى ثمار الجنة فلما دخل الروح الى جوفه اشتهى الطعام فوثب قبل ان تبلغ الروح رجليه عجلان الى ثمار الجنة فذلك حين يقول الله تعالى خلق الانسان من عجل فسجد الملائكة كلهم أجمعون الا ابليس أبى أن يكون مع الساجدين أبى واستكبر وكان من الكافرين قال الله له ما منعك ان تسجد اذ أمرتك لما خلقت بيدى قال أنا خير منه لم أكن لاسجد لبشر خلقته من طين قال الله له اخرج منها فما يكون لك يعنى ما ينبغى لك ان تتكبر فيها فاخرج انك من الصاغرين والصغار هو الذل قال وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرض الخلق على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين أن بنى آدم يفسدون فى الارض ويسفكون الدماء فقالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم قال الله يا آدم أنبئهم بأسمائهم

فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون قال قولهم أتجعل فيها من
يفسد فيها فهذا الذي أبدوا وأعلم ما تكتمون يعني ما أسر ابليس في نفسه من الكبر فهذا الاسناد الى هؤلاء الصحابة مشهور في تفسير
السدي ويقع فيه اسرائيليات كثيرة فلعل بعضها مدرج ليس من كلام الصحابة أو أنهم أخذوه من بعض الكتب المتقدمة والله
أعلم والحاكم يروي في مستدركه بهذا الاسناد بعينه أشياء ويقول على شرط البخاري والغرض ان الله تعالى لما أمر الملائكة
بالسجود لآدم دخل ابليس في خطابهم لانه وان لم يكن من عنصرهم الا انه كان قد تشبه بهم وتوسم بأفعالهم فلهذا دخل
في الخطاب لهم وذم في مخالفة الامر وسنبسط المسئلة ان شاء الله تعالى عند

قوله الا ابليس كان من الجن ففسق
عن أمر ربه ولهذا قال محمد بن اسحق
عن خلاد بن عطاء عن طاوس
عن ابن عباس قال كان ابليس قبل
ان يركب المعصية من الملائكة
اسمه عزازيل وكان من سكان
الارض وكان من أشد الملائكة
اجتهادا وأكثرهم علما فلذلك دعاه
الى الكبر وكان من حي يسمون جنا
وفي رواية عن خلاد عن عطاء عن
طاوس أو مجاهد عن ابن عباس أو
غيره بنحوه وقال ابن أبي حاتم حدثنا
أبي حدثنا سعيد بن سليمان حدثنا
عباد يعني ابن العوام عن سفيان بن
حسين عن يعلى بن مسلم عن سعيد
ابن جبير عن ابن عباس قال كان
ابليس اسمه عزازيل وكان من
أشراف الملائكة من ذوي الاجنحة
الاربعة ثم أبلس بعد وقال سنيد
عن حجاج عن ابن جريج قال قال ابن
عباس كان ابليس من أشراف
الملائكة وأكرمهم قبيلة وكان خازنا
على الجنان وكان له سلطان سماء
الدنيا وكان له سلطان الارض وهكذا
روى الضحاك وغيره عن ابن عباس
سواء وقال صالح مولى التوأمة عن
ابن عباس ان من الملائكة قبيلا
يقال لهم الجن وكان ابليس منهم وكان يسوس ما بين السماء والارض فعصى فسخطه الله شيطانا رجيما رواه ابن جرير وقال قتادة
عن سعيد بن المسيب كان ابليس رئيس ملائكة سماء الدنيا وقال ابن جرير حدثنا محمد بن بشار حدثنا عدي بن أبي عدي عن عوف
عن الحسن قال ما كان ابليس من الملائكة طرفة عين قط وانه لأصل الجن كما ان آدم أصل الانس وهذا اسناد صحيح عن الحسن
وهكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم سواء وقال شهر بن حوشب كان ابليس من الجن الذين طردتهم الملائكة فأسره بعض الملائكة
فذهب به الى السماء رواه ابن جرير وقال سنيد بن داود حدثنا هشيم أنبأنا عبد الرحمن بن يحيى عن موسى بن نمير وعثمان بن سعيد
ابن كامل عن سعد بن مسعود قال كانت الملائكة تقاتل الجن فسبي ابليس وكان صغيرا فكان مع الملائكة يتعبد معها فلما أمروا

كما في قوله تعالى آثما أو كفورا وقيل هي بمعنى بل واختاره أبو حيان وعلى أن أو على
اصلها أو بمعنى الواو فالعطف على قوله كالحجارة أي هذه القلوب هي كالحجارة أو هي أشد
قسوة منها فشبهوها بأي الامرين شئتم فانكم مصيبون في هذا التشبيه وقد أجاب الرازي
في تفسيره عن وقوع أو ههنا مع كونها للترديد الذي لا يليق بعلام الغيوب بثمانية أوجه
(وان من الحجارة) قال في الكشاف انه بيان لفضل قلوبهم على الحجارة في شدة القسوة
وتقرير لقوله أو أشد قسوة انتهى وفيه أن مجيء البيان بالواو غير معروف ولا مألوف
والاولى جعل ما بعد الواو تذييلا أو حالا (لما يتفجر منه الانهار) قيل أراد به جميع
الحجارة وقيل أراد به الحجر الذي كان يضرب عليه موسى ليسقي الاسباط والتفجر التفتح
بالسعة والكثرة (وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء) يعني العيون الصغار التي هي
دون الانهار التفجر التفتح والشق واحد الشقوق وهو يكون بالطول أو بالعرض
بخلاف الانفجار فهو الانفتاح من موضع واحد مع اتساع الخرق والمراد أن الماء يخرج
من الحجارة من مواضع الانفجار والانشقاق (وان منها لما يهبط من خشية الله) أي أن
من الحجارة لما ينحط من المكان الذي هو فيه الى أسفل منه من الخشية التي تداخله وتحل
به وقيل ان الهبوط مجاز عن الخشوع منها والتواضع الكائن فيها انقيادا لله عز وجل فهو
مثل قوله تعالى لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله واختاره
ابن عطية وقد حكى ابن جرير عن فرقة ان الخشية للحجارة مستعارة كما استعيرت الارادة
للجدار وذكر الجاحظ ان الضمير في قوله وان منها راجع الى القلوب لا الى الحجارة وهو فاسد
فان الغرض من سياق هذا الكلام هو التصريح بان قلوب هؤلاء بلغت في القسوة وفرط
اليبس الموجبين لعدم قبول الحق والتأثر للمواعظ الى مكان لا تبلغ اليه الحجارة التي هي
أشد الاجسام صلابة وأعظمها صلادة فانها ترجع الى نوع من اللين وهو تفجرها بالماء
وتشققها عنه وقبولها لما توجبه الخشية لله من الخشوع والانقياد بخلاف تلك القلوب
وفي قوله (وما الله بغافل عما تعملون) من التهديد وتشديد الوعيد ما لا يخفى فان الله عز وجل
اذا كان عالما بما يعملونه مطلعا عليه غير غافل عنه كان لمجازاتهم بالمرصاد (أفتطمعون)
الهمزة للاستفهام وتدخل على ثلاثة من حروف العطف الفاء كما هنا والواو كقوله الآتي
أولا يعلمون وثم كقوله أثم اذا ما وقع واختلف في مثل هذه التراكيب فذهب الجمهور

بالسجود لآدم فسجدوا فأبى إبليس فلذلك قال تعالى إلا إبليس كان من الجن وقال ابن جرير حدثنا محمد بن سنان القزاز حدثنا أبو عاصم عن شريك عن رجل عن عكرمة عن ابن عباس قال إن الله خلق خلقا فقال اسجدوا لآدم فقالوا لا نفعل فبعث الله عليهم نارا فأحرقتهم ثم خلق خلقا آخر فقال إني خالق بشرا من طين اسجدوا لآدم قال فأبوا فبعث الله عليهم نارا فأحرقتهم ثم خلق هؤلاء فقال اسجدوا لآدم قالوا نعم وكان إبليس من أولئك الذين أبوا أن يسجدوا لآدم وهذا غريب ولا يكاد يصح إسناده فإن فيه رجلا مبهما ومثله لا يحتج به والله أعلم وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو أسامة حدثنا صالح بن حيان حدثنا عبد الله بن بريدة قوله تعالى وكان من الكافرين من الذين أبوا فأحرقتهم النار وقال أبو جعفر رضي الله عنه عن الربيع عن أبي العالية وكان من الكافرين يعني من العاصين وقال السدي وكان من الكافرين الذين لم يخلقهم الله يومئذ يكونون بعد وقال محمد بن كعب القرظي ابتدأ الله خلق إبليس على الكفر والضلالة وعمل بعمل الملائكة فصيره الله إلى ما أبدى عليه خلقه من الكفر قال الله تعالى وكان من الكافرين وقول قتادة في قوله تعالى وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فكانت الطاعة لله والسجدة لآدم أكرم الله آدم أن أسجد له ملائكته وقال بعض الناس كان هذا سجود تحية وسلام وإكرام كما قال تعالى ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا وقد كان هذا مشروعا في الأمم الماضية ولكنه نسخ في ملتنا قال معاذ قدمت الشام فرأيتهم يسجدون لأساقفتهم وعلمائهم فأنت يا رسول الله أحق أن يسجد لك فقال لا لو كنت آمرا بشرا أن يسجد لبشر لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها ورجحه الرازي وقال بعضهم بل كانت السجدة لله وآدم قبلة فيها كما قال تعالى أقم الصلاة لدلوك الشمس وفي هذا التنظير نظر والأظهر أن القول الأول أولى والسجدة لآدم إكراما وإعظاما واحتراما وسلاما وهي طاعة لله عز وجل لأنها امتثال لأمره تعالى وقد قواه الرازي في تفسيره وضعف ما عداه من القولين الآخرين وهما كونه جعل قبلة إذ لا يظهر فيه شرف والآخر أن المراد بالسجود الخضوع لا الانحناء ووضع الجبهة على الأرض وهو ضعيف كما قال وقال قتادة في قوله تعالى فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين حسد عدو الله إبليس آدم عليه السلام على ما أعطاه الله من الكرامة وقال أنا ناري وهذا طيني وكان

إلى أن الهمزة مقدمة من تأخير لأن لها الصدر والتقدير فأتطمعون وألا يعلمون وثم إذا وذهب الزمخشري إلى أنها داخلة على محذوف دل عليه سياق الكلام والتقدير هنا أتسمعون أخبارهم وتعلمون أحوالهم فتطمعون (أن يؤمنوا لكم) مع أنهم لم يؤمنوا بموسى هذا الاستفهام فيه معنى الإنكار كأنه أيسهم من إيمان هذه الفرقة من اليهود والخطاب لأصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم أوله صلى الله عليه وآله وسلم والجمع للتعظيم (وقد كان فريق منهم) قيل المراد بالفريق هم الذين كانوا مع موسى عليه السلام يوم الميقات والفريق اسم جمع لا واحد له من لفظه (يسمعون كلام الله) أي التوراة وقيل إنهم سمعوا خطاب الله لموسى عليه السلام حين كلمه وعلى هذا فيكون الفريق هم السبعون الذين اختارهم موسى (ثم يحرفونه) أي يغيرونه ويبدلونه والتحريف الإمالة والتحويل وثم للتراخي إما في الزمان أو في الرتبة والمراد من التحريف أنهم عمدوا إلى ما سمعوه من التوراة فجعلوا حلاله حراما أو نحو ذلك مما فيه موافقة لأهوائهم كتحريفهم صفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وإسقاط الحدود عن أشرافهم أو سمعوا كلام الله لموسى عليه السلام فزادوا فيه ونقصوا وهذا إخبار عن إصرارهم على الكفر وإنكار على من طمع في إيمانهم وحالهم هذه الحال أي ولهم سلف حرفوا كلام الله وغيروا شرائعه وهم مقتدون بهم متبعون سبيلهم (من بعد ما عقلوه) أي علموا صحة كلام الله ومراده فيه (وهم يعلمون) أي ذلك الذي فعلوه هو تحريف مخالف لما أمرهم الله به من تبليغ شرائعه كما هي فهم وقعوا في المعصية عالمين بها وذلك أشد لعقوبتهم وأبين لضلالتهم واعلم أن التوراة والإنجيل اللذين عند اليهود والنصارى الآن اختلف فيهما هل هما مبدلان ومحرفان لفظا أو تأويلا فأما التوراة فأفرط فيها قوم وقالوا كلها أو جلها مبدل وذهبت طائفة من الفقهاء والمحدثين إلى أن ذلك إنما وقع في التأويل فقط كما صرح به البخاري واختاره الفخر الرازي وغيره لقوله تعالى قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين وهو أمر للنبي صلى الله عليه وآله وسلم بالاحتجاج بها والمبدل لا يحتج به ولما اختلفوا في الرجم لم يتمكنوا من تغيير آيته منها وتوسطت طائفة وهو الحق فقالوا بدل بعض منها وحرف لفظه وأول بعض منها بغير المراد منه وإنه لم يعط منها موسى لبني إسرائيل غير سورة واحدة وجعل ما عداها عند أولاد هرون فلم تزل عندهم حتى قتلوا عن آخرهم

بدء الذنوب الكبر استكبر عدو الله ان يسجد لآدم عليه السلام قلت وقد ثبت في الصحيح لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر وقد كان في قلب ابليس من الكبر والكفر والعناد ما اقتضى طرده وابعاده عن جناب الرحمة وحضرة القدس قال بعض المعربين وكان من الكافرين أي وصار من الكافرين بسبب امتناعه كما قال فكان من المغرقين وقال فتكونا من الظالمين وقال الشاعر

بتيهاء قفر والمطي كأنها * قطا الحزن قد كانت فراخا بيوضها

أي وقد صارت وقال ابن فورك تقديره وقد كان في علم الله من الكافرين (١٣٣) ورجح القرطبي وذكر ههنا مسئلة فقال قال علماؤنا من أظهر الله على يديه ممن ليس بنبي كرامات وخوارق للعادات فليس ذلك دالا على ولايته خلافا لبعض الصوفية والرافضة هذا لفظه ثم استدل على ما قال بأنا لا نقطع بهذا الذي جرى الخارق على يديه انه يوافي الله بالايمان وهو لا يقطع لنفسه بذلك يعني والولي هو الذي يقطع له بذلك في نفس الامر قلت وقد استدل بعضهم على ان الخارق قد يكون على يدي غير الولي بل قد يكون على يد الساحر والكافر أيضا بما ثبت عن ابن صياد انه قال هو الدخ حين خبأ له رسول الله صلى الله عليه وسلم فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين وبما كان يصدر عنه انه كان يملأ الطريق اذا غضب حتى ضربه عبد الله بن عمر وبما ثبتت به الاحاديث عن الدجال بما يكون على يديه من الخوارق الكثيرة من أنه يأمر السماء ان تمطر فتمطر والارض ان تنبت فتنبت وتتبعه كنوز الارض مثل اليعاسيب وانه يقتل ذلك الشاب ثم يحييه الى غير ذلك من الامور المهولة وقد قال يونس بن عبد الاعلى الصدفي قلت للشافعي كان الليث بن سعد يقول اذا رأيتم الرجل يمشي على الماء ويطير في الهواء فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة فقال الشافعي قصر الليث رحمه الله بل اذا رأيتم الرجل يمشي على الماء ويطير في الهواء فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة وقد حكى الرازي وغيره قولين للعلماء هل المأمور بالسجود لآدم خاص بملائكة الارض أو عام في ملائكة السموات والارض وقد رجح كلا من القولين طائفة وظاهر الآية الكريمة العموم فسجد الملائكة كلهم أجمعون الا ابليس فهذه أربعة أوجه مقوية للعموم والله أعلم (وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا

في وقعة بختنصر وبعد ذلك جمع عزير بعضها ممن حفظها فهو الذي عندهم اليوم وليس أصلها وفيه زيادة ونقص وخلاف ترجمة وتأويل وأما الانجيل ففيه تبديل وتحريف في بعض ألفاظه ومعانيه وهو مختلف النسخ والاناجيل أربعة كما فصله بعضهم في كتاب عقده لذلك سماه المفيد في التوحيد (واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا) نزلت في اليهود قال ابن عباس ان منافقي اليهود كانوا اذا لقوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قالوا لهم آمنا بالذي آمنتم به وان صاحبكم صادق وقوله حق وانا نجد نعته وصفته في كتابنا (واذا خلا بعضهم الى بعض) يعني كعب بن الاشرف وكعب بن أسد ووهب ابن يهودا رؤساء اليهود لاموا منافقي اليهود على ذلك وعن عكرمة انها نزلت في ابن صوريا و (قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم) وذلك ان ناسا من اليهود أسلموا ثم نافقوا فكانوا يحدثون المؤمنين من العرب بما عذب به اباؤهم وقيل ان المراد ما فتح الله عليهم في التوراة في صفة محمد صلى الله عليه وآله وسلم والفتح عند العرب القضاء والحكم والفتاح القاضي بلغة اليمن والفتح النصر ومن ذلك قوله تعالى يستفتحون على الذين كفروا وقوله ان تستفتحوا فقد جاءكم الفتح ومن الاول ثم يفتح بيننا بالحق وهو خير الفاتحين أي الحاكمين ويكون الفتح بمعنى الفرق بين الشيئين وقيل معناه الانزال وقيل الاعلام أو التبيين أو المن أي ما من به عليكم من نصركم على عدوكم (ليحاجوكم به) أي ليخاصمكم أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم ويحتجوا عليكم بقولكم فيقولون لكم قد أقررتم أنه نبي حق في كتابكم ألا تتبعونه (عند ربكم) في الدنيا والآخرة وقيل عند بمعنى في وقيل عند ذكر ربكم والاول أولى والمحاجة ابراز الحجة أي لا تخبروهم بما حكم الله به عليكم من العذاب فيكون ذلك حجة لهم عليكم فيقولون نحن أكرم على الله منكم وأحق بالخير منه والحجة الكلام المستقيم وحاججت فلانا فحججته أي غلبته بالحجة (أفلا تعقلون) ما فيه الضرر عليكم من هذا التحديث الواقع منكم لهم وهذا من تمام مقولهم ثم وبخهم الله سبحانه فقال (أولا يعلمون) أي اليهود (ان الله يعلم ما يسرون وما يعلنون) ما يخفون وما يبدون ويظهرون من جميع أنواع الاسرار وأنواع الاعلان ومن ذلك اسرارهم الكفر واعلانهم الايمان وتحريف الكلم عن مواضعه قال ابن عباس هذه الآيات في المنافقين من اليهود وقال أبو العالية ما يسرون من كفرهم بمحمد صلى الله عليه وآله

بعضكم لبعض عدوّ ولكم فى الارض مستقر ومتاع الى حين) يقول الله تعالى اخبارا عما أكرم به ادم بعد ان امر الملائكة بالسجود له فسجدوا الا ابليس انه أباحه الجنة يسكن منها حيث يشاء ويأكل منها ما شاء رغدا أى هنيئا واسعا طيبا وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه من حديث محمد بن عيسى الدامغانى حدثنا سلمة بن الفضل عن ميكائيل عن ليث عن ابراهيم التيمى عن أبيه عن أبى ذر قال قلت يا رسول الله أرأيت آدم أنبيا كان قال نعم نبيا رسولا يكلمه الله قبلا يعنى عيانا فقال اسكن أنت وزوجك الجنة وقد اختلف فى الجنة التى أسكنها آدم أهى فى السماء أو فى الارض فالاكثرون على الاول وحكى القرطبى عن المعتزلة والقدرية القول بانها فى الارض وسيأتى (١٣٤) تقرير ذلك فى سورة الاعراف ان شاء الله تعالى وسياق الآية يقتضى أن حواء خلقت قبل دخول آدم الجنة وقد صرح بذلك محمد بن اسحق حيث قال لما فرغ الله من معاتبة ابليس أقبل على آدم وقد علمه الاسماء كلها فقال يا آدم أنبئهم بأسمائهم الى قوله انك أنت العليم الحكيم قال ثم ألقيت السنة على آدم فيما بلغنا عن أهل الكتاب من أهل التوراة وغيرهم من أهل العلم عن ابن عباس وغيره ثم أخذ ضلعا من أضلاعه من شقه الايسر ولأم مكانه لحما وآدم نائم لم يهب من نومه حتى خلق الله من ضلعه تلك زوجته حواء فسواها امرأة ليسكن اليها فلما كشف عنه السنة وهب من نومه رآها الى جنبه فقال فيما يزعمون والله أعلم لحمى ودمى وزوجتى فسكن اليها فلما زوجه الله وجعل له سكنا من نفسه قال له قبلا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ويقال ان خلق حواء كان بعد دخول الجنة كما قال السدى فى خبر ذكره عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة أخرج ابليس من الجنة وأسكن آدم الجنة فكان يمشى فيها وحشا ليس له زوج يسكن اليه فنام نومة فاستيقظ وعند رأسه امرأة قاعدة خلقها الله من ضلعه فسألها ما أنت قالت امرأة قال ولم خلقت قالت لتسكن الى قالت له الملائكة ينظرون ما بلغ من علمه ما اسمها يا آدم قال حواء قالوا ولم حواء قال انها خلقت من شئ حى قال الله يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما وأما قوله ولا تقربا هذه الشجرة فهو اختبار من الله تعالى وامتحان لآدم وقد اختلف فى هذه الشجرة ما هى فقال السدى عمن حدثه عن ابن عباس الشجرة التى نهى عنها آدم عليه السلام هى الكرم وكذا قال سعيد ابن جبير والسدى والشعبى وجعدة بن هبيرة ومحمد بن قيس وقال السدى أيضا فى خبر ذكره عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن

وسلم وتكذيبهم وما يعلمون حين قالوا للمؤمنين آمنا وقد قال بمثل هذا جماعة من السلف (ومنهم أميون) أى ومن اليهود والامى منسوب الى الأمة الامية التى هى على أصل ولادتها من أمهاتها لم تتعلم الكتابة ولا تحسن القراءة للمكتوب ومنه حديث انا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب وقال أبو عبيدة انما قيل لهم أميون لنزول الكتاب عليهم كأنهم نسبوا الى أم الكتاب فكأنه قال ومنهم أهل كتاب وقيل هم نصارى العرب وقيل هم قوم كانوا أهل كتاب فرفع كتابهم لذنوب ارتكبوها وقيل هم المجوس حكاه المهدوى وقيل غير ذلك والراجح الاول وقيل أميون أى عوام ومن هذا شأنه لا يطمع فى ايمانه (لا يعلمون الكتاب الا أمانى) أى أنهم لا علم لهم به الا ما هم عليه من الامانى التى يتمنونها ويعللون بها أنفسهم والامانى جمع امنية وهى ما يتمناه الانسان لنفسه فهؤلاء لا علم لهم بالكتاب الذى هو التوراة لما هم عليه من كونهم لا يكتبون ولا يقرؤن المكتوب والاستثناء منقطع أى لكن الامانى ثابتة لهم من كونهم مغفورا لهم بما يدعونه لانفسهم من الاعمال الصالحة أو بما لهم من السلف الصالح فى اعتقادهم وقيل الامانى الاكاذيب المختلقة قاله ابن عباس أى ولكن يعتقدون أكاذيب أخذوها تقليدا من المحرفين أو مواعيد فارغة سمعوها منهم من أن الجنة لا يدخلها الا من كان هودا وقيل الامانى التلاوة ومنه قوله تعالى الا اذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته أى اذا تلى ألقى الشيطان فى تلاوته أى لا علم لهم الا مجرد التلاوة من دون تفهم وتدبر وقراءة عارية عن معرفة المعنى وقيل الامانى التقدير قال الجوهرى يقال منى له أى قدر قال فى الكشاف والاشتقاق من منى اذا قدر لان المتمنى يقدر فى نفسه ويحزر ما يتمناه وكذلك المختلق والقارئ يقدر ان كلمة كذا بعد كذا انتهى وقيل هو من التمنى وهو قولهم لن تمسنا النار الا أياما معدودة وغير ذلك مما تمنوه والمعنى لكن يتمنون أشياء لا تحصل لهم (وان هم الا يظنون) أى ليسوا على يقين والظن هو التردد الراجح بين طرفى الاعتقاد الغير الجازم كذا فى القاموس أى ما هم الا يترددون بغير جزم ولا يقين وقيل الظن هنا بمعنى الكذب وقيل هو مجرد الحدس لما ذكر الله سبحانه أهل العلم بأنهم غير عاملين بل يحرفون كلام الله من بعد ما عقلوه وهم يعلمون ذكر أهل الجهل منهم بأنهم يتكلون على الامانى ويعتمدون على الظن الذى لا يقفون من تقليدهم على غيره ولا يظفرون بسواه (فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم

عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة ولا تقربا هذه الشجرة هي الكرم وتزعم يهود انها الحنطة وقال ابن جرير
وابن أبي حاتم حدثنا محمد بن اسمعيل بن سمرة الاحمسي حدثنا أبو يحيى الحماني حدثنا أبو النضر أبو عمر الخراز عن عكرمة عن ابن عباس
قال الشجرة التي نهى عنها آدم عليه السلام هي السنبلة وقال عبد الرزاق أنبأنا ابن عيينة وابن المبارك عن الحسن بن عمارة عن
المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال هي السنبلة وقال محمد بن اسحق عن رجل من أهل العلم عن حجاج عن مجاهد
عن ابن عباس قال هي البر وقال ابن جرير وحدثني المثنى بن ابراهيم حدثنا مسلم بن ابراهيم حدثنا القاسم حدثني رجل من بني تميم
ان ابن عباس كتب الى أبي الجلد يسأله عن الشجرة التي أكل منها آدم (١٣٥) والشجرة التي تاب عندها آدم فكتب اليه

أبو الجلد سألتني عن الشجرة التي نهى عنها آدم وهي السنبلة وسألتني عن الشجرة التي تاب عندها آدم وهي الزيتونة وكذلك فسره الحسن البصري ووهب بن منبه وعطية العوفي وأبو مالك ومحارب بن دثار وعبد الرحمن بن أبي ليلى وقال محمد بن اسحق عن بعض أهل اليمن عن وهب بن منبه انه كان يقول هي البر ولكن الحبة منها في الجنة ككلا البقر وألين من الزبد وأحلى من العسل وقال سفيان الثوري عن حصين عن أبي مالك ولا تقربا هذه الشجرة قال النخلة وقال ابن جرير عن مجاهد ولا تقربا هذه الشجرة قال التينة وبه قال قتادة وابن جريج وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية كانت الشجرة من أكل منها أحدث ولا ينبغي ان يكون في الجنة حدث وقال عبد الرزاق حدثنا عمر بن عبد الرحمن بن مهران قال سمعت وهب ابن منبه يقول لما أسكن الله آدم وزوجته الجنة ونهاه عن أكل الشجرة وكانت شجرة غصونها
متشعب بعضها من بعض وكان لها ثمر تأكله الملائكة لخلدهم وهي الشجرة التي نهى الله عنها آدم وزوجته فهذه أقوال ستة في
تفسير هذه الشجرة قال الامام العلامة أبو جعفر بن جرير رحمه الله والصواب في ذلك ان يقال ان الله عز وجل ثناؤه نهى آدم وزوجته
عن أكل شجرة بعينها من أشجار الجنة دون سائر أشجارها فأكلا منها ولا علم عندنا بأي شجرة كانت على التعيين لان الله لم يضع
لعباده دليلا على ذلك في القرآن ولا من السنة الصحيحة وقد قيل كانت شجرة البر وقيل كانت شجرة العنب وقيل كانت شجرة التين
وجائز ان تكون واحدة منها وذلك علم اذا علم لم ينفع العالم به علمه وان جهله جاهل لم يضره جهله به والله أعلم وكذلك رجح الامام
الرازي في تفسيره وغيره وهو الصواب وقوله تعالى فأزلهما الشيطان عنها يصح ان يكون الضمير في قوله عنها عائدا الى الجنة فيكون

بأيديهم) الويل الهلاك قال الفراء الاصل في الويل وي أي حزن كما تقول وي لفلان
أي حزن له فوصلته العرب باللام قال الخليل ولم يسمع على بنائه الا ويح وويس وويه
وويك وويب وكله متقارب في المعنى وقد فرق بينها قوم وهي مصادر لم تنطق العرب
بأفعالها وجاز الابتداء به وان كان نكرة لان فيه معنى الدعاء وقال ابن عباس الويل شدة
العذاب وعن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الويل
واد في جهنم يهوي فيه الكافر أربعين خريفا قبل أن يبلغ قعره أخرجه الترمذي وقال
حديث غريب والتحريف السنة والكتابة معروفة والمعنى انهم يكتبون الكتاب المحرف
ولا يبينون ولا ينكرونه على فاعله أو ما يكتبونه من التأويلات الزائغة وقوله بأيديهم
تأكيد لان الكتابة لا تكون الا باليد فهو مثل قوله ولا طائر يطير بجناحيه وقوله
يقولون بأفواههم قال ابن السراج هو كناية عن أنه من تلقائهم دون ان ينزل عليهم وفيه
أنه قد دل على أنه من تلقائهم قوله يكتبون الكتاب فاسناد الكتابة اليهم يفيد ذلك
(ثم يقولون هذا) أي جميعا على الاول وبخصوصه على الثاني وثم للتراخي الرتبي فان
نسبة المحرف والتأويل الزائغ الى الله سبحانه صريحا أشد شناعة من نفس التحريف
والتأويل (من عند الله ليشتروا به) أي بما كتبوا (ثمنا قليلا) أي المآكل والرشاء
والاشتراء الاستبدال ووصفه بالقلة لكونه فانيا لا ثواب فيه أو لكونه حراما لا تحل به
البركة فهؤلاء الكتبة لم يكتفوا بالتحريف ولا بالكتابة لذلك المحرف حتى نادوا في المحافل
بانه من عند الله لينالوا بهذه المعاصي المتكررة هذا العرض النزر والعوض الحقير واستدل
به النخعي على كراهة كتابة المصحف بالاجرة (فويل لهم مما كتبت أيديهم) تأكيد لقوله
فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ومع ذلك فيه نوع مغايرة لان هذا وقع تعليلا
فهو مقصود وذلك وقع صلة فهو غير مقصود والكلام في هذا كالذي فيما قبله من جهة
أن التكرير للتأكيد (وويل لهم مما يكسبون) قيل من الرشاء ونحوها وقيل
من المعاصي وكرر الويل تغليظا عليهم وتعظيما لفعلهم وهتكا لاستارهم وقال السعد
التفتازاني انما كرر ليفيد أن الهلاك مرتب على كل واحد من الفعلين على حدة لا على
مجموع الامرين والكسب مسبب فجاء النظم على هذا الترتيب وقد ذكر صاحب الدر
المنثور آثارا عن جماعة من السلف أنهم كرهوا بيع المصاحف مستدلين بهذه الآية

معنى الكلام كما قرأ حمزة فأزالهما أي فنحاهما وبه صح أن يكون عائدا على أقرب المذكورين وهو الشجرة فيكون معنى الكلام كما قال الحسن وقتادة فأزلهما أي من قبل الزلل فعلى هذا يكون تقدير الكلام فأزلهما الشيطان عنها أي بسببها كما قال تعالى يؤفك عنه من أفك أي يصرف بسببه من هو مأفوك ولهذا قال تعالى فأخرجهما مما كانا فيه أي من اللباس والمنزل الرحب والرزق الهنيء والراحة وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع الى حين أي قرار وأرزاق وآجال الى حين أي الى وقت مؤقت ومقدار معين ثم تقوم القيامة وقد ذكر المفسرون من السلف كالسدي بأسانيده وأبي العالية ووهب بن منبه وغيرهم ههنا أخبارا اسرائيلية عن قصة الحية وابليس وكيف جرى من دخول ابليس الى الجنة ووسوسته وسنبسط ذلك ان شاء الله في سورة الاعراف فهناك القصة أبسط منها ههنا والله الموفق وقد قال ابن أبي حاتم ههنا حدثنا علي بن الحسن ابن اشكاب حدثنا علي بن عاصم عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن عن أبي بن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله خلق آدم رجلا طوالا كثير شعر الرأس كأنه نخلة سحوق فلما ذاق الشجرة سقط عنه لباسه فأول ما بدا منه عورته فلما نظر الى عورته جعل يشتد في الجنة فأخذت شعره شجرة فنازعها فناداه الرحمن يا آدم مني تفر فلما سمع كلام الرحمن قال يارب لا ولكن استحياء قال وحدثني جعفر بن أحمد بن الحكم القرشي سنة أربع وخمسين ومائتين حدثنا سليمان بن منصور بن عمار حدثنا علي بن عاصم عن سعيد عن قتادة عن أبي بن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما ذاق آدم من الشجرة فر هاربا فتعلقت شجرة بشعره فنودي يا آدم أفرارا مني قال بل حياء منك قال يا آدم اخرج من جواري فبعزتي لا يساكنني فيها من عصاني ولو خلقت مثلك ملء الارض خلقا ثم عصوني لاسكنتهم دار العاصين هذا حديث غريب وفيه انقطاع بل اعضال بين قتادة وأبي بن كعب رضي الله عنه وقال الحاكم حدثنا أبو بكر بن بالويه عن محمد بن أحمد بن النضر عن معاوية بن عمرو عن زائدة عن عمار بن أبي معاوية البجلي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال ما أسكن آدم الجنة الا ما بين صلاة العصر الى غروب الشمس ثم قال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وقال عبد بن حميد في تفسيره حدثنا روح عن هشام عن الحسن قال لبث آدم في الجنة ساعة من نهار تلك الساعة ثلاثون ومائة سنة من أيام الدنيا وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس قال خرج آدم من الجنة للساعة التاسعة أو العاشرة فأخرج آدم معه غصنا من شجر الجنة على رأسه تاج من شجر الجنة وهو الاكليل من ورق الجنة وقال السدي قال الله

ولا دلالة فيها على ذلك ثم ذكر آثارا عن جماعة منهم أنهم جوزوا ذلك ولم يكرهوه (وقالوا) أي اليهود (لن تمسنا) أي تصيبنا (النار الا أياما معدودة) استثناء مفرغ أي قدرا مقدرا يحصرها العد ويلزمها في العادة القلة ثم يرفع عنا العذاب وقد اختلف في سبب نزول هذه الآية قال ابن عباس ان اليهود كانوا يقولون مدة الدنيا سبعة آلاف سنة وانما نعذب بكل ألف سنة من أيام الدنيا يوما واحدا في النار وانما هي سبعة أيام معدودة ثم ينقطع العذاب فأنزل الله في ذلك هذه الآية وعن عكرمة قال اجتمعت يهود يوما فخاصموا النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا لن تمسنا النار الا أربعين يوما ثم يخلفنا فيها ناس وأشاروا الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ورد يده على رأسه كذبتم بل أنتم خالدون مخلدون فيها لا نخلفكم فيها ان شاء الله أبدا ففيهم نزلت هذه الآية وأخرج أحمد والبخاري والدارمي والنسائي من حديث أبي هريرة ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم سأل اليهود في خيبر من أهل النار قالوا نكون فيها يسيرا ثم تخلفونا فيها فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اخسؤوا والله لا نخلفكم فيها أبدا والمراد بقوله (قل أتخذتم عند الله عهدا) الانكار عليهم لما صدر منهم من هذه الدعوى الباطلة أنها لن تمسهم النار الا أياما معدودة أي لم يتقدم لكم مع الله عهد بهذا ولا أسلفتم من الاعمال الصالحة ما يصدق هذه الدعوى حتى يتعين الوفاء بذلك وعدم اخلاف العهد أي ان اتخذتم عهدا (فلن يخلف الله عهده) هذا جواب الاستفهام المتقدم في قوله أتخذتم وقال ابن عطية هذا اعتراض بين أثناء الكلام قال الرازي العهد في هذا الموضع يجري مجرى الوعد وانما سمي خبره سبحانه عهدا لان خبره أوكد من العهود المؤكدة (أم تقولون) أم متصلة وحينئذ الاستفهام للتقرير المؤدي الى التبكيت أو منقطعة والاستفهام لانكار الاتخاذ ونفيه (على الله ما لا تعلمون بلى) اثبات لما بعد حرف النفي مختص به خبرا واستفهاما أي بلى تمسكم النار أبدا لا على الوجه الذي ذكرتم من كونه أياما معدودة (من كسب سيئة) المراد بها الجنس هنا ومثله قوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها ومن يعمل سوأ يجز به ثم أوضح سبحانه أن مجرد كسب السيئة لا يوجب الخلود في النار بل لا بد أن يكون سببه محيطا به فقال (وأحاطت به خطيئته) أي أحدقت به من جميع جوانبه فلا تبقى له حسنة وسدت عليه مسالك النجاة قيل هي

اهبطوا منها جميعا فهبطوا ونزل آدم بالهند ونزل معه الحجر الاسود وقبضة من ورق الجنة فبثه بالهند فنبتت شجرة الطيب فانما أصل ما يجاء به من الطيب من الهند من قبضة الورق التي هبط بها آدم وانما قبضها آدم أسفا على الجنة حين أخرج منها وقال عمران ابن عيينة عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال أهبط آدم بدحنا أرض بالهند وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا عثمان بن أبي شيبة حدثنا جرير عن عطاء عن سعيد عن ابن عباس قال أهبط آدم عليه السلام الى أرض يقال لها دحنا بين مكة والطائف وعن الحسن البصري قال أهبط آدم بالهند وحواء بجدة وابليس بدستميسان من البصرة على أميال وأهبطت الحية باصبهان رواه ابن أبي حاتم وقال محمد بن أبي حاتم حدثنا محمد بن عمار بن الحرث حدثنا محمد بن سعيد بن سابق حدثنا عمر بن أبي قيس عن الزبير بن عدي عن ابن عمر قال أهبط آدم بالصفا وحواء بالمروة وقال رجاء بن سلمة أهبط آدم عليه السلام يداه على ركبتيه مطأطئا رأسه وأهبط ابليس مشبكا بين أصابعه رافعا رأسه الى السماء وقال عبد الرزاق قال معمر أخبرني عوف عن قسامة بن زهير عن أبي موسى قال ان الله حين أهبط آدم من الجنة الى الارض علمه صنعة كل شيء وزوده من ثمار الجنة فثماركم هذه من ثمار الجنة غير أن هذه تتغير وتلك لا تتغير وقال الزهري عن عبد الرحمن بن هرمز الاعرج عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة وفيه أخرج منها رواه مسلم والنسائي وقال الرازي اعلم ان في هذه الآية تهديدا عظيما عن كل المعاصي من وجوه الاول أن من تصور ما جرى على آدم بسبب اقدامه على هذه الزلة الصغيرة كان على وجل شديد من المعاصي قال الشاعر

يا ناظرا يرنو بعيني راقد * ومشاهدا للامر غير مشاهد
تصل الذنوب الى الذنوب وترتجي * درج الجنان ونيل فوز العابد
أنسيت ربك حين أخرج آدما * منها الى الدنيا بذنب واحد

قال ابن القيم

ولكننا سبي العدو فهل ترى * نعود الى أوطاننا ونسلم

قال الرازي عن فتح الموصلي انه قال كنا قوما من أهل الجنة فسبانا ابليس الى الدنيا فليس لنا الا الهم والحزن حتى نرد الى الدار التي أخرجنا منها فان قيل فاذا كانت جنة آدم التي أخرج منها في السماء كما يقوله الجمهور من العلماء فكيف تمكن ابليس من دخول الجنة وقد طرد من هنالك طردا قدريا والقدري لا يخالف ولا يمانع فالجواب ان هذا بعينه استدل به من يقول ان الجنة التي كان فيها آدم في الارض لا في السماء كما قد بسطنا هذا في أول كتابنا البداية والنهاية وأجاب الجمهور بأجوبة أحدها انه منع من دخول الجنة مكرما فاما على وجه

الشرك قاله ابن عباس ومجاهد وقيل هي الكبيرة وتفسيرها بالشرك أولى لما ثبت في السنة تواترا من خروج عصاة الموحدين من النار ويؤيد ذلك كونها نازلة في اليهود وان كان الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب وعليه اجماع المفسرين وبهذا يبطل تشبث المعتزلة والخوارج قال الحسن كل ما وعد الله عليه النار فهو الخطيئة استدل به على أن المعلق على شرطين لا ينجز بأحدهما (فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) والخلود في النار هو للكفار والمشركين فيتعين تفسير السيئة والخطيئة في هذه الآية بالكفر والشرك (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) أي جمعوا بين الايمان والعمل الصالح فان قلت لو دل الايمان على العمل لكان ذكر العمل الصالح بعد الايمان تكرارا قلت آمنوا يفيد الماضي وعملوا يفيد المستقبل فكأنه قال آمنوا ثم داموا عليه آخرا ويدخل فيه جميع الاعمال الصالحة (أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) لا يخرجون منها ولا يموتون وأتى بالفاء في الشق الاول دون الثاني ايذانا بتسبب الخلود في النار عن الشرك وعدم تسبب الخلود في الجنة عن الايمان بل هو بمحض فضل الله تعالى (واذ أخذنا) الخطاب مع بني اسرائيل وهم اليهود المعاصرون للنبي صلى الله عليه وآله وسلم بما وقع من أسلافهم توبيخا لهم بسوء صنيع أسلافهم أي اذكروا اذ أخذنا ميثاقهم وقيل الخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين والاول أولى لأن المقام مقام تذكيرهم وهذا شروع في تعداد بعض آخر من قبائح أسلاف اليهود بما ينادي بعدم ايمان أخلافهم ليؤيسهم التأمل في أحوالهم الى قطع الطمع في ايمانهم (ميثاق بني اسرائيل) الذين كانوا في زمن موسى وقد تقدم تفسير الميثاق المأخوذ على بني اسرائيل وقال مكي ان الميثاق الذي أخذه الله عليهم هنا هو ما أخذه عليهم في حياتهم على ألسن أنبيائهم وهو قوله (لا تعبدون الا الله) خبر بمعنى النهي وهو أبلغ من صريح النهي لما فيه من الاعتناء بشأن المنهي عنه وتأكد طلب امتثاله حتى كأنه امتثل وأخبر عنه وعبادة الله اثبات توحيده وتصديق رسله والعمل بما أنزل الله في كتبه (وبالوالدين احسانا) أي معاشرتهما بالمعروف والتواضع لهما وامتثال أمرهما وسائر ما أوجبه الله على الولد لوالديه من الحقوق ومنه البر بهما والرحمة لهما والنزول عند أمرهما فيما لا يخالف أمر الله ويوصل اليهما ما يحتاجان اليه ولا يؤذيهما وان كانا كافرين وأن يدعوهما الى الايمان

السرقة والاهانة فلا يمتنع ولهذا قال بعضهم كما جاء في التوراة انه دخل في فم الحية الى الجنة وقد قال بعضهم يحتمل انه وسوس لهما وهو خارج باب الجنة وقال بعضهم يحتمل انه وسوس لهما وهو في الارض وهما في السماء ذكرها الزمخشري وغيره وقد أورد القرطبي هٰهنا أحاديث في الحيات وقتلهن وبيان حكم ذلك فأجاد وأفاد (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم) قيل ان هذه الكلمات مفسرة بقوله تعالى قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين وروى هذا عن مجاهد وسعيد بن جبير وأبي العالية والربيع بن أنس والحسن وقتادة ومحمد بن كعب القرظي وخالد بن معدان وعطاء الخراساني وعبد الرحمن بن زيد (١٣٨) بن أسلم وقال أبو اسحق السبيعي عن رجل من بني تميم قال أتيت ابن عباس فسألته ما الكلمات التي تلقى آدم من ربه قال علم شأن الحج وقال سفيان الثوري عن عبد العزيز بن رفيع أخبرني من سمع عبيد بن عمير وفي رواية قال أخبرني مجاهد عن عبيد بن عمير أنه قال قال آدم يا رب خطيئتي التي أخطأت شيء كتبته علي قبل أن تخلقني أو شيء ابتدعته من قبل نفسي قال بل شيء كتبته عليك قبل أن أخلقك قال فكما كتبته علي فاغفر لي قال فذلك قوله تعالى فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه وقال السدي عمن حدثه عن ابن عباس فتلقى آدم من ربه كلمات قال قال آدم عليه السلام يا رب ألم تخلقني بيدك قيل له بلى ونفخت في من روحك قيل له بلى وعطست فقلت يرحمك الله وسبقت رحمتك غضبك قيل له بلى وكتبت علي أن أعمل هذا قيل له بلى قال أرأيت ان تبت هل أنت راجعي الى الجنة قال نعم وهكذا رواه العوفي وسعيد بن جبير وسعيد بن معبد عن ابن عباس بنحوه ورواه الحاكم في مستدركه من حديث ابن جبير عن ابن عباس وقال صحيح الاسناد ولم يخرجاه وهكذا فسره السدي وعطية العوفي وقد روى ابن أبي حاتم هٰهنا حديثا شبيها بهذا فقال حدثنا علي بن الحسين بن اشكاب حدثنا علي بن عاصم عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن عن أبي بن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال آدم عليه السلام أرأيت يا رب ان تبت ورجعت أعائدي الى الجنة قال نعم فذلك قوله فتلقى آدم من ربه كلمات وهذا حديث غريب من هذا الوجه وفيه انقطاع وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية في قوله تعالى فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه قال ان آدم لما أصاب الخطيئة قال أرأيت يا رب ان تبت وأصلحت قال الله اذا أدخلك الجنة فهي الكلمات ومن الكلمات أيضا ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد انه كان يقول في قول الله تعالى فتلقى

بالرفق واللين وكذا ان كانا فاسقين يأمرهما بالمعروف من غير عنف ولا يقول لهما أف (وذي القربى) أي القرابة عطف على الوالدين لأن حقهما تابع لحقهما والاحسان اليهم انما هو بواسطة الوالدين والقربى مصدر كالرجعى والعقبى وهم القرابة والاحسان بهم صلتهم والقيام بما يحتاجون اليه بحسب الطاقة وبقدر ما تبلغ اليه القدرة (واليتامى) جمع يتيم واليتيم في بني آدم من فقد أبوه وفي سائر الحيوانات من فقدت أمه وأصله الانفراد يقال صبي يتيم أي منفرد من أبيه فاذا بلغ الحلم زال عنه اليتم وتجب رعاية حقوق اليتيم لثلاثة أمور لصغره ويتمه وخلوه عمن يقوم بمصلحته اذ لا يقدر هو أن ينتفع بنفسه ولا يقوم بحوائجه (والمساكين) جمع مسكين وهو من أسكنته الحاجة وذللته وهو أشد فقرا من الفقير عند أكثر أهل اللغة وكثير من أهل الفقه وروي عن الشافعي أن الفقير أسوأ حالا من المسكين وقد ذكر أهل العلم لهذا البحث أدلة مستوفاة في مواضعها (وقولوا للناس حسنا) أي قولا حسنا سماه حسنا مبالغة وقرئ حسنا بفتحتين وهي لغة أهل الحجاز وحسنى بغير تنوين على انه مصدر كبشرى والمراد به ما فيه تخلق وارشاد كذا قال الاخفش قال النحاس وهذا لا يجوز في العربية لا يقال من هذا شيء الا بالالف واللام نحو الفضلى والكبرى والحسنى وهذا قول سيبويه وقرأ زيد بن ثابت وابن مسعود حسنا قال الاخفش هما بمعنى واحد مثل البخل والبخل والرشد والرشد فهو صفة مشبهة لا مصدر كما فهم من عبارة القاموس فتنبه قاله الكرخي هنا والظاهر أن هذا القول الذي أمرهم الله به لا يختص بنوع معين بل كل ما صدق عليه انه حسن شرعا كان من جملة ما يصدق عليه هذا الامر وقد قيل ان ذلك هو كلمة التوحيد وقيل الصدق وقيل الامر بالمعروف وقيل هو اللين في القول والعشرة وحسن الخلق والنهي عن المنكر وقيل غير ذلك قيل ان الخطاب للحاضرين من اليهود في زمن النبي صلى الله عليه وآله وسلم فلهذا عدل عن الغيبة الى الخطاب قاله ابن عباس وقيل ان المخاطب بهم الذين كانوا في زمن موسى عليه السلام وانما عدل من الغيبة الى الخطاب على طريق الالتفات وتقدم تفسير قوله (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) وهو خطاب لبني اسرائيل فالمراد الصلاة التي كانوا يصلونها والزكاة التي كانوا يخرجونها قال ابن عطية وزكاتهم هي التي كانوا يضعونها فتنزل النار على ما يتقبل ولا تنزل على ما لا يتقبل والخطاب في قوله (ثم توليتم) الى الحاضرين

آدم من ربه كلمات فتاب عليه قال الكلمات اللهم لا اله الا أنت سبحانك وبحمدك رب انى ظلمت نفسى فاغفرلى انك خير الغافرين اللهم لا اله الا أنت سبحانك وبحمدك رب انى ظلمت نفسى فارحمنى انك خير الراحمين اللهم لا اله الا أنت سبحانك وبحمدك رب انى ظلمت نفسى فتب على انك أنت التواب الرحيم وقوله تعالى انه هو التواب الرحيم أى انه يتوب على من تاب اليه وأناب كقوله ألم يعلموا ان الله يقبل التوبة عن عباده وقوله ومن يعمل سوأ أو يظلم نفسه الآية وقوله ومن تاب وعمل صالحا وغير ذلك من الآيات الدالة على أنه تعالى يغفر الذنوب ويتوب على من يتوب وهذا من لطفه بخلقه ورحمته بعبيده لا اله الا هو التواب الرحيم (قلنا اهبطوا منها جميعا فاما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون (١٣٩) والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) يقول تعالى مخبرا عما أنذر به آدم وزوجته وابليس حين أهبطهم من الجنة والمراد الذرية انه سينزل الكتب ويبعث الانبياء والرسل كما قال أبو العالية الهدى الانبياء والرسل والبينات والبيان وقال مقاتل بن حيان الهدى محمد صلى الله عليه وسلم وقال الحسن الهدى القرآن وهذان القولان صحيحان وقول أبى العالية أعم فمن اتبع هداى أى من أقبل على ما أنزلت به الكتب وأرسلت به الرسل فلا خوف عليهم أى فيما يستقبلونه من أمر الآخرة ولا هم يحزنون على ما فاتهم من أمور الدنيا كما قال فى سورة طه قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو فاما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى قال ابن عباس فلا يضل فى الدنيا ولا يشقى فى الآخرة ومن اعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى كما قال ههنا والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون أى مخلدون فيها لا محيد لهم عنها ولا محيص وقد أورد ابن جرير ههنا حديثا ساقه من طريقين عن أبى سلمة سعيد بن يزيد عن أبى نضرة المنذر بن مالك بن بضعة عن أبى سعيد واسمه سعد بن مالك بن سنان الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أما أهل النار الذين هم أهلها فلا يموتون فيها ولا يحيون ولكن أقوام أصابتهم النار بخطاياهم فأماتتهم اماتة حتى اذا صاروا فحما أذن فى الشفاعة وقد رواه مسلم من حديث شعبة عن أبى سلمة به وذكر هذا الاهباط الثانى لما تعلق به بعده من المعنى المغاير للاول وزعم بعضهم انه تأكيد وتكرير كما يقال قم قم وقال آخرون بل الاهباط الاول من الجنة الى السماء الدنيا والثانى من سماء الدنيا الى الارض والصحيح الاول والله أعلم (يا بنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم واياى فارهبون وآمنوا بما أنزلت مصدقا

منهم فى عصر النبى صلى الله عليه وآله وسلم لأنهم مثل سلفهم فى ذلك وفيها التفات من الغيبة الى الخطاب أى أعرضتم عن العهد ومن فوائد الالتفات تطرية الكلام وصيانة السمع عن الضجر والملال لما جبلت عليه النفوس من حب التنقلات والسآمة من الاستمرار على منوال واحد كما هو مقرر فى محله والاعراض والتولى بمعنى واحد وقيل التولى بالجسم والاعراض بالقلب (الا قليلا منكم) منصوب على الاستثناء وهو من أقام اليهودية على وجهها قبل النسخ ومن أسلم منهم كعبد الله بن سلام وأصحابه (وأنتم معرضون) كاعراض آبائكم أمرهم الله تعالى بهذه التكاليف الثمانية لتكون لهم المنزلة عنده بما التزموا به ثم أخبر عنهم انهم ما وفوا بذلك (واذ أخذنا ميثاقكم) قيل هو خطاب لمن كان فى زمن النبى صلى الله عليه وآله وسلم من اليهود والمراد اسلافهم المعاصرون لموسى على سنن التذكيرات السابقة وهذا شروع فى بيان ما فعلوه بالعهد المتعلق بحقوق العباد بعد بيان ما فعلوا بالعهد المتعلق بحقوق الله وما يجرى مجراها وقيل لآبائهم وفيه تقريع لهم وتوبيخ (لا تسفكون) أى لا تريقون والسفك الصب وقد تقدم (دماءكم) أى لا يفعل ذلك بعضكم ببعض أو لا تسفكوا دماء غيركم فيسفك دماءكم فكأنكم سفكتم دماء أنفسكم فهو من باب المجاز بأدنى ملابسة أو لانه يوجبه قصاصا فهو من باب اطلاق المسبب على السبب (ولا تخرجون أنفسكم من دياركم) أى لا يخرج بعضكم بعضا من داره وقيل لا تفعلوا شيأ فتخرجوا بسببه من دياركم والدار المنزل الذى فيه أبنية المقام بخلاف منزل الارتحال وقال الخليل كل موضع حله قوم فهو دار لهم وان لم يكن فيه أبنية وقيل سميت دارا لدورها على سكانها كما يسمى الحائط حائطا لاحاطته على ما يحويه (ثم أقررتم) من الاقرار أى حصل منكم الاعتراف بهذا الميثاق المأخوذ عليكم انه حق (وأنتم تشهدون) يا معشر اليهود الشهادة هنا بالقلوب وقيل هى بمعنى الحضور أى انكم الآن تشهدون على أسلافكم بذلك وعلى هذا اسناد الاقرار اليهم مجاز وكان الله سبحانه قد أخذ فى التوراة على بنى اسرائيل ان لا يقتل بعضهم بعضا ولا ينفيه ولا يسترقه (ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقا منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالاثم والعدوان) أى أنتم هؤلاء الحاضرون المشاهدون تخالفون ما أخذه الله عليكم فى التوراة وأصل المظاهرة المعاونة مشتقة من الظهر لأن بعضهم

لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا واياي فاتقون) يقول تعالى آمرا بني اسرائيل بالدخول في الاسلام
ومتابعة محمد عليه من الله أفضل الصلاة والسلام ومهيجا لهم بذكر أبيهم اسرائيل وهو نبي الله يعقوب عليه السلام وتقديره يا بني
العبد الصالح المطيع لله كونوا مثل أبيكم في متابعة الحق كما تقول يا ابن الكريم افعل كذا يا ابن الشجاع بارز الابطال يا ابن العالم
اطلب العلم ونحو ذلك ومن ذلك أيضا قوله تعالى ذرية من حملنا مع نوح انه كان عبدا شكورا فاسرائيل هو يعقوب بدليل ما رواه
أبو داود الطيالسي حدثنا عبد الحميد بن بهرام عن شهر بن حوشب قال حدثني عبد الله بن عباس قال حضرت عصابة من اليهود نبي
الله صلى الله عليه وسلم فقال لهم هل تعلمون ان اسرائيل يعقوب قالوا اللهم نعم فقال النبي صلى الله عليه وسلم اللهم

اشهد وقال الاعمش عن اسمعيل بن
رجاء عن عمير مولى ابن عباس عن
عبد الله بن عباس ان اسرائيل
كقولك عبد الله وقوله تعالى
واذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم
قال مجاهد نعمة الله التي أنعم بها
عليهم فيما سمى وفيما سوى ذلك
أن فجر لهم الحجر وأنزل عليهم المن
والسلوى ونجاهم من عبودية آل
فرعون وقال أبو العالية نعمته ان
جعل منهم الانبياء والرسل وأنزل
عليهم الكتب قلت وهذا كقول
موسى عليه السلام لهم يا قوم
اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم
اذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم
ملوكا وآتاكم ما لم يؤت أحدا من
العالمين يعني في زمانهم وقال محمد
ابن اسحق حدثني محمد بن أبي محمد
عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن
ابن عباس في قوله تعالى اذكروا
نعمتي التي أنعمت عليكم أي بلائي
عندكم وعند آبائكم لما كان
نجاهم به من فرعون وقومه وأوفوا
بعهدي أوف بعهدكم قال بعهدي
الذي أخذت في أعناقكم للنبي
صلى الله عليه وسلم اذا جاءكم أنجز
لكم ما وعدتكم عليه من تصديقه واتباعه بوضع ما كان عليكم من الآصار والاغلال التي كانت في أعناقكم والتي
بذنوبكم التي كانت من احداثكم وقال الحسن البصري هو قوله تعالى ولقد أخذ الله ميثاق بني اسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر
نقيبا وقال الله اني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وأقرضتم الله قرضا حسنا لأكفرن عنكم سيئاتكم
ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الانهار الآية وقال آخرون هو الذي أخذ الله عليهم في التوراة انه سيبعث من بني اسمعيل نبيا
عظيما يطيعه جميع الشعوب والمراد به محمد صلى الله عليه وسلم فمن اتبعه غفر الله له ذنبه وأدخله الجنة وجعل له أجرين وقد أورد
الرازي بشارات كثيرة عن الانبياء عليهم الصلاة والسلام بمحمد صلى الله عليه وسلم وقال أبو العالية وأوفوا بعهدي قال عهده الى

يقوي بعضا فيكون له كالظهير ومنه قوله تعالى وكان الكافر على ربه ظهيرا وقوله
والملائكة بعد ذلك ظهير والمعنى تتعاونون عليهم بالمعصية والظلم والاثم في الاصل الذنب
وجمعه آثام ويطلق على الفعل الذي يستحق به صاحبه الذم واللوم وقيل هو ما تنفر منه
النفس ولا يطمئن اليه القلب والآية تحتمل ما ذكرنا وتحتمل ان يتجوز به عما يوجب
الاثم اقامة للسبب مقام المسبب والعدوان التجاوز في الظلم وهو مصدر كالكفران
والغفران والمشهور ضم فائه وفيه لغة بالكسر (وان يأتوكم) أي الفريق الذي
تخرجونه من داره وقت الحرب حال كونه (أسارى) جمع أسير وهو من يؤخذ قهرا فعيل
بمعنى مفعول أو جمع أسرى وهو جمع أسير كجرحى وجريح وبه قرأ حمزة قال أبو حاتم ولا
يجوز أسارى وقال الزجاج يقال أسارى كما يقال سكارى قال ابن فارس يقال في جمع
أسير أسرى وأسارى انتهى فالعجب من أبي حاتم حيث ينكر ما ثبت في التنزيل وقرأ به
الجمهور والاسير مشتق من السير وهو القد الذي يشد به المحمل فسمي أسيرا لانه يشد وثاقه
ثم سمي كل أخيذ أسيرا وان لم يشد (تفادوهم) أي بالمال وهو استنقاذهم بالشراء وقيل
تبادلوهم وهو مفاداة الاسير والفداء هو ما يؤخذ من الاسير ليفك به أسره يقال فداه وفاداه
أعطى فداءه وأنقذه (وهو) ضمير الشأن ويسمى ضمير القصة ولا يرجع الا على ما بعده
وفائدته الدلالة على تعظيم المخبر عنه وتفخيمه (محرم عليكم اخراجهم) قال المفسرون كان
الله سبحانه قد أخذ على بني اسرائيل في التوراة أربعة عهود ترك القتل وترك الاخراج
وترك المظاهرة وفداء أسراهم فأعرضوا عن كل ما أمروا به الا الفداء فوبخهم الله على ذلك
بقوله (أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض) أي ان وجدتموهم في يد غيركم
فديتموهم وأنتم تقتلونهم بأيديكم فكان ايمانهم الفداء وكفرهم قتل بعضهم بعضا فذمهم
على مناقضة أفعالهم لانهم أتوا ببعض ما وجب عليهم وتركوا البعض وهذا هو مناط
التوبيخ حسب ما يفيده ترتيب النظم الكريم لأن من قضية الايمان ببعضه الايمان بالباقي
لكون الكل من عند الله داخلا في الميثاق (فما جزاء من يفعل ذلك منكم) يا معشر اليهود
(الا خزي في الحياة الدنيا) الخزي الهوان والعذاب وقد وقع هذا الجزاء الذي وعد الله به
الملاعين اليهود موفرا فصاروا في خزي عظيم بما ألصق بهم من الذل والمهانة بالاسر والقتل
وضرب الجزية والجلاء فكان خزي بني قريظة القتل والسبي وخزي بني النضير الاجلاء

عباده دين الاسلام وان يتبعوه وقال الضحاك عن ابن عباس أوف بعهدكم قال أرض عنكم وأدخلكم الجنة وكذا قال السدى والضحاك وأبو العالية والربيع بن أنس وقوله تعالى واياى فارهبون أى فاخشون قاله أبو العالية والسدى والربيع بن أنس وقتادة وقال ابن عباس فى قوله تعالى واياى فارهبون أى أن أنزل بكم ما أنزلت بمن كان قبلكم من آبائكم من النقمات التى قد عرفتم من المسخ وغيره وهذا انتقال من الترغيب الى الترهيب فدعاهم اليه بالرغبة والرهبة لعلهم يرجعون الى الحق واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم والاتعاظ بالقرآن وزواجره وامتثال أوامره وتصديق أخباره والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم ولهذا قال وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم يعنى به القرآن الذى أنزل على محمد صلى الله

عليه وسلم النبى الامى العربى بشيرا ونذيرا وسراجا منيرا مشتملا على الحق من الله تعالى مصدقا لما بين يديه من التوراة والانجيل قال أبو العالية رحمه الله فى قوله تعالى وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم يقول يا معشر أهل الكتاب آمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم يقول لأنهم يجدون محمدا صلى الله عليه وسلم مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل وروى عن مجاهد والربيع بن أنس وقتادة نحو ذلك وقوله ولا تكونوا أول كافر به قال بعض المعربين أول فريق كافر به أو نحو ذلك قال ابن عباس ولا تكونوا أول كافر به وعندكم فيه من العلم ما ليس عند غيركم قال أبو العالية يقول ولا تكونوا أول من كفر بمحمد صلى الله عليه وسلم يعنى من جنسكم أهل الكتاب بعد سماعكم بمبعثه وكذا قال الحسن والسدى والربيع بن أنس واختار ابن جرير أن الضمير فى قوله به عائد على القرآن الذى تقدم ذكره فى قوله بما أنزلت وكلا القولين صحيح لانهما متلازمان لأن من كفر بالقرآن فقد كفر بمحمد صلى الله عليه وسلم ومن كفر بمحمد صلى الله عليه وسلم فقد كفر بالقرآن وأما قوله أول كافر به فيعنى به أول من كفر به من بنى اسرائيل لانه قد تقدمهم من كفار قريش وغيرهم من العرب بشر كثير وانما المراد أول من كفر به من بنى اسرائيل مباشرة فان يهود المدينة أول بنى اسرائيل خوطبوا بالقرآن فكفرهم به يستلزم انهم أول من كفر به من جنسهم وقوله تعالى ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا يقول لا تعتاضوا عن الايمان بآياتى وتصديق رسولى بالدنيا وشهواتها فانها قليلة فانية كما قال عبد الله بن المبارك أنبأنا عبد الرحمن ابن زيد بن جابر عن هرون بن يزيد قال سئل الحسن يعنى البصرى عن قوله تعالى ثمنا قليلا قال الثمن القليل الدنيا بحذافيرها وقال ابن لهيعة حدثنى عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير فى قوله تعالى ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا ان آياته كتابه الذى أنزله اليهم

والنفى من منازلهم الى أريحا وأذرعات من أرض الشام (ويوم القيامة يردون الى أشد العذاب) يعنى النار لانهم جاؤا بذنب شديد ومعصية فظيعة وهذا اخبار من الله سبحانه بأن اليهود لا يزالون فى عذاب موفر لازم لهم بالجزية والصغار والذلة والمهانة (وما الله بغافل عما تعملون) فيه وعيد وتهديد عظيم (أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة) بأن آثروها عليها لأن الجمع بين لذات الدنيا والآخرة غير ممكن فمن اشتغل بتحصيل لذات الدنيا فاتته لذات الآخرة قال قتادة استحبوا قليل الدنيا على كثير الآخرة (فلا يخفف عنهم العذاب) أبدا ما داموا (ولاهم ينصرون) أى لا يمنعون من عذاب الله لا يوجد لهم ناصر يدفع عنهم ولا يثبت لهم نصر فى أنفسهم على عدوهم (ولقد آتينا موسى الكتاب) أى أعطيناه التوراة جملة واحدة مفصلة محكمة شروع فى بيان بعض آخر من جناياتهم وتصديره بالجملة القسمية لاظهار كمال الاعتناء به (وقفينا من بعده بالرسل) أى اتبعنا والتقفية الاتباع والارداف وهو أن يقفوا أثر الآخر مأخوذ من القفا وهو مؤخر العنق والمراد أن الله سبحانه أرسل على اثره رسلا جعلهم تابعين له وكانت الرسل من بعد موسى الى زمن عيسى متواترة يظهر بعضهم فى اثر بعض والشريعة واحدة وهم أنبياء بنى اسرائيل المبعوثون من بعده كالشموئيل بن بابل والياس ومنشائيل واليسع ويونس وزكريا ويحيى وشعياء وحزقيل وداود وسليمان وأرمياء وهو الخضر وعيسى بن مريم فهؤلاء الرسل بعثهم الله وانتخبهم من أمة موسى وأخذ عليهم ميثاقا غليظا أن يؤدوا الى أممهم صفة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وصفة أمته وكانوا يحكمون بشريعة موسى الى أن بعث الله عيسى فجاءهم بشريعة جديدة وغير بعض أحكام التوراة فذلك قوله (وآتينا عيسى بن مريم البينات) أى الدلالات الواضحات وهى الادلة التى ذكرها الله فى آل عمران والمائدة وهى الآيات التى وضع على يديه من احياء الموتى وابراء الاكمه والابرص وخلقه من الطين كهيئة الطير وابراء الأسقام والاخبار بكثير من الغيوب وما ورد عليه من التوراة والانجيل الذى أحدث الله اليه وقيل هى الانجيل واسم عيسى بالسريانية ايشوع ومريم بالسريانية بمعنى الخادم ثم سمى به فلذلك لم ينصرف وفى لسان العرب هى المرأة التى تكثر مخالطة الرجال قال أبو السعود وهو بالعبرية من النساء كالزير من الرجال ووزنه مفعل اذ لم يثبت فعيل ذكر السيوطى فى التحبير أن مدة ما بين موسى وعيسى ألف وتسعمائة

وان الثمن القليل الدنيا وشهواتها وقال السدى ولاتشتروا بآياتى ثمنا قليلا يقول لاتأخذوا طمعا قليلا ولاتكتموا اسم الله فذلك الطمع هو الثمن وقال أبو جعفر عن الربيع بن أنس عن أبى العالية فى قوله تعالى ولاتشتروا بآياتى ثمنا قليلا يقول لاتأخذوا عليه أجرا قال وهو مكتوب عندهم فى الكتاب الاول يا ابن آدم علم مجانا كما علمت مجانا وقيل معناه لاتعتاضوا عن البيان والايضاح ونشر العلم النافع فى الناس بالكتمان واللبس لتستمروا على رياستكم فى الدنيا القليلة الحقيرة الزائلة عن قريب وفى سنن أبى داود عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من تعلم علما مما يبتغى به وجه الله لايتعلمه الا ليصيب به عرضا من الدنيا لم يرح رائحة الجنة يوم القيامة فأما تعليم

العلم بأجرة فان كان قد تعين عليه فلا يجوز أن يأخذ عليه أجرة ويجوز أن يتناول من بيت المال مايقوم به حاله وعياله فان لم يحصل له منه شئ وقطعه التعليم عن التكسب فهو كما لم يتعين عليه واذا لم يتعين عليه فانه يجوز أن يأخذ عليه أجرة عند مالك والشافعى وأحمد وجمهور العلماء كما فى صحيح البخارى عن أبى سعيد فى قصة اللديغ ان أحق ما أخذتم عليه أجرا كتاب الله وقوله فى قصة المخطوبة زوجتكها بما معك من القرآن فاما حديث عبادة بن الصامت انه علم رجلا من أهل الصفة شيأ من القرآن فأهدى له قوسا فسأل عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ان أحببت أن تطوق بقوس من نار فاقبله فتركه رواه أبو داود وروى مثله عن أبى ابن كعب مرفوعا فان صح اسناده فهو محمول عند كثير من العلماء منهم أبو عمر بن عبد البر على انه لما علمه الله لم يجز بعد هذا ان يعتاض عن ثواب الله بذلك القوس فأما اذا كان من أول الامر على التعليم بالاجرة فانه يصح كما فى حديث اللديغ وحديث سهل فى المخطوبة والله أعلم وقوله واياى فاتقون قال ابن أبى حاتم حدثنا أبو عمرو الدورى حدثنا أبو اسمعيل المؤدب عن عاصم الاحول عن أبى العالية عن طلق بن حبيب قال التقوى أن تعمل بطاعة الله رجاء رحمة الله على نور من الله وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله ومعنى قوله واياى فاتقون انه تعالى يتوعدهم فيما يتعمدونه من كتمان الحق واظهار خلافه ومخالفتهم الرسول صلوات الله وسلامه عليه (ولاتلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين) يقول تعالى ناهيا لليهود عما كانوا يتعمدونه من تلبيس الحق بالباطل وتمويههم به وكتمانهم الحق واظهارهم الباطل ولاتلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون فنهاهم عن الشيئين معا وأمرهم باظهار الحق والتصريح به ولهذا

اجزد

سنة وخمس وعشرون سنة (وأيدناه بروح القدس) التأييد التقوية وروح القدس من اضافة الصفة الى الموصوف أى الروح المقدسة والقدس الطهارة والمقدس المطهر قيل هو جبريل قاله ابن مسعود أيد الله به عيسى وسمى جبريل روحا وأضيف الى القدس لانه كان تكوين الله له من غير ولادة وقيل القدس هو الله عز وجل وروحه جبريل وقيل المراد بروح القدس الاسم الذى كان يحيى به عيسى الموتى وهو اسم الله الاعظم وقيل المراد به الانجيل وقيل المراد به الروح المنفوخ فيه أيده الله به لما فيه من القوة وقد ثبت فى الصحيح ان النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال اللهم أيد حسان بروح القدس وكان جبريل يسير مع عيسى حيث سار فلم يفارقه حتى صعد به الى السماء وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة (أفكلما جاءكم رسول بما لاتهوى أنفسكم) أى بما لايوافقها ويلائمها وأصل الهوى الميل الى الشئ قال الجوهرى وسمى الهوى هوى لانه يهوى بصاحبه الى النار ويخهم الله سبحانه بهذا الكلام المعنون بهمزة التوبيخ (استكبرتم) عن اجابته احتقارا للرسل واستبعادا للرسالة والسين زائدة للمبالغة (ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون) الفاء للتفصيل ومن الفرق المكذبين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ومن الفرق المقتولين يحيى وزكريا عليهما الصلاة والسلام وسائر من قتلوه (وقالوا قلوبنا غلف) جمع أغلف المراد به هنا الذى عليه غشاوة تمنع من وصول الكلام اليه فلا يعى ولا يفقه قال فى الكشاف هو مستعار من الاغلف الذى لم يختن كقوله قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه وقيل ان الغلف جمع غلاف مثل حمار وحمر أى قلوبنا أوعية للعلم فما بالها لاتفهم عنك وقد وعينا علما كثيرا فنحن مستغنون بما عندنا عن غيره فرد الله عليهم ما قالوه فقال (بل لعنهم الله بكفرهم) أى طردهم وأبعدهم من كل خير وأصل اللعن فى كلام العرب الطرد والابعاد (فقليلا ما يؤمنون) وصف ايمانهم بالقلة لانهم الذين قص الله علينا من عنادهم وعجرفتهم وشدة لجاجهم وبعدهم من اجابة الرسل ما قصه ومن جملة ذلك انهم يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض وقال معمر المعنى لايؤمنون الا بقليل مما فى أيديهم ويكفرون بأكثره قال الواقدى معناه لايؤمنون قليلا ولا كثيرا قال الكسائى تقول العرب مررنا بأرض قلما تنبت الكراث والبصل أى لاتنبت شيأ وأخرج أحمد بسند جيد عن أبى سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم القلوب أربعة قلب

قال الضحاك عن ابن عباس ولا تلبسوا الحق بالباطل تخلطوا الحق بالباطل والصدق بالكذب وقال أبو العالية ولا تلبسوا الحق بالباطل يقول ولا تخلطوا الحق بالباطل وأدوا النصيحة لعباد الله من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ويروى عن سعيد بن جبير والربيع بن أنس نحوه وقال قتادة ولا تلبسوا الحق بالباطل قال ولا تلبسوا اليهودية والنصرانية بالاسلام وأنتم تعلمون ان دين الله الاسلام وأن اليهودية والنصرانية بدعة ليست من الله وروى عن الحسن البصري نحو ذلك وقال محمد بن اسحق حدثني محمد ابن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس وتكتموا الحق وأنتم تعلمون أي لا تكتموا ما عندكم من المعرفة برسولي وبما جاء به وأنتم تجدونه مكتوبا عندكم فيما تعلمون من الكتب التي بأيديكم (١٤٣) وروى عن أبي العالية نحو ذلك وقال مجاهد والسدي وقتادة والربيع ابن أنس وتكتموا الحق يعني محمدا صلى الله عليه وسلم قلت وتكتموا يحتمل أن يكون مجزوما ويحتمل أن يكون منصوبا أي لا تجمعوا بين هذا وهذا كما يقال لا تأكل السمك وتشرب اللبن قال الزمخشري وفي مصحف ابن مسعود وتكتمون الحق أي في حال كتمانكم الحق وأنتم تعلمون حال أيضا ومعناه وأنتم تعلمون الحق ويجوز أن يكون المعنى وأنتم تعلمون ما في ذلك من الضرر العظيم على الناس من اضلالهم عن الهدى المفضي بهم الى النار ان سلكوا ما تبدونه لهم من الباطل المشوب بنوع من الحق لتروجوه عليهم والبيان الايضاح وعكسه الكتمان وخلط الحق بالباطل وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين قال مقاتل قوله تعالى لأهل الكتاب وأقيموا الصلاة أمرهم ان يصلوا مع النبي صلى الله عليه وسلم وآتوا الزكاة أمرهم ان يؤتوا الزكاة أي يدفعونها الى النبي صلى الله عليه وسلم واركعوا مع الراكعين أمرهم ان يركعوا مع الراكعين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم يقول كونوا معهم ومنهم وقال علي بن طلحة عن ابن عباس يعني بالزكاة طاعة الله والاخلاص وقال وكيع عن أبي جناب عن عكرمة عن ابن عباس في قوله وآتوا الزكاة قال ما يوجب الزكاة قال مائتان فصاعدا وقال مبارك بن فضالة عن الحسن في قوله تعالى وآتوا الزكاة قال فريضة واجبة لا تنفع الاعمال الا بها وبالصلاة وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا عثمان بن أبي شيبة حدثنا جرير عن أبي حيان التيمي عن الحرث العكلي في قوله تعالى وآتوا الزكاة قال صدقة الفطر وقوله تعالى واركعوا مع الراكعين أي وكونوا مع المؤمنين في أحسن أعمالهم ومن أخص ذلك وأكمله الصلاة وقد استدل كثير من العلماء بهذه الآية على وجوب الجماعة وأبسط ذلك في كتاب الاحكام الكبير ان شاء الله تعالى وقد تكلم القرطبي

أجرد فيه مثل السراج يزهر وقلب أغلف مربوط على غلافه وقلب منكوس وقلب مصفح فاما القلب الاجرد فقلب المؤمن سراجه فيه نوره وأما القلب الاغلف فقلب الكافر وأما القلب المنكوس فقلب المنافق عرف ثم أنكر وأما القلب المصفح فقلب فيه ايمان ونفاق فمثل الايمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح فأي المادتين غلبت على الاخرى غلبت عليه وقال قتادة لا يؤمن منهم الا قليل لان من آمن من المشركين كان أكثر منهم وقيل فزمانا قليلا يؤمنون فهو على حد قوله آمنوا وجه النهار واكفروا آخره (ولما جاءهم) أي اليهود (كتاب من عند الله) هو القرآن (مصدق لما معهم) من التوراة والانجيل انه يخبرهم بما فيهما او يصدقه ولا يخالفه (وكانوا من قبل) مبعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم (يستفتحون) أي يستنصرون به والاستفتاح الاستنصار أي كانوا من قبل يطلبون من الله النصر على أعدائهم بالنبي المبعوث في آخر الزمان الذي يجدون صفته عندهم في التوراة وقيل الاستفتاح هنا بمعنى الفتح أي يخبرونهم بانه سيبعث ويعرفونهم بذلك (على الذين كفروا) يعني مشركي العرب وذلك انهم كانوا اذا أحزنهم أمر ودهمهم عدو يقولون اللهم انصرنا بالنبي المبعوث في آخر الزمان الذي نجد صفته في التوراة فكانوا ينصرون وكانوا يقولون لاعدائهم من المشركين قد أظل زمان نبي يخرج بتصديق ما قلنا فنقتلكم معه قتل عاد وارم (فلما جاءهم ما عرفوا) يعني محمدا صلى الله عليه وآله وسلم وعرفوا انه نبي من غير بني اسرائيل (كفروا به) أي جحدوه وأنكروه بغيا وحسدا (فلعنة الله على الكافرين) أي عليهم وضع الظاهر موضع المضمر للدلالة على ان اللعنة لحقتهم لكفرهم واستعلت عليهم وشملتهم واللام للعهد أو للجنس ودخلوا فيه دخولا أوليا (بئس ما اشتروا به أنفسهم) أي بئس الشيء وقال الفراء بئسما بجملته شيء واحد ركب كحبذا أي بئسما باعوا به حظ أنفسهم حين استبدلوا الباطل بالحق (أن يكفروا بما أنزل الله) يعني القرآن (بغيا) أي حسدا قال الاصمعي البغي مأخوذ من قولهم قد بغى الجرح اذا فسد وقيل أصله الطلب ولذلك سميت الزانية بغيا وهو علة لقوله يكفروا قاله القاضي وقال الزمخشري هو علة لقوله اشتروا وقوله الآتي ان ينزل علة لقوله بغيا أي لان ينزل والمعنى انهم باعوا أنفسهم بهذا الثمن البخس حسدا ومنافسة (أن ينزل الله من فضله) وليس بواجب عليه (على من يشاء من عباده فباؤا)

على مسائل الجماعة والامامة فاجاد (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون) يقول تعالى كيف يليق بكم يا معشر أهل الكتاب وأنتم تأمرون الناس بالبر وهو جماع الخير أن تنسوا أنفسكم فلا تأتمرون بما تأمرون الناس به وأنتم مع ذلك تتلون الكتاب وتعلمون ما فيه على من قصر في أوامر الله أفلا تعقلون ما أنتم صانعون بأنفسكم فتنتبهوا من رقدتكم وتتبصروا من عمايتكم وهذا كما قال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة في قوله تعالى أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم قال كان بنو اسرائيل يأمرون الناس بطاعة الله وبتقواه وبالبر ويخالفون فعيرهم الله عز وجل وكذلك قال السدي وقال ابن جريج أتأمرون الناس بالبر أهل (١٤٤) الكتاب والمنافقون كانوا يأمرون الناس بالصوم والصلاة ويدعون العمل بما يأمرون به الناس فعيرهم الله بذلك فمن أمر بخير فليكن أشد الناس فيه مسارعة وقال محمد بن اسحق عن محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس وتنسون أنفسكم أي تتركون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون أي تنهون الناس عن الكفر بما عندكم من النبوة والعهد من التوراة وتتركون أنفسكم اي وأنتم تكفرون بما فيها من عهدي اليكم في تصديق رسولي وتنقضون ميثاقي وتجحدون ما تعلمون من كتابي وقال الضحاك عن ابن عباس في هذه الآية يقول أتأمرون الناس بالدخول في دين محمد صلى الله عليه وسلم وغير ذلك مما أمرتم به من اقام الصلاة وتنسون أنفسكم وقال أبو جعفر ابن جرير حدثني علي بن الحسن حدثنا أسلم الحرمي حدثنا مخلد بن الحسين عن أيوب السختياني عن أبي قلابة في قول الله تعالى أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب قال أبو الدرداء رضي الله عنه لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يمقت الناس في ذات الله ثم يرجع الى نفسه فيكون لها أشد مقتا وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في هذه الآية هؤلاء اليهود اذا جاء الرجل سألهم عن الشيء ليس فيه حق ولا رشوة أمروه بالحق فقال الله تعالى أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون والغرض ان الله تعالى ذمهم على هذا الصنيع ونبههم على خطئهم في حق أنفسهم حيث كانوا يأمرون بالخير ولا يفعلونه وليس المراد ذمهم على أمرهم بالبر مع تركهم له بل على تركهم له فان الامر بالمعروف معروف وهو واجب على العالم ولكن الواجب والاولى بالعالم أن يفعله مع من أمرهم به ولا يتخلف عنهم كما قال شعيب عليه السلام وما أريد أن أخالفكم الى ما أنهاكم عنه ان أريد الا الاصلاح ما استطعت وما توفيقي الا بالله عليه توكلت واليه أنيب فكل

أي فرجعوا وصاروا أحقاء (بغضب على غضب) قيل الغضب الاول لعبادتهم العجل والثاني لكفرهم بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وقيل لكفرهم بعيسى عليه السلام والانجيل ثم لكفرهم بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم والقرآن وقيل لكفرهم بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ثم البغي عليه وقال ابن عباس الاول بتضييعهم التوراة وتبديلها والثاني بكفرهم بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وقيل غير ذلك والتنكير للتعظيم (وللكافرين عذاب مهين) ذو اهانة مأخوذ من الهوان قيل وهو ما اقتضى الخلود في النار (واذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله) وهو القرآن وقيل كل كتاب أي صدقوا بالقرآن أو صدقوا بما أنزل الله من الكتب (قالوا نؤمن بما أنزل علينا) أي التوراة (ويكفرون) الواو للحال (بما وراءه) أي بما سواه من الكتب قاله الفراء وبما بعده يعني الانجيل والقرآن قاله أبو عبيدة قال الجوهري وراء بمعنى خلف وقد يكون بمعنى قدام وامام فهي من الاضداد ومنه قوله تعالى وكان وراءهم ملك أي قدامهم وفي الموازنة للآمدي وراء ليست من الاضداد انما هو من المواراة والاستتار فما استتر عنك فهو وراء خلفا كان أو قداما اذا لم تره ولم تشاهده فاما اذا رأيته فلا يكون وراءك ومنه قوله تعالى وكان وراءهم ملك أي انه كان امامهم وصح ذلك لانهم لم يعاينوه ولم يشاهدوه انتهى قال الخفاجي وهذا ينافي قول البيضاوي ولذلك عد من الاضداد لان معناه انه لما أطلق على خلف وقدام وهما ضدان عد ضدا تسمحا على عادة أهل اللغة وان كان موضوعا لمعنى شامل لهما لانه مصدر بمعنى الستر فيهما لكنه قد يستعمل بمعنى الساتر وقد يستعمل بمعنى المستور ولذا قال في القاموس هو من الاضداد أولا وقيل انه مضاف الى الفاعل مطلقا لان الرجل يواري ما خلفه على من هو قدامه وما قدامه على من هو خلفه انتهى (وهو الحق) يعني القرآن (مصدقا لما معهم) يعني التوراة (قل) يا محمد (فلم تقتلون أنبياء الله من قبل ان كنتم مؤمنين) بالتوراة وقد نهيتم فيها عن قتل الانبياء وهذا تكذيب لهم لأن الايمان بالتوراة مناف لقتل أشرف خلقه وهذا الخطاب وان كان مع الحاضرين من اليهود فالمراد به أسلافهم ولكنهم لما كانوا يرضون بأفعال سلفهم كانوا مثلهم وفي الآية دليل على ان من رضي بالمعصية فكأنه فاعل لها (ولقد جاءكم موسى) هذا داخل تحت الامر السابق أي وقل لهم لقد جاءكم موسى والغرض منه بيان كذبهم هكذا أفاده البيضاوي وكثير من المفسرين

من الامر بالمعروف وفعله واجب لا يسقط أحدهما بترك الآخر على أصح قولي العلماء من السلف والخلف وذهب بعضهم الى أن مرتكب المعاصي لا ينهى غيره عنها وهذا ضعيف وأضعف منه تمسكهم بهذه الآية فانه لا حجة لهم فيها والصحيح أن العالم يأمر بالمعروف وان لم يفعله وينهى عن المنكر وان ارتكبه قال مالك عن ربيعة سمعت سعيد بن جبير يقول لو كان المرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى لا يكون فيه شئ ما أمر أحد بمعروف ولا نهى عن منكر قال مالك وصدق من ذا الذي ليس فيه شئ (قلت) لكنه والحالة هذه مذموم على ترك الطاعة وفعله المعصية لعلمه بها ومخالفته على بصيرة فانه ليس من يعلم كمن لا يعلم ولهذا جاءت الاحاديث في الوعيد على ذلك كما قال الامام أبو القاسم الطبراني (١٤٥) في معجمه الكبير حدثنا أحمد بن المعلى الدمشقي والحسن بن علي العمري قالا حدثنا هشام بن عمار حدثنا علي بن سليمان الكلبي حدثنا الاعمش عن أبي تميمة الهجيمي عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل العالم الذي يعلم الناس الخير ولا يعمل به كمثل السراج يضئ للناس ويحرق نفسه هذا حديث غريب من هذا الوجه حديث آخر قال الامام أحمد بن حنبل في مسنده حدثنا وكيع حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد هو ابن جدعان عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مررت ليلة أسري بي على قوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار قال قلت من هؤلاء قالوا خطباء أمتك من أهل الدنيا ممن كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون ورواه عبد ابن حميد في مسنده وتفسيره عن الحسن بن موسى عن حماد بن سلمة به ورواه ابن مردويه في تفسيره من حديث يونس بن محمد المؤدب والحجاج بن منهال كلاهما عن حماد بن سلمة به وكذا رواه يزيد بن هرون عن حماد بن سلمة به ثم قال ابن مردويه حدثنا محمد بن عبد الله بن ابراهيم حدثنا موسى بن هرون حدثنا اسحق بن ابراهيم التستري ببلخ حدثنا مكي بن ابراهيم حدثنا عمر بن قيس عن علي بن زيد عن ثمامة عن أنس قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول مررت ليلة أسري بي على أناس تقرض شفاههم وألسنتهم بمقاريض من نار قلت من هؤلاء يا جبريل قال هؤلاء خطباء أمتك الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وأخرجه ابن حبان في صحيحه وابن أبي حاتم وابن مردويه أيضا من حديث هشام الدستوائي عن المغيرة يعني ابن حبيب ختن مالك بن دينار عن مالك بن دينار عن ثمامة عن أنس بن مالك قال لما عرج برسول الله صلى الله عليه وسلم

المفسرين وفيه نظر أشار له أبو السعود (بالبينات) أي بالدلالات الواضحة والمعجزات الظاهرة والبينات يجوز أن يراد بها التوراة أو التسع الآيات المشار اليها بقوله تعالى ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ويجوز أن يراد بها الجميع (ثم اتخذتم العجل من بعده) أي من بعد النظر في تلك البينات أو من بعد موسى لما ذهب الى الميقات ليأتي بالتوراة (وأنتم ظالمون) أي حال كونكم ظالمين بهذه العبادة الصادرة منكم عنادا بعد قيام الحجة عليكم وانما كرره تبكيتا لهم وتأكيدا للحجة عليهم (واذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا) قد تقدم تفسير أخذ الميثاق ورفع الطور والامر بالسماع معناه الطاعة والقبول وليس المراد مجرد الادراك بحاسة السمع ومنه قولهم سمع الله لمن حمده أي قبل وأجاب (قالوا سمعنا) أي سمعنا قولك بحاسة السمع (وعصينا) يعني أمرك بقلوبنا أي لا نقبل ما تأمرنا به ويجوز أن يكونوا أرادوا بقولهم سمعنا ما هو معهود من تلاعبهم واستعمالهم المغالطة في مخاطبة أنبيائهم وذلك بأن يحملوا قوله تعالى اسمعوا على معناه الحقيقي أي السماع بالحاسة ثم أجابوا بقولهم سمعنا أي أدركنا ذلك بأسماعنا عملا بموجب ما تأمرنا به ولكنهم لما كانوا يعلمون ان هذا غير مراد الله عز وجل بل مراده بالأمر بالسماع الامر بالطاعة والقبول لم يقتصروا على هذه المغالطة بل ضموا الى ذلك ما هو الجواب عندهم فقالوا وعصينا (وأشربوا في قلوبهم العجل) أي تداخل حبه في قلوبهم ورسخ فيها صورته لفرط شغفهم به وحرصهم على عبادته كما يتداخل الصبغ الثوب والشراب أعماق البدن وفيه تشبيه بليغ أي جعلت قلوبهم لتمكن حب العجل منها كأنها تشرب به وانما عبر عن حب العجل بالشرب دون الاكل لأن شرب الماء يتغلغل في الاعضاء حتى يصل الى باطنها والطعام يجاوزها ولا يتغلغل فيها قال أبو السعود في قلوبهم بيان لمكان الاشراب كما في قوله تعالى انما يأكلون في بطونهم نارا والجملة حال من ضمير قالوا بتقدير قد انتهى قيل ان موسى أمر أن يبرد العجل ويذرى في النهر وأمرهم أن يشربوا منه فمن بقي في قلبه شئ من حب العجل ظهرت سحالة الذهب على شاربه وما أبعده والاشراب مخالطة المائع للجامد ثم اتسع فيه حتى قيل في الالوان نحو أشرب بياضه حمرة (بكفرهم) الباء السببية أي بسبب كفرهم السابق الموجب لذلك قيل كانوا مجسمة أو حلولية ولم يروا جسما أعجب منه فتمكن في قلوبهم ما سوّل لهم السامري (قل

مرّ بقوم تقرض شفاههم فقال يا جبريل من هؤلاء قال هؤلاء الخطباء من أمتك يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم أفلا يعقلون حديث آخر قال الامام أحمد حدثنا يعلى بن عبيد حدثنا الاعمش عن أبي وائل قال قيل لأسامة وأنا رديفه ألا تكلم عثمان فقال انكم ترون أني لا أكلمه الا أسمعكم اني لأكلمه فيما بيني وبينه مادون أن افتتح أمرا لا أحب أن أكون أول من افتتحه والله لا أقول لرجل انك خير الناس وان كان علي أميرا بعد أن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قالوا وما سمعته يقول قال سمعته يقول يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق به أقتابه فيدور بها في النار كما يدور الحمار برحاه فيطيف به أهل النار فيقولون يا فلان ما أصابك ألم تكن تأمرنا بالمعروف

وتنهانا عن المنكر فيقول كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه وأنهاكم عن المنكر وآتيه ورواه البخاري ومسلم من حديث سليمان بن مهران الاعمش به نحوه وقال أحمد حدثنا سيار بن حاتم حدثنا جعفر بن سليمان عن ثابت عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله يعافي الأميين يوم القيامة مالا يعافي العلماء وقد ورد في بعض الآثار انه يغفر للجاهل سبعين مرة حتى يغفر للعالم مرة واحدة ليس من يعلم كمن لا يعلم وقال تعالى قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون انما يتذكر أولوا الالباب وروى ابن عساكر في ترجمة الوليد ابن عقبة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان أناسا من أهل الجنة يطلعون على أناس من أهل النار فيقولون بم دخلتم النار فوالله ما دخلنا الجنة الا بما تعلمنا منكم فيقولون انا كنا نقول ولا نفعل ورواه ابن جرير الطبري عن أحمد ابن يحيى الخباز الرملي عن زهير بن عباد الرواسي عن أبي بكر الزاهري عن عبد الله بن حكيم عن اسمعيل بن أبي خالد عن الشعبي عن الوليد بن عقبة فذكره وقال الضحاك عن ابن عباس انه جاءه رجل فقال يا ابن عباس اني أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر قال أبلغت ذلك قال أرجو قال ان لم تخش أن تفتضح بثلاث آيات من كتاب الله فافعل قال وما هن قال قوله تعالى أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم أحكمت هذه قال لا قال فالحرف الثاني قال قوله تعالى لم تقولون مالا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون أحكمت هذه قال لا قال فالحرف الثالث قال قول العبد الصالح شعيب عليه السلام وما أريد أن أخالفكم الى ما أنهاكم عنه ان أريد الا الاصلاح أحكمت هذه الآية قال لا قال فابدأ بنفسك رواه ابن مردويه في تفسيره وقال الطبراني حدثنا عبدان بن أحمد حدثنا زيد بن الحرث حدثنا عبد الله بن خراش عن العوام بن حوشب عن المسيب بن رافع عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

بئسما يأمركم به ايمانكم) الذي زعمتم انكم تؤمنون بما أنزل عليكم وتكفرون بما وراءه فان هذا الصنع وهو قولكم سمعنا وعصينا في جواب ما أمرتم به في كتابكم وأخذ عليكم الميثاق به مناد عليكم بأبلغ نداء بخلاف ما زعمتم وكذلك ما وقع منكم من عبادة العجل ونزول حبه من قلوبكم منزلة الشراب هو من أعظم ما يدل على انكم كاذبون في قولكم نؤمن بما أنزل علينا الا صادقون فان زعمتم ان كتابكم الذي آمنتم به أمركم بهذا فبئس ما يأمركم به ايمانكم بكتابكم وفي هذا من التهكم مالا يخفى (ان كنتم مؤمنين) بزعمكم والمعنى لستم بمؤمنين لأن الايمان لا يأمر بعبادة العجل والمراد آباؤهم أي فكذلك لستم بمؤمنين بالتوراة وقد كذبتم محمدا والايمان بها لا يأمر بتكذيبه (قل ان كانت لكم الدار الآخرة عند الله) أي نعيمها لأن الدار الآخرة في الحقيقة هي انقضاء الدنيا وهي للفريقين وهذا رد عليهم لما ادعوا أنهم يدخلون الجنة ولا يشاركهم في دخولها غيرهم والزام لهم بما تبين به أنهم كاذبون في تلك الدعوى وأنها صادرة منهم لا عن برهان (خالصة) مصدر كالعافية والعاقبة وهو بمعنى الخلوص والمراد أنه لا يشاركهم فيها غيرهم اذا كانت اللام في قوله (من دون الناس) للجنس أو لا يشاركهم فيها المسلمون ان كانت اللام للعهد وهذا أرجح لقولهم في الآية الاخرى وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى وهو مؤكد له لأن دون تستعمل للاختصاص يقال هذا لي دونك أو من دونك أي لا حق لك فيه وقد تأتي في غير هذا للانتقاص في المنزلة أو المكان أو المقدار (فتمنوا الموت) أي فاطلبوه واسألوه وانما أمرهم بتمني الموت لأن من اعتقد أنه من أهل الجنة كان الموت أحب اليه من الحياة اذ لا سبيل الى دخولها الا بعد الموت ولما كان ذلك منهم مجرد دعوى أحجموا (ان كنتم صادقين) في قولكم ودعواكم ولهذا قال سبحانه (ولن يتمنوه أبدا) هو ظرف زمان يصدق بالماضي والمستقبل تقول ما فعلت أبدا ذكره السمين وقال هنا لن وفي الجمعة لا لان لن أبلغ في النفي من لا ودعواهم هنا بالغة قاطعة فناسب ذكر لن فيها ودعواهم في الجمعة قاصرة مردودة وهي زعمهم أنهم أولياء الله فناسب ذكر لا فيها (بما قدمت أيديهم) أي بما قدمته من الذنوب التي يكون فاعلها غير آمن من العذاب بل غير طامع في دخول الجنة فضلا عن كونها خالصة له مختصة به وانما أضاف العمل الى اليد لأن أكثر جنايات الانسان تكون من يده وقيل ان الله سبحانه صرفهم عن التمني ليجعل ذلك آية

من دعا الناس الى قول أو عمل ولم يعمل هو به لم يزل فى ظل سخط الله حتى يكف أو يعمل ما قال أو دعا اليه اسناده فيه ضعف وقال ابراهيم النخعى انى لأكره القصص لثلاث آيات قوله تعالى أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وقوله يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون وقوله اخبارا عن شعيب وما أريد أن أخالفكم الى ما أنهاكم عنه ان أريد الا الاصلاح ما استطعت وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب (واستعينوا بالصبر والصلاة وانها لكبيرة الا على الخاشعين الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم اليه راجعون) يقول تعالى آمرا عبيده فيما يؤملون من خير الدنيا والآخرة بالاستعانة بالصبر والصلاة كما قال مقاتل بن حيان فى تفسير هذه الآية (١٤٧) استعينوا على طلب الآخرة بالصبر على الفرائض والصلاة فأما الصبر فقيل انه الصيام نص عليه مجاهد قال القرطبى وغيره ولهذا يسمى رمضان شهر الصبر كما نطق به الحديث وقال سفيان الثورى عن أبى اسحق عن جرى بن كليب عن رجل من بنى سليم عن النبى صلى الله عليه وسلم قال الصوم نصف الصبر وقيل المراد بالصبر الكف عن المعاصى ولهذا قرنه بأداء العبادات وأعلاها فعل الصلاة قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا عبد الله بن حمزة بن اسمعيل حدثنا اسحق بن سليمان عن أبى سنان عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال الصبر صبران صبر عند المصيبة حسن وأحسن منه الصبر عن محارم الله قال وروى عن الحسن البصرى نحو قول عمر وقال ابن المبارك عن ابن لهيعة عن مالك بن دينار عن سعيد بن جبير قال الصبر اعتراف العبد لله بما أصيب فيه واحتسابه عند الله ورجاء ثوابه وقد يجزع الرجل وهو يتجلد لا يرى منه الا الصبر وقال أبو العالية فى قوله تعالى واستعينوا بالصبر والصلاة قال على مرضات الله واعلموا انها من طاعة الله وأما قوله والصلاة فان الصلاة من أكبر العون على الثبات فى الامر كما قال تعالى أتل ما أوحى اليك من الكتاب وأقم الصلاة ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر الآية وقال الامام أحمد حدثنا خلف بن الوليد حدثنا يحيى بن زكريا بن أبى زائدة عن عكرمة بن عمار عن محمد بن عبد الله الدؤلى قال قال عبد العزيز أخو حذيفة قال حذيفة يعنى ابن اليمان رضى الله عنه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا حزبه أمر صلى ورواه أبو داود عن محمد بن عيسى عن يحيى بن زكريا عن عكرمة بن عمار كما سيأتى وقد رواه ابن جرير من حديث ابن جريج عن عكرمة بن عمار عن محمد بن أبى عبيد بن أبى قدامة عن عبد العزيز بن اليمان عن حذيفة قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا حزبه أمر فزع الى الصلاة ورواه بعضهم عن

لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم والمراد بالتمنى هنا هو التلفظ بما يدل عليه لا مجرد خطوره بالقلب وميل النفس اليه فان ذلك لا يراد فى مقام المحاجة ومواطن الخصومة ومواقف التحدى وفى تركهم للتمنى أو صرفهم عنه معجزة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فانهم قد كانوا يسلكون من التحريف والتجرى على الله وعلى أنبيائه بالدعاوى الباطلة فى غير موطن ما قد حكاه عنهم التنزيل فلم يتركوا عادتهم هنا الا لما قد تقرر عندهم من أنهم اذا فعلوا ذلك التمنى نزل بهم الموت اما لامر قد علموه أو للصرفة من الله عز وجل وقد يقال قد ثبت النهى عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم عن تمنى الموت فكيف أمره الله أن يأمرهم بما هو منهى عنه فى شريعته ويجاب بأن المراد هنا الزامهم الحجة واقامة البرهان على بطلان دعواهم عن ابن عباس قال قال لهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان كنتم فى مقالتكم صادقين فقولوا اللهم أمتنا فوالذى نفسى بيده لا يقولها رجل منكم الا غص بريقه فمات مكانه وعنه لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ولرأوا مقاعدهم من النار (والله عليم بالظالمين) فيه تخويف وتهديد لهم وانما خصهم بالظلم لأنه أعم من الكفر لأن كل كافر ظالم وليس كل ظالم كافرا فلهذا كان أعم وكانوا أولى به (ولتجدنهم) اللام للقسم والنون للتأكيد أى والله لتجدنهم يا محمد وهذا أبلغ من قوله ولن يتمنوه أبدا (أحرص الناس على حياة) زيادة على عدم تمنى الموت والحرص أشد الطلب وتنكير حياة للتحقير أى أنهم أحرص الناس على حقير حياة وأقل لبث فى الدنيا فكيف بحياة كثيرة ولبث متطاول وقال فى الكشاف انه أراد بالتنكير حياة مخصوصة وهى الحياة المتطاولة وتبعه فى ذلك الرازى والخازن فى تفسيرهما (ومن الذين أشركوا) عطف على ما قبله بحسب المعنى كأنه قيل أحرص من الناس ومن الذين أشركوا ووجه ذكرهم بعد ذكر الناس مع كونهم داخلين فيهم للدلالة على مزيد حرص المشركين من العرب ومن شابههم من غيرهم فمن كان أحرص منهم وهم اليهود كان بالغا فى الحرص الى غاية لا يقادر قدرها وانما بلغوا فى الحرص الى هذا الحد الفاضل على حرص المشركين لانهم يعلمون بما يحل بهم من العذاب فى الآخرة بخلاف المشركين من العرب ونحوهم فانهم لا يقرون بذلك فكان حرصهم على الحياة دون حرص اليهود والاول وان كان فيه خروج من الكلام فى اليهود الى غيرهم من مشركى العرب لكنه أرجح لعدم استلزامه للتكلف ولا ضير فى استطراد ذكر

عبد العزيز بن أخي حذيفة ويقال أخو حذيفة مرسلا عن النبي صلى الله عليه وسلم وقال محمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة حدثنا سهل بن عثمان العسكري حدثنا يحيى بن زكريا بن أبي زائدة قال قال عكرمة بن عمار قال محمد بن عبد الله الدؤلي قال عبد العزيز قال حذيفة رجعت الى النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الاحزاب وهو مشتمل في شملة يصلي وكان اذا حزبه أمر صلى حدثنا عبد الله بن معاذ حدثنا أبي حدثنا شعبة عن أبي اسحق سمع حارثة بن مضرب سمع عليا رضي الله عنه يقول لقد رأيتنا ليلة بدر وما فينا الا نائم غير رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي ويدعو حتى أصبح قال ابن جرير وروي عنه عليه الصلاة والسلام انه مر بأبي هريرة وهو منبطح على بطنه فقال له اشكم درد (١٤٨) ومعناه أيوجعك بطنك قال نعم قال قم فصل فان الصلاة شفاء قال ابن جرير وقد حدثنا محمد بن الفضل ويعقوب ابن ابراهيم قالا حدثنا ابن علية حدثنا عيينة بن عبد الرحمن عن أبيه أن ابن عباس نعي اليه أخوه قثم وهو في سفر فاسترجع ثم تنحى عن الطريق فأناخ فصلى ركعتين أطال فيهما الجلوس ثم قام يمشي الى راحلته وهو يقول واستعينوا بالصبر والصلاة وانها لكبيرة الا على الخاشعين وقال سنيد عن حجاج عن ابن جريج واستعينوا بالصبر والصلاة قال انهما معونتان على رحمة الله والضمير في قوله وانها لكبيرة عائد الى الصلاة نص عليه مجاهد واختاره ابن جرير ويحتمل أن يكون عائدا على ما يدل عليه الكلام وهو الوصية بذلك كقوله تعالى في قصة قارون وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها الا الصابرون وقال تعالى ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم وما يلقاها الا الذين صبروا وما يلقاها الا ذو حظ عظيم أي وما يلقى هذه الوصية الا الذين صبروا وما يلقاها أي يؤتاها ويلهمها الا ذو حظ عظيم وعلى كل تقدير فقوله تعالى وانها لكبيرة أي مشقة ثقيلة الا على الخاشعين قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس يعني المصدقين بما أنزل الله وقال مجاهد المؤمنين حقا وقال أبو العالية الا على الخاشعين الخائفين وقال مقاتل بن حيان الا على الخاشعين يعني به المتواضعين وقال الضحاك وانها لكبيرة قال انها لثقيلة الا على الخاضعين لطاعته الخائفين سطوته المصدقين بوعده ووعيده وهذا يشبه ما جاء في الحديث لقد سألت عن عظيم وانه ليسير على من يسره الله عليه وقال ابن جرير معنى الآية واستعينوا أيها الاحبار من أهل الكتاب بحبس أنفسكم على طاعة الله وباقامة الصلاة المانعة من الفحشاء والمنكر المقربة من رضا الله العظيمة اقامتها الا على الخاشعين أي المتواضعين المستكينين لطاعته المتذللين

حرص المشركين بعد ذكر حرص اليهود وقال الرازي ان الثاني أرجح ليكون ذلك أبلغ في ابطال دعواهم وفي اظهار كذبهم في قولهم ان الدار الآخرة لنا لا لغيرنا انتهى ويجاب عنه بأن هذا الذي جعله مرجحا قد أفاده قوله تعالى ولتجدنهم أحرص الناس ولا يستلزم استئناف الكلام في المشركين أن لا يكونوا من جملة الناس (يود أحدهم) بيان لزيادة حرصهم على طريقة الاستئناف وهم المجوس أي يتمنى أحدهم (لو يعمر ألف سنة) أي تعمير ألف سنة وانما خص الالف بالذكر لان العرب كانت تذكر ذلك عند ارادة المبالغة ولانها نهاية العقود ولانها تحية المجوس فيما بينهم يقولون زي هزار سال أي عش ألف سنة أو ألف نيروز أو ألف مهرجان فهذه تحيتهم وهذا كناية عن الكثرة فليس المراد خصوص هذا العدد والمعنى أن اليهود أحرص من المجوس الذين يقولون ذلك (وما هو بمزحزحه) أي بمباعده قيل هو راجع الى أحدهم كما جرى عليه الجلال وعلى هذا يكون قوله أن يعمر فاعلا لمزحزحه وقيل هو لما دل عليه يعمر من مصدره أي وما التعمير بمزحزحه ويكون قوله أن يعمر بدلا منه وحكى الطبري عن فرقة أنها قالت هو عماد وقيل هو ضمير الشأن واليه نحا الفارسي تبعا للكوفيين وقيل ما تميمية وهو مبتدأ خبره بمزحزحه على زيادة الباء وقيل ما هي الحجازية والضمير اسمها وما بعده خبرها والاول أرجح وكذلك الثاني والثالث ضعيف جدا لأن العماد لا يكون الا بين شيئين ولهذا يسمونه ضمير الفصل والرابع فيه أن ضمير الشان يفسر بجملة سالمة عن حرف جر كما حكاه ابن عطية عن النحاة والزحزحة التنحية يقال زحزحته فتزحزح أي نحيته فتنحى وتباعد (من العذاب) من بمعنى عن أي النار (أن يعمر) أي لو عمر طول عمره لا ينقذه من العذاب (والله بصير بما يعملون) لا يخفى عليه خافية من أحوالهم (قل من كان عدوا لجبريل) أي بسبب نزوله بالقرآن المشتمل على سبهم وتكذيبهم هذه الآية قد أجمع المفسرون على أنها نزلت في اليهود قال ابن جرير الطبري وأجمع أهل التأويل جميعا أن هذه الآية نزلت جوابا على اليهود اذ زعموا أن جبريل عدو لهم وأن ميكائيل ولي لهم ثم اختلفوا ما كان سبب قولهم ذلك فقال بعضهم انما كان سبب قيلهم ذلك من أجل مناظرة جرت بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من أمر نبوته ثم ذكر روايات في ذلك وجبريل اسم ملك وهو أعجمي فلذلك لم ينصرف والقول باشتقاقه من جبروت الله بعيد لأن الاشتقاق لا يكون في الاسماء

من مخافته هكذا قال والظاهر أن الآية وان كانت خطابا في سياق انذار بني اسرائيل فانهم لم يقصدوا بها على سبيل التخصيص وانما هي عامة لهم ولغيرهم والله أعلم وقوله تعالى الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم اليه راجعون هذا من تمام الكلام الذي قبله أي ان الصلاة أو الوصاة لثقيلة الا على الخاشعين الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم أي يعلمون انهم محشورون اليه يوم القيامة معروضون عليه وانهم اليه راجعون أي أمورهم راجعة الى مشيئته يحكم فيها ما يشاء بعدله فلهذا لما أيقنوا بالمعاد والجزاء سهل عليهم فعل الطاعات وترك المنكرات فاما قوله يظنون أنهم ملاقوا ربهم قال ابن جرير رحمه الله العرب قد تسمي اليقين ظنا والشك ظنا نظير تسميتهم الظلمة سدفة والضياء سدفة والمغيث صارخا والمستغيث (١٤٩) صارخا وما أشبه ذلك من الاسماء التي يسمى بها الشيء وضده كما قال دريد ابن الصمة

فقلت لهم ظنوا بألفي مدجج
سراتهم في الفارسي المسرد

يعني بذلك تيقنوا بألفي مدجج يأتيكم وقال عمير بن طارق

فان يعبروا قومي وأقعد فيكم
وأجعل مني الظن غيبا مرجما

يعني وأجعل مني اليقين غيبا مرجما قال والشواهد من أشعار العرب وكلامها على أن الظن في معنى اليقين أكثر من أن تحصر وفيما ذكرنا لمن وفق لفهمه كفاية ومنه قول الله تعالى ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ثم قال ابن جرير حدثنا محمد بن بشار حدثنا أبو عاصم حدثنا سفيان عن جابر عن مجاهد كل ظن في القرآن يقين أي ظننت وظنوا وحدثني المثنى حدثنا اسحق حدثنا أبو داود الجبري عن سفيان عن ابن أبي نجيح عن مجاهد قال كل ظن في القرآن فهو علم وهذا سند صحيح وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية في قوله تعالى الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم قال الظن ههنا يقين قال ابن أبي حاتم وروى عن مجاهد والسدي والربيع بن أنس وقتادة نحو قول أبي العالية وقال سنيد عن حجاج عن ابن جريج الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم علموا أنهم ملاقوا ربهم كقوله اني ظننت أني ملاق حسابيه يقول علمت وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (قلت) وفي الصحيح ان الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة ألم أزوجك ألم أكرمك ألم أسخر لك الخيل والابل وأذرك ترأس وتربع فيقول بلى فيقول الله تعالى أظننت انك ملاقي فيقول لا فيقول الله اليوم أنساك كما نسيتني وسيأتي مبسوطا عند قوله تعالى نسوا الله فنسيهم ان شاء الله تعالى (يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين) يذكرهم تعالى بسالف نعمه على آبائهم وأسلافهم وما كان فضلهم به من ارسال الرسل منهم وانزال الكتب عليهم وعلى

الاعجمية وكذا قول من قال انه مركب تركيب الاضافة أو تركيب مزج نحو حضرموت وفيه ثلاث عشرة لغة أفصحها وأشهرها بزنة قنديل والضمير في قوله (فانه) يحتمل وجهين الاول أن يكون لله ويكون الضمير في قوله (نزله) لجبريل أي فان الله سبحانه نزل جبريل (على قلبك) وفيه ضعف كما يفيده قوله مصدقا لما بين يديه الثاني أنه لجبريل والضمير في قوله نزله للقرآن أي فان جبريل نزل القرآن على قلبك وخص القلب بالذكر لانه موضع العقل والعلم وخزانة الحفظ وبيت الرب وقد قيل انه في الدماغ (باذن الله) أي بعلمه وارادته وتيسيره وتسهيله وقال ابن الخطيب تفسير الاذن هنا بالامر أي بأمر الله أولى من تفسيره بالعلم لانه حقيقة في الامر مجاز في العلم ويجب الحمل على الحقيقة ما أمكن واذا كان نزوله باذن الله فلا وجه للعداوة وانما يكون لها وجه لو كان النزول برأيه (مصدقا لما بين يديه) هو التوراة كما سلف أو جميع الكتب المنزلة وفي هذا دليل على شرف جبريل وارتفاع منزلته وانه لا وجه لمعاداة اليهود له حيث كان منه ما ذكر من تنزيل الكتاب على قلبك أو من تنزيل الله له على قلبك وهذا وجه الربط بين الشرط والجواب أي من كان معاديا لجبريل منهم فلا وجه لمعاداته له فانه لم يصدر منه الا ما يوجب المحبة دون العداوة أو من كان معاديا له فان سبب معاداته أنه وقع منه ما يكرهونه من التنزيل وليس ذلك بذنب له وان كرهوه فان هذه الكراهة منهم له بهذا السبب ظلم وعدوان لان هذا الكتاب الذي نزل به هو مصدق لكتابهم وموافق له (وهدى وبشرى للمؤمنين) أي في القرآن هداية للمؤمنين الى الاعمال الصالحة التي يترتب عليها الثواب وبشرى لهم بثوابها اذا أتوا بها وعذاب وشدة على الكافرين ثم أتبع سبحانه هذا الكلام بجملة مشتملة على شرط وجزاء تتضمن الذم لمن عادى جبريل بذلك السبب والوعيد الشديد له فقال (من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكائيل) العداوة من العبد هي صدور المعاصي منه لله تعالى والبغض لأوليائه والعداوة من الله للعبد هي تعذيبه بذنبه وعدم التجاوز عنه والمغفرة له قال الكرماني قدم الملائكة على الرسل كما قدم الله على الجميع لأن عداوة الرسل بسبب نزول الكتب ونزولها بتنزيل الملائكة وتنزيلهم لها بأمر الله فذكر الله ومن بعده على هذا الترتيب وانما خص جبريل وميكائيل بعد ذكر الملائكة لقصد التشريف لهما والدلالة على فضلهما وأنهما وان كانا من الملائكة فقد صارا باعتبار

سائر الامم من أهل زمانهم كما قال تعالى ولقد اخترناهم على علم على العالمين وقال تعالى واذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم اذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين قال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية في قوله تعالى وأني فضلتكم على العالمين قال بما أعطوا من الملك والرسل والكتب على عالم من كان في ذلك الزمان فان لكل زمان عالما وروي عن مجاهد والربيع بن أنس وقتادة واسمعيل بن أبي خالد نحو ذلك ويجب الحمل على هذا لأن هذه الامة أفضل منهم لقوله تعالى خطابا لهذه الامة كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم وفي المسانيد (١٥٠) والسنن عن معاوية بن حيدة القشيري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله والاحاديث في هذا كثيرة تذكر عند قوله تعالى كنتم خير أمة أخرجت للناس وقيل المراد تفضيل بنوع ما من الفضل على سائر الناس ولا يلزم تفضيلهم مطلقا حكاه الرازي وفيه نظر وقيل انهم فضلوا على سائر الامم لاشتمال أمتهم على الانبياء منهم حكاه القرطبي في تفسيره وفيه نظر لان العالمين عام يشمل من قبلهم ومن بعدهم من الانبياء فابراهيم الخليل قبلهم وهو أفضل من سائر أنبيائهم ومحمد بعدهم وهو أفضل من جميع الخلق وسيد ولد آدم في الدنيا والآخرة صلوات الله وسلامه عليه (واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيأ ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون) لما ذكرهم تعالى بنعمه أولا عطف على ذلك التحذير من طول نقمه بهم يوم القيامة فقال واتقوا يوما يعني يوم القيامة لا تجزي نفس عن نفس شيأ أي لا يغني أحد عن أحد كما قال ولا تزر وازرة وزر أخرى وقال لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه وقال يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيأ فهذا أبلغ المقامات ان كلا من الوالد وولده لا يغني أحدهما عن الآخر شيأ وقوله تعالى ولا يقبل منها شفاعة يعني من الكافرين كما قال فما تنفعهم شفاعة الشافعين وكما قال عن أهل النار فما لنا من شافعين ولا صديق حميم وقوله تعالى لا يؤخذ منها عدل أي لا يقبل منها فداء كما قال تعالى ان الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الارض ذهبا ولو افتدى به وقال ان الذين كفروا لو أن لهم ما في الارض جميعا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم وقال تعالى وان تعدل كل عدل لا يؤخذ منها وقال فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هي مولاكم الآية فأخبر

ما لهما من المزية بمنزلة جنس آخر أشرف من جنس الملائكة تنزيلا للتغاير الوصفي منزلة التغاير الذاتي كما ذكره صاحب الكشاف وقرره علماء البيان وفي جبريل ثلاث عشرة لغة ذكرها ابن جرير الطبري وغيره وفي ميكائيل ست لغات وهما اسمان أعجميان قيل معناهما عبد الله لأن جبر وميك بالسريانية هو العبد والايل هو الله والعرب اذا نطقت بالعجمي تساهلت فيه وقال ابن جني خلطت فيه والاولى ما ذكرناه (فان الله عدو للكافرين) فاما عداوتهم لله فانها لا تضره ولا تؤثر وعداوته لهم تؤديهم الى العذاب الاليم الدائم الذي لا ضرر أعظم منه (ولقد أنزلنا اليك) يا محمد (آيات بينات) أي واضحات دالة على معانيها وعلى كونها من عند الله مفصلات بالحلال والحرام والحدود والاحكام أو علامات دالة على نبوتك (وما يكفر بها) أي ما يجحد بهذه الآيات (الا الفاسقون) اي الخارجون عن طاعتنا وما أمروا به والظاهر أن المراد جنس الفاسقين ويحتمل أن يراد اليهود لان الكلام معهم والاول أولى لانهم داخلون فيه دخولا أوليا (أو كلما عاهدوا عهدا) استفهام انكار (نبذه فريق) أصل النبذ الطرح والالقاء ومنه سمي اللقيط منبوذا ومنه سمي النبيذ وهو التمر والزبيب اذا طرحا في الماء وهو حقيقة في الاجرام واسناده الى العهد مجاز (منهم) يعني اليهود (بل أكثرهم لا يؤمنون) يعني كفر فريق منهم بنقض العهد وفريق منهم بالجحد للحق والمعنى على انكار اللياقة والمناسبة أي لا ينبغي منهم نبذ العهد كلما عقدوه (ولما جاءهم رسول من عند الله) يعني محمدا صلى الله عليه وآله وسلم هذا أشنع عليهم مما قبله (مصدق لما معهم) أي بصحة التوراة وأن التوراة بشرت بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم فلما بعث محمد صلى الله عليه وآله وسلم كان مجرد مبعثه مصدقا للتوراة فاتفقت التوراة والقرآن (نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب) أي اليهود (كتاب الله) أي التوراة قال السدي لما جاءهم صلى الله عليه وآله وسلم عارضوه بالتوراة فاتفقت التوراة والفرقان فنبذوا التوراة لموافقة القرآن لها وأخذوا بكتاب آصف وسحر هاروت وماروت فلم يوافق القرآن أولا لأنهم لما كفروا بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم وبما أنزل عليه بعد أن أخذ الله عليهم في التوراة الايمان به وتصديقه واتباعه وبين لهم صفته كان ذلك منهم نبذا للتوراة ونقضا لها ورفضا لما فيها ويجوز أن يراد بالكتاب هنا القرآن أي لما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم من التوراة نبذوا كتاب الله

تعالى أنهم ان لم يؤمنوا برسوله ويتابعوه على ما بعثه به ووافوا الله يوم القيامة على ما هم عليه فانه لا ينفعهم قرابة قريب ولا شفاعة ذي جاه ولا يقبل منهم فداء ولو بملء الارض ذهبا كما قال تعالى من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة وقال لا بيع فيه ولا خلال قال سنيد حدثني حجاج حدثني ابن جريج قال قال مجاهد قال ابن عباس ولا يؤخذ منها عدل قال بدل والبدل الفدية وقال السدي اما عدل فيعدلها من العدل يقول لو جاءت بملء الارض ذهبا تفتدي به ما تقبل منها وكذا قال عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية في قوله ولا يقبل منها عدل يعني فداء قال ابن أبي حاتم وروى عن أبي مالك والحسن وسعيد بن جبير وقتادة والربيع بن أنس نحو ذلك (١٥١) وقال عبد الرزاق أنبأنا الثوري عن الاعمش عن ابراهيم التيمي عن أبيه عن علي رضي الله عنه في حديث طويل قال والصرف والعدل التطوع والفريضة وكذا قال الوليد بن مسلم عن عثمان بن أبي العاتكة عن عمير بن هانئ وهذا القول غريب ههنا والقول الاول أظهر في تفسير هذه الآية وقد ورد حديث يقوّي به وهو ما قال ابن جرير حدثني نجيح بن ابراهيم حدثنا علي ابن حكيم حدثنا حميد بن عبد الرحمن عن أبيه عن عمرو بن قيس الملائي عن رجل من بني أمية من أهل الشام أحسن عليه الثناء قال قيل يا رسول الله ما العدل قال العدل الفدية وقوله تعالى ولا هم ينصرون أي ولا أحد يغضب لهم فينصرهم وينقذهم من عذاب الله كما تقدم من أنه لا يعطف عليهم ذو قرابة ولا ذو جاه ولا يقبل منهم فداء هذا كله من جانب التلطف ولا لهم ناصر من أنفسهم ولا من غيرهم كما قال فما له من قوة ولا ناصر أي أنه تعالى لا يقبل فيمن كفر به فدية ولا شفاعة ولا ينقذ أحدا من عذابه منقذ ولا يخلص منه أحد ولا يجير منه أحد كما قال تعالى وهو يجير ولا يجار عليه وقال فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد وقال ما لكم لا تناصرون بل هم اليوم مستسلمون وقال فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة بل ضلوا عنهم الآية وقال الضحاك عن ابن عباس في قوله تعالى ما لكم لا تناصرون ما لكم اليوم لا تمانعون منا هيهات ليس ذلك لكم اليوم قال ابن جرير وتأويل قوله ولا هم ينصرون يعني أنهم يومئذ لا ينصرهم ناصر كما لا يشفع لهم شافع ولا يقبل منهم عدل ولا فدية بطلت هنالك المحاباة واضمحلت الرشا والشفاعات وارتفع من القوم التناصر والتعاون وصار الحكم الى الجبار العدل الذي لا ينفع لديه الشفعاء والنصراء فيجزي بالسيئة مثلها وبالحسنة أضعافها وذلك نظير قوله تعالى وقفوهم انهم مسؤلون ما لكم لا تناصرون بل هم اليوم

الذي جاء به هذا الرسول والاول أولى لان النبذ لا يكون الا بعد التمسك والقبول ولم يتمسكوا بالقرآن (وراء ظهورهم) هذا مثل يضرب لمن يستخف بالشيء فلا يعمل به تقول العرب اجعل هذا خلف ظهرك ودبر أذنك وتحت قدمك أي اتركه وأعرض عنه (كأنهم لا يعلمون) تشبيه لهم بمن لا يعلم شيأ مع كونهم يعلمون علما يقينا من التوراة بما يجب عليهم من الايمان بهذا النبي ولكنهم لما لم يعملوا بالعلم بل عملوا عمل من لا يعلم من نبذ كتاب الله وراء ظهورهم كانوا بمنزلة من لا يعلم وهم علماء اليهود تجاهلوا وحملهم على ذلك عداوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وكانوا قليلا (واتبعوا) عطف على نبذ (ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان) يعني اليهود والتلاوة القراءة قال الزجاج على عهد سليمان وقيل المعنى في زمن ملكه وقيل في قصصه وصفاته وأخباره قال الفراء تصلح على وفي في هذا الموضع والاول أظهر وقيل يضمن تتلوا معنى تتقوّل أي تتقوّل على ملك سليمان وهذا أولى فان التجوز في الافعال أولى من التجوز في الحروف وقد كانوا يظنون أن هذا هو علم سليمان وانه يستجيزه ويقول به فرد الله ذلك عليهم وقال (وما كفر سليمان) يعني بالسحر ولم يعمل به وسليمان علم أعجمي فلذلك لم ينصرف وقال أبو البقاء فيه العجمة والتعريف والالف والنون وهذا انما يثبت اذا دخله الاشتقاق والتصريف وقد تقدم أنهما لا يدخلان في الاسماء الاعجمية وفيه تنزيه سليمان عن السحر ولم يتقدم أن أحدا نسب سليمان الى الكفر ولكن لما نسبته اليهود الى السحر صاروا بمنزلة من نسبه الى الكفر لان السحر يوجب ذلك وقالوا ان سليمان ملك الناس بالسحر ولهذا أثبت الله سبحانه كفر الشياطين فقال (ولكن الشياطين كفروا) أي بتعليمهم قرأ ابن عامر والكوفيون سوى عاصم ولكن بالتخفيف ورفع الشياطين والباقون بالتشديد والنصب عن ابن عباس قال ان الشياطين كانوا يسترقون السمع من السماء فاذا سمع أحدهم بكلمة حق كذب معها ألف كذبة فأشربتها قلوب الناس واتخذوها دواوين فأطلع الله على ذلك سليمان بن داود فأخذها فدفنها تحت الكرسي فلما مات سليمان قام شيطان بالطريق فقال ألا أدلكم على كنز سليمان الذي لا كنز لأحد مثل كنزه الممنع قالوا نعم فأخرجوه فاذا هو سحر فتناسختها الامم وأنزل الله عذر سليمان فيما قالوا من السحر فقال واتبعوا الآية أخرجه الحاكم وصححه وأخرج النسائي وابن أبي حاتم عنه قال كان آصف كاتب سليمان وكان يعلم

تستبلون (واذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم واذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون) يقول تعالى اذكروا يا بني اسرائيل نعمتي عليكم اذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب أي خلصتكم منهم وأنقذتكم من أيديهم صحبة موسى عليه السلام وقد كانوا يسومونكم أي يوردونكم ويذيقونكم ويولونكم سوء العذاب وذلك ان فرعون لعنه الله كان قد رأى رؤيا هالته رأى نارا خرجت من بيت المقدس فدخلت بيوت القبط ببلاد مصر الا بيوت بني اسرائيل مضمونها أن زوال ملكه يكون على يدي رجل من بني اسرائيل ويقال بعد تحدث (١٥٢) سماره عنده بأن بني اسرائيل يتوقعون خروج رجل منهم يكون لهم به دولة ورفعة وهكذا جاء في حديث الفتون كما سيأتي في موضعه في سورة طه ان شاء الله تعالى فعند ذلك أمر فرعون لعنه الله بقتل كل ذكر يولد بعد ذلك من بني اسرائيل وان تترك البنات وأمر باستعمال بني اسرائيل في مشاق الاعمال وأرذلها وههنا فسر العذاب بذبح الابناء وفي سورة ابراهيم عطف عليه كما قال يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وسيأتي تفسير ذلك في أول سورة القصص ان شاء الله تعالى وبه الثقة والمعونة والتأييد ومعنى يسومونكم يولونكم قاله أبو عبيدة كما يقال سامه خطة خسف اذا أولاه اياها قال عمرو بن كلثوم

اذا ما الملك سام الناس خسفا
أبينا أن نقر الخسف فينا

وقيل معناه يديمون عذابكم كما يقال سائمة الغنم من ادامتها الرعي نقله القرطبي وانما قال ههنا يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم ليكون ذلك تفسيرا للنعمة عليهم في قوله يسومونكم سوء العذاب ثم فسره بهذا لقوله ههنا واذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأما في سورة ابراهيم فلما قال وذكرهم بأيام الله أي بأياديه ونعمه عليهم فناسب ان يقول هنالك يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم فعطف عليه الذبح ليدل على تعدد النعم والايادي على بني اسرائيل وفرعون علم على كل من ملك مصر كافرا من العماليق وغيرهم كما أن قيصر علم على كل من ملك الروم مع الشام كافرا وكسرى لمن ملك الفرس وتبع لمن ملك اليمن كافرا والنجاشي لمن ملك الحبشة وبطليموس لمن ملك الهند ويقال كان اسم فرعون الذي كان في زمن موسى عليه السلام الوليد بن مصعب بن الريان وقيل مصعب بن الريان فكان من سلالة عمليق بن الأود بن ارم بن سام بن نوح وكنيته أبو مرة وأصله فارسي من اصطخر وأياما كان فعليه لعنة الله وقوله تعالى

الاسم الاعظم وكان يكتب كل شيء يأمر سليمان ويدفنه تحت كرسيه فلما مات سليمان أخرجته الشياطين فكتبوا بين كل سطرين سحرا وكفرا وقالوا هذا الذي كان سليمان يعمل به فاكفره جهال الناس وسبوه ووقف علماؤهم فلم يزل جهالهم يسبونه حتى أنزل الله على محمد صلى الله عليه وآله وسلم واتبعوا الآية (يعلمون الناس السحر) وهو ما يفعله الساحر من الحيل والتخييلات التي يحصل بسببها للمسحور ما يحصل من الخواطر الفاسدة الشبيهة بما يقع لمن يرى السراب فيظنه ماء وما يظنه راكب السفينة أو الدابة من أن الجبال تسير وهو مشتق من سحرت الصبي اذا خدعته وقيل أصله الخفاء فان الساحر يفعله خفية وقيل أصله الصرف لان السحر مصروف عن جهته وقيل أصله الاستمالة لان من سحرك استمالك وقال الجوهري السحر الاخذة وكل ما لطف مأخذه ودق فهو سحر والساحر العالم وقال الغزالي السحر نوع يستفاد من العلم بخواص الجواهر وبأمور حسابية في مطالع النجوم فيتخذ من تلك الخواص هيكل على صورة الشخص المسحور ويترصد له وقت مخصوص من المطالع وتقرن به كلمات يتلفظ بها من الكفر والفحش المخالف للشرع ويتوصل بسببها الى الاستغاثة بالشياطين وتحصل من مجموع ذلك بحكم اجراء الله العادة أحوال غريبة في الشخص المسحور انتهى وقد ذكر أبو السعود أنواعا من السحر فليرجع اليه وقد اختلف هل له حقيقة أم لا فذهبت المعتزلة وأبو حنيفة الى أنه خدع لا أصل له ولا حقيقة وذهب من عداهم الى أن له حقيقة مؤثرة وقد صح أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم سحر سحره لبيد بن الاعصم اليهودي حتى كان يخيل اليه أنه يأتي الشيء ولم يكن قد أتاه ثم شفاه الله سبحانه والكلام في ذلك يطول وعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم السحر من الكبائر وثناه بالشرك كما في الصحيحين (و) أي ويعلمون الناس (ما أنزل على الملكين) فهو معطوف على السحر والمراد بهما واحد والعطف لتغاير الاعتبار أو هو نوع أقوى منه أو على ما تتلو وما بينهما اعتراض أي واتبعوا ما أنزل الخ قال السدي هذا سحر آخر خاصموه به فان كلام الملائكة فيما بينهم اذا علمته الانس فصنع وعمل به كان سحرا (ببابل) أي في بابل وهو اسم أرض أو بلد في سواد العراق أو أرض الكوفة قاله ابن مسعود وقيل جبل دماوند وقيل نهاوند وقيل نصيبين وقيل المغرب ومنع الصرف للعجمة والعلمية أو للتأنيث والعلمية سميت بذلك لتبلبل ألسنة الخلائق بها والبلبلة

التفرقة

وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم قال ابن جرير وفي الذي فعلنا بكم من انجائنا آباءكم مما كنتم فيه من عذاب آل فرعون بلاء لكم
من ربكم عظيم أي نعمة عظيمة عليكم في ذلك وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله تعالى بلاء من ربكم عظيم قال نعمة وقال
مجاهد بلاء من ربكم عظيم قال نعمة من ربكم عظيمة وكذا قال ابو العالية وأبو مالك والسدي وغيرهم وأصل البلاء الاختبار وقد
يكون بالخير والشر كما قال تعالى ونبلوكم بالشر والخير فتنة وقال وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون قال ابن جرير
وأكثر ما يقال في الشر بلوته أبلوه بلاء وفي الخير أبليه ابلاء وبلاء قال زهير بن أبي سلمى

جزى الله بالاحسان ما فعلا بكم ... وأبلاهما خير البلاء الذي يبلو

قال فجمع بين اللغتين لانه أراد فانعم الله عليهما خير النعم التي يختبر بها عباده وقيل المراد بقوله وفي ذلكم بلاء اشارة الى ما كانوا فيه من العذاب المهين من ذبح الابناء واستحياء النساء قال القرطبي وهذا قول الجمهور ولفظه بعدما حكى القول الاول ثم قال وقال الجمهور الاشارة الى الذبح ونحوه والبلاء ههنا في الشر والمعنى وفي الذبح مكروه وامتحان وقوله تعالى واذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون معناه وبعد أن أنقذناكم من آل فرعون وخرجتم مع موسى عليه السلام خرج فرعون في طلبكم ففرقنا بكم البحر كما أخبر تعالى عن ذلك مفصلا كما سيأتي في مواضعه ومن أبسطها في سورة الشعراء ان شاء الله فأنجيناكم أي خلصناكم منهم وحجزنا بينكم وبينهم وأغرقناهم وأنتم تنظرون ليكون ذلك أشفى لصدوركم وأبلغ في اهانة عدوكم قال عبد الرزاق أنبأنا معمر

 عن أبي اسحق الهمداني عن عمرو بن ميمون الاودي في قوله تعالى واذ فرقنا بكم البحر الى قوله وأنتم
تنظرون قال لما خرج موسى ببني اسرائيل بلغ ذلك فرعون فقال لا تتبعوهم حتى تصيح الديكة قال فوالله ما صاح ليلتئذ ديك حتى
أصبحوا فدعا بشاة فذبحت ثم قال لا أفرغ من كبدها حتى يجتمع الي ستمائة ألف من القبط فلم يفرغ من كبدها حتى اجتمع اليه
ستمائة ألف من القبط فلما أتى موسى البحر قال له رجل من أصحابه يقال له يوشع بن نون أين أمر ربك قال أمامك يشير الى البحر
فاقحم يوشع فرسه في البحر حتى بلغ الغمر فذهب به الغمر ثم رجع فقال أين أمر ربك يا موسى فوالله ما كذبت ولا كذبت ففعل

التفرقة وقيل ان ما في قوله وما أنزل على الملكين نافية والواو عاطفة على قوله وما كفر
سليمان وفي الكلام تقديم وتأخير والتقدير وما كفر سليمان وما أنزل على الملكين
ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل (هاروت وماروت) فهاروت
وماروت بدل من الشياطين على قراءة التشديد والنصب في قوله ولكن الشياطين كفروا
ذكر هذا ابن جرير وأما على قراءة التخفيف والرفع فهو منصوب على الذم وهو بدل بعض
ومن فسرهما بقبيلتين من الجن يكون عنده بدل كل وقال ابن جرير فان قال لنا القائل
وكيف وجه تقديم ذلك قيل تقديمه ان يقال واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان
وما كفر سليمان وما أنزل الله على الملكين ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر
ببابل هاروت وماروت فيكون معنيا بالملكين جبريل وميكائيل لان سحرة اليهود فيما
ذكرت كانت تزعم أن الله أنزل السحر على لسان جبريل وميكائيل الى سليمان بن داود
فأكذبهم الله بذلك وأخبر نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ان جبريل وميكائيل لم ينزلا بسحر
وبرأ سليمان مما نحلوه من السحر وأخبرهم ان السحر من عمل الشياطين وانها تعلم الناس
ذلك ببابل وان الذي يعلمونهم ذلك رجلان أحدهما هاروت والآخر ماروت فيكون
هاروت وماروت على هذا التأويل ترجمة عن الناس وردا عليهم انتهى يعني انه بدل من
الناس أي يعلمان الناس خصوصا هاروت وماروت وقال القرطبي في تفسيره بعد ان
حكى معنى هذا الكلام ورجح ان هاروت وماروت بدل من الشياطين ما لفظه هذا أولى
ما حملت عليه الآية وأصح ما قيل فيها ولا يلتفت الى سواه فالسحر من استخراج الشياطين
للطافة جوهرهم ودقة أفهامهم وأكثر ما يتعاطاه من الانس النساء وخاصة في حال طمثهن
قال الله ومن شر النفاثات في العقد ثم قال ان قيل كيف يكون اثنان بدلا من جمع والبدل
انما يكون على حد المبدل منه ثم أجاب عن ذلك بان الاثنين قد يطلق عليهما الجمع أو انهما
خصا بالذكر دون غيرهما لتمردهما ويؤيد هذا انه قرأ ابن عباس والضحاك والحسن
الملكين بكسر اللام ولعل وجه الجزم بهذا التأويل مع بعده وظهور تكلفه تنزيه الله
سبحانه ان ينزل السحر الى أرضه فتنة لعباده على ألسن ملائكته وعندي انه لا موجب
لهذا التعسف المخالف لما هو الظاهر فان لله سبحانه ان يمتحن عباده بما شاء كما امتحن
بنهر طالوت ولهذا يقول الملكان انما نحن فتنة ويؤيده ما قال أبو السعود ان مقام وصف

ذلك ثلاث مرات ثم أوحى الله الى موسى أن اضرب بعصاك البحر فضربه فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم يقول مثل الجبل ثم سار موسى ومن معه واتبعهم فرعون فى طريقهم حتى اذا تتاموا فيه أطبقه الله عليهم فلذلك قال وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون وكذلك قال غير واحد من السلف كما سيأتى بيانه فى موضعه وقد ورد أن هذا اليوم كان يوم عاشوراء كما قال الامام أحمد حدثنا عفان حدثنا عبد الوارث حدثنا أيوب عن عبد الله بن سعيد بن جبير عن أبيه عن ابن عباس قال قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة فرأى اليهود يصومون يوم عاشوراء فقال ما هذا اليوم الذى تصومون قالوا هذا يوم صالح هذا يوم نجى الله عز وجل فيه بنى اسرائيل من عدوهم فصامه موسى عليه السلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا أحق بموسى منكم فصامه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر بصومه وروى هذا الحديث البخارى ومسلم والنسائى وابن ماجه من طرق عن أيوب السختيانى به نحو ما تقدم وقال أبو يعلى الموصلى حدثنا أبو الربيع حدثنا سلام يعنى ابن سليم عن زيد العمى عن يزيد الرقاشى عن أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال فلق الله البحر لبنى اسرائيل يوم عاشوراء وهذا ضعيف من هذا الوجه فان زيدا العمى فيه ضعف وشيخه يزيد الرقاشى أضعف منه

(واذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون واذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون) يقول تعالى واذكروا نعمتى عليكم فى عفوى عنكم لما عبدتم العجل بعد ذهاب موسى لميقات ربه عند انقضاء أمد المواعدة وكانت أربعين يوما وهى المذكورة فى الاعراف فى قوله تعالى وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر قيل انها ذو القعدة بكماله وعشر من ذى الحجة وكان ذلك بعد خلاصهم من فرعون وانجائهم من البحر وقوله تعالى واذ آتينا موسى الكتاب يعنى التوراة والفرقان وهو ما يفرق بين الحق والباطل والهدى والضلالة لعلكم تهتدون وكان ذلك أيضا بعد خروجهم من البحر كما دل عليه سياق الكلام فى سورة الاعراف ولقوله تعالى ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الاولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون وقيل الواو زائدة والمعنى ولقد آتينا موسى الكتاب الفرقان وهذا غريب وقيل عطف عليه وان

الشياطين بالكفر واضلال الناس بما لا تبلغه وصف رؤساءهم ثم ذكر من النهى عن الكفر مع ما فيه من الاخلال بنظام الكلام فان الابدال فى حكم تنحية المبدل منه وقال هاروت وماروت عطف بيان للملكين علمان لهما وقرئ بالرفع على هما هاروت وماروت انتهى المراد منه قال ابن جرير وذهب كثير من السلف الى انهما كانا ملكين من السماء وأنهما أنزلا الى الارض فكان من أمرهما ما كان وكان عبد الرحمن بن أبزى يقرؤها وما أنزل على الملكين داود وسليمان وقال الضحاك هما علجان من أهل بابل وهاروت وماروت اسمان أعجميان لا ينصرفان وهما اسم بابان ويجمعان على هوارية وهوارية وموارية وموار وليس من زعم اشتقاقهما من الهرت والمرت وهو الكسر بمصيب لعدم انصرافهما ولو كانا مشتقين كما ذكره لانصرفا أخرج البيهقى فى شعب الايمان من حديث ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أشرفت الملائكة على الدنيا فرأت بنى آدم يعصون فقالت يا رب ما أجهل هؤلاء وما أقل معرفة هؤلاء بعظمتك فقال الله لو كنتم فى مسلاخهم لعصيتمونى قالوا كيف يكون هذا ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال فاختاروا منكم ملكين فاختاروا هاروت وماروت ثم أهبطا الى الارض وركبت فيهما شهوات بنى آدم ومثلت لهما امرأة فما عصما حتى وقعا بالمعصية فقال الله اختارا عذاب الدنيا أو عذاب الآخرة فنظر أحدهما لصاحبه قال ما تقول قال أقول ان عذاب الدنيا ينقطع وان عذاب الآخرة لا ينقطع فاختارا عذاب الدنيا فهما اللذان ذكرهما الله فى كتابه وما أنزل على الملكين الآية وقد رويت هذه القصة عن ابن عمر باسناد طرق فى بعضها انه روى ذلك ابن عمر عن كعب الاحبار كما أخرجه جماعة من أهل الاثر وأخرج الحاكم وصححه عن على بن أبى طالب ان هذه الزهرة تسميها العرب الزهرة والعجم أناهيد قال ابن كثير وهذا الاسناد رجاله ثقات وهو غريب جدا وعن ابن عباس الزهرة امرأة وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عنه ان المرأة التى فتن بها الملكان مسخت فهى هذه الكوكبة الحمراء يعنى الزهرة وقيل وكانت من لخم أو من أهل فارس ملكة فى بلدها وكانت من أجمل النساء فمسخها الله كوكبا وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه والبيهقى فى الشعب عنه ذكر قصة طويلة وفيها التصريح بان الملكين شربا الخمر وزنيا بالمرأة وقتلا وعن ابن مسعود قال انها أنزلت اليهما الزهرة فى صورة

كان المعنى واحدا كما فى قول الشاعر وقددت الاديم لراقشيه * فالفى قولها كذبا ومينا وقال الآخر
ألا حبذا هند وأرض بها هند * وهند أتى من دونها النأى والبعد فالكذب هو المين والناى هو البعد وقال عنترة
حييت من طلل تقادم عهده * أقوى وأقفر بعد أم الهيثم فعطف الاقفار على الاقواء وهو هو (واذ قال موسى لقومه ياقوم
انكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا الى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم انه هو التواب
الرحيم) هذه صفة توبته تعالى على بنى اسرائيل من عبادة العجل قال الحسن البصرى رحمه الله فى قوله تعالى واذ
قال موسى لقومه ياقوم انكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فقال ذلك حين وقع فى قلوبهم من شأن عبادتهم العجل ماوقع حتى قال الله تعالى ولما سقط فى أيديهم ورأوا انهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا الآية قال فذلك حين يقول موسى ياقوم انكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل وقال أبو العالية وسعيد بن جبير والربيع ابن أنس فتوبوا الى بارئكم أى الى خالقكم قلت وفى قوله ههنا الى بارئكم تنبيه على عظم جرمهم أى فتوبوا الى الذى خلقكم وقد عبدتم معه غيره وقد روى النسائى وابن جرير وابن أبى حاتم من حديث يزيد بن هرون عن الاصبغ بن زيد الوراق عن القاسم بن أبى أيوب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال فقال الله تعالى ان توبتهم أن يقتل كل واحد منهم من لقى من والد وولد فيقتله بالسيف ولا يبالى من قتل فى ذلك الموطن فتاب أولئك الذين كانوا خفى على موسى وهرون مااطلع الله على ذنوبهم فاعترفوا بها وفعلوا ماأمروا به فغفر الله
للقاتل والمقتول وهذا قطعة من حديث الفتون وسيأتى فى سورة طه بكماله ان شاء الله وقال ابن جرير حدثنى عبد الكريم بن الهيثم
حدثنا ابراهيم بن بشار حدثنا سفيان بن عيينة قال قال أبو سعيد عن عكرمة عن ابن عباس قال قال موسى لقومه توبوا الى بارئكم
فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم انه هو التواب الرحيم قال أمر موسى قومه عن أمر ربه عز وجل أن
يقتلوا أنفسهم قال وأخبر الذين عبدوا العجل فجلسوا وقام الذين لم يعكفوا على العجل فأخذوا الخناجر بأيديهم وأصابتهم ظلمة
شديدة فجعل يقتل بعضهم بعضا فانجلت الظلمة عنهم وقد جلوا عن سبعين ألف قتيل كل من قتل منهم كانت له توبة وكل من بقى كانت له

امرأة وانهما وقعا فى الخطيئة وقد روى فى هذا الباب قصص طويلة وروايات مختلفة استوفاها السيوطى فى الدر المنثور وذكر ابن كثير فى تفسيره بعضها ثم قال وقد روى فى قصة هاروت وماروت عن جماعة من التابعين كمجاهد والسدى والحسن البصرى وقتادة وأبى العالية وغيرهم وقصها خلق من المفسرين من المتقدمين والمتأخرين وحاصلها راجع فى تفصيلها الى أخبار بنى اسرائيل اذ ليس فيها حديث مرفوع متصل الاسناد الى الصادق المصدوق المعصوم الذى لا ينطق عن الهوى وظاهر سياق القرآن اجمال القصة من غير بسط ولا اطناب فيها فنحن نؤمن بما ورد فى القرآن على ماأراده الله تعالى والله تعالى أعلم انتهى وقال أبو السعود هما معذبان ببابل قيل معلقان بشعورهما وقيل منكوسان يضربان بسياط الحديد الى قيام الساعة وهذا مما لا تعويل عليه لما أن مداره رواية اليهود مع مافيه من المخالفة لادلة العقل والنقل انتهى ومثله فى الخازن ونحوه فى المظهرى وهذا القول يقتضى ان هذه القصة غير صحيحة وانها لم تثبت بنقل معتبر وتبع أبو السعود فى ذلك البيضاوى التابع فى ذلك للفخر الرازى والسعد التفتازانى وغيرهما ممن أطال فى ردها لكن قال الشيخ زكريا الانصارى الحق ماأفاده شيخنا حافظ عصره الشهاب ابن حجر ان لها طرقا تفيد العلم بصحتها فقد رواها مرفوعة الامام أحمد وابن حبان والبيهقى وغيرهم وموقوفة على على وابن مسعود وابن عباس وغيرهم بأسانيد صحيحة قال الخفاجى قال المحدثون وجميع رجاله غير موثوق بهم لكن قال خاتمة الحفاظ الشهاب ابن حجر ان له طرقا كثيرة جمعتها فى جزء مفرد يكاد الواقف عليها يقطع بصحتها لكثرتها وقوة مخارجها وقال بعضهم بلغت طرقه نيفا وعشرين انتهى قلت والبيضاوى لما استبعد هذا المنقول ولم يطلع عليه قال انه محكى عن اليهود ولعله من رموز الاولين ذكره الخطيب وكذا أهل الكلام طعنوا فى هذه القصة وعدوها من المحالات لمسخ الانسان كوكبا كما بينوه فى كتبهم وحاول البيضاوى التوفيق بانها تمثيلات كقصة ابسال وسلامان وحرير مقطان وغير ذلك مما وضعه المتقدمون والمتأخرون اشارة الى أن القوى لو ركبت فى تلك لعصت وأسماء الله ومناجاته تلحق السفلى بالعلوى ونحوه هذا وقد أطنب الشيخ ابن حجر المكى فى جواب الرازى واستبعاده لهذه القصة فى كتابه الزواجر بما لا مزيد عليه وقال القرطبى بعد سياق بعض تلك قلنا هذا كله ضعيف وبعيد عن ابن عمر وغيره لا يصح

منه شئ فانه قول تدفعه الاصول فى الملائكة الذين هم أمناء الله على وحيه وسفراؤه الى رسله لا يعصون الله ما أمرهم و يفعلون ما يؤمرون ثم ذكر ما معناه ان العقل يجوز وقوع ذلك منهم لكن وقوع هذا الجائز لا يدرك الا بالسمع ولم يصح انتهى وأقول هذا مجرد استبعاد وقد ورد الكتاب العزيز فى هذا الموضع بما تراه ولا وجه لاخراجه عن ظاهره بهذه التكلفات وما ذكره من ان الاصول تدفع ذلك فعلى فرض وجود هذه الاصول فهى مخصصة بما وقع فى هذه القصة ولا وجه لمنع التخصيص وقد كان ابليس بتلك المنزلة العظيمة وصار أشر البرية وأكفر العالمين (وما يعلمان من أحد) أى هاروت وماروت أو الرجلان والاول أولى قال الزجاج تعليم انذار من السحر لا تعليم دعاء اليه قال وهو الذى عليه أكثر أهل اللغة والنظر ومعناه انهما يعلمان على النهى فيقولان لهم لا تفعلوا كذا وقد قيل ان قوله يعلمان من الاعلام لا من التعليم وقد جاء فى كلام العرب تعلم بمعنى أعلم كما حكاه ابن الانبارى وابن الاعرابى وهو كثير فى أشعارهم (حتى يقولا) أى الا أن ينصحاه أولا أو أن يقولا (انما نحن فتنة) هو على ظاهره أى ابتلاء واختبار من الله لعباده ومحنة وقيل انه استهزاء منهما لانهما انما يقولانه لمن قد تحقق ضلاله والاول أولى والمعنى انما نحن ابتلاء فمن عمل بما تعلم منا واعتقد حقيته كفر ومن توقى عن العمل به واتخذه ذريعة للاتقاء عن الاغترار بمثله بقى على الايمان فلا تكفر باعتقاد حقيته وجواز العمل به قاله أبو السعود قال الخفاجى فيه اشارة الى أن الاجتناب واجب احتياطا وكالا يحرم الفلسفة المنصوب للذب عن الدين برد الشبهة وان كان أغلب أحواله التحريم كذلك تعلم السحر ان فرض فشو فى صقع وأريد تبيين فساده لهم ليرجعوا الى الحق وهو لا ينافى اطلاق القول بالتحريم فاعرفه انتهى قلت أخرج البزار باسناد صحيح والحاكم وصححه عن ابن مسعود من أتى كاهنا أو ساحرا وصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد وأخرج البزار عن عمران بن حصين قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من تطير أو تطير له أو تكهن أو تكهن له أو سحر أو سحر له ومن عقد عقدة ومن أتى كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد وأخرج عبد الرزاق عن صفوان بن سليم قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من تعلم شيأ من السحر قليلا أو كثيرا كان آخر عهده من الله وفى قولهما (فلا تكفر) أبلغ انذار وأعظم تحذير أى ان هذا ذنب يكون من فعله كافرا فلا تكفر وفيه

توبة وقال ابن جرير أخبرنى القاسم بن أبى برة انه سمع سعيد بن جبير ومجاهدا يقولان فى قوله تعالى فاقتلوا أنفسكم قال قام بعضهم الى بعض بالخناجر يقتل بعضهم بعضا لا يحنو رجل على قريب ولا بعيد حتى ألوى موسى بثوبه فطرحوا ما بأيديهم فكشف عن سبعين ألف قتيل وان الله أوحى الى موسى أن حسبى فقد اكتفيت فذلك حين ألوى موسى بثوبه وروى عن على رضى الله عنه نحو ذلك وقال قتادة أمر القوم بشديد من الامر فقاموا يتناحرون بالشفار يقتل بعضهم بعضا حتى بلغ الله فيهم نقمته فسقطت الشفار من أيديهم فامسك عنهم القتل فجعل لحيهم توبة وللمقتول شهادة وقال الحسن البصرى أصابتهم ظلمة حندس فقتل بعضهم بعضا ثم انكشف عنهم فجعل توبتهم فى ذلك وقال السدى فى قوله فاقتلوا أنفسكم قال فاجتلد الذين عبدوه والذين لم يعبدوه بالسيوف فكان من قتل من الفريقين شهيدا حتى كثر القتل حتى كادوا أن يهلكوا حتى قتل منهم سبعون ألفا وحتى دعا موسى وهرون ربنا أهلكت بنى اسرائيل ربنا البقية البقية فأمرهم أن يلقوا السلاح وتاب عليهم فكان من قتل منهم من الفريقين شهيدا ومن بقى مكفرا عنه فذلك قوله فتاب عليكم انه هو التواب الرحيم وقال الزهرى لما أمرت بنو اسرائيل بقتل أنفسها برزوا ومعهم موسى فاضطربوا بالسيوف وتطاعنوا بالخناجر وموسى رافع يديه حتى اذا فتر بعضهم قالوا يا نبى الله ادع الله لنا وأخذوا بعضديه يسندون يديه فلم يزل أمرهم على ذلك حتى اذا قبل الله توبتهم قبض أيديهم بعضهم عن بعض فألقوا السلاح وحزن موسى وبنو اسرائيل للذى كان من القتل فيهم فأوحى الله جل ثناؤه الى موسى ما يحزنك أما من قتل منهم فحى عندى يرزقون وأما من بقى فقد قبلت توبته فسر بذلك دليل موسى و بنو اسرائيل رواه ابن جرير باسناد جيد عنه وقال ابن اسحق لما رجع موسى الى قومه وأحرق العجل وذراه فى اليم خرج الى ربه بمن اختار من قومه فأخذتهم الصاعقة ثم بعثوا فسأل موسى ربه التوبة لبنى اسرائيل من عبادة العجل فقال لا الا أن يقتلوا أنفسهم قال فبلغنى انهم قالوا لموسى نصبر لامر الله فأمر موسى من لم يكن عبد العجل أن يقتل من عبده فجلسوا بالافنية وأصلت عليهم القوم السيوف فجعلوا يقتلونهم فبهش موسى فبكى اليه النساء والصبيان يطلبون العفو عنهم فتاب الله عليهم وعفا

عنهم وأمر موسى أن ترفع عنهم السيوف وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم لما رجع موسى الى قومه وكانوا سبعين رجلا قد اعتزلوا مع هرون العجل لم يعبدوه فقال لهم موسى انطلقوا الى موعد ربكم فقالوا يا موسى ما من توبة قال بلى اقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم الآية فاخترطوا السيوف والجرزه والخناجر والسكاكين قال وبعث عليهم ضبابة قال فجعلوا يتلامسون بالايدى ويقتل بعضهم بعضا قال ويلقى الرجل أباه وأخاه فيقتله وهو لا يدرى قال ويتنادون فيها رحم الله عبدا صبر نفسه حتى يبلغ الله رضاه قال فقتلاهم شهداء وتيب على أحيائهم (١٥٧) ثم قرأ فتاب عليكم انه هو التواب الرحيم

(واذ قلتم ياموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون) يقول تعالى واذكروا نعمتى عليكم فى بعثى لكم بعد الصعق اذ سألتم رؤيتى جهرة عيانا مما لا يستطاع لكم ولا لامثالكم كما قال ابن جريج قال ابن عباس فى هذه الآية واذ قلتم ياموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة قال علانية وكذا قال ابراهيم بن طهمان عن عباد ابن اسحق عن أبى الحويرث عن ابن عباس انه قال فى قول الله تعالى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة أى علانية أى حتى نرى الله وقال قتادة والربيع بن أنس حتى نرى الله جهرة أى عيانا وقال أبو جعفر عن الربيع بن أنس هم السبعون الذين اختارهم موسى فساروا معه قال فسمعوا كلاما فقالوا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة قال فسمعوا صوتا فصعقوا يقول ماتوا وقال مروان بن الحكم فيما خطب به على منبر مكة الصاعقة صيحة من السماء وقال السدى فى

دليل على ان تعلم السحر كفر وظاهره عدم الفرق بين المعتقد وغير المعتقد وبين من تعلمه ليكون ساحرا ومن تعلمه ليقدر على دفعه وبه قال أحمد (فيتعلمون منهما) يعنى من الملكين (ما يفرقون به بين المرء وزوجه) أى سحرا يكون سببا فى التفريق بينهما كالتمويه والتخييل والنفث فى العقد ونحو ذلك مما يحدث الله عنده البغضاء والنشوز والخلاف بين الزوجين ابتلاء من الله تعالى وفى اسناد التفريق الى السحرة وجعل السحر سببا لذلك دليل على ان للسحر تأثيرا فى القلوب بالحب والبغض والجمع والفرقة والقرب والبعد وقد ذهب طائفة من العلماء الى أن الساحر لا يقدر على أكثر مما أخبر الله به من التفرقة لان الله ذكر ذلك فى معرض الذم للسحر وبين ما هو الغاية فى تعلمه فلو كان يقدر على أكثر من ذلك لذكره وقالت طائفة أخرى ان ذلك خرج مخرج الاغلب وان الساحر يقدر على غير ذلك المنصوص عليه وقيل ليس للسحر تأثير فى نفسه أصلا لقوله تعالى (وما هم بضارين به من أحد الا باذن الله) والحق انه لا تنافى بين القولين المذكورين فان المستفاد من جميع ذلك ان للسحر تأثيرا فى نفسه وحقيقة ثابتة ولم يخالف فى ذلك الا المعتزلة وأبو حنيفة كما تقدم وهذا استثناء مفرغ من أعم الاحوال (ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم) يعنى السحر لانهم يقصدون به العمل أولان العلم يجر الى العمل غالبا وفيه تصريح بان السحر لا يعود على صاحبه بفائدة ولا يجلب اليه منفعة بل هو ضرر محض وخسران صرف وشر بحت قال أبو السعود وفيه ان الاجتناب عما لا تؤمن غوائله خير كعلم الفلسفة التى لا يؤمن ان تجر الى الغواية وان قال من قال

عرفت الشر لا للشر * ولكن لتوقيه
ومن لا يعرف الشر * من الناس يقع فيه

انتهى (ولقد علموا) يعنى اليهود (لمن اشتراه) أى اختار السحر والمراد بالشراء هنا الاستبدال أى من استبدل ما تتلو الشياطين (ماله فى الآخرة من خلاق) أى من نصيب كما عند أهل اللغة كذا قال الزجاج (ولبئس ما شروا به أنفسهم) أى باعوها وقد أثبت لهم العلم فى قوله ولقد علموا ونفاه عنهم فى قوله (لو كانوا يعلمون) واختلفوا فى توجيه ذلك فقال قطرب والاخفش ان المراد بقوله ولقد علموا الشياطين والمراد بقوله لو كانوا يعلمون الانس وقال الزجاج ان الاول للملكين وان كان بصيغة الجمع فهو مثل قولهم الزيدان

قوله فاخذتكم الصاعقة الصاعقة نار وقال عروة بن رويم فى قوله وأنتم تنظرون قال صعق بعضهم وبعض ينظرون ثم بعث هؤلاء وصعق هؤلاء وقال السدى فأخذتكم الصاعقة فماتوا فقام موسى يبكى ويدعو الله ويقول رب ماذا أقول لبنى اسرائيل اذا أتيتهم وقد أهلكت خيارهم لو شئت أهلكتهم من قبل واياى أتهلكنا بما فعل السفهاء منا فأوحى الله الى موسى ان هؤلاء السبعين ممن اتخذوا العجل ثم ان الله أحياهم فقاموا وعاشوا رجل رجل ينظر بعضهم الى بعض كيف يحيون قال فذلك قوله تعالى ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون وقال الربيع بن أنس كان موتهم عقوبة لهم فبعثوا من بعد الموت ليستوفوا آجالهم وكذا

قال قتادة وقال ابن جرير حدثنا محمد بن حميد حدثنا سلمة بن الفضل عن محمد بن اسحق قال لما رجع موسى الى قومه فرأى ما هم عليه من عبادة العجل وقال لاخيه وللسامرى ما قال وحرق العجل وذراه فى اليم اختار موسى منهم سبعين رجلا الخير فالخير وقال انطلقوا الى الله وتوبوا الى الله مما صنعتم واسألوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم فخرج بهم الى طور سيناء لميقات وقته له ربه وكان لا يأتيه الا باذن منه وعلم فقال له السبعون فيما ذكر لى حين صنعوا ما أمروا به وخرجوا للقاء الله قالوا يا موسى اطلب لنا الى ربك نسمع كلام ربنا فقال أفعل فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه الغمام حتى تغشى الجبل كله ودنا موسى فدخل فيه وقال للقوم ادنوا وكان موسى اذا كلمه الله وقع على جبهته نور ساطع لا يستطيع أحد من بنى آدم أن ينظر اليه فضرب دونه بالحجاب ودنا القوم حتى اذا دخلوا فى الغمام وقعوا سجودا فسمعوه وهو يكلم موسى يأمره وينهاه افعل ولا تفعل فلما فرغ اليه من أمره انكشف عن موسى الغمام فأقبل اليهم فقالوا لموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتهم الرجفة وهى الصاعقة فماتوا جميعا وقام موسى يناشد ربه ويدعوه ويرغب اليه ويقول رب لو شئت اهلكتهم من قبل واياى قد سفهوا أفتهلك من ورائى من بنى اسرائيل بما يفعل السفهاء منا أى ان هذا لهم هلاك واخترت منهم سبعين رجلا الخير فالخير أرجع اليهم وليس معى منهم رجل واحد فما الذى يصدقونى به ويأمنونى عليه بعد هذا انا هدنا اليك فلم يزل موسى يناشد ربه عز وجل ويطلب اليه حتى رد اليهم أرواحهم وطلب اليه التوبة لبنى اسرائيل من عبادة العجل فقال لا الا أن يقتلوا أنفسهم هذا سياق محمد بن اسحق وقال اسمعيل بن عبد الرحمن السدى الكبير لما تابت بنو اسرائيل من عبادة العجل وتاب الله عليهم بقتل بعضهم بعضا كما أمرهم الله به أمر الله موسى أن يأتيه فى كل أناس من بنى اسرائيل يعتذرون اليه من عبادة العجل ووعدهم موسى فاختار موسى سبعين رجلا على عينه ثم ذهب بهم ليعتذروا وساق البقية وهذا السياق يقتضى أن الخطاب توجه الى بنى اسرائيل فى قوله واذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة والمراد السبعون المختارون منهم ولم يحك كثير من المفسرين سواه وقد أغرب الرازى فى تفسيره حين حكى فى قصة هؤلاء السبعين انهم بعد احيائهم قالوا يا موسى

قاموا والثانى المراد به علماء اليهود وانما قال لو كانوا يعلمون لانهم تركوا العمل بعلمهم (ولو انهم آمنوا) أى اليهود بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم وما جاء به من القرآن (واتقوا) ما وقعوا فيه من السحر والكفر (لمثوبة من عند الله) أى لكان ثواب الله اياهم (خير) لهم يعنى هذا الثواب والمثوبة وزنها مفعولة قاله الواحدى أو مفعلة كمشورة ومتربة وكان من حقها الاعلال فيقال مثابة كمقالة الا انهم صححوها قاله السمين (لو كانوا يعلمون) ذلك هو اما للدلالة على انه لا علم لهم أو لتنزيل علمهم مع عدم العمل منزلة العدم (يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا) أى راقبنا واحفظنا ويجوز أن يكون من ارعنا سمعك أى فرغه لكلامنا ووجه النهى عن ذلك ان هذا اللفظ كان بلسان اليهود سبا قيل انه فى لغتهم بمعنى اسمع لا سمعت وقيل غير ذلك فلما سمعوا المسلمين يقولون للنبى صلى الله عليه وآله وسلم راعنا طلبا منه أن يراعيهم من المراعاة اغتنموا الفرصة وكانوا يقولون للنبى صلى الله عليه وآله وسلم كذلك مظهرين انهم يريدون المعنى العربى مبطنين انهم يقصدون السب الذى هو معنى هذا اللفظ فى لغتهم وفى ذلك دليل على انه ينبغى تجنب الالفاظ المحتملة للسب والنقص وان لم يقصد المتكلم بها هذا المعنى المفيد للشتم سدا للذريعة ودفعا للوسيلة وقطعا لمادة المفسدة والتطرق اليه ثم أمرهم الله بان يخاطبوا النبى صلى الله عليه وآله وسلم بما لا يحتمل النقص ولا يصلح للتعريض فقال (وقولوا انظرنا) أى أقبل علينا وانظر الينا وهو من باب الحذف والايصال وقيل معناه انتظرنا وتأن بنا وقرأ الاعمش انظرنا بمعنى أخرنا وامهلنا حتى نفهم عنك وأمرهم بعد هذا النهى والامر بامر آخر وهو قوله (واسمعوا) أى اسمعوا ما أمرتم به ونهيتم عنه ومعناه اطيعوا الله فى ترك خطاب النبى صلى الله عليه وآله وسلم بذلك اللفظ وخاطبوه بما أمرتم به ولا تخاطبوه بما يسر اليهود بل تخيروا الخطابه صلى الله عليه وآله وسلم من الالفاظ احسنها ومن المعانى أدقها ويحتمل ان يكون معناه اسمعوا ما يخاطبكم به الرسول من الشرع حتى يحصل لكم المطلوب بدون طلب للمراعاة قال ابن جرير والصواب من القول عندنا فى ذلك أن الله نهى المؤمنين ان يقولوا لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم راعنا لانها كلمة كرهها الله أن يقولوها لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم نظير الذى ذكر عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم انه قال لا تقولوا للعنب الكرم ولكن قولوا الحبلة ولا تقولوا

انك لاتطلب من الله شيأ الا أعطاك فادعه أن يجعلنا أنبياء فدعا بذلك فاجاب الله دعوته وهذا غريب جدا اذلا يعرف فى زمان موسى نبى سوى هرون ثم يوشع بن نون وقد غلط أهل الكتاب أيضا فى دعواهم ان هؤلاء رأوا الله عزوجل فان موسى الكليم عليه السلام قد سأل ذلك فمنع منه فكيف يناله هؤلاء السبعون القول الثانى فى الآية قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى تفسير هذه الآية قال لهم موسى لما رجع من عند ربه بالالواح قد كتب فيها التوراة فوجدهم يعبدون العجل فأمرهم بقتل أنفسهم ففعلوا فتاب الله عليهم فقال ان هذه الالواح فيها كتاب الله فيه أمركم الذى أمركم به ونهيكم الذى نهاكم عنه فقالوا ومن يأخذه بقولك أنت لا والله حتى نرى الله جهرة حتى يطلع الله علينا فيقول هذا كتابى فخذوه فماله لا يكلمنا كما يكلمك أنت ياموسى وقرأ قول الله ان نؤمن لك حتى نرى الله جهرة قال فجاءت غضبة من الله فجاءتهم صاعقة بعد التوبة فصعقتهم فماتوا أجمعون قال ثم أحياهم الله من بعد موتهم وقرأ قول الله ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون فقال لهم موسى خذوا كتاب الله فقالوا لا فقال أى شئ أصابكم فقالوا أصابنا انا متنا ثم أحيينا قال خذوا كتاب الله قالوا لا فبعث الله ملائكة فنتقت الجبل فوقهم وهذا السياق يدل على انهم كلفوا بعد ما أحيوا وقد حكى الماوردى فى ذلك قولين أحدهما انه سقط التكليف عنهم لمعاينتهم الامر جهرة حتى صاروا مضطرين الى التصديق والثانى انهم مكلفون لئلا يخلو عاقل من تكليف قال القرطبى وهذا هو الصحيح لان معاينتهم للامور الفظيعة لا تمنع تكليفهم لان بنى اسرائيل قد شاهدوا أمورا عظاما من خوارق العادات وهم فى ذلك مكلفون وهذا واضح والله أعلم (وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) لما ذكر تعالى ما دفعه عنهم من النقم شرع يذكرهم أيضا بما أسبغ عليهم من النعم فقال وظللنا عليكم الغمام وهو جمع غمامة سمى بذلك لانه يغم السماء أى يواريها او يسترها وهو السحاب الابيض ظللوا به فى التيه ليقيهم حر الشمس كما رواه النسائى وغيره عن ابن عباس فى حديث الفتون قال ثم ظلل عليهم فى التيه بالغمام قال ابن أبى حاتم وروى عن ابن عمر والربيع بن أنس وأبى مجلز والضحاك والسدى نحو قول ابن عباس وقال الحسن وقتادة وظللنا عليهم الغمام كان هذا فى

عبدى ولكن قولوا فتاى وما أشبه ذلك ثم توعد اليهود بقوله (وللكافرين عذاب أليم) ويحتمل ان يكون وعيدا شاملا لجنس الكفرة (ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم) فيه بيان شدة عداوة الكفار للمسلمين حيث لا يودون انزال الخير عليهم من الله سبحانه وقد قيل بأن الخير الوحى وقيل غير ذلك والظاهر أنهم لا يودون أن ينزل على المسلمين أى خير كان فهو لا يختص بنوع معين كما يفيده وقوع هذه النكرة فى سياق النفى وتأكيد العموم بدخول من المزيدة عليها وان كان بعض أنواع الخير أعظم من بعض فذلك لا يوجب التخصيص (والله يختص برحمته) أى يميز (من يشاء) تمييزه والرحمة قيل هى القرآن والاسلام وقيل النبوة وقيل جنس الرحمة من غير تعيين كما يفيد ذلك الاضافة الى ضميره تعالى (والله ذو الفضل العظيم) فكيف لا يودون ان يختص برحمته من يشاء من عباده وكل خير ناله عباده فى دينهم ودنياهم فانه منه ابتداء وتفضلا عليهم من غير استحقاق أحد منهم لذلك بل له الفضل والمنة على خلقه (ما ننسخ من آية) كلام مستأنف قاله أبو السعود وقال المهدوى لم يعطف لشدة ارتباطه بما قبله والنسخ فى كلام العرب على وجهين أحدهما النقل كنقل كتاب من آخر وعلى هذا يكون القرآن كله منسوخا أعنى من اللوح المحفوظ ولا مدخل لهذا المعنى فى هذه الآية ومنه انا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون اى نأمر بنسخه الثانى الابطال والازالة وهو المقصود هنا وهذا القسم الثانى ينقسم الى قسمين عند أهل اللغة أحدهما ابطال الشئ وزواله واقامة آخر مقامه ومنه نسخت الشمس الظل اذا أذهبته وحلت محله وهو معنى قوله ما ننسخ من آية وفى صحيح مسلم لم تكن نبوة قط الا تناسخت أى تحولت من حال الى حال والثانى ازالة الشئ دون ان يقوم مقامه آخر كقولهم نسخت الريح الاثر ومن هذا المعنى فينسخ الله ما يلقى الشيطان أى يزيله وروى عن أبى عبيد ان هذا قد كان يقع فى زمن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فكانت تنزل عليه السورة فترفع فلا تتلى ولا تكتب ومنه ما روى عن أبى وعائشة ان سورة الاحزاب كانت تعدل سورة البقرة فى الطول قال ابن فارس النسخ نسخ الكتاب والنسخ ان يزيل أمرا كان من قبل يعمل به ثم ينسخه بحادث غيره كالآية تنزل بأمر ثم تنسخ بأخرى وكل شئ خلف شيأ فقد انتسخه يقال نسخ الشيب الشباب وتناسخ الورثة أن تموت ورثة بعد ورثة وأصل الميراث قائم

البرية ظالل عليهم الغمام من الشمس وقال ابن جرير قال آخرون وهو غمام أبرد من هذا وأطيب وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو حذيفة حدثنا شبل عن ابن أبي نجيح عن مجاهد وظللنا عليهم الغمام قال ليس بالسحاب هو الغمام الذي يأتي الله فيه يوم القيامة ولم يكن الا لهم وهكذا رواه ابن جرير عن المثنى بن ابراهيم عن أبي حذيفة وكذا رواه الثوري وغيره عن ابن أبي نجيح عن مجاهد وكأنه يريد والله أعلم انه ليس من زي هذا السحاب بل أحسن منه وأطيب وأبهى منظرا كما قال سنيد في تفسيره عن حجاج ابن محمد عن ابن جريج قال قال ابن عباس وظللنا (١٦٠) عليهم الغمام قال غمام أبرد من هذا وأطيب وهو الذي يأتي الله فيه في قوله هل ينظرون الا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة وهو الذي جاءت فيه الملائكة يوم بدر قال ابن عباس وكان معهم في التيه وقوله تعالى وأنزلنا عليكم المن اختلفت عبارات المفسرين في المن ما هو فقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس كان المن ينزل عليهم على الاشجار فيغدون اليه فيأكلون منه ما شاؤا وقال مجاهد المن صمغة وقال عكرمة المن شيء أنزله الله عليهم مثل الطل شبه الرب الغليظ وقال السدي قالوا يا موسى كيف لنا بما ههنا أين الطعام فأنزل الله عليهم المن فكان يسقط على شجرة الزنجبيل وقال قتادة كان المن ينزل عليهم في محلهم سقوط الثلج أشد بياضا من اللبن واحلى من العسل يسقط عليهم من طلوع الفجر الى طلوع الشمس يأخذ الرجل منهم قدر ما يكفيه يومه ذلك فاذا تعدى ذلك فسد ولم يبق حتى اذا كان يوم سادسه يوم جمعته أخذ ما يكفيه ليوم سادسه ويوم سابعه لانه كان يوم عيد لا يشخص فيه لامر معيشته ولا يطلبه لشيء وهذا كله في البرية وقال الربيع بن أنس المن شراب كان ينزل عليهم مثل العسل فيمزجونه بالماء ثم يشربونه وقال وهب بن منبه وسئل عن المن فقال خبز رقاق مثل الذرة أو مثل النقي وقال أبو جعفر بن جرير حدثني محمد بن اسحق حدثنا أبو أحمد حدثنا اسرائيل عن جابر عن عامر وهو الشعبي قال عسلكم هذا جزء من سبعين جزأ من المن وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم انه العسل ووقع في شعر أمية بن أبي الصلت حيث قال

فرأى الله انهم بمضيع * لا بذي مزرع ولا مثمورا
فسناها عليهم غاديات * ويرى مزنهم خلايا وخورا
عسلا ناطفا وماء فراتا * وحليبا ذا بهجة مزمورا

وكذا تناسخ الازمنة والقرون وقال ابن جرير معنى ما ننسخ ما ننقل من حكم آية الى غيره فنبدله ونغيره وذلك ان يحول الحلال حراما والحرام حلالا والمباح محظورا والمحظور مباحا ولا يكون ذلك الا في الامر والنهي والحظر والاطلاق والمنع والاباحة فأما الاخبار فلا يكون فيها ناسخ ولا منسوخ وأصل النسخ من نسخ الكتاب وهو نقله من نسخة الى أخرى فكذلك معنى نسخ الحكم الى غيره انما هو تحويله الى غيره وسواء نسخ حكمها أو خطها اذ هي في كلتي حالتيها منسوخة انتهى وقد جعل علماء الاصول مباحث النسخ من جملة مقاصد ذلك الفن فلا نطول بذكره بل نحيل من أراد الاستيفاء عليه على كتابنا حصول المأمول من علم الاصول فليرجع اليه وقد اتفق أهل الاسلام على ثبوته سلفا وخلفا وهو جائز عقلا وواقع سمعا ولم يخالف في ذلك أحد الا من لا يعتد بخلافه ولا يؤبه بقوله وقد اشتهر عن اليهود أقماهم الله انكاره وهم محجوجون بما في التوراة فان الله قال لنوح عليه السلام عند خروجه من السفينة اني قد جعلت كل دابة مأكلا لك ولذريتك واطلعت ذلك لكم كنبات العشب ما خلا الدم فلا تأكلوه ثم قد حرم على موسى وعلى بني اسرائيل كثيرا من الحيوان وثبت في التوراة ان آدم كان يزوج الاخ من الاخت وقد حرم الله ذلك على موسى عليه السلام وعلى غيره وثبت فيها ان ابراهيم عليه السلام أمر بذبح ابنه ثم قال الله له لا تذبحه وان موسى عليه السلام أمر بني اسرائيل ان يقتلوا من عبد منهم العجل ثم أمرهم برفع السيف عنهم وحرم عليهم العمل يوم السبت ولم يحرمه على من كان قبلهم ونحو هذا كثير في التوراة الموجودة بأيديهم والقرآن الكريم نسخ جميع الشرائع والكتب القديمة كالتوراة والانجيل وغيرهما ونسخ الآية بيان انتهاء التعبد بقراءتها أو بالحكم المستفاد منها أو بهما جميعا وانساؤها اذهابها من القلوب (أو ننسأها) بفتح النون والسين والهمز ومعنى هذه القراءة نؤخرها عن النسخ من قولهم نسأت هذا الامر اذا أخرته قال ابن فارس ويقولون نسأ الله في أجلك وأنسأ الله أجلك وقد انتسأ القوم اذا تأخروا وتباعدوا ونسأتهم انا أي أخرتهم وقيل معناه نؤخر نسخ لفظها أي نتركه في أم الكتاب فلا يكون وقيل نذهبها عنكم لا تقرأ ولا تذكر وقرئ ننسها بضم النون من النسيان الذي بمعنى الترك أي نتركها فلا نبدلها ولا ننسخها ومنه قوله تعالى نسوا الله فنسيهم أي تركوا عبادته فتركهم في العذاب وحكى الازهري ان معناه نأمر بتركها يقال

فالناطف هو السائل والحليب المزمور والصافى منه والغرض أن عبارات المفسرين متقاربة فى شرح المن فمنهم من فسره بالطعام ومنهم من فسره بالشراب والظاهر والله أعلم انه كل ما امتن الله به عليهم من طعام وشراب وغير ذلك مما ليس لهم فيه عمل ولا كد فالمن المشهور ان أكل وحده كان طعاما وحلاوة وان مزج مع الماء صار شرابا طيبا وان ركب مع غيره صار نوعا آخر ولكن ليس هو المراد من الآية وحده والدليل على ذلك قول البخارى حدثنا أبو نعيم حدثنا سفيان عن عبد الملك بن عمير بن حريث عن سعيد ابن زيد رضى الله عنه قال قال النبى صلى الله عليه وسلم الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين وهذا الحديث رواه الامام أحمد عن سفيان بن عيينة عن عبد الملك وهو ابن عمير به وأخرجه الجماعة فى كتبهم الا أبا داود من طرق عن عبد الملك وهو ابن عمير به وقال الترمذى حسن صحيح ورواه البخارى ومسلم من رواية الحكم عن الحسن العرنى عن عمرو ابن حريث به وقال الترمذى حدثنا أبو عبيدة بن أبى السفر ومحمود بن غيلان قالا حدثنا سعيد بن عامر عن محمد بن عمرو عن أبى سلمة عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم العجوة من الجنة وفيها شفاء من السم والكمأة من المن وماؤها شفاء للعين تفرد باخراجه الترمذى ثم قال هذا حديث حسن غريب لا نعرفه الا من حديث محمد بن محمد بن عمرو والا من حديث سعيد بن عامر عنه وفى الباب عن سعيد بن زيد وأبى سعيد وجابر كذا قال وقد رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه فى تفسيره من طريق آخر عن أبى هريرة فقال حدثنا أحمد بن الحسن ابن أحمد البصرى حدثنا أسلم بن سهل حدثنا القاسم بن عيسى حدثنا طلحة بن عبد الرحمن عن قتادة عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الكمأة من المن وماؤها شفاء العين وهذا حديث غريب من هذا الوجه وطلحة بن عبد الرحمن هذا السلمى الواسطى يكنى بأبى محمد وقيل أبو سليمان المؤدب قال فيه الحافظ أبو أحمد بن عدى روى عن قتادة أشياء لا يتابع عليها ثم قال الترمذى حدثنا محمد بن بشار حدثنا معاذ بن هشام حدثنا أبى عن قتادة عن شهر بن حوشب عن أبى هريرة ان ناسا من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم قالوا الكمأة جدرى الارض فقال نبى الله صلى الله عليه وسلم الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين

أنسيته الشئ أى أمرته بتركه ونسيته تركته وقال الزجاج ان القراءة بضم النون لا يتوجه فيها معنى الترك لا يقال أنسى بمعنى ترك قال وما روى عن ابن عباس أو ننسها أى نتركها لا نبدلها فلا يصح والذى عليه أكثر أهل اللغة والنظر أن معنى أو ننسها نبح لكم تركها من نسى اذا ترك ثم تعديه وقد ثبت فى البخارى وغيره عن أنس ان الله أنزل فى الذين قتلوا فى بئر معونة ان بلغوا قومنا ان قد لقينا ربنا فرضى عنا وأرضانا ثم نسخ وهكذا ثبت فى مسلم وغيره عن أبى موسى قال كنا نقرأ سورة نشبهها فى الطول والشدة ببراءة فأنسيتها غير انى حفظت منها لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى واديا ثالثا ولا يملأ جوفه الا التراب وكنا نقرأ سورة نشبهها باحدى المسبحات أولها سبح لله ما فى السموات فأنسيناها غير انى حفظت منها يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون فتكتب شهادة فى أعناقكم فتسئلوا عنها يوم القيامة وقد روى مثل هذا من طريق جماعة من الصحابة ومنه آية الرجم كما رواه عبد الرزاق وأحمد وابن حبان عن عمر (نأت بخير منها أو مثلها) أى نأت بما هو أنفع للناس منها فى العاجل والآجل أو فى احدهما أو بما هو مماثل لها من غير زيادة ومرجع ذلك الى اعمال النظر فى المنسوخ والناسخ فقد يكون الناسخ أخف فيكون أنفع لهم فى العاجل وقد يكون أثقل وثوابه أكثر فيكون أنفع فى الآجل وقد يستويان فتحصل المماثلة وقال الشافعى الكتاب لا ينسخ بالسنة المتواترة وتابعه على ذلك طائفة واستدل بهذه الآية وليس بصحيح والحق جواز نسخ الكتاب بالسنة والكلام فى هذا معروف فى أصول الفقه (ألم تعلم أن الله على كل شئ قدير) هذه الآية تفيد أن النسخ من مقدوراته وان انكاره انكار للقدرة الالهية والخطاب للنبى صلى الله عليه وآله وسلم والمراد هو وأمته وفيه دليل على جواز النسخ والاستفهام للتقرير وهكذا قوله (ألم تعلم أن الله له ملك السموات والارض) أى له التصرف فيهما بالايجاد والاختراع ونفوذ الامر فى جميع مخلوقاته فهو أعلم بمصالح عباده وما فيه النفع لهم من أحكامه التى تعبدهم بها وشرعها لهم وقد يختلف ذلك باختلاف الاحوال والازمنة والاشخاص وهذا وان كان خطابا للنبى صلى الله عليه وآله وسلم لكنه فيه تكذيب لليهود المنكرين للنسخ (وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير) بينهما عموم وخصوص من وجه فان الولى قد يضعف عن النصرة والنصير قد يكون أجنبيا عن المنصور وفيه اشارة الى تعلق الخطابين السابقين

والعجوة من الجنة وهي شفاء من السم وهذا الحديث قد رواه النسائي عن محمد بن بشار به وعنه عن غندر عن شعبة عن أبي بشر جعفر بن اياس عن شهر بن حوشب عن أبي هريرة به وعن محمد بن بشار عن عبد الاعلى عن خالد الحذاء عن شهر بن حوشب بقصة الكمأة فقط وروى النسائي أيضا وابن ماجه من حديث محمد بن بشار عن أبي عبد الصمد بن عبد العزيز بن عبد الصمد عن مطر الوراق عن شهر بقصة العجوة عند النسائي وبالقصتين عند ابن ماجه وهذه الطريق منقطعة بين شهر بن حوشب وأبي هريرة فانه لم يسمع منه بدليل ما رواه النسائي في الوليمة

من سننه عن علي بن الحسين الدرهمي عن عبد الاعلى عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن شهر بن حوشب عن عبد الرحمن بن غنم عن أبي هريرة قال خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يذكرون الكمأة وبعضهم يقول جدري الارض فقال الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين وروى عن شهر بن حوشب عن أبي سعيد وجابر كما قال الامام أحمد حدثنا اسباط بن محمد حدثنا الاعمش عن جعفر بن اياس عن شهر بن حوشب عن جابر بن عبد الله وأبي سعيد الخدري قالا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الكمأة من المن وماؤها شفاء العين والعجوة من الجنة وهي شفاء من السم وقال النسائي في الوليمة أيضا حدثنا محمد بن بشار حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن أبي بشر جعفر بن اياس عن شهر بن حوشب عن أبي سعيد وجابر رضي الله عنهما ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين ثم رواه أيضا وابن ماجه من طرق عن الاعمش عن أبي بشر عن شهر عنهما به وقد رويا أعني النسائي من حديث جرير وابن ماجه من حديث سعيد بن أبي سلمة كلاهما عن الاعمش عن جعفر بن اياس عن أبي نضرة عن رسول أبي سعيد رواه النسائي وحديث جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين ورواه ابن مردويه عن أحمد بن عثمان عن عباس الدوري عن لاحق بن صواب عن عمار بن رزيق عن الاعمش كابن ماجه وقال ابن مردويه أيضا حدثنا أحمد بن عثمان حدثنا عباس الدوري حدثنا الحسن بن الربيع حدثنا أبو الاحوص عن الاعمش عن المنهال بن عمرو عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن أبي سعيد الخدري قال خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي يده كمآت فقال الكمأة من المن وماؤها

بالامة أيضا وهذا صنع من لا ولي لهم غيره ولا نصير سواه فعليهم ان يتلقوه بالقبول والامتثال والتعظيم والاجلال وقد ذهب جمهور أهل الاصول الى جواز نسخ القرآن بالسنة المتواترة وخالف في ذلك الشافعي وتابعه على ذلك طائفة واختلف المانعون فمنهم من منعه عقلا كالحرث المحاسبي وعبد الله بن سعيد القلانسي وهو رواية عن أحمد بن حنبل ومنهم من منعه سمعا كالشيخ أبي حامد الاسفرايني احتج الجمهور بان التكليف بمتواتر السنة كالتكليف بالآية القرآنية وبان ذلك قد وقع في هذه الشريعة المطهرة واحتج الآخرون بقوله تعالى ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها وتقرير الدلالة من وجهين أحدهما ان ما ينسخ به القرآن يجب أن يكون خيرا أو مثلا والسنة ليست كذلك ثانيهما انه قال نأت والضمير لله سبحانه فيجب ان لا ينسخ الا بما يأتي به الله وهو القرآن وأجاب الاولون عن ذلك بان المراد بقوله نأت بخير منها أو مثلها أي بحكم خير منها أو مثلها في حق المكلف باعتبار الثواب وهذا صحيح ولا يخالفه الضمير في قوله نأت فان القرآن والسنة جميعا من عند الله سبحانه قال الله تعالى وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى والكلام في المسئلة طويل وهو مدون في الاصول بما لا يتسع المقام لبسطه فالحق الجواز واما نسخ الكتاب بما صح من آحاد السنة فقد منعه الجمهور لان الآحاد لا تفيد القطع والكتاب مقطوع به وذهب جماعة من متأخري الحنفية الى جواز نسخ القرآن بالخبر المشهور وقال في جمع الجوامع ان نسخ القرآن بالآحاد جائز غير واقع وقال أبو بكر الباقلاني والغزالي وأبو عبد الله البصري انه جائز في عصره صلى الله عليه وآله وسلم لا بعده وذهب جمع من الظاهرية الى جوازه ووقوعه وأقول ان النزاع ان كان في قطعية المتن فلا شك ان القرآن كذلك وما صح من آحاد السنة ليس بقطعي وان كان النزاع في الدلالة فان كان القرآن المنسوخ عموما أو محتملا فدلالته ظنية كدلالة ما صح من الآحاد والذي يصلح ان يكون محلا للنزاع هنا هو الثاني لا الاول على انه قد وقع نسخ القطعي بالظني فان استقبال بيت المقدس ثبت ثبوتا قطعيا متواترا ثم ان اهل قباء استداروا الى الكعبة وهم في الصلاة بخبر واحد ولم ينكر عليهم ذلك النبي صلى الله عليه وآله وسلم وكذلك ثبت نسخ الوصية للوالدين والاقربين بقوله صلى الله عليه وآله وسلم لا وصية لوارث وكذلك نسخ قوله تعالى لا يحل لك النساء من بعد بقول عائشة رضي الله تعالى عنها ما توفي

شفاء للعين وأخرجه النسائى عن عمرو بن منصور عن الحسن بن الربيع به ثم ابن مردويه رواه أيضا عن عبد الله بن اسحق عن الحسن بن سلام عن عبيد الله بن موسى عن شيبان عن الاعمش به وكذا رواه النسائى عن أحمد بن عثمان بن حكيم عن عبيد الله بن موسى وقد روى من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه كما قال ابن مردويه حدثنا محمد بن عبد الله بن ابراهيم حدثنا حمدون بن أحمد حدثنا جويرة بن أشرس حدثنا حماد عن شعيب بن الحبحاب عن أنس ان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تداروا فى الشجرة التى اجتثت من فوق الارض مالها من قرار فقال بعضهم نحسبه الكمأة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين والعجوة من الجنة وفيها شفاء من السم وهذا الحديث محفوظ أصله من رواية حماد بن سلمة وقد روى الترمذى والنسائى من طريقه شيأ من هذا والله أعلم وروى عن شهر عن ابن عباس كما رواه النسائى أيضا فى الوليمة عن أبى بكر أحمد بن على ابن سعيد عن عبد الله بن عون الخراز عن أبى عبيدة الحداد عن عبد الجليل بن عطية عن عبد الله ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين فقد اختلف كما ترى فيه على شهر بن حوشب ويحتمل عندى انه حفظه ورواه من هذه الطرق كلها وقد سمعه من بعض الصحابة وبلغه عن بعضهم فان الاسانيد اليه جيدة وهو لا يتعمد الكذب وأصل الحديث محفوظ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما تقدم من رواية سعيد بن زيد رضى الله عنه وأما السلوى فقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس السلوى طائر يشبه بالسمانى كانوا يأكلون منه وقال السدى فى خبر ذكره عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة السلوى طائر يشبه السمانى وقال ابن أبى حاتم حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث حدثنا قرة بن خالد عن جهضم عن ابن عباس قال السلوى هو السمانى وكذا قال مجاهد والشعبى والضحاك والحسن وعكرمة والربيع بن أنس رحمهم الله تعالى وعن عكرمة اما السلوى فطير كطير يكون بالجنة أكبر من العصفور أو نحو ذلك وقال قتادة السلوى كان من طير الى الحمرة تحشرها عليهم الريح الجنوب وكان الرجل يذبح منها قدر ما يكفيه يومه ذلك فاذا تعدى فسد ولم يبق عنده حتى اذا كان

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى أحل الله له أن يتزوج من النساء ما يشاء ونسخ قوله تعالى قل لا أجد فيما أوحى الى محرما الآية بنهيه صلى الله عليه وآله وسلم عن أكل كل ذى ناب والكلام فى هذا يطول ومحله مطولات كتب الاصول فان استيفاء الكلام فى هذه المسئلة يحتاج الى رسالة مستقلة والله أعلم وعدة الآيات المنسوخات قد بلغها بعضهم الى خمسمائة آية لكن قال الشيخ أحمد ولى الله الدهلوى وعلى ما حررنا لا يتعين النسخ الا فى خمس آيات انتهى وعندى ان فى هذه الخمس نظرا أيضا كما بينته فى دليل الطالب وأما الاحاديث المنسوخة فعدتها عند ابن الجوزى أحد وعشرون حديثا وعند الحافظ ابن القيم أقل من عشرة أحاديث كما أفاد فى اعلام الموقعين وقال النسخ الواقع فى الاحاديث الذى أجمعت عليه الامة لا يبلغ عشرة أحاديث البتة ولا شطرها انتهى وقال الزرقانى فى شرح الموطا مذهب المحدثين والاصوليين والفقهاء انه متى أمكن الجمع بين الحديثين وجب الجمع انتهى وفى الدراسات لمحمد معين قد تكلمت على بطلان النسخ الاجتهادى فى أجزاء مفردة سميتها غاية الفسخ لمسئلة النسخ وهو الاكثر فى دعاوى المتأخرين لاسيما الفقهاء الحنفيين والنسخ المعول عليه عند المتقدمين هو المرفوع الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأما غيره فتعدية وتجاوز من التعبد الى التشريع انتهى وتفصيل ذلك ذكرناه فى افادة الشيوخ بمقدار الناسخ والمنسوخ (أم تريدون أن تسئلوا رسولكم كما سئل موسى من قبل) أم بمعنى بل وفى هذا توبيخ وتقريع أى سؤالا مثل ما سئل موسى حيث سألوه أن يريهم الله جهرة الى غير ذلك وسألوا محمدا صلى الله عليه وآله وسلم أن يأتى بالله والملائكة قبيلا ورويت فى سبب نزول هذه الآية روايات لا نطول بذكرها (ومن يتبدل الكفر بالايمان) أى يستبدل ويأخذه بدله بترك النظر فى الآيات البينات واقتراح غيرها والباء العوض كما استظهره السفاقسى لا للسبب كما قال به أبو البقاء قيل خطاب للمؤمنين أعلمهم ان اليهود أهل غش وحسد (فقد ضل سواء السبيل) من اضافة الصفة الى الموصوف أى الطريق المستوى أى المعتدل أى الحق ومعنى ضل أخطأ وسواء هو الوسط من كل شئ قاله أبو عبيدة ومنه قوله تعالى فى سواء الجحيم وقال الفراء السواء القصد أى ذهب عن قصد الطريق وسمته أى طريق طاعة الله (ود كثير من أهل الكتاب) أى تمنى كثير من اليهود فيه اخبار المسلمين بحرص اليهود على فتنتهم وردهم عن الاسلام

يوم سادسة ليوم جمعته أخذ ما يكفيه ليوم سادسة ويوم سابعة لانه كان يوم عبادة لا يشخص فيه لشيء ولا يطلبه وقال وهب بن منبه السلوى طير سمين مثل الحمامة كان يأتيهم فيأخذون منه من سبت الى سبت وفي رواية عن وهب قال سألت بنو اسرائيل موسى عليه السلام لحما فقال الله لاطعمنهم من أقل لحم يعلم في الارض فأرسل عليهم ريحا فاذرت عند مساكنهم السلوى وهو السماني مثل ميل في ميل قيد رمح في السماء فخبؤا للغد فنتن اللحم وخنز الخبز وقال السدي لما دخل بنو اسرائيل التيه قالوا لموسى عليه السلام كيف لنا بما ههنا أين الطعام فأنزل الله عليهم المن فكان ينزل على الشجر الزنجبيل والسلوى وهو طائر يشبه

السماني أكبر منه فكان يأتي احدهم فينظر الى الطير فان كان سمينا ذبحه والا أرسله فاذا سمن أتاه فقالوا هذا الطعام فأين الشراب فأمر موسى فضرب بعصاه الحجر فانفجرت منه اثنتي عشرة عينا فشرب كل سبط من عين فقالوا هذا الشراب فأين الظل فظلل عليهم الغمام فقالوا هذا الظل فأين اللباس فكانت ثيابهم تطول معهم كما تطول الصبيان ولا يتخرق لهم ثوب فذلك قوله تعالى وظللنا عليهم الغمام وأنزلنا عليهم المن والسلوى وقوله واذا استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الارض مفسدين وروى عن وهب بن منبه وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم نحو ما قاله السدي وقال سنيد عن حجاج عن ابن جريج قال قال ابن عباس خلق لهم في التيه ثياب لا تخرق ولا تدرن قال ابن جريج فكان الرجل اذا أخذ من المن والسلوى فوق طعام يوم فسد الا أنهم كانوا يأخذون في يوم الجمعة طعام يوم السبت فلا يصبح فاسدا قال ابن عطية السلوى طير باجماع المفسرين وقد غلط الهذلي في قوله انه العسل وأنشد في ذلك مستشهدا

وقاسمها بالله جهدا لانتم * ألذ من السلوى اذا ما نشورها

قال فظن ان السلوى عسلا قال القرطبي دعوى الاجماع لا يصح لان المؤرج أحد علماء اللغة والتفسير قال انه العسل واستدل ببيت الهذلي هذا وذكر انه كذلك في لغة كنانة لانه يسلى به ومنه عين سلوان وقال الجوهري السلوى العسل واستشهد ببيت الهذلي أيضا والسلوانة بالضم خرزة كانوا يقولون اذا صب عليها ماء المطر

والتشكيك عليهم في دينهم (لو) مصدرية (يردونكم من بعد ايمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم) يحتمل أن يتعلق بقوله ودّ أي ودوا ذلك من عند أنفسهم ويحتمل ان يتعلق بقوله حسدا أي حسدا ناشئا من عند أنفسهم وهو علة لقوله ودّ والحسد تمني زوال نعمة الانسان (من بعد ما تبين لهم الحق) يعني في التوراة ان قول محمد صلى الله عليه وآله وسلم ودينه حق لا يشكون فيه فكفروا به بغيا وحسدا (فاعفوا واصفحوا) والعفو ترك المؤاخذة بالذنب والصفح ازالة أثره من النفس صفحت عن فلان اذا أعرضت عن ذنبه وقد ضربت عنه صفحا اذا أعرضت عنه وقيل هما متقاربان والعطف على هذا للتأكيد وحسنه تغاير اللفظين وفيه الترغيب في ذلك والارشاد اليه وقد نسخ ذلك بالامر بالقتال قاله أبو عبيدة (حتى يأتي الله بأمره) أي افعلوا ذلك الى أن يأتي الحكم الامر من الله سبحانه في شأنهم بما يختاره ويشاؤه وما قد قضى به في سابق علمه وهو قتل من قتل منهم واجلاء من أجلى وضرب الجزية على من ضربت عليه والسلام على من أسلم (ان الله على كل شيء قدير) فيه وعيد وتهديد لهم عظيم (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وما تقدموا لانفسكم من خير) حث من الله سبحانه لهم على الاشتغال بما ينفعهم ويعود عليهم بالمصلحة من اقامة الصلاة وايتاء الزكاة وتقديم الخير الذي يثابون عليه حتى يمكن الله لهم وينصرهم على المخالفين لهم (تجدوه عند الله) يعني ثوابه وأجره حتى التمرة واللقمة مثل أحد (ان الله بما تعملون بصير) لا يخفى عليه شيء من قليل الاعمال وكثيرها وفيه ترغيب في الطاعات واعمال البر وزجر عن المعاصي (وقالوا) أي أهل الكتاب من اليهود والنصارى (لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى) قال الفراء يجوز أن يكون هودا بمعنى يهوديا وأن يكون جمع هائد والنصارى جمع نصران أو نصري والمراد يهود المدينة ونصارى نجران وقدمت اليهود على النصارى لتقدمهم زمانا قيل في هذا الكلام حذف وأصله وقالت اليهود لن يدخل الجنة الا من كان يهوديا وقالت النصارى لن يدخل الجنة الا من كان نصرانيا هكذا قال كثير من المفسرين وسبقهم الى ذلك بعض السلف وظاهر النظم القرآني ان طائفتي اليهود والنصارى وقع منهم هذا القول وانهم يختصون بذلك دون غيرهم ووجه القول بأن في الكلام حذفا ما هو معلوم من ان كل طائفة من هاتين الطائفتين تضلل الاخرى وتنفي عنها انها على شيء من الدين فضلا عن دخول الجنة

فشربها العاشق سلى قال الشاعر   شربت على سلوانة ماء مزنة * فلا وجديد العيش يامي ما أسلو   واسم ذلك الماء السلوان وقال بعضهم السلوان دواء يشفي الحزين فيسلو والاطباء يسمونه مفرح قالوا والسلوى جمع بلفظ الواحد أيضا كما يقال سماني للمفرد والجمع وويلى كذلك وقال الخليل واحدة وأنشد   واني لتعروني لذكراك هزة * كما انتفض السلواة من بلل القطر
وقال الكسائي السلوى واحدة وجمعه سلاوى نقله كله القرطبي وقوله تعالى كلوا من طيبات ما رزقناكم أمر اباحة وارشاد وامتنان وقوله تعالى وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون أي أمرناهم (١٦٥) بالاكل مما رزقناهم وان يعبدوا كما قال كلوا من رزق ربكم واشكروا له فخالفوا وكفروا فظلموا أنفسهم هذا مع ما شاهدوه من الآيات البينات والمعجزات القاطعات وخوارق العادات ومن ههنا تتبين فضيلة أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ورضي عنهم على سائر أصحاب الانبياء في صبرهم وثباتهم وعدم تعنتهم مع ما كانوا معه في أسفاره وغزواته منها عام تبوك في ذلك القيظ والحر الشديد والجهد لم يسألوا خرق عادة ولا ايجاد أمر مع ان ذلك كان سهلا على النبي صلى الله عليه وسلم ولكن لما أجهدهم الجوع سألوه في تكثير طعامهم فجمعوا ما معهم فجاء قدر مبرك الشاة فدعا الله فيه وأمرهم فملؤا كل وعاء معهم وكذا لما احتاجوا الى الماء سأل الله تعالى فجاءتهم سحابة فأمطرتهم فشربوا وسقوا الابل وملؤا أسقيتهم ثم نظروا فاذا هي لم تجاوز العسكر فهذا هو الاكمل في اتباع الشيء مع قدر الله مع متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم (واذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغدا وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين فبدل الذين ظلموا قولا غير الذي قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء بما كانوا يفسقون) يقول تعالى لائما لهم على نكولهم عن الجهاد ودخولهم الارض المقدسة لما قدموا من بلاد مصر صحبة موسى عليه السلام فأمروا بدخول الارض المقدسة التي هي ميراث لهم عن أبيهم اسرائيل وقتال من فيها من العماليق الكفرة فنكلوا عن قتالهم وضعفوا واستحسروا فرماهم الله في التيه عقوبة لهم كما ذكره تعالى في سورة المائدة ولهذا كان أصح القولين ان هذه البلدة هي بيت المقدس كما نص على ذلك السدي والربيع بن أنس وقتادة وأبو

كما في هذا الموضع فانه قد حكى الله عن اليهود انهم قالت ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء (تلك أمانيهم) أي شهواتهم الباطلة التي تمنوها على الله بغير حق والاماني جمع أمنية قد تقدم تفسيرها والاشارة بقوله تلك الى ما تقدم لهم من الاماني التي آخرها انه لا يدخل الجنة غيرهم وقيل ان الاشارة الى هذه الامنية الآخرة والتقدير مثال تلك الامنية أمانيهم على حذف المضاف ليطابق أمانيهم (قل هاتوا) يقال للمفرد المذكر هات وللمؤنث هاتي وهو اسم فعل بمعنى احضر وقيل اسم صوت بمعنى ها التي بمعنى احضر وقيل فعل أمر وهذا هو الصحيح (برهانكم) أي حجتكم على دعواكم ان الجنة لا يدخلها الا من كان يهوديا أو نصرانيا دون غيرهم والبرهان الدليل الذي يحصل عنده اليقين قال ابن جرير طلب الدليل هنا يقتضي اثبات النظر ويرد على من ينفيه والبرهان مشتق من البره وهو القطع ومنه برهة من الزمان أي القطعة منه وقيل نونه أصلية لثبوتها في برهن يبرهن برهنة والبرهنة البيان ووزنه فعلال لا فعلان (ان كنتم صادقين) أي في تلك الاماني المجردة والدعاوى الباطلة قال الرازي دلت الآية على ان المدعي سواء ادعى نفيا او اثباتا فلا بد له من الدليل والبرهان وذلك من أصدق الدلائل على بطلان القول بالتقليد انتهى ثم رد عليهم فقال (بلى) وهو اثبات لما نفوه من دخول غيرهم الجنة أي ليس كما تقولون بل يدخلها (من أسلم وجهه لله) أي استسلم وقيل أخلص وخص الوجه بالذكر لكونه أشرف ما يرى من الانسان ولانه موضع السجود ومجمع الحواس والمشاعر الظاهرة وفيه يظهر العز والذل وقيل ان العرب تخبر بالوجه عن جملة الشيء وان المعنى هنا الوجه وغيره وقيل المراد بالوجه هنا المقصد أي من أخلص مقصده ومجموع الشرط والجزاء رد على أهل الكتاب وابطال لتلك الدعوى (وهو محسن) موحد أي متبع في عمله لله (فله أجره عند ربه) أي ثواب عمله وهو الجنة (ولا خوف عليهم) أي في الآخرة وأما في الدنيا فالمؤمنون أشد خوفا وحزنا من غيرهم لاجل خوفهم من العاقبة (ولا هم يحزنون) على ما فاتهم من الدنيا أو للموت (وقالت اليهود ليست النصارى على شيء) قاله رافع بن حرملة (وقالت النصارى ليست اليهود على شيء) بيان لتضليل كل فريق صاحبه بخصوصه اثر بيان تضليله كل من عداه على وجه العموم قيل نزلت في يهود المدينة ونصارى نجران تناظروا عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم وارتفعت أصواتهم

وقالوا هذا القول وفيه أن كل طائفة تنفي الخير عن الاخرى ويتضمن ذلك اثباته لنفسها تحجر الرحمة الله سبحانه قال في الكشاف ان الشيء هو الذي يصح ويعتد به قال وهذه مبالغة عظيمة لان المحال والمعدوم يقع عليهما اسم الشيء واذا نفي اطلاق اسم الشيء عليه فقد بولغ في ترك الاعتداد به الى ماليس بعد وهكذا قولهم أقل من لاشيء (وهم يتلون الكتاب) أي التوراة والانجيل وليس فيهما هذا الاختلاف فكان حق كل منهم أن يعترف بحقية دين صاحبه حسبما ينطق به كتابه فان كتب الله تعالى متصادقة وقيل المراد جنس الكتاب وفي هذا أعظم توبيخ وأشد تقريع لان الوقوع في الدعاوي الباطلة والتكلم بما ليس عليه برهان هو وان كان قبيحا على الاطلاق لكنه من أهل العلم والدراسة لكتب الله أشد قبحا وأقطع جرما وأعظم ذنبا (كذلك) أي مثل ذلك الذي سمعت به بعينه لا قولا مغايرا له (قال الذين لا يعلمون مثل قولهم) المراد بهم كفار العرب الذين لا كتاب لهم قالوا مثل مقالة اليهود اقتداء بهم لانهم جهلة لا يقدرون على غير التقليد لمن يعتقدون انه من أهل العلم وقيل المراد بهم طائفة من اليهود والنصارى وهم الذين لا علم عندهم وقال عطاء هم أمم كانت قبل اليهود والنصارى مثل قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب قالوا في أنبيائهم انهم ليسوا على شيء (فالله يحكم بينهم يوم القيامة) أي بين المحق والمبطل (فيما كانوا فيه يختلفون) من أمر الدين أخبر سبحانه بأن هو المتولي لفصل هذه الخصومة التي وقع فيها الخلاف عند الرجوع اليه فيعذب من يستحق التعذيب وينجي من يستحق النجاة قال الرازي واعلم ان هذه الواقعة بعينها قد وقعت في امة محمد صلى الله عليه وآله وسلم فان كل طائفة تكفر الاخرى مع اتفاقهم على تلاوة القرآن انتهى (ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه) هذا الاستفهام فيه أبلغ دلالة على ان هذا الظلم غير متناه وانه بمنزلة لا ينبغي أن يلحقه سائر أنواع الظلم أي لا أحد أظلم ممن يمنع مساجد الله أي من يأتي اليها للصلاة والتلاوة والذكر وتعليمه (وسعى في خرابها) قال أبو البقاء الخراب اسم مصدر بمعنى التخريب وقال غيره هو مصدر خرب المكان يخرب خرابا وهو هنا السعي في هدمها ورفع بنيانها ويجوز أن يراد بالخراب تعطيلها عن الطاعات التي وضعت لها فيكون اعم من قوله ان يذكر فيها اسمه فيشمل جميع ما يمنع من الامور التي بنيت لها المساجد كتعلم العلم وتعليمه والقعود للاعتكاف وانتظار الصلاة ويجوز أن يراد ما هو أعم من الامرين من باب عموم

... الاصفهاني وغير واحد وقد قال الله تعالى حاكيا عن موسى ياقوم ادخلوا الارض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا الآيات وقال آخرون هي أريحاء ويحكى عن ابن عباس وعبد الرحمن بن زيد وهذا بعيد لانها ليست على طريقهم وهم قاصدون بيت المقدس لا أريحاء وأبعد من ذلك قول من ذهب الى انها مصر حكاه الرازي في تفسيره والصحيح الاول انها بيت المقدس وهذا كان لما خرجوا من التيه بعد أربعين سنة مع يوشع بن نون عليه السلام وفتحها الله عليهم عشية جمعة وقد حبست لهم الشمس يومئذ قليلا حتى أمكن الفتح ولما فتحوها أمروا (١٦٦) ان يدخلوا الباب باب البلد سجدا أي شكرا لله تعالى على ما أنعم به عليهم من الفتح والنصر ورد بلدهم عليهم وانقاذهم من التيه والضلال قال العوفي في تفسيره عن ابن عباس انه كان يقول في قوله تعالى وادخلوا الباب سجدا أي ركعا وقال ابن جرير حدثنا محمد بن بشار حدثنا أبو أحمد الزبيري حدثنا سفيان عن الاعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله وادخلوا الباب سجدا قال ركعا من باب صغير رواه الحاكم من حديث سفيان به ورواه ابن أبي حاتم من حديث سفيان وهو الثوري به وزاد فدخلوا من قبل استاههم وقال الحسن البصري أمروا ان يسجدوا على وجوههم حال دخولهم واستبعده الرازي وحكى عن بعضهم ان المراد ههنا بالسجود الخضوع لتعذر حمله على حقيقته وقال خصيف قال عكرمة قال ابن عباس كان الباب قبل القبلة وقال ابن عباس ومجاهد والسدي وقتادة والضحاك هو باب الحطة من باب ايلياء بيت المقدس وحكى الرازي عن بعضهم انه عنى بالباب جهة من جهات القبلة وقال خصيف قال عكرمة قال ابن عباس فدخلوا على شق وقال السدي عن أبي سعيد الازدي عن أبي الكنود عن عبد الله بن مسعود وقيل لهم ادخلوا الباب سجدا فدخلوا مقنعي رؤسهم أي رافعي رؤسهم خلاف ما أمروا وقوله تعالى وقولوا حطة قال الثوري عن الاعمش عن المنهال عن سعيد بن جبير عن ابن عباس وقولوا حطة قال مغفرة استغفروا وروى عن عطاء والحسن وقتادة والربيع بن أنس نحوه وقال الضحاك عن ابن عباس وقولوا حطة قال قولوا هذا الامر حق كما قيل لكم وقال عكرمة قولوا لا اله الا الله وقال الاوزاعي كتب ابن عباس الى رجل قد سماه فسأله عن قوله تعالى وقولوا حطة فكتب

الـ أن أقروا بالذنب وقال الحسن وقتادة أي احطط عنا خطايانا نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين وقال هذا جواب الامر أي اذا فعلتم ما أمرناكم غفرنا لكم الخطيئات وضاعفنا لكم الحسنات وحاصل الامر أنهم أمروا أن يخضعوا لله تعالى عند الفتح بالفعل والقول وان يعترفوا بذنوبهم ويستغفروا منها والشكر على النعمة عندها والمبادرة الى ذلك من المحبوب عند الله تعالى كما قال تعالى اذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا فسره بعض الصحابة بكثرة الذكر والاستغفار عند الفتح والنصر وفسره ابن عباس بانه نعي الى رسول الله صلى الله عليه وسلم أجله فيها وأقره على ذلك عمر رضي الله عنه ولا منافاة بين ان يكون قد أمر بذلك عند ذلك ونعي اليه روحه الكريمة أيضا ولهذا كان عليه الصلاة والسلام يظهر عليه الخضوع جدا عند النصر كما روي انه كان يوم الفتح فتح مكة داخلا اليها من الثنية العليا وانه لخاضع لربه حتى ان عثنونه ليمس مورك رحله شكرا لله على ذلك ثم لما دخل البلد اغتسل وصلى ثماني ركعات وذلك ضحى فقال بعضهم هذه صلاة الضحى وقال آخرون بل هي صلاة الفتح فاستحبوا للامام وللامير اذا فتح بلدا أن يصلي فيه ثماني ركعات عند أول دخوله كما فعل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه لما دخل ايوان كسرى صلى فيه ثماني ركعات والصحيح انه يفصل بين كل ركعتين بتسليم وقيل يصليها كلها بتسليم واحد والله أعلم وقوله تعالى فبدل الذين ظلموا قولا غير الذي قيل لهم قال البخاري حدثني محمد حدثنا عبد الرحمن بن مهدي عن ابن المبارك عن معمر عن همام بن منبه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال قيل لبني اسرائيل ادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة فدخلوا يزحفون على أستاههم فبدلوا وقالوا حطة حبة في شعرة ورواه النسائي عن محمد بن اسمعيل بن ابراهيم عن عبد الرحمن به موقوفا وعن محمد بن عبيد بن محمد عن ابن المبارك ببعضه مسندا في قوله تعالى حطة قال فبدلوا وقالوا حبة وقال عبد الرزاق أنبأنا معمر عن همام بن منبه انه سمع أبا هريرة يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله لبني اسرائيل ادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم فبدلوا ودخلوا الباب يزحفون على أستاههم فقالوا حبة في شعرة وهذا حديث صحيح رواه البخاري عن اسحق بن نصر ومسلم

المجاز كما قيل في قوله تعالى انما يعمر مساجد الله (أولئك ما كان لهم أن يدخلوها الا خائفين) هذا استثناء مفرغ من أعم الاحوال أي ما كان ينبغي للمانعين دخولها في جميع الاحوال الا حال خوفهم وخشوعهم وذلك أن بيت المقدس موضع حج النصارى وزيارتهم قال ابن عباس لم يدخلها بعد عمارتها رومي أو نصراني الا خائفا ان علم به قتل وقيل أخيفوا بالجزية والقتل فالجزية على الذمي والقتل على الحربي وقيل خوفهم هو فتح مدائنهم الثلاث قسطنطينية ورومية وعمورية والاول أولى وفيه ارشاد للعباد من الله عز وجل انه ينبغي لهم ان يمنعوا مساجد الله من أهل الكفر من غير فرق بين مسجد ومسجد وبين كافر وكافر كما يفيده عموم اللفظ ولا ينافيه حصول السبب الخاص وان يجعلوهم بحالة اذا أرادوا الدخول كانوا على وجل وخوف من ان يفطن لهم أحد من المسلمين فينزلون بهم ما يوجب الاهانة والاذلال وليس فيه الاذن لنا بتمكينهم من ذلك حال خوفهم بل هو كناية عن المنع لهم منا من دخول مساجدنا وقيل معناه ما كان الحق ان يدخلوها الا خائفين من المؤمنين ان يبطشوا بهم فضلا ان يمنعوهم منها أو ما كان لهم في علم الله وقضائه فيكون وعدا للمؤمنين بالنصر واستخلاص المساجد منهم وقد أنجز وعده (لهم في الدنيا خزي) يعني الصغار والذل والقتل والسبي وقيل هو ضرب الجزية عليهم واذلالهم وقيل غير ذلك وقد تقدم تفسيره (ولهم في الآخرة عذاب عظيم) يعني النار قال ابن عباس ان قريشا منعوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم الصلاة عند الكعبة في المسجد الحرام يعني في ابتداء الاسلام فأنزل الله ومن أظلم الآية نزلت في خراب بيت المقدس على يد فلطيوس الرومي ولم يزل خرابا حتى بناه المسلمون في عهد عمر رضي الله تعالى عنه وقال السدي هم الروم كانوا ظاهروا بختنصر على خراب بيت المقدس وليس في الارض رومي يدخله اليوم الا وهو خائف ان يضرب عنقه وقد أخيف باداء الجزية فهو يؤديها وأما خزيهم في الدنيا فانه اذا قام المهدي وفتحت القسطنطينية قتلهم فذلك الخزي وعن قتادة أنهم الروم وعن كعب أنهم النصارى لما ظهروا على بيت المقدس حرقوه وفيه انه لا خلاف بين أهل العلم بالسير ان عهد بختنصر كان قبل مولد المسيح بدهر طويل والنصارى كانوا بعد المسيح فكيف يكونون مع بختنصر في تخريب بيت المقدس وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال هم المشركون حين صدوا رسول الله صلى الله عليه وآله

عن محمد بن رافع والترمذي عن عبد الرحمن بن حميد كلاهما عن عبد الرزاق به وقال الترمذي حسن صحيح وقال محمد بن اسحق كان تبديلهم كما حدثني صالح بن كيسان عن صالح مولى التوأمة عن أبي هريرة وعمن لا أتهم عن ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال دخلوا الباب الذي أمروا ان يدخلوا فيه سجدا يزحفون على أستاههم وهم يقولون حنطة في شعيرة وقال أبو داود حدثنا أحمد بن صالح وحدثنا سليمان بن داود حدثنا عبد الله بن وهب حدثنا هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال الله لبني اسرائيل ادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم ثم قال أبو داود حدثنا أحمد بن مسافر حدثنا ابن أبي فديك عن هشام بمثله هكذا رواه منفردا به في كتاب الحروف مختصرا وقال ابن مردويه حدثنا عبد الله بن جعفر حدثنا ابراهيم بن مهدي حدثنا أحمد بن محمد بن المنذر القزاز حدثنا محمد بن اسمعيل بن أبي فديك عن هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري قال سرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى اذا كان من آخر الليل أجزنا في ثنية يقال لها ذات الحنظل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما مثل هذه الثنية الليلة الا كمثل الباب الذي قال الله لبني اسرائيل ادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وقال سفيان الثوري عن أبي اسحق عن البراء سيقول السفهاء من الناس قال اليهود قيل لهم ادخلوا الباب سجدا قال ركعا وقولوا حطة أي مغفرة فدخلوا على استاههم وجعلوا يقولون حنطة حمراء فيها شعيرة فذلك قول الله تعالى فبدل الذين ظلموا قولا غير الذي قيل لهم وقال الثوري عن السدي عن أبي سعد الازدي عن أبي الكنود عن ابن مسعود وقولوا بينهما حطة فقالوا حنطة حبة حمراء فيها شعيرة فأنزل الله فبدل الذين ظلموا قولا غير الذي قيل لهم وقال أسباط عن السدي عن مرة عن ابن مسعود انه قال انهم قالوا هطا سمعاثا أزبة مزبا فهي بالعربية حبة حنطة حمراء مثقوبة فيها شعيرة سوداء فذلك قوله تعالى فبدل الذين ظلموا قولا غير الذي قيل لهم وقال الثوري عن الاعمش عن المنهال عن سعيد عن ابن عباس في قوله تعالى ادخلوا الباب سجدا قال ركعا من باب صغير فدخلوا من قبل استاههم وقالوا حنطة فذلك قوله تعالى فبدل الذين ظلموا قولا غير الذي قيل لهم وهكذا

وسلم عن البيت يوم الحديبية قال أبو صالح ليس للمشركين ان يدخلوا المسجد الا خائفين عن قتادة قال يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون وقال مساجد الله وانما وقع المنع والتخريب على مسجد واحد وهو بيت المقدس أو المسجد الحرام لان الحكم عام وان كان السبب خاصا ورجح الطبري القول الاول وقال ان النصارى هم الذين سعوا في خراب بيت المقدس بدليل ان مشركي العرب لم يسعوا في خراب المسجد الحرام وان كانوا قد منعوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في بعض الاوقات من الصلاة فيه وأيضا الآية التي قبل هذه والتي بعدها في ذم أهل الكتاب ولم يجر لمشركي مكة ذكر ولا للمسجد الحرام فتعين ان يكون المراد بهذه بيت المقدس ورجح غيره القول الثاني بدليل ان النصارى يعظمون بيت المقدس أكثر من اليهود فكيف يسعون في خرابه وهو موضع حجهم قال الرازي وعندي فيه وجه خامس وهو أقرب الى رعاية النظم وهو انه لما حولت القبلة الى الكعبة شق ذلك على اليهود فكانوا يمنعون الناس عن الصلاة الى الكعبة ولعلهم سعوا أيضا في تخريب الكعبة وفي تخريب مسجد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وهذا التأويل أولى مما قاله انتهى وفي أحكام القرآن انه كل مسجد قال وهو الصحيح لان اللفظ عام ورد بصيغة الجمع فتخصيصه ببعض المساجد أو ببعض الازمنة محال قلت وهذا هو الصواب فان الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ويدخل فيه السبب الخاص دخولا أوليا (ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله) المشرق موضع الشروق والمغرب موضع الغروب وهما اسما مكان وقيل اسما مصدر أي الاشراق والاغراب أي هما ملك لله وما بينهما من الجهات والمخلوقات فيشمل الارض كلها أي أي جهة تستقبلونها فهناك وجه الله أي المكان الذي يرتضي لكم استقباله وذلك يكون عند التباس جهة القبلة التي أمرنا بالتوجه اليها بقوله سبحانه فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره قال في الكشاف والمعنى انكم اذا منعتم أن تصلوا في المسجد الحرام أو في بيت المقدس فقد جعلت لكم الارض مسجدا فصلوا في أي بقعة شئتم من بقاعها وافعلوا التولية فيها فان التولية ممكنة في كل مكان لا يختص أماكنها في مسجد دون مسجد ولا في مكان دون مكان انتهى وهذا التخصيص لا وجه له فان اللفظ أوسع منه وان كان المقصود به بيان السبب فلا بأس وأين هنا اسم شرط وهي ظرف مكان وتكون اسم استفهام أيضا فهي مشترك

بينهما وثم اسم اشارة للمكان البعيد خاصة مثل هنا وقال أبو البقاء نائب عن هناك وليس بشئ (ان الله واسع عليم) فيه ارشاد الى سعة رحمته وأنه يوسع على عباده فى دينهم ولا يكلفهم ماليس فى وسعهم وقيل واسع بمعنى أنه يسع علمه كل شئ كما قال وسع كل شئ علما وقال الفراء الواسع الجواد الذى يسع عطاؤه كل شئ عن ابن عباس قال أول ما نسخ من القرآن فيما ذكر لنا والله أعلم شأن القبلة قال الله تعالى ولله المشرق والمغرب الآية فاستقبل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فصلى نحو بيت المقدس وترك البيت العتيق ثم صرفه الله الى البيت العتيق ونسخها فقال ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد ومسلم والترمذى والنسائى وغيرهم عن ابن عمر قال كان النبى صلى الله عليه وآله وسلم يصلى على راحلته تطوعا أينما توجهت به ثم قرأ ابن عمر هذه الآية أينما تولوا فثم وجه الله وقال فى هذا أنزلت هذه الآية وأخرج نحوه عنه ابن جرير والدارقطنى والحاكم وصححه وقد ثبت فى صحيح البخارى من حديث جابر وغيره عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم انه كان يصلى على راحلته قبل المشرق فاذا أراد أن يصلى المكتوبة نزل واستقبل القبلة وصلى وأخرج عبد بن حميد والترمذى وضعفه وابن ماجه وابن جرير وغيرهم عن عامر بن ربيعة قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى ليلة سوداء مظلمة فنزلنا منزلا فجعل الرجل يأخذ الاحجار فيعمل مسجدا فيصلى فيه فلما ان أصبحنا اذا نحن قد صلينا على غير القبلة فقلنا يا رسول الله لقد صلينا ليلتنا هذه لغير القبلة فأنزل الله ولله المشرق والمغرب الآية فقال مضت صلاتكم عن ابن عباس قال قبلة الله أينما توجهت شرقا أو غربا وعن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال ما بين المشرق والمغرب قبلة أخرجه ابن أبى شيبة والترمذى وصححه وابن ماجه (وقالوا اتخذ الله ولدا) القائل هم اليهود والنصارى فاليهود قالوا عزير ابن الله والنصارى قالوا المسيح ابن الله وقيل هم كفار العرب قالوا الملائكة بنات الله أخرج البخارى عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال قال الله تعالى كذبنى ابن آدم وشتمنى فأما تكذيبه اياى فيزعم أنى لا أقدر أعيده كما كان وأما شتمه اياى فقوله لى ولد فسبحانى ان أتخذ صاحبة أو ولدا وأخرج نحوه أيضا من حديث أبى هريرة وفى الباب أحاديث والمراد بقوله (سبحانه) تنزيه الله تعالى عما نسبوا اليه من اتخاذ الولد وفيه رد على

روى عن عطاء ومجاهد وعكرمة والضحاك والحسن وقتادة والربيع بن أنس ويحيى بن رافع وحاصل ما ذكره المفسرون وما دل عليه السياق انهم بدلوا أمر الله لهم من الخضوع بالقول والفعل فأمروا أن يدخلوا سجدا فدخلوا يزحفون على أستاههم من قبل أستاههم رافعي رؤسهم وأمروا أن يقولوا حطة أى احطط عنا ذنوبنا وخطايانا فاستهزؤا فقالوا حنطة فى شعيرة وهذا فى غاية ما يكون من المخالفة والمعاندة ولهذا أنزل الله بهم بأسه وعذابه بفسقهم وهو خروجهم عن طاعته ولهذا قال فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء بما كانوا يفسقون وقال الضحاك عن ابن عباس (١٦٩) كل شئ فى كتاب الله من الرجز يعنى به العذاب وهكذا روى عن مجاهد وأبى مالك والسدى والحسن وقتادة انه العذاب وقال أبو العالية الرجز الغضب وقال الشعبى الرجز اما الطاعون واما البرد وقال سعيد بن جبير هو الطاعون وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو سعيد الاشج حدثنا وكيع عن سفيان عن حبيب بن أبى ثابت عن ابراهيم بن سعد يعنى ابن أبى وقاص عن سعد ابن مالك واسامة بن زيد وخزيمة بن ثابت رضى الله عنهم قالوا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الطاعون رجز عذاب عذب به من كان قبلكم وهكذا رواه النسائى من حديث سفيان الثورى به وأصل الحديث فى الصحيحين من حديث حبيب بن أبى ثابت اذا سمعتم الطاعون بارض فلا تدخلوها الحديث قال ابن جرير أخبرنى يونس بن عبد الاعلى عن ابن وهب عن يونس عن الزهرى وأخبرنى عامر بن سعد بن أبى وقاص عن اسامة بن زيد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان هذا الوجع والسقم رجز عذب به بعض الامم قبلكم وهذا الحديث أصله مخرج فى الصحيحين من حديث الزهرى ومن حديث مالك عن محمد بن المنكدر وسالم بن أبى النضر عن عامر بن سعد بنحوه (واذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا فى الارض مفسدين) يقول تعالى واذكروا نعمتى عليكم فى اجابتى لنبيكم موسى عليه السلام حين استسقانى لكم وتيسيرى لكم الماء واخراجه لكم من حجر يحمل معكم وتفجيرى الماء لكم منه من ثنتى عشرة عينا لكل سبط من أسباطكم عين قد عرفوها فكلوا من المن والسلوى واشربوا من هذا الماء الذى

أنبعته لكم بلا سعى منكم ولا كدّ واعبدوا الذى سخر لكم ذلك ولا تعثوا فى الارض مفسدين ولا تقابلوا النعم بالعصيان فتسلبوها وقد بسطه المفسرون فى كلامهم كما قال ابن عباس رضى الله عنه وجعل بين ظهرانيهم حجر مربع وأمر موسى عليه السلام فضربه بعصاه فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا فى كل ناحية منه ثلاث عيون وأعلم كل سبط عينهم يشربون منها لا يرتحلون من منقلة الا وجدوا ذلك معهم بالمكان الذى كان منهم بالمنزل الاول وهذا قطعة من الحديث الذى رواه النسائى وابن جرير وابن أبى حاتم وهو حديث الفتون الطويل وقال (١٧٠) عطية العوفى وجعل لهم حجرا مثل رأس الثور يحمل على ثور فاذا نزلوا منزلا وضعوه فضربه موسى عليه السلام بعصاه فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا فاذا ساروا حملوه على ثور فاستمسك الماء وقال عثمان ابن عطاء الخراسانى عن أبيه كان لبنى اسرائيل حجر فكان يضعه هرون ويضرب به موسى بالعصا وقال قتادة كان حجرا طوريا من الطور يحملونه معهم حتى اذا نزلوا ضربه موسى بعصاه وقال الزمخشرى وقيل كان من رخام وكان ذراعا فى ذراع وقيل مثل رأس الانسان وقيل كان من الجنة طوله عشرة أذرع على طول موسى وله شعبتان تتقدان فى الظلمة وكان يحمل على حمار قال وقيل أهبطه آدم من الجنة فتوارثوه حتى وقع الى شعيب فدفعه اليه مع العصا وقيل هو الحجر الذى وضع عليه ثوبه حين اغتسل فقال له جبريل ارفع هذا الحجر فان فيه قدرة ولك فيه معجزة فحمله فى مخلاته قال الزمخشرى ويحتمل أن تكون اللام للجنس لا للعهد أى اضرب الشئ الذى يقال له الحجر وعن الحسن لم يأمره ان يضرب حجرا بعينه قال وهذا أظهر فى المعجزة وأبين فى القدرة فكان يضرب الحجر بعصاه فينفجر ثم يضربه فييبس فقالوا القيامة ان فقد موسى هذا الحجر عطشنا فأوحى الله اليه أن يكلم الحجارة فتنفجر ولا يمسها بالعصا لعلهم يقرون والله أعلم وقال يحيى بن النضر قلت لجويبر كيف علم كل أناس مشربهم قال كان موسى يضع الحجر ويقوم من كل سبط رجل ويضرب موسى الحجر فينفجر منه اثنتا عشرة عينا فينتضح من كل عين على رجل فيدعو ذلك الرجل سبطه الى تلك العين وقال الضحاك قال ابن عباس لما كان بنو اسرائيل فى التيه شق لهم من الحجر أنهارا وقال الثورى عن أبى سعد عن عكرمة عن ابن عباس قال ذلك فى التيه ضرب لهم

القائلين بانه اتخذ ولدا الا ان اتخاذ الولد لبقاء النوع والله منزه عن الفناء والزوال (بل له ما فى السموات والارض) أى بل هو مالك لما فيهما فكيف ينسب اليه الولد وهؤلاء القائلون داخلون تحت ملكه والولد من جنسهم لا من جنسه ولا يكون الولد الا من جنس الوالد (كل له قانتون) أى مطيعون ومقرون له بالعبودية والقانت المطيع الخاضع أى كل من فى السموات والارض كائنا ما كان من أولى العلم وغيرهم مطيعون له خاضعون لعظمته خاشعون لجلاله لا يستعصى شئ منهم على تكوينه وتقديره ومشيئته والقنوت فى أصل اللغة القيام قال الزجاج فالخلق قانتون أى قائمون بالعبودية اما اقرارا واما ان يكونوا على خلاف ذلك فاثر الصنعة بين عليهم وقيل أصله الطاعة ومنه والقانتين والقانتات وقيل السكوت ومنه وقوموا لله قانتين ولهذا قال زيد بن أرقم كنا نتكلم فى الصلاة حتى نزلت وقوموا لله الآية فامرنا بالسكوت ونهينا عن الكلام وقيل القنوت الصلاة والاولى ان القنوت لفظ مشترك بين معان كثيرة قيل هى ثلاثة عشر معنى وهى مبينة وقد نظمها بعض أهل العلم واختلف فى حكم الآية فقيل هو خاص وقيل عام لان لفظة كل تقتضى الشمول والاحاطة (بديع السموات والارض) أبدع الشئ أنشأه لا عن مثال وكل من أنشأ مالم يسبق اليه قيل له مبدع والاصل بديع سمواته أى بدعت لجيئها على شكل فائق حسن غريب (واذا قضى أمرا) أى أحكمه وأتقنه قال الازهرى قضى فى اللغة على وجوه مرجعها الى انقطاع الشئ وتمامه قيل هو مشترك بين معان يقال قضى بمعنى خلق ومنه فقضاهن سبع سموات وبمعنى أعلم ومنه وقضينا الى بنى اسرائيل فى الكتاب وبمعنى أمر ومنه وقضى ربك ان لا تعبدوا الا اياه وبمعنى ألزم ومنه قضى عليه القاضى وبمعنى أوفى ومنه فلما قضى موسى الاجل وبمعنى أراد ومنه فاذا قضى أمرا والتقدير اذا قضى أمرا يكون ويحصل فلفظ يكون المقدر هو العامل فى اذا والامر واحد الامور وقد ورد فى القرآن على أربعة عشر معنى الاول الدين ومنه حتى جاء الحق وظهر أمر الله الثانى بمعنى القول ومنه فاذا جاء أمرنا الثالث العذاب ومنه لما قضى الامر الرابع عيسى ومنه فاذا قضى أمرا أى أوجد عيسى عليه السلام الخامس القتل ومنه فاذا جاء أمر الله السادس فتح مكة فتربصوا حتى يأتى الله بامره السابع قتل بنى قريظة وجلاء النضير ومنه فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بامره والثامن

موسى الحجر فصار منه اثنتا عشرة عينا من ماء لكل سبط منهم عين يشربون منها وقال مجاهد نحو قول ابن عباس وهذه القصة شبيهة بالقصة التي في سورة الاعراف ولكن تلك مكية فلذلك كان الاخبار عنهم بضمير الغائب لان الله تعالى يقص على رسوله صلى الله عليه وسلم مافعل بهم وأما في هذه السورة وهي البقرة فهي مدنية فلهذا كان الخطاب فيها متوجها اليهم وأخبر هناك بقوله فانبجست منه اثنتا عشرة عينا وهو أول الانفجار وأخبر ههنا بما آل اليه الحال آخرا وهو الانفجار فناسب ذكر الانفجار ههنا وذاك هناك والله أعلم وبين السياقين تباين من عشرة أوجه لفظية ومعنوية قد سأل عنها الزمخشري في تفسيره وأجاب عنها بما عنده والامر في ذلك قريب والله أعلم (واذ قلتم ياموسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الارض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير اهبطوا مصرا فان لكم ماسألتم) يقول تعالى واذكروا نعمتي عليكم في انزالي عليكم المن والسلوى طعاما طيبا نافعا هنيأ سهلا واذكروا دبركم وضجركم مما رزقناكم وسؤالكم موسى استبدال ذلك بالاطعمة الدنيئة من البقول ونحوها مما سألتم قال الحسن البصري فبطروا ذلك فلم يصبروا عليه وذكروا عيشهم الذي كانوا فيه وكانوا قوما أهل اعداس وبصل وبقل وفوم فقالوا ياموسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الارض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها وانما قالوا على طعام واحد وهم يأكلون المن والسلوى لانه لا يتبدل ولا يتغير كل يوم فهو مأكل واحد فالبقول والقثاء والعدس والبصل كلها معروفة وأما الفوم فقد اختلف السلف في معناه فوقع في قراءة ابن مسعود وثومها بالثاء وكذا فسره مجاهد في رواية ليث بن أبي سليم عنه بالثوم وكذا الربيع بن أنس وسعيد بن جبير وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا عمرو بن رافع حدثنا أبو عمارة يعقوب بن اسحق البصري عن يونس عن الحسن في قوله وفومها قال قال ابن عباس الثوم قال وفي اللغة القديمة فوموا لنا بمعنى اختبزوا قال ابن جرير فان كان ذلك صحيحا فانه من الحروف المبدلة كقولهم وقعوا في عاثور شر وعافور شر وأثافي وأثاثي ومغافير ومغاثير وأشباه ذلك مما تقلب الفاء ثاء والثاء فاء لتقارب مخرجيهما والله أعلم وقال آخرون الفوم الحنطة وهو البر الذي يعمل منه الخبز قال ابن أبي

القيامة ومنه أتى أمر الله التاسع القضاء ومنه يدبر الامر العاشر الوحي ومنه يتنزل الامر بينهن والحادي عشر أمر الخلائق ومنه ألا الى الله تصير الامور والثاني عشر النصر ومنه هل لنا من الامر من شئ والثالث عشر الذنب ومنه فذاقت وبال أمرها والرابع عشر الشأن ومنه وما أمر فرعون برشيد هكذا أورد هذه المعاني باطول من هذا بعض المفسرين وليس تحت ذلك كثير فائدة فاطلاقه على الامور المختلفة اصدق اسم الامر عليها (فانما يقول له كن فيكون) الظاهر في هذا المعنى الحقيقي وانه يقول سبحانه هذا اللفظ وليس في ذلك مانع ولا جاء ما يوجب تأويله ومنه قوله تعالى انما أمره اذا أراد شيأ أن يقول له كن فيكون وقال تعالى انما قولنا لشئ اذا أردناه ان نقول له كن فيكون وقال وما أمرنا الا واحدة كلمح بالبصر وقد قيل ان ذلك مجاز وانه لا قول وانما هو قضاء يقضيه فعبر عنه بالقول وقال البيضاوي ليس المراد حقيقة أمر وامتثال بل تمثيل حصول ما تعلقت به ارادته بلا مهلة بطاعة المأمور المطيع بلا توقف انتهى وهذا من أنفاسه الفلسفية وكم له من أشباه ذلك وأمثاله (وقال الذين لا يعلمون) قيل هم اليهود وقيل النصارى ورجحه ابن جرير لانهم المذكورون في الآية وقيل مشركو العرب وعليه أكثر المفسرين (لولا) حرف تحضيض أي هلا (يكلمنا الله) مشافهة من غير واسطة بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم فنعلم انه نبي أو بواسطة الوحي الينا لا اليك وهذا منهم استكبار وتعنت (أو تأتينا) لذلك (آية) أي علامة على نبوته وهذا منهم جحود (كذلك) أي مثل ذلك القول الشنيع الصادر عن العناد والفساد (قال الذين من قبلهم) قيل هم اليهود والنصارى في قول من جعل الذين لا يعلمون كفار العرب أو الامم السالفة في قول من جعل الذين لا يعلمون اليهود والنصارى أو اليهود في قول من جعل الذين لا يعلمون النصارى (مثل قولهم) وذلك ان اليهود سألوا موسى ان يريهم الله جهرة وان يسمعهم كلام الله وسألوه من الآيات ماليس لهم مسئلته (تشابهت قلوبهم) أي في التعنت والعمى والعناد والاقتراح وقال الفراء في اتفاقهم على الكفر والا لما تشابهت أقاويلهم الباطلة (قد بينا الآيات) أي نزلناها بينة بان جعلناها كذلك في أنفسها كما في قولهم سبحان من صغر البعوض وكبر الفيل لا أنا بيناها بعد ان لم تكن بينة (لقوم يوقنون) أي يعترفون بالحق وينصفون في القول ويذعنون لاوامر الله سبحانه لكونهم مصدقين له سبحانه

حاتم حدثنا يونس بن عبد الاعلى قراءة أنبأنا ابن وهب قراءة حدثنى نافع بن أبى نعيم ان ابن عباس سئل عن قول الله وفومها ما فومها
قال الحنطة قال ابن عباس أما سمعت قول أحيحة بن الجلاح وهو يقول

قد كنت أغنى الناس شخصا واحدا * ورد المدينة عن زراعة فوم

وقال ابن جرير حدثنا على بن الحسن حدثنا مسلم الجهنى
حدثنا عيسى بن يونس عن رشيد بن كريب عن أبيه عن ابن عباس فى قول الله تعالى وفومها قال الفوم الحنطة بلسان بنى هاشم
وكذا قال على بن أبى طلحة والضحاك عن ابن عباس وعكرمة عن ابن عباس ان الفوم الحنطة وقال سفيان الثورى

عن ابن جريج عن مجاهد وعطاء وفومها قالا وخبزها وقال هشيم عن يونس عن الحسن وحصين عن أبى مالك وفومها قال الحنطة وهو قول عكرمة والسدى والحسن البصرى وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم فالله أعلم وقال الجوهرى الفوم الحنطة وقال ابن دريد الفوم السنبلة وحكى القرطبى عن عطاء وقتادة أن الفوم كل حب يختبز قال وقال بعضهم هو الحمص لغة شامية ومنه يقال لبائعه فامى مغير عن فومى قال البخارى وقال بعضهم الحبوب التى تؤكل كلها فوم * وقوله تعالى قال أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير فيه تقريع لهم وتوبيخ على ما سألوا من هذه الاطعمة الدنيئة مع ما هم فيه من العيش الرغيد والطعام الهنئ الطيب النافع * وقوله تعالى اهبطوا مصرا هكذا هو منون مصروف مكتوب بالالف فى المصاحف الائمة العثمانية وهو قراءة الجمهور بالصرف قال ابن جرير ولا أستجيز القراءة بغير ذلك لاجماع المصاحف على ذلك
وقال ابن عباس اهبطوا مصرا قال مصرا من الامصار رواه ابن أبى حاتم من حديث أبى سعيد البقال
سعيد بن المرزبان عن عكرمة عنه قال وروى عن السدى وقتادة والربيع بن أنس نحو ذلك وقال ابن جرير وقع فى قراءة أبى بن
كعب وابن مسعود اهبطوا مصر من غير اجراء يعنى من غير صرف ثم روى عن أبى العالية والربيع بن أنس انهما فسرا ذلك بمصر
فرعون وكذا رواه ابن أبى حاتم عن أبى العالية والربيع وعن الاعمش أيضا قال ابن جرير ويحتمل أن يكون المراد مصر فرعون
على قراءة الاجراء أيضا ويكون ذلك من باب الاتباع لكتابة المصحف كما فى قوله تعالى قواريرا قواريرا ثم توقف فى المراد ما هو أمصر

مؤمنين بآياته متبعين لما شرعه لهم (انا أرسلناك بالحق) أى بالصدق وقال ابن
عباس بالقرآن وقيل بالاسلام وقيل معناه لم نرسلك عبثا بل أرسلناك بالحق (بشيرا) أى
مبشر الاوليائى وأهل طاعتى بالثواب العظيم (ونذيرا) أى منذرا ومخوفا لاعدائى
وأهل معصيتى بالعذاب الاليم (ولا تسئل عن أصحاب الجحيم) قرأ الجمهور بالرفع مبنيا
للمجهول أى حال كونك غير مسؤل وقرئ بالرفع مبنيا للمعلوم قال الاخفش ويكون
فى موضع الحال عطفا على بشيرا ونذيرا أى حال كونك غير سائل عنهم لان علم الله بكفرهم
بعد انذارهم يغنى عن سؤاله عنهم وقرأ نافع ولا تسأل بالجزم والمعنى ولا يصدر منك السؤال
عن هؤلاء وعمن مات منهم على كفره ومعصيته تعظيما لحاله وتغليظا لشأنه أى ان هذا
أمر فظيع وخطب شنيع يتعاظم المتكلم ان يجرى على لسانه ويتعاظم السامع ان
يسمعه وفى القاموس الجحيم النار الشديدة التأجج وكل نار بعضها فوق بعض والجحيم ما عظم
من النار قاله أبو مالك والمعنى لا تسأل عن حالهم التى تكون لهم فى القيامة فانها اشنعة
ولا يمكنك فى هذه الدار الاطلاع عليها وهذا فيه تخويف لهم وتسلية له صلى الله عليه
وآله وسلم وقد أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن محمد بن كعب
القرظى قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليت شعرى ما فعل أبواى فنزلت هذه
الآية فما ذكرهما حتى توفاه الله قال السيوطى هذا مرسل ضعيف الاسناد ثم رواه
من طريق ابن جرير عن داود بن أبى عاصم مرفوعا وقال هو معضل الاسناد لا تقوم به
ولا بالذى قبله حجة (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم) أى ليس
غرضهم ومبلغ الرضا منهم ما يقترحونه عليك من الآيات ويوردونه من التعنتات فانك لو
جئتهم بكل ما يقترحون وأجبتهم عن كل تعنت لم يرضوا عنك حتى تدخل فى دينهم وتتبع
ملتهم والملة اسم لما شرعه الله لعباده فى كتبه على ألسن أنبيائه وهكذا الشريعة وقال
ابن عباس هذا فى أمر القبلة أيسوا منه ان يوافقهم عليها والرضا ضد الغضب وهو من
ذوات الواو لقولهم الرضوان (قل ان هدى الله) أى الاسلام (هو الهدى) الحقيقى
لا ما أنتم عليه من الشريعة المنسوخة والكتب المحرفة ثم أتبع ذلك بوعيد شديد
لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال (ولئن) هذه تسمى اللام الموطئة للقسم وعلامتها
ان تقع قبل أدوات الشرط وأكثر مجيئها مع ان وقد تأتى مع غيرها نحو لما آتيتكم من

فرعون أم مصر من الامصار وهذا الذى قاله فيه نظر والحق أن المراد مصر من الامصار كما روى عن ابن عباس وغيره والمعنى على ذلك لان موسى عليه السلام يقول لهم هذا الذى سألتم ليس بأمر عزيز بل هو كثير فى أى بلد دخلتموها وجدتموه فليس يساوى مع دناءته وكثرته فى الامصار ان أسأل الله فيه ولهذا قال أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير اهبطوا مصرا فان لكم ماسألتم أى ماطلبتم ولما كان سؤالهم هذا من باب البطر والاشر ولا ضرورة فيه لم يجابوا اليه والله أعلم (وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق (١٧٣) ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) يقول تعالى وضربت عليهم الذلة والمسكنة أى وضعت عليهم وألزموا بها شرعا وقدرا أى لايزالون مستذلين من وجدهم استذلهم وأهانهم وضرب عليهم الصغار وهم مع ذلك فى أنفسهم أذلاء مستكينون قال الضحاك عن ابن عباس وضربت عليهم الذلة والمسكنة قال هم أصحاب القبالات يعنى الجزية وقال عبد الرزاق عن معمر عن الحسن وقتادة فى قوله تعالى وضربت عليهم الذلة قال يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون وقال الضحاك وضربت عليهم الذلة قال الذل وقال الحسن أذلهم الله فلا منعة لهم وجعلهم تحت أقدام المسلمين ولقد أدركتهم هذه الامة وأن المجوس لتجبيهم الجزية وقال أبو العالية والربيع بن أنس والسدى المسكنة الفاقة وقال عطية العوفى الخراج وقال الضحاك الجزية وقوله تعالى وباؤا بغضب من الله قال الضحاك استحقوا الغضب من الله وقال الربيع بن أنس فحدث عليهم غضب من الله وقال سعيد بن جبير وباؤا بغضب من الله يقول استوجبوا سخطا وقال ابن جرير يعنى بقوله وباؤا بغضب من الله انصرفوا ورجعوا ولا يقال باء الا موصولا اما بخير واما بشر يقال منه باء فلان بذنبه يبوء به بوأ وبواء ومنه قوله تعالى انى أريد أن تبوء باثمى واثمك يعنى تنصرف متحملهما وترجع بهما قد صارا عليك دونى فمعنى الكلام اذا رجعوا منصرفين متحملين غضب الله قد صار عليهم من الله غضب ووجب عليهم من الله سخط وقوله تعالى ذلك بانهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق يقول تعالى هذا الذى جازيناهم من الذلة والمسكنة واحلال الغضب بهم من الذلة بسبب استكبارهم عن اتباع الحق وكفرهم بآيات الله واهانتهم حملة الشرع وهم الانبياء وأتباعهم

كتاب لمن تبعك منهم (اتبعت أهواءهم) أى أهواء اليهود والنصارى (بعد الذى جاءك من العلم) أى البيان بان دين الله هو الاسلام وان القبلة هى قبلة ابراهيم وهى الكعبة ويحتمل ان يكون تعريضا لامته وتحذيرا لهم ان يواقعوا شيأ من ذلك أو يدخلوا فى أهواء أهل الملل ويطلبوا رضا أهل البدع أخرج الثعلبى عن ابن عباس قال ان يهود المدينة ونصارى نجران كانوا يرجون أن يصلى النبى صلى الله عليه وآله وسلم الى قبلتهم فلما صرف الله القبلة الى الكعبة شق ذلك عليهم وأيسوا منه أن يوافقهم على دينهم فأنزل الله هذه الآية وجواب القسم قوله (مالك من الله من ولى) يلى أمرك ويقوم بك (ولا نصير) ينصرك ويمنعك من عقابه وفى هذه الآية من الوعيد الشديد الذى ترجف له القلوب وتتصدع منه الافئدة مايوجب على أهل العلم الحاملين لحجج الله سبحانه والقائمين ببيان شرائعه ترك الدهان لاهل البدع المتمذهبين بمذاهب السوء التاركين للعمل بالكتاب والسنة المؤثرين لمحض الرأى عليهما فان غالب هؤلاء وان أظهر قبولا وأبان من أخلاقه لينا لايرضيه الا اتباع بدعته والدخول فى مداخله والوقوع فى حبائله فان فعل العالم ذلك بعد ان علمه الله من العلم مايستفيد به ان هدى الله هو مافى كتابه وسنة رسوله لا ماهم عليه من تلك البدع التى هى ضلالة محضة وجهالة بينة ورأى منهار وتقليد على شفا جرف هار فهو اذ ذاك ماله من الله من ولى ولا نصير ومن كان كذلك فهو لا محالة مخذول وهالك بلا شك وشبهة (الذين آتيناهم الكتاب) هم اليهود والنصارى قاله قتادة وقيل هم المسلمون والكتاب هو القرآن وقيل من أسلم من أهل الكتاب وقال ابن عباس نزلت فى أهل السفينة الذين قدموا مع جعفر بن أبى طالب وكانوا أربعين رجلا ثمانية من رهبان الشام منهم بحيرى الراهب والباقى من الحبشة وقيل هم المؤمنون عامة (يتلونه حق تلاوته) أى يقرؤنه كما أنزل لايغيرونه ولايحرفونه ولايبدلون مافيه من نعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقيل المراد بالتلاوة أنهم يعملون بما فيه فيحللون حلاله ويحرمون حرامه فيكون من تلاه يتلوه اذا اتبعه أى يتبعونه حق اتباعه ومنه قوله تعالى والقمر اذا تلاها أى اتبعها قاله ابن عباس وقال عمر بن الخطاب يعنى اذا مر بذكر الجنة يسأل الجنة واذا مر بذكر النار تعوذ من النار وقال زيد بن أسلم يتكلمون به كما أنزل ولايكتمونه عن قتادة قال هم أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم وعن الحسن قال يعملون بمحكمه

فانتقصوهم الى أن أفضى بهم الحال الى أن قتلوهم فلا كفر أعظم من هذا انهم كفروا بآيات الله وقتلوا أنبياء الله بغير الحق ولهذا جاء في الحديث المتفق على صحته أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الكبر بطر الحق وغمط الناس وقال الامام أحمد رحمه الله حدثنا اسمعيل عن ابن عون عن عمرو بن سعيد عن حميد بن عبد الرحمن قال قال ابن مسعود كنت لا أحجب عن النجوى ولا عن كذا ولا عن كذا فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده مالك بن مرارة الرهاوي فادركته من آخر حديثه وهو يقول يارسول الله قد قسم لي من الجمال ماترى فما أحب ان أحدا (١٧٤) من الناس فضلني بشراكين فما فوقهما أليس ذلك هو البغي فقال لا ليس ذلك من البغي ولكن البغي من بطر أو قال سفه الحق وغمط الناس يعني رد الحق وانتقاص الناس والازدراء بهم والتعاظم عليهم ولهذا لما ارتكب بنو اسرائيل ماارتكبوه من الكفر بآيات الله وقتلهم أنبياءه أحل الله بهم بأسه الذي لا يرد وكساهم ذلا في الدنيا موصولا بذل الآخرة جزاء وفاقا قال أبو داود الطيالسي حدثنا شعبة عن الاعمش عن ابراهيم عن أبي معمر عن عبد الله ابن مسعود قال كانت بنو اسرائيل في اليوم تقتل ثلثمائة نبي ثم يقيمون سوق بقلهم من آخر النهار وقد قال الامام أحمد حدثنا عبد الصمد حدثنا أبان حدثنا عاصم عن أبي وائل عن عبد الله يعني ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أشد الناس عذابا يوم القيامة رجل قتله نبي أو قتل نبيا وامام ضلالة وممثل من الممثلين وقوله تعالى ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون وهذه علة أخرى في مجازاتهم بما جوزوا به انهم كانوا يعصون ويعتدون فالعصيان فعل المناهي والاعتداء المجاوزة في حد المأذون فيه والمأمور به والله أعلم (ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون) لما بين تعالى حال من خالف أوامره وارتكب زواجره وتعدى في فعل مالا اذن فيه وانتهك المحارم وما أحل بهم من النكال نبه تعالى على أن من أحسن من الامم السالفة واطاع فان له جزاء الحسنى وكذلك الامر الى قيام الساعة كل من اتبع الرسول النبي الامي فله السعادة الابدية ولا خوف عليهم فيما يستقبلونه ولاهم يحزنون على مايتركونه ويخلفونه كما قال تعالى ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولاهم

ويؤمنون بمتشابهه ويكلون ما أشكل عليهم الى عالمه وقيل يتدبرونه حق تدبره ويتفكرون في معانيه وحقائقه وأسراره (أولئك يؤمنون به) أي يصدقون به فان كانت الآية في أهل الكتاب فالمعنى ان المؤمن بالتوراة الذي يتلوها حق تلاوتها هو المؤمن بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم لان في التوراة نعته وصفته وان كانت في المؤمنين عامة فالمعنى ظاهر (ومن يكفر به) أي يجحد مافيه من فرائض الله ونبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم (فاولئك هم الخاسرون) أي خسروا أنفسهم حيث استبدلوا الكفر بالايمان (يابني اسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيأ ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولاهم ينصرون) قد مر مثل هذا في صدر السورة وقد تقدم تفسيره وهذا من العام الذي يراد به الخاص كقوله تعالى ولا تنفع الشفاعة عنده الا لمن أذن له ومعنى الآية ولا تنفعها شفاعة اذا وجب عليها العذاب ولم تستحق سواه وقيل انه رد على اليهود في قولهم ان آباءنا يشفعون لنا ووجه التكرار الحث على اتباع الرسول النبي الامي ذكر معناه ابن كثير في تفسيره وقيل للتوكيد وتذكير النعم وفيه عظة لليهود الذين كانوا في زمن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقال البقاعي في تفسيره انه لما طال المدى في استقصاء تذكيرهم بالنعم ثم في بيان عوارهم وهتك أستارهم وختم ذلك بالترهيب لتضييع أديانهم باعمالهم وأحوالهم وأقوالهم أعاد ماصدر به قصتهم من التذكير بالنعم والتحذير من حلول النقم يوم يجمع الامم ويدوم فيه الندم لمن زلت به القدم ليعلم أن ذلك فذلكة القصة والمقصود بالذات الحث على انتهاز الفرصة انتهى وأقول ليس هذا بشيء فانه لو كان سبب التكرار ماذكره من طول المدى وانه أعاد ماصدر به قصتهم لذلك لكان الاولى بالتكرار والاحق باعادة الذكر هو قوله سبحانه يابني اسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم واياي فارهبون فان هذه الآية مع كونها أول الكلام معهم والخطاب لهم في هذه السورة هي أيضا أولى بان تعاد وتكرر لما فيها من الامر بذكر النعم والوفاء بالعهد والرهبة لله سبحانه وبهذا تعرف صحة ماقدمناه لك عند أن شرع الله سبحانه في خطاب بني اسرائيل من هذه السورة فراجعه ثم حكى البقاعي بعد كلامه السابق عن الحراني انه قال كرره تعالى اظهارا لمقصد التئام آخر الخطاب باوله لتتخذ هذا الافصاح والتعليم أصلا لما يمكن بان يرد من

نحوه

يحزنون وكما تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار في قوله ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا عمر بن أبي عمر العدوي حدثنا سفيان عن ابن أبي نجيح عن مجاهد قال قال سلمان رضي الله عنه سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن أهل دين كنت معهم فذكرت من صلاتهم وعبادتهم فنزلت ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر الى آخر الآية وقال السدي ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا الآية نزلت في أصحاب سلمان الفارسي بينا هو يحدث النبي صلى الله عليه وسلم اذ ذكر أصحابه فأخبره خبرهم فقال كانوا يصلون ويصومون ويؤمنون بك ويشهدون انك ستبعث نبيا فلما فرغ سلمان من ثنائه عليهم قال له نبي الله صلى الله عليه وسلم يا سلمان هم من أهل النار فاشتد ذلك على سلمان فأنزل الله هذه الآية فكان ايمان اليهود (١) أنه من تمسك بالتوراة وسنة موسى عليه السلام حتى جاء عيسى فلما جاء عيسى كان من تمسك بالتوراة وأخذ بسنة موسى فلم يدعها ولم يتبع عيسى كان هالكا وايمان النصارى ان من تمسك بالانجيل منهم وشرائع عيسى كان مؤمنا مقبولا منهم حتى جاء محمد صلى الله عليه وسلم فمن لم يتبع محمدا صلى الله عليه وسلم منهم ويدع ما كان عليه من سنة عيسى والانجيل كان هالكا قال ابن أبي حاتم وروى عن سعيد بن جبير نحو هذا قلت وهذا لا ينافي ما روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر الآية (٢) فأنزل الله بعد ذلك ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين فان هذا الذي قاله ابن عباس اخبار عن أنه لا يقبل من أحد طريقة ولا عملا الا ما كان موافقا لشريعة محمد صلى الله عليه وسلم بعد أن بعثه بما بعثه به فأما قبل ذلك فكل من اتبع الرسول في زمانه فهو على هدى وسبيل ونجاة فاليهود أتباع موسى عليه السلام الذين كانوا يتحاكمون الى التوراة في زمانهم * واليهود من الهوادة وهي المودة أو التهود وهي التوبة كقول موسى عليه السلام انا هدنا اليك أي تبنا فكأنهم سموا بذلك في الاصل لتوبتهم ومودتهم في بعضهم لبعض وقيل لنسبتهم الى يهودا أكبر أولاد يعقوب وقال أبو عمرو بن

نحوه في سائر القرآن حتى كان الخطاب اذا انتهى الى غاية خاتمة يجب ان يلحظ القلب بداية تلك الغاية فيتلوها ليكون في تلاوته جامعا للطرفين الثناء وفي تفهمه جامعا للمعاني طرفي المعنى انتهى وأقول لو كان هذا سبب التكرار لكان الاولى به ما عرفناك واما قوله وليتخذ ذلك أصلا لما يرد من التكرار في سائر القرآن فمعلوم ان حصول هذا الامر في الاذهان وتقرره في الافهام لا يختص بتكرار آية معينة يكون افتتاح هذا المقصد بها فلم تتم حينئذ النكتة في تكريره هاتين الآيتين بخصوصهما ولله الحكمة البالغة التي لا تبلغها الافهام ولا تدركها العقول فليس في تكلف هذه المناسبات المتعسفة الا ما عرفناك به هنالك فتذكر

(واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات) الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أو لبني اسرائيل والابتلاء الاختبار والامتحان أي ابتلاه بما أمره به وهو استعارة لمعنى واقعه على طريق التمثيل أي فعل معه فعلا مثل فعل المختبر والغرض من هذا التذكير توبيخ أهل الملل المخالفين وذلك لان ابراهيم يعترف بفضله جميع الطوائف قديما وحديثا فحكى الله عن ابراهيم أمورا توجب على المشركين واليهود والنصارى قبول قول محمد صلى الله عليه وآله وسلم لان ما أوجبه الله على ابراهيم جاء به محمد وفي ذلك حجة عليهم * وابراهيم اسم أعجمي معناه في السريانية أب رحيم كذا قال الماوردي قال ابن عطية ومعناه في العربية ذلك قال السهيلي وكثيرا ما يقع الاتفاق بين السرياني والعربي وفيه لغات وكان مولد ابراهيم بالسوس من أرض الاهواز وقيل ببابل وقيل بكوثى وهي قرية من سواد الكوفة وقيل بحران ولكن أباه نقله الى أرض بابل وهي أرض نمروذ الجبار وقد أورد صاحب الكشاف هنا سؤالا في رجوع الضمير الى ابراهيم مع كون رتبته التأخير وأجاب عنه بانه قد تقدم لفظا فرجع اليه والامر في هذا أوضح من ان يشتغل بذكره أو ترد في مثله الاسئلة أو يسود وجه القرطاس بايضاحه وقد اختلف العلماء في تعيين الكلمات فقيل هي شرائع الاسلام وقيل ذبح ابنه وقيل أداء الرسالة وقيل هي خصال الفطرة وقيل قوله اني جاعلك للناس اماما وقيل الطهارة قال الزجاج وهذه الاقوال ليست بمتناقضة لان هذا كله مما ابتلى به ابراهيم انتهى وظاهر النظم القرآني أن الكلمات هي قوله اني جاعلك وما بعده ويكون ذلك بيانا للكلمات وجاء عن بعض السلف ما يوافق ذلك وعن آخرين ما يخالفه والحق أنه اذا لم يصح شئ عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولا جاءنا من طريق تقوم

---

(١) (٢) قوله انه من تمسك الخ وقوله بعد ذلك فأنزل الله الخ كذا بالاصل وفي الحلبين كلام لعله سقط من الناسخ حرر اهـ

العلاء لانهم يتهودون أى يتحركون عند قراءة التوراة فلما بعث عيسى صلى الله عليه وسلم وجب على بنى اسرائيل اتباعه والانقياد له فأصحابه وأهل دينه هم النصارى وسموا بذلك لتناصرهم فيما بينهم وقد يقال لهم أنصار أيضا كما قال عيسى عليه السلام من أنصارى الى الله قال الحواريون نحن أنصار الله وقيل انهم انما سموا بذلك من أجل انهم نزلوا أرضا يقال لها ناصرة قاله قتادة وابن جريج وروى عن ابن عباس ايضا والله أعلم والنصارى جمع نصران كنشاوى جمع نشوان وسكارى جمع سكران ويقال للمرأة نصرانة قال الشاعر * نصرانة لم تحنف * فلما بعث الله (١٧٦) محمدا صلى الله عليه وسلم خاتما للنبيين ورسولا الى بنى آدم على الاطلاق وجب عليهم تصديقه فيما أخبر وطاعته فيما أمر والانكفاف عما عنه زجر وهؤلاء هم المؤمنون حقا وسميت أمة محمد صلى الله عليه وسلم مؤمنين لكثرة ايمانهم وشدة ايقانهم ولانهم يؤمنون بجميع الانبياء الماضية والغيوب الآتية وأما الصابئون فقد اختلف فيهم فقال سفيان الثورى عن ليث بن أبى سليم عن مجاهد قال الصابئون قوم بين المجوس واليهود والنصارى ليس لهم دين وكذا رواه ابن أبى نجيح عنه وروى عن عطاء وسعيد بن جبير نحو ذلك وقال أبو العالية والربيع ابن أنس والسدى وأبو الشعثاء جابر بن زيد والضحاك واسحق بن راهويه الصابئون فرقة من أهل الكتاب يقرؤن الزبور ولهذا قال أبو حنيفة واسحق لا بأس بذبائحهم ومناكحتهم وقال هشيم عن مطرف كنا عند الحكم بن عتيبة فحدثه رجل من أهل البصرة عن الحسن أنه كان يقول فى الصابئين انهم كالمجوس فقال الحكم ألم أخبركم بذلك وقال عبد الرحمن بن مهدى عن معاوية بن عبد الكريم سمعت الحسن ذكر الصابئين فقال هم قوم يعبدون الملائكة وقال ابن جرير ايضا حدثنا محمد بن عبد الاعلى حدثنا المعتمر بن سليمان عن أبيه عن الحسن قال أخبر زياد ان الصابئين يصلون الى القبلة ويصلون الخمس قال فأراد أن يضع عنهم الجزية قال فخبر بعد أنهم يعبدون الملائكة وقال أبو جعفر الرازى بلغنى أن الصابئين قوم يعبدون الملائكة ويقرؤن الزبور ويصلون للقبلة وكذا قال سعيد بن أبى عروبة عن قتادة وقال ابن أبى حاتم حدثنا يونس بن عبد الاعلى أخبرنا ابن وهب أخبرنى ابن أبى الزناد عن أبيه قال الصابئون قوم مما يلى العراق وهم بكوثى وهم يؤمنون بالنبيين كلهم ويصومون

بها الحجة فى تعيين تلك الكلمات لم يبق لنا الا أن نقول انها ما ذكره الله سبحانه فى كتابه قال انى جاعلك للناس اماما ويكون ذلك بيانا للكلمات أو السكوت واحالة العلم فى ذلك على الله سبحانه وأما ما روى عن ابن عباس ونحوه من الصحابة ومن بعدهم فى تعيينها فهو أولا أقوال الصحابة ولا تقوم بها الحجة فضلا عن أقوال من بعدهم وعلى تقدير أنه لا مجال للاجتهاد فى ذلك وان له حكم الرفع فقد اختلفوا فى التعيين اختلافا يمتنع معه العمل ببعض ما روى عنهم دون البعض الآخر بل اختلفت الروايات عن الواحد منهم كما روى عن ابن عباس فكيف يجوز العمل بذلك وبهذا تعرف ضعف قول من قال انه يصار الى العموم ويقال تلك الكلمات هى جميع ما ذكر ههنا فان هذا يستلزم تفسير كلام الله بالضعيف والمتناقض وما لا تقوم به الحجة وعلى هذا فيكون قوله انى جاعلك مستأنفا كأنه قيل ماذا قال له وقال ابن جرير ما حاصله أنه يجوز أن يكون المراد بالكلمات جميع ذلك وجائز أن يكون بعض ذلك ولا يجوز الجزم بشئ منها انه المراد على التعيين الا بحديث أو اجماع ولم يصح فى ذلك خبر بنقل الواحد ولا بنقل الجماعة الذى يجب التسليم له ثم قال ان الذى قاله مجاهد وأبو صالح والربيع بن أنس أولى بالصواب يعنى ان الكلمات هى قوله انى جاعلك للناس اماما وقوله وعهدنا الى ابراهيم وما بعده ورجح ابن كثير انها تشمل جميع ما ذكر وفيه بعد (فأتمهن) أى قام بهن أتم قيام وامتثل أكمل امتثال واختلف هل كان هذا الابتلاء قبل النبوة أو بعدها فقيل بالاول بدليل السياق فانه يدل على أن قيامه عليه السلام بهن كالسبب لان يجعله الله اماما والسبب يتقدم على المسبب وقيل بالثانى لان التكليف لا يعلم الا من جهة الوحى الالهى وذلك بعد النبوة وقيل ان فسر الابتلاء بالكوكب والقمر والشمس كان ذلك قبل النبوة وان فسر بما وجب عليه من شرائع الدين كان ذلك بعد النبوة (قال انى جاعلك للناس) أى لاجلهم (اماما) يقتدى بدينك وهديك وسنتك والامام هو الذى يؤتم به ومنه قيل للطريق امام وللبناء امام لانه يؤتم بذلك أى يهتدى به السالك والامام لما كان هو القدوة للناس لكونهم يأتمون به ويهتدون بهديه أطلق عليه هذا اللفظ اذ لم يبعث بعده نبى الا كان من ذريته مأمورا باتباعه فى الجملة وابراهيم يعترف بفضله جميع الطوائف قديما وحديثا أما اليهود والنصارى فانهم مقرون بفضله ويتشرفون بالنسبة اليه وانهم من أولاده وأما العرب فى الجاهلية فانهم

أيضا يعترفون بفضله ويتشرفون على غيرهم به لانهم من أولاده ومن ساكني حرمه وخدام بيته ولما جاء الاسلام زاده الله شرفا وفضلا لا يخفى الله عن ابراهيم امورا توجب على المشركين والنصارى واليهود قبول قول محمد صلى الله عليه وآله وسلم والاعتراف بدينه والانقياد لشرعه لان ما أوجبه الله على ابراهيم هو من خصائص دين محمد صلى الله عليه وآله وسلم وفى ذلك حجة على اليهود والنصارى ومشركي العرب فى وجوب الانقياد لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم والايمان به وتصديقه (قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين) يحتمل أن يكون ذلك دعاء من ابراهيم أي واجعل من بعض ذريتي أئمة ويحتمل أن يكون هذا من ابراهيم لقصد الاستفهام وان لم يكن بصيغته أي ومن ذريتي ماذا يكون يارب فاخبره أن فيهم عصاة وظلمة وانهم لا يصلحون لذلك ولا يقومون به ولا ينالهم عهد الله سبحانه وتخصيص البعض بذلك لبداهة استحالة امامة الكل وان كانوا على الحق عن قتادة قال هذا عند الله يوم القيامة لا ينال عهده ظالما فاما فى الدنيا فقد نالوا عهده فوارثوا به المسلمين وغادوهم وناكحوهم فلما كان يوم القيامة قصر الله عهده وكرامته على أوليائه وعن مجاهد قال لا أجعل اماما ظالما يقتدى به وعن ابن عباس قال يخبره انه ان كان فى ذريته ظالم لا ينال عهده ولا ينبغي له أن يوليه شيأ من أمره والنيل الادراك وهو العطاء والذرية مأخوذة من الذر لان الله أخرج الخلق من ظهر آدم عليه السلام حين أشهدهم على أنفسهم كالذر وقيل مأخوذ من ذرأ الله الخلق يذرؤهم اذا خلقهم وفى الكتاب العزيز فاصبح هشيما تذروه الرياح وقال الخليل انما سموا ذرية لان الله تعالى ذرأها على الارض كما ذرأ الزراع البذر قال ابن فارس يؤخذ من هذا اباحة السعي فى منافع الذرية والقرابة وسؤال من بعده ذلك واختلف فى المراد بالعهد فقيل الامامة وقيل النبوة وقيل عهد الله أمره وقيل الامان من عذاب الآخرة ورجحه الزجاج والاول أظهر كما يفيده السياق وقد استدل بهذه الآية جماعة من أهل العلم على أن الامام لا بد أن يكون من أهل العدل والعمل بالشرع كما ورد لانه اذا زاغ عن ذلك كان ظالما ويمكن أن ينظر الى ما يصدق عليه اسم العهد وما يفيده الاضافة من العموم فيشمل جميع ذلك اعتبارا بعموم اللفظ من غير نظر الى السبب ولا الى السياق فيستدل به على اشتراط السلامة من وصف الظلم فى كل من تعلق بالامور الدينية وقد اختار ابن جرير ان هذه الآية وان كانت ظاهرة فى

من كل سنة ثلاثين يوما ويصلون الى اليمن كل يوم خمس صلوات وسئل وهب بن منبه عن الصابئين فقال الذي يعرف الله وحده وليست له شريعة يعمل بها ولم يحدث كفرا وقال عبد الله بن وهب قال عبد الرحمن بن زيد الصابئون دين من الاديان كانوا بجزيرة الموصل يقولون لا اله الا الله وليس لهم عمل ولا كتاب ولا نبي الا قول لا اله الا الله قال ولم يؤمنوا برسول فمن أجل ذلك كان المشركون يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه هؤلاء الصابئون يشبهونهم بهم يعني فى قول لا اله الا الله وقال الخليل هم قوم يشبه دينهم دين النصارى الا أن قبلتهم نحو مهب الجنوب يزعمون أنهم (١٧٧) على دين نوح عليه السلام وحكى القرطبي عن مجاهد والحسن وابن أبي نجيح انهم قوم تركب دينهم بين اليهود والمجوس ولا تؤكل ذبائحهم ولا تنكح نساؤهم قال القرطبي والذي تحصل من مذهبهم فيما ذكره بعض العلماء أنهم موحدون ويعتقدون تأثير النجوم وانها فاعلة ولهذا أفتى ابو سعيد الاصطخري بكفرهم للقادر بالله حين سأله عنهم واختار الرازي ان الصابئين قوم يعبدون الكواكب بمعنى ان الله جعلها قبلة للعبادة والدعاء أو بمعنى ان الله فوض تدبير أمر هذا العالم اليها قال وهذا القول هو المنسوب الى الكشرانيين الذين جاءهم ابراهيم عليه السلام رادا عليهم ومبطلا لقولهم وأظهر الاقوال والله أعلم قول مجاهد ومتابعيه ووهب بن منبه انهم قوم ليسوا على دين اليهود ولا النصارى ولا المجوس ولا المشركين وانما هم قوم باقون على فطرتهم ولا دين مقرر لهم يتبعونه ويقتفونه ولهذا كان المشركون ينبزون من أسلم بالصابئ أي انه قد خرج عن سائر أديان أهل الارض اذ ذاك وقال بعض العلماء الصابئون الذين لم تبلغهم دعوة نبي والله أعلم (واذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون ثم توليتم من بعد ذلك فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين) يقول تعالى مذكرا بني اسرائيل ما أخذ عليهم من العهود والمواثيق بالايمان به وحده لا شريك له واتباع رسله وأخبر تعالى انه لما أخذ عليهم الميثاق رفع الجبل فوق رؤسهم ليقروا بما عوهدوا عليه ويأخذوه بقوة وجزم وامتثال كما قال تعالى واذ نتقنا الجبل فوقهم كانه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون فالطور هو الجبل كما فسره به

في الاعراف ونص على ذلك ابن عباس ومجاهد وعطاء وعكرمة والحسن والضحاك والربيع بن أنس وغير واحد وهذا هو الظاهر وفي رواية عن ابن عباس الطور ما أنبت من الجبال وما لم ينبت فليس بطور وفي حديث الفتون عن ابن عباس انهم لما امتنعوا عن الطاعة رفع عليهم الجبل ليسمعوا وقال السدي فلما أبوا أن يسجدوا أمر الله الجبل أن يقع عليهم فنظروا اليه وقد غشيهم فسقطوا سجدا فسجدوا على شق ونظروا بالشق الآخر فرحمهم الله فكشفه عنهم فقالوا والله ما سجدة أحب الى الله من سجدة كشف بها العذاب عنهم فهم يسجدون كذلك (١٧٨) وذلك قول الله تعالى ورفعنا فوقكم الطور وقال الحسن في قوله خذوا ما آتيناكم بقوة يعني التوراة وقال أبو العالية والربيع ابن أنس بقوة أي بطاعة وقال مجاهد بقوة بعمل بما فيه وقال قتادة خذوا ما آتيناكم بقوة القوة الجد والا قذفته عليكم قال فأقروا بذلك أنهم يأخذون ما أوتوا بقوة ومعنى قوله والا قذفته عليكم أي أسقطه عليكم يعني الجبل وقال أبو العالية والربيع واذكروا ما فيه يقول اقرؤا ما في التوراة واعملوا به وقوله تعالى ثم توليتم من بعد ذلك فلولا فضل الله يقول تعالى ثم بعد هذا الميثاق المؤكد العظيم توليتم عنه وانثنيتم ونقضتموه فلولا فضل الله عليكم ورحمته أي بتوبته عليكم وارساله النبيين والمرسلين اليكم لكنتم من الخاسرين بنقضكم ذلك الميثاق في الدنيا والآخرة (ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين) يقول تعالى ولقد علمتم يا معشر اليهود ما أحل من البأس بأهل القرية التي عصت أمر الله وخالفوا عهده وميثاقه فيما أخذه عليهم من تعظيم السبت والقيام بأمره اذ كان مشروعا لهم فتحيلوا على اصطياد الحيتان في يوم السبت بما وضعوا لها من الشصوص والحبائل والبرك قبل يوم السبت فلما جاءت يوم السبت على عادتها في الكثرة نشبت بتلك الحبائل والحيل فلم تخلص منها يومها ذلك فلما كان الليل أخذوها بعد انقضاء السبت فلما فعلوا ذلك مسخهم الله الى صورة القردة وهي أشبه شيء بالاناسي في الشكل الظاهر وليست بانسان حقيقة فكذلك أعمال هؤلاء وحيلهم لما كانت مشابهة للحق في الظاهر ومخالفة له في الباطن كان جزاؤهم من جنس عملهم وهذه القصة مبسوطة في سورة الاعراف حيث يقول

الخبر انه لا ينال عهد الله بالامامة ظالم ففيها اعلام من الله لابراهيم الخليل انه سيوجد من ذريته من هو ظالم لنفسه انتهى ولا يخفاك انه لا جدوى لكلامه هذا فالاولى ان يقال ان هذا الخبر في معنى الامر لعباده أن لا يولوا أمور الشرع ظالما وانما قلنا انه في معنى الامر لان اخباره تعالى لا يجوز أن يتخلف وقد علمنا انه قد نال عهده من الامامة وغيرها كثير من الظالمين (واذ جعلنا البيت مثابة للناس) أي لاجلهم أو لاجل مناسكهم والبيت هو الكعبة غلب عليه كما غلب النجم على الثريا ويدخل فيه جميع الحرم لوصفه بكونه آمنا كما سيأتي ومثابة مصدر من ثاب يثوب مثابا ومثابة أي مرجعا يرجع الحجاج اليه بعد تفرقهم عنه وقيل المثابة من الثواب أي يثابون هنالك وقال مجاهد المراد انهم لا يقضون منه أوطارهم قال الاخفش ودخلت الهاء لكثرة من يثوب اليه فهي كعلامة ونسابة وقال غيره هي للتأنيث وليست للمبالغة وهو مصدر أو اسم مكان قولان (وأمنا) هو اسم مكان أي موضع أمن وهو أظهر من جعله اسم الفاعل على سبيل المجاز كقوله حرما آمنا فان الآمن هو الساكن والملتجئ والاول لا مجاز فيه وقد استدل بذلك جماعة من أهل العلم على أنه لا يقام الحد على من لجأ اليه ويؤيد ذلك قوله تعالى ومن دخله كان آمنا وقيل ان ذلك منسوخ وعن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم فتح مكة ان هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والارض فهو حرام بحرمة الله الى يوم القيامة وانه لم يحل القتال فيه لاحد قبلي ولم يحل لي الا ساعة من نهار فهو حرام بحرمة الله الى يوم القيامة لا يعضد شوكه ولا ينفر صيده ولا يلتقط لقطته الا من عرفها ولا يختلى خلاه فقال العباس يا رسول الله الا الاذخر فانه لقينهم وبيوتهم فقال الا الاذخر أخرجه البخاري ومسلم وكان الناس يأمنون فيه من أذى المشركين فانهم كانوا لا يتعرضون لاهل مكة ويقولون هم أهل الله وقال ابن عباس في الآية معاذا وملجأ (واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى) قرئ على انه فعل ماض أي واتخذوه مصلى وقرئ على صيغة الامر ويجوز أن يكون تقديره وقلنا اتخذوا والمقام في اللغة موضع القيام قال النحاس هو من قام يقوم يكون مصدرا واسما للموضع ومقام من أقام ومن للتبعيض وهذا هو الظاهر وقيل بمعنى في وقيل زائدة على قول الاخفش وليس بشيء اختلف في تعيين المقام على أقوال أصحها أنه الحجر الذي يعرفه الناس ويصلون عنده ركعتي الطواف وقيل

المقام

تعالى واسالهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر اذ يعدون فى السبت اذ تاتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون لا تاتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون القصة بكمالها وقال السدى أهل هذه القرية هم أهل أيلة وكذا قال قتادة وسنورد أقوال المفسرين هناك مبسوطة ان شاء الله وبه الثقة وقوله تعالى فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا أبو حذيفة حدثنا شبل عن ابن أبى نجيح عن مجاهد فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين قال مسخت قلوبهم ولم يمسخوا قردة وانما هو مثل ضربه الله كمثل الحمار يحمل أسفارا ورواه ابن جرير عن المثنى عن أبى حذيفة وعن (١٧٩) محمد بن عمرو الباهلى وعن أبى عاصم عن عيسى عن ابن أبى نجيح عن مجاهد به وهذا اسناد جيد عن مجاهد وقول غريب خلاف الظاهر من السياق فى هذا المقام وفى غيره قال الله تعالى قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت الآية وقال العوفى فى تفسيره عن ابن عباس فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين فجعل الله منهم القردة والخنازير فزعم ان شباب القوم صاروا قردة وان الشيخة صاروا خنازير وقال شيبان النحوى عن قتادة فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين فصار القوم قردة تعاوى لها أذناب بعد ما كانوا رجالا ونساء وقال عطاء الخراسانى نودوا يا أهل القرية كونوا قردة خاسئين فجعل الذين نهوهم يدخلون عليهم فيقولون يا فلان ألم ننهكم فيقولون برؤسهم أى بلى وقال ابن أبى حاتم حدثنا على بن الحسن حدثنا عبد الله بن محمد بن ربيعة بالمصيصة حدثنا محمد بن مسلم يعنى الطائفى عن ابن أبى نجيح عن مجاهد عن ابن عباس قال انما كان الذين اعتدوا فى السبت فجعلوا قردة فواقا ثم هلكوا ما كان للمسخ نسل وقال الضحاك عن ابن عباس فمسخهم الله قردة بمعصيتهم يقول اذ لا يحيون فى الارض الا ثلاثة أيام قال ولم يعش مسخ قط فوق ثلاثة أيام ولم يأكل ولم يشرب ولم ينسل وقد خلق الله القردة والخنازير وسائر الخلق فى الستة الايام التى ذكرها الله فى كتابه فمسخ هؤلاء القوم فى صورة القردة وكذلك يفعل بمن يشاء كما يشاء ويحوله كما يشاء وقال أبو جعفر عن الربيع عن أبى العالية فى قوله كونوا قردة خاسئين قال يعنى أذلة صاغرين وروى عن مجاهد وقتادة والربيع وأبى مالك نحوه وقال محمد بن اسحق عن داود بن أبى الحصين عن عكرمة قال قال ابن عباس ان

المقام الحرم كله روى ذلك عن عطاء ومجاهد وقيل عرفة والمزدلفة وقال الشعبى الحرم كله مقام والمعنى اتخذوا مصلى كائنا عند مقام ابراهيم والعندية تصدق بجهاته الاربع والتخصيص بكون المصلى خلفه انما استفيد من فعل النبى صلى الله عليه وآله وسلم والصحابة بعده أخرج البخارى وغيره من حديث أنس عن عمر بن الخطاب قال وافقت ربى فى ثلاث ووافقنى ربى فى ثلاث قلت يا رسول الله لو اتخذت من مقام ابراهيم مصلى فنزلت هذه الآية وقلت يا رسول الله ان نساءك يدخل عليهن البر والفاجر فلو أمرتهن أن يحتجبن فنزلت آية الحجاب واجتمع على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نساؤه فى الغيرة فقلت لهن عسى ربه ان طلقكن ان يبدله أزواجا خيرا منكن فنزلت كذلك وأخرجه مسلم وغيره مختصرا من حديث ابن عمر عنه وأخرج مسلم وغيره من حديث جابر أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم رمل ثلاثة أشواط ومشى أربعا حتى اذا فرغ عمد الى مقام ابراهيم فصلى خلفه ركعتين ثم قرأ واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى وفى مقام ابراهيم عليه السلام أحاديث كثيرة مستوفاة فى الامهات وغيرها والاحاديث الصحيحة تدل على أن مقام ابراهيم هو الحجر الذى كان يقوم عليه لبناء الكعبة لما ارتفع الجدار أتاه اسمعيل به ليقوم فوقه كما فى البخارى من حديث ابن عباس وهو الذى كان ملصقا بجدار الكعبة وأول من نقله عمر ابن الخطاب كما أخرجه عبد الرزاق والبيهقى باسناد صحيح وابن أبى حاتم وابن مردويه من طرق مختلفة وأخرج ابن أبى حاتم من حديث جابر فى وصف حج النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال لما طاف النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال له عمر هذا مقام ابراهيم قال نعم وأخرج نحوه ابن مردويه قيل كان أثر أصابع رجلى ابراهيم فيه فاندرست بكثرة المسح بالايدى وانما أمروا بالصلاة عنده ولم يؤمروا بمسحه وتقبيله وقد روى البخارى فى بدء قصة المقام أثرا طويلا عن ابن عباس وقد ورد فى حديث الترمذى أن الركن والمقام ياقوتتان من ياقوت الجنة طمس الله نورهما واختلفوا فى قوله مصلى فمن فسر المقام بمشاهد الحج ومشاعره قال مصلى مدعى من الصلاة التى هى الدعاء ومن فسر المقام بالحجر قال معناه واتخذوا من مقامه قبلة أمروا بالصلاة عنده وهذا هو الصحيح لان لفظ الصلاة اذا أطلق لا يعقل منه الا الصلاة المعهودة ذات الركوع والسجود ولان مصلى الرجل هو الموضع الذى يصلى فيه (وعهدنا الى ابراهيم واسمعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع

الله انما افترض على بنى اسرائيل اليوم الذى افترض عليكم فى عيدكم يوم الجمعة فخالفوا الى السبت فعظموه وتركوا ما أمروا به فلما أبوا الا لزوم السبت ابتلاهم الله فيه فحرم عليهم ما أحل لهم فى غيره وكانوا فى قرية بين أيلة والطور يقال لها مدين فحرم الله عليهم فى السبت الحيتان صيدها وأكلها وكانوا اذا كان يوم السبت أقبلت اليهم شرعا الى ساحل بحرهم حتى اذا ذهب السبت ذهبن فلم يروا حوتا صغيرا ولا كبيرا حتى اذا كان يوم السبت أتين شرعا حتى اذا ذهب السبت ذهبن فكانوا كذلك حتى طال عليهم الامد وقرموا الى الحيتان عمد رجل منهم فأخذ حوتا سرا يوم السبت فخزمه بخيط ثم أرسله فى الماء وأوتد له وتدا فى (١٨٠)

الساحل فأوثقه ثم تركه حتى اذا كان الغد جاء فأخذه أى انى لم آخذه فى يوم السبت فانطلق به فأكله حتى اذا كان يوم السبت الآخر عاد لمثل ذلك ووجد الناس ريح الحيتان فقال أهل القرية والله لقد وجدنا ريح الحيتان ثم عثروا على صنيع ذلك الرجل قال ففعلوا كما فعل وصنعوا سرا زمانا طويلا لم يعجل الله عليهم العقوبة حتى صادوها علانية وباعوها بالاسواق فقالت طائفة منهم من أهل البقية ويحكم اتقوا الله ونهوهم عما كانوا يصنعون فقالت طائفة أخرى لم تأكل الحيتان ولم تنه القوم عما صنعوا لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا قالوا معذرة الى ربكم بسخطنا أعمالهم ولعلهم يتقون قال ابن عباس فبينما هم على ذلك أصبحت تلك البقية فى أنديتهم ومساجدهم فقدوا الناس فلم يروهم قال فقال بعضهم لبعض ان للناس شأنا فانظروا ما هو فذهبوا ينظرون فى دورهم فوجدوها مغلقة عليهم قد دخلوها ليلا فغلقوها على أنفسهم كما يغلق الناس على أنفسهم فأصبحوا فيها قردة وانهم ليعرفون الرجل بعينه وانه لقرد والمرأة بعينها وانها لقردة والصبى بعينه وانه لقرد قال قال ابن عباس فلولا ما ذكر الله انه نجى الذين نهوا عن السوء لقد أهلك الله الجميع منهم قال وهى القرية التى قال جل ثناؤه لمحمد صلى الله عليه وسلم واسئلهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر الآية وروى الضحاك عن ابن عباس نحوا من هذا وقال السدى فى قوله تعالى ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين قال هم أهل أيلة وهى القرية التى كانت حاضرة البحر فكانت الحيتان اذا كان يوم السبت وقد حرم الله على اليهود أن يعملوا فى السبت

السجود) معنى عهدنا هنا أمرنا أو أوحينا وقيل ألزمنا وأوجبنا ومن أغرب ما نقل فى تسمية اسمعيل أن ابراهيم كان يدعو الله أن يرزقه ولدا ويقول فى دعائه اسمع يا ايل وايل بلسان السريانية هو الله فلما رزق الولد سماه به وقيل هو اسم أعجمى وفيه لغتان اللام والنون ويجمع على سماعلة وسماعيل وأساميع والمراد بالتطهير قيل من الاوثان قاله ابن عباس وقيل من الآفات والريب وقول الزور والرجس قاله مجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وقيل من الكفار وقيل من النجاسات وطواف الجنب والحائض وكل خبيث والظاهر انه لا يختص بنوع من هذه الانواع وأن كل ما يصدق عليه مسمى التطهير فهو يتناوله اما تناولا شموليا أو بدليا والاضافة فى قوله بيتى للتشريف والتكريم والمراد بالبيت الكعبة والطائف الذى يطوف به أى الدائر حوله وقيل الغريب الطارئ على مكة والعاكف المقيم وأصل العكوف فى اللغة اللزوم واللبث والاقبال على الشئ وقيل هو المجاور دون المقيم من أهلها والمراد بقوله الركع السجود المصلون وخص هذين الركنين بالذكر لانهما أشرف أركان الصلاة عن ابن عباس قال اذا كان قائما فهو من الطائفين واذا كان جالسا فهو من العاكفين واذا كان مصليا فهو من الركع السجود وعن عمر بن الخطاب انه سئل عن الذين ينامون فى المسجد فقال هم العاكفون وفى الآية مشروعية طهارة المكان للطواف والصلاة قال الرازى والكيا الهراسى وفيها دلالة على أن الطواف للغرباء أفضل والصلاة للمقيم أمثل قلت ولم يظهر لى وجه ذلك قالا وفيها دلالة على جواز الصلاة فى نفس الكعبة حيث قال بيتى خلافا لمالك قلت وفيه أن الطواف لا يكون فى نفس الكعبة قال الرازى وفيها دلالة على أن الطواف قبل الصلاة قلت وقد سبقه بذلك ابن عباس وفيها دلالة على جواز المجاورة بمكة لان قوله والعاكفين يحتمله والسجود جمع ساجد نحو قاعد وقعود وهو مناسب لما قبله وقيل انه مصدر نحو الدخول والقعود والمعنى ذوى السجود ذكره أبو البقاء والاول أولى ولتقارب الاخيرين ذاتا وزمانا ترك العاطف بينهما وجمع صفتين جمع سلامة وأخريين جمع تكسير لاجل المقابلة وهو نوع من الفصاحة (واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا) أى مكة وقيل الحرم (بلدا آمنا) والمراد الدعاء لاهله من ذريته وغيرهم كقوله عيشة راضية أى راض صاحبها أو الاسناد الى المكان مجاز كما فى ليل نائم أى نائم فيه قاله السعد التفتازانى وعلى هذا المراد أمن الملتجئ اليه فاسند اليه مبالغة وقد

ثبت

شيئا لم يبق في البحر حوت الا خرج حتى يخرجن خراطيمهن من الماء فاذا كان يوم الاحد لزمن سفل البحر فلم ير منهن شيء حتى يكون
يوم السبت فذلك قوله تعالى واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر اذ يعدون في السبت اذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا
ويوم لا يسبتون لا تأتيهم فاشتهى بعضهم السمك فجعل الرجل يحفر الحفيرة ويجعل لها نهرا الى البحر فاذا كان يوم السبت فتح النهر
فأقبل الموج بالحيتان يضربها حتى يلقيها في الحفيرة فيريد الحوت أن يخرج فلا يطيق من أجل قلة ماء النهر فيمكث فيها فاذا كان
يوم الاحد جاء فأخذه فجعل الرجل يشوي السمك فيجد جاره روائحه فيسأله فيخبره فيصنع مثل ما صنع جاره حتى
فشا فيهم أكل السمك فقال لهم علماؤهم ويحكم انما تصطادون يوم السبت وهو لا يحل لكم فقالوا انما صدناه يوم الاحد حين أخذناه فقال الفقهاء لا ولكنكم صدتموه يوم فتحتم له الماء فدخل قال وغلبوا أن ينتهوا فقال بعض الذين نهوهم لبعض لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا يقول لم تعظوهم وقد وعظتموهم فلم يطيعوكم فقال بعضهم معذرة الى ربكم ولعلهم يتقون فلما أبوا قال المسلمون والله لا نساكنكم في قرية واحدة فقسموا القرية بجدار ففتح المسلمون بابا والمعتدون في السبت بابا ولعنهم داود عليه السلام فجعل المسلمون يخرجون من بابهم والكفار من بابهم فخرج المسلمون ذات يوم ولم يفتح الكفار بابهم فلما أبطؤا عليهم تسور المسلمون عليهم الحائط فاذا هم قردة يثب بعضهم على بعض ففتحوا عنهم فذهبوا في الارض فذلك قول الله تعالى فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين وذلك حين يقول لعن الذين كفروا من بني
اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم الآية فهم القردة (قلت) والغرض من هذا السياق عن هؤلاء الائمة بيان خلاف
ما ذهب اليه مجاهد رحمه الله من أن مسخهم انما كان معنويا لا صوريا بل الصحيح انه معنوي صوري والله تعالى أعلم وقوله تعالى
فجعلناها نكالا قال بعضهم الضمير في فجعلناها عائد على القردة وقيل على الحيتان وقيل على العقوبة وقيل على القرية حكاها ابن
جرير والصحيح أن الضمير عائد على القرية أي فجعل الله هذه القرية والمراد أهلها بسبب اعتدائهم في سبتهم نكالا أي عاقبناهم
عقوبة فجعلناها عبرة كما قال الله عن فرعون فأخذه الله نكال الآخرة والاولى وقوله تعالى لما بين يديها وما خلفها أي من القرى

ثبت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال ان ابراهيم حرم مكة واني حرمت المدينة
ما بين لابتيها فلا يصاد صيدها ولا يقطع عضاهها كما أخرجه أحمد ومسلم والنسائي وغيرهم
من حديث جابر وقد روى هذا المعنى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من طريق جماعة
من الصحابة وثبت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه قال ان الله حرم مكة يوم خلق
السموات والارض وهي حرام الى يوم القيامة أخرجه البخاري وأهل السنن من حديث
أبي هريرة تعليقا وابن ماجه من حديث صفية بنت شيبة وفي الباب أحاديث غير ما ذكرنا
ولا تعارض بين هذه الاحاديث فان ابراهيم عليه السلام لما بلغ الناس أن الله حرمها
وانها لم تزل حرما آمنا نسب اليه أنه حرمها أي أظهر للناس حكم الله فيها والى هذا الجمع
ذهب ابن عطية وابن كثير وقال ابن جرير انها كانت حراما ولم يتعبد الله الخلق بذلك
حتى سأله ابراهيم فحرمها وتعبدهم بذلك انتهى وكلا الجمعين حسن (وارزق أهله من
الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر) انما سأل ابراهيم ذلك لان مكة لم يكن بها زرع
ولا ثمرة فاستجاب الله له وجعل مكة حرما آمنا تجبى اليه ثمرات كل شيء عن محمد بن مسلم
الطائفي قال بلغني انه لما دعا ابراهيم للحرم نقل الله الطائف من فلسطين ومن للتبعيض
أي بعض الثمرات ولم يقل من الحبوب لما في تحصيله من الذل الحاصل بالحرث وغيره
فاقتصاره على الثمرات لتشريفهم وقيل من للبيان وليس بشيء اذ لم يتقدم مبهم يبين بها
والمراد بالامن المذكور في قوله مثابة للناس وأمنا هو الامن من الاعداء والخسف
والمسخ والمراد هنا من الأمن هو الامن من القحط ولهذا قال وارزق أهله من الثمرات ذكره
الكرخي والمعنى وارزق من آمن من أهله دون من كفر وسبب هذا التخصيص ان
ابراهيم لما سأل ربه أن يجعل النبوة والامامة في ذريته فأجابه الله بقوله لا ينال عهدي
الظالمين وصار ذلك تأديبا له في المسئلة فلا جرم خص هنا بدعائه المؤمنين دون الكافرين
ثم أعلمه أن الرزق في الدنيا يستوي فيه المؤمن والكافر بقوله (قال ومن كفر فأمتعه)
أي سأرزق الكافر أيضا (قليلا) اي في الدنيا مدة حياته وعن محمد بن كعب القرظي قال
دعا ابراهيم للمؤمنين وترك الكفار ولم يدع لهم بشيء فقال تعالى ومن كفر فأمتعه
الآية وعن ابن عباس قال كان ابراهيم احتجرها على المؤمنين دون الناس فأنزل الله
ومن كفر فأنا أرزقهم أيضا كما أرزق المؤمنين أأخلق خلقا لا أرزقهم ثم قرأ ابن عباس

كلا غدهؤلاء وهؤلاء الآية فالظاهر ان هذا من كلام الله سبحانه ردا على ابراهيم حيث طلب الرزق للمؤمنين دون غيرهم ويحتمل أن يكون كلاما مستقلا بيانا لحال من كفر ويكون فى حكم الاخبار عن حال الكافرين بهذه الجملة الشرطية أى من كفر فانى أمتعه فى هذه الدنيا بما يحتاجه من الرزق الى منتهى أجله وذلك قليل لانه ينقطع (ثم اضطره) أى الزمه اضطرار لكفره بعد هذا التمتع (الى عذاب النار) أخبر سبحانه انه لا ينال الكفرة من الخير الا تمتعهم فى هذه الدنيا وليس لهم بعد ذلك الا ما هو شر محض وأما على قراءة من قرأ فامتعه واضطره بصيغة الامر فهى مبنية على ان ذلك من جملة كلام ابراهيم وانه لما فرغ من الدعاء للمؤمنين دعا للكافرين بالامتاع قليلا ثم دعا عليهم بان يضطرهم الله الى عذاب النار وحاصل معنى اضطره ألزمه حتى أصيره مضطرا لذلك لا يجد عنه مخلصا ولا منه متحولا (وبئس المصير) أى المرجع هى والواو فيه ليست للعطف والا لزم عطف الانشاء على الاخبار بل للاستئناف كما قال فى المغنى فى قوله واتقوا الله ويعلمكم الله (واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسمعيل) حكاية حال ماضية استحضارا للصورة العجيبة والقواعد جمع قاعدة وهى الاساس قاله أبو عبيدة والفراء وهى صفة غالبة من القعود بمعنى الثبات ولعله مجاز من المقابل للقيام ومنه قعدك الله وقال الكسائى هى الجدر والمراد برفعها رفع ما هو مبنى فوقها الا رفعها فى نفسها فانها لم ترفع لكنها لما كانت متصلة بالبناء المرتفع فوقها صارت كأنها مرتفعة بارتفاعه أو المراد بها اسافات البناء فان كل ساف قاعدة لما يبنى عليه وبرفعها بناؤها أو المراد رفع مكانته ودعاء الناس الى حجه وفى ابهام القواعد وتبيينها ثانيا بقوله من البيت تفخيم لشأنها (ربنا) أى قائلين ربنا وقرأ أبى وابن مسعود يقولان ربنا (تقبل منا) أى طاعتنا اياك وعبادتنا لك (انك أنت السميع) لدعائنا (العليم) بنياتنا وقد أكثر المفسرون فى تفسير هذه الآية من نقل أقوال السلف فى كيفية بناء البيت ومن أى أحجار الارض بنى وفى أى زمان عرف ومن حجه وما ورد فيه من الادلة الدالة على فضله أو فضل بعضه كالحجر الاسود وفى الدر المنثور من ذلك ما لم يكن فى غيره فليرجع اليه وفى تفسير ابن كثير بعض من ذلك ولما لم يكن ما ذكروه متعلقا بالتفسير لم نذكره وفى القسطلانى على البخارى بنيت الكعبة عشر مرات الاول بناء الملائكة الثانى بناء آدم الثالث بناء ابنه شيث بالطين والحجارة وغرق فى الطوفان الرابع بناء ابراهيم الخامس

قال ابن عباس يعنى جعلناها بما أحللنا بها من العقوبة عبرة لما حولها من القرى كما قال تعالى ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون ومنه قوله تعالى أولم يروا انا نأتى الارض ننقصها من أطرافها الآية على أحد الاقوال فالمراد لما بين يديها وما خلفها فى المكان كما قال محمد بن اسحق عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس لما بين يديها من القرى وما خلفها من القرى وكذا قال سعيد بن جبير لما بين يديها وما خلفها قال من بحضرتها من الناس يومئذ وروى عن اسمعيل بن أبى خالد وقتادة وعطية العوفى فجعلناها نكالا لما بين يديها قال ما قبلها من الماضين فى شأن السبت وقال أبو العالية والربيع وعطية وما خلفها لما بقى بعدهم من الناس من بنى اسرائيل أن يعملوا مثل عملهم وكان هؤلاء يقولون المراد لما بين يديها وما خلفها فى الزمان وهذا مستقيم بالنسبة الى من يأتى بعدهم من الناس أن تكون أهل تلك القرية عبرة لهم وأما بالنسبة الى من سلف قبلهم من الناس فكيف يصح هذا الكلام أن تفسر الآية به وهو أن يكون عبرة لمن سبقهم وهذا لعل أحدا من الناس لا يقوله بعد تصوره فتعين أن المراد بما بين يديها وما خلفها فى المكان وهو ما حولها من القرى كما قاله ابن عباس وسعيد بن جبير والله أعلم وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع ابن أنس عن أبى العالية فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها أى عقوبة لما خلا من ذنوبهم وقال ابن أبى حاتم وروى عن عكرمة ومجاهد والسدى والفراء وابن عطية لما بين يديها من ذنوب القوم وما خلفها لمن يعمل بعدها مثل تلك الذنوب وحكى الرازى ثلاثة أقوال أحدها ان المراد بما بين يديها وما خلفها من تقدمها من القرى بما عندهم من العلم بخبرها بالكتب المتقدمة ومن بعدها والثانى المراد بذلك من بحضرتها من القرى والامم والثالث انه تعالى جعلها عقوبة لجميع ما ارتكبوه من قبل هذا الفعل وما بعده وهو قول الحسن (قلت) وأرجح الاقوال المراد بما بين يديها وما خلفها من بحضرتها من القرى يبلغهم خبرها وما حل بها كما قال تعالى ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى الآية وقال تعالى ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة الآية وقال تعالى أفلا يرون انا نأتى الارض ننقصها من أطرافها فجعلهم عبرة ونكالا لمن فى زمانهم وموعظة لمن يأتى بعدهم بالخبر المتواتر عنهم ولهذا قال

وموعظة للمتقين وقوله تعالى وموعظة للمتقين قال محمد بن اسحق عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس وموعظة للمتقين الذين من بعدهم الى يوم القيامة وقال الحسن وقتادة وموعظة للمتقين بعدهم فيتقون نقمة الله ويحذرونها وقال السدى وعطية العوفى وموعظة للمتقين قال أمة محمد صلى الله عليه وسلم (قلت) المراد بالموعظة ههنا الزاجر اى جعلنا ما أحللنا بهؤلاء من البأس والنكال فى مقابلة ما ارتكبوه من محارم الله وما تحيلوا به من الحيل فليحذر المتقون صنيعهم لئلا يصيبهم ما أصابهم كما قال الامام أبو عبدالله بن بطة حدثنا أحمد بن محمد بن مسلم حدثنا الحسن بن (١٨٣) محمد بن الصباح الزعفرانى حدثنا يزيد بن هرون حدثنا محمد بن عمرو عن أبى سلمة عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بادنى الحيل وهذا اسناد جيد وأحمد بن محمد بن مسلم هذا وثقه الحافظ أبو بكر الخطيب البغدادى وباقى رجاله مشهورون على شرط الصحيح والله أعلم (واذ قال موسى لقومه ان الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتتخذنا هزوا قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين) يقول تعالى واذكروا يا بنى اسرائيل نعمتى عليكم فى خرق العادة لكم فى شأن البقرة وبيان القاتل من هو بسببها واحياء الله المقتول ونصه على من قتله منهم (ذكر بسط القصة) قال ابن أبى حاتم حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح حدثنا يزيد بن هرون أنبأنا هشام بن حسان عن محمد بن سيرين عن عبيدة السلمانى قال كان رجل من بنى اسرائيل عقيما لا يولد له وكان له مال كثير وكان ابن أخيه وارثه فقتله ثم احتمله ليلا فوضعه على باب رجل منهم ثم أصبح يدعيه عليهم حتى تسلحوا وركب بعضهم على بعض فقال ذو الرأى منهم والنهى علام يقتل بعضكم بعضا وهذا رسول الله فيكم فأتوا موسى عليه السلام فذكروا ذلك له فقال ان الله يأمركم ان تذبحوا بقرة قالوا أتتخذنا هزوا قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين قال فلو لم يعترضوا لاجزأت عنهم أدنى بقرة ولكنهم شددوا فشدد عليهم حتى انتهوا الى البقرة التى أمروا بذبحها فوجدوها عند رجل ليس له بقرة غيرها فقال والله لا أنقصها من ملء جلدها ذهبا فأخذوها بملء جلدها ذهبا فذبحوها فضربوه ببعضها فقام فقالوا من قتلك فقال هذا لابن أخيه ثم مال ميتا فلم يعط من ماله شيئا فلم يورث قاتل بعد ورواه ابن

الخامس بناء العمالقة السادس بناء جرهم والذى بناه منهم هو الحرث بن مضاض الاصغر السابع بناء قصى خامس جد النبى صلى الله عليه وآله وسلم الثامن بناء قريش التاسع بناء عبدالله بن الزبير فى أوائل سنة أربع وستين العاشر بناء الحجاج انتهى حاصله قال سليمان الجمل وهذا بحسب ما اطلع عليه والا فقد بناه بعد ذلك بعض الملوك سنة ألف وتسع وثلاثين كما نقله بعض المؤرخين قال الرازى فيه ان بناء المسجد قربة وفيه استحباب الدعاء بقبول الاعمال (ربنا واجعلنا مسلمين لك) أى ثابتين عليه أو زدنا منه قيل المراد بالاسلام هنا مجموع الايمان والاعمال (ومن ذريتنا أمة مسلمة لك) من للتبعيض أو للتبيين قال ابن جرير انه أراد بالذرية العرب خاصة وكذا قال السهيلى قال ابن عطية وهذا ضعيف لان دعوته ظهرت فى العرب وغيرهم من الذين آمنوا به والامة الجماعة فى هذا الموضع وقد تطلق على الواحد ومنه قوله تعالى ان ابراهيم كان أمة قانتا لله وتطلق على الدين ومنه انا وجدنا آباءنا على أمة وتطلق على الزمان ومنه وادكر بعد أمة قيل أراد بالامة أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم بدليل قوله وابعث فيهم رسولا منهم (وأرنا مناسكنا) هى من الرؤية البصرية والمناسك جمع نسك وأصله فى اللغة الغسل يقال نسك ثوبه اذا غسله وهو فى الشرع اسم للعبادة وقيل واحدها منسك والمراد هنا مناسك الحج وقيل مواضع الذبح وقيل جميع التعبدات قال على لما فرغ ابراهيم من بناء البيت قال قد فعلت اى رب فأرنا مناسكنا ابرزها لنا وعلمناها فبعث الله جبريل فحج به وفى الباب آثار كثيرة عن السلف من الصحابة ومن بعدهم يتضمن ان جبريل أرى ابراهيم المناسك وفى أكثرها ان الشيطان تعرض له (وتب علينا) أى تجاوز عنا والمراد بالتوبة التثبيت لانهما معصومان لاذنب لهما وقيل المراد وتب على الظلمة منا (انك أنت التواب) اى المتجاوز عن عباده (الرحيم) بهم (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم) ضمير فيهم راجع الى الامة المسلمة المذكورة سابقا وقرأ أبى فى آخرهم ويحتمل ان يكون الضمير راجعا الى الذرية وهم العرب من ولد اسمعيل وقد أجاب الله لابراهيم عليه السلام هذه الدعوة فبعث فى ذريته رسولا منهم وهو محمد صلى الله عليه وآله وسلم وقد أخبر عن نفسه انه دعوة ابراهيم كما أخرجه أحمد من حديث العرباض بن سارية وغيره ومراده هذه الدعوة وقد أجمع على ذلك المفسرون لان ابراهيم انما دعا لذريته وهو بمكة ولم يبعث من ذريته بمكة غير محمد صلى الله عليه وآله وسلم فدل

جرير من حديث أيوب عن محمد بن سيرين عن عبيدة بنحو من ذلك والله أعلم ورواه عبد بن حميد في تفسيره أنبأنا يزيد بن هرون
به ورواه آدم بن أبي اياس في تفسيره عن أبي جعفر هو الرازي عن هشام بن حسان به وقال آدم بن أبي اياس في تفسيره أنبأنا أبو جعفر
الرازي عن الربيع عن أبي العالية في قول الله تعالى ان الله يأمركم ان تذبحوا بقرة قال كان رجل من بني اسرائيل وكان غنيا ولم
يكن له ولد وكان له قريب وكان وارثه فقتله ليرثه ثم ألقاه على مجمع الطريق وأتى موسى عليه السلام فقال له ان قريبي قتل وأتي الى
أمر عظيم واني لا أجد أحدا يبين لي من

قتله غيرك يا نبي الله قال فنادى موسى في الناس فقال أنشد الله من كان
عنده من هذا علم الا يبينه لنا فلم يكن
عندهم علم فأقبل القاتل على موسى
عليه السلام فقال له أنت نبي الله
فسل لنا ربك ان يبين لنا فسأل ربه
فأوحى الله ان الله يأمركم ان تذبحوا
بقرة فعجبوا من ذلك فقالوا أتتخذنا
هزوا قال أعوذ بالله ان أكون من
الجاهلين قالوا ادع لنا ربك يبين لنا
ما هي قال انه يقول انها بقرة
لا فارض يعني لا هرمة ولا بكر يعني
ولا صغيرة عوان بين ذلك اى نصف
بين البكر والهرمة قالوا ادع لنا
ربك يبين لنا ما لونها قال انه يقول انها
بقرة صفراء فاقع لونها اى صاف
لونها تسر الناظرين اى تعجب
الناظرين قالوا ادع لنا ربك يبين لنا
ما هي ان البقر تشابه علينا وانا ان
شاء الله لمهتدون قال انه يقول انها
بقرة لا ذلول اى لم يذللها العمل تثير
الارض ولا تسقي الحرث يعني
وليست بذلول تثير الارض ولا تسقي
الحرث يعني ولا تعمل في الحرث
مسلمة يعني مسلمة من العيوب لا شية
فيها يقول لا بياض فيها قالوا الآن
جئت بالحق فذبحوها وما كادوا
يفعلون قال ولو أن القوم حين
أمروا بذبح بقرة استعرضوا بقرة من البقر فذبحوها لكانت اياها ولكن شددوا على انفسهم فشدد الله عليهم قيل
ولولا ان القوم استثنوا فقالوا وانا ان شاء الله لمهتدون لما اهتدوا اليها ابدا فبلغنا انهم لم يجدوا البقرة التي نعتت لهم الا عند عجوز
وعندها يتامى وهي القيمة عليهم فلما علمت انه لا يزكو لهم غيرها أضعفت عليهم الثمن فأتوا موسى فأخبروه انهم لم يجدوا هذا النعت
الا عند فلانة وانها سألت اضعاف ثمنها فقال موسى ان الله قد خفف عليكم فشددتم على انفسكم فأعطوها رضاها وحكمها ففعلوا
واشتروها فذبحوها فأمرهم موسى عليه السلام ان يأخذوا عظما منها فيضربوا به القتيل ففعلوا فرجع اليه روحه فسمى لهم

على ان المراد به محمد صلى الله عليه وآله وسلم والرسول هو المرسل قال ابن الانباري
يشبه ان يكون أصله ناقة مرسال ورسلة اذا كانت سهلة السير ماضية أمام النوق
ويقال جاء القوم أرسالا أي بعضهم في اثر بعض (يتلو عليهم آياتك) وهو القرآن (ويعلمهم
الكتاب) أي معاني الكتاب من دلائل التوحيد والنبوة والاحكام الشرعية والكتاب
هو القرآن (والحكمة) أي ويعلمهم الحكمة وهي الاصابة في القول والعمل ووضع كل
شيء موضعه والمراد بالحكمة هنا المعرفة بالدين والفقه في التأويل والفهم للشريعة
وقال قتادة هي السنة وقيل هي الفصل بين الحق والباطل وقال ابن قتيبة هي العلم
والعمل ولا يكون الرجل حكيما حتى يجمعهما وقال ابن دريد كل كلمة وعظتك أو دعتك
الى مكرمة أو نهتك عن قبيح فهي حكمة وقيل ان المراد بالآيات ظاهر الالفاظ والكتاب
معانيها والحكمة الحكم وهو مراد الله بالخطاب وقيل غير ذلك (ويزكيهم) التزكية
التطهير من الشرك وسائر المعاصي (انك أنت العزيز الحكيم) أي الذي لا يعجزه شيء
قاله ابن كيسان وقال الكسائي العزيز الغالب والحكيم العالم (ومن يرغب عن ملة
ابراهيم الا من سفه نفسه) الاستفهام للانكار قال الزجاج وابن جني سفه بمعنى جهل أي
جهل أمر نفسه فلم يفكر فيها انها مخلوقة لله فيجب عليه عبادته وقال أبو عبيدة المعنى
أهلك نفسه وقال الاخفش أي فعل بها من السفه ما صار به سفيها وقال الزمخشري
امتهنها واستخف بها عن أبي العالية قال رغبت اليهود والنصارى عن ملته واتخذوا
اليهودية والنصرانية بدعة ليست من الله وتركوا ملة ابراهيم الاسلام وبذلك بعث الله
نبيه محمدا صلى الله عليه وآله وسلم وعن قتادة مثله ومن رغب عن الايمان بهذا الرسول الذي
هو دعوة ابراهيم فقد رغب عن ملة ابراهيم فيه اشارة الى لزوم اتباع ملته فيما لم يثبت نسخه
(ولقد اصطفيناه في الدنيا) تعليل للحصر قبله واللام جواب قسم محذوف والغرض منه
الحجة والبيان لقوله ومن يرغب والاصطفاء الاختيار أي اخترناه في الدنيا بالرسالة والخلة
كما شاهدوه ونقلوه جيلا بعد جيل (وانه في الآخرة لمن الصالحين) أمر مغيب فاحتاج
الاخبار به الى فضل تأكيد قيل مع الانبياء في الجنة أو الذين لهم الدرجات العلى فكيف
يرغب عن ملته راغب (اذ قال له ربه أسلم) يحتمل ان يكون متعلقا بقوله اصطفيناه أي
اخترناه وقت أمرنا له بالاسلام ويحتمل ان يتعلق بمحذوف هو اذكر قال في الكشاف كأنه

قاتله ثم عاد ميتا كما كان فاخذ قاتله وهو الذي كان أتى موسى عليه السلام فشكى اليه فقتلها   إعلم ... محمد بن جرير

حدثني محمد بن سعد حدثني أبي حدثني عمي حدثني أبي عن أبيه عن ابن عباس في قوله في شأن البقرة وذلك أن شيخا من بني اسرائيل على عهد موسى عليه السلام كان مكثرا من المال وكان بنو أخيه فقراء لا مال لهم وكان الشيخ لا ولد له وكان بنو أخيه ورثته فقالوا ليت عمنا قد مات فورثنا ماله وانه لما تطاول عليهم أن لا يموت عمهم أتاهم الشيطان فقال لهم هل لكم الى أن تقتلوا عمكم فترثوا ماله وتغرموا أهل المدينة التي لستم بها ديته وذلك انهما كانتا مدينتين كانوا في أحدهما وكان القتيل اذا قتل

قيل اذكر ذلك الوقت ليعلم انه المصطفى الصالح الذي لا يرغب عن ملة مثله وزاد أبو السعود وانه ما نال ما نال الا بالمبادرة للاذعان والانقياد لما أمره به واخلاص سره قال ابن عباس قال الله له ذلك حين خرج من السرب وذلك عند استدلاله بالكوكب واطلاعه على أمارات الحدوث فيها وافتقارها الى محدث مدبر ومعنى أسلم انقد لله وأخلص دينك وعبادتك له أو استقم وفوض أمورك الى الله أو أذعن وأطع أو اثبت على ما أنت عليه من الاسلام (قال أسلمت لرب العالمين) أي فوضت أمري اليه قال ابن عباس وقد حقق ذلك حيث لم يستعن بأحد من الملائكة حين ألقي في النار (ووصى بها ابراهيم بنيه) الضمير في بها راجع الى الملة الحنيفية أو الى الكلمة أي أسلمت لرب العالمين قال القرطبي وهو أصوب لانه أقرب مذكور أي قولوا أسلمنا انتهى والاول أرجح لان المطلوب ممن بعده هو اتباع ملته لا مجرد التكلم بكلمة الاسلام فالتوصية بذلك أليق بابراهيم وأولى بهم قيل كانوا ثمانية منهم اسمعيل وهو أول أولاده وقيل أربعة عشر (ويعقوب) معطوف على ابراهيم أي وأوصى يعقوب بنيه كما أوصى ابراهيم بنيه وكانوا اثني عشر وقرئ بنصب يعقوب فيكون داخلا فيما أوصاه ابراهيم قال القشيري وهو بعيد لان يعقوب لم يدرك جده ابراهيم وانما ولد بعد موته (يا بني) قيل انه من مقول ابراهيم وقيل من مقول يعقوب (ان الله اصطفى لكم الدين) المراد بالدين ملته التي لا يرغب عنها الا من سفه نفسه وهي الملة التي جاء بها محمد صلى الله عليه وآله وسلم وفي قوله (فلا تموتن الا وأنتم مسلمون) ايجاز بليغ والمراد الزموا الاسلام ولا تفارقوه حتى تموتوا وهذا استثناء مفرغ من أعم الاحوال أي لا تموتوا على حالة غير حالة الاسلام وليس فيه نهي عن الموت الذي هو قهري ولهذا قال السيوطي نهى عن ترك الاسلام وأمر بالثبات عليه الى مصادفة الموت انتهى والمعنى ان موتهم لا على حال الثبات على الاسلام موت لا خير فيه وان حق هذا الموت ان لا يحصل فيهم عن فضيل بن عياض قال مسلمون أي محسنون بربكم الظن ويدل عليه ما روى عن جابر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قبل موته بثلاثة أيام يقول لا يموتن أحد الا وهو يحسن الظن بربه أخرجاه في الصحيحين (أم كنتم شهداء اذ حضر يعقوب الموت) أي ما كنتم حاضرين حين احتضر يعقوب وقرب من الموت وأم هذه قيل هي المنقطعة وقيل هي المتصلة وفي الهمزة الانكار المفيد للتقريع

وطرح بين المدينتين قيس ما بين القتيل والقريتين فايتهما كانت أقرب اليه غرمت الدية وانهم لما سول لهم الشيطان ذلك وتطاول عليهم أن لا يموت عمهم عمدوا اليه فقتلوه ثم عمدوا فطرحوه على باب المدينة التي ليسوا فيها فلما أصبح أهل المدينة جاء بنو أخي الشيخ فقالوا عمنا قتل على باب مدينتكم فوالله لتغرمن لنا دية عمنا قال أهل المدينة نقسم بالله ما قتلنا ولا علمنا قاتلا ولا فتحنا باب مدينتنا منذ أغلق حتى أصبحنا وانهم عمدوا الى موسى عليه السلام فلما أتوه قال بنو أخي الشيخ عمنا وجدناه مقتولا على باب مدينتهم وقال أهل المدينة نقسم بالله ما قتلناه ولا فتحنا باب المدينة من حين أغلقناه حتى أصبحنا وان جبرائيل جاء بأمر السميع العليم الى موسى عليه السلام فقال قل لهم ان الله يأمركم أن تذبحوا بقرة فتضربوه ببعضها وقال السدي واذ قال موسى لقومه ان الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قال كان رجل من بني اسرائيل مكثرا من المال فكانت له ابنة

 وكان له ابن أخ محتاج فخطب اليه ابن أخيه ابنته فأبى أن يزوجه فغضب الفتى وقال والله لأقتلن عمي ولآخذن ماله ولأنكحن ابنته ولآكلن ديته فأتاه الفتى وقد قدم تجار في بعض أسباط بني اسرائيل فقال يا عم انطلق معي فخذلي من تجارة هؤلاء القوم لعلي أن أصيب منها فانهم اذا رأوك معي أعطوني فخرج العم مع الفتى ليلا فلما بلغ الشيخ ذلك السبط قتله الفتى ثم رجع الى أهله فلما أصبح جاء كأنه يطلب عمه كأنه لا يدري أين هو فلم يجده فانطلق نحوه فاذا هو بذلك السبط مجتمعين عليه فأخذهم وقال قتلتم عمي فأدوا الي ديته فجعل يبكي ويحثو التراب على رأسه وينادي واعماه فرفعهم الى موسى فقضى عليهم

والتوبيخ والخطاب لليهود والنصارى الذين ينسبون الى ابراهيم والى بنيه انهم على اليهودية والنصرانية فرد الله ذلك عليهم وقال لهم أشهدتم يعقوب وعلمتم ما أوصى به بنيه فتدعون ذلك عن علم أم لم تشهدوا بل أنتم مفترون والشهداء جمع شاهد ولم ينصرف لان فيه ألف التأنيث التى لتأنيث الجماعة والمراد بحضور الموت حضور مقدماته وسمى يعقوب لانه هو وأخوه العيص كانا توأمين فى بطن واحد فتقدم العيص وقت الولادة فى الخروج مسابقة ليعقوب فتاخر يعقوب عنه ونزل على اثره وعقبه فى الخروج (اذ قال لبنيه) يعنى لاولاده الاثنى عشر (ماتعبدون) أى أى شئ تعبدون وانما جاء بما دون من لان المعبودات من دون الله غالبها جمادات كالاوثان والنار والشمس والكواكب (من بعدى) أى من بعد موتى (قالوا نعبد الهك واله آبائك ابراهيم واسمعيل واسحق) واسمعيل وان كان عما ليعقوب فان العرب تسمى العم أبا والخالة أما وعم الرجل صنو أبيه وقرئ أبيك فقيل أراد ابراهيم وحده ويكون اسمعيل واسحق عطفا على أبيك وان كان هو أباه حقيقة وابراهيم جده ولكن لابراهيم مزيد خصوصية وقيل أبيك جمع كما روى عن سيبويه ان أبين جمع سلامة ومثله أبون وقدم اسمعيل على اسحق لانه أسبق منه فى الولادة باربع عشرة سنة وانه جد نبينا صلى الله عليه وآله وسلم (الها واحدا ونحن له مسلمون) أى مخلصون التوحيد والعبودية (تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم) تلك اشارة الى ابراهيم وبنيه يعقوب وبنيه وما بعده بيان لحال تلك الامة وحال المخاطبين بان لكل من الفريقين كسبه لا ينفعه كسب غيره ولا يناله منه شئ ولا يضره ذنب غيره وفيه الرد على من يتكل على عمل سلفه ويروح نفسه بالامانى الباطلة ومنه ما ورد فى الحديث من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه والمراد انكم لا تنتفعون بحسناتهم ولا تؤاخذون بسيآتهم وفيه ابطال مذهب من يجيز تعذيب أولاد المشركين بفعال آبائهم قال ابن فارس وفيه اثبات الكسب للعبد (ولا تسئلون عما كانوا يعملون) أى عن أعمالهم كما لا يسئلون عن أعمالكم ومثله ولا تزر وازرة وزر أخرى وان ليس للانسان الاماسعى (وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا) وهذا فن آخر من فنون كفرهم واضلالهم لغيرهم اثر بيان ضلالهم فى نفسهم قال ابن عباس نزلت فى رؤساء اليهود كعب بن الاشرف ومالك بن الصيف ووهب بن يهودا وفى نصارى نجران السيد والعاقب

بالدية فقالوا له يارسول الله ادع لنا ربك حتى يبين لنا من صاحبه فيؤخذ صاحب القضية فوالله ان ديته علينا الهينة ولكن نستحى أن نعير به فذلك حين يقول تعالى واذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون فقال لهم موسى ان الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا نسألك عن القتيل وعمن قتله وتقول اذبحوا بقرة أتتخذنا هزوا قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين قال ابن عباس فلو اعترضوا بقرة فذبحوها لاجزأت عنهم ولكن شددوا وتعنتوا على موسى فشدد الله عليهم فقالوا ادع لنا ربك يبين لنا ماهى قال انه يقول انها بقرة لافارض ولا بكر عوان (١٨٦) بين ذلك والفارض الهرمة التى لا تولد والبكر التى لم تلد الا ولدا واحدا والعوان النصف التى بين ذلك التى قد ولدت وولد ولدها فافعلوا ما تؤمرون قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها قال انه يقول انها بقرة صفراء فاقع لونها قال نقى لونها تسر الناظرين قال تعجب الناظرين قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ماهى ان البقر تشابه علينا وانا ان شاء الله لمهتدون قال انه يقول انها بقرة لاذلول تثير الارض ولا تسقى الحرث مسلمة لاشية فيها من بياض ولا سواد ولا حمرة قالوا الآن جئت بالحق فطلبوها فلم يقدروا عليها وكان رجل فى بنى اسرائيل من أبر الناس بأبيه وان رجلا مر به معه لؤلؤ يبيعه وكان أبوه نائما تحت رأسه المفتاح فقال له الرجل تشترى منى هذا اللؤلؤ بسبعين ألفا فقال له الفتى كما أنت حتى يستيقظ أبى فآخذه منك بثمانين ألفا قال الآخر أيقظ أباك وهو لك بستين ألفا فجعل التاجر يحط له حتى بلغ ثلاثين ألف وزاد الآخر على ان ينتظر أباه حتى يستيقظ حتى بلغ مائة ألف فلما أكثر عليه قال والله لا أشتريه منك بشئ أبدا وأبى أن يوقظ أباه فعوضه الله من ذلك اللؤلؤ ان جعل له تلك البقرة فمرت به بنو اسرائيل يطلبون البقرة وأبصروا البقرة عنده فسألوه أن يبيعهم اياها بقرة ببقرة فأبى فاعطوه ثنتين فأبى فزادوه حتى بلغوا عشرا فقالوا والله لا نتركك حتى نأخذها منك فانطلقوا به الى موسى عليه السلام فقالوا يانبى الله انا وجدناها عند هذا وأبى أن يعطيناها وقد أعطيناه ثمنا فقال له موسى أعطهم بقرتك فقال يارسول الله أنا أحق بمالى فقال صدقت وقال للقوم أرضوا صاحبكم فاعطوه وزنها ذهبا فأبى فاضعفوه له حتى أعطوه وزنها عشر مرات ذهبا فباعهم اياها وأخذ ثمنها فذبحوها قال اضربوه ببعضها فضربوه بالبضعة التى بين الكتفين فعاش فسألوه من قتلك

فقال لهم ابن أخي قال أقتله فآخذ ماله وأنكح ابنته فاخذوا الغلام فقتلوه وقال سنيد حدثنا حجاج هو ابن محمد عن ابن جريج
عن مجاهد وحجاج عن أبي معشر عن محمد بن كعب القرظي ومحمد بن قيس دخل حديث بعضهم في حديث بعض قالوا ان سبطا من
بني اسرائيل لما رأوا كثرة شرور الناس بنوا مدينة فاعتزلوا شرور الناس فكانوا اذا أمسوا لم يتركوا أحدا منهم خارجا الا أدخلوه
واذا أصبحوا قام رئيسهم فنظر وأشرف فاذا لم ير شيأ فتح المدينة فكانوا مع الناس حتى يمسوا قال وكان رجل من بني اسرائيل له مال
كثير ولم يكن له وارث غير أخيه فطال عليه حياته فقتله ليرثه ثم حمله فوضعه على باب المدينة ثم كمن في مكان هو
وأصحابه قال فأشرف رئيس المدينة
على باب المدينة فنظر فلم ير شيأ ففتح
الباب فلما رأى القتيل رد الباب
فناداه أخو المقتول وأصحابه هيهات
قتلتموه ثم تردون الباب وكان موسى
لما رأى القتل كثيرا في بني
اسرائيل كان اذا رأى القتيل بين
ظهراني القوم أخذهم فكاد يكون
بين أخي المقتول وبين أهل المدينة
قتال حتى لبس الفريقان السلاح
ثم كف بعضهم عن بعض فأتوا
موسى فذكروا له شأنهم قالوا
يا موسى ان هؤلاء قتلوا قتيلا ثم
ردوا الباب قال أهل المدينة
يا رسول الله قد عرفت اعتزالنا
الشرور وبنينا مدينة كما رأيت
نعتزل شرور الناس والله ما قتلنا
ولا علمنا قاتلا فأوحى الله تعالى اليه
أن يذبحوا بقرة فقال لهم موسى ان
الله يأمركم أن تذبحوا بقرة وهذه
السياقات عن عبيدة وأبي العالية
والسدي وغيرهم فيها اختلاف ما
والظاهر أنها مأخوذة من كتب
بني اسرائيل وهي مما يجوز نقلها
ولكن لا تصدق ولا تكذب فلهذا
لا يعتمد عليها الا ما وافق الحق عندنا
والله أعلم (قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي قال انه يقول انها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون قالوا ادع لنا
ربك يبين لنا ما لونها قال انه يقول انها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي ان البقر تشابه علينا وانا
ان شاء الله لمهتدون قال انه يقول انها بقرة لا ذلول تثير الارض ولا تسقي الحرث مسلمة لا شية فيها قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها
وما كادوا يفعلون) أخبر تعالى عن تعنت بني اسرائيل وكثرة سؤالهم لرسولهم ولهذا لما ضيقوا على أنفسهم ضيق الله عليهم ولو
انهم ذبحوا أي بقرة كانت لوقعت الموقع عنهم كما قال ابن عباس وعبيدة وغير واحد ولكنهم شددوا فشدد عليهم فقالوا ادع لنا ربك

وأصحابهما خاصموا المؤمنين في الدين فكل فريق منهم يزعم انه أحق بدين الله (قل بل ملة
ابراهيم حنيفا) أي قل يا محمد في الرد عليهم هذه المقالة بل الهدى ملة ابراهيم والحنيف
المائل عن الاديان الباطلة الى دين الحق وهو في أصل اللغة الذي تميل قدماه كل واحدة الى
أختها أي نتبع ملة ابراهيم حال كونه حنيفا وقال قوم الحنف الاستقامة فسمي دين
ابراهيم حنيفا لاستقامته ويسمى معوج الرجلين أحنف تفاؤلا بالاستقامة كما قيل للديغ
سليم وللمهلكة مفازة وقال مجاهد حنيفا متبعا وقال ابن عباس حاجا وعن خصيف قال
الحنيف المخلص وقال أبو قلابة الحنيف الذي يؤمن بالرسل كلهم من أولهم الى آخرهم
وأخرج أحمد عن أبي امامة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعثت بالحنيفية
السمحة وأخرج أحمد والبخاري في الادب المفرد وابن المنذر عن ابن عباس قال قيل
يا رسول الله أي الاديان أحب الى الله قال الحنيفية السمحة ونصب ملة على الاغراء قاله
أبو عبيدة أي الزموها (وما كان) أي ابراهيم (من المشركين) وفي نفي كونه من المشركين
تعريض باليهود لقولهم عزير ابن الله وبالنصارى لقولهم المسيح ابن الله أي ان ابراهيم
ما كان على هذه الحالة التي أنتم عليها من الشرك بالله فكيف تدعون عليه انه كان على
اليهودية أو النصرانية وتدعون أنكم على ملته (قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا) أي القرآن
(وما أنزل الى ابراهيم واسمعيل واسحاق ويعقوب والاسباط) أي الصحف وهذا
خطاب للمسلمين وأمر لهم بأن يقولوا لهم هذه المقالة وقيل انه خطاب للكفار بأن يقولوا
ذلك حتى يكونوا على الحق والاول أولى وأعاد الموصول لئلا يتوهم من اسقاطه اتحاد
المنزل مع أنه ليس كذلك وذكر اسمعيل وما بعده لكونهم مروجين لها متعبدين بتفاصيلها
داخلين تحت أحكامها ومقررين لما أنزل على ابراهيم فكأنه منزل عليهم أيضا والا فليسوا
منزلا عليهم في الحقيقة والاسباط أولاد يعقوب وهم اثنا عشر ولدا ولكل واحد من
الاولاد جماعة والسبط في بني اسرائيل بمنزلة القبيلة في العرب وسموا الاسباط من
السبط وهو التتابع فهم جماعة متتابعون وقيل أصله من السبط بالتحريك وهو الشجر
أي هم في الكثرة بمنزلة الشجر وقيل الاسباط حفدة يعقوب أي أولاد أولاده لا أولاده
لان الكثرة انما كانت فيهم دون أولاد يعقوب في نفسه فهم أفراد لا أسباط (وما أوتي
موسى) من التوراة وعبر بالايتاء دون الانزال فرارا من التكرار الصوري الموجب

يبين لنا ماهي أي ماهذه البقرة وأي شئ صفتها قال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا هشام بن علي عن الاعمش عن المنهال بن عمرو عن
سعيد بن جبير عن ابن عباس قال لو أخذوا أدنى بقرة لاكتفوا بها ولكنهم شددوا فشدد عليهم اسناد صحيح وقد رواه غير واحد عن
ابن عباس وكذا قال عبيدة والسدي ومجاهد وعكرمة وأبو العالية وغير واحد وقال ابن جريج قال لي عطاء لو أخذوا أدنى بقرة
لكفتهم قال ابن جريج قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انما أمروا بأدنى بقرة ولكنهم لما شددوا شدد الله عليهم وايم الله لو أنهم لم
يستثنوا لما بينت لهم آخر الابد قال إنه (١٨٨) يقول انها بقرة لافارض ولا بكر أي لا كبيرة هرمة ولا صغيرة لم يلقحها
الفحل كما قاله أبو العالية والسدي ومجاهد وعكرمة وعطية العوفي وعطاء الخراساني ووهب بن منبه والضحاك والحسن وقتادة وقاله ابن عباس أيضا وقال الضحاك عن ابن عباس عوان بين ذلك يقول نصف بين الكبيرة والصغيرة وهي أقوى ما يكون من الدواب والبقر وأحسن ما تكون وروي عن عكرمة ومجاهد وأبي العالية والربيع بن أنس وعطاء الخراساني والضحاك نحو ذلك وقال السدي العوان النصف التي بين ذلك التي قد ولدت وولد ولدها وقال هشيم عن جويبر عن كثير بن زياد عن الحسن في البقرة كانت بقرة وحشية وقال ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس من لبس نعلا صفراء لم يزل في سرور مادام لابسها وذلك قوله تعالى تسر الناظرين وكذا قال مجاهد ووهب بن منبه كانت صفراء وعن ابن عمر كانت صفراء الظلف وعن سعيد بن جبير كانت صفراء القرن والظلف وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا نصر بن علي حدثنا نوح بن قيس أنبأنا أبو
رجاء عن الحسن في قوله تعالى بقرة صفراء فاقع لونها قال سوداء شديدة السواد وهذا غريب والصحيح الاول
ولهذا أكد صفرتها بانه فاقع لونها وقال عطية العوفي فاقع لونها تكاد تسود من صفرتها وقال سعيد بن جبير فاقع لونها قال صافية
اللون وروي عن أبي العالية والربيع بن أنس والسدي والحسن وقتادة نحوه وقال شريك عن معمر عن ابن عمر فاقع لونها قال
صاف وقال العوفي في تفسيره عن ابن عباس فاقع لونها شديدة الصفرة تكاد من صفرتها تبيض وقال السدي تسر الناظرين
أي تعجب الناظرين وكذا قال أبو العالية وقتادة والربيع بن أنس وقال وهب بن منبه اذا نظرت الى جلدها تخيلت أن شعاع

للنقل في العبارة (وعيسى) من الانجيل ولم يقل وما أوتي عيسى اشارة الى اتحاد المنزل
عليه مع المنزل على موسى فان الانجيل مقرر للتوراة ولم يخالفها الا في قدر يسير فيه
تسهيل كما قال ولاحل لكم بعض الذي حرم عليكم (وما أوتي النبيون) المذكورون
وغيرهم (من ربهم) يعني والكتب التي أوتي جميع الانبياء وذلك كله حق وهدى ونور
وان الجميع من عند الله وان جميع ما ذكر الله من أنبيائه كانوا على هدى وحق (لانفرق)
في الايمان (بين أحد منهم) بل نؤمن بكل الانبياء قال الفراء معناه لانؤمن ببعضهم ونكفر
ببعض كما فعلت اليهود والنصارى قال في الكشاف أحد في معنى الجماعة ولذلك صح
دخول بين عليه وليس كونه في معنى الجماعة من جهة كونه نكرة في سياق النفي كما سبق
الى كثير من الاذهان وقال القرافي ان أحدا الذي لا يستعمل الا في النفي معناه انسان
باجماع أهل اللغة وأحدا الذي يستعمل في الاثبات معناه الفرد من العدد اذا كان مسمى
أحد اللفظين غير مسمى الآخر في اللغة وضابط الاشتقاق أن تجد بين اللفظين مناسبة في
اللفظ والمعنى ولا يكفي أحدهما تغاير في الاشتقاق فان وجدت المقصود به انسان فالفه
ليست منقلبة عن واو وان وجدت المقصود به نصف الاثنين من العدد فهو الصالح
للاثبات والنفي وألفه منقلبة عن واو انتهى وقد حقق المقام الخفاجي في العناية فليرجع
اليه (ونحن له مسلمون) أي ونحن لله تعالى خاضعون بالطاعة مذعنون له بالعبودية
وأخرج أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي عن ابن عباس قال كان رسول الله صلى الله عليه
وآله وسلم يقرأ في ركعتي الفجر في الاولى منهما الآية التي في البقرة قولوا آمنا بالله
كلها وفي الآخرة آمنا بالله واشهد بانا مسلمون وأخرج البخاري من حديث أبي هريرة كان
أهل الكتاب يقرؤن التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لاهل الاسلام فقال
رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لاتصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا
بالله الآية (فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا) هذا خطاب للمسلمين أيضا أي فان
آمن أهل الكتاب وغيرهم بمثل ما آمنتم به من جميع كتب الله ورسله ولم يفرقوا بين أحد
منهم فقد اهتدوا وعلى هذا فمثل زائدة كقوله ليس كمثله شئ وقيل ان المماثلة وقعت بين
الايمانين أي فان آمنوا بمثل ايمانكم وقال في الكشاف انه من باب التبكيت لان دين
الحق واحد لامثل له وهو دين الاسلام أي فان حصلوا دينا آخر مثل دينكم مساويا له في

الصحة

الشمس يخرج من جلدها وفى التوراة انها كانت حمراء فلعل هذا خطأ فى التعريب أو كما قال الاول انها كانت شديدة الصفرة تضرب الى حمرة وسواد والله أعلم وقوله تعالى ان البقر تشابه علينا أى لكثرتها فميز لنا هذه البقرة وصفها وحلها لنا وانا ان شاء الله اذا بينتها لنا المهتدون اليها وقال ابن أبى حاتم حدثنا أحمد بن يحيى الاودى الصوفى حدثنا أبو سعيد أحمد بن داود الحداد حدثنا سرور ابن المغيرة الواسطى ابن أخى منصور بن زاذان عن عباد بن منصور عن الحسن عن أبى رافع عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لولا ان بنى اسرائيل قالوا وانا ان شاء الله لمهتدون لما أعطوا ولكن استثنوا ورواه الحافظ أبو بكر بن مردويه فى تفسيره من وجه آخر عن سرور بن المغيرة عن زاذان عن عباد بن منصور عن الحسن عن حديث أبى رافع عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لولا ان بنى اسرائيل قالوا وانا ان شاء الله لمهتدون ما أعطوا أبدا ولو انهم اعترضوا بقرة من البقر فذبحوها لاجزأت عنهم ولكن شددوا فشدد الله عليهم وهذا حديث غريب من هذا الوجه وأحسن أحواله أن يكون من كلام أبى هريرة كما تقدم مثله عن السدى والله أعلم قال انه يقول انها بقرة لا ذلول تثير الارض ولا تسقى الحرث أى انها ليست مذللة بالحراثة ولا معدة للسقى فى السانية بل هى مكرمة حسنة صبيحة مسلمة صحيحة لا عيب فيها لا شية فيها أى ليس فيها لون غير لونها وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة مسلمة يقول لا عيب فيها وكذا قال أبو العالية والربيع وقال مجاهد مسلمة من الشية وقال عطاء الخراسانى مسلمة القوائم والخلق لا شية فيها قال مجاهد لا بياض ولا سواد وقال أبو العالية والربيع والحسن وقتادة ليس فيها بياض وقال عطاء الخراسانى لا شية فيها قال لونها واحد بهيم وروى عن عطية العوفى ووهب بن منبه واسمعيل بن أبى خالد نحو ذلك وقال السدى لا شية فيها من بياض ولا سواد ولا حمرة وكل هذه الاقوال متقاربة فى المعنى وقد زعم بعضهم أن المعنى فى ذلك قوله تعالى انها بقرة لا ذلول ليست بمذللة بالعمل ثم استأنف فقال تثير الارض أى يعمل عليها بالحراثة لكنها لا تسقى الحرث وهذا ضعيف لانه فسر الذلول الذى لم تذلل بالعمل بانها لا تثير الارض ولا تسقى الحرث كذا قرره القرطبى وغيره قالوا الآن جئت بالحق قال قتادة الآن بينت لنا وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وقيل ذلك والله

الحجة والسداد فقد اهتدوا وقيل ان الباء زائدة مؤكدة وقيل انها للاستعانة (وان تولوا فانما هم فى شقاق) أصله من الشق وهو الجانب كأن كل واحد من الفريقين فى جانب غير الجانب الذى فيه الآخر وقيل انه مأخوذ من فعل ما يشق ويصعب فكل واحد من الفريقين يحرص على فعل ما يشق على صاحبه ويصح حمل الآية على كل واحد من المعنيين قال أبو العالية فى شقاق أى فراق وقيل فى خلاف ومنازعة وقيل فى عداوة ومحاربة وقيل فى ضلال (فسيكفيكهم الله) أى من شر اليهود والنصارى والكفاية وعد وضمان من الله لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم أنه سيكفيه من عانده وخالفه من المتولين وقد أنجز له وعده بما أنزله من بأسه بقريظة والنضير وبنى قينقاع وفيه معجزة للنبى صلى الله عليه وآله وسلم وهو اخبار بغيب (وهو السميع) لاقوالهم (العليم) بأحوالهم يسمع جميع ما ينطقون به ويعلم جميع ما يضمرون من الحسد والغل وهو مجازيهم ومعاقبهم (صبغة الله) الخطاب للمسلمين أى قولوا للنصارى هذه المقالة والمعنى صبغنا الله بالايمان قال الاخفش وغيره أى دين الله وهى فعلة من صبغ كالجلسة من جلس وهى الحالة التى يقع عليها الصبغ والمعنى تطهير الله لان الايمان يطهر النفوس انتهى وقال ابن عباس دين الله وقال مجاهد فطرة الله التى فطر الناس عليها وأخرج ابن مردويه والضياء فى المختارة عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال ان بنى اسرائيل قالوا يا موسى هل يصبغ ربك فقال اتقوا الله فناداه ربه يا موسى سألوك هل يصبغ ربك فقل نعم أنا أصبغ الالوان الاحمر والابيض والاسود والالوان كلها فى صبغى وأنزل الله على نبيه صبغة الله الآية وعنه صبغة الله البياض وقد ذكر المفسرون ان أصل ذلك أن النصارى كانوا يصبغون أولادهم فى الماء وهو الذى يسمونه المعمودية ويجعلون ذلك تطهيرا لهم فاذا فعلوا ذلك قالوا الآن صار نصرانيا حقا فرد الله عليهم بقوله صبغة الله أى الاسلام ولا صبغة أحسن من صبغة الاسلام ولا أطهر وهو دين الله الذى بعث به نوحا ومن كان بعده من الانبياء وسماه صبغة استعارة قال البغوى اطلاق مادة لفظ الصبغ على التطهير مجاز تشبيهى وتقرير المشاكلة ههنا مبسوط فى التلخيص وشرحه للسعد وقيل الصبغة الاغتسال لمن أراد الدخول فى الاسلام بدلا من معمودية النصارى ذكره الماوردى وقيل الصبغة الختان لانه يصبغ المختتن بالدم وقيل الصبغة سنة

جاءهم الحق فذبحوها وما كادوا يفعلون قال الضحاك عن ابن عباس كادوا أن لا يفعلوا ولم يكن ذلك الذي ارادوا لانهم ارادوا ان لا يذبحوها يعني انهم مع هذا البيان وهذه الاسئلة والاجوبة والايضاح ما ذبحوها الا بعد الجهد وفي هذا ذم لهم وذلك انه لم يكن غرضهم الا التعنت فلهذا ما كادوا يذبحونها وقال محمد بن كعب ومحمد بن قيس فذبحوها وما كادوا يفعلون لكثرة ثمنها وفي هذا نظر لان كثرة الثمن لم يثبت الا من نقل بني اسرائيل كما تقدم من حكاية أبي العالية والسدي ورواه العوفي عن ابن عباس وقال عبيدة ومجاهد ووهب بن منبه وأبو العالية (١٩٠) وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم انهم اشتروها بمال كثير وفيه اختلاف ثم قد قيل في ثمنها غير ذلك وقال عبد الرزاق أنبأنا ابن عيينة أخبرني محمد بن سوقة عن عكرمة قال ما كان ثمنها الا ثلاثة دنانير وهذا اسناد جيد عن عكرمة والظاهر انه نقله عن أهل الكتاب أيضا وقال ابن جرير وقال آخرون لم يكادوا أن يفعلوا ذلك خوف الفضيحة ان اطلع الله على قاتل القتيل الذي اختصموا فيه ولم يسنده عن أحد ثم اختار ان الصواب في ذلك انهم لم يكادوا يفعلوا ذلك لغلاء ثمنها وللفضيحة وفي هذا نظر بل الصواب والله أعلم ما تقدم من رواية الضحاك عن ابن عباس على ما وجهناه وبالله التوفيق *(مسألة)* استدل بهذه الآية في حصر صفات هذه البقرة حتى تعينت أو تم تقييدها بعد الاطلاق على صحة السلم في الحيوان كما هو مذهب مالك والاوزاعي والليث والشافعي وأحمد وجمهور العلماء سلفا وخلفا بدليل ما ثبت في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم لا تنعت المرأة المرأة لزوجها كأنها ينظر اليها وكما وصف النبي صلى الله عليه وسلم ابل الدية في قتل الخطأ وشبه العمد بالصفات المذكورة بالحديث وقال أبو حنيفة والثوري والكوفيون لا يصح السلم في الحيوان لانه لا تنضبط أحواله وحكي مثله عن ابن مسعود وحذيفة بن اليمان وعبد الرحمن بن سمرة وغيرهم (واذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون) قال البخاري فادارأتم فيها اختلفتم وهكذا قال مجاهد فيما رواه ابن أبي حاتم عن أبيه عن أبي حذيفة عن شبل عن ابن أبي نجيح عن مجاهد انه قال في قوله تعالى واذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها اختلفتم وقال عطاء الخراساني والضحاك

الله (ومن أحسن من الله صبغة) أي دينا وقيل تطهيرا لانه يطهر من أوساخ الكفر (ونحن له عابدون) أي مطيعون (قل أتحاجوننا في الله) أي قل يا محمد لليهود والنصارى الذين قالوا ان دينهم خير من دينكم أتجادلوننا وتخاصموننا في دين الله الذي أمرنا أن ندين به وانا أقرب منه وأحظى عنده وذلك كقولهم نحن أبناء الله وأحباؤه والمحاجة المجادلة لاظهار الحجة (وهو ربنا وربكم) أي نشترك نحن وأنتم في ربوبيته لنا وعبوديتنا له فكيف تدعون أنكم أولى به منا وتحاجوننا في ذلك ولله أن يصطفي من عباده من يشاء (ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم) فلستم بأولى بالله منا وهو مثل قوله تعالى فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون (ونحن له مخلصون) أي نحن أهل الاخلاص للعبادة دونكم وهو المعيار الذي يكون به التفاضل والخصلة التي يكون صاحبها أولى بالله سبحانه من غيره فكيف تدعون لانفسكم ما نحن أولى به منكم وأحق والجمل الثلاث أحوال وفي الآية توبيخ لهم وقطع لما جاؤا به من المجادلة والمناظرة قيل وهذه الآية منسوخة بآية السيف (أم تقولون) أم هنا معادلة للهمزة في قوله أتحاجوننا أي أم تقولون ان هؤلاء الانبياء على دينكم وعلى قراءة يقولون بالياء تكون أم منقطعة أي بل يقولون وفيه تقريع وتوبيخ (ان ابراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب والاسباط كانوا هودا أو نصارى) يعني أتزعمون أن ابراهيم وبنيه كانوا على دينكم وملتكم وانما حدثت اليهودية والنصرانية بعدهم فثبت كذبكم عليهم (قل أأنتم أعلم أم الله) أي ان الله أعلم بذلك وقد أخبرنا بأنهم لم يكونوا هودا ولا نصارى وأنتم تدعون أنهم كانوا كذلك فبل أنتم أعلم أم الله سبحانه والتفضيل على سبيل الاستهزاء أو على تقدير أن يظن بهم علم في الجملة والا فلا مشاركة (ومن أظلم ممن كتم) أي أخفى (شهادة عنده من الله) استفهام انكار أي لا أحد أظلم يحتمل ان يراد بذلك الذم لاهل الكتاب بأنهم يعلمون أن هؤلاء الانبياء ما كانوا هودا ولا نصارى بل كانوا على الملة الاسلامية فظلموا أنفسهم بكتمهم لهذه الشهادة بل بادعائهم لما هو مخالف لها وهو أشد في الذنب ممن اقتصر على مجرد الكتم الذي لا أحد أظلم منه ويحتمل أن المراد أن المسلمين لو كتموا هذه الشهادة لم يكن أحد أظلم منهم ويكون المراد بذلك التعريض بأهل الكتاب وقيل المراد هنا ما كتموه من صفة محمد صلى الله عليه وآله وسلم (وما الله بغافل عما تعملون) فيه وعيد شديد وتهديد ليس عليه مزيد

وأعلام

اختصمتم فيها وقال ابن جريج واذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها قال قال بعضهم أنتم قتلتموه وقال آخرون بل انتم قتلتموه وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم والله مخرج ما كنتم تكتمون قال مجاهد ماتغيبون وقال ابن أبي حاتم حدثنا عمرو بن أسلم البصري حدثنا محمد بن الطفيل العبدي حدثنا صدقة بن رستم سمعت المسيب بن رافع يقول ماعمل رجل حسنة في سبعة أبيات الا أظهرها الله وماعمل رجل سيئة في سبعة أبيات الا أظهرها الله وتصديق ذلك في كلام الله والله مخرج ما كنتم تكتمون فقلنا اضربوه ببعضها هذا البعض أي شئ كان من أعضاء هذه البقرة فالمعجزة حاصلة به وخرق العادة به كائن وقد كان معينا في نفس الامر فلو كان في تعيينه لنا فائدة تعود علينا في أمر الدين او الدنيا لبينه الله تعالى لنا ولكنه أبهمه ولم يجئ من طريق صحيح عن معصوم بيانه فنحن نبهمه كما أبهمه الله ولهذا قال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن سنان حدثنا عفان بن مسلم حدثنا عبد الواحد بن زياد حدثنا الاعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال ان أصحاب بقرة بني اسرائيل طلبوها أربعين سنة حتى وجدوها عند رجل في بقر له وكانت بقرة تعجبه قال فجعلوا يعطونه بها فيابى حتى أعطوه ملء مسكها دنانير فذبحوها فضربوه يعني القتيل بعضو منها فقام تشخب أوداجه دما فقالوا له من قتلك قال قتلني فلان وكذا قال الحسن وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم انه ضرب ببعضها وفي رواية عن ابن عباس انه ضرب بالعظم الذي يلي الغضروف وقال عبد الرزاق أنبانا معمر قال قال أيوب عن ابن سيرين عن عبيدة ضربوا القتيل ببعض لحمها قال معمر قال قتادة ضربوه بلحم فخذها فعاش فقال قتلني فلان وقال وكيع بن الجراح في تفسيره حدثنا النضر بن عربي عن عكرمة فقلنا اضربوه ببعضها فضرب بفخذها فقام فقال قتلني فلان قال ابن أبي حاتم وروي عن مجاهد وقتادة وعكرمة نحو ذلك وقال السدي فضربوه بالبضعة التي بين الكتفين فعاش فسالوه فقال قتلني ابن أخي وقال أبو العالية أمرهم موسى عليه السلام أن يأخذوا عظما من عظامها فيضربوا به القتيل ففعلوا فرجع اليه روحه فسمى لهم قاتله ثم عاد ميتا كما كان وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فضربوه ببعض آرابها وقيل بلسانها وقيل بعجب ذنبها وقوله تعالى كذلك يحيي الله الموتى أي فضربوه فحيي ونبه تعالى على قدرته واحيائه الموتى بما شاهدوه من أمر

واعلام بان الله سبحانه لايترك أمرهم سدى ولايترك عقوبتهم على هذا الظلم القبيح والذنب الفظيع والغافل الذي لايفطن للامور اهمالا منه مأخوذ من الارض الغفل وهي التي لاعلم بها ولا أثر عمارة وقال الكسائي أرض غفل لم تمطر وكرر قوله سبحانه (تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسئلون عما كانوا يعملون) لتضمنها معنى التهديد والتخويف الذي هو المقصود في هذا المقام وتلك اشارة الى ابراهيم واسمعيل ويعقوب والاسباط وقيل لانه اذا اختلف مواطن الحجاج والمجادلة حسن تكريره للتذكير به وتأكيده وقيل انما كرره تنبيها لليهود ولمن يتكل على فضل الآباء وشرفهم أي لاتتكلوا على فضل الآباء فكل يؤخذ بعمله وكل انسان يسئل يوم القيامة عن كسبه لاعن كسب غيره وفيه وعظ وزجر وهذا كالاول (سيقول السفهاء من الناس) هذا اخبار من الله سبحانه لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم وللمؤمنين بأن السفهاء من اليهود والمشركين والمنافقين سيقولون هذه المقالة قيل ان سيقول بمعنى قال وانما عبر عن الماضي بلفظ المستقبل للدلالة على استدامته والاستمرار عليه وقيل ان الاخبار بهذا الخبر كان قبل التحول الى الكعبة وان فائدة ذلك أن الاخبار بالمكروه اذا وقع قبل وقوعه كان فيه تهوين الصدمة وتخفيف الروعة وكسر السورة والسفهاء جمع سفيه وهو الكذاب البهات المتعمد خلاف مايعلم كذا قال بعض أهل اللغة وقال في الكشاف هم خفاف الاحلام ومثله في القاموس وقد تقدم في تفسير قوله الا من سفه نفسه ما ينبغي الرجوع اليه قيل نزلت هذه الآية في اليهود وذلك أنهم طعنوا في تحويل القبلة عن بيت المقدس الى الكعبة لانهم لايرون النسخ وقيل نزلت في مشركي مكة وذلك أنهم قالوا قد تردد على محمد صلى الله عليه وآله وسلم أمره واشتاق مولده وقد توجه نحو بلدكم فلعله يرجع الى دينكم وقيل نزلت في المنافقين وانما قالوا ذلك استهزاء بالاسلام وقيل يحتمل أن لفظ السفهاء للعموم فيدخل فيه جميع الكفار والمنافقين واليهود ويحتمل وقوع هذا الكلام من كلهم اذ لافائدة في التخصيص ولان الاعداء يبالغون في الطعن والقدح فاذا وجدوا مقالا قالوا ومجالا جالوا والاتيان بالسين الدالة على الاستقبال من الاخبار بالغيب وعليه أكثر المفسرين وحكمته أنهم كما قالوا ذلك في الماضي منهم أيضا من يقوله في المستقبل كما قال البيضاوي تبعا للكشاف (ما ولاهم) أي ماصرفهم (عن

القتيل جعل تبارك وتعالى ذلك الصنيع حجة لهم على المعاد وفاصلا ما كان بينهم من الخصومة والعناد والله تعالى قد ذكر فى هذه السورة مما خلقه من احياء الموتى فى خمسة مواضع ثم بعثناكم من بعد موتكم وهذه القصة وقصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت وقصة الذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها وقصة ابراهيم عليه السلام والطيور الاربعة ونبه تعالى باحياء الارض بعد موتها على اعادة الاجسام بعد صيرورتها رميما كما قال أبو داود الطيالسى حدثنا شعبة أخبرنى يعلى بن عطاء قال سمعت وكيع بن عدس يحدث عن أبى رزين العقيلى رضى الله عنه قال قلت يارسول الله كيف يحيى الله الموتى قال أما مررت بواد ممحل ثم مررت به خضرا قال بلى قال كذلك النشور أو قال كذلك يحيى الله الموتى وشاهد هذا قوله تعالى وآية لهم الارض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون *(مسئلة)* استدل لمذهب الامام مالك فى كون قول الجريح فلان قتلنى لوثا بهذه القصة لان القتيل لما حيى سئل عمن قتله فقال فلان قتلنى فكان ذلك مقبولا منه لانه لا يخبر حينئذ الا بالحق ولا يتهم والحالة هذه ورجحوا ذلك لحديث أنس أن يهوديا قتل جارية على أوضاح لها فرضخ رأسها بين حجرين فقيل من فعل بك هذا أفلان أفلان حتى ذكروا اليهودى فأومأت برأسها فأخذ اليهودى فلم يزل به حتى اعترف فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يرض رأسه بين حجرين وعند مالك اذا كان لوثا حلف أولياء القتيل قسامة وخالف الجمهور فى ذلك ولم يجعلوا قول القتيل فى ذلك لوثا (ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة وان من الحجارة لما يتفجر منه الانهار وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء وان منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون) يقول تعالى توبيخا لبنى اسرائيل وتقريعا لهم على ما شاهدوه من آيات الله تعالى واحيائه الموتى ثم قست قلوبكم من بعد ذلك كله فهى كالحجارة التى لا تلين أبدا ولهذا نهى الله المؤمنين عن مثل حالهم فقال ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الامد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون قال العوفى فى تفسيره عن ابن عباس لما ضرب المقتول

قبلتهم) وهى بيت المقدس (التى كانوا عليها) أى ثابتين مستمرين على التوجه اليها ومراعاتها واعتقاد حقيتها والقبلة هى الجهة التى يستقبلها الانسان وانما سميت قبلة لان المصلى يقابلها وتقابله ولما قال السفهاء ذلك رد الله عليهم بقوله (قل لله المشرق والمغرب) فله أن يأمر بالتوجه الى أى جهة شاء لا يختص به مكان دون مكان لخاصة ذاتية تمنع اقامة غيره مقامه وانما العبرة بارتسام أمره أى امتثاله لا بخصوص المكان وتخصيص هاتين الجهتين بالذكر لمزيد ظهورهما حيث كان أحدهما مطالع الانوار والاصباح والآخر مغربها أو لكثرة توجه الناس اليهما لتحقيق الاوقات لتحصيل المقاصد والمهمات ذكره الكرخى (يهدى من يشاء) من عباده اشعار بأن تحويل القبلة الى الكعبة من الهداية للنبى صلى الله عليه وآله وسلم ولاهل ملته (الى صراط مستقيم) يعنى الى جهة الكعبة وهى قبلة ابراهيم عليه السلام وقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن البراء ان النبى صلى الله عليه وآله وسلم كان أول ما نزل المدينة نزل على أخواله من الانصار وانه صلى الى بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهرا وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت وان أول صلاة صلاها العصر وصلى معه قوم فخرج رجل ممن كان صلى معه فمر على أهل المسجد وهم راكعون فقال أشهد بالله لقد صليت مع النبى صلى الله عليه وآله وسلم قبل الكعبة فداروا وقبل البيت كما هم وكانت اليهود قد أعجبهم اذ كان يصلى قبل بيت المقدس وأهل الكتاب فلما ولى وجهه قبل البيت أنكروا ذلك وكان الذى مات على القبلة قبل أن تحول قبل البيت رجال وقتلوا فلم ندر ما نقول فيهم فانزل الله وما كان الله ليضيع ايمانكم الآية وله طرق أخر وألفاظ متقاربة وعن ابن عباس قال ان أول ما نسخ فى القرآن القبلة وعنه ان النبى صلى الله عليه وآله وسلم كان يصلى بمكة نحو بيت المقدس والكعبة بين يديه وبعد ما تحول الى المدينة ستة عشر شهرا ثم صرفه الله الى الكعبة وفى الباب أحاديث كثيرة بمضمون ما تقدم وكذلك وردت أحاديث فى الوقت الذى نزل فيه استقبال القبلة وفى كيفية استدارة المصلين لما بلغهم ذلك وقد كانوا فى الصلاة فلا نطول بذكرها فيه الرد على من أنكر النسخ ودلالة على جواز نسخ السنة بالقرآن لان استقبال بيت المقدس كان ثابتا بالسنة الفعلية لا بالقرآن (وكذلك) أى كما أن الكعبة وسط الارض كذلك (جعلناكم أمة وسطا) أى عدولا خيارا والوسط

الخيار

الخيار والعدل والآية محتملة للامرين وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم تفسير الوسط هنا بالعدل رواه أحمد والترمذي وصححه والنسائي وغيرهم عن أبي سعيد مرفوعا فوجب الرجوع الى ذلك ولما كان الوسط مجانبا للغلو والتقصير كان محمودا أي هذه الامة لم تغل غلو النصارى في عيسى ولا قصروا تقصير اليهود في أنبيائهم ويقال فلان أوسط قومه وواسطتهم ووسطهم أي خيارهم والآية دلت على ان الاجماع حجة اذ لو كان فيما اتفقوا عليه باطل لانثلمت به عدالتهم أي اختلت قاله الكرخي وفيه دلالة على تفضيل هذه الامة على سائر الامم (لتكونوا) اللام لام كي فتفيد العلية أو هي لام الصيرورة (شهداء على الناس) يعني يوم القيامة أي تشهدون للانبياء على أممهم انهم قد بلغوهم ما أمرهم الله بتبليغه اليهم وقالت طائفة معنى الآية يشهد بعضكم على بعض بعد الموت وقيل المراد لتكونوا شهداء على الناس في الدنيا فيما لا يصح الا بشهادة العدول (ويكون الرسول عليكم شهيدا) أي على أمته بانهم قد فعلوا ما أمر بتبليغه اليهم ومثله قوله تعالى فكيف اذا جئنا من كل امة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا وقيل عليكم بمعنى لكم أي يشهد لكم بالايمان وقيل معناه يشهد عليكم بالتبليغ لكم قال في الكشاف لما كان الشهيد كالرقيب والمهيمن على المشهود له جيء بكلمة الاستعلاء ومنه قوله تعالى والله على كل شيء شهيد وكنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد انتهى وانما أخر لفظ على في شهادة الامم على الناس وقدمها في شهادة الرسول عليهم لان الغرض كما قال صاحب الكشاف في الاول اثبات شهادتهم على الامم وفي الآخر اختصاصهم بكون الرسول شهيدا عليهم وقيل ان شهيدا أشبه بالفواصل والمقاطع من عليكم فكان قوله شهيدا تمام الجملة ومقطعها دون عليكم وهذا الوجه يرد على الزمخشري مذهبه من أن تقديم المفعول يشعر بالاختصاص وأخرج أحمد والبخاري والترمذي والنسائي وغيرهم عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يدعى نوح يوم القيامة فيقال له هل بلغت فيقول نعم فيدعى قومه فيقال لهم هل بلغكم فيقولون ما أتانا من نذير وما أتانا من أحد فيقال لنوح من يشهد لك فيقول محمد وأمته فذلك قوله يعني هذه الآية فتشهدون له بالبلاغ وأشهد عليكم وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن جابر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال أنا وأمتي يوم القيامة على كوم مشرفين على الخلائق ما من

ببعض البقرة جلس أحيا ما كان قط فقيل له من قتلك قال بنو أخي قتلوني ثم قبض فقال بنو أخيه حين قبضه الله والله ما قتلناه فكذبوا بالحق بعد أن رأوه فقال الله ثم قست قلوبكم من بعد ذلك يعني أبناء أخي الشيخ فهي كالحجارة أو أشد قسوة فصارت قلوب بني اسرائيل مع طول الامد قاسية بعيدة عن الموعظة بعد ما شاهدوه من الآيات والمعجزات فهي في قسوتها كالحجارة التي لا علاج للينها أو أشد قسوة من الحجارة فان من الحجارة ما يتفجر منها العيون بالانهار الجارية ومنها ما يشقق فيخرج منه الماء وان لم يكن جاريا ومنها ما يهبط من رأس الجبل من خشية الله وفيه ادراك لذلك بحسبه كما قال تسبح له السموات السبع والارض ومن فيهن وان من شيء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم انه كان حليما غفورا وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد انه كان يقول كل حجر يتفجر منه الماء أو يتشقق عن ماء أو يتردى من رأس جبل لمن خشية الله نزل بذلك القرآن وقال محمد بن اسحق حدثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس وان من الحجارة لما يتفجر منه الانهار وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء وان منها لما يهبط من خشية الله أي وان من الحجارة لألين من قلوبكم عما تدعون اليه من الحق وما الله بغافل عما تعملون وقال أبو علي الجبائي في تفسيره وان منها لما يهبط من خشية الله هو سقوط البرد من السحاب قال القاضي الباقلاني وهذا تأويل بعيد وتبعه في استبعاده الرازي وهو كما قال فان هذا خروج عن اللفظ بلا دليل والله أعلم وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا هشام بن عمار حدثنا الحكم بن هشام الثقفي حدثني يحيى ابن أبي طالب يعني ويحيى بن يعقوب في قوله تعالى وان من الحجارة لما يتفجر منه الانهار قال كثرة البكاء وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء قال قليل البكاء وان منها لما يهبط من خشية الله قال بكاء القلب من غير دموع العين وقد زعم بعضهم ان هذا من باب المجاز وهو اسناد الخشوع الى الحجارة كما أسندت الارادة الى الجدار في قوله يريد أن ينقض قال الرازي والقرطبي وغيرهما من الائمة ولا حاجة الى هذا فان الله تعالى يخلق فيها هذه الصفة كما في قوله تعالى انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وقال تسبح له السموات السبع والارض ومن فيهن الآية وقال والنجم والشجر

الناس أحد الا ودانه منا وما من نبي كذبه قومه الا ونحن نشهد انه بلغ رسالة ربه وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أنس قال مروا بجنازة فاثنى عليها خيرا فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم وجبت ثلاثا ومروا بجنازة فاثنى عليها شرا فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم وجبت ثلاثا فسأله عمر فقال من أثنيتم عليه خيرا وجبت له الجنة ومن أثنيتم عليه شرا وجبت له النار أنتم شهداء الله في الارض ثلاثا زاد الحكيم الترمذي ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذه الآية وفي الباب أحاديث كثيرة عن جماعة من الصحابة عند أهل الصحاح والسنن وغيرهم (وما جعلنا القبلة التي كنت عليها) المراد بهذه القبلة هي بيت المقدس ويؤيد هذا قوله كنت عليها اذ كان نزول هذه الآية بعد صرف القبلة الى الكعبة وقيل المراد الكعبة أي القبلة التي أنت عليها الآن بعد أن كانت الى بيت المقدس ويكون كنت بمعنى الحال وقيل المراد بذلك القبلة التي كان عليها قبل استقبال بيت المقدس فانه كان يستقبل في مكة الكعبة ثم لما هاجر توجه الى بيت المقدس تألفا لليهود ثم صرف الى الكعبة وفيه أعاريب خمسة أحسنها ما ذكرناه (الا لنعلم) استثناء مفرغ من أعم العلل (من يتبع الرسول) في التوجه الى ما أمر به من القبلة أو الدين والالتفات الى الغيبة مع ايراده صلى الله عليه وآله وسلم بعنوان الرسالة للاشعار بعلة الاتباع (ممن ينقلب على عقبيه) أي يرجع الى الكفر وقد ارتد لذلك جماعة والمعنى ما جعلناها الا لنبتليهم يعني من يسلم لامره ممن يرجع الى ما كان عليه من الكفر فيرتد قال ابن عباس لنميز أهل اليقين من أهل الشك قيل المراد بالعلم هنا الرؤية وقيل ليعلم النبي وقيل المراد لنعلم ذلك موجودا حاصلا وهكذا ما ورد معللا بعلم الله سبحانه لابد أن يأول بمثل هذا كقوله وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء (وان كانت لكبيرة) أي ما كانت الا كبيرة كما قاله الفراء والضمير في كانت راجع الى ما دل عليه قوله وما جعلنا القبلة التي كنت عليها من التحويلة والتولية أو الجعلة أو الردة ذكر معنى ذلك الاخفش ولا مانع من أن يرجع الضمير الى القبلة المذكورة أي وان كانت القبلة المتصفة بانك كنت عليها لكبيرة أي تحويلها على أهل الشرك والريب قاله ابن عباس (الا على الذين هدى الله) أي هداهم للايمان فانشرحت صدورهم لتصديقك وقبلت ما جئت به عقولهم وهذا الاستثناء مفرغ لان ما قبله في قوة النفي أي انها لا تخف ولا تسهل الا على أهل الهدى

يسجدان أولم يروا الى ما خلق الله من شئ يتفيأ ظلاله الآية قالتا أتينا طائعين لو أنزلنا هذا القرآن على جبل الآية وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الآية وفي الصحيح هذا جبل يحبنا ونحبه وكحنين الجذع المتواتر خبره وفي صحيح مسلم اني لاعرف حجرا بمكة يسلم علي قبل أن أبعث اني لاعرفه الآن وفي صفة الحجر الاسود انه يشهد لمن استلمه بحق يوم القيامة وغير ذلك مما في معناه وحكى القرطبي قولا انها للتخيير أي مثلا لهذا وهذا وهذا مثل جالس الحسن أو ابن سيرين وكذا حكاه الرازي في تفسيره وزاد قولا آخر انها للابهام بالنسبة الى المخاطب كقول القائل أكلت خبزا أو تمرا وهو يعلم أيهما أكل وقال آخرون انها بمعنى قول القائل كل حلوا أو حامضا أي لا يخرج عن واحد منهما أي وقلوبكم صارت كالحجارة أو أشد قسوة منها لا تخرج عن واحد من هذين الشيئين والله أعلم *(تنبيه)* اختلف علماء العربية في معنى قوله تعالى فهى كالحجارة أو أشد قسوة بعد الاجماع على استحالة كونها للشك فقال بعضهم أو ههنا بمعنى الواو تقديره فهى كالحجارة وأشد قسوة كقوله تعالى ولا تطع منهم آثما أو كفورا عذرا أو نذرا وكما قال النابغة الذبياني

قالت ألا ليتما هذا الحمام لنا
الى حمامتنا أو نصفه فقد

تريد ونصفه قاله ابن جرير وقال جرير بن عطية

نال الخلافة أو كانت له قدرا
كما أتى ربه موسى على قدر

قال ابن جرير يعني نال الخلافة وكانت له قدرا وقال آخرون أو ههنا بمعنى بل فتقديره فهى كالحجارة بل أشد قسوة وكقوله اذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وأرسلناه الى مائة ألف أو يزيدون فكان قاب قوسين أو أدنى وقال آخرون معنى ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة عندكم حكاه ابن جرير وقال آخرون المراد وقيل بذلك الابهام على المخاطب كما قال أبو الاسود

أحب محمدا حبا شديدا * وعباسا وحمزة والوصيا
فان يك حبهم رشدا أصبه * وليس بمخطئ ان كان غيا

قال ابن جرير قالوا ولا شك أن أبا الاسود لم يكن شاكا في أن حب من سمي رشد ولكنه أبهم على من خاطبه قال وقد ذكر عن أبي الاسود انه لما قال هذه الابيات قيل له شككت فقال كلا والله ثم انتزع بقول الله تعالى وانا أو اياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين فقال أو كان شاكا من أخبر بهذا من الهادي منهم ومن الضال وقال

بعضهم معنى ذلك فقلوبكم لا تخرج عن أحد هذين المثلين اما ان تكون مثل الحجارة فى القسوة واما ان تكون أشد منها فى القسوة قال ابن جرير ومعنى ذلك على هذا التأويل فبعضها كالحجارة قسوة وبعضها أشد قسوة من الحجارة وقد رجحه ابن جرير مع توجيه غيره قلت وهذا القول الاخير يبقى شبيها بقوله تعالى مثلهم كمثل الذى استوقد نارا مع قوله أو كصيب من السماء وكقوله والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة مع قوله أو كظلمات فى بحر لجى الآية أى ان منهم من هو هكذا ومنهم من هو هكذا والله أعلم وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه حدثنا محمد بن أحمد بن ابراهيم حدثنا (١٩٥) محمد بن أيوب حدثنا محمد بن عبد الله بن أبى الثلج حدثنا على بن حفص حدثنا ابراهيم بن عبد الله بن حاطب عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فان كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة القلب وان أبعد الناس من الله القلب القاسى رواه الترمذى فى كتاب الزهد من جامعه عن محمد بن عبد الله بن أبى الثلج صاحب الامام أحمد به ومن وجه آخر عن ابراهيم ابن عبد الله بن الحرث بن حاطب به وقال غريب لا نعرفه الا من حديث ابراهيم وروى البزار عن أنس مرفوعا أربع من الشقاء جمود العين وقساوة القلب وطول الامل والحرص على الدنيا (أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا واذا خلا بعضهم الى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون)

يقول تعالى أفتطمعون أيها المؤمنون أن ينقاد لكم بالطاعة هؤلاء الفرقة الضالة من اليهود الذين شاهد آباؤهم من الآيات البينات ما شاهدوه ثم قست قلوبهم من بعد ذلك وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه أى يتأولونه على غير تأويله من بعد ما عقلوه أى فهموه على الجلية ومع هذا يخالفونه على بصيرة وهم يعلمون أنهم مخطئون فيما ذهبوا اليه من تحريفه وتأويله وهذا المقام شبيه بقوله تعالى فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه قال محمد بن اسحق حدثنى محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس انه قال ثم قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم

وقيل استثناء من مستثنى منه محذوف أى وان كانت لكبيرة على الناس الا على الذين وقيل يحتمل كلا الوجهين والاول أولى وعن ابن جريج قال بلغنى ان ناسا ممن أسلم رجعوا فقالوا مرة ههنا ومرة ههنا (وما كان الله ليضيع ايمانكم) وهذه اللام تسمى لام الجحود عند البصريين وخبر كان محذوف أى ما كان الله مريدا لاضاعة ايمانكم والكوفيون لا يقدرون شيأ وان اللام عندهم للتأكيد وهكذا القول فيما أشبه هذا التركيب مما ورد فى القرآن وغيره نحو وما كان الله ليطلعكم وما كان الله ليذر قال القرطبى اتفق العلماء على انها نزلت فيمن مات وهو يصلى الى بيت المقدس ثم قال فسمى الصلاة ايمانا لاجتماعها على نية وقول وعمل وقيل المراد ثبات المؤمنين على الايمان عند تحويل القبلة وعدم ارتيابهم كما ارتاب غيرهم والاول يتعين القول به والمصير اليه لما أخرج أحمد وعبد بن حميد والترمذى وابن جرير وابن المنذر وابن حبان والطبرانى والحاكم وصححه عن ابن عباس قال لما وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الى القبلة قالوا يا رسول الله فكيف بالذين ماتوا وهم يصلون الى بيت المقدس فأنزل وما كان الله الآية وفى الباب أحاديث كثيرة وآثار عن السلف (ان الله بالناس) تعليل لما قبله (لرؤف رحيم) الرؤف كثير الرأفة وهى أشد من الرحمة وأكثر منها والمعنى متقارب وقدم الابلغ للفاصلة (قد نرى تقلب وجهك) تصرفه (فى) جهة (السماء) قال القرطبى فى تفسيره قال العلماء هذه الآية متقدمة فى النزول على قوله سيقول السفهاء ومعنى قد تكثير الرؤية كما قاله صاحب الكشاف وقيل للتحقيق والمعنى تحول وجهك الى السماء قاله قطرب وقال الزجاج تقلب عينيك فى النظر الى السماء والمعنى متقارب والمعنى مطلعا الى الوحى ومتشوقا للامر باستقبال الكعبة وكان يود ذلك لانها قبلة ابراهيم ولانها أدعى الى اسلام العرب (فلنولينك) هو اما من الولاية أى فلنعطينك ذلك أو من التولى أى فلنجعلنك متوليا الى جهتها وهذه بشارة من الله له صلى الله عليه وآله وسلم بما يحب والفاء هنا للتسبب وقيل المعنى نحولنك (قبلة ترضاها) قال ابن عمر أى قبلة ابراهيم نحو الميزاب وهذا أولى لقوله (فول وجهك شطر المسجد الحرام) المراد بالشطر هنا الناحية والجهة ويرد بمعنى البعض مطلقا ويكون بمعنى النصف من الشئ وبمعنى الجهة والنحو ويقال شطر أى بعد ومنه الشطر وهو الشاب البعيد من الجيران الغائب عن منزله والشطير البعيد ومنه

ولمن معه من المؤمنين يؤيسهم منهم أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله وليس قوله يسمعون التوراة
كلهم قد سمعها ولكن هم الذين سألوا موسى رؤية ربهم فأخذتهم الصاعقة فيها وقال محمد بن اسحق فيما حدثني بعض أهل العلم
انهم قالوا لموسى يا موسى قد حيل بيننا وبين رؤية ربنا تعالى فأسمعنا كلامه حين يكلمك فطلب ذلك موسى الى ربه تعالى فقال نعم
مرهم فليتطهروا وليطهروا ثيابهم ويصوموا ففعلوا ثم خرج بهم حتى أتوا الطور فلما غشيهم الغمام أمرهم موسى أن يسجدوا
فوقعوا سجودا وكلمه ربه فسمعوا كلامه يأمرهم وينهاهم حتى عقلوا منه ما سمعوا ثم انصرف بهم الى بني اسرائيل
فلما جاؤهم حرف فريق منهم ما أمرهم به وقالوا حين قال موسى لبني اسرائيل ان الله قد أمركم بكذا وكذا قال ذلك الفريق الذين ذكرهم الله انما قال كذا وكذا خلافا لما قال الله عز وجل لهم فهم الذين عنى الله لرسوله صلى الله عليه وسلم وقال السدي وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه قال هي التوراة حرفوها وهذا الذي ذكره السدي أعم مما ذكره ابن عباس وابن اسحق وان كان قد اختاره ابن جرير لظاهر السياق فانه ليس يلزم من سماع كلام الله ان يكون منه كما سمعه الكليم موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام وقد قال الله تعالى وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله أي مبلغا اليه ولهذا قال قتادة في قوله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون قال هم اليهود كانوا يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه ووعوه وقال مجاهد الذين يحرفونه والذين يكتمونه هم العلماء منهم وقال أبو العالية عمدوا الى ما أنزل الله في كتابهم من نعت محمد صلى الله عليه
وسلم فحرفوه عن مواضعه وقال السدي وهم يعلمون أي انهم أذنبوا وقال ابن وهب قال ابن زيد في قوله يسمعون كلام الله ثم يحرفونه قال التوراة التي أنزلها الله عليهم يحرفونها يجعلون الحلال فيها حراما والحرام فيها حلالا والحق فيها باطلا والباطل فيها حقا اذا جاءهم المحق برشوة أخرجوا له كتاب الله واذا جاءهم المبطل برشوة أخرجوا له ذلك الكتاب فهو فيه محق واذا جاءهم أحد يسألهم شيأ ليس فيه حق ولا رشوة ولا شيء أمروه بالحق فقال الله لهم أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون وقوله تعالى واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا واذا خلا بعضهم الى بعض الآية قال محمد بن اسحق

منزل شطير وشطر اليه أي أقبل قال الراغب والشاطر أيضا من تباعد من الحق ولا خلاف ان المراد بشطر المسجد هنا الكعبة وقد حكى القرطبي الاجماع على ان استقبال عين الكعبة فرض على المعاين وعلى ان غير المعاين يستقبل الناحية ويستدل على ذلك بما يمكنه الاستدلال به وعن البراء شطر المسجد قبله وعن ابن عباس قال نحوه وقال أبو العالية تلقاءه وقال ابن عباس البيت كله قبلة وقبلة البيت الباب وأخرج البيهقي عنه مرفوعا قال البيت قبلة لاهل المسجد والمسجد قبلة لاهل الحرم والحرم قبلة لاهل الارض مشارقها ومغاربها من أمتي وقد أخرج ابن ماجه عن البراء قال صلينا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نحو بيت المقدس ثمانية عشر شهرا وصرفت القبلة الى الكعبة بعد دخوله الى المدينة بشهرين وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اذا صلى الى بيت المقدس أكثر تقلب وجهه في السماء وعلم الله من قلب نبيه أنه يهوى الكعبة فصعد جبريل فجعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يتبعه بصره وهو يصعد بين السماء والارض ينظر ما يأتيه به فأنزل الله هذه الآية فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يا جبريل كيف حالنا في صلاتنا الى بيت المقدس فأنزل الله يعني الآية التي قبل هذه واختلف في وقت تحويل القبلة فقيل كان في يوم الاثنين بعد الزوال للنصف من رجب على رأس سبعة عشر شهرا من مقدم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المدينة وعليه الاكثر وقيل كان يوم الثلاثاء لثمانية عشر شهرا وقيل كان لستة عشر شهرا وقيل لثلاثة عشر شهرا وقيل في جمادى وقيل في نصف شعبان وقيل نزلت ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في مسجد بني سلمة وقد صلى بأصحابه ركعتين من صلاة الظهر فتحول في الصلاة واستقبل الميزاب وحول الرجال مكان النساء والنساء مكان الرجال فسمي ذلك المسجد مسجد القبلتين ووصل الخبر الى أهل قباء في صلاة الصبح وأخرج البخاري ومسلم عن ابن عمر قال بينما الناس بقباء في صلاة الصبح اذ جاءهم آت فقال ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد أنزل عليه الليلة قرآن وقد أمر أن يستقبل القبلة فاستقبلوها وكانت وجوههم الى الشام فاستداروا الى الكعبة وظاهر حديث البراء في البخاري انها كانت صلاة العصر ووقع عند النسائي من رواية أبي سعيد بن المعلى انها الظهر (وحيث ما كنتم) أي من بر أو بحر مشرق أو مغرب وهذا خطاب للامة (فولوا وجوهكم

حدثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا أي ان صاحبكم رسول الله ولكنه اليكم خاصة وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا لا تحدثوا العرب بهذا فانكم قد كنتم تستفتحون به عليهم فكان منهم فأنزل الله وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أي تقرون بانه نبي وقد علمتم انه قد أخذ له الميثاق عليكم باتباعه وهو يخبرهم انه النبي الذي كنا ننتظر ونجد في كتابنا اجحدوه ولا تقروا به يقول الله تعالى أولا يعلمون ان الله يعلم ما يسرون وما يعلنون وقال الضحاك عن ابن عباس يعني المنافقين من اليهود كانوا اذا لقوا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم قالوا آمنا وقال السدي هؤلاء ناس من اليهود آمنوا ثم نافقوا وكذا قال الربيع بن أنس وقتادة وغير واحد من السلف والخلف حتى قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فيما رواه ابن وهب عنه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قال لا يدخلن علينا قصبة المدينة الا مؤمن فقال رؤساؤهم من أهل الكفر والنفاق اذهبوا فقولوا آمنا واكفروا اذا رجعتم الينا فكانوا يأتون المدينة بالبكر ويرجعون اليهم بعد العصر وقرأ قول الله تعالى وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون وكانوا يقولون اذا دخلوا المدينة نحن مسلمون ليعلموا خبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمره فاذا رجعوا رجعوا الى الكفر فلما أخبر الله نبيه صلى الله عليه وسلم قطع ذلك عنهم فلم يكونوا يدخلون وكان المؤمنون يظنون انهم مؤمنون فيقولون أليس قد قال الله لكم كذا وكذا فيقولون بلى فاذا رجعوا الى قومهم يعني الرؤساء فقالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم الآية وقال أبو العالية أتحدثونهم بما فتح الله عليكم يعني بما أنزل عليكم في كتابكم من بعث محمد صلى الله عليه وسلم وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم قال كانوا يقولون سيكون نبي فخلا بعضهم ببعض فقالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم قول آخر في المراد بالفتح قال ابن جريج حدثني القاسم بن أبي بزة عن مجاهد في قوله تعالى أتحدثونهم بما فتح الله عليكم قال قام النبي صلى الله عليه وسلم يوم قريظة تحت حصونهم فقال يا اخوان القردة والخنازير ويا عبدة الطاغوت فقالوا من أخبر بهذا

وجوهكم شطره) أي نحو البيت وتلقاءه وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال ما بين المشرق والمغرب قبلة أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح قيل أراد بالمشرق مشرق الشتاء في أقصر يوم من السنة وبالمغرب مغرب الصيف في أطول يوم من السنة فمن جعل مغرب الصيف في هذا الوقت عن يمينه ومشرق الشتاء عن يساره كان مستقبلا للقبلة وهذا في حق أهل المشرق لان المشرق الشتوي جنوبي متباعد عن خط الاستواء بمقدار الميل والمغرب الصيفي شمالي متباعد عن خط الاستواء والذي بينهما فقوسهما مكة والغرض لمن بمكة في القبلة اصابة عين الكعبة ولمن بعد من مكة اصابة الجهة ويعرف ذلك بدلائل القبلة وليس هذا موضع ذكرها وهذا أحد الاصول الدالة على تجويز الاجتهاد وفيه ايجاب استقبال الكعبة في كل صلاة فرضا كانت أو نفلا في كل مكان حضرا أو سفرا وهو مخصوص بالآية المتقدمة في نافلة السفر على الراحلة وبالآية الآتية في حال المسابقة (وان الذين أوتوا الكتاب) قال السدي هم اليهود خاصة والكتاب التوراة وقال غيره أحبار اليهود وعلماء النصارى لعموم اللفظ والكتاب التوراة والانجيل (ليعلمون أنه الحق من ربهم) الضمير في انه راجع الى ما دل عليه الكلام من التحول الى جهة الكعبة وعلم أهل الكتاب بذلك اما لكونه قد بلغهم عن انبيائهم أو وجدوا في كتب الله المنزلة عليهم أن هذا النبي مستقبل الكعبة أو لانهم قد علموا من كتبهم أو انبيائهم ان النسخ سيكون في هذه الشريعة فيكون ذلك موجبا عليهم الدخول في الاسلام ومتابعة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقيل راجع الى الشطر وقيل الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويكون على هذا التفاتا من خطابه بقوله فلنولينك الى الغيبة والاول أولى (وما الله بغافل عما يعملون) قال السدي أنزل ذلك في اليهود والمعنى ما انا بساه عما يفعل هؤلاء اليهود فأنا اجازيهم عليه في الدنيا والآخرة (ولئن) لام قسم وان شرطية (أتيت الذين أوتوا الكتاب) يعني اليهود والنصارى (بكل آية) أي بكل معجزة وبكل حجة وبرهان (ما تبعوا قبلتك) أي الكعبة عنادا وفي هذه الآية مبالغة عظيمة وهي متضمنة للتسلية لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وترويح خاطره بان هؤلاء لا يؤثر فيهم كل آية ولا يرجعون الى الحق وان جاءهم بكل برهان فضلا عن برهان واحد وذلك لانهم لم يتركوا اتباع الحق لدليل عندهم أو لشبهة طرأت عليهم حتى يوازنوا بين ما عندهم وما جاء

الامر محمدا اما خرج هذا القول الامنكم أتحدثونهم بما فتح الله عليكم بما حكم الله للفتح ليكون لهم حجة عليكم قال ابن جريج عن
مجاهد هذا حين أرسل اليهم عليا فآذوا محمدا صلى الله عليه وسلم وقال السدى أتحدثونهم بما فتح الله عليكم من العذاب ليحاجوكم
به عند ربكم هؤلاء ناس من اليهود آمنوا ثم نافقوا فكانوا يحدثون المؤمنين من العرب بما عذبوا به فقال بعضهم لبعض أتحدثونهم
بما فتح الله عليكم من العذاب ليقولوا نحن أحب الى الله منكم وأكرم على الله منكم وقال عطاء الخراسانى أتحدثونهم بما فتح الله
عليكم يعنى بما قضى لكم وعليكم وقال الحسن البصرى هؤلاء اليهود كانوا اذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا واذا
خلا بعضهم الى بعض قال بعضهم لا تحدثوا أصحاب محمد بما فتح الله عليكم مما فى كتابكم ليحاجوكم به عند ربكم فيخصموكم وقوله تعالى أولا يعلمون ان الله يعلم ما يسرون وما يعلنون قال أبو العالية يعنى ما أسروا من كفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم وتكذيبهم به وهم يجدونه مكتوبا عندهم وكذا قال قتادة وقال الحسن ان الله يعلم ما يسرون قال كان ما أسروا انهم كانوا اذا تولوا عن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وخلا بعضهم الى بعض تناهوا ان يخبر أحد منهم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم بما فتح الله عليهم مما فى كتابهم خشية ان يحاجهم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم بما فى كتابهم عند ربهم وما يعلنون يعنى حين قالوا لاصحاب محمد صلى الله عليه وسلم آمنا وكذا قال أبو العالية والربيع وقتادة (ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب الا أمانى وان هم الا يظنون فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل
لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون) يقول تعالى ومنهم أميون أى ومن أهل الكتاب قاله مجاهد
والاميون جمع أمى وهو الرجل الذى لا يحسن الكتابة قاله أبو العالية والربيع وقتادة وابراهيم النخعى وغير واحد وهو ظاهر فى
قوله تعالى لا يعلمون الكتاب أى لا يدرون ما فيه ولهذا فى صفات النبى صلى الله عليه وسلم أنه الامى لانه لم يكن يحسن الكتابة كما قال
تعالى وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذا لارتاب المبطلون وقال عليه الصلاة والسلام انا أمة أمية لا نكتب
ولا نحسب الشهر هكذا وهكذا وهكذا الحديث أى لا نفتقر فى عباداتنا ومواقيتها الى كتاب ولا حساب وقال تبارك وتعالى هو الذى

به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويقلعوا عن غوايتهم عند وضوح الحق بل كان
تركهم للحق تمردا وعنادا مع علمهم بأنهم ليسوا على شئ ومن كان هكذا فهو لا ينتفع
بالبرهان أبدا والاخبار فى قوله (وما أنت بتابع) يمكن أن يكون بمعنى النهى من الله
سبحانه لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم أى لا تتبع يا محمد (قبلتهم) ويمكن أن يكون على
ظاهره دفعا لاطماع أهل الكتاب وقطعا لما يرجونه من رجوعه صلى الله عليه وآله وسلم
الى القبلة التى كان عليها وهذه الجملة أبلغ فى النفى من قوله ما تبعوا قبلتك من وجوه منها
كونها اسمية تكرر فيها الاسم مؤكدا نفيها بالباء (وما بعضهم بتابع قبلة بعض) فيه
اخبار بان اليهود والنصارى مع حرصهم على متابعة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لما
عندهم هم مختلفون فى دينهم حتى فى هذا الحكم الخاص الذى قصه الله سبحانه على
رسوله فان بعضهم لا يتابع الآخر فى استقبال قبلته قال فى الكشاف وذلك ان اليهود
تستقبل بيت المقدس والنصارى تستقبل مطلع الشمس انتهى قال الشهاب ان كون
قبلة النصارى مطلع الشمس صرحوا به لكن وقع فى بعض كتب القصص ان قبلة عيسى
كانت بيت المقدس وقال الحافظ ابن القيم فى بدائع الفوائد قبلة أهل الكتاب ليست
بوحى وتوقيف من الله بل بمشورة واجتهاد منهم أما النصارى فلا ريب أن الله لم يأمرهم
فى الانجيل ولا فى غيره باستقبال المشرق وهم يقرون بان قبلة المسيح قبلة بنى اسرائيل
وهى الصخرة وانما وضع لهم أشياخهم هذه القبلة فهم مع اليهود متفقون على ان الله لم
يشرع استقبال بيت المقدس على رسوله أبدا والمسلمون شاهدون عليهم بذلك الامر وأما
اليهود فليس فى التوراة الامر باستقبال الصخرة البتة وانما كانوا ينصبون التابوت
ويصلون اليه من حيث خرجوا فاذا قدموا نصبوه على الصخرة وصلوا اليه فلما رفع صلوا
الى موضعه وهو الصخرة (ولئن اتبعت أهواءهم) يعنى مرادهم ورضاهم لو رجعت
الى قبلتهم (من بعد ما جاءك من العلم) فى أمر القبلة أو بانهم مقيمون على باطل وعناد
(انك اذا لمن الظالمين) فيه من التهديد العظيم والزجر البليغ ما تقشعر له الجلود وترجف
منه الافئدة واذا كان الميل الى أهوية المخالفين لهذه الشريعة الغراء والملة الشريفة
من أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذى هو سيد ولد آدم يوجب الظلم عليه وحاشاه
ان يكون من الظالمين فما ظنك بغيره من أمته وقد صان الله هذه الفرقة الاسلامية بعد

بعث فى الاميين رسولا منهم وقال ابن جرير نسبت العرب من لا يكتب ولا يخط من الرجال الى أمه فى جهله بالكتاب دون أبيه قال وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما قول خلاف هذا وهو ما حدثنا به أبو كريب حدثنا عثمان بن سعيد عن بشر بن عمارة عن أبى روق عن الضحاك عن ابن عباس فى قوله تعالى ومنهم أميون قال الاميون قوم لم يصدقوا رسولا أرسله الله ولا كتابا أنزله الله فكتبوا كتابا بايديهم ثم قالوا لقوم سفلة جهال هذا من عند الله وقال قد أخبر انهم يكتبون بايديهم ثم سماهم أميين لجحودهم كتب الله ورسله ثم قال ابن جرير وهذا التأويل تأويل على خلاف ما يعرف من كلام (١٩٩). العرب المستفيض بينهم وذلك ان الامى عند العرب الذى لا يكتب قلت ثم فى صحة هذا عن ابن عباس بهذا الاسناد نظر والله أعلم وقوله تعالى الا أمانى قال ابن أبى طلحة عن ابن عباس الأمانى الاحاديث وقال الضحاك عن ابن عباس فى قوله تعالى الا أمانى يقول الا قولا يقولون بافواههم كذبا وقال مجاهد الا كذبا وقال سنيد عن حجاج عن ابن جريج عن مجاهد ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب الا أمانى قال أناس من اليهود لم يكونوا يعلمون من الكتاب شيأ وكانوا يتكلمون بالظن بغير ما فى كتاب الله ويقولون هو من الكتاب أمانى يتمنونها وعن الحسن البصرى نحوه وقال أبو العالية والربيع وقتادة الامانى يتمنون على الله ما ليس لهم وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم الامانى قال تمنوا فقالوا نحن من أهل الكتاب وليسوا منهم قال ابن جرير والاشبه بالصواب قول الضحاك عن ابن عباس وقال مجاهد ان الاميين الذين وصفهم الله تعالى انهم لا يفقهون من الكتاب الذى أنزله الله تعالى على موسى شيأ ولكنهم يتخرصون الكذب ويتخرصون الاباطيل كذبا وزورا والتمنى فى هذا الموضع هو تخلق الكذب وتخرصه ومنه الخبر المروى عن عثمان بن عفان رضى الله عنه ما تغنيت ولا تمنيت يعنى ما تخرصت الباطل ولا اختلقت الكذب وقيل المراد بقوله الا أمانى بالتشديد والتخفيف أيضا أى الا تلاوة فعلى هذا يكون استثناء منقطعا واستشهدوا على ذلك بقوله تعالى الا اذا تمنى أى تلا ألقى الشيطان فى أمنيته الآية وقال كعب بن مالك الشاعر تمنى كتاب الله أول ليله * وآخره لاقى حمام المقادر وقال آخر تمنى كتاب الله آخر ليله * تمنى داود الكتاب على رسل وقال محمد بن اسحق حدثنى محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير

ثبوت قدم الاسلام وارتفاع مناره عن أن يميلوا الى شئ من هوى أهل الكتاب ولم تبق الا دسيسة شيطانية ووسيلة طاغوتية وهى ميل بعض من تحمل حجج الله الى هوى بعض طوائف المبتدعة لما يرجوه من الحطام العاجل من أيديهم أو الجاه لديهم ان كان لهم فى الناس دولة أو كانوا من ذوى الصولة وهذا الميل ليس بدون ذلك الميل بل اتباع أهوية المبتدعة يشبه اتباع أهوية أهل الكتاب كما يشبه الماء الماء والبيضة البيضة والتمر التمرة وقد تكون مفسدة اتباع أهوية المبتدعة أشد على هذه الملة من مفسدة اتباع أهوية أهل الملل لان المبتدعة ينتمون الى الاسلام ويظهرون للناس انهم ينصرون الدين ويتبعون أحسنه وهم على العكس من ذلك والضد لما هنالك ولا يزالون ينقلون من يميل الى أهويتهم من بدعة الى بدعة ويدفعونه من شنيعة الى شنيعة حتى يسلخوه من الدين ويخرجوه منه وهو يظن أنه منه فى الصميم وان الصراط الذى هو عليه هو الصراط المستقيم هذا ان كان فى عداد المقصرين ومن جملة الجاهلين وان كان من أهل العلم والفهم المميزين بين الحق والباطل كان فى اتباعه لاهويتهم ممن أضله الله على علم وختم على قلبه وصار نقمة على عباده ومصيبة صبها الله على المقصرين لانهم يعتقدون انه فى علمه وفهمه لا يميل الا الى الحق ولا يتبع الا الصواب فيضلون بضلاله فيكون عليه اثمه واثم من اقتدى به الى يوم القيامة نسأل الله اللطف والسلامة والهداية والكرامة (الذين آتيناهم الكتاب) يعنى علماء اليهود والنصارى وقيل اراد به مؤمنى أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأصحابه (يعرفونه) الضمير لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وان لم يسبق له ذكر لدلالة الكلام عليه وعدم اللبس ذكره القاضى ويقال عليه بل سبق ذكره بلفظ الرسول مرتين أى يعرفون نبوته روى ذلك عن مجاهد وقتادة وطائفة من أهل العلم وقيل يعرفون تحويل القبلة عن بيت المقدس الى الكعبة بالطريق التى قدمنا ذكرها وبه قال جماعة من المفسرين ورجح صاحب الكشاف الاول وعندى ان الراجح الآخر كما يدل عليه السياق الذى سيقت له هذه الآيات (كما يعرفون أبناءهم) أنهم منهم لا يشكون فيه ولا يشتبه عليهم كما لا يشتبه عليهم أبناؤهم من أبناء غيرهم يعنى يعرفون ان القبلة التى صرفتك اليها هى قبلة ابراهيم وقبلة الانبياء قبلك كما يعرفون أولادهم قال ابن سلام لقد عرفته حين رأيته كما أعرف ابنى ومعرفتى بمحمد أشد وخص الابناء دون البنات أو الاولاد لان الذكور

عن ابن عباس لا يعلمون الكتاب الأماني وان هم الا يظنون أي ولا يدرون ما فيه وهم يجحدون نبوتك بالظن وقال مجاهد وان هم
الا يظنون يكذبون وقال قتادة وأبو العالية والربيع يظنون بالله الظنون بغير الحق وقوله تعالى فويل للذين يكتبون
الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا الآية هؤلاء صنف آخر من اليهود وهم الدعاة الى الضلال
بالزور والكذب على الله وأكل أموال الناس بالباطل والويل الهلاك والدمار وهي كلمة مشهورة في اللغة وقال سفيان
الثوري عن زياد بن فياض سمعت أبا عياض (٢٠٠) يقول ويل صديد في أصل جهنم وقال عطاء بن يسار الويل واد في
جهنم لو سيرت فيه الجبال لماعت
وقال ابن أبي حاتم حدثنا يونس
ابن عبد الاعلى أخبرنا ابن وهب
أخبرني عمرو بن الحرث عن دراج عن
أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم
قال ويل واد في جهنم يهوي فيه
الكافر أربعين خريفا قبل ان
يبلغ قعره ورواه الترمذي عن
عبد الرحمن بن حميد عن الحسن
ابن موسى عن ابن لهيعة عن دراج
به وقال هذا حديث غريب
لا نعرفه الا من حديث ابن لهيعة
قلت لم يتفرد به ابن لهيعة كما ترى
ولكن الآفة ممن بعده وهذا
الحديث بهذا الاسناد مرفوعا
منكر والله أعلم وقال ابن جرير
حدثنا المثنى حدثنا ابراهيم بن عبد
السلام حدثنا صالح القشيري
حدثنا علي بن جرير عن حماد بن سلمة
عن عبد الحميد بن جعفر عن كنانة
العدوي عن عثمان بن عفان رضي
الله عنه عن رسول الله صلى الله
عليه وسلم فويل لهم مما كتبت
أيديهم وويل لهم مما يكسبون قال
الويل جبل في النار وهو الذي
أنزل في اليهود لانهم حرفوا التوراة زادوا فيها ما أحبوا ومحوا منها ما يكرهون ومحوا اسم محمد صلى الله عليه وسلم خبر
من التوراة ولذلك غضب الله عليهم فرفع بعض التوراة فقال تعالى فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون وهذا
غريب أيضا جدا وعن ابن عباس الويل المشقة من العذاب وقال الخليل بن أحمد الويل شدة الشر وقال سيبويه ويل لمن وقع
في الهلكة وويح لمن أشرف عليها وقال الاصمعي الويل تفجع والويح ترحم وقال غيره الويل الحزن وقال الخليل وفي معنى ويل
ويح وويش وويه وويك وويب ومنهم من فرق بينها وقال بعض النحاة انما جاز الابتداء بها وهي نكرة لان فيها معنى الدعاء

أعرف وأشهر وهم أصحبة الاباء ألزم وبقلوبهم ألصق والالتفات عن الخطاب الى الغيبة
للايذان بان المراد ليس معرفتهم له صلى الله عليه وآله وسلم من حيث ذاته ونسبه بل من
حيث كونه مسطورا في الكتاب منعوتا بالنعوت التي من جملتها انه صلى الله عليه وآله
وسلم يصلي الى القبلتين كأنه قيل الذين آتيناهم الكتاب يعرفون من وصفناه فيه وبهذا
تظهر جزالة النظم الكريم ذكره الكرخي (وان فريقا منهم) أي من علماء أهل الكتاب
(ليكتمون الحق) يعني أمر القبلة أو صفة محمد صلى الله عليه وآله وسلم فكتم الحق هو عند
أهل القول الاول نبوته صلى الله عليه وآله وسلم وعند أهل القول الثاني استقبال
الكعبة (وهم يعلمون) ان كتمان الحق معصية (الحق) يحتمل أن يكون المراد به الحق الاول
ويحتمل أن يراد به جنس الحق على انه خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ وخبره قوله (من ربك)
أي الحق هو الذي من ربك لا من غيره (فلا تكونن من الممترين) خطاب للنبي صلى الله
عليه وآله وسلم والامتراء الشك نهاه الله سبحانه عن الشك في كون الحق من ربه أو في
كون كتمانهم الحق مع علمهم وعلى الاول هو تعريض للامة أي لا يكن أحد من أمته
من الممترين لانه صلى الله عليه وآله وسلم لا يشك في كون ذلك هو الحق من الله سبحانه
وفيه كناية وهي أبلغ من التصريح (ولكل وجهة) أي لكل دين وجهة ولكل أهل ملة
قبلة والوجهة فعلة من المواجهة وفي معناها الجهة والوجه وهي اسم للمكان المتوجه اليه
كالكعبة أو مصدر والمراد القبلة أي انهم لا يتبعون قبلتك وأنت لا تتبع قبلتهم ولكل
وجهة اما بحق واما بباطل والضمير في (هو موليها) راجع الى لفظ كل والهاء هي المفعول
الاول والثاني محذوف أي موليها وجهه في صلاته والمعنى ان لكل صاحب ملة قبلة
صاحب القبلة موليها وجهه فقبلة المسلمين الكعبة وقبلة اليهود بيت المقدس وقبلة
النصارى مطلع الشمس أو لكل منكم يا أمة محمد قبلة يصلي اليها من شرق أو غرب
أو جنوب أو شمال اذا كان الخطاب للمسلمين ويحتمل أن يكون الضمير لله سبحانه وان لم
يجر له ذكر اذ هو معلوم ان الله فاعل ذلك والمعنى ان لكل صاحب ملة قبلة الله موليها اياه
وقيل لكل واحد من الناس قبلة وقرئ مولاها والضمير لواحد والمعنى الواحد مولاها أي
محول ومصروف اليها (فاستبقوا الخيرات) أي فبادروا الى ما أمركم الله به من استقبال
البيت الحرام كما يفيده السياق وان كان ظاهره الامر بالاستباق الى كل ما يصدق عليه انه

ومنهم من جوّز نصبها بمعنى ألزمهم ويلا قلت لكن لم يقرأ بذلك أحد وعن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم قال هم أحبار اليهود وكذا قال سعيد عن قتادة هم اليهود وقال سفيان الثوري عن عبد الرحمن ابن علقمة سألت ابن عباس رضي الله عنه عن قوله تعالى فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم قال نزلت في المشركين وأهل الكتاب وقال السدي كان ناس من اليهود كتبوا كتابا من عندهم يبيعونه من العرب ويحدثونهم انه من عند الله فيأخذوا به ثمنا قليلا وقال الزهري أخبرني عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس انه قال يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب عن شئ وكتاب الله الذي أنزله على نبيه أحدث أخبار الله تقرؤنه غضا لم يشب وقد حدثكم الله تعالى ان أهل الكتاب قد بدّلوا كتاب الله وغيروه وكتبوا بأيديهم الكتاب وقالوا هو من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسائلتهم ولا والله ما رأينا منهم أحدا قط سألكم عن الذي أنزل عليكم رواه البخاري من طرق عن الزهري وقال الحسن بن أبي الحسن البصري الثمن القليل الدنيا بحذافيرها وقوله تعالى فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون أي فويل لهم مما كتبوا بأيديهم من الكذب والبهتان والافتراء وويل لهم مما أكلوا به من السحت كما قال الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما فويل لهم يقول فالعذاب عليهم من الذي كتبوا بأيديهم من ذلك الكذب وويل لهم مما يكسبون يقول مما يأكلون به الناس السفلة وغيرهم

(وقالوا لن تمسنا النار الا أياما معدودة قل أتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله ما لا تعلمون) يقول تعالى اخبارا عن اليهود فيما نقلوه وادعوه لانفسهم من أنهم لم تمسهم النار الا أياما معدودة ثم ينجون منها فرد الله عليهم ذلك بقوله تعالى قل أتخذتم عند الله عهدا أي بذلك فان كان قد وقع عهد فهو لا يخلف عهده ولكن هذا ما جرى ولا كان ولهذا أتى بأم التي بمعنى بل أي بل تقولون على الله ما لا تعلمون من الكذب والافتراء عليه قال محمد بن اسحق عن سيف بن سليمان عن مجاهد عن ابن عباس ان اليهود كانوا يقولون ان هذه الدنيا سبعة آلاف سنة وانما نعذب بكل ألف سنة يوما في النار وانما هي سبعة أيام معدودة فأنزل الله تعالى وقالوا لن تمسنا

خير كما يفيده العموم المستفاد من تعريف الخيرات قال ابن زيد يعني الاعمال الصالحة والمراد من الاستباق الى الاستقبال الاستباق الى الصلاة في أول وقتها فان الصلاة فيه أفضل لان ظاهر الامر للوجوب فاذا لم يتحقق الوجوب فلا أقل من الندب والآية دليل لمذهب الشافعي في أفضلية الصلاة في أول الوقت والسبق الوصول الى الشئ أولا وأصله التقدم في السير ثم تجوز به في كل ما تقدم والخيرات واحدها خيرة بوزن فيعلة أو زنة فعلة كفنة وعلى كلا التقديرين فليستا للتفضيل (أينما تكونوا) أي في أي جهة من الجهات المختلفة تكونوا (يأت بكم الله) للجزاء يوم القيامة فهو وعد لاهل الطاعة بالثواب ووعيد لاهل المعصية بالعقاب ويجمعكم (جميعا) ويجعل صلاتكم في الجهات المختلفة كأنها الى جهة واحدة (ان الله على كل شئ قدير) ومنه الاعادة بعد الموت والاثابة لاهل الطاعة والعقاب لمستحق العقوبة (ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام) الظاهر أن من هنا ابتدائية والاقرب أن تكون بمعنى في أي في أي مكان سافرت (وانه) أي التولي (للحق من ربك وما الله بغافل عما تعملون) بالياء والتاء وتقدم مثله (ومن حيث خرجت) أي من أي مكان خرجت للسفر (فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره) كرر سبحانه هذا تأكيدا للامر استقبال الكعبة وللاهتمام به لان موقع التحويل كان معتنى به في نفوسهم وقيل وجه التكرير أن النسخ من مظان الفتنة ومواطن الشبهة فاذا سمعوه مرة بعد أخرى ثبتوا واندفع ما يختلج في صدورهم وقيل انه كرر هذا الحكم لتعدد علله فانه سبحانه ذكر للتحويل ثلاث علل الاولى ابتغاء مرضاته والثانية جري العادة الالهية أن يولي أهل كل ملة وصاحب دعوة جهة يستقبل بها والثالثة دفع حجج المخالفين فقرن بكل علة معلولها وقيل أراد بالاول ول وجهك شطر الكعبة اذا صليت تلقاءها ثم قال وحيثما كنتم معاشر المسلمين في سائر المساجد بالمدينة وغيرها فولوا وجوهكم شطره ثم قال ومن حيث خرجت يعني وجوب الاستقبال في الاسفار فكان هذا أمرا بالتوجه الى الكعبة في جميع المواطن من نواحي الارض (لئلا) اللام لام كي وان هي المصدرية ولا نافية (يكون للناس عليكم حجة) قيل أراد بالناس أهل الكتاب وقيل هو على العموم وقيل هم قريش واليهود والمعنى لا حجة لاحد عليكم في التولي الى غيره أي لتنتفي مجادلتهم لكم من قول اليهود يجحد ديننا ويتبع

النار الا أياما معدودة الى قوله خالدون ثم رواه عن محمد عن سعيد أو عكرمة عن ابن عباس بنحوه وقال العوفي عن
ابن عباس وقالوا لن تمسنا النار الا أياما معدودة اليهود قالوا لن تمسنا النار الا أربعين ليلة زاد غيره وهي مدة عبادتهم العجل
وحكاه القرطبي عن ابن عباس وقتادة وقال الضحاك قال ابن عباس زعمت اليهود أنهم وجدوا في التوراة مكتوبا ان ما بين طرفي
جهنم مسيرة أربعين سنة الى أن ينتهوا الى شجرة الزقوم التي هي ثابتة في أصل الجحيم وقال أعداء الله انما نعذب حتى ننتهي الى
شجرة الزقوم فتذهب جهنم وتهلك فذلك قوله تعالى وقالوا لن تمسنا النار الا أياما معدودة وقال عبد الرزاق عن
معمر عن قتادة وقالوا لن تمسنا
النار الا أياما معدودة يعني الايام
التي عبدنا فيها العجل وقال
عكرمة خاصمت اليهود رسول الله
صلى الله عليه وسلم فقالوا لن ندخل
النار الا أربعين ليلة وسيخلفنا فيها
قوم آخرون يعنون محمدا صلى الله
عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم
بيده على رؤسهم بل أنتم خالدون
مخلدون لا يخلفكم فيها أحد فأنزل
الله عزوجل وقالوا لن تمسنا النار
الا أياما معدودة الآية وقال
الحافظ أبو بكر بن مردويه
رحمه الله حدثنا عبد الرحمن بن
جعفر حدثنا محمد بن محمد بن صخر
حدثنا أبو عبد الرحمن المقرئ
حدثنا الليث بن سعد حدثني سعيد
ابن أبي سعيد عن أبي هريرة قال
لما فتحت خيبر أهديت لرسول الله
صلى الله عليه وسلم شاة فيها سم
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم
اجمعوا الي من كان من اليهود ههنا
فقال لهم رسول الله صلى الله عليه
وسلم من أبوكم قالوا فلان قال
كذبتم بل أبوكم فلان فقالوا صدقت
وبررت ثم قال لهم هل أنتم صادقي عن شيء ان سألتكم عنه قالوا نعم يا أبا القاسم وان كذبناك عرفت كذبنا
كما عرفته في أبينا فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل النار فقالوا نكون فيها يسيرا ثم تخلفونا فيها فقال لهم رسول الله
صلى الله عليه وسلم اخسؤا والله لا نخلفكم فيها أبدا ثم قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم هل أنتم صادقي عن شيء ان سألتكم
عنه قالوا نعم يا أبا القاسم قال هل جعلتم في هذه الشاة سما فقالوا نعم قال فما حملكم على ذلك فقالوا أردنا ان كنت كاذبا ان نستريح
منك وان كنت نبيا لم يضرك ورواه الامام أحمد والبخاري والنسائي من حديث الليث بن سعد بنحوه (بلى من كسب سيئة وأحاطت

قبلتنا وقول المشركين يدعي ملة ابراهيم ويخالف قبلته (الا الذين ظلموا منهم) يعني
المعاندين من أهل الكتاب القائلين ما ترك قبلتنا الى الكعبة الا ميلا الى دين قومه وقيل
هم مشركو العرب وحجتهم قولهم راجعت قبلتنا وقيل معناه لئلا يقولوا لكم قد أمرتم
باستقبال الكعبة ولستم ترونها وقال أبو عبيدة الا ههنا بمعنى الواو وأبطل الزجاج هذا
القول وقال انه استثناء منقطع أي لكن الذين ظلموا منهم فانهم يحتجون ومعناه الا من
ظلم باحتجاجه فيما قد وضح له كأن تقول مالك على حجة الا أن تظلمني أي مالك على حجة
ولكنك تظلمني وسمى ظلمه حجة لان المحتج بها سماه حجة وان كانت داحضة ورجح ابن جرير
الطبري أن الاستثناء متصل وقال نفى الله أن تكون لاحد حجة على النبي صلى الله عليه
وآله وسلم وأصحابه في استقبالهم الكعبة والمعنى لا حجة لاحد عليكم الا الحجة الداحضة
حيث قالوا ما ولاهم وقالوا ان محمدا تحير في دينه وما توجه الى قبلتنا الا أنا أهدى منه وغير
ذلك من الاقوال التي لم تنبعث الا من عابد وثن أو من يهودي أو منافق قال والحجة بمعنى
المحاجة التي هي المخاصمة والمجادلة وسماها تعالى حجة وحكم بفسادها حيث كانت من
ظالم ورجح ابن عطية أن الاستثناء منقطع كما قال الزجاج قال القرطبي وهذا على أن
يكون المراد بالناس اليهود ثم استثنى كفار العرب كأنه قال لكن الذين ظلموا في قولهم
رجع محمد صلى الله عليه وآله وسلم الى قبلتنا وسيرجع الى ديننا كله (فلا تخشوهم) أي
لا تخافوا جدالهم في التولي اليها ومطاعنهم فانها داحضة باطلة لا تضركم (واخشوني)
أي احذروا عقابي ان أنتم عدلتم عما ألزمتكم به وفرضته عليكم (ولأتم نعمتي عليكم)
أي بهدايتي اياكم الى قبلة ابراهيم لتتم لكم الملة الحنيفية وقيل تمام النعمة الموت على
الاسلام ثم دخول الجنة ثم رؤية الله تعالى (ولعلكم تهتدون) أي لكي تهتدوا من
الضلالة ولعل وعسى من الله واجب (كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا
ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة) التشبيه واقع على أن النعمة في القبلة كالنعمة
في الرسالة وقيل معنى الكلام على التقديم والتأخير أي فاذكروني كما أرسلنا قاله الزجاج
وقيل غير ذلك والتعبير بصيغة التكلم الدالة على العظمة بعد التعبير بالصيغة التي لا دلالة
لها عليها من قبيل التفنن وجريا على سنن الكبراء وفيكم خطاب لاهل مكة والعرب
وكذا قوله منكم وفي ارساله رسولا منهم نعمة عظيمة عليهم لما فيه من الشرف لهم ولان
المعروف

به خطيئته فاولئك أصحاب النار هم فيها خالدون والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) يقول تعالى ليس الامر كما تمنيتم ولا كما تشتهون بل الامر أنه من عمل سيئة وأحاطت به خطيئته وهو من وافى يوم القيامة وليست له حسنة بل جميع أعماله سيئات فهذا من أهل النار والذين آمنوا وعملوا الصالحات أى آمنوا بالله ورسوله وعملوا الصالحات من العمل الموافق للشريعة فهو من أهل الجنة وهذا المقام شبيه بقوله تعالى ليس بامانيكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوأ يجزبه ولا يجدله من دون الله وليا ولا نصيرا ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو (٢٠٣) مؤمن فاولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا قال محمد بن اسحق حدثنى محمد بن أبى محمد عن سعيد أو عكرمة عن ابن عباس بلى من كسب سيئة أى عمل مثل أعمالكم وكفر بمثل ما كفرتم به حتى يحيط به كفره فما له من حسنة وفى رواية عن ابن عباس قال الشرك قال ابن أبى حاتم وروى عن أبى وائل وأبى العالية ومجاهد وعكرمة والحسن وقتادة والربيع بن أنس نحوه وقال الحسن أيضا والسدى السيئة الكبيرة من الكبائر وقال ابن جريج عن مجاهد وأحاطت به خطيئته قال بقلبه وقال أبو هريرة وأبو وائل وعطاء والحسن وأحاطت به خطيئته قالوا أحاط به شركه وقال الاعمش عن أبى رزين عن الربيع بن خيثم وأحاطت به خطيئته قال الذى يموت على خطاياه من قبل أن يتوب وعن السدى وأبى رزين نحوه وقال أبو العالية ومجاهد والحسن فى رواية عنهما وقتادة والربيع ابن أنس وأحاطت به خطيئته الموجبة الكبيرة وكل هذه الاقوال متقاربة فى المعنى والله أعلم ويذكرههنا الحديث الذى رواه الامام أحمد حيث قال حدثنا سليمان بن داود حدثنا عمرو بن قتادة عن عبد ربه عن أبى عياض عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اياكم ومحقرات الذنوب فانهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه وان رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب لهم مثلا كمثل قوم نزلوا بأرض فلاة فحضر صنيع القوم فجعل الرجل ينطلق فيجىء بالعود والرجل يجىء بالعود حتى جمعوا سوادا وأججوا نارا فأنضجوا ما قذفوا فيها وقال محمد بن اسحق حدثنى محمد عن سعيد أو عكرمة عن ابن عباس والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون أى من آمن بما كفرتم وعمل بما تركتم

المعروف من حال العرب الانفة الشديدة من الانقياد للغير فكان بعثة الرسول منهم وفيهم أقرب الى قبول قوله والانقياد له والرسول هو محمد صلى الله عليه وآله وسلم والآيات القرآن وذلك من أعظم النعم لانه معجزة باقية على الدهر والتزكية التطهير من دنس الشرك والذنوب وقيل محاسن الاعمال ومكارم الافعال والحكمة هى السنة المطهرة والفقه فى الدين (ويعلمكم) من أخبار الامم الماضية والقرون الخالية وقصص الانبياء والخبر عن الحوادث المستقبلة (مالم تكونوا تعلمون) ذلك قبل بعثة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتستقلون بعلمه بعقولكم (فاذكرونى أذكركم) أمر وجوابه وفيه معنى المجازاة قاله سعيد بن جبير والمعنى اذكرونى بالطاعة أذكركم بالثواب والمغفرة حكاه عنه القرطبى وروى نحوه مرفوعا وقيل الذكر يكون باللسان وهو التسبيح والتحميد ونحو ذلك من الاذكار المأثورة ويكون بالقلب وهو التفكر فى الدلائل الدالة على وحدانيته وبدائع خلقه ويكون بالجوارح وهو الاستغراق فى الاعمال التى أمروا بها مثل الصلاة وسائر الطاعات التى للجوارح فيها فعل وقيل غير ذلك وعن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول الله عز وجل أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه اذا ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى وان ذكرنى فى ملا ذكرته فى ملا خير منه وان تقرب الى شبرا تقربت اليه ذراعا وان تقرب الى ذراعا تقربت اليه باعا وان أتانى يمشى أتيته هرولة أخرجه البخارى ومسلم وأخرجا عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول الله عز وجل أنا مع عبدى ما ذكرنى وتحركت بى شفتاه وأخرجا عن أبى موسى الاشعرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مثل الذى يذكر ربه والذى لا يذكر كمثل الحى والميت وفى الباب أحاديث كثيرة (واشكروا لى) يعنى بالطاعة ما أنعمت به عليكم قال الفراء شكرتك وشكرت لك واحد قال ابن عطية ولى أفصح وأشهر مع الشكر والشكر معرفة الاحسان والتحدث به وأصله فى اللغة الظهور وقد تقدم الكلام فيه وقد ورد فى فضل ذكر الله على الاطلاق وفضل الشكر أحاديث كثيرة كما أشرنا اليه (ولا تكفرون) أى بجحد النعم وعصيان الامر والكفر هنا ستر النعمة لا التكذيب فمن أطاع الله فقد شكره ومن عصاه فقد كفر وقد تقدم الكلام فيه (يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة) لما فرغ سبحانه من ارشاد عباده الى

من دينه فلهم الجنة خالدين فيها يخبرهم ان الثواب بالخير والشر مقيم على أهله أبدا الا انقطاع له (واذ أخذنا ميثاق بني اسرائيل لا تعبدون الا الله وبالوالدين احسانا وذى القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسنا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم توليتم الا قليلا منكم وأنتم معرضون) يذكر تبارك وتعالى بنى اسرائيل بما أمرهم به من الاوامر وأخذه ميثاقهم على ذلك وانهم تولوا عن ذلك كله وأعرضوا قصدا وعمدا وهم يعرفونه ويذكرونه فأمرهم تعالى أن يعبدوه ولا يشركوا به شيأ وبهذا أمر جميع خلقه ولذلك خلقهم كما قال تعالى وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحى اليه انه لا اله الا أنا فاعبدون وقال تعالى ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت وهذا هو أعلى الحقوق وأعظمها وهو حق الله تبارك وتعالى أن يعبد وحده لا شريك له ثم بعده حق المخلوقين وآكدهم وأولاهم بذلك حق الوالدين ولهذا يقرن تبارك وتعالى بين حقه وحق الوالدين كما قال تعالى أن اشكر لى ولوالديك الى المصير وقال تبارك وتعالى وقضى ربك ان لا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا الى أن قال وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل وفى الصحيحين عن ابن مسعود قلت يا رسول الله أى العمل أفضل قال الصلاة على وقتها قلت ثم أى قال بر الوالدين قلت ثم أى قال الجهاد فى سبيل الله ولهذا جاء فى الحديث الصحيح أن رجلا قال يا رسول الله من أبر قال أمك قال ثم من قال أمك قال ثم من قال أباك ثم أدناك وقوله تعالى لا تعبدون الا الله قال الزمخشرى خبر بمعنى الطلب وهو آكد وقيل كان أصله أن لا تعبدوا الا الله كما قرأها من قرأها من السلف فحذفت ان فارتفع وحكى عن أبى وابن مسعود انهما قرآها لا تعبدوا الا الله ونقل هذا التوجيه القرطبى فى تفسيره عن سيبويه قال واختاره الكسائى والفراء قال واليتامى وهم الصغار الذين لا كاسب لهم من الآباء والمساكين الذين لا يجدون ما ينفقون على أنفسهم وأهليهم وسيأتى الكلام على هذه الاصناف عند آية النساء التى أمرنا الله تعالى بها صريحا فى قوله واعبدوا الله ولا تشركوا به شيأ وبالوالدين احسانا الآية وقوله تعالى وقولوا للناس حسنا أى كلموهم طيبا ولينوا لهم جانبا ويدخل فى ذلك الامر بالمعروف والنهى عن المنكر بالمعروف كما قال الحسن البصرى فى قوله تعالى وقولوا للناس حسنا فالحسن

ذكره وشكره عقب ذلك بارشادهم الى الاستعانة بالصبر عن المعاصى وحظوظ النفس وبالصلاة التى هى عماد الدين ومعراج المؤمنين فان من جمع بين ذكر الله وشكره واستعان بالصبر والصلاة على تأدية ما أمر الله به ودفع ما يرد عليه من المحن فقد هدى الى الصواب ووفق للخير ومن الناس من حمل الصبر على الصوم وفسره به ومنهم من حمله على الجهاد ولا وجه لتخصيص نوع دون نوع والصبر حبس النفس على احتمال المكاره فى ذات الله وتوطينها على تحمل المشاق فى العبادات وسائر الطاعات وتجنب الجزع والمحظورات والمعنى استعينوا على طلب الآخرة بالصبر على الفرائض وبالصلوات الخمس على تمحيص الذنوب وخصها بالذكر لتكررها وعظمها لانها أم العبادات ومناجاة رب الكائنات (ان الله مع الصابرين) أى بالعون والنصر واجابة الدعوة وهذه المعية التى أوجبها الله فيها أعظم ترغيب لعباده سبحانه الى لزوم الصبر على ما ينوب من الخطوب فمن كان الله معه لم يخش من الاهوال وان كانت كالجبال وهذه المعية خاصة بالمتقين والمحسنين والصابرين وأما المعية بالعلم والقدرة فهى عامة فى حق كل أحد والجملة تعليل لما قبلها من الاستعانة بالصبر خاصة كما قال أبو السعود أو بالصبر والصلاة كما قال الكرخى (ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحياء) قيل نزلت فيمن قتل ببدر من المسلمين وكانوا أربعة عشر رجلا ستة من المهاجرين وثمانية من الانصار وسماهم فى الخازن بأسمائهم وكان الناس يقولون فيهم مات فلان وذهب عنه نعيم الدنيا ولذاتها فأنزل الله هذه الآية وقيل ان الكفار قالوا ان الناس يقتلون أنفسهم طلبا لمرضاة محمد صلى الله عليه وآله وسلم من غير فائدة فنزلت هذه الآية وأخبر الله أن من قتل فى سبيله فانه حى وانما خص الشهداء لانهم فضلوا على غيرهم بمزيد النعم وهو أنهم يرزقون من مطاعم الجنة وما كلها وغيرهم ينعمون بما دون ذلك (ولكن لا تشعرون) بهذه الحياة عند مشاهدتكم لابدانهم بعد سلب أرواحهم لانكم تحكمون عليها بالموت فى ظاهر الامر بحسب ما يبلغ اليه علمكم الذى هو بالنسبة الى علم الله كما يأخذ الطائر فى منقاره من ماء البحر وليسوا كذلك فى الواقع بل هم أحياء فى البرزخ تصل أرواحهم الى الجنان فهم أحياء من هذه الجهة وان كانوا أمواتا من جهة خروج الروح من أجسادهم وفى الآية دليل على ثبوت عذاب القبر للعصاة وأن المطيعين لله يصل اليهم ثوابهم وهم فى قبورهم فى البرزخ

ولا اعتداد

من القول يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويحلم ويعفو ويصفح ويقول للناس حسنا كما قال الله وهو كل خلق حسن رضيه الله وقال الامام أحمد حدثنا روح حدثنا أبو عامر الخراز عن أبي عمران الجوني عن عبد الله بن الصامت عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لا تحقرن من المعروف شيأ وان لم تجد فالق أخاك بوجه منطلق وأخرجه مسلم في صحيحه والترمذي وصححه من حديث أبي عامر الخراز واسمه صالح بن رستم به وناسب ان يأمرهم بأن يقولوا للناس حسنا بعد ما أمرهم بالاحسان اليهم بالفعل فجمع بين طرفي الاحسان الفعلي والقولي ثم أكد الامر بعبادته والاحسان الى الناس بالمتعين من ذلك وهو الصلاة والزكاة فقال وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأخبر أنهم تولوا عن ذلك كله أي تركوه وراء ظهورهم وأعرضوا عنه على عمد بعد العلم به الا القليل منهم وقد أمر الله هذه الامة بنظير ذلك في سورة النساء بقوله واعبدوا الله ولا تشركوا به شيأ وبالوالدين احسانا وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم ان الله لا يحب من كان مختالا فخورا فقامت هذه الامة من ذلك بما لم يقم به أمة من الامم قبلها ولله الحمد والمنة ومن النقول الغريبة ههنا ما ذكره ابن أبي حاتم في تفسيره حدثنا أبي حدثنا محمد بن خلف العسقلاني حدثنا عبد الله بن يوسف يعني التنيسي حدثنا خالد بن صبيح عن حميد بن عقبة عن أسد بن وداعة انه كان يخرج من منزله فلا يلقى يهوديا ولا نصرانيا الا سلم عليه فقيل له ما شأنك تسلم على اليهودي والنصراني فقال ان الله تعالى يقول وقولوا للناس حسنا وهو السلام قال وروي عن عطاء الخراساني نحوه (قلت) وقد ثبت في السنة أنهم لا يبدؤن بالسلام والله أعلم (وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقا منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالاثم والعدوان وان يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم اخراجهم أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم الا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون الى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون)

ولا اعتداد بخلاف من خالف في ذلك فقد تواترت به الاحاديث الصحيحة ودلت عليه الآيات القرآنية ومثل هذه الآية قوله تعالى ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون وقد وردت أحاديث في أن أرواح الشهداء في أجواف طيور خضر تأكل من ثمار الجنة فمنها عن كعب بن مالك مرفوعا عند أحمد والترمذي وصححه النسائي وابن ماجه وروي ان أرواح الشهداء على صور طيور بيض كما أخرجه عبد الرزاق عن قتادة قال بلغنا فذكر ذلك وروي أنها على صور طيور خضر كما أخرجه ابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الايمان عن أبي العالية والآية نزلت في شهداء بدر وكانوا أربعة عشر وفيها دلالة على أن الارواح جواهر قائمة بأنفسها مغايرة لما يحس من البدن تبقى بعد الموت دراكة وعليه جمهور الصحابة والتابعين وبه نطقت الآيات والسنن وعلى هذا تخصيص الشهداء لاختصاصهم بالقرب من الله تعالى ومزيد البهجة والكرامة

(ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الاموال والانفس والثمرات) أي لنختبرنكم واللام جواب القسم أي والله لنبلونكم يا أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم والبلاء أصله المحنة أي نمتحنكم لنختبركم هل تصبرون على البلاء وتستسلمون للقضاء أم لا وليظهر الطائع من العاصي والتنكير للتقليل أي بشيء قليل من هذه الامور فان ما وقاهم عنه أكثر بالنسبة الى ما أصابهم بألف مرة فكذا ما يصيب به معانديهم وانما أخبر به قبل الوقوع ليوطنوا عليه نفوسهم ويزداد يقينهم عند مشاهدتهم له حسبما أخبر به وليعلموا أنه شيء يسير له عاقبة محمودة والمراد بالخوف ما يحصل لمن يخشى من نزول ضرر به من عدو أو غيره وبالجوع المجاعة التي تحصل عند الجدب والقحط وبنقص الاموال ما يحدث فيها بسبب الجوائح وما أوجبه الله فيها من الزكاة ونحوها عن رجاء بن حيوة قال يأتي على الناس زمان لا تحمل النخلة فيه الا ثمرة وبنقص الانفس الموت والقتل في الجهاد وبنقص الثمرات ما يصيبها من الآفات وهو من عطف الخاص على العام لشمول الاموال للثمرات وغيرها وقال الشافعي في تفسير هذه الآية الخوف خوف الله والجوع صيام شهر رمضان ونقص الاموال اخراج الزكاة والصدقات ونقص الانفس بالامراض ونقص الثمرات موت الاولاد لان الولد ثمرة القلب وفي الحديث اذا مات ولد العبد قال الله للملائكة أقبضتم ولد عبدي قالوا نعم قال أقبضتم ثمرة فؤاده قالوا

ثم قال فماذا قال قالوا حمدك واسترجع قال ابنوا له بيتا في الجنة وسموه بيت الحمد أخرجه الترمذي عن أبي موسى الاشعري مرفوعا وقال حديث حسن ولكن اللفظ القرآني أوسع مما قال وأعم منه فلا يختص بشيء دون غيره (وبشر الصابرين) أمر لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أو لكل من يقدر على التبشير وقد تقدم معنى البشارة والصبر أصله الحبس والجملة عطف على ولنبلونكم عطف المضمون على المضمون أي الابتلاء حاصل لكم وكذا البشارة لكن لمن صبر قاله سعد التفتازاني (الذين اذا أصابتهم مصيبة) المصيبة واحدة المصايب وهي النكبة التي يتأذى بها الانسان وان صغرت (قالوا) أي باللسان والقلب لا باللسان فقط فان التلفظ بذلك مع الجزع قبيح وسخط للقضاء وذلك ان يتصور ما خلق لاجله وانه يرجع الى ربه ويتذكر نعم الله عليه ليرى أن ما أبقى الله عليه أضعاف ما استرده منه فيهون عليه ويستسلم (انا لله وانا اليه راجعون) في الآخرة فيجازينا وصفهم بأنهم المسترجعون عند المصيبة لان ذلك تسليم ورضا وفيه بيان أن هذه الكلمات ملجأ للمصابين وعصمة للممتحنين فانها جامعة بين الاقرار بالعبودية لله والاعتراف بالبعث والنشور والرجوع والتفويض الى الله والرضا بكل ما نزل به من المصايب وفي الحديث من استرجع عند المصيبة جبر الله مصيبته وأحسن عقباه وجعل له خلفا صالحا يرضاه وأخرج الطبراني وابن مردويه عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أعطيت أمتي شيأ لم يعطه أحد من الامم أن يقولوا عند المصيبة انا لله وانا اليه راجعون ألا تسمع الى قول يعقوب عند فقد يوسف يا أسفا على يوسف وقد ورد في فضل الاسترجاع عند المصيبة أحاديث كثيرة (أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة) الصلاة هنا المغفرة قاله ابن عباس أو الثناء الحسن قاله الزجاج وعلى هذا فذكر الرحمة لقصد التأكيد وقال في الكشاف الصلاة الرحمة والتعطف فوضعت موضع الرأفة وجمع بينها وبين الرحمة كقوله رأفة ورحمة رؤف رحيم والمعنى عليهم رأفة بعد رأفة ورحمة بعد رحمة انتهى وعبر عن المغفرة بلفظ الجمع للتنبيه على كثرتها وتنوعها قاله البيضاوي وأبو السعود وقيل المراد بالرحمة كشف الكربة وقضاء الحاجة وانما وصفوا هنا بذلك لكونهم فعلوا ما فيه الوصول الى طريق الصواب من الاسترجاع والتسليم (وأولئك هم المهتدون) يعني الى الاسترجاع وقيل الى الجنة وقيل الى الحق والصواب وقال عمر بن الخطاب نعم

يقول تبارك وتعالى منكرا على اليهود الذين كانوا في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة وما كانوا يعانونه من القتال مع الاوس والخزرج وذلك ان الاوس والخزرج وهم الانصار كانوا في الجاهلية عباد أصنام وكانت بينهم حروب كثيرة وكانت يهود المدينة ثلاث قبائل بنوقينقاع وبنو النضير حلفاء الخزرج وبنو قريظة حلفاء الاوس فكانت الحرب اذا نشبت بينهم قاتل كل فريق مع حلفائه فيقتل اليهودي أعداءه وقد يقتل اليهودي الآخر من الفريق الآخر وذلك حرام عليهم في دينهم ونص كتابهم ويخرجونهم من بيوتهم وينتهبون ما فيها من الاثاث والامتعة والاموال ثم اذا وضعت الحرب اوزارها استفكوا الاسارى من الفريق المغلوب عملا بحكم التوراة ولهذا قال تعالى أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ولهذا قال تعالى واذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم أي لا يقتل بعضكم بعضا ولا يخرجه من منزله ولا يظاهر عليه كما قال تعالى فتوبوا الى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم وذلك أن أهل الملة الواحدة بمنزلة النفس الواحدة كما قال عليه الصلاة والسلام مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتواصلهم بمنزلة الجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر وقوله تعالى ثم أقررتم وأنتم تشهدون أي ثم أقررتم بمعرفة هذا الميثاق وصحته وأنتم تشهدون به ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقا منكم من ديارهم الآية قال محمد بن اسحق بن يسار حدثني محمد بن أبي محمد عن سعيد بن جبير أو عكرمة عن ابن عباس ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقا منكم من ديارهم الآية قال أنبأهم الله بذلك من فعلهم وقد حرم عليهم في التوراة سفك دمائهم وافترض عليهم فيها فداء أسراهم فكانوا فريقين طائفة منهم بنوقينقاع وهم حلفاء الخزرج والنضير وقريظة وهم حلفاء الاوس فكانوا اذا كانت بين الاوس والخزرج حرب خرجت بنوقينقاع مع الخزرج وخرجت النضير وقريظة مع الاوس يظاهر كل واحد من الفريقين حلفاءه على اخوانه حتى تسافكوا دماءهم بينهم وبايديهم التوراة يعرفون فيها ما عليهم وما لهم والاوس والخزرج أهل شرك يعبدون الاوثان ولا يعرفون جنة ولا نارا ولا بعثا ولا قيامة ولا كتابا ولا حلالا ولا حراما فاذا وضعت

الحرب أوزارها افتدوا أسراهم تصديقا لما فى التوراة وأخذا به بعضهم من. من أسراهم فى ايدى
الاوس و يفتدى النضير وقريظة ما كان فى أيدى الخزرج منهم و يطلبون ما ... وقتلوا من قتلوا منهم فيما بينهم
مظاهرة لاهل الشرك عليهم يقول الله تعالى ذكره حيث أنبأهم بذلك أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض أى تفادونهم
بحكم التوراة وتقتلونهم وفى حكم التوراة أن لا يقتل ولا يخرج من داره ولا يظاهر عليه من يشرك بالله و يعبد الاوثان من دونه
ابتغاء عرض الدنيا ففى ذلك من فعلهم مع الاوس والخزرج فيما بلغنى نزلت هذه القصة وقال اسباط عن السدى

العدلان ونعمت العلاوة فالعدلان الصلاة والرحمة والعلاوة الهداية وقد وردت أحاديث كثيرة فى ثواب أهل البلاء وأجر الصابرين ذكرها المفسرون لانطيل بذكرها هنا فانها معروفة فى كتب الآثار (ان الصفا والمروة من شعائر الله) أصل الصفا فى اللغة الحجر الاملس الصلب وهو هنا علم جبل من جبال مكة معروف وكذلك المروة علم لجبل بمكة معروف وأصلها فى اللغة واحدة المروى وهى الحجارة الصغار التى فيها لين وقيل التى فيها صلابة وقيل يعم الجميع وقيل انها الحجارة البيض البراقة وقيل انها الحجارة السود والشعائر جمع شعيرة وهى العلامة أى من أعلام مناسكه والمراد بها مواضع العبادة التى أشعرها الله اعلاما للناس من الموقف والمسعى والمنحر ومنه اشعار الهدى أى اعلامه بغرز حديدة فى سنامه والاجود شعائر بالهمز لزيادة حرف المد وهو عكس معايش ومصايب (فمن حج البيت) هو فى اللغة القصد وفى الشرع الاتيان بمناسك الحج التى شرعها الله سبحانه (أو اعتمر) العمرة فى اللغة الزيارة وفى الشرع الاتيان بالنسك المعروف على الصفة الثابتة فالحج والعمرة قصد وزيارة (فلا جناح) أى فلا اثم (عليه أن يطوف) أى يدور (بهما) ويسعى بينهما والجناح أصله الجنوح وهو الميل ومنه الجوانح لاعوجاجها ورفع الجناح يدل على عدم الوجوب وبه قال أبو حنيفة وأصحابه والثورى وحكى الزمخشرى فى الكشاف عن أبى حنيفة أنه يقول هو واجب وليس بركن وعلى تاركه دم وقد ذهب الى عدم الوجوب ابن عباس وابن الزبير وأنس بن مالك وابن سيرين وعن أحمد أنه سنة وأجمعوا على أنه مشروع فيهما وانما الخلاف فى وجوبه ومما يقوى دلالة هذه الآية على عدم الوجوب قوله تعالى فى آخر الآية (ومن تطوع خيرا) أى زاد على ما فرض عليه من حج أو عمرة أو طواف أو تطوع بالسعى أو فعل طاعة فرضا كان أو نفلا (فان الله شاكر عليم) مثيب على الطاعة لا يخفى عليه وذهب الجمهور الى أن السعى واجب ونسك من جملة المناسك وهو قول ابن عمر وجابر وعائشة وبه قال الحسن واليه ذهب الشافعى ومالك واستدلوا بما أخرجه الشيخان وغيرهما عن عائشة أن عروة قال لها أرأيت قول الله ان الصفا والمروة من شعائر الله الآية فما أرى على أحد جناحا أن لا يطوف بهما فقالت عائشة بئسما قلت يا ابن أختى انها لو كانت على ما أولتها كانت فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما ولكنها انما أنزلت لان الانصار قبل أن يسلموا كانوا يهلون لمناة

كانت قريظة حلفاء الاوس وكانت النضير حلفاء الخزرج فكانوا يقتتلون فى حرب بينهم فتقاتل بنو قريظة مع حلفائها النضير وحلفاءهم وكانت النضير تقاتل قريظة وحلفاءها ويغلبونهم فيخربون ديارهم ويخرجونهم منها فاذا أسر رجل من الفريقين كلاهما جمعوا له حتى يفدوه فتعيرهم العرب بذلك و يقولون كيف تقاتلونهم وتفدونهم قالوا انا أمرنا ان نفديهم وحرم علينا قتالهم قالوا فلم تقاتلونهم قالوا انا نستحيى ان تستذل حلفاؤنا فذلك حين عيرهم الله تبارك وتعالى فقال تعالى ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقا منكم من ديارهم الآية وقال اسباط عن السدى عن الشعبى نزلت هذه الآية فى قيس بن الحطيم ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقا منكم من ديارهم الآية وقال اسباط عن السدى عن عبد خير قال غزونا مع سلمان بن ربيعة الباهلى بلنجر فحاصرنا أهلها ففتحنا المدينة وأصبنا سبايا واشترى

عبد الله بن سلام يهودية بسبعمائة فلما مر برأس الجالوت نزل به فقال له عبد الله يا رأس الجالوت هل لك فى عجوز ههنا من أهل دينك تشتريها منى قال نعم قال أخذتها بسبعمائة درهم قال فانى أربحك سبعمائة أخرى قال فانى قد حلفت ان لا أنقصها من أربعة آلاف قال لا حاجة لى فيها قال والله لتشترينها منى أو لتكفرن بدينك الذى أنت عليه قال ادن منى فدنا منه فقرأ فى اذنه مما فى التوراة انك لا تجد مملوكا من بنى اسرائيل الا اشتريته فاعتقته وان يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم اخراجهم قال أنت عبد الله بن سلام قال نعم قال فجاء بأربعة آلاف فأخذ عبد الله ألفين ورد عليه ألفين وقال آدم بن أبى اياس فى تفسيره

حدثنا أبو جعفر يعني الرازي حدثنا الربيع بن أنس أخبرنا أبو العالية أن عبد الله بن سلام مر على رأس الجالوت بالكوفة وهو يفادي من النساء من لم يقع عليه العرب ولا يفادي من وقع عليه العرب فقال عبد الله أما انه مكتوب عندك في كتابك ان تفاديهن كلهن والذي أرشدت اليه الآية الكريمة وهذا السياق ذم اليهود في قيامهم بأمر التوراة التي يعتقدون صحتها ومخالفة شرعها مع معرفتهم بذلك وشهادتهم له بالصحة فلهذا لا يؤتمنون على ما فيها ولا على نقلها ولا يصدقون فيما كتموه من صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ونعته ومبعثه ومخرجه ومهاجره وغير ذلك من شؤونه التي أخبرت بها الانبياء قبله عليهم الصلاة والسلام واليهود عليهم لعائن الله يتكاتمونه بينهم ولهذا قال تعالى فما جزاء من يفعل ذلك منكم الا خزي في الحياة الدنيا أي بسبب مخالفتهم شرع الله وأمره ويوم القيامة يردون الى أشد العذاب جزاء على مخالفتهم كتاب الله الذي بأيديهم وما الله بغافل عما تعملون أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة أي استحبوها على الآخرة واختاروها فلا يخفف عنهم العذاب أي لا يفتر عنهم ساعة واحدة ولا هم ينصرون أي وليس لهم ناصر ينقذهم مما هم فيه من العذاب الدائم السرمدي ولا يجيرهم منه (ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون) ينعت تبارك وتعالى بني اسرائيل بالعتو والعناد والمخالفة والاستكبار على الانبياء وانهم انما يتبعون أهواءهم فذكر تعالى انه آتى موسى الكتاب وهو التوراة فحرفوها وبدلوها وخالفوا أوامرها وأولوها وأرسل الرسل والنبيين من بعده الذين يحكمون بشريعته كما قال تعالى انا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والاحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء الآية ولهذا قال تعالى وقفينا من بعده بالرسل قال السدي عن أبي مالك أتبعنا وقال غيره أردفنا والكل قريب كما قال تعالى ثم أرسلنا رسلنا تترى حتى ختم أنبياء بني اسرائيل بعيسى بن مريم فجاء بمخالفة التوراة في بعض الاحكام ولهذا أعطاه الله من البينات وهي المعجزات قال ابن عباس من احياء الموتى وخلقه من الطين كهيئة الطير فينفخ فيها فتكون طيرا باذن الله وابراء الاسقام واخباره بالغيوب وتأييده بروح

الطاغية كانوا يعبدونها وكان من أهل لها يتحرج أن يطوف بالصفا والمروة في الجاهلية فأنزل الله ان الصفا والمروة الآية قالت عائشة ثم قد بين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الطواف بهما فليس لاحد أن يدع الطواف بهما وأخرج مسلم وغيره عنها انها قالت لعمري ما أتم الله حج من لم يسع بين الصفا والمروة ولا عمرته لان الله قال ان الصفا والمروة من شعائر الله وأخرج الطبراني عن ابن عباس قال سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال ان الله كتب عليكم السعي فاسعوا وأخرج أحمد في مسنده والشافعي وابن سعد وابن المنذر وابن قانع والبيهقي عن حبيبة بنت أبي تجراة قالت رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يطوف بين الصفا والمروة والناس بين يديه وهو وراءهم يسعى حتى أرى ركبتيه من شدة السعي يدور به ازاره وهو يقول اسعوا فان الله عز وجل كتب عليكم السعي ويؤيد ذلك حديث خذوا عني مناسككم واختار الشوكاني في جميع مؤلفاته الوجوب وهو الراجح (ان الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون) فيه اخبار بأن الذي يكتم ذلك ملعون وفيه دليل على جواز لعن الكافر بعد موته خلافا لمن قال انه لا فائدة له واختلفوا من المراد بذلك فقيل أحبار اليهود ورهبان النصارى الذين كتموا أمر محمد صلى الله عليه وآله وسلم وقد روي عن جماعة من السلف ان الآية نزلت في أهل الكتاب لكتمهم نبوة نبينا صلى الله عليه وآله وسلم وآية الرجم وغيرها من الاحكام التي كانت في التوراة وقيل كل من كتم الحق وترك بيان ما أوجب الله بيانه وهو الراجح لان الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما تقرر في الاصول فعلى فرض أن سبب النزول ما وقع من اليهود والنصارى من الكتم فلا ينافي ذلك تناول هذه الآية لكل من كتم الحق وفي هذه الآية من الوعيد الشديد ما لا يقادر قدره فان من لعنه الله ولعنه كل من يأتي منه اللعن من عباده قد بلغ من الشقاوة والخسران الى الغاية التي لا تلحق ولا يدرك كنهها وفي قوله من البينات والهدى دليل على أنه يجوز كتم غير ذلك كما قال أبو هريرة حفظت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعاءين أما أحدهما فبثثته وأما الآخر فلو بثثته قطع هذا البلعوم أخرجه البخاري والضمير في بيناه راجع الى ما أنزلنا والكتاب اسم جنس وتعريفه يفيد شموله لجميع الكتب

القدس وهو جبريل عليه السلام مايدلهم على صدقه فيما جاءهم به فاشتد تكذيب بنى اسرائيل له وحسدهم وعنادهم لمخالفة التوراة فى البعض كما قال تعالى اخبارا عن عيسى ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم الآية فكانت بنو اسرائيل تعامل الانبياء أسوأ المعاملة ففريقا يكذبونه وفريقا يقتلونه وماذاك الا لانهم يأتونهم بالامور المخالفة لاهوائهم وآرائهم وبالالزام باحكام التوراة التى قد تصرفوا فى مخالفتها فلهذا كان ذلك يشق عليهم فكذبوهم وربما قتلوا بعضهم ولهذا قال تعالى أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون والدليل على ان روح القدس هو جبريل كما نص عليه ابن مسعود فى تفسير هذه الآية وتابعه على ذلك ابن عباس ومحمد بن كعب واسمعيل بن خالد والسدى والربيع بن أنس وعطية العوفى وقتادة مع قوله تعالى نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين ماقال البخارى وقال ابن أبي الزناد عن أبيه عن أبى هريرة عن عائشة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم وضع لحسان ابن ثابت منبرا فى المسجد فكان ينافح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم أيد حسان بروح القدس كما نافح عن نبيك فهذا من البخارى تعليقا وقد رواه أبو داود فى سننه عن ابن سيرين والترمذى عن على بن حجر واسمعيل بن موسى الفزارى ثلاثتهم عن أبى عبد الرحمن ابن أبى الزناد عن أبيه وهشام بن عروة كلاهما عن عروة عن عائشة به قال الترمذى حسن صحيح وهو حديث أبى الزناد وفى الصحيحين من حديث سفيان بن عيينة عن الزهرى عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة أن عمر بن الخطاب مر بحسان وهو ينشد الشعر فى المسجد فلحظ اليه فقال قد كنت أنشد فيه وفيه من هو خير منك ثم التفت الى أبى هريرة فقال أنشدك الله أسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول أجب عنى اللهم أيده بروح القدس فقال اللهم نعم وفى بعض الروايات ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لحسان اهجهم أوهاجهم وجبريل معك وفى شعر حسان قوله وجبريل رسول الله فينا * وروح القدس ليس به خفاء وقال محمد بن اسحق حدثنى عبد الرحمن بن أبى حسين المكى عن شهر بن حوشب الاشعرى ان نفرا من اليهود سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا أخبرنا عن الروح فقال

(٢٠٩)

وقيل المراد به التوراة واللعن الابعاد والطرد والمراد بقوله اللاعنون الملائكة والمؤمنون قاله الزجاج وغيره ورجحه ابن عطية وقيل كل من يتأتى منه اللعن فيدخل فى ذلك الجن والانس وقال ابن عباس جميع الخلائق الا الجن والانس وقيل هم الانس والجن وقيل ماتلاعن اثنان من المسلمين الا رجعت الى اليهود والنصارى الذين كتموا صفة النبى صلى الله عليه وآله وسلم وأحكام التوراة والانجيل وقيل هم الحشرات والبهائم ويؤيد ذلك ماأخرجه ابن ماجه وابن المنذر وابن أبى حاتم عن البراء ابن عازب قال كنا فى جنازة مع النبى صلى الله عليه وآله وسلم فقال ان الكافر يضرب ضربة بين عينيه فتسمعه كل دابة غير الثقلين فتلعنه كل دابة سمعت صوته فذلك قول الله تعالى ويلعنهم اللاعنون يعنى دواب الارض وعن مجاهد اذا أجدبت البهائم دعت على فجار بنى آدم وعنه ان دواب الارض والعقارب والخنافس يقولون انما منعنا القطر بذنوبهم فيلعنونهم وعن أبى جعفر يلعنهم كل شئ حتى الخنفساء وقد وردت أحاديث كثيرة فى النهى عن كتم العلم والوعيد لفاعله وأخرج البخارى ومسلم عن أبى هريرة قال لولا آيتان أنزلهما الله فى كتابه ماحدثت شيأ أبدا ان الذين يكتمون الآية وقوله واذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه الى آخرها وهل اظهار علوم الدين فرض كفاية أو فرض عين فيه خلاف والاصح انه اذا أظهرها البعض بحيث يتمكن كل واحد من الوصول اليه لم يبق مكتوما وقيل متى سئل العالم عن شئ يعلمه من أمر الدين يجب عليه اظهاره والا فلا وفى الآية دليل على وجوب قبول قول الواحد لانه لا يجب عليه البيان الا وقد وجب قبول قوله (الا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا) فيه استثناء التائبين الراجعين من الكفر الى الاسلام والمصلحين لما فسد من أعمالهم والمبينين للناس مابينه الله فى كتبه وعلى ألسن رسله قال قتادة أصلحوا ما بينهم وبين الله وبينوا الذى جاءهم من الله ولم يكتموه ولم يجحدوه (فاولئك أتوب عليهم) يعنى أتجاوز عنهم وأقبل توبتهم قاله سعيد بن جبير (وأنا التواب) أى المتجاوز عن عبادى الرجاع بقلوبهم المنصرفة عنى الى (الرحيم) بهم بعد اقبالهم على والجملة اعتراض تذييل محقق لمضمون ماقبله والالتفات الى التكلم للتفنن فى النظم الكريم مع مافيه من التلويح والرمز الى مامر من اختلاف المبدا فى فعليه تعالى السابق وهو اللعن واللاحق وهو الرحمة

(ان الذين كفروا) بالكتمان وغيره (وماتوا وهم كفار) جملة حالية واثبات الواو فيها أفصح خلافا لمن جعل حذفها شاذا وهو الزمخشري تبعا للفراء وقد استدل بذلك على انه لا يجوز لعن كافر معين لان حاله عند الوفاة لا يعلم ولا ينافي ذلك ما ثبت عنه صلى الله عليه وآله وسلم من لعنه لقوم من الكفار بأعيانهم لانه يعلم بالوحي ما لا نعلم وقيل يجوز لعنه عملا بظاهر الحال كما يجوز قتاله واستدل بقوله (أولئك عليهم لعنة الله والملائكة) على جواز لعن الكفار على العموم قال القرطبي ولا خلاف في ذلك قال وليس لعن الكافر بطريق الزجر له عن الكفر بل هو جزاء على الكفر واظهار قبح كفره سواء كان الكافر عاقلا أو مجنونا وقال قوم من السلف لا فائدة في لعن من جن أو مات منهم لا بطريق الجزاء ولا بطريق الزجر قال ويدل على هذا القول ان الآية دالة على الاخبار عن الله والملائكة والناس بلعنهم لا على الامر به قال ابن العربي ان لعن العاصي المعين لا يجوز باتفاق لما روي ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم أتي بشارب خمر مرارا فقال بعض من حضر لعنه الله ما أكثر ما يشرب به فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا تكونوا عونا للشيطان على أخيكم والحديث في الصحيحين (والناس أجمعين) قيل هذا يوم القيامة وأما في الدنيا فالناس المسلم والكافر ومن يعلم بالعاصي ومعصيته ومن لا يعلم فلا يتأتى اللعن له من جميع الناس وقيل في الدنيا والمراد انه يلعنه غالب الناس أو كل من علم بمعصيته منهم عن أبي العالية قال ان الكافر يوقف يوم القيامة فيلعنه الله ثم يلعنه الملائكة ثم يلعنه الناس أجمعون وقال قتادة يعني بالناس أجمعين المؤمنين (خالدين فيها) أي في النار وقيل في اللعنة وانما أضمرت لعظم شأنها (لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون) فيعتذرون قاله أبو العالية وقال ابن عباس لا يؤخرون والانظار الامهال وقيل معناه لا ينظر الله اليهم فهو من النظر وقيل هو من الانتظار أي لا ينتظرون ليعتذروا (والهكم اله واحد) أي لا شريك له في الالوهية ولا نظير له في الربوبية والتوحيد هو نفي الشريك والقسيم والشبيه فالله تعالى واحد في أفعاله لا شريك له يشاركه في مصنوعاته وواحد في ذاته لا قسيم له وواحد في صفاته لا يشبهه شئ من خلقه (لا اله الا هو) تقرير للوحدانية بنفي غيره من الالوهية واثباتها له (الرحمن الرحيم) وقد تقدم تفسيرهما وفيه الارشاد الى التوحيد وقطع العلائق والاشارة الى ان

أنشدكم بالله وبأيامه عند بني اسرائيل هل تعلمون انه جبرائيل وهو الذي يأتيني قالوا نعم وفي صحيح ابن حبان عن ابن مسعود ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان روح القدس نفث في روعي انه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب * أقوال أخر قال ابن أبي حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا منجاب بن الحرث حدثنا بشر عن أبي روق عن الضحاك عن ابن عباس وأيدناه بروح القدس قال هو الاسم الاعظم الذي كان عيسى يحيي به الموتى وقال ابن جرير حدثت عن المنجاب فذكر وقال ابن أبي حاتم وروي عن سعيد بن جبير نحو ذلك ونقله القرطبي عن عبيد بن عمير أيضا قال وهو الاسم الاعظم

وقال ابن أبي نجيح الروح هو حفظة على الملائكة وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس القدس هو الرب تبارك وتعالى وهو قول كعب وحكى القرطبي عن مجاهد والحسن البصري انهما قالا القدس هو الله تعالى وروحه جبريل فعلى هذا يكون القول الاول وقال السدي القدس البركة وقال العوفي عن ابن عباس القدس الطهر وقال ابن جرير حدثنا يونس بن عبد الاعلى أنبأنا ابن وهب قال قال ابن زيد في قوله تعالى وأيدناه بروح القدس قال أيد الله عيسى بالانجيل روحا كما جعل القرآن روحا كلاهما روح من الله كما قال تعالى وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ثم قال ابن جرير وأولى التأويلات في ذلك بالصواب قول من قال الروح في هذا الموضع جبرائيل فان الله تعالى أخبر أنه أيد عيسى به كما أخبر في قوله تعالى اذ قال الله يا عيسى بن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك اذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلا واذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل الآية فذكر انه أيده به فلو كان الروح الذي أيده به هو الانجيل لكان قوله اول واذ أيدتك بروح القدس واذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل تكرير قول لا معنى له والله سبحانه وتعالى أعز وأجل ان يخاطب عباده بما لا يفيدهم به (قلت) ومن الدليل على انه جبرائيل ما تقدم من أول السياق ولله الحمد وقال الزمخشري بروح القدس بالروح المقدسة كما تقول حاتم الجود ورجل صدق ووصفها بالقدس كما قال وروح منه فوصفه بالاختصاص والتقريب تكرمة وقيل لانه لم تضمه الاصلاب والارحام الطوامث وقيل بجبريل وقيل بالانجيل كما قال في القرآن روحا من أمرنا وقيل باسم

الله الاعظم الذي كان يحيي الموتى به (رواه عن كلامه وقولا آخر وهو أن المراد روح عيسى نفسه المقدسة المطهرة) وقال الزمخشري في قوله تعالى ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون انما لم يقل وفريقا قتلتم لانه أراد بذلك وصفهم في المستقبل أيضا لانهم حاولوا قتل النبي صلى الله عليه وسلم بالسم والسحر وقد قال عليه السلام في مرض موته مازالت أكلة خيبر تعادني فهذا أوان انقطاع أبهري قلت وهذا الحديث في صحيح البخاري وغيره (وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون) قال محمد بن اسحق حدثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد عن ابن عباس وقالوا قلوبنا غلف أي في أكنة وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس وقالوا قلوبنا غلف أي لاتفقه وقال العوفي عن ابن عباس وقالوا قلوبنا غلف هي القلوب المطبوع عليها وقال مجاهد وقالوا قلوبنا غلف عليها غشاوة وقال عكرمة عليها طابع وقال أبو العالية أي لاتفقه وقال السدي يقولون عليها غلاف وهو الغطاء وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة فلا تعي ولا تفقه قال مجاهد وقتادة وقرأ ابن عباس غلف بضم اللام وهو جمع غلاف أي قلوبنا أوعية لكل علم فلا نحتاج الى علمك قاله ابن عباس وعطاء بل لعنهم الله بكفرهم أي طردهم الله وأبعدهم من كل خير فقليلا ما يؤمنون قال قتادة معناه لا يؤمن منهم الا القليل وقالوا قلوبنا غلف هو كقوله وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا اليه وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله غلف قال تقول قلبي في غلاف فلا يخلص اليه مما تقول شئ وقرأ وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا اليه وهذا الذي رجحه ابن جرير واستشهد بما روى من حديث عمرو بن مرة الجملي عن أبي البختري عن حذيفة قال القلوب أربعة فذكر منها وقلب أغلف مغضوب عليه وذاك قلب الكافر وقال ابن أبي حاتم حدثنا محمد بن عبد الرحمن العزرمي أنبأنا أبي عن جدي عن قتادة عن الحسن في قوله قلوبنا غلف قال لم تختن وهذا القول يرجع معناه الى ما تقدم من عدم طهارة قلوبهم وانها بعيدة من الخير *قول آخر قال الضحاك عن ابن عباس وقالوا قلوبنا غلف قال يقولون قلوبنا غلف مملوءة لا تحتاج الى علم محمد ولا غيره وقال عطية العوفي عن ابن عباس وقالوا قلوبنا غلف أي أوعية للعلم وعلى هذا المعنى جاءت قراءة بعض الانصار فيها حكاه ابن جرير وقالوا قلوبنا غلف بضم اللام نقلها الزمخشري أي جمع غلاف أي أوعية بمعنى

أول ما يجب بيانه ويحرم كتمانه هو أمر التوحيد وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والدارمي وأبو داود والترمذي وصححه وابن ماجه عن أسماء بنت يزيد بن السكن عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم انه قال اسم الله الاعظم في هاتين الآيتين والهكم اله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم والم الله لا اله الا هو الحي القيوم وأخرج الديلمي عن أنس ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال ليس شئ أشد على مردة الجن من هؤلاء الآيات التي في سورة البقرة والهكم اله واحد الآيتين (ان في خلق السموات والارض) لما ذكر سبحانه التوحيد بقوله والهكم اله واحد عقب ذلك بالدليل الدال عليه وهو هذه الامور الثمانية التي هي من أعظم صنعة الصانع الحكيم مع علم كل عاقل بانه لا يتهيأ من أحد من الآلهة التي أثبتها الكفار ان يأتي بشئ منها أو يقتدر عليه أو على بعضه وهي خلق السموات وتعاقب الليل والنهار وجري الفلك في البحر وانزال المطر من السماء واحياء الارض به وبث الدواب فيها بسببه وتصريف الرياح وتسخير السحاب فان من أمعن نظره وأعمل فكره في واحد منها انبهر له وضاق ذهنه عن تصور حقيقته وتحتم عليه التصديق بان صانعه هو الله سبحانه وانما جمع السموات لانها أجناس مختلفة كل سماء من جنس غير جنس الاخرى ووحد الارض لانها كلها من جنس واحد وهو التراب والآية في السماء سمكها وارتفاعها بغير عمد ولا علاقة وما يرى فيها من الشمس والقمر والنجوم والآية في الارض مدها وبسطها على الماء وما يرى فيها من الجبال والبحار والمعادن والجواهر والانهار والاشجار والثمار والنبات (واختلاف الليل والنهار) تعاقبهما باقبال احدهما وادبار الآخر واضاءة احدهما واظلام الآخر وقيل في الطول والقصر والزيادة والنقصان قال ابن الخطيب وعندي فيه وجه ثالث هو انهما كما يختلفان في الازمنة فهما يختلفان في الامكنة فان من يقول ان الارض كرة فكل ساعة عينتها فتلك الساعة في موضع من الارض صبح وفي موضع آخر ظهر وفي آخر عصر وفي آخر غرب وفي آخر عشاء وهلم جرا هذا اذا اعتبرنا البلاد المختلفة في الطول أما البلاد المختلفة في العرض فكل بلد يكون عرضه للشمال أكثر كانت أيامه الصيفية أطول وأيامه الشتوية بالضد من ذلك فهذه الاحوال المختلفة في الايام والليالي بحسب اختلاف اطوال البلاد وعروضها أمر عجيب قاله الكرخي وانما قدم الليل على النهار لان الظلمة أقدم قال

انهم ادعوا أن قلوبهم مملوءة بعلم لا يحتاجون معه الى علم آخر كما كانوا يفتون بعلم التوراة ولهذا قال تعالى بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون أى ليس الامر كما ادعوا بل قلوبهم ملعونة مطبوع عليها كما قال فى سورة النساء وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون الا قليلا وقد اختلفوا فى معنى قوله فقليلا ما يؤمنون وقوله فلا يؤمنون الا قليلا فقال بعضهم فقليل من يؤمن منهم وقيل فقليل ايمانهم بمعنى انهم يؤمنون بما جاءهم به موسى من أمر المعاد والثواب والعقاب ولكنه ايمان لا ينفعهم لانه مغمور بما كفروا به من الذى (٢١٢) جاءهم به محمد صلى الله عليه وسلم وقال بعضهم انما كانوا غير مؤمنين بشئ

وانما قال فقليلا ما يؤمنون وهم بالجميع كافرون كما تقول العرب قلما رأيت مثل هذا قط تريد ما رأيت مثل هذا قط وقال الكسائى تقول العرب من زنى بارض قلما تنبت أى لا تنبت شيأ حكاه ابن جرير رحمه الله والله أعلم (ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين) يقول تعالى ولما جاءهم يعنى اليهود كتاب من عند الله وهو القرآن الذى أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم مصدق لما معهم يعنى من التوراة وقوله وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا أى وقد كانوا من قبل مجىء هذا الرسول بهذا الكتاب يستنصرون بمجيئه على أعدائهم من المشركين اذا قاتلوهم يقولون انه سيبعث نبى فى آخر الزمان نقتلكم معه قتل عاد وارم كما قال محمد بن اسحق عن عاصم بن عمرو بن قتادة الانصارى عن أشياخ منهم قال فينا والله وفيهم يعنى فى الانصار وفى اليهود الذين كانوا جيرانهم نزلت عند

هذه القصة يعنى ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به قالوا كنا قد علوناهم قهرا دهرا فى الجاهلية ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب وهم يقولون ان نبيا سيبعث الآن نتبعه قد أظل زمانه فيقتلكم معه قتل عاد وارم فلما بعث الله رسوله من قريش واتبعناه كفروا به يقول الله تعالى فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين وقال الضحاك عن ابن عباس فى قوله وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا قال يستنصرون يقولون نحن نعين محمدا عليهم وليسوا كذلك بل يكذبون وقال محمد بن اسحق أخبرنى محمد بن أبى محمد أخبرنى عكرمة

تعالى وآية لهم الليل نسلخ منه النهار وهذا أصح القولين وقيل النور سابق الظلمة وينبنى على هذا الخلاف فائدة وهى ان الليلة هل هى تابعة لليوم قبلها أو لليوم بعدها فعلى القول الصحيح تكون الليلة لليوم بعدها فيكون اليوم تابعا لها وعلى القول الثانى تكون لليوم قبلها فتكون الليلة تابعة له فيوم عرفة على القول الاول مستثنى من الاصل فانه تابع لليلة بعده وعلى الثانى جاء على الاصل والآية فيهما أن انتظام أحوال العباد بسبب طلب الكسب والمعيشة يكون فى النهار وطلب النوم والراحة يكون بالليل فاختلافهما انما هو لتحصيل مصالح العباد والنهار ما بين طلوع الفجر الى غروب الشمس وقال النضر بن شميل أول النهار طلوع الشمس ولا يعد ما قبل ذلك من النهار وكذا قال ثعلب والزجاج وقسم ابن الانبارى الزمان الى ثلاثة أقسام قسما جعله ليلا محضا وهو من غروب الشمس الى طلوع الفجر وقسما جعله نهارا محضا وهو من طلوع الشمس الى غروبها وقسما جعله مشتركا بين النهار والليل وهو ما بين طلوع الفجر الى طلوع الشمس لبقايا ظلمة الليل ومبادى ضوء النهار هذا باعتبار مصطلح أهل اللغة وأما فى الشرع فالكلام فى ذلك معروف (والفلك التى تجرى فى البحر) وهى السفن وافراده وجمعه بلفظ واحد وهو هذا ويذكر ويؤنث قال تعالى فى الفلك المشحون والفلك التى تجرى فى البحر وقال حتى اذا كنتم فى الفلك وجرين بهم وقيل واحده فلك بالتحريك مثل أسد وأسد والآية فى الفلك تسخيرها وجريانها على وجه الماء وهى موقرة بالاثقال والرجال فلا ترسب وجريانها بالريح مقبلة ومدبرة وتسخير البحر لحمل الفلك مع قوة سلطان الماء وهيجان البحر فلا ينجى منه الا الله تعالى (بما ينفع الناس) يعنى ركوبها والحمل عليها فى التجارات لطلب الارباح والآية فى ذلك ان الله لو لم يقو قلب من يركب هذه السفن لما تم الغرض فى منافعهم وأيضا فان الله خص كل قطر من اقطار العالم بشئ معين وأحوج الكل الى الكل فصار ذلك سببا يدعوهم الى اقتحام الاخطار فى الاسفار من ركوب السفن وخوف البحر وغير ذلك فالحامل ينتفع لانه يربح والمحمول اليه ينتفع بما حمل اليه (وما أنزل الله من السماء من ماء) أى المطر الذى به حياة العالم واخراج النبات والارزاق (فأحيا به الارض) أى اظهر نضارتها وحسنها (بعد موتها) أى بعد يبسها وجدبها سماه موتا مجازا والآية فى هذين ان الله جعله سببا لاحياء الجميع من حيوان ونبات ونزوله

أو سعيد بن جبير عن ابن عباس ان يهود كانوا يستفتحون على الاوس والخزرج برسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه فلما بعثه الله من العرب كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون فيه فقال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء بن معرور وداود بن سلمة يا معشر يهود اتقوا الله وأسلموا فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد صلى الله عليه وسلم ونحن أهل شرك وتخبروننا بأنه مبعوث وتصفونه بصفته فقال سلام بن مشكم أخو بني النضير ما جاءنا بشيء نعرفه وما هو بالذي كنا نذكر لكم فأنزل الله في ذلك من قولهم ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم الآية وقال العوفي عن ابن عباس (٢١٣) وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا يقول يستنصرون بخروج محمد صلى الله عليه وسلم على مشركي العرب يعني بذلك أهل الكتاب فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم ورأوه من غيرهم كفروا به وحسدوه وقال أبو العالية كانت اليهود تستنصر بمحمد صلى الله عليه وسلم على مشركي العرب يقولون اللهم ابعث هذا النبي الذي نجده مكتوبا عندنا حتى نعذب المشركين ونقتلهم فلما بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم ورأوا أنه من غيرهم كفروا به حسدا للعرب وهم يعلمون انه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال الله تعالى فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين وقال قتادة وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا قال وكانوا يقولون انه سيأتي نبي فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به وقال مجاهد فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين قال هم اليهود (بئسما اشتروا به أنفسهم ان يكفروا بما أنزل الله بغيا ان ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباؤا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين) قال مجاهد بئسما اشتروا به أنفسهم يهود شروا الحق بالباطل وكتمان ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم بان يبينوه وقال السدي بئسما اشتروا به أنفسهم يقول باعوا به أنفسهم يقول بئسما اعتاضوا لانفسهم فرضوا به وعدلوا اليه من الكفر بما أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم عن تصديقه وموازرته ونصرته وانما حملهم على ذلك البغي والحسد والكراهية لان ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده ولا حسد أعظم من هذا قال ابن اسحق عن محمد عن عكرمة أو سعيد عن ابن عباس بئسما اشتروا به أنفسهم ان يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده أي ان الله جعله من غيرهم فباؤا

عند وقت الحاجة اليه بمقدار المنفعة وعند الاستسقاء والدعاء وانزاله بمكان دون مكان (وبث فيها) أي في الارض (من كل دابة) قال ابن عباس يريد كل ما دب على وجه الارض من جميع الخلق من الناس وغيرهم والآية في ذلك ان جنس الانسان يرجع الى أصل واحد وهو آدم مع ما فيهم من الاختلاف في الصور والاشكال والالوان والالسنة والطبائع والاخلاق والاوصاف الى غير ذلك ثم يقاس على بني آدم سائر الحيوان والبث النشر والظاهر ان قوله بث معطوف على قوله فاحيا لانهما أمران متسببان عن انزال المطر وقال في الكشاف ان الظاهر عطفه على أنزل وقال أبو حيان لا يصح عطفه على أنزل ولا على أحيا والصواب أنه على حذف الموصول أي وما بث وفيه زيادة فائدة وهو جعله آية مستقلة وحذف الموصول شائع في كلام العرب انتهى (وتصريف الرياح) أي ارسالها عقيما وملقحة وصرا ونصرا وهلاكا وحارة وباردة ولينة وعاصفة وقيل تصريفها في مهابها جنوبا وشمالا ودبورا وقبولا وصبا ونكباء وهي التي تأتي بين مهبي ريحين وقيل تصريفها أن تأتي السفن الكبار بقدر ما تحملها والصغار كذلك ولا مانع من حمل التصريف على جميع ما ذكر وعن أبي بن كعب كل شيء في القرآن من الرياح فهي رحمة وكل شيء من الريح فهي عذاب وقد ورد في النهي عن سب الريح وأوصافها أحاديث كثيرة لا تعلق لها بالآية والآية في الريح انه جسم لطيف لا يمسك ولا يرى وهو مع ذلك في غاية القوة بحيث يقلع الشجر والصخر ويخرب البنيان العظيم وهو مع ذلك حياة الوجود فلو امسك طرفة عين لمات كل ذي روح وأنتن ما على وجه الارض (والسحاب المسخر بين السماء والارض) أي الغيم المذلل سمي سحابا لانسحابه في الهواء وسحبت ذيلي سحبا وتسحب فلان على فلان اجترأ والمسخر المذلل وسخره بعثه من مكان الى آخر وقيل تسخيره ثبوته بين السماء والارض من غير عمد ولا علائق والاول اظهر والآية في ذلك أن السحاب مع ما فيه من المياه العظيمة التي تسيل منها الاودية العظيمة يبقى معلقا بين السماء والارض بلا علاقة تمسكه ولا دعامة تسنده وفيه آيات أخر لا تخفى ففي هذه الانواع الثمانية دلالة عظيمة على وجود الصانع القادر المختار وانه الواحد في ملكه فلا شريك له ولا نظير وهو المراد بقوله والهكم اله واحد لا اله الا هو (لآيات لقوم يعقلون) أي دلالات على وحدانيته سبحانه لمن ينظر ببصره ويتفكر بعقله وانما جمع آيات لان في كل واحد

بغضب على غضب قال ابن عباس فى الغضب على الغضب فغضب عليهم فيما كانوا ضيعوا من التوراة وهى معهم وغضب
بكفرهم بهذا النبى الذى بعث الله اليهم (قلت) ومعنى باؤا استوجبوا واستحقوا واستقروا بغضب على غضب. وقال
أبو العالية غضب الله عليهم بكفرهم بالانجيل وعيسى ثم غضب الله عليهم بكفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم وبالقرآن وعن
عكرمة وقتادة مثله قال السدى أما الغضب الاول فهو حين غضب عليهم فى العجل وأما الغضب الثانى فغضب عليهم حين كفروا
بمحمد صلى الله عليه وسلم وعن ابن عباس مثله وقوله تعالى وللكافرين عذاب مهين لما كان كفرهم سببه البغى
والحسد ومنشأ ذلك التكبر قوبلوا بالاهانة والصغار فى الدنيا والآخرة كما قال تعالى ان الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين أى صاغرين حقيرين ذليلين راغمين وقد قال الامام أحمد حدثنا يحيى حدثنا ابن عجلان عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبى صلى الله عليه وسلم قال يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر فى صور الناس يعلوهم كل شئ من الصغار حتى يدخلوا سجنا فى جهنم يقال له بولس تعلوهم نار الانيار يسقون من طينة الخبال عصارة أهل النار (واذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقا لما معهم قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل ان كنتم مؤمنين ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون) يقول تعالى واذا قيل لهم أى لليهود وأمثالهم من أهل الكتاب آمنوا بما أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم وصدقوه واتبعوه قالوا نؤمن بما أنزل علينا أى
يكفينا الايمان بما أنزل علينا من التوراة والانجيل ولا نقر الا بذلك ويكفرون بما وراءه يعنى بما بعده وهو الحق وجواب
مصدقا لما معهم أى وهم يعلمون أن ما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم الحق مصدقا لما معهم منصوبا على الحال أى فى حال تصديقه
لما معهم من التوراة والانجيل فالحجة قائمة عليهم بذلك كما قال تعالى الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ثم قال تعالى
فلم تقتلون أنبياء الله من قبل ان كنتم مؤمنين أى ان كنتم صادقين فى دعواكم الايمان بما أنزل اليكم فلم قتلتم الانبياء الذين جاؤكم
بتصديق التوراة التى بأيديكم والحكم بها وعدم نسخها وأنتم تعلمون صدقهم قتلتموهم بغيا وعنادا واستكبارا على رسل الله

مما ذكر من هذه الانواع آيات كثيرة تدل على ان لها خالقا مدبرا مختارا (ومن الناس من
يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله) اظهار الاسم الجليل فى مقام الاضمار لتربية
المهابة وتفخيم المضاف وابانة كمال قبح ما ارتكبوه ولما فرغ سبحانه من الدليل على
وحدانيته أخبر أن مع هذا الدليل الظاهر المفيد لعظيم سلطانه وجليل قدرته وتفرده
بالخلق قد وجد فى الناس من يتخذ معه سبحانه ندا يعبده من الاصنام كذا قيل وقد تقدم
تفسير الانداد مع ان هؤلاء الكفار لم يقتصروا على مجرد عبادة الانداد بل أحبوها حبا
عظيما وأفرطوا فى ذلك افراطا بالغا حتى صار حبهم لهذه الاوثان ونحوها متمكنا فى
صدورهم كتمكن حب المؤمنين لله سبحانه ويجوز ان يكون المراد كحبهم لله أى عبدة
الاوثان قاله الزجاج وابن كيسان ويجوز ان يكون مبنيا للمفعول ومعناه كما يحب الله
و يعظم والاول أولى لقوله (والذين آمنوا أشد حبا لله) فانه استدراك لما يفيده التشبيه
من التساوى أى ان حب المؤمنين لله أشد من حب الكفار للانداد لان المؤمنين يخصون
الله سبحانه بالعبادة والدعاء والكفار لا يخصون أصنامهم بذلك بل يشركون الله معهم
و يعترفون بأنهم انما يعبدون أصنامهم ليقربوهم الى الله ويمكن ان يجعل هذه الجملة
دليلا على الثانى لان المؤمنين اذا كانوا أشد حبا لله لم يكن حب الكفار للانداد كحب
المؤمنين لله وقيل المراد بالانداد هنا الرؤساء والكبراء أى يطيعونهم فى معاصى الله
و يقوى هذا الضمير فى قوله يحبونهم فانه لمن يعقل ويقويه أيضا قوله سبحانه عقب ذلك
اذ تبرأ الذين اتبعوا الآية والحب نقيض البغض والمحبة الارادة وقيل فى معنى الآية
غير ذلك وايثار اظهار الاسم الجليل فى موضع الاضمار لتفخيم الحب والاشعار بعلته
(ولو يرى الذين ظلموا اذ يرون العذاب) قرأ أهل مكة بالياء وأهل الشام بالفوقية والمعنى
على الاولى لو يرى الذين ظلموا فى الدنيا عذاب الآخرة لعلموا حين يرونه (أن القوة لله
جميعا) قاله أبو عبيدة قال النحاس وهذا القول هو الذى عليه أهل التفسير انتهى وعلى
هذا فالرؤية هى البصرية لا القلبية وروى عن محمد بن يزيد المبرد قال هذا التفسير الذى
جاء به أبو عبيدة بعيد وليست عبارته فيه بالجيدة لانه يقدر ولو يرى الذين ظلموا العذاب
فكأنه يجعله مشكوكا فيه وقد أوجبه الله تعالى ولكن التقدير وهو الاحسن ولو يرى
الذين ظلموا أن القوة لله ويرى بمعنى يعلم أى لو يعلمون حقيقة قوة الله وشدة عذابه قال

فلستم تتبعون الا مجرد الاهواء والآراء والتشهي كما قال تعالى أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون وقال السدي في هذه الآية يعيرهم الله تبارك وتعالى قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل ان كنتم مؤمنين وقال أبو جعفر بن جرير قل يا محمد ليهود بني اسرائيل اذا قلت لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا لم تقتلون ان كنتم مؤمنين بما أنزل الله أنبياء الله يا معشر اليهود وقد حرم الله في الكتاب الذي أنزل عليكم قتلهم بل أمركم باتباعهم وطاعتهم وتصديقهم وذلك من الله تكذيب لهم في قولهم نؤمن بما أنزل علينا وتعيير لهم * ولقد جاءكم موسى بالبينات أي بالآيات الواضحات والدلائل القاطعات على انه رسول الله وانه لا اله الا الله والآيات البينات هي الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والعصا واليد وفرق البحر وتظليلهم بالغمام والمن والسلوى والحجر وغير ذلك من الآيات التي شاهدوها ثم اتخذتم العجل أي معبودا من دون الله في زمان موسى وأيامه وقوله من بعده أي من بعد ما ذهب عنكم الى الطور لمناجاة الله عز وجل كما قال تعالى واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار وأنتم ظالمون أي وأنتم ظالمون في هذا الصنيع الذي صنعتموه من عبادتكم العجل وأنتم تعلمون انه لا اله الا الله كما قال تعالى ولما سقط في أيديهم ورأوا انهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين (واذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا قالوا سمعنا وعصينا وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم قل بئسما يأمركم به ايمانكم ان كنتم مؤمنين) يعدد سبحانه وتعالى عليهم خطأهم ومخالفتهم للميثاق وعتوهم واعراضهم عنه حتى رفع الطور عليهم حتى قبلوه ثم خالفوه ولهذا قالوا سمعنا وعصينا وقد تقدم تفسير ذلك وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم قال عبد الرزاق عن قتادة وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم قال اشربوا حبه حتى خلص ذلك الى قلوبهم وكذا قال أبو العالية والربيع بن أنس وقال الامام أحمد حدثنا عصام بن خالد حدثني أبو بكر بن عبد الله بن أبي مريم الغساني عن خالد بن محمد الثقفي عن بلال بن أبي الدرداء عن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال حبك الشئ يعمي ويصم ورواه أبو داود عن حيوة بن شريح عن بقية عن أبي بكر بن عبد الله بن أبي مريم به وقال السدي أخذ موسى عليه السلام العجل فذبحه

وجواب لو محذوف أي لتبينوا ضرر اتخاذهم الآلهة كما حذف في قوله ولو ترى اذ وقفوا على النار ولو ترى اذ وقفوا على ربهم ومن قرأ بالفوقية فالتقدير ولو ترى يا محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذين ظلموا في حال رؤيتهم العذاب وفزعهم منه لعلمت أن القوة لله جميعا وقد كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم علم ذلك ولكن خوطب بهذا الخطاب والمراد به أمته وقيل ان في موضع نصب مفعول لاجله أي لان القوة لله ودخلت اذ وهي لما مضى في اثبات هذه المستقبلات تقريبا للامر وتصحيحا لوقوعه وهو مما يتكرر في القرآن كثيرا وجميع في الاصل فعيل من الجمع وكأنه اسم جمع فلذلك يتبع تارة بالمفرد قال تعالى نحن جميع منتصر وتارة بالجمع قال تعالى جميع لدينا محضرون وينتصب حالا ويؤكد بمعنى كل ويدل على الشمول كدلالة كل ولا دلالة له على الاجتماع في الزمان (وان الله شديد العذاب) عطف على ما قبله وفائدته تهويل الخطب وتفظيع الامر فان اختصاص القوة به تعالى لا يوجب شدة العذاب لجواز تركه عفوا مع القدرة عليه (اذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب) أي تنزه وتباعد ومعناه ان السادة والرؤساء من مشركي الانس تبرؤا ممن اتبعهم على الكفر ورأوا يعني التابعين والمتبوعين العذاب قيل عند المعاينة في الدنيا وقيل عند العرض والمساءلة في الآخرة ويمكن أن يقال فيهما جميعا اذ لا مانع من ذلك وقيل هم الشياطين يتبرؤن من الانس وبه قال قتادة والقول هو الاول وقد احتج جمع من أهل العلم بهذه الآية على ذم التقليد وهو مذكور في موطنه (وتقطعت بهم) أي عنهم (الاسباب) بسبب كفرهم جمع سبب وأصله في اللغة الحبل الذي يشد به الشئ ويجذب به ثم جعل كل ما جر شيأ سببا فهي مجاز هنا والمراد بها الوصل التي كانوا يتواصلون بها في الدنيا من الرحم وغيرها وقيل هي الاعمال وقال ابن عباس هي المنازل وقال أيضا هي الارحام وقال المودة وقيل العهود والحلف (وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة) أي رجعة الى الدنيا الكرة الرجعة والعودة الى حال قد كانت ولو هنا بمعنى التمني كأنه قيل ليت لنا كرة ولهذا وقعت الفاء في الجواب والمعنى ان الاتباع قالوا لو رددنا الى الدنيا حتى نعمل صالحا (فنتبرأ منهم) أي المتبوعين (كما تبرؤا منا) اليوم وهو جواب التمني (كذلك) أي كما أراهم الله العذاب (يريهم الله أعمالهم) السيئة وهذه الرؤية ان كانت البصرية فقوله (حسرات عليهم) منتصب على الحال وان كانت القلبية فهو

بالمبرد ثم ذراه في البحر ثم لم يبق بحر يجري يومئذ الا وقع فيه شيء ثم قال لهم موسى اشربوا منه فشربوا فمن كان يحبه خرج على شاربيه
الذهب فذلك حين يقول الله تعالى وأشربوا في قلوبهم العجل وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا عبد الله بن رجاء حدثنا اسرائيل
عن أبي اسحق عن عمارة بن عمير وأبي عبد الرحمن السلمي عن علي رضي الله عنه قال عمد موسى الى العجل فوضع عليه المبارد فبرده
بها وهو على شاطئ نهر فما شرب أحد من ذلك الماء ممن كان يعبد العجل الا اصفر وجهه مثل الذهب وقال سعيد بن جبير وأشربوا
في قلوبهم العجل قال لما أحرق العجل برد ثم نسف فحسوا الماء حتى عادت وجوههم كالزعفران وحكى القرطبي
عن كتاب القشيري انه ما شرب أحد
ممن عبد العجل الا جن ثم قال
القرطبي وهذا شيء غير ما ههنا لان
المقصود من هذا السياق انه ظهر
على شفاههم ووجوههم والمذكور
ههنا انهم أشربوا في قلوبهم العجل
يعني في حال عبادتهم له ثم أنشد قول
النابغة في زوجته عثمة

تغلغل حب عثمة في فؤادي
فباديه مع الخافي يسير
تغلغل حيث لم يبلغ شراب
ولا حزن ولم يبلغ سرور
أكاد اذا ذكرت العهد منها
أطير لو أن انسانا يطير

وقوله قل بئسما يأمركم به ايمانكم
ان كنتم مؤمنين أي بئسما تعتمدونه
في قديم الدهر وحديثه من كفركم
بآيات الله ومخالفتكم الانبياء ثم
اعتمادكم في كفركم بمحمد صلى الله
عليه وسلم وهذا أكبر ذنوبكم وأشد
الامور عليكم اذ كفرتم بخاتم الرسل
وسيد الانبياء والمرسلين المبعوث
الى الناس أجمعين فكيف تدعون
لانفسكم الايمان وقد فعلتم هذه
الافاعيل القبيحة من نقضكم
المواثيق وكفركم بآيات الله
وعبادتكم العجل من دون الله (قل ان كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت ان كنتم
صادقين ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يود أحدهم
لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر والله بصير بما يعملون) قال محمد بن اسحق عن محمد بن أبي محمد عن عكرمة
أو سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنه يقول الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم قل ان كانت لكم الدار الآخرة عند الله
خالصة من دون الناس فتمنوا الموت ان كنتم صادقين أي ادعوا بالموت على أي الفريقين أكذب فأبوا ذلك على رسول الله صلى الله

المفعول الثالث والمعنى ان أعمالهم الفاسدة يريهم الله اياها فتكون عليهم حسرات
وندامات أو يريهم الله الاعمال الصالحة التي أوجبها عليهم فتركوها فيكون ذلك حسرة
عليهم والحسرة الغم على ما فاته وشدة الندم عليه كأنه انحسر عنه الجهل الذي حمله على
ما ارتكبه (وما هم بخارجين من النار) فيه دليل على خلود الكفار في النار وظاهر هذا
التركيب يفيد الاختصاص وجعله الزمخشري للتقوية لغرض له يرجع الى المذهب
والبحث في هذا يطول عن ثابت بن معبد قال ما زال أهل النار يأملون الخروج منها
حتى نزلت هذه الآية (يا أيها الناس كلوا مما في الارض حلالا طيبا) قيل انها نزلت في
ثقيف وخزاعة وعامر بن صعصعة وبني مدلج فيما حرموه على أنفسهم من الحرث
والانعام حكاه القرطبي في تفسيره وهذا هو المشهور بخلاف ما جرى عليه القاضي من
أنها نزلت في قوم حرموا على أنفسهم رفيع الاطعمة والملابس فانه مرجوح قاله
الكرخي ولكن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب وسمي الحلال حلالا
لانحلال عقدة الحظر عنه والطيب هنا هو المستلذ كما قاله الشافعي وغيره وقال مالك
وغيره هو الحلال فيكون تأكيدا لقوله حلالا ومن في مما للتبعيض للقطع بان في الارض
ما هو حرام كالحجارة لا يؤكل أصلا وليس كل ما يؤكل يجوز أكله فلذلك قال حلالا
والامر مستعمل في كل من الوجوب والندب والاباحة الاول اذا كان لقيام البنية
والثاني كالاكل مع الضيف والثالث كغير ما ذكر وقيل معنى حلالا مأذونا فيه شرعا
والطيب الحلال وان لم يستلذ كالادوية وفي هذه الآية دليل على ان كل ما لم يرد فيه
نص أو ظاهر من الاعيان الموجودة في الارض فاصله الحل حتى يرد دليل يقتضي تحريمه
وأوضح دلالة على ذلك من هذه الآية قوله تعالى وهو الذي خلق لكم ما في الارض جميعا
(ولا تتبعوا خطوات الشيطان) جمع خطوة بالفتح والضم وهي بالفتح المرة وبالضمة لما بين
القدمين وقيل انهما لغتان وقرئ خطؤات بضم الخاء والطاء والهمز على الواو قال
الاخفش وذهبوا بهذه القراءة الى أنها جمع خطيئة من الخطأ لا من الخطو والمعنى على
قراءة الجمهور لا تقتفوا أثر الشيطان وطرقه وتزيينه وعمله وكل ما لم يرد به الشرع فهو
منسوب الى الشيطان وقيل هي النذور في المعاصي وقيل المحقرات من الذنوب والاولى
التعميم وعدم التخصيص بفرد أو نوع قال ابن عباس ما خالف القرآن فهو من خطوات
الشيطان

عليه وسلم ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين أي بعلمه بما عندهم من العلم بل والكفر بذلك ولو تمنوه يوم قال لهم ذلك ما بقي على الارض يهودي الامات وقال الضحاك عن ابن عباس فتمنوا الموت فسلوا الموت وقال عبد الرزاق عن معمر عن عبد الكريم الجزري عن عكرمة قوله فتمنوا الموت ان كنتم صادقين قال قال ابن عباس لو تمنى يهود الموت لماتوا وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا علي بن محمد الطنافسي حدثنا عثام سمعت الاعمش قال لا أظنه الا عن المنهال عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال لو تمنوا الموت لشرق أحدهم بريقه وهذه أسانيد صحيحة (٢١٧) الى ابن عباس وقال ابن جرير في تفسيره وبلغنا ان النبي صلى الله عليه وسلم قال لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ولرأوا مقاعدهم من النار ولو خرج الذين يباهلون رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجعوا لا يجدون أهلا ولا مالا حدثنا بذلك أبو كريب حدثنا زكريا بن عدي حدثنا عبيد الله بن عمرو عن عبد الكريم عن عكرمة عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ورواه الامام أحمد عن اسمعيل ابن يزيد الرقي حدثنا فرات عن عبد الكريم به وقال ابن أبي حاتم حدثنا الحسن بن أحمد حدثنا ابراهيم بن عبد الله بن بشار حدثنا سرور بن المغيرة عن عباد بن منصور عن الحسن قال قول الله ما كانوا ليتمنوه بما قدمت أيديهم قلت أرأيتك لو أنهم أحبوا الموت حين قيل لهم تمنوا الموت أتراهم كانوا ميتين قال لا والله ما كانوا ليموتوا ولو تمنوا الموت وما كانوا ليتمنونه وقد قال الله ما سمعت ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين وهذا غريب عن الحسن ثم هذا الذي فسر به ابن عباس

(٢٨ ل — فتح البيان) الآية هو المتعين وهو الدعاء على أي الفريقين أكذب منهم أو من المسلمين على وجه المباهلة ونقله ابن جرير عن قتادة وأبي العالية والربيع بن أنس رحمهم الله تعالى ونظير هذه الآية قوله تعالى في سورة الجمعة قل يا أيها الذين هادوا ان زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت ان كنتم صادقين ولا يتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين قل ان الموت الذي تفرون منه فانه ملاقيكم ثم تردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون فهم عليهم لعائن الله تعالى لما زعموا انهم أبناء الله وأحباؤه وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى دعوا الى المباهلة والدعاء على أكذب الطائفتين منهم

الشيطان وقال عكرمة هي نزغات الشيطان وعن سعيد بن جبير قال هي تزيين الشيطان وقال قتادة كل معصية لله فهي من خطواته وعن ابن عباس ما كان من يمين أو نذر في غضب فهو من الخطوات وكفارته كفارة يمين (انه لكم عدو) تعليل للنهي عن الاتباع (مبين) أي ظاهر العداوة ومثله قوله تعالى انه عدو مضل مبين وقوله ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا وقد أظهر الله عداوته بآية السجود لآدم ثم بين عداوته ما هي فقال (انما يأمركم) قيل استعير الامر لتزيينه وبعثه لهم على الشر تسفيها لرأيهم وتحقيرا لشأنهم قاله البيضاوي وقيل لا حاجة الى صرف الامر عن ظاهره لان حقيقته طلب الفعل ولا ريب ان الشيطان يطلب السوء والفحشاء ممن يريد اغواءه (بالسوء) سمي السوء سوأ لانه يسوء صاحبه بسوء عاقبته وهو مصدر ساءه يسوءه سوأ ومساءة اذا أحزنه (والفحشاء) أصله سوء المنظر ثم استعمل فيما يقبح من المعاني وقيل السوء القبيح والفحشاء التجاوز للحد في القبح وقيل السوء ما لا حد فيه والفحشاء ما فيه الحد قاله ابن عباس وقيل الفحشاء الزنا وقيل هو البخل وقيل ان كل ما نهت عنه الشريعة فهو من الفحشاء (وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون) أي بان تقولوا قال ابن جرير الطبري يريد ما حرموا من البحيرة والسائبة ونحوهما مما جعلوه شرعا وقيل هو قولهم هذا حلال وهذا حرام بغير علم والظاهر انه يصدق على كل ما قيل في الشرع بغير علم فيتناول ذلك جميع المذاهب الفاسدة التي لم يأذن فيها الله ولم ترد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأمر الشيطان ووسوسته عبارة عن هذه الخواطر التي يجدها الانسان في قلبه وفاعل هذه الخواطر هو الله تعالى وانما الشيطان كالعرض وقد صح عنه صلى الله عليه وآله وسلم ان الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم (واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا) الضمير في لهم راجع الى الناس في قوله يا أيها الناس لان الكفار منهم وهم المقصودون هنا فعدل عن المخاطبة الى الغيبة على طريق الالتفات مبالغة في بيان ضلالهم كانه يقول للعقلاء انظروا الى هؤلاء الحمقى ماذا يقولون وقيل مشركو العرب خاصة وقد سبق ذكرهم في قوله من يتخذ من دون الله أندادا ولفظ أبي السعود نزلت في المشركين أمروا باتباع القرآن وسائر ما أنزل الله من الحجج الظاهرة والبينات الباهرة فجنحوا للتقليد انتهى وقيل نزلت في اليهود وعلى

أو من المسلمين فلما نكلوا عن ذلك علم كل أحد انهم ظالمون لانهم لو كانوا جازمين بما هم فيه لكانوا أقدم على ذلك فلما تأخروا علم كذبهم وهذا كما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد نجران من النصارى بعد قيام الحجة عليهم في المناظرة وعتوهم وعنادهم الى المباهلة فقال تعالى فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين فلما رأوا ذلك قال بعض القوم لبعض والله لئن باهلتم هذا النبي لا يبقى منكم عين تطرف فعند ذلك جنحوا للسلم وبذلوا (٢١٨) الجزية عن يد وهم صاغرون فضربها عليهم وبعث معهم أبا عبيدة بن الجراح أمينا ومثل هذا المعنى أو قريب منه قول الله تعالى لنبيه ان يقول للمشركين قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدا أي من كان في الضلالة منا ومنكم فزاده الله مما هو فيه ومده واستدرجه كما سيأتي تقريره في موضعه ان شاء الله تعالى وأما من فسر الآية على معنى ان كنتم صادقين أي في دعواكم فتمنوا الآن الموت ولم يتعرض هؤلاء للمباهلة كما قرره طائفة من المتكلمين وغيرهم ومال اليه ابن جرير بعد ما قارب القول الاول فانه قال القول في تأويل قوله تعالى قل ان كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس الآية فهذه الآية مما احتج الله سبحانه لنبيه صلى الله عليه وسلم على اليهود الذين كانوا بين ظهراني مهاجره وفضح بها أحبارهم وعلماءهم وذلك ان الله تعالى أمر نبيه صلى الله عليه وسلم الى قضية (٣) عادلة فيما كان بينه وبينهم من الخلاف كما أمره ان يدعو الفريق الآخر من النصارى اذ خالفوه في عيسى بن مريم عليه السلام وجادلوه فيه الى فاصلة بينه وبينهم من المباهلة فقال لفريق اليهود ان كنتم محقين فتمنوا الموت فان ذلك غير ضاركم ورغبهم ان كنتم محقين فيما تدعون من الايمان وقرب المنزلة من الله لكم لكي يعطيكم أمنيتكم من الموت اذا تمنيتم فانما تصيرون الى الراحة من تعب الدنيا ونصبها وكدر عيشها والفوز بجوار الله في جنانه ان كان الامر كما تزعمون من ان الدار الآخرة لكم خالصة دوننا وان لم تعطوها علم الناس انكم المبطلون ونحن المحقون في دعوانا وانكشف أمرنا وأمركم فامتنعت اليهود من الاجابة الى

هذا فالآية مستأنفة وألفينا معناه وجدنا وفي هذه الآية من الذم للمقلدين والنداء بجهلهم الفاحش واعتقادهم الفاسد ما لا يقادر قدره حيث عارضوا الدلالة بالتقليد ومثل هذه الآية قوله تعالى واذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا الآية يعني من التحريم والتحليل وفي ذلك دليل على قبح التقليد والمنع منه والبحث في ذلك يطول قال الرازي في هذه الآية تقرير هذا الجواب من وجوه أحدها انه يقال للمقلد هل تعترف بأن شرط جواز تقليد الانسان ان يعلم كونه محقا أم لا فان اعترفت بذلك لم تعلم جواز تقليده الا بعد ان تعرف كونه محقا فكيف عرفت انه محق وان عرفته بتقليد آخر لزم التسلسل وان عرفته بالعقل فذلك كاف فلا حاجة الى التقليد وان قلت ليس من شرط جواز تقليده أن يعلم كونه محقا فاذا جوزت تقليده وان كان مبطلا فاذا أنت على تقليدك لا تعلم انك محق أو مبطل وثانيها هب أن ذلك المتقدم كان عالما بهذا الشئ الا أنا لو قدرنا ان ذلك المتقدم ما كان عالما بذلك الشئ قط وما اختار فيه البتة مذهبا فانت ماذا كنت تعمل فعلى تقدير ان لا يوجد ذلك المتقدم ولا مذهبه كان لا بد من العدول الى النظر فكذا هنا وثالثها انك اذا قلدت من قبلك فذلك المتقدم كيف عرفته أعرفته بتقليد أم لا بتقليد فان عرفته بتقليد لزم اما الدور واما التسلسل وان عرفته لا بتقليد بل بدليل فاذا أوجبت تقليد ذلك المتقدم وجب ان تطلب العلم بالدليل لا بالتقليد لانك لو طلبت بالتقليد لا بالدليل مع ان ذلك المتقدم طلبه بالدليل لا بالتقليد كنت مخالفا له فثبت ان القول بالتقليد يفضي ثبوته الى نفيه فيكون باطلا وانما ذكر تعالى هذه الآية عقيب الزجر عن اتباع خطوات الشيطان تنبيها على انه لا فرق بين متابعة وساوس الشيطان وبين متابعة التقليد وفيه أقوى دليل على وجوب النظر والاستدلال وترك التعويل على ما يقع في الخاطر من غير دليل أو على ما يقوله الغير من غير دليل انتهى كلامه وكم من آية بينة وأثر جلي تدل على ذم التقليد والمقلدين ولكن مفاسد الجهل والتعصب كثيرة لا يأتي عليها الحصر وقد أفرده الشوكاني بتؤلف مستقل سماه القول المفيد في حكم التقليد واستوفى الكلام فيه في أدب الطلب ومنتهى الارب وألف الحافظ الواحد المتكلم ابن القيم في ذلك كتابا ضخما سماه اعلام الموقعين عن رب العالمين * قال ابن عباس دعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اليهود الى الاسلام

---

(٣) قوله أمر نبيه صلى الله عليه وسلم الى قضية الخ كذا في الاصل ولعل فيه سقطا من الناسخ والاصل والله أعلم أمر نبيه صلى الله عليه وسلم ان يدعو الفريق الاول من اليهود الى قضية الخ ويدل على ذلك بقية الكلام فتأمل وحرر اه مصححه

ذلك لعلمهم ان من تمنت الموت هلكت فذهبت دنياها وصارت الى خزى الابد فى اخرتها كما امتنع فريق النصارى فهذا الكلام منه أوله حسن وآخره فيه نظر وذلك انه لا تظهر الحجة عليهم على هذا التأويل اذ يقال انه لا يلزم من كونهم يعتقدون انهم صادقون فى دعواهم انهم يتمنون الموت فانه لا ملازمة بين وجود الصلاح وتمنى الموت وكم من صالح لا يتمنى الموت بل يود أن يعمر ليزداد خيرا وترتفع درجته فى الجنة كما جاء فى الحديث خيركم من طال عمره وحسن عمله ولهم مع ذلك ان يقولوا على هذا فها أنتم تعتقدون أيها المسلمون انكم أصحاب الجنة وأنتم لا تتمنون فى حال الصحة الموت فكيف تلزموننا بما لا يلزمكم وهذا كله انما نشأ من تفسير الآية على هذا المعنى فاما على تفسير ابن عباس فلا يلزم عليه شئ من ذلك بل قيل لهم كلام نصف ان كنتم تعتقدون انكم أولياء الله من دون الناس وانكم أبناء الله واحباؤه وانكم من أهل الجنة ومن عداكم من أهل النار فباهلوا على ذلك وادعوا على الكاذبين منكم أو من غيركم واعلموا أن المباهلة تستأصل الكاذب لا محالة فلما تيقنوا ذلك وعرفوا صدقه نكلوا عن المباهلة لما يعلمون من كذبهم وافترائهم وكتمانهم الحق من صفة الرسول صلى الله عليه وسلم ونعته وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ويتحققونه فعلم كل أحد باطلهم وخزيهم وضلالهم وعنادهم عليهم لعائن الله المتتابعة الى يوم القيامة وسميت هذه المباهلة تمنيا لان كل محق يود لو أهلك الله المبطل المناظر له ولا سيما اذا كان فى ذلك حجة له فى بيان حقه وظهوره وكانت المباهلة بالموت لان الحياة عندهم عزيزة عظيمة لما يعلمون من سوء مآلهم بعد الموت ولهذا قال تعالى ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين ولتجدنهم أحرص الناس على حياة أى على طول العمر لما يعلمون من مآلهم السيء وعاقبتهم عند الله الخاسرة لان الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر فهم يودون لو تأخروا عن مقام الآخرة بكل ما أمكنهم وما يحاذرون منه واقع بهم لا محالة حتى وهم أحرص من المشركين الذين لا كتاب لهم وهذا من باب عطف الخاص على العام قال ابن أبى حاتم حدثنا أحمد بن سنان حدثنا عبد الرحمن بن مهدى عن سفيان عن الاعمش عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ومن الذين أشركوا قال الاعاجم وكذا رواه الحاكم فى مستدركه من حديث الثورى وقال صحيح على شرطهما ولم يخرجاه قال وقد اتفقا على سند تفسير الصحابى وقال الحسن البصرى ولتجدنهم أحرص الناس على حياة قال المنافق أحرص الناس وأحرص من

ورغبهم فيه وحذرهم عذاب الله ونقمته فقال له رافع بن خارجة ومالك بن عوف بل نتبع يا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ما وجدنا عليه آباءنا فهم كانوا أعلم وخيرا منا فأنزل الله فى ذلك هذه الآية (أولو كان آباؤهم) الهمزة للانكار والواو اما للحال أو للعطف وجواب لو محذوف قاله أبو البقاء وتقديره لاتبعوهم والذى جرى عليه أبو السعود ان لو فى مثل هذا التركيب لا تحتاج الى جواب لان القصد منها تعميم الاحوال (لا يعقلون) أى لا يعلمون (شيأ) من أمر الدين وهذا اللفظ عام ومعناه خاص لانهم كانوا يعقلون كثيرا من أمور الدنيا فهذا يدل على جواز ذكر العام مع ان المراد به خاص (ولا يهتدون) الى الصواب وكيفية اكتسابه قال البيضاوى وهو دليل على المنع من التقليد لمن قدر على النظر والاجتهاد ثم ضرب لهم مثلا فقال (ومثل الذين كفروا) فى اتباعهم آباءهم وتقليدهم لهم وفى ذلك نهاية الزجر والردع لمن يسمعه عن ان يسلك مثل طريقهم فى التقليد (كمثل الذى ينعق بما لا يسمع) فيه تشبيه واعظ الكافرين وداعيهم وهو محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالراعى الذى ينعق بالغنم أو الابل فلا تسمع (الا دعاء ونداء) ولا تفهم ما يقول هكذا فسره الزجاج والفراء وسيبويه وبه قال جماعة من السلف قال سيبويه لم يشبهوا بالناعق انما شبهوا بالمنعوق به والمعنى مثلك يا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ومثل الذين كفروا كمثل الناعق والمنعوق به من البهائم التى لا تفهم فحذف لدلالة المعنى عليه وقال قطرب المعنى مثل الذين كفروا فى دعائهم ما لا يفهم يعنى الاصنام كمثل الراعى اذا نعق بغنمه وهو لا يدرى أين هى وبه قال ابن جرير الطبرى وقال ابن زيد المعنى مثل الذين كفروا فى دعائهم الآلهة الجماد كمثل الصائح فى جوف الليل فيجيبه الصدى فهو يصيح بما لا يسمع ويجيبه ما لا حقيقة فيه فهذه أربعة أقوال وقال البيضاوى المعنى ان الكفرة لانهماكهم فى التقليد لا يلقون أذهانهم الى ما يتلى عليهم فهم فى ذلك كالبهائم التى ينعق عليها فتسمع الصوت ولا تعرف مغزاه وتحس بالنداء ولا تفهم معناه وقد اختلف الناس فى هذه الآية اختلافا كثيرا واضطربوا اضطرابا شديدا والذى لخصناه أقوال مهذبة لكل قول منها تقدير ذكره السمين والنعيق زجر الغنم والصياح بها والعرب تضرب المثل براعى الغنم فى الجهل ويقولون أجهل من راعى ضان قال ابن عباس مثل الذين كفروا مثل البقر والحمار والشاة ان قلت لبعضها كلاما لم يعلم

المشرك على حياة يودّ أحدهم أى يودّ أحد اليهود كما يدل عليه نظم السياق وقال أبو العالية يودّ أحدهم اى احد المجوس وهو يرجع الى الاول لو يعمر ألف سنة قال الاعمش عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس يودّ احدهم لو يعمر الف سنة قال هو كقول الفارسى ده هزار سال يقول عشرة آلاف سنة وكذا روى عن سعيد بن جبير نفسه أيضا وقال ابن جرير حدثنا محمد حدثنا على بن الحسن بن شقيق سمعت أبى يقول حدثنا أبو حمزة عن الاعمش عن مجاهد عن ابن عباس فى قوله يود أحدهم لو يعمر ألف سنة قال هو قول الاعاجم هزارسال نوروز ومهرجان وقال مجاهد يود أحدهم لو يعمر ألف سنة قال حببت اليهم الخطيئة طول العمر وقال محمد بن اسحق عن محمد بن أبى محمد عن سعيد أو عكرمة عن ابن عباس وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر أى وما هو بمنجيه من العذاب وذلك ان المشرك لا يرجو بعثا بعد الموت فهو يحب طول الحياة وأن اليهودى قد عرف ماله فى الآخرة من الخزى بما ضيع ماعنده من العلم وقال العوفى عن ابن عباس وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر قال هم الذين عادوا جبرائيل قال أبو العالية وابن عمر فما ذلك بمغيثه من العذاب ولا منجيه منه وقال عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم فى هذه الآية يهود أحرص على الحياة من هؤلاء وقد ودّ هؤلاء لو يعمر أحدهم ألف سنة وليس ذلك بمزحزحه من العذاب لو عمر كما عمر ابليس لم ينفعه اذ كان كافرا والله بصير بما يعملون اى خبير بصير بما يعمل عباده من خير وشر وسيجازى كل عامل بعمله (قل من كان عدوا لجبريل فانه نزله على قلبك باذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فان الله عدو للكافرين) قال الامام أبو جعفر بن جرير الطبرى رحمه الله أجمع أهل العلم بالتأويل جميعا ان هذه الآية نزلت جوابا لليهود من بنى اسرائيل اذ زعموا أن جبريل عدو لهم وان ميكائيل موضوعة ولى لهم ثم اختلفوا فى السبب الذى من أجله قالوا ذلك فقال بعضهم انما كان سبب قيلهم ذلك من أجل مناظرة جرت بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم من أمر نبوته (ذكر من قال ذلك) حدثنا أبو كريب حدثنا يونس بن بكير عن عبد الحميد بن بهرام عن شهر بن حوشب عن ابن عباس انه قال حضرت عصابة من اليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا أبا القاسم حدثنا عن خلال نسألك عنهن لا يعلمهن الا نبى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم سلوا عما شئتم ولكن اجعلوا لى ذمة وما أخذ يعقوب على بنيه لئن

ما تقول غير انه يسمع صوتك وكذلك الكافر ان أمرته بخير أو نهيته عن شر أو وعظته لم يعقل ما تقول غير انه يسمع صوتك ونحوه قال مجاهد والدعاء والنداء بمعنى واحد وسوغ العطف اختلاف اللفظ (صم بكم عمى) هذا نتيجة ماقبله ورفع على الذم أى هم صم عن سماع الحق ودعاء الرسول بكم عن النطق بالحق عمى عن طريق الهدى (فهم لا يعقلون) أى بالعقل للاخلال بالنظر نتيجة للنتيجة قيل المراد به العقل الكسبى لان العقل الطبيعى كان حاصلا فيهم قال عطاء هم اليهود الذين أنزل الله فيهم ان الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب الى قوله فما أصبرهم على النار (يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم) هذا تأكيد للامر الاول أعنى قوله يا أيها الناس كلوا مما فى الارض حلالا طيبا وانما خص المؤمنين هنا لكونهم أفضل أنواع الناس قيل والمراد بالاكل الانتفاع وقيل المراد به الاكل المعتاد وهو الظاهر وقيل ان الامر فى كلوا قد يكون للوجوب كالاكل لحفظ النفس ودفع الضرر عنها وقد يكون للندب كالاكل مع الضيف وقد يكون للاباحة اذا خلا من هذه العوارض وعن عمر بن عبد العزيز ان المراد بما فى الآية طيب الكسب لا طيب الطعام وقال الضحاك انها حلال الرزق وأخرج أحمد ومسلم والترمذى وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان الله طيب لا يقبل الا طيبا وان الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا انى بما تعملون عليم وقال يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه الى السماء يارب يارب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذى بالحرام فانى يستجاب له وقيل الطيب المستلذ من الطعام فلعل قوما تنزهوا عن أكل المستلذ من الطعام فاباح الله لهم ذلك (واشكروا الله) على ما رزقكم من نعمه وأحل لكم وفيه التفات من ضمير المتكلم الى الغيبة اذ لو جرى على الاسلوب الاول لقال واشكرونا والامر فيه للوجوب فقط (ان كنتم اياه تعبدون) أى تخصونه بالعبادة وتقرون بانه الهكم لا غيره كما يفيده تقديم المفعول وقيل ان كنتم عارفين بالله وبنعمته فاشكروه عليها والاول أولى (انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير) لما أمرنا الله تعالى فى الآية التى تقدمت بأكل الطيبات التى هى الحلالات بين فى هذه الآية أنواعا من المحرمات فقال انما وهى كلمة

أنا أحدثكم عن شئ تعرفونه ولتتابعني على الاسلام فقالوا ذلك لك [illegible] عليه وسلم سلوا عما شئتم قالوا أخبرنا عن أربع خلال نسألك عنهن أخبرنا أى الطعام حرم اسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة وأخبرنا كيف ماء المرأة وماء الرجل وكيف يكون الذكر منه والأنثى وأخبرنا بهذا النبي الامى فى التوراة ومن وليه من الملائكة فقال النبي صلى الله عليه وسلم عليكم عهد الله لئن أنا أنبأتكم لتتابعني فأعطوه ماشاء الله من عهد وميثاق فقال نشدتكم بالذى أنزل التوراة على موسى هل تعلمون ان اسرائيل يعقوب مرض مرضا شديدا فطال سقمه منه فنذر لله نذرا لئن عافاه الله من مرضه ليحرمن أحب الطعام والشراب اليه وكان أحب الطعام اليه لحوم الابل وأحب الشراب اليه ألبانها فقالوا اللهم نعم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم اشهد عليهم وأنشدكم بالله الذى لا اله الا هو الذى أنزل التوراة على موسى هل تعلمون ان ماء الرجل غليظ أبيض وان ماء المرأة رقيق أصفر فأيهما علا كان له الولد والشبه باذن الله عز وجل واذا علا ماء الرجل ماء المرأة كان الولد ذكرا باذن الله واذا علا ماء المرأة ماء الرجل كان الولد أنثى باذن الله عز وجل قالوا اللهم نعم قال اللهم اشهد وأنشدكم بالله الذى أنزل التوراة على موسى هل تعلمون ان هذا النبي الامى تنام عيناه ولا ينام قلبه قالوا اللهم نعم قال اللهم اشهد قالوا أنت الآن فحدثنا من وليك من الملائكة فعندها نجامعك أو نفارقك قال فان وليي جبريل ولم يبعث الله نبيا قط الا وهو وليه قالوا فعندها نفارقك ولو كان وليك سواه من الملائكة تابعناك وصدقناك قال فما منعكم ان تصدقوه قالوا انه عدونا فأنزل الله عز وجل قل من كان عدوا لجبريل فانه نزله على قلبك باذن الله مصدقا لما بين يديه الى قوله لو كانوا يعلمون فعندها باؤا بغضب على غضب وقد رواه الامام أحمد فى مسنده عن أبي النضر هاشم بن القاسم وعبد الرحمن بن حميد فى تفسيره عن أحمد بن يونس كلاهما عن عبد الحميد بن بهرام به ورواه أحمد أيضا عن الحسين بن محمد المروزى عن عبد الحميد بنحوه وقد رواه محمد بن اسحق بن يسار حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى حسين عن شهر بن حوشب فذكره مرسلا وزاد فيه قالوا فأخبرنا عن الروح قال فأنشدكم بالله وبأيامه عند بنى اسرائيل هل تعلمون انه جبريل وهو الذى يأتينى قالوا اللهم نعم ولكنه عدو لنا وهو ملك انما يأتى

موضوعة للحصر تثبت ما تناوله الخطاب وتنفى ما عداه وقد حصرت ههنا التحريم فى الامور المذكورة بعدها أى ما حرم عليكم الا الميتة وهى كل ما فارقه الروح من غير ذكاة وقد خصص هذا العموم بمثل حديث أحل لنا ميتتان ودمان فاما الميتتان فالجراد والحوت وأما الدمان فالطحال والكبد أخرجه أحمد وابن ماجه والدارقطنى والحاكم وابن مردويه عن ابن عمر ومثل حديث جابر فى العنبر الثابت فى الصحيحين مع قوله تعالى احل لكم صيد البحر فالمراد بالميتة هنا ميتة البر لا ميتة البحر وقد ذهب أكثر أهل العلم الى جواز أكل جميع حيوانات البحر حيها وميتها وقال بعض أهل العلم انه يحرم من حيوانات البحر ما يحرم شبهه فى البر وتوقف ابن حبيب فى خنزير الماء قال ابن القاسم أنا أتقيه ولا أراه حراما والدم هو الجارى السائل وكانت العرب تجعل الدم فى المصارين ثم تشويه وتأكله فحرمه الله تعالى وقد اتفق العلماء على أن الدم حرام وفى الآية الاخرى أو دما مسفوحا فيحمل المطلق على المقيد لان ما خلط باللحم غير محرم قال القرطبى بالاجماع وقد روت عائشة أنها كانت تطبخ اللحم فتعلو الصفرة على البرمة من الدم فيأكل ذلك النبى صلى الله عليه وآله وسلم ولا ينكره وأما لحم الخنزير فظاهر هذه الآية والآية الاخرى أعنى قوله تعالى قل لا أجد فيما أوحى الى محرما على طاعم يطعمه الا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير أن المحرم انما هو اللحم فقط وقد أجمعت الامة على تحريم شحمه كما حكاه القرطبى فى تفسيره وقد ذكرت جماعة من أهل العلم أن اللحم يدخل تحته الشحم وحكى القرطبى الاجماع أيضا على أن جملة الخنزير محرمة الا الشعر فانه تجوز الخرازة به وقيل أراد بلحمه جميع اجزائه وانما خص اللحم بالذكر لانه المقصود لذاته بالاكل واختلفوا فى نجاسته فقال الجمهور انه نجس وقال مالك انه طاهر وكذا كل حيوان عنده لان علة الطهارة هى الحياة وللشافعى قولان فى ولوغ الخنزير الجديد أنه كالكلب والقديم يكفى فيه غسلة واحدة والآية قصر قلب للرد على من استحل هذه الاربعة وحرم الحلال غيرها كالسوائب ومع ذلك هو نسبى أى ما حرم عليكم الا هذه الاربعة لا غيرها من البحيرة وما بعدها فى الآية وان كان حرم غيرها من الامور المذكورة فى أول المائدة (وما أهل به لغير الله) يعنى ما ذبح للاصنام والطواغيت وصيح فى ذبحه لغير الله وأصل الاهلال رفع الصوت يقال أهل بكذا أى صرخ ورفع صوته ومنه اهلال

بالشدة وسفك الدماء فلولا ذلك اتبعناك فأنزل الله تعالى فيهم قل من كان عدوا لجبريل الى قوله لا يعلمون وقال الامام أحمد
حدثنا أبو أحمد حدثنا عبد الله بن الوليد العجلي عن بكير بن شهاب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال أقبلت يهود على رسول الله
صلى الله عليه وسلم فقالوا يا أبا القاسم اخبرنا عن خمسة أشياء فان أنبأتنا بهن عرفنا انك نبي واتبعناك فأخذ عليهم ما أخذ اسرائيل
على بنيه اذ قال والله على ما نقول وكيل قال هاتوا قالوا أخبرنا عن علامة النبي قال تنام عيناه ولا ينام قلبه قالوا اخبرنا كيف تؤنث
المرأة وكيف تذكر قال يلتقي الماآن فاذا علا ماء الرجل ماء المرأة أذكرت واذا علا ماء المرأة ماء الرجل أنثت قالوا

الصبي واستهلاله وهو صياحه عند ولادته ومنه الهلال لانه يصرخ عند رؤيته والمراد
هنا ما ذكر عليه اسم غير الله تعالى كاللات والعزى اذا كان الذابح وثنيا والنار اذا كان
الذابح مجوسيا ولا خلاف في تحريم هذا وأمثاله ومثله ما يقع من المعتقدين للاموات
من الذبح على قبورهم فانه مما أهل به لغير الله ولا فرق بينه وبين الذابح للوثن قال
مجاهد يعني ما ذبح لغير الله أخرجه ابن أبي حاتم وفي تفسير النيسابوري النظام قال
العلماء لو أن مسلما ذبح ذبيحة وقصد بذبحها التقرب الى غير الله صار مرتدا وذبيحته
ذبيحة مرتد انتهى وقال صاحب الروض ان المسلم اذا ذبح للنبي صلى الله عليه وآله
وسلم كفر انتهى وهذا القائل من الشافعية قال الشوكاني واذا كان الذبح لسيد
الرسل صلى الله عليه وآله وسلم كفرا عنده فكيف بالذبح لسائر الاموات انتهى وقيل
ان المراد بذلك ذبائح عبدة الاوثان التي كانوا يذبحون للاصنام منهم كما تقدم وأجازوا
ذبيحة النصارى اذا سمى عليها باسم المسيح وهو مذهب عطاء ومكحول والحسن والشعبي
وسعيد بن المسيب لعموم قوله تعالى وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وقال مالك
والشافعي وأبو حنيفة لا يحل ذلك والحجة فيه أنهم اذا ذبحوا على اسم المسيح فقد أهلوا به
لغير الله فوجب أن يحرم وروى عن علي أنه قال اذا سمعتم اليهود والنصارى يهلون
لغير الله فلا تأكلوا واذا لم تسمعوهم فكلوا فان الله قد أحل ذبائحهم وهو يعلم ما يقولون
(فمن اضطر) الى شئ من هذه المحرمات والمضطر هو المكلف بالشئ الملجأ اليه المكره عليه
والمراد هنا من خاف التلف والمضطر اما باكراه فيبيح ذلك الى زوال الاكراه أو بجوع
في مخمصة فان كانت دائمة فلا خلاف في جواز الشبع منها وان كانت نادرة فقال الشافعي
يأكل ما يسد به الرمق وبه قال أبو حنيفة أو يأكل قدر الشبع وبه قال مالك فأكل
(غير باغ) بالاستئثار على مضطر آخر أو على الوالي وأصل البغي الفساد (ولا عاد) اسم
فاعل أصله من العدوان وهو الظلم ومجاوزة الحد والمراد بالباغي من يأكل فوق حاجته
والعادي من يأكل هذه المحرمات وهو يجد عنها مندوحة وبلغة وقال ابن عباس باغ في
الميتة وعاد في الاكل وقيل غير باغ على المسلمين ولا معتد عليهم فيدخل في الباغي
والعادي قاطع السبيل والخارج على السلطان والمفارق للجماعة والأئمة والمفسد في
الارض وقاطع الرحم وقيل المراد غير باغ على مضطر آخر ولا عاد لسد الجوعة قاله سعيد

أخبرنا ما حرم اسرائيل على نفسه
قال كان يشتكي عرق النسا فلم يجد
شيأ يلائمه الا ألبان كذا
قال أحمد قال بعضهم يعني الابل
فحرم لحومها قالوا صدقت قالوا
أخبرنا ما هذا الرعد قال ملك من
ملائكة الله عز وجل موكل
بالسحاب بيديه أو في يده مخراق
من نار يزجر به السحاب يسوقه
حيث أمره الله تعالى قالوا فما هذا
الصوت الذي نسمع قال صوته قالوا
صدقت قالوا انما بقيت واحدة
وهي التي نتابعك ان أخبرتنا بها انه
ليس من نبي الا وله ملك يأتيه بالخبر
فأخبرنا من صاحبك قال جبريل
عليه السلام قالوا جبريل ذاك
الذي ينزل بالحرب والقتال والعذاب
عدونا لو قلت ميكائيل الذي ينزل
بالرحمة والقطر والنبات لكان
فأنزل الله تعالى قل من كان عدوا
لجبريل فانه نزله على قلبك باذن الله
الى آخر الآية ورواه الترمذي
والنسائي من حديث عبد الله بن
الوليد به وقال الترمذي حسن
غريب وقال سنيد في تفسيره
عن حجاج بن محمد عن ابن جريج
أخبرني القاسم بن أبي بزة ان يهود سألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن صاحبه الذي ينزل عليه بالوحي قال جبرائيل
قالوا فانه عدو لنا ولا يأتي الا بالحرب والشدة والقتال فنزلت قل من كان عدوا لجبريل الآية قال ابن جرير قال مجاهد قالت يهود
يا محمد ما نزل جبريل الا بشدة وحرب وقتال فانه لنا عدو فنزل قل من كان عدوا لجبريل الآية قال البخاري قوله تعالى من كان عدوا
لجبريل قال عكرمة جبر وميك واسراف عبد ايل الله حدثنا عبد الله بن منير سمع عبد الله بن بكر حدثنا حميد عن أنس بن مالك
قال سمع عبد الله بن سلام بمقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في أرض يخترف فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال اني سائلك

عن ثلاث لا يعلمهن الا نبي ما أول اشراط الساعة وما أول طعام أهل الجنة وما ينزع الولد الى أبيه او الى أمه قال أخبرني بهذه جبرائيل آنفا قال جبريل قال نعم قال ذاك عدو اليهود من الملائكة فقرأ هذه الآية من كان عدوا لجبريل فانه نزله على قلبك وأما أول اشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق الى المغرب وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت واذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد واذا سبق ماء المرأة نزعت قال أشهد أن لا اله الا الله وانك رسول الله يا رسول الله ان اليهود قوم بهت وانهم ان يعلموا باسلامي قبل ان تسألهم يبهتوني فجاءت اليهود فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أي رجل عبد الله بن سلام فيكم قالوا خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا قال أرأيتم ان أسلم قالوا أعاذه الله من ذلك فخرج عبد الله فقال أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله فقالوا هو شرنا وابن شرنا وانتقصوه فقال هذا الذي كنت أخاف يا رسول الله انفرد به البخاري من هذا الوجه وقد أخرجاه من وجه آخر عن أنس بنحوه وفي صحيح مسلم عن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قريب من هذا السياق كما سيأتي في موضعه ان شاء الله تعالى وحكاية البخاري كما تقدم عن عكرمة هو المشهور ان ايل هو الله وقد رواه سفيان الثوري عن خصيف عن عكرمة ورواه عبد بن حميد عن ابراهيم بن الحكم عن أبيه عن عكرمة ورواه ابن جرير عن الحسين بن يزيد الطحان عن اسحق بن منصور عن قيس بن عاصم عن عكرمة انه قال ان جبريل اسمه عبد الله وميكائيل اسمه عبد الله ايل الله ورواه يزيد النحوي عن عكرمة عن ابن عباس مثله سواء وكذا قال غير واحد من السلف كما سيأتي قريبا ومن الناس من يقول ايل عبارة عن عبد والكلمة الاخرى هي اسم الله لان كلمة ايل لا تتغير في الجميع فوازنه عبد الله عبد الرحمن عبد الملك عبد القدوس عبد السلام عبد الكافي عبد الجليل فعبد موجودة في هذا كله واختلفت الاسماء المضاف اليها وكذلك جبرائيل وميكائيل وعزرائيل واسرافيل ونحو ذلك وفي كلام غير العرب يقدمون المضاف اليه على المضاف والله أعلم ثم قال ابن جرير وقال آخرون بل كان سبب قيلهم ذلك من أجل مناظرة جرت بينهم وبين عمر بن الخطاب في أمر النبي صلى الله عليه وسلم ذكر من قال ذلك حدثني محمد بن المثنى حدثني ربعي بن علية عن داود بن أبي هند عن الشعبي قال نزل عمر الروحاء

ابن جبير (فلا اثم عليه) في تناوله ولا حرج ومن أكله وهو غير مضطر فقد بغى واعتدى (ان الله غفور) لمن أكل من الحرام (رحيم) به اذا حل له الحرام في الاضطرار (ان الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب) المراد بهذه الآية علماء اليهود لانهم كتموا ما أنزل الله في التوراة من صفة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ونعته ووقت نبوته هذا قول المفسرين وقال المتكلمون بل كانوا يكتمون التاويل والمعنى يكتمون معاني ما أنزل الله من الكتاب والاول أولى (ويشترون به) أي بالكتمان أو بما أنزل الله من الكتاب والاول أظهر والاشتراء هنا الاستبدال وقد تقدم تحقيقه (ثمنا قليلا) سماه قليلا لانقطاع مدته وسوء عاقبته وهذا السبب وان كان خاصا فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب وهو يشمل كل من كتم ما شرعه الله وأخذ عليه الرشا (أولئك ما يأكلون في بطونهم) ذكر البطون دلالة وتأكيدا على أن هذا الاكل حقيقة اذ قد يستعمل مجازا في مثل أكل فلان أرضي ونحوه وقال في الكشاف معناه ملء بطونهم ظرف متعلق بما قبله لا حال مقدرة كما قال الكواشي (الا النار) استثناء مفرغ أي أنه يوجب عليهم عذاب النار فسمى ما أكلوه نارا لانه يؤل اليها هكذا قال أكثر المفسرين وهو من مجاز الكلام وقيل انهم يعاقبون على كتمانهم بأكل النار في جهنم حقيقة ومثله قوله سبحانه ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما انما يأكلون في بطونهم نارا (ولا يكلمهم الله يوم القيامة) أي كلام رحمة وما يسرهم بل يكلمهم بالتوبيخ وعدم تكليم الله اياهم كناية عن حلول غضب الله عليهم وعدم الرضا عنهم يقال فلان لا يكلم فلانا اذا غضب عليه وقال ابن جرير الطبري المعنى ولا يكلمهم بما يحبونه ولا بما يكرهونه كقوله تعالى اخسؤا فيها ولا تكلمون وانما كان عدم تكليمهم في معرض التهديد لان يوم القيامة هو اليوم الذي يكلم الله فيه كل الخلائق بلا واسطة فيظهر عند كلامه السرور في أوليائه وضده في أعدائه (ولا يزكيهم) لا يثني عليهم خيرا قاله الزجاج وقيل معناه لا يصلح أعمالهم الخبيثة فيطهرهم أو لا ينزلهم منازل الازكياء وقيل لا يطهرهم من دنس الذنوب (ولهم عذاب أليم) أي وجيع يصل ألمه الى قلوبهم وهو النار (أولئك) أي الموصوفون بالصفات الستة من قوله ان الذين يكتمون الى هنا وهذا بيان لحالهم في الدنيا بعد أن بين حالهم في الآخرة (الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة) أي اختاروا الضلالة على الهدى

واختار والعذاب على المغفرة لانهم كانوا عالمين بالحق ولكن كتموه وأخفوه وكان فى
اظهاره الهدى والمغفرة وفى كتمانه الضلالة والعذاب (فما أصبرهم على النار) حتى
تركوا الحق واتبعوا الباطل قد تقدم تحقيق معناه وذهب الجمهور ومنهم الحسن
ومجاهد الى أن معناه التعجب والمراد تعجب المخلوقين من حال هؤلاء الذين باشروا
الاسباب الموجبة لعذاب النار فكأنهم بهذه المباشرة للاسباب صبروا على العقوبة فى نار
جهنم وحكى الزجاج أن المعنى ما أبقاهم على النار من قولهم ما أصبر فلانا على الحبس أى
ما أبقاه فيه وقيل المعنى ما أقل جزعهم من النار فجعل قلة الجزع صبرا وقال الكسائى
وقطرب أى ما أدومهم على عمل أهل النار وقيل ما استفهامية ومعناه التوبيخ أى أى
شئ صبرهم على عمل أهل النار وهذا من مجاز الكلام وبه قال ابن عباس والسدى
وعطاء وأبو عبيدة (ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق) أى ذلك الامر وهو العذاب قاله
الزجاج وقال الاخفش ان خبر اسم الاشارة محذوف والتقدير ذلك معلوم والمراد
بالكتاب هنا القرآن أو التوراة والحق الصدق وقيل الحجة (وان الذين اختلفوا فى
الكتاب) يعنى فى معانيه وتأويله فحرفوه وبدلوه وقيل آمنوا ببعض وكفروا ببعض
والمراد بالكتاب قيل التوراة فادعى النصارى ان فيها صفة عيسى وأنكرهم اليهود وقيل
خالفوا ما فى التوراة من صفة محمد صلى الله عليه وآله وسلم واختلفوا فيها وقيل المراد
القرآن والمختلفون هم كفار قريش يقول بعضهم هو سحر وكهانة وبعضهم يقول
هو أساطير الاولين وبعضهم يقول غير ذلك وقيل المختلفون هم اليهود والنصارى
(لفى شقاق) أى خلاف ومنازعة (بعيد) عن الحق وقد تقدم معنى الشقاق (ليس
البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب) قيل ان هذه الآية نزلت للرد على اليهود
والنصارى لما أكثروا الكلام فى شأن القبلة عند تحويل رسول الله صلى الله عليه وآله
وسلم الى الكعبة وقيل ان سبب نزولها انه سأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سائل
عن الايمان فتلا هذه الآية حتى فرغ منها ثم سأله أيضا فتلاها ثم سأله فتلاها قال واذا
عملت بحسنة أحبها قلبك واذا عملت بسيئة أبغضها قلبك أخرجه ابن أبى حاتم وصححه
عن أبى ذر وقيل أشار سبحانه بذكر المشرق الى قبلة النصارى لانهم يستقبلون مطلع
الشمس وأشار بذكر المغرب الى قبلة اليهود لانهم يستقبلون بيت المقدس وهو فى جهة
الغرب

فرأى رجالا يتبدرون احجارا يصلون اليها فقال مابال هؤلاء قالوا يزعمون ان رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى ههنا قال فكره
ذلك وقال أيما رسول الله صلى الله عليه وسلم أدركته الصلاة بواد صلاها ثم ارتحل فتركه ثم أنشأ يحدثهم فقال كنت أشهد اليهود
يوم مدارسهم فأعجب من التوراة كيف تصدق القرآن ومن القرآن كيف يصدق التوراة فبينما أنا عندهم ذات يوم قالوا يا ابن
الخطاب مامن أصحابك أحد أحب الينا منك قلت ولم ذلك قالوا لانك تغشانا وتأتينا فقلت انى آتيكم فأعجب من القرآن كيف
يصدق التوراة ومن التوراة كيف تصدق (٢٢٤) القرآن قالوا ومر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا ابن الخطاب ذاك
صاحبكم فالحق به قال فقلت لهم
عند ذلك نشدتكم بالله الذى لا اله
الا هو وما استرعاكم من حقه
وما استودعكم من كتابه هل تعلمون
انه رسول الله قال فسكتوا فقال لهم
عالمهم وكبيرهم انه قد غلظ عليكم
فأجيبوه قالوا فأنت عالمنا وكبيرنا
فأجبه أنت قال أما اذا أنشدتنا بما
نشدتنا فانا نعلم انه رسول الله قلت
ويحكم اذا هلكتم قالوا انا لم نهلك
قلت كيف ذلك وأنتم تعلمون انه
رسول الله ولا تتبعونه ولا تصدقونه
قالوا ان لنا عدوا من الملائكة
وسلما من الملائكة وانه قرن بنبوته
عدونا من الملائكة قلت ومن
عدوكم ومن سلمكم قالوا عدونا
جبريل وسلمنا ميكائيل قالوا ان
جبرائيل ملك الفظاظة والغلظة
والاعسار والتشديد والعذاب
ونحو هذا وان ميكائيل ملك الرحمة
والرأفة والتخفيف ونحو هذا قال
قلت وما منزلتهما من ربهما عز وجل
قالوا أحدهما عن يمينه والآخر
عن يساره قال فقلت فو الذى لا اله
الا هو انهما والذى بينهما لعدو لمن
عاداهما وسلم لمن سالمهما وما ينبغى
لجبرائيل ان يسالم عدو ميكائيل وما ينبغى لميكائيل ان يسالم عدو جبرائيل قال ثم قمت فاتبعت النبى صلى الله
عليه وسلم فلحقته وهو خارج من خوخة لبنى فلان فقال يا ابن الخطاب الا أقرأك آيات نزلن قبل فقرأ علىّ من كان عدوا لجبريل فانه
نزله على قلبك باذن الله حتى قرأ الآيات قال قلت بأبى وأمى يا رسول الله والذى بعثك بالحق لقد جئت وأنا أريد أن أخبرك وأنا
أسمع اللطيف الخبير قد سبقنى اليك بالخبر وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو سعيد الاشج حدثنا أبو اسامة عن مجالد أنبأنا عامر قال
انطلق عمر بن الخطاب الى اليهود فقال أنشدكم بالذى أنزل التوراة على موسى هل تجدون محمدا فى كتبكم قالوا نعم قال فما يمنعكم ان

تتبعوه قالوا ان الله لم يبعث رسولا الا جعل له من الملائكة كفلا وان جبرائيل كفل محمدا وهو الذي يأتيه وهو عدونا من الملائكة
وميكائيل سلمنا لو كان ميكائيل الذي يأتيه أسلمنا قال فاني أنشدكم بالله الذي أنزل التوراة على موسى ما منزلتهما عند الله تعالى
قالوا جبرائيل عن يمينه وميكائيل عن شماله قال عمر واني أشهد ما ينزلان الا باذن الله وما كان ميكائيل ليسالم عدو جبرائيل
وما كان جبرائيل ليسالم عدو ميكائيل فبينما هو عندهم اذ مر النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا هذا صاحبك يا ابن الخطاب فقام اليه
عمر فأتاه وقد أنزل الله عز وجل من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فان الله عدو للكافرين

الغريب منهم اذ ذاك وزعم كل طائفة منهم ان البر في ذلك فأخبر الله تعالى ان البر ليس فيما
زعموا ولكنه فيما بينه في هذه الآية وقيل الخطاب هم المسلمون وقيل هو عام لهم ولأهل
الكتابين أي ليس البر مقصورا على أمر القبلة والبر اسم جامع لكل طاعة وعمل الخير
ويجوز أن يكون بمعنى البار ويطلق المصدر على اسم الفاعل كثيرا ومنه في التنزيل ان
أصبح ماؤكم غورا أي غائرا وهذا اختيار أبي عبيدة والمشرق جهة شروق الشمس
والمغرب جهة غروبها وهذا مشكل بما تقدم من أن قبلة اليهود انما هي بيت المقدس
وهو بالنسبة الى المدينة شمال لا مغرب لان من استقبل بيت المقدس يكون فيها ظهره
مقابلا لميزاب الكعبة ووجهه مقابلا لبيت المقدس الذي هو من جهة الشام وكذا بالنسبة
لمكة فلم يظهر المراد من هذه الآية وقد تنبه أبو السعود لهذا وأجاب عنه بما لا يجدي
شيأ فليتأمل فاني لم أر من حقق المقام والله أعلم (ولكن البر) أي لكن ذا البر وقرئ البار
أو بر (من آمن بالله) والاخير أوفق وأحسن والبر اسم جامع لكل طاعة وأعمال الخير
مما لا يختلف باختلاف الشرائع وما يختلف باختلافها والمراد بالبر هنا الايمان والتقوى
واليوم الآخر ذكر ذلك لان عبدة الاوثان كانوا ينكرون البعث بعد الموت (والملائكة)
أي الايمان بهم كلهم لان اليهود قالوا ان جبريل عدونا (والكتاب) قيل أراد به القرآن
وقيل جميع الكتب المنزلة لسياق ما بعده وهو قوله (والنبيين) يعني أجمع وانما خص
الايمان بهذه الامور الخمسة لانه يدخل تحت كل واحد منها أشياء كثيرة مما يلزم المؤمن أن
يصدق بها (وآتى المال على حبه) ضمير حبه راجع الى المال وقيل الى الايتاء المدلول عليه
بقوله وآتى المال وقيل انه راجع الى الله سبحانه أي على حب الله والمعنى على الاول انه
أعطى المال وهو يحبه ويشح به ومنه قوله تعالى لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون
وعلى الثاني انه يحب ايتاء المال وتطيب به نفسه وعلى الثالث انه أعطى من تضمنته الآية
في حب الله عز وجل لا لغرض آخر وهو مثل قوله ويطعمون الطعام على حبه عن ابن
مسعود قال يعطي وهو صحيح شحيح يأمل العيش ويخاف الفقر وأخرج الحاكم عنه
مرفوعا مثله وعن أبي هريرة قال جاء رجل الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال
يا رسول الله أي الصدقة أعظم قال ان تصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنا
ولا تمهل حتى اذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا وقد كان لفلان أخرجه

وهذان الاسنادان يدلان على ان
الشعبي حدث به عن عمر ولكن
فيه انقطاع بينه وبين عمر فانه لم
يدرك زمانه والله أعلم وقال ابن
جرير حدثنا بشر حدثنا يزيد بن
زريع عن سعيد عن قتادة قال
ذكر لنا ان عمر بن الخطاب انطلق
ذات يوم الى اليهود فلما انصرف
رحبوا به فقال لهم عمر أما والله
ما جئتكم لحبكم ولا لرغبة فيكم
ولكن جئت لاسمع منكم فسألهم
وسألوه فقالوا من صاحب صاحبكم
فقال لهم جبرائيل فقالوا ذاك عدونا
من أهل السماء يطلع محمدا على
سرنا واذا جاء جاء بالحرب والسنة
ولكن صاحب صاحبنا ميكائيل
وكان اذا جاء جاء بالخصب والسلم
فقال لهم عمر هل تعرفون جبرائيل
وتنكرون محمدا صلى الله عليه وسلم
ففارقهم عمر عند ذلك وتوجه نحو
النبي صلى الله عليه وسلم ليحدثه
حديثهم فوجده قد أنزلت عليه
هذه الآية قل من كان عدوا
لجبريل فانه نزله على قلبك باذن الله
الآيات ثم قال حدثني المثنى
حدثنا آدم حدثنا أبو جعفر حدثنا

 قتادة قال بلغنا ان عمر أقبل الى اليهود يوما فذكر نحوه وهذا في تفسير آدم وهو أيضا منقطع وكذلك
رواه أسباط عن السدي عن عمر مثل هذا أو نحوه وهو منقطع أيضا وقال ابن أبي حاتم حدثنا محمد بن عمار حدثنا عبد الرحمن يعني
الدستكي حدثنا أبو جعفر عن حصين بن عبد الرحمن عن عبد الرحمن بن أبي ليلى ان يهوديا لقي عمر بن الخطاب فقال ان جبرائيل
الذي يذكر صاحبكم عدو لنا فقال عمر من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فان الله عدو للكافرين قال فنزلت على
لسان عمر رضي الله عنه ورواه عبد بن حميد عن أبي النضر هاشم بن القاسم عن أبي جعفر هو الرازي وقال ابن جرير حدثني يعقوب

ابن ابراهيم حدثنى هشيم أخبرنا حصين بن عبد الرحمن عن ابن أبى ليلى فى قوله تعالى من كان عدوا لجبريل قال قالت اليهود
للمسلمين لو أن ميكائيل كان هو الذى ينزل عليكم اتبعناكم فانه ينزل بالرحمة والغيث وان جبرائيل ينزل بالعذاب والنقمة فانه عدو
لنا قال فنزلت هذه الآية حدثنا يعقوب أخبرنا هشيم أخبرنا عبد الملك عن عطاء بنحوه وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة
فى قوله قل من كان عدوا لجبريل قال قالت اليهود ان جبرائيل عدو لنا لانه ينزل بالشدة والسنة وان ميكائيل ينزل بالرخاء
والعافية والخصب فجبرائيل عدو لنا فقال الله (٢٢٦) تعالى من كان عدوا لجبريل الآية وأما تفسير الآية فقوله
تعالى قل من كان عدوا لجبريل
فانه نزله على قلبك باذن الله أى من
عادى جبرائيل فليعلم انه الروح
الامين الذى نزل بالذكر الحكيم
على قلبك من الله باذنه له فى ذلك
فهو رسول من رسل الله ملكى
ومن عادى رسولا فقد عادى جميع
الرسل كما أن من آمن برسول فانه
يلزمه الايمان بجميع الرسل وكما
أن من كفر برسول فانه يلزمه
الكفر بجميع الرسل كما قال
تعالى ان الذين يكفرون بالله ورسله
ويريدون ان يفرقوا بين الله
ورسله ويقولون نؤمن ببعض
ونكفر ببعض الآيتين فحكم
عليهم بالكفر المحقق اذا آمنوا
ببعض الرسل وكفروا ببعضهم
وكذلك من عادى جبرائيل فانه
عدو لله لان جبرائيل لا ينزل بالامر
من تلقاء نفسه وانما ينزل بامر ربه
كما قال وما نتنزل الا بامر ربك
الآية وقال تعالى وانه لتنزيل رب
العالمين نزل به الروح الامين على
قلبك لتكون من المنذرين وقد
روى البخارى فى صحيحه عن أبى
هريرة قال قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم من عادى لى وليا فقد بارزنى بالحرب ولهذا غضب الله لجبرائيل على من عاداه فقال تعالى من
كان عدوا لجبريل فانه نزله على قلبك باذن الله مصدقا لما بين يديه أى من الكتب المتقدمة وهدى وبشرى للمؤمنين أى هدى
لقلوبهم وبشرى لهم بالجنة وليس ذلك الا للمؤمنين كما قال تعالى قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء الآية وقال تعالى وننزل من
القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين الآية ثم قال تعالى من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فان الله عدو
للكافرين يقول تعالى من عادانى وملائكتى ورسلى ورسله تشمل رسله من الملائكة والبشر كما قال تعالى الله يصطفى من الملائكة

الشيخان (ذوى القربى) يعنى أهل قرابة المعطى وقدم ذوى القربى لكون دفع المال
اليهم صدقة وصلة اذا كانوا فقراء وقد ثبت عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم انه قال
الصدقة على المسكين صدقة وعلى ذى الرحم ثنتان صدقة وصلة أخرجه ابن أبى شيبة
وأحمد والترمذى وحسنه والنسائى وابن ماجه والحاكم والبيهقى فى سننه من حديث
سلمان بن عامر الضبى وفى الصحيحين وغيرهما من حديث زينب امرأة ابن مسعود انها
سالت رسول الله هل تجزئ عنها من الصدقة النفقة على زوجها وأيتام فى حجرها فقال
لك أجران أجر الصدقة وأجر القرابة وأخرج الطبرانى والحاكم وصححه والبيهقى فى سننه
من حديث أم كلثوم بنت عقبة انها سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول
أفضل الصدقة على ذى الرحم الكاشح (واليتامى) أى وكذا اليتامى المحاويج الفقراء
أولى بالصدقة من الفقراء الذين ليسوا بيتامى لعدم قدرتهم على الكسب واليتيم هو الذى
لا أب له مع الصغر (والمساكين) جمع مسكين والمسكين الساكن الى ما فى أيدى الناس
لكونه لا يجد شيأ (وابن السبيل) المسافر المنقطع وجعل ابنا للسبيل لملازمته له وهو اسم
جنس أو واحد أريد به الجمع (والسائلين) يعنى الطالبين للاحسان المستطعمين ولو كانوا
أغنياء عن على بن أبى طالب أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال للسائل حق
ولو جاء على فرس أخرجه أحمد وأبو داود وعن زيد بن أسلم ان رسول الله صلى الله عليه
وآله وسلم قال أعطوا السائل ولو جاء على فرس أخرجه مالك فى الموطا وعن أم بجيد
قالت قلت يا رسول الله المسكين ليقوم على بابى فلم أجد شيأ أعطيه اياه قال ان لم تجدى
الا ظلفا محرقا فادفعيه اليه فى يده أخرجه أبو داود والترمذى وقال حديث صحيح وفى
رواية مالك فى الموطا عنها ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال ردوا المسكين
ولو بظلف محرق (وفى الرقاب) يعنى المكاتبين وقيل هو فك النسمة وعتق الرقبة وفداء
الاسارى أى دفعه فى فكها أى لاجله وبسببه (وأقام الصلاة وآتى الزكاة) المفروضة
فيه دليل على ان الايتاء المتقدم هو صدقة التطوع لا صدقة الفريضة (والموفون بعهدهم
اذا عاهدوا) الله أو الناس قيل المراد بالعهد القيام بحدود الله والعمل بطاعته وقيل النذر
ونحوه وقيل الوفاء بالمواعيد والبر فى الحلف وأداء الامانات (والصابرين فى البأساء) الشدة
والفقر (والضراء) المرض والزمانة والبأساء والضراء اسمان بنيا على فعلاء ولا فعل لهما
لانهما

رسلا ومن الناس وجبريل وميكال وهذا من باب عطف الخاص على العام فانهما دخلا في الملائكة في عموم الرسل ثم خصصا بالذكر لان السياق في الانتصار لجبرائيل وهو السفير بين الله وأنبيائه وقرن معه ميكائيل في اللفظ لان اليهود زعموا ان جبرائيل عدوهم وميكائيل وليهم فأعلمهم الله تعالى أن من عادى واحدا منهما فقد عادى الآخر وعادى الله أيضا ولانه أيضا ينزل على أنبياء الله بعض الاحيان كما قرن برسول الله صلى الله عليه وسلم في ابتداء الامر ولكن جبرائيل أكثر وهي وظيفته وميكائيل موكل بالنبات والقطر هذاك بالهدى وهذا بالرزق كما ان اسرافيل موكل بالنفخ (٢٢٧) في الصور للبعث يوم القيامة ولهذا جاء في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا قام من الليل يقول اللهم رب جبرائيل وميكائيل واسرافيل فاطر السموات والارض عالم الغيب والشهادة انت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختلف فيه من الحق باذنك انك تهدي من تشاء الى صراط مستقيم وقد تقدم ماحكاه البخاري ورواه ابن جرير عن عكرمة وغيره أنه قال جبر وميك واسراف عبيد وايل الله وقال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن سنان حدثنا عبد الرحمن بن مهدي عن سفيان عن الاعمش عن اسمعيل بن أبي رجاء عن عمير مولى ابن عباس عن ابن عباس قال انما كان قوله جبرائيل كقوله عبد الله وعبد الرحمن وقيل جبر عبد وايل الله وقال محمد بن اسحق عن الزهري عن علي بن الحسين قال أتدرون ما اسم جبرائيل من اسمائكم قلنا لا قال اسمه عبد الله وكل اسم مرجعه الى ايل فهو الى الله عز وجل قال ابن أبي حاتم وروى عن عكرمة ومجاهد والضحاك ويحيى بن يعمر نحو ذلك ثم قال حدثني أبي حدثنا أحمد بن أبي الحواري حدثني عبد العزيز بن عمير قال اسم جبرائيل في الملائكة خادم الله قال فحدثت به أبا سليمان الداراني فانتفض وقال لهذا الحديث أحب الي من كل شئ في دفتر كان بين يديه وفي جبرائيل وميكال لغات وقرا آت تذكر في كتب اللغة والقرا آت ولم نطول كتابنا هذا بسرد ذلك الا أن يدور فهم المعنى عليه أو يرجع الحكم في ذلك اليه وبالله الثقة وهو المستعان وقوله تعالى فان الله عدو للكافرين فيه ايقاع المظهر مكان المضمر حيث لم يقل فانه عدو بل قال فان الله عدو للكافرين كما قال الشاعر لا أرى الموت يسبق الموت شئ * سبق الموت ذا الغنا والفقيرا

لانهما اسمان وليسا بنعت ونصب والصابرين على المدح وقيل على الاختصاص ولم يعطف على ماقبله لمزيد شرف الصبر وفضيلته قال أبو علي اذا ذكرت صفات للمدح أو الذم وخولف الاعراب في بعضها فذلك تفنن ويسمى قطعا لان تغير المالوف يدل على زيادة ترغيب في استماع المذكور ومزيد اهتمام بشانه قال الراغب ولما كان الصبر من وجه مبدأ للفضائل ومن وجه جامعا للفضائل اذ لافضيلة الا وللصبر فيها أثر بليغ غير اعرابه تنبيها على هذا المقصد وهذا كلام حسن قال الآية جامعة لجميع الكمالات الانسانية وهي صحة الاعتقاد وحسن المعاشرة وتهذيب النفس (وحين البأس) أي وقت الحرب وشدة القتال في سبيل الله وسمي الحرب بأسا لما فيه من الشدة (أولئك الذين صدقوا) وصفهم بالصدق في أمورهم والوفاء بها وانهم كانوا جادين في الدين واتباع الحق وتحري البر حيث لم تغيرهم الاحوال ولم تزلزلهم الاهوال قال ربيع صدقوا أي تكلموا بكلام الايمان فكانت حقيقته العمل قال وكان الحسن يقول هذا كلام الايمان وحقيقته العمل فان لم يكن مع القول عمل فلا شئ (وأولئك هم المتقون) عن الكفر وسائر الرذائل وتكرير الاشارة لزيادة تنويه شانهم وتوسيط الضمير للاشارة الى انحصار التقوى فيهم قال الواحدي ان الواوات في هذه الاوصاف تدل على ان من شرائط البر استكمالها وجمعها فمن قام بواحد منها لايستحق الوصف بالبر وقيل هذه خاصة الانبياء لان غيرهم لاتجتمع فيه تلك الصفات وقيل هي عامة في جميع المؤمنين وهو الاولى اذ لادليل على التخصيص وتكرير الاشارة لزيادة تنويه شانهم وتوسيط الضمير للاشارة الى انحصار التقوى فيهم (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى) كتب معناه فرض وأثبت وهذا اخبار من الله سبحانه لعباده بانه شرع لهم ذلك وقيل ان كتب هنا اشارة الى ماجرى به القلم في اللوح المحفوظ والخطاب للقاتلين وولاة الامور والقصاص أصله قص الاثر أي اتباعه ومنه القاص لانه يتبع الآثار وقص الشعر اتباع أثره فكان القاتل يسلك طريقا من القتل يقص أثره فيها ومنه قوله تعالى فارتدا على آثارهما قصصا وقيل ان القصاص ماخوذ من القص وهو القطع يقال قصصت ما بينهما أي قطعته قيل نزلت في حيين من احياء العرب اقتتلوا في الجاهلية بسبب قتيل فكانت بينهم قتلى وحروب وجراحات كثيرة ولم ياخذ بعضهم من بعض حتى جاء الاسلام وقيل نزلت في الاوس والخزرج وكان

وقال الآخر لیت الغراب غداة ینعب دائبا * كان الغراب مقطع الاوداج وانما اطیر الله هذا الاسم تیمنا

لتقریر هذا المعنی واظهاره واعلامهم ان من عادی ولیا لله فقد عادی الله ومن عادی الله فان الله عدو له ومن كان الله عدوه فقد خسر الدنیا والآخرة كما تقدم الحدیث من عادی لی ولیا فقد آذنته بالمحاربة وفی الحدیث الآخر انی لأثأر لاولیائی كما یثأر اللیث الحرب وفی الحدیث الصحیح من كنت خصمه خصمته (ولقد أنزلنا الیك آیات بینات وما یكفر بها الا الفاسقون أو كلما عاهدوا عهدا نبذه فریق منهم بل أكثرهم لا یؤمنون (٢٢٨) ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فریق من الذین أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كانهم لا یعلمون واتبعوا ما تتلوا الشیاطین علی ملك سلیمان وما كفر سلیمان ولكن الشیاطین كفروا یعلمون الناس السحر وما أنزل علی الملكین ببابل هاروت وماروت وما یعلمان من أحد حتی یقولا انما نحن فتنة فلا تكفر فیتعلمون منهما ما یفرقون به بین المرء وزوجه وما هم بضارین به من أحد الا باذن الله ویتعلمون ما یضرهم ولا ینفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ما له فی الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا یعلمون ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خیر لو كانوا یعلمون) قال الامام أبو جعفر بن جریر فی قوله تعالی ولقد أنزلنا الیك آیات بینات الآیة أی أنزلنا الیك یا محمد علامات واضحات دالات علی نبوتك وتلك الآیات هی ما حواه كتاب الله من خفایا علوم الیهود ومكنونات سرائر أخبارهم وأخبار أوائلهم من بنی اسرائیل والنبأ عما تضمنته كتبهم التی لم یكن یعلمها الا أحبارهم وعلماؤهم وما حرفه أوائلهم وأواخرهم وبدلوه من أحكامهم التی كانت فی التوراة فأطلع الله فی كتابه الذی أنزله علی نبیه محمد صلی الله علیه وسلم فكان فی ذلك من أمره الآیات البینات لمن أنصف من نفسه ولم یدعها الی هلاكها الحسد والبغی اذ كان فی فطرة كل ذی فطرة صحیحة تصدیق من أتی بمثل ما جاء به محمد صلی الله علیه وسلم من الآیات البینات التی وصف من غیر تعلم تعلمه من بشر ولا أخذ شیئا منه عن آدمی كما قال الضحاك عن ابن عباس ولقد أنزلنا الیك آیات بینات یقول فأنت تتلوه علیهم وتخبرهم به غدوة وعشیة وبین ذلك وأنت عندهم أمی لم تقرأ كتابا وأنت تخبرهم بما فی أیدیهم علی وجهه یقول الله تعالی لهم فی ذلك عبرة

لاحد الحیین طول علی الآخر فی الكثرة والشرف وقیل نزلت لازالة الاحكام التی كانت قبل مبعث النبی صلی الله علیه وآله وسلم من وجوب القتل بلا عفو ووجوب العفو بلا قتل والقتل تارة وأخذ الدیة تارة والقصاص فرض علی القاتل للولی لا علی الولی والقصاص المساواة والمماثلة فی القتل والدیة والجراح فیقتل القاتل بمثل الذی قتل به وهو قول مالك والشافعی وقیل یقتل بالسیف وهو قول أبی حنیفة ورروایة عن أحمد والكلام فی فروع هذه المسئلة یطول وفی القتلی للسبب كقوله صلی الله علیه وآله وسلم ان امرأة دخلت النار فی هرة أی بسببها وفعلی یطرد جمعا لفعیل بمعنی مفعول (الحر بالحر والعبد بالعبد والانثی بالانثی) وقد استدل بهذه الآیة القائلون بان الحر لا یقتل بالعبد وهم الجمهور وذهب أبو حنیفة وأصحابه والثوری وابن أبی لیلی وداود الی انه یقتل به اذا كان غیر سیده وأما سیده فلا یقتل به اجماعا الا ما روی عن النخعی فلیس مذهب أبی حنیفة ومن معه علی الاطلاق ذكره الشوكانی فی شرح المنتقی قال القرطبی وروی ذلك عن علی وابن مسعود وبه قال سعید بن المسیب وابراهیم النخعی وقتادة والحكم بن عتیبة واستدلوا بقوله تعالی وكتبنا علیهم فیها ان النفس بالنفس وأجاب الاولون عن هذا الاستدلال بان قوله الحر بالحر والعبد بالعبد مفسر لقوله تعالی النفس بالنفس وقالوا أیضا ان قوله وكتبنا علیهم فیها یفید ان ذلك حكایة عما شرعه الله لبنی اسرائیل فی التوراة ومن جملة ما استدل به الآخرون قوله صلی الله علیه وآله وسلم المسلمون تتكافأ دماؤهم ویجاب عنه انه مجمل والآیة مبینة ولكنه یقال ان قوله تعالی الحر بالحر والعبد بالعبد انما أفاد بمنطوقه ان الحر یقتل بالحر والعبد یقتل بالعبد ولیس فیه ما یدل علی ان الحر لا یقتل بالعبد الا باعتبار المفهوم فمن أخذ بمثل هذا المفهوم لزمه القول به هنا ومن لم یأخذ بمثل هذا المفهوم لم یلزمه القول به هنا والبحث فی هذا محرر فی علم الاصول وقد استدل بهذه الآیة القائلون بان المسلم یقتل بالكافر وهم الكوفیون والثوری لان الحر یتناول الكافر كما یتناول المسلم وكذا العبد والانثی یتناولان الكافر كما یتناولان المسلم واستدلوا أیضا بقوله تعالی ان النفس بالنفس لان النفس تصدق علی النفس الكافرة كما تصدق علی النفس المسلمة وذهب الجمهور الی انه لا یقتل المسلم بالكافر واستدلوا بما ورد من السنة عن النبی صلی الله علیه وآله وسلم انه قال لا یقتل مسلم بكافر وهو مبین

وبيان وعليهم حجة لو كانوا يعلمون وقال محمد بن اسحق حدثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس قال قال
ابن صوريا القطويني لرسول الله صلى الله عليه وسلم يا محمد ما جئتنا بشئ نعرفه وما أنزل الله عليك من آية بينة فنتبعك فأنزل الله في
ذلك من قوله ولقد أنزلنا اليك آيات بينات وما يكفر بها الا الفاسقون وقال مالك بن الصيف حين بعث رسول الله صلى الله عليه
وسلم وذكرهم ما أخذ عليهم من الميثاق وما عهد اليهم في محمد صلى الله عليه وسلم والله ما عهد الينا في محمد وما أخذ علينا ميثاقا
فأنزل الله تعالى أوكلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم وقال الحسن البصري في قوله بل أكثرهم لا يؤمنون قال
نعم ليس في الارض عهد يعاهدون
عليه الا نقضوه ونبذوه يعاهدون
اليوم وينقضون غدا وقال
السدي لا يؤمنون بما جاء به محمد
صلى الله عليه وسلم وقال قتادة
نبذه فريق منهم أي نقضه فريق
منهم وقال ابن جرير أصل النبذ
الطرح والالقاء ومنه سمي اللقيط
منبوذا ومنه سمي النبيذ وهو التمر
والزبيب اذا طرحا في الماء قال
أبو الأسود الدؤلي

نظرت الى عنوانه فنبذته
كنبذك نعلا اخلقت من نعالكا

قلت فالقوم ذمهم الله بنبذهم
العهود التي تقدم الله اليهم في
التمسك بها والقيام بحقها ولهذا
أعقبهم ذلك التكذيب بالرسول
المبعوث اليهم والى الناس كافة
الذي في كتبهم نعته وصفته
وأخباره وقد أمروا فيها باتباعه
وموازرته ونصرته كما قال تعالى الذين
يتبعون الرسول النبي الامي الذي
يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة
والانجيل الآية وقال ههنا ولما
جاءهم رسول من عند الله مصدق
لما معهم الآية أي طرح طائفة
منهم كتاب الله الذي بأيديهم مما فيه
البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم وراء ظهورهم أي تركوها كأنهم لا يعلمون ما فيها واقبلوا على تعلم السحر واتباعه ولهذا
أرادوا كيدا برسول الله صلى الله عليه وسلم وسحروه في مشط ومشاقة وجف طلعة ذكر تحت راعوفة ببئر أروان وكان الذي تولى
ذلك منهم رجل يقال له لبيد بن الاعصم لعنه الله وقبحه فأطلع الله على ذلك رسوله صلى الله عليه وسلم وشفاه منه وأنقذه كما ثبت
ذلك مبسوطا في الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها كما سيأتي بيانه قال السدي ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق
لما معهم قال لما جاءهم محمد صلى الله عليه وسلم عارضوه بالتوراة فخاصموه بها فاتفقت التوراة والقرآن فنبذوا التوراة وأخذوا

لما يراد في الآيتين وهذه الآية مع الاحاديث الواردة في ذلك حجة على أصحاب الرأي
والبحث في هذا يطول واستدل بهذه الآية القائلون بان الذكر لا يقتل بالانثى وقرروا
الدلالة على ذلك بمثل ما سبق الا اذا سلم أولياء المرأة الزيادة على ديتها من دية الرجل وبه قال
مالك والشافعي وأحمد واسحق والثوري وأبو ثور وذهب الجمهور الى انه يقتل الرجل
بالمرأة ولا زيادة وهو الحق وقد بسط الشوكاني البحث في نيل الاوطار فليرجع اليه
(فمن عفي له من أخيه شئ فاتباع بالمعروف وأداء اليه باحسان) من هنا عبارة عن القاتل
أو الجاني والمراد بالاخ المقتول أو الولي والشئ عبارة عن الدم والمعنى ان القاتل والجاني
اذا عفي له من جهة المجني عليه أو الولي دم أصابه منه على ان يأخذ منه شيأ من الدية
أو الارش فليتبع المجني عليه أو الولي من عليه الدم فيما يأخذه منه من ذلك اتباعا بالمعروف
وليؤد الجاني ما لزمه من الدية أو الارش الى المجني عليه أو الى الولي أداء باحسان وقيل
ان من عبارة عن الولي والاخ يراد به القاتل والشئ الدية والمعنى ان الولي اذا جنح الى العفو
عن القصاص الى مقابل الدية فان القاتل مخير بين ان يعطيها أو يسلم نفسه للقصاص
كما روي عن مالك انه يثبت الخيار للقاتل في ذلك وذهب من عداه الى انه لا يخير بل اذا
رضي الاولياء بالدية فلا خيار للقاتل بل يلزمه تسليمها وقيل معنى عفي بذل أي من بذل له
شئ من الدية فليقبل وليتبع بالمعروف وقيل ان المراد بذلك ان من فضل له من الطائفتين
على الاخرى شئ من الديات فيكون عفي بمعنى فضل وعلى جميع التقادير فتنكير شئ
للتقليل فيتناول العفو من الشئ اليسير من الدية والعفو الصادر عن فرد من افراد الورثة
وفي الآية دليل على ان القاتل لا يصير كافرا وان الفاسق مؤمن لان الله تعالى خاطبه بعد
القتل بالايمان وسماه مؤمنا حال ما وجب عليه من القصاص وقتل العمد والعدوان من
الكبائر بالاجماع فدل على ان صاحب الكبيرة مؤمن وانه تعالى أثبت الاخوة بين القاتل
وولي الدم وأراد بها اخوة الايمان فلولا ان الايمان باق على القاتل لم تثبت له الاخوة وأيضا
ندب الى العفو عن القاتل والعفو لا يليق الا عن المؤمن لا عن الكافر (ذلك تخفيف من
ربكم ورحمة) اشارة الى العفو والدية أي ان الله شرع لهذه الامة العفو من غير عوض
أو بعوض ولم يضيق عليهم كما ضيق على اليهود فانه أوجب عليهم القصاص ولا عفو وكما
ضيق على النصارى فانه أوجب عليهم العفو ولا دية وفيه تضييق على كل من الوارث

والقاتل فهذا تخفيف مما كتب على من كان قبلكم (فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم) أي بعد التخفيف نحو ان يأخذ الدية ثم يقتل القاتل أو يعفو ثم يقتص وقد اختلف أهل العلم فيمن قتل القاتل بعد أخذ الدية فقال جماعة منهم مالك والشافعي انه كمن قتل ابتداء ان شاء الولي قتله وان شاء عفا عنه وقال قتادة وعكرمة والسدي وغيرهم عذابه ان يقتل البتة ولا يمكن الحاكم الولي من العفو وقال الحسن عذابه ان يرد الدية فقط ويبقى اثمه الى عذاب الآخرة وقال عمر بن عبد العزيز أمره الى الامام يصنع فيه ما رأى وأخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة وأحمد وابن أبي حاتم والبيهقي عن أبي شريح الخزاعي ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال من أصيب بقتل أو خبل فانه يختار احدى ثلاث اما ان يقتص واما ان يعفو واما ان يأخذ الدية فان أراد الرابعة فخذوا على يديه ومن اعتدى بعد ذلك فله نار جهنم خالدا فيها أبدا وعن قتادة قال ذكر لنا ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لا أعافي رجلا قتل بعد أخذ الدية أخرجه ابن جرير وابن المنذر وأخرج سمويه في فوائده عن سمرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فذكر مثله والعذاب الأليم قيل هو عذاب الآخرة وقيل هو ان يقتل قصاصا ولا تقبل منه دية ولا يعفى عنه والاول أظهر وأولى ويدل له الحديث المتقدم (ولكم في القصاص حياة) خطاب لمريدي القتل ظلما وقال أبو السعود بيان لمحاسن الحكم المذكور على وجه بديع لا تنال غايته حيث جعل الشئ وهو القصاص محلا لضده وهو الحياة ونكر الحياة ليدل على ان في هذا الجنس نوعا من الحياة عظيما لا يبلغه الوصف وذلك لأنهم كانوا يقتلون الجماعة بالواحد فتنتشر الفتنة بينهم ففي شرع القصاص سلامة من هذا كله والمعنى ولكم في هذا الحكم الذي شرعه الله بقاء وحياة لان الرجل اذا علم ان يقتل قصاصا اذا قتل آخر كف عن القتل وانزجر عن التسرع اليه والوقوع فيه فيكون ذلك بمنزلة الحياة للنفوس الانسانية وهذا نوع من البلاغة بليغ وجنس من الفصاحة رفيع فانه جعل القصاص الذي هو موت حياة باعتبار ما يؤل اليه من ارتداع الناس عن قتل بعضهم بعضا ابقاء على أنفسهم واستدامة لحياتهم وقيل ان الحياة سلامة من القصاص في الآخرة فانه اذا اقتص في الدنيا لم يقتص عنه في الآخرة والاول أولى وقال الخازن هذا الحكم غير مختص بالقصاص الذي هو القتل بل يدخل فيه جميع الجروح والشجاج وغير ذلك وقرأ

بكتاب آصف وبسحر هاروت وماروت فلم يوافق القرآن فذلك قوله كأنهم لا يعلمون وقال قتادة في قوله كأنهم لا يعلمون قال ان القوم كانوا يعلمون ولكنهم نبذوا علمهم وكتموه وجحدوا به وقال العوفي في تفسيره عن ابن عباس في قوله تعالى واتبعوا ما تتلوا الشياطين الآية وكان حين ذهب ملك سليمان ارتد فئام من الجن والانس واتبعوا الشهوات فلما أرجع الله الى سليمان ملكه وقام الناس على الدين كما كان وان سليمان ظهر على كتبهم فدفنها تحت كرسيه وتوفي سليمان عليه السلام حدثان ذلك فظهر الانس والجن على الكتب بعد وفاة سليمان وقالوا هذا كتاب من الله نزل على سليمان فأخفاه عنا فأخذوا به فجعلوه دينا فأنزل الله تعالى ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم الآية واتبعوا الشهوات التي كانت تتلوا الشياطين وهي المعازف واللعب وكل شئ يصد عن ذكر الله وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الاشج حدثنا أبو أسامة عن الاعمش عن المنهال عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس قال كان آصف كاتب سليمان وكان يعلم الاسم الاعظم وكان يكتب كل شئ بأمر سليمان ويدفنه تحت كرسيه فلما مات سليمان أخرجته الشياطين فكتبوا بين كل سطرين سحرا وكفرا وقالوا هذا الذي كان سليمان يعمل بها قال فاكفره جهال الناس وسبوه ووقف علماء الناس فلم يزل جهال الناس يسبونه حتى أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا وقال ابن جرير حدثني أبو السائب سلم بن جنادة السوائي حدثنا أبو معاوية عن الاعمش عن المنهال عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال كان سليمان عليه السلام اذا أراد أن يدخل الخلاء أو يأتي شيأ من نسائه أعطى الجرادة وهي امرأته خاتمه فلما أراد أبو الله ان يبتلي سليمان عليه السلام بالذي ابتلاه به أعطى الجرادة ذات يوم خاتمه فجاء الشيطان في صورة سليمان فقال هاتي خاتمي فأخذه ولبسه فلما لبسه دانت له الشياطين والجن والانس قال فجاءها سليمان فقال لها هاتي خاتمي فقالت كذبت لست سليمان قال فعرف سليمان انه بلاء ابتلي به قال فانطلقت الشياطين فكتبت في تلك الايام كتبا فيها سحر وكفر فدفنوها تحت كرسي سليمان ثم أخرجوها وقرؤها على الناس وقالوا انما كان سليمان يغلب الناس بهذه الكتب قال فبرئ الناس من سليمان وكفروه

حتى بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم فأنزل عليه وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا ثم قال ابن جرير حدثنا ابن حميد حدثنا جرير عن حصين بن عبد الرحمن عن عمران وهو ابن الحرث قال بينما نحن عند ابن عباس رضي الله عنهما اذ جاء رجل فقال له من أين جئت قال من العراق قال من أيه قال من الكوفة قال فما الخبر قال تركتهم يتحدثون أن عليا خارج اليهم ففزع ثم قال ما تقول لا أبا لك لو شعرنا ما نكحنا نساءه ولا قسمنا ميراثه أما اني سأحدثكم عن ذلك انه كانت الشياطين يسترقون السمع من السماء فيجيء أحدهم بكلمة حق قد سمعها فاذا اجرت منه وصدق كذب (٢٣١) معها سبعين كذبة قال فتشربها قلوب الناس قال فاطلع الله عليها سليمان عليه السلام فدفنها تحت كرسيه فلما توفي سليمان عليه السلام قام شيطان الطريق فقال هل أدلكم على كنزه الممنع الذي لا كنز له مثله تحت الكرسي فأخرجوه فقال هذا سحر فتناسخها الامم حتى بقاياها ما يتحدث به أهل العراق فأنزل الله عز وجل واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا الآية وروى الحاكم في مستدركه عن أبي زكريا العنبري عن محمد بن عبد السلام عن اسحق ابن ابراهيم عن جرير به وقال السدي في قوله تعالى واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان أي على عهد سليمان قال كانت الشياطين تصعد الى السماء فتقعد منها مقاعد للسمع فيستمعون من كلام الملائكة مما يكون في الارض من موت أو غيب أو أمر فيأتون الكهنة فيخبرونهم فتحدث الكهنة الناس فيجدونه كما قالوا فلما أمنتهم الكهنة كذبوا لهم وأدخلوا فيه غيره فزادوا مع كل كلمة سبعين كلمة فاكتتب الناس ذلك الحديث في الكتب وفشا ذلك في بني اسرائيل ان الجن تعلم الغيب فبعث سليمان في الناس فجمع تلك الكتب فجعلها في صندوق ثم دفنها تحت كرسيه ولم يكن أحد من الشياطين يستطيع أن يدنو من الكرسي الا احترق وقال لا أسمع أحدا يذكر ان الشياطين يعلمون الغيب الا ضربت عنقه فلما مات سليمان وذهبت العلماء الذين كانوا يعرفون أمر سليمان وخلف من بعد ذلك خلف تمثل الشيطان في صورة انسان ثم أتى نفرا من بني اسرائيل فقال لهم هل أدلكم على كنز لا تأكلونه أبدا قالوا نعم قال فاحفروا تحت الكرسي فذهب معهم وأراهم المكان وقام ناحيته فقالوا له فادن فقال لا ولكنني ههنا في أيديكم

أبو الجوزاء ولكم في القصص حياة أي فيما قص عليكم من حكم القتل حياة أو في كتاب الله حياة أي نجاة وقيل أراد حياة القلوب وقيل هو مصدر بمعنى القصاص والكل ضعيف والقراءة به منكرة (يا أولي الالباب) أي ذوي العقول الكاملة جعل هذا الخطاب موجها الى أولي الالباب وناداهم للتامل في حكمة القصاص من استبقاء الارواح وحفظ النفوس لانهم هم الذين ينظرون في العواقب و يتحامون ما فيه الضرر الآجل وأما من كان مصابا بالحمق والطيش والخفة فانه لا ينظر عند سورة غضبه وغليان مراجل طيشه الى عاقبة ولا يفكر في أمر مستقبل والالباب جمع لب وهو العقل الخالي من الهوى سمي بذلك لاحد وجهين اما لبنائه من لب بالمكان أقام به واما من اللباب وهو الخالص ثم علل سبحانه هذا الحكم الذي شرعه لعباده بقوله (لعلكم تتقون) أي تعملون عمل أهل التقوى وتتحامون القتل بالمحافظة على القصاص والحكم به والاذعان له فيكون ذلك سببا للتقوى (كتب عليكم اذا حضر أحدكم الموت) قد تقدم معنى كتب قريبا وحضور الموت حضور أسبابه وأماراته وظهور علاماته من العلل والامراض المخوفة وليس المراد منه معاينة الموت لانه في ذلك الوقت يعجز عن الايصاء وانما لم يؤنث الفعل المسند الى الوصية وهو كتب لوجود الفاصل بينهما وقيل لانها بمعنى الايصاء وقد روي جواز اسناد ما لا تأنيث فيه الى المؤنث مع عدم الفصل وقد حكى سيبويه قام امرأة وهو خلاف ما أطبق عليه أئمة العربية (ان ترك خيرا) شرط سبحانه ما كتبه من الوصية بان يترك الموصي خيرا أي مالا قال الزهري هو يطلق على القليل والكثير فتجب الوصية في الكل وقيل لا يطلق الا على المال الكثير وهو قول الاكثرين واختلف أهل العلم في مقدار الخير فقيل ما زاد على سبعمائة دينار وقيل ألف دينار وقيل ما زاد على خمسمائة دينار وقيل ستون دينارا فما فوقها وقيل من خمسمائة الى ألف وقيل انه المال الكثير الفاضل عن العيال والخير هنا المال ويقع في القرآن على وجوه ونبه بتسميته خيرا على ان الوصية تستحب في مال طيب (الوصية) أي الايصاء والوصية في الاصل عبارة عن الامر بالشيء والعهد به في الحياة وبعد الموت وهي هنا عبارة عن الامر بالشيء بعد الموت وقد اتفق أهل العلم على وجوب الوصية على من عليه دين أو عنده وديعة أو نحوها وأما من لم يكن كذلك فذهب أكثرهم الى انها غير واجبة عليه سواء كان فقيرا أو غنيا وقالت طائفة انها واجبة

فان لم تجدوه فاقتلوني فحفروا فوجدوا تلك الكتب فلما أخرجوها قال الشيطان ان سليمان انما كان يضبط الانس والشياطين والطير بهذا السحر ثم طار وذهب وفشا في الناس ان سليمان كان ساحرا واتخذت بنو اسرائيل تلك الكتب فلما جاء محمد صلى الله عليه وسلم خاصموه بها فذلك حين يقول الله تعالى وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا وقال الربيع بن أنس ان اليهود سألوا محمدا صلى الله عليه وسلم زمانا عن أمور من التوراة لا يسألونه عن شيء من ذلك الا أنزل الله سبحانه وتعالى ما سألوه عنه فيخصمهم فلما رأوا ذلك قالوا هذا أعلم (٢٣٢) بما أنزل الله الينا منا وانهم سألوه عن السحر وخاصموه به فأنزل الله عزوجل واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وان الشياطين عمدوا الى كتاب فكتبوا فيه السحر والكهانة وماشاء الله من ذلك فدفنوه تحت كرسي مجلس سليمان وكان عليه السلام لا يعلم الغيب فلما فارق سليمان الدنيا استخرجوا ذلك السحر وخدعوا الناس وقالوا هذا علم كان سليمان يكتمه ويحسد الناس عليه فأخبرهم النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الحديث فرجعوا من عنده وقد خزوا وقد أدحض الله حجتهم وقال مجاهد في قوله تعالى واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان قال كانت الشياطين تستمع الوحي فما سمعوا من كلمة زادوا فيها مائتين مثلها فارسل سليمان عليه السلام الى ما كتبوا من ذلك فلما توفي سليمان وجدته الشياطين وعلمته الناس وهو السحر وقال سعيد بن جبير كان سليمان يتتبع ما في أيدي الشياطين من السحر فيأخذه منهم فيدفنه تحت كرسيه في بيت خزانته فلم تقدر الشياطين ان يصلوا اليه فدنت الى الانس فقالوا لهم أتدرون ما العلم الذي كان سليمان يسخر به الشياطين هنا والرياح وغير ذلك قالوا نعم قالوا فانه في بيت خزانته وتحت كرسيه فاستثاروا به الانس واستخرجوه وعملوا بها فقال أهل الحجاز كان سليمان يعمل بهذا وهذا سحر فانزل الله تعالى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم براءة سليمان عليه السلام فقال تعالى واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا وقال محمد بن اسحق بن يسار عمدت الشياطين حين عرفت موت سليمان بن داود عليه السلام فكتبوا أصناف السحر من كان يحب ان يبلغ كذا وكذا فليفعل كذا وكذا حتى اذا صنعوا

(للوالدين والاقربين) لم يبين الله سبحانه ههنا القدر الذي كتب الوصية به للوالدين والاقربين فقيل الخمس وقيل الربع وقيل الثلث وقد اختلف أهل العلم في هذه الآية هل هي محكمة أو منسوخة فذهب جماعة الى انها محكمة وقالوا هي وان كانت عامة فمعناها الخصوص والمراد بها من الوالدين من لا يرث كالابوين الكافرين ومن هو في الرق ومن الاقربين من عدا الورثة منهم قال ابن المنذر أجمع كل من يحفظ عنه من أهل العلم على ان الوصية للوالدين اللذين لا يرثان والاقرباء الذين لا يرثون جائزة وقال كثير من أهل العلم انها منسوخة بآية المواريث مع قوله صلى الله عليه وآله وسلم لا وصية لوارث وهو حديث صححه بعض أهل الحديث وروي من غير وجه وللشيخ سعد التفتازاني فيه مناقشة وقال بعض أهل العلم انه نسخ الوجوب وبقي الندب روي ذلك عن الشعبي والنخعي ومالك (بالمعروف) أي بالعدل لا وكس فيه ولا شطط وقد أذن الله للميت بالثلث دون ما زاد عليه فلا يزيد على الثلث ولا يوصي للغني ويدع الفقير وعن علي لان أوصي بالخمس أحب الي من ان أوصي بالربع ولان أوصي بالربع أحب الي من أن أوصي بالثلث فمن أوصى بالثلث فلم يترك وقيل يوصي بالسدس أو بالخمس أو بالربع (حقا) مصدر مؤكد لمضمون الجملة قبله معناه الثبوت والوجوب وقيل ثبوت ندب لا ثبوت فرض ووجوب (على المتقين) أي على الذين يتقون الشرك (فمن بدله بعدما سمعه فانما اثمه على الذين يبدلونه) هذا الضمير عائد الى الايصاء المفهوم من الوصية وكذلك الضمير في قوله سمعه والتبديل التغيير والضمير في اثمه راجع الى التبديل المفهوم من قوله بدله وهذا وعيد لمن غير الوصية المطابقة للحق التي لا حيف فيها ولا مضارة وانه يبوء بالاثم وليس على الموصي من ذلك شيء فقد تخلص مما كان عليه بالوصية به قال القرطبي ولا خلاف انه اذا أوصى بما لا يجوز مثل ان يوصي بخمر أو خنزير أو شيء من المعاصي انه يجوز تبديله ولا يجوز امضاؤه كما لا يجوز امضاء ما زاد على الثلث قاله أبو عمرو انتهى والمبدلون اما الاوصياء بان يبدلوا الوصية أو يغيروها اما في الكتابة أو في قسمة الحقوق أو الشهود بان يكتموا الشهادة أو يغيروها والمعنى فمن بدل قول الميت أو ما أوصى به وقيل الضمير في بدله يعود على الوصية لانها بمعنى الايصاء وقيل على نفس الايصاء وقيل على الامر والفرض الذي أمر به الله وفرضه أو على الكتب أو الحق أو المعروف فهذه ستة أقوال أولاها ما ذكرنا ولكن

أصناف السحر جعلوه فى كتاب ثم ختموه بخاتم على نقش خاتم سليمان وكتبوا فى عنوانه هذا ما كتب آصف بن برخياء الصديق للملك سليمان بن داود من ذخائر كنوز العلم ثم دفنوه تحت كرسيه واستخرجته بعد ذلك بقايا بنى اسرائيل حتى أحدثوا ما أحدثوا فلما عثروا عليه قالوا والله ما كان ملك سليمان الا بهذا فافشوا السحر فى الناس فتعلموه وعلموه فليس هو فى أحد أكثر منه فى اليهود لعنهم الله فلما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما نزل عليه من الله سليمان بن داود وعده فيمن عد من المرسلين قال من كان بالمدينة من اليهود ألا تعجبون من محمد يزعم ان ابن داود كان نبيا والله ما كان الا ساحرا وأنزل الله فى ذلك من قولهم واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا الآية * وقال ابن جرير حدثنا القاسم حدثنا حسين بن حجاج عن أبى بكر عن شهر بن حوشب قال لما سلب سليمان ملكه كانت الشياطين تكتب السحر فى غيبة سليمان فكتبت من أراد أن يأتى كذا وكذا فليستقبل الشمس وليقل كذا وكذا ومن أراد أن يفعل كذا وكذا فليستدبر الشمس وليقل كذا وكذا فكتبته وجعلت عنوانه هذا ما كتب آصف بن برخياء للملك سليمان بن داود عليهما السلام من ذخائر كنوز العلم ثم دفنته تحت كرسيه فلما مات سليمان عليه السلام قام ابليس لعنه الله خطيبا فقال يا أيها الناس ان سليمان لم يكن نبيا انما كان ساحرا فالتمسوا سحره فى متاعه وبيوته ثم دلهم على المكان الذى دفن فيه فقالوا والله لقد كان سليمان ساحرا هذا سحره بهذا تعبدنا وبهذا قهرنا فقال المؤمنون بل كان نبيا مؤمنا فلما بعث الله النبى محمدا صلى الله عليه وسلم وذكر داود وسليمان فقالت اليهود انظروا الى محمد يخلط الحق بالباطل يذكر سليمان مع الانبياء انما كان ساحرا يركب الريح فانزل الله تعالى واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان الآية * وقال ابن جرير حدثنا محمد بن عبد الاعلى الصنعانى حدثنا المعتمر بن سليمان قال سمعت عمران بن جرير عن أبى مجلز قال أخذ سليمان عليه السلام من كل دابة عهدا فاذا أصيب رجل فسأل بذلك العهد خلى عنه فزاد الناس السجع والسحر فقالوا هذا يعمل به سليمان بن داود عليهما السلام فقال الله تعالى وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر * وقال ابن أبى

هنا وقفة من حيث ان الكلام السابق انما هو فى الوصية المنسوخة التى هى للوالدين والاقربين وقوله فمن بدله الى آخر الآية انما هو فى الوصية التى استقر عليها الشرع ويعمل بها الى الآن وعلى هذا فكيف يعود الضمير من المحكمة على المنسوخة قال سليمان الجمل فليتأمل فانى لم أر من نبه على هذا انتهى قلت انما يرد هذا على قول من قال بنسخ الوصية المذكورة وقد تقدم أن جماعة من أهل العلم ذهبت الى أنها محكمة فلا تامل ولا تنبيه والله أعلم (ان الله سميع) لما أوصى به الموصى ولقوله (عليم) بتبديل المبدل وفعل الوصى فيجازى عليه الاول بالخير والثانى بالشر (فمن خاف) أى علم وهو مجاز والعلاقة بينهما ان الانسان لا يخاف شيأ حتى يعلم انه مما يخاف منه فهو من باب التعبير عن السبب بالمسبب ومنه قوله تعالى الا أن يخافا أن لا يقيما حدود الله أى يعلما (من موص جنفا أو اثما) الجنف المجاوزة من جنف يجنف اذا جاوز قاله النحاس وقيل الجنف الميل قاله فى الصحاح والكشاف والاثم الظلم وقيل الجنف الخطأ فى الوصية والاثم العمد (فأصلح بينهم) أى أصلح ما وقع بين الورثة من الشقاق والاضطراب بسبب الوصية بابطال ما فيه ضرر ومخالفة لما شرعه الله واثبات ما هو حق كالوصية فى قرابة لغير وارث والضمير فى بينهم راجع الى الورثة وان لم يتقدم لهم ذكر لانه قد عرف أنهم المرادون من السياق وقيل راجع الى الموصى لهم وهم الابوان والقرابة (فلا اثم عليه) أى لا حرج عليه فى الصلح وان كان فيه تبديل لانه خير بخلاف الاول فانه ضير (ان الله غفور رحيم) لمن أصلح وصيته بعد الجنف والميل عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال ان الرجل ليعمل والمرأة بطاعة الله ستين سنة ثم يحضرهما الموت فيضاران فى الوصية فتجب لهما النار الحديث أخرجه أبو داود والترمذى ومعنى المضارة فى الوصية ان لا تمضى أو ينقص بعضها أو يوصى لغير أهلها أو يحيف فى الوصية ونحوها (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام) قد تقدم معنى كتب ولا خلاف بين المسلمين أجمعين أن صوم رمضان فريضة افترضها الله سبحانه على هذه الامة والصيام أصله فى اللغة الامساك وترك التنقل من حال الى حال ويقال للصمت صوم لانه امساك عن الكلام ومنه انى نذرت للرحمن صوما أى امساكا عن الكلام وهو فى الشرع الامساك عن المفطرات مع اقتران النية به من طلوع الفجر الى غروب الشمس وفى الآية توكيد للحكم وترغيب فى الفعل وتطييب

حاتم حدثنا عصام بن رواد حدثنا آدم حدثنا المسعودي عن زياد مولى بن مصعب عن الحسن واتبعوا ما تتلوا الشياطين قال ثلث الشعر وثلث السحر وثلث الكهانة وقال حدثنا الحسن بن أحمد حدثنا ابراهيم بن عبد الله بن بشار الواسطي حدثني سرور بن المغيرة عن عباد بن منصور عن الحسن واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وتبعته اليهود على ملكه وكان السحر قبل ذلك في الارض لم يزل بها ولكنه انما اتبع على ملك سليمان فهذه نبذة من أقوال أئمة السلف في هذا المقام ولا يخفى ملخص القصة والجمع بين أطرافها وأنه لا تعارض بين السياقات على اللبيب (٢٣٤) الفهم والله الهادي وقوله تعالى واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان أى واتبعت اليهود الذين أوتوا الكتاب من بعد اعراضهم عن كتاب الله الذي بايديهم ومخالفتهم لرسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ماتتلوه الشياطين أى ماترويه وتخبر به وتحدثه الشياطين على ملك سليمان وعداه بعلى لانه تضمن تتلو تكذب وقال ابن جرير على ههنا بمعنى في أى تتلو في ملك سليمان ونقله عن ابن جريج وابن اسحق قلت والتضمن أحسن وأولى والله أعلم وقول الحسن البصري رحمه الله وكان السحر قبل زمان سليمان بن داود صحيح لاشك فيه لان السحرة كانوا في زمان موسى عليه السلام وسليمان بن داود بعده كما قال تعالى ألم تر الى الملا من بني اسرائيل من بعد موسى الآية ثم ذكر القصة بعدها وفيها وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وقال قوم صالح وهم قبل ابراهيم الخليل عليه السلام لنبيهم صالح انما أنت من المسحرين أى المسحورين على المشهور وقوله تعالى وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولوا انما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه اختلف الناس في هذا المقام فذهب بعضهم الى أن ما نافية أعني التي في قوله وما أنزل على الملكين قال القرطبي ما نافية ومعطوف على قوله وما كفر سليمان ثم قال ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين وذلك ان اليهود كانوا يزعمون انه نزل به جبريل وميكائيل فاكذبهم الله وجعل قوله هاروت وماروت بدلا من الشياطين قال وصح ذلك اما لان الجمع يطلق على الاثنين كما في قوله تعالى فان كان له اخوة أو لكونهما لهما اتباع أو ذكرا من بينهم لتمردهما تقدير (٣) الكلام عنده يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت ثم

للنفس (كما كتب على الذين من قبلكم) من الانبياء والامم من لدن آدم الى عهدكم والمعنى أن الصوم عبادة قديمة ما أخلى الله أمة من افتراضها عليهم لم يفرضها عليكم وحدكم واختلف المفسرون في وجه التشبيه ما هو فقيل هو قدر الصوم ووقته فان الله كتب على اليهود والنصارى صوم رمضان فغيروا وقيل هو الوجوب فان الله أوجب على الامم الصيام وقيل هو الصفة أى ترك الاكل والشرب ونحوهما في وقت فعلى الاول معناه ان الله كتب على هذه الامة صوم رمضان كما كتبه على الذين من قبلهم وعلى الثاني ان الله أوجب على هذه الامة الصيام كما أوجبه على الذين من قبلهم وعلى الثالث ان الله سبحانه أوجب على هذه الامة الامساك عن المفطرات كما أوجبه على الذين من قبلهم (لعلكم تتقون) المراد بالتقوى المحافظة عليها وقيل تتقون المعاصي بسبب هذه العبادة لانها تكسر الشهوة وتضعف دواعي المعاصي كما ورد في الحديث أنه جنة وأنه وجاء (أياما معدودات) أى معينات بعدد معلوم ومقدرات ويحتمل أن يكون في هذا الجمع لكونه من جموع القلة اشارة الى تقليل الايام أى قليلات يعني أقل من أربعين وقيل انه كان في ابتداء الاسلام صوم ثلاثة أيام من كل شهر واجبا وصوم عاشوراء ثم نسخ ذلك بفريضة صوم شهر رمضان قال ابن عباس أول ما نسخ بعد الهجرة أمر القبلة ثم الصوم وقيل ان المراد أيام شهر رمضان وعلى هذا فتكون الآية غير منسوخة وأخرج البخاري في تاريخه والطبراني عن دغفل بن حنظلة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال كان على النصارى صوم شهر رمضان فمرض ملكهم فقالوا لئن شفاه الله لنزيدن عشرا ثم كان آخر فأكل لحما فأوجع فوه فقال لئن شفاه الله ليزيدن سبعة ثم كان عليهم ملك آخر فقال ماندع من هذه الثلاثة الايام شيأ نتمها ونجعل صومنا في الربيع ففعل فصارت خمسين يوما وأخرج البخاري ومسلم عن عائشة قالت كان عاشوراء يصام فلما أنزل رمضان كان من شاء صام ومن شاء أفطر (فمن كان) حين حضوره ووجود الشخص فيه (منكم مريضا) ولو في أثناء اليوم بخلاف السفر فلا يبيح له الفطر اذا طرأ في أثناء اليوم وهذا سر التعبير بعلى في السفر دون المرض قيل للمريض حالتان ان كان لا يطيق الصوم كان الافطار عزيمة وان كان يطيقه مع تضرر ومشقة كان رخصة وبهذا قال الجمهور (أو على سفر) أى مستعليا على السفر ومتمكنا منه بان كان متلبسا به وقت طلوع الفجر

واختلف

---

(٣) قوله تقدير الكلام الخ كذا في النسخ التي بايدينا ولا يخفى انه لا يتم التقدير الا بذكر المبدل منه على اعرابه وهو قوله ولكن الشياطين ولعله سقط من الناسخ حرر اه مصححه

قال وهذا أولى ماحملت عليه الآية وأصح ولا يلتفت الى ماسواه وروى ابن جرير باسناده من طريق العوفي عن ابن عباس في قوله وما أنزل على الملكين ببابل الآية يقول لم ينزل الله السحر وباسناده عن الربيع بن أنس في قوله وما أنزل على الملكين قال ما أنزل الله عليهما السحر قال ابن جرير فتأويل الآية على هذا واتبعوا ماتتلوا الشياطين على ملك سليمان من السحر وما كفر سليمان ولا أنزل الله السحر على الملكين ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت فيكون قوله ببابل هاروت وماروت من المؤخر الذي معناه المقدم قال فان قال لنا قائل كيف

وجه تقديم ذلك قيل وجه تقديمه ان يقال واتبعوا ماتتلوا الشياطين على ملك سليمان من السحر وما كفر سليمان وما أنزل الله السحر على الملكين ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت فيكون معنيا بالملكين جبريل وميكائيل عليهما السلام لان سحرة اليهود فيماذكر كانت تزعم ان الله أنزل السحر على لسان جبريل وميكائيل الى سليمان بن داود فاكذبهم الله بذلك وأخبر نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم ان جبريل وميكائيل لم ينزلا بسحر وبرأ سليمان عليه السلام مما نحلوه من السحر وأخبرهم ان السحر من عمل الشياطين وانها تعلم الناس ذلك ببابل وان الذين يعلمونهم ذلك رجلان اسم احدهما هاروت واسم الآخر ماروت فيكون هاروت وماروت على هذا التاويل ترجمة عن الناس وردا عليهم هذا لفظه بحروفه وقد قال ابن أبي حاتم حدثت عن عبيد الله ابن موسى اخبرنا فضيل بن مرزوق عن عطية وما أنزل على الملكين قال ما أنزل الله على جبريل وميكائيل السحر قال ابن أبي حاتم واخبرنا الفضل بن شاذان أخبرنا محمد بن عيسى اخبرنا يعلى يعني ابن أسد اخبرنا بكر يعني ابن مصعب اخبرنا الحسن بن أبي جعفر أن عبد الرحمن بن أبزى كان يقرؤها وما أنزل على الملكين داود وسليمان وقال أبو العالية لم ينزل عليهما السحر يقول علما الايمان والكفر فالسحر من الكفر فهما ينهيان عنه أشد النهي رواه ابن أبي حاتم ثم شرع ابن جرير في رد هذا القول وان ما بمعنى الذي وأطال القول في ذلك وادعى ان هاروت وماروت ملكان أنزلهما الله الى الارض وأذن لهما في تعليم السحر اختبارا لعباده وامتحانا بعد أن بين لعباده ان ذلك مما ينهى عنه على ألسنة الرسل وادعى ان هاروت وماروت مطيعان في تعليم ذلك لانهما

واختلف أهل العلم في السفر المبيح للافطار فقيل مسافة قصر الصلاة والخلاف في قدرها معروف وبه قال الجمهور وقال غيرهم بمقادير لا دليل عليها والحق ان ماصدق عليه مسمى السفر فهو الذي يباح عنده الفطر وهكذا ماصدق عليه مسمى المرض فهو الذي يباح عنده الفطر وقد وقع الاجماع على الفطر في سفر الطاعة واختلفوا في الأسفار المباحة والحق ان الرخصة ثابتة فيه وكذا اختلفوا في سفر المعصية (فعدة من أيام أخر) أي فعليه عدة ماأفطر من أيام أخر يصومها بدله وأخر جمع أخرى تأنيث آخر بفتح الخاء او جمع أخرى بمعنى آخرة تأنيث آخر بكسر الخاء وفيه الوصف والعدل واختلف النحاة في كيفية العدل فيه على أقوال والعدة فعلة من العدد وهو بمعنى المعدود أي فعليه عدة أو فالحكم عدة أو فالواجب عدة من غير أيام مرضه وسفره واليه ذهب الظاهرية وبه قال أبو هريرة وليس في الآية مايدل على وجوب التتابع في القضاء (وعلى الذين لا يطيقونه) لكبر أو مرض لا يرجى برؤه وقد اختلف أهل العلم في هذه الآية هل هي محكمة أو منسوخة فقيل انها منسوخة وانما كانت رخصة عند ابتداء فرض الصيام لانه شق عليهم وكان من أطعم كل يوم مسكينا ترك الصوم وهو يطيقه ثم نسخ ذلك وهو قول الجمهور وروى عن بعض أهل العلم أنها لم تنسخ وأنها رخصة للشيوخ والعجائز خاصة اذا كانوا لا يطيقون الصيام الا بمشقة وهذا يناسب قراءة التشديد وهو يطوقونه أي يكلفونه والناسخ لهذه الآية عند الجمهور قوله تعالى فمن شهد منكم الشهر فليصمه (فدية طعام مسكين) وقرئ مساكين والفدية الجزاء وهو القدر الذي يبذله الانسان يقي به نفسه من تقصير وقع منه في عبادة ونحوها وقد اختلفوا في مقدار الفدية فقيل كل يوم صاع من غير البر ونصف صاع منه وقيل مد فقط أي من غالب قوت البلد وقال ابن عباس يعطي كل مسكين عشاءه وسحوره أي قدر ما يأكله في يومه وروى ان أنس ابن مالك ضعف عن الصوم عاما قبل موته فصنع جفنة من ثريد ودعا ثلاثين مسكينا فأطعمهم عن ابن عباس بسند صحيح أنه قال لام ولد له حامل أو مرضعة أنت بمنزلة الذين لا يطيقون الصوم عليك الطعام لا قضاء عليك عن ابن عمر أن احدى بناته أرسلت تسأله عن صوم رمضان وهي حامل قال تفطر وتطعم كل يوم مسكينا وقد روى نحو هذا عن جماعة من التابعين (فمن تطوع خيرا فهو خير له) قال ابن شهاب معناه من أراد الاطعام مع

امتثلا ما أمر به وهذا الذى سلكه غريب جدا وأغرب منه قول من زعم ان هاروت وماروت قبيلان من الجن كما زعمه ابن حزم
وروى ابن أبى حاتم باسناده عن الضحاك بن مزاحم أنه كان يقرؤها وما أنزل على الملكين ويقول هما علجان من أهل بابل و وجه
أصحاب هذا القول الانزال بمعنى الخلق لا بمعنى الايحاء فى قوله تعالى وما أنزل على الملكين كما قال تعالى وانزل لكم من الانعام ثمانية
ازواج وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد و ينزل لكم من السماء رزقا وفى الحديث ما أنزل الله داء الا أنزل له دواء وكما يقال أنزل الله
الخير والشر وحكى القرطبى عن ابن عباس (٢٣٦) وابن أبزى والحسن البصرى انهم قرؤا وما أنزل على الملكين بكسر
اللام قال ابن أبزى وهما داود وسليمان قال القرطبى فعلى هذا تكون ما نافية أيضا وذهب آخرون الى الوقف على قوله يعلمون الناس السحر وما نافية قال ابن جرير حدثنى يونس اخبرنا ابن وهب اخبرنا الليث عن يحيى بن سعيد عن القاسم بن محمد وسأله رجل عن قول الله يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت فقال الرجلان يعلمان الناس ما أنزل عليهما و يعلمان الناس مالم ينزل عليهما فقال القاسم ما أبالى أيتهما كانت ثم روى عن يونس عن أنس بن عياض عن بعض أصحابه ان القاسم قال فى هذه القصة لا أبالى أى ذلك كان انى آمنت به وذهب كثير من السلف الى انهما كانا ملكين من السماء وانهما أنزلا الى الارض فكان من أمرهما ما كان وقد ورد فى ذلك حديث مرفوع رواه الامام أحمد فى مسنده رحمه الله كما سنورده ان شاء الله وعلى هذا فيكون الجمع بين هذا و بين ما ورد من الدلائل على عصمة الملائكة ان هذين سبق فى
علم الله لهما هذا فيكون تخصيصا لهما فلا تعارض حينئذ كما سبق فى علمه من أمر ابليس ما سبق وفى قول
انه كان من الملائكة لقوله تعالى واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس أبى الى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك
مع ان شأن هاروت وماروت على ما ذكر أخف مما وقع من ابليس لعنه الله تعالى وقد حكاه القرطبى عن على وابن مسعود وابن
عباس وابن عمرو كعب الاحبار والسدى والكلبى *(ذكر الحديث الوارد فى ذلك ان صح سنده ورفعه وبيان الكلام عليه)* قال
الامام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى فى مسنده أخبرنا يحيى بن بكير حدثنا زهير بن محمد عن موسى بن جبير عن نافع عن عبد الله بن

الصوم وقال مجاهد معناه من زاد فى الاطعام على المد وقيل من أطعم مع المسكين
مسكينا آخر (وأن تصوموا) أى ان صيامكم (خير لكم) أيها المطيقون من الافطار مع
الفدية وكان هذا قبل النسخ وقيل معناه وأن تصوموا فى السفر والمرض غير الشاق
وقيل هو خطاب مع الكافة لان اللفظ عام فرجوعه الى الكل أولى وهو الاصح وقد ورد
فى فضل الصوم أحاديث كثيرة جدا (ان كنتم تعلمون) أن الصوم خير لكم وقيل المعنى
اذا صمتم علمتم ما فى الصوم من المعانى المورثة للخير والتقوى ولا رخصة لاحد من المكلفين
فى افطار رمضان بغير عذر والاعذار المبيحة للفطر ثلاثة أحدها السفر والمرض والحيض
والنفاس وأهلها اذا أفطروا فعليهم القضاء دون الفدية والثانى الحامل والمرضع اذا خافتا
على ولديهما أفطرتا وعليهما القضاء والفدية وبه قال الشافعى وذهب أهل الرأى الى انه
لا فدية عليهما الثالث الشيخ الكبير والعجوز الكبيرة والمريض الذى لا يرجى برؤه فعليهم
الفدية دون القضاء (شهر) أى ذلكم شهر أو كتب عليكم الصيام صيام شهر وقرئ بالنصب
أى صوموا شهر ولاهل اللغة فيه قولان أشهرهما أنه اسم لمدة الزمان الذى يكون مبدؤه
الهلال ظاهرا الى ان يستتر سمى بذلك لشهرته فى حاجة الناس اليه من المعاملات
والثانى ما قاله الزجاج انه اسم للهلال نفسه و(رمضان) علم لهذا الشهر المخصوص وهو علم
جنس مركب تركيبا اضافيا وكذا باقى اسماء الشهور وهو ممنوع من الصرف للعلمية
والزيادة وهو مأخوذ من رمض الصائم يرمض اذا احترق جوفه من شدة العطش والرمضاء
ممدودا شدة الحر ومنه الحديث الثابت فى الصحيح صلاة الاوابين اذا رمضت الفصال أى
أحرقت الرمضاء أجوافها قال الجوهرى وشهر رمضان يجمع على رمضانات وارمضاء
يقال انهم لما نقلوا أسماء الشهور عن اللغة القديمة سموها بالازمنة التى وقعت فيها فوافق
هذا الشهر أيام الحر فسمى بذلك وقيل انما سمى رمضان لانه يرمض الذنوب أى يحرقها
بالاعمال الصالحة وقال الماوردى ان اسمه فى الجاهلية ناتق وانما سموه بذلك لانه كان
ينتقهم لشدته عليهم وقد حققنا ذلك فى كتابنا لقطة العجلان مما تمس الى معرفته حاجة
الانسان فليرجع اليه وقد أخرج أبو حاتم وأبو الشيخ وابن عدى والبيهقى فى سننه عن
أبى هريرة مرفوعا وموقوفا لا تقولوا رمضان فان رمضان اسم من اسماء الله تعالى ولكن
قولوا شهر رمضان وقد ثبت عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال من صام رمضان
ايمانا

ايمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه وثبت عنه انه قال من قام رمضان ايمانا واحتسابا
غفر له ما تقدم من ذنبه وثبت عنه انه قال شهرا عيد لا ينقصان رمضان وذو الحجة وقال
اذا دخل رمضان فتحت أبواب الجنة وهذا كله في الصحيح وثبت عنه في أحاديث كثيرة
غير هذه أنه كان يقول رمضان بدون ذكر الشهر وقد ورد في فضل رمضان أحاديث كثيرة
(الذي أنزل فيه القرآن) أي ابتدئ فيه انزاله وكان ذلك ليلة القدر وقيل أنزل فيه من
اللوح المحفوظ الى سماء الدنيا ثم كان ينزل به جبريل نجما نجما الى الارض وقيل أنزل في
شأنه القرآن وهذه الآية أعم من قوله تعالى انا أنزلناه في ليلة القدر وقوله انا أنزلناه في
ليلة مباركة يعني ليلة القدر والقرآن اسم لكلام الله تعالى علم لما بين الدفتين وهو بمعنى
المقروء كالمشروب يسمى شرابا والمكتوب يسمى كتابا وقيل هو مصدر قرأ يقرأ ومنه قوله
تعالى وقرآن الفجر أي قراءة الفجر وعن الشافعي أنه قال القرآن اسم وليس بمهموز وليس
هو من القراءة ولكنه اسم لهذا الكتاب كالتوراة والانجيل فعلى هذا انه ليس بمشتق
وذهب الاكثرون الى أنه مشتق من القرء وهو الجمع فسمي قرآنا لانه يجمع السور
والآيات بعضها الى بعض ويجمع الاحكام والقصص والامثال والآيات الدالة على
وحدانية الله تعالى وقيل في معنى الآية الذي نزل بفرض صيامه القرآن كما تقول نزلت
هذه الآية في الصلاة والزكاة ونحو ذلك روى هذا عن مجاهد والضحاك وهو اختيار
الحسين بن الفضل وأخرج أحمد وابن جرير ومحمد بن نصر وابن أبي حاتم والطبراني
والبيهقي في الشعب عن واثلة بن الاسقع ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال أنزلت
صحف ابراهيم في أول ليلة من رمضان وأنزل الزبور لثماني عشرة خلت من رمضان وأنزل
الله القرآن لاربع وعشرين خلت من رمضان وأخرج أبو يعلى وابن مردويه عن
جابر مثله لكنه قال وأنزل الزبور لاثنى عشر وزاد وأنزلت التوراة لست خلون من
رمضان وأنزل الانجيل لثماني عشرة خلت من رمضان وعن ابن عباس قال انه أنزل
في ليلة القدر وفي ليلة مباركة جملة واحدة ثم أنزل بعد ذلك على مواقع النجوم
رسلا في الشهور والايام وعنه قال نزل القرآن جملة لاربع وعشرين من رمضان
فوضع في بيت العزة في السماء الدنيا فجعل جبريل ينزل على رسول الله صلى الله عليه وآله
وسلم ترتيلا وعنه انه قال ليلة القدر هي الليلة المباركة وهي في رمضان أنزل القرآن

عمر رضي الله عنهما انه سمع نبي الله صلى الله عليه وسلم يقول ان آدم عليه السلام لما أهبطه الله الى الارض قالت الملائكة أي رب
أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال اني أعلم ما لا تعلمون قالوا ربنا نحن أطوع لك من بني
آدم قال الله تعالى للملائكة هلموا ملكين من الملائكة حتى نهبطهما الى الارض فننظر كيف يعملان قالوا ربنا هاروت وماروت
فاهبطا الى الارض ومثلت لهما الزهرة امرأة من أحسن البشر فجاءتهما فسألاها نفسها فقالت لا والله حتى تكلما بهذه الكلمة
من الاشراك فقالا والله لا نشرك بالله شيأ أبدا فذهبت عنهما ثم رجعت بصبي تحمله فسألاها نفسها فقالت لا والله
حتى تقتلا هذا الصبي فقالا لا والله
لا نقتله أبدا فذهبت ثم رجعت
بقدح خمر تحمله فسألاها نفسها
فقالت لا والله حتى تشربا هذا الخمر
فشربا فسكرا فوقعا عليها وقتلا
الصبي فلما أفاقا قالت المرأة والله
ما تركتما شيأ أبيتماه علي الا قد
فعلتماه حين سكرتما فخيرا بين
عذاب الدنيا وعذاب الآخرة
فاختارا عذاب الدنيا وهكذا رواه
أبو حاتم بن حبان في صحيحه عن
الحسن عن سفيان عن أبي بكر بن
أبي شيبة عن يحيى بن بكير به وهذا
حديث غريب من هذا الوجه
ورجاله كلهم ثقات من رجال
الصحيحين الا موسى بن جبير هذا
وهو الانصاري السلمي مولاهم
المدني الحذاء وروى عن ابن عباس
وأبي امامة بن سهل بن حنيف ونافع
وعبد الله بن كعب بن مالك
وروى عنه ابنه عبد السلام وبكر
ابن مضر وزهير بن محمد وسعيد بن
سلمة وعبد الله بن لهيعة وعمرو بن
الحرث ويحيى بن أيوب وروى له
أبو داود وابن ماجه وذكره ابن أبي
حاتم في كتاب الجرح والتعديل ولم
يحك فيه شيأ من هذا ولا هذا فهو مستور الحال وقد تفرد به عن نافع مولى ابن عمر عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه
وسلم وروى له متابع من وجه آخر عن نافع كما قال ابن مردويه حدثنا دعلج بن أحمد حدثنا هشام بن علي بن هشام حدثنا عبد الله
ابن رجاء حدثنا سعيد بن سلمة حدثنا موسى بن سرجس عن نافع عن ابن عمر سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول فذكره بطوله
وقال أبو جعفر بن جرير رحمه الله حدثنا القاسم أخبرنا الحسين وهو سنيد بن داود صاحب التفسير أخبرنا الفرج بن فضالة عن
معاوية بن صالح عن نافع قال سافرت مع ابن عمر فلما كان من آخر الليل قال يا نافع انظر طلعت الحمراء قلت لا مرتين أو ثلاثا ثم قلت

قد طلعت قال لا مرحبا بها ولا أهلا قلت سبحان الله نجم مسخر سامع مطيع قال ما قلت لك الا ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم أو قال قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الملائكة قالت يارب كيف صبرك على بني آدم في الخطايا والذنوب قال اني ابتليتهم وعافيتكم قالوا لو كنا مكانهم ما عصيناك قال فاختاروا ملكين منكم قال فلم يألوا جهدا أن يختاروا فاختاروا هاروت وماروت وهذان أيضا غريبان جدا وأقرب ما يكون في هذا أنه من رواية عبد الله بن عمر عن كعب الاحبار لا عن النبي صلى الله عليه وسلم كما قال عبد الرزاق في تفسيره (٢٣٨) عن الثوري عن موسى بن عقبة عن سالم عن ابن عمر عن كعب الاحبار قال ذكرت الملائكة أعمال بني آدم وما يأتون من الذنوب فقيل لهم اختاروا منكم اثنين فاختاروا هاروت وماروت فقال لهما اني أرسل الى بني آدم رسلا وليس بيني وبينكم رسول انزلا لا تشركا بي شيأ ولا تزنيا ولا تشربا الخمر قال كعب فوالله ما أمسيا من يومهما الذي أهبطا فيه حتى استكملا جميع ما نهيا عنه رواه ابن جرير من طريقين عن عبد الرزاق به ورواه ابن أبي حاتم عن أحمد بن عصام عن مؤمل عن سفيان الثوري به ورواه ابن جرير أيضا حدثني المثنى أخبرنا المعلى وهو ابن أسد أخبرنا عبد العزيز بن المختار عن موسى بن عقبة حدثني سالم انه سمع عبد الله يحدث عن كعب الاحبار فذكره فهذا أصح وأثبت الى عبد الله بن عمر من الاسنادين المتقدمين وسالم أثبت في أبيه من مولاه نافع فدار الحديث ورجع الى نقل كعب الاحبار عن كتب بني اسرائيل والله أعلم

(ذكر الآثار الواردة في ذلك) عن الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أجمعين قال ابن جرير حدثني المثنى حدثنا الحجاج أخبرنا حماد عن خالد الحذاء عن عمير بن سعيد قال سمعت عليا رضي الله عنه يقول كانت الزهرة امرأة جميلة من أهل فارس وانها خاصمت الى الملكين هاروت وماروت فراوداها عن نفسها فأبت عليهما الا ان يعلماها الكلام الذي اذا تكلم به أحد يعرج به الى السماء فعلماها فتكلمت به فعرجت الى السماء فمسخت كوكبا وهذا الاسناد رجاله ثقات وهو غريب جدا وقال ابن أبي حاتم أخبرنا الفضل بن شاذان أخبرنا محمد بن عيسى أخبرنا ابراهيم بن موسى أخبرنا معاوية عن أبي خالد عن عمير بن سعيد عن علي رضي الله عنه قال هما ملكان من ملائكة السماء يعني وما أنزل على الملكين ورواه الحافظ

جملة واحدة من الذكر الى البيت المعمور ثم نزل به جبريل نجوما في ثلاث وعشرين سنة (هدى للناس) أي هاديا لهم من الضلال باعجازه (وبينات من الهدى) من عطف الخاص على العام اظهارا لشرف المعطوف بافراده بالذكر لأن القرآن يشمل محكمه ومتشابهه والبينات تختص بالمحكم منه قيل الهدى الاول في الاحكام الاعتقادية والهدى الثاني في الشرعية فهما متغايران (والفرقان) هو ما فرق بين الحق والباطل أي فصل (فمن شهد منكم الشهر) هذا من أنواع المجاز اللغوي وهو اطلاق اسم الكل على الجزء أطلق الشهر وهو اسم للكل وأراد جزأ منه وقد فسره علي وابن عمر أن من شهد أول الشهر (فليصمه) جميعه والمعنى ومن حضر ولم يكن في سفر بل كان مقيما فليصم فيه قال جماعة من السلف والخلف ان من أدركه شهر رمضان مقيما غير مسافر لزمه صيامه سافر بعد ذلك أو أقام واستدلوا بهذه الآية وقال الجمهور انه اذا سافر أفطر لأن معنى الآية انه حضر الشهر من أوله الى آخره لا اذا حضر بعضه وسافر فانه لا يتحتم عليه الا صوم ما حضره وهذا هو الحق وعليه دلت الادلة الصحيحة من السنة وقد كان يخرج صلى الله عليه وآله وسلم في رمضان فيفطر وقيل هو رؤية الهلال وليست قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته أخرجه الشيخان ولا خلاف أنه يصوم رمضان من رأى الهلال ومن أخبره ثم قيل يجزئ فيه خبر الواحد قاله أبو ثور وقيل خبر الجمع قاله مالك (ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر) قد تقدم تفسيره وانما كرره لأن الله تعالى ذكر في الآية الاولى تخيير المريض والمسافر والمقيم الصحيح ثم نسخه بقوله فمن شهد منكم الشهر فليصمه فلو اقتصر على هذا لاحتمل ان يشمل النسخ الجميع فأعاد بعد ذكر الناسخ الرخصة للمريض والمسافر ليعلم أن الحكم فيهما باق على ما كان عليه وقد أطال بعضهم في بيان مسائل المرض والسفر في تفسير هذه الآية والامر ظاهر (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) فلذلك أباح الفطر للمسافر والمريض وفيه ان هذا مقصد من مقاصد الرب سبحانه ومراد من مراداته في جميع أمور الدين ومثله قوله تعالى وما جعل عليكم في الدين من حرج وقد ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا وهو في الصحيح واليسر السهل الذي لا عسر فيه عن ابن عباس قال اليسر الافطار في السفر والعسر الصوم في السفر (ولتكملوا العدة)

أبو بكر بن مردويه في تفسيره بسنده عن مغيث عن مولاه جعفر بن محمد عن أبيه عن جده عن علي مرفوعا وهذا لا يثبت من هذا الوجه ثم رواه من طريقين آخرين عن جابر عن أبي الطفيل عن علي رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن الله الزهرة فإنها هي التي فتنت الملكين هاروت وماروت وهذا أيضا لا يصح وهو منكر جدا والله أعلم وقال ابن جرير حدثني المثنى بن ابراهيم أخبرنا الحجاج بن منهال حدثنا حماد عن علي بن زيد عن أبي عثمان النهدي عن ابن مسعود وابن عباس انهما قالا جميعا لما كثر بنو آدم وعصوا دعت الملائكة عليهم والارض والجبال ربنا لا تمهلهم فأوحى الله الى الملائكة اني أزلت الشهوة والشيطان من قلوبكم وأزلت الشهوة والشيطان في قلوبهم ولو نزلتم لفعلتم أيضا قال فحدثوا انفسهم ان لو ابتلوا اعتصموا فاوحى الله اليهم أن اختاروا ملكين من أفضلكم فاختاروا هاروت وماروت فأهبطا الى الارض وأنزلت الزهرة اليهما في صورة امرأة من أهل فارس يسمونها بيذخت قال فوقعا بالخطيئة فكانت الملائكة يستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فلما وقعا بالخطيئة استغفروا لمن في الارض ألا ان الله هو الغفور الرحيم فخيرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة فاختارا عذاب الدنيا وقال ابن أبي حاتم أخبرنا أبي أخبرنا عبد الله ابن جعفر الرقي أخبرنا عبيد الله يعني ابن عمرو عن زيد بن أبي أنيسة عن المنهال بن عمرو ويونس بن خباب عن مجاهد قال كنت نازلا على عبد الله بن عمر في سفر فلما كان ذات ليلة قال لغلامه انظر هل طلعت الحمراء لا مرحبا بها ولا أهلا ولا حياها الله هي صاحبة الملكين قالت الملائكة يارب كيف تدع عصاة بني آدم وهم يسفكون الدم الحرام وينتهكون محارمك ويفسدون في الارض قال اني ابتليتهم فلعل ان ابتليتكم بمثل الذي ابتليتهم به فعلتم كالذي يفعلون قالوا لا قال فاختاروا من خياركم اثنين فاختاروا هاروت وماروت فقال لهما اني مهبطكما الى الارض وعاهد اليكما ان لا تشركا ولا تزنيا ولا تخونا فأهبطا الى الارض وألقى عليهما الشهوة وأهبطت لهما الزهرة في أحسن صورة امرأة فتعرضت لهما فراوداها عن نفسها فقالت اني على دين لا يصلح لأحد ان يأتيني الا من كان على مثله قالا وما دينك قالت المجوسية قالا الشرك هذا شيء لا نقربه فمكثت عنهما ما شاء الله تعالى ثم تعرضت لهما

(العدة) قال في الكشاف علة للامر بمراعاة العدة عن الربيع قال عدة رمضان وقال الضحاك عدة ما أفطر المريض في السفر وقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته فان غم عليكم فأكملوا العدة ثلاثين يوما (ولتكبروا الله) علة لما علم من كيفية القضاء والخروج عن عهدة الفطر والمراد بالتكبير هنا هو قول القائل الله أكبر قال الجمهور ومعناه الحض على التكبير في آخر رمضان وقد وقع الخلاف في وقته فروى عن بعض السلف أنهم كانوا يكبرون ليلة الفطر وقيل اذا رأوا هلال شوال كبروا الى انقضاء الخطبة وقيل الى خروج الامام وقيل هو التكبير يوم الفطر قال مالك هو من حين يخرج من داره الى أن يخرج الامام وبه قال الشافعي وقال أبو حنيفة يكبر في الاضحى ولا يكبر في الفطر عن ابن مسعود أنه كان يكبر الله أكبر الله أكبر لا اله الا الله والله أكبر الله أكبر ولله الحمد وعن ابن عباس انه كان يكبر الله أكبر كبيرا الله أكبر كبيرا الله أكبر وأجل ولله الحمد الله أكبر على ما هدانا وعنه قال حق على الصائمين اذا نظروا الى شهر شوال أن يكبروا الله حتى يفرغوا من عيدهم لان الله تعالى يقول ولتكبروا الله (على ما هداكم) أي أرشدكم الى طاعته والى ما رضي به عنكم قيل على هنا على بابها من الاستعلاء كأنه قيل ولتكبروا الله حامدين على ما هداكم قاله الزمخشري الثاني انها بمعنى لام العلة والاول أولى لان المجاز في الحرف ضعيف وما في ماهداكم مصدرية أي على هدايته اياكم أو موصولة بمعنى الذي وفيه بعد (ولعلكم تشكرون) الله على نعمه وقد تقدم تفسيره وهو علة الترخيص والتيسير قاله في الكشاف وهذا نوع من اللف لطيف المسلك لا يكاد يهتدى الى تبينه الا النقاد من علماء البيان (واذا سألك عبادي عني) يحتمل أن يكون السؤال عن القرب والبعد كما يدل عليه قوله (فاني قريب) ويحتمل أن يكون السؤال عن اجابة الدعاء كما يدل على ذلك قوله اجيب دعوة الداع ويحتمل ان السؤال عما هو أعم من ذلك وهذا هو الظاهر مع قطع النظر عن السبب الذي أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه من طريق الصلت بن حكيم عن رجل من الانصار عن أبيه عن جده قال جاء رجل الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال يارسول الله أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه فسكت النبي صلى الله عليه وآله وسلم فنزلت هذه الآية وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن الحسن

ذراوداها عن نفسها فقالت ماشئتما غير أن لي زوجا وأنا أكره أن يطلع على هذا مني فافتضح فان أقررتما لي بديني وشرطتما لي ان
تصعدا بي الى السماء فعلت فأقرا لها بدينها وأتياها فيما يريان ثم صعدا بها الى السماء فلما انتهيا بها الى السماء اختطفت منهما
وقطعت أجنحتهما فوقعا خائفين نادمين يبكيان وفي الارض نبي يدعو بين الجمعتين فاذا كان يوم الجمعة أجيب فقالا لو أتينا فلانا
فسألناه فطلب لنا التوبة فأتياه فقال رحمكما الله كيف يطلب التوبة أهل الارض لاهل السماء قالا انا قد ابتلينا قال ائتياني يوم
الجمعة فأتياه فقال ما أجبت فيكما بشئ ائتياني في الجمعة الثانية فأتياه فقال اختارا فقد خيرتما ان اخترتما معافاة

الدنيا وعذاب الآخرة وان أحببتما فعذاب الدنيا وأنتما يوم القيامة على حكم الله فقال أحدهما ان الدنيا لم يمض منها الا القليل وقال الآخر ويحك اني قد أطعتك في الامر الاول فاطعني الآن ان عذابا يفنى ليس كعذاب يبقى فقال انا يوم القيامة على حكم الله فأخاف ان يعذبنا قال لا اني أرجو ان علم الله أنا قد اخترنا عذاب الدنيا مخافة عذاب الآخرة ان لا يجمعهما علينا قال فاختارا عذاب الدنيا فجعلا في بكرات من حديد في قليب مملوءة من نار عاليهما سافلهما وهذا اسناد جيد الى عبد الله بن عمر وقد تقدم في رواية ابن جرير من حديث معاوية بن صالح عن نافع عنه رفعه وهذا أثبت وأصح اسنادا ثم هو والله أعلم من رواية ابن عمر عن كعب كما تقدم بيانه من رواية سالم عن أبيه وقوله ان الزهرة نزلت في صورة امرأة حسناء وكذا في المروي عن علي فيه غرابة جدا وأقرب ما ورد في ذلك ما قال ابن أبي حاتم أخبرنا عصام بن رواد أخبرنا آدم أخبرنا أبو جعفر حدثنا
الربيع بن أنس عن قيس بن عباد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال لما وقع الناس من بعد آدم عليه السلام
فيما وقعوا فيه من المعاصي والكفر بالله قالت الملائكة في السماء يارب هذا العالم الذي انما خلقتهم لعبادتك وطاعتك قد وقعوا
فيما وقعوا فيه وركبوا الكفر وقتل النفس وأكل المال الحرام والزنا والسرقة وشرب الخمر فجعلوا يدعون عليهم ولا يعذرونهم
فقيل انهم في غيب فلم يعذروهم فقيل لهم اختاروا من أفضلكم ملكين آمرهما وأنهاهما فاختاروا هاروت وماروت فاهبطا
الى الارض وجعل لهما شهوات بني آدم وأمرهما الله ان يعبداه ولا يشركا به شيأ ونهيا عن قتل النفس الحرام وأكل المال الحرام

قال سأل أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم أين ربنا فأنزل الله هذه الآية وأخرج ابن مردويه عن انس انه سأل أعرابي النبي صلى الله عليه وآله وسلم أين ربنا فنزلت وعن ابن عباس قال قال يهود المدينة يا محمد صلى الله عليه وآله وسلم كيف يسمع ربنا دعاءنا وانت تزعم أن بيننا وبين السماء خمسمائة عام وان غلظ كل سماء مثل ذلك فنزلت هذه الآية وقيل انهم سألوه في اي ساعة ندعو ربنا فنزلت والقرب قيل بالاجابة وقيل بالعلم وقيل بالانعام وقال في الكشاف انه تمثيل لحاله في سهولة اجابته لمن دعاه وسرعة انجاحه حاجة من سأله بمن قرب مكانه فاذا دعي اسرعت تلبيته قيل والقرب استعارة تبعية تمثيلية والا فهو متعال عن القرب الحسي لتعاليه عن المكان ونظيره ونحن اقرب اليه من حبل الوريد قاله الكرخي والحق ان القرب من الصفات نؤمن به ونمره على ما جاء ولا نؤول ولا نعطل وعن ابي موسى الاشعري قال لما غزا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خيبر أو قال توجه الى خيبر أشرف الناس على واد فرفعوا أصواتهم بالتكبير الله اكبر لا اله الا الله فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ايها الناس اربعوا على انفسكم فانكم لا تدعون أصم ولا غائبا انكم تدعون سميعا بصيرا قريبا وهو معكم اخرجه البخاري ومسلم ومعنى اربعوا ارفقوا بها وقيل أمسكوا عن الجهر فانه قريب يسمع دعاءكم (اجيب دعوة الداع اذا دعان) معنى الاجابة هو معنى ما في قوله تعالى ادعوني أستجب لكم وقيل معناه اقبل عبادة من عبدني بالدعاء لما ثبت عنه صلى الله عليه وآله وسلم من ان الدعاء هو العبادة كما اخرجه أبو داود وغيره من حديث النعمان بن بشير والظاهر ان الاجابة هنا هي باقية على معناها اللغوي وكون الدعاء من العبادة لا يستلزم ان الاجابة هي القبول للدعاء أي جعله عبادة متقبلة فالاجابة امر آخر غير قبول هذه العبادة والمراد أن الله سبحانه يجيب بما شاء وكيف شاء فقد يحصل المطلوب قريبا وقد يحصل بعيدا وقد يدفع عن الداعي من البلاء ما لا يعلمه بسبب دعائه وهذا مقيد بعدم اعتداء الداعي في دعائه كما في قوله سبحانه ادعوا ربكم تضرعا وخفية انه لا يحب المعتدين ومن الاعتداء أن يطلب ما لا يستحقه ولا يصلح له كمن يطلب منزلة في الجنة مساوية لمنزلة الانبياء أو فوقها وقد ثبت في الصحيحين من حديث أبي سعيد ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال ما من مسلم يدعو الله بدعوة ليس فيها اثم ولا قطيعة رحم الا أعطاه الله بها احدى ثلاث خصال

خصال اما أن يعجل له دعوته واما أن يدخرها له في الآخرة واما أن يصرف عنه من السوء مثلها وثبت في الصحيح أيضا من حديث أبي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال يستجاب لاحدكم مالم يعجل يقول دعوت فلم يستجب لي (فليستجيبوا لي) أي كما أجبتهم اذا دعوني فليستجيبوا لي فيما دعوتهم اليه من الايمان والطاعات وقيل معناه انهم يطلبون اجابة الله سبحانه لدعائهم باستجابتهم له أي القيام بما أمرهم به والترك لما نهاهم عنه وقال مجاهد أي فليطيعوني والاجابة في اللغة الطاعة من العبد والاثابة والعطاء من الله (وليؤمنوا بي) اللام فيه للامر كما في ماقبله أي وليدوموا على الايمان (لعلهم يرشدون) أي يهتدون قاله الربيع بن أنس والرشد خلاف الغي قال الهروي الرشد والرشد والرشاد الهدى والاستقامة ومنه هذه الآية وقد ورد في فضل الدعاء وآدابه أحاديث كثيرة تذكرها أهل التفسير وهي في الصحاح والسنن لا نطول بذكرها (أحل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم) فيه دلالة على ان هذا الذي أحله الله كان حراما عليهم وهكذا كان كما يفيده السبب لنزول الآية فقد أخرج البخاري وأبو داود والنسائي وغيرهم عن البراء بن عازب قال كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اذا كان الرجل صائما فحضر الافطار فنام قبل أن يفطر لم يأكل ليلته ولا يومه حتى يمسي وان قيس بن صرمة الانصاري كان صائما فكان يومه ذلك يعمل في أرضه فلما حضر الافطار أتى امرأته فقال هل عندكم طعام قالت لا ولكن انطلق فاطلب ذلك فغلبته عينه فنام وجاءت امرأته فلما رأته نائما قالت خيبة لك أنمت فلما انتصف النهار غشي عليه فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وآله وسلم فنزلت هذه الآية الى قوله من الفجر ففرحوا بها فرحا شديدا والرفث كناية عن الجماع وعن ابن عباس قال الدخول والتغشي والافضاء والمباشرة والرفث واللمس والمس هذا الجماع غير أن الله حيي كريم يكني بما شاء عما شاء قال الزجاج الرفث كلمة جامعة لكل مايريد الرجل من امرأته وكذا قال الازهري وقيل الرفث أصله قول الفحش رفث وأرفث اذا تكلم بالقبيح وليس هو المراد هنا وعدى الرفث بالى لتضمينه معنى الافضاء (هن لباس لكم وأنتم لباس لهن) تعليل لما قبله وجعل النساء لباسا للرجال والرجال لباسا لهن لامتزاج كل واحد منهما بالآخر عند الجماع كالامتزاج الذي يكون بين الثوب ولابسه قال أبو عبيدة وغيره

وعن الزنا والسرقة وشرب الخمر فلبثا في الارض زمانا يحكمان بين الناس بالحق وذلك في زمن ادريس عليه السلام وفي ذلك الزمان امرأة حسنها في النساء كحسن الزهرة في سائر الكواكب وانهما أتيا عليها فخضعا لها في القول وأراداها على نفسها فأبت الا ان يكونا على أمرها وعلى دينها فسألاها عن دينها فأخرجت لهما صنما فقالت هذا أعبده فقالا لا حاجة لنا في عبادة هذا فذهبا فغبرا ماشاء الله ثم أتيا عليها فأراداها على نفسها ففعلت مثل ذلك فذهبا ثم أتيا عليها فأراداها على نفسها فلما رأت انهما قد أبيا أن يعبدا الصنم قالت لهما اختارا أحد الخلال الثلاث اما أن تعبدا هذا الصنم واما أن تقتلا هذه النفس واما أن تشربا هذا الخمر فقالا كل هذا لا ينبغي وأهون هذا شرب الخمر فشربا الخمر فأخذت فيهما فواقعا المرأة فخشيا ان يخبر الانسان عنهما فقتلاه فلما ذهب عنهما السكر وعلما ماوقعا فيه من الخطيئة أرادا أن يصعدا الى السماء فلم يستطيعا وحيل بينهما وبين ذلك وكشف الغطاء فيما بينهما وبين أهل السماء فنظرت الملائكة الى ماوقعا فيه فعجبوا كل العجب وعرفوا انه من كان في غيب فهو أقل خشية فجعلوا بعد ذلك يستغفرون لمن في الارض فنزل في ذلك والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الارض فقيل لهما اختارا عذاب الدنيا أو عذاب الآخرة فقالا أما عذاب الدنيا فانه ينقطع ويذهب وأما عذاب الآخرة فلا انقطاع له فاختارا عذاب الدنيا فجعلا ببابل فهما يعذبان وقد رواه الحاكم في مستدركه مطولا عن أبي زكريا العنبري عن محمد بن عبد السلام عن اسحق بن راهويه عن حكام ابن سالم الرازي وكان ثقة عن أبي جعفر الرازي به ثم قال صحيح الاسناد

ولم يخرجاه فهذا أقرب ماروى في شأن الزهرة والله أعلم وقال ابن أبي حاتم أخبرنا أبي أخبرنا مسلم أخبرنا القاسم بن الفضل الحداني أخبرنا يزيد يعني الفارسي عن ابن عباس ان أهل سماء الدنيا أشرفوا على أهل الارض فرأوهم يعملون بالمعاصي فقالوا يارب أهل الارض كانوا يعملون بالمعاصي فقال الله أنتم معي وهم في غيب عني فقيل لهم اختاروا منكم ثلاثة فاختاروا منهم ثلاثة على أن يهبطوا الى الارض على أن يحكموا بين أهل الارض وجعل فيهم شهوة الآدميين فأمروا أن لا يشربوا خمرا ولا يقتلوا نفسا ولا يزنوا ولا يسجدوا للوثن فاستقال منهم واحد فأقيل فأهبط اثنان الى الارض فأتتهما امرأة من

أحسن الناس فقال لها ما شأنك قالت لي زوج وأنا أريد أن أتخلص منه ثم أتيا منزلها فاجتمعا عندها فأرادا منها فقالت لهما لا حتى تشربا خمرا وتقتلا ابن جاري وتسجدا لوثني فقالا لا نسجد ثم شربا من الخمر ثم قتلا ثم سجدا فأشرف أهل السماء عليهم وقالت لهما أخبراني بالكلمة التي إذا قلتماها طرتما فأخبراها فطارت فمسخت جمرة وهي هذه الزهرة وأما هما فأرسل إليهما سليمان بن داود فخيرهما بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة فاختارا عذاب الدنيا فهما مناطان بين السماء والأرض وهذا السياق فيه زيادة كثيرة وإغراب ونكارة والله أعلم بالصواب وقال عبد الرزاق قال معمر (٢٤٢) قال قتادة والزهري عن عبيد الله بن عبد الله وبه قال ابن على المنكرين أنهما هاروت وماروت كانا ملكين من الملائكة فأهبطا ليحكما بين الناس وذلك أن الملائكة سخروا من حكام بني آدم فحاكمت إليهما امرأة فخافا لها ثم ذهبا يصعدان فحيل بينهما وبين ذلك ثم خيرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة فاختارا عذاب الدنيا وقال معمر قال قتادة فكانا يعلمان الناس السحر فأخذ عليهما أن لا يعلمان أحدا حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر وقال أسباط عن السدي أنه قال كان من أمر هاروت وماروت أنهما طعنا على أهل الأرض في أحكامهم فقيل لهما إني أعطيت بني آدم عشرا من الشهوات فبها يعصونني قال هاروت وماروت ربنا لو أعطيتنا تلك الشهوات ثم نزلنا لحكمنا بالعدل فقال لهما انزلا فقد أعطيتكما تلك الشهوات العشر فاحكما بين الناس فنزلا ببابل دنباوند فكانا يحكمان حتى إذا أمسيا عرجا فإذا أصبحا هبطا فلم يزالا كذلك حتى أتتهما امرأة تخاصم زوجها فأعجبهما حسنها واسمها بالعربية الزهرة وبالنبطية بيذخت وبالفارسية أناهيد فقال أحدهما لصاحبه إنها لتعجبني قال الآخر قد أردت أن أذكر لك فاستحييت منك فقال الآخر هل لك أن أذكرها لنفسها قال نعم ولكن كيف لنا بعذاب الله قال الآخر إنا نرجو رحمة الله فلما جاءت تخاصم زوجها ذكرا إليها نفسها فقالت لا حتى تقضيا لي على زوجي فقضيا لها على زوجها ثم واعدتهما خربة من الخرب يأتيانها فيها فأتياها لذلك فلما أراد الذي يواقعها قالت ما أنا بالذي أفعل حتى تخبراني بأي كلام تصعدان إلى السماء وبأي كلام تنزلان منها فأخبراها فتكلمت فصعدت فأنساها الله تعالى ما تنزل به فثبتت مكانها وجعلها الله كوكبا فكان عبد الله بن عمر كلما رآها لعنها وقال هذه

تدل المرأة لباس وفراش وإزار وقيل إنه جعل كل واحد منهما لباسا لأخر لأنه يستره عند الجماع عن أعين الناس وعن ابن عباس هن سكن لكم وأنتم سكن لهن قيل لا يسكن شيء إلى شيء كسكون إحدى الزوجين إلى الآخر وقد روي في سبب نزول هذه الآية أحاديث عن جماعة من الصحابة نحو ما قاله البراء (علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم) أي تخونونها بالمباشرة في ليالي الصوم يقال خان واختان بمعنى وهما من الخيانة قال القتيبي أصل الخيانة أن يؤتمن الرجل على شيء فلا يؤدي الأمانة فيه انتهى وإنما سماهم خائنين لأنفسهم لأن ضرر ذلك عائد عليهم (فتاب عليكم) يحتمل معنيين أحدهما قبول التوبة من خيانتهم لأنفسهم والآخر التخفيف عنهم بالرخصة والإباحة كقوله علم أن لن تحصوه فتاب عليكم يعني خفف عنكم وكقوله فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله يعني تخفيفا وهكذا قوله (وعفا عنكم) يحتمل العفو من الذنب ويحتمل التوسعة والتسهيل (فالآن) قال أبو البقاء الآن حقيقة الوقت الذي أنت فيه وقد يقع على الماضي القريب منك وعلى المستقبل القريب تنزيلا للقريب منزلة الحاضر وهو المراد هنا وقد تقدم الكلام على الآن (باشروهن) أي جامعوهن فهو حلال لكم في ليالي الصوم وسميت المجامعة مباشرة لتلاصق بشرة كل واحد بصاحبه قيل هذا الأمر للإباحة بعد الحظر وفيه دليل على جواز نسخ الكتاب بالسنة (وابتغوا ما كتب الله لكم) تأكيد لما قبله أو تأسيس والثاني أولى أي ابتغوا بمباشرتهن لكم حصول ما هو معظم المقصود من النكاح وهو حصول النسل والولد قيل فيه نهي عن العزل وقيل عن غير المأتي والتقدير وابتغوا المحل الذي كتب الله لكم وقيل المراد ابتغوا القرآن بما أبيح لكم فيه قاله الزجاج وغيره وقيل ابتغوا الرخصة والتوسعة وقيل ابتغوا ما كتب لكم من الإماء والزوجات وقيل ابتغوا ليلة القدر وقيل غير ذلك مما لا يفيده النظم القرآني ولا دل عليه دليل آخر وقرأ الحسن البصري واتبعوا بالعين المهملة من الاتباع (وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر) هو تشبيه بليغ والمراد هنا بالخيط الأبيض هو المعترض في الأفق لا الذي هو كذنب السرحان فإنه الفجر الكذاب الذي لا يحل شيئا ولا يحرمه والمراد بالخيط الأسود سواد الليل والتبين أن يمتاز أحدهما عن الآخر وذلك لا يكون إلا عند دخول وقت الفجر

التى فتنت هاروت وماروت فلما كان الليل أرادا ان يصعدا فلم يطيقا فعرفا الهلكة فخيرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة فاختارا عذاب الدنيا فعلقا ببابل وجعلا يكلمان الناس كلامهما وهو السحر وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد أما شأن هاروت وماروت فان الملائكة عجبت من ظلم بنى آدم وقد جاءتهم الرسل والكتب والبينات فقال لهم ربهم تعالى اختاروا منكم ملكين أنزلهما يحكمان فى الارض فاختاروا فلم يألوا هاروت وماروت فقال لهما حين أنزلهما أعجبتم من بنى آدم من ظلمهم ومعصيتهم وانما تأتيهم الرسل والكتب من وراء وراء وانكما ليس بينى و بينكما رسول فافعلا • كذا وكذا ودعا كذا وكذا فأمرهما بأمور ونهاهما ثم نزلا على ذلك ليس أحد أطوع لله منهما فحكما فعدلا فكانا يحكمان فى النهار بين بنى آدم فاذا أمسيا عرجا فكانا مع الملائكة و ينزلان حين يصبحان فيحكمان فيعدلان حتى أنزلت عليهما الزهرة فى أحسن صورة امرأة تخاصم فقضيا عليها فلما قامت وجد كل واحد منهما فى نفسه فقال أحدهما لصاحبه وجدت مثل الذى وجدت قال نعم فبعثا اليها ان ائتيانا نقض لك فلما رجعت قالا وقضيا لها فاتتهما فكشفا لها عن عورتيهما وانما كانت سوآتهما فى أنفسهما ولم يكونا كبنى آدم فى شهوة النساء ولذاتها فلما بلغا ذلك واستحلا افتتنا فطارت الزهرة فرجعت حيث كانت فلما أمسيا عرجا فزجرا فلم يؤذن لهما ولم تحملهما أجنحتهما فاستغاثا برجل من بنى آدم فاتياه فقالا ادع لنا ربك فقال كيف يشفع أهل الارض لاهل السماء قالا سمعنا ربك يذكرك بخير فى السماء فوعدهما يوما وغدا يدعو لهما . فدعا لهما فاستجيب له فخيرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة فنظر أحدهما الى صاحبه فقال ألا تعلم ان أفواج عذاب الله فى الآخرة كذا وكذا فى الخلد وفى الدنيا تسع مرات مثلها فأمرا أن ينزلا ببابل فثم عذابهما وزعم انهما معلقان فى الحديد مطويان يصفقان بأجنحتهما وقد روى فى قصة هاروت وماروت عن جماعة من التابعين كمجاهد والسدى والحسن البصرى وقتادة وأبى العالية والزهرى والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان وغيرهم وقصها خلق من المفسرين من المتقدمين والمتأخرين وحاصلها راجع فى تفصيلها الى أخبار بنى اسرائيل اذ ليس فيها حديث مرفوع صحيح متصل الاسناد الى الصادق المصدوق المعصوم الذى لا ينطق عن الهوى وظاهر سياق

الفجر أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن سهل بن سعد قال كان رجال اذا أرادوا الصوم ربط أحدهم فى رجليه الخيط الابيض والخيط الاسود فلا يزال يأكل ويشرب حتى يتبين له رؤيتهما فأنزل الله من الفجر فعلموا انه يعنى الليل من النهار وفى الصحيحين وغيرهما عن عدى بن حاتم انه جعل تحت وسادته خيطين أبيض وأسود جعل ينظر اليهما فلا يتبين له الابيض من الاسود فغدا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأخبره فقال ان وسادك اذن لعريض انما ذلك بياض النهار من سواد الليل وفى رواية فى البخارى وغيره انه قال له انك لعريض العقل وفى رواية عند ابن جرير وابن أبى حاتم انه ضحك منه قيل من الاولى لابتداء الغاية والثانية للبيان قاله السيوطى وقال الزمخشرى وغيره الثانية للتبعيض أى حال كون الخيط الابيض بعضا من الفجر وفى تجويز المباشرة الى الصبح دلالة على جواز تأخير الغسل اليه وصحة صوم من أصبح جنبا (ثم أتموا الصيام الى الليل) أمر وهو للوجوب وهو يتناول كل الصيام عند أبى حنيفة وقال الشافعية انما ورد هذا فى بيان أحكام صوم الفرض ويدل على اباحة الفطر من النفل حديث عائشة فى مسلم وفيه أهذى لنا حيس قال أرنيه فلقد أصبحت صائما فأكل وقيل للوجوب فى صوم الفرض وللندب فى صوم النفل وقيل للوجوب فيهما وفى الآية التصريح بأن للصوم غاية هى الليل فعند اقبال الليل من المشرق وادبار النهار من المغرب يفطر الصائم ويحل له الاكل والشرب وغيرهما (ولا تباشروهن) قيل المراد بالمباشرة هنا الجماع وقيل يشمل التقبيل واللمس اذا كانا بشهوة لا اذا كانا بغير شهوة فهما جائزان كما قاله عطاء والشافعى وابن المنذر وغيرهم وعلى هذا يحمل ما حكاه ابن عبد البر من الاجماع على أن المعتكف لا يباشر ولا يقبل فتكون هذه الحكاية للاجماع مقيدة بأن يكون بشهوة (وأنتم عاكفون فى المساجد) الاعتكاف فى اللغة الملازمة يقال عكف على الشئ اذا لازمه ولما كان المعتكف يلازم المسجد قيل له عاكف فى المسجد ومعتكف فيه لانه يحبس نفسه لهذه العبادة فى المسجد والاعتكاف فى الشرع ملازمة طاعة مخصوصة على شرط مخصوص وقد وقع الاجماع على أنه ليس بواجب وعلى أنه لا يكون الا فى المسجد بين سبحانه فى هذه الآية أن الجماع يحرم على المعتكف فى النهار والليل حتى يخرج من اعتكافه وللاعتكاف أحكام مستوفاة فى كتب الفقه وشروح الحديث وأقول ان قوله

القرآن اجمال القصة من غير بسط ولا اطناب فيها فنحن نؤمن بما ورد في القرآن على ما أراده الله تعالى والله أعلم بحقيقة الحال
وقد ورد في ذلك أثر غريب وسياق عجيب في ذلك أحببنا أن ننبه عليه قال الامام أبو جعفر بن جرير رحمه الله تعالى أخبرنا الربيع
ابن سليمان أخبرنا ابن وهب أخبرني ابن أبي الزناد حدثني هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم
انها قالت قدمت على امرأة من أهل دومة الجندل جاءت تبتغي رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد موته حداثة ذلك تسأله عن
أشياء دخلت فيه من أمر السحر ولم تعمل به قالت عائشة رضي الله عنها لعروة يا ابن أختي فرأيتها تبكي حين (٢٤٤)
لم تجد رسول الله صلى الله عليه
وسلم فيشفيها فكانت تبكي حتى
اني لارحمها وتقول اني أخاف ان
أكون قد هلكت كان لي زوج
فغاب عني فدخلت على عجوز
فشكوت ذلك اليها فقالت ان فعلت
ما آمرك به فاجعله يأتيك فلما
كان الليل جاءتني بكلبين أسودين
فركبت أحدهما وركبت الآخر
فلم يكن شيء حتى وقفنا ببابل واذا
برجلين معلقين بأرجلهما فقالا
ما جاء بك قلت نتعلم السحر فقالا انما
نحن فتنة فلا تكفري فارجعي
فأبيت وقلت لا قالا فاذهبي الى
ذلك التنور فبولي فيه فذهبت
ففزعت ولم أفعل فرجعت اليهما
فقالا أفعلت فقلت نعم فقالا هل
رأيت شيأ فقلت لم أر شيأ فقالا لم
تفعلي ارجعي الى بلادك ولا تكفري
فأربيت وأبيت فقالا اذهبي الى ذلك
التنور فبولي فيه فذهبت فاقشعررت
وخفت ثم رجعت اليهما وقلت
قد فعلت فقالا فما رأيت فقلت لم أر
شيأ فقالا كذبت لم تفعلي ارجعي
الى بلادك ولا تكفري فانك على
رأس أمرك فاربيت وأبيت فقالا
اذهبي الى ذلك التنور فبولي فيه فذهبت اليه فبلت فيه فرأيت فارسا مقنعا بحديد خرج مني فذهب في السماء
وغاب حتى ما أراه فجئتهما فقلت قد فعلت فقالا فما رأيت قلت رأيت فارسا مقنعا خرج مني فذهب في السماء حتى ما أراه فقالا
صدقت ذلك ايمانك خرج منك اذهبي فقلت للمرأة والله ما أعلم شيأ وما قالا لي شيأ فقالت بلى لم تريدي شيأ الا كان خذي هذا
القمح فابذري فبذرت وقلت اطلعي فاطلع وقلت احقلي فاحقلت ثم قلت افركي فافركت ثم قلت ايبسي فايبست ثم قلت اطحني
فاطحنت ثم قلت اخبزي فاخبزت فلما رأيت اني لا اريد شيأ الا كان سقط في يدي وندمت والله يا أم المؤمنين ما فعلت شيأ ولا أفعله ابدا

تعالى ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد جملة انشائية نهيية مسوقة لتحريم
مباشرة النساء في حال الاعتكاف في المساجد فقوله في المساجد متعلق بقوله عاكفون
وليست لبيان النهي عن مباشرة النساء في المساجد من غير فرق بين المعتكف وغيره
ولو كان كذلك لم تكن لقوله وأنتم عاكفون فائدة ثم هذا الاعتكاف المذكور في الآية
قد بينه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لامته باعتكافه غير مرة هو وزوجاته
وأصحابه بحضره فكان صلى الله عليه وآله وسلم اذا أراد الاعتكاف أمر بخبائه
فضرب في المسجد كما ثبت في الصحيحين وغيرهما ثم أقام فيه لا يخرج منه الا لحاجة
الانسان ويعود مسرعا لا يعود مريضا ولا يشتغل بشيء كما ثبت في دواوين الاسلام فهذا
هو الاعتكاف الشرعي الذي علمنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومن زعم أن
المراد به مطلق اللبث ولو في غير المسجد نظرا الى أصل معناه اللغوي فقد قدم الحقيقة
اللغوية على الحقيقة الشرعية وهو خلاف ما تقرر في الاصول بل خلاف ما عليه أهل
العلم سلفا وخلفا ولو كان الاعتكاف المشروع هو مجرد اللبث ولو في غير المسجد لكان
اللابث في داره وفي سوقه وفي المصاطب ونحوها معتكفا اذا حصلت منه النية وهذا
خلاف ما في القرآن الكريم وخلاف ما ثبت تواترا في السنة المطهرة وخلاف ما فهمه
المسلمون من هذه العبادة بل خلاف ما ورد عنه صلى الله عليه وآله وسلم من قوله كما في
سنن سعيد بن منصور من حديث ابن مسعود قال لقد علمت أن رسول الله صلى الله عليه
وآله وسلم قال لا اعتكاف الا في المساجد الثلاثة أو قال الا في مسجد جماعة وأما ما فهمه
بعض الناس من جواز الوطء للمعتكف في غير المسجد فيرده ما رواه أبو داود عن عائشة
رضي الله تعالى عنها قالت السنة على المعتكف أن لا يعود مريضا ولا يشهد جنازة ولا يمس
امرأة ولا يباشرها ولا يخرج لحاجة الا لما لا بد منه ولا اعتكاف الا بصوم ولا اعتكاف
الا في مسجد جامع وقد تقرر أن قول الصحابي من السنة كذا والسنة له حكم الرفع وهذا
الحديث كما يدل على تحريم الوطء على المعتكف يدل على أنه لا اعتكاف الا في مسجد
جامع فهو يرد عليه من جهتين وقد ذكر الشوكاني الكلام على هذا الحديث في شرحه
على المنتقى فليرجع اليه (تلك حدود الله فلا تقربوها) أي هذه الاحكام حدود الله وأصل
الحد المنع ومنه سمي البواب والسجان حدادا وسميت الاوامر والنواهي حدود الله لانها

ورواه ابن ابي حاتم عن الربيع بن سليمان به مطولا كما تقدم وزاد بعد قولها ولا افعله ابدا فسالت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حداثة وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يومئذ متوافرون فما دروا ما يقولون لها وكلهم هاب وخاف ان يفتيها بما لا يعلمه الا انه قد قال لها ابن عباس أو بعض من كان عنده لو كان ابواك حيين او احدهما قال هشام فلو جاءتنا أفتيناها بالضمان قال ابن ابي الزناد وكان هشام يقول انهم كانوا من اهل الورع والخشية من الله ثم يقول هشام لو جاءتنا مثلها اليوم لوجدت نوكى أهل حمق وتكلف بغير علم فهذا اسناد جيد الى عائشة رضى الله عنها وقد استدل

بهذا الاثر من ذهب الى ان الساحر له تمكن فى قلب الاعيان لان هذه المرأة بذرت واستغلت فى الحال وقال آخرون بل ليس له قدرة الا على التخييل كما قال تعالى سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاؤا بسحر عظيم وقال تعالى يخيل اليه من سحرهم أنها تسعى واستدل به على ان بابل المذكورة فى القرآن هى بابل العراق لا بابل ديناوند كما قاله السدى وغيره ثم الدليل على انها بابل العراق ما قال ابن ابى حاتم اخبرنا على بن الحسين اخبرنا احمد ابن صالح حدثنى ابن وهب حدثنى ابن لهيعة ويحيى بن أزهر عن عمار ابن سعد المرادى عن أبى صالح الغفارى ان على بن أبى طالب رضى الله عنه مر ببابل وهو يسير فجاء المؤذن يؤذنه بصلاة العصر فلما برز منها أمر المؤذن فأقام الصلاة فلما فرغ قال ان حبيبى صلى الله عليه وسلم نهانى ان أصلى بأرض المقبرة ونهانى ان اصلى ببابل فانها ملعونة وقال ابو داود اخبرنا سليمان بن داود أخبرنا ابن وهب ويحيى بن أزهر عن عمار بن سعد المرادى عن ابى صالح الغفارى ان على امر ببابل وهو يسير فجاءه المؤذن يؤذنه بصلاة العصر فلما برز منها امر المؤذن فاقام الصلاة فلما فرغ قال ان حبيبى صلى الله عليه وسلم نهانى ان اصلى فى المقبرة ونهانى ان اصلى بأرض بابل فانها ملعونة حدثنا أحمد بن صالح حدثنا ابن وهب اخبرنى يحيى بن أزهر وابن لهيعة عن حجاج بن شداد عن ابى صالح الغفارى عن على بمعنى حديث سليمان بن داود قال فلما خرج منها برز وهذا الحديث حسن عند الامام ابى داود لانه رواه وسكت عليه ففيه من الفقه كراهية الصلاة بأرض بابل كما تكره بديار ثمود الذين نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الدخول الى منازلهم الا ان يكونوا باكين قال اصحاب الهيئة وبعد ما بين بابل وهى من اقليم

تمنع أن يدخل فيها ما ليس منها وأن يخرج عنها ما هو منها ومن ذلك سميت الحدود حدودا لانها تمنع أصحابها من العود ومعنى النهى عن قربانها النهى عن تعديها بالمخالفة لها وقيل ان حدود الله هى محارمه فقط ومنها المباشرة من المعتكف والافطار فى رمضان لغير عذر وغير ذلك مما سبق النهى عنه ومعنى النهى عن قربانها على هذا واضح وقيل حدود الله فرائض الله وقيل المقادير التى قدرها ومنع من مخالفتها (كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون) أى كما بين لكم هذه الحدود يبين لكم معالم دينه وأحكام شريعته والعلامات الهادية الى الحق (ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل) هذا يعم جميع الامة وجميع الاموال لا يخرج عن ذلك الا ما ورد دليل الشرع بانه يجوز أخذه فانه مأخوذ بالحق لا بالباطل ومأكول بالحل لا بالاثم وان كان صاحبه كارها كقضاء الدين اذا امتنع منه من هو عليه وتسليم ما أوجبه الله من الزكاة ونحوها ونفقة من أوجب الشرع نفقته والحاصل أن ما لم يبح الشرع أخذه من مالكه فهو مأكول بالباطل وان طابت به نفس مالكه كمهر البغى وحلوان الكاهن وثمن الخمر والملاهى وأجرة المغنى والقمار والرشوة فى الحكم وشهادة الزور والخيانة فى الوديعة والامانة والاكل بطريق التعدى والنهب والغصب والباطل فى اللغة الذاهب الزائل والمعنى بالسبب الباطل أو مبطلين أو متلبسين بالباطل عن ابن عباس قال هذا فى الرجل يكون عليه مال وليس عليه بينة فيجحد المال ويخاصم الى الحكام وهو يعرف أن الحق عليه وقال مجاهد معناها لا تخاصم وأنت تعلم أنك ظالم (وتدلوا بها الى الحكام) مجزوم عطفا على تأكلوا فهو من جملة المنهى عنه أى لا تلقوا أمور تلك الاموال التى فيها الحكومة الى الحكام يقال أدلى الرجل بحجته أو بالامر الذى يرجو النجاح به تشبيها بالذى يرسل الدلو فى البئر يقال أدلى دلوه أرسلها والمعنى أنكم لا تجمعوا بين أكل الاموال بالباطل وبين الادلاء بها الى الحكام بالحجج الباطلة والمعنى لا تسرعوا بالخصومة فى الاموال الى الحكام ليعينوكم على ابطال حق أو تحقيق باطل وأما الاسراع بها لتحقيق الحق فليس مذموما وفى هذه الآية دليل أن حكم الحاكم لا يحلل الحرام ولا يحرم الحلال من غير فرق بين الاموال والفروج فمن حكم له القاضى بشىء مستندا فى حكمه الى شهادة زور أو يمين فاجرة فلا يحل له أكله فان ذلك من أكل أموال الناس بالباطل وهكذا اذا أرشى الحاكم فحكم له بغير الحق فانه من أكل أموال

العراق عن البحر المحيط الغربي ويقال له اوقيانوس سبعون درجة ويسمون هذا طولا واما عرضها وهو بعد ما بينها وبين وسط الارض من ناحية الجنوب وهو المسامت لخط الاستواء اثنان وثلاثون درجة والله اعلم وقوله تعالى وما يعلمان من أحد حتى يقولا انما نحن فتنة فلا تكفر قال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن انس عن قيس بن عباد عن ابن عباس قال فاذا أتاهما الآتي يريد السحر نهياه اشد النهي وقالا له انما نحن فتنة فلا تكفر وذلك انهما علما الخير والشر والكفر والايمان فعرفا ان السحر من الكفر قال فاذا أبى عليهما أمراه ان يأتي (٢٤٦) مكان كذا وكذا فاذا أتاه عاين الشيطان فعلمه فاذا تعلمه خرج منه النور فنظر اليه ساطعا في السماء فيقول يا حسرتاه يا ويله ماذا صنع وعن الحسن البصري انه قال في تفسير هذه الآية نعم أنزل الملكان بالسحر ليعلما الناس البلاء الذي أراد الله ان يبتلي به الناس فأخذ عليهما الميثاق ان لا يعلما أحدا حتى يقولا انما نحن فتنة فلا تكفر رواه ابن أبي حاتم وقال قتادة كان أخذ عليهما أن لا يعلما أحدا حتى يقولا انما نحن فتنة أي بلاء ابتلينا به فلا تكفر وقال السدي اذا أتاهما انسان يريد السحر وعظاه وقالا له لا تكفر انما نحن فتنة فاذا أبى قالا له ائت هذا الرماد فبل عليه فاذا بال عليه خرج منه نور فسطع حتى يدخل السماء وذلك الايمان واقبل شيء أسود كهيئة الدخان حتى يدخل في مسامعه وكل شيء وذلك غضب الله فاذا أخبرهما بذلك علماه السحر فذلك قول الله تعالى وما يعلمان من أحد حتى يقولا انما نحن فتنة فلا تكفر الآية وقال سنيد عن حجاج عن ابن جريج في هذه الآية لا يجترئ على السحر الا كافر وأما الفتنة فهي المحنة والاختبار ومنه قول الشاعر وقد فتن الناس في دينهم * وخلا ابن عفان شرا طويلا وكذا قوله تعالى فقال اخبارا عن موسى عليه السلام حيث قال ان هي الا فتنتك أي ابتلاؤك واختبارك وامتحانك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء وقد استدل بعضهم بهذه الآية على تكفير من تعلم السحر واستشهد له بالحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البزار حدثنا محمد بن المثنى أخبرنا أبو معاوية عن الاعمش عن ابراهيم عن همام عن عبد الله قال من أتى كاهنا أو ساحرا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم وهذا اسناد صحيح وله شواهد أخر وقوله تعالى فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه

الناس بالباطل ولا خلاف بين أهل العلم ان حكم الحاكم لا يحلل الحرام ولا يحرم الحلال وقد روي عن أبي حنيفة ما يخالف ذلك وهو مردود بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم كما في حديث أم سلمة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم انكم تختصمون الي ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له على نحو ما أسمع فمن قضيت له من حق أخيه بشيء فلا يأخذه فانما أقطع له قطعة من النار وهو في الصحيحين وغيرهما وقيل معناه لا تأكلوا المال بالباطل وتنسبوه الى الحكام والاول أولى وكان شريح القاضي يقول اني لاقضي لك واني لاظنك ظالما ولكن لا يسعني الا ان أقضي بما يحضرني من البينة وان قضائي لا يحل لك حراما (لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالاثم) أي قطعة أو جزأ أو طائفة فعبر بالفريق عن ذلك وأصل الفريق القطعة من الغنم تشذ عن معظمها وقيل في الكلام تقديم وتأخير والتقدير لتأكلوا أموال فريق من الناس بالاثم وسمي الظلم والعدوان اثما باعتبار تعلقه بفاعله قال ابن عباس أي باليمين الكاذبة وقيل بشهادة الزور (وأنتم تعلمون) أي حال كونكم عالمين أنكم على الباطل أو أن ذلك باطل ليس من الحق في شيء وهذا أشد لعقابهم وأعظم لجرمهم (يسئلونك عن الاهلة) أي عن فائدة اختلافها لان السؤال عن ذاتها غير مفيد وقد أخرج ابن عساكر بسند ضعيف عن ابن عباس قال نزلت في معاذ بن جبل وثعلبة بن غنمة وهما رجلان من الانصار قالا يا رسول الله ما بال الهلال يبدو ويطلع دقيقا مثل الخيط ثم يزيد حتى يعظم ويستوي ثم لا يزال ينقص ويدق حتى يعود كما كان لا يكون على حال واحد فنزلت هي مواقيت للناس في حل دينهم ولصومهم ولفطرهم وأوقات حجهم وأجارتهم وأوقات الحيض وعدد نسائهم والشروط التي الى أجل وليهذا خالف بينه وبين الشمس التي هي دائمة على حالة واحدة والاهلة جمع هلال وجمعها باعتبار هلال كل شهر أو كل ليلة تنزيلا لاختلاف الاوقات منزلة اختلاف الذوات والهلال اسم لما يبدو في أول الشهر وفي آخره قال الاصمعي هو هلال حتى يستدير وقيل هو هلال حتى ينير بضوئه السماء وذلك ليلة السابع وانما قيل له هلال لان الناس يرفعون أصواتهم بالاخبار عنه عند رؤيته ومنه استهل الصبي اذا صاح واستهل وجهه وتهلل اذا ظهر فيه السرور والهلال في الحقيقة واحد وجمعه باعتبار أوقاته واختلافه في ذاته واختلف أهل اللغة الى متى يسمى هلالا

أى فيتعلم الناس من هاروت وماروت من علم السحر ما يتصرفون به فيما يتصرفون فيه من الافاعيل المذمومة ما انهم ليفرقون به بين الزوجين مع ما بينهما من الخلطة والائتلاف وهذا من صنيع الشياطين كما رواه مسلم فى صحيحه من حديث الاعمش عن أبى سفيان عن طلحة بن نافع عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال ان الشيطان ليضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه فى الناس فاقربهم عنده منزلة أعظمهم عنده فتنة يجىء أحدهم فيقول مازلت بفلان حتى تركته وهو يقول كذا وكذا فيقول ابليس لا والله ما صنعت شيأ ويجىء أحدهم فيقول ما تركته حتى فرقت بينه (٢٤٧) وبين أهله قال فيقربه ويدنيه ويلتزمه ويقول نعم أنت وسبب التفريق بين الزوجين بالسحر ما يخيل الى الرجل أو المرأة من الآخر من سوء منظر أو خلق أو نحو ذلك أو عقد أو بغضة أو نحو ذلك من الاسباب المقتضية للفرقة والمرء عبارة عن الرجل وتأنيثه امرأة ويثنى كل منهما ولا يجمعان والله أعلم وقوله تعالى وما هم بضارين به من أحد الا باذن الله قال سفيان الثورى الا بقضاء الله وقال محمد بن اسحق الا بتخلية الله بينه وبين ما أراد وقال الحسن البصرى وما هم بضارين به من أحد الا باذن الله قال نعم من شاء الله سلطهم عليه ومن لم يشا الله لم يسلط ولا يستطيعون من أحد الا باذن الله كما قال الله تعالى وفى رواية عن الحسن انه قال لا يضر هذا السحر الا من دخل فيه وقوله تعالى ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم أى يضرهم فى دينهم وليس له نفع يوازى ضرره ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق أى ولقد علم اليهود الذين استبدلوا بالسحر عن متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم لمن فعل فعلهم ذلك انه ماله فى الآخرة من خلاق قال ابن عباس ومجاهد والسدى من نصيب وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة ماله فى الآخرة من جهة عند الله وقال عبد الرزاق وقال الحسن ليس له دين وقال سعد عن قتادة ماله فى الآخرة من خلاق قال ولقد علم أهل الكتاب فيما عهد الله اليهم ان الساحر لا خلاق له فى الآخرة وقوله تعالى ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون يقول تعالى ولبئس البديل ما استبدلوا به من السحر عوضا عن الايمان ومتابعة الرسول لو كان لهم علم بما وعظوا به ولو أنهم آمنوا واتقوا المثوبة من عند الله خير أى ولو انهم آمنوا بالله ورسله واتقوا المحارم لكان مثوبة الله على ذلك خيرا لهم مما استخاروا لانفسهم

فقال الجمهور لليلتين وقيل لثلاث ثم يكون قمرا وقال أبو الهيثم لليلتين من أول الشهر ولليلتين من آخره وما بينهما قمر (قل هى مواقيت) الذى قرره أبو السعود والخازن ان الجواب مطابق للسؤال وفى الآية بيان وجه الحكمة فى زيادة الهلال ونقصانه وان ذلك لاجل بيان المواقيت التى يوقت الناس عباداتهم ومعاملاتهم بها كالصوم والفطر والحج ومدة الحمل والعدة والاجارات والايمان وغير ذلك ومثله قوله تعالى ولتعلموا عدد السنين والحساب وقيل هو جواب بغير ما سأل عنه تنبيها على أن الاولى لهم أن يسألوا عن هذا المجاب لا عن سبب الاختلاف فهو من قبيل المغيبات التى لا غرض للمكلف فى معرفتها ولا يليق أن يبين له والمواقيت جمع الميقات وهو الوقت والفرق بين الوقت وبين المدة والزمان أن المدة المطلقة امتداد حركة الفلك من مبدئها الى منتهاها والزمان مدة منقسمة الى الماضى والحال والمستقبل والوقت الزمان المفروض لامر وكل ما جاء فى القرآن من السؤال أجيب عنه بقل بلا فاء الا فى طه ويسئلونك عن الجبال فقل لان الجواب فى الجميع كان بعد وقوع السؤال وفى طه كان قبله اذ تقديره ان سئلت عن الجبال فقل (للناس) أى لاغراضهم الدنيوية والدينية كما أشار لذلك بتعداد الامثلة اذ الاهلة ليست مواقيت لذوات الناس (والحج) عطف على الناس أى يعلم بها وقته فلو استمرت على حالة لم يعرف ذلك قال سيبويه الحج بالفتح كالرد والشد وبالكسر كالذكر مصدران بمعنى وقيل بالفتح مصدر وبالكسر الاسم وانما أفرد سبحانه الحج بالذكر لانه مما يحتاج فيه الى معرفة الوقت ولا يجوز فيه النسء عن وقته ولعظم المشقة على من التبس عليه وقت مناسكه أو أخطأ وقتها أو وقت بعضها وقد جعل بعض علماء المعانى هذا الجواب أعنى قوله قل هى مواقيت الخ من الاسلوب الحكيم كما تقدم وهو تلقى المخاطب بغير ما يترقب تنبيها على أنه الاولى بالقصد ووجه ذلك انهم سألوا عن أجرام الاهلة باعتبار زيادتها ونقصانها فاجيبوا بالحكمة التى كانت تلك الزيادة والنقصان لاجلها لكون ذلك أولى بان يقصده السائل وأحق بان يتطلع لعلمه (وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها) وجه اتصال هذا بالسؤال عن الاهلة والجواب بأنها مواقيت للناس والحج أن الانصار كانوا اذا حجوا لا يدخلون من أبواب بيوتهم اذا رجع أحدهم الى بيته بعد احرامه قبل تمام حجه لانهم يعتقدون أن المحرم لا يجوز أن يحول بينه

ورضوانه كما قال تعالى وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها الا الصابرون وقد استدل بقوله ولو أنهم آمنوا واتقوا من ذهب الى تكفير الساحر كما هو رواية عن الامام أحمد بن حنبل وطائفة من السلف وقيل بل لا يكفر ولكن حده ضرب عنقه لما رواه الشافعي واحمد بن حنبل قالا اخبرنا سفيان هو ابن عيينة عن عمرو بن دينار انه سمع بجالة بن عبدة يقول كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه ان اقتلوا كل ساحر وساحرة قال فقتلنا ثلاث سواحر وقد اخرجه البخاري في صحيحه ايضا وهكذا صح ان حفصة ام المؤمنين

سحرتها جارية لها فأمرت بها فقتلت قال الامام احمد بن حنبل صح عن ثلاثة من اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في قتل الساحر وروى الترمذي من حديث اسمعيل بن مسلم عن الحسن عن جندب الازدي انه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حد الساحر ضربه بالسيف ثم قال لا نعرفه مرفوعا الا من هذا الوجه واسمعيل بن مسلم يضعف في الحديث والصحيح عن الحسن عن جندب موقوفا قلت قد رواه الطبراني من وجه آخر عن الحسن عن جندب مرفوعا والله اعلم وقد روي من طرق متعددة ان الوليد بن عقبة كان عنده ساحر يلعب بين يديه فكان يضرب رأس الرجل ثم يصيح به فيرد اليه رأسه فقال الناس سبحان الله يحيي الموتى ورآه رجل من صالحي المهاجرين فلما كان الغد جاء مشتملا على سيفه وذهب يلعب لعبه ذلك فاخترط الرجل سيفه فضرب عنق الساحر وقال ان كان صادقا فليحي نفسه وتلا قوله تعالى أتأتون السحر وأنتم تبصرون فغضب الوليد اذ لم يستأذنه في ذلك فسجنه ثم أطلقه والله اعلم وقال الامام ابو بكر الخلال اخبرنا عبد الله بن احمد بن حنبل حدثني ابي اخبرنا يحيى بن سعيد حدثني ابو اسحق عن حارثة قال كان حيث عند بعض الامراء رجل يلعب فجاء جندب مشتملا على سيفه فقتله قال أراه كان ساحرا وحمل الشافعي رحمه الله قصة عمر وحفصة على سحر يكون شركا والله اعلم * (فصل) * حكى ابو عبد الله الرازي في تفسيره عن المعتزلة انهم انكروا وجود السحر قال وربما كفروا من اعتقد وجوده قال وأما اهل السنة فقد جوزوا ان يقدر الساحر ان يطير في الهواء ويقلب الانسان حمارا والحمار انسانا الا انهم قالوا ان الله يخلق الاشياء عند ما يقول الساحر تلك الرقى والكلمات المعينة فأما أن يكون المؤثر في ذلك هو الفلك والنجوم فلا

وبين السماء حائل فكانوا يتسنمون ظهور بيوتهم وقد ورد هذا المعنى عن جماعة من الصحابة والتابعين وقال أبو عبيدة ان هذا من ضرب المثل والمعنى ليس البر أن تسألوا الجهال ولكن البر التقوى واسألوا العلماء كما تقول أتيت الامر من بابه وقيل هو مثل في جماع النساء وانهم أمروا باتيانهن في القبل لا في الدبر وقيل غير ذلك والبيوت جمع بيت وقرئ بضم الباء وكسرها (واتقوا الله لعلكم تفلحون) قد تقدم تفسير التقوى والفلاح (وقاتلوا في سبيل الله) لا خلاف بين أهل العلم ان القتال كان ممنوعا قبل الهجرة لقوله فاعف عنهم واصفح وقوله واهجرهم هجرا جميلا وقوله لست عليهم بمصيطر وقوله ادفع بالتي هي أحسن ونحو ذلك مما نزل بمكة فلما هاجر الى المدينة أمره الله سبحانه بالقتال ونزلت هذه الآية قال أبو العالية انها أول آية نزلت في القتال بالمدينة فلما نزلت كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقاتل من قاتله ويكف عمن كف عنه حتى نزلت سورة براءة وقيل أول ما نزل قوله تعالى أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا حتى نزل قوله تعالى اقتلوا المشركين وقوله تعالى وقاتلوا المشركين كافة قيل انه نسخ بها سبعون آية والمعنى قاتلوا في طاعة الله وطلب رضوانه عن موسى الاشعري قال سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء أي ذلك في سبيل الله فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله (الذين يقاتلونكم) قال جماعة من السلف المراد بهذا من عدا النساء والصبيان والشيوخ والرهبان والزمنى والمجانين والمكافيف ونحوهم وجعلوا هذه الآية محكمة غير منسوخة (ولا تعتدوا) المراد بالاعتداء عند أهل القول الاول هو مقاتلة من لم يقاتل من الطوائف الكفرية والمراد به على القول الثاني مجاوزة قتل من يستحق القتل الى قتل من لا يستحقه ممن تقدم ذكره قال ابن عباس أي لا تقتلوا النساء والصبيان والشيخ الكبير ولا من ألقى السلم وكف يده فان فعلتم فقد اعتديتم وقال عمر بن عبد العزيز ان هذه الآية في النساء والذرية (ان الله لا يحب المعتدين) أي لا يريد بهم الخير عن بريدة قال كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اذا أمر أميرا على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرا ثم قال اغزوا بالله في سبيل الله قاتلوا من كفر بالله اغزوا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا ولا تعتدوا أخرجه مسلم (واقتلوهم

خلافا للفلاسفة والمنجمين والصابئة ثم استدل على وقوع السحر وانه بخلق الله تعالى بقوله تعالى وماهم بضارين به من أحد الا باذن الله ومن الاخبار بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم سحر وان السحر عمل فيه وبقصة تلك المرأة مع عائشة رضي الله عنها وماذكرت تلك المرأة من اتيانها بابل وتعلمها السحر قال وبما يذكر في هذا الباب من الحكايات الكثيرة ثم قال بعد هذا المسئلة الخامسة في أن العلم بالسحر ليس بقبيح ولا محظور اتفق المحققون على ذلك لان العلم الذي شريف وأيضا العموم قوله تعالى قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون ولان السحر لو لم يعلم لما أمكن الفرق بينه وبين المعجز والعلم بكون المعجز معجزا واجب ومايتوقف الواجب عليه فهو واجب فهذا يقتضي أن يكون تحصيل العلم بالسحر واجبا ومايكون واجبا فكيف يكون حراما وقبيحا هذا لفظه بحروفه في هذه المسئلة وهذا الكلام فيه نظر من وجوه أحدها قوله العلم بالسحر ليس بقبيح ان عني به ليس بقبيح عقلا فمخالفوه من المعتزلة يمنعون هذا وان عني انه ليس بقبيح شرعا ففي هذه الآية الكريمة تبشيع لتعلم السحر وفي الصحيح من أتى عرافا أو كاهنا فقد كفر بما أنزل على محمد وفي السنن من عقد عقدة ونفث فيها فقد سحر وقوله ولا محظور اتفق المحققون على ذلك كيف لايكون محظورا مع ماذكرناه من الآية والحديث واتفاق المحققين يقتضي أن يكون قد نص على هذه المسئلة أئمة العلماء أو أكثرهم وأين نصوصهم على ذلك ثم ادخاله علم السحر في عموم قوله تعالى قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون فيه نظر لان هذه الآية انما دلت على مدح العالمين العلم الشرعي ولم قلت ان هذا منه ثم ترقيه الى وجوب تعلمه بانه لا يحصل العلم بالمعجز الا به ضعيف بل فاسد لان أعظم معجزات رسولنا عليه الصلاة والسلام هي القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ثم ان العلم بأنه معجز لا يتوقف على علم السحر أصلا ثم من المعلوم بالضرورة أن الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين وعامتهم كانوا يعلمون المعجز ويفرقون بينه وبين غيره ولم يكونوا يعلمون السحر ولا تعلموه ولا علموه والله أعلم ثم قد ذكر أبو عبد الله الرازي أنواع السحر ثمانية الاول سحر الكذابين والكشدانيين الذين كانوا يعبدون الكواكب السبعة المتحيرة وهي السيارة وكانوا يعتقدون انها

حيث ثقفتموهم) يقال ثقف يثقف ثقفا ورجل ثقيف اذا كان محكما لما يتناوله من الامور قال في الكشاف والثقف وجود على وجه الاخذ والغلبة ومنه رجل ثقف سريع الاخذ لاقرانه انتهى قال أبو السعود أصل الثقف الحذق في ادراك الشيء علما أو عملا وفيه معنى الغلبة قال ابن جرير الخطاب للمهاجرين والضمير لكفار قريش انتهى والمعنى واقتلوهم حيث وجدتموهم وأدركتموهم في الحل والحرم وان لم يبتدؤكم وتحقيق القول فيه أن الله تعالى أمر بالجهاد في الآية الاولى بشرط اقدام الكفار على القتال وفي هذه الآية أمرهم بالجهاد معهم سواء قاتلوا أو لم يقاتلوا واستثنى منه المقاتلة عند المسجد الحرام (وأخرجوهم من حيث أخرجوكم) أي اخرجوهم من مكة وقد امتثل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمر ربه فاخرج من مكة من لم يسلم عند أن فتحها الله عليه (والفتنة أشد من القتل) أي الفتنة التي أرادوا ان يفتنوكم بها وهي رجوعكم الى الكفر أشد من القتل وقيل المراد بالفتنة المحنة التي تنزل بالانسان في نفسه أو أهله أو ماله أو عرضه وقيل المراد بالفتنة الشرك الذي عليه المشركون لانهم كانوا يستعظمون القتل في الحرم فاخبرهم الله ان الشرك الذي هم عليه أشد مما يستعظمونه وقيل المراد فتنتهم اياكم بصدكم عن المسجد الحرام أشد من قتلكم اياهم في الحرم أو من قتلهم اياكم ان قتلوكم والظاهر ان المراد الفتنة في الدين باي سبب كان وعلى أي صورة اتفق فانها أشد من القتل لانه يؤدي الى الخلود في النار والقتل ليس كذلك ولذا جعل أشد منه (ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه) اختلف أهل العلم في ذلك فذهبت طائفة الى أنها محكمة وأنه لا يجوز القتال في الحرم الا بعد ان يتعدى متعد بالقتال فيه فانه يجوز دفعه بالمقاتلة له وهذا هو الحق وقالت طائفة ان هذه الآية منسوخة بقوله تعالى فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ويجاب عن هذا الاستدلال بان الجمع ممكن هنا ببناء العام على الخاص فيقتل المشرك حيث وجد الا بالحرم ومما يؤيد ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم انها لم تحل لاحد قبلي وانما أحلت لي ساعة من نهار وهو في الصحيح وقد احتج القائلون بالنسخ بقتله صلى الله عليه وآله وسلم لابن خطل وهو متعلق باستار الكعبة ويجاب عنه بانه وقع في تلك الساعة التي أحل الله لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم (فان قاتلوكم) أي في المسجد الحرام هذا مفهوم الغاية (فاقتلوهم) أي فقاتلوهم (كذلك) أي

مدبرة العالم وانها تاتى بالخير والشر وهم الذين بعث الله اليهم ابراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم مبطلا لمقالتهم ورادا لمذهبهم وقد
استقصى فى كتاب السر المكتوم فى مخاطبة الشمس والنجوم المنسوب اليه كما ذكره القاضى ابن خلكان وغيره ويقال انه تاب منه
وقيل بل صنفه على وجه اظهار الفضيلة لا على سبيل الاعتقاد وهذا هو المظنون به الا انه ذكر فيه طريقتهم فى مخاطبة كل من هذه
الكواكب السبعة وكيفية ما يفعلون وما يلبسونه وما يتنسكون به قال والنوع الثانى سحر أصحاب الاوهام والنفوس القوية
ثم استدل على أن الوهم له تأثير بأن الانسان يمكنه أن يمشى على الجسر الموضوع على وجه الارض ولا يمكنه
المشى عليه اذا كان ممدودا على
نهر أو نحوه قال وكما أجمعت الاطباء
على نهى المرعوف عن النظر
الى الاشياء الحمر والمصروع الى
الاشياء القوية اللمعان أو الدوران
وما ذاك الا لان النفوس خلقت
منطبعة للاوهام قال وقد اتفق
العقلاء على أن الاصابة بالعين حق
وله أن يستدل على ذلك بما ثبت فى
الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه
وسلم قال العين حق ولو كان شئ
سابق القدر لسبقته العين قال
فاذا عرفت هذا فنقول النفس التى
تفعل هذه الافاعيل قد تكون قوية
جدا فتستغنى فى هذه الافاعيل
عن الاستعانة بالآلات والادوات
وقد تكون ضعيفة فتحتاج الى
الاستعانة بهذه الآلات وتحقيقه
ان النفس اذا كانت مستعلية عن
البدن شديدة الانجذاب الى عالم
السموات صارت كأنها روح من
الارواح السماوية فكانت قوية
على التأثير فى مواد هذا العالم واذا
كانت ضعيفة شديدة التعلق بهذه
الذات البدنية فحينئذ لا يكون لها
تأثير البتة الا فى هذا البدن
ثم أرشد الى مداواة هذا الداء بتقليل الغذاء والانقطاع عن الناس والرياء (قلت) وهذا الذى يشير
اليه هو التصرف بالحال وهو على قسمين تارة تكون حالا صحيحة شرعية يتصرف بها فيما أمر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ويترك
ما نهى الله تعالى عنه ورسوله صلى الله عليه وسلم فهذه الاحوال مواهب من الله تعالى وكرامات للصالحين من هذه الامة ولا
يسمى هذا سحرا فى الشرع وتارة تكون الحال فاسدة لا يمتثل صاحبها ما أمر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ولا يتصرف بها فى ذلك
فهذه حال الاشقياء المخالفين للشريعة ولا يدل اعطاء الله اياهم هذه الاحوال على محبته لهم كما أن الدجال له من الخوارق للعادات

القتل والاخراج (جزاء الكافرين) مطلقا بان يفعل بهم مثل ما فعلوا بغيرهم فثبت بهذا
تحريم القتال فى الحرم الا أن يقاتلوا فيه فيقاتلوا ويكون دفعا لهم (فان انتهوا) عن قتالكم
وعن الكفر ودخلوا فى الاسلام (فان الله غفور) لما سلف (رحيم) بعباده حيث
لم يعاجلهم بالعقوبة (وقاتلوهم) فيه الامر بمقاتلة المشركين ولو فى الحرم وان لم يبدؤكم
بالقتال فيه وهذا هو الذى استقر عليه الحكم الآن (حتى) أى الى غاية هى ان (لا تكون
فتنة ويكون الدين لله) وهو الدخول فى الاسلام والخروج عن سائر الاديان المخالفة له
فمن دخل فى الاسلام وأقلع عن الشرك لم يحل قتاله قيل المراد بالفتنة هنا الشرك والظاهر
انها الفتنة فى الدين على عمومها كما سلف (فان انتهوا) يعنى عن القتال وقيل عن الشرك
والكفر (فلا عدوان الا على الظالمين) أى لا تظلموا الا الظالمين أى لا تعتدوا الا على من
ظلم وهو من لم ينته عن الفتنة ولم يدخل فى الاسلام وانما سمى جزاء الظالمين عدوانا
مشاكلة كقوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها وقوله فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه
وسمى الكافر ظالما لوضعه العبادة فى غير موضعها والنفى هنا بمعنى النهى لئلا يلزم الخلف
فى خبره تعالى والعرب اذا بالغت فى النهى عن الشئ أبرزته فى صورة النفى المحض اشارة
الى أنه ينبغى ان لا يوجد البتة فدلوا على هذا المعنى بما ذكرت لك وعكسه فى الاثبات اذا
بالغوا فى الامر بالشئ أبرزوه فى صورة الخبر نحو والوالدات يرضعن وسيأتى (الشهر الحرام)
هو ذو القعدة من السنة السابعة (بالشهر الحرام) هو ذو القعدة من السنة السادسة
وهذا فى المعنى تعليل لقوله واقتلوهم حيث ثقفتموهم أخرج ابن جرير عن ابن عباس
قال لما سار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم معتمرا فى سنة ست من الهجرة وحبسه
المشركون عن الدخول والوصول الى البيت وصدوه بمن معه من المسلمين فى ذى القعدة
وهو شهر حرام قاضاهم على الدخول من قابل فدخلها فى السنة الآتية هو ومن كان معه
من المسلمين وأقصه الله منهم نزلت فى ذلك هذه الآية وروى نحوه عن أبى العالية ومجاهد
وقتادة وابن جريج والمعنى اذا قاتلوكم فى الشهر الحرام وهتكوا حرمته قاتلوهم فى الشهر
الحرام مكافأة لهم ومجازاة على فعلهم وهذا صريح فى أنه قد وقع منهم مقاتلة فى عام
الحديبية وهو كذلك فقد وقع قتال خفيف بالرمى بالسهام والحجارة (والحرمات) جمع حرمة
كالظلمات جمع ظلمة وانما جمع الحرمات لانه أراد الشهر الحرام والبلد الحرام وحرمة
الاحرام

مادات عليه الاحاديث الكثيرة مع انه مذموم شرعا لعنه الله وكذلك من شابهه من مخالفي الشريعة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام وبسط هذا يطول جدا وليس هذا موضعه قال والنوع الثالث من السحر الاستعانة بالارواح الارضية وهم الجن خلافا للفلاسفة والمعتزلة وهم على قسمين مؤمنون وكفار وهم الشياطين قال واتصال النفوس الناطقة بها أسهل من اتصالها بالارواح السماوية لما بينهما من المناسبة والقرب ثم ان أصحاب الصنعة وأرباب التجربة شاهدوا أن الاتصال بهذه الارواح الارضية يحصل باعمال سهلة قليلة من الرقى والدخن والتجريد (٢٥١) وهذا النوع هو المسمى السحر بالعزائم وعمل التسخير النوع الرابع من من السحر التخيلات والاخذ بالعيون والشعبذة ومبناه على أن البصر قد يخطئ ويشتغل بالشئ المعين دون غيره ألاترى ذا الشعبذة الحاذق يظهر عمل شئ يذهل أذهان الناظرين به ويأخذ عيونهم اليه حتى اذا استفرغهم الشغل بذلك الشئ بالتحديق ونحوه عمل شيأ آخر عملا بسرعة شديدة وحينئذ يظهر لهم شئ آخر غير ما انتظروه فيتعجبون منه جدا ولو انه سكت ولم يتكلم بما يصرف الخواطر الى ضد ما يريد أن يعمله ولم تتحرك النفوس والاوهام الى غير ما يريد اخراجه لفطن الناظرون لكل قال وكلما كانت الاحوال تفيد حسن البصر نوعا من أنواع الخلل أشد كان العمل أحسن مثل أن يجلس المشعبذ في موضع مضئ جدا أو مظلم فلا تقف القوة الناظرة على أحوالها والحالة هذه (قلت) وقد قال بعض المفسرين ان سحر السحرة بين يدي فرعون انما كان من باب الشعبذة ولهذا قال تعالى فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاؤا بسحر عظيم وقال تعالى يخيل اليه من سحرهم أنها تسعى قالوا ولم تكن تسعى في نفس الامر والله أعلم النوع الخامس من السحر الاعمال العجيبة التي تظهر من تركيب الآلات المركبة من النسب الهندسية كفارس على فرس في يده بوق كلما مضت ساعة من النهار ضرب بالبوق من غير أن يمسه أحد ومنها الصور التي تصورها الروم والهند حتى لا يفرق الناظر بينها وبين الانسان حتى يصورونها ضاحكة وباكية الى أن قال فهذه الوجوه من لطيف أمور التخاييل قال وكان سحر سحرة فرعون من هذا القبيل (قلت) يعني ما قاله بعض المفسرين انهم عمدوا الى تلك الحبال والعصى فحشوها زئبقا

الاحرام والحرمة ما منع الشرع انتهاكه (قصاص) أي المساواة والمماثلة والمعنى ان كل حرمة يجري فيها القصاص فمن هتك حرمة عليكم فلكم ان تهتكوا حرمة عليه قصاصا ولا تبالوا به قيل وهذا كان في أول الاسلام ثم نسخ بالقتال وقيل انه ثابت بين أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم لم ينسخ فيجوز لمن تعدى عليه في مال أو بدن أن يتعدى بمثل ما تعدى عليه وبهذا قال الشافعي وغيره وقال آخرون ان أمور القصاص مقصورة على الحكام وهكذا الاموال لقوله صلى الله عليه وآله وسلم أد الامانة الى من ائتمنك ولا تخن من خانك أخرجه الدارقطني وغيره وبه قال أبو حنيفة وجمهور المالكية وعطاء الخراساني والقول الاول أرجح وبه قال ابن المنذر واختاره ابن العربي والقرطبي وحكاه الداودي عن مالك ويؤيده اذنه صلى الله عليه وآله وسلم لامرأة أبي سفيان ان تأخذ من ماله ما يكفيها وولدها وهو في الصحيح ولا أصرح وأوضح من قوله تعالى في هذه الآية (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) وهذه الجملة في حكم التأكيد للجملة الاولى أعني قوله والحرمات قصاص وانما سمي المكافأت اعتداء مشاكلة كما تقدم وعن ابن عباس في هذه الآية وفي قوله وجزاء سيئة الآية وقوله ولمن انتصر بعد ظلمه الآية وقوله وان عاقبتم الآية قال هذا ونحوه نزل بمكة والمسلمون يومئذ قليل ليس لهم سلطان يقهر المشركين فكان المشركون يتعاطونهم بالشتم والاذى فأمر الله المسلمين من يتجازأ منهم أن يتجازأ بمثل ما أوتي اليه أو يصبر أو يعفو فلما هاجر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الى المدينة وأعز الله سلطانه أمر المسلمين ان ينتهوا في مظالمهم الى سلطانهم ولا يعدو بعضهم على بعض كأهل الجاهلية فقال ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا الآية يقول ينصره السلطان حتى ينصفه على من ظلمه ومن انتصر لنفسه دون السلطان فهو عاص مسرف قد عمل بحمية الجاهلية ولم يرض بحكم الله انتهى وأقول هذه الآية التي جعلها ابن عباس ناسخة مؤيدة لما تدل عليه الآيات التي جعلها منسوخة ومؤكدة له فان الظاهر من قوله فقد جعلنا لوليه سلطانا أنه جعل السلطان له أي جعل له تسلطا يتسلط به على القاتل ولهذا قال فلا يسرف في القتل ثم لو سلمنا ان معنى الآية كما قاله لكان ذلك مخصصا للقتل من عموم الآيات المذكورة لا ناسخا له فانه لم ينص في هذه الآية الا على القتل وحده وتلك الآيات شاملة له ولغيره وهذا معلوم من لغة العرب التي هي

فصارت تتلوى بسبب ما فيها من ذلك الزئبق فيخيل الى الرائي انها تسعى باختيارها قال الرازي ومن هذا الباب تركيب صندوق الساعات ويندرج في هذا الباب علم جر الاثقال بالآلات الخفيفة قال وهذا في الحقيقة لا ينبغي أن يعد من باب السحر لان لها أسبابا معلومة يقينية من اطلع عليها قدر عليها (قلت) ومن هذا القبيل حيل النصارى على عامتهم بما يرونهم اياه من الانوار كقضية قمامة الكنيسة التي لهم ببلد المقدس وما يحتالون به من ادخال النار خفية الى الكنيسة واشعال ذلك القنديل بصنعة لطيفة تروج على الطغام منهم وأما الخواص فهم معترفون بذلك ولكن يتأولون أنهم يجمعون شمل أصحابهم على دينهم فيرون ذلك سائغا لهم وفيهم شبهة للجهلة الاغبياء من متعبدي الكرامية الذين يرون جواز وضع الاحاديث في الترغيب والترهيب فيدخلون في عداد من قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار وقوله حدثوا عني ولا تكذبوا علي فانه من يكذب علي يلج النار ثم ذكر ههنا حكاية عن بعض الرهبان وهو أنه سمع صوت طائر حزين الصوت ضعيف الحركة فاذا سمعته الطيور ترق له فتذهب فتلقي في وكره من ثمر الزيتون ليتبلغ به فعمد هذا الراهب الى صنعة طائر على شكله وتوصل الى أن جعله أجوف فاذا دخلته الريح يسمع منه صوت كصوت ذلك الطائر وانقطع في صومعة ابتناها وزعم انها على قبر بعض صالحيهم وعلق ذلك الطائر في مكان منها فاذا كان زمان الزيتون فتح بابا من ناحيته فيدخل الريح الى داخل هذه الصورة فيسمع صوتها كل طائر في شكله أيضا فتأتي الطيور فتحمل من الزيتون شيأ كثيرا فلا ترى النصارى الا ذلك الزيتون في هذه الصومعة ولا يدرون ما سببه ففتنهم بذلك وأوهم ان هذا من كرامات صاحب هذا القبر عليهم لعائن الله المتتابعة الى يوم القيامة قال الرازي النوع السادس من السحر الاستعانة بخواص الادوية يعني في الاطعمة والدهانات قال واعلم أنه لا سبيل الى انكار الخواص فان تأثير المغناطيس مشاهد (قلت) يدخل في هذا القبيل كثير ممن يدعي الفقر ويتحيل على جهلة الناس بهذه الخواص مدعيا انها أحوال له من مخالطة النيران ومس الحيات الى غير ذلك من المحالات قال النوع السابع من السحر التعلق للقلب وهو أن يدعي الساحر أنه عرف الاسم الاعظم وان الجن يطيعونه

المرجع في تفسير كلام الله سبحانه ولما أباح لهم الاقتصاص بالمثل وشأن النفس حب المبالغة في الانتقام من العدو حذرهم من ذلك فقال (واتقوا الله) أي في حال كونكم منتصرين لانفسكم ممن اعتدى عليكم فلا تعتدوا الى ما لا يحل لكم (واعلموا ان الله مع المتقين) بالنصر والعون (وأنفقوا في سبيل الله) في هذه الآية الامر بالانفاق في سبيل الله وهو الجهاد بالمال واللفظ يتناول غيره مما يصدق عليه أنه من سبيل الله والانفاق هو صرف المال في وجوه المصالح الدينية كالانفاق في الحج والعمرة وصلة الرحم والصدقة وتجهيز الغزاة وعلى النفس والعيال وغير ذلك مما فيه قربة لله تعالى لان كل ذلك يصدق عليه أنه في سبيل الله ولكن اطلاق هذا اللفظ ينصرف الى الجهاد عن خريم بن فاتك قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من أنفق نفقة في سبيل الله كتب الله له سبعمائة ضعف أخرجه الترمذي والنسائي (ولا تلقوا بايديكم الى التهلكة) الباء زائدة ومثله ألم يعلم بأن الله يرى وقال المبرد أي بانفسكم تعبيرا بالبعض عن الكل كقوله بما كسبت أيديكم وقيل هذا مثل مضروب يقال فلان ألقى بيده في أمر كذا اذا استسلم لان المستسلم في القتال يلقي سلاحه بيديه فكذلك فعل كل عاجز في أي فعل كان وقال قوم التقدير ولا تلقوا أنفسكم بايديكم وعبر بالايدي عن الانفس لان بها البطش والحركة والتهلكة مصدر من هلك يهلك هلاكا وهلكا وتهلكة أي لا تأخذوا فيما يهلككم قال اليزيدي التهلكة من نوادر المصادر ليست مما يجري على القياس وللسلف في معنى الآية أقوال قال حذيفة نزلت في النفقة أي تركها في سبيل الله مخافة العيلة وروي نحوه عن ابن عباس وعكرمة والحسن وقال الحسن هو البخل وقال زيد بن أسلم هو ان يهلك رجل من الجوع والعطش ومن المشي في البعث وقال أبو أيوب كانت التهلكة الاقامة في الاموال واصلاحها وترك الغزو وقال البراء بن عازب هو الرجل يذنب الذنب فيلقي بيديه فيقول لا يغفر الله لي أبدا وروي عن النعمان بن بشير نحوه وقيل انه القنوط وقيل عذاب الله وقيل غير ذلك والحق ان الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فكل ما يصدق عليه أنه تهلكة في الدين أو الدنيا فهو داخل في هذا وبه قال ابن جرير الطبري ومن جملة ما يدخل تحت الآية ان يقتحم الرجل في الحرب فيحمل على الجيش مع عدم قدرته على التخلص وعدم تأثيره لاثر ينفع المجاهدين ولا يمنع من دخول هذا تحت الآية

ق ينقادون له في أكثر الامور فاذا اتفق ان يكون السامع لذلك ضعيف القلب قليل التمييز اعتقد انه حق وتعلق قلبه بذلك وحصل في نفسه نوع من الرهب والمخافة فاذا حصل الخوف ضعفت القوى الحساسة فحينئذ يتمكن الساحر أن يفعل مايشاء (قلت) هذا النمط يقال له التنبلة وانما يروج على الضعفاء العقول من بني آدم وفي علم الفراسة مايرشد الى معرفة كامل العقل من ناقصه فاذا كان النبيل حاذقا في علم الفراسة عرف من ينقاد له من الناس من غيره قال النوع الثامن من السحر السعي بالنميمة والتقريب من وجوه خفيفة لطيفة وذلك شائع في الناس (قلت) النميمة على قسمين تارة (٢٥٣) تكون على وجه التحريش بين الناس وتفريق قلوب المؤمنين فهذا حرام متفق عليه فاما ان كانت على وجه الاصلاح بين الناس وائتلاف كلمة المسلمين كما جاء في الحديث ليس بالكذاب من ينم خيرا أو يكون على وجه التخذيل والتفريق بين جموع الكفرة فهذا أمر مطلوب كما جاء في الحديث الحرب خدعة وكما فعل نعيم بن مسعود في تفريقه بين كلمة الاحزاب وبين قريظة وجاء الى هؤلاء فنمى اليهم عن هؤلاء كلاما ونقل من هؤلاء الى أولئك شيأ آخر ثم لأم بين ذلك فتناكرت النفوس وافترقت وانما يحذو على مثل هذا الذكاء والبصيرة النافذة والله المستعان ثم قال الرازي فهذه جملة الكلام في أقسام السحر وشرح أنواعه وأصنافه (قلت) وانما أدخل كثيرا من هذه الانواع المذكورة في فن السحر للطافة مداركها لان السحر في اللغة عبارة عما لطف وخفي سببه ولهذا جاء في الحديث ان من البيان لسحرا وسمي السحور لكونه يقع خفيا آخر الليل والسحر الرئة وهي محل الغذاء وسميت بذلك لخفائها ولطف مجاريها الى أجزاء البدن وغضونه كما قال أبو جهل يوم بدر لعتبة انتفخ سحره أي انتفخت رئته من الخوف وقالت عائشة رضي الله عنها توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم بين سحري ونحري وقال تعالى سحروا أعين الناس أي أخفوا عنهم عملهم والله أعلم وقال أبو عبد الله القرطبي وعندنا ان السحر حق وله حقيقة يخلق الله عنده مايشاء خلافا للمعتزلة وأبي اسحق الاسفرايني من الشافعية حيث قالوا انه تمويه وتخييل قال ومن السحر مايكون بخفة اليد كالشعوذة والشعوذي البريد لخفة سيره قال ابن فارس وليست هذه الكلمة من كلام أهل البادية قال القرطبي ومنه مايكون كلاما يحفظ

الآية انكار من أنكره من الذين رووا السبب فانهم ظنوا ان الآية لاتجاوز سببها وهو ظن تدفعه لغة العرب (وأحسنوا) أي في الانفاق في الطاعة أو الظن بالله في اخلافه عليكم وقال رجل من الصحابة معناه أدوا الفرائض وقيل لاتقتروا ولاتسرفوا (ان الله يحب المحسنين) المنفقين في سبيله الظانين به حسنا (وأتموا الحج والعمرة لله) اختلف العلماء في المعنى المراد باتمام الحج والعمرة فقيل أداؤهما والاتيان بهما من دون أن يشوبهما بشئ مما هو محظور ولايخل بشرط ولافرض كقوله تعالى فأتمهن وقوله ثم أتموا الصيام الى الليل وقال سفيان الثوري اتمامهما ان يخرج لهما لالغيرهما وقيل اتمامهما ان يفرد كل واحد منهما من غير تمتع ولاقران وبه قال ابن حبيب وقال مقاتل اتمامهما ان لايستحلوا فيهما ما لاينبغي لهم وقيل اتمامهما ان يحرم لهما من دويرة أهله وقيل ان ينفق في سفرهما الحلال الطيب وقد أخرج ابن أبي حاتم وأبو نعيم في الدلائل وابن عبد البر في التمهيد عن يعلى بن أمية قال جاء رجل الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو بالجعرانة وعليه جبة وعليه أثر خلوق فقال كيف تأمرني يارسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان أصنع في عمرتي فأنزل الله وأتموا الحج والعمرة لله فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أين السائل عن العمرة فقال ها أناذا قال اخلع الجبة واغسل عنك أثر الخلوق ثم ما كنت صانعا في حجك فاصنعه في عمرتك وقد أخرجه الشيخان وغيرهما من حديثه ولكن فيهما انه أنزل عليه بعد السؤال ولم يذكرا ما الذي أنزل عليه وقال ابن عباس تمام الحج يوم النحر اذا رمى جمرة العقبة وزار البيت فقد حل وتمام العمرة اذا طاف بالبيت وبالصفا وبالمروة فقد حل وقد ورد في فضل الحج والعمرة أحاديث كثيرة ليس هذا موطن ذكرها وقد اتفقت الامة على وجوب الحج على من استطاع اليه سبيلا واستدل بهذه الآية على وجوب العمرة لان الامر باتمامها أمر بها وبذلك قال علي وابن عمر وابن عباس وعطاء وطاوس ومجاهد والحسن وابن سيرين والشعبي وسعيد بن جبير ومسروق وعبد الله بن شداد والشافعي وأحمد واسحق وأبو عبيد وابن الجهم من المالكية وقال مالك والنخعي وأصحاب الرأي كما حكاه ابن المنذر عنهم انها سنة وحكي عن أبي حنيفة انه يقول بالوجوب ومن القائلين بانها سنة ابن مسعود وجابر بن عبد الله ومن جملة ما استدل به الاولون ماثبت عنه صلى الله عليه وآله وسلم في الصحيح انه قال لاصحابه من كان معه هدي فليهل بحج

ورقى من اسماء الله تعالى وقد يكون من عبود الشياطين ويكون أدوية وأدخنة وغير ذلك قال وقوله عليه السلام ان من البيان لسحرا يحتمل ان يكون مدحا كما تقوله طائفة ويحتمل ان يكون ذما للبلاغة قال وهذا أصح قال لانها تصوب الباطل حتى توهم السامع انه حق كما قال عليه الصلاة والسلام فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فاقضى له الحديث *(فصل)* وقد ذكر الوزير أبو المظفر يحيي بن محمد بن هبيرة رحمه الله فى كتابه الاشراف على مذاهب الاشراف بابا فى السحر فقال أجمعوا على ان السحر له حقيقة الا أبا حنيفة فانه قال لا حقيقة له عنده واختلفوا فيمن يتعلم السحر ويستعمله فقال أبو حنيفة ومالك وأحمد يكفر بذلك ومن أصحاب أبى حنيفة من قال ان تعلمه ليتقيه أو ليجتنبه فلا يكفر ومن تعلمه معتقدا جوازه أو انه ينفعه كفر وكذا من اعتقد ان الشياطين تفعل له ما يشاء فهو كافر وقال الشافعى رحمه الله اذا تعلم السحر قلنا له صف لنا سحرك فان وصف ما يوجب الكفر مثل ما اعتقده أهل بابل من التقرب الى الكواكب السبعة وانها تفعل ما يلتمس منها فهو كافر وان كان لا يوجب الكفر فان اعتقد اباحته فهو كافر قال ابن هبيرة وهل يقتل بمجرد فعله واستعماله فقال مالك وأحمد نعم وقال الشافعى وأبو حنيفة لا فأما ان قتل بسحره انسانا فانه يقتل عند مالك والشافعى وأحمد وقال أبو حنيفة لا يقتل حتى يتكرر منه ذلك او يقر بذلك فى حق شخص معين واذا قتل فانه يقتل حدا عندهم الا الشافعى فانه قال يقتل والحالة هذه قصاصا قال وهل اذا تاب الساحر تقبل توبته فقال مالك وأبو حنيفة وأحمد فى المشهور عنهم لا تقبل وقال الشافعى وأحمد فى الرواية الاخرى تقبل وأما ساحر أهل الكتاب فعند أبى حنيفة انه يقتل كما يقتل الساحر المسلم وقال مالك وأحمد او والشافعى لا يقتل يعنى لقصة لبيد بن الأعصم واختلفوا فى المسلمة الساحرة فعند أبى حنيفة انها لا تقتل ولكن تحبس وقال الثلاثة حكمها حكم الرجل والله أعلم وقال أبو بكر الخلال أخبرنا أبو بكر المروزى قال قرأ على أبى عبد الله يعنى أحمد بن حنبل عمر بن هرون أخبرنا يونس عن الزهرى قال يقتل ساحر المسلمين ولا يقتل ساحر المشركين لان رسول الله صلى الله عليه وسلم سحرته امرأة من اليهود فلم يقتلها وقد نقل القرطبى عن مالك رحمه الله انه قال فى الذمى يقتل ان قتل سحره وحكى ابن خويز منداد عن مالك

وعمرة وثبت عنه أيضا فى الصحيح انه قال دخلت العمرة فى الحج الى يوم القيامة وأخرج الدارقطنى والحاكم من حديث زيد بن ثابت قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان الحج والعمرة فريضتان لا يضرك بايهما بدأت واستدل الآخرون بما أخرجه الشافعى فى الام وعبد الرزاق وابن أبى شيبة وعبد بن حميد عن أبى صالح الحنفى قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الحج جهاد والعمرة تطوع وأخرج ابن ماجه عن طلحة بن عبيد الله مرفوعا مثله وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد والترمذى وصححه عن جابر أن رجلا سال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن العمرة أواجبة هى قال لا وأن تعتمروا خير لكم وأجابوا عن الآية والاحاديث المصرحة بانها فريضة بحمل ذلك على انه قد وقع الدخول فيها وهى بعد الشروع فيها واجبة بلا خلاف وهذا وان كان فيه بعد لكنه يجب المصير اليه جمعا بين الادلة ولا سيما بعد تصريحه صلى الله عليه وآله وسلم بما تقدم فى حديث جابر من عدم الوجوب وعلى هذا يحمل ما ورد مما فيه دلالة على وجوبها كما أخرجه الشافعى فى الام ان فى الكتاب الذى كتبه النبى صلى الله عليه وآله وسلم لعمرو بن حزم ان العمرة هى الحج الاصغر وكحديث ابن عمر عند البيهقى فى الشعب قال جاء رجل الى النبى صلى الله عليه وآله وسلم فقال أوصنى فقال تعبد الله ولا تشرك به شيأ وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم شهر رمضان وتحج وتعتمر وتسمع وتطيع وعليك بالعلانية واياك والسر وهكذا ينبغى حمل ما ورد من الاحاديث التى قرن فيها بين الحج والعمرة فى أنهما من أفضل الاعمال وانهما كفارة لما بينهما وانهما يهدمان ما كان قبلهما ونحو ذلك وأركان الحج خمسة الاحرام والوقوف بعرفة والطواف والسعى والحلق أو التقصير وأركان العمرة أربعة الاحرام والطواف والسعى والحلق والتقصير وبهذه الاركان تمام الحج والعمرة (فان أحصرتم) أصل الحصر فى اللغة الحبس والتضييق قال أبو عبيدة والكسائى والخليل انه يقال أحصر بالمرض وحصر بالعدو وفى المجمل لابن فارس العكس ورجح الاول ابن العربى قال وهو رأى أكثر أهل اللغة وقال الزجاج انه كذلك عند جميع أهل اللغة وقال الفراء هما بمعنى واحد فى المرض والعدو ووافقه على ذلك أبو عمرو الشيبانى فقال حصرنى الشئ وأحصرنى أى حبسنى وبسبب هذا الاختلاف بين اهل اللغة اختلف أئمة الفقه فى معنى الآية فقالت الحنفية المحصر من يصير ممنوعا من مكة بعد الاحرام بمرض

روايتين في الذمي اذا سحر احداهما انه يستتاب فان أسلم والاقتل و[illegible] يقتل وان أسلم وأما الساحر المسلم فان تضمن سحره كفرا كفر عند الائمة الاربعة وغيرهم لقوله تعالى وما يعلمان من أحد حتى يقولا انما نحن فتنة فلا تكفر لكن قال مالك اذا ظهر عليه لم تقبل توبته لانه كالزنديق فان تاب قبل أن يظهر عليه وجاءنا تائبا قبلناه فان قتل بسحره قتل قال الشافعي فان قال لم أتعمد القتل فهو مخطئ تجب عليه الدية (مسئلة) وهل يسئل الساحر حلا لسحره فأجازه سعيد بن المسيب فيما نقله عنه البخاري وقال عامر الشعبي لا باس بالنشرة وكره ذلك الحسن البصري وفي الصحيح عن عائشة (٢٥٥) انها قالت يارسول الله هلا تنشرت فقال أما الله فقد شفاني وخشيت أن أفتح على الناس شرا وحكى القرطبي عن وهب انه قال يؤخذ سبع ورقات من سدر فتدق بين حجرين ثم تضرب بالماء ويقرأ عليها آية الكرسي ويشرب منها المسحور ثلاث حسوات ثم يغتسل بباقيه فانه يذهب ما به وهو جيد للرجل الذي يؤخذ عن امرأته (قلت) أنفع ما يستعمل لاذهاب السحر ما أنزل الله على رسوله في اذهاب ذلك وهما المعوذتان وفي الحديث لم يتعوذ المتعوذ بمثلهما وكذلك قراءة آية الكرسي فانها مطردة للشيطان (يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا وللكافرين عذاب أليم ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين ان ينزل عليكم من خير من ربكم والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم) نهى الله تعالى عباده المؤمنين ان يتشبهوا بالكافرين في مقالهم وفعالهم وذلك ان اليهود كانوا يعانون من الكلام ما فيه تورية لما يقصدونه من التنقيص عليهم لعائن الله فاذا أرادوا ان يقولوا اسمع لنا يقولوا راعنا ويورون بالرعونة كما قال تعالى من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليا بألسنتهم وطعنا في الدين ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيرا لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون الا قليلا وكذلك جاءت الاحاديث بالاخبار عنهم بانهم كانوا اذا سلموا انما يقولون السام عليكم والسام هو الموت ولهذا أمرنا أن نرد عليهم بوعليكم وانما يستجاب لنا فيهم ولا يستجاب لهم فينا والغرض ان الله تعالى نهى المؤمنين عن مشابهة الكافرين قولا وفعلا فقال يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا وللكافرين

أو عدو أو غيره وقالت الشافعية وأهل المدينة المراد بالآية حصر العدو وقد ذهب جمهور العلماء الى أن المحصر بعدو يحل حيث أحصر وينحر هديه ان كان ثم هدي ويحلق رأسه كما فعل النبي صلى الله عليه وآله وسلم هو وأصحابه في الحديبية (فما استيسر من الهدي) أي ان أحصرتم دون تمام الحج والعمرة فحللتم فالواجب أو فعليكم أو فانحروا أو فاهدوا ما تيسر يقال يسر الامر واستيسر كما يقال صعب واستصعب وليس السين للطلب والهدي والهدى لغتان وهما جمع هدية وهي ما يهدى الى البيت من بدنة أو غيرها ويقال في جمع الهدي أهداء واختلف أهل العلم في المراد بقوله فما استيسر فذهب الجمهور الى أنه شاة وقال ابن عمر وعائشة وابن الزبير جمل أو بقرة وقال الحسن أعلى الهدي بدنة وأوسطه بقرة وأدناه شاة وهذا الدم دم ترتيب وتعديل كما أشار له ابن المقرئ (ولا تحلقوا رؤسكم حتى يبلغ الهدي محله) هو خطاب لجميع الامة من غير فرق بين محصر وغير محصر واليه ذهب جمع من أهل العلم وذهبت طائفة الى أنه خطاب للمحصرين خاصة أي لا تحلوا من الاحرام حتى تعلموا أن الهدي الذي بعثتموه الى الحرم قد بلغ محله وهو الموضع الذي يحل فيه ذبحه واختلفوا في تعيينه فقال مالك والشافعي هو موضع الحصر اقتداء برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حيث أحصر في عام الحديبية وقال أبو حنيفة هو الحرم لقوله تعالى ثم محلها الى البيت العتيق وأجيب عن ذلك بان المخاطب به هو الآمن الذي يمكنه الوصول الى البيت وأجاب الحنفية عن نحره صلى الله عليه وآله وسلم بالحديبية بأن طرف الحديبية الذي الى أسفل مكة هو من الحرم ورد بأن المكان الذي وقع فيه النحر ليس هو من الحرم (فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك) المراد بالمرض هنا ما يصدق عليه مسمى المرض لغة والمراد بالاذى من الرأس ما فيه من قمل أو صداع أو جراح ونحو ذلك فمن حلق فعليه فدية وقد بينت السنة ما أطلق هنا من الصيام والصدقة والنسك فثبت في الصحيح ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رأى كعب بن عجرة وهو محرم وقمله يتساقط على وجهه فقال أيؤذيك هوام رأسك قال نعم فأمره ان يحلق ويطعم ستة مساكين أو يهدي شاة أو يصوم ثلاثة ايام وقد ذكر ابن عبد البر انه لا خلاف بين العلماء ان النسك هنا هو شاة وحكى عن الجمهور ان الصوم هنا ثلاثة أيام والاطعام لستة مساكين وروى عن الحسن وعكرمة ونافع أنهم قالوا الصوم في فدية

بذات اليم وقال الامام احمد أخبرنا أبو النضر أخبرنا عبد الرحمن أخبرنا ثابت أخبرنا حسان بن عطية عن أبي منيب الجرشي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثت بين يدي الساعة بالسيف حتى يعبد الله وحده لا شريك له وجعل رزقي تحت ظل رمحي وجعلت الذلة والصغار على من خالف أمري ومن تشبه بقوم فهو منهم وروى أبو داود عن عثمان عن ابن ابي شيبة عن أبي النضر هاشم أخبرنا ابن القاسم به من تشبه بقوم فهو منهم ففيه دلالة على النهي الشديد والتهديد والوعيد على التشبه بالكفار في أقوالهم وأفعالهم (٢٥٦) ولباسهم وأعيادهم وعباداتهم وغير ذلك من أمورهم التي لم تشرع لنا ولم تقرر علينا وقال ابن أبي حاتم أخبرنا أبي أخبرنا نعيم بن حماد أخبرنا عبد الله بن المبارك أخبرنا مسعر عن ابن معن وعون أو احدهما ان رجلا أتى عبد الله ابن مسعود فقال اعهد الى فقال اذا سمعت الله يقول يا أيها الذين آمنوا فارعها سمعك فانه خير يأمر به أو شر ينهى عنه وقال الاعمش عن خيثمة قال ما تقرؤن في القرآن يا أيها الذين آمنوا فانه في التوراة يا أيها المساكين وقال محمد بن اسحق حدثني محمد بن أبي محمد عن سعيد بن جبير أو عكرمة عن ابن عباس راعنا أي ارعنا سمعك وقال الضحاك عن ابن عباس يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا قال كانوا يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم ارعنا سمعك وانما راعنا كقولك عاطنا وقال ابن أبي حاتم وروى عن أبي العالية وأبي مالك والربيع ابن أنس وعطية العوفي وقتادة نحو ذلك وقال مجاهد لا تقولوا راعنا لا تقولوا خلافا وفي رواية لا تقولوا اسمع منا ونسمع منك وقال عطاء لا تقولوا راعنا كانت لغة تقولها الانصار فنهى الله عنها وقال الحسن لا تقولوا راعنا قال الراعن من القول السخري منه نهاهم الله ان يسخروا من قول محمد صلى الله عليه وسلم وما يدعوهم اليه من الاسلام وكذا روى عن ابن جريج انه قال مثله وقال أبو صخر لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أدبر ناداه من كانت له حاجة من المؤمنين فيقول ارعنا سمعك فأعظم الله رسوله صلى الله عليه وسلم ان يقال ذلك له وقال السدي كان رجل من اليهود من بني قينقاع يدعى رفاعة بن زيد يأتي النبي صلى الله عليه وسلم فاذا لقيه فكلمه قال ارعني سمعك واسمع غير مسمع وكان المسلمون يحسبون ان الانبياء كانت تفخم بهذا فكان ناس منهم

الاذى عشرة أيام والاطعام لعشرة مساكين والحديث الصحيح المتقدم يرد عليهم ويبطل قولهم وقد ذهب مالك والشافعي وأبو حنيفة وأصحابهم وداود الى أن الاطعام في ذلك مدان بمد النبي صلى الله عليه وآله وسلم أي لكل مسكين وقال الثوري نصف صاع من بر أو صاع من غيره وروى ذلك عن أبي حنيفة قال ابن المنذر وهذا غلط لان في بعض أخبار كعب ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال له تصدق بثلاثة آصع من تمر على ستة مساكين واختلفت الرواية عن أحمد فروى عنه مثل قول مالك والشافعي وروى عنه أنه ان أطعم برا فمد لكل مسكين وان أطعم تمرا فنصف صاع واختلفوا في مكان هذه الفدية فقال عطاء ما كان من دم فبمكة وما كان من طعام أو صيام فحيث شاء وبه قال أصحاب الرأي وقال طاوس والشافعي الاطعام والدم لا يكونان الا بمكة والصوم حيث شاء وقال مالك ومجاهد حيث شاء في الجميع وهو الحق لعدم الدليل على تعيين المكان وهذا الدم دم تخيير وتقدير (فاذا أمنتم) أي برئتم من المرض وقيل من خوفكم من العدو على الخلاف السابق ولكن الامن من العدو أظهر من استعمال أمنتم في ذهاب المرض فيكون مقويا للقول من قال ان قوله فان أحصرتم المراد به الاحصار من العدو كما ان قوله فمن كان منكم مريضا يقوي قول من قال بذلك لافراد عذر المرض بالذكر وقد وقع الخلاف هل المخاطب بهذا هم المحصرون خاصة أم جميع الامة على حسب ما سلف (فمن تمتع بالعمرة الى الحج) يعني ان يحرم الرجل بعمرة ثم يقيم حلالا بمكة الى أن يحرم بالحج فقد استباح بذلك ما لا يحل للمحرم استباحته وهو معنى تمتع واستمتع ولا خلاف بين أهل العلم في جواز التمتع بل هو أفضل أنواع الحج عند أهل التحقيق (فما استيسر من الهدى) وهو شاة يذبحها يوم النحر فلو ذبحها قبله بعد ما أحرم بالحج أجزأه عند الشافعي ولا يجزئه ذبحه عند أبي حنيفة قبل يوم النحر وهذا الدم دم ترتيب وتقدير كما ذكره ابن المقرئ وقد اشتملت هذه الآيات على ثلاثة أنواع من أنواع الدم الواجب في النسك وبقي الرابع يذكر في المائدة في قوله لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم الآية وهو دم تخيير وتعديل ويجب في شيئين صيد وشجر (فمن لم يجد) الهدى اما لعدم المال أو لعدم الحيوان (فصيام ثلاثة أيام في) أيام (الحج) وهي من عند شروعه في الاحرام الى يوم النحر ومع ذلك يجوز ذبحه قبل الاحرام به على القاعدة من أن كل حق مالي تعلق بسببين جاز تقديمه على ثانيهما وقيل يصوم قبل

يقولون اسمع غير مسمع غير صاغر وهى كالتى فى سورة النساء فتقدم الله الى المؤمنين أن لا يقولوا راعنا وكذا قال عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم بنحو من هذا قال ابن جرير والصواب من القول فى ذلك عندنا ان الله نهى المؤمنين أن يقولوا لنبيه صلى الله عليه وسلم راعنا لانها كلمة كرهها الله تعالى ان يقولوها لنبيه صلى الله عليه وسلم نظير الذى ذكر عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال لا تقولوا للعنب الكرم ولكن قولوا الحبلة ولا تقولوا عبدى ولكن قولوا فتاى وما أشبه ذلك وقوله تعالى ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين ان ينزل عليكم من خير من ربكم يبين بذلك تعالى شدة عداوة الكافرين من أهل الكتاب والمشركين الذين حذر الله تعالى من مشابهتهم للمؤمنين ليقطع المودة بينهم وبينهم ونبه تعالى على ما أنعم به على المؤمنين من الشرع التام الكامل الذى شرعه لنبيهم محمد صلى الله عليه وسلم حيث يقول تعالى والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم (ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم ان الله على كل شئ قدير ألم تعلم ان الله له ملك السموات والارض وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير) قال ابن أبى طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما ما ننسخ من آية ما نبدل من آية وقال ابن جريج عن مجاهد ما ننسخ من آية أى ما نمحو من آية وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد ما ننسخ من آية قال نثبت خطها ونبدل حكمها حدث به عن أصحاب عبد الله بن مسعود رضى الله عنهم وقال ابن أبى حاتم وروى عن أبى العالية ومحمد بن كعب القرظى نحو ذلك وقال الضحاك ما ننسخ من آية ما ننسك وقال عطاء أما ما ننسخ فما نترك من القرآن وقال ابن أبى حاتم يعنى ترك فلم ينزل على محمد صلى الله عليه وسلم وقال السدى ما ننسخ من آية نسخها قبضها قال ابن أبى حاتم يعنى قبضها رفعها مثل قوله الشيخ والشيخة اذا زنيا فارجموهما البتة وقوله لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى لهما ثالثا وقال ابن جرير ما ننسخ من آية ما ننقل من حكم آية الى غيره فنبدله ونغيره وذلك ان نحول الحلال حراما والحرام حلالا والمباح محظورا والمحظور مباحا ولا يكون ذلك الا فى الامر والنهى والحظر والاطلاق والمنع والاباحة فاما الاخبار فلا يكون فيها ناسخ ولا منسوخ وأصل النسخ من نسخ الكتاب وهو نقله من نسخة اخرى الى غيرها فكذلك معنى نسخ الحكم الى غيره

يوم التروية يوما ويوم التروية ويوم عرفة وقيل ما بين أن يحرم بالحج الى يوم عرفة وقيل يصومهن من أول عشر ذى الحجة وقيل ما دام بمكة وقيل انه يجوز أن يصوم الثلاث قبل أن يحرم وقد جوز بعض أهل العلم صيام أيام التشريق لمن لم يجد الهدى ومنعه آخرون وبه قال الشافعى (وسبعة اذا رجعتم) أى الى الاوطان والاهل قال أحمد واسحق يجزئه الصوم فى الطريق ولا يتضيق عليه الوجوب الا اذا وصل وطنه وبه قال الشافعى وقتادة والربيع ومجاهد وعطاء وعكرمة والحسن وغيرهم وقال مالك اذا رجع من منى فلا بأس أن يصوم والاول أرجح وقد ثبت فى الصحيح من حديث ابن عمر انه قال صلى الله عليه وآله وسلم فمن لم يجد فليصم ثلاثة أيام فى الحج وسبعة اذا رجع الى أهله فبين صلى الله عليه وآله وسلم ان الرجوع المذكور فى الآية هو الرجوع الى الاهل وثبت أيضا فى الصحيح من حديث ابن عباس بلفظ وسبعة اذا رجعتم الى أمصاركم وقيل اذا فرغتم من أعمال الحج وبه قال أبو حنيفة والاول أولى وفيه التفات عن الغيبة وانما قال سبحانه (تلك عشرة كاملة) مع ان كل أحد يعلم أن الثلاثة والسبعة عشرة لدفع أن يتوهم متوهم التخيير بين الثلاثة الايام فى الحج والسبعة اذا رجع قاله الزجاج وقال المبرد ذكر ذلك ليدل على انقضاء العدد لئلا يتوهم متوهم أنه قد بقى منه شئ بعد ذكر السبعة وقيل هو توكيد كما تقول كتبت بيدى وقد كانت العرب تأتى بمثل هذه الفذلكة فيما دون هذا العدد وقوله كاملة توكيد آخر بعد الفذلكة لزيادة التوصية بصيامها وأن لا ينقص من عددها والمعنى كاملة يعنى فى الثواب والاجر يعنى أن ثواب صيام العشرة كثواب الذبح لا ينقص عنه شيأ وقيل كاملة فى قيامها مقام الهدى (ذلك لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام) الاشارة قيل هى راجعة الى التمتع فيدل على انه لا متعة لحاضرى المسجد الحرام كما يقوله أبو حنيفة وأصحابه قالوا ومن تمتع منهم كان عليه دم وهو دم جناية لا يأكل منه وقيل انها راجعة الى الحكم وهو وجوب الهدى أو الصيام على من تمتع فلا يجب ذلك على من كان من حاضرى المسجد الحرام كما يقوله الشافعى ومن وافقه والمراد من لم يكن ساكنا فى الحرم أو من لم يكن ساكنا فى المواقيت فما دونها على الخلاف فى ذلك بين الائمة قال مالك هم أهل مكة وقال طاوس هم أهل الحرم وقال ابن جريج هم أهل عرفة والرجيع وضجنان ونخلة وقال الشافعى من كان وطنه من

انما هو تحويله ونقل عبارة الى غيرها وسواء نسخ حكمها أو خطها اذ هي في كلتا حالتيها منسوخة وأما علماء الاصول فاختلفت عباراتهم في حد النسخ والامر في ذلك قريب لان معنى النسخ الشرعي معلوم عند العلماء ولخظ بعضهم انه رفع الحكم بدليل شرعي متأخر فاندرج في ذلك نسخ الاخف بالاثقل وعكسه والنسخ لا الى بدله وأما تفاصيل أحكام النسخ وذكر أنواعه وشروطه فبسوطة في أصول الفقه وقال الطبراني أخبرنا أبو شبل عبيد الله بن عبد الرحمن بن واقد أخبرنا أبي أخبرنا العباس بن الفضل عن سليمان بن أرقم عن الزهري عن سالم عن (٢٥٨) أبيه قال قرأ رجلان سورة أقرأهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فكانا يقرآن بها فقاما ذات ليلة يصليان فلم يقدرا منها على حرف فأصبحا غاديين على رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرا ذلك له فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انها مما نسخ وأنسي فالهوا عنها فكان الزهري يقرؤها ما ننسخ من آية أو ننسها بضم النون الخفيفة سليمان بن الارقم ضعيف وقد روى أبو بكر بن الانباري عن أبيه عن نصر بن داود عن أبي عبيد الله عن عبد الله بن صالح عن الليث عن يونس وعقيل عن ابن شهاب عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف مثله مرفوعا ذكره القرطبي وقوله تعالى أو ننسها فقرئ على وجهين ننسأها وننسها فأما من قرأها بفتح النون والهمزة بعد السين فمعناه نؤخرها قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ما ننسخ من آية أو ننساها يقول ما نبدل من آية أو نتركها لا نبدلها وقال مجاهد عن أصحاب ابن مسعود أو ننسأها نثبت خطها ونبدل حكمها وقال عبيد بن عمير ومجاهد وعطاء أو ننساها نؤخرها ونرجئها وقال عطية العوفي أو ننسأها نؤخرها فلا ننسخها وقال السدي مثله أيضا وكذا الربيع بن أنس وقال الضحاك ما ننسخ من آية أو ننسأها يعني الناسخ من المنسوخ وقال أبو العالية ما ننسخ من آية أو ننسأها نؤخرها عندنا وقال ابن أبي حاتم أخبرنا عبيد الله بن اسمعيل البغدادي أخبرنا خلف أخبرنا الخفاف عن اسمعيل يعني ابن أسلم عن حبيب بن أبي ثابت عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال خطبنا عمر رضي الله عنه فقال يقول الله عز وجل ما ننسخ من آية أو ننسأها أي نؤخرها وأما على قراءة أو ننسها فقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة في قوله ما ننسخ من آية أو ننسها قال كان الله عز وجل ينسي نبيه صلى الله عليه وسلم ما يشاء

مكة على أقل من مسافة القصر وقال أبو حنيفة هم أهل الميقات والمواقيت ذو الحليفة والجحفة وقرن ويلملم وذات عرق وقيل من تلزمه الجمعة فيه قال السيوطي والاهل كناية عن النفس أي نفس المحرم أي ذلك لمحرم لم يكن هو نفسه حاضر المسجد الحرام وهذا معنى سخيف والاولى ما قاله غيره وحكى الرملي عن الطبري ان المراد بالاهل الزوجة والاولاد الذين تحت حجره دون الآباء والاخوة (واتقوا الله) أي فيما فرض عليكم في هذه الاحكام وقيل هو أمر بالتقوى على العموم وتحذير من شدة عقاب الله سبحانه (واعلموا أن الله) اظهار في موضع الاضمار لتربية المهابة في روع السامع (شديد العقاب) لمن خالف أمره وتهاون بحدوده وارتكب مناهيه وهو من باب اضافة الصفة المشبهة الى مرفوعها (الحج أشهر معلومات) أي وقت الحج أشهر أي وقت عمل الحج وقيل التقدير الحج في أشهر وقيل غير ذلك وقد اختلف في الاشهر المعلومات فقال ابن مسعود وابن عمر وعطاء والربيع ومجاهد والزهري هي شوال وذو القعدة وذو الحجة كله وبه قال مالك وقال ابن عباس والسدي والشعبي والنخعي هي شوال وذو القعدة وعشر من ذي الحجة وبه قال أبو حنيفة والشافعي وأحمد وغيرهم وقد روي أيضا عن مالك وتظهر فائدة الخلاف فيما وقع من أعمال الحج بعد يوم النحر فمن قال ان ذا الحجة كله من الوقت قال لم يلزمه دم التأخير ومن قال ليس الا العشر منه قال يلزمه دم التأخير وقد استدل بهذه الآية من قال انه لا يجوز الاحرام بالحج قبل أشهر الحج وهو عطاء وطاوس ومجاهد والاوزاعي والشافعي وأبو ثور قالوا فمن أحرم بالحج قبلها أحل بالعمرة ولا يجزئه عن احرام الحج كمن دخل في صلاة قبل وقتها فلا تجزئه وقال أحمد وأبو حنيفة انه مكروه فقط وروي نحوه عن مالك والمشهور عنه جواز الاحرام بالحج في جميع السنة من غير كراهة وروي مثله عن أبي حنيفة وعلى هذا القول ينبغي أن ينظر في فائدة توقيت الحج بالاشهر المذكورة في الآية وقد قيل ان النص عليها لزيادة فضلها وقد روي القول بجواز الاحرام في جميع السنة عن اسحق بن راهويه وابراهيم النخعي والثوري والليث بن سعد واحتج لهم بقوله تعالى يسئلونك عن الاهلة قل هي مواقيت للناس والحج فجعل الاهلة كلها مواقيت للحج ولم يخص الثلاثة الاشهر ويجاب بان هذه الآية عامة وتلك خاصة والخاص مقدم على العام ومن جملة ما احتجوا به القياس للحج على العمرة فكما يجوز الاحرام للعمرة في جميع السنة

ويُنسخ ما يشاء وقال ابن جرير أخبرنا سواد بن عبد الله أخبرنا خالد بن الحرث أخبرنا عوف عن الحسن انه قال في قوله أو ننسها
قال ان نبيكم صلى الله عليه وسلم قرأ قرآنا ثم نسيه وقال ابن أبي حاتم أخبرنا أبي أخبرنا ابن نفيل أخبرنا محمد بن الزبير الحراني عن
الحجاج يعني الجزري عن عكرمة عن ابن عباس قال كان مما ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم الوحي بالليل وينساه بالنهار فانزل
الله عز وجل ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها قال ابن أبي حاتم قال لي أبو جعفر بن نفيل ليس هو الحجاج بن أرطاة
هو شيخ لنا جزري وقال عبيد بن عمير أو ننسها نرفعها من عندكم وقال (٢٥٩) ابن جرير حدثني يعقوب بن ابراهيم
أخبرنا هشيم عن يعلى بن عطاء عن القاسم بن ربيعة قال سمعت سعد ابن أبي وقاص يقرأ ما ننسخ من آية أو ننسها قال قلت له فان سعيد ابن المسيب يقرأ أو ننساها قال فقال سعد ان القرآن لم ينزل على المسيب ولا على آل المسيب قال قال الله جل ثناؤه سنقرئك فلا تنسى واذكر ربك اذا نسيت وكذا رواه عبد الرزاق عن هشيم وأخرجه الحاكم في مستدركه من حديث أبي حاتم الرازي عن آدم عن شعبة عن يعلى ابن عطاء به وقال على شرط الشيخين ولم يخرجاه قال ابن أبي حاتم وروى عن محمد بن كعب وقتادة وعكرمة نحو قول سعيد وقال الامام أحمد أخبرنا يحيى أخبرنا سفيان الثوري عن حبيب بن أبي ثابت عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال قال عمر علي أقضانا وأبي أقرؤنا وانا لندع من قول أبي وذلك ان أبيا يقول ما أدع شيأ سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم والله يقول ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها
أو مثلها قال البخاري أخبرنا يحيى أخبرنا سفيان عن حبيب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال قال عمر أقرؤنا أبي وأقضانا
علي وانا لندع من قول أبي وذلك ان أبيا يقول لا أدع شيأ سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد قال الله ما ننسخ من آية
أو ننسها وقوله نأت بخير منها أو مثلها أي في الحكم بالنسبة الى مصلحة المكلفين كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس نأت بخير منها
يقول خير لكم في المنفعة وأرفق بكم وقال أبو العالية ما ننسخ من آية فلا نعمل بها أو ننساها أي نرجئها عندنا نأت بها أو نظيرها
وقال السدي نأت بخير منها أو مثلها يقول نأت بخير من الذي نسخناه أو مثل الذي تركناه وقال قتادة نأت بخير منها أو مثلها

كذلك يجوز للحج ولا يخفى ان هذا القياس مصادم للنص القرآني فهو باطل والحق
ما ذهب اليه الاولون ان كانت الاشهر المذكورة في قوله الحج أشهر مختصة بالثلاثة
المذكورة بنص أو اجماع فان لم يكن كذلك فالاشهر جمع شهر وهو من جموع القلة يتردد
ما بين الثلاثة الى العشرة والثلاثة هي المتيقنة فيجب الوقوف عندها ومعنى معلومات
ان الحج في السنة مرة واحدة في أشهر معلومات من شهورها ليس كالعمرة أو المراد
معلومات ببيان النبي صلى الله عليه وآله وسلم أو معلومات عند المخاطبين لا يجوز
التقدم عليها ولا التأخر عنها (فمن فرض) على نفسه (فيهن الحج) أي أوجبه عليها وألزمه
اياها وأصل الفرض في اللغة الحز والقطع ومنه فرضة القوس والنهر والجبل ففرضية
الحج لازمة للعبد الحر كلزوم الحز للقوس وقيل معنى فرض أبان وهو أيضا يرجع الى
القطع لان من قطع شيأ فقد أبانه عن غيره وقال ابن مسعود الفرض الاحرام وقال
ابن الزبير الاهلال وروى نحو ذلك عن جماعة من التابعين والمعنى في الآية فمن ألزم
نفسه وأوجب عليها فيهن الحج بالشروع فيه بالنية قصدا باطنا وبالاحرام فعلا ظاهرا
وبالتلبية نطقا مسموعا وقال أبو حنيفة ان الزامه نفسه يكون بالتلبية أو بتقليد الهدى
وسوقه وقال الشافعي تكفي النية في الاحرام بالحج (فلا رفث) قال ابن عباس وابن
جبير والسدي وقتادة والحسن وعكرمة والزهري ومجاهد ومالك هو الجماع وفي رواية
عن ابن عباس هو غشيان النساء والتقبيل والغمز وقال ابن عمر وطاوس وعطاء وغيرهم
الرفث الافحاش بالكلام والخنا والقول القبيح وعلى هذا التلفظ به في غيبة النساء
يكون رفثا وقال أبو عبيدة الرفث اللغا من الكلام (ولا فسوق) أصله الخروج عن
حدود الشرع وعن الطاعة وقيل هو الذبح للاصنام وقيل التنابز بالالقاب وقيل
السباب وقال ابن عمر هو ما نهى عنه المحرم في حال الاحرام من قتل الصيد وتقليم
الاظفار وأخذ الشعر وما أشبه ذلك والظاهر انه لا يختص بمعصية متعينة وانما خصصه
من خصصه بما ذكر باعتبار أنه قد أطلق على ذلك الفرد اسم الفسوق كما قال سبحانه في
الذبح للاصنام أو فسقا أهل لغير الله به وقال في التنابز بئس الاسم الفسوق وقال
صلى الله عليه وآله وسلم سباب المسلم فسوق ولا يخفى على عارف ان اطلاق اسم
الفسوق على فرد من أفراد المعاصي لا يوجب اختصاصه به (ولا جدال) مشتق من الجدل

يقول آية فيها تخفيف فيها رخصة فيها امر فيها نهى وقوله ألم تعلم ان الله على كل شئ قدير ألم تعلم ان الله له ملك السموات والارض ومالكم من دون الله من ولي ولا نصير يرشد عباده تعالى بهذا الى أنه المتصرف في خلقه بما يشاء فله الخلق والامر وهو المتصرف فكما خلقهم كما يشاء ويسعد من يشاء ويشقي من يشاء ويصح من يشاء ويمرض من يشاء ويوفق من يشاء ويخذل من يشاء كذلك يحكم في عباده بما يشاء فيحل ما يشاء ويحرم ما يشاء ويبيح ما يشاء ويحظر ما يشاء وهو الذي يحكم ما يريد لا معقب لحكمه ولا يسئل عما يفعل وهم يسئلون ويختبر عباده وطاعتهم

لرسله بالنسخ فيأمر بالشئ لما فيه من المصلحة التي يعلمها تعالى ثم ينهى عنه لما يعلمه تعالى فالطاعة كل الطاعة في امتثال أمره واتباع رسله في تصديق ما أخبروا وامتثال ما أمروا وترك ما عنه زجروا وفي هذا المقام رد عظيم وبيان بليغ لكفر اليهود وتزييف شبهتهم لعنهم الله في دعوى استحالة النسخ اما عقلا كما زعمه بعضهم جهلا وكفرا واما نقلا كما تخرصه آخرون منهم افتراء وافكا قال الامام أبو جعفر ابن جرير رحمه الله فتأويل الآية ألم تعلم يا محمد ان لي ملك السموات والارض وسلطانهما دون غيري أحكم فيهما وفيما فيهما بما أشاء وآمر فيهما وفيما فيهما بما أشاء وأنهى عما أشاء وأنسخ وأبدل وأغير من أحكامي التي أحكم بها في عبادي بما أشاء اذا أشاء وأقر فيهما ما أشاء ثم قال وهذا الخبر وان كان خطابا من الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم على وجه الخبر عن عظمته فانه فيه تكذيب لليهود الذين أنكروا نسخ أحكام التوراة وجحدوا نبوة عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام لمجيئهما بما جاءا به من عند الله بتغيير ما غير الله من

قوم

حكم التوراة فأخبرهم الله أن له ملك السموات والارض وسلطانهما وان الخلق أهل مملكته وطاعته وعليهم السمع والطاعة لامره ونهيه وان له أمرهم بما يشاء ونهيهم عما يشاء ونسخ ما يشاء واقرار ما يشاء وانشاء ما يشاء من اقراره وأمره ونهيه (قلت) الذي يحمل اليهود على البحث في مسئلة النسخ انما هو الكفر والعناد فانه ليس في العقل ما يدل على امتناع النسخ في أحكام الله تعالى لانه يحكم ما يشاء كما انه يفعل ما يريد مع انه قد وقع ذلك في كتبه المتقدمة وشرائعه الماضية كما أحل لآدم تزويج بناته من بنيه ثم حرم ذلك وكما أباح لنوح بعد خروجه من السفينة أكل جميع الحيوانات ثم نسخ حل بعضها وكان

وهو القتل والمراد به هنا المماراة وقيل السباب وقيل الفخر بالآباء والظاهر الاول ومعنى النفي لهذه الامور النهي عنها وأخرج الطبراني عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الرفث التعريض للنساء بالجماع والفسوق المعاصي كلها والجدال جدال الرجل صاحبه وروى نحو هذا عن جماعة من التابعين بعبارات مختلفة قال ابن عباس الجدال هو المراء قيل هو قول الرجل الحج اليوم ويقول آخر الحج غدا وقيل هو ما كان عليه أهل الجاهلية كان بعضهم يقف بعرفة وبعضهم بمزدلفة وبعضهم يحج في ذي القعدة وبعضهم في ذي الحجة وكل يقول الصواب فيما فعلته فأخبر الله أن أمر الحج قد استقر على ما فعله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلا خلاف فيه بعده (في الحج) أي في أيامه ونكتة الاظهار كمال الاعتناء بشأنه والاشعار بعلة الحكم فان زيارة البيت المعظم والتقرب بها من موجبات ترك الامور المذكورة وايثار النفي للمبالغة في النهي والدلالة على أن ذلك حقيق بأن لا يقع فان ما كان منكرا مستقبحا في نفسه ففي خلال الحج أقبح كلبس الحرير في الصلاة لانه خروج عن مقتضى الطبع والعادة الى محض العبادة ظاهر الآية في الثلاثة خبر ومعناه نهي وانما نهى عن ذلك وان كان اجتنابها في كل الاحوال والازمان واجبا لانها في الحج أسمج وأفظع منه في غيره وقيل معناه ولا شك في الحج أنه في ذي الحجة فابطل النسيء وعن أبي هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول من حج ولم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه أخرجه البخاري ومسلم (وما تفعلوا من خير يعلمه الله) حث على الخير بعد ذكر الشر وعلى الطاعة بعد ذكر المعصية وهو أن يستعملوا مكان الرفث الكلام الحسن ومكان الفسوق البر والتقوى ومكان الجدال الوفاق والاخلاق الجميلة وفيه ان كل ما يفعلونه من ذلك فهو معلوم عند الله لا يفوت منه شئ (وتزودوا) ما يبلغكم لسفركم (فان خير الزاد التقوى) أي ما يتقي به سؤال الناس وغيره فيه الامر باتخاذ الزاد لان بعض العرب كانوا يقولون كيف نحج بيت ربنا ولا يطعمنا فكانوا يحجون بلا زاد ويقولون نحن متوكلون على الله سبحانه ثم يقدمون فيسألون الناس ويكونون كلا عليهم فأنزل الله هذه الآية أخرجه عبد بن حميد والبخاري وأبو داود والنسائي وغيرهم عن ابن عباس وقد روي عن جماعة من التابعين مثل ذلك قال ابن الجوزي قد لبس ابليس على

نكاح الاختين مباحا لاسرائيل وبنيه وقد حرم ذلك فى شريعة التوراة ومابعدها وأمر ابراهيم عليه السلام بذبح ولده ثم نسخه قبل الفعل وأمر جمهور بنى اسرائيل بقتل من عبد العجل منهم ثم رفع عنهم القتل كيلا يستأصلهم القتل وأشياء كثيرة يطول ذكرها وهم يعترفون بذلك ويصدفون عنه ومايجاب به عن هذه الادلة باجوبة لفظية فلا يصرف الدلالة فى المعنى اذهو المقصود وكما فى كتبهم مشهورا من البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم والامر باتباعه فانه يفيد وجوب متابعته عليه السلام وانه لايقبل عمل الاعلى شريعته وسواء قيل ان الشرائع المتقدمة مغياة الى بعثته عليه السلام فلا يسمى ذلك نسخا لقوله ثم أتموا الصيام الى الليل وقيل انها مطلقة وان شريعة محمد صلى الله عليه وسلم نسختها فعلى كل تقدير فوجوب متابعته متعين لانه جاء بكتاب هو آخر الكتب عهدا بالله تبارك وتعالى ففى هذا المقام بين تعالى جواز النسخ ردا على اليهود عليهم لعنة الله حيث قال تعالى ألم تعلم أن الله على كل شئ قدير ألم تعلم ان الله له ملك السموات والارض الآية فكما ان له الملك بلا منازع فكذلك له الحكم بما يشاء ألا له الخلق والامر وقرئ فى سورة آل عمران التى نزل صدرها خطابا مع أهل الكتاب وقوع النسخ فى قوله تعالى كل الطعام كان حلا لبنى اسرائيل الا ماحرم اسرائيل على نفسه الآية كما سيأتى تفسيره والمسلمون كلهم متفقون على جواز النسخ فى أحكام الله تعالى لماله فى ذلك من الحكمة البالغة وكلهم قال بوقوعه وقال أبو مسلم الاصبهانى المفسر لم يقع شئ من ذلك فى القرآن وقوله ضعيف مردود مرذول وقد تعسف فى الاجوبة عما وقع من النسخ فمن ذلك قضية العدة بأربعة أشهر وعشر بعد الحول لم يجب عن ذلك بكلام مقبول وقضية تحويل القبلة الى الكعبة عن بيت المقدس لم يجب بشئ ومن ذلك نسخ مصابرة المسلم لعشرة من الكفرة الى مصابرة الاثنين ومن ذلك نسخ وجوب الصدقة قبل مناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم وغير ذلك والله أعلم (أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ومن يتبدل الكفر بالايمان فقد ضل سواء السبيل) نهى الله تعالى المؤمنين فى هذه الآية الكريمة عن كثرة سؤال النبى صلى الله عليه وسلم عن الاشياء قبل كونها كما قال تعالى يا أيها الذين آمنوا لاتسألوا عن أشياء ان تبد لكم تسؤكم وان تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم أى وان تسألوا عن

قوم يدعون التوكل فخرجوا بلازاد وظنوا ان هذا هو التوكل وهم على غاية من الخطا وقيل المعنى تزودوا لمعادكم من الاعمال الصالحة فان خير الزاد التقوى والاول أرجح كما دل عليه سبب نزول الآية وفيه اخبار بان خير الزاد اتقاء المنهيات فكأنه قال اتقوا الله فى اتيان ماأمركم به من الخروج بالزاد فان خيره التقوى وقيل المعنى فان خير الزاد ما اتقى به المسافر من التهلكة والحاجة الى السؤال والتكفف (واتقون) أى وخافوا عقابى وقيل اشتغلوا بتقواى وفيه تنبيه على كمال عظمة الله جل جلاله (ياأولى الالباب) فيه التخصيص لاولى الالباب بالخطاب بعد حث جميع العباد على التقوى لان أرباب الالباب والعقول هم القابلون لاوامر الله الناهضون بها ولب كل شئ خالصه (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم) فيه الترخيص لمن حج فى التجارة ونحوها من الاعمال التى يحصل بها شئ من الرزق وهو المراد بالفضل هنا ومنه قوله تعالى فانتشروا فى الارض وابتغوا من فضل الله أى لااثم عليكم فى ان تبتغوا فى مواسم الحج رزقا ونفعا وهو الربح فى التجارة مع سفركم لتأدية ماافترضه عليكم من الحج نزل ردا لكراهتهم ذلك والحق ان الاذن فى هذه التجارة جار مجرى الرخص وتركها أولى لقوله تعالى وماأمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين والاخلاص هو أن لايكون له حامل على الفعل سوى كونه عبادة (فاذا أفضتم من عرفات) يقال فاض الاناء اذا امتلأ ماء حتى ينصب من نواحيه ورجل فياض أى مندفعة يده بالعطاء ومعناه أفضتم أنفسكم فترك ذكر المفعول كما ترك فى قولهم دفعوا من موضع كذا وعرفات اسم لتلك البقعة كأذرعات أى موضع الوقوف وعرفة اسم اليوم وسميت عرفات لان الناس يتعارفون فيها وقيل لأن آدم التقى هو وحواء فيها فتعارفا وقيل غير ذلك قال ابن عطية والظاهر أنه اسم مرتجل كسائر أسماء البقاع الاعلى القول بان أصله جمع واستدل بالآية على وجوب الوقوف بعرفة لان الافاضة لاتكون الابعده ولايتم الحج الابه ووقت الافاضة من عرفات بعد غروب الشمس فاذا غربت دفع منها وأخر صلاة المغرب حتى يجمع بينها وبين العشاء بمزدلفة (فاذكروا الله) المراد بذكر الله هنا دعاؤه ومنه التلبية والتكبير أى اذكروه لذاته من غير ملاحظة نعمه لانه تعالى يستحق الحمد من حيث ذاته ومن حيث انعامه على خلقه فحصلت المغايرة بين هذا وقوله واذكروه كما هداكم وقيل المراد بالذكر صلاة المغرب والعشاء بالمزدلفة جمعا وقد أجمع أهل العلم

تفصيلها بعد نزولها تبين لكم ولا تسألوا عن الشيء قبل كونه فلعله ان يحرم من أجل تلك المسئلة ولهذا جاء في الصحيح ان أعظم المسلمين جرما من سأل عن شيء لم يحرم فحرم من أجل مسئلته ولما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل يجد مع امرأته رجلا فان تكلم تكلم بامر عظيم وان سكت سكت على مثل ذلك فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم المسائل وعابها ثم أنزل الله حكم الملاعنة ولهذا ثبت في الصحيحين من حديث المغيرة بن شعبة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينهى عن قيل وقال واضاعة المال وكثرة السؤال وفي صحيح مسلم ذروني (٢٦٢) ما تركتكم فانما اهلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فاذا أمرتكم بامر فاتوا منه ما استطعتم وان نهيتكم عن شيء فاجتنبوه وهذا انما قاله بعد ما أخبرهم ان الله كتب عليهم الحج فقال رجل كل عام يارسول الله فسكت عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثا ثم قال عليه السلام لا ولو قلت نعم لوجبت ولو وجبت لما استطعتم ثم قال ذروني ما تركتكم الحديث ولهذا قال أنس بن مالك نهينا ان نسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شيء فكان يعجبنا ان يأتي الرجل من أهل البادية فيسأله ونحن نسمع وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده أخبرنا أبو كريب أخبرنا اسحق بن سليمان عن أبي سنان عن أبي اسحق عن البراء بن عازب قال ان كان ليأتي علي السنة أريد أن أسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الشيء فأتهيب منه وان كنا لنتمنى الاعراب وقال البزار أخبرنا محمد بن المثنى أخبرنا ابن فضيل عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال ما رأيت قوما خيرا من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ما سألوه الا عن اثنتي عشرة مسئلة كلها في القرآن يسألونك عن الخمر والميسر ويسألونك عن الشهر الحرام ويسألونك عن اليتامى يعني وذلك هذا وأشباهه وقوله تعالى أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل أي بل تريدون أو هي على بابها في الاستفهام وهو انكاري وهو يعم المؤمنين والكافرين فانه عليه السلام رسول الله الى الجميع كما قال تعالى يسألك أهل الكتاب ان تنزل عليهم كتابا من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فاخذتهم الصاعقة بظلمهم قال محمد بن اسحق حدثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد عن ابن عباس قال قال رافع بن حريملة ووهب بن زيد يا محمد ائتنا بكتاب تنزله علينا من السماء نقرؤه

على ان السنة ان يجمع الحاج بينهما فيها (عند المشعر الحرام) سمي مشعرا من الشعار وهو العلامة والدعاء عنده من شعائر الحج ووصف بالحرام لحرمته من التحريم وهو المنع فهو ممنوع من ان يفعل فيه ما لم يؤذن فيه وفي الحديث أنه صلى الله عليه وآله وسلم وقف به يذكر الله ويدعو حتى أسفر جدا رواه مسلم أي دخل في السفر بفتحتين وهو بياض النهار قاله الشوبري والمشعر هو جبل قزح الذي يقف عليه الامام وقيل هو ما بين جبلي المزدلفة من مأزمي عرفة الى وادي محسر (واذكروه) ذكرا حسنا (كما هداكم) هداية حسنة وكرر الامر بالذكر تأكيدا وقيل الاول أمر بالذكر عند المشعر الحرام والثاني أمر بالذكر على حكم الاخلاص وقيل المراد بالثاني تعديد النعمة عليهم والكاف للتعليل (وان كنتم من قبله لمن الضالين) الضمير في قبله عائد الى الهدى وقيل الى القرآن وقيل الى الرسول والضالين الجاهلين بالايمان والطاعة قاله الخطيب وقيل جاهلين لا تعرفون كيف تذكرونه وتعبدونه (ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس) فيه الخطاب للحمس من قريش لانهم كانوا لا يقفون مع الناس بعرفات بل كانوا يقفون بالمزدلفة وهي من الحرم فامروا بذلك وقد ورد في هذا المعنى روايات عن الصحابة والتابعين عند البخاري ومسلم وغيرهما وعلى هذا يكون ثم لعطف جملة على جملة بمعنى الواو لا للترتيب وقيل الخطاب لجميع الامة والمراد بالناس ابراهيم أي أفيضوا من حيث أفاض ابراهيم فيحتمل ان يكون أمر لهم بالافاضة من عرفة ويحتمل ان تكون افاضة أخرى وهي التي من مزدلفة وعلى هذا يكون ثم على بابها للترتيب في الذكر لا في الزمان الواقع فيه الاعمال وقد رجح هذا الاحتمال الاخير ابن جرير الطبري وهو الذي يقتضيه ظاهر القرآن (واستغفروا الله) أي من مخالفتكم في الموقف ولجميع ذنوبكم وانما أمروا بالاستغفار لانهم في مساقط الرحمة ومواطن القبول ومظنات الاجابة وقيل ان المعنى استغفروا للذي كان مخالفا لسنة ابراهيم وهو وقوفكم بالمزدلفة دون عرفة وقد وردت أحاديث كثيرة في المغفرة لاهل عرفة ونزول الرحمة عليهم واجابة دعائهم (ان الله غفور رحيم) أي ساتر لذنوب عباده برحمته وفيه دليل على أنه يقبل التوبة من عباده التائبين ويغفر لهم (فاذا قضيتم مناسككم) المراد بالمناسك أعمال الحج ومنه قوله صلى الله عليه وآله وسلم خذوا عني مناسككم أي فاذا فرغتم من أعمال الحج وقيل المراد بها الذبائح

وبجعلنا أنهارا نتبعك ونصدقك فأنزل الله من قولهم أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ومن يتبدل الكفر بالايمان فقد ضل سواء السبيل وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية فى قوله تعالى أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل قال قال رجل يا رسول الله لو كانت كفاراتنا ككفارات بنى اسرائيل فقال النبى صلى الله عليه وسلم اللهم لانبغيها ثلاثا ما أعطاكم الله خير مما أعطى بنى اسرائيل كانت بنو اسرائيل اذا أصاب أحدهم الخطيئة وجدها مكتوبة على بابه وكفارتها فان كفرها كانت له خزيا فى الدنيا وان لم يكفرها كانت له خزيا فى الآخرة فما أعطاكم الله

خير مما أعطى بنى اسرائيل قال ومن يعمل سوأ أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما وقال الصلوات الخمس من الجمعة الى الجمعة كفارة لما بينهن وقال من هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب عليه وان عملها كتبت سيئة واحدة ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة واحدة وان عملها كتبت له عشر أمثالها ولا يهلك على الله الا هالك فأنزل الله أم تريدون ان تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل وقال مجاهد أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل أن يريهم الله جهرة قال سألت قريش محمدا صلى الله عليه وسلم أن يجعل لهم الصفا ذهبا قال نعم وهو لكم كالمائدة لبنى اسرائيل فأبوا ورجعوا وعن السدى وقتادة نحو هذا والله أعلم والمراد ان الله ذم من سأل الرسول صلى الله عليه وسلم عن شئ على وجه التعنت والاقتراح كما سألت بنو اسرائيل موسى عليه السلام تعنتا وتكذيبا وعنادا قال الله تعالى ومن يتبدل الكفر بالايمان أى ومن يشتر الكفر بالايمان فقد ضل سواء السبيل أى فقد خرج عن الطريق المستقيم الى الجهل والضلال وهكذا حال الذين عدلوا عن تصديق الانبياء واتباعهم والانقياد لهم الى مخالفتهم وتكذيبهم والاقتراح عليهم بالاسئلة التى لا يحتاجون اليها على وجه التعنت والكفر كما قال تعالى ألم تر الى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار وقال أبو العالية يتبدل الشدة بالرخاء (ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد ايمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره ان الله على كل شئ قدير وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وما تقدموا لأنفسكم من خير

وذلك بعد رمى جمرة العقبة والاستقرار بمنى (فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا) انما قال سبحانه ذلك لان العرب كانوا اذا فرغوا من حجهم يقفون عند الجمرة وقيل عند البيت فيذكرون مفاخر آبائهم ومناقب أسلافهم بالمنثور والمنظوم من الكلام الفصيح وغرضهم بذلك الشهرة والسمعة والرفعة فلما من الله عليهم بالاسلام أمرهم بذكره مكان ذلك الذكر ويجعلونه ذكرا مثل ذكرهم لآبائهم أو أشد من ذكرهم لآبائهم والذكر له بالتمجيد والتحميد والتهليل والتسبيح والتكبير والثناء عليه وقيل أو بمعنى الواو أى وأكثر واذكر الله تعالى من ذكركم للآباء لانه هو المنعم عليكم وعلى آبائكم فهو المستحق للذكر والحمد مطلقا (فمن الناس من يقول ربنا آتنا فى الدنيا وماله فى الآخرة من خلاق) لما أرشد سبحانه عباده الى ذكره وكان الدعاء نوعا من أنواع الذكر جعل من يدعوه منقسما الى قسمين أحدهما يطلب حظ الدنيا ولا يلتفت الى حظ الآخرة والقسم الآخر يطلب الامرين جميعا والخلاق النصيب أى ماله هذا الداعى فى الآخرة من نصيب لان همه مقصور على الدنيا لا يريد غيرها ولا يطلب سواها وفى هذا الخبر معنى النهى عن الاقتصار على طلب الدنيا والذم لمن جعلها غاية رغبته ومعظم مقصوده عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة ان أعطى رضى وان لم يعط سخط تعس وانتكس واذا شيك فلا انتقش أخرجه البخارى وهذا دعاء عليه بالهلاك وفى الباب أحاديث كثيرة وانما كان سؤال المشركين للدنيا ولم يطلبوا التوبة والمغفرة ونعيم الآخرة لانهم كانوا ينكرون البعث (ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) قد اختلف فى تفسير الحسنتين المذكورتين فى الآية فقيل هما ما يطلبه الصالحون فى الدنيا من العافية وما لا بد منه من الرزق وما يطلبونه فى الآخرة من نعيم الجنة والرضا وقيل المراد بحسنة الدنيا الزوجة الحسناء وبحسنة الآخرة الحور العين وقيل حسنة الدنيا العلم والعبادة وحسنة الآخرة الجنة وقيل الاولى العمل الصالح والثانية المغفرة والثواب وقيل من آتاه الله الاسلام والقرآن وأهلا ومالا فقد أوتى فيهما حسنة وقيل غير ذلك مما لا فائدة فى ذكره قال القرطبى والذى عليه أكثر أهل العلم ان المراد بالحسنتين نعيم الدنيا والآخرة قال وهذا هو الصحيح فان اللفظ يقتضى هذا كله فان حسنة نكرة فى سياق الدعاء فهو محتمل لكل

يجدوه عند الله ان الله بما تعملون بصير) يحذر تعالى عباده المؤمنين عن سلوك طريق الكفار من أهل الكتاب ويعلمهم بعداوتهم لهم في الباطن والظاهر وما هم مشتملون عليه من الحسد للمؤمنين مع علمهم بفضلهم وفضل نبيهم ويأمر عباده المؤمنين بالصفح والعفو والاحتمال حتى يأتي أمر الله من النصر والفتح ويأمرهم باقامة الصلاة وايتاء الزكاة ويحثهم على ذلك ويرغبهم فيه كما قال محمد بن اسحق حدثني محمد بن أبي محمد عن سعيد بن جبير أو عكرمة عن ابن عباس قال كان حيي بن أخطب وأبو ياسر بن أخطب من أشد يهود للعرب حسدا اذ خصهم الله برسوله صلى الله عليه وسلم وكانا جاهدين في رد (٢٦٤) الناس عن الاسلام ما استطاعا فأنزل الله فيهما ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم الآية وقال عبد الرزاق عن معمر عن الزهري في قوله تعالى ود كثير من أهل الكتاب قال هو كعب بن الاشرف وقال ابن أبي حاتم أخبرنا أبي أخبرنا أبو اليمان اخبرنا شعيب عن الزهري أخبرني عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك عن أبيه ان كعب بن الاشرف اليهودي كان شاعرا وكان يهجو النبي صلى الله عليه وسلم وفيه أنزل الله ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم الى قوله فاعفوا واصفحوا وقال الضحاك عن ابن عباس ان رسولا أميا يخبرهم بما في أيديهم من الكتب والرسل والآيات ثم يصدق بذلك كله مثل تصديقهم ولكنهم جحدوا ذلك كفرا وحسدا وبغيا وكذلك قال الله تعالى كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق يقول من بعد ما أضاء لهم الحق لم يجهلوا منه شيئا ولكن الحسد حملهم على الجحود فعيرهم ووبخهم ولامهم أشد الملامة وشرع لنبيه صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين ما هم عليه من التصديق والايمان والاقرار بما أنزل الله عليهم وما أنزل من قبلهم بكرامته وثوابه الجزيل ومعونته لهم وقال الربيع بن أنس من عند أنفسهم من قبل أنفسهم وقال أبو العالية من بعد ما تبين لهم الحق من بعد ما تبين ان محمدا رسول الله يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل فكفروا به حسدا وبغيا اذ كان من غيرهم وكذا قال قتادة والربيع بن أنس وقوله فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره مثل قوله تعالى ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا الآية قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله فاعفوا واصفحوا

حسنة من الحسنات على البدل وحسنة الآخرة الجنة باجماع انتهى (أولئك) اشارة الى الفريق الثاني فقط (لهم نصيب مما) أي من جنس ما (كسبوا) من الاعمال أي من ثوابها ومن جملة أعمالهم الدعاء فما أعطاهم الله بسببه من الخير فهو مما كسبوا وقيل معناه من أجل ما كسبوا وهو بعيد وقيل قوله أولئك اشارة الى الفريقين جميعا أي للاولين نصيب من الدنيا ولا نصيب لهم في الآخرة وللآخرين نصيب مما كسبوا في الدنيا والآخرة (والله سريع الحساب) الحساب مصدر كالمحاسبة وأصله العدد والمراد هنا المحسوب سمي حسابا تسمية للمفعول بالمصدر والمعنى أن حسابه لعباده في يوم القيامة سريع مجيئه فبادروا ذلك بأعمال الخير أوانه وصف نفسه بسرعة حساب الخلائق على كثرة عددهم وأعمالهم ليدل بذلك على كمال قدرته لانه تعالى لا يشغله شأن عن شان ولا يحتاج الى آلة ولا اشارة ولا مساعدة فيحاسبهم في حالة واحدة كما قال تعالى ما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة وقال السيوطي يحاسب الخلق كلهم في قدر نصف من نهار من أيام الدنيا لحديث بذلك انتهى وهذا تمثيل للسرعة لا تعيين لمقدار زمن الحساب وقيل معناه ان الله يعلم العباد ما لهم وعليهم وهذا أبعد وقيل المحاسبة المجازاة ويدل عليه قوله فحاسبناها حسابا شديدا وقيل معناه انه سريع القبول لدعاء عباده والاجابة لهم وقيل معنى الآية ان اتيان القيامة قريب لا محالة وفيه اشارة الى المبادرة بالتوبة والذكر وسائر الطاعات وطلب الآخرة (واذكروا الله) يعني بالتوحيد والتعظيم والتكبير في أدبار الصلوات وعند رمي الجمرات فقد ورد في الصحيح ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم كبر مع كل حصاة والخطاب للحاج وغيره كما ذهب اليه الجمهور وقيل هو خاص بالحاج (في أيام معدودات) قال القرطبي لا خلاف بين العلماء ان الايام المعدودات في هذه الآية هي أيام منى وهي أيام التشريق الثلاثة وهي أيام رمي الجمار أولها اليوم الحادي عشر من ذي الحجة وهو مذهب الشافعي وبه قال ابن عمر وابن عباس والحسن وعطاء ومجاهد وقتادة وقال ابراهيم الايام المعدودات ايام العشر والايام المعلومات أيام النحر وكذا روي عن مكي والمهدوي قال القرطبي ولا يصح لما ذكرناه من الاجماع على ما نقله أبو عمر ابن عبد البر وغيره وعن أبي يوسف الايام المعلومات أيام النحر قال لقوله تعالى ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الانعام وقال محمد بن الحسن هي أيام

أيام النحر الثلاثة يوم الأضحى ويومان بعده وهو قول علي وروي عن ابن عمر وهو مذهب أبي حنيفة قال الكيا الطبري فعلى قول أبي يوسف ومحمد لا فرق بين المعلومات والمعدودات لان المعدودات المذكورة في القرآن أيام التشريق بلا خلاف وروي عن مالك أن الأيام المعدودات والأيام المعلومات يجمعها أربعة أيام يوم النحر وثلاثة أيام بعده فيوم النحر معلوم غير معدود واليومان بعده معلومان معدودان واليوم الرابع معدود لا معلوم وهو مروي عن ابن عمر وقال ابن زيد الأيام المعلومات عشر ذي الحجة وأيام التشريق وأجمع العلماء على ان المراد بهذا هو التكبير عند رمي الجمرات مع كل حصاة يرمي بها في جميع أيام التشريق وهو سنة بالاتفاق وعن نبيشة الهذلي قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر الله تعالى رواه مسلم ومن الذكر في هذه الأيام التكبير وروى البخاري عن ابن عمر أنه كان يكبر بمنى تلك الأيام وخلف الصلوات وعلى فراشه وفي فسطاطه وفي مجلسه وفي ممشاه في تلك الأيام جميعا وقد اختلف أهل العلم في وقته فقيل من صلاة الصبح يوم عرفة الى العصر من آخر أيام التشريق فيكون التكبير على هذا في ثلاث وعشرين صلاة وهو قول علي بن أبي طالب ومكحول وبه قال أبو يوسف ومحمد وقيل من غداة عرفة الى صلاة العصر من آخر النحر وبه قال أبو حنيفة وابن مسعود وعلى هذا يكون التكبير في ثمان صلوات وقيل من صلاة الظهر يوم النحر الى صلاة الصبح من آخر أيام التشريق وبه قال مالك والشافعي فيكون التكبير على هذا في خمس عشرة صلاة وهو قول ابن عباس وابن عمر ولفظ التكبير عند الشافعي الله أكبر ثلاثا نسقا وعند أهل العراق مرتين (فمن تعجل في يومين فلا اثم عليه ومن تأخر فلا اثم عليه) اليومان هما يوم ثاني النحر ويوم ثالثه من أيام التشريق قال ابن عباس والحسن وعكرمة ومجاهد وقتادة والنخعي من رمى في اليوم الثاني من الأيام المعدودات فلا حرج ومن تأخر الى الثالث فلا حرج فمعنى الآية كل ذلك مباح وعبر عنه بهذا التقسيم اهتماما وتأكيدا لان من العرب من كان يذم التعجل ومنهم من كان يذم التأخر فنزلت الآية رافعة للجناح في كل ذلك وقال علي وابن مسعود معنى الآية من تعجل فقد غفر له ومن تأخر فقد غفر له والآية قد دلت على ان التعجل والتأخر مباحان ولا بد من ارتكاب مجاز في قوله يومين من حيث انه جعل الواقع في

حتى يأتي الله بأمره والسدي وقوله فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره نسخ ذلك قوله واقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وقوله قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر الى قوله وهم صاغرون فنسخ هذا عفوه عن المشركين وكذا قال أبو العالية والربيع بن أنس وقتادة والسدي انها منسوخة بآية السيف ويرشد الى ذلك أيضا قوله تعالى حتى يأتي الله بأمره وقال ابن أبي حاتم أخبرنا أبي أخبرنا أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهري أخبرني عروة بن الزبير أن أسامة بن زيد أخبره قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله ويصبرون على الأذى قال الله فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره ان الله على كل شئ قدير وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتأول من العفو ما أمره الله به حتى أذن الله فيهم بالقتل فقتل الله به من قتل من صناديد قريش وهذا اسناده صحيح ولم أره في شئ من الكتب الستة ولكن له أصل في الصحيحين عن أسامة بن زيد وقوله تعالى وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله يحثهم تعالى على الاشتغال بما ينفعهم وتعود عليهم عاقبته يوم القيامة من اقام الصلاة وايتاء الزكاة حتى يمكن لهم الله النصر في الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار ولهذا قال تعالى ان الله بما تعملون بصير يعني انه تعالى لا يغفل عن عمل عامل ولا يضيع لديه سواء كان خيرا أو شرا فانه سيجازي كل عامل بعمله وقال أبو جعفر بن جرير في قوله تعالى ان الله بما تعملون بصير هذا الخبر من الله للذين خاطبهم بهذه الآيات من المؤمنين انهم مهما فعلوا من خير أو شر سرا وعلانية فهو به بصير لا يخفى عليه منه شئ فيجزيهم بالاحسان خيرا وبالاساءة مثلها وهذا الكلام وان كان قد خرج مخرج الخبر فان فيه وعدا ووعيدا وأمرا وزجرا وذلك انه أعلم القوم انه بصير بجميع أعمالهم ليجدوا في طاعته اذ كان ذلك مذخورا لهم عنده حتى يثيبهم عليه كما قال تعالى وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله وليحذروا معصيته قال وأما قوله بصير فانه مبصر صرف الى بصير كما صرف مبدع الى بديع ومؤلم الى أليم والله أعلم وقال ابن أبي حاتم أخبرنا أبو زرعة أخبرنا ابن بكير حدثني ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب عن أبي

الخبر عن عقبة بن عامر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ هذه الآية سميع بصير يقول بكل شئ بصير (وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون وقالت اليهود ليست النصارى على شئ وقالت النصارى ليست اليهود على شئ وهم يتلون الكتاب كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) بين تعالى اغترار اليهود والنصارى بما هم فيه حيث ادعت كل (٢٦٦) طائفة من اليهود والنصارى انه لن يدخل الجنة الا من كان على ملتها كما أخبر الله عنهم فى سورة المائدة انهم قالوا نحن أبناء الله وأحباؤه فاكذبهم الله تعالى بما أخبرهم انه معذبهم بذنوبهم ولو كانوا كما ادعوا لما كان الامر كذلك وكما تقدم من دعواهم انه لن تمسهم النار الا أياما معدودة ثم ينتقلون الى الجنة ورد عليهم تعالى فى ذلك وهكذا قال لهم فى هذه الدعوى التى ادعوها بلا دليل ولا حجة ولا بينة فقال تلك أمانيهم وقال أبو العالية أمانى تمنوها على الله بغير حق وكذا قال قتادة والربيع بن أنس ثم قال تعالى قل أى يا محمد هاتوا برهانكم قال أبو العالية ومجاهد والسدى والربيع بن أنس حجتكم وقال قتادة بينتكم على ذلك ان كنتم صادقين أى فيما تدعونه ثم قال تعالى بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن أى من أخلص العمل لله وحده لا شريك له كما قال تعالى فان حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن الآية وقال أبو العالية والربيع بلى من أسلم وجهه لله يقول من أخلص لله وقال سعيد بن جبير بلى من أسلم أخلص وجهه قال دينه وهو محسن أى اتبع فيه الرسول صلى الله عليه وسلم فان للعمل المتقبل شرطين أحدهما أن يكون خالصا لله وحده والآخر أن يكون صوابا موافقا للشريعة فمتى كان خالصا ولم يكن صوابا لم يتقبل ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد رواه مسلم من حديث عائشة عنه عليه الصلاة والسلام فعمل الرهبان ومن شابههم وان فرض أنهم مخلصون فيه لله فانه لا يتقبل منهم حتى يكون ذلك متابعا للرسول صلى الله عليه وسلم المبعوث اليهم والى الناس كافة وفيهم وأمثالهم قال الله تعالى وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا وقال تعالى والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة

أحدهما واقعا فيهما كقوله نسيا حوتهما ويخرج منهما اللؤلؤ والمرجان وجعلا له شركاء فيما آتاهما والناسى أحدهما وكذلك المخرج منه والجاعل له أحدهما أو من حيث حذف المضاف أى فى ثانى يومين والاول أولى (لمن اتقى) أى ان ذلك التخيير ورفع الاثم ثابت لمن اتقى لان صاحب التقوى يحترز عن كل ما يريبه فكان أحق بتخصيصه بهذا الحكم قال الاخفش التقدير ذلك لمن اتقى وقيل لمن اتقى بعد انصرافه من الحج عن جميع المعاصى وقيل لمن اتقى قتل الصيد وقيل معناه السلامة لمن اتقى وقيل أى الذكر لمن اتقى فى حجه لانه الحاج فى الحقيقة (واتقوا الله) أى فى المستقبل (واعلموا أنكم اليه تحشرون) فيجازيكم باعمالكم وفيه حث على التقوى وهو عبارة عن فعل الواجبات وترك المحظورات (ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا) أى يروقك وتستحسنه ويعظم فى قلبك حلاوة كلامه مما يتعلق بامر الدنيا والاعجاب استحسان الشئ والميل اليه والتعظيم له وقال الراغب العجب حيرة تعرض للانسان بسبب الشئ وليس هو شيا له فى ذاته حالة حقيقية بل هو بحسب الاضافات الى من يعرف السبب ومن لا يعرفه وحقيقة أعجبنى كذا ظهر لى ظهورا لم أعرف سببه انتهى لما ذكر سبحانه طائفتى المسلمين بقوله ومن الناس من يقول عقب ذلك بذكر طائفة المنافقين وهم الذين يظهرون الايمان ويبطنون الكفر وقيل انها نزلت فى قوم من المنافقين وقيل انها نزلت فى كل من أضمر كفرا أو نفاقا أو كذبا وأظهر بلسانه خلافه (ويشهد الله على ما فى قلبه) أى أنه يحلف على ذلك فيقول انى بك مؤمن ولك محب أو يقول الله يعلم انى أقول حقا وانى صادق فى قولى لك أو أن ما فى قلبى موافق لقولى (وهو ألد الخصام) أى شديد الخصومة يقال رجل ألد وامرأة لداء والخصام مصدر خاصم قاله الخليل وقيل جمع خصيم قاله الزجاج والمعنى أنه أشد المخاصمين خصومة لكثرة جداله وقوة مراجعته والاضافة بمعنى فى أى ألد فى الخصام أو جعل الخصام ألد على المبالغة أى شديد الجدال فى الباطل وهو كاذب القول وقيل شديد القسوة فى المعصية يتكلم بالحكمة ويعمل بالخطيئة عن عائشة عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال أبغض الرجال الى الله الالد الخصم أخرجه البخارى ومسلم (واذا تولى سعى فى الارض ليفسد فيها) أى اذا أدبر وذهب عنك يا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وقيل انه بمعنى ضل وغضب وقيل انه بمعنى الولاية أى اذا كان واليا فعل ما يفعله ولاة

يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا وقال تعالى وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة تصلى نارا حامية تسقى من عين آنية وروى عن أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه انه تاولها فى الرهبان كما سياتى واما ان كان العمل موافقا للشريعة فى الصورة الظاهرة ولكن لم يخلص عامله القصد لله فهو أيضا مردود على فاعله وهذا حال المرائين والمنافقين كما قال تعالى ان المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى يراؤن الناس ولا يذكرون الله الا قليلا وقال تعالى فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراؤن ويمنعون الماعون ولهذا قال تعالى (٢٦٧) فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا وقال فى هذه الآية الكريمة بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن وقوله فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ضمن لهم تعالى على ذلك تحصيل الاجور وآمنهم مما يخافونه من المحذور فلا خوف عليهم فيما يستقبلونه ولا هم يحزنون على مامضى مما يتركونه كما قال سعيد بن جبير فلا خوف عليهم يعنى فى الآخرة ولا هم يحزنون يعنى لا يحزنون للموت وقوله تعالى وقالت اليهود ليست النصارى على شئ وقالت النصارى ليست اليهود على شئ وهم يتلون الكتاب بين به تعالى تناقضهم وتباغضهم وتعاديهم وتعاندهم كما قال محمد بن اسحق حدثنى محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس قال لما قدم أهل نجران من النصارى على رسول الله صلى الله عليه وسلم أتتهم أحبار يهود فتنازعوا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رافع بن حرملة ما أنتم على شئ وكفر بعيسى وبالانجيل وقال رجل من أهل نجران من النصارى لليهود ما أنتم على شئ وجحد نبوة موسى وكفر بالتوراة فانزل الله فى ذلك من قولهما وقالت اليهود ليست النصارى على شئ وقالت النصارى ليست اليهود على شئ وهم يتلون الكتاب قال ان كلا يتلو فى كتابه تصديق من كفر به ان يكفر اليهود بعيسى وعندهم التوراة فيها ما أخذ الله عليهم على لسان موسى بالتصديق بعيسى وفى الانجيل ما جاء به عيسى بتصديق موسى وما جاء من التوراة من عند الله وكل يكفر بما فى يد صاحبه وقال مجاهد فى تفسير هذه الآية قد كانت أوائل اليهود والنصارى على شئ وقال قتادة وقالت اليهود ليست النصارى على شئ قال بلى قد كانت أوائ

السوء من الفساد فى الارض والسعى يحتمل أن يكون المراد به السعى بالقدمين الى ما هو فساد فى الارض كقطع الطريق وقطع الارحام وحرب المسلمين وسفك دمائهم ويحتمل ان يكون المراد به العمل فى الفساد وان لم يكن فيه سعى بالقدمين كالتدبير على المسلمين بما يضرهم واعمال الحيل عليهم وكل عمل يعمله الانسان بجوارحه أو حواسه يقال له سعى وهذا هو الظاهر من هذه الآية (ويهلك الحرث والنسل) من عطف الخاص على العام فان الفساد أعم من ذلك فيشمل سفك الدماء ونهب الاموال وغير ذلك والمراد بالحرث الزرع والنسل الاولاد وقيل الحرث النساء قال الزجاج وذلك لان النفاق يؤدى الى تفريق الكلمة ووقوع القتال وفيه هلاك النسل وقال مجاهد الحرث نبات الارض والنسل نسل كل شئ من الحيوان الناس والدواب وعنه أيضا قال معنى الآية يلى فى الارض فيعمل فيها بالعدوان والظلم فيحبس الله بذلك القطر من السماء فيهلك بحبس القطر الحرث والنسل وقال ابن عباس نسل كل دابة وأصل الحرث فى اللغة الشق ومنه المحراث لما يشق به الارض والحرث كسب المال وجمعه وأصل النسل فى اللغة الخروج والسقوط ومنه نسل الشعر ومنه أيضا الى ربهم ينسلون ومن كل حدب ينسلون ويقال لما خرج من كل أنثى نسل لخروجه منها (والله لا يحب الفساد) يشمل كل نوع من أنواعه من غير فرق بين ما فيه فساد الدين وما فيه فساد الدنيا واحتجت المعتزلة بهذه الآية على أن المحبة عبارة عن الارادة وأجيب عنه بان الارادة معنى غير المحبة فان الانسان قد يريد شيئا ولا يحبه كالدواء المر يتناوله ولا يحبه فبان الفرق بينهما وقيل ان المحبة مدح الشئ وتعظيمه والارادة بخلاف ذلك (واذا قيل له) أى على سبيل النصيحة وهى مستأنفة أو معطوفة على يعجبك (اتق الله) أى خف الله فى سرك وعلانيتك (أخذته العزة بالاثم) العزة القوة والغلبة من عزه يعزه اذا غلبه ومنه وعزنى فى الخطاب وقيل العزة هنا الحمية والانفة وقيل المنعة وشدة النفس والمعنى حملته العزة على فعل الاثم من قولك أخذته بكذا اذا حملته عليه وألزمته اياه قاله الزمخشرى وقيل أخذته العزة بما يؤثمه أى ارتكب الكفر للعزة ومنه بل الذين كفروا فى عزة وشقاق وقيل الباء فى قوله بالاثم بمعنى اللام أى أخذته الحمية عن قبول الوعظ للاثم الذى فى قلبه وهو النفاق وقيل الباء بمعنى مع أى أخذته العزة مع الاثم وقيل للسببية أى ان اثمه كان سببا لاخذ العزة له وفى هذه الآية

النصارى على شئ ولكنهم ابتدعوا وتفرقوا وقالت النصارى ليست اليهود على شئ قال بلى قد كانت أوائل اليهود على شئ ولكنهم ابتدعوا وتفرقوا وعنه رواية أخرى كقول أبي العالية والربيع بن أنس في تفسير هذه الآية وقالت اليهود ليست النصارى على شئ وقالت النصارى ليست اليهود على شئ هؤلاء أهل الكتاب الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا القول يقتضي ان كلا من الطائفتين صدقت فيما رمت به الطائفة الاخرى ولكن ظاهر سياق الآية يقتضي ذمهم فيما قالوه مع علمهم بخلاف ذلك ولهذا قال تعالى وهم يتلون الكتاب أى وهم يعلمون شريعة التوراة والانجيل كل منهما قد كانت مشروعة في وقت ولكنهم تجاحدوا فيما بينهم عنادا وكفرا ومقابلة للفاسد بالفاسد كما تقدم عن ابن عباس ومجاهد وقتادة في الرواية الاولى عنه في تفسيرها والله أعلم وقوله كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم بين بهذا جهل اليهود والنصارى فيما تقابلوا به من القول وهذا من باب الايماء والاشارة وقد اختلف فيمن عنى بقوله تعالى الذين لا يعلمون فقال الربيع بن أنس وقتادة كذلك قال الذين لا يعلمون قالا قالت النصارى مثل قول اليهود وقيلهم وقال ابن جريج قلت لعطاء من هؤلاء الذين لا يعلمون قال أمم كانت قبل اليهود والنصارى وقبل التوراة والانجيل وقال السدى كذلك قال الذين لا يعلمون فهم العرب قالوا ليس محمد على شئ واختار أبو جعفر بن جرير انها عامة تصلح للجميع وليس ثم دليل قاطع يعين واحدا من هذه الاقوال والحمل على الجميع أولى والله أعلم وقوله تعالى فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون أى انه تعالى يجمع بينهم يوم المعاد ويفصل بينهم بقضائه العدل الذى لا يجور فيه ولا يظلم مثقال ذرة وهذه الآية كقوله تعالى لما في سورة الحج ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا ان الله يفصل بينهم يوم القيامة ان الله على كل شئ شهيد وكما قال تعالى قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم (ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها أولئك ما كان لهم أن يدخلوها الا خائفين لهم في الدنيا خزى ولهم في الآخرة عذاب عظيم) اختلف المفسرون في المراد من الذين منعوا مساجد الله وسعوا في خرابها على قولين أحدهما ما رواه العوفي في تفسيره عن ابن عباس في قوله ومن

التتميم وهو نوع من علم البديع وهو عبارة عن ارداف الكلمة بأخرى ترفع عنها اللبس وتقربها الى الفهم وذلك ان العزة تكون محمودة ومذمومة فمن مجيئها محمودة قوله تعالى ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين فلو أطلقت لتوهم فيها بعض من لا دراية له أنها المحمودة فقيل بالاثم توضيحا للمراد فرفع اللبس به قاله السمين قال ابن مسعود ان من أكبر الذنوب عند الله أن يقول الرجل لاخيه اتق الله فيقول عليك بنفسك أنت تأمرنى وعن سفيان قال قال رجل لمالك بن مغول اتق الله فسقط فوضع خده على الارض تواضعا لله (فحسبه جهنم) أى كافيه معاقبة وجزاء كما تقول للرجل كفاك ما حل بك وأنت تستعظم عليه ما حل به وحسب اسم فاعل وقيل اسم فعل (ولبئس المهاد) جمع المهد وهو الموضع المهيأ للنوم ومنه مهد الصبي وقيل اسم مفرد سمى به الفراش الموطأ للنوم وسميت جهنم مهادا لانها مستقر الكفار وقيل المعنى أنها بدل لهم من المهاد كقوله فبشرهم بعذاب أليم وقال مجاهد بئسما مهدوا لانفسهم وقال ابن عباس بئس المنزل وهذا من باب التهكم والاستهزاء (ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله) يشرى بمعنى يبيع أى يبيع نفسه في مرضاة الله كالجهاد والامر بالمعروف والنهى عن المنكر قال قتادة هم المهاجرون والانصار ومثله قوله تعالى وشروه بثمن بخس وأصله الاستبدال ومنه قوله ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بان لهم الجنة والمرضاة الرضا قال ابن عباس نزلت في سرية الرجيع وكانت بعد أحد وفي البخارى تمام قصته عن حديث أبي هريرة فان شئت فارجع اليه (والله رؤف بالعباد) وجه ذكر الرأفة هنا أنه أوجب عليهم ما أوجبه ليجازيهم ويثيبهم عليه فكان ذلك رأفة لهم ولطفا بهم ومن رأفته ان جعل النعيم الدائم في الجنة جزاء على العمل القليل المنقطع ومن رأفته انه يقبل توبة عبده وأنه لا يكلف نفسا الا وسعها وان المصر على الكفر ولو مائة سنة اذا تاب ولو لحظة أسقط عنه عقاب تلك السنين وأعطاه الثواب الدائم ومن رأفته ان نفس العباد وأموالهم له ثم انه يشترى ملكه بملكه فضلا منه ورحمة واحسانا وهذه أربعة أقسام اشتملت عليها تلك الآيات الكريمات أولها راغب في الدنيا فقط ظاهرا وباطنا والثاني راغب فيها وفي الآخرة كذلك والثالث راغب في الآخرة ظاهرا وفي الدنيا باطنا والرابع راغب في الآخرة ظاهرا وباطنا معرض عن الدنيا كذلك (يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة)

أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه قال هم النصارى وقال مجاهد هم النصارى كانوا يطرحون فى بيت المقدس الأذى ويمنعوا الناس أن يصلوا فيه وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة فى قوله وسعى فى خرابها قال هو بختنصر وأصحابه خرب بيت المقدس وأعانه على ذلك النصارى وقال سعيد عن قتادة قال أولئك أعداء الله النصارى حملهم بغض اليهود على أن أعانوا بختنصر البابلى المجوسى على تخريب بيت المقدس وقال السدى كانوا ظاهروا بختنصر على خراب بيت المقدس حتى خربه وأمر أن تطرح فيه الجيف وانما أعانه الروم على خرابه من أجل (٢٦٩) ان بنى اسرائيل قتلوا يحيى بن زكريا وروى نحوه عن الحسن البصرى القول الثانى ما رواه ابن جرير حدثنى يونس بن عبد الأعلى حدثنا ابن وهب قال قال ابن زيد فى قوله ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى فى خرابها قال هؤلاء المشركون الذين حالوا بين رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية وبين أن يدخلوا مكة حتى نحر هديه بذى طوى وهادنهم وقال لهم ما كان أحد يصد عن هذا البيت وقد كان الرجل يلقى قاتل أبيه وأخيه فلا يصده فقالوا لا يدخل علينا من قتل آباءنا يوم بدر وفينا باق وفى قوله وسعى فى خرابها قال اذ قطعوا من يعمرها بذكره ويأتيها للحج والعمرة وقال ابن أبى حاتم ذكر عن سلمة قال قال محمد ابن اسحق حدثنى محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس ان قريشا منعوا النبى صلى الله عليه وسلم الصلاة عند الكعبة فى المسجد الحرام فأنزل الله ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ثم اختار ابن جرير القول الأول واحتج بأن قريشا لم تسع فى خراب الكعبة وأما الروم فسعوا فى تخريب بيت المقدس (قلت) والذى يظهر والله أعلم القول الثانى كما قاله ابن زيد وروى عن ابن عباس لأن النصارى اذ منعت اليهود الصلاة فى البيت المقدس كان دينهم أقوم من دين اليهود وكانوا أقرب منهم ولم يكن ذكر الله من اليهود مقبولا اذ ذاك لأنهم لعنوا من قبل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون وأيضا فانه تعالى لما وجه الذم فى حق اليهود والنصارى شرع فى ذم المشركين الذين أخرجوا الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه من مكة ومنعوهم من الصلاة فى المسجد الحرام وأما اعتماده على أن قريشا لم تسع فى خراب الكعبة فأى خراب أعظم مما فعلوا أخرجوا

لما ذكر سبحانه ان الناس ينقسمون الى ثلاث طوائف مؤمنين وكافرين ومنافقين أمرهم بعد ذلك بما يكون على ملة واحدة وانما أطلق على الثلاث الطوائف لفظ الايمان لأن أهل الكتاب مؤمنون بنبيهم وكتابهم والمنافق مؤمن بلسانه وان كان غير مؤمن بقلبه والسلم بفتح السين وكسرها قال الكسائى معناهما واحد وكذا عند البصريين وهما جميعا يقعان للاسلام والمسالمة وقال أبو عمرو بن العلاء انه بالفتح للمسالمة وبالكسر للاسلام وأنكر المبرد هذه التفرقة وقال الجوهرى السلم بفتح السين ويكسر ويذكر ويؤنث وأصله من الاستسلام والانقياد ورجح الطبرى أنه هنا بمعنى الاسلام وقد حكى البصريون فى سلم وسلم انهما بمعنى واحد وكافة حال من السلم أو من ضمير المؤمنين فمعناه على الأول لا يخرج منكم أحد وعلى الثانى لا يخرج من أنواع السلم شئ بل ادخلوا فيها جميعا أى فى خصال الاسلام وهو مشتق من قولهم كففت أى منعت أى لا يمتنع منكم أحد من الدخول فى الاسلام والكف المنع والمراد به هنا الجميع (ولا تتبعوا خطوات الشيطان) أى لا تسلكوا الطريق التى يدعوكم اليها الشيطان وقيل لا تلتفتوا الى الشبهات التى تلقيها اليكم أصحاب الضلالة والغواية والأهواء المضلة لأن من اتبع سنة انسان فقد اتبع أثره وقد تقدم الكلام على خطوات (انه لكم عدو مبين) يعنى الشيطان وانه يحاول ايصال الضرر والبلاء الينا وان الله بين عداوته ماهى فكأنه مبين وان لم يشاهد وهذا البيان بالنسبة لمن أنار الله قلبه وأما غيره فهو حليف له (فان زللتم) أى تنحيتم عن طريق الاستقامة وأصل الزلل فى القدم ثم استعمل فى الاعتقادات والآراء وغير ذلك يقال زل يزل زلا وزللا وزلولا أى دحضت قدمه والمعنى فان ملتم وضللتم وأشركتم وعرجتم عن الحق (من بعد ما جاءتكم البينات) أى بالحجج الواضحة والبراهين الصحيحة على أن الدخول فى الاسلام هو الحق (فاعلموا أن الله عزيز) غالب لا يعجزه شئ عن الانتقام منكم (حكيم) لا ينتقم الا بحق وفى الآية وعيد وتهديد لمن فى قلبه شك ونفاق أو عنده شبهة فى الدين (هل ينظرون) استفهام انكارى أى ينتظرون يقال نظرته وانتظرته بمعنى والمراد هل ينتظر الزالون التاركون للدخول فى الاسلام والمتبعون خطوات الشيطان فهو التفات الى الغيبة للايذان بأن سوء صنيعهم موجب للاعراض عنهم وحكاية جناياتهم لما عداهم من أهل الانصاف على طريق الاهانة (الا أن يأتيهم الله)

عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه واستحوذوا عليها باصنامهم وأندادهم وشركهم كما قال تعالى وما لهم الا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه ان أولياؤه الا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون وقال تعالى ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفى النار هم خالدون انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش الا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين وقال تعالى هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوفا أن يبلغ محله ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم ان تطؤهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ليدخل الله فى رحمته من يشاء لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما فقال تعالى انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش الا الله فاذا كان من هو كذلك مطرودا منها مصدودا عنها فاى خراب لها أعظم من ذلك وليس المراد بعمارتها زخرفتها واقامة صورتها فقط انما عمارتها بذكر الله فيها واقامة شرعه فيها ورفعها عن الدنس والشرك وقوله تعالى أولئك ما كان لهم أن يدخلوها الا خائفين هذا خبر معناه الطلب أى لا تمكنوا هؤلاء اذا قدرتم عليهم من دخولها الا تحت الهدنة والجزية ولهذا لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة أمر من العام القابل فى سنة تسع أن ينادى برحاب منى ألا لا يحجن بعد العام مشرك ولا يطوفن بالبيت عريان ومن كان له أجل فاجله الى مدته وهذا اذا كان تصديقا وعملا بقوله تعالى يا أيها الذين آمنوا انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وقال بعضهم ما كان ينبغى لهم أن يدخلوا مساجد الله الا خائفين على حال التهيب وارتعاد الفرائص من المؤمنين ان يبطشوا بهم فضلا ان يستولوا عليها ويمنعوا المؤمنين منها والمعنى ما كان الحق والواجب الا ذلك لولا ظلم الكفرة وغيرهم وقيل ان هذا بشارة من الله للمسلمين انه سيظهرهم على المسجد الحرام وعلى سائر المساجد وانه يذل المشركين لهم حتى لا يدخل المسجد الحرام أحد منهم الا خائفا يخاف أن يؤخذ فيعاقب أو يقتل ان لم يسلم وقد أنجز الله هذا الوعد كما تقدم من منع المشركين من دخول المسجد الحرام وأوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يبقى بجزيرة

بما وعدهم من الحساب والعذاب استثناء مفرغ من مقدر أى ليس لهم شئ ينتظرونه الا اتيان العذاب وهذا مبالغة فى توبيخهم (فى ظلل) جمع ظلة وهى ما يظلك وقال الاخفش وقد يحتمل ان يكون معنى الاتيان راجعا الى الجزاء فسمى الجزاء اتيانا كما سمى التخويف والتعذيب فى قصة ثمود اتيانا فقال فاتى الله بنيانهم من القواعد وقال فى قصة النضير فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وانما احتمل الاتيان هذا لان أصله عند أهل اللغة القصد الى الشئ فمعنى الآية هل ينظرون الا ان يظهر الله فعلا من الافعال مع خلق من خلقه يقصد الى محاربتهم وقيل ان المعنى يأتيهم أمر الله وحكمه وقيل ان قوله فى ظلل بمعنى بظلل وقيل المعنى يأتيهم ببأسه فى ظلل (من الغمام) يعنى السحاب الرقيق الابيض سمى بذلك لانه يغم أى يستر ووجه اتيان العذاب فى الغمام على تقدير ان ذلك هو المراد فى مجىء الخوف من محل الأمن من الفظاعة وعظم الموقع لان الغمام مظنة الرحمة لا مظنة العذاب وهذا أبلغ فى تنكيتهم وتخويفهم أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال يجمع الله الاولين والآخرين لميقات يوم معلوم قياما شاخصة أبصارهم الى السماء ينتظرون فصل القضاء وينزل الله فى ظلل من الغمام من العرش الى الكرسى وعن ابن عمر قال يهبط حين يهبط وبينه وبين خلقه سبعون ألف حجاب منها النور والظلمة والماء فيصوت الماء فى تلك الظلمة صوتا تنخلع له القلوب وعن ابن عباس يأتى الله يوم القيامة فى ظلل من السحاب قد قطعت طاقات والتقدير فى ظلل كائنة من الغمام ومن على هذا للتبعيض أو من ناحية الغمام وهى على هذا لابتداء الغاية (والملائكة) أى وتأتيهم الملائكة فانهم وسائط فى اتيان امره تعالى بل هم الآتون بأسه على الحقيقة وقرئ بالجر عطفا على ظلل أو على الغمام فتوصف الملائكة بكونها ظللا على التشبيه قال عكرمة والملائكة حوله وقيل حول الغمام وقيل حول الرب تعالى وهذه من آيات الصفات وللعلماء فيها وفى أحاديث الصفات مذهبان أحدهما الايمان والتسليم لما جاء فى آيات الصفات وأحاديثها ووجوب الاعتقاد بظاهرها والايمان بها كما جاءت واحالة علمها الى الله تعالى مع تنزيهه سبحانه عن التشبيه والتمثيل والتحريف والتبديل والتعطيل وهو قول سلف هذه الامة وأئمتها قال الكلبى هذا من الذى لا يفسر وكان ابن عيينة والزهرى والاوزاعى ومالك وابن المبارك والثورى والليث بن

سعد

العرب دينان وان يجلى اليهود والنصارى منها ولله الحمد والمنة وما ذاك الا تشريف أكناف الله فيها رسوله الى الناس كافة بشيرا ونذيرا صلوات الله وسلامه عليه وهذا هو الخزى لهم فى الدنيا لا ... عمل فكما صدوا المؤمنين عن المسجد الحرام صدوا عنه وكما أجلوهم من مكة أجلوا عنها ولهم فى الآخرة عذاب عظيم على ما انتهكوا من حرمة البيت وامتهنوه من نصب الاصنام حوله ودعاء غير الله عنده والطواف به عريا وغير ذلك من أفاعيلهم التى يكرهها الله ورسوله وامامن فسر بيت المقدس فقال كعب الاحبار ان النصارى لما ظهروا على بيت المقدس خربوه فلما بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم أنزل عليه ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى فى خرابها أولئك ما كان لهم أن يدخلوها الا خائفين الآية فليس فى الارض نصرانى يدخل بيت المقدس الا خائفا وقال السدى فليس فى الارض رومى يدخله اليوم الا وهو خائف أن يضرب عنقه أو قد أخيف باداء الجزية فهو يؤديها وقال قتادة لا يدخلون المساجد الا مسارقة قلت وهذا لا ينفى أن يكون داخلا فى معنى عموم الآية فان النصارى لما ظلموا بيت المقدس بامتهان الصخرة التى كانت تصلى اليها اليهود عوقبوا شرعا وقدرا بالذلة فيه الا فى أحيان من الدهر اشحن بهم بيت المقدس وكذلك اليهود لما عصوا الله فيه أيضا أعظم من عصيان النصارى كانت عقوبتهم أعظم والله أعلم وفسر هؤلاء الخزى فى الدنيا بخروج المهدى عند السدى وعكرمة ووائل بن داود وفسره قتادة باداء الجزية عن يد وهم صاغرون والصحيح ان الخزى فى الدنيا أعم من ذلك كله وقد ورد الحديث بالاستعاذة من خزى الدنيا وعذاب الآخرة كما قال الامام أحمد أخبرنا الهيثم بن خارجة أخبرنا محمد بن أيوب بن ميسرة بن حلبس سمعت أبى يحدث عن بشر بن أرطاة قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو اللهم أحسن عاقبتنا فى الامور كلها وأجرنا من خزى الدنيا وعذاب الآخرة وهذا حديث حسن وليس فى شئ من الكتب الستة وليس لصحابيه وهو بشر بن أرطاة ويقال ابن أبى أرطاة حديث سواه وسوى حديث لا تقطع الايدى فى الغزو (ولله المشرق والمغرب فاينما تولوا فثم وجه الله ان الله واسع عليم) وهذا والله أعلم فيه تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه الذين أخرجوا من

سعد وأحمد بن حنبل واسحق بن راهويه يقولون فى هذه الآية وأمثالها اقرؤها كما جاءت بلا كيف ولا تشبيه ولا تأويل ولا تعطيل هذا مذهب أعلام أهل السنة ومعتقد سلف الامة وأنشد بعضهم فى المعنى

عقيدتنا أن ليس مثل صفاته * ولا ذاته شئ عقيدة صائب
نسلم آيات الصفات باسرها * واجراءها للظاهر المتقارب
ونؤيس عنها كنه فهم عقولنا * وتأويلنا فعل اللبيب المغالب
ونركب للتسليم سفنا فانها * لتسليم دين المرء خير المراكب

والثانى التأويل لها بما يناسب تنزيهه سبحانه وتعالى عندهم وهو قول جمهور علماء المتكلمين وأصحاب النظر كما قالوا فى هذه الآية مجىء الله هو مجىء الآيات أو مجىء أمر الله أو عذاب الله فانكروا امرار الصفات على ظاهرها واجراءها على ما أراد الله وهذا خلاف ما عليه سلف الامة وأئمتها وقد أوضحنا ذلك فى كتابنا الانتقاد الرجيح وبغية الرائد عما لا يحتاج الناظر فيهما الى غيرهما (وقضى الامر) عطف على يأتيهم داخل فى حيز الانتظار وانما عدل الى صيغة الماضى دلالة على تحققه فكأنه قد كان أو جملة مستأنفة جىء بها للدلالة على ان مضمونها واقع لا محالة أى وفرغ من الامر الذى هو اهلاكهم قال عكرمة قضى الامر أى قامت الساعة (والى الله ترجع الامور) أى أمور العباد فى الآخرة لا الى غيره والمراد من هذا اعلام الخلق انه المجازى على الاعمال بالثواب والعقاب (سل بنى اسرائيل كم آتيناهم من آية بينة) المأمور بالسؤال هو النبى صلى الله عليه وآله وسلم ويجوز ان يكون هو كل فرد من السائلين وهو سؤال تقريع وتوبيخ والمسؤل عنهم يهود المدينة وكم اما استفهامية للتقرير أو خبرية للتكثير والآية هى البراهين التى جاءهم بها أنبياؤهم فى أمر محمد صلى الله عليه وآله وسلم وقيل المراد بذلك الآيات التى جاءهم بها موسى وهى تسع قال أبو العالية آتاهم الله آيات بينات عصا موسى ويده وأقطعهم البحر وأغرق عدوهم وهم ينظرون وظللنا من الغمام وأنزل عليهم المن والسلوى (ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته) المراد بالنعمة هنا ما جاءهم من الآيات وقال ابن جرير الطبرى النعمة هنا الاسلام والظاهر دخول كل نعمة أنعم الله بها على كل عبد من عباده كائنا من كان فوقع منه التبديل لها وعدم القيام بشكرها

مكة وفارقوا مسجدهم ومصلاهم وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي بمكة الى بيت المقدس والكعبة بين يديه فلما قدم المدينة وجه الى بيت المقدس ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا ثم صرفه الله الى الكعبة بعد ولهذا يقول تعالى ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله قال أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب الناسخ والمنسوخ أخبرنا حجاج بن محمد أخبرنا ابن جريج وعثمان بن عطاء عن عطاء عن ابن عباس قال أول ما نسخ لنا من القرآن فيما ذكر لنا والله أعلم شأن القبلة قال الله تعالى ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله فاستقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلى نحو بيت المقدس وترك البيت العتيق ثم صرفه الى بيته العتيق ونسخها فقال ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال كان أول ما نسخ من القرآن القبلة وذلك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما هاجر الى المدينة وكان أهلها اليهود أمره الله ان يستقبل بيت المقدس ففرحت اليهود فاستقبلها رسول الله صلى الله عليه وسلم بضعة عشر شهرا وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب قبلة ابراهيم وكان يدعو وينظر الى السماء فانزل الله قد نرى تقلب وجهك في السماء الى قوله فولوا وجوهكم شطره فارتاب من ذلك اليهود وقالوا ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها فانزل الله قل لله المشرق والمغرب وقال فأينما تولوا فثم وجه الله وقال عكرمة عن ابن عباس فأينما تولوا فثم وجه الله قال قبلة الله أينما توجهت شرقا أو غربا وقال مجاهد فأينما تولوا فثم وجه الله حيثما كنتم فلكم قبلة تستقبلونها الكعبة وقال ابن أبي حاتم بعد رواية الأثر المتقدم عن ابن عباس في نسخ القبلة عن عطاء عنه وروي عن ابي العالية والحسن وعطاء الخراساني وعكرمة وقتادة والسدي وزيد بن أسلم نحو ذلك وقال ابن جرير وقال آخرون بل أنزل الله هذه الآية قبل أن يفرض التوجه الى الكعبة وانما أنزلها ليعلم نبيه صلى الله عليه وسلم وأصحابه ان لهم التوجه بوجوههم للصلاة حيث شاؤا من نواحي المشرق والمغرب لانهم لا يوجهون وجوههم وجها من ذلك وناحية الا كان جل ثناؤه في ذلك الوجه وتلك الناحية لان له تعالى المشارق والمغارب وانه لا يخلو منه مكان كما قال تعالى ولا أدنى من ذلك ولا أكثر

ولا ينافي ذلك كون السياق في بني اسرائيل او كونهم السبب في النزول لما تقرر من ان الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب (فان الله شديد العقاب) فيه من الترهيب والتخويف ما لا يقادر قدره (زين للذين كفروا الحياة الدنيا) المزين هو الشيطان بان وسوس لهم ومناهم الاماني الكاذبة وذلك حقيقة كما قال السعد التفتازاني وجيء به ماضيا دلالة على ان ذلك قد وقع وفرغ منه أو المزين الانفس المجبولة على حب العاجلة وزين مبني للمجهول وقرئ بفتح الزاي والمزين هو الله بان خلق الاشياء العجيبة ومكنهم منها اذ ما من شيء الا وهو خالقه وعلى هذا المسند والاسناد مجاز لان خذلانه اياهم صار سببا لاستحسانهم الحياة الدنيا وتزيينها في أعينهم والمراد بالذين كفروا رؤساء قريش أو كل كافر وانما خص الكفار بالذكر مع كون الدنيا مزينة للمسلم والكافر كما وصف سبحانه بانه جعل ما على الارض زينة لها ليبلوا الخلق أيهم أحسن عملا لان الكافر افتتن بهذا التزيين وأعرض عن الآخرة والمسلم لم يفتتن به بل أقبل على الآخرة والمعنى حسنت في أعينهم وأشربت محبتها في قلوبهم حتى تهالكوا عليها وتهافتوا فيها معرضين عن غيرها (ويسخرون من الذين آمنوا) اي والحال أن أولئك الكفار يسخرون من المؤمنين لكونهم فقراء لا حظ لهم من الدنيا كحظ رؤساء الكفر وأساطين الضلال وذلك لان عرض الدنيا عندهم هو الامر الذي يكون من ناله سعيدا رابحا ومن حرمه شقيا خاسرا وقد كان غالب المؤمنين اذ ذاك فقراء لاشتغالهم بالعبادة وأمر الآخرة وعدم التفاتهم الى الدنيا وزينتها وحكى الاخفش انه يقال سخرت منه وسخرت به وضحكت منه وضحكت به والاسم السخرية والسخري وجيء به مضارعا دلالة على التجدد والحدوث ولما وقع من الكفار ما وقع من السخرية بالمؤمنين رد الله عليهم بقوله (والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة) والمراد بالفوقية هنا العلو في الدرجة لانهم في الجنة والكفار في النار ويحتمل ان يراد بالفوق المكان لان الجنة في السماء والنار في أسفل سافلين أو أن المؤمنين هم الغالبون في الدنيا كما وقع ذلك من ظهور الاسلام وسقوط الكفر وقتل أهله وأسرهم وتشريدهم وضرب الجزية عليهم ولا مانع من حمل الآية على جميع ذلك لولا التقييد بكونه في يوم القيامة وفيه دلالة على أن فوقيتهم من أجل التقوى وفيه تحريضهم على الانصاف به اذا سمعوا ذلك أو للايذان بان اعراضهم عن الدنيا للاتقاء عنها لكونها شاغلة

الا هو معهم أينما كانوا قالوا ثم نسخ ذلك بالفرض الذى فرض عليهم التوجه الى المسجد الحرام هكذا قال وفى قوله والله تعالى لا يخلو منه مكان ان أراد علمه تعالى فصحيح فان علمه تعالى محيط بجميع المعلومات وأما ذاته تعالى فلا تكون محصورة فى شئ من خلقه تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا قال ابن جرير وقال آخرون بل نزلت هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وسلم اذنا من الله أن يصلى التطوع حيث توجه من شرق أو غرب فى مسيره فى سفره وفى حال المسايفة وشدة الخوف حدثنا أبو كريب أخبرنا ابن ادريس حدثنا عبد الملك هو ابن أبى سليمان عن سعيد بن جبير عن

ابن عمر أنه كان يصلى حيث توجهت به راحلته ويذكر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يفعل ذلك ويتاول هذه الآية فأينما تولوا فثم وجه الله ورواه مسلم والترمذى والنسائى وابن أبى حاتم وابن مردويه من طرق عن عبد الملك بن أبى سليمان به وأصله فى الصحيحين من حديث ابن عمر وعامر بن ربيعة من غير ذكر الآية وفى صحيح البخارى من حديث نافع عن ابن عمر انه كان اذا سئل عن صلاة الخوف وصفها ثم قال فان كان خوف أشد من ذلك صلوا رجالا قياما على أقدامهم وركبانا مستقبلى القبلة وغير مستقبليها قال نافع ولا أرى ابن عمر ذكر ذلك الا عن النبى صلى الله عليه وسلم (مسئلة) ولم يفرق الشافعى فى المشهور عنه بين سفر المسافة وسفر العدوى فالجميع عنه يجوز التطوع فيه على الراحلة وهو قول ابى حنيفة خلافا لمالك وجماعته واختار أبو يوسف وأبو سعيد الاصطخرى التطوع على الدابة فى المصر وحكاه أبو يوسف عن أنس بن مالك رضى الله عنه واختاره أبو جعفر الطبرى حتى للماشى أيضا قال ابن جرير وقال آخرون بل نزلت هذه الآية فى قوم عميت عليهم القبلة فلم يعرفوا شطرها فصلوا على أنحاء مختلفة فقال الله تعالى لى المشارق والمغارب فاين وليتم وجوهكم فهنالك وجهى وهو قبلتكم فيعلمكم بذلك أن صلاتكم ماضية حدثنا محمد بن اسحق الاهوازى أخبرنا أبو أحمد الزبيرى أخبرنا أبو الربيع السمان عن عاصم بن عبيد الله عن عبد الله بن عامر بن ربيعة عن أبيه قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ليلة سوداء مظلمة فنزلنا منزلا فجعل الرجل يأخذ الاحجار فيعمل مسجدا يصلى فيه فلما ان أصبحنا اذا نحن قد صلينا الى غير القبلة فقلنا يا رسول الله لقد صلينا الليلة هذه لغير القبلة

عن جانب القدس عن حارثة بن وهب أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول ألا أخبركم باهل الجنة كل ضعيف مستضعف لو أقسم على الله لأبره ألا أخبركم باهل النار كل عتل جواظ جعظرى مستكبر أخرجه الشيخان وعن أسامة بن زيد عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال قمت على باب الجنة فكان عامة من دخلها المساكين وأصحاب الجد محبوسون غير ان أصحاب النار قد أمر بهم الى النار وقمت على باب النار فاذا عامة من دخلها النساء أخرجه البخارى ومسلم (والله يرزق من يشاء بغير حساب) يحتمل أن يكون فيه اشارة الى أن الله سبحانه سيرزق المستضعفين من المؤمنين ويوسع عليهم ويجعل ما يعطيهم من الرزق بغير حساب أى بغير تقدير لان ما يدخل عليه الحساب فهو قليل ويحتمل أن المعنى ان الله يوسع على بعض عباده فى الرزق كما وسع على أولئك الرؤساء من الكفار استدراجا لهم وليس فى التوسعة دليل على أن من وسع عليه فقد رضى عنه ويحتمل ان يراد بغير حساب من المرزوقين كما قال تعالى ويرزقه من حيث لا يحتسب وقال ابن عباس فى تفسيرها ليس على الله رقيب ولا من يحاسبه وقال سعيد بن جبير لا يحاسب الرب وقيل يرزقه فى الدنيا ولا يحاسبه فى الآخرة وقيل يرزقه بغير استحقاق وقيل لا يخاف نفاد ما فى خزائنه حتى يحتاج الى حساب وقيل لا يعطى كل واحد على قدر حاجته بل يعطى الكثير لمن لا يحتاج اليه وقيل غير ذلك (كان الناس أمة واحدة) أى كانوا متفقين على دين واحد وهو الاسلام فاختلفوا واختلف فى الناس فقيل هم بنو آدم حين أخرجهم الله نسما من ظهر آدم عن أبى بن كعب قال كانوا أمة واحدة حين عرضوا على آدم ففطرهم على الاسلام وأقروا بالعبودية وكانوا مسلمين ثم اختلفوا من بعد آدم وقيل آدم وحده قاله مجاهد وسمى ناسا لانه أصل النسل وقيل آدم وحواء وقيل المراد القرون الاولى التى كانت بين آدم ونوح وهى عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق فاختلفوا قاله ابن عباس وقيل المراد نوح ومن فى سفينته وقيل ان العرب كانت على دين ابراهيم الى أن غيره عمرو بن لحى وقيل كانوا من حين وفاة آدم الى زمان نوح على الكفر والباطل بدليل قوله فبعث الله النبيين والحكم للغالب والاول أولى قال أبو السعود وهو الانسب بالنظم الكريم وقيل ليس فى الآية ما يدل على أنهم كانوا على ايمان أو كفر فهو موقوف على دليل من خارج وقيل المراد الاخبار عن الناس الذين

فأنزل الله تعالى ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله الآية ثم رواه عن سفيان بن وكيع عن أبيه عن أبي الربيع السمان بنحوه ورواه الترمذي عن محمود بن غيلان عن وكيع وابن ماجه عن يحيى بن حكيم عن أبي داود عن أبي الربيع السمان ورواه ابن أبي حاتم عن الحسن بن محمد بن الصباح عن سعيد بن سليمان عن أبي الربيع السمان واسمه أشعث بن سعيد البصري وهو ضعيف الحديث وقال الترمذي هذا حديث حسن وليس اسناده بذاك ولا نعرفه الا من حديث الاشعث السمان وأشعث يضعف في الحديث قلت وشيخه عاصم أيضا ضعيف (٢٧٤) قال البخاري منكر الحديث وقال ابن معين ضعيف لا يحتج به وقال ابن حبان متروك والله أعلم وقد روي من طريق آخر عن جابر فقال الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسير هذه الآية أخبرنا اسمعيل ابن علي بن اسمعيل أخبرنا الحسن ابن علي بن شبيب حدثني أحمد بن عبد الله بن الحسن قال وجدت في كتاب أبي أخبرنا عبد الملك العرزمي عن عطاء عن جابر قال بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية كنت فيها فأصابتنا ظلمة فلم نعرف القبلة فقالت طائفة منا قد عرفنا القبلة هي ههنا قبل الشمال فصلوا وخطوا خطوطا فلما أصبحوا وطلعت الشمس أصبحت تلك الخطوط لغير القبلة فلما قفلنا من سفرنا سألنا النبي صلى الله عليه وسلم فسكت وأنزل الله تعالى ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله ثم رواه من حديث محمد بن عبيد الله العرزمي عن عطاء عن جابر به وقال الدارقطني قرئ على عبد الله ابن عبد العزيز وأنا أسمع حدثكم داود بن عمرو أخبرنا محمد بن يزيد الواسطي عن محمد بن سالم عن عطاء عن جابر قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في مسير فأصابنا غيم فتحيرنا فاختلفنا في القبلة فصلى كل جرير رجل منا على حدة وجعل أحدنا يخط بين يديه لنعلم أمكنتنا فذكرنا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فلم يأمرنا بالاعادة وقال قد أجزأت صلاتكم ثم قال الدارقطني كذا قال عن محمد بن سالم وقال غيره عن محمد بن عبد الله العرزمي عن عطاء وهما ضعيفان ورواه ابن مردويه أيضا من حديث الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث سرية فأخذتهم ضبابة فلم يهتدوا الى القبلة فصلوا لغير القبلة ثم استبان لهم بعد ما طلعت الشمس انهم صلوا لغير القبلة فلما جاؤا الى رسول الله صلى الله عليه

هم الجنس كأنهم كانوا أمة واحدة في خلوهم عن الشرائع وجهلهم بالحقائق لولا أن الله من عليهم بارسال الرسل والامة مأخوذة من قولهم أممت الشيء أي قصدته أي مقصدهم واحد غير مختلف (فبعث الله النبيين) قيل الانبياء جملتهم مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا والرسل منهم ثلثمائة وثلاثة عشر المذكور منهم في القرآن باسماء الاعلام ثمانية وعشرون نبيا والله أعلم (مبشرين) بالثواب لمن آمن وأطاع (ومنذرين) بالعقاب لمن كفر وعصى (وأنزل معهم الكتاب) أي الجنس وقيل المراد به التوراة أو أنزل مع كل واحد الكتاب وجملة الكتب المنزلة من السماء مائة وأربعة كتب كما قيل (بالحق) أي الصدق والعدل والمراد هنا الحكم والفوائد والمصالح (ليحكم بين الناس) مسند الى الكتاب في قول الجمهور وهو مجاز مثل قوله تعالى هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق وقيل ان المعنى ليحكم كل نبي بكتابه وقيل ليحكم الله (فيما اختلفوا فيه) أي في الحق الذي اختلفوا فيه من بعد ما كانوا متفقين عليه وقيل الضمير في فيه راجع الى ما في قوله فيما والضمير في قوله (وما اختلف فيه) يحتمل أن يعود الى الكتاب ويحتمل أن يعود الى المنزل عليه وهو محمد صلى الله عليه وآله وسلم قاله الزجاج ويحتمل أن يعود الى الحق (الا الذين أوتوه) أي أوتوا الكتاب أو أوتوا الحق أو أوتوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم أي أعطوا علمه (من بعد ما جاءتهم البينات) أي الدلالات الواضحات على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم أو الحجج الظاهرة على التوحيد (بغيا بينهم) أي لم يختلفوا الا بغيا أي الحسد والحرص على الدنيا وطلب ملكها وزخرفها أيهم يكون له الملك والمهابة في الناس وفي هذا تنبيه على السفه في فعلهم القبيح الذي وقعوا فيه لأنهم جعلوا انزال الكتاب سببا في شدة الخلاف (فهدى الله الذين آمنوا) أي أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم (لما اختلفوا فيه من الحق) أي الى الحق ومن للبيان أو للتبعيض وذلك مما بين لهم في القرآن من اختلاف من كان قبلهم وقيل معناه فهدى الله أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم للتصديق بجميع الكتب بخلاف من قبلهم فان بعضهم كذب كتاب بعض وقيل ان الله هداهم الى الحق من القبلة وقيل هداهم ليوم الجمعة وقيل هداهم لاعتقاد الحق في عيسى بعد أن كذبته اليهود وجعلته النصارى ربا وقيل المراد بالحق الاسلام وقال الفراء ان في الآية قلبا وتقديره فهدى الذين آمنوا بالحق لما اختلفوا فيه واختاره ابن

وسلم حدثوه فأنزل الله تعالى هذه الآية ولله المشرق والمغرب فأينما تولو ... سندها ضعف ولعله يشد بعضها
بعضا وأما اعادة الصلاة لمن تبين له خطؤه ففيها قولان للعلماء وهذه دلائل على عدم ... والله أعلم قال ابن جرير وقال آخرون
بل نزلت هذه الآية في سبب النجاشي كما حدثنا محمد بن بشار أخبرنا معاذ بن هشام حدثني أبي عن قتادة ان النبي صلى الله عليه وسلم
قال ان أخا لكم قد مات فصلوا عليه قالوا نصلي على رجل ليس بمسلم قال فنزلت وان من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل اليكم
وما أنزل اليهم خاشعين لله قال قتادة فقالوا انه كان لا يصلي الى القبلة (٢٧٥) فأنزل الله ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا
فثم وجه الله وهذا غريب والله أعلم
وقد قيل انه كان يصلي الى بيت
المقدس قبل ان يبلغه الناسخ
الى الكعبة كما حكاه القرطبي عن
قتادة وذكر القرطبي انه لما
مات صلى عليه رسول الله صلى الله
عليه وسلم فأخذ بذلك من ذهب
الى الصلاة على الغائب قال وهذا
خاص عند أصحابنا من ثلاثة
أوجه أحدها انه عليه السلام
شاهده حين سوى عليه طويت له
الارض الثاني انه لما لم يكن عنده
من يصلي عليه صلى عليه واختاره
ابن العربي قال القرطبي ويبعد
ان يكون ملك مسلم ليس عنده
أحد من قومه على دينه وقد أجاب
ابن العربي عن هذا لعلهم لم يكن
عندهم شرعية الصلاة على الميت
وهذا جواب جيد الثالث انه
عليه الصلاة والسلام انما صلى
عليه ليكون ذلك كالتاليف لبقية
الملوك والله أعلم وقد أورد الحافظ
أبو بكر بن مردويه في تفسير هذه
الآية من حديث أبي معشر عن
محمد بن عمرو بن علقمة عن أبي سلمة
عن أبي هريرة قال قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم ما بين المشرق والمغرب قبلة لاهل المدينة وأهل الشام وأهل العراق وله مناسبة ههنا وقد أخرجه الترمذي
وابن ماجه من حديث أبي معشر واسمه نجيح بن عبد الرحمن السدي المدني به ما بين المشرق والمغرب قبلة وقال الترمذي وقد
روي من غير وجه عن أبي هريرة وتكلم بعض أهل العلم في أبي معشر من قبل حفظه ثم قال الترمذي حدثني الحسن بن بكر المروزي
أخبرنا المعلى بن منصور أخبرنا عبد الله بن جعفر المخزومي عن عثمان بن محمد الاخنسي عن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة رضي
الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ما بين المشرق والمغرب قبلة ثم قال الترمذي هذا حديث حسن صحيح وحكى عن

جرير وضعفه ابن عطية (باذنه) قال الزجاج معناه بعلمه وقال النحاس هذا غلط والمعنى
بامره وارادته (والله يهدي من يشاء) من عباده (الى صراط مستقيم) أي طريق سوي
(أم حسبتم أن تدخلوا الجنة) أم هنا منقطعة بمعنى بل وحكى بعض اللغويين انها قد تجيء
بمثابة همزة الاستفهام يبتدؤ بها الكلام فعلى هذا معنى الاستفهام هنا التقرير والانكار
أي أحسبتم دخولكم الجنة واقعا والغرض من هذا التوبيخ تشجيعهم على الصبر وحثهم
عليه وحسب هنا من أخوات ظن وقد تستعمل في اليقين (ولما يأتكم مثل الذين خلوا
من قبلكم) الواو للحال ولما بمعنى لم أي والحال انكم لم يأتكم مثلهم بعد ولم تبتلوا بما
ابتلوا به من الاحوال الهائلة التي هي مثل في الفظاعة والشدة وهو متوقع منتظر ولم
تمتحنوا بمثل ما امتحن به من كان قبلكم فتصبروا كما صبروا ذكر الله سبحانه هذه التسلية بعد
ان ذكر اختلاف الامم على أنبيائهم تثبيتا للمؤمنين وتقوية لقلوبهم ومثل هذه الآية قوله
أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم وقوله الم أحسب الناس أن
يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون (مستهم) استئناف بيان لقوله مثل الذين خلوا
(البأساء والضراء) قد تقدم تفسيرهما (وزلزلوا) الزلزلة شدة التحريك تكون في
الاشخاص وفي الاقوال يقال زلزل الله الارض زلزلة وزلزالا بالكسر فتزلزلت أي تحركت
واضطربت فمعنى زلزلوا خوفوا وأزعجوا ازعاجا شديدا وحركوا بانواع البلايا والرزايا
وقال الزجاج أصل الزلزلة نقل الشيء من مكانه فاذا قلت زلزلته فمعناه كررت زلله من مكانه
(حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه) أي استمر ذلك الى غاية هي قول الرسول ومن معه
أي صاحبوه في الايمان وحتى بمعنى الى وان مضمرة أي الى أن يقول وهي غاية لما تقدم
من المس والزلزال وذلك لان الرسل أثبت من غيرهم وأصبر وأضبط للنفس عند نزول
البلايا وكذلك أتباعهم من المؤمنين (متى نصر الله) متى ظرف زمان لا يتصرف الا بجره
بحرف والرسول هنا قيل هو محمد صلى الله عليه وآله وسلم وقيل هو شعياء وقيل هو كل
رسول بعث الى أمته وقالت طائفة في الكلام تقديم وتأخير أي حتى يقول الذين آمنوا
متى نصر الله ويقول الرسول ألا ان نصر الله قريب ولا ملجئ لهذا التكلف لان قول
الرسول ومن معه متى نصر الله ليس فيه الا استعجال النصر من الله سبحانه وليس فيه
ما زعموه من الشك والارتياب حتى يحتاج الى ذلك التأويل المتعسف قال قتادة نزلت

البخاري انه قال هذا أقوى من حديث أبي معشر وأصح قال الترمذي وقد روى عن غير واحد من الصحابة ما بين المشرق والمغرب قبلة منهم عمر بن الخطاب وعلي وابن عباس رضي الله عنهم أجمعين وقال ابن عمر اذا جعلت المغرب عن يمينك والمشرق عن يسارك فما بينهما قبلة اذا استقبلت القبلة ثم قال ابن مردويه حدثنا علي بن أحمد بن عبد الرحمن أخبرنا يعقوب بن يوسف مولى بني هاشم أخبرنا شعيب بن أيوب أخبرنا ابن نمير عن عبد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ما بين المشرق والمغرب قبلة وقد رواه الدارقطني (٢٧٦) والبيهقي وقال المشهور عن ابن عمر عن عمر رضي الله عنهما قوله قال ابن جرير ويحتمل فأينما تولوا وجوهكم في دعائكم لي فهنالك وجهي أستجيب لكم دعاءكم كما حدثنا القاسم أخبرنا الحسين حدثني حجاج قال قال ابن جريج قال مجاهد لما نزلت ادعوني أستجب لكم قالوا الى أين فنزلت فأينما تولوا فثم وجه الله قال ابن جرير ومعنى قوله ان الله واسع عليم يسع خلقه كلهم بالكفاية والجود والافضال وأما قوله عليم فانه يعني عليم بأعمالهم ما يغيب عنه منها شيء ولا يعزب عن علمه بل هو بجميعها عليم (وقالوا اتخذ الله ولدا سبحانه بل له ما في السموات والارض كل له قانتون بديع السموات والارض واذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون) اشتملت هذه الآية الكريمة والتي تليها على الرد على النصارى عليهم لعائن الله وكذا من أشبههم من اليهود ومن مشركي العرب ممن جعل الملائكة بنات الله فأكذب الله جميعهم في دعواهم وقولهم ان لله ولدا فقال تعالى سبحانه أي تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علوا كبيرا بل له ما في السموات والارض أي ليس الامر كما افتروا وانما له ملك السموات والارض ومن فيهن وهو المتصرف فيهم وهو خالقهم ورازقهم ومقدرهم ومسخرهم ومسيرهم ومصرفهم كما يشاء والجميع عبيد له وملك له فكيف يكون له ولد منهم والولد انما يكون متولدا من شيئين متناسبين وهو تبارك وتعالى ليس له نظير ولا مشارك في عظمته وكبريائه ولا صاحبة له فكيف يكون له ولد كما قال تعالى بديع السموات والارض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم وقال تعالى وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيئا ادا تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدا أن دعوا للرحمن ولدا

هذه الآية في يوم الاحزاب وهي غزوة الخندق أصاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم يومئذ وأصحابه بلاء وحصر وقيل نزلت في غزوة أحد وقيل غير ذلك وقال ابن عباس أخبر الله المؤمنين أن الدنيا دار بلاء وأنه مبتليهم فيها وأخبرهم انه هكذا افعل بأنبيائه وصفوته لتطيب أنفسهم والمعنى انه بلغ بهم الجهد والشدة والبلاء ولم يبق لهم صبر وذلك هو الغاية القصوى في الشدة فلما بلغ الحال في الشدة الى هذه الغاية واستبطؤا النصر قيل لهم (ألا ان نصر الله قريب) اجابة لهم في طلبهم والمعنى هكذا كان حالهم لم يغيرهم طول البلاء والشدة عن دينهم الى أن يأتيهم نصر الله فكونوا يا معشر المسلمين كذلك وتحملوا الاذى والشدة والمشقة في طلب الحق فان نصره سبحانه قريب اتيانه لا بعيد وفيه اشارة الى ان المراد بالقرب القرب الزماني وفي ايثار الجملة الاسمية على الفعلية المناسبة لما قبلها وتصديرها بحرف التنبيه والتأكيد من الدلالة على تحقق مضمونها وتقرره ما لا يخفى (يسألونك ماذا ينفقون) السائلون هنا هم المؤمنون سألوا عن الشيء الذي ينفقونه ما هو أي ما قدره وما جنسه (قل ما أنفقتم من خير الى آخره) فأجيبوا ببيان المصرف الذي يصرفون فيه تنبيها على انه الاولى بالقصد لان الشيء لا يعتد به الا اذا وضع في موضعه وصادف مصرفه وقيل انه قد تضمن الآية بيان ما ينفقونه وهو كل خير وقيل انما سألوا عن وجوه البر التي ينفقون فيها وهو خلاف الظاهر وما شرطية وقيل موصولة والاول أولى لتوافق ما بعدها (فللوالدين) قدمهما لوجوب حقهما على الولد لانهما السبب في وجوده (والاقربين) قدمهم لان الانسان لا يقدر أن يقوم بمصالح جميع الفقراء فتقديم القرابة أولى من غيرهم ولانهم أبعاض الوالدين (واليتامى) لانهم لا يقدرون على الكسب ولا لهم منفق وقد تقدم الكلام في الاقربين واليتامى (والمساكين وابن السبيل) أي هم أولى به وانظر الى هذا الترتيب الحسن العجيب في كيفية الانفاق كيف فصله ثم أتبعه بالاجمال فقال (وما تفعلوا من خير) أي مع هؤلاء أو غيرهم طلبا لوجه الله ورضوانه (فان الله به عليم) فيجازيكم عليه قال ابن مسعود نسختها آية الزكاة وقال الحسن انها محكمة وقال ابن زيد هذا في النفل أي التطوع وهو ظاهر الآية فمن أحب التقرب الى الله بالانفاق فالاولى به أن ينفق في الوجوه المذكورة في الآية فيقدم الاول فالاول ولم يذكر فيها السائلين والرقاب كما في الآية الاخرى اكتفاء بها

وماينبغى للرحمن ان يتخذ ولدا ان كل من فى السموات والارض الا آت الرحمن عبدا لقد أحصاهم وعدهم عدا وكلهم آتيه يوم القيامة فردا وقال تعالى قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد فقرر تعالى فى هذه الآيات الكريمة انه السيد العظيم الذى لا نظير له ولا شبيه له وان جميع الاشياء غيره مخلوقة له مربوبة فكيف يكون له منها ولد ولهذا قال البخارى فى تفسير هذه الآية من البقرة أخبرنا أبو اليمان أخبرنا شعيب عن عبد الله بن أبى الحسين حدثنا نافع بن جبير هو ابن مطعم عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال قال الله تعالى كذبنى ابن آدم ولم يكن له (٢٧٧) ذلك وشتمنى ولم يكن له ذلك فاما تكذيبه اياى فيزعم انى لا أقدر أن أعيده كما كان واما شتمه اياى فقوله ان لى ولدا فسبحانى ان أتخذ صاحبة أو ولدا انفرد به البخارى من هذا الوجه وقال ابن مردويه حدثنا أحمد بن كامل اخبرنا محمد بن اسمعيل الترمذى أخبرنا محمد بن اسحق بن محمد القروى أخبرنا مالك عن أبى الزناد عن الاعرج عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى كذبنى ابن آدم وما ينبغى له أن يكذبنى وشتمنى وما ينبغى له أن يشتمنى فاما تكذيبه اياى فقوله لن يعيدنى كما بدأنى وليس أول الخلق باهون على من اعادته واما شتمه اياى فقوله اتخذ الله ولدا وأنا الله الاحد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد وفى الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله انهم يجعلون له ولدا وهو يرزقهم ويعافيهم وقوله كل له قانتون قال ابن أبى حاتم أخبرنا أبو سعيد الاشج أخبرنا اسباط عن مطرف عن عطية عن ابن عباس قال قانتين مصلين وقال عكرمة وأبو مالك كل له قانتون مقرون له بالعبودية وقال سعيد بن جبير كل له قانتون يقول الاخلاص وقال الربيع بن أنس يقول كل له قانتون أى قائم يوم القيامة وقال السدى كل له قانتون أى مطيعون يوم القيامة وقال خصيف عن مجاهد كل له قانتون قال مطيعون كن انسانا فكان وقال كن حمارا فكان وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد كل له قانتون مطيعون قال طاعة الكافر فى سجود ظله وهو كاره وهذا القول عن مجاهد وهو اختيار ابن جرير يجمع الاقوال كلها وهو أن القنوت والطاعة والاستكانة الى الله وهو شرعى وقدرى كما قال تعالى ولله يسجد من فى السموات ومن فى الارض طوعا

أو بعموم قوله وما تفعلوا من خير فانه شامل لكل خير وقع فى أى مصرف (كتب عليكم القتال وهو كره لكم) بين سبحانه أن هذا أى فرض القتال عليهم من جملة ما امتحنوا به والمراد بالقتال قتال الكفار والكره بالضم المشقة وبالفتح ما أكرهت عليه ويجوز الضم فى معنى الفتح فيكونان لغتين وانما كان الجهاد كرها لان فيه اخراج المال ومفارقة الاهل والوطن والتعرض لذهاب النفس وفى التعبير بالمصدر وهو كره مبالغة ويحتمل ان يكون بمعنى المكروه كما فى قولهم الدراهم ضرب الامير قيل الجهاد فرض على كل مسلم ويدل عليه ماروى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الجهاد واجب عليكم مع كل أمير برا كان أو فاجرا أخرجه أبو داود بزيادة فيه وعن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية واذا استنفرتم فانفروا وقيل الجهاد تطوع والمراد من الآية أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دون غيرهم وبه قال الثورى والاوزاعى والاول أولى والجمهور على انه فرض على الكفاية اذا قام به البعض سقط عن الباقين قال الزهرى كتب الله القتال على الناس جاهدوا أو لم يجاهدوا فمن غزا فبها ونعمت ومن قعد فهو عدة ان استعين به أعان واذا استنفر نفر وان استغنى عنه قعد وقيل فرض عين ان دخلوا بلادنا وفرض كفاية ان كانوا ببلادهم (وعسى أن تكرهوا شيئا) قيل عسى هنا بمعنى قد روى ذلك عن الاصم وقال أبو عبيدة عسى من الله ايجاب والمعنى عسى أن تكرهوا الجهاد طبعا لما فيه من المشقة وأما شرعا فهو محبوب وواجب ولا يلزم منه ما قاله السعد التفتازانى كراهة حكم الله ومحبة خلافه وهو ينافى كمال التصديق لان معناه كراهة النفس ذلك الفعل ومشقته مع كمال الرضا بالحكم والاذعان له (وهو خير لكم) فربما تغلبون وتظفرون وتغنمون وتؤجرون ومن مات مات شهيدا والواو للحال أو صفة لشئ وعليه جرى أبو البقاء هنا والزمخشرى فى قوله ولها كتاب معلوم وهو رأى ابن حيزان وسائر النحويين يخالفونه (وعسى أن تحبوا شيئا) أى الدعة وترك القتال (وهو شر لكم) فربما يتقوى عليكم العدو فيغلبكم ويقصدكم الى عقر داركم فيحل بكم أشد مما تخافونه من الجهاد الذى كرهتم مع ما يفوتكم فى ذلك من الفوائد العاجلة والآجلة (والله يعلم) ما فيه صلاحكم وفلاحكم وما هو خير لكم وما فى الجهاد من الغنيمة والاجر والخير فلذلك يأمركم به

وكرها وظلالهم بالغدو والآصال وقد ورد حديث فيه بيان القنوت في القرآن ما هو المراد به كما قال ابن أبي حاتم أخبرنا يونس
ابن عبد الأعلى حدثنا ابن وهب أخبرني عمرو بن الحرث ان دراجا أبا السمح حدثه عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري عن
رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كل حرف من القرآن يذكر فيه القنوت فهو الطاعة وكذا رواه الامام أحمد عن حسن بن موسى
عن ابن لهيعة عن دراج باسناده مثله ولكن في هذا الاسناد ضعف لا يعتمد عليه ورفع هذا الحديث منكر وقد يكون من كلام
الصحابي أو من دونه والله أعلم وكثير ما يأتي بهذا الاسناد تفاسير فيها نكارة فلا يغتر بها فان السند ضعيف والله

أعلم وقوله تعالى بديع السموات والارض أي خالقهما على غير مثال سبق قال مجاهد والسدي وهو مقتضى اللغة ومنه يقال للشئ المحدث بدعة كما جاء في صحيح مسلم فان كل محدثة بدعة والبدعة على قسمين تارة تكون بدعة شرعية كقوله فان كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وتارة تكون بدعة لغوية كقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عن جمعه اياهم على صلاة التراويح واستمرارهم نعمت البدعة هذه وقال ابن جرير بديع السموات والارض مبدعهما وانما هو مفعل فصرف الى فعيل كما صرف المؤلم الى الاليم والمسمع الى السميع ومعنى المبدع المنشئ والمحدث ما لا يسبقه الى انشاء مثله واحداثه أحد قال ولذلك سمي المبتدع في الدين مبتدعا لاحداثه فيه ما لم يسبق اليه غيره وكذلك كل محدث قولا أو فعلا لم يتقدم فيه متقدم فان العرب تسميه مبتدعا ومن ذلك قول اعشى بن ثعلبة في مدح هوذة بن علي الحنفي

يدعى الى قول سادات الرجال اذا * أبدوا له الحزم أو ما شاءه ابتدعا

هنا

اي يحدث ما شاء قال ابن جرير فمعنى الكلام سبحان الله أن يكون له ولد وهو مالك ما في السموات والارض تشهد له جميعها بدلالتها
عليه بالوحدانية وتقر له بالطاعة وهو بارئها وخالقها وموجدها من غير أصل ولا مثال احتذاها عليه وهذا اعلام من الله لعباده
ان ممن يشهد له بذلك المسيح الذي أضافوا الى الله بنوته واخبار منه لهم ان الذي ابتدع السموات والارض من غير أصل وعلى
غير مثال هو الذي ابتدع المسيح عيسى من غير والد بقدرته وهذا من ابن جرير رحمه الله كلام جيد وعبارة صحيحة وقوله تعالى

(وأنتم لا تعلمون) ذلك ولذلك تكرهونه قيل انها محكمة ناسخة للعفو عن المشركين وقيل
منسوخة لان فيها وجوب الجهاد على الكافة والناسخ قوله تعالى وما كان المؤمنون
لينفروا كافة وقيل انها ناسخة من وجه ومنسوخة من وجه فالناسخ منها ايجاب الجهاد
مع المشركين بعد المنع منه والمنسوخ ايجاب الجهاد على الكافة وقد ورد في فضل
الجهاد ووجوبه أحاديث كثيرة لا يتسع المقام لبسطها (يسئلونك عن الشهر الحرام قتال
فيه قل قتال فيه كبير) أي القتال فيه أمر كبير مستنكر والشهر الحرام المراد به الجنس
وقد كانت العرب لا تسفك فيه دماء ولا تغير على عدو والاشهر الحرم هي ذو القعدة
وذو الحجة ومحرم ورجب ثلاثة سرد وواحد فرد وهذه الامور أعظم ذنبا وأشد اثما من
القتال في الشهر الحرام كذا قال المبرد وغيره قيل انها محكمة وانه لا يجوز الغزو
في الشهر الحرام الا بطريق الدفع وقيل منسوخة بقوله اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم
وبقوله قاتلوا المشركين كافة وبه قال الجمهور (وصد عن سبيل الله) أي صدكم المسلمين
عن الحج أو صدكم عن الاسلام من يريده (وكفر به) الضمير يعود الى الله وقيل الى الحج
(والمسجد الحرام) أي وصدكم عنه قاله الزمخشري وغيره وتعقب بان عطف قوله وكفر به
على صد مانع منه اذ لا يتقدم العطف على الموصول على العطف على الصلة وهو سبيل الله
لوجود الفصل باجنبي واجيب بان الكفر بالله والصد عن سبيله متحدان معنى فكأنه
لا فصل باجنبي بين سبيل وما عطف عليه (واخراج أهله منه) يعني رسول الله صلى الله
عليه وآله وسلم والمؤمنين حين أذوهم حتى هاجروا وتركوا مكة وانما جعلهم الله أهله
لانهم كانوا هم القائمين بحقوق المسجد الحرام دون المشركين ومعنى الآية الذي ذهب
اليه الجمهور انكم يا قريش تستعظمون علينا القتال في الشهر الحرام وما تفعلون أنتم من
الصد عن سبيل الله لمن أراد الاسلام ومن الكفر بالله ومن الصد عن المسجد الحرام ومن
اخراج أهل الحرم منه (أكبر) جرما (عند الله) وسبب النزول يشهد لهذا المعنى ويفيد أنه
المراد فان السؤال منهم المذكور في هذه الآية هو سؤال انكار لما وقع من السرية التي
بعثها النبي صلى الله عليه وآله وسلم (والفتنة أكبر من القتل) المراد بالفتنة هنا الكفر
والشرك قاله ابن عمر أي كفركم أكبر من القتل الواقع من السرية التي بعثها النبي صلى
الله عليه وآله وسلم وقيل المراد بالفتنة الاخراج لاهل الحرم منه وقيل المراد بالفتنة

وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون يبين بذلك تعالى كمال قدرته وعظيم سلطانه وانه اذا قدر أمراً او اراد كونه فانما يقول له كن أى مرة واحدة فيكون أى فيوجد على وفق ما أراد كما قال تعالى انما أمره اذا أراد شيأ ان يقول له كن فيكون وقال تعالى انما قولنا لشئ اذا أردناه ان نقول له كن فيكون وقال تعالى وما أمرنا الا واحدة كلمح بالبصر وقال الشاعر

اذا ما أراد الله أمراً فانما * يقول له كن قولة فيكون

ونبه بذلك أيضا على ان خلق عيسى بكلمة كن فكان كما أمره الله قال الله تعالى ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون (وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم قد بينا الآيات لقوم يوقنون) قال محمد بن اسحق حدثنى محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس قال قال رافع بن حريملة لرسول الله صلى الله عليه وسلم يا محمد ان كنت رسولا من الله كما تقول فقل لله فيكلمنا حتى نسمع كلامه فانزل الله فى ذلك من قوله وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية وقال مجاهد وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية قال النصارى تقوله وهو اختيار ابن جرير قال لان السياق فيهم وفى ذلك نظر وحكى القرطبى لولا يكلمنا الله أى يخاطبنا بنبوتك يا محمد قلت وهو ظاهر السياق والله أعلم وقال أبو العالية والربيع بن أنس وقتادة والسدى فى تفسير هذه الآية هذا قول كفار العرب كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم قال هم اليهود والنصارى ويؤيد هذا القول وان القائلين ذلك هم مشركوا العرب قوله تعالى واذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله الآية وقوله تعالى وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا الى قوله قل سبحان ربى هل كنت الا بشرا رسولا وقوله تعالى وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا الآية وقوله تعالى بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفا منشرة الى غير ذلك من الآيات الدالة على كفر مشركى العرب وعتوهم وعنادهم وسؤالهم ما لا حاجة لهم به انما هو الكفر والمعاندة كما قال من قبلهم من الامم الخالية من أهل الكتابين وغيرهم كما قال تعالى يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة وقال تعالى واذ

هنا فتنتهم عن دينهم حتى يهلكوا أى فتنة المستضعفين من المؤمنين أو نفس الفتنة التى الكفار عليها وهذا أرجح من الوجهين الاولين لان الكفر والاخراج قد سبق ذكرهما وانهما مع الصد أكبر عند الله من القتال فى الشهر الحرام وعن سفيان الثورى هذا شئ منسوخ ولا باس بالقتال فى الشهر الحرام وعن ابن عباس ان هذه الآية منسوخة بآية السيف فى براءة (ولا يزالون يقاتلونكم) ابتداء كلام يتضمن الاخبار عن الله عز وجل للمؤمنين بان هؤلاء الكفار والمشركين لا يزالون مستمرين على قتالكم وعداوتكم (حتى يردوكم عن دينكم) أى الاسلام الى الكفر (ان استطاعوا) ذلك وتهيأ لهم منكم والتقييد بهذا الشرط مشعر باستبعاد تمكنهم من ذلك وقدرتهم عليه ثم حذر الله سبحانه المؤمنين من الاغترار بالكفار والدخول فيما يريدونه من ردهم عن دينهم الذى هو الغاية لما يريدونه من المقاتلة للمؤمنين فقال (ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم) الردة الرجوع عن الاسلام الى الكفر والتقييد بالكفر يفيد ان عمل من ارتد انما يبطل اذا مات على الكفر وأما اذا أسلم بعد الردة لم يثبت عليه شئ من أحكام الردة وفيه دليل للشافعى ان الردة لا تحبط الاعمال حتى يموت على ردته وعند أبى حنيفة ان الردة تحبط العمل وان أسلم وحبط معناه بطل وفسد ومنه الحبط وهو فساد يلحق المواشى فى بطونها من كثرة أكلها الكلأ فتنتفخ أجوافها وربما تموت من ذلك وفى هذه الآية تهديد للمسلمين ليثبتوا على دين الاسلام (فى الدنيا والآخرة) أى لا يبقى له حكم المسلمين فى الدنيا فلا يأخذ شيأ مما يستحقه المسلمون من الميراث وغيره ولا يظفر بحظ من حظوظ الاسلام ولا ينال شيأ من ثواب الآخرة الذى يوجبه الاسلام ويستحقه أهله وقد اختلف أهل العلم فى الردة هل تحبط العمل بمجردها أم لا تحبط الا بالموت على الكفر والواجب حمل ما أطلقته الآيات فى غير هذا الموضع على ما فى هذه الآية من التقييد (وأولئك أصحاب النار) يعنى الذين ماتوا على الردة والكفر (هم فيها خالدون) أى لا يخرجون منها أبدا وقد تقدم الكلام فى معنى الخلود (ان الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله) الهجرة معناها الانتقال من موضع الى موضع وترك الاول لايثار الثانى والهجر ضد الوصل والتهاجر التقاطع والمراد بها هنا الهجرة من دار الكفر الى دار الاسلام والمجاهدة استخراج الجهد والجهاد والتجاهد بذل الوسع (أولئك يرجون) أى

قلتم ياموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة وقوله تعالى تشابهت قلوبهم أى أشبهت قلوب مشركى العرب قلوب من تقدمهم
فى الكفر والعناد والعتو كما قال تعالى كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول الا قالوا ساحر أو مجنون أتواصوا به الآية وقوله
تعالى قد بينا الآيات لقوم يوقنون أى قد أوضحنا الدلالات على صدق الرسل بما لا يحتاج معها الى سؤال آخر وزيادة أخرى لمن
أيقن وصدق واتبع الرسل وفهم ما جاؤا به عن الله تبارك وتعالى وأما من ختم الله على قلبه وسمعه وجعل على بصره غشاوة فأولئك
قال الله فيهم ان الذين حقت عليهم كلمة ربك (٢٨٠) لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم (انا ارسلناك بالحق
بشيرا ونذيرا ولا تسئل عن أصحاب الجحيم) قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى أخبرنا عبد الرحمن بن صالح أخبرنا عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الفزارى عن شيبان النحوى اخبرنى قتادة عن عكرمة عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال أنزلت على انا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا قال بشيرا بالجنة ونذيرا من النار وقوله ولا تسئل عن أصحاب الجحيم قراءة أكثرهم ولا تسئل بضم التاء على الخبر وفى قراءة أبى بن كعب وما تسئل وفى قراءة ابن مسعود ولن تسئل عن أصحاب الجحيم نقلها ابن جرير أى لا نسألك عن كفر من كفر بك كقوله فانما عليك البلاغ وعلينا الحساب وكقوله تعالى فذكر انما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر الآية وكقوله تعالى نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد واشباه ذلك من الآيات وقرأ آخرون ولا تسأل عن أصحاب الجحيم بفتح التاء على النهى أى لا تسأل عن حالهم كما قال عبد الرزاق أخبرنا الثورى عن موسى
ابن عبيدة عن محمد بن كعب القرظى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليت شعرى ما فعل أبواى ليت
شعرى ما فعل أبواى ليت شعرى ما فعل أبواى فنزلت ولا تسأل عن أصحاب الجحيم فما ذكرهما حتى توفاه الله عز وجل ورواه ابن
جرير عن أبى كريب عن وكيع عن موسى بن عبيدة وقد تكلموا فيه عن محمد بن كعب بمثله وقد حكاه القرطبى عن ابن عباس ومحمد
ابن كعب قال القرطبى وهذا كما يقال لا تسأل عن فلان أى قد بلغ فوق ما تحسب وقد ذكرنا فى التذكرة ان الله أحيا له أبويه حتى آمنا
به وأجبنا عن قوله ان أبى وأباك فى النار قلت والحديث المروى فى حياة أبويه عليه السلام ليس فى شىء من الكتب الستة ولا غيرها

يطمعون وانما قال يرجون بعد تلك الأوصاف المادحة التى وصفهم بها لأنه لا يعلم
أحد فى هذه الدنيا أنه صائر الى الجنة ولو بلغ فى طاعة الله كل مبلغ والرجاء الأمل يقال
رجوت فلانا أرجو رجوا ورجاء وهو ضد اليأس وقد يكون الرجاء بمعنى الخوف كما فى قوله تعالى
ما لكم لا ترجون لله وقارا أى لا تخافون عظمة الله وحمل اطلاقه عليه بطريق الحقيقة
أو المجاز زعم قوم أنه حقيقة ويكون من الاشتراك اللفظى وزعم قوم أنه من الأضداد
فهو اشتراك لفظى أيضا وقال ابن عطية الرجاء أبدا معه خوف كما أن الخوف معه رجاء
وزعم قوم انه مجاز للتلازم الذى ذكرناه قال قتادة أثنى الله على أصحاب محمد صلى الله عليه
وآله وسلم أحسن الثناء فى هذه الآية وهم خيار هذه الأمة ثم جعلهم أهل رجاء ومن رجا
طلب ومن خاف هرب (رحمت الله) أخبر أنهم على رجاء الرحمة وقد كتبت رحمة هذا بالتاء
وهى فى القرآن فى سبعة مواضع (والله غفور) لذنوب عباده (رحيم) بهم باجزال الأجر
(يسئلونك عن الخمر) السائلون المؤمنون فقد أخرج أحمد وأبو داود والترمذى
وصححه والنسائى وغيرهم عن عمر أنه قال اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا فانها تذهب
بالمال والعقل فنزلت يعنى هذه الآية فدعى عمر فقرئت عليه فقال اللهم بين لنا فى الخمر بيانا
شافيا فنزلت التى فى سورة النساء يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى فكان
ينادى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اذا قام الى الصلاة ان لا يقربن الصلاة سكران
فدعى عمر فقرئت عليه فقال اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا فنزلت الآية التى فى المائدة
فدعى عمر فقرئت عليه فلما بلغ فهل أنتم منتهون قال عمر انتهينا انتهينا والخمر ماخوذة من
خمر اذا ستر ومنه خمار المرأة وكل شىء غطى شيئا فقد خمره ومنه خمروا آنيتكم وسمى خمرا
لأنه يخمر العقل أى يغطيه ويستره وقيل سميت خمرا لأنها تركت حتى أدركت أى
بلغت ادراكه وقيل لأنها تخالط العقل من المخامرة وهى المخالطة وهذه المعانى الثلاثة
متقاربة موجودة فى الخمر لأنها تركت حتى أدركت ثم خالطت العقل فخمرته أى سترته
والخمر ماء العنب الذى غلا واشتد وقذف بالزبد وما خامر العقل من غيره فهو فى حكمه كما
ذهب اليه الجمهور وقال أبو حنيفة والثورى وابن أبى ليلى وابن شبرمة وجماعة من فقهاء
الكوفة ما أسكر كثيره من غير خمر العنب فهو حلال أى ما دون المسكر منه وذهب أبو
حنيفة الى حل ما ذهب ثلثاه بالطبخ والخلاف فى ذلك مشهور وقد أطلت الكلام على
الخمر

واسناده ضعيف والله أعلم ثم قال ابن جرير وحدثني القاسم أخبرنا الحسين حدثني حجاج عن ابن جريج أخبرني داود بن أبي عاصم به أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم أين أبواي فنزلت انا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا ولا تسأل عن أصحاب الجحيم وهذا مرسل كالذي قبله وقد رد ابن جرير هذا القول المروي عن محمد بن كعب وغيره في ذلك لاستحالة الشك من الرسول صلى الله عليه وسلم في أمر أبويه واختار القراءة الاولى وهذا الذي سلكه ههنا فيه نظر لاحتمال ان هذا كان في حال استغفاره لابويه قبل أن يعلم أمرهما فلما علم ذلك تبرأ منهما وأخبر عنهما انهما من أهل النار كما ثبت (٢٨١) هذا في الصحيح ولهذا أشباه كثيرة ونظائر ولا يلزم ما ذكر ابن جرير والله أعلم وقال الامام أحمد اخبرنا موسى ابن داود حدثنا فليح بن سليمان عن هلال بن علي عن عطاء بن يسار قال لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص فقلت أخبرني عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة فقال أجل والله انه لموصوف في التوراة بصفته في القرآن يا أيها النبي انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وحرزا للاميين وأنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل لا فظ ولا غليظ ولا سخاب في الاسواق ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر ولن يقبضه حتى يقيم به الملة العوجاء بان يقولوا لا اله الا الله فيفتح به أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا انفرد باخراجه البخاري فرواه في البيوع عن محمد ابن سنان عن فليح به وقال تابعه عبد العزيز بن أبي سلمة عن هلال وقال سعيد عن هلال عن عطاء عن عبد الله بن سلام ورواه في التفسير عن عبد الله عن عبد العزيز بن أبي سلمة عن هلال عن عطاء عن عبد الله بن عمرو بن العاص به فذكر نحوه فعبد الله هذا هو ابن صالح كما صرح به في كتاب الادب وزعم ابن مسعود الدمشقي أنه عبد الله بن رجاء وقد رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسيره هذه الآية من البقرة عن أحمد بن الحسن بن أيوب عن محمد بن أحمد بن البراء عن المعافى بن سليمان عن فليح به وزاد قال عطاء ثم لقيت كعب الاحبار فسألته فما اختلفا في حرف الا أن كعبا قال بلغته أعينا عمومى وآذانا صمومى وقلوبا غلوفا (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل ان هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته

الخمر في شرحي لبلوغ المرام وأطال الشوكاني الكلام عليه في شرحه للمنتقى فليرجع اليهما وجملة القول في تحريم الخمر ان الله أنزل فيه أربع آيات نزل بمكة ومن ثمرات النخيل والاعناب تتخذون منه سكرا فكان المسلمون يشربونها في أول الاسلام وهي لهم حلال ثم نزل بالمدينة في جواب عمر ومعاذ هذه الآية فتركها قوم لقوله فيهما اثم كبير وشربها قوم لقوله ومنافع للناس ثم نزل لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى فترك قوم شربها في أوقات الصلاة ثم أنزل الله الآية التي في المائدة وذلك بعد غزوة الاحزاب بايام والخمر تذكر وتؤنث وقال الاصمعي الخمر أنثى وأنكر التذكير (والميسر) مصدر ميمي مأخوذ من اليسر وهو وجوب الشيء لصاحبه يقال يسر لي كذا اذا وجب والياسر اللاعب بالقداح وقال الازهري الميسر الجزور الذي كانوا يتقامرون عليه سمي ميسرا لانه يجزأ أجزاء فكأنه موضع التجزئة وكل شيء جزأته فقد يسرته والياسر الجازر وقال وهذا الاصل في الياسر ثم يقال للضاربين بالقداح والمتقامرين على الجزور ياسرون لانهم جازرون اذ كانوا سببا لذلك والمراد بالميسر في الآية قمار العرب بالازلام قال جماعة من السلف من الصحابة والتابعين ومن بعدهم كل شيء فيه قمار من نرد وشطرنج أو غيرهما فهو الميسر حتى لعب الصبيان بالجوز والكعاب الا ما أبيح من الرهان في الخيل والقرعة في افراز الحقوق وقال مالك الميسر ميسران ميسر اللهو وميسر القمار فمن ميسر اللهو النرد والشطرنج والملاهي كلها وميسر القمار ما يتخاطر الناس عليه وكل ما قومر به فهو ميسر كالطاب والمنقلة والطاولة وغيرها وسيأتي البحث مطولا في هذا في سورة المائدة عند قوله انما الخمر والميسر ان شاء الله تعالى (قل فيهما اثم كبير) يعني في الخمر والميسر فاثم الخمر أي اثم تعاطيها ينشأ من فساد عقل مستعملها فيصدر عنه ما يصدر عن فاسد العقل من المخاصمة والمشاتمة وقول الفحش والزور وتعطيل الصلوات وسائر ما يجب عليه وأما اثم الميسر أي اثم تعاطيه فما ينشأ عن ذلك من الفقر وذهاب المال في غير طائل والعداوة وايحاش الصدور (ومنافع للناس) أما منافع الخمر فربح التجارة فيها وقيل ما يصدر عنها من الطرب واللذة والنشاط والفرح وقوة القلب وثبات الجنان واصلاح المعدة وقوة الباه وتصفية اللون وحمل البخيل على الكرم وزوال الهم وهضم الطعام وتشجيع الجبان وقد أشار شعراء العرب الى شيء من ذلك في أشعارهم ومنافع الميسر مصير الشيء الى

اولئك يؤمنون به ومن يكفر به فاولئك هم الخاسرون) قال ابن جرير يعني بقوله جل ثناؤه ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم وليست اليهود يا محمد ولا النصارى براضية عنك أبدا فدع طلب ما يرضيهم ويوافقهم وأقبل على طلب رضا الله في دعائهم الى ما بعثك الله به من الحق وقوله تعالى قل ان هدى الله هو الهدى أي قل يا محمد ان هدى الله الذي بعثني به هو الهدى يعني هو الدين المستقيم الصحيح الكامل الشامل قال قتادة في قوله قل ان هدى الله هو الهدى قال خصومة علمها الله محمدا صلى الله عليه وسلم وأصحابه يخاصمون بها (٢٨٢) أهل الضلالة قال قتادة وبلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله (قلت) هذا الحديث مخرج في الصحيح عن عبد الله بن عمرو ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير فيه تهديد ووعيد شديد للامة عن اتباع طرائق اليهود والنصارى بعد ما علموا من القرآن والسنة عياذا بالله من ذلك فان الخطاب مع الرسول والامر لامته وقد استدل كثير من الفقهاء بقوله حتى تتبع ملتهم حيث أفرد الملة على أن الكفر كله ملة واحدة كقوله تعالى لكم دينكم ولي دين فعلى هذا لا يتوارث المسلمون والكفار وكل منهم يرث قرينه سواء كان من أهل دينه أم لا لانهم كلهم ملة واحدة وهذا مذهب الشافعي وأبي حنيفة وأحمد في رواية عنه وقال في الرواية الاخرى كقول مالك انه لا يتوارث أهل ملتين شتى كما جاء في الحديث والله أعلم وقوله الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته قال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة هم اليهود والنصارى وهو قول عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم واختاره ابن جرير وقال سعيد عن قتادة هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ابن أبي حاتم أخبرنا أبي أخبرنا ابراهيم بن موسى وعبد الله بن عمران الاصبهاني قال أخبرنا يحيى بن يمان حدثنا اسامة بن زيد عن أبيه عن عمر بن الخطاب يتلونه حق تلاوته قال اذا مر بذكر الجنة سأل الله الجنة واذا مر بذكر النار تعوذ بالله من النار وقال أبو العالية قال ابن مسعود والذي نفسي بيده ان حق تلاوته أن يحل حلاله ويحرم حرامه ويقرأه كما أنزل الله ولا يحرف الكلم عن مواضعه

ولا

الانسان بغير تعب ولا كد وما يحصل من السرور والاريحية عند أن يصير له منها سهم صالح وسهام الميسر احد عشر منها سبعة لها فروض على عدد ما فيها من الخطوط وهي الفذ والتوأم والرقيب والحلس والنافر والمسبل والمعلى والسفيح والوغد والضعف والجزور ولا نطول بذكر علاماتها وأحوالها (واثمهما أكبر من نفعهما) أخبر سبحانه بان الخمر والميسر وان كان فيهما نفع فالاثم الذي يلحق متعاطيهما أكثر من هذا النفع لانه لا خير يساوي فساد العقل الحاصل بالخمر فانه ينشأ عنه من الشرور ما لا يأتي عليه الحصر وكذلك لا خير في الميسر يساوي ما فيه من المخاطرة بالمال والتعرض للفقر واستجلاب العداوات المفضية الى سفك الدماء وهتك الحرم وقد وردت في تحريم الخمر ووعيد شاربها أحاديث كثيرة (ويسئلونك ماذا ينفقون قل العفو) والعفو ما سهل وتيسر ولم يشق على القلب والمعنى أنفقوا ما فضل عن حوائجكم ولم تجهدوا فيه أنفسكم وقيل هو ما فضل عن نفقة العيال وقال جمهور العلماء هو نفقات التطوع وقيل ان هذه الآية منسوخة بآية الزكاة المفروضة وقيل هي محكمة وفي المال حق سوى الزكاة وقد ثبت في الصحيح من حديث أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى وابدأ بمن تعول وثبت نحوه في الصحيح مرفوعا من حديث حكيم ابن حزام وفي الباب أحاديث كثيرة وقيل المعنى خذ الميسور من اخلاق الرجال ولا تستقص عليهم (كذلك يبين الله لكم الآيات) أي في أمر النفقة ومصارفها (لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة) أي في أمرهما فتحبسون من أموالكم ما تصلحون به معايش دنياكم وتنفقون الباقي في الوجوه المقربة الى الآخرة وقيل في الكلام تقديم وتأخير أي كذلك يبين الله لكم الآيات في الدنيا والآخرة لعلكم تتفكرون في الدنيا وزوالها وفي الآخرة وبقائها فترغبون عن العاجلة الى الآجلة (ويسئلونك عن اليتامى قل اصلاح لهم خير) هذه الآية نزلت بعد نزول قوله تعالى ولا تقربوا مال اليتيم وقوله ان الذين يأكلون أموال اليتامى وقد ضاق على الاولياء الامر فنزلت هذه الآية والمراد بالاصلاح هنا مخالطتهم على وجه الاصلاح لاموالهم فان ذلك أصلح من مجانبتهم وفي ذلك دليل على جواز التصرف في أموال الايتام من الاولياء والاوصياء بالبيع والمضاربة والاجارة ونحو ذلك وقيل ان يوسع على اليتيم من طعام نفسه ولا يوسع عليه من طعامه

ولا يأخذ أجرة ولا عوضا على اصلاح أمواله (وان تخالطوهم فاخوانكم) اختلف في تفسير المخالطة لهم فقال أبو عبيدة مخالطة اليتامى أن يكون لأحدهم المال ويشق على كافله أن يفرد طعامه عنه ولا يجد بدا من خلطه بعياله فيأخذ من مال اليتيم ما يرى انه كافيه بالتحري فيجعله مع نفقة أهله وهذا قد تقع فيه الزيادة والنقصان فدلت هذه الآية على الرخصة وهي ناسخة لما قبلها وقيل المراد بالمخالطة المعاشرة للايتام وقيل المراد بها المصاهرة لهم والاولى عدم قصر المخالطة على نوع خاص بل يشمل كل مخالطة كما يستفاد من الجملة الشرطية والتقدير فهم اخوانكم في الدين (والله يعلم المفسد) لاموالهم بمخالطته (من المصلح) بها تحذير للاولياء أي لا يخفى على الله من ذلك شيء فهو يجازي كل أحد بعمله من أصلح فلنفسه ومن أفسد فعليها ففيه وعد ووعيد خلا أن في تقديم المفسد مزيد تهديد وتأكيد للوعيد (ولو شاء الله لأعنتكم) أي جعل ذلك شاقا عليكم ومتعبا لكم وأوقعكم فيما فيه الحرج والمشقة وقيل العنت هنا معناه الهلاك قاله أبو عبيدة وأصل العنت المشقة وقال ابن الانباري أصل العنت التشديد ثم نقل الى معنى الهلاك (ان الله عزيز) أي لا يمتنع عليه شيء لانه غالب لا يغالب (حكيم) يتصرف في ملكه بما تقتضيه مشيئته وحكمته وليس لكم ان تختاروا لانفسكم (ولا تنكحوا المشركات) أي لا تتزوجوا والمراد بالنكاح العقد لا الوطء حتى قيل انه لم يرد في القرآن بمعنى الوطء أصلا (حتى يؤمن) حتى بمعنى الى أي الى أن يؤمن وفي هذه الآية النهي عن نكاح المشركات فقيل المراد بها الوثنيات وقيل انها تعم الكتابيات لان أهل الكتاب مشركون قالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله وقد اختلف أهل العلم في هذه الآية فقالت طائفة ان الله حرم نكاح المشركات فيها والكتابيات من الجملة ثم جاءت آية المائدة فخصصت الكتابيات من هذا العموم وهذا محكي عن ابن عباس ومالك وسفيان بن سعيد وعبد الرحمن بن عمرو الاوزاعي وذهبت طائفة الى أن هذه الآية ناسخة لآية المائدة وانه يحرم نكاح الكتابيات والمشركات وهذا أحد قولي الشافعي وبه قال جماعة من أهل العلم ويجاب عن قولهم ان هذه الآية ناسخة لآية المائدة بان سورة البقرة من أول ما نزل وسورة المائدة من آخر ما نزل والقول الاول هو الراجح وقد قال به مع من تقدم عثمان بن عفان وطلحة وجابر وحذيفة وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير

ولا يتأول منه شيأ على غير تأويله وكذا رواه عبد الرزاق عن معمر عن قتادة ومنصور بن المعتمر عن ابن مسعود قال السدي عن أبي مالك عن ابن عباس في هذه الآية قال يحلون حلاله ويحرمون حرامه ولا يحرفونه عن مواضعه قال ابن أبي حاتم وروي عن ابن مسعود نحو ذلك وقال الحسن البصري يعملون بمحكمه ويؤمنون بمتشابهه ويكلون ما أشكل عليهم الى عالمه وقال ابن أبي حاتم أخبرنا أبو زرعة أخبرنا ابراهيم بن موسى أخبرنا ابن أبي زائدة أخبرنا داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس في قوله يتلونه حق تلاوته قال يتبعونه حق اتباعه ثم قرأ والقمر اذا تلاها يقول اتبعها قال وروي عن عكرمة وعطاء ومجاهد وأبي رزين وابراهيم النخعي نحو ذلك وقال سفيان الثوري أخبرنا زبيد عن مرة عن عبد الله بن مسعود في قوله يتلونه حق تلاوته قال يتبعونه حق اتباعه قال القرطبي وروى نصر بن عيسى عن مالك عن نافع عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله يتلونه حق تلاوته قال يتبعونه حق اتباعه ثم قال في اسناده غير واحد من المجهولين فيما ذكره الخطيب الا أن معناه صحيح وقال أبو موسى الاشعري من يتبع القرآن يهبط به على رياض الجنة وعن عمر بن الخطاب هم الذين اذا مروا بآية رحمة سألوها من الله واذا مروا بآية عذاب استعاذوا منها قال وقد روي هذا المعنى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه كان اذا مر بآية رحمة سأل واذا مر بآية عذاب تعوذ وقوله أولئك يؤمنون به خبر عن الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أي من أقام كتابه من أهل الكتب المنزلة على الانبياء المتقدمين حق اقامته آمن بما أرسلتك به يا محمد كما قال تعالى ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل اليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم الآية وقال قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والانجيل وما أنزل اليكم من ربكم أي اذا أقمتموها حق الاقامة وآمنتم بها حق الايمان وصدقتم ما فيها من الاخبار بمبعث محمد صلى الله عليه وسلم ونعته وصفته والامر باتباعه ونصره وموازرته قادكم ذلك الى الحق واتباع الخير في الدنيا والآخرة كما قال تعالى الذين يتبعون الرسول النبي الامي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل الآية وقال قل آمنوا به أو لا تؤمنوا ان الذين أوتوا العلم من قبله اذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا ويقولون سبحان ربنا ان

كان وعد ربنا لمفعولا أي ان كان ما وعدنا به من شان محمد صلى الله عليه وسلم لواقعا وقال تعالى الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون واذا يتلى عليهم قالوا آمنا به انه الحق من ربنا انا كنا من قبله مسلمين أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرؤن بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون وقال تعالى وقل للذين أوتوا الكتاب والاميين أأسلمتم فان أسلموا فقد اهتدوا وان تولوا فانما عليك البلاغ والله بصير بالعباد ولهذا قال تعالى ومن يكفر به فاولئك هم الخاسرون كما قال تعالى ومن يكفر به من الاحزاب فالنار موعده وفي الصحيح والذي نفسي (٢٨٤) بيده لا يسمع بي أحد من هذه الامة يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي الا دخل النار (يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيأ ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون) قد تقدم نظير هذه الآية في صدر السورة وكررت ههنا للتأكيد والحث على اتباع الرسول النبي الامي الذي يجدون صفته في كتبهم ونعته واسمه وأمره وأمته فحذرهم من كتمان هذا وكتمان ما أنعم به عليهم وأمرهم أن يذكروا نعمة الله عليهم من النعم الدنيوية والدينية ولا يحسدوا بني عمهم من العرب على ما رزقهم الله من ارسال الرسول الخاتم منهم ولا يحملهم ذلك الحسد على مخالفته وتكذيبه والحيد عن موافقته صلوات الله وسلامه عليه دائما الى يوم الدين (واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال اني جاعلك للناس اماما قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين) يقول تعالى منبها على شرف ابراهيم خليله عليه السلام وأن الله تعالى جعله اماما للناس يقتدى به في التوحيد حين قام بما كلفه الله تعالى به من الاوامر والنواهي ولهذا قال واذ ابتلى وهم ابراهيم ربه بكلمات أي واذكر يا محمد لهؤلاء المشركين وأهل الكتابين الذين ينتحلون ملة ابراهيم وليسوا عليها وانما الذي هو عليه مستقيم فأنت والذين معك من المؤمنين اذكر لهؤلاء ابتلاء الله ابراهيم أي اختباره له بما كلفه به من الاوامر والنواهي فاتمهن أي قام بهن كلهن كما قال تعالى وابراهيم الذي وفى أي وفى جميع ما شرع له فعمل به صلوات الله عليه وقال تعالى ان ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين شاكرا لانعمه اجتباه وهداه الى صراط مستقيم وآتيناه في الدنيا حسنة وانه

والحسن وطاوس وعكرمة والشعبي والضحاك كما حكاه النحاس والقرطبي وقد حكاه ابن المنذر عن المذكورين وزاد عمر بن الخطاب وقال لا يصح عن أحد من الاوائل انه حرم ذلك وقال بعض أهل العلم ان لفظ المشرك لا يتناول أهل الكتاب لقوله تعالى ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين وعلى فرض أن لفظ المشركين يعم فهذا العموم مخصوص بآية المائدة كما قدمنا عن مقاتل بن حيان قال نزلت هذه الآية في أبي مرثد الغنوي استأذن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في عناق أن يتزوجها وكانت ذات حظ من جمال وهي مشركة وأبو مرثد يومئذ مسلم فقال يا رسول الله انها تعجبني فأنزل الله ولا تنكحوا المشركات أخرجه ابن أبي حاتم وابن المنذر وأخرج البخاري عن ابن عمر قال حرم الله نكاح المشركات على المسلمين ولا أعرف شيأ من الاشراك أعظم من أن تقول المرأة ربها عيسى أو عبد من عباد الله (ولأمة مؤمنة خير من مشركة) أي ولرقيقة مؤمنة أنفع وأصلح وأفضل من حرة مشركة وقيل المراد بالامة الحرة لان الناس كلهم عبيد الله واماؤه والاول أولى لانه الظاهر من اللفظ ولانه أبلغ فان تفضيل الامة المؤمنة على الحرة المشركة يستفاد منه تفضيل الحرة المؤمنة على الحرة المشركة بالاولى قال ابن عرفة يجيء التفضيل في كلامهم ايجابا للاول ونفيا عن الثاني فعلى هذا لا يلزم وجود خير في المشركة مطلقا (ولو أعجبتكم) المشركة من جهة كونها ذات جمال أو مال أو نسب أو شرف وهذه الجملة حالية قال السيوطي وهذا مخصوص بغير الكتابيات بآية والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب (ولا تنكحوا المشركين) أي لا تزوجوا الكفار بالمؤمنات خطاب للاولياء (حتى يؤمنوا) قال القرطبي وأجمعت الامة على أن المشرك لا يطأ المؤمنة بوجه لما في ذلك من الغضاضة على الاسلام (ولعبد) الكلام فيه كالكلام في قوله ولأمة والترجيح كالترجيح (مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم) أي بحسنه وجماله ونسبه وماله (أولئك) اشارة الى المشركين والمشركات (يدعون الى النار) أي الى الاعمال الموجبة للنار فكان في مصاهرتهم ومعاشرتهم ومصاحبتهم من الخطر العظيم ما لا يجوز للمؤمنين أن يتعرضوا له ويدخلوا فيه (والله يدعو الى الجنة والمغفرة) أي الى الاعمال الموجبة للجنة وقيل المراد أن أولياء الله وهم المؤمنون يدعون الى الجنة (باذنه) أي بأمره قاله الزجاج وقيل بتيسيره وتوفيقه قاله في الكشاف فيجب اجابته بالتزويج من أوليائه

فى الآخرة لمن الصالحين ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين وقال تعالى ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين ان أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا والله ولى المؤمنين وقوله تعالى بكلمات أى بشرائع وأوامر ونواه فان الكلمات تطلق ويراد بها الكلمات القدرية كقوله تعالى عن مريم عليها السلام وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين وتطلق ويراد بها الشرعية كقوله تعالى وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا أى كلماته الشرعية وهى اما خبر صدق واما طلب عدل ان كان أمرا أونهيا ومن ذلك هذه الآية

الكريمة وإذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن أى قام بهن قال انى جاعلك للناس اماما أى جزاء على ما فعل كما قام بالاوامر وترك الزواجر جعله الله للناس قدوة واماما يقتدى به ويحتذى حذوه وقد اختلف فى تعيين الكلمات التى اختبر الله بها ابراهيم الخليل عليه السلام فروى عن ابن عباس فى ذلك روايات فقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قال ابن عباس ابتلاه الله بالمناسك وكذا رواه أبو اسحق السبيعى عن التميمى عن ابن عباس وقال عبد الرزاق أيضا أخبرنا معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات قال ابتلاه الله بالطهارة خمس فى الرأس وخمس فى الجسد فى الرأس قص الشارب والمضمضة والاستنشاق والسواك وحلق وفرق الرأس وفى الجسد تقليم الاظفار وحلق العانة والختان ونتف الابط وغسل أثر الغائط والبول بالماء قال ابن أبى حاتم وروى عن سعيد بن المسيب ومجاهد والشعبى والنخعى وأبى صالح وأبى الجلد نحو ذلك (قلت) وقريب من هذا ما ثبت فى صحيح مسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر من الفطرة قص الشارب واعفاء اللحية والسواك واستنشاق الماء وقص الاظفار وغسل البراجم ونتف الابط وحلق العانة وانتقاص الماء قال مصعب ونسيت العاشرة الا ان تكون المضمضة قال وكيع انتقاص الماء يعنى الاستنجاء وفى الصحيحين عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال الفطرة خمس الختان والاستحداد وقص الشارب وتقليم الاظفار ونتف الابط ولفظه لمسلم وقال ابن أبى حاتم أنبأنا يونس بن عبد الاعلى قراءة أخبرنا ابن وهب أخبرنى ابن لهيعة عن ابن هبيرة عن

وهم المسلمون (ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون) أى يوضح أدلته وحججه فى أوامره ونواهيه وأحكامه لعلهم يتعظون (ويسئلونك عن المحيض) السائل أبو الدحداح فى نفر من الصحابة والمحيض هو الحيض وهو مصدر ميمى يقال حاضت المرأة حيضا ومحيضا فهى حائض وحائضة كذا قال الفراء ونساء حيض وحوائض والحيضة بالكسر المرة الواحدة وقيل الاسم وقيل المحيض عبارة عن الزمان والمكان وهو مجاز فيهما وقال ابن جرير الطبرى المحيض اسم الحيض أى الحدث وأصل هذه الكلمة من السيلان والانفجار يقال حاض السيل وفاض وحاضت الشجرة أى سالت رطوبتها ومنه الحوض لان الماء يحوض اليه أى يسيل (قل هو أذى) أى شئ يتأذى به أى برائحته والاذى كناية عن القذر ومحله ويطلق على القول المكروه ومنه قوله تعالى ولا تبطلوا صدقاتكم بالمن والاذى ومنه قوله تعالى ودع أذاهم (فاعتزلوا النساء فى المحيض) أى فاجتنبوهن واتركوا وطأهن فى زمان الحيض ان حمل المحيض على المصدر أوفى محل الحيض ان حمل على الاسم والمراد من هذا الاعتزال ترك المجامعة لا ترك المجالسة أو الملابسة فان ذلك جائز بل يجوز الاستمتاع منها بما عدا الفرج أو بما دون الازار على خلاف فى ذلك وأما ما يروى عن ابن عباس وعبيدة السلمانى أنه يجب على الرجل ان يعتزل فراش زوجته اذا حاضت فليس ذلك بشئ ولا خلاف بين أهل العلم فى تحريم وطء الحائض وهو معلوم من ضرورة الدين وقد أخرج مسلم وأهل السنن وغيرهم عن أنس ان اليهود كانوا اذا حاضت المرأة منهم أخرجوها من البيت ولم يؤاكلوها ولم يشاربوها ولم يجامعوها فى البيوت فسئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن ذلك فأنزل الله ويسئلونك عن المحيض الآية فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جامعوهن فى البيوت واصنعوا كل شئ الا النكاح (ولا تقربوهن) بالجماع (حتى يطهرن) قرئ بالتخفيف والتشديد والطهر انقطاع الحيض والتطهر الاغتسال وبسبب اختلاف القراء اختلف أهل العلم فذهب الجمهور الى أن الحائض لا يحل وطؤها لزوجها حتى تتطهر بالماء وقال محمد بن كعب القرظى ويحيى بن بكير اذا طهرت الحائض وتيممت حيث لا ماء حلت لزوجها وان لم تغتسل وقال مجاهد وعكرمة ان انقطاع الدم يحلها لزوجها ولكن تتوضأ وقال أبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد ان انقطع دمها بعد مضى عشرة أيام جاز له أن يطأها قبل الغسل وان كان انقطاعه قبل العشرة لم يجز حتى تغتسل أو يدخل

حنش بن عبد الله الصنعانى عن ابن عباس أنه كان يقول فى تفسير هذه الآية وإذا ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال عشر ست فى الانسان وأربع فى المشاعر فاما التى فى الانسان حلق العانة ونتف الابط والختان وكان ابن هبيرة يقول هؤلاء الثلاثة واحدة (١) وتقليم الاظفار وقص الشارب والسواك وغسل يوم الجمعة والاربعة التى فى المشاعر الطواف والسعى بين الصفا والمروة ورمى الجمار والافاضة وقال داود بن أبى هند عن عكرمة عن ابن عباس انه قال ما ابتلى بهذا الدين أحد فقام به كله الا ابراهيم قال الله تعالى وإذا ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن قلت له وما الكلمات التى ابتلى الله ابراهيم بهن فأتمهن قال الاسلام ثلاثون سهما منها عشر آيات فى براءة التائبون العابدون الى آخر الآية وعشر آيات فى أول سورة قد أفلح المؤمنون وسأل سائل بعذاب واقع وعشر آيات فى الاحزاب ان المسلمين والمسلمات الى آخر الآية فأتمهن كلهن فكتبت له براءة قال الله وابراهيم الذى وفى قال هكذا رواه الحاكم وأبو جعفر بن جرير وأبو محمد بن أبى حاتم بأسانيدهم الى داود بن أبى هند به وهذا لفظ ابن أبى حاتم وقال محمد بن اسحق عن محمد بن أبى محمد عن سعيد أو عكرمة عن ابن عباس قال الكلمات التى ابتلى الله بهن ابراهيم فأتمهن فراق قومه فى الله حين أمر بمفارقتهم ومحاجته نمروذ فى الله حين وقفه على ما وقفه عليه من خطر الامر الذى فيه خلافهم وصبره على قذفهم اياه فى النار ليحرقوه فى الله على هول ذلك من أمرهم والهجرة بعد ذلك من وطنه وبلاده فى الله حين أمره بالخروج عنهم وما أمره به من الضيافة والصبر عليها بنفسه وماله وما ابتلى به من ذبح ابنه حين أمره بذبحه فلما مضى على ذلك من الله كله وأخلصه للبلاء قال الله له أسلم قال أسلمت لرب العالمين على ما كان من خلاف الناس وفراقهم وقال ابن أبى حاتم أخبرنا أبو سعيد الاشج أخبرنا اسمعيل بن علية عن أبى رجاء عن الحسن يعنى البصرى وإذا ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال ابتلاه بالكوكب فرضى عنه وابتلاه بالقمر فرضى عنه وابتلاه بالشمس فرضى عنه وابتلاه بالهجرة فرضى عنه وابتلاه بالختان فرضى عنه وابتلاه بابنه فرضى عنه وقال ابن جرير أخبرنا بشر بن معاذ أخبرنا يزيد بن زريع

عليها رقت صلاة وقد رجح ابن جرير الطبرى قراءة التشديد والاولى أن يقال ان الله سبحانه جعل للحل غايتين كما تقتضيه القراءتان احداهما انقطاع الدم والاخرى التطهر منه والغاية الاخرى مشتملة على زيادة على الغاية الاولى فيجب المصير اليها وقد دل على أن الغاية الاخرى هى المعتبرة قوله تعالى بعد ذلك (فاذا تطهرن) فان ذلك يفيد أن المعتبر التطهر لا مجرد انقطاع الدم وقد تقرر أن القراءتين بمنزلة الآيتين فكما انه يجب الجمع بين الآيتين المشتملة احداهما على زيادة بالعمل بتلك الزيادة كذلك يجب الجمع بين القراءتين (فأتوهن من حيث أمركم الله) أى جامعوهن وكنى عنه بالاتيان والمراد انهم يجامعوهن فى المأتى الذى أباحه الله وهو القبل وقيل من حيث بمعنى فى حيث كما فى قوله تعالى اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة أى فى يوم الجمعة وقوله ماذا خلقوا من الارض أى فى الارض وقيل ان المعنى من الوجه الذى أذن الله لكم فيه أى من غير صوم واحرام واعتكاف وقيل ان المعنى من قبل الطهر لا من قبل الحيض وقيل من قبل الحلال لا من قبل الزنا (ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين) قيل المراد التوابون من الذنوب والمتطهرون من الجنابة والاحداث وقيل التوابون من اتيان النساء فى أدبارهن وقيل من اتيانهن فى المحيض والاول أظهر (نساؤكم حرث لكم) لفظ الحرث يفيد أن الاباحة لم تقع الا فى الفرج الذى هو القبل خاصة اذ هو مزدرع الذرية كما أن الحرث مزدرع النبات فقد شبه ما يلقى فى أرحامهن من النطف التى منها النسل بما يلقى فى الارض من البذور التى منها النبات بجامع ان كل واحد منهما مادة لما يحصل منه وهذه الجملة بيان للجملة الاولى أعنى قوله فأتوهن من حيث أمركم الله (فأتوا حرثكم) أى محل زرعكم واستنباتكم الولد وهو القبل وهذا على سبيل التشبيه فجعل فرج المرأة كالارض والنطفة كالبذر والولد كالزرع (أنى شئتم) أى من أى جهة شئتم من خلف وقدام وباركة ومستلقية ومضطجعة وقائمة وقاعدة ومقبلة ومدبرة اذا كان فى موضع الحرث وانما عبر سبحانه بكلمة أنى لكونها أعم فى اللغة من أين وكيف ومتى وأما سيبويه ففسرها بكيف وقد ذهب السلف والخلف من الصحابة والتابعين والائمة الى ما ذكرناه من تفسير الآية وان اتيان الزوجة فى دبرها حرام وروى عن سعيد بن المسيب ونافع وابن عمر ومحمد بن كعب القرظى وعبد الملك بن الماجشون انه يجوز ذلك حكاه عنهم القرطبى فى تفسيره قال وحكى ذلك عن مالك فى كتاب له يسمى كتاب

(١) قوله وتقليم الاظفار الخ كذا فى النسخ التى بايدينا والمعدود خمسة على قول ابن هبيرة وسبعة على قول غيره فالعدد على كل حال غير ظاهر وقوله بعد فلما مضى على ذلك الخ فيه ما يحتاج الى تأمل اهـ مصححه

أخبرنا سعيد عن قتادة قال كان الحسن يقول اى والله لقد ابتلاه بامر فصبر عليه ابتلاه بالكوكب والشمس والقمر فاحسن فى ذلك وعرف أن ربه دائم لا يزول فوجه وجهه للذى فطر السموات والارض حنيفا وما كان من المشركين ثم ابتلاه بالهجرة فخرج من بلاده وقومه حتى لحق بالشام مهاجرا الى الله ثم ابتلاه بالنار قبل الهجرة فصبر على ذلك وابتلاه بذبح ابنه والختان فصبر على ذلك وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عمن سمع الحسن يقول فى قوله واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات قال ابتلاه الله بذبح ولده وبالنار والكوكب والشمس والقمر وقال أبو جعفر بن جرير أخبرنا ابن بشار أخبرنا مسلم بن قتيبة أخبرنا أبو هلال عن الحسن واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات قال ابتلاه بالكوكب وبالشمس والقمر فوجده صابرا وقال العوفى فى تفسيره عن ابن عباس واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فاتمهن فمنهن قال انى جاعلك للناس اماما ومنهن واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسمعيل ومنهن الآيات فى شان المنسك والمقام الذى جعل لابراهيم والرزق الذى رزق ساكنو البيت ومحمد بعث فى دينهما وقال ابن أبى حاتم أخبرنا الحسن بن محمد بن الصباح أخبرنا شبابة عن ورقاء عن ابن أبى نجيح عن مجاهد فى قوله تعالى واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فاتمهن قال الله لابراهيم انى مبتليك بامر فما هو قال تجعلنى للناس اماما قال نعم قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظالمين قال تجعل البيت مثابة للناس قال نعم قال وأمنا قال نعم قال تجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك قال نعم قال وترزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله قال نعم قال ابن أبى نجيح سمعته من عكرمة فعرضته على مجاهد فلم ينكره وهكذا رواه ابن جرير من غير وجه عن ابن أبى نجيح عن مجاهد وقال سفيان الثورى عن ابن أبى نجيح عن مجاهد واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فاتمهن قال ابتلى بالآيات التى بعدها انى جاعلك للناس اماما قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظالمين وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات قال الكلمات انى جاعلك للناس اماما وقوله واذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا وقوله واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى وقوله وعهدنا الى ابراهيم واسمعيل الآية وقوله واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسمعيل الآية قال فذلك كله من الكلمات التى ابتلى بهن ابراهيم وقال السدى الكلمات التى ابتلى بهن ابراهيم ربه ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة

كتاب السر وحذاق أصحاب مالك ومشايخهم ينكرون ذلك الكتاب ومالك أجل من أن يكون له كتاب سر ووقع هذا القول فى العتبية وذكر ابن العربى ان ابن شعبان أسند جواز ذلك الى زمرة كثيرة من الصحابة والتابعين والى مالك من روايات كثيرة فى كتاب جماع النسوان وأحكام القرآن قال الطحاوى روى أصبغ بن الفرج عن عبد الرحمن بن القاسم قال ما أدركت أحدا أقتدى به فى دينى شك فى أنه حلال يعنى وطء المرأة فى دبرها ثم قرأ نساؤكم حرث لكم ثم قال فاى شئ أبين من هذا وقد روى الحاكم والدارقطنى والخطيب البغدادى عن مالك من طرق ما يقتضى اباحة ذلك وفى أسانيدها ضعف وقد روى الطحاوى عن محمد بن عبد الله بن عبد الحكم انه سمع الشافعى يقول ما صح عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم فى تحليله ولا تحريمه شئ والقياس انه حلال وقد روى ذلك أبو بكر الخطيب قال ابن الصباغ كان الربيع يحلف بالله الذى لا اله الا هو لقد كذب ابن عبد الحكم على الشافعى فى ذلك فان الشافعى نص على تحريمه فى ستة كتب من كتبه وأخرج البخارى ومسلم وأهل السنن وغيرهم عن جابر قال كانت اليهود تقول اذا أتى الرجل امرأته من خلفها فى قبلها ثم حملت جاء الولد أحول فنزلت نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم ان شاء مجبية وان شاء غير مجبية غير ان ذلك فى صمام واحد وقد روى هذا عن جماعة من السلف وصرحوا انه السبب والصمام السبيل وأخرج أحمد وعبد بن حميد والترمذى وحسنه والنسائى والضياء فى المختارة وغيرهم عن ابن عباس قال جاء عمر الى رسول الله فقال يا رسول الله هلكت قال وما أهلكك قال حولت رحلى الليلة فلم يرد عليه شيأ فاوحى الله الى رسوله هذه الآية نساؤكم حرث لكم يقول اقبل وادبر واتق الدبر والحيضة وأخرج الشافعى فى الام وابن أبى شيبة وأحمد والنسائى وابن ماجه وابن المنذر والبيهقى فى سننه من طريق خزيمة بن ثابت ان سائلا سأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن اتيان النساء فى أدبارهن فقال حلال أو لا بأس فلما ولى دعاه فقال كيف قلت أمن دبرها فى قبلها فنعم أم من دبرها فى دبرها فلا ان الله لا يستحى من الحق لا تأتوا النساء فى أدبارهن وأخرج ابن أبى شيبة والترمذى وحسنه والنسائى وابن حبان عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا ينظر الله الى رجل أتى امرأة فى الدبر وأخرج أحمد والبيهقى فى سننه عن ابن عمرو أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال الذى يأتى

مسلمة لك ربنا وابعث فيهم رسولا منهم وقال القرطبي وفي الموطأ وغيره عن يحيى بن سعيد أنه سمع سعيد بن المسيب يقول ابراهيم عليه السلام أول من اختتن وأول من ضاف الضيف وأول من قلم أظفاره وأول من قص الشارب وأول من شاب فلما رأى الشيب قال ماهذا قال وقار قال يارب زدني وقارا وذكر ابن أبي شيبة عن سعد بن ابراهيم عن أبيه قال أول من خطب على المنابر ابراهيم عليه السلام قال غيره وأول من برد البريد وأول من ضرب بالسيف وأول من استاك وأول من استنجى بالماء وأول من لبس السراويل وروى معاذ بن جبل قال قال (٢٨٨) رسول الله صلى الله عليه وسلم ان أتخذ المنبر فقد اتخذه أبي ابراهيم وان أتخذ العصا فقد اتخذها أبي ابراهيم (قلت) هذا الحديث لا يثبت والله أعلم ثم شرع القرطبي يتكلم على ما يتعلق بهذه الاشياء من الاحكام الشرعية قال أبو جعفر بن جرير ما حاصله انه يجوز أن يكون المراد بالكلمات جميع ماذكر وجائز أن يكون بعض ذلك ولا يجوز الجزم بشئ منها أنه المراد على التعيين الا بحديث أو اجماع قال ولم يصح في ذلك خبر بنقل الواحد ولا بنقل الجماعة الذي يجب التسليم له قال غير واحد انه قد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم في نظير معنى ذلك خبران أحدهما ماحدثنا به أبو كريب أخبرنا راشد بن سعد حدثني زبان ابن فائد عن سهل بن معاذ بن أنس قال كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول ألا أخبركم لم سمى الله ابراهيم خليله الذي وفى لانه كان يقول كلما أصبح وكلما أمسى سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد في السموات والارض وعشيا وحين تظهرون الى آخر الآية قال والآخر منهما ماحدثنا به أبو كريب أخبرنا الحسن عن عطية أخبرنا اسرائيل عن جعفر بن الزبير عن القاسم عن أبي امامة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وابراهيم الذي وفى قال أتدرون ماوفى قالوا الله ورسوله أعلم قال وفى عمل يومه أربع ركعات في النهار ورواه آدم في تفسيره عن حماد بن سلمة وعبد بن حميد عن يونس بن محمد عن حماد بن سلمة عن جعفر بن الزبير به ثم شرع ابن جرير يضعف هذين الحديثين وهو كما قال فانه لا يجوز روايتهما الا ببيان ضعفهما وضعفهما من وجوه عديدة فان كلا من السندين مشتمل على غير واحد من الضعفاء مع ما في متن الحديث مما يدل على ضعفه والله أعلم ثم قال ابن جرير ولو قال قائل ان الذي قاله

امرأته في دبرها هي اللوطية الصغرى وأخرج أحمد وأبو داود والنسائي عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ملعون من أتى امرأته في دبرها وقد ورد النهي عن ذلك من طرق وقد ثبت نحو ذلك عن جماعة من الصحابة والتابعين مرفوعا وموقوفا وقد روي القول بحل ذلك عن بعضهم كما قدمنا وليس في أقوال هؤلاء حجة البتة ولا يجوز لأحد أن يعمل على أقوالهم فانهم لم يأتوا بدليل يدل على الجواز فمن زعم منهم أنه فهم ذلك من الآية فقد أخطأ في فهمه وقد فسرها لنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأكابر أصحابه بخلاف ماقاله هذا المخطئ في فهمه كائنا من كان ومن زعم منهم أن سبب نزول الآية أن رجلا أتى امرأته في دبرها فليس في هذا ما يدل على ان الآية أحلت ذلك ومن زعم ذلك فقد أخطأ بل الذي تدل عليه الآية ان ذلك حرام فكون ذلك هو السبب لا يستلزم ان تكون الآية نازلة في تحليله فان الآيات النازلة على أسباب تأتي تارة بتحليل هذا وتارة بتحريمه (وقدموا لانفسكم) أي خيرا كما في قوله تعالى وما تقدموا لانفسكم من خير تجدوه عند الله وقيل ابتغاء الولد وقيل التزوج بالعفائف وقيل التسمية والدعاء عند الجماع وقيل غير ذلك (واتقوا الله) فيه تحذير عن الوقوع في شئ من المحرمات (واعلموا أنكم ملاقوه) بالبعث مبالغة في التحذير (وبشر المؤمنين) الذين اتقوا بالجنة تأنيس لمن يفعل الخير ويجتنب الشر (ولا تجعلوا الله) أي الحلف به (عرضة لايمانكم) العرضة النصبة قاله الجوهري وقيل العرضة الشدة والقوة ومنه قولهم للمرأة عرضة للنكاح اذا صلحت له وقويت عليه ولفلان عرضة أي قوة وتطلق العرضة على الهمة ويقال فلان عرضة للناس لا يزالون يقعون فيه فعلى المعنى الذي ذكره الجوهري أن العرضة النصبة كالغرفة يكون ذلك اسما لما تعرضه دون الشئ أي تجعله حاجزا له ومانعا منه أي لا تجعلوا الله حاجزا ومانعا لما حلفتم عليه وذلك لان الرجل كان يحلف على بعض الخير من صلة الرحم أو احسان الى الغير أو اصلاح بين الناس بان لا يفعل ذلك ثم يمتنع من فعله معللا ذلك الامتناع بانه قد حلف أن لا يفعله وهذا المعنى هو الذي ذكره الجمهور في تفسير الآية فنهاهم الله أن يجعلوه عرضة لايمانهم أي حاجزا لما حلفوا عليه ومانعا منه وسمي المحلوف عليه يمينا لتلبسه باليمين وعلى هذا يكون قوله (أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس) عطف بيان لايمانكم أي لا تجعلوا الله مانعا للايمان التي هي بركم وتقواكم واصلاحكم بين الناس

مجاهد وابو صالح والربيع بن أنس أولى بالصواب كان مذهبا لان قوله انى جاعلك للناس اماما وقوله وعهدنا الى ابراهيم واسمعيل أن طهرا بيتى للطائفين بالآية وسائر الآيات التى هى نظير ذلك كالبيان عن الكلمات التى ذكر الله أنه ابتلى بهن ابراهيم (قلت) والذى قاله أولا من ان الكلمات تشمل جميع ماذكر أقوى من هذا الذى جوزه من قول مجاهد ومن قال مثله لان السياق يعطى غير ما قالوه والله أعلم وقوله قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظالمين لما جعل الله ابراهيم اماما سأل الله أن تكون الائمة من بعده من ذريته فأجيب الى ذلك وأخبر انه سيكون من ذريته ظالمون

وانه لا ينالهم عهد الله ولا يكونون أئمة فلا يقتدى بهم والدليل على انه أجيب الى طلبته قوله تعالى فى سورة العنكبوت وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب فكل نبى أرسله الله وكل كتاب أنزله الله بعد ابراهيم ففى ذريته صلوات الله وسلامه عليه وأما قوله تعالى قال لا ينال عهدى الظالمين فقد اختلفوا فى ذلك فقال خصيف عن مجاهد فى قوله قال لا ينال عهدى الظالمين قال انه سيكون فى ذريتك ظالمون وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد قال لا ينال عهدى الظالمين قال لا يكون لى امام ظالم وفى رواية لا أجعل اماما ظالما يقتدى به وقال سفيان عن منصور عن مجاهد فى قوله تعالى قال لا ينال عهدى الظالمين قال لا يكون امام ظالم يقتدى به وقال ابن أبى حاتم أخبرنا أبى أخبرنا مالك بن اسمعيل أخبرنا شريك عن منصور عن مجاهد فى قوله ومن ذريتى قال أما من كان منهم صالحا فأجعله اماما يقتدى به وأما من كان ظالما فلا ولا نعمة عين وقال سعيد بن جبير لا ينال عهدى الظالمين المراد به المشرك لا يكون امام ظالم يقول لا يكون امام مشرك وقال ابن جريج عن عطاء قال انى جاعلك للناس اماما قال ومن ذريتى فأبى ان يجعل من ذريته اماما ظالما قلت لعطاء ما عهده قال أمره وقال ابن ابى حاتم أخبرنا عمرو ابن ثور القيسارى فيما كتب الى أخبرنا الفريابى حدثنا اسمعيل حدثنا سماك بن حرب عن عكرمة عن ابن عباس قال قال الله لابراهيم انى جاعلك للناس اماما قال ومن ذريتى فأبى أن يفعل ثم قال لا ينال عهدى الظالمين وقال محمد بن اسحق عن محمد بن أبى محمد عن سعيد أو عكرمة عن ابن عباس قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظالمين يخبره انه كائن فى ذريته ظالم لا ينال عهده ولا

الناس ويتعلق قوله لأيمانكم بقوله لا تجعلوا أى لا تجعلوا الله لأيمانكم مانعا وحاجزا ويجوز أن يتعلق بعرضة أى لا تجعلوا شيأ معترضا بينكم وبين البر وما بعده وعلى المعنى الثانى وهو ان العرضة الشدة والقوة يكون معنى الآية لا تجعلوا اليمين بالله قوة لأنفسكم وعدة فى الامتناع من الخير ولا يصح تفسير الآية على المعنى الثالث وهو تفسير العرضة بالهمة وأما على المعنى الرابع وهو قولهم فلان عرضة للناس فيكون معنى الآية عليه ولا تجعلوا الله معرضا لايمانكم فتبتذلونه بكثرة الحلف به ومنه واحفظوا أيمانكم وقد ذم الله المكثرين للحلف فقال ولا تطع كل حلاف مهين وقد كانت العرب تتمادح بقلة الأيمان فيكون قوله أن تبروا علة للنهى أى لا تجعلوا الله معرضا لأيمانكم ارادة ان تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس لان من يكثر الحلف بالله يجترئ على الحنث ويفجر فى يمينه وقد قيل فى تفسير الآية أقوال هى راجعة الى هذه الوجوه التى ذكرناها (والله سميع) أى لأقوال العباد (عليم) بما يصدر منهم وقد ثبت فى الاحاديث الصحيحة فى الصحيحين وغيرهما ان النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال من حلف على يمين فرآى غيرها خيرا منها فليأت الذى هو خير وليكفر عن يمينه وثبت أيضا فى الصحيحين وغيرهما ان النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال والله ان شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرا منها الا أتيت الذى هو خير وكفرت عن يمينى وأخرج ابن ماجه وابن جرير عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من حلف على يمين قطيعة رحم أو معصية فبره أن يحنث فيها ويرجع عن يمينه وفى الباب أحاديث (لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم) اللغو مصدر لغا يلغو لغوا ولغا يلغى لغيا اذا أتى بما لا يحتاج اليه فى الكلام أو بما لا خير فيه وهو الساقط الذى لا يعتد به فاللغو من اليمين هو الساقط ومنه اللغو فى الدية وهو الساقط الذى لا يعتد به من أولاد الابل ومعنى الآية لا يعاقبكم الله بالساقط من أيمانكم (ولكن يؤاخذكم) أى يعاقبكم (بما كسبت قلوبكم) أى اقترفته بالقصد اليه وهى اليمين المقصودة ومثله قوله تعالى ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان وقد اختلف أهل العلم فى تفسير اللغو فذهب ابن عباس وعائشة وجمهور العلماء الى انها قول الرجل لا والله وبلى والله فى حديثه وكلامه غير معتقد لليمين ولا مريد لها قال المروزى هذا معنى لغو اليمين الذى اتفق عليه عامة العلماء ويدل له الاحاديث وبه قال الشافعى

ينبغي ان يوليه شيأ من امره وان كان من ذرية خليله ومحسن ستنفذ فيه دعوته وتبلغ له فيه ما أراد من مسئلته وقال العوفي عن ابن عباس لا ينال عهدي الظالمين قال يعني لا عهد لظالم عليك في ظلمه أن تطيعه فيه وقال ابن جرير حدثنا اسحق أخبرنا عبد الرحمن ابن عبد الله عن اسرائيل عن مسلم الاعور عن مجاهد عن ابن عباس قال لا ينال عهدي الظالمين قال ليس للظالمين عهد وان عاهدته فانقضه وروى عن مجاهد وعطاء ومقاتل بن حيان نحو ذلك وقال الثوري عن هرون بن عنترة عن أبيه قال ليس لظالم عهد وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة (٢٩٠) في قوله لا ينال عهدي الظالمين قال لا ينال عهد الله في الآخرة الظالمين فاما في الدنيا فقد ناله الظالم فامن به وأكل وعاش وكذا قال ابراهيم النخعي وعطاء والحسن وعكرمة وقال الربيع بن أنس عهد الله الذي عهد الى عباده دينه يقول لا ينال دينه الظالمين ألا ترى انه قال وباركنا عليه وعلى اسحق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين يقول ليس كل ذريتك يا ابراهيم على الحق وكذا روى عن أبي العالية وعطاء ومقاتل بن حيان وقال جويبر عن الضحاك لا ينال طاعتي عدو لي يعصيني ولا أنحلها الاول الى يطيعني وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه أخبرنا عبد الرحمن بن محمد بن حامد أخبرنا أحمد ابن عبد الله بن سعيد الدامغاني أخبرنا وكيع عن الاعمش عن سعد بن عبيدة عن أبي عبد الرحمن السلمي عن علي بن أبي طالب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لا ينال عهدي الظالمين قال لا طاعة الا في المعروف وقال السدي لا ينال عهدي الظالمين يقول عهدي نبوتي فهذه أقوال مفسري السلف في هذه الآية على ما نقله ابن جرير وابن أبي حاتم رحمهما الله تعالى واختار ابن جرير أن هذه الآية وان كانت ظاهرة في الخبر انه لا ينال عهد الله بالامامة ظالما ففيها اعلام من الله لابراهيم الخليل عليه السلام انه سيوجد من ذريتك من هو ظالم لنفسه كما تقدم عن مجاهد وغيره والله أعلم وقال ابن خويزمنداد المالكي الظالم لا يصلح أن يكون خليفة ولا حاكما ولا مفتيا ولا شاهدا ولا راويا (وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى) قال العوفي عن ابن عباس قوله تعالى وإذ جعلنا البيت مثابة للناس يقول لا يقضون منه وطرا يأتونه ثم يرجعون الى أهليهم ثم يعودون اليه وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس مثابة للناس يقول يثوبون

وقال أبو هريرة وجماعة من السلف هو ان يحلف الرجل على الشيء لا يظن الا انه اياه فاذا هو ليس ما هو ظنه والى هذا ذهب الحنفية وبه قال مالك في الموطأ ولا كفارة فيه ولا اثم عليه عنده وروى عن ابن عباس انه قال لغو اليمين ان تحلف وأنت غضبان وبه قال طاوس ومكحول وروى عن مالك وقيل ان اللغو هو يمين المعصية قاله سعيد بن المسيب وأبو بكر بن عبد الرحمن وعبد الله بن الزبير وأخوه عروة كالذي يقسم ليشرب الخمر أو ليقطع الرحم وقيل لغو اليمين هو دعاء الرجل على نفسه كان يقول أعمى الله بصره أذهب الله ماله هو يهودي هو مشرك قاله زيد بن أسلم وقال مجاهد لغو اليمين أن يتبايع الرجلان فيقول أحدهما والله لا أبيعك بكذا ويقول الآخر والله لا أشتريه بكذا وقال الضحاك لغو اليمين هي المكفرة أي اذا كفرت سقطت وصارت لغوا والراجح القول الاول لمطابقته للمعنى اللغوي ولدلالة الادلة عليه (والله غفور حليم) حيث لم يؤاخذكم بما تقولونه بألسنتكم من دون عمد وقصد وآخذكم بما تعمدته قلوبكم وتكلمت به ألسنتكم وتلك هي اليمين المعقودة المقصودة وقال سعيد بن جبير والله غفور يعني اذ تجاوز عن اليمين التي حلف عليها حليم اذ لم يجعل عليها الكفارة (للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر) أي يحلفون والمصدر ايلاء وألية وألوة وقرأ ابن عباس للذين آلوا يقال آلى يولي ايلاء وتألى تأليا وائتلى ائتلاء أي حلف ومنه ولا يأتل أولوا الفضل منكم والايلاء حقه ان يستعمل بعلى واستعماله بمن لتضمنه معنى البعد أي يحلفون متباعدين من نسائهم وقد اختلف أهل العلم في الايلاء فقال الجمهور ان الايلاء هو ان يحلف ان لا يطأ امرأته أكثر من أربعة أشهر فان حلف على أربعة أشهر فما دونها لم يكن موليا وكانت عندهم يمينا محضا وبهذا قال مالك والشافعي وأحمد وأبو ثور وقال الثوري والكوفيون الايلاء ان يحلف على أربعة أشهر فصاعدا وهو قول عطاء وروى عن ابن عباس انه لا يكون موليا حتى يحلف أن لا يمسها أبدا وقالت طائفة اذا حلف أن لا يقرب امرأته يوما أو أقل أو أكثر ثم لم يطأها أربعة أشهر بانت منه بالايلاء وبه قال ابن مسعود والنخعي وابن أبي ليلى والحكم وحماد بن سليمان وقتادة واسحق قال ابن المنذر وأنكر هذا القول كثير من أهل العلم وقوله من نسائهم يشمل الحرائر والاماء اذا كن زوجات وكذلك يدخل تحت قوله للذين يؤلون العبد اذا حلف من زوجته وبه قال أحمد والشافعي وأبو

رواهما ابن جرير وقال ابن أبي حاتم أخبرنا أبي أخبرنا عبد الله بن رجاء أخبرنا اسرائيل عن مسلم عن مجاهد عن ابن عباس في قوله تعالى واذ جعلنا البيت مثابة للناس قال يثوبون اليه ثم يرجعون قال وروى عن أبي العالية وسعيد بن جبير في رواية وعطاء ومجاهد والحسن وعطية والربيع بن أنس والضحاك نحو ذلك وقال ابن جرير حدثني عبد الكريم بن أبي عمير حدثني الوليد بن مسلم قال قال أبو عمرو يعني الاوزاعي حدثني عبدة بن أبي لبابة في قوله تعالى واذ جعلنا البيت مثابة للناس قال لا ينصرف عنه منصرف وهو يرى انه قد قضى منه وطرا وحدثني يونس عن ابن وهب قال قال ابن زيد واذ جعلنا البيت مثابة للناس قال يثوبون اليه من البلدان كلها ويأتونه وما أحسن ما قال الشاعر في هذا المعنى أورده القرطبي

جعل البيت مثابا لهم
ليس منه الدهر يقضون الوطر

وقال سعيد بن جبير في الرواية الاخرى وعكرمة وقتادة وعطاء الخراساني مثابة للناس أي مجمعا وأمنا قال الضحاك عن ابن عباس أي أمنا للناس وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية واذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا يقول أمنا من العدو وان يحمل فيه السلاح وقد كانوا في الجاهلية يتخطف الناس من حولهم وهم آمنون لا يسبون وروى عن مجاهد وعطاء والسدي وقتادة والربيع بن أنس قالوا من دخله كان آمنا ومضمون ما فسر به هؤلاء الائمة هذه الآية ان الله تعالى يذكر شرف البيت وما جعله موصوفا به شرعا وقدرا من كونه مثابة للناس أي جعله محلا تشتاق اليه الارواح وتحن اليه ولا تقضى منه وطرا ولو ترددت اليه كل عام استجابة من الله تعالى لدعاء خليله ابراهيم عليه السلام في قوله فاجعل أفئدة من الناس تهوي اليهم الى أن قال ربنا وتقبل دعائي وتصفه تعالى بانه جعله أمنا من دخله أمن ولو كان قد فعل ما فعل ثم دخله كان آمنا وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم كان الرجل يلقى قاتل أبيه أو أخيه فيه فلا يعرض له كما وصف في سورة المائدة بقوله تعالى جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس أي يدفع عنهم بسبب تعظيمها السوء كما قال ابن عباس لو لم يحج الناس هذا البيت لاطبق الله السماء على الارض وما هذا الشرف الا لشرف بانيه أولا وهو خليل الرحمن كما قال تعالى واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيأ وقال تعالى ان أول بيت

وأبو ثور قالوا وايلاؤه كالحر وقال مالك والزهري وعطاء وأبو حنيفة واسحق ان أجله شهران وقال الشعبي ايلاء الامة نصف ايلاء الحرة والتربص التأني والتأخر وانما وقت الله سبحانه بهذه المدة دفعا للضرار عن الزوجة وقد كان أهل الجاهلية يؤلون السنة والسنتين وأكثر من ذلك يقصدون بذلك ضرار النساء وقد قيل ان الاربعة الاشهر هي التي لا تطيق المرأة الصبر عن زوجها زيادة عليها (فان فاؤا) أي رجعوا فيها أو بعدها عن اليمين الى الوطء ومنه حتى تفيء الى أمر الله أي ترجع ومنه قيل للظل بعد الزوال فيء لانه رجع عن جانب المشرق الى جانب المغرب يقال فاء يفيء فيئة وفيأ وانه سريع الفيئة أي الرجعة وللسلف في الفيء أقوال مختلفة فينبغي الرجوع الى معنى الفيء لغة وقد بيناه قال ابن المنذر وأجمع كل من يحفظ عنه العلم على أن الفيء الجماع لمن لا عذر له فان كان له عذر مرض أو سجن فهي امرأته فاذا زال العذر فأبى الوطء فرق بينهما ان كانت المدة قد انقضت قاله مالك وقالت طائفة اذا أشهد على فيئه بقلبه في حال العذر أجزأه وبه قال الحسن وعكرمة والنخعي والاوزاعي وأحمد بن حنبل وقد أوجب الجمهور على المولى اذا فاء بجماع امرأته الكفارة وقال الحسن والنخعي لا كفارة عليه وللصحابة والتابعين في هذا أقوال مختلفة متناقضة والمتعين الرجوع الى ما في الآية الكريمة وهو ما عرفناك واشدد عليه يديك (فان الله غفور) للزوج اذا تاب من اضراره بامرأته (رحيم) لكل التائبين (وان عزموا الطلاق) العزم العقد على الشيء يقال عزم يعزم عزما وعزيمة وعزمانا واعتزم اعتزاما فمعنى عزموا الطلاق عقدوا عليه قلوبهم بأن لم يفيئوا فليوقعوه والطلاق من طلقت المرأة تطلق كنصر ينصر طلاقا فهي طالق وطالقة أيضا والطلاق حل عقد النكاح وفي ذلك دليل على انها لا تطلق بمضي أربعة أشهر كما قال مالك ما لم يقع انشاء تطليق بعد المدة وأيضا فانه قال (فان الله سميع) لقولهم وسميع يقتضي مسموعا بعد المضي وقال أبو حنيفة سميع لايلائه (عليم) بعزمه الذي دل عليه مضي أربعة أشهر والمعنى ليس لهم بعد تربص ما ذكر الا الفيئة أو الطلاق واعلم أن أهل كل مذهب قد فسروا هذه الآية بما يطابق مذهبهم وتكلفوا ما لم يدل عليه اللفظ ولا دليل آخر ومعناها ظاهر واضح وهو أن الله جعل الاجل لمن يولي أي يحلف من امرأته أربعة أشهر ثم قال مخبرا العباد بحكم هذا المولى بعد هذه المدة فان فاؤا أي رجعوا الى بقاء الزوجية واستدامة

وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام ابراهيم ومن دخله كان آمنا وفي هذه الآية الكريمة ينبه على مقام ابراهيم مع الامر بالصلاة عنده فقال واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى وقد اختلف المفسرون في المراد بالمقام ما هو فقال ابن أبي حاتم أخبرنا عمرو بن شبة النميري حدثنا أبو خلف يعني عبد الله بن عيسى أخبرنا داود بن أبي هند عن مجاهد عن ابن عباس واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى قال مقام ابراهيم الحرم كله وروي عن مجاهد وعطاء مثل ذلك وقال أيضا أخبرنا الحسن بن محمد بن الصباح حدثنا حجاج عن ابن جريج قال (٢٩٢) سألت عطاء عن واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى فقال سمعت ابن عباس قال أما مقام ابراهيم الذي ذكر ههنا فمقام ابراهيم هذا الذي في المسجد ثم قال ومقام ابراهيم يعد كثير مقام ابراهيم الحج كله ثم فسره لي عطاء فقال التعريف وصلاتان بعرفة والمشعر ومنى ورمي الجمار والطواف بين الصفا والمروة فقلت أفسره ابن عباس قال لا ولكن قال مقام ابراهيم الحج كله قلت أسمعت ذلك لهذا أجمع قال نعم سمعته منه وقال سفيان الثوري عن عبد الله بن مسلم عن سعيد بن جبير واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى قال الحجر مقام ابراهيم نبي الله قد جعله الله رحمة فكان يقوم عليه ويناوله اسمعيل الحجارة ولو غسل رأسه كما يقولون لاختلف رجلاه وقال السدي المقام الحجر الذي وضعته زوجة اسمعيل تحت قدم ابراهيم حتى غسلت رأسه حكاه القرطبي وضعفه ورجحه غيره وحكاه الرازي في تفسيره عن الحسن البصري وقتادة والربيع بن أنس وقال ابن أبي حاتم أخبرنا الحسن بن محمد ابن الصباح أخبرنا عبد الوهاب بن عطاء عن ابن جريج عن جعفر بن محمد عن أبيه سمع جابرا يحدث عن حجة النبي صلى الله عليه وسلم قال لما طاف تارة النبي صلى الله عليه وسلم قال له عمر هذا مقام أبينا قال نعم قال أفلا نتخذه مصلى فأنزل الله عز وجل واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى وقال عثمان بن أبي شيبة أخبرنا أبو أسامة عن زكريا عن أبي اسحق عن أبي ميسرة قال قال عمر قلت يا رسول الله هذا مقام خليل ربنا قال نعم قال أفلا نتخذه مصلى فنزلت واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى وقال ابن مردويه أخبرنا دعلج بن أحمد أخبرنا غيلان بن عبد الصمد أخبرنا مسروق بن المرزبان أخبرنا زكريا بن أبي زائدة عن أبي اسحق عن عمرو بن ميمون عن عمر بن الخطاب

النكاح فان الله غفور رحيم أي لا يؤاخذهم بتلك اليمين بل يغفر لهم ويرحمهم وان عزموا الطلاق أي وقع العزم منهم عليه والقصد له فان الله سميع لذلك منهم عليم به فهذا معنى الآية الذي لا شك فيه ولا شبهة فمن حلف أن لا يطأ امرأته ولم يقيد بمدة أو قيد بزيادة على أربعة أشهر كان علينا امهاله أربعة أشهر فاذا مضت فهو بالخيار اما رجع الى نكاح امرأته وكفر عن يمينه وكانت زوجته بعد مضي المدة كما كانت زوجته قبلها أو طلقها وكان له حكم المطلق لامرأته ابتداء وأما اذا وقت بدون أربعة أشهر فان أراد أن يبر في يمينه اعتزل امرأته التي حلف منها حتى تنقضي المدة كما فعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين آلى من نسائه شهرا فانه اعتزلهن حتى مضى الشهر وان أراد أن يطأ امرأته قبل مضي تلك المدة التي هي دون أربعة أشهر حنث في يمينه ولزمته الكفارة وكان ممتثلا لما صح عنه صلى الله عليه وآله وسلم من قوله من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليأت الذي هو خير وليكفر عن يمينه (والمطلقات) أي المخليات من حبال أزواجهن والمطلقة هي التي أوقع الزوج عليها الطلاق (يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء) تمضي من حين الطلاق تدخل تحت عمومه المطلقة قبل الدخول ثم خصصت بقوله تعالى فما لكم عليهن من عدة تعتدونها فوجب بناء العام على الخاص وخرجت من هذا العموم المطلقة قبل الدخول وكذلك خرجت الحامل بقوله تعالى وأولات الاحمال أجلهن أن يضعن حملهن وكذلك خرجت الآيسة بقوله تعالى فعدتهن ثلاثة أشهر والتربص الانتظار قيل هو خبر في معنى الامر أي ليتربصن قصد باخراجه مخرج الخبر تأكيد وقوعه وزاده تأكيدا وقوعه خبرا للمبتدا قال ابن العربي وهذا باطل وانما هو خبر عن حكم الشرع فان وجدت مطلقة لا تتربص فليس ذلك من الشرع ولا يلزم من ذلك وقوع خبر الله سبحانه على خلاف مخبره والقروء جمع قرء قال الاصمعي الواحد القرء بضم القاف وقال أبو زيد بالفتح وكلاهما قال أقرأت المرأة حاضت وأقرأت طهرت وقال الاخفش أقرأت المرأة اذا صارت صاحبة حيض فاذا حاضت قلت قرأت بلا ألف وقال أبو عمرو بن العلاء من العرب من يسمي الحيض قرأ ومنهم من يسمي الطهر قرأ ومنهم من يجمعهما جميعا فيسمي الحيض مع الطهر قرأ وينبغي أن يعلم أن القرء في الاصل الوقت يقال هبت الرياح لقرئها ولقارئها أي لوقتها فيقال للحيض قرء وللطهر قرء لان كل واحد منهما له وقت معلوم وقد أطلقته العرب

أنه مر بمقام ابراهيم فقال يارسول الله أليس نقوم بمقام خليل ربنا قال بلى قال أفلا نتخذه مصلى فلم يلبث الايسيرا حتى نزلت
واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى وقال ابن مردويه أخبرنا علي بن أحمد بن محمد القزويني أخبرنا علي بن الحسين حدثنا الجنيد
أخبرنا هشام بن خالد أخبرنا الوليد عن مالك بن أنس عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر قال لما وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم
يوم فتح مكة عند مقام ابراهيم قال له عمر يارسول الله هذا مقام ابراهيم الذي قال الله واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى قال نعم قال
الوليد قلت لمالك هكذا حدثك واتخذوا قال نعم هكذا وقع في هذه الرواية وهو غريب وقد روى النسائي
من حديث الوليد بن مسلم
نحوه وقال البخاري باب قوله
واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى
مثابة يثوبون يرجعون حدثنا
مسدد أخبرنا يحيى عن حميد عن
أنس بن مالك قال قال عمر بن
الخطاب وافقت ربي في ثلاث أو
وافقني ربي في ثلاث قلت يارسول
الله لو اتخذت من مقام ابراهيم
فنزلت واتخذوا من مقام ابراهيم
مصلى وقلت يارسول الله يدخل
عليك البر والفاجر فلو أمرت
أمهات المؤمنين بالحجاب فأنزل الله
آية الحجاب قال وبلغني معاتبة النبي
صلى الله عليه وسلم بعض نسائه
فدخلت عليهن فقلت ان انتهيتن
أوليبدلن الله رسوله خيرا منكن
حتى أتيت أحدى نسائه قالت
ياعمر أما في رسول الله مايعظ نساءه
حتى تعظهن أنت فأنزل الله عسى
ربه ان طلقكن ان يبدله أزواجا خيرا
منكن مسلمات الآية وقال ابن أبي
مريم أخبرنا يحيى بن أيوب حدثني
حميد قال سمعت أنسا عن عمر
رضي الله عنهما هكذا ساقه
البخاري ههنا وعلق الطريق
الثانية عن شيخه سعيد بن الحكم المعروف بابن أبي مريم المصري وقد تفرد بالرواية عنه البخاري من بين أصحاب الكتب الستة
وروى عنه الباقون بواسطة وغرضه من تعليق هذا الطريق ليبين فيه اتصال اسناد الحديث وانما لم يسنده لان يحيى بن أبي أيوب
الغافقي فيه شئ كما قال الامام أحمد فيه هو سيئ الحفظ والله أعلم وقال الامام أحمد حدثنا هشيم أخبرنا حميد عن أنس قال قال
عمر رضي الله عنه وافقت ربي عز وجل في ثلاث قلت يارسول الله لو اتخذت من مقام ابراهيم مصلى فنزلت واتخذوا من مقام ابراهيم
مصلى وقلت يارسول الله ان نساءك يدخل عليهن البر والفاجر فلو أمرتهن ان يحتجبن فنزلت آية الحجاب واجتمع على رسول الله

تارة على الاطهار وتارة على الحيض وقال قوم مأخوذ من قرء الماء في الحوض وهو
جمعه ومنه القرآن لاجتماع المعاني فيه والحاصل ان القرء في لغة العرب مشترك بين
الحيض والطهر ولاجل ذلك الاشتراك اختلف أهل العلم في تعيين ماهو المراد بالقروء
المذكورة في الآية فقال أهل الكوفة هي الحيض وهو قول عمر وعلي وابن مسعود وأبي
موسى ومجاهد وقتادة والضحاك وعكرمة والسدي وأحمد بن حنبل وقال أهل الحجاز
هي الاطهار وهو قول عائشة وابن عمر وزيد بن ثابت والزهري وأبان بن عثمان والشافعي
واعلم انه قد وقع الاتفاق بينهم على ان القرء الوقت فصار معنى الآية عند الجميع والمطلقات
يتربصن بأنفسهن ثلاثة أوقات فهي على هذا مفسرة في العدد مجملة في المعدود فوجب
طلب البيان للمعدود من غيرها فأهل القول الاول استدلوا على ان المراد في هذه الآية
الحيض بقوله صلى الله عليه وآله وسلم دعي الصلاة أيام أقرائك وبقوله صلى الله عليه وآله
وسلم طلاق الامة تطليقتان وعدتها حيضتان وبأن المقصود من العدة استبراء الرحم
وهو يحصل بالحيض لا بالطهر واستدل أهل القول الثاني بقوله تعالى فطلقوهن لعدتهن
ولا خلاف انه يؤمر بالطلاق وقت الطهر وبقوله صلى الله عليه وآله وسلم لعمر مره
فليراجعها ثم ليمسكها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر فتلك العدة التي أمر الله أن تطلق لها
النساء وذلك لان زمن الطهر هو الذي تطلق فيه النساء قال أبو بكر بن عبد الرحمن
ماأدركنا أحدا من فقهائنا الا يقول بأن الاقراء هي الاطهار فاذا طلق الرجل في طهر لم يطأ
فيه اعتدت بما بقي منه ولو ساعة ولو لحظة ثم استقبلت طهرا ثانيا بعد حيضة فاذا رأت الدم
من الحيضة الثالثة خرجت من العدة انتهى وعندي ان لا حجة في بعض ما احتج به أهل
القولين جميعا أما قول الاولين ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال دعي الصلاة أيام
أقرائك فغاية ما في هذا ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم أطلق الاقراء على الحيض ولا
نزاع في جواز ذلك كما هو شأن اللفظ المشترك فانه يطلق تارة على هذا وتارة على هذا وانما
النزاع في الاقراء المذكورة في هذه الآية وأما قوله صلى الله عليه وآله وسلم في الامة وعدتها
حيضتان فهو حديث أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه والدارقطني والحاكم وصححه
من حديث عائشة مرفوعا وأخرجه ابن ماجه والبيهقي من حديث ابن عمر مرفوعا أيضا
ودلالته على ماقاله الاولون قوية وأما قولهم ان المقصود من العدة استبراء الرحم وهو

الحديث الطويل الذى رواه مسلم فى صحيحه من حديث حاتم بن اسمعيل وروى البخارى بسنده عن عمرو بن دينار قال سمعت ابن عمر يقول قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فطاف بالبيت سبعا وصلى خلف المقام ركعتين فهذا كله مما يدل على ان المراد بالمقام انما هو الحجر الذى كان ابراهيم عليه السلام يقوم عليه لبناء الكعبة لما ارتفع الجدار أتاه اسمعيل عليه السلام به ليقوم فوقه ويناوله الحجارة فيضعها بيده لرفع الجدار وكلما كمل ناحية انتقل الى الناحية الاخرى يطوف حول الكعبة وهو واقف عليه كلما فرغ من جدار نقله الى الناحية التى تليها وهكذا حتى تم جدران الكعبة كما سيأتى بيانه فى قصة ابراهيم واسمعيل فى بناء البيت من رواية ابن عباس عند البخارى وكانت آثار قدميه ظاهرة فيه ولم يزل هذا معروفا تعرفه العرب فى جاهليتها ولهذا قال أبو طالب فى قصيدته المعروفة اللامية

وموطئ ابراهيم فى الصخر رطبة
على قدميه حافيا غير ناعل

وقد أدرك المسلمون ذلك فيه أيضا كما قال عبد الله بن وهب أخبرنى يونس بن يزيد عن ابن شهاب ان أنس بن مالك حدثهم قال رأيت المقام فيه أصابعه عليه السلام وأخمص قدميه غير انه أذهبه مسح الناس بأيديهم وقال ابن جرير أخبرنا بشر بن معاذ أخبرنا يزيد بن زريع أخبرنا سعيد عن قتادة واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى انما أمروا ان يصلوا عنده ولم يؤمروا بمسحه وقد تكلفت هذه الامة شيأ ما تكلفته الامم قبلها ولقد ذكر لنا من راى اثر عقبه وأصابعه فيه فما زالت هذه الامة يمسحونه حتى اخلولق وانمحى (قلت) وقد كان هذا المقام ملصقا بجدار الكعبة قديما ومكانه معروف اليوم الى جانب الباب مما يلى الحجر يمنة الداخل من الباب فى البقعة المستقلة هنالك وكان الخليل عليه السلام لما فرغ من بناء البيت وضعه الى جدار الكعبة أو انه انتهى عنده البناء فتركه هنالك ولهذا والله أعلم أمر بالصلاة هنالك عند الفراغ من الطواف وناسب ان يكون عند مقام ابراهيم حيث انتهى بناء الكعبة فيه وانما أخره عن جدار الكعبة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه أحد الائمة المهديين والخلفاء الراشدين الذين أمرنا باتباعهم وهو أحد الرجلين اللذين قال فيهما رسول الله صلى الله عليه وسلم اقتدوا باللذين من بعدى أبى بكر وعمر وهو الذى نزل القرآن بوفاقه فى الصلاة عنده ولهذا لم ينكر ذلك أحد من الصحابة

والمطلقات يتربصن بأنفسهن لانه يعم المثلثات وغيرهن وصيغة التفضيل لافادة أن الرجل اذا أراد الرجعة والمرأة تأباها وجب ايثار قوله على قولها وليس معناه ان لها حقا فى الرجعة قاله أبو السعود (فى ذلك) يعنى فى مدة التربص فان انقضت مدة التربص فهى أحق بنفسها ولا تحل له الا بنكاح مستأنف بولى وشهود ومهر جديد ولا خلاف فى ذلك والرجعة تكون باللفظ وتكون بالوطء ولا يلزم المراجع شئ من أحكام النكاح بلا خلاف (ان أرادوا اصلاحا) أى بالمراجعة أى اصلاح حاله معها وحالها معه فان قصد الاضرار بها فهى محرمة لقوله تعالى ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا قيل واذا قصد بالرجعة الضرار فهى صحيحة وان ارتكب به محرما وظلم نفسه وعلى هذا فيكون الشرط المذكور فى الآية للحث للازواج على قصد الصلاح والزجر لهم عن قصد الضرار وليس المراد به جعل قصد الصلاح شرطا لصحة الرجعة (ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف) أى ولهن من حقوق الزوجية على الرجال مثل ما للرجال عليهن فيحسن عشرتها بما هو معروف من عادة الناس انهم يفعلونه لنسائهم وهى كذلك تحسن عشرة زوجها بما هو معروف من عادة النساء انهن يفعلنه لازواجهن من طاعة وتزين وتحبب ونحو ذلك قال ابن عباس فى الآية انى أحب ان أتزين لامرأتى كما أحب ان تتزين لى لان الله قال ولهن الخ قال الكرخى أى فى الوجوب لا فى الجنس فلو غسلت ثيابه أو خبزت له لم يلزمه أن يفعل ذلك وقيل فى مطلق الوجوب لا فى عدد الافراد ولا فى صفة الواجب (وللرجال عليهن درجة) أى منزلة ليست لهن وهى قيامه عليها فى الانفاق وكونه من أهل الجهاد والعقل والقوة وله من الميراث أكثر مما لها وكونه يجب عليها امتثال أمره والوقوف عند رضاه والشهادة والدية وصلاحية الامامة والقضاء وله أن يتزوج عليها او يتسرى وليس لها ذلك وبيده الطلاق والرجعة وليس شئ من ذلك بيدها ولو لم يكن من فضيلة الرجال على النساء الا كونهن خلقن من الرجال لما ثبت ان حواء خلقت من ضلع آدم لكفى وقد أخرج أهل السنن عن عمرو بن الاحوص أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال ألا ان لكم على نسائكم حقا ولنسائكم عليكم حقا أما حقكم على نسائكم أن لا يوطئن فرشكم من تكرهون ولا يأذن فى بيوتكم لمن تكرهون ألا وحقهن عليكم أن تحسنوا اليهن فى كسوتهن وطعامهن وصححه الترمذى وأصله عند مسلم فى الصحيح وأخرج أحمد وأبو داود والنسائى

وابن ماجه وابن جرير والحاكم وصححه والبيهقي عن معاوية بن حيدة القشيري انه سأل النبي صلى الله عليه وآله وسلم ماحق المرأة على الزوج قال ان تطعمها اذا طعمت وتكسوها اذا اكتسيت ولا تضرب الوجه ولا تهجر الا في البيت وعن ابن أبي ظبيان ان معاذ بن جبل خرج في غزاة بعثه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيها ثم رجع فرأى رجالا يسجد بعضهم لبعض فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال لو أمرت أحدا أن يسجد لاحد لامرت المرأة أن تسجد لزوجها رواه البغوي باسناده (والله عزيز) يقدر على الانتقام ممن يخالف أحكامه (حكيم) يطوي شرائعه على الحكم والمصالح (الطلاق مرتان) أي عدد الطلاق الذي تثبت فيه الرجعة للازواج هو مرتان فالمراد بالطلاق المذكور هو الرجعي بدليل ما تقدم في الآية أي الطلقة الاولى والثانية اذ لا رجعة بعد الثالثة وانما قال سبحانه مرتان ولم يقل طلقتان اشارة الى انه ينبغي أن يكون الطلاق مرة بعد مرة لا طلقتان دفعة واحدة كذا قال جماعة من المفسرين ولما لم يكن بعد الطلقة الثانية الا أحد أمرين اما ايقاع الثالثة التي بها تبين الزوجة أو الامساك لها واستدامة نكاحها وعدم ايقاع الثالثة عليها قال سبحانه (فامساك) أي بعد الرجعة لمن طلقها زوجها طلقتين (بمعروف) أي بما هو معروف عند الناس من حسن العشرة وحقوق النكاح (أو تسريح باحسان) أي بايقاع طلقة ثالثة من دون ضرار لها وقيل المراد امساك بمعروف أي برجعة بعد الطلقة الثانية أو تسريح باحسان أي بترك الرجعة بعد الثانية حتى تنقضي عدتها والاول أظهر قال أبو عمرو وأجمع العلماء على أن التسريح هي الطلقة الثالثة بعد الطلقتين واياها عنى بقوله فان طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره وقد اختلف أهل العلم في ارسال الثلاث دفعة واحدة هل تقع ثلاث أو واحدة فقط فذهب الى الاول الجمهور وذهب الى الثاني من عداهم وهو الحق وقد قرره الشوكاني في مؤلفاته تقريرا بالغا وأفرده برسالة مستقلة وكذا الحافظ ابن القيم في اغاثة اللهفان واعلام الموقعين وقررته في شرحي على بلوغ المرام (ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيأ) الخطاب للازواج أي لا يحل لهم أن يأخذوا في مقابلة الطلاق مما دفعوه الى نسائهم من المهر شيأ على وجه المضارة لهن وتنكير شيء للتحقير أي شيأ نزرا فضلا عن الكثير وخص ما دفعوه اليهن بعدم حل الاخذ منه مع كونه لا يحل للازواج أن يأخذوا

رضي الله عنهم أجمعين قال عبد الرزاق عن ابن جريج حدثني عطاء وغيره من أصحابنا قالوا اول من نقله عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقال عبد الرزاق ايضا عن معمر عن حميد الاعرج عن مجاهد قال أول من أخر المقام الى موضعه الآن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقال الحافظ ابو بكر أحمد بن علي بن الحسين البيهقي أخبرنا ابو الحسين بن الفضل القطان أخبرنا القاضي أبو بكر أحمد بن كامل حدثنا ابو اسمعيل محمد بن اسمعيل السلمي حدثنا أبو ثابت حدثنا الدراوردي عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها ان المقام كان في زمان رسول الله (٢٩٦) صلى الله عليه وسلم وزمان أبي بكر رضي الله عنه ملتصقا بالبيت ثم أخره عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهذا اسناد صحيح مع ما تقدم وقال ابن أبي حاتم أخبرنا أبي أخبرنا ابن أبي عمر العدني قال قال سفيان يعني ابن عيينة وهو امام المكيين في زمانه كان المقام من سقع البيت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فحوله عمر الى مكانه بعد النبي صلى الله عليه وسلم و بعد قوله واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى قال ذهب السيل به بعد تحويل عمر اياه من موضعه هذا فرده عمر اليه وقال سفيان لا أدري كم بينه و بين الكعبة قبل تحويله قال سفيان لا أدري أكان لاصقا بها أم لا فهذه الآثار متعاضدة على ماذكرناه والله أعلم وقد قال الحافظ أبو بكر بن مردويه أخبرنا ابن عمر وهو أحمد بن محمد بن حكيم اخبرنا محمد بن عبد الوهاب بن ابي تمام أخبرنا آدم هو ابن ابي اياس في تفسيره اخبرنا شريك عن ابراهيم ابن المهاجر عن مجاهد قال قال عمر ابن الخطاب يارسول الله لو صلينا خلف المقام فأنزل الله واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى فكان المقام عند البيت فحوله رسول الله صلى الله عليه وسلم الى موضعه هذا قال من مجاهد وكان عمر يرى الرأي فينزل به القرآن هذا مرسل عن مجاهد وهو مخالف لما تقدم من رواية عبد الرزاق عن معمر عن حميد الاعرج عن مجاهد ان اول من أخر المقام الى موضعه الآن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهذا أصح من طريق ابن مردويه مع اعتضاد هذا بما تقدم والله اعلم (وعهدنا الى ابراهيم واسمعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود وإذ قال ابراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره الى عذاب

النار وبئس المصير واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسمعيل ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا امة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا انك أنت التواب الرحيم) قال الحسن البصرى قوله وعهدنا الى ابراهيم واسمعيل قال أمرهما الله أن يطهرا من الاذى والنجس ولا يصيبه من ذلك شئ وقال ابن جريج قلت لعطاء ما عهده قال امره وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وعهدنا الى ابراهيم أى امرناه كذا قال والظاهر ان هذا الحرف انما عدى بالى لانه فى معنى تقدمنا وأوحينا وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس قوله أن طهرا بيتى للطائفين (٢٩٧) والعاكفين قال من الاوثان وقال

مجاهد وسعيد بن جبير طهرا بيتى للطائفين ان ذلك من الاوثان والرفث وقول الزور والرجس قال ابن أبى حاتم وروى عن عبيد ابن عمير وأبى العالية وسعيد بن جبير ومجاهد وعطاء وقتادة ان طهرا بيتى أى بلا اله الا الله من الشرك وأما قوله تعالى للطائفين فالطواف بالبيت معروف وعن سعيد بن جبير انه قال فى قوله تعالى للطائفين يعنى من أتاه من غربة والعاكفين المقيمين فيه وهكذا روى عن قتادة والربيع بن أنس انهما فسرا العاكفين باهل المقيمين فيه كما قال سعيد بن جبير وقال يحيى القطان عن عبد الملك هو ابن أبى سليمان عن عطاء فى قوله والعاكفين قال من انتابه من الامصار فاقام عنده وقال لنا ونحن مجاورون أنتم من العاكفين وقال وكيع عن أبى بكر الهذلى عن عطاء عن ابن عباس قال اذا كان جالسا فهو من العاكفين وقال ابن أبى حاتم أخبرنا ابى أخبرنا موسى بن اسمعيل أخبرنا حماد بن سلمة أخبرنا ثابت قال قلنا

لعبد الله بن عبيد بن عمير ما أرانى الا مكلم الامير أن امنع الذين ينامون فى المسجد الحرام فانهم يجنبون ويحدثون قال لا تفعل فان ابن عمر سئل عنهم فقال هم العاكفون ورواه عبد بن حميد عن سليمان بن حرب عن حماد ابن سلمة به (قلت) وقد ثبت فى الصحيح ان ابن عمر كان ينام فى مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم وهو عزب وأما قوله تعالى والركع السجود فقال وكيع عن أبى بكر الهذلى عن عطاء عن ابن عباس والركع السجود قال اذا كان مصليا فهو من الركع السجود وكذا قال عطاء وقتادة فى يومه أربع فى النهار ثم شرع ابن جرير يضعف هذين الحديثين فان كلا من السندين مشتمل على غير واحد

من أموالهن التى يملكنها من غير المهر لكون ذلك هو الذى يتعلق به نفس الزوج ويتطلع لاخذه دون ما عداه مما هو فى ملكها على انه اذا كان أخذ ما دفعه اليها فى مقابلة البضع عند خروجه عن ملكه لا يحل له كان ما عداه ممنوعا منه بالاولى وقيل الخطاب للائمة والحكام ليطابق قوله فان خفتم فان الخطاب فيه للائمة والحكام وعلى هذا يكون اسناد الاخذ اليهم لكونهم الآمرين بذلك والاول أولى لقوله مما آتيتموهن فان اسناده الى غير الازواج بعيد جدا لان ايتاء الازواج لم يكن عن أمرهم وقيل ان الثانى أولى لئلا يشوش النظم (الا أن يخافا) أى يعلم الزوجان من أنفسهما فيه التفات عن الخطاب الى الغيبة (أن لا يقيما حدود الله) أى تخاف المرأة ان تعصى الله فى أمور زوجها ويخاف الزوج انه اذا لم تطعه ان يعتدى عليها وقرأ حمزة يخافا بضم الياء أى الا ان يعلم من حالهما والفاعل محذوف وهو الائمة والولاة والحكام والقضاة واختاره أبو عبيد قال لقوله فان خفتم فجعل الخوف لغير الزوجين وقد احتج بذلك من جعل الخلع الى السلطان وهو سعيد ابن جبير والحسن وابن سيرين وقد ضعف النحاس اختيار أبى عبيد (فان خفتم) أى خشيتم وأشفقتم وقيل معناه ظننتم (أن لا يقيما حدود الله) يعنى ما أوجب الله على كل واحد منهما من طاعته فيما أمر به من حسن الصحبة والمعاشرة بالمعروف وقيل هو يرجع الى المرأة وهو سوء خلقها واستخفافها بحق زوجها (فلا جناح عليهما فيما افتدت به) أى لا جناح على الرجل فى الاخذ ولا على المرأة فى الاعطاء بان تفتدى نفسها من ذلك النكاح ببذل شئ من المال يرضى به الزوج فيطلقها لاجله وهذا هو الخلع وقد ذهب الجمهور الى جواز ذلك للزوج وانه يحل له الاخذ مع ذلك الخوف وهو الذى صرح به القرآن وحكى ابن المنذر عن بعض أهل العلم انه لا يحل له ما أخذ ولا يجبر على رده وهذا فى غاية السقوط وأخرج البخارى والنسائى وابن ماجه وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس ان جميلة بنت عبد الله بن سلول امرأة ثابت بن قيس بن شماس أتت النبى صلى الله عليه وآله وسلم فقالت يا رسول الله ثابت بن قيس ما أعتب عليه فى خلق ولا دين ولكن لا أطيقه بغضا وأكره الكفر فى الاسلام قال أتردين عليه حديقته قالت نعم قال اقبل الحديقة وطلقها تطليقة ولفظ ابن ماجه فأمره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان يأخذ منها حديقته ولا يزداد وفى الباب أحاديث كثيرة وقد ورد فى ذم المختلعات أحاديث منها عن ثوبان عند

من الضعفاء وهو كما قال فانه لا يجوز روايتهما قال ابن جرير رحمه الله بمعنى الآية وأمرنا ابراهيم واسمعيل بتطهير بيتي للطائفين والتطهير الذي أمرهما به في البيت هو تطهيره من الاصنام وعبادة الاوثان فيه ومن الشرك ثم أورد سؤالا فقال فان قيل فهل كان قبل بناء ابراهيم عند البيت شئ من ذلك الذي أمر بتطهيره منه وأجاب بوجهين أحدهما انه أمرهما بتطهيره مما كان يعبد عنده زمان قوم نوح من الاصنام والاوثان ليكون ذلك سنة لمن بعدهما اذ كان الله تعالى قد جعل ابراهيم اماما يقتدى به كما قال عبد الرحمن بن زيد أن طهرا بيتي (٢٩٨) قال من الاصنام التي يعبدون التي كان المشركون يعظمونها قلت وهذا الجواب مفرع على انه كان يعبد عنده أصنام قبل ابراهيم عليه السلام ويحتاج اثبات هذا الى دليل عن المعصوم محمد صلى الله عليه وسلم الجواب الثاني انه أمرهما أن يخلصا في بنائه لله وحده لا شريك له فيبنيانه مطهرا من الشرك والريب كما قال جل ثناؤه أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أمن أسس بنيانه على شفا جرف هار قال فكذلك قوله وعهدنا الى ابراهيم واسمعيل أن طهرا بيتي اى ابنياه على طهر من الشرك بي والريب كما قال السدى ان طهرا بيتي ابنيا بيتي للطائفين وملخص هذا الجواب ان الله تعالى امر ابراهيم واسمعيل عليهما السلام ان يبنيا الكعبة على اسمه وحده لا شريك له للطائفين به والعاكفين عنده والمصلين اليه من الركع السجود كما قال تعالى واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيأ وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود الآيات وقد اختلف الفقهاء أيما افضل الصلاة عند البيت أو الطواف به فقال مالك رحمه الله الطواف به لاهل الامصار افضل وقال الجمهور الصلاة أفضل مطلقا وتوجيه كل منهما يذكر في كتاب الاحكام والمراد من ذلك الرد على المشركين الذين كانوا يشركون بالله عند بيته المؤسس على عبادته وحده لا شريك له ثم مع ذلك يصدون أهله المؤمنين عنه كما قال تعالى ان الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ومن يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب أليم ثم ذكر ان البيت انما أسس لمن يعبد الله وحده لا شريك له اما بطواف أو صلاة فذكر في سورة الحج أجزاءها الثلاثة قيامها وركوعها وسجودها ولم يذكر العاكفين لانه

أحمد وأبي داود والترمذي وحسنه وابن ماجه وابن جرير والحاكم وصححه والبيهقي قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أيما امرأة سألت زوجها الطلاق من غير ما بأس فحرام عليها رائحة الجنة وقال المختلعات هن المنافقات ومنها عن ابن عباس عند ابن ماجه ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لا تسأل المرأة زوجها الطلاق في غير كنهه فتجد ريح الجنة وان ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاما وقد اختلف أهل العلم في عدة المختلعة والراجح أنها تعتد بحيضة لما أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه والنسائي والحاكم وصححه عن ابن عباس ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم أمر امرأة ثابت بن قيس ان تعتد بحيضة ولما أخرجه الترمذي عن الربيع بنت معوذ بن عفراء انها اختلعت على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فامرها النبي صلى الله عليه وآله وسلم ان تعتد بحيضة قال الترمذي الصحيح انها أمرت ان تعتد بحيضة وفي الباب أحاديث ولم يرد ما يعارض هذا من المرفوع بل ورد عن جماعة من الصحابة والتابعين ان عدة المختلعة كعدة الطلاق وبه قال الجمهور قال الترمذي وهو قول أكثر أهل العلم من الصحابة وغيرهم واستدلوا على ذلك بان المختلعة من جملة المطلقات فهي داخلة تحت عموم القرآن والحق ما ذكرناه لان ما ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم يخصص عموم القرآن وقد حكي عن بكر بن عبد الله المزني ان هذه الآية منسوخة بقوله تعالى في سورة النساء وان أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم احداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيأ أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا وهو قول خارج عن الاجماع ولا تنافي بين الآيتين وقد اختلف أهل العلم اذا طلب الزوج من المرأة زيادة على ما دفعه اليها من المهر وما يتبعه ورضيت بذلك المرأة هل يجوز أم لا وظاهر القرآن الجواز لعدم تقييده بمقدار معين وبهذا قال مالك والشافعي وأبو ثور وروي مثل ذلك عن جماعة من الصحابة والتابعين وقال طاوس وعطاء والاوزاعي وأحمد واسحق انه لا يجوز لما ورد في ذلك عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم (تلك حدود الله فلا تعتدوها) يعني هذه أوامر الله ونواهيه وهي ما تقدم من الاحكام فلا تتجاوزوها بالمخالفة والرفض (ومن يتعد حدود الله) أي أحكام النكاح والفراق المذكورة هي حدود الله التي أمر بامتثالها فلا تعتدوها بالمخالفة لها فتستحقوا ما ذكره الله من التسجيل على فاعل ذلك بانه ظالم (فأولئك هم الظالمون) أي لانفسهم بتعريضها لسخط

تقدم سواء العاكف فيه والباد وفى هذه الآية الكريمة ذكر الطائفين والعاكفين واكتفى بذكر الركوع والسجود عن القيام لانه قد علم انه لا يكون ركوع ولا سجود الا بعد قيام وفى ذلك أيضا رد على من لا يحجه من أهل الكتابين اليهود والنصارى لانهم يعتقدون فضيلة ابراهيم الخليل واسمعيل ويعلمون انه بنى هذا البيت للطواف فى الحج والعمرة وغير ذلك وللاعتكاف والصلاة عنده وهم لا يفعلون شيأ من ذلك فكيف يكونون مقتدين بالخليل وهم لا يفعلون ماشرع الله له وقد حج البيت موسى بن عمران وغيره من الانبياء عليهم الصلاة والسلام كما أخبر بذلك المعصوم الذى لا ينطق عن الهوى ان هو الا وحى يوحى وتقدير الكلام اذا وعهدنا الى ابراهيم أى تقدمنا وحينا الى ابراهيم واسمعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود أى طهراه من الشرك والريب وابنياه خالصا لله معقلا للطائفين والعاكفين والركع السجود وتطهير المساجد مأخوذ من هذه الآية الكريمة ومن قوله تعالى فى بيوت اذن الله ان ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال ومن السنة من أحاديث كثيرة من الامر بتطهيرها وتطييبها وغير ذلك من صيانتها من الاذى والنجاسات وما أشبه ذلك ولهذا قال عليه السلام انما بنيت المساجد لما بنيت له وقد جمعت فى ذلك جزأ على حدة ولله الحمد والمنة وقد اختلف الناس فى أول من بنى الكعبة فقيل الملائكة قبل آدم روى هذا عن أبى جعفر الباقر محمد بن على بن الحسين ذكره القرطبى وحكى لفظه وفيه غرابة وقيل آدم عليه السلام رواه عبد الرزاق عن ابن جريج عن عطاء وسعيد بن المسيب وغيرهم ان آدم بناه من خمسة أجبل من حراء وطور سيناء وطور زيتا وجبل لبنان والجودى وهذا غريب أيضا وروى عن ابن عباس وكعب الاحبار وقتادة وعن وهب بن منبه ان أول من بناه شيث عليه السلام وغالب من يذكر هذا انما يأخذه من كتب أهل الكتاب وهى مما لا يصدق ولا يكذب ولا يعتمد عليها بمجردها وأما اذا صح حديث فى ذلك فعلى الرأس والعين وقوله تعالى واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال الامام أبو جعفر بن جرير أخبرنا ابن بشار أخبرنا عبد الرحمن بن مهدى أخبرنا سفيان عن أبى الزبير عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان ابراهيم حرم

الله وعقابه وفيه وفيما قبله الاظهار فى مقام الاضمار لتربية المهابة وادخال الروع فى ذهن السامع وذكر هذا الوعيد بعد النهى عن تعديها للمبالغة فى التهديد (فان طلقها) أى الطلقة الثالثة التى ذكرها سبحانه بقوله أو تسريح باحسان أى فان وقع منه ذلك فقد حرمت عليه بالتثليث سواء كان قد راجعها أم لا وسواء انقضت عدتها فى صورة عدم الرجعة أم لا (فلا تحل له من بعد) الحكمة فى شرع هذا الحكم الردع عن المسارعة الى الطلاق وعن العود الى الطلقة الثالثة والرغبة فيها (حتى تنكح زوجا غيره) أى حتى تتزوج بزوج آخر غير المطلق بعد انقضاء عدتها من الاول فيجامعها والنكاح يتناول العقد والوطء جميعا والمراد هنا الوطء وقد أخذ بظاهر الآية سعيد بن المسيب ومن وافقه قالوا يكفى مجرد العقد لانه المراد بقوله حتى تنكح زوجا غيره وذهب الجمهور من السلف والخلف الى انه لا بد مع العقد من الوطء لما ثبت عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم من اعتبار ذلك وهو زيادة يتعين قبولها ولعله لم يبلغ سعيد بن المسيب ومن تابعه وفى الآية دليل على انه لا بد ان يكون ذلك نكاحا شرعيا مقصودا لذاته لا نكاحا غير مقصود لذاته بل حيلة للتحليل وذريعة الى ردها الى الزوج الاول فان ذلك حرام للادلة الواردة فى ذمه وذم فاعله وأنه التيس المستعار الذى لعنه الشارع ولعن من اتخذه لذلك وأخرج الشافعى وعبد الرزاق وابن أبى شيبة وأحمد والبخارى ومسلم والترمذى والنسائى وابن ماجه والبيهقى عن عائشة قالت جاءت امرأة رفاعة القرظى الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالت انى كنت عند رفاعة فطلقنى فبت طلاقى فتزوجنى عبد الرحمن بن الزبير وما معه الا مثل هدبة الثوب فتبسم النبى صلى الله عليه وآله وسلم فقال أتريدين ان ترجعى الى رفاعة لا حتى تذوقى عسيلته ويذوق عسيلتك وقد روى نحو هذا عنها من طرق وأخرج أحمد والنسائى عن ابن عباس ان الغميصاء أو الرميصاء أتت النبى صلى الله عليه وآله وسلم وفى آخره فقال النبى صلى الله عليه وآله وسلم ليس ذلك لك حتى يذوق عسيلتك رجل غيره والعسيلة مجاز عن قليل الجماع اذ يكفى قليل الانتشار شبهت تلك اللذة بالعسل وصغرت بالتاء لان الغالب على العسل التأنيث قاله الجوهرى وقد ثبت لعن المحلل فى أحاديث كثيرة منها عن ابن مسعود عند أحمد والترمذى وصححه والنسائى والبيهقى فى سننه قال لعن النبى صلى الله عليه وآله وسلم المحلل والمحلل له وفى الباب أحاديث فى ذم

بيت الله وأمنه وانى حرمت المدينة ما بين لابتيها فلا يصاد صيدها ولا يقطع عضاهها وهكذا رواه النسائى عن محمد بن بشار عن بندار به وأخرجه مسلم عن أبى بكر بن أبى شيبة وعمرو بن الناقد كلاهما عن أبى أحمد الزبيرى عن سفيان الثورى وقال ابن جرير أيضا أخبرنا أبو كريب وأبو السائب قالا حدثنا ابن ادريس وأخبرنا أبو كريب أخبرنا عبد الرحيم الرازى قالا جميعا سمعنا اشعث عن نافع عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان ابراهيم كان عبد الله وخليله وانى عبد الله ورسوله وان ابراهيم حرم مكة وانى حرمت المدينة ما بين لابتيها اعضاهها وصيدها لا يحمل فيها سلاح لقتال ولا يقطع منها شجرة الا لعلف بعير وهذه الطريق غريبة ليست فى شئ من الكتب الستة وأصل الحديث فى صحيح مسلم من وجه آخر عن أبى هريرة رضى الله عنه قال كان الناس اذا رأوا أول الثمر جاؤا به الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا أخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اللهم بارك لنا فى ثمرنا وبارك لنا فى مدينتنا وبارك لنا فى صاعنا وبارك لنا فى مدنا اللهم ان ابراهيم عبدك وخليلك ونبيك وانى عبدك ونبيك وانه دعاك لمكة وانى أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك لمكة ومثله معه ثم يدعو أصغر وليد له فيعطيه ذلك الثمر وفى لفظ بركة مع بركة ثم يعطيه اصغر من يحضره من الولدان لفظ مسلم ثم قال ابن جرير حدثنا ابو كريب حدثنا قتيبة بن سعيد اخبرنا بكر بن مضر عن ابن الهاد عن ابى بكر بن محمد عن عبد الله بن عمرو بن عثمان عن رافع بن خديج قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان ابراهيم حرم مكة وانى أحرم ما بين لابتيها انفرد باخراجه مسلم فرواه عن قتيبة عن بكر بن مضر به ولفظه كلفظه سواء وفى الصحيحين عن انس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابى طلحة التمس لى غلاما من غلمانكم يخدمنى فخرج بى ابو طلحة يردفنى وراءه فكنت اخدم رسول الله صلى الله عليه وسلم كلما نزل وقال فى الحديث ثم اقبل حتى اذا بدا له احد قال هذا جبل يحبنا ونحبه فلما اشرف على المدينة قال اللهم انى احرم ما بين جبليها مثل ما حرم ابراهيم مكة اللهم بارك لهم فى مدهم وصاعهم وفى لفظ لهما اللهم بارك لهم فى مكيالهم وبارك لهم فى صاعهم وبارك لهم فى مدهم زاد البخارى يعنى اهل المدينة ولهما ايضا عن انس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اللهم اجعل بالمدينة ضعفى ما جعلته بمكة

التحليل وفاعله وقد أطال فى بيان ذلك الحافظ بن القيم فى اغاثة اللهفان واعلام الموقعين وهو بحث نفيس جدا فارجع اليه (فان طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا) أى ان طلقها الزوج الثانى فلا جناح على الزوج الاول والمرأة ان يرجع كل واحد منهما لصاحبه يعنى بنكاح جديد قال ابن المنذر أجمع أهل العلم على ان الحر اذا طلق زوجته ثلاثا ثم انقضت عدتها ونكحت زوجا ودخل بها ثم فارقها وانقضت عدتها ثم نكحها الزوج الاول انها تكون عنده على ثلاث تطليقات (ان ظنا) علما وأيقنا وقيل ان رجوا لان أحدا لا يعلم ما هو كائن الا الله تعالى (أن يقيما حدود الله) أى حقوق الزوجية الواجبة لكل منهما على الآخر وقيل ان علما ان نكاحهما على غير دلسة والدلسة التحليل والاول أولى وأما اذا لم يحصل ظن ذلك بان يعلما أو احدهما عدم الاقامة لحدود الله أو ترددا أو أحدهما ولم يحصل لهما الظن فلا يجوز الدخول فى هذا النكاح لانه مظنة للمعصية لله والوقوع فيما حرمه على الزوجين (وتلك حدود الله) اشارة الى الاحكام المذكورة كما سلف (يبينها لقوم يعلمون) خصهم مع عموم الدعوة للعالم وغيره ووجوب التبليغ لكل فرد لانهم المنتفعون بذلك البيان (واذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن) البلوغ الى الشئ معناه الحقيقى الوصول اليه ولا يستعمل البلوغ بمعنى المقاربة الا مجازا العلاقة مع قرينة كما هنا فانه لا يصح ارادة المعنى الحقيقى لان المرأة اذا بلغت آخر جزء من مدة العدة وجاوزته الى الجزء الذى هو الاجل للانقضاء فقد خرجت من العدة ولم يبق للزوج عليها سبيل قال القرطبى فى تفسيره ان معنى بلغن هنا قاربن باجماع العلماء قال ولان المعنى يضطر الى ذلك لانه بعد بلوغ الاجل لا خيار له فى الامساك يعنى فالبلوغ هنا بلوغ مقاربة والمعنى قاربن انقضاء عدتهن وشارفن منتهاها ولم يرد انقضاء العدة كما يقال بلغ فلان البلد اذا قاربه وشارفه فهذا من باب المجاز الذى يطلق اسم الكل فيه على الاكثر وقيل ان الاجل اسم للزمان فيحمل على الزمان الذى هو آخر زمان يمكن ايقاع الرجعة فيه بحيث اذا فات لا يبقى بعده مكنة الى الرجعة وعلى هذا التأويل فلا حاجة الى المجاز (فامسكوهن) أى راجعوهن (بمعروف) وهو ان يشهد على رجعتها وان يراجعها بالقول لا بالوطء وقيل الامساك بمعروف هو القيام بحقوق الزوجية وهو الظاهر قيل أعاده اعتناء بشأنه ومبالغة فى ايجاب المحافظة عليه (أو سرحوهن بمعروف) أى اتركوهن حتى تنقضى عدتهن

عدتهن فيملكن أنفسهن والمعنى اذا طلقتم النساء فقاربن آخر العدة فلا تضاروهن بالمراجعة من غير قصد لاستمرار الزوجية واستدامتها بل اختاروا أحد أمرين اما الامساك بمعروف من غير قصد لضرار أو التسريح باحسان أي تركها حتى تنقضي عدتها من غير مراجعة ضرارا (ولا تمسكوهن ضرارا) كما كانت تفعل الجاهلية من طلاق المرأة حتى يقرب انقضاء عدتها ثم مراجعتها لا عن حاجة ولا لمحبة ولكن لقصد تطويل العدة وتوسيع مدة الانتظار ضرارا (لتعتدوا) أي لقصد الاعتداء منكم عليهن والظلم بهن (ومن يفعل ذلك) أي الامساك المؤدي للضرار (فقد ظلم نفسه) لانه عرضها لعقاب الله وسخطه في ضمن ظلمه لهن قال الزجاج يعني عرض نفسه للعذاب لأن اتيان مانهى الله عنه تعرض لعذاب الله (ولا تتخذوا آيات الله هزوا) أي بالاعراض عنها والتهاون بالعمل بما فيها من قولهم لمن لم يجد في الامر انما أنت هازئ كأنه نهى عن الهزؤ وأراد به الامر بضده والمعنى لا تأخذوا أحكام الله على طريقة الهزؤ فانها جد كلها فمن هزل فيها فقد لزمته نهاهم سبحانه ان يفعلوا كما كانت الجاهلية تفعل فانه كان يطلق الرجل منهم أو يعتق أو يتزوج ويقول كنت لاعبا قال القرطبي ولا خلاف بين العلماء ان من طلق هازلا ان الطلاق يلزمه أخرج أبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجه والحاكم وصححه عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثلاث جدهن جد وهزلهن جد النكاح والطلاق والرجعة (واذكروا نعمت الله عليكم) أي النعمة التي صرتم فيها بالاسلام وشرائعه بعد ان كنتم في جاهلية جهلاء وظلمات بعضها فوق بعض (وما أنزل عليكم من الكتاب) وهو القرآن (والحكمة) قال المفسرون هي السنة التي سنها لهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبه قال الشافعي (يعظكم به) أي يخوفكم بما أنزل عليكم وأفردا الكتاب والحكمة بالذكر مع دخولهما في النعمة دخولا أوليا تنبيها على خطرهما وعظم شأنهما (واتقوا الله) يعني خافوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه (واعلموا أن الله بكل شيء عليم) لا يخفى عليه شيء من ذلك فيؤاخذكم بأنواع العقاب (واذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن) الخطاب في هذه الآية بقوله واذا طلقتم النساء وبقوله فلا تعضلوهن اما ان يكون للازواج ويكون معنى العضل منهم ان يمنعوهن من أن يتزوجن من أردن من الازواج بعد انقضاء عدتهن لحمية الجاهلية كما يقع كثيرا من

من البركة وعن عبد الله بن زيد بن عاصم رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم ان ابراهيم حرم مكة ودعا لها وحرمت المدينة كما حرم ابراهيم مكة ودعوت لها في مدها وصاعها مثل مادعا ابراهيم لمكة رواه البخاري وهذا لفظه ولمسلم ولفظه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان ابراهيم حرم مكة ودعا لاهلها واني حرمت المدينة كما حرم ابراهيم مكة واني دعوت في صاعها ومدها بمثلي مادعا ابراهيم لاهل مكة وعن ابي سعيد رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال اللهم ان ابراهيم حرم مكة فجعلها حراما واني حرمت المدينة حراما ما بين مأزميها أن لا يهراق فيها دم ولا يحمل فيها

سلاح لقتال ولا يخبط فيها شجرة الا لعلف اللهم بارك لنا في مدينتنا اللهم بارك لنا في صاعنا اللهم بارك لنا في مدنا اللهم اجعل مع البركة بركتين الحديث رواه مسلم والاحاديث في تحريم المدينة كثيرة وانما أوردنا منها ماهو متعلق بتحريم ابراهيم عليه السلام لمكة لما في ذلك من مطابقة الآية الكريمة وتمسك بها من ذهب الى أن تحريم مكة انما كان على لسان ابراهيم الخليل وقيل انها محرمة منذ خلقت مع الارض وهذا أظهر وأقوى والله أعلم وقد وردت أحاديث أخر تدل على ان الله تعالى حرم مكة قبل خلق السموات والارض كما جاء في الصحيحين عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة ان هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والارض فهو حرام بحرمة الله الى يوم القيامة وانه لم يحل القتال فيه لاحد قبلي ولم يحل لي الا ساعة من نهار فهو حرام بحرمة الله الى يوم القيامة لا يعضد شوكه ولا ينفر صيده ولا يلتقط لقطته الا من عرفها ولا يختلى خلاها فقال العباس يارسول الله الا الاذخر فانه لقينهم ولبيوتهم فقال الا الاذخر وهذا لفظ مسلم ولهما عن أبي هريرة نحو من ذلك ثم قال البخاري بعد ذلك وقال ابان بن صالح عن الحسن بن مسلم عن صفية بنت شيبة سمعت النبي صلى الله عليه وسلم مثله وهذا الذي علقه البخاري رواه الامام ابو عبد الله بن ماجه عن محمد بن عبد الله بن نمير عن يونس بن بكير عن محمد بن اسحق عن ابان بن صالح عن الحسن بن مسلم بن يناق عن صفية بنت شيبة قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب عام الفتح فقال يا أيها الناس ان الله حرم مكة يوم خلق السموات والارض فهي حرام الى يوم القيامة لا يعضد شجرها ولا ينفر صيدها ولا يأخذ لقطتها الا منشد

فقال العباس الا الاذخر فانه للبيوت والقبور فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الا الاذخر وعن ابى شريح العدوى انه قال لعمرو بن سعيد وهو يبعث البعوث الى مكة ائذن لى أيها الامير ان أحدثك قولا قام به رسول الله صلى الله عليه وسلم الغد من يوم الفتح سمعته أذناى ووعاه قلبى وأبصرته عيناى حين تكلم به انه حمد الله وأثنى عليه ثم قال ان مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر ان يسفك بها دما ولا يعضد بها شجرة فان أحد ترخص بقتال رسول الله صلى الله عليه وسلم فقولوا ان الله اذن لرسوله ولم يأذن لكم وانما (٣٠٢) أذن لى فيها ساعة من نهار وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالامس فليبلغ الشاهد الغائب فقيل لابى شريح ما قال لك عمرو فقال أنا أعلم بذلك منك يا أبا شريح ان الحرم لا يعيذ عاصيا ولا فارا بدم ولا فارا بخربة رواه البخارى ومسلم وهذا لفظه فاذا علم هذا فلا منافاة بين هذه الاحاديث الدالة على ان الله حرم مكة يوم خلق السموات والارض وبين الاحاديث الدالة على ان ابراهيم عليه السلام حرمها لان ابراهيم بلغ عن الله حكمه فيها وتحريمه اياها وأنها لم تزل بلدا حراما عند الله قبل بناء ابراهيم عليه السلام لها كما انه قد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مكتوبا عند الله خاتم النبيين وان آدم لمنجدل فى طينته ومع هذا قال ابراهيم عليه السلام ربنا وابعث فيهم رسولا منهم الآية وقد أجاب الله دعاءه بما سبق فى علمه وقدره ولهذا جاء فى الحديث انهم قالوا يا رسول الله أخبرنا عن بدء أمرك فقال دعوة أبى ابراهيم عليه السلام وبشرى عيسى بن مريم ورأت أمى كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام أى اخبرنا عن بدء ظهور أمرك كما سيأتى قريبا ان شاء الله وأما مسئلة تفضيل مكة على المدينة كما هو قول الجمهور أو المدينة على مكة كما هو مذهب مالك وأتباعه فتذكر فى موضع آخر بأدلتها ان شاء الله وبه الثقة وقوله تعالى اخبارا عن الخليل انه قال رب اجعل هذا بلدا آمنا أى من الخوف أى لا يرعب أهله وقد فعل الله ذلك شرعا وقدرا كقوله تعالى ومن دخله كان آمنا وقوله أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم الى غير ذلك من الآيات وقد تقدمت الاحاديث فى تحريم القتال فيه وفى صحيح مسلم عن جابر سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لا يحل لاحد أن يحمل بمكة السلاح وقال فى هذه السورة

الخلفاء والسلاطين غيرة على من كن تحتهم من النساء أن يصرن تحت غيرهم لانهم لما نالوه من رياسة الدنيا وما صاروا فيه من النخوة والكبرياء يتخيلون انهم قد خرجوا من جنس بنى آدم الامن عصمه الله منهم بالورع والتواضع واما ان يكون الخطاب للاولياء ويكون معنى اسناد الطلاق اليهم انهم سبب له لكونهم المزوجين للنساء المطلقات من الازواج المطلقين لهن وبلوغ الاجل المذكور هنا المراد به المعنى الحقيقى أى نهايته لا كما سبق فى الآية الاولى ولهذا قال الشافعى اختلاف الكلامين على افتراق البلوغين والعضل الحبس وحكى الخليل دجاجة معضل قد احتبس بيضها وقيل العضل التضييق والمنع وهو راجع الى معنى الحبس وقال الازهرى أصل العضل من قولهم عضلت الناقة اذا نشب ولدها فلم يسهل خروجه وكل مشكل عند العرب معضل ويقال أعضل الامر اذا اشتد وداء عضال أى شديد عسير البرء أعيا الاطباء وقوله أزواجهن ان أريد به المطلقون لهن فهو مجاز باعتبار ما كان وان أريد به من يردن ان يتزوجنه فهو مجاز أيضا باعتبار ما سيكون (اذا تراضوا بينهم بالمعروف) يعنى اذا تراضى الخطاب والنساء والمعروف هنا ما وافق الشرع من عقد حلال ومهر جائز وقيل هو ان يرضى كل واحد منهما بما التزمه لصاحبه بحق العقد حتى تحصل الصحبة الحسنة والعشرة الجميلة (ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر) اشارة الى ما فصل من الاحكام وانما أفرد مع كون المذكور قبله جماعة لا على معنى الجمع بتأويله بالفريق وغيره والمعنى ان المؤمن هو الذى ينتفع بالوعظ دون غيره (ذلكم) محمول على لفظ الجمع خالف سبحانه ما بين الاشارتين امتنانا (أزكى لكم) انمى وأنفع (وأطهر لكم) من الادناس وأطيب عند الله لما يخشى على الزوجين من الريبة بسبب العلاقة بينهما (والله يعلم وأنتم لا تعلمون) ما لكم فيه الصلاح وقال الضحاك يعلم من حب كل واحد منهما لصاحبه ما لا تعلم أنت أيها الولى قيل سبب نزولها ان أخت معقل بن يسار طلقها زوجها فأراد أن يراجعها فمنعها معقل كما رواه الحاكم واسمها جميلة واسم زوجها عاصم بن عدى فلما نزلت هذه الآية كفر عن يمينه وأنكحها اياه وتمام القصة فى البخارى (والوالدات يرضعن أولادهن) لما ذكر الله سبحانه النكاح والطلاق ذكر الرضاع لان الزوجين قد يفترقان وبينهما ولد ولهذا قيل ان هذا خاص بالمطلقات وقيل هو عام وقوله يرضعن قيل هو خبر بمعنى الامر للدلالة على

رب اجعل هذا بلدا آمنا اى اجعل هذه البقعة بلدا آمنا وناسب هذا لانه قبل بناء الكعبة وقال تعالى فى سورة ابراهيم واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا وناسب هذا هنالك لانه والله أعلم كانه وقع دعاء مرة ثانية بعد بناء البيت واستقرار أهله به وبعد مولد اسحق الذى هو أصغر سنا من اسمعيل بثلاث عشرة سنة ولهذا قال فى آخر الدعاء الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسمعيل واسحق ان ربى لسميع الدعاء * وقوله تعالى وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم اضطره الى عذاب النار وبئس المصير قال ابو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن ابى بن كعب قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره الى عذاب النار وبئس المصير قال هو قول الله تعالى وهذا قول مجاهد وعكرمة وهو الذى صوّبه ابن جرير رحمه الله قال وقرأ آخرون قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم اضطره الى عذاب النار وبئس المصير فجعلوا ذلك من تمام دعاء ابراهيم كما رواه أبو جعفر عن الربيع عن أبى العالية قال كان ابن عباس يقول ذلك قول ابراهيم يسأل ربه ان من كفر فأمتعه قليلا وقال أبو جعفر عن ليث بن أبى سليم عن مجاهد ومن كفر فأمتعه قليلا يقول ومن كفر فارزقه رزقا قليلا أيضا ثم اضطره الى عذاب النار وبئس المصير قال محمد بن اسحق لما عن لابراهيم الدعوة على من أبى الله ان يجعل له الولاية انقطاعا الى الله ومحبة وفراقا لمن خالف أمره وان كانوا من ذريته حين عرف انه كائن منهم ظالم لا يناله عهده بخبر الله له بذلك قال الله تعالى ومن كفر فانى أرزق البر والفاجر وأمتعه قليلا وقال حاتم بن اسمعيل عن حميد الخراط عن عمار الذهبى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله تعالى رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ابن عباس كان ابراهيم يحجرها على المؤمنين دون الناس فأنزل الله ومن كفر أيضا ارزقهم كما أرزق المؤمنين أأخلق خلقا لا ارزقهم أمتعهم قليلا ثم أضطرهم الى عذاب النار وبئس المصير ثم قرأ ابن عباس كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا رواه ابن مردويه وروى عن عكرمة ومجاهد نحو ذلك أيضا وهذا كقوله تعالى ان الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون متاع فى الدنيا ثم الينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون وقوله

تحقق مضمونه وليس أمر ايجاب وانما هو أمر ندب واستحباب وقيل هو خبر على بابه (حولين كاملين) تأكيد للدلالة على ان هذا التقدير تحقيق لا تقريبى وفيه رد على أبى حنيفة فى قوله ان مدة الرضاع ثلاثون شهرا وعلى زفر فى قوله انها ثلاث سنين ذلك (لمن أراد أن يتم الرضاعة) فيه دليل على ان ارضاع الحولين ليس حتما بل هو التمام ويجوز الاقتصار على مادونه وليس له حد محدود وانما هو على مقدار اصلاح الطفل وما يعيش به قال النحاس لا يعرف البصريون الرضاعة الا بالفتح وحكى الكوفيون جواز الكسر والآية تدل على وجوب الرضاع على الام لولدها وقد حمل ذلك على ما اذا لم يقبل الرضيع غيرها (وعلى المولود له) أى على الاب الذى يولد له وآثر هذا اللفظ دون قوله وعلى الوالد للدلالة على ان الاولاد للآباء لا للامهات ولهذا ينسبون اليهم دونهن كانهن انما ولدن لهم فقط ذكره معناه فى الكشاف (رزقهن) المراد بالرزق هنا الطعام الكافى المتعارف بين الناس ويطلق الرزق بالكسر على المرزوق وعلى المصدر (وكسوتهن) المراد بالكسوة ما يتعارفونه أيضا (بالمعروف) أى على قدر الميسرة وفى ذلك دليل على وجوب ذلك على الآباء للامهات المرضعات وهذا فى المطلقات طلاقا بائنا وأما غير المطلقات فنفقتهن وكسوتهن واجبة على الازواج من غير ارضاعهن لاولادهن وقال القرطبى الاظهران الآية فى الزوجات فى حال بقاء النكاح لانهن المستحقات للنفقة والكسوة أرضعن أولم يرضعن وهما فى مقابلة التمكين لكن اذا اشتغلت الزوجة بالارضاع لم يكمل التمكين ولا التمتع بها فقد يتوهم ان هذه النفقة تسقط حالة الارضاع فدفع هذا التوهم بقوله وعلى المولود له ثم قال فى محل آخر فى هذه الآية دليل على وجوب نفقة الولد على الوالد لعجزه وضعفه ونسبه تعالى للام لان الغذاء يصل اليه بواسطتها فى الرضاع وأجمع العلماء على انه يجب على الاب نفقة أولاده الاطفال الذين لا مال لهم انتهى (لا تكلف نفس الا وسعها) هو تقييد لقوله بالمعروف أى هذه النفقة والكسوة الواجبتان على الاب بما يتعارفه الناس لا يكلف منهما الا ما يدخل تحت وسعه وطاقته لا ما يشق عليه ويعجز عنه وقيل المراد لا تكلف المرأة الصبر على التقتير فى الاجرة ولا يكلف الزوج ما هو اسراف بل يراعى القصد (لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده) قرئ بالرفع على الخبر وبفتح الراء المشددة على النهى واصله لا تضارر أو لا تضارر على البناء للفاعل أو المفعول أى لا تضارر

تعالى ومن كفر فلا يحزنك كفره الينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا ان الله عليم بذات الصدور نمتعهم قليلا ثم نضطرهم الى عذاب غليظ وقوله ولولا ان يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكؤن وزخرفا وان كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين وقوله ثم أضطره الى عذاب النار وبئس المصير أى ثم ألجئه بعد متاعه فى الدنيا وبسطنا عليه من ظلها الى عذاب النار وبئس المصير ومعناه ان الله تعالى ينظرهم ويمهلهم ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر كقوله (٣٠٤) تعالى وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ثم أخذتها والى المصير وفى الصحيحين لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله انهم يجعلون له ولدا وهو يرزقهم ويعافيهم وفى الصحيح أيضا ان الله ليملى للظالم حتى اذا أخذه لم يفلته ثم قرأ قوله تعالى وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهى ظالمة ان أخذه اليم شديد وقرأ بعضهم قال ومن كفر فأمتعه قليلا الآية جعله من تمام دعاء ابراهيم وهى قراءة شاذة مخالفة للقراء السبعة وتركيب السياق يأبى معناها والله أعلم فان الضمير فى قال راجع الى الله تعالى فى قراءة الجمهور والسياق يقتضيه وعلى هذه القراءة الشاذة يكون الضمير فى قال عائدا على ابراهيم وهذا خلاف نظم الكلام والله سبحانه هو العلام* وأما قوله تعالى واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسمعيل ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا انك أنت التواب الرحيم فالقواعد جمع قاعدة وهى السارية والاساس يقول تعالى واذكر يا محمد لقومك بناء ابراهيم واسمعيل عليهما السلام البيت ورفعهما القواعد منه وهما يقولان ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم وحكى القرطبي وغيره عن أبى وابن مسعود انهما كانا يقرآن واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسمعيل ويقولان ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم (قلت) ويدل على هذا قولهما بعده ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك الآية فهما فى عمل صالح وهما يسألان الله تعالى ان يتقبل منهما كما روى ابن أبى حاتم من حديث محمد بن يزيد بن خنيس المكى عن وهيب بن الورد انه قرأ واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسمعيل ربنا تقبل منا ثم يبكى ويقول يا خليل الرحمن ترفع قوائم هؤلاء

الاب بسبب الولد بان تطلب منه مالا يقدر عليه من الرزق والكسوة أو بان تفرط فى حفظ الولد والقيام بما يحتاج اليه أو لا تضارر من زوجها بان يقصر عليها فى شئ مما يجب عليه أو ينتزع ولدها منها بلا سبب وهكذا قراءة الرفع تحتمل الوجهين ويجوز ان تكون الباء فى قوله بولدها صلة لقوله تضار على انه بمعنى تضر أى لا تضر والدة بولدها فتسئ تربيته او تقصر فى غذائه ولا والد بولده وقدمها لفرط شفقتها واضيف الولد تارة الى الاب وتارة الى الام للاستعطاف لا لبيان النسب اذ لو كانت له لم تصح الا للوالد لانه هو الذى ينسب اليه الولد وهذه الجملة تفصيل للجملة التى قبلها وتقرير لها أى لا يكلف كل واحد منهما الآخر ما لا يطيقه فلا يضاره بسبب ولده (وعلى الوارث مثل ذلك) معطوف على قوله وعلى المولود له وما بينهما تفسير للمعروف أو تعليل له معترض بين المعطوف والمعطوف عليه واختلف أهل العلم فى معنى الآية فقيل هو وارث الصبى أى اذا مات المولود له كان على وارث هذا الصبى المولود ارضاعه كما كان يلزم أباه ذلك قاله عمر بن الخطاب وقتادة والسدى والحسن ومجاهد وعطاء وأحمد واسحق وأبو حنيفة وابن أبى ليلى على خلاف بينهم هل يكون الوجوب على من يأخذ نصيبا من الميراث أو على الذكور فقط أو على كل ذى رحم له وان لم يكن وارثا منه وقيل المراد بالوارث وارث الاب تجب عليه نفقة المرضعة وكسوتها بالمعروف قاله الضحاك وقال مالك فى تفسير هذه الآية بمثل ما قاله الضحاك ولكنه قال انها منسوخة وانها لا تلزم الرجل نفقة أخ ولا ذى قرابة ولا ذى رحم منه وشرطه الضحاك بان لا يكون للصبى مال فان كان له مال أخذت أجرة رضاعه من ماله وقيل المراد بالوارث المذكور فى الآية هو الصبى نفسه أى عليه من ماله ارضاع نفسه اذا مات أبوه وورث من ماله قاله قبيصة بن ذؤيب وبشير بن نصر قاضى عمر بن عبد العزيز وروى عن الشافعى وقيل هو الباقى من والدى المولود بعد موت الآخر منهما فاذا مات الاب كان على الام كفاية الطفل اذا لم يكن له مال قاله سفيان الثورى وقيل وارث المرضعة يجب عليه ان يصنع بالمولود كما كانت الام تصنعه به من الرضاع والخدمة والتربية وقيل ان معنى الآية انه يحرم عليه الاضرار بالام كما يحرم على الاب وبه قالت طائفة من أهل العلم قالوا وهذا هو الاصل فمن ادعى انه يرجع فيه العطف الى جميع ما تقدم فعليه الدليل قال القرطبي وهو الصحيح اذ لو أراد الجميع الذى هو الرضاع والانفاق وعدم الضرر لقال وعلى الوارث مثل

بيت الرحمن وأنت مشفق ان لا يتقبل منك وهذا كما حكى الله تعالى عن حال المؤمنين المخلصين في قوله والذين يؤتون ما آتوا أي
يعطون ما أعطوا من الصدقات والنفقات والقربات وقلوبهم وجلة أي خائفة ان لا يتقبل منهم كما جاء به الحديث الصحيح عن عائشة
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما سيأتي في موضعه وقال بعض المفسرين الذي كان يرفع القواعد هو ابراهيم والداعي اسمعيل
والصحيح انهما كانا يرفعان ويقولان كما سيأتي بيانه وقد روى البخاري ههنا حديثا سنورده ثم نتبعه بآثار متعلقة بذلك قال
البخاري رحمه الله حدثنا عبد الله بن محمد أخبرنا عبد الرزاق أخبرنا معمر (٣٠٥) عن أيوب السختياني وكثير بن
المطلب بن أبي وداعة يزيد أحدهما على الآخر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم اسمعيل اتخذت منطقا لتعفي أثرها على سارة ثم جاء بها ابراهيم وبابنها اسمعيل وهي ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء فوضعهما هنالك ووضع عندهما جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء ثم قفا ابراهيم منطلقا فتبعته أم اسمعيل فقالت يا ابراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شيء فقالت له ذلك مرارا وجعل لا يلتفت اليها فقالت الله أمرك بهذا قال نعم قالت اذا لا يضيعنا ثم رجعت فانطلق ابراهيم حتى اذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهذه الدعوات ورفع يديه فقال ربنا اني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم حتى بلغ يشكرون وجعلت أم اسمعيل
ترضع اسمعيل وتشرب من ذلك الماء حتى اذا نفد ما في السقاء عطشت وعطش ابنها وجعلت
تنظر اليه يتلوى أو قال يتلبط فانطلقت كراهية ان تنظر اليه فوجدت الصفا أقرب جبل في الارض يليها فقامت عليه ثم استقبلت
الوادي تنظر هل ترى أحدا فلم تر أحدا فهبطت من الصفا حتى اذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها ثم سعت سعي الانسان
المجهود حتى جاوزت الوادي ثم أتت المروة فقامت عليها فنظرت هل ترى أحدا فلم تر أحدا ففعلت ذلك سبع مرات قال ابن
عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم فلذلك سعي الناس بينهما فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت صه تريد نفسها ثم

هؤلاء فدل على انه معطوف على المنع من المضارة وعلى ذلك تأوله كافة المفسرين فيما حكى
القاضي عبد الوهاب قال ابن عطية وقال مالك وجميع أصحابه والشعبي والزهري
والضحاك وجماعة من العلماء المراد بقوله مثل ذلك ان لا يضار واما الرزق والكسوة فلا
يجب شيء منهما وحكى ابن القاسم عن مالك مثل ما قدمناه عنه في تفسير هذه الآية ودعوى
النسخ ولا يخفى عليك ضعف ما ذهبت اليه هذه الطائفة فان ما خصصوا به معنى قوله وعلى
الوارث مثل ذلك من ذلك المعنى أي عدم الاضرار بالمرضعة قد أفاده قوله لا تضار والدة
بولدها لصدق ذلك على كل مضارة ترد عليها من المولود له أو غيره وأما قول القرطبي لو أراد
الجميع لقال مثل هؤلاء فلا يخفى ما فيه من الضعف البين فان اسم الاشارة يصلح للمتعدد
كما يصلح للواحد بتأويل المذكور أو نحوه وأما ما ذهب اليه أهل القول الاول من ان
المراد بالوارث وارث الصبي فيقال عليه انه لم يكن وارثا حقيقة مع وجود الصبي حيا بل هو
وارث مجازا باعتبار ما يؤول اليه وأما ما ذهب اليه أهل القول الثاني فهو وان كان فيه
حمل الوارث على معناه الحقيقي لكن ايجاب النفقة عليه مع غنى الصبي فيه ما فيه ولهذا
قيده القائل به بان يكون الصبي فقيرا ووجه الاختلاف في تفسير الوارث ما تقدم من ذكر
الوالدات والمولود له والولد فاحتمل ان يضاف الوارث الى كل منهم (فان أرادا فصالا) الضمير
للوالدين والفصال الفطام عن الرضاع أي التفريق بين الصبي والثدي ومنه سمي الفصيل
لانه مفصول عن أمه (عن تراض منهما) أي صادرا عن تراض من الابوين وعلى اتفاق
من الوالدين اذا كان الفصال وفطام الولد قبل الحولين (وتشاور) أي يشاورون أهل العلم
في ذلك حتى يخبروا ان الفطام قبل الحولين لا يضر بالولد (فلا جناح عليهما) في ذلك
الفصال لما بين الله سبحانه ان مدة الرضاع حولان كاملان قيد ذلك بقوله لمن أراد ان يتم
الرضاعة وظاهره ان الاب وحده اذا أراد ان يفصل الصبي قبل الحولين كان ذلك جائزا له
وهنا اعتبر سبحانه تراضي الابوين وتشاورهما فلا بد من الجمع بين الامرين بان يقال ان
الارادة المذكورة في قوله لمن أراد ان يتم الرضاعة لا بد ان تكون منهما أو يقال ان تلك
الارادة اذا لم يكن الابوان للصبي حيين بان كان الموجود أحدهما أو كانت المرضعة للصبي
ظئرا غير أمه والتشاور استخراج الرأي يقال شرت العسل استخرجته فلا بد لاحد الابوين
اذا أراد فصال الرضيع ان يراضي الآخر ويشاوره حتى يحصل الاتفاق بينهما على ذلك

(وان أردتم) خطاب للآباء وزاد بعضهم الامهات وفيه خروج من الغيبة الى الخطاب (أن تسترضعوا أولادكم) قال الزجاج التقدير ان تسترضعوا لاولادكم غير الوالدة وعن سيبويه المعنى ان تسترضعوا المراضع أولادكم (فلا جناح عليكم اذا سلمتم ما آتيتم) بالمد أى اعطيتم وهي قراءة الجماعة الا ابن كثير فانه قرأ بالقصر أى فعلتم والمعنى انه لا بأس عليكم ان تسترضعوا أولادكم غير أمهاتهم اذا سلمتم الى الامهات أجرهن بحساب ما قد أرضعن لكم أى وقت ارادة الاسترضاع قاله سفيان الثوري ومجاهد وقال قتادة والزهري ان معنى الآية اذا سلمتم ما آتيتم من ارادة الاسترضاع أى سلم كل واحد من الابوين ورضي كان ذلك عن اتفاق منهما وقصد خير وارادة معروف من الامر وعلى هذا فيكون قوله سلمتم عاما للرجال والنساء تغليبا وعلى القول الاول الخطاب للرجال فقط وقيل المعنى اذا سلمتم لمن اردتم استرضاعها أجرها فيكون المعنى اذا سلمتم ما أردتم ايتاءه أى اعطاءه الى المرضعات وليس هذا اقيدا لصحة الاجارة فان تعجيل الاجرة لا يشترط وانما هو قيد كمال لانه أطيب لنفوسهن (بالمعروف) أى بما يتعارفه الناس من أجر المرضعات من دون مماطلة لهن أو حط بعض ما هو لهن من ذلك فان عدم توفير أجرهن يبعثهن على التساهل بامر الصبي والتفريط في شأنه والمعنى ان يكونوا عند تسليم الاجرة مستبشري الوجوه ناطقين بالقول الجميل مطيبين لانفس المراضع بما أمكن (واتقوا الله) أى خافوه فيما فرض عليكم من الحقوق وفيما أوجب عليكم للمراضع ولاولادكم (واعلموا أن الله بما تعملون بصير) لا يخفى عليه خافية من جميع أعمالكم سرها وعلانيتها فانه تعالى يراها ويعلمها (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بانفسهن أربعة أشهر وعشرا) لما ذكر سبحانه عدة الطلاق واتصل بذكرها ذكر الارضاع عقب ذلك بذكر عدة الوفاة لئلا يتوهم ان عدة الوفاة مثل عدة الطلاق قال الزجاج ومعنى الآية والرجال الذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا أى ولهم زوجات فالزوجات يتربصن وقال أبو علي الفارسي تقديره والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بعدهم وهو كقولك السمن منوان بدرهم أى منه وحكى عن سيبويه ان المعنى وفيما يتلى عليكم الذين يتوفون وقيل التقدير وأزواج الذين يتوفون منكم يتربصن ذكره صاحب الكشاف وفيه ان قوله ويذرون أزواجا لا يلائم ذلك التقدير لان الظاهر من النكرة المعادة المغايرة وقال بعض النحاة من الكوفيين ان

تسمعت فسمعت أيضا فقالت قد أسمعت ان كان عندك غواث فاذا هي بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه أو قال بجناحه حتى ظهر الماء فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعد ما تغرف قال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم يرحم الله أم اسمعيل لو تركت زمزم أو قال لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عينا معينا قال فشربت وأرضعت ولدها فقال لها الملك لا تخافي الضيعة فان ههنا بيت الله يبنيه هذا الغلام وأبوه وان الله لا يضيع أهله وكان البيت مرتفعا من الارض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم أو أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كدا فنزلوا في أسفل مكة فرأوا طائرا عائفا فقالوا ان هذا الطائر ليدور على ماء لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء فأرسلوا جريا أو جريين فاذا هم بالماء فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا قال وأم اسمعيل عند الماء فقالوا أتأذنين لنا ان ننزل عندك قالت نعم ولكن لا حق لكم في الماء عندنا قالوا نعم قال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم فألفى ذلك أم اسمعيل وهي تحب الانس فنزلوا وأرسلوا الى أهليهم فنزلوا معهم حتى اذا كان بها أهل أبيات منهم وشب الغلام وتعلم العربية منهم وأنفسهم وأعجبهم حين شب فلما أدرك زوجوه امرأة منهم وماتت أم اسمعيل فجاء ابراهيم بعد ما تزوج اسمعيل يطالع تركته فلم يجد اسمعيل فسأل امرأته عنه فقالت خرج يبتغي لنا ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت نحن بشر نحن في ضيق وشدة فشكت اليه قال فاذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام وقولي له يغير عتبة بابه فلما جاء اسمعيل كأنه آنس شيأ فقال هل جاءكم من احد قالت نعم جاءنا شيخ كذا وكذا فسألنا عنك فأخبرته وسألني كيف عيشنا فأخبرته الخبر أنا في جهد وشدة قال فهل أوصاك بشئ قالت نعم امرني ان أقرأ عليك السلام ويقول غير عتبة بابك قال ذاك أبي وقد أمرني ان أفارقك فالحقي باهلك وطلقها وتزوج منهم أخرى فلبث عنهم ابراهيم ما شاء الله ثم اتاهم بعد فلم يجده فدخل على امرأته فسألها عنه فقالت خرج يبتغي لنا قال كيف أنتم وسألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت نحن بخير وسعة وأثنت على الله عز وجل قال ما طعامكم قالت اللحم قال فما شرابكم قالت الماء قال اللهم بارك لهم في اللحم والماء قال النبي صلى الله عليه وسلم ولم يكن لهم يومئذ حب

ولو كان لهم لدعا لهم فيه قال فهما لا يخلو عليهما احد بغير مكة الا لم يوافقاه قال فاذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام ومريه يثبت
عتبة بابه فلما جاء اسمعيل قال هل أتاكم من أحد قالت نعم أتانا شيخ حسن الهيئة وأثنت عليه فسألني عنك فأخبرته فسألني كيف
عيشنا فأخبرته انا بخير قال فأوصاك بشيء قالت نعم هو يقرأ عليك السلام ويأمرك ان تثبت عتبة بابك قال ذاك أبي وأنت العتبة
أمرني ان أمسكك ثم لبث عنهم ماشاء الله ثم جاء بعد ذلك واسمعيل يبري نبلا له تحت دوحة قريبا من زمزم فلما رآه قام اليه وصنعا كما
يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد ثم قال يا اسمعيل ان الله أمرني بأمر قال (٣٠٧) فاصنع ما أمرك ربك قال وتعينني قال
وأعينك قال فان الله أمرني ان
أبني ههنا بيتا وأشار الى أكمة
مرتفعة على ما حولها قال فعند
ذلك رفعا القواعد من البيت فجعل
اسمعيل يأتي بالحجارة وابراهيم يبني
حتى اذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر
فوضعه له فقام عليه وهو يبني
واسمعيل يناوله الحجارة وهما
يقولان ربنا تقبل منا انك أنت
السميع العليم قال فجعلا يبنيان
حتى يدورا حول البيت وهما
يقولان ربنا تقبل منا انك أنت
السميع العليم ورواه عبد بن
حميد عن عبد الرزاق به مطولا
ورواه ابن أبي حاتم عن أبي عبد الله
محمد بن حماد الطبراني وابن جرير
عن أحمد بن ثابت الرازي كلاهما
عن عبد الرزاق به مختصرا وقال
أبو بكر بن مردويه أخبرنا
اسمعيل بن علي بن اسمعيل أخبرنا
بشر بن موسى أخبرنا أحمد بن محمد
الازرقي أخبرنا مسلم بن خالد
الزنجي عن عبد الملك بن جريج عن
كثير بن كثير قال كنت انا وعثمان
ابن أبي سليمان وعبد الله بن عبد
الرحمن بن أبي حسين في ناس مع
سعيد بن جبير في أعلى المسجد ليلا فقال سعيد بن جبير سلوني قبل ان لا تروني فسألوه عن المقام فانشأ يحدثهم عن ابن عباس فذكر
الحديث بطوله ثم قال البخاري حدثنا عبد الله بن محمد أخبرنا أبو عامر عبد الملك بن عمرو أخبرنا ابراهيم بن نافع عن كثير بن كثير عن
سعيد بن جبير عن ابن عباس قال لما كان بين ابراهيم وبين أهله ما كان خرج باسمعيل وأم اسمعيل ومعهم شنة فيها ماء فجعلت أم
اسمعيل تشرب من الشنة فيدر لبنها على صبيها حتى قدم مكة فوضعهما تحت دوحة ثم رجع ابراهيم الى اهله فاتبعته أم اسمعيل
حتى بلغوا كدا نادته من ورائه يا ابراهيم الى من تتركنا قال الى الله قالت رضيت بالله قال فرجعت فجعلت تشرب من الشنة ويدر

الخبر عن الذين يتوفون والقصد الاخبار عن أزواجهم بانهن يتربصن وأصل التوفي أخذ
الشيء وافيا فمن مات فقد استوفى عمره كاملا يقال توفي فلان يعني قبض وأخذ والخطاب
لكافة الناس بطريق التلوين والمراد بالازواج هنا النساء لان العرب تطلق اسم الزوج
على الرجل والمرأة والمعنى الذين يموتون ويتركون النساء ينتظرن بانفسهن قدر هذه المدة
ووجه الحكمة في جعل العدة للوفاة هذا المقدار أن الجنين الذكر يتحرك في الغالب لثلاثة
أشهر والانثى لاربعة فزاد الله سبحانه على ذلك عشرا لان الجنين ربما يضعف عن الحركة
فتتأخر حركته قليلا ولا يتأخر عن هذا الاجل وظاهر هذه الآية العموم وان كل من
مات عنها زوجها تكون عدتها هذه العدة ولكنه قد خصص هذا العموم قوله تعالى
وأولات الاحمال أجلهن ان يضعن حملهن والى هذا ذهب الجمهور وروي عن بعض
الصحابة وجماعة من أهل العلم ان الحامل تعتد بآخر الاجلين جمعا بين العام والخاص
واعمالا لهما والحق ما قاله الجمهور والجمع بين العام والخاص على هذه الصفة لا يناسب
قوانين اللغة ولا قوانين الشرع ولا معنى لاخراج الخاص من بين افراد العام الا بيان ان
حكمه مغاير لحكم العام ومخالف له وقد صح عنه صلى الله عليه وآله وسلم انه أذن لسبيعة
الاسلمية ان تتزوج بعد الوضع والتربص التأني والتصبر عن النكاح وظاهر الآية عدم
الفرق بين الصغيرة والكبيرة والحرة والامة وذات الحيض والآيسة وان عدتهن جميعا
للوفاة أربعة أشهر وعشر وقيل ان عدة الامة نصف عدة الحرة شهران وخمسة ايام قال
ابن العربي اجماعا الا ما يحكى عن الاصم فانه سوى بين الحرة والامة وقال الباجي ولا نعلم
في ذلك خلافا الا ما يروى عن ابن سيرين انه قال عدتها عدة الحرة وليس بالثابت عنه
ووجه ما ذهب اليه الاصم وابن سيرين ما في هذه الآية من العموم ووجه ما ذهب اليه
من عداهما قياس عدة الوفاة على الحد فانه ينصف للامة بقوله سبحانه فعليهن نصف ما على
المحصنات من العذاب وقد تقدم حديث طلاق الامة تطليقتان وعدتها حيضتان وهو
صالح للاحتجاج به وليس المراد منه الا جعل طلاقها على النصف من طلاق الحرة وعدتها
على النصف من عدتها ولكنه لما لم يمكن أن يقال طلاقها تطليقة ونصف وعدتها حيضة
ونصف لكون ذلك لا يعقل كانت عدتها وطلاقها ذلك القدر المذكور في الحديث جبرا
للكسر ولكن ههنا أمر يمنع من هذا القياس الذي عمل به الجمهور وهو ان الحكمة في

لبنها على صبيها حتى لما فني الماء قالت لو ذهبت فنظرت لعلي أحس أحدا فذهبت فصعدت الصفا فنظرت هل تحس أحدا فلم تحس أحدا فلما بلغت الوادي سعت حتى أتت المروة وفعلت ذلك أشواطا حتى أتمت سبعا ثم قالت لو ذهبت فنظرت ما فعل الصبي فذهبت فنظرت فاذا هو على حاله كأنه ينشغ للموت فلم تقرها نفسها فقالت لو ذهبت فنظرت لعلي أحس أحدا فذهبت فصعدت الصفا فنظرت ونظرت فلم تحس أحدا حتى أتمت سبعا ثم قالت لو ذهبت فنظرت ما فعل فاذا هي بصوت فقالت أغث ان كان عندك خير فاذا جبريل عليه السلام (٣٠٨) قال فقال بعقبه هكذا وغمز عقبه على الارض قال فانبثق الماء فذهبت ام اسمعيل فجعلت تحفر قال فقال أبو القاسم صلى الله عليه وسلم لو تركته لكان الماء ظاهرا قال فجعلت تشرب من الماء ويدر لبنها على صبيها قال فمر ناس من جرهم ببطن الوادي فاذا هم بطير كأنهم أنكروا ذلك وقالوا ما يكون الطير الا على ماء فبعثوا رسولهم فنظر فاذا هو بالماء فأتاهم فأخبرهم فأتوا اليها فقالوا يا أم اسمعيل أتأذنين لنا أن نكون معك ونسكن معك فبلغ ابنها ونكح منهم امرأة قال ثم انه بدا لابراهيم صلى الله عليه وسلم فقال لاهله اني مطلع تركتي قال فجاء فسلم فقال أين اسمعيل قالت امرأته ذهب يصيد قال قولي له اذا جاء غير عتبة بابك فلما أخبرته قال أنت ذاك فاذهبي الى أهلك قال ثم انه بدا لابراهيم فقال اني مطلع تركتي قال فجاء فقال أين اسمعيل فقالت امرأته ذهب يصيد فقالت ألا تنزل فتطعم وتشرب فقال ما طعامكم وما شرابكم قالت طعامنا اللحم وشرابنا الماء قال اللهم بارك لهم في طعامهم وشرابهم قال فقال أبو القاسم صلى الله عليه وسلم بركة بدعوة ابراهيم قال ثم انه بدا لابراهيم صلى الله عليه وسلم فقال لاهله اني مطلع تركتي فجاء فوافق اسمعيل من وراء زمزم يصلح نبلا له فقال يا اسمعيل ان ربك عز وجل أمرني أن أبني له بيتا فقال أطع ربك عز وجل قال انه قد أمرني ان تعينني عليه فقال اذا أفعل أو كما قال قال فقام فجعل ابراهيم يبني واسمعيل يناوله الحجارة ويقولان ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم قال حتى ارتفع البناء وضعف الشيخ عن نقل الحجارة فقام على حجر المقام فجعل يناوله الحجارة ويقولان ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم هكذا رواه من هذين الوجهين في كتاب الانبياء والعجب ان الحافظ أبا عبد الله الحاكم رواه في كتابه المستدرك عن أبي العباس الاصم عن محمد بن سنان القزاز عن أبي علي عبيد الله بن عبد المجيد الحنفي عن ابراهيم بن نافع به وقال

جعل عدة الوفاة أربعة أشهر وعشرا هو ما قدمناه من معرفة خلوها من الحمل ولا يعرف الا بتلك المدة ولا فرق بين الحرة والامة في مثل ذلك بخلاف كون عدتها في غير الوفاة حيضتين فان ذلك يعرف به خلو الرحم ويؤيد عدم الفرق ما سيأتي في عدة أم الولد واختلف أهل العلم في عدة أم الولد يموت سيدها فقال سعيد بن المسيب ومجاهد وسعيد بن جبير والحسن وابن سيرين والزهري وعمر بن عبد العزيز والاوزاعي واسحق بن راهويه وأحمد بن حنبل في رواية عنه انها تعتد بأربعة أشهر وعشر لحديث عمرو بن العاص قال لا تلبسوا علينا سنة نبينا صلى الله عليه وآله وسلم عدة أم الولد اذا توفي عنها سيدها أربعة أشهر وعشر أخرجه أحمد وأبو داود وابن ماجه والحاكم وصححه وضعفه أحمد وأبو عبيد وقال الدارقطني الصواب انه موقوف وقال طاوس وقتادة عدتها شهران وخمس ليال وقال أبو حنيفة وأصحابه والثوري والحسن بن صالح تعتد بثلاث حيض وهو قول علي وابن مسعود وعطاء وابراهيم النخعي وقال مالك والشافعي وأحمد في المشهور عنه عدتها حيضة وغير الحائض شهر وبه يقول ابن عمر والشعبي ومكحول والليث وأبو عبيد وأبو ثور والجمهور وقد أجمع العلماء على ان هذه الآية ناسخة لما بعدها من الاعتداد بالحول وان كانت هذه الآية متقدمة في التلاوة (فاذا بلغن أجلهن) المراد بالبلوغ هنا انقضاء العدة (فلا جناح عليكم) الخطاب للاولياء لانهم هم الذين يتولون العقد وقيل المخاطب جميع المسلمين (فيما فعلن في أنفسهن) من التزين والتعرض للخطاب والنقلة من المسكن الذي كانت معتدة فيه وقيل عنى بذلك النكاح خاصة والاول أولى (بالمعروف) الذي لا يخالف شرعا ولا عادة مستحسنة وقد استدل بذلك على وجوب الاحداد على المعتدة عدة الوفاة وقد ثبت ذلك في الصحيحين وغيرهما من غير وجه ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر ان تحد على ميت فوق ثلاث الا على زوج أربعة أشهر وعشرا وكذلك ثبت عنه صلى الله عليه وآله وسلم في الصحيحين وغيرهما النهي عن الكحل لمن هي في عدة الوفاة والاحداد ترك الزينة من الطيب ولبس الثياب الجيدة والحلي وغير ذلك ولا خلاف في وجوب ذلك في عدة الوفاة ولا خلاف في عدة الرجعية واختلفوا في عدة البائنة على قولين ومحل ذلك كتب علم الفروع واحتج أصحاب أبي حنيفة على جواز النكاح بغير ولي بهذه الآية لان اضافة الفعل الى الفاعل محمول على المباشرة

صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه كذا قال وقد رواه البخاري كما ترى من حديث ابراهيم بن نافع وكأن فيه اختصارا فانه لم يذكر
فيه شأن الذبح وقد جاء في الصحيح ان قرني الكبش كانا معلقين بالكعبة وقد جاء ان ابراهيم عليه السلام كان يزور أهله بمكة على
البراق سريعا ثم يعود الى أهله بالبلاد المقدسة والله أعلم والحديث والله أعلم انما فيه مرفوع أماكن صرح بها ابن عباس عن
النبي صلى الله عليه وسلم وقد ورد عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في هذا السياق ما يخالف بعض هذا كما قال ابن جرير حدثنا
محمد بن بشار ومحمد بن المثنى قالا أخبرنا مؤمل أخبرنا سفيان عن أبي اسحق

عن حارثة بن مضرب عن علي بن أبي
طالب قال لما أمر ابراهيم ببناء
البيت خرج معه اسمعيل وهاجر
قال فلما قدم مكة رأى على رأسه
في موضع البيت مثل الغمامة فيه
مثل الرأس فكلمه قال يا ابراهيم
ابن على ظلي أو قال على قدري
ولا تزد ولا تنقص فلما بنى خرج
وخلف اسمعيل وهاجر فقالت
هاجر يا ابراهيم الى من تكلنا قال
الى الله قالت انطلق فانه لا يضيعنا
قال فعطش اسمعيل عطشا شديدا
قال فصعدت هاجر الى الصفا
فنظرت فلم تر شيأ حتى اتت المروة
فلم تر شيأ ثم رجعت الى الصفا
فنظرت فلم تر شيأ ففعلت ذلك
سبع مرات فقالت يا اسمعيل
من حيث لا أراك فأتته وهو
يفحص برجله من العطش
فناداها جبريل فقال لها من أنت
قالت أنا هاجر أم ولد ابراهيم قال
فالى من وكلكما قالت وكلنا الى الله
قال وكلكما الى كاف قال ففحص
الارض باصبعه فنبعت زمزم
فجعلت تحبس الماء فقال دعيه
فانه رواء ففي هذا السياق انه بنى
البيت قبل أن يفارقهما وقد
يحتمل انه كان محفوظا ان يكون
أولا وضع له حوطا وتحجيرا الا انه بناه الى أعلاه حتى كبر اسمعيل فبنياه معا كما قال الله تعالى ثم قال ابن جرير أخبرنا هناد بن
السري حدثنا أبو الاحوص عن سماك عن خالد بن عرعرة ان رجلا قام الى علي رضي الله عنه فقال ألا تخبرني عن البيت أهو
أول بيت وضع في الأرض فقال لا ولكنه أول بيت وضع في البركة مقام ابراهيم ومن دخله كان آمنا وان شئت أنبأتك كيف بنى ان
الله أوحى الى ابراهيم ان ابن لي بيتا في الارض فضاق ابراهيم بذلك ذرعا فأرسل الله السكينة وهي ريح خجوج ولها رأسان فاتبع
أحدهما صاحبه حتى انتهت الى مكة فتطوت على موضع البيت كطي الحجفة وأمر ابراهيم ان يبني حيث تستقر السكينة فبنى

المباشرة وأجيب بانه خطاب للاولياء ولو صح العقد بغير ولي لما كان مخاطبا (والله بما
تعملون خبير) لا يخفى عليه خافية (ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء)
المتوفى عنهن أزواجهن في العدة وكذا المطلقات طلاقا بائنا وأما الرجعيات فيحرم
التعريض والتصريح بخطبتهن ففي المفهوم تفصيل والجناح الاثم أي لا اثم عليكم
والتعريض ضد التصريح وهو من عرض الشئ أي جانبه كأنه يحوم به حول الشئ ولا
يظهره وقيل هو من قولك عرضت الرجل أي أهديت له ومنه ان ركبا من المسلمين عرضوا
رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأبا بكر ثيابا بيضا أي أهدوا لهما فالمعرض بالكلام
يوصل الى صاحبه كلاما يفهم معناه وقال في الكشاف الفرق بين الكناية والتعريض
أن الكناية ان تذكر الشئ بغير لفظه الموضوع والتعريض ان تذكر شيأ تدل به على شئ لم
تذكره كما يقول المحتاج للمحتاج اليه جئتك لأسلم عليك ولأنظر الى وجهك الكريم ولذلك
قالوا * وحسبك بالتسليم مني تقاضيا * وكأنه امالة الكلام الى عرض يدل على
الغرض ويسمى التلويح لانه يلوح منه ما يريده انتهى والمعنى لوحتم وأشرتم والخطبة
بالكسر ما يفعله الطالب من الطلب والاستلطاف بالقول والفعل يقال خطبها يخطبها
خطبة وخطبا والخطبة بالضم هي الكلام الذي يقوم به الرجل خاطبا (أو أكننتم) معناه
سترتم وأضمرتم من التزويج بعد انقضاء العدة والاكنان التستر والاخفاء يقال أكننته
وكننته وهما بمعنى واحد ومنه بيض مكنون ودر مكنون وأو هنا للاباحة أو التخيير
أو التفصيل أو الابهام على المخاطب (في أنفسكم) يعني من قصد نكاحهن وقيل هو أن
يدخل ويسلم ويهدي ان شاء ولا يتكلم بشئ (علم الله أنكم ستذكرونهن) أي لا تصبرون
عن النطق لهن برغبتكم فيهن فرخص لكم في التعريض دون التصريح وقال في
الكشاف ان فيه طرفا من التوبيخ كقوله تعالى علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم
(ولكن لا تواعدوهن سرا) قد اختلف العلماء في معنى السر فقيل معناه نكاحا أي لا يقل
الرجل لهذه المعتدة تزوجيني بل يعرض تعريضا وقد ذهب الى ان هذا معنى الآية
جمهور العلماء وقيل السر الزنا أي لا يكون منكم مواعدة على الزنا في العدة ثم التزويج
بعدها قاله جابر بن زيد وأبو مجلز والحسن وقتادة والضحاك والنخعي واختاره ابن جرير
الطبري وقيل السر الجماع أي لا تصفوا أنفسكم لهن بكثرة الجماع ترغيبا لهن في النكاح

ابراهيم وبقى الحجر فذهب الغلام شيأ فقال ابراهيم أبغنى حجرا كما آمرك قال فانطلق الغلام يلتمس له حجرا فاتاه به فوجده قد ركب الحجر الاسود فى مكانه فقال يا أبت من أتاك بهذا الحجر فقال أتانى به من لم يتكل على بنائك جاء به جبريل عليه السلام من السماء فاتماه وقال ابن أبى حاتم حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرى أخبرنا سفيان عن بشر بن عاصم عن سعيد بن المسيب عن كعب الاحبار قال كان البيت غثاءة على الماء قبل ان يخلق الله الارض باربعين عاما ومنه دحيت الارض قال سعيد وحدثنا على بن أبى طالب أن ابراهيم أقبل من أرض (٣١٠) أرمينية ومعه السكينة تدله على تبوؤ البيت كما تتبوأ العنكبوت بيتا قال فكشفت عن أحجار لا يطيق الحجر الثلاثون رجلا فقلت يا أبا محمد فان الله يقول واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسمعيل قال كان ذلك بعد وقال السدى ان الله عز وجل أمر ابراهيم ان يبنى البيت هو واسمعيل ابنيا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود فانطلق ابراهيم حتى أتى مكة فقام هو واسمعيل وأخذا المعاول لا يدريان أين البيت فبعث الله ريحا يقال لها الريح الخجوج لها جناحان ورأس فى صورة حية فكشفت لهما ما حول الكعبة عن أساس البيت الاول واتبعاها بالمعاول يحفران حتى وضعا الاساس فذلك حين يقول تعالى واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت فلما بنيا القواعد فبلغا مكان الركن قال ابراهيم لاسمعيل يا بنى اطلب لى حجرا حسنا أضعه ههنا قال يا أبت انى كسلان لغب قال على ذلك فانطلق يطلب له حجرا وجاءه جبريل بالحجر الاسود من الهند وكان أبيض ياقوتة بيضاء مثل الثغامة وكان آدم هبط به من الجنة فاسود من خطايا الناس فجاءه اسمعيل بحجر فوجده عند الركن فقال يا أبت من جاءك بهذا قال جاء به من هو أنشط منك فبنيا وهما يدعوان الكلمات التى ابتلى ابراهيم ربه فقال ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم وفى هذا السياق ما يدل على ان قواعد البيت كانت مبنية قبل ابراهيم وانما هدى ابراهيم اليها وبوئ لها وقد ذهب الى هذا ذاهبون كما قال الامام عبد الرزاق أخبرنا معمر عن أيوب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت قال القواعد التى كانت قواعد البيت قبل ذلك وقال عبد الرزاق أيضا أخبرنا هشام بن حسان عن سوار ختن عطاء عن عطاء بن أبى رباح

والى هذا ذهب الشافعى فى معنى الآية والاستدراك بقوله لكن من مقدر دل عليه ستذكرونهن أى فاذكروهن ولكن لا تواعدوهن سرا ولا تصرحوا بالخطبة بان تذكروا صريح النكاح قال ابن عطية أجمعت الامة على ان الكلام مع المعتدة بما هو رفث من ذكر جماع أو تحريض عليه لا يجوز وقال أيضا أجمعت الامة على كراهة المواعدة فى العدة للمرأة فى نفسها وللاب فى ابنته البكر وللسيد فى أمته وقال ابن عباس المواعدة سرا ان يقول لها انى عاشق وعاهدينى ان لا تتزوجى غيرى ونحو هذا (الا أن تقولوا) قيل هو استثناء منقطع بمعنى لكن لان القول هو التعريض والمستثنى منه المراد به التصريح وهذا هو شأن المنقطع يفسر بلكن وبه قال السيوطى ومنع صاحب الكشاف ان يكون منقطعا وقال هو مستثنى من قوله لا تواعدوهن أى مواعدة ما الا مواعدة معروفة غير منكرة شرعا وهى ما يكون بطريق التعريض والتلويح فجعله على هذا استثناء متصلا مفرغا ووجه كونه منقطعا انه يؤدى الى جعل التعريض موعودا وليس كذلك لان التعريض طريق المواعدة لا انه الموعود فى نفسه وعن ابن عباس قال التعريض ان يقول انى أريد التزويج وانى لاحب المرأة من أمرها وان من شأنى النساء ولوددت ان الله يسر لى امرأة صالحة رواه البخارى وجماعة (قولا معروفا) أى تعريضا وقال ابن عباس هو قوله ان رأيت ان لا تسبقينى بنفسك أو يقول انك لجميلة وانك الى خير وان النساء من حاجتى (ولا تعزموا عقدة النكاح) قد تقدم الكلام فى معنى العزم يقال عزم الشئ وعزم عليه والمعنى هنا لا تعزموا على عقدة النكاح فى العدة لان العزم عليه بعدها لا بأس به ثم حذف على قال سيبويه والحذف فى هذه الآية لا يقاس عليه وقال النحاس يجوز ان يكون المعنى ولا تعقدوا عقدة النكاح لان معنى تعزموا وتعقدوا واحد قيل ان العزم على الفعل يتقدمه فيكون فى هذا النهى مبالغة لانه اذا نهى عن المتقدم على الشئ كان النهى عن ذلك الشئ بالاولى (حتى) غاية للنهى (يبلغ الكتاب أجله) أى تنقضى العدة والكتاب هنا هو الحد والقدر الذى رسم من المدة سماه كتابا لكونه محدودا ومفروضا كقوله تعالى ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا وهذا الحكم أعنى تحريم عقد النكاح فى العدة مجمع عليه والمراد بالاجل آخر مدة العدة (واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم) من العزم على ما لا يجوز (فاحذروه) أى عقابه اذا عزمتم على عقدة النكاح

قال لما أهبط الله آدم من الجنة كانت رجلاه في الارض ورأسه في السماء يسمع كلام أهل السماء ودعاءهم يأنس اليهم فهابت الملائكة حتى شكت الى الله في دعائها وفي صلاتها فخفضه الله تعالى الى الارض فلما فقد ما كان يسمع منهم استوحش حتى شكا ذلك الى الله في دعائه وفي صلاته فوجه الى مكة فكان موضع قدمه قرية وخطوه مفازة حتى انتهى الى مكة وأنزل الله ياقوتة من ياقوت الجنة فكانت على موضع البيت الآن فلم يزل يطوف به حتى أنزل الله الطوفان فرفعت تلك الياقوتة حتى بعث الله ابراهيم عليه السلام فبناه وذلك قول الله تعالى واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت وقال (٢١١) عبد الرزاق أخبرنا ابن جريج عن عطاء قال قال آدم اني لا أسمع أصوات الملائكة قال بخطيئتك ولكن اهبط الى الارض فابن لي بيتا ثم احفف به كما رأيت الملائكة تحف ببيتي الذي في السماء فيزعم الناس انه بناه (١) من خمسة أجبل من حراء وطور زيتا وطور سيناء والجودي وكان ربضه من حراء فكان هذا بناء آدم حتى بناه ابراهيم عليه السلام بعد وهذا صحيح الى عطاء ولكن في بعضه نكارة والله أعلم وقال عبد الرزاق أيضا أخبرنا معمر عن قتادة قال وضع الله البيت مع آدم أهبط الله آدم الى الارض وكان مهبطه بارض الهند وكان رأسه في السماء ورجلاه في الارض فكانت الملائكة تهابه فنقص الى ستين ذراعا فحزن آدم اذ فقد أصوات الملائكة وتسبيحهم فشكا ذلك الى الله عز وجل فقال الله يا آدم اني قد أهبطت لك بيتا تطوف به كما يطاف حول عرشي وتصلي عنده كما يصلى عند عرشي فانطلق اليه آدم فخرج ومد له في خطوه فكان بين كل خطوتين مفازة فلم تزل تلك المفاوز بعد ذلك فأتى آدم البيت فطاف به ومن بعده من الانبياء وقال ابن جرير أخبرنا ابن حميد أخبرنا يعقوب العمي عن حفص ابن حميد عن عكرمة عن ابن عباس قال وضع الله البيت على أركان الماء على أربعة أركان قبل أن تخلق الدنيا بألفي عام ثم دحيت الارض من تحت البيت وقال محمد بن اسحق حدثني عبد الله بن أبي نجيح عن مجاهد وغيره من أهل العلم ان الله لما بوأ ابراهيم مكان البيت خرج اليه من الشام وخرج معه باسمعيل وبأمه هاجر واسمعيل طفل صغير يرضع وحملوا فيما حدثني على البراق ومعه جبريل يدله على موضع البيت ومعالم الحرم وخرج معه جبريل فكان لا يمر بقرية الا قال أبهذه أمرت يا جبريل فيقول

النكاح في العدة والا تعزموا عليه فان العزم على المعصية معصية (واعلموا أن الله غفور حليم) لا يعاجلكم بالعقوبة على الجهر بالمعصية بل يسترها (لا جناح عليكم) المراد بالجناح هنا التبعة من المهر ونحوه فرفعه رفع لذلك أي لا تبعة عليكم بالمهر ونحوه (ان طلقتم النساء ما لم تمسوهن) أي مدة عدم مسيسكم وقال أبو البقاء والمعنى ان طلقتموهن غير ماسين لهن فعلى الاول ما مصدرية ظرفية وعلى الثاني شرطية وقيل انها موصولة أي ان طلقتم النساء اللاتي لم تمسوهن أي ما لم تجامعوهن وقرأ ابن مسعود من قبل ان تجامعوهن وقرأ غيره تماسوهن من المفاعلة وهكذا اختلفوا في قوله (أو تفرضوا لهن فريضة) فقيل أو بمعنى الا أي الا ان تفرضوا وقيل بمعنى حتى أي حتى تفرضوا وقيل بمعنى الواو أي وتفرضوا ولست أرى لهذا التطويل وجها ومعنى الآية أوضح من أن يلتبس فان الله سبحانه رفع الجناح عن المطلقين ما لم يقع أحد الامرين أي مدة انتفاء ذلك الاحد ولا ينتفي الاحد المبهم الا بانتفاء الامرين معا فان وجد المسيس وجب المسمى أو مهر المثل وان وجد الفرض وجب نصفه مع عدم المسيس وكل واحد منهما جناح أي المسمى أو مهر المثل أو نصفه واعلم ان المطلقات أربع مطلقة مدخول بها مفروض لها وهي التي تقدم ذكرها قبل هذه الآية وفيها نهى الازواج عن ان يأخذوا مما آتوهن شيأ وان عدتهن ثلاثة قروء ومطلقة غير مفروض لها ولا مدخول بها وهي المذكورة هنا فلا مهر لها بل المتعة وبين في سورة الاحزاب ان غير المدخول بها اذا طلقت فلا عدة عليها ومطلقة مفروض لها غير مدخول بها وهي المذكورة بقوله سبحانه وان طلقتموهن من قبل ان تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة ومطلقة مدخول بها غير مفروض لها وهي المذكورة في قوله تعالى فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن والمراد بالفريضة هنا تسمية المهر وفيها وجهان أظهرهما انها مفعول به والتقدير شيأ مفروضا والثاني ان تكون منصوبة على المصدر بمعنى فرضا واستجود أبو البقاء الوجه الاول (ومتعوهن) أي أعطوهن شيأ يكون متاعا لهن وظاهر الامر الوجوب وبه قال علي وابن عمر والحسن البصري وسعيد بن جبير وأبو قلابة والزهري وقتادة والضحاك ومن أدلة الوجوب قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا اذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل ان تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها فمتعوهن وسرحوهن سراحا جميلا وقال مالك وأبو عبيد

---

(١) قوله خمسة المعدود أربعة وحرر اه

جبريل امضه حتى قدم به مكة وهي اذ ذاك عضاه وسلم وسمر وبها أناس يقال لهم العماليق خارج مكة وما حولها والبيت يومئذ ربوة حمراء مدرة فقال ابراهيم لجبريل أههنا أمرت أن أضعهما قال نعم فعمد بهما الى موضع الحجر فأنزلهما فيه وأمر هاجر أم اسمعيل أن تتخذ فيه عريشا فقال ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم الى قوله لعلهم يشكرون وقال عبد الرزاق أخبرنا هشام بن حسان أخبرنى حميد عن مجاهد قال خلق الله موضع هذا البيت قبل أن يخلق شيأ بألفى سنة وأركانه فى الارض السابعة وكذا قال ليث بن أبى سليم

عن مجاهد القواعد فى الارض السابعة وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى أخبرنا عمرو بن رافع أخبرنا عبد الوهاب بن معاوية عن عبد المؤمن بن خالد عن علباء بن أحمر أن ذا القرنين قدم مكة فوجد ابراهيم واسمعيل يبنيان قواعد البيت من خمسة أجبل فقال مالكما ولارضى فقالا نحن عبدان مأموران أمرنا ببناء هذه الكعبة قال فهاتا بالبينة على ماتدعيان فقامت خمسة أكبش فقلن نحن نشهد أن ابراهيم واسمعيل عبدان مأموران أمرا ببناء هذه الكعبة فقال قد رضيت وسلمت ثم مضى وذكر الازرقى فى تاريخ مكة أن ذا القرنين طاف مع ابراهيم عليه السلام بالبيت وهذا يدل على تقدم زمانه والله أعلم وقال البخارى رحمه الله قوله تعالى واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسمعيل الآية القواعد أساسه واحدها قاعدة والقواعد من النساء واحدتها قاعدة حدثنا اسمعيل حدثنى مالك عن ابن شهاب عن سالم بن عبد الله أن عبد الله بن محمد بن أبى بكر أخبر عبد الله بن عمر عن عائشة زوج النبى صلى الله عليه وسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ألم ترى أن قومك حين بنوا البيت اقتصروا عن قواعد ابراهيم فقلت يارسول الله ألا تردها على قواعد ابراهيم قال لولا حدثان قومك بالكفر فقال عبد الله بن عمر لئن كانت عائشة سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أرى رسول الله صلى الله عليه وسلم ترك استلام الركنين اللذين يليان الحجر الا أن البيت لم يتم على قواعد ابراهيم عليه السلام وقد رواه فى الحج عن القعنبى وفى أحاديث الانبياء عن عبد الله بن يوسف ومسلم عن يحيى بن يحيى ومن حديث ابن وهب والنسائى من حديث عبد الرحمن بن القاسم كلهم عن مالك به ورواه مسلم أيضا من حديث نافع قال سمعت

والقاضى شريح وغيرهم ان المتعة للمطلقة المذكورة مندوبة لا واجبة لقوله تعالى حقا على المحسنين ولو كانت واجبة لاطلقها على الخلق أجمعين ويجاب عنه بان ذلك لا ينافى الوجوب بل هو تأكيد له كما فى قوله فى الآية الاخرى حقا على المتقين أى ان الوفاء بذلك والقيام به شأن أهل التقوى وكل مسلم يجب عليه أن يتقى الله سبحانه وقد وقع الخلاف أيضا هل المتعة مشروعة لغير هذه المطلقة قبل المسيس والفرض أم ليست بمشروعة الا لها فقط فقيل انها مشروعة لكل مطلقة واليه ذهب ابن عباس وابن عمر وعطاء وجابر بن زيد وسعيد بن جبير وأبو العالية والحسن البصرى والشافعى فى أحد قوليه وأحمد واسحق ولكنهم اختلفوا هل هى واجبة فى غير المطلقة قبل البناء والفرض أم مندوبة فقط واستدلوا بقوله تعالى وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين وبقوله تعالى ياأيها النبى قل لازواجك ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا والآية الاولى عامة لكل مطلقة والثانية فى أزواج النبى صلى الله عليه وآله وسلم وقد كن مفروضا لهن مدخولا بهن وقال سعيد بن المسيب انها تجب للمطلقة اذا طلقت قبل المسيس وان كانت مفروضا لها لقوله تعالى ياأيها الذين آمنوا اذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل ان تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها فمتعوهن قال هذه الآية التى فى الاحزاب نسخت التى فى البقرة وذهب جماعة من أهل العلم الى أن المتعة مختصة بالمطلقة قبل البناء والتسمية لان المدخول بها تستحق جميع المسمى أو مهر المثل وغير المدخولة التى قد فرض لها زوجها فريضة أى سمى لها مهرا وطلقها قبل الدخول تستحق نصف المسمى ومن القائلين بهذا ابن عمر ومجاهد وقد وقع الاجماع على أن المطلقة قبل الدخول أو الفرض لا تستحق الا المتعة اذا كانت حرة وأما اذا كانت أمة فذهب الجمهور الى أن لها المتعة وقال الاوزاعى والثورى لا متعة لها لانها تكون لسيدها ولا تستحق مالا فى مقابل تأذى مملوكه لان الله سبحانه انما شرع المتعة للمطلقة قبل الدخول والفرض لكونها تتأذى بالطلاق قبل ذلك وقد اختلفوا فى المتعة المشروعة هل هى مقدرة بقدر أم لا فقال مالك والشافعى فى الجديد لا حد لها معروف بل ما يقع عليه اسم المتعة وقال أبو حنيفة انه اذا تنازع الزوجان فى قدر المتعة وجب لها نصف مهر مثلها ولا ينقص من خمسة دراهم لان أقل المهر عشرة دراهم وللسلف فيها

اقوال

أقوال سيأتي ذكرها ان شاء الله تعالى وقوله (على الموسع قدره وعلى المقتر قدره) يدل على ان الاعتبار في ذلك بحال الزوج فالمتعة من الغني فوق المتعة من الفقير والموسع هو الذي اتسعت حاله وقرئ الموسع بالتشديد وقرئ قدره بسكون الدال فيهما وبفتح الدال فيهما قال الاخفش وغيره هما لغتان فصيحتان وهكذا في قوله تعالى فسالت أودية بقدرها وقوله وما قدروا الله حق قدره والمقتر المقل والقدر على الموسع منكم أو على موسعكم قدره أي قدر امكانه وطاقته وكذا يقال في الثاني والآية تفيد انه لا نظر الى قدر الزوجة وقيل هذا ضعيف في مذهب الشافعي بل ينظر الحاكم باجتهاد الى حالهما جميعا على أظهر الوجوه (متاعا) مصدر مؤكد أي متعوهن متاعا (بالمعروف) ما عرف في الشرع والعادة الموافقة له وقوله (حقا على المحسنين) وصف لقوله متاعا أو مصدر لفعل محذوف أي حق ذلك حقا يقال حققت عليه القضاء وأحققت أي أوجبت قال ابن عباس المس النكاح والفريضة الصداق وأمر الله أن يمتعها على قدر عسره ويسره فان كان موسرا امتعها بخادم وان كان معسرا امتعها بثلاثة أثواب ونحو ذلك وعنه قال متعة الطلاق أعلاها الخادم ودون ذلك الورق ودون ذلك الكسوة وعن ابن عمر أدنى ما يكون من المتعة ثلاثون درهما وعن الحسن بن علي انه متع بعشرين ألفا وزقاق من عسل وعن شريح انه متع بخمسمائة درهم وعن الحسن بن علي أيضا انه متع بعشرة آلاف وعن ابن سيرين انه كان يمتع بالخادم والنفقة والكسوة (وان طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم) فيه دليل على أن المتعة لا تجب لهذه المطلقة لوقوعها في مقابلة المطلقة قبل البناء والفرض التي تستحق المتعة أي فالواجب عليكم نصف ما سميتم لهن من المهر وهذا مجمع عليه وقد وقع الاتفاق أيضا على ان المرأة التي لم يدخل بها زوجها ومات وقد فرض لها مهرا تستحقه كاملا بالموت ولها الميراث وعليها العدة واختلفوا في الخلوة هل تقوم مقام الدخول وتستحق المرأة بها كمال المهر كما تستحقه بالدخول أم لا فذهب الى الاول مالك والشافعي في القديم والكوفيون والخلفاء الراشدون وجمهور أهل العلم وتجب أيضا عندهم العدة وقال الشافعي في الجديد لا يجب الا نصف المهر وهو ظاهر الآية لما تقدم من ان المسيس هو الجماع ولا يجب عنده العدة واليه ذهب جماعة من السلف (الا أن يعفون) أي المطلقات ومعناه يتركن و يصفحن وهو

عبد الله بن محمد بن أبي بكر بن أبي قحافة يحدث عبد الله بن عمر عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لولا ان قومك حديث عهد بجاهلية أو قال بكفر لانفقت كنز الكعبة في سبيل الله ولجعلت بابها بالارض ولادخلت فيها الحجر وقال البخاري أخبرنا عبيد الله بن موسى عن اسرائيل عن أبي اسحق عن الاسود قال قال لي ابن الزبير كانت عائشة تسر اليك حديثا كثيرا فما حدثتك في الكعبة قال قلت قالت لي قال النبي صلى الله عليه وسلم يا عائشة لولا قومك حديث عهدهم فقال ابن الزبير بكفر لنقضت الكعبة فجعلت لها بابين بابا يدخل منه الناس و بابا يخرجون منه ففعله (٤١٣) ابن الزبير انفرد باخراجه البخاري فرواه هكذا في كتاب العلم من صحيحه وقال مسلم في صحيحه حدثنا يحيى بن يحيى أخبرنا أبو معاوية عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم لولا حداثة عهد قومك بالكفر لنقضت الكعبة ولجعلتها على أساس ابراهيم فان قريشا حين بنت البيت استقصرت ولجعلت لها خلفا قال وحدثناه أبو بكر ابن أبي شيبة وابو كريب قالا اخبرنا ابن نمير عن هشام بهذا الاسناد انفرد به مسلم، قال وحدثني محمد ابن حاتم حدثني محمد بن مهدي اخبرنا سليم بن حيان عن سعيد يعني ابن ميناء قال سمعت عبد الله بن الزبير يقول حدثتني خالتي يعني عائشة رضي الله عنها قالت قال النبي صلى الله عليه وسلم يا عائشة لولا قومك حديث عهد بشرك لهدمت الكعبة فالزقتها بالارض ولجعلت لها بابا شرقيا وبابا غربيا و زدت فيها ستة أذرع من الحجر فان قريشا اقتصرتها حيث بنت الكعبة انفرد به أيضا *(ذكر بناء قريش الكعبة بعد ابراهيم الخليل عليه السلام بمدد طويلة وقبل مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمس سنين)* وقد نقل معهم في الحجارة وله من العمر خمس وثلاثون سنة صلوات الله وسلامه عليه دائما الى يوم الدين قال محمد بن اسحق بن يسار في السيرة ولما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسا وثلاثين سنة اجتمعت قريش لبنيان الكعبة وكانوا يهمون بذلك ليسقفوها ويهابون هدمها وانما كانت رضما فوق القامة فارادوا رفعها وتسقيفها وذلك ان نفرا سرقوا كنز الكعبة وانما كان يكون في بئر في جوف الكعبة وكان الذي وجد عنده الكنز دويك مولى بني مليح بن عمرو من خزاعة فقطعت قريش يده ويزعم الناس ان الذين سرقوه

وضعوه عند ذويك وكان البحر قد رمى بسفينة الى جدة لرجل من تجار الروم فتحطمت فأخذوا خشبها فأعدوه لتسقيفها وكان بمكة رجل قبطي نجار فهيأ لهم في أنفسهم بعض ما يصلحها وكانت حية تخرج من بئر الكعبة التي كانت تطرح فيها ما يهدى لها كل يوم فتشرف على جدار الكعبة وكانت مما يهابون وذلك انه كان لا يدنو منها أحد الا احزألت وكشت وفتحت فاها فكانوا يهابونها فبيناهي يوما تشرف على جدار الكعبة كما كانت تصنع بعث الله اليها طائرا فاختطفها فذهب بها فقالت قريش انا لنرجو ان يكون الله قد رضي ما أردنا عندنا عامل (٣١٤) رفيق وعندنا خشب وقد كفانا الله الحية فلما أجمعوا أمرهم في هدمها وبنائها قام ابن وهب بن عمرو ابن عائذ بن عبد بن عمران بن مخزوم فتناول من الكعبة حجرا فوثب من يده حتى رجع الى موضعه فقال يا معشر قريش لا تدخلوا في بنيانها من كسبكم الا طيبا لا يدخل فيها مهر بغي ولا بيع ربا ولا مظلمة أحد من الناس قال ابن اسحق والناس ينتحلون هذا الكلام للوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم قال ثم ان قريشا تجزأت الكعبة فكان شق الباب لبني عبد مناف وزهرة وكان ما بين الركن الاسود والركن اليماني لبني مخزوم وقبائل من قريش انضموا اليهم وكان ظهر الكعبة لبني جمح وسهم وكان شق الحجر لبني عبد الدار بن قصي ولبني أسد بن عبد العزى بن قصي ولبني عدي بن كعب بن لؤي وهو الحطيم ثم ان الناس هابوا هدمها وفرقوا منه فقال الوليد بن المغيرة أنا ابدؤكم في هدمها فأخذ المعول ثم قام عليها وهو يقول اللهم لم ترع اللهم انا لا نريد الا الخير ثم هدم من ناحية الركنين فتربص الناس تلك الليلة وقالوا ننظر فان أصيب لم نهدم منها شيأ ورددناها كما كانت وان لم يصبه شيء فقد رضي الله ما صنعنا فأصبح الوليد من ليلته غاديا على عمله فهدم وهدم الناس معه حتى اذا انتهى الهدم بهم الى الاساس أساس ابراهيم عليه السلام أفضوا الى حجارة خضر كالأسنمة آخذ بعضها بعضا قال فحدثني بعض من يروي الحديث ان رجلا من قريش ممن كان يهدمها أدخل عتلة بين حجرين منها ليقلع بها أحدهما فلما تحرك الحجر انتفضت مكة بأسرها فانتهوا عن ذلك الاساس قال ابن اسحق ثم ان القبائل من قريش جمعت الحجارة لبنائها كل قبيلة تجمع على حدة ثم بنوها حتى بلغ البنيان موضع الركن يعني الحجر الاسود

استثناء مفرغ من أعم العام وقيل منقطع ومعناه يترك النصف الذي يجب لهن على الازواج وروي عن محمد بن كعب القرظي انه قال الا ان يعفون يعني الرجال وهو ضعيف لفظا ومعنى (أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح) معطوف على محل قوله الا أن يعفون لان الاول مبني وهذا معرب قيل هو الزوج وبه قال جبير بن مطعم وسعيد بن المسيب وشريح وسعيد بن جبير ومجاهد والشعبي وعكرمة ونافع وابن سيرين والضحاك ومحمد بن كعب القرظي وجابر بن زيد وأبو مجلز والربيع بن أنس واياس بن معاوية ومكحول ومقاتل بن حيان وهو الجديد من قولي الشافعي وبه قال أبو حنيفة وأصحابه والثوري وابن شبرمة والاوزاعي ورجحه ابن جرير وفي هذا القول قوة وضعف أما قوته فلكون الذي بيده عقدة النكاح حقيقة هو الزوج لانه الذي اليه رفعه بالطلاق وأما ضعفه فلكون العفو منه غير معقول وما قالوا به من ان المراد بعفوه ان يعطيها المهر كاملا غير ظاهر لان العفو لا يطلق على الزيادة وقيل المراد بقوله أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح هو الولي وبه قال النخعي وعلقمة والحسن وطاوس وعطاء وأبو الزناد وزيد بن أسلم وربيعة والزهري والاسود بن يزيد والشعبي وقتادة ومالك والشافعي في قوله القديم وفيه قوة وضعف أما قوته فلكون معنى العفو فيه معقولا وأما ضعفه فلكون عقدة النكاح بيد الزوج لا بيده ومما يزيد هذا القول ضعفا انه ليس للولي أن يعفو عن الزوج مما لا يملكه وقد حكى القرطبي الاجماع على ان الولي لا يملك شيأ من مالها والمهر مالها فالراجح ما قاله الاولون لوجهين الأول أن الزوج هو الذي بيده عقدة النكاح حقيقة الثاني ان عفوه بأكمال المهر هو صادر عن المالك المطلق التصرف بخلاف الولي وتسمية الزيادة عفوا وان كان خلاف الظاهر لكن لما كان الغالب انهم يسوقون المهر كاملا عند العقد كان العفو معقولا لانه تركه لها ولم يسترجع النصف منه ولا يحتاج في هذا الى أن يقال انه من باب المشاكلة كما في الكشاف لانه عفو حقيقي أي ترك لما يستحق المطالبة به الا أن يقال انه مشاكلة أو تغليب في توفية المهر قبل ان يسوقه الزوج (وأن تعفوا أقرب للتقوى) قيل هو خطاب للرجال والنساء تغليبا أي وعفو بعضكم أيها الرجال والنساء أقرب للتقوى أي من عدم العفو الذي فيه التنصيف والمراد بالتقوى الألفة وطيب النفس من الجانبين وعليه قراءة الجمهور بالتاء الفوقية وقرأ الشعبي وأبو نهيك بالياء

التحتية

فاختصموا فيه كل قبيلة تريد ان ترفعه الى موضعه دون الاخرى حتى تحاوروا وتحالفوا وأعدوا للقتال فقربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دما ثم تعاقدوا هم وبنو عدي بن كعب بن لؤي على الموت وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم في تلك الجفنة فسموا لعقة الدم فمكثت قريش على ذلك أربع ليال أو خمسا ثم انهم اجتمعوا في المسجد فتشاوروا وتناصفوا فزعم بعض أهل الرواية ان أبا أمية ابن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم وكان عامئذ أسن قريش كلهم قال يا معشر قريش اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضي بينكم فيه ففعلوا فكان أول داخل

رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رأوه قالوا هذا الامين رضينا هذا محمد فلما انتهى اليهم وأخبروه الخبر قال صلى الله عليه وسلم هلم الى ثوبا فاتي به فأخذ الركن يعني الحجر الاسود فوضعه فيه بيده ثم قال لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعا ففعلوا حتى اذا بلغوا به موضعه وضعه هو بيده صلى الله عليه وسلم ثم بنى عليه وكانت قريش تسمي رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل ان ينزل عليه الوحي الامين فلما فرغوا من البنيان وبنوها على ما أرادوا قال الزبير بن عبد المطلب فيما كان من أمر الحية التي كانت قريش تهاب بنيان الكعبة لها

عجبت لما تصوبت العقاب * الى الثعبان وهي لها اضطراب
وقد كانت يكون لها كشيش * وأحيانا يكون لها وثاب
اذا قمنا الى التأسيس شدت * تهيبنا البناء وقد تهاب
فلما أن خشينا الرجز جاءت * عقاب تتلئب لها انصباب
فضمتها اليها ثم خلت * لنا البنيان ليس له حجاب
فقمنا حاشدين الى بناء * لنا منه القواعد والتراب
غداة نرفع التأسيس منه * وليس على مساوينا ثياب
أعز به المليك بني لؤي * فليس لاصله منهم ذهاب
وقد حشدت هناك بنو عدي * ومرة قد تقدمها كلاب
فبوأنا المليك بذاك عزا * وعند الله يلتمس الثواب

قال ابن اسحق وكانت الكعبة على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ثماني عشر ذراعا وكانت تكسى القباطي ثم كسيت بعد البرود وأول من كساها الديباج الحجاج بن يوسف (قلت) ولم تزل على بناء قريش حتى احترقت في أول امارة عبد الله بن الزبير بعد سنة ستين وفي آخر ولاية يزيد بن معاوية لما

التهمة فيكون الخطاب مع الرجال فقط وفي هذا دليل على مارجحناه من ان الذي بيده عقدة النكاح هو الزوج لان عفو الولي عن شيء لا يملكه ليس هو أقرب للتقوى بل أقرب الى الظلم والجور والمعنى وليعف الزوج فيترك حقه الذي ساق من المهر اليها قبل الطلاق فهو أقرب للتقوى (ولا تنسوا الفضل بينكم) المعنى أن الزوجين لا ينسيان التفضل من كل واحد منهما على الآخر ومن جملة ذلك ان تتفضل المرأة بالعفو عن النصف ويتفضل الرجل عليها باكمال المهر وهو ارشاد للرجال والنساء من الازواج الى ترك التقصي على بعضهم بعضا والمسامحة فيما يستغرقه أحدهما على الآخر للوصلة التي قد وقعت بينهما من افضاء البعض الى البعض وهي وصلة لا تشبهها وصلة فمن رعاية حقها ومعرفتها حق معرفتها الحرص منهما على التسامح (ان الله بما تعملون بصير) فيه من ترغيب المحسن وترهيب غيره مالا يخفى (حافظوا على الصلوات) المحافظة على الشيء المداومة والمواظبة عليه أي داوموا واظبوا على الخمس المكتوبات بجميع شرائطها وحدودها واتمام أركانها وفعلها في أوقاتها المختصة بها ولعل الامر بالصلوات وقع في تضاعيف أحكام الاولاد والازواج لئلا يلهيهم الاشتغال بشأنهم عنها (والصلاة الوسطى) الوسطى تأنيث الاوسط وأوسط الشيء ووسطه خياره ومنه قوله تعالى وكذلك جعلناكم أمة وسطا ووسط فلان القوم يسطهم أي صار في وسطهم وليست من الوسط الذي معناه متوسط بين شيئين لان فعلى معناها التفضيل ولا يبنى للتفضيل الا ما يقبل الزيادة والنقص والوسط بمعنى العدل والخيار يقبلهما بخلاف التوسط بين الشيئين فانه لا يقبلهما فلا يبنى منه أفعل للتفضيل وأفرد الصلاة الوسطى بالذكر بعد دخولها في عموم الصلوات تشريفا لها وقد اختلف أهل العلم في تعيينها على ثمانية عشر قولا أوردها الشوكاني في شرحه للمنتقى وذكر ما تمسك به كل طائفة وأرجح الاقوال وأصحها ما ذهب اليه الجمهور من انها العصر لما ثبت عند البخاري ومسلم وأهل السنن وغيرهم من حديث علي قال كنا نراها الفجر حتى سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول يوم الاحزاب شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ملأ الله قبورهم وأجوافهم نارا وأخرج مسلم والترمذي وابن ماجه وغيرهم من حديث ابن مسعود مرفوعا مثله وأخرجه ابن جرير وابن المنذر والطبراني من حديث ابن عباس مرفوعا وأخرجه البزار باسناد صحيح من حديث جابر مرفوعا

ـاصر وابن الزبير فحينئذ نقضها ابن الزبير الى الارض وبناها على قواعد ابراهيم عليه السلام وأدخل فيها الحجر وجعل لها بابا شرقيا وبابا غربيا ملصقين بالارض كما سمع ذلك من خالته عائشة أم المؤمنين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم تزل كذلك مدة امارته حتى قتله الحجاج فردها الى ما كانت عليه بامر عبد الملك بن مروان له بذلك كما قال مسلم بن الحجاج فى صحيحه أخبرنا هناد بن السرى أخبرنا ابن أبى زائدة أخبرنا ابن أبى سليمان عن عطاء قال لما احترق البيت زمن يزيد بن معاوية حين غزاها أهل الشام فكان من أمره ما كان تركه ابن (٢١٦) الزبير حتى قدم الناس الموسم يريد ان يجزبهم أو يجبرونهم على أهل الشام فلما صدر الناس قال يا أيها الناس أشيروا على فى الكعبة أنقضها ثم أبنى بناءها أو أصلح ما وهى منها قال ابن عباس انه قد خرق لى رأى فيها أرى ان تصلح ما وهى منها وتدع بيتا أسلم الناس عليه وأحجارا أسلم الناس عليها وبعث عليها النبى صلى الله عليه وسلم فقال ابن الزبير لو كان أحدهم احترق بيته ما رضى حتى يجدده فكيف بيت ربكم عز وجل انى مستخير ربى ثلاثا ثم عازم على أمرى فلما مضت ثلاث أجمع رأيه على ان ينقضها فتحاماها الناس ان ينزل بأول الناس يصعد فيه أمر من السماء حتى صعده رجل فألقى منه حجارة فلما لم يره الناس أصابه شئ تتابعوا فنقضوه حتى بلغوا به الارض فجعل ابن الزبير أعمدة يستر عليها الستور حتى ارتفع بناؤه وقال ابن الزبير انى سمعت عائشة رضى الله عنها تقول ان النبى صلى الله عليه وسلم قال لولا ان الناس حديث عهدهم بكفر وليس عندى من النفقة ما يقوى على بنائه لكنت أدخلت فيه من الحجر خمسة أذرع ولجعلت له بابا يدخل الناس منه وبابا يخرجون منه قال فانا أجد ما أنفق ولست أخاف الناس قال فزاد فيه عن خمسة أذرع من الحجر حتى أبدى أسا نظر الناس اليه فبنى عليه البناء وكان طول الكعبة ثمانية عشر ذراعا فلما زاد فيه استقصره فزاد فى طوله عشرة أذرع وجعل له بابين احدهما يدخل منه والآخر يخرج منه فلما قتل ابن الزبير كتب الحجاج الى عبد الملك يستخبره بذلك ويخبره ان ابن الزبير قد وضع البناء على أس نظر اليه العدول من أهل مكة فكتب اليه عبد الملك انا لسنا من تلطيخ ابن الزبير فى شئ أما ما زاده فى طوله فاقره وأما ما زاد فيه من الحجر فرده الى بنائه وسد الباب الذى فتحه فنقضه وأعاده الى بنائه وقد رواه

وأخرجه أيضا البزار بسند صحيح من حديث حذيفة مرفوعا وأخرجه الطبرانى باسناد ضعيف من حديث أم سلمة مرفوعا وورد فى تعيين انها العصر من غير ذكر يوم الاحزاب أحاديث مرفوعة الى النبى صلى الله عليه وآله وسلم وهذه أحاديث مصرحة بانها العصر وقد روى عن الصحابة فى تعيين انها العصر آثار كثيرة وفى الثابت عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم ما لا يحتاج معه الى غيره وأما ما روى عن على وابن عباس انهما قالا انها صلاة الصبح كما أخرجه مالك فى الموطا عنهما وأخرجه ابن جرير عن ابن عباس وكذلك غيره عن ابن عمر وأبى امامة فكل ذلك من أقوالهم وليس فيها شئ من المرفوع الى النبى صلى الله عليه وآله وسلم ولا تقوم بمثل ذلك حجة لاسيما اذا عارض ما ثبت عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم ثبوتا يمكن أن يدعى فيه التواتر واذا لم تقم الحجة بأقوال الصحابة لم تقم بأقوال من بعد من التابعين وتابعيهم بالاولى وهكذا لا تقوم الحجة بما أخرجه ابن أبى حاتم باسناد حسن عن ابن عباس انه قال صلاة الوسطى المغرب وهكذا لا اعتبار بما ورد من قول جماعة من الصحابة انها الظهر وغيرها من الصلوات ولكن المحتاج الى امعان نظر وفكر ما ورد مرفوعا الى النبى صلى الله عليه وآله وسلم مما فيه دلالة على انها الظهر كما أخرجه ابن جرير عن زيد بن ثابت مرفوعا ان الصلاة الوسطى صلاة الظهر ولا يصح رفعه بل المروى عن زيد ذلك من قوله واستدل على ذلك بان النبى صلى الله عليه وآله وسلم كان يصلى بالهاجرة وكانت أثقل الصلاة على أصحابه وأين يقع هذا الاستدلال من تلك الاحاديث الصحيحة الثابتة عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم وهكذا لا اعتبار بما روى عن ابن عمر من قوله انها الظهر وكذلك ما روى عن عائشة وأبى سعيد الخدرى وغيرهم فلا حجة فى قول أحد مع قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأما ما رواه عبد الرزاق وابن جرير وغيرهما ان حفصة قالت لابى رافع مولاها وقد أمرته أن يكتب لها مصحفا اذا أتيت على هذه الآية حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى فتعال حتى أمليها عليك فلما بلغ ذلك أمرته ان يكتب حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر وأخرجه أيضا عنها مالك وعبد بن حميد وابن جرير والبيهقى فى سننه وزادوا وقالت أشهد انى سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واخرج مالك ومسلم وأهل السنن وغيرهم عن أبى يونس مولى عائشة وفيه قالت سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكذا روى

النسائي في سننه عن هناد عن يحيى بن أبي زائدة عن عبد الملك بن أبي سليمان عن عطاء عن ابن الزبير عن عائشة بالمرفوع منه ولم يذكر القصة وقد كانت السنة اقرار ما فعله عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما لانه هو الذي وده رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن خشي ان تنكره قلوب بعض الناس لحداثة عهدهم بالاسلام وقرب عهدهم من الكفر ولكن خفيت هذه السنة على عبد الملك بن مروان ولهذا لما تحقق ذلك عن عائشة انهار وتذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وددنا انا تركناه وما تولى كما قال مسلم حدثني محمد ابن حاتم حدثنا محمد بن بكر اخبرنا ابن جريج سمعت عبد الله بن عبيد (٣١٧) بن عمير والوليد بن عطاء يحدثان عن الحرث بن عبد الله بن أبي ربيعة قال عبد الله بن عبيد وفد الحرث بن عبد الله على عبد الملك بن مروان في خلافته فقال عبد الملك ما أظن أبا حبيب يعني ابن الزبير سمع من عائشة ما كان يزعم انه سمعه منها قال الحرث بلى أنا سمعته منها قال سمعتها تقول ماذا قال قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان قومك استقصروا من بنيان البيت ولولا حداثة عهدهم بالشرك أعدت ما تركوا منه فان بدا لقومك من بعدي أن يبنوه فهلمي لاريك ما تركوا منه فأراها قريبا من سبعة أذرع هذا حديث عبد الله بن عبيد بن عمير وزاد عليه الوليد بن عطاء قال النبي صلى الله عليه وسلم ولجعلت لها بابين موضوعين في الارض شرقيا وغربيا وهل تدرين لم كان قومك رفعوا بابها قالت قلت لا قال تعززا أن لا يدخلها الا من أرادوا فكان الرجل اذا هو أراد أن يدخلها يدعونه حتى يرتقي حتى اذا كاد أن يدخل دفعوه فسقط قال عبد الملك فقلت للحرث أنت سمعتها تقول هذا قال نعم قال فنكت ساعة بعصاه ثم قال وددت اني تركت وما تحمل قال مسلم وحدثناه محمد بن عمرو بن جبلة حدثنا أبو عاصم ح وحدثنا عبد بن حميد أخبرنا عبد الرزاق كلاهما عن ابن جريج بهذا الاسناد مثل حديث أبي بكر قال وحدثنا محمد بن حاتم حدثنا عبد الله بن بكر السهمي حدثنا حاتم بن أبي صغيرة عن أبي قزعة ان عبد الملك بن مروان بينما هو يطوف بالبيت اذ قال قاتل الله ابن الزبير حيث يكذب على ام المؤمنين يقول سمعتها تقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا عائشة لولا حدثان قومك بالكفر لنقضت الكعبة حتى أزيد فيها من الحجر فان قومك قصروا في البناء فقال الحرث بن عبد الله بن أبي ربيعة لا تقل هذا يا أمير المؤمنين فاني سمعت أم المؤمنين تحدث

عن أم سلمة انها قالت كما قالت حفصة وعائشة فغاية ما في هذه الروايات عن أمهات المؤمنين الثلاث انهن يروين هذا الحرف هكذا عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وليس فيه ما يدل على تعيين الصلاة الوسطى انها الظهر أو غيرها بل غاية ما يدل عليه عطف صلاة العصر على الصلاة الوسطى انها غيرها لان المعطوف غير المعطوف عليه وهذا الاستدلال لا يعارض ما ثبت عنه صلى الله عليه وآله وسلم ثبوتا لا يدفع انها العصر كما قدمنا بيانه فالحاصل أن هذه القراءة التي نقلها أمهات المؤمنين الثلاث باثبات قوله وصلاة العصر معارضة بما أخرجه ابن جرير عن عروة قال كان في مصحف عائشة حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وهي صلاة العصر وأخرج وكيع عن حميدة قالت قرأت في مصحف عائشة والصلاة الوسطى صلاة العصر وفي الباب روايات فهذه الروايات تعارض تلك الروايات باعتبار التلاوة ونقل القراءة ويبقى ما صح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من التعيين صافيا عن شوب كدر المعارضة على انه قد ورد ما يدل على نسخ تلك القراءة التي نقلتها حفصة وعائشة وأم سلمة فأخرج عبد بن حميد ومسلم وأبو داود في ناسخه وابن جرير والبيهقي عن البراء بن عازب قال نزلت حافظوا على الصلوات وصلاة العصر فقرأناها على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما شاء الله ثم نسخها الله فأنزل حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى فقيل له هي اذا صلاة العصر قال قد حدثتك كيف نزلت وكيف نسخها الله والله أعلم اذا تقرر لك هذا وعرفت ما سقناه تبين لك انه لم يرد ما يعارض ان الصلاة الوسطى صلاة العصر وأما حجج بقية الاقوال فليس فيها شيء مما ينبغي الاشتغال به لانه لم يثبت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في ذلك شيء وبعض القائلين عوّل على أمر لا يعوّل عليه فقال انها صلاة كذا لانها وسطى بالنسبة الى أن قبلها كذا من الصلوات وبعدها كذا من الصلوات وهذا الرأي المحض والتخمين البحت لا ينبغي ان تسند اليه الاحكام الشرعية على فرض عدم وجود ما يعارضه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فكيف مع وجود ما هو في أعلى درجات الصحة والقوة والثبوت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويا لله العجب من قوم لم يكتفوا بتقصيرهم في علم السنة واعراضهم عن خير العلوم وأنفعها حتى كلفوا أنفسهم التكلم على أحكام الله والتجرأ على تفسير كتاب الله بغير علم ولا هدى فجاؤا بما يضحك منه تارة

هذا قال لو كنت سمعته قبل ان أهدمه لتركته على مابنى ابن الزبير فهذا الحديث كالمقطوع به الى عائشة لانه قد روى عنها من طرق صحيحة متعددة عن الاسود بن يزيد والحرث بن عبد الله بن أبي ربيعة وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن محمد بن أبي بكر وعروة بن الزبير فدل هذا على صواب مافعله ابن الزبير فلو ترك لكان جيدا ولكن بعد مارجع الامر الى هذا الحال فقد كره بعض العلماء أن يغير عن حاله كما ذكر عن أمير المؤمنين هرون الرشيد أو أبيه المهدي انه سأل الامام مالكا عن هدم الكعبة وردها الى مافعله ابن الزبير فقال له مالك يا أمير المؤمنين لاتجعل كعبة الله (318) ملعبة للملوك لايشاء أحد أن يهدمها الا هدمها فترك ذلك الرشيد نقله عياض والنووي ولاتزال والله أعلم هكذا الى آخر الزمان الى أن يخربها ذو السويقتين من الحبشة كما ثبت ذلك في الصحيحين عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة أخرجاه وعن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال كأني به أسود أفحج يقلعها حجرا حجرا رواه البخاري وقال الامام أحمد بن حنبل في مسنده أخبرنا أحمد بن عبد الملك الحراني أخبرنا محمد بن سلمة عن ابن اسحق عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة ويسلبها حليتها ويجردها من كسوتها ولكأني أنظر اليه أصيلع أفيدع يضرب عليها بمسحاته ومعوله الفدع زيغ بين القدم وعظم الساق وهذا والله أعلم انما يكون بعد خروج يأجوج ومأجوج لما جاء في صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليحجن البيت وليعتمرن بعد خروج يأجوج ومأجوج • حال

وقوله تعالى حكاية لدعاء ابراهيم واسمعيل عليهما السلام ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا انك أنت التواب الرحيم قال ابن جرير يعنيان بذلك واجعلنا مستسلمين لامرك خاضعين لطاعتك لانشرك معك في الطاعة أحدا سواك ولا في العبادة غيرك وقال ابن أبي حاتم أخبرنا أبي أخبرنا اسمعيل عن رجاء بن حبان الحصيني القرشي أخبرنا معقل بن عبيد الله عن عبد الكريم واجعلنا مسلمين لك قال مخلصين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك قال مخلصة وقال أيضا أخبرنا علي بن

ويحكى منه أخرى قال الخازن وأصح الاقوال كلها أنها العصر للاحاديث الصحيحة الواردة فيها والله أعلم انتهى وقيل صلاة الجنازة وقيل صلاة الجمعة وكلها أقوال ضعيفة ليس عليها أثارة من علم (وقوموا لله قانتين) القنوت قيل هو الطاعة أي قوموا في صلاتكم طائعين قاله جابر بن زيد وعطاء وسعيد بن جبير والضحاك والشافعي وقيل هو الخشوع قاله ابن عمر ومجاهد وقيل هو الدعاء وبه قال ابن عباس وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قنت شهرا يدعو على رعل وذكوان وقال قوم ان القنوت طول القيام وقيل معناه ساكتين قاله السدي ويدل عليه حديث زيد بن أرقم في الصحيحين وغيرهما قال كان الرجل يكلم صاحبه في عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الحاجة في الصلاة حتى نزلت هذه الآية وقوموا لله قانتين فأمرنا بالسكوت وقيل أصل القنوت في اللغة الدوام على الشئ فكل معنى يناسب الدوام يصح اطلاق القنوت عليه وقد ذكر أهل العلم أن للقنوت ثلاثة عشر معنى وقد ذكرها الشوكاني في شرح المنتقى وذكرناها في شرح بلوغ المرام والمتعين ههنا حمل القنوت على السكوت للحديث المذكور وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال ان في الصلاة لشغلا وفي صحيح مسلم وغيره أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال ان هذه الصلاة لايصلح فيها شئ من كلام الناس انما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن وقد اختلفت الاحاديث في القنوت المصطلح عليه هل هو قبل الركوع أو بعده وهل هو في جميع الصلوات أو بعضها وهل هو مختص بالنوازل أم لا والراجح اختصاصه بالنوازل وقد أوضح الشوكاني ذلك في شرحه للمنتقى فليرجع اليه (فان خفتم فرجالا أو ركبانا) الخوف هو الفزع والرجال جمع رجل أو راجل من قولهم رجل الانسان يرجل رجلا اذا عدم المركوب ومشى على قدميه فهو رجل وراجل يقول أهل الحجاز مشى فلان الى بيت الله حافيا رجلا حكاه ابن جرير الطبري وغيره ويجمع على رجال ورجالة فالراجل بمعنى الماشي له ثلاثة جموع والركبان جمع راكب قيل لايطلق الا على راكب الابل ويقال لمن ركب الحمار والبغل حمار وبغال والاجود صاحب حمار وبغل وهذا بحسب اللغة والمراد بها هنا ماهو يعم الكل لما ذكر الله سبحانه الامر بالمحافظة على الصلوات ذكر حالة الخوف انهم يصنعون فيها ما يمكنهم ويدخل تحت طوقهم من المحافظة على الصلاة بفعلها

الحسين أخبرنا المقدمي أخبرنا سعيد بن عامر عن سلام بن ابى مطيع فى هذه الآية واجعلنا مسلمين قال كانا مسلمين ولكنهما سألاه الثبات وقال عكرمة ربنا واجعلنا مسلمين لك قال الله قد فعلت ومن ذريتنا أمة مسلمة لك قال الله قد فعلت وقال السدى ومن ذريتنا أمة مسلمة لك يعنيان العرب قال ابن جرير والصواب انه يعم العرب وغيرهم لان من ذرية ابراهيم بنى اسرائيل وقد قال الله تعالى ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون (قلت) وهذا الذى قاله ابن جرير لا ينفيه السدى فان تخصيصهم بذلك لا ينفى من عداهم والسياق انما هو فى العرب ولهذا قال بعده ربنا وابعث (٣١٩) فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم الآية والمراد بذلك محمد صلى الله عليه وسلم وقد بعث فيهم كما قال تعالى هو الذى بعث فى الاميين رسولا منهم ومع هذا لا ينفى رسالته الى الاحمر والاسود لقوله تعالى قل يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا وغير ذلك من الادلة القاطعة وهذا الدعاء من ابراهيم واسمعيل عليهما السلام كما أخبر الله تعالى عن عباده المتقين المؤمنين فى قوله والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين اماما وهذا القدر مرغوب فيه شرعا فان من تمام محبة عبادة الله تعالى ان يحب ان يكون من صلبه من يعبد الله وحده لا شريك له ولهذا لما قال الله تعالى لابراهيم عليه السلام انى جاعلك للناس اماما قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظالمين وهو قوله واجنبنى وبنى أن نعبد الاصنام وقد ثبت فى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له وأرنا مناسكنا قال ابن جريج عن عطاء وأرنا مناسكنا أخرجها لنا علمناها وقال مجاهد أرنا مناسكنا مذابحنا وروى عن عطاء أيضا وقتادة نحو ذلك وقال سعيد بن منصور أخبرنا عتاب بن بشير عن خصيف عن مجاهد قال قال ابراهيم ارنا مناسكنا فاتاه جبرائيل فاتى به البيت فقال ارفع القواعد فرفع القواعد وأتم البنيان ثم أخذ بيده فاخرجه فانطلق به الى الصفا قال هذا من شعائر الله ثم انطلق به الى المروة فقال وهذا من شعائر الله ثم انطلق به نحو منى فلما كان من العقبة اذا ابليس قائم عند الشجرة فقال كبر وارمه فكبر ورماه ثم انطلق ابليس فقام عند الجمرة الوسطى فلما

حال الترجل وحال الركوب وأبان لهم ان هذه العبادة لازمة فى كل الاحوال بحسب الامكان وقد اختلف أهل العلم فى حد الخوف المبيح لذلك والبحث مستوفى فى كتب الفروع قال ابن عباس يصلى الراكب على دابته والراجل على رجليه وعن جابر بن عبد الله قال اذا كانت المسايفة فليومئ برأسه حيث كان وجهه فذلك قوله فرجالا أو ركبانا والمعنى ان لم يمكنكم ان تصلوا قانتين موفين حقوق الصلاة من اتمام الركوع والسجود والخضوع والخشوع لخوف عدو أو غيره فصلوا مشاة على أرجلكم أو ركبانا على دوابكم مستقبلى القبلة وغير مستقبليها وهذا فى حال المقاتلة والمسايفة فى وقت الحرب وصلاة الخوف قسمان أحدهما أن يكون فى حال القتال وهو المراد بهذه الآية وقسم فى غير حال القتال وهو المذكور فى سورة النساء فى قوله واذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة وسيأتى الكلام عليه فى موضعه وفى ايراد هذه الشرطية بكلمة ان المنبئة عن عدم تحقق وقوع الخوف وقلته وفى ايراد الشرطية الثانية بكلمة اذا المنبئة عن تحقق وقوع الامن وكثرته مع الايجاز فى جواب الاولى والاطناب فى جواب الثانية من الجزالة ولطف الاعتبار ما فيه عبرة لأولى الابصار (فاذا أمنتم) أى اذا زال خوفكم بعد وجوده أو لم يكن أصلا فارجعوا الى ما أمرتم به من اتمام الصلاة مستقبلين القبلة قائمين بجميع شروطها وأركانها وهو قوله (فاذكروا الله) وقيل معنى الآية خرجتم من دار السفر الى دار الاقامة وهو خلاف معنى الآية (كما علمكم) أى ذكرا مثل ما علمكم من الشرائع أن يصلى الراكب على دابته والراجل على رجليه والكاف صفة لمصدر محذوف أى ذكرا كائنا كتعليمه اياكم أو مثل تعليمه اياكم (مالم تكونوا تعلمون) فيه اشارة الى انعام الله تعالى علينا بالعلم ولولا تعليمه ايانا لم نعلم شيأ ولم نصل الى معرفة شئ فلله الحمد على ذلك (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا) أى يقربون من الوفاة اذ المتوفى بالفعل لا يتصور منه وصية وهذا عود الى بقية الاحكام المفصلة فيما سلف وقد اختلف السلف ومن بعدهم من المفسرين فى هذه الآية هل هى محكمة أو منسوخة فذهب الجمهور الى أنها منسوخة بالاربعة الاشهر والعشر كما تقدم وان الوصية المذكورة فيها منسوخة بما فرض الله لهن من الميراث وحكى ابن جرير عن مجاهد ان هذه الآية محكمة لا نسخ فيها وان العدة أربعة أشهر وعشر ثم جعل الله لهن وصية منها اسكنى سبعة أشهر وعشرين ليلة فان شاءت

جاز به جبريل وابراهيم قال له كبر وارمه فكبر ورماه فذهب الخبيث ابليس وكان الخبيث أراد أن يدخل فى الحج شيأ فلم يستطع فأخذ بيد ابراهيم حتى أتى به المشعر الحرام فقال هذا المشعر الحرام فأخذ بيد ابراهيم حتى أتى به عرفات قال قد عرفت ما أريتك قالها ثلاث مرات قال نعم وروى عن أبى مجلز وقتادة نحو ذلك وقال أبو داود الطيالسى أخبرنا حماد بن سلمة عن أبى العاصم الغنوى عن أبى الطفيل عن ابن عباس قال ان ابراهيم لما أرى أوامر المناسك عرض له الشيطان عند المسعى فسابقه ابراهيم ثم انطلق به جبريل حتى أتى به منى فقال هذا (٣٢٠) مناخ الناس فلما انتهى الى جمرة العقبة تعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ثم أتى به الى الجمرة الوسطى فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ثم أتى به الى الجمرة القصوى فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات حتى ذهب فاتى به جمعا فقال هذا المشعر ثم أتى به عرفة فقال هذه عرفة فقال له جبريل أعرفت (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك أنت العزيز الحكيم) يقول تعالى اخبارا عن تمام دعوة ابراهيم لاهل الحرم ان يبعث الله فيهم رسولا منهم أى من ذرية ابراهيم وقد وافقت هذه الدعوة المستجابة قدر الله السابق فى تعيين محمد صلوات الله وسلامه عليه رسولا فى الاميين اليهم والى سائر الاعجميين من الانس والجن كما قال الامام احمد أخبرنا عبد الرحمن ابن مهدى عن معاوية بن صالح عن سعيد بن سويد الكلبى عن عبد الاعلى بن هلال السلمى عن العرباض بن سارية قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انى عند الله لخاتم النبيين وان آدم لمنجدل فى طينته وسأنبئكم باول ذلك دعوة أبى ابراهيم وبشارة عيسى بى ورؤيا أمى التى رأت وكذلك أمهات • الاستفهام

النبيين يرين وكذلك رواه ابن وهب والليث وكاتبه عبد الله بن صالح عن معاوية بن صالح وتابعه أبو بكر بن أبى مريم عن سعيد بن سويد به وقال الامام أحمد أيضا حدثنا أبو النضر أخبرنا الفرج أخبرنا لقمان بن عامر قال سمعت أبا امامة قال قلت يا رسول الله ما كان اول بدء أمرك قال دعوة أبى ابراهيم وبشرى عيسى بى ورأت أمى انه يخرج منها نور أضاءت له قصور الشام والمراد ان أول من نوه بذكره وشهره فى الناس ابراهيم عليه السلام ولم يزل ذكره فى الناس مذكورا مشهورا سائرا حتى أفصح باسمه خاتم أنبياء

المرأة سكنت فى وصيته اوان شاءت خرجت وقد حكى ابن عطية والقاضى عياض أن الاجماع منعقد على أن الحول منسوخ وأن عدتها أربعة أشهر وعشر (وصية لازواجهم) قرئ بالنصب على تقدير فعل محذوف أى فليوصوا وصية أو أوصى الله وصية أو كتب الله عليهم وصية وقرئ بالرفع ومعناه وصية الذين يتوفون وصية أو حكم الذين يتوفون وصية والمعنى فيجب عليهم أن يوصوا لازواجهم بثلاثة أشياء النفقة والكسوة والسكنى وهذه الثلاثة تستمر سنة وحينئذ يجب على الزوجة ملازمة المسكن وترك التزين والاحداد هذه السنة (متاعا الى) تمام (الحول) أى متعوهن متاعا أو جعل الله لهن ذلك متاعا والمتاع هنا نفقة السنة والمعنى انه يجب على الذين يتوفون أن يوصوا قبل نزول الموت بهم لازواجهم أن يمتعن بعدهم حولا كاملا بالنفقة والسكنى من تركتهم (غير اخراج) أى لا يخرجن من مساكنهن (فان خرجن) باختيارهن قبل الحول (فلا جناح) ولا حرج (عليكم) أى على الولى والحاكم (فيما فعلن فى انفسهن) من التعرض للخطاب والتزين لهم وترك الاحداد (من معروف) أى بما هو معروف فى الشرع غير منكر وفيه دليل على أن النساء كن مخيرات فى سكنى الحول وليس ذلك بحتم عليهن وقيل المعنى لا جناح عليكم فى قطع النفقة عنهن وهو ضعيف لان متعلق الجناح هو مذكور فى الآية بقوله فيما فعلن (والله عزيز) أى غالب قوى فى انتقامه ممن خالف أمره ونهيه وتعدى حدوده (حكيم) فيما شرعه من الشرائع وبين من الاحكام (وللمطلقات متاع بالمعروف) قد اختلف المفسرون فى هذه الآية فقيل هى المتعة وانها واجبة لكل مطلقة وقيل ان هذه الآية خاصة بالثيبات اللواتى قد جومعن لانه قد تقدم قبل هذه الآية ذكر المتعة واللواتى لم يدخل بهن الازواج وقد قدمنا الكلام على هذه المتعة والخلاف فى كونها خاصة بمن طلقت قبل البناء والفرض أو عامة للمطلقات وقيل ان هذه الآية شاملة للمتعة الواجبة وهى متعة المطلقة قبل البناء والفرض وغير الواجبة وهى متعة سائر المطلقات فانها مستحبة فقط وقيل المراد بالمتعة هنا النفقة (حقا على المتقين) يعنى الذين يتقون الشرك (كذلك يبين الله لكم آياته) أى ما يلزمكم ويلزم أزواجكم والذى يجب لبعضكم على بعض (لعلكم تعقلون) أى لكى تعقلوا ما بينت لكم من الفرائض والاحكام وما فيه صلاح دينكم ودنياكم (ألم تر الى الذين خرجوا من ديارهم)

بنى اسرائيل نسبا وهو عيسى بن مريم عليه السلام حيث قام فى بنى اسرائيل خطيبا وقال انى رسول الله اليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد ولهذا قال فى هذا الحديث دعوة أبى ابراهيم وبشرى عيسى بن مريم وقوله ورأت أمى انه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام قيل كان مناما رأته حين حملت به وقصته على قومها فشاع فيهم واشتهر بينهم وكان ذلك توطئة وتخصيص الشام بظهور نوره اشارة الى استقرار دينه ونبوته ببلاد الشام ولهذا يكون الشام فى آخر الزمان معقلا للاسلام وأهله وبها ينزل عيسى بن مريم اذا نزل بدمشق بالمنارة الشرقية (٢٢١) البيضاء منها ولهذا جاء فى الصحيحين لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم كذلك وفى صحيح البخارى وهم بالشأم قال أبو جعفر الرازى عن الربيع ابن أنس عن أبى العالية فى قوله ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يعنى أمة محمد صلى الله عليه وسلم فقيل له قد استجيب لك وهو كائن فى آخر الزمان وكذا قال السدى وقتادة * وقوله تعالى ويعلمهم الكتاب يعنى القرآن والحكمة يعنى السنة قاله الحسن وقتادة ومقاتل بن حيان وأبو مالك وغيرهم وقيل الفهم فى الدين ولا منافاة * ويزكيهم قال على ابن أبى طلحة عن ابن عباس يعنى طاعة الله والاخلاص وقال محمد ابن اسحق ويعلمهم الكتاب والحكمة قال يعلمهم الخير فيفعلوه والشر فيتقوه ويخبرهم برضا الله عنهم اذا أطاعوه ليستكثروا من طاعته ويجتنبوا ما يسخطه من معصيته وقوله انك أنت العزيز الحكيم أى العزيز الذى لا يعجزه شئ وهو قادر على كل شئ الحكيم فى أفعاله وأقواله فيضع الاشياء فى

محالها لعلمه وحكمته وعدله (ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه فى الدنيا وانه فى الآخرة لمن الصالحين اذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب يا بنى ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وأنتم مسلمون) يقول تبارك وتعالى ردا على الكفار فيما ابتدعوه وأحدثوه من الشرك بالله المخالف لملة ابراهيم الخليل امام الحنفاء فانه جرد توحيد ربه تبارك وتعالى فلم يدع معه غيره ولا أشرك به طرفة عين وتبرأ من كل معبود سواه وخالف فى ذلك سائر قومه حتى تبرأ من أبيه فقال يا قوم انى برئ مما تشركون انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والارض حنيفا وما أنا

الاستفهام هنا للتقرير والرؤية المذكورة هى رؤية القلب لا رؤية البصر والمعنى عند سيبويه تنبه الى أمر الذين خرجوا ولا تحتاج هذه الرؤية الى مفعولين كذا قيل وحاصله أن الرؤية هنا التى بمعنى الادراك مضمنة معنى التنبه ويجوز أن تكون مضمنة معنى الانتهاء أى ألم ينته علمك اليهم أو معنى الوصول أى ألم يصل علمك اليهم ويجوز أن تكون بمعنى الرؤية البصرية أى ألم تنظر الى الذين خرجوا وهم قوم من بنى اسرائيل جعل الله سبحانه قصة هؤلاء لما كانت بمكان من الشيوع والشهرة يحمل كل أحد على الاقرار بها بمنزلة المعلومة لكل فرد أو المبصرة لكل مبصر لان أهل الكتاب قد أخبروا بها ودونوها وأشهروا أمرها والخطاب هنا لكل من يصلح له والكلام جار مجرى المثل فى مقام التعجب ادعاء لظهوره وجلائه بحيث يستوى فى ادراكه الشاهد والغائب قاله السعد التفتازانى وقيل الخطاب للنبى صلى الله عليه وآله وسلم خاصة والعموم أولى (وهم ألوف) قيل ثلاثة آلاف أو أربعة وقيل عشرة آلاف وقيل بضع وثلاثون ألفا وقيل أربعون ألفا وقيل سبعون ألفا وأصح الاقوال قول من قال انهم كانوا زيادة على عشرة آلاف لان الالوف من جموع الكثرة وحقيقته ما فوق العشرة قاله القرطبى فدل على أنها ألوف كثيرة وجمع القليل آلاف وقيل جمع ألف أو آلف كقاعد وقعود والمعنى مؤتلفون والاول أولى والواو للحال (حذر الموت) أى مخافة الطاعون وكان قد نزل بهم وقيل انهم أمروا بالجهاد ففروا منه حذر الموت (فقال لهم الله موتوا) أمر تكوين وتحويل وهو عبارة عن تعلق ارادته بموتهم دفعة أو تمثيل لاماتته سبحانه اياهم ميتة نفس واحدة كأنهم أمروا فأطاعوا فماتوا (ثم أحياهم) يعنى بعد موتهم بدعاء نبيهم حزقيل بعد ثمانية أيام أو أكثر فعاشوا دهرا عليهم أثر الموت لا يلبسون ثوبا الا عاد كالكفن واستمر فى أسباطهم (ان الله لذو فضل) التنكير للتعظيم أى لذو فضل عظيم (على الناس) جميعا فيجب عليهم شكره أما هؤلاء الذين خرجوا فلكونه أحياهم ليعتبروا وأما المخاطبون فلكونه قد أرشدهم الى الاعتبار والاستبصار بقصة هؤلاء قال ابن عباس كانوا أربعة آلاف خرجوا فرارا من الطاعون وقالوا نأتى أرضا ليس بها موت حتى اذا كانوا بموضع كذا وكذا قال لهم الله موتوا فماتوا فمر عليهم نبى من الانبياء فدعا ربه أن يحييهم حتى يعبدوه فأحياهم وان القرية التى خرجوا منها داوردان قيل هو حزقيل ويقال له ابن العجوز ويقال له

من المشركين وقال تعالى واذ قال ابراهيم لابيه وقومه انني براء مما تعبدون الا الذى فطرني فانه سيهدين وقال تعالى وما كان استغفار ابراهيم لابيه الا عن موعدة وعدها اياه فلما تبين له انه عدو لله تبرأ منه ان ابراهيم لأواه حليم وقال تعالى ان ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه الى صراط مستقيم وآتيناه في الدنيا حسنة وانه في الآخرة لمن الصالحين ولهذا وأمثاله قال تعالى ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه أى ظلم نفسه بسفهه وسوء تدبيره بتركه الحق الى الضلال حيث خالف (٣٢٣) طريق من اصطفي في الدنيا للهداية والرشاد من حداثة سنه الى ان اتخذه الله خليلا وهو في الآخرة من الصالحين السعداء فمن ترك طريقه هذا ومسالكه وملته واتبع طرق الضلالة والغي فأى سفه أعظم من هذا أم أى ظلم أكبر من هذا كما قال تعالى ان الشرك لظلم عظيم قال أبو العالية وقتادة نزلت هذه الآية في اليهود أحدثوا طريقة ليست من عند الله وخالفوا ملة ابراهيم فيما أحدثوه ويشهد لصحة هذا القول قول الله تعالى ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين ان أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين * وقوله تعالى اذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين أى أمره الله تعالى بالاخلاص له والاستسلام والانقياد فاجاب الى ذلك شرعا وقدرا * وقوله ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب اى وصى بهذه الملة وهي الاسلام لله أو يعود الضمير على الكلمة وهي قوله أسلمت لرب العالمين لحرصهم عليها ومحبتهم لها حافظوا عليها الى حين الوفاة ووصوا أبناءهم بها من بعدهم كقوله تعالى وجعلها كلمة باقية في عقبه وقد قرأ بعض السلف ويعقوب بالنصب عطفا على بنيه كأن ابراهيم وصى بنيه وابن ابنه يعقوب بن اسحق وكان حاضرا ذلك وقد ادعى القشيرى فيما حكاه القرطبي عنه ان يعقوب انما ولد بعد وفاة ابراهيم ويحتاج مثل هذا الى دليل صحيح والظاهر والله أعلم ان اسحق ولد له يعقوب في حياة الخليل وسارة لان البشارة وقعت بهما في قوله فبشرناها باسحق ومن وراء اسحق يعقوب وقد قرئ بنصب يعقوب ههنا على نزع الخافض فلو لم يوجد يعقوب في حياتهما لما كان لذكره من بين ذرية اسحق كبير فائدة وأيضا فقد قال الله تعالى في سورة العنكبوت ووهبنا له اسحق ويعقوب

ذو الكفل وهو ثالث خلفاء في بني اسرائيل لان موسى بعده يوشع ثم كالب ثم حزقيل وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم هذه القصة مطولة عن أبي مالك وفيها انهم بضعة وثلاثون ألفا وقال سعيد بن عبد العزيز ان ديارهم هي أذرعات وعن أبي صالح قال كانوا تسعة آلاف وأخرج جماعة من محدثي المفسرين هذه القصة على انحاء ولا يأتي الاستكثار من طرقها بفائدة وقد ورد في الصحيحين وغيرهما عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم النهي عن الفرار من الطاعون وعن دخول الارض التي هو بها من حديث عبد الرحمن بن عوف (ولكن أكثر الناس لا يشكرون) يعني ان أكثر من أنعم الله عليه لا يشكر (وقاتلوا في سبيل الله) هو معطوف على مقدر كأنه قيل اشكروا وافضلوا بالاعتبار بما قص عليكم وقاتلوا هذا اذا كان الخطاب بقوله وقاتلوا راجعا الى المخاطبين بقوله ألم تر الى الذين خرجوا كما قاله جمهور المفسرين وعلى هذا يكون ايراد هذه القصة لتشجيع المسلمين على الجهاد وقيل ان الخطاب للذين أحيوا من بني اسرائيل فيكون عطفا على قوله موتوا وفي الكلام محذوف تقديره وقال لهم قاتلوا وقال ابن جرير لا وجه لقول من قال ان الامر بالقتال للذين احيوا وقيل العطف على حافظوا على الصلوات وفيه بعد والاول أولى (واعلموا أن الله سميع) لما يقوله المتعلل عن القتال (عليم) بما يضمره وفيه وعد لمن بادر بالجهاد ووعيد لمن تخلف عنه (من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة) لما أمر سبحانه بالقتال والجهاد أمر بالانفاق في ذلك واقراض الله مثل لتقديم العمل الصالح الذي يستحق به فاعله الثواب وأصل القرض اسم لكل ما يلتمس عليه الجزاء يقال أقرض فلان فلانا أى أعطاه ما يتجازاه وقال الزجاج القرض في اللغة البلاء الحسن والبلاء السيئ وقال الكسائي القرض ما أسلفت من عمل صالح أو سيئ وأصل الكلمة القطع ومنه المقراض واستدعاء القرض في الآية انما هو تأنيس وتقريب للناس بما يفهمونه والله هو الغني الحميد شبه عطاء المؤمن ما يرجو ثوابه في الآخرة بالقرض كما شبه اعطاء النفوس والاموال في أخذ الجنة بالبيع والشراء وقيل كنى عن الفقير بنفسه العلية المنزهة عن الحاجات ترغيبا في الصدقة كما كنى عن المريض والجائع والعطشان بنفسه المقدسة عن النقائص والآلام ففي الحديث الصحيح اخبارا عن الله عز وجل يا ابن آدم مرضت فلم تعدني واستطعمتك فلم تطعمني واستسقيتك فلم تسقني

وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب الآية وقال في الآية الأخرى ووهبنا له اسحق ويعقوب نافلة وهذا يقتضي انه وجد في حياته وأيضا فانه يأتي بيت المقدس كما نطقت بذلك الكتب المتقدمة وثبت في الصحيحين من حديث أبي ذر قلت يا رسول الله أي مسجد وضع أول قال المسجد الحرام قلت ثم أي قال بيت المقدس قلت كم بينهما قال أربعون سنة الحديث فزعم ابن حبان ان بين سليمان الذي اعتقد انه باني بيت المقدس وانما كان جدده بعد خرابه وزخرفه وبين ابراهيم أربعين سنة وهذا مما أنكر على ابن حبان فان المدة بينهما تزيد على ألوف سنين والله أعلم وأيضا فان وصية يعقوب لبنيه (٣٢٣) سيأتي ذكرها قريبا وهذا يدل على أنه ههنا من جملة الموصين * وقوله يا بني ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وأنتم مسلمون أي أحسنوا في حال الحياة والزموا هذا ليرزقكم الله الوفاة عليه فان المرء يموت غالبا على ما كان عليه ويبعث على ما مات عليه وقد أجرى الله الكريم عادته بان من قصد الخير وفق له ويسر عليه ومن نوى صالحا ثبت عليه وهذا لا يعارض ما جاء في الحديث الصحيح ان الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها الا باع أو ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وان الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها الا باع أو ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها لانه قد جاء في بعض روايات هذا الحديث ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس ويعمل أهل النار فيما يبدو للناس وقد قال الله تعالى فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى (أم كنتم شهداء اذ حضر يعقوب الموت اذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد الهك واله آبائك ابراهيم واسمعيل واسحق الها واحدا ونحن له مسلمون تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسئلون عما كانوا يعملون) يقول تعالى محتجا على المشركين من العرب أبناء اسمعيل وعلى الكفار من بني اسرائيل وهو يعقوب بن اسحق بن ابراهيم عليهم السلام بأن يعقوب لما حضرته الوفاة وصى بنيه بعبادة الله وحده لا شريك له فقال لهم ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد الهك واله آبائك ابراهيم واسمعيل واسحق وهذا من باب التغليب لان اسمعيل عمه قال النحاس والعرب تسمي العم أبا نقله القرطبي

تسقني قال يارب كيف أسقيك وأنت رب العالمين قال استسقاك عبدي فلان فلم تسقه أما انك لو سقيته لوجدت ذلك عندي وكذا فيما قبله أخرجه مسلم والبخاري وهذا كله خرج مخرج التشريف لمن كنى عنه ترغيبا لمن خوطب به وقوله حسنا أي طيبة به نفسه من دون من ولا أذى وقيل محتسبا وقيل هو الانفاق من المال الحلال في وجوه البر وقيل هو الخالص لله تعالى ولا يكون فيه رياء ولا سمعة وقد اختلف في تقدير هذا التضعيف على أقوال وقيل لا يعلمه الا الله وحده قاله السدي وهذا هو الاولى وانما أبهم الله ذلك لان ذكر المبهم في باب الترغيب أقوى من ذكر المحدود وقيل الى سبعمائة ضعف وقيل غير ذلك وأخرج الطبراني والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود قال لما نزلت هذه الآية قال أبو الدحداح الانصاري يا رسول الله ان الله ليريد منا القرض قال نعم قال أرني يدك يا رسول الله فناوله يده قال فاني قد أقرضت ربي حائطي وله فيه ستمائة نخلة وقد أخرج هذه القصة جماعة من المحدثين وأخرج أحمد وابن المنذر من حديث أبي هريرة وفيه قال والذي نفسي بيده لقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول ان الله يضاعف الحسنة ألفي ألف حسنة وأخرج ابن حبان في صحيحه والبيهقي وغيرهما عن ابن عمر قال لما نزلت مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل الى آخرها قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رب زد أمتي فنزلت من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة قال رب زد أمتي فنزلت انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب وأخرج ابن المنذر عن سفيان قال لما نزلت من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رب زد أمتي فنزلت من ذا الذي يقرض الله قال رب زد أمتي فنزلت مثل الذين ينفقون أموالهم قال رب زد أمتي فنزلت انما يوفى الصابرون وفي الباب أحاديث هذه أحسنها (والله يقبض ويبسط) حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم والمصالح فلا تبخلوا عليه بما وسع عليكم كيلا تبدل أحوالكم ولعل تأخير البسط عن القبض في الذكر للايماء الى انه يعقبه في الوجود تسلية للفقراء هذا عام في كل شئ فهو القابض الباسط والقبض التقتير والبسط التوسيع وفيه وعيد بان من بخل من البسط يوشك ان يبدل بالقبض ولهذا قال (واليه ترجعون) أي هو يجازيكم بما قدمتم عند الرجوع اليه فان أنفقتم مما وسع به عليكم أحسن اليكم وان بخلتم عاقبكم وعن

وقد استدل بهذه الآية الكريمة من جعل الجد أبا وحجب به الاخوة كما هو قول الصديق حكاه البخاري عنه من طريق ابن عباس وابن الزبير ثم قال البخاري ولم يختلف عليه واليه ذهبت عائشة أم المؤمنين وبه يقول الحسن البصري وطاوس وعطاء وهو مذهب أبي حنيفة وغير واحد من السلف والخلف وقال مالك والشافعي وأحمد في المشهور عنه انه يقاسم الاخوة وحكى ذلك عن عمر وعثمان وعلي وابن مسعود وزيد بن ثابت وجماعة من السلف والخلف واختاره صاحبا أبي حنيفة القاضي أبو يوسف ومحمد بن الحسن ولتقريرها موضع آخر * وقوله الها واحدا (٢٢٤) أي نوحده بالالوهية ولا نشرك به شيأ غيره ونحن له مسلمون أي مطيعون خاضعون كما قال تعالى وله أسلم من في السموات والارض طوعا وكرها واليه ترجعون والاسلام هو ملة الانبياء قاطبة وان تنوعت شرائعهم واختلفت مناهجهم كما قال تعالى وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه انه لا اله الا أنا فاعبدون والآيات في هذا كثيرة والاحاديث فمنها قوله صلى الله عليه وسلم نحن معشر الانبياء أولاد علات ديننا واحد وقوله تعالى تلك أمة قد خلت أي مضت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم أي ان السلف الماضين من آبائكم من الانبياء والصالحين لا ينفعكم انتسابكم اليهم اذا لم تفعلوا خيرا يعود نفعه عليكم فان لهم أعمالهم التي عملوها ولكم أعمالكم ولا تسئلون عما كانوا يعملون وقال أبو العالية والربيع وقتادة تلك أمة قد خلت يعني ابراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب والاسباط ولهذا جاء في الاثر من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه (وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا قل بل ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين) قال محمد بن اسحق حدثني محمد بن أبي محمد حدثني سعيد بن جبير أو عكرمة عن ابن عباس • اخرجنا قال قال عبد الله بن صوريا الاعور لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما الهدى الا ما نحن عليه فاتبعنا يا محمد تهتد وقالت النصارى مثل ذلك فأنزل الله عز وجل وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا وقوله قل بل ملة ابراهيم حنيفا أي لا نريد ما دعوتمونا اليه من اليهودية والنصرانية بل نتبع ملة ابراهيم حنيفا أي مستقيما قاله محمد بن كعب القرظي وعيسى بن جارية وقال خصيف عن مجاهد مخلصا وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس حاجا وكذا روي عن الحسن والضحاك وعطية والسدي وقال أبو العالية

قتادة يقبض الصدقة ويبسط قال يخلف واليه ترجعون قال من التراب والى التراب تعودون وعن ابن زيد قال علم الله فيمن يقاتل في سبيل الله من لا يجد قوة وفيمن لا يقاتل في سبيل الله فندب هؤلاء الى القرض فقال من ذا الذي يقرض الله قال يبسط عليك وأنت ثقيل عن الخروج لا تريده ويقبض عن هذا وهو يطيب نفسا بالخروج ويخلف له فتقوه مما بيدك يكن لك الحظ وقيل المعنى ان الله يقبض بعض القلوب حتى لا تقدر على الانفاق في الطاعة وعمل الخير ويبسط بعض القلوب حتى تقدر على فعل الطاعات والانفاق في البر وعن ابن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول ان قلوب بني آدم بين اصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث شاء ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اللهم مصرف القلوب ثبت قلوبنا على طاعتك أخرجه مسلم وهذا الحديث من أحاديث الصفات التي يجب الايمان بها وامرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تحريف ولا تعطيل ولا تأويل وبهذا قال سلف هذه الامة وأئمتها (ألم تر الى الملا من بني اسرائيل) الكلام فيه كالكلام في قوله ألم تر الى الذين خرجوا من ديارهم وقد قدمناه والملأ الاشراف من الناس كأنهم ملؤا شرفا وقال الزجاج سموا بذلك لانهم مليؤن بما يحتاج اليه منهم وهو اسم جمع كالقوم والرهط لا واحد له من لفظه قال الفراء الملأ الرجال في كل القرآن ويجمع على املاء مثل سبب وأسباب ذكر الله سبحانه في التحريض على القتال قصة أخرى جرت في بني اسرائيل بعد القصة المتقدمة والمعنى كائنين (من بعد) وفاة (موسى اذ قالوا لنبي لهم) قيل هو شمويل بن بال ابن علقمة ويعرف بابن العجوز ويقال فيه شمعون وهو من ولد يعقوب وقيل من نسل هرون وقيل هو يوشع بن نون وهذا ضعيف جدا لان يوشع هو فتى موسى ولم يوجد داود الا بعد ذلك بدهر طويل وقيل هو بالعربية اسمعيل قاله أبو السعود (ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله) المراد بالملك الامير أي نرجع اليه ونعمل على رأيه (قال هل عسيتم ان كتب عليكم القتال أن لا تقاتلوا) عسى من أفعال المقاربة أي فهل قاربتم أن لا تقاتلوا وادخال حرف الاستفهام على فعل المقاربة لتقرير ما هو متوقع عنده والاشعار بانه كائن وفصل بين عسى وخبرها بالشرط للدلالة على الاعتناء به (قالوا وما لنا أن لا نقاتل في سبيل الله) قيل المعنى وأي شيء لنا أن لا نقاتل وقيل غير ذلك قال النحاس هذا أجودها (وقد

الحنيف الذى يستقبل البيت بصلاته و يرى ان حجه عليه ان استطاع اليه سبيلا وقال مجاهد والربيع بن انس حنيفا أى متبعا وقال أبو قلابة الحنيف الذى يؤمن بالرسل كلهم من أولهم الى آخرهم وقال قتادة الحنيفية شهادة أن لا اله الا الله يدخل فيها تحريم الامهات والبنات والخالات والعمات وما حرم الله عز وجل والختان (قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل الى ابراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب والاسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون) أرشد الله تعالى عباده المؤمنين الى الايمان بما أنزل اليهم بواسطة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم مفصلا وما أنزل على الانبياء المتقدمين مجملا ونص على أعيان من الرسل وأجمل ذكر بقية الانبياء وان لا يفرقوا بين أحد منهم بل يؤمنوا بهم كلهم ولا يكونوا كمن قال الله فيهم ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا اولئك هم الكافرون حقا الآية وقال البخارى حدثنا محمد ابن بشار أخبرنا عثمان بن عمرة أخبرنا على بن المبارك عن يحيى ابن أبي كثير عن أبى سلمة بن عبد الرحمن عن أبى هريرة قال كان أهل الكتاب يقرؤن التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لاهل الاسلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وما أنزل الله وقد روى مسلم وأبو داود والنسائى من حديث عثمان بن حكيم عن سعيد بن يسار عن ابن عباس قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر ما يصلى الركعتين اللتين قبل الفجر بآمنا بالله وما أنزل الينا الآية والاخرى بآمنا بالله واشهد بأنا مسلمون وقال أبو العالية والربيع وقتادة الاسباط بنو يعقوب اثنا عشر رجلا ولد كل رجل منهم أمة من الناس فسموا الاسباط وقال الخليل بن أحمد وغيره الاسباط فى بنى اسرائيل كالقبائل فى بنى اسمعيل وقال الزمخشرى فى الكشاف الاسباط حفدة يعقوب ذرارى أبنائه الاثنى عشر وقد نقله الرازى عنه وقرره ولم يعارضه وقال البخارى الاسباط قبائل بنى اسرائيل وهذا يقتضى ان المراد بالاسباط ههنا شعوب بنى اسرائيل وما أنزل الله من الوحى على الانبياء الموجودين منهم كما قال موسى لهم اذكروا نعمة الله عليكم اذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا الآية وقال تعالى وقطعناهم اثنتى عشرة أسباطا قال

اخرجنا من ديارنا وأبنائنا) افراد الاولاد بالذكر لانهم الذين وقع عليهم السبى أو لانهم بمكان فوق مكان سائر القرابة وهذا كلام عام والمراد منه خاص لان القائلين لنبيهم ماذكر كانوا فى ديارهم وانما أخرج بعض آخر غيرهم ثم أخبر سبحانه انهم تولوا لما فرض عليهم القتال لاضطراب نياتهم وفتور عزائمهم فقال (فلما كتب عليهم القتال تولوا) بعد مشاهدة كثرة العدو وشوكته (الا قليلا منهم) واختلف فى عدد القليل الذين استثناهم الله سبحانه وهم الذين اكتفوا بالغرفة (والله عليم بالظالمين) أى عالم بمن ظلم نفسه حين خالف أمر ربه ولم يف بما قال وهم بقية السبعين ألفا وهم من عدا القليل المذكور (وقال لهم نبيهم) شروع فى تفصيل ما جرى بينهم وبين نبيهم من الاقوال والافعال (ان الله قد بعث لكم طالوت ملكا) وهو اسم أعجمى وكان سقاء وقيل راعيا وقيل دباغا وقيل مكاريا واسمه بالعبرانية شاول بن قيس وجعله فعلوتا من الطول تعسف يدفعه منع صرفه (قالوا أنى يكون له الملك علينا) أى كيف يكون ذلك وكيف يستحقه ولم يكن من بيت الملك (ونحن أحق بالملك منه) انما قالوا ذلك لانه كان فى بنى اسرائيل سبطان سبط نبوة وسبط مملكة فسبط النبوة سبط لاوى بن يعقوب ومنه كان موسى وهرون عليهما السلام وسبط المملكة سبط يهوذا بن يعقوب ومنه كان داود وسليمان عليهما السلام ولم يكن طالوت من أحدهما وانما كان من سبط بنيامين بن يعقوب عليه السلام فلهذا أنكروا كونه ملكا لهم وزعموا انهم أحق بالملك منه ثم أكدوا ذلك بقولهم (ولم يؤت سعة من المال) أى ولا هو ممن أوتى سعة من المال حتى تتبعه لشرفه أو لماله بل هو فقير والملك يحتاج الى المال (قال) يعنى شمويل النبى (ان الله اصطفاه عليكم) أى اختاره وخصه بالملك واختيار الله هو الحجة القاطعة ثم بين لهم مع ذلك وجه الاصطفاء وقال (وزاده بسطة) أى فضيلة وسعة (فى العلم) الذى هو ملاك الانسان ورأس الفضائل وأعظم وجوه الترجيح وكان من أعلم بنى اسرائيل وقيل هو العلم بالحرب وبالملك وقيل به وبالديانات (والجسم) الذى يظهر به الاثر فى الحروب ونحوها فكان قويا فى دينه وبدنه وذلك هو المعتبر لا شرف النسب فان فضائل النفس مقدمة عليه وفى هذه الآية دليل على بطلان قول من زعم من الشيعة ان الامامة موروثة وكان طالوت أطول من الناس برأسه ومنكبيه وقيل بالجمال وكان من أجملهم وقيل المراد به القوة لان العلم بالحروب والقوة على الاعداء مما فيه حفظ المملكة (والله يؤتى

القرطبي وسموا الاسباط من السبط وهو التتابع فهم جماعة وقيل أصله من السبط بالتحريك وهو الشجر أى فى الكثرة بمنزلة الشجر الواحدة سبطة قال الزجاج ويبين لك هذا ما حدثنا محمد بن جعفر الانبارى حدثنا أبو نجيد الدقاق حدثنا الاسود بن عامر حدثنا اسرائيل عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس قال كل الانبياء من بنى اسرائيل الا عشرة نوح وهود وصالح وشعيب وابراهيم واسحق ويعقوب واسمعيل ومحمد عليهم الصلاة والسلام قال القرطبي والسبط الجماعة والقبيلة الراجعون الى أصل واحد وقال قتادة أمر الله المؤمنين أن يؤمنوا به (٣٢٦) ويصدقوا بكتبه كلها وبرسله وقال سليمان بن حبيب انما أمرنا أن نؤمن بالتوراة والانجيل ولا نعمل بما فيهما وقال ابن أبى حاتم أخبرنا محمد بن محمد بن مصعب الصورى أخبرنا مؤمل أخبرنا عبيد الله بن أبى حميد عن أبى المليح عن معقل بن يسار قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم آمنوا بالتوراة والزبور والانجيل وليسعكم القرآن (فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وان تولوا فانما هم فى شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون) يقول تعالى فان آمنوا يعنى الكفار من أهل الكتاب وغيرهم بمثل ما آمنتم به يا أيها المؤمنون من الايمان بجميع كتب الله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم فقد اهتدوا أى فقد أصابوا الحق وأرشدوا اليه وان تولوا أى عن الحق الى الباطل بعد قيام الحجة عليهم فانما هم فى شقاق فسيكفيكهم الله أى فسينصرك عليهم ويظفرك بهم وهو السميع العليم قال ابن أبى حاتم قرأ على يونس بن عبد الاعلى أخبرنا ابن وهب أخبرنا زياد بن يونس نافع بن أبى نعيم قال أرسل الى بعض الخلفاء مصحف عثمان بن عفان ليصلحه قال زياد وضعته فقلت له ان الناس ليقولون ان مصحفه كان فى حجره حين قتل فوقع الدم على فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم فقال نافع بصرت عينى بالدم على هذه الآية وقد قدم وقوله صبغة الله قال الضحاك عن ابن عباس دين الله وكذا روى عن مجاهد وأبى العالية وعكرمة وابراهيم والحسن وقتادة والضحاك وعبد الله بن كثير وعطية العوفى والربيع بن أنس والسدى ونحو ذلك وانتصاب صبغة الله اما على الاغراء كقوله فطرة الله أى الزموا ذلك عليكموه وقال بعضهم بدل عن قوله ملة ابراهيم وقال سيبويه

ملكه من يشاء) فالملك ملكه والعبيد عبيده فما لكم والاعتراض على شئ ليس هو لكم ولا أمره اليكم وقد ذهب بعض المفسرين الى ان قوله هذا من قول نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وقيل هو من قول نبيهم وهو الظاهر وقيل من كلام الله لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم (والله واسع) أى واسع الفضل يوسع على من يشاء من عباده (عليم) بمن يستحق الملك ويصلح له (وقال لهم نبيهم ان آية ملكه أن يأتيكم التابوت) التابوت فعلوت من التوب وهو الرجوع لانهم يرجعون اليه أى علامة ملكه اتيان التابوت الذى أخذ منكم أى رجوعه اليكم وهو صندوق التوراة قيل وكان من خشب الشمشاد وهو الذى تتخذ منه الامشاط طوله ثلاثة أذرع فى عرض ذراعين (فيه سكينة من ربكم) السكينة فعيلة مأخوذة من السكون والوقار والطمأنينة أى فيه سبب سكون قلوبكم فيما اختلفتم فيه من أمر طالوت وقيل الضمير للاتيان أى فى اتيانه سكون لكم أو للتابوت أى مودع فيه ما تسكنون اليه وهو التوراة قال ابن عطية الصحيح ان التابوت كانت فيه أشياء فاضلة من بقايا الانبياء وآثارهم فكانت النفوس تسكن الى ذلك وتأنس به وتتقوى وقد اختلف فى السكينة على أقوال سيأتى بيان بعضها (وبقية مما ترك آل موسى وآل هرون) اختلف فى البقية فقيل هى عصا موسى ورضاض الالواح قاله ابن عباس وقيل عصا موسى وعصا هرون وشئ من ألواح التوراة وقيل كانت التوراة والعلم وقيل كان فيه عصا موسى ونعلاه وعصا هرون وعمامته وقفيز من المن وكان عند بنى اسرائيل يتوارثونه قرنا بعد قرن فلما عصوا وأفسدوا سلط الله عليهم العمالقة فغلبوهم عليه وأخذوه منهم وقيل غير ذلك وقيل المراد بآل موسى وهرون هما أنفسهما أى مما ترك موسى وهرون ولفظ آل مقحمة لتفخيم شأنهما وقيل المراد الانبياء من بنى يعقوب لانهما من ذرية يعقوب فسائر قرابته ومن تناسل منه آل لهما (تحمله الملائكة) أى تسوقه قال ابن عباس جاءت الملائكة بالتابوت تحمله بين السماء والارض وهم ينظرون اليه حتى وضعته عند طالوت فلما رأوا ذلك قالوا نعم فسلموا له الرياسة وملكوه وكانت الانبياء اذا حضروا قتالا قدموا التابوت بين أيديهم ويقولون ان آدم نزل بذلك التابوت وبالركن وبعصا موسى من الجنة وبلغنى ان التابوت وعصا موسى فى بحيرة طبرية وانهما يخرجان قبل يوم القيامة وقال قتادة كان التابوت فى التيه خلفه موسى عند يوشع بن نون فبقى هنالك فأقبلت الملائكة تحمله حتى

هو مصدر مؤكد انتصب عن قوله آمنا بالله كقوله وعد الله وقد ورد في حديث رواه ابن أبي حاتم وابن مردويه من رواية أشعث بن اسحق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ان نبي الله صلى الله عليه وسلم قال ان بني اسرائيل قالوا يارسول الله هل يصبغ ربك فقال اتقوا الله فناداه ربه ياموسى سألوك هل يصبغ ربك فقل نعم انا أصبغ الألوان الأحمر والابيض والاسود والالوان كلها من صبغي وأنزل الله على نبيه صلى الله عليه وسلم صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة كذا وقع في رواية ابن مردويه مرفوعا وهو في رواية ابن أبي حاتم موقوف وهو أشبه ان صح اسناده (٣٢٧) والله أعلم (قل أتحاجوننا في الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون أم تقولون ان ابراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب والاسباط كانوا هودا أو نصارى قل أأنتم أعلم أم الله ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله وما الله بغافل عما تعملون تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسئلون عما كانوا يعملون) يقول تعالى مرشدا نبيه صلوات الله وسلامه عليه الى درء مجادلة المشركين قل أتحاجوننا في الله أي أتناظروننا في توحيد الله والاخلاص له والانقياد واتباع أوامره وترك زواجره وهو ربنا وربكم المتصرف فينا وفيكم المستحق لاخلاص الالهية له وحده لاشريك له ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم أي نحن برآء منكم ومما تعبدون وأنتم برآء منا كما قال في الآية الاخرى فان كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريؤن مما أعمل وأنا بريء مما تعملون وقال تعالى فان حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن الى آخر الآية وقال تعالى اخبارا عن ابراهيم وحاجه قومه قال أتحاجوني في الله الى آخر الآية وقال تعالى ألم تر الى الذي حاج ابراهيم في ربه الآية وقال في هذه الآية الكريمة ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون أي نحن برآء منكم كما أنتم برآء منا ونحن له مخلصون أي في العبادة والتوجه ثم أنكر تعالى عليهم في دعواهم ان ابراهيم ومن ذكر بعده من الانبياء والاسباط كانوا على ملتهم اما اليهودية واما النصرانية فقال قل أأنتم أعلم أم الله يعني بل الله أعلم وقد أخبر انهم لم يكونوا هودا ولا نصارى كما قال تعالى ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين الآية والتي بعدها * وقوله ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله قال الحسن البصري كانوا يقرؤن في كتاب الله

وضعته في دار طالوت فأصبح في داره فأقروا بملكه وقد ورد هذا المعنى مختصرا ومطولا عن جماعة من السلف فلا يأتي التطويل بذكر ذلك بفائدة يعتد بها وعن ابن عباس أيضا كان طالوت عظيما جسيما يفضل بني اسرائيل بعنقه ولم يأته وحي وكانت سعة تابوت موسى نحوا من ثلاثة أذرع في ذراعين والسكينة الرحمة والطمأنينة أو الدابة قدر الهرة لها عينان لهما شعاع وكان اذا التقى الجمعان أخرجت يديها ونظرت اليهم فيهزم الجيش من الرعب وعن علي السكينة ريح خجوج هفافة ولها رأسان ووجه كوجه الانسان وقال مجاهد السكينة شيء يشبه الهرة له رأس كرأس الهرة ووجه كوجه الهرة وجناحان وذنب مثل ذنب الهرة وعن ابن عباس السكينة طشت من ذهب من الجنة كان يغسل فيه قلوب الانبياء ألقى الالواح فيه وعن وهب بن منبه أنه قال هي روح من الله تتكلم اذا اختلفوا في شيء تكلم فتخبرهم ببيان مايريدون وعن الحسن قال هي شيء تسكن اليه قلوبهم وعن عطاء بن أبي رباح هي مايعرفون من الآيات التي يسكنون اليها وأقول هذه التفاسير المتناقضة لعلها وصلت الى هؤلاء الاعلام من جهة اليهود أقماهم الله فجاؤا بهذه الامور لقصد التلاعب بالمسلمين والتشكيك عليهم وانظر الى جعلهم لها تارة حيوانا وتارة جمادا وتارة شيأ لايعقل وهكذا كل منقول عن بني اسرائيل يتناقض ويشتمل على مالا يعقل في الغالب ولا يصح أن يكون مثل هذه التفاسير المتناقضة مرويا عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولا رأيا رآه قائله فهم أجل قدرا عن التفسير بالرأي وبما لامجال للاجتهاد فيه اذا تقرر لك هذا عرفت ان الواجب الرجوع في مثل ذلك الى معنى السكينة لغة وهو معروف ولا حاجة الى ركوب هذه الامور المتعسفة المتناقضة فقد جعل الله عنها سعة ولو ثبت لنا في السكينة تفسير عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لوجب علينا المصير اليه والقول به ولكنه لم يثبت من وجه صحيح بل ثبت انها تنزلت على بعض الصحابة عند تلاوته للقرآن كما في صحيح مسلم عن البراء قال كان رجل يقرأ سورة الكهف وعنده فرس مربوط فتغشته سحابة فجعلت تدور وتدنو وجعل فرسه ينفر منها فلما أصبح أتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فذكر ذلك له فقال تلك السكينة تنزلت للقرآن وليس في هذا الا أن هذه التي سماها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سكينة سحابة دارت على ذلك القارئ فالله أعلم وعن أبي صالح قال كان في التابوت عصا موسى وعصا هرون وثياب موسى وثياب هرون

الذي آتاهم ان الدين الاسلام وان محمدا رسول الله وان ابراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب والاسباط كانوا براء من اليهودية والنصرانية فشهدوا لله بذلك وأقروا على أنفسهم لله فكتموا شهادة الله عندهم من ذلك وقوله وما الله بغافل عما تعملون تهديد ووعيد شديد أي ان علمه محيط بعملكم وسيجزيكم عليه * ثم قال تعالى تلك امة قد خلت أي قد مضت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم أي لهم أعمالهم ولكم أعمالكم ولا تسئلون عما كانوا يعملون وليس يغني عنكم انتسابكم اليهم من غير متابعة منكم لهم ولا تغتروا بمجرد النسبة اليهم حتى

تكونوا منقادين مثلهم لاوامر الله واتباع رسله الذين بعثوا مبشرين ومنذرين فانه من كفر بنبي واحد فقد كفر بسائر الرسل ولا سيما بسيد الانبياء وخاتم المرسلين ورسول رب العالمين الى جميع الانس والجن من المكلفين صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر أنبياء الله أجمعين (سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء الى صراط مستقيم وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا وما جعلنا القبلة التي كنت عليها الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وان كانت لكبيرة الا على الذين هدى الله وما كان الله ليضيع ايمانكم ان الله بالناس لرؤف رحيم) قيل المراد بالسفهاء ههنا مشركو العرب قاله الزجاج وقيل أحبار يهود قاله مجاهد وقيل المنافقون قاله السدي والآية عامة في هؤلاء كلهم والله اعلم قال البخاري أخبرنا أبو نعيم سمع زهيرا عن ابي اسحق عن البراء رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى الى بيت المقدس ستة عشر شهرا او سبعة عشر شهرا وكان يعجبه ان تكون قبلته قبل البيت وانه صلى اول صلاة صلاها صلاة العصر وصلى معه قوم فخرج رجل ممن كان صلى معه فمر على اهل المسجد وهم راكعون فقال اشهد بالله لقد صليت مع النبي صلى الله عليه وسلم قبل مكة فداروا كما هم قبل البيت وكان الذي قد مات على القبلة قبل ان تحول قبل البيت رجالا قتلوا لم ندر ما نقول فيهم فانزل الله وما كان الله ليضيع ايمانكم ان الله بالناس لرؤف رحيم انفرد به البخاري من هذا الوجه ورواه مسلم من وجه آخر وقال محمد بن اسحق حدثني اسمعيل بن ابي خالد عن ابي اسحق عن البراء قال كان

ولوحان من التوراة والمن وكلمة الفرج لا اله الا الله الحليم الكريم سبحان الله رب السموات السبع ورب العرش العظيم والحمد لله رب العالمين وقال قتادة والكلبي السكينة الطمأنينة ففي أي مكان كان التابوت اطمأنوا وسكنوا اليه وهذا القول أولى بالصحة فعلى هذا كل شيء كانوا يسكنون اليه فهو سكينة فيحمل على جميع ما قيل فيه لان كل شيء يسكن اليه القلب فهو سكينة ولم يرد فيه نص صريح فلا يجوز تصويب قول وتضعيف آخر والمرجع فيه الى اللغة كما تقدم والله أعلم (ان في ذلك) أي في مجيء التابوت (لآية لكم) أي علامة ودلالة على صدق ما أخبرتكم به (ان كنتم مؤمنين) يعني مصدقين قال المفسرون فلما جاءهم التابوت وأقروا بالملك لطالوت تأهبوا للخروج الى الجهاد فأسرعوا لطاعته وخرجوا معه وذلك قوله (فلما فصل طالوت بالجنود) فصل معناه خرج بهم يقال فصلت الشيء فانفصل أي قطعته فانقطع وأصله متعد يقال فصل نفسه ثم استعمل استعمال اللازم كانفصل وقيل يستعمل لازما ومتعديا يقال فصل عن البلد فصولا وفصل نفسه فصلا والمعنى قطع مستقره شاخصا الى غيره فخرج طالوت من بيت المقدس بالجنود وهم سبعون ألف مقاتل وقيل ثمانون ألفا وقيل مائة وعشرون ألفا ولم يتخلف عنه الا كبير لكبره أو مريض لمرضه أو معذور لعذره وكان مسيرهم في حر شديد فشكوا الى طالوت قلة الماء بينهم وبين عدوهم وقالوا ان المياه لا تحملنا فادع الله أن يجري لنا نهرا (قال) طالوت (ان الله مبتليكم بنهر) أي مختبركم والابتلاء الاختبار والنهر قيل هو بين الاردن وفلسطين وأردن موضع ذو رمل قريب من بيت المقدس والمراد بهذا الابتلاء اختبار طاعتهم فمن أطاع في ذلك الماء أطاع فيما عداه ومن عصى في هذا وغلبته نفسه فهو في العصيان في سائر الشدائد أحرى (فمن شرب منه) قليلا كان أو كثيرا (فليس مني) أي ليس من أهل ديني وطاعتي (ومن لم يطعمه) أي لم يذقه يعني الماء أصلا لا قليلا ولا كثيرا (فانه مني الا من اغترف غرفة بيده) رخص لهم في الغرفة ليرتفع عنهم أذى العطش بعض الارتفاع ليكسروا نزاع النفس في هذه الحال وفيه ان الغرفة تكف سورة العطش عند الصابرين على شظف العيش الدافعين أنفسهم عن الرفاهية فالمراد بقوله فمن شرب منه اي كرع ولم يقتصر على الغرفة ومعنى ليس مني ليس من أصحابي من قولهم فلان من فلان كأنه بعضه لاختلاطهما وطول صحبتهما وهذا في كلام العرب معروف يقال طعمت الشيء

رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى نحو بيت المقدس ويكثر النظر الى السماء ينتظر أمر الله فأنزل الله قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام فقال رجال من المسلمين وددنا لو علمنا علم من مات منا قبل أن نصرف الى القبلة وكيف بصلاتنا نحو بيت المقدس فأنزل الله وما كان الله ليضيع ايمانكم وقال السفهاء من الناس وهم أهل الكتاب ماولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها فأنزل الله سيقول السفهاء من الناس الى آخر الآية وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا الحسن بن عطية حدثنا اسرائيل عن أبى اسحق عن البراء قال كان (٣٢٩) رسول الله صلى الله عليه وسلم قد صلى نحو بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهرا وكان يحب أن يوجه نحو الكعبة فأنزل الله قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام قال فوجه نحو الكعبة وقال السفهاء من الناس وهم اليهود ماولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها فأنزل الله قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء الى صراط مستقيم وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما هاجر الى المدينة أمره الله أن يستقبل بيت المقدس ففرحت اليهود فاستقبلها رسول الله صلى الله عليه وسلم بضعة عشر شهرا وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب قبلة ابراهيم فكان يدعو الله وينظر الى السماء فأنزل الله عز وجل فولوا وجوهكم شطره أى نحوه فارتاب من ذلك اليهود وقالوا ماولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها فأنزل الله قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء الى صراط مستقيم وقد جاء فى هذا الباب أحاديث

الشئ أى ذقته وأطعمته الماء أى أذقته وفيه دليل على ان الماء يقال له طعام والاغتراف الاخذ من الشئ باليد أو بآلة والغرف مثل الاغتراف والغرفة المرة الواحدة وقد قرئ بفتح الغين وضمها فالفتح للمرة والضم اسم للشئ المغترف وقيل بالفتح الغرفة الواحدة بالكف وبالضم الغرفة بالكفين وقيل هما لغتان بمعنى واحد (فشربوا منه) أى من النهر (الاقليلا منهم) وهم المذكورون فى قوله ومن لم يطعمه قال القرطبى ان القليل لم يشرب أصلا قال سعيد بن جبير القليل ثلثمائة وبضعة عشر رجلا عدة أهل بدر وعن البراء قال كنا أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم نتحدث أن أصحاب بدر على عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر ولم يجاوز معه الا بضعة عشر وثلثمائة وعن قتادة قال ذكر لنا ان النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال لاصحابه يوم بدر أنتم بعدة أصحاب طالوت يوم لقى جالوت وعن ابن عباس قال كانوا ثلثمائة ألف وثلاثة آلاف وثلثمائة وثلاثة عشر فشربوا منه كلهم الا ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا عدة أصحاب النبى صلى الله عليه وآله وسلم يوم بدر فردهم طالوت ومضى ثلثمائة وثلاثة عشر وقرئ الا قليل ولا وجه له الا ماقيل من انه من هجر اللفظ الى جانب المعنى أى لم يطعمه الا قليل وهو تعسف (فلما جاوزه هو) أى جاوز النهر طالوت (والذين آمنوا معه) وهم القليل الذين أطاعوه واقتصروا على الغرفة وقال القرطبى هم الذين لم يذوقوا الماء أصلا (قالوا) أى الذين شربوا (لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده) أى بمحاربتهم ومقاومتهم فضلا عن ان يكون لنا غلبة عليهم لما شاهدوا منهم من الكثرة والشدة قال القرطبى قيل وكانوا مائة ألف رجل شاكى السلاح وأكثر المفسرين على انهم قالوا هذا القول بعد ماعبروا النهر مع طالوت ورأوا جالوت وجنوده فرجعوا منهزمين قائلين هذه المقالة وبعض المفسرين على أن العصاة لم يعبروا النهر بل وقفوا بساحله وقالوا معتذرين عن التخلف منادين ومسمعين لطالوت والمؤمنين الذين معه لا طاقة لنا اليوم الخ والجند الانصار والاعوان والجمع أجناد وجنود الواحد جندى فالياء للوحدة مثل روم ورومى (قال الذين يظنون) أى يتيقنون ردا على المتخلفين (أنهم ملاقوا الله) أى انهم يستشهدون عما قريب فيلقون الله صرح به القاضى كالكشاف (كم من فئة قليلة) الفئة الجماعة لا واحد له من لفظه والقطعة منهم من فأوت رأسه بالسيف أى قطعته (غلبت فئة كثيرة باذن الله) أى بقضاء الله وارادته (والله مع

 كثيرة وحاصل الامر انه قد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر باستقبال الصخرة من بيت المقدس فكان بمكة يصلى بين الركنين فتكون بين يديه الكعبة وهو مستقبل صخرة بيت المقدس فلما هاجر الى المدينة تعذر الجمع بينهما فأمره الله بالتوجه الى بيت المقدس قاله ابن عباس والجمهور ثم اختلف هؤلاء هل كان الامر به بالقرآن أو بغيره على قولين وحكى القرطبى فى تفسيره عن عكرمة وأبى العالية والحسن البصرى ان التوجه الى بيت المقدس كان باجتهاده عليه السلام والمقصود ان التوجه الى بيت المقدس بعد مقدمه صلى الله عليه وسلم المدينة واستمر الامر على ذلك بضعة عشر شهرا

(الصابرين) بالنصر والعون وهذه من جملة مقولهم ويحتمل انها من كلام الله تعالى أخبر بها عن حال الصابرين فلا محل لها من الاعراب (ولما برزوا لجالوت وجنوده) أى صاروا فى البراز وهو المتسع من الارض وما انكشف منها واستوى ومنه سميت المبارزة فى الحرب لظهور كل قرن الى صاحبه والمعنى ظهروا لقتالهم وتصافوا والبراز بالفتح والكسر لغة قليلة الفضاء الواسع الخالى من الشجر وجالوت أمير العمالقة وكان جبارا من أولاد عمليق بن عاد (قالوا) أى جميع من معه من المؤمنين (ربنا أفرغ) أى اصبب (علينا صبرا) الافراغ يفيد معنى الكثرة (وثبت أقدامنا) عبارة عن كمال القوة والرسوخ وعدم الفشل والتزلزل عند المقاومة يقال ثبت قدم فلان على كذا اذا استقر له ولم يزل عنه وثبت قدمه فى الحرب اذا كان الغلب له والنصر معه وليس المراد تقررها فى مكان واحد (وانصرنا على القوم الكافرين) هم جالوت وجنوده ووضع الظاهر موضع المضمر اظهارا لما هو العلة الموجبة للنصرة عليهم وهى كفرهم وذكر النصر بعد سؤال تثبيت الاقدام لكون الثانى هو غاية الاول (فهزموهم باذن الله) الهزم الكسر ومنه سقاء منهزم أى انثنى بعضه على بعض مع الجفاف ومنه ما قيل فى زمزم انها هزمة جبريل أى هزمها برجله فخرج الماء والهزم ما يكسر من يابس الحطب وتقدير الكلام فأنزل الله عليهم النصر فهزموهم بأمر الله وارادته (وقتل داود جالوت) هو داود بن ايشا ويقال داود بن زكريا بن بشوى من سبط يهوذا بن يعقوب جمع الله له بين النبوة والملك بعد ان كان راعيا وكان أصغر اخوته اختاره طالوت لمقابلة جالوت فقتله وكان يومئذ صغيرا لم يبلغ الحلم سقيما أصفر اللون يرعى الغنم فهذه الوقعة قبل نبوته وان أباه كان من جملة جيش طالوت وعن مجاهد وغيره قال كان طالوت أميرا على الجيش فبعث أبو داود مع داود بشئ الى اخوته فقال داود لطالوت ماذا لى وأقتل جالوت فقال لك ثلث ملكى وأنكحك ابنتى فأخذ مخلاة فجعل فيها ثلاث مروات ثم سمى ابراهيم واسحق ويعقوب ثم أدخل يده فقال بسم الله الهى واله آبائى ابراهيم واسحق ويعقوب فخرج على ابراهيم فجعله فى مرجمته فرمى بها جالوت فخرق ثلاثة وثلاثين بيضة عن رأسه وقتلت ما وراءه ثلاثين رجلا فأخذ داود جالوت حتى ألقاه بين يدى طالوت ففرح بنو اسرائيل فزوجه ابنته وأعطاه نصف الملك فمكث معه كذلك أربعين سنة فمات طالوت واستقل داود بالملك سبع سنين ثم انتقل الى رحمة الله تعالى

وكان يكثر الدعاء والابتهال أن يوجه الى الكعبة التى هى قبلة ابراهيم عليه السلام فأجيب الى ذلك وأمر بالتوجه الى البيت العتيق فخطب رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس فأعلمهم بذلك وكان أول صلاة صلاها اليها صلاة العصر كما تقدم فى الصحيحين من رواية البراء ووقع عند النسائى من رواية أبى سعيد بن المعلى انها الظهر وقال كنت أنا وصاحبى أول من صلى الى الكعبة وذكر غير واحد من المفسرين وغيرهم ان تحويل القبلة نزل على رسول الله وقد صلى ركعتين من الظهر وذلك فى مسجد بنى سلمة فسمى مسجد القبلتين وفى حديث نويلة بنت مسلم انهم جاءهم الخبر بذلك وهم فى صلاة الظهر قالت فتحول الرجال مكان النساء والنساء مكان الرجال ذكره الشيخ أبو عمر بن عبد البر النمرى وأما أهل قباء فلم يبلغهم الخبر الى صلاة الفجر من اليوم الثانى كما جاء فى الصحيحين عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه قال بينما الناس بقباء فى صلاة الصبح اذ جاءهم آت فقال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أنزل عليه الليلة قرآن وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها وكانت وجوههم الى الشام فاستداروا الى الكعبة وفى هذا دليل على أن الناسخ لا يلزم حكمه الا بعد العلم به وان تقدم نزوله وابلاغه لانهم لم يؤمروا باعادة العصر والمغرب والعشاء والله أعلم ولما وقع هذا حصل لبعض الناس من أهل النفاق والريب والكفرة من اليهود ارتياب وزيغ عن الهدى وتخبيط وشك وقالوا ماولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها أى قالوا ما لهؤلاء تارة يستقبلون كذا وتارة كذا فأنزل الله جوابهم فى قوله قل لله المشرق والمغرب أى الحكم والتصرف والامر كله لله وحيثما تولوا فثم وجه الله وليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله أى الشأن كله فى امتثال أوامر الله فحيثما وجهنا توجهنا فالطاعة فى امتثال امره ولو وجهنا فى كل يوم مرات الى جهات متعددة فنحن عبيده وفى تصرفه وخدامه حيثما وجهنا توجهنا وهو تعالى له بعبده ورسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه وأمته عناية عظيمة اذ هداهم الى قبلة ابراهيم خليل الرحمن وجعل توجههم الى الكعبة المبنية على اسمه تعالى وحده لا شريك له أشرف بيوت الله فى الارض اذ هى بناء ابراهيم الخليل عليه السلام ولهذا قال قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء الى صراط مستقيم

فحان

وقد روى الامام أحمد عن علي بن عاصم عن حصين بن عبد الرحمن عن عمرو بن قيس عن محمد بن الاشعث عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يعني في أهل الكتاب انهم لا يحسدوننا على شئ كما يحسدوننا على يوم الجمعة التي هدانا الله لها وضلوا عنها وعلى القبلة التي هدانا الله لها وضلوا عنها وعلى قولنا خلف الامام آمين وقوله تعالى وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا يقول تعالى انما حولناكم الى قبلة ابراهيم عليه السلام واخترناها لكم لنجعلكم خيار الامم لتكونوا يوم القيامة شهداء على الامم لان الجميع معترفون لكم (٣٣١) بالفضل والوسط ههنا الخيار والاجود كما يقال قريش أوسط العرب نسبا ودارا أي خيرها وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وسطا في قومه أي أشرفهم نسبا ومنه الصلاة الوسطى التي هي أفضل الصلوات وهي العصر كما ثبت في الصحاح وغيرها ولما جعل الله هذه الامة وسطا خصها بأكمل الشرائع وأقوم المناهج وأوضح المذاهب كما قال تعالى هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس وقال الامام أحمد حدثنا وكيع عن الاعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعى نوح يوم القيامة فيقال له هل بلغت فيقول نعم فيدعى قومه فيقال لهم هل بلغكم فيقولون ما أتانا من نذير وما أتانا من أحد فيقال لنوح من يشهد لك فيقول محمد وأمته قال فذلك قوله وكذلك جعلناكم أمة وسطا قال والوسط العدل فتدعون فتشهدون له بالبلاغ ثم أشهد عليكم رواه البخاري والترمذي والنسائي وابن ماجه من طرق عن الاعمش وقال الامام أحمد أيضا حدثنا أبو معاوية حدثنا الاعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يجيء النبي يوم القيامة ومعه الرجلان وأكثر من ذلك فيدعى قومه فيقال لهم هل بلغكم هذا فيقولون لا فيقال له هل بلغت قومك فيقول نعم فيقال من شهد لك فيقول محمد وأمته فيدعى محمد وأمته فيقال لهم هل بلغ هذا قومه فيقولون نعم فيقال وما علمكم فيقولون جاءنا نبينا فأخبرنا ان الرسل قد بلغوا فذلك قوله عز وجل وكذلك جعلناكم أمة وسطا قال عدلا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول

فسبحان من لا ينقضي ملكه وقد ذكر المفسرون أقاصيص كثيرة من هذا الجنس فالله أعلم (وآتاه الله) أي داود (الملك) الكامل سبع سنين بعد موت طالوت (والحكمة) والمراد بالحكمة هنا النبوة وقيل هي تعليمه صنعة الدروع من الحديد وكان يلين في يده وينسجه كنسج الغزل ومنطق الطير والالحان أي فهم أصواته وكذا البهائم وقيل هي اعطاؤه السلسلة التي كانوا يتحاكمون اليها (وعلمه مما يشاء) قيل ان المضارع هنا موضوع موضع الماضي وفاعل ذلك هو الله تعالى وقيل داود وظاهر هذا التركيب ان الله سبحانه علمه مما اقتضت به مشيئته وتعلقت به ارادته وقد قيل ان من ذلك ما قدمناه من تعليمه صنعة الدروع وما بعده قيل كان ملك طالوت الى ان قتل مدة أربعين سنة فأتى بنو اسرائيل الى داود فملكوه عليهم وأعطوه خزائن طالوت قال الكلبي والضحاك ملك داود بعد قتل طالوت نحو سبع سنين ولم يجتمع بنو اسرائيل على ملك واحد الا على داود وجمع الله لداود بين الملك والنبوة ولم يكن كذلك من قبل ولم يجتمعا لاحد قبله بل كانت النبوة في سبط والملك في سبط ثم جمع الله ذلك ولابنه سليمان بين الملك والنبوة (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض) قرئ الدفع والدفاع وهما مصدران لدفع كذا وعلى القراءتين فالمصدر مضاف الى الفاعل أي ولولا دفع الله الناس وبعضهم بدل من الناس وهم الذين يباشرون أسباب الشر والفساد ببعض آخر منهم وهم أهل الايمان الذين يكفونهم عن ذلك ويردونهم عنه (لفسدت الارض) لتغلب أهل الفساد عليها واحداثهم الشرور التي تهلك الحرث والنسل قال ابن عباس يدفع الله بمن يصلي عمن لا يصلي وبمن يحج عمن لا يحج وبمن يزكي عمن لا يزكي وأخرج ابن عدي وابن جرير بسند ضعيف عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان الله ليدفع بالمسلم الصالح عن مائة أهل بيت من جيرانه البلاء ثم قرأ ابن عمر ولولا دفع الله الناس الآية وفي اسناده يحيى بن سعيد العطار وهو ضعيف جدا ورواه أحمد أيضا (ولكن الله ذو فضل) التنكير للتعظيم (على العالمين) أي عم فضله الناس كلهم (تلك آيات الله) هي ما اشتملت عليه هذه القصة من الامور المذكورة (نتلوها عليك بالحق) والمراد بالحق هنا الخبر الصحيح الذي لا ريب فيه عند أهل الكتاب والمطلعين على أخبار العالم (وانك لمن المرسلين) اخبار من الله سبحانه بانه من جملة رسل الله سبحانه تقوية لقلبه وتثبيتا لجنانه وتشييد الامره وان الذي يخبر به

عليكم شهيدا وقال أحمد أيضا حدثنا أبو معاوية حدثنا الاعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى وكذلك جعلناكم أمة وسطا قال عدلا وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه وابن أبي حاتم من حديث عبد الواحد بن زياد عن أبي مالك الاشجعي عن المغيرة بن عتيبة بن نباس(١) حدثني مكتب لنا عن جابر بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم قال أنا وأمتي يوم القيامة على كوم مشرفين على الخلائق ما من الناس أحد الا ود أنه منا وما من نبي كذبه قومه الا ونحن نشهد أنه قد بلغ رسالة ربه عز وجل وروى الحاكم في مستدركه وابن (٣٣٢) مردويه أيضا واللفظ له من حديث مصعب بن ثابت عن محمد بن كعب القرظي عن جابر بن عبد الله قال شهد رسول الله صلى الله عليه وسلم جنازة في بني سلمة وكنت الى جانب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بعضهم والله يا رسول الله لنعم المرء كان لقد كان عفيفا مسلما وكان وأثنوا عليه خيرا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنت بما تقول فقال الرجل الله أعلم بالسرائر فأما الذي بدا لنا منه فذاك فقال النبي صلى الله عليه وسلم وجبت ثم شهد جنازة في بني حارثة وكنت الى جانب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بعضهم يا رسول الله بئس المرء كان ان كان لفظا غليظا فأثنوا عليه شرا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لبعضهم أنت بالذي تقول فقال الرجل الله أعلم بالسرائر فأما الذي بدا لنا منه فذاك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وجبت قال مصعب بن ثابت فقال لنا عند ذلك محمد بن كعب صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قرأ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ثم قال الحاكم هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه وقال الامام أحمد حدثنا يونس بن محمد حدثنا داود بن أبي بتعلومة الفرات عن عبد الله بن بريدة عن أبي الاسود انه قال أتيت المدينة فوافقتها وقد وقع بها مرض فهم يموتون موتا ذريعا فجلست الى عمر بن الخطاب فمرت به جنازة فأثني على صاحبها خير فقال وجبت ثم مر بأخرى فأثني عليها شر فقال عمر وجبت فقال أبو الاسود ما وجبت يا أمير المؤمنين قال قلت كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أيما مسلم شهد له أربعة بخير أدخله الله الجنة قال فقلنا وثلاثة قال فقال وثلاثة قال فقلنا واثنان قال واثنان ثم لم نسأله عن الواحد وكذا رواه البخاري والترمذي والنسائي من

من الاخبار العجيبة والقصص القديمة وحي من الله من غير أن يعرفها بقراءة كتب ولا استماع أخبار فدل ذلك على رسالته (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض) قيل هو اشارة الى جميع الرسل فيكون الالف واللام للاستغراق وقيل هو اشارة الى الانبياء المذكورين في هذه السورة وقيل الى الانبياء الذين بلغ علمهم الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمراد بتفضيل بعضهم على بعض أن الله سبحانه جعل لبعضهم من مزايا الكمال فوق ما جعله للآخر فكان الاكثر مزايا فاضلا والآخر مفضولا وكما دلت هذه الآية على ان بعض الانبياء أفضل من بعض كذلك دلت الآية الاخرى عليه وهي قوله تعالى ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داود زبورا عن قتادة قال اتخذ الله ابراهيم خليلا وكلم الله موسى تكليما وجعل عيسى كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون وهو عبد الله وكلمته وروحه وآتى داود زبورا وآتى سليمان ملكا عظيما لا ينبغي لاحد من بعده وغفر لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ما تقدم من ذنبه وما تأخر قال الخازن وأجمعت الامة على ان نبينا محمدا صلى الله عليه وآله وسلم أفضل الانبياء لعموم رسالته وهو قوله وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا وقد استشكل جماعة من أهل العلم الجمع بين هذه الآية وبين ما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة مرفوعا بلفظ لا تفضلوني على الانبياء وفي لفظ آخر لا تفضلوا بين الانبياء وفي لفظ لا تخيروا بين الانبياء فقال قوم ان هذا القول منه صلى الله عليه وآله وسلم كان قبل ان يوحى اليه بالتفضيل وان القرآن ناسخ للمنع من التفضيل وقيل انه قال صلى الله عليه وآله وسلم ذلك على سبيل التواضع كما قال لا يقل أحدكم أنا خير من يونس بن متى تواضعا مع علمه انه أفضل الانبياء كما يدل عليه قوله أنا سيد ولد آدم وقيل انما نهى عن ذلك قطعا للجدال والخصام في الانبياء فيكون مخصوصا بمثل ذلك لا اذا كان صدور ذلك مأمونا وقيل ان النهي انما هو من جهة النبوة فقط لانها خصلة واحدة لا تفاضل فيها ولا نهي عن التفاضل بزيادة الخصوصيات والكرامات وقيل ان المراد النهي عن التفضيل بمجرد الاهواء والعصبية وفي جميع هذه الاقوال ضعف وعندي انه لا تعارض بين القرآن والسنة فان القرآن دل على ان الله فضل بعض أنبيائه على بعض وذلك لا يستلزم انه يجوز لنا أن نفضل بعضهم على بعض فان المزايا التي هي مناط التفضيل معلومة عند الله تعالى لا يخفى على الله منها خافية وليست

(١) قوله نباس في نسخة فهاس بالفاء والهاء وحرر اهـ

حديث داود بن أبي الفرات به وقال ابن مردويه حدثنا أحمد بن عثمان بن يحيى حدثنا أبو قلابة الرقاشي حدثني أبو الوليد حدثنا نافع ابن عمر حدثني أمية بن صفوان عن أبي بكر بن أبي زهير الثقفي عن أبيه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنباوة يقول يوشك أن تعلموا خياركم من شراركم قالوا بم يارسول الله قال بالثناء الحسن والثناء السيئ أنتم شهداء الله في الارض ورواه ابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة عن يزيد بن هرون ورواه الامام أحمد عن يزيد بن هرون وعبد الملك بن عمرو شريح عن نافع عن ابن عمر به وقوله تعالى وما جعلنا القبلة التي كنت (٢٣٣) عليها الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وان كانت لكبيرة الا على الذين هدى الله يقول تعالى انما شرعنا لك يا محمد التوجه أولا الى بيت المقدس ثم صرفناك عنها الى الكعبة ليظهر حال من يتبعك ويطيعك ويستقبل معك حيثما توجهت ممن ينقلب على عقبيه أي مرتدا عن دينه وان كانت لكبيرة أي هذه الفعلة وهو صرف التوجه عن بيت المقدس الى الكعبة أي وان كان هذا الامر عظيما في النفوس الا على الذين هدى الله قلوبهم وأيقنوا بتصديق الرسول وان كل ما جاء به فهو الحق الذي لا مرية فيه وان الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد فله أن يكلف عباده بما شاء وينسخ ما يشاء وله الحكمة التامة والحجة البالغة في جميع ذلك بخلاف الذين في قلوبهم مرض فان كلما حدث أمر أحدث لهم شكا كما يحصل للذين آمنوا ايقان وتصديق كما قال تعالى واذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه ايمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم ايمانا وهم يستبشرون وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا الى رجسهم وقال تعالى قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى وقال تعالى وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين الا خسارا ولهذا كان من ثبت على تصديق الرسول صلى الله عليه وسلم واتباعه في ذلك وتوجه حيث أمره الله من غير شك ولا ريب من سادات الصحابة وقد ذهب بعضهم الى ان السابقين الاولين من المهاجرين والانصار هم الذين صلوا القبلتين وقال البخاري في تفسير هذه الآية حدثنا مسدد حدثنا يحيى عن سفيان عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال بينا الناس يصلون الصبح في مسجد قباء اذ جاء رجل فقال قد أنزل على النبي صلى

بمعلومة عند البشر فقد يجهل أتباع نبي من الانبياء بعض مزاياه وخصوصياته فضلا عن مزايا غيره والتفضيل لا يجوز الا بعد العلم بجميع الاسباب التي يكون بها احدهما فاضلا وهذا مفضولا لا قبل العلم ببعضها أو باكثرها أو باقلها فان ذلك تفضيل بالجهل واقدام على أمر لا يعلمه الفاعل له وهو ممنوع منه فلو فرضنا أنه لم يرد الا القرآن بالاخبار لنا بان الله فضل بعض أنبيائه على بعض لم يكن فيه دليل على انه يجوز للبشر أن يفضلوا بين الانبياء فكيف وقد وردت السنة الصحيحة بالنهي عن ذلك واذا عرفت هذا علمت انه لا تعارض بين القرآن والسنة بوجه من الوجوه فالقرآن فيه الاخبار من الله بانه فضل بعض أنبيائه على بعض والسنة فيها النهي لعباده ان يفضلوا بين أنبيائه فمن تعرض للجمع بينهما زاعما انهما متعارضان فقد غلط غلطا بينا (منهم) تفصيل للتفضيل المذكور اجمالا (من كلم الله) أي بغير واسطة وهو موسى كلمه في الطور ونبينا سلام الله عليهما كلمه ليلة الاسراء وقد روى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه قال في آدم انه نبي مكلم وقد ثبت ما يفيد ذلك في صحيح ابن حبان من حديث أبي ذر والالتفات حيث لم يقل كلمنا التربية المهابة بهذا الاسم الشريف والرمز الى ما بين التكليمين ورفع الدرجات من التفاوت (ورفع بعضهم درجات) هذا البعض يحتمل ان يراد به من عظمت منزلته عند الله سبحانه من الانبياء ويحتمل ان يراد به نبينا صلى الله عليه وآله وسلم لكثرة مزاياه المقتضية لتفضيله ويحتمل ان يراد به ادريس لان الله سبحانه أخبرنا بأنه رفعه مكانا عليا وقيل انهم أولو العزم وقيل ابراهيم ولا يخفاك ان الله سبحانه أبهم هذا البعض المرفوع فلا يجوز لنا التعرض للبيان له الا ببرهان من الله سبحانه او من نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ولم يرد ما يرشد الى ذلك فالتعرض لبيانه هو من تفسير القرآن الكريم بمحض الرأي وقد عرفت ما فيه من الوعيد الشديد مع كون ذلك ذريعة الى التفضيل بين الانبياء وقد نهينا عنه وقد جزم كثير من أئمة التفسير انه نبينا صلى الله عليه وآله وسلم وأطالوا في ذلك واستدلوا بما خصه الله به من المعجزات ومزايا الكمال وخصال الفضل وهم بهذا الجزم بدليل لا يدل على المطلوب قد وقعوا في خطرين وارتكبوا انهيين وهما تفسير القرآن بالرأي والدخول في ذرائع التفضيل بين الانبياء وان لم يكن ذلك تفضيلا صريحا فهو ذريعة اليه بلا شك ولا شبهة لان من جزم بأن هذا البعض المرفوع درجات هو النبي الفلاني انتقل من ذلك الى

الله عليه وسلم قرآن وقد امر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها فتوجهوا الى الكعبة وقد رواه مسلم من وجه آخر عن ابن عمر
ورواه الترمذى من حديث سفيان الثورى وعنده انهم كانوا ركوعا فاستداروا كما هم الى الكعبة وهم ركوع وكذا رواه مسلم
من حديث حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس مثله وهذا يدل على كمال طاعتهم لله ولرسوله وانقيادهم لاوامر الله عز وجل رضى الله
عنهم أجمعين وقوله وما كان الله ليضيع ايمانكم أى صلاتكم الى بيت المقدس قبل ذلك ما كان يضيع ثوابها عند الله وفى
الصحيح من حديث أبى اسحق السبيعى عن البراء قال مات قوم كانوا يصلون نحو بيت المقدس فقال الناس ما حالهم
فى ذلك فأنزل الله تعالى وما كان
الله ليضيع ايمانكم ورواه
الترمذى عن ابن عباس وصححه
وقال ابن اسحق حدثنى محمد بن أبى
محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير
عن ابن عباس وما كان الله ليضيع
ايمانكم أى بالقبلة الاولى
وتصديقكم نبيكم واتباعه الى
القبلة الاخرى أى ليعطيكم
أجرهما جميعا ان الله بالناس لرؤف
رحيم وقال الحسن البصرى
وما كان الله ليضيع ايمانكم أى
ما كان الله ليضيع محمدا صلى الله
عليه وسلم وانصرافكم معه حيث
انصرف ان الله بالناس لرؤف
رحيم وفى الصحيح ان رسول الله
صلى الله عليه وسلم رأى امرأة من
السبى قد فرق بينها وبين ولدها
فجعلت كلما وجدت صبيا من
السبى أخذته فألصقته بصدرها
وهى تدور على ولدها فلما وجدته
ضمته اليها وألقمته ثديها فقال
رسول الله صلى الله عليه وسلم
أترون هذه طارحة ولدها فى النار
وهى تقدر على أن لا تطرحه قالوا
لا يا رسول الله قال فوالله لله أرحم
بعباده من هذه بولدها (قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد
الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره وان الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون) قال
على بن أبى طلحة عن ابن عباس كان أول ما نسخ من القرآن القبلة وذلك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما هاجر الى المدينة وكان
أكثر أهلها اليهود فأمره الله أن يستقبل بيت المقدس ففرحت اليهود فاستقبلها رسول الله صلى الله عليه وسلم بضعة عشر شهرا
وكان يحب قبلة ابراهيم فكان يدعو الى الله وينظر الى السماء فأنزل الله قد نرى تقلب وجهك فى السماء الى قوله فولوا وجوهكم

التفضيل المنهى عنه وقد أغنى الله نبينا المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم عن ذلك بما
لا يحتاج معه الى غيره من الفضائل والفواضل فاياك ان تتقرب اليه صلى الله عليه وآله
وسلم بالدخول فى أبواب نهاك عن دخولها فتعصيه وتسيء وأنت تظن انك مطيع محسن
(وآتينا عيسى بن مريم البينات) أى الآيات الباهرة والمعجزات الظاهرة من احياء
الاموات وابراء المرضى من الاكمه والابرص وغير ذلك (وأيدناه) أى قويناه (بروح
القدس) هو جبريل وكان يسير معه حيث سار الى أن رفعه الله الى السماء السابعة
وقد تقدم الكلام على هذا (ولو شاء الله ما اقتتل) أى ما اختلف فأطلق الاقتتال وأراد
سببه وهو الاختلاف (الذين من بعدهم) أى من بعد الرسل وقيل من بعد موسى وعيسى
ومحمد عليهم الصلاة والسلام لان الثانى مذكور صريحا والاول والثالث وقعت
الاشارة اليهما بقوله منهم من كلم الله أى لو شاء الله عدم اقتتالهم ما اقتتلوا فمفعول المشيئة
محذوف على القاعدة وقيل أن لا يؤمروا بالقتال وقيل أن يصيرهم الى الايمان وكلها
متقاربة (من بعد ما جاءتهم البينات) أى الدلالات الواضحات من الله بما فيه مزدجر لمن
هداه الله تعالى ووفقه (ولكن اختلفوا) استثناء من الجملة الشرطية أى ولكن الاقتتال
ناشئ عن اختلافهم اختلافا كثيرا حتى صاروا امما مختلفة والمعنى لو شاء الله الاتفاق
لاتفقوا ولكن شاء الاختلاف فاختلفوا وفيه اشارة الى قياس استثنائى (فمنهم من آمن
ومنهم من كفر) أى ثبت على ايمانه أو تعمد الكفر بعد قيام الحجة كالنصارى بعد المسيح
(ولو شاء الله) عدم اقتتالهم بعد هذا الاختلاف (ما اقتتلوا) تأكيد (ولكن الله يفعل
ما يريد) من توفيق من شاء وخذلان من شاء لا راد لحكمه ولا مبدل لقضائه فهو يفعل
ما يشاء ويحكم ما يريد لا اعتراض عليه فى ملكه وفعله وسأل رجل عليا عن القدر فقال
طريق مظلم فلا تسلكه فأعاد السؤال فقال بحر عميق فلا تلجه فأعاد السؤال فقال سر الله
قد خفى عليك فلا تفتشه (يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم) ظاهر الآية الوجوب
وقد حمله جماعة على صدقة الفطر لذلك ولما فى آخر الآية من الوعيد الشديد وقيل ان
هذه الآية تجمع زكاة الفرض والتطوع قال ابن عطية وهذا صحيح ولكن ما تقدم من
الآيات فى ذكر القتال وان الله يدفع المؤمنين فى صدور الكافرين يترجح منه ان هذا الندب
انما هو فى سبيل الله قال القرطبى وعلى هذا التأويل يكون انفاق المال مرة واجبا
ومرة

شطره فارتابت من ذلك اليهود وقالوا ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب وقال فأينما تولوا فثم وجه الله وقال الله تعالى وما جعلنا القبلة التي كنت عليها الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وروى ابن مردويه من حديث القاسم العمري عن عمه عبيد الله بن عمر وعن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس قال كان النبي صلى الله عليه وسلم اذا سلم من صلاته الى بيت المقدس رفع رأسه الى السماء فأنزل الله فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام الى الكعبة الى الميزاب يؤم به جبريل عليه السلام وروى الحاكم في مستدركه من حديث شعبة عن يعلى بن عطاء عن يحيى بن قطة قال رأيت عبد الله بن عمرو جالسا في المسجد الحرام بازاء الميزاب فتلا هذه الآية فلنولينك قبلة ترضاها قال نحو ميزاب الكعبة ثم قال صحيح الاسناد ولم يخرجاه ورواه ابن أبي حاتم عن الحسن بن عرفة عن هشام عن يعلى بن عطاء به وهكذا قال غيره وهو أحد قولي الشافعي رضي الله عنه ان الغرض اصابة عين الكعبة والقول الآخر وعليه الاكثرون ان المراد المواجهة كما رواه الحاكم من حديث محمد بن اسحق عن عمير بن زياد الكندي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه فول وجهك شطر المسجد الحرام قال شطره قبله ثم قال صحيح الاسناد ولم يخرجاه وهذا قول أبي العالية ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وقتادة والربيع ابن أنس وغيرهم وكما تقدم في الحديث الآخر ما بين المشرق والمغرب قبلة وقال القرطبي روى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال البيت قبلة لأهل المسجد والمسجد قبلة لأهل الحرم والحرم قبلة لأهل الارض في مشارقها ومغاربها من أمتي وقال أبو نعيم الفضل بن دكين حدثنا زهير عن أبي اسحق عن البراء ان النبي صلى الله عليه وسلم صلى قبل بيت المقدس ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا وكان يعجبه قبلته قبل البيت وانه صلى صلاة العصر وصلى معه قوم فخرج رجل ممن كان يصلي معه فمر على أهل المسجد وهم راكعون فقال اشهد بالله لقد صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مكة فداروا كما هم قبل البيت وقال عبد الرزاق أخبرنا اسرائيل عن أبي اسحق عن البراء قال لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة صلى نحو بيت المقدس ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا

ومرة ندبا بحسب تعين الجهاد وعدم تعينه (من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه) أي أنفقوا ما دمتم قادرين وقدموا لانفسكم اليوم من الاموال من قبل ان يأتي ما لا يمكنكم الانفاق فيه وهو يوم لا يتبايع الناس فيه ولا تجارة فيكتسب الانسان ما يفتدي به نفسه من العذاب (ولا خلة) خالص المودة مأخوذ من تخلل الاسرار بين الصديقين أخبر سبحانه انه لا خلة في يوم القيامة نافعة ولا مودة ولا صداقة (ولا شفاعة) مؤثرة الا لمن أذن الله له قيل وقد دلت النصوص على ثبوت المودة والشفاعة بالاذن بين المؤمنين فيكون هذا عاما مخصوصا (والكافرون هم الظالمون) فيه دليل على ان كل كافر ظالم لنفسه ومن جملة من يدخل تحت هذا العموم مانع الزكاة منعا يوجب كفره لوقوع ذلك في سياق الامر بالانفاق وعن عطاء قال الحمد لله الذي قال والكافرون هم الظالمون ولم يقل والظالمون هم الكافرون (الله لا اله الا هو الحي القيوم) أي لا معبود بحق الا هو وهذه الجملة خبر المبتدا والحي الباقي وقيل الذي لا يزول ولا يحول وقيل المصرف للامور والمقدر للاشياء قال الطبري عن قوم انه يقال حي كما وصف نفسه ويسلم ذلك دون أن ينظر فيه وهو خبر ثان أو مبتدأ خبره محذوف والقيوم القائم على كل نفس بما كسبت وقيل القائم بذاته المقيم لغيره وقيل القائم بتدبير الخلق وحفظه وقيل هو الذي لا ينام وقيل الذي لا بديل له وقرأ جماعة القيام بالالف وروى ذلك عن عمر ولا خلاف بين أهل اللغة ان القيوم أعرف عند العرب وأصح بناء وأثبت علة وهذه الآية أفضل آية في القرآن ومعنى الفضل ان الثواب على قراءتها أكثر منه على غيرها من الآيات هذا هو التحقيق في تفضيل القرآن بعضه على بعض وانما كانت أفضل لانها جمعت من أحكام الالوهية وصفات الاله الثبوتية والسلبية ما لم تجمعه آية أخرى (لا تأخذه سنة ولا نوم) هذا كالتعليل لقوله القيوم السنة النعاس في قول الجمهور والنعاس ما يتقدم النوم من الفتور وانطباق العينين فاذا صار في القلب صار نوما وفرق المفضل بين السنة والنعاس والنوم فقال السنة من الرأس والنعاس في العين والنوم في القلب انتهى والذي ينبغي التعويل عليه في الفرق بين السنة والنوم ان السنة لا يفقد معها العقل بخلاف النوم فانه استرخاء أعضاء الدماغ من رطوبات الابخرة حتى يفقد معه العقل بل وجميع الادراكات بسائر المشاعر والمراد أنه لا يعتريه سبحانه شيء منهما وقدم السنة على النوم لكونها تتقدمه في

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب أن يحول نحو الكعبة فنزلت قد نرى تقلب وجهك فى السماء فصرف الى الكعبة
وروى النسائى عن أبى سعيد بن المعلى قال كنا نغدو الى المسجد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فنصلى فيه فمررنا يوما ورسول
الله صلى الله عليه وسلم قاعد على المنبر فقلت لقد حدث أمر فجلست فقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية قد نرى تقلب
وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها حتى فرغ من الآية فقلت لصاحبى تعال نركع ركعتين قبل ان ينزل رسول الله صلى الله
عليه وسلم فنكون أول من صلى فتوارينا فصليناهما (٣٣٦) ثم نزل النبى صلى الله عليه وسلم وصلى للناس الظهر يومئذ
وكذا روى ابن مردويه عن ابن عمر
ان أول صلاة صلاها رسول الله
صلى الله عليه وسلم الى الكعبة
صلاة الظهر وانها الصلاة الوسطى
والمشهور ان أول صلاة صلاها الى
الكعبة صلاة العصر ولهذا تأخر
الخبر عن أهل قباء الى صلاة الفجر
وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه
حدثنا سليمان بن أحمد حدثنا
الحسين بن اسحق التسترى حدثنا
رجاء بن محمد السقطى حدثنا اسحق
ابن ادريس حدثنا ابراهيم بن
جعفر حدثنى أبى عن جدته أم
أبيه نويلة بنت مسلم قالت
صلينا الظهر أو العصر فى مسجد
بنى حارثة فاستقبلنا مسجد ايلياء
فصلينا ركعتين ثم جاء من يحدثنا
ان رسول الله صلى الله عليه وسلم
قد استقبل البيت الحرام فتحول
النساء مكان الرجال والرجال
مكان النساء فصلينا السجدتين
الباقيتين ونحن مستقبلون البيت
الحرام فحدثنى رجل من بنى حارثة
ان النبى صلى الله عليه وسلم قال
أولئك رجال يؤمنون بالغيب
وقال ابن مردويه أيضا حدثنا
محمد بن على بن دحيم حدثنا أحمد بن حازم حدثنا مالك بن اسمعيل النهدى حدثنا قيس عن زياد بن علاقة
عن عمارة بن أوس قال بينما نحن فى الصلاة نحو بيت المقدس ونحن ركوع اذ نادى مناد بالباب ان القبلة قد حولت الى الكعبة
قال فأشهد على امامنا انه انحرف فتحول هو والرجال والصبيان وهم ركوع نحو الكعبة وقوله وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم
شطره أمر تعالى باستقبال الكعبة من جميع جهات الارض شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ولا يستثنى من هذا شئ سوى النافلة فى
حال السفر فانه يصليها حيثما توجه قالبه وقلبه نحو الكعبة وكذا فى حال المسايفة فى القتال يصلى على كل حال وكذا من جهل

الوجود فهو على حد لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها قال الرازى فى تفسيره ان
السنة ما تقدم النوم فاذا كانت عبارة عن مقدمة النوم فاذا قيل لا تأخذه سنة دل على انه
لا يأخذه نوم بطريق الاولى فكان ذكر النوم تكرارا قلنا تقدير الآية لا تأخذه سنة
فضلا عن ان يأخذه نوم والله أعلم بمراده انتهى وأقول أن هذه الاولوية التى ذكرها غير
مسلمة فان النوم قد يرد ابتداء من دون ما ذكر من النعاس واذا ورد على القلب والعين
دفعة واحدة فانه يقال له نوم ولا يقال له سنة فلا يستلزم نفى السنة نفى النوم وقد ورد عن
العرب نفيهما جميعا وأيضا فان الانسان يقدر على ان يدفع عن نفسه السنة ولا يقدر على
ان يدفع عن نفسه النوم فقد يأخذه النوم ولا تأخذه السنة فلو وقع الاقتصار فى النظم
القرآنى على نفى السنة لم يفد ذلك نفى النوم وهكذا لو وقع الاقتصار على نفى النوم لم يفد نفى
السنة فكم من ذى سنة غير نائم وكرر حرف النفى للتنصيص على شمول النفى لكل واحد
منهما فالسنة النوم الخفيف والنوم هو الثقيل المزيل للعقل والقوة والوسنان بين النائم
واليقظان والجملة نفى للتشبيه بينه تعالى وبين خلقه والله منزه عن النقص والآفات وان
ذلك تغير وهو مقدس عن التغير وعن أبى موسى الاشعرى قال قام فينا رسول الله صلى
الله عليه وآله وسلم خطيبا بخمس كلمات فقال ان الله عز وجل لا ينام ولا ينبغى له ان ينام
الحديث رواه مسلم (له ما فى السموات وما فى الارض) يعنى انه تعالى مالك جميع ذلك بغير
شريك ولا منازع وهو خالقهم وهم عبيده وخلقه وهم فى ملكه وأجرى الغالب مجرى
الكل فعبر عنه بلفظ ما دون من وفيه رد على المشركين العابدين لبعض الكواكب التى فى
السماء والاصنام التى فى الارض يعنى فلا تصلح أن تعبد لانها مملوكة مخلوقة له واللام اما
للقهر واما للملك واما للايجاد (من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه) فى هذا الاستفهام من
الانكار على من يزعم ان أحدا من عباده يقدر على ان ينفع أحدا منهم بشفاعة أو غيرها
والتقريع والتوبيخ له ما لا مزيد عليه وفيه من الدفع فى صدور عباد القبور والصك فى
وجوههم والفت فى أعضادهم ما لا يقادر قدره ولا يبلغ مداه والذى يستفاد منه فوق
ما يستفاد من قوله تعالى ولا يشفعون الا لمن ارتضى وقوله تعالى وكم من ملك فى السموات
لا تغنى شفاعتهم شيأ الا من بعد ان يأذن الله لمن يشاء ويرضى وقوله تعالى لا يتكلمون
الا من أذن له الرحمن بدرجات كثيرة وقد بينت الاحاديث الصحيحة الثابتة فى دواوين
الاسلام

جهة القبلة يصلي باجتهاده وان كان مخطئا في نفس الامر لان الله تعالى لا يكلف نفسا الا وسعها *(مسئلة)* وقد استدل المالكية بهذه الآية على ان المصلي ينظر أمامه لا الى موضع سجوده كما ذهب اليه الشافعي وأحمد وأبو حنيفة قال المالكية بقوله فول وجهك شطر المسجد الحرام فلو نظر الى موضع سجوده لاحتاج أن يتكلف ذلك بنوع من الانحناء وهو ينافي كمال القيام وقال بعضهم ينظر المصلي في قيامه الى صدره وقال شريك القاضي ينظر في حال قيامه الى موضع سجوده كما قال جمهور الجماعة لانه أبلغ في الخضوع وآكد في الخشوع وقد ورد به الحديث وأما في حال ركوعه فعلى موضع قدميه وفي حال سجوده الى موضع أنفه وفي حال قعوده الى حجره وقوله وان الذين أوتوا الكتاب ليعلمون انه الحق من ربهم أي واليهود الذين أنكروا استقبالكم الكعبة وانصرافكم عن بيت المقدس يعلمون ان الله تعالى سيوجهك اليها بما في كتبهم عن أنبيائهم من النعت والصفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأمته وما خصه الله تعالى به وشرفه من الشريعة الكاملة العظيمة ولكن أهل الكتاب يتكاتمون ذلك بينهم حسدا وكفرا وعنادا ولهذا تهددهم تعالى بقوله وما الله بغافل عما تعملون (ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم انك اذا لمن الظالمين) يخبر تعالى عن كفر اليهود وعنادهم ومخالفتهم ما يعرفونه من شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم وانه لو أقام عليهم كل دليل على صحة ما جاءهم به لما اتبعوه وتركوا أهواءهم كما قال تعالى ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الاليم ولهذا قال ههنا ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وقوله وما أنت بتابع قبلتهم اخبار عن شدة متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم لما أمره الله تعالى به وانه كما هم مستمسكون بآرائهم وأهوائهم فهو أيضا مستمسك بأمر الله وطاعته واتباع مرضاته وانه لا يتبع أهواءهم في جميع أحواله ولا كونه متوجها الى بيت المقدس لكونها قبلة اليهود وانما ذلك عن أمر الله تعالى ثم حذر تعالى عن مخالفة الحق الذي يعلمه العالم الى الهوى فان العالم الحجة عليه أقوم من غيره ولهذا قال مخاطبا للرسول والمراد به الامة ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم

الاسلام صفة الشفاعة ولمن هي ومن يقوم بها بالاذن (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم) الضميران لما في السموات والارض بتغليب العقلاء على غيرهم وما بين أيديهم وما خلفهم عبارة عن المتقدم عليهم والمتأخر عنهم او عن الدنيا والآخرة وما فيهما وقال مجاهد ما مضى من الدنيا وما خلفهم من الآخرة وعن ابن عباس ما قدموا من أعمالهم وما أضاعوا من أعمالهم والمقصود انه عالم بجميع المعلومات لا يخفى عليه شيء من أحوال جميع خلقه حتى يعلم دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء تحت الارض الغبراء وحركة الذرة في جو السماء والطير في الهواء والسمك في الماء وفيه رد على من ينفي عنه سبحانه علم الجزئيات كالفلاسفة وهي أي صفة العلم له سبحانه امام أئمة الصفات فلا تخفى عليه خافية في الارض ولا في السماء (ولا يحيطون بشيء من علمه) قد تقدم معنى الاحاطة والعلم هنا بمعنى المعلوم أي لا يحيطون بشيء من معلوماته (الا بما شاء) ان يطلعهم عليه بأخبار الانبياء والرسل ليكون دليلا على نبوتهم وليس ذلك اليهم بل اليه (وسع كرسيه) يقال فلان يسع الشيء سعة اذا احتمله وأمكنه القيام به وأصل الكرسي في اللغة مأخوذ من تركب الشيء بعضه على بعض ومنه الكراسة لتركب بعض أوراقها على بعض وفي العرف ما يجلس عليه والكرسي هنا الظاهر انه الجسم الذي وردت الآثار بصفته كما سيأتي بيان ذلك وقد نفى وجوده جماعة من المعتزلة وأخطؤا في ذلك خطأ بينا وغلطوا غلطا فاحشا وقال بعض السلف ان الكرسي هنا عبارة عن العلم قالوا ومنه قيل للعلماء كراسي ومنه الكراسة التي يجمع فيها العلم ورجح هذا القول ابن جرير الطبري وفي القاموس الكرسي بالضم والكسر السرير والعلم والجمع كراسي وقيل كرسيه قدرته التي يمسك بها السموات والارض كما يقال اجعل لهذا الحائط كرسيا أي ما يعمده وقيل ان الكرسي هو العرش وقيل هو تصوير لعظمته ولا حقيقة له قال التفتازاني انه من باب اطلاق المركب الحسي المتوهم على المعنى العقلي المحقق وقال البيضاوي لا كرسي في الحقيقة ولا قاعد وهو تمثيل مجرد وقيل هو عبارة عن الملك والسلطان مأخوذ من كرسي العالم والملك والحق القول الاول ولا وجه للعدول عن المعنى الحقيقي الا مجرد خيالات تسببت عن جهالات وضلالات جاءت عن الفلاسفة أقماهم الله تعالى والمراد بكونه وسع (السموات والارض) انها صارت فيه وانه وسعها ولم يضق عنها لكونه بسيطا واسعا وأخرج الدارقطني في الصفات

انك اذا لمن الظالمين (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وان فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون الحق من ربك فلا تكونن من الممترين) يخبر تعالى ان علماء أهل الكتاب يعرفون صحة ما جاءهم به الرسول صلى الله عليه وسلم كما يعرف أحدهم ولده والعرب كانت تضرب المثل في صحة الشيء بهذا كما جاء في الحديث ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لرجل معه صغير ابنك هذا قال نعم يارسول الله أشهد به قال أما انه لا يخفى عليك ولا تخفى عليه قال القرطبي ويروى عن عمر انه قال لعبد الله بن سلام أتعرف محمدا كما تعرف ولدك قال نعم وأكثر نزل الامين من السماء على الامين في الارض بنعته فعرفته واني لا ادري ما كان من أمه قلت وقد يكون المراد يعرفونه كما يعرفون أبناءهم من بين أبناء الناس لا يشك أحد ولا يمترى في معرفة ابنه اذا رآه من أبناء الناس كلهم ثم أخبر تعالى انهم مع هذا التحقق والاتقان العلمي ليكتمون الحق أي ليكتمون الناس ما في كتبهم من صفة النبي صلى الله عليه وسلم وهم يعلمون ثم ثبت تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وأخبرهم بأن ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم هو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك فقال الحق من ربك فلا تكونن من الممترين (ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات أينما تكونوا يأت بكم الله جميعا ان الله على كل شيء قدير) قال العوفي عن ابن عباس ولكل وجهة هو موليها يعني بذلك أهل الاديان يقول لكل قبيلة قبلة يرضونها ووجهة الله حيث توجه المؤمنون وقال أبو العالية لليهودي وجهة هو موليها وللنصراني وجهة هو موليها وهداكم أنتم أيها الامة الى القبلة التي هي القبلة وروى عن مجاهد وعطاء والضحاك والربيع بن أنس والسدي نحو هذا وقال مجاهد في الرواية الاخرى والحسن أمر كل قوم يصلون الى على الكعبة وقرأ ابن عباس وأبو جعفر الباقر وابن عامر ولكل وجهة هو مولاها وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات الى الله مرجعكم جميعا وقال ههنا أينما تكونوا يأت بكم الله جميعا ان الله على كل شيء قدير أي هو قادر على جمعكم من الارض وان تفرقت أجسادكم وأبدانكم (ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وانه للحق من ربك وما الله بغافل عما تعملون ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام

والخطيب في تاريخه عن ابن عباس قال سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن قول الله وسع كرسيه قال كرسيه موضع قدمه والعرش لا يقدر قدره الا الله عز وجل وأخرجه الحاكم وصححه وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ في العظمة وابن مردويه والبيهقي عن أبي ذر الغفاري انه سأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الكرسي فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والذي نفسي بيده ما السموات السبع عند الكرسي الا كحلقة ملقاة في أرض فلاة وان فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة مرفوعا انه موضع القدمين وفي سنده الحكم بن ظهير الفزاري الكوفي وهو متروك وقد ورد عن جماعة من السلف من الصحابة وغيرهم في وصف الكرسي آثار لا حاجة في بسطها (ولا يؤده حفظهما) معناه لا يثقله ولا يجهده ولا يشق عليه حفظ السموات والارض يقال آدني بمعنى أثقلني وتحملت منه مشقة وقال الزجاج يحتمل أن يكون الضمير في قوله يؤده لله سبحانه ويجوز أن يكون للكرسي لانه من أمر الله (وهو العلي العظيم) العلي يراد به علو القدر والمنزلة أي الرفيع فوق خلقه ليس فوقه شيء وقيل العلي بالملك والسلطنة والقهر فلا أعلى منه أحد وقيل علا من ان يحيط به وصف الواصفين ذو العظمة والجلال الذي كل في عظمته وحكى الطبري عن بعضهم انهم قالوا ذو العلي عن خلقه بارتفاع مكانه عن أماكن خلقه قال ابن عطية وهذا قول جهلة مجسمين وكان الواجب أن لا يحكى انتهى والخلاف في اثبات الجهة معروف في السلف والخلف والنزاع فيه كائن بينهم والادلة من الكتاب والسنة طافحة بها ولكن الناشئ على مذهب يرى غيره خارجا عن الشرع ولا ينظر في أدلته ولا يلتفت اليها والكتاب والسنة هما المعيار الذي يعرف به الحق من الباطل ويتبين به الصحيح من الفاسد ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والارض ولا شك ان هذا اللفظ يطلق على القاهر الغالب أيضا كما في قوله ان فرعون علا في الارض والعظيم بمعنى عظيم شأنه وخطره قال في الكشاف ان الجملة الاولى بيان لقيامه بتدبير الخلق وكونه مهيمنا عليه غير ساه عنه والثانية بيان لكونه مالكا لما يدبره والجملة الثالثة بيان لكبرياء شأنه والجملة الرابعة بيان لاحاطته بأحوال الخلق وعلمه بالمرتضى منهم المستوجب للشفاعة وغير المرتضى والجملة الخامسة بيان لسعة علمه وتعلقه بالمعلومات كلها أو لجلاله وعظم قدره انتهى وبالجملة فهذه الآية قد اشتملت

وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره لئلا يكون للناس عليكم حجة الا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشوني ولأتم نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون) هذا أمر ثالث من الله تعالى باستقبال المسجد الحرام من جميع أقطار الارض وقد اختلفوا في حكمة هذا التكرار ثلاث مرات فقيل تأكيدا لانه أول ناسخ وقع في الاسلام على مانص عليه ابن عباس وغيره وقيل بل هو منزل على أحوال فالامر الاول لمن هو مشاهد الكعبة والثاني لمن هو في مكة غائبا عنها والثالث لمن هو في بقية البلدان هكذا وجهه فخر الدين الرازي وقال القرطبي الاول لمن هو بمكة والثاني لمن هو في بقية الامصار (٣٣٩) والثالث لمن خرج في الاسفار ورجح هذا الجواب القرطبي وقيل انما ذكر ذلك لتعلقه بما قبله أو بعده من السياق فقال أولا قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها الى قوله وان الذين أوتوا الكتاب ليعلمون انه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون فذكر في هذا المقام اجابته الى طلبته وأمره بالقبلة التي كان يود التوجه اليها ويرضاها وقال في الامر الثاني ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وانه للحق من ربك وما الله بغافل عما تعملون فذكر انه الحق من الله وارتقاءه المقام الاول حيث كان موافقا لرضا الرسول صلى الله عليه وسلم فبين انه الحق أيضا من الله يحبه ويرتضيه وذكر في الامر الثالث حكمة قطع حجة المخالف من اليهود الذين كانوا يتحججون باستقبال الرسول الى قبلتهم وقد كانوا يعلمون بما في كتبهم انه سيصرف الى قبلة ابراهيم عليه السلام الى الكعبة وكذلك مشركو العرب انقطعت حجتهم لما صرف الرسول صلى الله عليه وسلم عن قبلة اليهود الى قبلة ابراهيم التي هي أشرف وقد كانوا يعظمون الكعبة وأعجبهم استقبال الرسول اليها وقيل غير ذلك من الاجوبة عن حكمة التكرار وقد بسطها الرازي وغيره والله أعلم وقوله لئلا يكون للناس عليكم حجة أي أهل الكتاب فانهم يعلمون من صفة هذه الامة التوجه الى الكعبة فاذا فقدوا ذلك من صفتها ربما احتجوا بها على المسلمين ولئلا يحتجوا بموافقة المسلمين اياهم في التوجه الى بيت المقدس وهذا أظهر قال أبو العالية لئلا يكون للناس عليكم حجة يعني به أهل الكتاب حين قالوا صرف محمد الى الكعبة وقالوا اشتاق الرجل الى بيت أبيه ودين قومه وكان حجتهم على النبي صلى الله عليه وسلم انصرافه الى البيت الحرام أن قالوا سيرجع الى ديننا

على أمهات المسائل الالهية فانها دالة على انه تعالى موجود واحد في الالوهية متصف بالحياة الازلية الابدية واجب الوجود لذاته موجد لغيره اذ القيوم هو القائم بنفسه المقيم لغيره منزه عن التحيز والحلول مبرأ عن التغير والفتور لا يناسب الاشباح ولا يعتريه ما يعتري النفوس والارواح مالك الملك والملكوت ومبدع الاصول والفروع وذو البطش الشديد الذي لا يشفع أحد عنده كائنا من كان الا من أذن له الرحمن عالم بالاشياء كلها جليها وخفيها كليها وجزئيها واسع الملك والقدرة لكل ما يصح ان يملك ويقدر عليه لا يشق عليه شاق ولا يشغله شأن عن شأن متعال عن الخلق مباين عن العالم مستو على العرش على الذات سمي الصفات كبير الشأن جليل القدر رفيع الذكر مطاع الامر جلي البرهان على عما يدركه القياس والظن والوهم عظيم لا يحيط به علم الخلائق والفهم ولذلك قد ورد في فضل هذه الآية أحاديث فأخرج أحمد ومسلم واللفظ له عن أبي بن كعب ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم سأله أي آية من كتاب الله أعظم قال آية الكرسي قال ليهنك العلم أبا المنذر وأخرج البخاري في تاريخه والطبراني وأبو نعيم في المعرفة بسند رجاله ثقات عن ابن الاسقع البكري ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم جاءهم في صفة المهاجرين فسأله انسان اي آية في القرآن العظيم أعظم فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم الله لا اله الا هو الحي القيوم الآية وأخرج سعيد بن منصور والحاكم والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال سورة البقرة فيها آية سيدة آي القرآن لا تقرأ في بيت فيه شيطان الا خرج منه آية الكرسي قال الحاكم صحيح الاسناد ولم يخرجاه وأخرج أبو داود والترمذي وصححه من حديث أسماء بنت يزيد بن السكن قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول في هاتين الآيتين الله لا اله الا هو الحي القيوم والم الله لا اله الا هو ان فيهما اسم الله الاعظم وقد وردت أحاديث في فضلها غير هذه وورد أيضا في فضل قراءتها دبر الصلوات وفي غير ذلك وورد أيضا مع مشاركة غيرها لها أحاديث في فضلها وورد عن السلف في ذلك شئ كثير وقد اختلف أهل العلم في قوله (لا اكراه في الدين) على أقوال الاول انها منسوخة لان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد أكره العرب على دين الاسلام وقاتلهم ولم يرض منهم الا الاسلام والناسخ لها قوله تعالى يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين وقال تعالى يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار

كما رجع الى قبلتنا قال ابن أبى حاتم وروى عن مجاهد وعطاء والضحاك والربيع بن أنس وقتادة والسدى نحو هذا وقال هؤلاء فى قوله الا الذين ظلموا منهم يعنى مشركى قريش ووجه بعضهم حجة الظلمة وهى داحضة أن قالوا ان هذا الرجل يزعم انه على دين ابراهيم فان كان توجهه الى بيت المقدس على ملة ابراهيم فلم رجع عنه والجواب ان الله تعالى اختار له التوجه الى البيت المقدس أولا لما له تعالى فى ذلك من الحكمة فأطاع ربه تعالى فى ذلك ثم صرفه الى قبلة ابراهيم وهى الكعبة فامتثل أمر الله فى ذلك أيضا فهو صلوات الله وسلامه عليه مطيع لله فى جميع أحواله

لا يخرج عن أمر الله طرفة عين وأمته تبع له وقوله فلا تخشوهم واخشونى أى لا تخشوا شبه الظلمة المتعنتين وأفردوا الخشية لى فانه تعالى هو أهل أن يخشى منه وقوله ولأتم نعمتى عليكم عطف على لئلا يكون للناس عليكم حجة أى لأتم نعمتى عليكم فيما شرعت لكم من استقبال الكعبة لتكمل لكم الشريعة من جميع وجوهها ولعلكم تهتدون أى الى ما ضلت عنه الامم هديناكم اليه وخصصناكم به ولهذا كانت هذه الامة أشرف الامم وأفضلها (كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم مالم تكونوا تعلمون فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون) يذكر تعالى عباده المؤمنين ما أنعم به عليهم من بعثة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم اليهم يتلو عليهم آيات الله مبينات ويزكيهم أى يطهرهم من رذائل الاخلاق ودنس النفوس وأفعال الجاهلية ويخرجهم من الظلمات الى النور ويعلمهم الكتاب وهو القرآن والحكمة وهى السنة ويعلمهم مالم يكونوا يعلمون فكانوا فى الجاهلية الجهلاء يسفهون بالقول الفرا فانتقلوا ببركة رسالته ويمن سفارته الى حال الاولياء وسجايا العلماء قيل فصاروا أعمق الناس علما وأبرهم قلوبا وأقلهم تكلفا وأصدقهم لهجة وقال تعالى لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم الآية وذم من لم يعرف قدر هذه النعمة فقال تعالى ألم تر الى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار قال ابن عباس يعنى بنعمة الله محمدا صلى الله عليه وسلم ولهذا ندب الله المؤمنين الى الاعتراف بهذه النعمة ومقابلتها بذكره وشكره وقال فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون قال مجاهد فى قوله كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يقول كما فعلت

وليجدوا فيكم غلظة وقال تعالى ستدعون الى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون وقد ذهب الى هذا كثير من المفسرين القول الثانى انها ليست بمنسوخة وانما نزلت فى أهل الكتاب خاصة وانهم لا يكرهون على الاسلام اذا أدوا الجزية بل الذين يكرهون هم أهل الاوثان فلا يقبل منهم الا الاسلام أو السيف والى هذا ذهب الشعبى والحسن وقتادة والضحاك القول الثالث ان هذه الآية فى الانصار خاصة القول الرابع ان معناها لا تقولوا لمن أسلم تحت السيف انه مكره فلا اكراه فى الدين القول الخامس انها وردت فى السبى متى كانوا من أهل الكتاب لم يجبروا على الاسلام وقال ابن كثير فى تفسيره أى لا تكرهوا أحدا على الدخول فى دين الاسلام فانه بين واضح جلى دلائله وبراهينه لا يحتاج الى أن يكره أحد على الدخول فيه بل من هداه الله الى الاسلام وشرح صدره ونور بصيرته دخل فيه على بينة ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره فانه لا يفيده الدخول فى الدين مكرها مقسورا وهذا يصلح أن يكون قولا سادسا وقال فى الكشاف فى تفسير هذه الآية أى لم يجر الله أمر الايمان على الاجبار والقسر ولكن على التمكين والاختيار ونحوه قوله ولو شاء ربك لآمن من فى الارض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين أى لو شاء لقسرهم على الايمان ولكن لم يفعل وبنى الامر على الاختيار وهذا يصلح أن يكون قولا سابعا والذى ينبغى اعتماده ويتعين الوقوف عنده انها فى السبب الذى نزلت لاجله محكمة غير منسوخة وهو ان المرأة من الانصار تكون مقلاة لا يكاد يعيش لها ولد فتجعل على نفسها ان عاش لها ولد أن تهوده فلما أجليت يهود بنى النضير كان فيهم من أبناء الانصار فقالوا لا ندع أبناءنا فنزلت أخرجه أبو داود والنسائى وغيرهما عن ابن عباس وقد وردت هذه القصة من وجوه حاصلها ما ذكره ابن عباس مع زيادات تتضمن ان الانصار قالوا انما جعلناهم على دينهم أى دين اليهود ونحن نرى ان دينهم أفضل من ديننا وان الله جاء بالاسلام فلنكرهنهم فلما نزلت خير الابناء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولم يكرههم على الاسلام وهذا يقتضى ان أهل الكتاب لا يكرهون على الاسلام اذا اختاروا البقاء على دينهم وأدوا الجزية وأما أهل الحرب فالآية وان كانت تعمهم لان النكرة فى سياق النفى وتعريف الدين يفيدان ذلك والاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب لكن قد خصص هذا العموم بما ورد من الآيات فى اكراه أهل الحرب من الكفار على الاسلام وقد

فاذكروني قال عبدالله بن وهب عن هشام بن سعيد عن زيد بن أسلم ان موسى عليه السلام قال يارب كيف أشكرك قال له ربه تذكرني ولاتنساني فاذا ذكرتني فقد شكرتني واذا نسيتني فقد كفرتني قال الحسن البصري وابو العالية والسدي والربيع بن أنس ان الله يذكر من ذكره ويزيد من شكره ويعذب من كفره وقال بعض السلف في قوله تعالى اتقوا الله حق تقاته قال هو أن يطاع فلا يعصى ويذكر فلا ينسى ويشكر فلا يكفر وقال ابن أبي حاتم حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح أخبرنا يزيد بن هرون أخبرنا عمارة الصيدلاني أخبرنا مكحول الازدي قال قلت لابن عمر (٣٤١) أرأيت قاتل النفس وشارب الخمر والسارق والزاني يذكر الله وقد قال الله تعالى فاذكروني أذكركم قال اذا ذكر الله هذا ذكره الله بلعنته حتى يسكت وقال الحسن البصري في قوله فاذكروني أذكركم قال اذكروني فيما افترضت عليكم أذكركم فيما أوجبت لكم على نفسي وعن سعيد بن جبير اذكروني بطاعتي أذكركم بمغفرتي وفي رواية برحمتي وعن ابن عباس في قوله اذكروني أذكركم قال ذكر الله اياكم أكبر من ذكركم اياه وفي الحديث الصحيح يقول الله تعالى من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ومن ذكرني في ملا ذكرته في ملا خير منه قال الامام أحمد حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله عزوجل يا ابن آدم ان ذكرتني في نفسك ذكرتك في نفسي وان ذكرتني في ملا ذكرتك في ملا من الملائكة أو قال في ملا خير منه وان دنوت مني شبرا دنوت منك ذراعا وان دنوت مني ذراعا دنوت منك باعا وان أتيتني تمشي أتيتك هرولة صحيح الاسناد أخرجه البخاري من حديث قتادة وعنده قال قتادة الله أقرب بالرحمة وقوله واشكروا لي ولا تكفرون أمر الله تعالى بشكره ووعد على شكره بمزيد الخير فقال واذ تأذن ربكم لئن شكرتم لازيدنكم ولئن كفرتم ان عذابي لشديد وقال الامام أحمد حدثنا روح حدثنا شعبة عن الفضيل بن فضالة رجل من قيس حدثنا أبو رجاء العطاردي قال خرج علينا عمران ابن حصين وعليه مطرف من خز لم نره عليه قبل ذلك ولا بعده فقال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من أنعم الله عليه نعمة فان الله يحب أن يرى أثر نعمته على خلقه وقال روح مرة على عبده (ياأيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة ان الله

قيل ان هذه الآية الى خالدون من بقية آية الكرسي والتحقيق أن هذه الآية مستأنفة جيء بها اثر بيان صفات الباري المذكورة ايذانا بان من حق العاقل أن لايحتاج الى التكليف والاكراه في الدين بل يختار الدين الحق من غير تردد (قد تبين الرشد من الغي) الرشد هنا الايمان والغي الكفر أي قد تميز أحدهما من الآخر وأصل الغي بمعنى الجهل الا أن الجهل في الاعتقاد والغي في الاعمال وهذا استئناف يتضمن التعليل لما قبله (فمن يكفر بالطاغوت) الطاغوت فعلوت من طغى يطغى ويطغو اذا جاوز الحد قال سيبويه هو اسم مذكر مفرد أي اسم جنس يشمل القليل والكثير قاله سيبويه وقال أبو علي الفارسي انه مصدر كرهبوت وجبروت يوصف به الواحد والجمع وقيل أصل الطاغوت في اللغة مأخوذ من الطغيان يؤدي معناه من غير اشتقاق وقال المبرد هو جمع قال ابن عطية وذلك مردود قال الجوهري والطاغوت الكاهن والساحر والشيطان وكل رأس في الضلال وكل ما عبد من دون الله وقد يكون واحدا قال تعالى يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به وقد يكون جمعا قال تعالى أولياؤهم الطاغوت والجمع الطواغيت أي فمن يكفر بالشيطان أو الاصنام أو أهل الكهانة ورؤس الضلالة أو بالجميع (ويؤمن بالله) عزوجل بعد ما تميز له الرشد من الغي والحق عن الباطل والهدى عن الضلالة وانما قدم الكفر بالطاغوت على الايمان بالله لان الشخص مالم يخالف الشيطان ويترك عبادة غيره تعالى لم يؤمن بالله كما قالوا ان التخلية مقدمة على التحلية (فقد استمسك بالعروة) هو في الاصل شد اليد وأصل المادة يدل على التعلق ومنه عروته اذا ألممت به متعلقا به واعتراه الهم تعلق به (الوثقى) أي فقد فاز وتمسك بالحبل الوثيق المحكم والوثقى فعلى من الوثاقة تأنيث الاوثق وجمعها وثق مثل الفضلى والفضل وقد اختلف المفسرون في تفسير العروة الوثقى بعد اتفاقهم على ان ذلك من باب التشبيه والتمثيل لما هو معلوم بالدليل بما هو مدرك بالحاسة فقيل المراد بالعروة الايمان وقيل الاسلام وقيل لا اله الا الله وقيل من باب الاستعارة المفردة حيث استعير العروة الوثقى للاعتقاد الحق ولا مانع من الحمل على الجميع (لا انفصام لها) الانفصام الانكسار من غير بينونة قال الجوهري فصم الشيء كسره من غير أن يبين وأما القصم بالقاف فهو الكسر مع البينونة وفسر صاحب الكشاف الانفصام بالانقطاع والمعنى أن المتمسك

الصابرين ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون) لما فرغ تعالى من بيان الامر بالشكر شرع فى
بيان الصبر والارشاد والاستعانة بالصبر والصلاة فان العبد اما ان يكون فى نعمة فيشكر عليها أو فى نقمة فيصبر عليها كما جاء فى
الحديث عجبا للمؤمن لا يقضى الله له قضاء الا كان خيرا له ان أصابته سراء فشكر كان خيرا له وان أصابته ضراء فصبر كان خيرا له
و بين تعالى ان أجود ما يستعان به على تحمل المصائب الصبر والصلاة كما تقدم فى قوله واستعينوا بالصبر والصلاة وانها لكبيرة
الا على الخاشعين وفى الحديث ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا حزنه أمر صلى

بالدين كالمتمسك بالشئ الذى لا يمكن كسره ولا انقطاعه والجملة مستأنفة أو حالية
(والله سميع عليم) يسمع قول من كفر بالطاغوت وأتى بالشهادتين والجملة اعتراض تذييلى
حامل على الايمان رادع عن الكفر والنفاق بما فيه من الوعد والوعيد (الله ولى الذين آمنوا)
الولى فعيل بمعنى فاعل وهو الناصر (يخرجهم من الظلمات الى النور) تفسير للولاية
أو حال من الضمير فى ولى وهذا يدل على أن المراد بقوله الذين آمنوا الذين أرادوا الايمان
لان من قد وقع منه الايمان قد خرج من الظلمات الى النور الا ان يراد بالاخراج اخراجهم
من الشبهة التى تعرض للمؤمنين فلا يحتاج الى تقدير الارادة قيل كل ما فى القرآن من
الظلمات والنور فالمراد به الكفر والايمان غير الذى فى سورة الانعام فالمراد به الليل والنهار
وافراد النور لوحدة الحق وجمع الظلمات لتعدد فنون الضلال (والذين كفروا أولياؤهم
الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات) المراد بالنور ما جاء به أنبياء الله من الدعوة الى
الدين فان ذلك نور للكفار أخرجهم أولياؤهم منه الى ظلمة الكفر أى قررهم أولياؤهم على
ما هم عليه من الكفر بسبب صرفهم عن اجابة الداعى الى الله من الانبياء وقيل المراد
بالذين كفروا هنا الذين ثبت فى علمه تعالى كفرهم يخرجهم أولياؤهم من الشياطين ورؤس
الضلال من النور الذى هو فطرة الله التى فطر الناس عليها الى ظلمات الكفر التى وقعوا
فيها بسبب ذلك الاخراج وقيل ذكر هذا الاخراج مشاكلة للاول أو فيمن آمن بالنبى قبل
بعثته من اليهود ثم كفر به فتلخص أن الجواب الاول بالتسليم والثانى بالمنع (أولئك
أصحاب النار هم فيها خالدون) يعنى الكفار والطاغوت أى هم ملابسوها وملازموها
بسبب مالهم من الجرائم ماكثون فيها أبدا (ألم تر الى الذى حاج ابراهيم فى ربه) فى هذه
الآية استشهاد على ما تقدم ذكره من ان الكفرة أولياؤهم الطاغوت وهمزة الاستفهام
لانكار النفى وتقرير المنفى أى ألم ينته علمك أو نظرك الى هذا الذى صدرت منه هذه المحاجة
وألم تر كلمة يوقف بها المخاطب على تعجب منها ولفظها استفهام قال الفراء ألم تر بمعنى هل
رأيت أى هل رأيت الذى حاج ابراهيم وهو النمرود بن كوش بن كنعان بن سام بن نوح
وقيل انه النمرود بن فالخ بن شالخ بن أرفخشد بن سام وهو أول من وضع التاج على رأسه
وتجبر فى الارض وادعى الربوبية وكان ابن زنا (أن آتاه الله الملك) أى لان آتاه الله أو من
أجل أن آتاه الله على معنى أن ايتاء الملك أبطره وأورثه الكبر والعتو فحاج لذلك أو على انه

والصبر صبران فصبر على ترك
المحارم والمآثم وصبر على فعل
الطاعات والقربات والثانى أكثر
ثوابا لانه المقصود وأما الصبر
الثالث وهو الصبر على المصائب
والنوائب فذلك أيضا واجب
كالاستغفار من المعايب كما قال
عبد الرحمن بن زيد بن أسلم الصبر فى
بابين الصبر لله بما أحب وان ثقل
على الانفس والابدان والصبر لله
عما كره وان نازعت اليه الاهواء
فمن كان هكذا فهو من الصابرين
الذى يسلم عليهم ان شاء الله وقال
على بن الحسين زين العابدين اذا
جمع الله الاولين والآخرين
ينادى مناد أين الصابرون
ليدخلوا الجنة قبل الحساب قال
فيقوم عنق من الناس فتتلقاهم
الملائكة فيقولون الى أين يا بنى
آدم فيقولون الى الجنة فيقولون
وقبل الحساب قالوا نعم قالوا ومن
أنتم قالوا نحن الصابرون قالوا
وما كان صبركم قالوا صبرنا على
طاعة الله وصبرنا عن معصية الله
حتى توفانا الله قالوا أنتم كما قلتم
ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين

(قلت) ويشهد لهذا قوله تعالى انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب وقال سعيد بن جبير الصبر اعتراف العبد لله وضع
بما أصاب منه واحتسابه عند الله رجاء ثوابه وقد يجزع الرجل وهو متجلد لا يرى منه الا الصبر وقوله تعالى ولا تقولوا لمن يقتل فى
سبيل الله اموات بل أحياء يخبر تعالى ان الشهداء فى برزخهم أحياء يرزقون كما جاء فى صحيح مسلم ان أرواح الشهداء فى حواصل
طيور خضر تسرح فى الجنة حيث شاءت ثم تأوى الى قناديل معلقة تحت العرش فاطلع عليهم ربك اطلاعة فقال ماذا تبغون
فقالوا يا ربنا واى شئ نبغى وقد أعطيتنا مالم تعط أحدا من خلقك ثم عاد عليهم بمثل هذا فلما رأوا انهم لا يتركون من أن يسألوا قالوا

نريد ان تردنا الى الدار الدنيا فنقاتل فى سبيلك حتى نقتل فيك مرة أخرى لما يرون من ثواب الشهادة فيقول الرب جل جلاله انى كتبت انهم اليها لا يرجعون وفى الحديث الذى رواه الامام أحمد عن الامام الشافعي عن الامام مالك عن الزهرى عن عبد الرحمن ابن كعب بن مالك عن أبيه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم نسمة المؤمن طائر تعلق فى شجر الجنة حتى يرجعه الله الى جسده يوم يبعثه ففيه دلالة لعموم المؤمنين أيضا وان كان الشهداء قد خصصوا بالذكر فى القرآن تشريفا لهم وتكريما وتعظيما (ولنبلونكم بشئ من الخوف والجوع ونقص من الاموال والانفس (٣٤٣) والثمرات وبشر الصابرين الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون) أخبر تعالى انه يبتلى عباده أى يختبرهم ويمتحنهم كما قال تعالى ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم فتارة بالسراء وتارة بالضراء من خوف وجوع كما قال تعالى فأذاقها الله لباس الجوع والخوف فان الجائع والخائف كل منهما يظهر ذلك عليه ولهذا قال لباس الجوع والخوف وقال ههنا بشئ من الخوف والجوع أى بقليل من ذلك ونقص من الاموال أى ذهاب بعضها والانفس كموت الاصحاب والاقارب والاحباب والثمرات أى لا تغل الحدائق والمزارع كعادتها قال بعض السلف فكانت بعض النخيل لا تثمر غير واحدة وكل هذا وأمثاله مما يختبر الله به عباده فمن صبر أثابه ومن قنط أحل به عقابه ولهذا قال تعالى وبشر الصابرين وقد حكى بعض المفسرين ان المراد من الخوف ههنا خوف الله وبالجوع صيام رمضان وبنقص الاموال الزكاة والانفس والامراض والثمرات الاولاد وفى هذا نظر والله اعلم ثم بين تعالى من الصابرون الذين شكرهم فقال الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون أى تسلوا بقولهم هذا عما أصابهم وعلموا انهم ملك لله يتصرف فى عبيده بما يشاء وعلموا أنه لا يضيع لديه مثقال ذرة يوم القيامة فأحدث لهم ذلك اعترافهم بأنهم عبيده وانهم اليه راجعون فى الدار الآخرة ولهذا أخبر تعالى عما أعطاهم على ذلك فقال أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة أى ثناء من الله عليهم قال سعيد بن جبير أى أمنة من العذاب وأولئك هم المهتدون وقال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب نعم العدلان

وضع المحاجة التى هى أقبح وجوه الكفر موضع ما يجب عليه من الشكر كما يقال عاديتنى لانى أحسنت اليك قال مجاهد ملك الارض أربعة مؤمنان سليمان وذو القرنين وكافران نمرود وبخت نصر واختلفوا فى وقت المحاجة فقيل لما كسر ابراهيم الاصنام وقيل بعد القائه فى النار وكان مدة ملكه أربعمائة سنة (اذ قال ابراهيم ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت) أراد ابراهيم عليه السلام ان الله هو الذى يخلق الحياة والموت فى الاجساد وأراد الكافر انه يقدر على ان يعفو عن القتل فيكون ذلك احياء وعلى ان يقتل فيكون ذلك اماتة فكان هذا جوابا احمق لا يصح نصبه فى مقابلة حجة ابراهيم لانه أراد غير ما أراده الكافر فلو قال له ربى الذى يخلق الحياة والموت فى الاجساد فهل تقدر على ذلك لبهت الذى كفر بادى بدء وفى أول وهلة ولكنه انتقل معه الى حجة أخرى أوضح منها تنفيسا لخناقه وارسالا لعنان المناظرة (قال ابراهيم فان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب) لكون هذه الحجة لا تجرى فيها المغالطة ولا يتيسر للكافر ان يخرج عنها بمخرج مكابرة ومشاغبة وتمويها وتلبيسا على العوام (فبهت الذى كفر) بهت الرجل وبهت وبهت اذا انقطع وسكت متحيرا وقال ابن عطية وقد تأول قوم فى قراءة بهت بالفتح انه بمعنى سب وقذف وان النمرود هو الذى سب حين انقطع ولم تكن له حيلة انتهى وقال سبحانه فبهت الذى كفر ولم يقل فبهت الذى حاج اشعارا بان تلك المحاجة كفر وقيل هذا الفعل من جملة الافعال التى جاءت على صورة المبنى للمفعول والمعنى فيها على البناء للفاعل والبهت الانقطاع والحيرة وهو مبهوت لا باهت ولا بهيت (والله لا يهدى القوم الظالمين) تذييل مقرر لمضمون الجملة التى قبله (أو كالذى مر على قرية) أى ألم تر اليه كيف هداه الله وأخرجه من ظلمة الاشتباه الى نور العيان والشهود واختلف فى ذلك المار فروى عن مجاهد انه كان كافرا شك فى البعث وهذا ضعيف جدا لقوله كم لبثت والله لا يخاطب الكافر ولقوله ولنجعلك آية للناس وهذا لا يستعمل فى حق الكافر وقال ابن عباس وعبد الله بن سلام وسليمان بن بريدة والضحاك وقتادة وعكرمة والسدى هو عزير بن شرخيا وقال ابن عبيد ووهب بن منبه هو ارمياء بن حلقياء من سبط هرون وهو الخضر بعينه وعن رجل من أهل الشام انه حزقيل ومقصود القصة تعريف منكرى البعث قدرة الله على احياء خلقه بعد اماتتهم لا تعريف اسم ذلك المار قال وهب وعكرمة

ونعمت العلاوة وقوله أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة فهذان العدلان وأولئك هم المهتدون فهذه العلاوة وهي ما توضع بين العدلين وهي زيادة في الحمل فكذلك هؤلاء أعطوا ثوابهم وزيدوا أيضا وقد ورد في ثواب الاسترجاع وهو قول انا لله وانا اليه راجعون عند المصائب أحاديث كثيرة فمن ذلك ما رواه الامام أحمد حيث قال حدثنا يونس بن محمد حدثنا ليث يعني ابن سعد عن يزيد ابن عبد الله حدثت أسامة ابن الهاد عن عمرو بن أبي عمرو عن المطلب عن أم سلمة قالت أتاني أبو سلمة يوما من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لقد سمعت من رسول الله (٢٤٣) صلى الله عليه وسلم قولا سررت به قال لا يصيب أحدا من المسلمين مصيبة فيسترجع عند مصيبته ثم يقول اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيرا منها الا فعل ذلك به قالت أم سلمة فحفظت ذلك منه فلما توفي أبو سلمة استرجعت وقلت اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيرا منها ثم رجعت الى نفسي فقلت من أين لي خير من أبي سلمة فلما انقضت عدتي استأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أدبغ اهابا لي فغسلت يدي من القرظ وأذنت له فوضعت له وسادة أدم حشوها ليف فقعد عليها فخطبني الى نفسي فلما فرغ من مقالته قلت يا رسول الله ما بي أن لا يكون بك الرغبة ولكني امرأة في غيرة شديدة فأخاف أن ترى مني شيئا يعذبني الله به وأنا امرأة قد دخلت في السن وأنا ذات عيال فقال أما ما ذكرت من الغيرة فسوف يذهبها الله عز وجل عنك وأما ما ذكرت من السن فقد أصابني مثل الذي أصابك وأما ما ذكرت من العيال فانما عيالك عيالي قالت فقد سلمت لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت أم سلمة بعد أبدلني الله بأبي سلمة خيرا منه رسول الله صلى الله عليه وسلم

وفي صحيح مسلم عنها أنها قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول انا لله وانا اليه راجعون اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيرا منها الا آجره الله في مصيبته وأخلف له خيرا منها قالت فلما توفي أبو سلمة قلت كما أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخلف الله لي خيرا منه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال الامام أحمد حدثنا يزيد وعباد بن عباد قالا حدثنا هشام بن أبي هشام حدثنا عباد بن زياد عن أمه عن فاطمة ابنة الحسين عن أبيها الحسين بن علي عن النبي صلى الله عليه وسلم

والربيع أن القرية هي بيت المقدس بعد تخريب بختنصر لها وقيل المراد بالقرية أهلها وقيل هي القرية التي خرج أهلها من ديارهم وهم ألوف وقال الكلبي هي دير سابر آباد موضع بفارس وقال السدي سلماباد محلة أو قرية من نواحي جرجان أو همدان وقيل دير هرقل بين البصرة وعسكر مكرم على شط دجلة والأول هو الأظهر والأشهر (وهي خاوية على عروشها) أي ساقطة يعني سقط السقف ثم سقطت الحيطان عليه قاله السدي واختاره ابن جرير وقيل معناه خالية من الناس والبيوت قائمة وأصل الخوى الخلو يقال خوت الدار وخويت تخوى خواء ممدودا وخويا أقوت والخوى أيضا الجوع لخلو البطن عن الغذاء والظاهر القول الأول بدلالة قوله على عروشها من خوى البيت اذا سقط وخوت الأرض اذا تهدمت قال ابن عباس خاوية أي خراب وقال قتادة خاوية أي ليس فيها أحد وقال الضحاك العروش السقوف (قال) أي ذلك المار (أنى يحيي هذه الله بعد موتها) أي متى يحيي أو كيف يحيي وهو استبعاد لاحيائها وهي على تلك الحالة المشابهة لحالة الأموات المباينة لحالة الأحياء وتقديم المفعول لكون الاستبعاد ناشئا من جهته لا من جهة الفاعل وقيل قال ذلك استعظاما لقدرته تعالى قاله السيوطي وعبارة أبي السعود قال ذلك تلهفا عليها وتشوقا الى عمارتها مع استشعار اليأس منها وعبارة البيضاوي قال ذلك اعترافا بالقصور عن معرفة طريق الاحياء وسبب توجعه على تلك القرية أنه كان من أهلها من جملة من سباهم بختنصر فلما تخلص من السبي وجاء ورآها على تلك الحالة توجع وتلهف ولما قال المار هذه المقالة مستبعدا لاحياء القرية مع كونها بالعمارة دليلا والسكون فيها ضرب الله المثل في نفسه بما هو أعظم مما سأل عنه فقال (فأماته الله مائة عام) وحكى الطبري عن بعضهم أنه قال كان هذا القول شكا في قدرة الله على الاحياء فلذلك ضرب له المثل في نفسه قال ابن عطية ليس يدخل شك في قدرة الله سبحانه على احياء قرية بجلب العمارة اليها وانما تصور أن ذلك اذا كان سؤاله عن احياء موتاها والعام السنة أصله مصدر كالعوم سمي به هذا القدر من الزمن والعوم هو السباحة سميت السنة عاما لأن الشمس تعوم في جميع بروجها (ثم بعثه) أي أحياه ليريه كيفية ذلك وايثار البعث على الاحياء للدلالة على سرعته وسهولة تأتيه على الباري تعالى كأنه بعثه من النوم وللايذان بأنه عاد كهيئته يوم موته عاقلا فاهما مستعدا للنظر

والاستدلال

قال مامن مسلم ولا مسلمة يصاب بمصيبة فيذكرها وان طال عهدها وقال عباد قدم عهدها فيحدث لذلك استرجاعا الا جدد الله له عند
ذلك فأعطاه مثل أجرها يوم أصيب ورواه ابن ماجه في سننه عن أبي بكر بن أبي شيبة عن وكيع عن هشام بن زياد عن أمه عن
فاطمة بنت الحسين عن أبيها وقد رواه اسمعيل بن علية ويزيد بن هرون عن هشام بن زياد عن أبيه كذا عن فاطمة عن أبيها وقال الامام
أحمد أنا يحيى بن اسحق السيلحيني أنا حماد بن سلمة عن أبي سنان قال دفنت ابنا لي فاني لفي القبر اذ أخذ بيدي أبو طلحة يعني الخولاني
فأخرجني وقال لي ألا أبشرك قلت بلى قال حدثني الضحاك بن عبد الرحمن (٣٤٥) بن عوزب عن أبي موسى قال قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم قال الله يا ملك الموت قبضت ولد عبدي قبضت قرة عينه وثمرة فؤاده قال نعم قال فما قال قال حمدك واسترجع قال ابنوا له بيتا في الجنة وسموه بيت الحمد ثم رواه عن علي بن اسحق عن عبد الله بن المبارك فذكره وهكذا رواه الترمذي عن سويد بن نصر عن ابن المبارك به وقال حسن غريب واسم أبي سنان عيسى بن سنان (ان الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوع خيرا فان الله شاكر عليم) قال الامام أحمد حدثنا سليمان بن داود الهاشمي أنا ابراهيم بن سعد عن الزهري عن عروة عن عائشة قال قلت أرأيت قول الله تعالى ان الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما قالت فوالله ما على أحد جناح أن لا يطوف بهما فقالت عائشة بئسما قلت يا ابن أختي انها لو كانت على ما أولتها عليه كانت فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما ولكنها انما أنزلت أن الانصار كانوا قبل أن
يسلموا كانوا يهلون لمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها عند المشلل وكان من أهل لها يتحرج أن يطوف
بالصفا والمروة فسألوا عن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا رسول الله انا كنا نتحرج ان نطوف بالصفا والمروة في الجاهلية
فأنزل الله عز وجل ان الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما قالت عائشة ثم قد سن
رسول الله صلى الله عليه وسلم الطواف بهما فليس لاحد ان يدع الطواف بهما أخرجاه في الصحيحين وفي رواية عن الزهري انه قال
فحدثت بهذا الحديث أبا بكر بن عبد الرحمن بن الحرث بن هشام فقال ان هذا العلم ما كنت سمعته ولقد سمعت رجالا من أهل العلم

والاستدلال قال علي فأول ما خلق الله عيناه فجعل ينظر الى عظامه ينضم بعضها الى بعض
ثم كسيت لحما ثم نفخ فيه الروح قال علي فأتى مدينته وقد ترك جارا له اسكافا شابا فجاء وهو
شيخ كبير (قال كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم) اختلف في فاعل قال فقيل هو الله عز
وجل وقيل ناداه بذلك ملك من السماء قيل هو جبريل وقيل غيره وقيل انه نبي من الانبياء
وقيل رجل من المؤمنين من قومه شاهده عند ان أماته الله وعمر الى حين بعثه والاول
أولى لقوله فيما بعد وانظر الى العظام كيف ننشزها وانما قال يوما أو بعض يوم بناء على
ما عنده وفي ظنه فلا يكون كاذبا ومثله قول أصحاب الكهف قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم
ومثله قوله صلى الله عليه وآله وسلم في قصة ذي اليدين لم تقصر ولم أنس وهذا مما يؤيد قول
من قال ان الصدق ما طابق الاعتقاد والكذب ما خالفه وقيل ان الله أماته ضحى في أول
النهار وأحياه بعد مائة سنة في آخر النهار قبل أن تغيب الشمس فقال لبثت يوما وهو يرى
ان الشمس قد غابت ثم التفت فرأى بقية من الشمس فقال أو بعض يوم وقيل ان أو بمعنى
بل التي للاضراب وهو قول ثابت وقيل هي للشك والاول أولى (قال بل لبثت مائة عام)
هو استئناف أيضا كما سلف أي ما لبثت يوما أو بعض يوم بل لبثت مائة عام (فانظر الى
طعامك وشرابك لم يتسنه) الطعام هو التين الذي كان معه والشراب هو العصير والمعنى
لم يتغير ولم ينتن فكان التين كأنه قد قطف من ساعته والعصير كأنه عصر من ساعته أمره
الله ان ينظر الى هذا الاثر العظيم من آثار القدرة وهو عدم تغير طعامه وشرابه مع طول
تلك المدة والتسنه مأخوذ من السنة أي لم تمر عليه السنون أي المائة سنة لبقائه على حاله
وعدم تغيره مع طول الزمان مع ان شأنه التغير سريعا وأصله سنهة أو سنوة من سنهت
النخلة وتسنهت اذا أتت عليها السنون ونخلة سنهاء أي تحمل سنة ولا تحمل أخرى وقيل
هو من أسن الماء اذا تغير وكان يجب على هذا أن يقال يتأسن من قوله حمإ مسنون
قاله أبو عمرو الشيباني وقال الزجاج ليس كذلك لان قوله مسنون ليس معناه متغير
وانما معناه مصبوب على سنة الارض (وانظر الى حمارك) اختلف المفسرون في
معناه فذهب الاكثر الى ان معناه انظر اليه كيف تفرقت أجزاؤه ونخرت عظامه وتقطعت
أوصاله ثم أحياه الله وعاد كما كان لتشاهد كيفية الاحياء فالنظران مختلفان وقال الضحاك
ووهب بن منبه انظر الى حمارك قائما في مربطه لم يصبه شيء بعد ان مضت عليه مائة عام

يقولون ان الناس الا من ذكرت عائشة كانوا يقولون ان طوافنا بين هذين الحجرين من أمر الجاهلية وقال آخرون من الانصار انما امرنا بالطواف بالبيت ولم نؤمر بالطواف بين الصفا والمروة فأنزل الله تعالى ان الصفا والمروة من شعائر الله قال أبو بكر بن عبد الرحمن فلعلها نزلت في هؤلاء وهؤلاء ورواه البخاري من حديث مالك عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة بنحو ما تقدم ثم قال البخاري حدثنا محمد بن يوسف حدثنا سفيان عن عاصم بن سليمان قال سألت أنسا عن الصفا والمروة قال كنا نرى انهما من أمر الجاهلية فلما جاء الاسلام أمسكنا عنهما فأنزل الله عز وجل ان (٣٤٦) الصفا والمروة من شعائر الله وذكر القرطبي في تفسيره عن ابن عباس قال كانت الشياطين تفرق بين الصفا والمروة الليل كله وكانت بينهما آلهة فلما جاء الاسلام سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الطواف بينهما فنزلت هذه الآية وقال الشعبي كان اساف على الصفا وكانت نائلة على المروة وكانوا يستلمونهما فتحرجوا بعد الاسلام من الطواف بينهما فنزلت هذه الآية (قلت) ذكر محمد بن اسحق في كتاب السيرة ان اسافا ونائلة كانا بشرين فزنيا داخل الكعبة فمسخا حجرين فنصبتهما قريش تجاه الكعبة ليعتبر بهما الناس فلما طال عهدهما عبدا ثم حولا الى الصفا والمروة فنصبا هنالك فكان من طاف بالصفا والمروة يستلمهما ولهذا يقول أبو طالب في قصيدته المشهورة

وحيث ينيخ الاشعرون ركابهم ... لمفضى السيول من اساف ونائل

وفي صحيح مسلم من حديث جابر الطويل وفيه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فرغ من طوافه بالبيت عاد الى الركن فاستلمه ثم خرج من باب الصفا وهو يقول ان الصفا والمروة من شعائر الله ثم قال أبدأ بما بدأ الله به وفي رواية النسائي ابدأوا بما بدأ الله به وقال الامام أحمد حدثنا شريح حدثنا عبد الله بن المؤمل عن عطاء بن أبي رباح عن صفية بنت شيبة عن حبيبة بنت أبي تجزاة قالت رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يطوف بين الصفا والمروة والناس بين يديه وهو وراءهم وهو يسعى حتى أرى ركبتيه من شدة السعي يدور به ازاره وهو يقول اسعوا فان الله كتب عليكم السعي ثم رواه الامام أحمد عن عبد الرزاق انا معمر عن واصل مولى أبي عيينة عن موسى بن عبيدة عن صفية بنت شيبة ان امرأة أخبرتها انها سمعت النبي صلى الله عليه وسلم بين الصفا والمروة يقول كتب عليكم السعي فاسعوا وقد

ويؤيد القول الاول قوله تعالى وانظر الى العظام كيف ننشزها ويؤيد القول الثاني مناسبته لقوله فانظر الى طعامك وشرابك لم يتسنه وانما ذكر سبحانه عدم تغير طعامه وشرابه بعد اخباره انه لبث مائة عام مع ان عدم تغير ذلك الطعام والشراب لا يصلح أن يكون دليلا على تلك المدة الطويلة بل على ما قاله من لبثه يوما أو بعض يوم لزيادة استعظام ذلك الذي أماته تلك المدة فانه اذا رأى طعامه وشرابه لم يتغير مع كونه قد ظن انه لم يلبث الا يوما أو بعض يوم زادت الحيرة وقويت عليه الشبهة فاذا نظر الى حماره عظاما نخرة تقرر لديه ان ذلك صنع من تأتي قدرته بما لا تحيط به العقول فان الطعام والشراب سريع التغير وقد بقي هذه المدة الطويلة غير متغير والحمار يعيش المدة الطويلة وقد صار كذلك فتبارك الله أحسن الخالقين (ولنجعلك آية للناس) وعبرة ودلالة على البعث بعد الموت قاله الفراء وقال الاعمش كونه آية هو انه جاء شابا على حاله يوم مات فوجد الابناء والحفدة شيوخا (وانظر الى العظام كيف ننشزها) قرأ الكوفيون بالزاي والباقون بالراء وقد أخرج الحاكم وصححه عن زيد بن ثابت ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قرأ كيف ننشزها فمعنى القراءة بالزاي نرفعها ومنه النشز وهو المرتفع من الارض أي نرفع بعضها الى بعض وأما معنى القراءة بالراء فواضحة من أنشر الله الموتى أي أحياهم (ثم نكسوها لحما) أي نسترها به كما يستر الجسد باللباس واستعار اللباس لذلك ولعل عدم التعرض لنفخ الروح لما ان الحكمة لا تقتضي بيانه (فلما تبين له) ما تقدم ذكره من الآيات التي أراه الله سبحانه وأمره بالنظر اليها والتفكر فيها التي استغربها قال ابن جرير لما اتضح له عيانا ما كان مستنكرا في قدرة الله عنده قبل عيانه من احياء القرية وقال الزمخشري ما أشكل عليه يعني من أمر الاحياء والاول أولى لان قوة الكلام تدل عليه بخلاف الثاني (قال أعلم) أي علم مشاهدة بعد العلم اليقيني الحاصل بالفطرة والادلة العقلية قال أبو علي الفارسي معناه أعلم هذا الضرب من العلم الذي لم أكن علمته (أن الله على كل شئ قدير) لا يستعصي عليه شئ من الاشياء ويدخل تحته الاماتة والاحياء دخولا أوليا (واذ قال ابراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى) اذ ظرف منصوب بفعل محذوف أي اذكر وقت قول ابراهيم وانما كان الامر بالذكر موجها الى الوقت دون ما وقع فيه مع كونه المقصود لقصد المبالغة لان طلب وقت الشئ يستلزم طلبه بالاولى وهكذا يقال في سائر المواضع

استدل بهذا الحديث على مذهب من يرى ان السعي بين الصفا والمروة ركن في الحج كما هو مذهب الشافعي ومن وافقه ورواية عن أحمد وهو المشهور عن مالك وقيل انه واجب وليس بركن فان تركه عمدا أو سهوا جبره بدم وهو رواية عن أحمد وبه يقول طائفة وقيل بل مستحب واليه ذهب أبو حنيفة والثوري والشعبي وابن سيرين وروي عن أنس وابن عمر وابن عباس وحكي عن مالك في العتبية قال القرطبي واحتجوا بقوله تعالى فمن تطوع خيرا والقول الاول أرجح لانه عليه السلام طاف بينهما وقال لتأخذوا عني مناسككم فكل ما فعله في حجته تلك واجب لا بد من فعله في الحج الا ما خرج بدليل والله أعلم وقد تقدم قوله عليه السلام اسعوا فان الله كتب عليكم السعي فقد بين الله تعالى ان الطواف بين الصفا والمروة من شعائر الله أي مما شرع الله تعالى لابراهيم في مناسك الحج وقد تقدم في حديث ابن عباس ان أصل ذلك مأخوذ من طواف هاجر وترددها بين الصفا والمروة في طلب الماء لولدها لما نفد ماؤهما وزادهما حين تركهما ابراهيم عليه السلام هنالك وليس عندهما أحد من الناس فلما خافت على ولدها الضيعة هنالك ونفد ما عندهما قامت تطلب الغوث من الله عز وجل فلم تزل تردد في هذه البقعة المشرفة بين الصفا والمروة متذللة خائفة وجلة مضطرة فقيرة الى الله عز وجل حتى كشف الله كربتها وآنس غربتها وفرج شدتها وأنبع لها زمزم التي طعامها طعام طعم وشفاء سقم فالساعي بينهما ينبغي له أن يستحضر فقره وذله وحاجته الى الله في هداية قلبه وصلاح حاله وغفران ذنبه وانه يلتجئ الى الله عز وجل لتفريج ما هو به من النقائص والعيوب وأن يهديه الى الصراط المستقيم وأن يثبته عليه الى مماته وأن يحوله من حاله الذي هو عليه من الذنوب والمعاصي الى حال الكمال والغفران والسداد والاستقامة كما فعل بهاجر عليها السلام وقوله فمن تطوع خيرا قيل زاد في طوافه بينهما على قدر الواجب ثامنة وتاسعة ونحو ذلك وقيل يطوف بينهما في حجة تطوع أو عمرة تطوع وقيل المراد تطوع خيرا في سائر العبادات حكى ذلك الرازي وعزى الثالث الى الحسن البصري والله أعلم وقوله فان الله شاكر عليم أي يثيب على القليل بالكثير عليم بقدر الجزاء فلا يبخس أحدا ثوابه ولا يظلم مثقال ذرة وان تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما (ان الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك

المواضع الواردة في الكتاب العزيز بمثل هذا الظرف وقوله رب آثره على غيره لما فيه من الاستعطاف الموجب لقبول ما يرد بعده من الدعاء قال الاخفش لم يرد رؤية القلب وانما أراد رؤية العين وكذا قال غيره ولا يصح أن يراد به الرؤية القلبية هنا لان مقصود ابراهيم أن يشاهد الاحياء لتحصل له الطمأنينة (قال أولم تؤمن) أي ألم تعلم ولم تؤمن باني قادر على الاحياء حتى تسألني اراءته (قال بلى) علمت وآمنت بانك قادر على ذلك (ولكن) سألت (ليطمئن قلبي) باجتماع دليل العيان الى دلائل الايمان وقد ذهب الجمهور الى أن ابراهيم لم يكن شاكا في احياء الموتى قط وانما طلب المعاينة لما جبلت عليه النفوس البشرية من رؤية ما أخبرت عنه ولهذا قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليس الخبر كالمعاينة وحكى ابن جرير عن طائفة من أهل العلم أنه سأل ذلك لانه شك في قدرة الله واستدلوا بما صح عنه صلى الله عليه وآله وسلم في الصحيحين وغيرهما من قوله نحن أحق بالشك من ابراهيم وبما روي عن ابن عباس انه قال ما في القرآن عندي آية أرجى منها أخرجه عنه الحاكم وصححه ورجح هذا ابن جرير بعد حكايته له قال ابن عطية وهو عندي مردود يعني قول هذه الطائفة ثم قال وأما قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم نحن أحق بالشك من ابراهيم فمعناه انه لو كان شاكا لكنا نحن أحق به ونحن لا نشك فابراهيم أحرى أن لا يشك فالحديث مبني على نفي الشك عن ابراهيم وأما قول ابن عباس هي ارجى آية فمن حيث ان فيها الادلال على الله وسؤال الاحياء في الدنيا وليست مظنة ذلك ويجوز أن نقول هي أرجى آية لقوله أولم تؤمن أي ان الايمان كاف لا يحتاج معه الى تنقير وبحث قال فالشك يبعد على من ثبت قدمه بالايمان فقط فكيف بمرتبة النبوة والخلة والانبياء معصومون من الكبائر ومن الصغائر التي فيها رذيلة اجماعا واذا تأملت سؤاله عليه السلام وسائر الالفاظ للآية لم تعط شكا وذلك ان الاستفهام بكيف انما هو سؤال عن حالة شيء موجود متقرر الوجود عند السائل والمسؤل نحو قولك كيف علم زيد وكيف نسج الثوب ونحو هذا ومتى قلت كيف ثوبك وكيف زيد فانما السؤال عن حال من أحواله وقد يكون كيف خبرا عن شيء شأنه أن يستفهم عنه بكيف نحو قولك كيف شئت فكن ونحو قول البخاري كيف كان بدء الوحي وهي في هذه الآية استفهام عن هيئة الاحياء والاحياء متقرر ولكن لما وجدنا بعض المنكرين لوجود شيء قد يعبرون عن انكاره بالاستفهام عن حالة لذلك الشيء يعلم انها

يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون الا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم ان الذين كفروا وماتوا وهم كفار أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون) هذا وعيد شديد لمن كتم ما جاءت به الرسل من الدلالات البينة على المقاصد الصحيحة والهدى النافع للقلوب من بعد ما بينه الله تعالى لعباده في كتبه التي أنزلها على رسله قال أبو العالية نزلت في أهل الكتاب كتموا صفة محمد صلى الله عليه وسلم ثم أخبر أنهم يلعنهم كل شيء على صنيعهم ذلك فكما أن العالم يستغفر له كل شيء حتى الحوت في الماء والطير في الهواء فهؤلاء بخلاف العلماء فيلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون وقد ورد في الحديث المسند من طرق يشد بعضها بعضا عن أبي هريرة وغيره ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار والذي في الصحيح عن أبي هريرة انه قال لولا آية في كتاب الله ما حدثت أحدا شيأ ان الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى الآية وقال ابن أبي حاتم حدثنا الحسن بن عرفة حدثنا عمار ابن محمد عن ليث بن أبي سليم عن المنهال بن عمرو عن زاذان بن عمر عن البراء بن عازب قال كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في جنازة فقال ان الكافر يضرب ضربة بين عينيه يسمعها كل دابة غير الثقلين فتلعنه كل دابة سمعت صوته فذلك قول الله تعالى أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون يعني دواب الارض ورواه ابن ماجه عن محمد بن الصباح عن عامر بن محمد به وقال عطاء بن أبي رباح كل دابة والجن والانس وقال مجاهد اذا أجدبت الارض قال البهائم هذا من اجل عصاة بني آدم لعن الله عصاة بني آدم وقال أبو العالية والربيع بن أنس وقتادة ويلعنهم اللاعنون يعني تلعنهم الملائكة والمؤمنون وقد جاء في الحديث ان العالم يستغفر له كل شيء حتى الحيتان في البحر وجاء في هذه الآية أن كاتم العلم يلعنه الله والملائكة والناس أجمعون واللاعنون أيضا وهم كل فصيح وأعجمي اما بلسان المقال أو الحال أن لو كان له عقل ويوم القيامة والله أعلم * ثم استثنى الله تعالى من هؤلاء من تاب اليه فقال الا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا أي رجعوا عما كانوا فيه وأصلحوا أعمالهم وبينوا للناس ما كانوا يكتمونه فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم وفي هذا دلالة على ان الداعية الى كفر او بدعة اذا تاب الى الله تاب الله عليه وقد ورد ان الامم السابقة لم تكن

لا تصح فيلزم من ذلك ان الشيء في نفسه لا يصح مثال ذلك أن يقول مدع أنا أرفع هذا الجبل فيقول المكذب له أرني كيف ترفعه فهذه طريقة مجاز في العبارة ومعناها تسليم جدل كأنه يقول أفرض انك ترفعه فلما كان في عبارة الخليل هذا الاشتراك المجازي خلص الله له ذلك وحمله على ان بين له الحقيقة فقال له أولم تؤمن قال بلى فكمل الامر وتخلص من كل شيء ثم علل عليه السلام سؤاله بالطمأنينة قال القرطبي هذا ما ذكره ابن عطية وهو بالغ ولا يجوز على الانبياء صلوات الله عليهم مثل هذا الشك فانه كفر والانبياء متفقون على الايمان بالبعث وقد أخبر الله سبحانه ان أنبياءه وأولياءه ليس للشيطان عليهم سبيل فقال ان عبادي ليس لك عليهم سلطان وقال اللعين الا عبادك منهم المخلصين واذا لم تكن له عليهم سلطنة فكيف يشككهم وانما سأل أن يشاهد كيفية جمع أجزاء الموتى بعد تفريقها وايصال الاعصاب والجلود بعد تمزيقها فأراد أن يرقى من علم اليقين الى عين اليقين فقوله رب أرني كيف طلب مشاهدة الكيفية قال الماوردي وليست الالف في قوله أولم تؤمن ألف استفهام وانما هي ألف ايجاب وتقرير والواو واو الحال وتؤمن معناه ايمانا مطلقا دخل فيه فصل احياء الموتى والطمأنينة اعتدال وسكون وقال ابن جرير ليوقن قلبي (قال فخذ أربعة من الطير) أي ان أردت ذلك فخذ والطير اسم جمع لطائر كركب لراكب وهو مذهب أبي الحسن أو جمع نحو تاجر وتجر أو مصدر قاله أبو البقاء وخص الطير بذلك قيل لانه أقرب أنواع الحيوان الى الانسان شبها في تدوير الرأس والمشي على الرجلين وقيل ان الطير همته الطيران في السماء والخليل كانت همته العلو وقيل غير ذلك من الاسباب الموجبة لتخصيص الطير وكل هذه لا تسمن ولا تغني من جوع وليست الا خواطر افهام وبوادر أذهان لا ينبغي أن تجعل وجوها لكلام الله وعللا لما يرد في كلامه وهكذا قيل ما وجه تخصيص هذا العدد فان الطمأنينة تحصل باحياء واحد فقيل ان الخليل انما سأل واحدا على عدد العبودية فأعطى أربعا على قدر الربوبية وقيل الطيور الاربعة اشارة الى الاركان الاربعة التي يتركب منها أركان الحيوان ونحو ذلك من الهذيان قال ابن عباس والطير الذي أخذ وزدال وديك وطاوس وروى نحوه عن قتادة والحسن وعنه قال الغرنوق والطاوس والديك والحمامة وقال مجاهد الغراب بدل الغرنوق (فصرهن اليك) أي اضممهن اليك وأملهن واجمعهن يقال رجل أصور اذا كان مائل العنق

التوبة تقبل من مثل هؤلاء منهم ولكن هذا من شريعة نبي التوبة ونبي الرحمة صلوات الله وسلامه عليه ثم أخبر تعالى عمن كفر به واستمر به الحال الى مماته بان عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين خالدين فيها أى في اللعنة التابعة لهم الى يوم القيامة ثم المصاحبة لهم في نار جهنم التى لا يخفف عنهم العذاب فيها أى لا ينقص عما هم فيه ولا هم ينظرون أى لا يغير عنهم ساعة واحدة ولا يفتر بل هو متواصل دائم فنعوذ بالله من ذلك قال أبو العالية وقتادة ان الكافر يوقف يوم القيامة فيلعنه الله ثم تلعنه الملائكة ثم يلعنه الناس أجمعون

(فصل) لاخلاف في جواز لعن الكفار وقد كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه ومن بعده من الائمة يلعنون الكفرة في القنوت وغيره فاما الكافر المعين فقد ذهب جماعة من العلماء الى انه لا يلعن لانا لا ندرى بما يختم الله له واستدل بعضهم بالآية ان الذين كفروا وماتوا وهم كفار أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين وقالت طائفة أخرى بل يجوز لعن الكافر المعين اختاره الفقيه أبو بكر بن العربى المالكى ولكنه احتج بحديث فيه ضعف واستدل غيره بقوله عليه السلام في قصة الذى كان يؤتى به سكران فيحده فقال رجل لعنه الله ما أكثر ما يؤتى به فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تلعنه فانه يحب الله ورسوله فدل على ان من لا يحب الله ورسوله يلعن والله أعلم (والهكم اله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم) يخبر تعالى عن تفرده بالالهية وأنه لا شريك له ولا عديل له بل هو الله الواحد الاحد الفرد الصمد الذى لا اله الا هو وانه الرحمن الرحيم وقد تقدم تفسير هذين الاسمين في أول الفاتحة وفي الحديث عن شهر ابن حوشب عن أسماء بنت يزيد ابن السكن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال اسم الله الاعظم في هاتين الآيتين والهكم اله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم والم الله لا اله الا هو الحى القيوم ثم ذكر الدليل على تفرده بالالهية بتفرده بخلق السموات والارض وما فيهما وما بين ذلك مما ذرأ وبرأ من المخلوقات الدالة على وحدانيته فقال (ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون) يقول تعالى ان في خلق السموات والارض تلك في ارتفاعها ولطافتها واتساعها وكواكبها السيارة والثوابت

العنق ويقال صار الشئ يصوره ويصيره أماله وقطعه فاللغتان لفظ مشترك بين هذين المعنيين والقراءتان تحتملهما معا وقرئ فصرهن بضم الصاد وكسرها وقيل معناه قطعهن وبه قال ابن عباس وبالنبطية مزقهن وشققهن وعنه قال أوثقهن (ثم اجعل على كل جبل منهن جزأ) فيه الامر بالتجزئة لان جعل كل جزء على جبل يستلزم تقدم التجزئة قال الزجاج المعنى ثم اجعل على كل جبل من كل واحد منهن جزأ والجزء النصيب واختلفوا في عدد الاجزاء والجبال وليس في ذكر ذلك كثير فائدة (ثم ادعهن) أى قل لهن تعالين باذن الله تعالى (يأتينك) اتيانا سريعا (سعيا) أى مشيا سريعا والمراد بالسعى الاسراع في الطيران أو المشى وقيل السعى هو الحركة الشديدة وقيل العدو وقيل الطيران وفيه انه لا يقال للطائر اذا طار سعى فالحكمة في السعى دون الطيران ان ذلك أبعد من الشبهة لانها لو طارت لتوهم متوهم انها غير تلك الطيور وان أرجلها غير سليمة فنفى الله تعالى هذه الشبهة (واعلم أن الله عزيز حكيم) في صنعه أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال وضعهن على سبعة أجبل وأخذ الرؤس بيده فجعل ينظر الى القطرة تلقى القطرة والريشة تلقى الريشة حتى صرن أحياء ليس لهن رؤس فجئن الى رؤسهن فدخلن فيها وناهيك بالقصة دليلا على فضل الخليل وحسن الادب في السؤال حيث أراه ما سأل في الحال وأرى العزير ما أراه بعد أماتته مائة عام (مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله) قيل المراد به الانفاق في الجهاد وقيل في جميع وجوه البر فيدخل فيه الواجب والتطوع (كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة) المراد بالسبع السنابل هى التى تخرج في ساق واحد يتشعب منه سبع شعب في كل شعبة سنبلة والحبة اسم لكل ما يزدرعه ابن آدم وقيل المراد بالسنابل هنا سنابل الذرة والدخن فهو الذى يكون منهما في السنبلة هذا العدد وقال القرطبي ان سنبل الدخن يجئ في السنبلة منه أكثر من هذا العدد بضعفين وأكثر على ما شاهدنا قال ابن عطية وقد يوجد في سنبل القمح ما فيه مائة حبة وأما في سائر الحبوب فأكثر ولكن المثال وقع بهذا القدر وقال الطبرى ان قوله في كل سنبلة مائة حبة معناه ان وجد ذلك والافعلى أن يفرضه والذى ينبغى الاعتماد عليه في هذه الآية وأمثالها ان المقصود بها مجرد تمثيل زيادة الاجر وكثرة الثواب دون وجود ذلك (والله يضاعف لمن يشاء) يحتمل أن يكون المراد يضاعف هذه المضاعفة لمن يشاء أو يضاعف هذا العدد فيزيد عليه اضعافه لمن يشاء لا لكل

ودوران فلكيها وهذه الارض فى كثافتها وانخفاضها وجبالها وبحارها وقفارها ووهادها وعمرانها وما فيها من المنافع واختلاف الليل والنهار هذا يجىء ثم يذهب ويخلفه الآخر ويعقبه لا يتأخر عنه لحظة كما قال تعالى لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون وتارة يطول هذا ويقصر هذا وتارة يأخذ هذا من هذا ثم يتعاوضان كما قال تعالى يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل اى يزيد من هذا فى هذا ومن هذا فى هذا والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس أى فى تسخير البحر بحمل السفن من جانب الى جانب لمعايش الناس والانتفاع بما عند أهل ذلك الاقليم ونقل هذا الى هؤلاء وما عند أولئك الى هؤلاء وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها كما قال تعالى وآية لهم الارض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون الى قوله ومما لا يعلمون وبث فيها من كل دابة أى على اختلاف أشكالها وألوانها ومنافعها وصغرها وكبرها وهو يعلم ذلك كله ويرزقه لا يخفى عليه شئ من ذلك كما قال تعالى وما من دابة فى الارض الا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين وتصريف الرياح أى فتارة تأتى بالرحمة وتارة تأتى بالعذاب وتارة تأتى مبشرة بين يدى السحاب وتارة تسوقه وتارة تجمعه وتارة تفرقه وتارة تصرفه ثم تارة تأتى من الجنوب وهى الشامية وتارة تأتى من ناحية اليمن وتارة صبا وهى الشرقية التى تصدم وجه الكعبة وتارة دبورا وهى غربية تنفذ من ناحية دبر الكعبة وقد صنف الناس فى الرياح والمطر والانواء كتبا كثيرة فيما يتعلق بلغاتها وأحكامها وبسط ذلك يطول ههنا والله أعلم والسحاب المسخر بين السماء والارض أى سائر بين السماء والارض مسخر الى ما يشاء الله من الاراضى والاماكن كما يصرفه تعالى لآيات لقوم يعقلون أى فى هذه الاشياء دلالات بينة على وحدانية الله تعالى كما قال تعالى ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولى الالباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والارض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه أخبرنا محمد بن أحمد بن ابراهيم حدثنا أبو سعيد الدشتكى حدثنى أبى عن أبيه عن أشعث بن اسحق عن جعفر بن أبى المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن

الناس وهذا هو الراجح لما سيأتى وقد ورد القرآن بأن الحسنة بعشر أمثالها واقتضت هذه الآية ان نفقة الجهاد حسنتها بسبعمائة ضعف فيبنى العام على الخاص وهذا بناء على ان سبيل الله هو الجهاد فقط وأما اذا كان المراد به وجوه الخير فيخص هذا التضعيف الى سبعمائة بثواب النفقات ويكون العشرة الامثال فيما عدا ذلك (والله واسع عليم) أخرج مسلم وأحمد والنسائى والحاكم والبيهقى عن ابن مسعود ان رجلا تصدق بناقة مخطومة فى سبيل الله فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لتأتين بها يوم القيامة سبعمائة ناقة كلها مخطومة وأخرج أحمد والترمذى وحسنه والنسائى وابن حبان والحاكم وصححه والبيهقى فى الشعب عن خريم بن فاتك قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من أنفق نفقة فى سبيل الله كتب له سبعمائة ضعف وأخرجه البخارى فى تاريخه من حديث أنس وأخرجه أحمد من حديث أبى عبيدة وزاد من أنفق على نفسه وأهله أو عاد مريضا فالحسنة بعشر أمثالها وأخرج ابن ماجه وابن أبى حاتم من حديث عمران بن حصين وعلى وأبى الدرداء وأبى هريرة وأبى امامة وابن عمر وجابر كلهم يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من أرسل بنفقة فى سبيل الله وأقام فى بيته فله بكل درهم يوم القيامة سبعمائة درهم ومن غزا بنفسه فى سبيل الله وأنفق فى وجهه ذلك فله بكل درهم يوم القيامة سبعمائة ألف درهم ثم تلا هذه الآية والله يضاعف لمن يشاء وأخرج أحمد من حديث أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة بعشر أمثالها الى سبعمائة ضعف الى ما شاء الله يقول الله الا الصوم فانه لى وانا أجزى به وأخرجه أيضا مسلم وأخرج الطبرانى من حديث معاذ بن جبل ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال طوبى لمن أكثر فى الجهاد فى سبيل الله من ذكر الله فان له بكل كلمة سبعين ألف حسنة منها عشرة اضعاف وقد وردت الاحاديث الصحيحة فى أجر من جهز غازيا وأخرج أبو داود والحاكم وصححه عن سهل بن معاذ عن أبيه قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان الصلاة والصوم والذكر يضاعف على النفقة فى سبيل الله سبعمائة ضعف وأخرج أحمد والطبرانى فى الاوسط والبيهقى فى سننه عن بريدة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم النفقة فى الحج كالنفقة فى سبيل الله بسبعمائة ضعف (الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله) هذه الجملة متضمنة لبيان كيفية الانفاق الذى تقدم أى هو انفاق الذين ينفقون قيل

عباس قال اتت قريش محمدا صلى الله عليه وسلم فقالوا يا محمد انا نريد أن تدعو ربك ان يجعل لنا الصفا ذهبا فنشترى به
الخيل والسلاح فنؤمن بك ونقاتل معك قال أوثقوا الى لئن دعوت ربي فجعل لكم الصفا ذهبا لتؤمنن بي فاوثقوا له فدعا ربه فأتاه
جبريل فقال ان ربك قد أعطاهم الصفا ذهبا على انهم ان لم يؤمنوا بك عذبهم عذابا لم يعذبه أحدا من العالمين قال محمد صلى الله
عليه وسلم رب لا بل دعني وقومي فلأدعهم يوما بيوم فأنزل الله تعالى هذه الآية ان في خلق السموات والارض واختلاف
الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس الآية (٣٥١) ورواه ابن أبي حاتم من وجه آخر عن جعفر بن أبي
المغيرة به وزاد في آخره وكيف يسألونك الصفا وهم يرون من الآيات ما هو اعظم من الصفا وقال ابن أبي حاتم أيضا حدثنا أبي حدثنا أبو حذيفة حدثنا شبل عن ابن أبي نجيح عن عطاء قال نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة والهكم اله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم فقال كفار قريش بمكة كيف يسع الناس اله واحد فأنزل الله تعالى ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس الى قوله لآيات لقوم يعقلون فبهذا يعلمون انه اله واحد وانه اله كل شئ وخالق كل شئ وقال وكيع بن الجراح حدثنا سفيان عن أبيه عن أبي الضحى قال لما نزلت والهكم اله واحد الى آخر الآية قال المشركون ان كان هكذا فليأتنا بآية فأنزل الله عز وجل ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار الى قوله يعقلون ورواه آدم بن أبي اياس عن أبي جعفر هو الرازي عن سعيد بن
مسروق والد سفيان عن أبي الضحى به (ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله ولو
يرى الذين ظلموا اذ يرون العذاب أن القوة لله جميعا وأن الله شديد العذاب اذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب
وتقطعت بهم الاسباب وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرؤا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وماهم
بخارجين من النار) يذكر تعالى حال المشركين به في الدنيا ومالهم في الدار الآخرة حيث جعلوا لله أندادا أى امثالا ونظراء يعبدونهم
معه ويحبونهم كحبه وهو الله لا اله الا هو ولا ضد له ولا ند له ولا شريك معه وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال قلت يارسول الله

نزلت في عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف أما عثمان فجهز المسلمين في غزوة تبوك بألف
بعير باقتابها واحلاسها وأما عبد الرحمن فجاء بأربعة آلاف درهم صدقة الى رسول الله
صلى الله عليه وآله وسلم (ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى) المن هو ذكر النعمة على معنى
التعديد لها والتقريع بها وقيل المن التحدث بما أعطى حتى يبلغ ذلك المعطى فيؤذيه والمن
من الكبائر كما ثبت في صحيح مسلم وغيره انه أحد الثلاثة الذين لا ينظر الله اليهم ولا يزكيهم
ولهم عذاب عظيم والاذى السب والتطاول والتشكي قال في الكشاف ومعنى ثم اظهار
التفاوت بين الانفاق وترك المن والاذى وان تركهما خير من نفس الانفاق كما جعل
الاستقامة على الايمان خيرا من الدخول فيه بقوله ثم استقاموا انتهى فثم على هذا للتراخي
في الرتبة وقيل هو على بابه للتراخي في الزمان نظرا للغالب من ان وقوع المن والاذى
يكون بعد الانفاق بمدة وقدم المن على الاذى لكثرة وقوعه ووسط كلمة لا للدلالة على شمول
النفي لاتباع كل واحد منهما (لهم أجرهم) يعني ثوابهم في الآخرة (عند ربهم) فيه تأكيد
وتشريف (ولا خوف عليهم) يعني يوم القيامة (ولا هم يحزنون) يعني على ما خلفوا من
الدنيا وظاهر الآية نفي الخوف عنهم في الدارين كما تفيده النكرة الواقعة في سياق النفي من
الشمول وكذلك نفي الحزن يفيد دوام انتفائه عنهم وقد وردت الاحاديث الصحيحة في
النهي عن المن والاذى وفي فضل الانفاق في سبيل الله وعلى الاقارب وفي وجوه الخير
ولا حاجة الى التطويل بذكرها فهي معروفة في مواطنها قال عبد الرحمن بن زيد كان أبي
يقول اذا أعطيت رجلا شيأ ورأيت ان سلامك يثقل عليه فلا تسلم عليه والعرب تمدح
بترك المن وكتم النعمة وتذم على اظهارها والمن بها والاذى ما يصل الى الانسان من ضرر
بقول أو فعل والمراد هنا ان يشكو منهم بسبب ما أعطاهم (قول معروف) قيل الخبر
محذوف أى أولى وأمثل ذكره النحاس قال ويجوز أن يكون خبرا عن مبتدا محذوف أى
الذي أمرتم به قول معروف أى كلام حسن ورد جميل على الفقير السائل وقيل عدة حسنة
تعده بها وقيل دعاء صالح تدعو له بظاهر الغيب (ومغفرة) له في الحاجة مبتدا أيضا وخبره
(خير من صدقة) وجاز الابتداء بالنكرتين لأن الاولى تخصصت بالوصف والثانية بالعطف
والمعنى ان القول المعروف من المسؤل للسائل وهو التأنيس والترجية بما عند الله والرد
الجميل خير من الصدقة التي (يتبعها أذى) وقد ثبت في صحيح مسلم عنه صلى الله عليه وآله

أى الذنب اعظم قال أن تجعل لله ندا وهو خلقك وقوله والذين آمنوا اشد حبا لله ولحبهم لله وتمام معرفتهم به وتوقيرهم وتوحيدهم له لا يشركون به شيأ بل يعبدونه وحده ويتوكلون عليه ويلجؤن فى جميع أمورهم اليه ثم توعد تعالى المشركين به الظالمين لانفسهم بذلك فقال ولو يرى الذى ظلموا اذ يرون العذاب ان القوة لله جميعا قال بعضهم تقدير الكلام لو عاينوا العذاب لعلموا حينئذ ان القوة لله جميعا أى ان الحكم له وحده لاشريك له وان جميع الاشياء تحت قهره وغلبته وسلطانه وان الله شديد العذاب كما قال فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد يقول (٣٥٢) لو يعلمون ما يعاينونه هنالك وما يحل بهم من الامر الفظيع المنكر الهائل على شركهم وكفرهم لانتهوا عماهم فيه من الضلال ثم أخبر عن كفرهم باوثانهم وتبرى المتبوعين من التابعين فقال اذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا تبرأت منهم الملائكة الذين كانوا يزعمون انهم يعبدونهم فى الدار الدنيا فتقول الملائكة تبرأنا اليك ما كانوا ايانا يعبدون ويقولون سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون والجن أيضا تتبرأ منهم ويتنصلون من عبادتهم لهم كما قال تعالى ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له الى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون واذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين وقال تعالى واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا وقال الخليل لقومه انما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين وقال تعالى ولو ترى اذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم الى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد اذ جاءكم بل كنتم مجرمين وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار اذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الاغلال فى أعناق الذين كفروا هل يجزون الا ما كانوا يعملون وقال تعالى وقال الشيطان لما قضى الامر ان الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم

وسلم الكلمة الطيبة صدقة وان من المعروف ان تلقى أخاك بوجه طلق والمراد بالمغفرة الستر للخلة وسوء حالة المحتاج والعفو عن السائل اذا صدر منه من الالحاح ما يكدر صدر المسؤل وقيل ان المراد ان العفو من جهة السائل لانه اذا رده ردا جميلا عذره وقيل المراد فعل يؤدى الى المغفرة خير من صدقة أى غفران الله خير من صدقتكم وهذه الجملة مستأنفة مقررة لترك اتباع المن والاذى للصدقة قال الضحاك قول معروف رد جميل تقول يرحمك الله ويرزقك الله ولا تنهره ولا تغلظ له القول وعن عمرو بن دينار قال بلغنا ان النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال ما من صدقة أحب الى الله من قول الحق ألم تسمع قول الله قول معروف الآية أخرجه ابن حاتم (والله غنى) عن صدقة العباد لا يحوج الفقراء الى تحمل مؤنة المن والاذى ويرزقهم من جهة أخرى (حليم) بتأخير العقوبة عن المان والمؤذى لا يعاجلهم بها لا انهم لا يستحقونها بسببهما والجملة تذييل لما قبلها مشتملة على الوعد والوعيد مقررة لاعتبار الخيرية بالنسبة الى السائل قطعا (يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم) يعنى أجورها والابطال للصدقات اذهاب أثرها وافساد منفعتها أى لا تبطلوها (بالمن والاذى) أو بأحدهما يعنى على السائل الفقير وقال ابن عباس بالمن على الله والاذى لصاحبها قال بعضهم ذهب أجره فلا أجر له ولا وزر عليه وقال بعضهم له أجر الصدقة ولكن ذهبت مضاعفته وعليه الوزر بالمن قال الكرخى وهذا أوجه وقال بعضهم لا أجر له فى نفقته وعليه وزر فيما من على الفقير (كالذى) أى كابطال الذى (ينفق ماله رئاء الناس) أى لاجل الرياء أو مرائيا لا يقصد بذلك وجه الله وثواب الآخرة بل يفعل ذلك رياء للناس وسمعة واستجلابا لثنائهم عليه ومدحهم له قيل والمراد به المنافق بدليل قوله (ولا يؤمن بالله واليوم الآخر) قال ابن عباس لا يدخل الجنة منان وذلك فى كتاب الله يعنى هذه الآية (فمثله) أى مثل الذى ينفق رئاء الناس أو المان المعطى وقد عدل من خطاب الى غيبة ومن جمع الى افراد (كمثل صفوان) الصفوان الحجر الكبير الاملس الصلب وفيه لغتان أشهرهما سكون الفاء والثانية فتحها وبها قرأ ابن المسيب والزهرى وهى شاذة وقال الاخفش صفوان جمع صفوانة وقال الكسائى صفوان واحد وجمعه صفى واصفى وأنكره المبرد وقال النحاس يجوز أن يكون جمعا وأن يكون واحدا وهو أولى لقوله (عليه تراب) أى استقر على الصفوان (فأصابه) اى الصفوان أو التراب (وابل) أى مطر والوابل المطر

وما أنتم بمصرخي اني كفرت بما اشركتموني من قبل ان الظالمين لهم عذاب اليم وقوله ورأوا العذاب وتقطعت بهم الاسباب أي عاينوا عذاب الله وتقطعت بهم الحيل وأسباب الخلاص ولم يجدوا عن النار معدلا ولا مصرفا قال عطاء عن ابن عباس وتقطعت بهم الاسباب قال المودة وكذا قال مجاهد في رواية ابن أبي نجيح وقوله وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرؤا منا أي لو أن لنا عودة الى الدار الدنيا حتى نتبرأ من هؤلاء ومن عبادتهم فلا نلتفت اليهم بل نوحد الله وحده بالعبادة وهم كاذبون في هذا بل لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وانهم لكاذبون كما أخبر الله تعالى عنهم بذلك (٣٥٣) ولهذا قال كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم أي تذهب وتضمحل كما قال تعالى وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا وقال تعالى مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف الآية وقال تعالى والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء الآية ولهذا قال تعالى وما هم بخارجين من النار (يا أيها الناس كلوا مما في الارض حلالا طيبا ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين انما يأمركم بالسوء والفحشاء وان تقولوا على الله ما لا تعلمون) لما بين تعالى انه لا اله الا هو وانه المستقل بالخلق شرع يبين انه الرزاق لجميع خلقه فذكر في مقام الامتنان انه أباح لهم أن يأكلوا مما في الارض في حال كونه حلالا من الله طيبا أي مستطابا في نفسه غير ضار للابدان ولا للعقول ونهاهم عن اتباع خطوات الشيطان وهي طرائقه ومسالكه فيما أضل أتباعه فيه من تحريم البحائر والسوائب والوصائل ونحوها مما كان زينه لهم في جاهليتهم كما في حديث عياض بن حماد الذي في صحيح مسلم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال يقول الله تعالى ان كل مال منحته عبادي فهو لهم حلال وفيه واني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه حدثنا سليمان بن أحمد حدثنا محمد بن عيسى بن شيبة المصري حدثنا الحسين بن عبد الرحمن الاحتياطي حدثنا أبو عبد الله الجوزجاني رفيق ابراهيم بن أدهم حدثنا ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال تليت هذه الآية عند النبي صلى الله عليه وسلم يا أيها الناس كلوا مما في الارض حلالا طيبا فقام سعد بن أبي وقاص

المطر الشديد العظيم القطر والمطر أوله رش ثم طش ثم طل ثم نضح ثم هطل ثم وبل يقال وبلت السماء وبلا ووبولا اشتد مطرها وكان الاصل وبل مطر السماء فحذف للعلم به ولهذا يقال للمطر وابل مثل الله سبحانه هذا المنافق بصفوان عليه تراب يظنه الظان أرضا منبتة طيبة فاذا أصابه وابل من المطر أذهب عنه التراب (فتركه) أي الصفوان يعني بقي (صلدا) أي أجرد نقيا من التراب الذي كان عليه وأملس ليس عليه شيء من الغبار أصلا وكذلك حال هذا المرائي يوم القيامة فان نفقته لا تنفع قال ابن عباس صلدا أي يابسا جاسيا لا ينبت شيأ (لا يقدرون على شيء مما كسبوا) أي على ثواب شيء مما عملوا في الدنيا مستأنفة كأنه قيل ماذا يكون حالهم فقيل لا يقدرون الخ (والله لا يهدي القوم الكافرين) يعني الذي سبق في علمه انهم يموتون على الكفر وفيه تعريض بان المن والاذى والرياء من خصال الكفار وعن محمود بن لبيد أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال انما أخوف ما أخاف عليكم الشرك الاصغر قالوا يا رسول الله وما الشرك الاصغر قال الرياء يقال لهم يوم تجازى العباد باعمالهم اذهبوا الى الذين كنتم تراؤن في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم خيرا رواه البغوي بسنده وعن أبي هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول قال الله تبارك وتعالى انا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه (ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله) ابتغى معناه طلب ومرضاة مصدر رضي يرضى (وتثبيتا) معناه يثبتون (من أنفسهم) ببذل أموالهم على الايمان وسائر العبادات رياضة لها وتدريبا وتمرينا أو يكون التثبيت بمعنى التصديق أي تصديقا للاسلام ناشئا من جهة أنفسهم وقد اختلف السلف في معنى هذا الحرف فقال الحسن ومجاهد معناه انهم يتثبتون أن يضعوا صدقاتهم وقال بعضهم معناه تصديقا ويقينا روى ذلك عن ابن عباس وقيل معناه احتسابا من أنفسهم قاله قتادة وقيل معناه ان أنفسهم لها بصائر فهي تثبتهم على الانفاق في طاعة الله تثبيتا قاله الشعبي والسدي وابن زيد وأبو صالح وهذا أرجح مما قبله يقال ثبت فلانا في هذا الامر أثبته تثبيتا أي صححت عزمه (كمثل جنة بربوة) الجنة البستان وهي أرض تنبت فيها الاشجار حتى تغطيها مأخوذة من لفظ الجن والجنين لاستتارها وقال أبو السعود الجنة تطلق على الاشجار الملتفة المتكاثفة وعلى الارض المشتملة عليها والاول أولى لاجل قوله

فقال يا رسول الله ادع الله أن يجعلني مستجاب الدعوة فقال يا سعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة والذي نفس محمد بيده ان
الرجل ليقذف اللقمة الحرام في جوفه ما يتقبل منه أربعين يوما وأيما عبد نبت لحمه من السحت والربا فالنار أولى به وقوله انه
لكم عدو مبين تنفير عنه وتحذير منه كما قال ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا انما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير
وقال تعالى أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا وقال قتادة والسدي في قوله ولا تتبعوا خطوات
الشيطان كل معصية لله فهي من خطوات (٢٥٤) الشيطان وقال عكرمة هي نزغات الشيطان وقال مجاهد خطوه
أو قال خطاياه وقال أبو مجلز هي النذور في المعاصي وقال الشعبي نذر رجل أن ينحر ابنه فأفتاه مسروق بذبح كبش وقال هذا من خطوات الشيطان وقال أبو الضحى عن مسروق أتي عبد الله ابن مسعود بضرع وملح فجعل يأكل فاعتزل رجل من القوم فقال ابن مسعود ناولوا صاحبكم فقال لا أريده فقال أصائم أنت قال لا قال فما شأنك قال حرمت أن آكل ضرعا أبدا فقال ابن مسعود هذا من خطوات الشيطان فاطعم وكفر عن يمينك رواه ابن أبي حاتم وقال أيضا حدثنا أبي حدثنا حسان بن عبد الله المصري عن سليمان التيمي عن أبي رافع قال غضبت يوما على امرأتي فقالت هي يوما يهودية ويوما نصرانية وكل مملوك لها حر ان لم تطلق امرأتك فأتيت عبد الله بن عمر فقال انما هذه من خطوات الشيطان وكذلك قالت زينب بنت أم سلمة وهي يومئذ أفقه امرأة في المدينة وأتيت عاصما وابن عمر فقالا مثل ذلك وقال عبد بن
حميد حدثنا أبو نعيم عن شريك عن عبد الكريم عن عكرمة عن ابن عباس قال ما كان من يمين أو نذر في غضب [illegible]
فهو من خطوات الشيطان وكفارته كفارة يمين وقوله انما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون أي انما يأمركم
عدوكم الشيطان بالأفعال السيئة وأغلظ منها الفاحشة كالزنا ونحوه وأغلظ من ذلك وهو القول على الله بلا علم فيدخل في هذا
كل كافر ومبتدع أيضا (واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون
ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع الا دعاء ونداء صم بكم عمي فهم لا يعقلون) يقول تعالى واذا قيل لهؤلاء الكفرة

بربوة والربوة بالحركات الثلاث المكان المرتفع ارتفاعا يسيرا وانما خص الربوة لأن نباتها
يكون أحسن من غيره مع كونه لا يصطلمه البرد في الغالب لجودته وكرمه ولطافة هوائه
بهبوب الرياح الملطفة له قال الطبري وهي أرض الحزن التي تستكثر العرب من ذكرها
واعترضه ابن عطية فقال ان رياض الحزن منسوبة الى نجد لأنها خير من رياض تهامة
ونبات نجد أعطر ونسيمه أبرد وأرق ونجد يقال له الحزن وليست هذه المذكورة هنا من
ذلك ولفظ الربوة مأخوذ من ربا يربو اذا زاد وقال الخليل الربوة أرض مرتفعة طيبة
وقيل هي الأرض المستوية الجيدة الطيبة اذا أصابها المطر انتفخت وربت وكثر ريعها
وجلت أشجارها (أصابها وابل) قال الخليل الوابل المطر الشديد يقال وبلت السماء تبل
والأرض موبولة قال الأخفش ومنه قوله تعالى أخذا وبيلا أي شديدا وضرب وبيل
وعذاب وبيل قال بعضهم

ما روضة من رياض الحزن معشبة * خضراء جاد عليها وابل هطل

أراد بالحزن ما غلظ وارتفع من الأرض (فآتت أكلها) بضم الهمزة الثمرة التي تؤكل
كقوله تعالى تؤتي أكلها كل حين واضافته الى الجنة اضافة اختصاص كسرج الفرس
وباب الدار (ضعفين) أي مثلي ما كانت تثمر بسبب الوابل فالمراد بالضعف المثل وقيل
أربعة أمثال (فان لم يصبها وابل فطل) أي فان الطل يكفيها وهو الطش أي المطر الضعيف
الخفيف المستدق القطر قال المبرد وغيره تقديره فطل يكفيها وقال الزجاج تقديره
فالذي يصيبها طل والمراد أن الطل ينوب مناب الوابل في اخراج الثمرة ضعفين وقال قوم
الطل الندى وفي الصحاح الطل أضعف المطر والجمع أطلال قال الماوردي وزرع الطل
أضعف من زرع المطر والمعنى أن نفقات هؤلاء زاكية عند الله لا تضيع بحال وان كانت
متفاوتة ويجوز أن يعتبر التمثيل ما بين حالهم باعتبار ما صدر عنهم من النفقة الكثيرة
والقليلة وبين الجنة المعهودة باعتبار ما أصابها من المطر الكثير والقليل فكما أن كل
واحد من المطرين يضعف أكلها فكذلك نفقتهم جلت أو قلت بعد أن يطلب بها وجه
الله زاكية زائدة في أجورهم (والله بما تعملون) أي جملة الأعمال قليلها (بصير) لا يخفى عليه
من شيء وفي هذا ترغيب لهم بالاخلاص مع ترهيب من الرياء ونحوه فهو وعد ووعيد
(أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب) الود الحب للشيء مع تمنيه والهمزة

من المشركين اتبعوا ما أنزل الله على رسوله واتركوا ما أنتم عليه من الضلال والجهل قالوا في جواب ذلك بل نتبع ما ألفينا أى وجدنا عليه آباءنا أى من عبادة الاصنام والانداد قال الله تعالى منكرا عليهم أولو كان آباؤهم أى الذين يقتدون بهم ويقتفون أثرهم لا يعقلون شيأ ولا يهتدون أى ليس لهم فهم ولا هداية وروى ابن اسحق عن محمد بن ابى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس انها نزلت فى طائفة من اليهود دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الاسلام فقالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا فأنزل الله هذه الآية ثم ضرب لهم تعالى مثلا كما قال تعالى للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء فقال ومثل الذين كفروا أى فيما هم فيه من الغى والضلال والجهل كالدواب السارحة التى لا تفقه ما يقال لها بل اذا نعق بها راعيها أى دعاها الى ما يرشدها لا تفقه ما يقول ولا تفهمه بل انما تسمع صوته فقط هكذا روى عن ابن عباس وأبى العالية ومجاهد وعكرمة وعطاء والحسن وقتادة وعطاء الخراسانى والربيع بن أنس نحو هذا وقيل انما هذا مثل ضرب لهم فى دعائهم الاصنام التى لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل شيأ اختاره ابن جرير والاول أولى لان الاصنام لا تسمع شيأ ولا تعقله ولا تبصره ولا بطش لها ولا حياة فيها وقوله صم بكم عمى أى صم عن سماع الحق بكم لا يتفوهون به عمى عن رؤية طريقه ومسلكه فهم لا يعقلون أى لا يعقلون شيأ ولا يفهمونه كما قال تعالى والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم فى الظلمات من يشإ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم (يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله ان كنتم اياه تعبدون انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا اثم عليه ان الله غفور رحيم) يقول تعالى آمرا عباده المؤمنين بالاكل من طيبات ما رزقهم تعالى وان يشكروه تعالى على ذلك ان كانوا عبيده والاكل من الحلال سبب لتقبل الدعاء والعبادة كما ان الاكل من الحرام يمنع قبول الدعاء والعبادة كما جاء فى الحديث الذى رواه الامام أحمد حدثنا أبو النضر حدثنا الفضيل بن مرزوق عن عدى بن ثابت عن أبى حازم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أيها الناس ان الله طيب لا يقبل الا طيبا وان الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا انى بما تعملون

الداخلة على الفعل لانكار الوقوع والجنة تطلق على الشجر الملتف وعلى الارض التى فيها الشجر والاول أولى هنا لقوله (تجرى من تحتها الانهار) بارجاع الضمير الى الشجر من دون حاجة الى مضاف محذوف وأما على الوجه الثانى فلا بد من تقديره أى من تحت أشجارها وهكذا قوله الآتى فاحترقت لا يحتاج الى تقدير مضاف على الوجه الاول وأما على الثانى فيحتاج الى تقديره أى فاحترقت أشجارها وخص النخيل والاعناب بالذكر مع قوله (له فيها من كل الثمرات) لكونهما أكرم الشجر وأشرف الفواكه جامعين لفنون المنافع لما فيهما من الغذاء والتفكه وهذه الجمل صفات للجنة والنخيل اسم جمع واحده نخلة أو جمع نخل الذى هو اسم جنس والاعناب جمع عنب الذى هو اسم جنس واحده عنبة (وأصابه الكبر) الواو للحال حملا على المعنى بتقدير قد وقيل غير ذلك وهذا أرجح وكبر السن هو مظنة شدة الحاجة لما يلحق صاحبه من العجز عن تعاطى الاسباب والمعنى كثرت جهات حاجاته ولم يكن له كسب غيرها (وله ذرية ضعفاء) حال من الضمير فى اصابه أى والحال ان له أولادا صغارا عجزت عن الحركة بسبب الضعف والصغر فان من جمع بين كبر السن وضعف الذرية كان تحسره على تلك الجنة فى غاية الشدة (فأصابها اعصار) الاعصار الريح الشديدة المرتفعة التى تهب من الارض الى السماء كالعمود وهى التى يقال لها الزوبعة قاله الزجاج قال الجوهرى الزوبعة رئيس من رؤساء الجن ومنه سمى الاعصار زوبعة وأم زوبعة وأبا زوبعة يقال فيه شيطان مارد وهى ريح تثير الغبار وترتفع الى السماء كأنه عمود وقيل هى ريح تثير سحابا ذات رعد وبرق وقال ابن عباس ريح فيها سموم شديدة سميت بذلك لانها تلتف كما يلتف الثوب المعصور وقيل لانها تعصر السحاب وتجمع على أعاصير والريح مؤنثة على الاكثر وقد تذكر على معنى الهواء وقال ابن الانبارى وكذا سائر أسمائها الا الاعصار فانه مذكر (فيه نار فاحترقت) عطف على قوله فأصابها وهذه الآية تمثيل لمن يعمل خيرا ويضم ما يحبطه فيجده يوم القيامة عند شدة حاجته اليه لا يسمن ولا يغنى من جوع بحال من له هذه الجنة الموصوفة وهو متصف بتلك الصفة وقال ابن عباس ضرب الله مثلا لعمل رجل غنى يعمل بطاعة الله ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصى حتى أحرق أعماله كلها (كذلك) أى كما بين ما ذكر من أمر النفقة المقبولة وغيرها (يبين الله لكم الآيات) قال ابن عباس

عليم وقال يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه الى السماء يارب يارب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنى يستجاب لذلك ورواه مسلم في صحيحه والترمذي من حديث فضيل ابن مرزوق ولما امتن تعالى عليهم برزقه وأرشدهم الى الاكل من طيبه ذكر انه لم يحرم عليهم من ذلك الا الميتة وهي التي تموت حتف أنفها من غير تذكية وسواء كانت منخنقة أو موقوذة أو مترديه أو نطيحة أو عدا عليها السبع وقد خصص الجمهور من ذلك ميتة البحر لقوله تعالى أحل لكم صيد البحر (٣٥٦) وطعامه على ما سيأتي ان شاء الله وحديث العنبر في الصحيح وفي المسند والموطا والسنن قوله عليه السلام في البحر هو الطهور ماؤه الحل ميتته وروى الشافعي وأحمد وابن ماجه والدارقطني حديث ابن عمر مرفوعا أحل لنا ميتتان ودمان السمك والجراد والكبد والطحال وسيأتي تقرير ذلك ان شاء الله في سورة المائدة * (مسئلة) * ولبن الميتة وبيضها المتصل بها نجس عند الشافعي وغيره لانه جزء منها وقال مالك في رواية هو طاهر الا أنه ينجس بالمجاورة وكذلك أنفحة الميتة فيها الخلاف والمشهور عندهم انها نجسة وقد أوردوا على أنفسهم أكل الصحابة من جبن المجوس فقال القرطبي في التفسير ههنا يخالط اللبن منها يسير ويعفى عن قليل النجاسة اذا خالط الكثير من المائع وقد روى ابن ماجه من حديث سيف بن هرون عن سليمان التيمي عن أبي عثمان النهدي عن سلمان رضي الله عنه سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن السمن والجبن والفراء فقال الحلال ما أحل الله في كتابه والحرام ما حرم الله في كتابه وما سكت عنه فهو مما عفا عنه وكذلك حرم عليهم لحم الخنزير سواء ذكي أم مات حتف انفه ويدخل شحمه في حكم لحمه اما تغليبا أوان اللحم يشمل ذلك أو بطريق القياس على رأي وكذلك حرم عليهم ما أهل به لغير الله وهو ماذبح على غير اسمه تعالى من الانصاب والانداد والازلام ونحو ذلك مما كانت الجاهلية ينحرون له وذكر القرطبي عن ابن عطية انه نقل عن الحسن البصري انه سئل عن امرأة عملت عرسا للعبها فنحرت فيه جزورا فقال لا تؤكل لانها ذبحت لصنم وأورد القرطبي عن عائشة رضي الله عنها انها سئلت عما يذبحه العجم لاعيادهم فيهدون منه للمسلمين فقالت ماذبح لذلك اليوم فلا تأكلوا منه وكلوا من أشجارهم ثم اباح تعالى

« يأتي »

يعني في زوال الدنيا واقبال الآخرة (لعلكم تتفكرون) أي تعتبرون (يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم) أي من جيد ما كسبتم وخياره كذا قال الجمهور وقال جماعة ان معنى الطيبات هنا الحلال ولا مانع من اعتبار الامرين جميعا لان جيد الكسب ومختاره انما يطلق على الحلال عند أهل الشرع وان أطلقه أهل اللغة على ما هو جيد في نفسه حلالا كان أو حراما فالحقيقة الشرعية مقدمة على اللغوية قال علي بن أبي طالب ما كسبتم من الذهب والفضة وقال مجاهد من التجارة وقيل المواشي قيل وفيه دليل على اباحة الكسب وفي الحديث عن المقدام أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال ما أكل أحد طعاما خيرا من أن يأكل من عمل يده أخرجه البخاري واختلف في المراد بالانفاق فقيل الزكاة المفروضة لان الامر للوجوب وقيل صدقة التطوع وقيل الفرض والنفل جميعا (ومما) أي من طيبات ما (أخرجنا لكم من الارض) وحذف لدلالة ما قبله عليه وهي النباتات والمعادن والركاز وقال علي يعني من الحب والثمر وكل شئ عليه زكاة وقال مجاهد من الثمار وظاهر الآية يدل على وجوب الزكاة في كل ما خرج من الارض لكن الجمهور خصصوا هذا العموم وخصه الشافعي بما يزرعه الآدميون ويقتات اختيارا وقد بلغ نصابا وبثمر النخل وثمر العنب وأبقاه أبو حنيفة على عمومه فاوجبها في كل ما يقصد من نبات الارض كالفواكه والبقول والخضراوات كالبطيخ والقثاء والخيار وأوجب في ذلك العشر قليلا كان أو كثيرا والاول أولى وتفصيل ذلك في كتب الفروع (ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون) أي لا تقصدوا المال الردئ وفي الآية الامر بانفاق الطيب والنهي عن انفاق الخبيث وقد ذهب جماعة من السلف الى ان الآية في الصدقة المفروضة وذهب آخرون الى انها تعم صدقة الفرض والتطوع وهو الظاهر وسيأتي من الادلة ما يؤيد هذا وتقديم الظرف يفيد التخصيص أي لا تخصوا الخبيث بالانفاق أي لا تقصدوا المال الخبيث مخصصين الانفاق به قاصرين له عليه أخرج الترمذي وصححه وابن ماجه وغيرهما عن البراء بن عازب قال نزلت فينا معشر الانصار كنا أصحاب نخل وكان الرجل يأتي من نخله على قدر كثرته وقلته وكان الرجل يأتي بالقنو والقنوين فعلقه في المسجد وكان أهل الصفة ليس لهم طعام فكان أحدهم اذا جاع أتى القنو فضربه بعصاه فيسقط البسر والتمر فيأكل وكان ناس ممن لا يرغب في الخير

يأتي بالقنو فيه الشيص والحشف وبالقنو قد انكسر فيعلقه فأنزل الله هذه الآية وفي الباب أحاديث وعن علي قال نزلت هذه الآية في الزكاة المفروضة وعن ابن عباس قال كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يشترون الطعام الرخيص ويتصدقون فأنزل الله هذه الآية (ولستم بآخذيه) أي والحال انكم لا تأخذونه في معاملاتكم في وقت من الاوقات هكذا بين معناه الجمهور وقيل معناه ولستم بآخذيه لو وجدتموه في السوق يباع (الا أن) أي بان (تغمضوا فيه) هو من أغمض الرجل في أمر كذا اذا تساهل ورضي ببعض حقه وتجاوز وغض بصره عنه وقرئ بفتح التاء وكسر الميم مخففا وقرئ بضم التاء وكسر الميم مشددة والمعنى على الثانية الا أن تهضموا سومها من البائع منكم وعلى الثالثة الا ان تأخذوا بنقصان قال ابن عطية وقراءة الجمهور وهي الاولى تخرج على التجاوز أو على تغميض العين لان أغمض بمنزلة غمض أو على ان الا بمعنى حتى أي حتى تأتوا غامضا من التأويل والنظر في أخذ ذلك والاغماض يطلق على كل من التساهل في الشئ واطباق جفن العين واذا عرفت هذا عرفت ان لا حاجة لدعوى المجاز والكناية التي قالها بعضهم والمعنى لستم بآخذيه في حال من الاحوال الا في حال الاغماض (واعلموا أن الله غني) عن صدقاتكم لم يأمركم بالتصدق (١) لعوز واحتياج اليها بل لنفعكم بها واحتياجكم لثوابها فينبغي لكم أن تتحروا فيها الطيب (حميد) محمود في أفعاله على كل حال من التعذيب والاثابة (الشيطان يعدكم الفقر) قد تقدم معنى الشيطان واشتقاقه ويعدكم معناه يخوفكم بالفقر لئلا تنفقوا فهذه الآية متصلة بما قبلها وقرئ الفقر بضم الفاء وهي لغة قال الجوهري والفقر لغة في الفقر مثل الضعف والضعف (ويأمركم بالفحشاء) أي الخصلة الفحشاء وهي المعاصي والانفاق فيها او البخل عن الانفاق في الطاعات قال في الكشاف والفاحش عند العرب البخيل انتهى ولكن العرب وان أطلقته على البخيل فذلك لا ينافي اطلاقهم على غيره من المعاصي وقد وقع كثيرا في كلامهم والمعنى يحسن لكم البخل ومنع الزكاة والصدقة قال الكلبي كل فحشاء في القرآن فالمراد به الزنا الا هذا الموضع (والله يعدكم مغفرة منه وفضلا) بسبب الانفاق كقوله ان الحسنات يذهبن السيئات وقوله وما انفقتم من شئ فهو يخلفه والوعد في كلام العرب اذا أطلق فهو في الخير واذا قيد فقد يقيد تارة بالخير وتارة بالشر ومنه قوله تعالى

تناول ذلك عند الضرورة والاحتياج اليها عند فقد غيرها من الاطعمة فقال فمن اضطر غير باغ ولا عاد اي في غير بغي ولا عدوان وهو مجاوزة الحد فلا اثم عليه أي في أكل ذلك ان الله غفور رحيم وقال مجاهد فمن اضطر غير باغ ولا عاد قاطعا للسبيل أو مفارقا للائمة أو خارجا في معصية الله فله الرخصة ومن خرج باغيا أو عاديا أو في معصية الله فلا رخصة له وان اضطر اليه وكذا روي عن سعيد بن جبير وقال سعيد في رواية عنه ومقاتل بن حيان غير باغ يعني غير مستحله وقال السدي غير باغ يبتغي فيه شهوته وقال آدم بن أبي اياس حدثنا ضمرة عن عثمان بن عطاء وهو الخراساني عن أبيه (٣٥٧) قال لا يشوي من الميتة ليشتهيه ولا يطبخه ولا يأكل الا العلقة ويحمل معه ما يبلغه الحلال فاذا بلغه ألقاه وهو قوله ولا عاد ويقول لا يعدو به الحلال وعن ابن عباس لا يشبع منها وفسره السدي بالعدوان وعن ابن عباس غير باغ ولا عاد قال غير باغ في الميتة ولا عاد في أكله وقال قتادة فمن اضطر غير باغ ولا عاد قال غير باغ في الميتة أي في أكله ان يتعدى حلالا الى حرام وهو يجد عنه مندوحة وحكى القرطبي عن مجاهد في قوله فمن اضطر أي أكره على ذلك بغير اختياره *(مسئلة)* اذا وجد المضطر ميتة وطعام الغير بحيث لا قطع فيه ولا أذى فانه لا يحل له أكل الميتة بل يأكل طعام الغير بغير خلاف كذا قال ثم قال واذا أكله والحالة هذه هل يضمن أم لا فيه قولان هما روايتان عن مالك ثم أورد من سنن ابن ماجه من حديث شعبة عن أبي اياس جعفر ابن أبي وحشية سمعت عباد بن شرحبيل العنزي قال أصابتنا عاما مخمصة فأتيت المدينة فأتيت حائطا فأخذت سنبلا ففركته وأكلته وجعلت منه في كسائي فجاء صاحب الحائط فضربني وأخذ ثوبي فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته فقال للرجل ما أطعمته اذ كان جائعا ولا ساعيا ولا علمته اذ كان جاهلا فأمره فرد اليه ثوبه وأمر له بوسق من طعام أو نصف وسق اسناد صحيح قوي جيد وله شواهد كثيرة من ذلك حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الثمر المعلق فقال من أصاب منه من ذي حاجة بفيه غير متخذ خبنة فلا شئ عليه الحديث وقال مقاتل بن حيان في قوله فلا اثم عليه ان الله غفور رحيم فيما أكل من اضطرار وبلغنا والله أعلم انه لا يزاد على ثلاث لقم وقال سعيد بن جبير غفور لما أكل من الحرام

(١) العوز بفتحتين درويش شدن ونايافت شدن اه صراح

رحيم اذ أحل له الحرام فى الاضطرار وقال وكيع أخبرنا الاعمش عن أبى الضحى عن مسروق قال من اضطر فلم يأكل ولم يشرب ثم مات دخل النار وهذا يقتضى ان أكل الميتة للمضطر عزيمة لا رخصة قال أبو الحسن الطبرى المعروف بالكيا الهراسى رفيق الغزالى فى الاشتغال وهذا هو الصحيح عندنا كالافطار للمريض ونحو ذلك (ان الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا أولئك ما يأكلون فى بطونهم الا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فما أصبرهم على النار ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق وان الذين اختلفوا فى الكتاب لفى شقاق بعيد) (٣٥٨) يقول تعالى ان الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب يعنى اليهود الذين كتموا صفة محمد صلى الله عليه وسلم فى كتبهم التى بأيديهم مما تشهد له بالرسالة والنبوة فكتموا ذلك لئلا تذهب رياستهم وما كانوا يأخذونه من العرب من الهدايا والتحف على تعظيمهم آباءهم خشوا لعنهم الله ان أظهروا ذلك أن يتبعه الناس ويتركوهم فكتموا ذلك ابقاء على ما كان يحصل لهم من ذلك وهو نزر يسير فباعوا أنفسهم بذلك واعتاضوا عن الهدى واتباع الحق وتصديق الرسول والايمان بما جاء عن الله بذلك النزر اليسير فخابوا وخسروا فى الدنيا والآخرة أما فى الدنيا فان الله أظهر لعباده صدق رسوله بما نصبه وجعله معه من الآيات الظاهرات والدلائل القاطعات فصدقه الذين كانوا يخافون أن يتبعوه وصاروا عونا له على قتالهم وباؤا بغضب على غضب وذمهم الله فى كتابه فى غير موضع فمن ذلك هذه الآية الكريمة ان الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا وهو عرض الحياة الدنيا أولئك ما يأكلون فى بطونهم الا النار أى انما يأكلون ما يأكلونه فى مقابلة كتمان الحق نارا تأجج فى بطونهم يوم القيامة كما قال تعالى ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما انما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا وفى الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال ان الذى يأكل أو يشرب فى آنية الذهب والفضة انما يجرجر فى بطنه نار جهنم وقوله ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم وذلك لانه تعالى غضبان عليهم لانهم كتموا وقد علموا فاستحقوا الغضب فلا ينظر اليهم ولا يزكيهم أى يثنى عليهم ويمدحهم بل يعذبهم عذابا أليما وقد ذكر ابن أبى

النار وعدها الله الذين كفروا ومنه أيضا ما فى هذه الآية من تقييد وعد الشيطان بالفقر وتقييد وعد الله سبحانه بالمغفرة والفضل والمغفرة الستر على عباده فى الدنيا والآخرة لذنوبهم وكفاراتها والفضل ان يخلف عليهم أفضل مما أنفقوا فيوسع لهم فى أرزاقهم وينعم عليهم فى الآخرة بما هو أفضل وأكثر وأجل وأجمل (والله واسع) أى غنى قادر على اغنائكم واخلاف ما تنفقونه (عليم) بانفاقكم لا تخفى عليه خافية عن أبى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال ما من يوم يصبح فيه العباد الا وملكان ينزلان يقول أحدهما اللهم أعط منفقا خلفا ويقول الآخر أعط ممسكا تلفا أخرجه الشيخان وفى الباب أحاديث (يؤتى الحكمة من يشاء) الحكمة هى العلم وقيل الفهم وقيل الاصابة فى القول ولا مانع من الحمل على الجميع شمولا أو بدلا وقيل انها النبوة وقيل الخشية وقيل العقل وقيل الورع وقيل المعرفة بالقرآن وقيل الفقه فى الدين وقيل التفكر فى أمر الله وقيل طاعة الله والعمل بها وهذه الاقوال كلها قريب بعضها من بعض لان الحكمة مصدر من الاحكام وهو الاتقان فى عمل أو قول وكل ما ذكر هو نوع من الحكمة التى هى الجنس فكتاب الله تعالى حكمة وسنة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم حكمة وأصل الحكمة ما يمنع من السفه وهو كل قبيح وعن ابن عباس قال الحكمة المعرفة بالقرآن ناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه ومقدمه ومؤخره وحلاله وحرامه وامثاله وعنه قال انها القرآن يعنى تفسيره وعنه انها الفقه فى القرآن وعن أبى الدرداء انها قراءة القرآن والتفكر فيه وعن أبى العالية هى الكتاب والفهم به وبه قال النخعى وعن مجاهد هى الكتاب يؤتى اصابته من يشاء وعنه قال هى الاصابة فى القول وعن أبى العالية ومطر الوراق قال هى الخشية (ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا) قرئ ومن يؤت الحكمة على البناء للفاعل وقراءة الجمهور على البناء للمفعول أى من أعطاه الله الحكمة أى العلم النافع المؤدى الى العمل الصالح فقد أعطاه خيرا عظيما قدره جليلا خطره لمصيره الى السعادة الابدية والتنكير للتعظيم (وما يذكر الا أولوا الالباب) أى الذين عقلوا عن الله أمره ونهيه والالباب العقول واحدها لب وقد تقدم الكلام فيه وفيه من الترغيب فى المحافظة على الاحكام الواردة فى شأن الانفاق ما لا يخفى والجملة اما حال واما اعتراض تذييلى (وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فان الله يعلمه) ما شرطية ويجوز ان تكون موصولة

حاتم وابن مردويه ههنا حديث الاعمش عن ابى حازم عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم شيخ زان وملك كذاب وعائل مستكبر ثم قال تعالى مخبرا عنهم أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى أى اعتاضوا عن الهدى وهو نشر ما فى كتبهم من صفة الرسول وذكر مبعثه والبشارة به من كتب الانبياء واتباعه وتصديقه استبدلوا عن ذلك واعتاضوا عنه بالضلالة وهو تكذيبه والكفر به وكتمان صفاته فى كتبهم والعذاب بالمغفرة اى اعتاضوا عن المغفرة بالعذاب وهو ما تعاطوه من أسبابه المذكورة وقوله تعالى فما أصبرهم على النار يخبر تعالى انهم فى عذاب شديد عظيم هائل يتعجب من رآهم فيها من صبرهم على ذلك من شدة ما هم فيه من العذاب والنكال والاغلال عياذا بالله من ذلك وقيل معنى قوله فما أصبرهم على النار أى فما أدومهم لعمل المعاصى التى تفضى بهم الى النار وقوله تعالى ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق أى انما استحقوا هذا العذاب الشديد لان الله تعالى أنزل على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم وعلى الانبياء قبله كتبه بتحقيق الحق وابطال الباطل وهؤلاء اتخذوا آيات الله هزوا فكتابهم يأمرهم باظهار العلم ونشره فخالفوه وكذبوه وهذا الرسول الخاتم يدعوهم الى الله تعالى ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر وهم يكذبونه ويخالفونه ويجحدونه ويكتمون صفته فاستهزؤا بآيات الله المنزلة على رسله فلهذا استحقوا العذاب والنكال ولهذا قال ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق وان الذين اختلفوا فى الكتاب لفى شقاق بعيد (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس اولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون) اشتملت هذه الآية الكريمة على جمل عظيمة وقواعد عميمة وعقيدة مستقيمة كما قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا عبيد بن هشام الحلبى حدثنا عبيد الله بن عمرو عن عامر بن شفى عن عبد الكريم عن مجاهد عن أبى ذر انه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما الايمان فتلا عليه ليس البر أن تولوا وجوهكم الى آخر الآية قال ثم سأله أيضا فتلاها

موصولة والعائد محذوف أى الذى نفقتموه وهذا بيان لحكم كلى عام يشمل كل صدقة مقبولة وغير مقبولة وكل نذر مقبول وغير مقبول وفيه معنى الوعد لمن أنفق ونذر على الوجه المقبول والوعيد لمن جاء بعكس ذلك ووحد الضمير مع كونه مرجعه شيئين هما النفقة والنذر لان التقدير وما أنفقتم من نفقة فان الله يعلمها أو نذرتم من نذر فان الله يعلمه ثم حذف أحدهما استغناء بالآخر قاله النحاس وقيل انما كان العطف فيه بكلمة أو كما فى قولك زيد أو عمرو فانه يقال أكرمته ولا يقال أكرمتهما والاولى أن يقال ان العطف بأو يجوز فيه الامران توحيد الضمير كما فى هذه الآية وفى قوله تعالى واذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا اليها وقوله ومن يكسب خطيئة أو اثما ثم يرم به بريئا وتثنيته كما فى قوله تعالى ان يكن غنيا أو فقيرا فالله اولى بهما ومن الاول فى العطف بالواو قوله تعالى والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها وقيل اذا وحد الضمير بعد ذكر شيئين أو أشياء فهو بتأويل المذكور أى فان الله يعلم المذكور وبه جزم ابن عطية ورجحه القرطبى وذكر معناه كثير من النحاة فى مؤلفاتهم (وما للظالمين) انفسهم بما وقعوا فيه من الاثم بمخالفة ما امر الله به من الانفاق فى وجوه الخير (من أنصار) ينصرونهم ويمنعونهم من عقاب الله بما ظلموا به انفسهم والاولى الحمل على العموم من غير تخصيص بما يفيده السياق اى ما للظالمين بأى مظلمة كانت من أنصار وقد ثبت عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم فى نذر الطاعة والمعصية فى الصحيح وغيره ما هو معروف كقوله صلى الله عليه وآله وسلم لا نذر فى معصية الله وقوله من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصيه فلا يعصه وقوله النذر ما ابتغى به وجه الله وثبت عنه فى كفارة النذر ما هو معروف (ان تبدوا الصدقات فنعما هى وان تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم) فى هذا نوع تفصيل لما اجمل فى الشرطية المتقدمة ولذا ترك العطف بينهما اى ان تظهروا الصدقات فنعم شيأ اظهارها وان تخفوها وتصيبوا بها مصارفها من الفقراء فالاخفاء خير لكم وقد ذهب جمهور من المفسرين الى أن هذه الآية فى صدقة التطوع لا فى صدقة الفرض فلا فضيلة للاخفاء فيها بل قد قيل ان الاظهار فيها أفضل وقالت طائفة أن الاخفاء أفضل فى الفرض والتطوع عن ابن عباس قال جعل السر فى التطوع يفضل علانيتها سبعين ضعفا وجعل صدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها بخمسة وعشرين ضعفا وكذا جميع الفرائض والنوافل فى

عليه ثم سأله فقال اذا عملت حسنة أحبها قلبك واذا عملت سيئة أبغضها قلبك وهذا منقطع فان مجاهدا لم يدرك أبا ذر فانه مات قديما وقال المسعودي حدثنا القاسم بن عبد الرحمن قال جاء رجل الى أبي ذر فقال ما الايمان فقرأ عليه هذه الآية ليس البر أن تولوا وجوهكم حتى فرغ منها فقال الرجل ليس عن البر سألتك فقال أبو ذر جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله عما سألتني عنه فقرأ عليه هذه الآية فأبى أن يرضى كما أبيت أن ترضى فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم وأشار بيده المؤمن اذا عمل حسنة سرته ورجا ثوابها واذا عمل سيئة أحزنته (٣٦٠) وخاف عقابها رواه ابن مردويه وهذا أيضا منقطع والله أعلم وأما الكلام على تفسير هذه الآية فان الله تعالى لما أمر المؤمنين أولا بالتوجه الى بيت المقدس ثم حولهم الى الكعبة شق ذلك على نفوس طائفة من أهل الكتاب وبعض المسلمين فأنزل الله تعالى بيان حكمته في ذلك وهو أن المراد انما هو طاعة الله عز وجل وامتثال أوامره والتوجه حيثما وجه واتباع ما شرع فهذا هو البر والتقوى والايمان الكامل وليس في لزوم التوجه الى جهة من المشرق أو المغرب بر ولا طاعة ان لم يكن عن أمر الله وشرعه ولهذا قال ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر الآية كما قال في الاضاحي والهدايا لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم وقال العوفي عن ابن عباس في هذه الآية ليس البر أن تصلوا ولا تعملوا فهذا حين تحول من مكة الى المدينة ونزلت الفرائض والحدود فأمر الله بالفرائض والعمل بها وروي عن الضحاك ومقاتل نحو ذلك وقال أبو العالية كانت اليهود تقبل قبل المغرب وكانت النصارى تقبل قبل المشرق فقال الله تعالى ليس البر أن أربعة
تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب يقول هذا كلام الايمان وحقيقته العمل وروي عن الحسن والربيع بن أنس مثله وقال مجاهد ولكن البر ما ثبت في القلوب من طاعة الله عز وجل وقال الضحاك ولكن البر والتقوى أن تؤدوا الفرائض على وجوهها وقال الثوري ولكن البر من آمن بالله الآية قال هذه أنواع البر كلها وصدق رحمه الله فان من اتصف بهذه الآية فقد دخل في عرى الاسلام كلها وأخذ بمجامع الخير كله وهو الايمان بالله وأنه لا اله الا هو وصدق بوجود الملائكة الذين هم سفرة بين الله ورسله ويكتب

الاشياء كلها وعنه في الآية قال كان هذا يعمل قبل أن تنزل براءة فلما نزلت براءة بفرائض الصدقات وتفصيلها انتهت الصدقات اليها وعنه قال هذا منسوخ وقوله في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم قال منسوخ نسخ كل صدقة في القرآن الآية التي في سورة التوبة انما الصدقات للفقراء وقد وردت في فضل صدقة السر أحاديث صحيحة مرفوعة (ويكفر عنكم من سيئاتكم) من للتبعيض أي شيئا من سيئاتكم لأن الصدقات لا تكفر جميع السيئات كذا قدره أبو البقاء وحكى الطبري عن فرقة أنها زائدة وذلك على رأي الأخفش قال ابن عطية وذلك منهم خطأ وقيل انها للسببية أي من أجل ذنوبكم وهذا ضعيف والسيئات جمع سيئة ووزنها فيعلة وعينها واو قال ابن عباس جميع سيئاتكم (والله بما تعملون خبير) يعني من ابداء الصدقات واخفائها وفيه ترغيب في الاسرار (ليس عليك هداهم) أي ليس بواجب عليك أن تجعلهم مهتدين قابلين لما أمروا به ونهوا عنه فالهدى مصدر مضاف لمفعوله أو ليس عليك أن يهتدوا فيكون مضافا لفاعله (ولكن الله يهدي من يشاء) هداية توصله الى المطلوب وهذه الجملة معترضة وفيها الالتفات وعن ابن عباس قال كانوا يكرهون أن يرضخوا لأنسابهم من المشركين فنزلت هذه الآية الى آخرها فرخص لهم وفي الباب آثار عن الصحابة والتابعين (وما تنفقوا من خير فلأنفسكم) أي كل ما يصدق عليه اسم الخير كائنا ما كان وقوعا على كثير ولكن هذا في غير صدقة الفرض (وما تنفقون الا ابتغاء وجه الله) استثناء من أعم العلل أي لا تنفقوا لغرض من الأغراض الا لهذا الغرض ثم بين أن النفقة المعتد بها المقبولة انما هي ما كان لابتغاء وجه الله سبحانه قال الزجاج هذا خاص بالمؤمنين وقال بعضهم لو أنفقت على شر خلق الله لكان لك ثواب نفقتك ويرده حديث لا يأكل طعامك الا تقي وأجمع العلماء على أنه لا يجوز صرف الزكاة الا الى المسلمين وجوز أبو حنيفة صرف صدقة الفطر الى أهل الذمة وخالفه سائر العلماء في ذلك (وما تنفقوا من خير يوف اليكم) أي يوفر لكم أجره وثوابه على الوجه الذي تقدم ذكره من التضعيف قال عطاء الخراساني اذا أعطيت لوجه الله فلا عليك ما كان عمله (وأنتم لا تظلمون) أي لا تنقصون شيئا من ثواب أعمالكم (للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله) بالغزو والجهاد وفيه بيان مصرف الصدقات واختاره ابن الانباري قال ابن عباس هم أصحاب الصفة يعني فقراء المهاجرين كانوا نحو

وهو اسم جنس يشمل الكتب المنزلة من السماء على الانبياء حتى ختمت بأشرفها وهو القرآن المهيمن على ما قبله من الكتب الذى انتهى اليه كل خير واشتمل على كل سعادة فى الدنيا والآخرة ونسخ به كل ما سواه من الكتب قبله وآمن بأنبياء الله كلهم من أولهم الى خاتمهم محمد صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين وقوله وآتى المال على حبه أى أخرجه وهو محب له راغب فيه نص على ذلك ابن مسعود وسعيد بن جبير وغيرهما من السلف والخلف كما ثبت فى الصحيحين من حديث أبى هريرة مرفوعا أفضل الصدقة ان تصدق وأنت صحيح شحيح تأمل الغنى وتخشى الفقر وقد روى الحاكم (٣٦١) فى مستدركه من حديث شعبة والثورى عن منصور عن زبيد عن مرة عن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وآتى المال على حبه ان تعطيه وأنت صحيح شحيح تأمل العيش وتخشى الفقر ثم قال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه (قلت) وقد رواه وكيع عن الاعمش وسفيان عن زبيد عن مرة عن ابن مسعود موقوفا وهو أصح والله أعلم وقال تعالى ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا وقال تعالى لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وقوله ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة نمط آخر ارفع من هذا وهو انهم آثروا بما هم مضطرون اليه وهؤلاء أعطوا وأطعموا ما هم محبون له وقوله ذوى القربى وهم قرابات الرجل وهم أولى من أعطى من الصدقة كما ثبت فى الحديث الصدقة على المساكين صدقة وعلى ذوى الرحم ثنتان صدقة وصلة فهم أولى الناس بك وببرك واعطائك وقد أمر الله تعالى بالاحسان اليهم فى غير موضع من كتابه العزيز واليتامى هم الذين لا كاسب لهم وقد مات آباؤهم وهم ضعفاء صغار دون البلوغ والقدرة على التكسب وقد قال عبد الرزاق أنبأنا معمر عن جويبر عن الضحاك عن النزال بن سبرة عن على عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا يتم بعد حلم والمساكين وهم الذين لا يجدون ما يكفيهم فى قوتهم وكسوتهم وسكناهم فيعطون ما يسد به حاجتهم وخلتهم وفى الصحيحين عن أبى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ليس المسكين بهذا الطواف الذى ترده التمرة والتمرتان واللقمة واللقمتان ولكن المسكين الذى لا يجد غنى يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه وابن السبيل وهو

أربعمائة رجل لم يكن لهم بالمدينة مساكن ولا عشائر وكانوا يأوون الى صفة فى المسجد يتعلمون القرآن بالليل وهم الذين حبسوا أنفسهم على الجهاد خاصة وعلى طاعة الله عامة قيل منعوا عن التكسب لما هم فيه من الضعف (لا يستطيعون ضربا فى الارض) للتكسب بالتجارة والزراعة ونحو ذلك بسبب ضعفهم قال مجاهد هم مهاجرو قريش بالمدينة مع النبى صلى الله عليه وآله وسلم أمروا بالصدقة عليهم وقال سعيد بن جبير هم قوم أصابتهم الجراحات فى سبيل الله فصاروا زمنى فجعل لهم فى أموال المسلمين حقا وقيل كل من يتصف بالفقر وما ذكر معه (يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف) ذكر سبحانه من صفة أولئك الفقراء ما يوجب الحنو عليهم والشفقة بهم وهو كونهم متعففين عن المسئلة واظهار المسكنة بحيث يظنهم الجاهل بهم ومن لم يختبر حالهم انهم أغنياء والتعفف تفعل من العفة وهو بناء مبالغة من عف عن الشئ اذا أمسك عنه وتنزه عن طلبه وفى يحسبهم لغتان فتح السين وكسرها قال أبو على الفارسى والفتح أقيس لان العين من الماضى مكسورة فبابها أن تأتى فى المضارع مفتوحة فالقراءة بالكسر على هذا حسنة وان كانت شاذة ومن لابتداء الغاية وقيل لبيان الجنس (تعرفهم) أى تعرف فقرهم (بسيماهم) أى برثاثة ثيابهم من الضر وصفرة ألوانهم من الجوع وضعف أبدانهم من الفقر وكل ما يشعر بالفقر والحاجة وقيل التواضع والخضوع والاول أولى والخطاب اما لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أو لكل من يصلح للمخاطبة والسيما مقصورة العلامة وقد تمد وهى مقلوبة لانها مشتقة من الوسم فهى من السمة أى العلامة (لا يسألون الناس الحافا) الالحاف الالحاح فى المسئلة وهو مشتق من اللحاف سمى بذلك لاشتماله على وجوه الطلب فى المسئلة كاشتمال اللحاف على التغطية والمعنى انهم لا يسألونهم البتة لا سؤال الحاح ولا سؤال غير الحاح وبه قال الطبرى والزجاج واليه ذهب جمهور المفسرين ووجهه ان التعفف صفة ثابتة لهم لا تفارقهم ومجرد السؤال ينافيها وقيل المراد أنهم اذا سألوا سألوا بتلطف ولا يلحفون فى سؤالهم وهذا وان كان هو الظاهر من توجه النفى الى القيد دون المقيد لكن صفة التعفف تنافيه وأيضا كون الجاهل بهم يحسبهم أغنياء لا يكون الا مع عدم السؤال البتة وثبت فى الصحيحين وغيرهما من حديث أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليس المسكين الذى ترده التمرة

المسافر المجتاز الذي قد فرغت نفقته فيعطى ما يوصله الى بلده وكذا الذي يريد سفرا في طاعة فيعطى ما يكفيه في ذهابه وايابه ويدخل في ذلك الضيف كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس انه قال ابن السبيل هو الضيف الذي ينزل بالمسلمين وكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير وأبو جعفر الباقر والحسن وقتادة والضحاك والزهري والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان والسائلين وهم الذين يتعرضون للطلب فيعطون من الزكوات والصدقات كما قال الامام أحمد حدثنا وكيع وعبد الرحمن قالا حدثنا سفيان عن مصعب ابن محمد عن يعلى بن أبي يحيى عن فاطمة بنت الحسين عن أبيها قال عبد الرحمن حسين بن علي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للسائل حق وان جاء على فرس رواه أبو داود وفي الرقاب وهم المكاتبون الذين لا يجدون ما يؤدونه في كتابتهم وسيأتي الكلام على كثير من هذه الاصناف في آية الصدقات من براءة ان شاء الله تعالى وقد قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا يحيى بن عبد الحميد حدثنا شريك عن أبي حمزة عن الشعبي حدثتني فاطمة بنت قيس انها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أفي المال حق سوى الزكاة قالت فتلا علي "وآتى المال على حبه" ورواه ابن مردويه من حديث آدم بن أبي اياس ويحيى بن عبد الحميد كلاهما عن شريك عن أبي حمزة عن الشعبي عن فاطمة بنت قيس قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في المال حق سوى الزكاة ثم قرأ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب الى قوله وفي الرقاب وأخرجه ابن ماجه والترمذي وضعف أبا حمزة ميمونا الاعور وقد رواه سيار واسمعيل بن سالم عن الشعبي وقوله وأقام الصلاة وآتى الزكاة أي وأتم أفعال الصلاة في أوقاتها بركوعها وسجودها وطمأنينتها وخشوعها الاكمل على الوجه الشرعي المرضي وقوله وآتى الزكاة يحتمل أن يكون المراد به زكاة النفس وتخليصها من الاخلاق الدنيئة الرذيلة كقوله قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها وقول موسى لفرعون هل لك الى أن تزكى وأهديك الى ربك فتخشى وقوله تعالى وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة ويحتمل أن يكون المراد زكاة المال كما قاله سعيد بن جبير ومقاتل بن حيان ويكون المذكور من اعطاء هذه الجهات والاصناف المذكورين انما هو التطوع والبر والصلة ولهذا تقدم في الحديث عن فاطمة بنت قيس ان

والتمرتان واللقمة واللقمتان انما المسكين الذي يتعفف واقرؤا ان شئتم لا يسألون الناس الحافا وقد ورد في تحريم المسئلة أحاديث كثيرة الا من ذي سلطان أو في أمر لا يجد منه بدا (وما تنفقوا من خير فان الله به عليم) أي يعلم مقادير الانفاق ويجازي عليه وفيه حث على الصدقة والانفاق في الطاعة لا سيما على هؤلاء (الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية) يفيد زيادة رغبتهم في الانفاق وشدة حرصهم عليه حتى انهم لا يتركون ذلك ليلا ولا نهارا ويفعلونه سرا وجهرا عند أن تنزل بهم حاجة المحتاجين وتظهر لديهم فاقة المفتاقين في جميع الازمنة على جميع الاحوال وعن ابن عباس بسند ضعيف قال نزلت في علي بن أبي طالب كانت عنده أربعة دراهم لا يملك غيرها فتصدق بدرهم ليلا وبدرهم نهارا ودرهما سرا ودرهما علانية وفي الآية اشارة الى أن صدقة السر أفضل من صدقة العلانية لانه تعالى قدم نفقة الليل على نفقة النهار وقدم السر على العلانية وقيل نزلت في الذين يربطون الخيل للجهاد في سبيل الله لانهم يعلفونها في هذه الاربعة الاحوال والاول أولى عن غريب المليكي مرفوعا قال نزلت هذه الآية في أصحاب الخيل وقال أبو امامة الباهلي فيمن لا يربطها خيلاء ولا رياء ولا سمعة وعن ابن عباس قال هم الذين يعلفون الخيل في سبيل الله وقال قتادة هؤلاء قوم أنفقوا في سبيل الله الذي افترض عليهم في غير سرف ولا املاق ولا تبذير ولا فساد وقال سعيد بن المسيب نزلت في عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان في نفقتهم في جيش العسرة وكون ما ذكر سببا لنزولها لا يقتضي خصوص الحكم به بل العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب (فلهم أجرهم عند ربهم) الفاء للدلالة على سببية ما قبلها لما بعدها وقيل هي للعطف (ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) أي يوم القيامة أو في الدارين (الذين يأكلون الربوا) الربا في اللغة الزيادة مطلقا يقال ربا الشئ يربو اذا زاد وفي الشرع يطلق على شيئين على ربا الفضل وربا النسيئة حسب ما هو مفصل في كتب الفروع وغالب ما كانت تفعله الجاهلية انه اذا حل أجل الدين قال من هو له لمن هو عليه أتقضي أم تربي فاذا لم يقض زاد مقدارا في المال الذي عليه وأخر له الاجل الى حين وهذا حرام بالاتفاق وقياس كتابة الربا بالياء للكسرة في أوله وقد كتبوه في المصحف بالواو وليس المراد بالذين يأكلون الربا اختصاص هذا الوعيد بمن يأكله بل هو عام لكل من يعامل بالربا فيأخذه ويعطيه وانما خص

في المال حقا سوى الزكاة والله أعلم وقوله والموفون بعهدهم اذا عاهدوا كقوله الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق وعكس هذه الصفة النفاق كما صح في الحديث آية المنافق ثلاث اذا حدث كذب واذا وعد أخلف واذا ائتمن خان وفي الحديث الآخر اذا حدث كذب واذا عاهد غدر واذا خاصم فجر وقوله والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أي في حال الفقر وهو البأساء وفي حال المرض والأسقام وهو الضراء وحين البأس أي في حال القتال والتقاء الأعداء قاله ابن مسعود وابن عباس وأبو العالية ومرة الهمداني ومجاهد وسعيد بن جبير والحسن وقتادة والربيع بن أنس والسدي ومقاتل بن حيان وأبو مالك والضحاك وغيرهم وانما نصب الصابرين على المدح والحث على الصبر في هذه الأحوال لشدته وصعوبته والله أعلم وهو المستعان وعليه التكلان وقوله أولئك الذين صدقوا أي هؤلاء الذين اتصفوا بهذه الصفات هم الذين صدقوا في ايمانهم لأنهم حققوا الايمان القلبي بالأقوال والأفعال فهؤلاء هم الذين صدقوا وأولئك هم المتقون لأنهم اتقوا المحارم وفعلوا الطاعات (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى فمن عفي له من أخيه شئ فاتباع بالمعروف وأداء اليه باحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون) يقول تعالى كتب عليكم العدل في القصاص أيها المؤمنون حركم بحركم وعبدكم بعبدكم وأنثاكم بأنثاكم ولا تتجاوزوا وتعتدوا كما اعتدى من قبلكم وغيروا حكم الله فيهم وسبب ذلك قريظة والنضير كانت بنو النضير قد غزت قريظة في الجاهلية وقهروهم فكان اذا قتل النضري القرظي لا يقتل به بل يفادى بمائة وسق من التمر واذا قتل القرظي النضري قتل وان فادوه فدوه بمائتي وسق من التمر ضعف دية القرظي فأمر الله بالعدل في القصاص ولا تتبع سبيل المفسدين المحرفين المخالفين لأحكام الله فيهم كفرا وبغيا فقال تعالى كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى وذكر في سبب نزولها ما رواه الامام أبو محمد بن أبي حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير حدثني عبد الله بن لهيعة حدثني عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير في قول الله يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى يعني اذا

الأكل لزيادة التشنيع على فاعله ولكونه هو الغرض الأهم فان آخذ الربا انما أخذه للأكل عن جابر قال لعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه رواه مسلم (لا يقومون) أي يوم القيامة من قبورهم وبهذا فسره جمهور المفسرين قالوا انه يبعث كالمجنون عقوبة له وتمقيتا عند أهل المحشر وقيل ان المراد تشبيه من يحرص في تجارته فيجمع ماله من الربا بقيام المجنون لأن الحرص والطمع والرغبة في الجمع قد استفزته حتى صار شبيها في حركته بالمجنون كما يقال لمن يسرع في مشيه ويضطرب في حركاته انه قد جن (الا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس) أي يصرعه وأصل الخبط الضرب بغير استواء كخبط العشواء وهو المصروع والمس الجنون والممسوس المجنون وكذلك الأولق قال سعيد بن جبير تلك علامة آكل الربا اذا استحله يوم القيامة وفي الآية دليل على فساد قول من قال ان الصرع لا يكون من جهة الجن وزعم أنه من فعل الطبائع وقال ان الآية خارجة على ما كانت العرب تزعمه من أن الشيطان يصرع الانسان وليس بصحيح وان الشيطان لا يسلك في الانسان ولا يكون منه مس وقد استعاذ النبي صلى الله عليه وآله وسلم من أن يتخبطه الشيطان كما أخرجه النسائي وغيره وقد وردت أحاديث كثيرة في تعظيم ذنب الربا منها حديث عبد الله بن مسعود عند الحاكم وصححه والبيهقي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال الربا ثلاثة وسبعون بابا أيسرها مثل أن ينكح الرجل أمه وان أربى الربا عرض الرجل المسلم وورد هذا المعنى مع اختلاف العدد عن جماعة من الصحابة وورد عن جماعة منهم ان آخر آية نزلها على رسوله آية الربا (ذلك بأنهم قالوا) ذلك اشارة الى ما ذكر من حالهم وعقوبتهم بسبب قولهم (انما البيع مثل الربوا) أي انهم جعلوا البيع والربا شيئا واحدا أي اعتقدوا مدلول هذا القول وفعلوا مقتضاه أي ذلك العقاب بسبب انهم نظموا الربا والبيع في سلك واحد لافضائهما الى الربح فاستحلوه استحلاله وقالوا يجوز بيع درهم بدرهمين وانما شبهوا البيع بالربا مبالغة بجعلهم الربا أصلا والبيع فرعا أي انما البيع بلا زيادة عند حلول الأجل كالبيع بزيادة عند حلوله فان العرب كانت لا تعرف ربا الا ذلك وهذا من عكس التشبيه مبالغة وهو أعلى مراتبه نحو قولهم القمر كوجه زيد والبحر ككفه اذ صار المشبه مشبها به فرد الله عليهم بقوله (وأحل الله البيع وحرم الربوا) أي ان الله تعالى

يكن عمد الحر بالحر وذلك ان حيين من العرب اقتتلوا في الجاهلية قبل الاسلام بقليل فكان بينهم قتل وجراحات حتى قتلوا العبيد والنساء فلم يأخذ بعضهم من بعض حتى أسلموا فكان أحد الحيين يتطاول على الآخر في العدة والاموال فحلفوا أن لا يرضوا حتى يقتل بالعبد منا الحر منهم وبالمرأة منا الرجل منهم فنزل فيهم الحر بالحر والعبد بالعبد والانثى بالانثى منها منسوخة نسختها النفس بالنفس وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله والانثى بالانثى وذلك انهم كانوا لا يقتلون الرجل بالمرأة ولكن يقتلون الرجل بالرجل والمرأة بالمرأة فأنزل الله النفس بالنفس (٣٦٤) والعين بالعين فجعل الاحرار في القصاص سواء فيما بينهم من العمد رجالهم ونساؤهم في النفس وفيما دون النفس وجعل العبيد مستوين فيما بينهم من العمد في النفس وفيما دون النفس رجالهم ونساؤهم وكذلك روي عن أبي مالك انها منسوخة بقوله النفس بالنفس * (مسئلة) * ذهب أبو حنيفة الى أن الحر يقتل بالعبد لعموم آية المائدة واليه ذهب الثوري وابن أبي ليلى وداود وهو مروي عن علي وابن مسعود وسعيد بن المسيب وابراهيم النخعي وقتادة والحكم قال البخاري وعلي بن المديني وابراهيم النخعي والثوري في رواية عنه ويقتل السيد بعبده لعموم حديث الحسن عن سمرة من قتل عبده قتلناه ومن جدع عبده جدعناه ومن خصاه خصيناه وخالفهم الجمهور فقالوا لا يقتل الحر بالعبد لان العبد سلعة لو قتل خطأ لم يجب فيه دية وانما تجب فيه قيمته ولانه لا يقاد بطرفه ففي النفس بطريق الاولى وذهب الجمهور الى أن المسلم لا يقتل بالكافر لما ثبت في البخاري عن علي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقتل مسلم بكافر ولا يصح حديث ولا تأويل يخالف هذا وأما أبو حنيفة فذهب الى أنه يقتل به لعموم آية المائدة * (مسئلة) * قال الحسن وعطاء لا يقتل الرجل بالمرأة لهذه الآية وخالفهم الجمهور لآية المائدة ولقوله عليه السلام المسلمون تتكافأ دماؤهم وقال الليث اذا قتل الرجل امرأته لا يقتل بها خاصة (مسئلة) ومذهب الائمة الاربعة والجمهور ان الجماعة يقتلون بالواحد قال عمر في غلام قتله سبعة فقتلهم وقال لو تمالأ عليه أهل صنعاء لقتلتهم ولا يعرف له في زمانه مخالف من الصحابة وذلك كالاجماع وحكي عن الامام أحمد رواية ان الجماعة لا يقتلون بالواحد ولا يقتل بالنفس الا نفس واحدة

أحل البيع وحرم نوعا من أنواعه وهو البيع المشتمل على الربا الذي هو زيادة في المال لاجل تأخير الاجل والبيع مصدر باع يبيع أي دفع عوضا وأخذ معوضا وقد ذكر المفسرون في هذا المقام سبب تحريم الربا واختلاف اهل العلم في علتها وأحكامها ومسائل القرض وانما محلها كتب الفروع (فمن جاءه موعظة من ربه) أي من بلغته موعظة من الله من المواعظ التي تشتمل عليها الاوامر والنواهي ومنها ما وقع هنا من النهي عن الربا والموعظة والعظة والوعظ معناها واحد وهو الزجر والتخويف وتذكير العواقب والاتعاظ القبول والامتثال (فانتهى) عن أكله أي فامتثل النهي الذي جاء وانزجر عن المنهي عنه واتعظ وقبل (فله ما سلف) أي ما تقدم منه من الربا لا يؤاخذ به لانه فعله قبل أن يبلغه تحريم الربا أو قبل ان تنزل آية تحريم الربا (وأمره) أي أمر الربا (الى الله) في تحريمه على عباده واستمرار ذلك التحريم وقيل الضمير عائد الى ما سلف أي أمره الى الله في العفو عنه واسقاط التبعة فيه وقيل الضمير يرجع الى المربي أي أمر من عامل بالربا الى الله في تثبيته على الانتهاء أو الرجوع الى المعصية وقيل ان شاء عذبه وان شاء عفا عنه (ومن عاد) الى أكل الربا والمعاملة به (فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) الاشارة الى من عاد وجمع أصحاب باعتبار معنى من وقيل ان معنى من عاد هو ان يعود الى القول بانما البيع مثل الربا وانه يكفر بذلك فيستحق الخلود وعلى التقدير الاول يكون الخلود مستعارا على معنى المبالغة كما تقول العرب ملك خالد اى طويل البقاء والمصير الى هذا التأويل واجب للاحاديث المتواترة القاضية بخروج الموحدين من النار قال سعيد ابن جبير خالدون يعني لا يموتون (يمحق الله الربوا) أي يذهب بركته في الدنيا وان كان كثيرا فلا يبقى بيد صاحبه وقيل يمحق بركته في الآخرة قال ابن عباس لا يقبل الله منه صدقة ولا حجا ولا جهادا ولا صلة (ويربي الصدقات) أي يزيدها وينمرها يعني يزيد في المال الذي أخرجت صدقته وقيل يبارك في ثواب الصدقة ويضاعفه ويزيد في أجر المتصدق ولا مانع من حمل ذلك على الامرين جميعا وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة مرفوعا من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ولا يقبل الله الا طيبا فان الله يقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل وزاد في حديث عائشة وابن عمر ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قرأ هذه الآية واخرج الطبراني

الطبراني عن أبي برزة الاسلمي قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان العبد ليتصدق بالكسرة تربو عند الله حتى تكون مثل احد وهذه الاخبار تبين معنى الآية يقال أرباه اذا زاده كما يؤخذ من القاموس ويستعمل لازما أيضا فيقال أربى الرجل اذا دخل في الربا (والله لا يحب) أي لا يرضى لان الحب مختص بالتوابين (كل كفار أثيم) فيه تشديد وتغليظ عظيم على من أربى حيث حكم عليه بالكفر ووصفه بأثيم للمبالغة وقيل لازالة الاشتراك اذ قد يقع على الزراع ويحتمل ان المراد بقوله كل كفار من صدرت منه خصلة توجب الكفر ووجه التصاقه بالمقام ان الذين قالوا انما البيع مثل الربا كفار وقد تقدم تفسير قوله (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم) قيل المراد به الذين آمنوا بتحريم الربا والعموم أولى والايمان التصديق بالله ورسوله والعمل الصالح الذي أمرهم الله به ومن جملته ترك الربا والصلاة والزكاة هما المفروضتان (ولا خوف عليهم) من مكروه يأتي في المستقبل (ولا هم يحزنون) على أمر محبوب فاتهم في الماضي (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربوا) أي قوا أنفسكم من عقابه واتركوا البقايا التي بقيت لكم من الربا وظاهره انه أبطل من الربا ما لم يكن مقبوضا قال السدي نزلت في العباس بن عبد المطلب ورجل من بني المغيرة كانا شريكين في الجاهلية يسلفان الربا الى ناس من ثقيف في الاسلام ولهما أموال عظيمة في الربا فانزل الله هذه الآية (ان كنتم مؤمنين) قيل هو شرط مجازي على جهة المقابلة وقيل ان بمعنى اذ قال ابن عطية وهو مردود لا يعرف في اللغة والظاهر ان المعنى ان كنتم مؤمنين على الحقيقة فان ذلك يستلزم امتثال أوامر الله ونواهيه (فان لم تفعلوا) يعني ما أمرتم به من الاتقاء وترك ما بقي من الربا (فأذنوا) قرئ بكسر الذال والمد على وزن آمنوا ومعناه فأعلموا بها غيركم من آذن بالشيء اذا أعلم به وقيل هو من الاذن وهو الاستماع لانه من طرق العلم وقرئ بفتح الذال مع القصر ومعناه فاعلموا أنتم وأيقنوا (بحرب من الله ورسوله) قال ابن عباس يقال لآكل الربا يوم القيامة خذ سلاحك للحرب قال أهل المعاني الحرب هنا السيف وقيل المراد بهذه المحاربة المبالغة في الوعيد والتهديد دون نفس الحرب وقيل بل نفس الحرب وذلك ان كان آكل الربا ذا شوكة لا ينزع عنه فحق على الامام أن يحاربه والاول أولى وقد دلت هذه الآية على ان آكل الربا والعامل به من

وحكاه ابن المنذر عن معاذ وابن الزبير وعبد الملك بن مروان والزهري وابن سيرين وحبيب بن أبي ثابت ثم قال ابن المنذر وهذا أصح ولا حجة لمن أباح قتل الجماعة وقد ثبت عن ابن الزبير ما ذكرناه واذا اختلف الصحابة فسبيله النظر وقوله فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء اليه باحسان قال مجاهد عن ابن عباس فمن عفي له من أخيه شيء فالعفو أن يقبل الدية في العمد وكذا روي عن أبي العالية وأبي الشعثاء ومجاهد وسعيد بن جبير وعطاء والحسن وقتادة ومقاتل بن حيان وقال الضحاك عن ابن عباس فمن عفي له من أخيه شيء يعني فمن ترك له من أخيه شيء يعني أخذ الدية بعد استحقاق الدم وذلك العفو فاتباع بالمعروف يقول فعلى الطالب اتباع بالمعروف اذا قبل الدية وأداء اليه باحسان يعني من القاتل من غير ضرر ولا معك يعني المدافعة وروى الحاكم من حديث سفيان عن عمرو عن مجاهد عن ابن عباس ويؤدي المطلوب باحسان وكذا قال سعيد ابن جبير وأبو الشعثاء جابر بن زيد والحسن وقتادة وعطاء الخراساني والربيع بن أنس والسدي ومقاتل بن حيان *(مسئلة)* قال مالك رحمه الله في رواية ابن القاسم عنه وهو المشهور وأبو حنيفة وأصحابه والشافعي وأحمد في أحد قوليه ليس لولي الدم أن يعفو على الدية الا برضا القاتل وقال الباقون له أن يعفو عليها وان لم يرض (مسئلة) وذهب طائفة من السلف الى أنه ليس للنساء عفو منهم الحسن وقتادة والزهري وابن شبرمة والليث والاوزاعي وخالفهم الباقون وقوله ذلك تخفيف من ربكم ورحمة يقول تعالى انما شرع لكم أخذ الدية في العمد تخفيفا من الله عليكم ورحمة بكم مما كان محتوما على الامم قبلكم من القتل أو العفو كما قال سعيد بن منصور حدثنا سفيان عن عمرو بن دينار أخبرني مجاهد عن ابن عباس قال كتب على بني اسرائيل القصاص في القتلى ولم يكن فيهم العفو فقال الله لهذه الامة كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والانثى بالانثى فمن عفي له من أخيه شيء فالعفو أن يقبل الدية في العمد ذلك تخفيف مما كتب على بني اسرائيل من كان قبلكم فاتباع بالمعروف وأداء اليه باحسان وقد رواه غير واحد عن عمرو وأخرجه ابن حبان في صحيحه عن عمرو بن دينار ورواه جماعة عن مجاهد عن ابن عباس بنحوه وقال قتادة ذلك تخفيف من ربكم رحم الله هذه الامة وأطعمهم

الدية ولم يحل لاحد قبلهم فكان اهل التوراة انما هو القصاص وعفو ليس بينهم ارش وكان أهل الانجيل انما هو عفو امروا به وجعل لهذه الامة القصاص والعفو والارش وهكذا روى عن سعيد بن جبير ومقاتل بن حيان والربيع بن أنس نحو هذا وقوله فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم يقول تعالى فمن قتل بعد أخذ الدية أو قبولها فله عذاب من الله أليم موجع شديد وهكذا روى عن ابن عباس ومجاهد وعطاء وعكرمة والحسن وقتادة والربيع بن أنس والسدى ومقاتل بن حيان انه هو الذى يقتل بعد أخذ الدية كما قال محمد بن اسحق عن الحرث (٣٦٦) بن فضيل عن سفيان بن أبى العوجاء عن أبى شريح الخزاعى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال من أصيب بقتل أو خبل فانه يختار احدى ثلاث اما أن يقتص واما أن يعفو واما أن يأخذ الدية فان أراد الرابعة فخذوا على يديه ومن اعتدى بعد ذلك فله نار جهنم خالدا فيها رواه أحمد وقال سعيد بن أبى عروبة عن قتادة عن الحسن عن سمرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا أعافى رجلا قتل بعد أخذ الدية يعنى لا أقبل منه الدية بل أقتله وقوله ولكم فى القصاص حياة يقول تعالى وفى شرع القصاص لكم وهو قتل القاتل حكمة عظيمة وهى بقاء المهج وصونها لانه اذا علم القاتل انه يقتل انكف عن صنيعه فكان فى ذلك حياة للنفوس وفى الكتب المتقدمة القتل أنفى للقتل فجاءت هذه العبارة فى القرآن أفصح وأبلغ وأوجز ولكم فى القصاص حياة قال أبو العالية جعل الله القصاص حياة فكم من رجل يريد أن يقتل فيمنعه مخافة أن يقتل وكذا روى عن مجاهد وسعيد بن جبير وأبى مالك والحسن وقتادة والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان يا أولى الالباب لعلكم تتقون يقول يا أولى العقول والافهام والنهى لعلكم تنزجرون وتتركون محارم الله ومآثمه والتقوى اسم جامع لفعل الطاعات وترك المنكرات (كتب عليكم اذا حضر أحدكم الموت ان ترك خيرا الوصية للوالدين والاقربين بالمعروف حقا على المتقين فمن بدله بعد ما سمعه فانما اثمه على الذين يبدلونه ان الله سميع عليم فمن خاف من موص جنفا أو اثما فأصلح بينهم فلا اثم عليه ان الله غفور رحيم) اشتملت هذه الآية الكريمة على الامر بالوصية للوالدين والاقربين وقد كان ذلك واجبا على أصح القولين قبل نزول آية المواريث فلما نزلت آية الفرائض

الكبائر ولا خلاف فى ذلك وتنكير الحرب للتعظيم وزادها تعظيما نسبتها الى اسم الله الاعظم والى رسوله الذى هو أشرف خليقته (وان تبتم) من الربا (فلكم رؤس أموالكم) تأخذونها دون الزيادة (لا تظلمون) غرماءكم بأخذ الزيادة مستأنفة أو حال من الكاف فى لكم (ولا تظلمون) أنتم من قبلهم بالمطل والنقص والجملة حالية أو استئنافية وفى هذا دليل على ان أموالهم مع عدم التوبة حلال لمن أخذها من الائمة ونحوهم ممن ينوب عنهم (وان كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة) لما حكم سبحانه لاهل الربا برؤس أموالهم عند الواجدين للمال حكم فى ذوى العسرة بالنظرة الى يسار والعسرة ضيق الحال من جهة عدم المال ومنه جيش العسرة والنظرة التأخير والميسرة مصدر بمعنى اليسر وارتفع ذو بكان التامة التى بمعنى وجد وهذا قول سيبويه وأبى على الفارسى وغيرهما وفى مصحف أبى وان كان ذا عسرة على معنى وان كان المطلوب ذا عسرة وقرأ الاعمش وان كان معسرا قال النحاس ومكى والنقاش وعلى هذا يختص لفظ الآية بأهل الربا وعلى من قرأ ذو فهى عامة فى جميع من عليه دين واليه ذهب الجمهور وقد وردت احاديث صحيحة فى الصحيحين وغيرهما فى الترغيب لمن له دين على معسر أن ينظره وفى ثواب انظار المعسر والوضع عنه وتشديد أمر الدين والامر بقضائه وهى معروفة يطول ذكرها والميسرة فى اللغة اليسار والسعة (وأن تصدقوا خير لكم) أى على معسرى غرمائكم بالابراء من كل الدين أو بعضه وفيه الترغيب لهم بان يتصدقوا برؤس أموالهم على من أعسر وجعل ذلك خيرا من انظاره قاله السدى وابن زيد والضحاك قال الطبرى وقال آخرون معنى الآية وأن تصدقوا على الغنى والفقير خير لكم والصحيح الاول وليس فى الآية مدخل للغنى (ان كنتم تعلمون) جوابه محذوف أى ان كنتم تعلمون انه خير لكم عملتم به وفى الحديث من أنظر معسرا أو وضع عنه أظله الله فى ظله يوم لا ظل الا ظله رواه مسلم (واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله) هو يوم القيامة وتنكيره للتهويل وذهب قوم الى ان هذا اليوم المذكور هو يوم الموت وذهب الجمهور الى انه يوم القيامة كما تقدم قرئ ترجعون بفتح التاء أى تصيرون فيه الى الله وقرئ بضمها وفتح الجيم أى تردون فيه اليه (ثم توفى كل نفس) من النفوس المكلفة (ما كسبت) أى جزاء ما كسبت يعنى عملت من خير أو شر (وهم لا يظلمون) أى فى ذلك اليوم والجملة حالية وجمع الضمير لانه أنسب بحال الجزاء كما ان الافراد

نسخت هذه وصارت المواريث المقدرة فريضة من الله يأخذها أهلوها حتما من غير وصية ولا تحمل منة الموصي ولهذا جاء في الحديث الذي في السنن وغيرها عن عمرو بن خارجة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب وهو يقول ان الله قد أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث وقال الامام أحمد حدثنا اسمعيل بن ابراهيم بن علية عن يونس بن عبيد عن محمد بن سيرين قال جلس ابن عباس فقرأ سورة البقرة حتى أتى هذه الآية ان ترك خيرا الوصية للوالدين والاقربين فقال نسخت هذه الآية وكذا رواه سعيد بن منصور عن هشيم عن يونس به ورواه الحاكم في مستدركه (٣٦٧) وقال صحيح على شرطهما وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله الوصية للوالدين والاقربين قال كان لا يرث مع الوالدين غيرهما الا وصية للاقربين فأنزل الله آية الميراث فبين ميراث الوالدين وأقر وصية الاقربين في ثلث مال الميت وقال ابن أبي حاتم حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح حدثنا حجاج بن محمد أخبرنا ابن جريج وعثمان بن عطاء عن عطاء عن ابن عباس في قوله الوصية للوالدين والاقربين نسختها هذه الآية للرجال نصيب مما ترك الوالدان والاقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والاقربون مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا ثم قال ابن أبي حاتم وروي عن ابن عمر وأبي موسى وسعيد بن المسيب والحسن ومجاهد وعطاء وسعيد بن جبير ومحمد بن سيرين وعكرمة وزيد بن أسلم والربيع بن أنس وقتادة والسدي ومقاتل بن حيان وطاوس وابراهيم النخعي وشريح والضحاك والزهري ان هذه الآية منسوخة نسختها آية الميراث والعجب من أبي عبد الله محمد بن عمر الرازي رحمه الله كيف حكى في تفسيره الكبير عن أبي مسلم الاصفهاني ان هذه الآية غير منسوخة وانما هي مفسرة بآية المواريث ومعناه كتب عليكم ما أوصى الله به من توريث الوالدين والاقربين من قوله يوصيكم الله في أولادكم قال وهو قول أكثر المفسرين والمعتبرين من الفقهاء قال ومنهم من قال انها منسوخة فيمن يرث ثابتة فيمن لا يرث وهو مذهب ابن عباس والحسن ومسروق وطاوس والضحاك ومسلم بن يسار والعلاء بن زياد (قلت) وبه قال أيضا سعيد بن جبير والربيع بن أنس وقتادة ومقاتل ابن حيان ولكن على قول هؤلاء لا يسمى هذا نسخا في اصطلاحنا المتأخر لان آية المواريث انما رفعت حكم بعض أفراد ما دل عليه

الافراد أنسب بحال الكسب وهذه الآية فيها الموعظة الحسنة لجميع الناس وفيه وعيد شديد وزجر عظيم عن ابن عباس قال آخر آية نزلت من القرآن على النبي صلى الله عليه وآله وسلم هذه الآية وكان بين نزولها وبين موت النبي صلى الله عليه وآله وسلم أحد وثمانون يوما وعن سعيد بن جبير انه عاش النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد نزولها تسع ليال ثم مات وقيل سبعا وقيل ثلاث ساعات ومات صلى الله عليه وآله وسلم لليلتين خلتا من ربيع الاول في يوم الاثنين حين زاغت الشمس سنة احدى عشرة من الهجرة قال الخفاجي وكون هذه الآية آخر آية مذكور في كتب الحديث صحيح (يا أيها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين) هذا شروع في بيان حال المداينة الواقعة بين الناس بعد بيان حال الربا أي اذا داين بعضكم بعضا وعامله بذلك سواء كان معطيا أو آخذا وذكر الدين بعد ما يغني عنه من المداينة لقصد التأكيد مثل قوله ولا طائر يطير بجناحيه وقيل انه ذكر ليرجع اليه الضمير من قوله فاكتبوه ولو قال فاكتبوا الدين لم يكن فيه من الحسن ما في قوله اذا تداينتم بدين والدين عبارة عن كل معاملة كان أحد العوضين فيها نقدا والآخر في الذمة نسيئة فان العين عند العرب ما كان حاضرا والدين ما كان غائبا وقد بين الله سبحانه هذا المعنى بقوله (الى أجل مسمى) يعني الى مدة معلومة الاول والآخر مثل السنة والشهر والاجل يلزم في الثمن في البيع وفي السلم حتى لا يكون لصاحب الحق الطلب قبل محل الاجل وقد استدل به على ان الاجل المجهول لا يجوز وخصوصا أجل السلم وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من أسلف في تمر فليسلف في كيل معلوم الى أجل معلوم وقد قال بذلك الجمهور واشترطوا توقيته بالايام أو الاشهر أو السنين قالوا ولا يجوز الى الحصاد أو الدياس أو رجوع القافلة أو نحو ذلك وجوزه مالك قال ابن عباس لما حرم الربا أباح السلم (فاكتبوه) أي الدين بأجله بيعا كان ذلك أو سلما أو قرضا لانه أدفع للنزاع وأقطع للخلاف قال ابن عباس نزلت يعني هذه الآية في السلم في كيل معلوم الى أجل معلوم وأخرج البخاري وغيره عنه قال أشهد ان السلف المضمون الى أجل مسمى ان الله قد أحله وقرأ هذه الآية (وليكتب بينكم كاتب) هو بيان لكيفية الكتابة المأمور بها وظاهر الامر الوجوب وبه قال عطاء والشعبي وابن جريج والنخعي واختاره محمد بن جرير الطبري وأوجبوا على الكاتب ان يكتب اذا طلب منه ذلك ولم يوجد كاتب سواه

عموم آية الوصاية لان الاقربين أعم ممن يرث ومن لا يرث فرفع حكم من يرث بما عين له وبقى الآخر على مادلت عليه الآية الاولى وهذا انما يتأتى على قول بعضهم ان الوصاية فى ابتداء الاسلام انما كانت ندبا حتى نسخت فأما من يقول انها كانت واجبة وهو الظاهر من سياق الآية فيتعين ان تكون منسوخة بآية الميراث كما قاله أكثر المفسرين والمعتبرين من الفقهاء فان وجوب الوصية للوالدين والاقربين الوارثين منسوخ بالاجماع بل منهى عنه للحديث المتقدم ان الله قد اعطى كل ذى حق حقه فلا وصية لوارث فآية الميراث حكم مستقل ووجوب من عند الله لاهل الفروض والعصبات رفع بها حكم هذه بالكلية بقى الاقارب الذين لا ميراث لهم يستحب له أن يوصى لهم من الثلث استئناسا بآية الوصية وشمولها ولما ثبت فى الصحيحين عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما حق امرئ مسلم له شئ يوصى فيه يبيت ليلتين الا ووصيته مكتوبة عنده قال ابن عمر ما مرت على ليلة منذ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ذلك الا وعندى وصيتى والآيات والاحاديث بالامر ببر الاقارب والاحسان اليهم كثيرة جدا وقال عبد بن حميد فى مسنده اخبرنا عبد الله عن مبارك بن حسان عن نافع قال قال عبد الله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى يا ابن آدم ثنتان لم يكن لك واحدة منهما جعلت لك نصيبا فى مالك حين أخذت بكظمك لاطهرك به وأزكيك وصلاة عبادى عليك بعد انقضاء اجلك وقوله ان ترك خيرا اى مالا قاله ابن عباس ومجاهد وعطاء وسعيد بن جبير وابو العالية وعطية العوفى والضحاك والسدى والربيع بن انس ومقاتل بن حيان وقتادة وغيرهم ثم منهم من قال الوصية مشروعة سواء قل المال أو كثر كالوراثة ومنهم من قال انما يوصى اذا ترك مالا جليلا ثم اختلفوا فى مقداره فقال ابن ابى حاتم حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرى اخبرنا سفيان عن هشام بن عروة عن ابيه قال قيل لعلى رضى الله عنه ان رجلا من قريش قد مات وترك ثلثمائة دينار أو اربعمائة ولم يوص قال ليس بشئ انما قال الله ان ترك خيرا وقال ايضا وحدثنا هرون بن اسحق الهمدانى حدثنا عبدة يعنى ابن سليمان عن هشام بن عروة عن ابيه ان عليا دخل على رجل من قومه يعوده فقال له أوص فقال له على انما قال الله ان ترك خيرا الوصية انما تركت شيأ يسيرا فاتركه لولدك

وقيل الامر للندب والاستحباب وبه قال الجمهور (بالعدل) صفة لكاتب أى كاتب كائن بالعدل أى يكتب بالسوية لا يزيد ولا ينقص ولا يميل الى أحد الجانبين وهو أمر للمتداينين باختيار كاتب متصف بهذه الصفة لا يكون فى قلبه وقلمه هوادة لاحدهما على الآخر بل يتحرى الحق بينهم والمعدلة فيهم (ولا يأب كاتب ان يكتب كما علمه الله) النكرة فى سياق النفى مشعرة بالعموم أى لا يمتنع أحد من الكتاب من ان يكتب كتاب التداين على الطريقة التى علمه الله من الكتابة أو كما علمه الله بقوله بالعدل (فليكتب) بالحق من غير زيادة ولا نقصان ولا تقديم أجل ولا تأخيره بل يكتب ما يصلح ان يكون حجة عند الحاجة ويكون كل واحد منهما آمنا من ابطال حقه وان يحترز من الالفاظ التى يقع النزاع فيها (وليملل) الاملال والاملاء لغتان الاولى لغة أهل الحجاز وبنى أسد والثانية لغة بنى تميم فهذه الآية جاءت على اللغة الاولى وجاء على اللغة الثانية قوله تعالى فهى تملى عليه بكرة وأصيلا والادغام فى مثل ذلك جائز لا واجب (الذى عليه الحق) هو من عليه الدين أمره الله تعالى بالاملاء لان الشهادة انما تكون على اقراره بثبوت الدين فى ذمته (وليتق الله) الذى عليه الحق (ربه) أمره بالتقوى فيما يمليه على الكاتب فلا يجحد جميع الحق والبعض كما سيأتى وبالغ فى ذلك بالجمع بين الاسم والوصف (ولا يبخس منه شيأ) نهاه عن البخس وهو النقص وقيل انه نهى للكاتب والاول أولى لان من عليه الحق هو الذى يتوقع منه النقص ولو كان نهيا للكاتب لم يقتصر فى نهيه على النقص لانه يتوقع منه الزيادة كما يتوقع منه النقص (فان كان الذى عليه الحق) اظهار فى مقام الاضمار لزيادة الكشف والبيان لا لان الامر والنهى لغيره (سفيها) السفيه هو الذى لا رأى له فى حسن التصرف فلا يحسن الاخذ ولا الاعطاء شبه بالثوب السفيه وهو الخفيف النسج والعرب تطلق السفه على ضعف العقل تارة وعلى ضعف البدن أخرى وبالجملة فالسفيه هو المبذر اما لجهله بالتصرف أو لتلاعبه بالمال عبثا مع كونه لا يجهل الصواب وقيل الطفل الصغير أى جاهلا بالاملاء (أو ضعيفا) وهو الشيخ الكبير أو الصبى قال أهل اللغة الضعف بضم الضاد فى البدن وبفتحها فى الرأى لعته أو جنون (أو لا يستطيع ان يمل هو) يعنى لخرس أو عى أو عجمة فى كلامه أو حبس أو غيبة لا يمكنه الحضور عند الكاتب أو يجهل بماله وعليه أو لا يقدر على التعبير كما ينبغى فهؤلاء كلهم لا يصح اقرارهم فلابد ان

وقال الحاكم ان ابان حدثني عن عكرمة عن ابن عباس ان ترك خيرا قال ابن عباس من لم يترك ستين دينارا لم يترك خيرا قال الحاكم قال طاوس لم يترك خيرا من لم يترك ثمانين دينارا وقال قتادة كان يقال ألفا فما فوقها وقوله بالمعروف أي بالرفق والاحسان كما قال ابن أبي حاتم حدثنا الحسن بن أحمد حدثنا ابراهيم بن عبد الله بن بشار حدثني سرور بن المغيرة عن عباد بن منصور عن الحسن قوله كتب عليكم اذا حضر أحدكم الموت فقال نعم الوصية حق على كل مسلم أن يوصي اذا حضره الموت بالمعروف غير المنكر والمراد بالمعروف أن يوصي لأقربيه وصية لا تجحف بورثته من غير اسراف ولا تقتير كما ثبت (٣٦٩) في الصحيحين ان سعدا قال يا رسول الله ان لي مالا ولا يرثني الا ابنة لي افأوصي بثلثي مالي قال لا قال فبالشطر قال لا قال فالثلث قال الثلث والثلث كثير انك ان تذر ورثتك أغنياء خير من ان تدعهم عالة يتكففون الناس وفي صحيح البخاري ان ابن عباس قال لو ان الناس غضوا من الثلث الى الربع فان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الثلث والثلث كثير وروى الامام أحمد عن أبي سعيد مولى بني هاشم عن زياد بن عتبة بن حنظلة سمعت حنظلة بن جذيم بن حنيفة ان جده حنيفة أوصى ليتيم في حجره بمائة من الابل فشق ذلك على بنيه فارتفعوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال حنيفة اني أوصيت ليتيم لي بمائة من الابل كنا نسميها المطمة فقال النبي صلى الله عليه وسلم لا لا لا الصدقة خمس والا فعشر والا فخمس عشرة والا فعشرون والا فخمس وعشرون والا فثلاثون والا فخمس وثلاثون فان أكثرت فاربعون وذكر الحديث بطوله وقوله فمن بدله بعد ما سمعه فانما اثمه على الذين يبدلونه ان الله سميع عليم يقول تعالى فمن بدل الوصية وحرفها فغير حكمها وزاد فيها او نقص ويدخل في ذلك الكتمان لها بطريق الاولى فانما اثمه على الذين يبدلونه قال ابن عباس وغير واحد وقد وقع أجر الميت على الله وتعلق الاثم بالذين بدلوا ذلك ان الله سميع عليم أي قد اطلع على ما أوصى به الميت وهو عليم بذلك وبما بدله الموصى اليهم وقوله تعالى فمن خاف من موص جنفا أو اثما قال ابن عباس وأبو العالية ومجاهد والضحاك والربيع بن أنس والسدي الجنف الخطأ وهذا يشمل أنواع الخطا كلها بأن زادوا وارثا بواسطة أو وسيلة كما اذا أوصى ببيعة الشئ الفلاني محاباة أو اوصى لابن ابنته ليزيدها أو نحو ذلك من الوسائل اما مخطئا

يقوم غيرهم مقامهم وقيل ان الضعيف هو المدخول العقل الناقص الفطنة العاجز عن الاملاء والذي لا يستطيع هو الصغير (فليملل وليه) الضمير عائد الى الذي عليه الحق فيمل عن السفيه وليه المنصوب عنه بعد حجره عن التصرف في ماله ويمل عن الصبي وصيه أو وليه وكذلك يمل عن العاجز الذي لا يستطيع الاملال لضعفه وليه لانه في حكم الصبي أو المنصوب عنه من الامام أو القاضي ويمل عن الذي لا يستطيع وكيله اذا كان صحيح العقل وعرضت له آفة في لسانه أو لم تعرض ولكنه جاهل لا يقدر على التعبير كما ينبغي وقال الطبري ان الضمير في قوله وليه يعود الى الحق وهو ضعيف جدا قال القرطبي في تفسيره وتصرف السفيه المحجور عليه دون وليه فاسد اجماعا مفسوخ أبدا لا يوجب حكما ولا يؤثر شيأ فان تصرف سفيه ولا حجر عليه ففيه خلاف انتهى (بالعدل) أي الصدق من غير زيادة ولا نقص (واستشهدوا شهيدين) الاستشهاد طلب الشهادة وسماهما شهيدين قبل الشهادة من مجاز الأول أي باعتبار ما يؤل اليه أمرهما من الشهادة (من رجالكم) أي كائنين من المسلمين فيخرج الكفار ولا وجه لخروج العبيد عن هذه الآية فهم اذا كانوا مسلمين من رجال المسلمين وبه قال شريح وعثمان البتي وأحمد بن حنبل واسحق بن راهويه وأبو ثور وقال أبو حنيفة ومالك والشافعي وجمهور العلماء لا يجوز شهادة العبد لما يلحقه من نقص الرق وقال الشعبي والنخعي تصح في الشئ اليسير دون الكثير واستدل الجمهور على عدم جواز شهادة العبد بأن الخطاب في هذه الآية مع الذين يتعاملون بالمداينة والعبيد لا يملكون شيأ تجري فيه المعاملة ويجاب عن هذا بأن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب وأيضا العبد تصح منه المداينة وسائر المعاملات اذا أذن له مالكه بذلك وقد اختلف الناس هل الاشهاد واجب أو مندوب فقال أبو موسى الاشعري وابن عمر والضحاك وعطاء وسعيد بن المسيب وجابر بن زيد ومجاهد وداود بن علي الظاهري وابنه انه واجب ورجحه ابن جرير الطبري وذهب الشعبي والحسن ومالك والشافعي وأبو حنيفة وأصحابه انه مندوب وهذا الخلاف بين هؤلاء هو في وجوب الاشهاد على البيع واستدل الموجبون بقوله تعالى وأشهدوا اذا تبايعتم ولا فرق بين هذا الامر وبين قوله واستشهدوا فيلزم القائلين بوجوب الاشهاد في البيع ان يقولوا بوجوبه في المداينة (فان لم يكونا رجلين) أي الشاهدان أي بحسب القصد والارادة أي فان لم يقصد اشهادهما

من غير تبصر أو متعمدا اثما فى ذلك فللوصى والحالة هذه أن يصلح القضية و يعدل فى الوصية على
غير عامل بل بطبعه وقوة شفقته من غير تبصر أو متعمدا اثما فى ذلك فللوصى والحالة هذه أن يصلح القضية و يعدل فى الوصية على الوجه الشرعى و يعدل عن الذى اوصى به الميت الى ماهو أقرب الاشياء اليه وأشبه الامور به جمعا بين مقصود الموصى و الطريق الشرعى وهذا الاصلاح والتوفيق ليس من التبديل فى شئ ولهذا اعطف هذا فبينه على النهى عن ذلك ليعلم ان هذا ليس من ذلك بسبيل والله أعلم وقد قال ابن أبى حاتم حدثنا العباس بن الوليد بن مزيد قراءة أخبرنى أبى عن الاوزاعى قال الزهرى حدثنى عروة عن عائشة عن النبى صلى الله عليه وسلم (٣٧٠) انه قال يرد من صدقة الجانف فى حياته مايرد من وصية المجنف عند موته وهكذا رواه أبو بكر بن مردويه من حديث العباس بن الوليد به قال ابن أبى حاتم وقد أخطأ فيه الوليد بن يزيد وهذا الكلام انما هو عن عروة فقط وقد رواه الوليد بن مسلم عن الاوزاعى فلم يجاوز به عروة وقال ابن مردويه أيضا حدثنا محمد بن أحمد ابن ابراهيم حدثنا ابراهيم بن يوسف حدثنا هشام بن عمار حدثنا عمر ابن المغيرة عن داود بن أبى هند عن عكرمة عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال الحنف فى الوصية من الكبائر وهذا فى رفعه أيضا نظر وأحسن ماورد فى هذا الباب ما قال عبد الرزاق حدثنا معمر عن أشعث بن عبد الله عن شهر بن حوشب عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة فاذا اوصى حاف فى وصيته فيختم له بشر عمله فيدخل النار وان الرجل ليعمل بعمل أهل الشر سبعين سنة فيعدل فى وصيته فيختم له بخير عمله فيدخل الجنة قال ابو هريرة اقروا ان شئتم تلك حدود الله فلا تعتدوها الآية

(يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون أياما معدودات فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين فمن تطوع خيرا فهو خير له وان تصوموا خير لكم ان كنتم تعلمون) يقول تعالى مخاطبا للمؤمنين من هذه الامة وآمرا لهم بالصيام وهو الامساك عن الطعام والشراب والوقاع بنية خالصة لله عز وجل لما فيه من زكاة النفوس وطهارتها وتنقيتها من الاخلاط الرديئة والاخلاق الرذيلة وذكر انه كما أوجبه عليهم فقد أوجبه على من كان قبلهم فلهم فيه اسوة وليجتهد هؤلاء فى أداء هذا الفرض أكمل مما فعله أولئك كما قال تعالى لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله

ولو كانا موجودين (فرجل وامرأتان) أى فليشهد رجل وامرأتان أو فرجل وامرأتان يكفون كائنون (ممن ترضون) دينهم وعدالتهم حال كونهم (من الشهداء) وفيه ان المرأتين فى الشهادة برجل وانه لا تجوز شهادة النساء الا مع الرجل لا وحدهن الا فيما لا يطلع عليه غيرهن للضرورة واختلفوا هل يجوز الحكم بشهادة امرأتين مع يمين المدعى كما جاز الحكم برجل مع يمين المدعى فذهب مالك والشافعى الى انه يجوز ذلك لان الله سبحانه قد جعل المرأتين كالرجل فى هذه الآية وذهب أبو حنيفة وأصحابه الى انه لا يجوز ذلك وهذا يرجع الى الخلاف فى الحكم بشاهد مع يمين المدعى والحق انه جائز لورود الدليل عليه وهو زيادة لم يخالف ما فى الكتاب العزيز فيتعين قبولها وقد أوضحنا ذلك فى شرح بلوغ المرام وأوضحه الشوكانى فى شرحه للمنتقى وغيره من مؤلفاته ومعلوم عند كل من يفهم انه ليس فى هذه الآية ما يرد به قضاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالشاهد واليمين ولم يدفعوا هذا الا بقاعدة مبنية على جرف هار هى قولهم ان الزيادة على النص نسخ وهذه دعوى باطلة بل الزيادة على النص شريعة ثابتة جاءنا بها من جاءنا بالنص المتقدم عليها وقد أوضحت ذلك فى كتابى حصول المأمول من علم الاصول فليرجع اليه وأيضا كان يلزمهم أن لا يحكموا بنكول المطلوب ولا بيمين الرد على الطالب وقد حكموا بهما والجواب الجواب (أن تضل احداهما) قال أبو عبيد معنى تضل تنسى أى لنقص عقلهن وضبطهن والضلال عن الشهادة انما هو نسيان جزء منها وذكر جزء (فتذكر احداهما) أى الذاكرة (الاخرى) أى الناسية قرئ فتذكر بالتخفيف ومعناها تزيدها ذكرا وقراءة الجماعة بالتشديد أى تنبهها اذا غفلت ونسيت وهذه الآية تعليل لاعتبار العدد فى النساء أى فليشهد رجل ولتشهد امرأتان عوضا عن الرجل الآخر لاجل تذكير احداهما الاخرى اذا ضلت وعلى هذا فيكون فى الكلام حذف وهو سؤال سائل عن وجه اعتبار امرأتين عوضا عن الرجل الواحد فقيل وجهه ان تضل احداهما فتذكر احداهما الاخرى والعلة فى الحقيقة هى التذكير ولكن الضلال لما كان سببا له نزل منزلته وأبهم الفاعل فى تضل وتذكر لان كلا منهما يجوز عليه الوصفان فالمعنى ان ضلت هذه ذكرتها هذه وان ضلت هذه ذكرتها هذه لا على التعيين أى ان ضلت احدى المرأتين ذكرتها الاخرى وانما اعتبر فيهما هذا التذكير لما يلحقهما من ضعف النساء بخلاف الرجال وقد يكون الوجه فى

لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات الآية ولهذا قال ههنا يا أيها الذين امنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون لان الصوم فيه تزكية للبدن وتضييق لمسالك الشيطان ولهذا ثبت فى الصحيحين يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فانه له وجاء ثم بين مقدار الصوم وانه ليس فى كل يوم لئلا يشق على النفوس فتضعف عن حمله وأدائه بل فى أيام معدودات وقد كان هذا فى ابتداء الاسلام يصومون من كل شهر ثلاثة أيام ثم نسخ ذلك بصوم شهر رمضان كما سيأتى بيانه وقد روى ان الصيام أولا كما كان عليه الامم قبلنا من كل شهر ثلاثة أيام عن معاذ وابن مسعود وابن عباس وعطاء وقتادة والضحاك ابن مزاحم وزاد لم يزل هذا مشروعا من زمان نوح الى أن نسخ الله ذلك بصيام شهر رمضان وقال عباد بن منصور عن الحسن البصرى يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون أياما معدودات فقال نعم والله لقد كتب الصيام على كل أمة قد خلت كما كتبه علينا شهرا كاملا وأياما معدودات عددا معلوما وروى عن السدى نحوه وروى ابن أبى حاتم من حديث أبى عبد الرحمن المقرى حدثنا سعيد بن أبى أيوب حدثنى عبد الله ابن الوليد عن أبى الربيع رجل من أهل المدينة عن عبد الله بن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم صيام رمضان كتبه الله على الامم قبلكم فى حديث طويل اختصر منه ذلك وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عمن حدثه عن ابن عمر قال أنزلت كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم كتب عليهم اذا صلى أحدهم العتمة ونام حرم عليه الطعام والشراب والنساء الى مثلها قال ابن أبى حاتم وروى عن ابن عباس وأبى العالية وعبد الرحمن ابن أبى ليلى ومجاهد وسعيد بن جبير ومقاتل بن حيان والربيع بن أنس وعطاء الخراسانى نحو ذلك وقال عطاء الخراسانى عن ابن عباس كما كتب على الذين من قبلكم يعنى بذلك أهل الكتاب وروى عن الشعبى والسدى وعطاء الخراسانى مثله ثم بين حكم الصيام على ما كان عليه الامر فى ابتداء الاسلام فقال فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر أى المريض والمسافر لا يصومان فى حال المرض والسفر لما فى ذلك من المشقة عليهما بل يفطران ويقضيان بعدة ذلك من أيام أخر وأما الصحيح المقيم الذى يطيق

فى الابهام ان ذلك يعنى الضلال والتذكير يقع بينهما مثنا وباحتى ربما ضلت هذه عن وجه وضلت تلك عن وجه آخر فذكرت كل واحدة منهما صاحبتها وقال سفيان بن عيينة معنى قوله فتذكر احداهما الاخرى تصيرها ذكرا يعنى ان مجموع شهادة المرأتين مثل شهادة الرجل الواحد وروى نحوه عن أبى عمرو بن العلاء ولا شك ان هذا باطل لا يدل عليه شرع ولا لغة ولا عقل (ولا يأب الشهداء اذا ما دعوا) أى لأداء الشهادة التى قد تحملوها من قبل وقيل اذا ما دعوا لتحمل الشهادة وتسميتهم شهداء مجاز كما تقدم وحملها الحسن على المعنيين وظاهر هذا النهى ان الامتناع من أداء الشهادة حرام (ولا تسأموا) أى لا تملوا ولا تضجروا والخطاب للمؤمنين أو للمتعاملين أو للشهود (أن تكتبوه) أى الدين الذى تداينتم به وقيل الحق وقيل الشاهد وقيل الكتاب نهاهم الله سبحانه عن ذلك لانهم ربما ملوا من كثرة المداينة ان يكتبوا ثم بالغ فى ذلك فقال (صغيرا أو كبيرا) أى لا تملوا فى حال من الاحوال سواء كان الدين كثيرا أو قليلا وعلى أى حال كان الكتاب مختصرا أو مشبعا وقدم الصغير هنا على الكبير للاهتمام به لدفع ما عساه ان يقال ان هذا مال صغير أى قليل لا احتياج الى كتبه (الى أجله) أى الى محل الدين أو الحق (ذلكم) أى المكتوب المذكور فى ضمير قوله ان تكتبوه (أقسط عند الله) أى أعدل واحفظ وأصح من القسط بالكسر والقسوط الجور والعدول عن الحق (وأقوم للشهادة) أى أعون على اقامة الشهادة وأثبت لها وهو مبنى من أقام وكذلك أقسط مبنى من فعله أى أقسط وقد صرح سيبويه بأنه قياسى أى بناء أفعل التفضيل (وأدنى أن لا ترتابوا) أى أقرب لنفى الريب فى معاملاتكم أى الشك وذلك ان الكتاب الذى يكتبونه يدفع ما يعرض لهم من الريب كائنا ما كان (الا أن تكون تجارة) أى تقع أو توجد تجارة على ان كان تامة والتجارة تقليب الاموال وتصريفها لطلب النماء والزيادة بالارباح والاستثناء منقطع أى لكن وقت تبايعكم وتجارتكم فانه يجوز عدم الاستشهاد والكتب فيها وقال أبو البقاء انه متصل والاول أولى وقرئ بالنصب على الناقصة أى تكون التجارة تجارة (حاضرة) بحضور البدلين وهى تعم المبايعة بعين أو دين (تديرونها بينكم) أى تتعاطونها يدا بيد فالادارة التعاطى والتقابض فالمراد التبايع الناجز يدا بيد (فليس عليكم جناح ان لا تكتبوها) أى فلا حرج عليكم ان تركتم كتابته وانما رخص الله فى ترك الكتابة فى هذا النوع من

الصيام فقد كان مخيرا بين الصيام وبين الاطعام ان شاء صام وان شاء أفطر وأطعم عن كل يوم مسكينا فان أطعم أكثر من مسكين عن كل يوم فهو خير وان صام فهو أفضل من الاطعام قاله ابن مسعود وابن عباس ومجاهد وطاوس ومقاتل بن حيان وغيرهم من السلف ولهذا قال تعالى وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين فمن تطوع خيرا فهو خير له وان تصوموا خير لكم ان كنتم تعلمون وقال الامام أحمد حدثنا أبو النضر حدثنا المسعودي حدثنا عمرو بن مرة عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال أحيلت الصلاة ثلاثة أحوال وأحيل الصيام (٣٧٢) ثلاثة أحوال فأما أحوال الصلاة فان النبي صلى الله عليه وسلم قدم المدينة وهو يصلي سبعة عشر شهرا الى بيت المقدس ثم ان الله عز وجل أنزل عليه قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها الآية فوجهه الله الى مكة هذا حول قال وكانوا يجتمعون للصلاة ويؤذن بها بعضهم بعضا حتى نقسوا أو كادوا ينقسون ثم ان رجلا من الانصار يقال له عبد الله بن زيد بن عبد ربه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله اني رأيت فيما يرى النائم ولو قلت اني لم أكن نائما لصدقت اني بينا أنا بين النائم واليقظان اذ رأيت شخصا عليه ثوبان أخضران فاستقبل القبلة فقال الله أكبر الله أكبر أشهد أن لا اله الا الله مثنى حتى فرغ من الاذان ثم أمهل ساعة ثم قال مثل الذي قال غير أنه يزيد في ذلك قد قامت الصلاة مرتين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم علمها بلالا فليؤذن بها فكان بلال أول من أذن بها قال وجاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال يارسول الله قد طاف بي مثل الذي طاف به غير انه سبقني فهذان حالان قال وكانوا يأتون الصلاة وقد سبقهم النبي صلى الله عليه وسلم ببعضها فكان الرجل يشير الى الرجل اذن كم صلى فيقول واحدة أو اثنتين فيصليهما ثم يدخل مع القوم في صلاتهم قال فجاء معاذ فقال لا أجده على حال أبدا الا كنت عليها ثم قضيت ما سبقني قال فجاء وقد سبقه النبي صلى الله عليه وسلم ببعضها قال فثبت معه فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم قام فقضى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قد سن لكم معاذ فهكذا فاصنعوا فهذه ثلاثة أحوال وأما أحوال الصيام فان رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة فجعل يصوم من كل شهر ثلاثة أيام وصيام عاشوراء ثم ان الله فرض عليه الصيام وأنزل

التجارة الكثيرة جريانه بين الناس فلو كلفوا الكتابة فيه لشق عليهم ولانه اذا أخذ كل واحد حقه في المجلس لم يكن هنالك خوف الجحود فلا حاجة الى الكتابة (وأشهدوا اذا تبايعتم) قيل معناه هذا التبايع المذكور ههنا وهو التجارة الحاضرة على ان الاشهاد فيها يكفي وقيل معناه أي تبايع كان حاضرا أو كالئا لان ذلك أدفع لمادة الخلاف وأقطع لمنشا التشاجر وهذا وما قبله أمر ندب وقد تقدم قريبا ذكر الخلاف في كون هذا الاشهاد واجبا أو مندوبا (ولا يضار كاتب ولا شهيد) يحتمل أن يكون مبنيا للفاعل أو للمفعول فعلى الاول معناه لا يضار كاتب ولا شهيد من طلب ذلك منهما اما بعدم الاجابة أو بالتحريف والتبديل والزيادة والنقصان في كتابته ويدل على هذا قراءة عمر وابن عباس وغيرهما لا يضارر بكسر الراء الاولى وعلى الثاني لا يضارر كاتب ولا شهيد بأن يدعيا الى ذلك وهما مشغولان بمهم لهما ويضيق عليهما في الاجابة ويؤذيا ان حصل منهما التراخي أو يطلب منهما الحضور من مكان بعيد ويدل على ذلك قراءة ابن مسعود لا يضارر بفتح الراء الاولى وصيغة المفاعلة تدل على اعتبار الامرين جميعا وقد تقدم في تفسير قوله تعالى لا تضار والدة بولدها ما اذا راجعته زادك بصيرة ان شاء الله تعالى (وان تفعلوا) أي ما نهيتم عنه من المضارة (فانه) أي فعلكم هذا (فسوق بكم) خروج عن الطاعة الى المعصية ملتبس بكم (واتقوا الله) في فعل ما أمركم به وترك ما نهاكم عنه (ويعلمكم الله) ما تحتاجون اليه من العلم حال مقدرة أو مستأنف وفيه الوعد لمن اتقاه ان يعلمه ومنه قوله تعالى ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا (والله بكل شيء عليم) هذا آخر آية الدين وقد حث الله سبحانه فيها على الاحتياط في أمر الاموال لكونها سببا لمصالح المعاش والمعاد قال القفال ويدل على ذلك ان ألفاظ القرآن جارية في الاكثر على الاختصار وفي هذه الآية بسط شديد ألا ترى انه قال اذا تداينتم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه ثم قال ثانيا وليكتب بينكم كاتب بالعدل ثم قال ثالثا ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فكان هذا كالتكرار لقوله وليكتب بينكم كاتب بالعدل لان العدل هو ما علمه الله ثم قال رابعا فليكتب وهذا اعادة للامر الاول ثم قال خامسا وليملل الذي عليه الحق لان الكاتب العدل انما يكتب ما يملى عليه ثم قال سادسا وليتق الله ربه وهذا تأكيد ثم قال سابعا ولا يبخس منه شيأ وهذا كالمستفاد من قوله وليتق الله ربه ثم قال ثامنا ولا تسأموا ان تكتبوه صغيرا أو كبيرا الى أجله وهو أيضا تأكيد

الله تعالى يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم الى قوله وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين فكان من شاء صام ومن شاء أطعم مسكينا فأجزأ ذلك عنه ثم ان الله عز وجل أنزل الآية الأخرى شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن الى قوله فمن شهد منكم الشهر فليصمه فأثبت الله صيامه على المقيم الصحيح ورخص فيه للمريض والمسافر وثبت الاطعام للكبير الذى لا يستطيع الصيام فهذان حالان قال وكانوا يأكلون ويشربون ويأتون النساء مالم يناموا فاذا ناموا امتنعوا ثم ان رجلا من الأنصار يقال له صرمة كان يعمل صائما حتى أمسى فجاء الى أهله

فصلى العشاء ثم نام فلم يأكل ولم يشرب حتى أصبح فأصبح صائما فرآه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد جهد جهدا شديدا فقال مالى أراك قد جهدت جهدا شديدا قال يا رسول الله انى عملت أمس فجئت حين جئت فألقيت نفسى فنمت فأصبحت حين أصبحت صائما قال وكان عمر قد أصاب من النساء بعد ما نام فأتى النبى صلى الله عليه وسلم فذكر له ذلك فأنزل الله عز وجل أحل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم الى قوله ثم أتموا الصيام الى الليل وأخرجه أبو داود فى سننه والحاكم فى مستدركه من حديث المسعودى به وقد أخرجه البخارى ومسلم من حديث الزهرى عن عروة عن عائشة انها قالت كان عاشوراء يصام فلما نزل فرض رمضان كان من شاء صام ومن شاء أفطر وروى البخارى عن ابن عمر وابن مسعود مثله وقوله تعالى وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين كما قال معاذ رضى الله عنه كان فى ابتداء الأمر من شاء صام ومن شاء أفطر وأطعم عن كل يوم مسكينا وهكذا روى البخارى عن سلمة بن الأكوع انه قال لما نزلت وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين كان من أراد أن يفطر يفتدى حتى نزلت الآية التى بعدها فنسختها وروى أيضا من حديث عبيد الله عن نافع عن ابن عمر قال هى منسوخة وقال السدى عن مرة عن عبد الله قال لما نزلت هذه الآية وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين قال يقول وعلى الذين يطيقونه أى يتجشمونه قال عبد الله فكان من شاء صام ومن شاء أفطر وأطعم مسكينا فمن تطوع يقول أطعم مسكينا آخر فهو خير له وان تصوموا خير لكم فكانوا كذلك حتى نسختها فمن شهد منكم الشهر فليصمه وقال البخارى أيضا أخبرنا اسحق حدثنا روح حدثنا زكريا بن اسحق

لما مضى ثم قال تاسعا ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ان لا ترتابوا فأفاد بهذه الفوائد التالية لتلك التأكيدات السالفة وكل ذلك يدل على المبالغة فى التوصية بحفظ المال الحلال وصونه عن الهلاك ليتمكن الانسان بواسطته من الانفاق فى سبيل الله والاعراض عن مساخطه من الربا وغيره والمواظبة على ذكر الله وتقواه ذكره الخطيب (وان كنتم على سفر ولم تجدوا كاتبا فرهان مقبوضة) لما ذكر سبحانه مشروعية الكتابة والاشهاد لحفظ الاموال ودفع الريب عقب ذلك بذكر حالة العذر عن وجود الكاتب ونص على حالة السفر فانها من جملة أحوال العذر ويلحق بذلك كل عذر يقوم مقام السفر وجعل الرهان المقبوضة قائمة مقام الكتابة أى فان كنتم مسافرين ولم تجدوا كاتبا فى سفركم فرهان مقبوضة وعلى هنا بمعنى فى وفيه اشارة الى استعارة تبعية شبه تمكنهم من السفر بتمكن الراكب من مركوبه قال أهل العلم الرهن فى السفر ثابت بنص التنزيل وفى الحضر بفعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما ثبت فى الصحيحين انه صلى الله عليه وآله وسلم رهن درعا له من يهودى وأفاد قوله مقبوضة اشتراط القبض فى الرهن والاكتفاء به من المرتهن ووكيله وقرأ الجمهور كاتبا أى رجلا يكتب لكم وقرئ كتابا قال ابن الانبارى فسره ابن مجاهد فقال معناه فان لم تجدوا مدادا فى الاسفار وقرئ فرهن بضم الراء والهاء جمع رهان وقرئ فرهن وقراءة الجمهور فرهان قال الزجاج يقال فى الرهن رهنت وأرهنت وكذا قال ابن الاعرابى والاخفش وقال أبو على الفارسى يقال أرهنت فى المعاملات وأما فى القرض والبيع فرهنت وقال ابن السكيت أرهنت فيهما بمعنى أسلفت والمرتهن الذى يأخذ الرهن والشئ مرهون ورهين وراهنت فلانا على كذا مراهنة خاطرته وقد ذهب الجمهور الى أنه يصح الارتهان بالايجاب والقبول من دون قبض (فان أمن بعضكم بعضا) أى الدائن المدين على حقه فلم يرتهن يعنى ان كان الذى عليه الحق أمينا عند صاحب الحق لحسن ظنه به وامانته واستغنى بأمانته عن الارتهان (فليؤد الذى اؤتمن) وهو المديون (أمانته) أى الدين الذى عليه والامانة مصدر سمى به الذى فى الذمة وأضافها الى الذى عليه الدين من حيث ان لها اليه نسبة (وليتق الله ربه) فى أن لا يكتم من الحق شيأ وفى أداء الحق عند حلول الاجل من غير مماطلة ولا جحود بل يعامله المعاملة الحسنة كما أحسن ظنه فيه وفيه مبالغات من حيث الاتيان بصيغة

حدثنا عمرو بن دينار عن عطاء سمع ابن عباس يقرأ وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين قال ابن عباس ليست منسوخة هو الشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يستطيعان أن يصوما فيطعمان مكان كل يوم مسكينا وهكذا روى غير واحد عن سعيد بن جبير عن ابن عباس نحوه وقال أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا عبد الرحيم بن سليمان عن أشعث بن سوار عن عكرمة عن ابن عباس قال نزلت هذه الآية وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين في الشيخ الكبير الذي لا يطيق الصوم ثم ضعف فرخص له أن يطعم مكان كل يوم مسكينا وقال الحافظ أبو بكر بن (٣٧٤) مردويه حدثنا محمد بن أحمد حدثنا الحسين بن محمد بن بهرام المخزومي حدثنا وهب بن بقية حدثنا خالد بن عبد الله عن ابن أبي ليلى قال دخلت على عطاء في رمضان وهو يأكل فقال قال ابن عباس نزلت هذه الآية فنسخت الأولى إلا الكبير الفاني إن شاء أطعم عن كل يوم مسكينا وأفطر فحاصل الأمر أن النسخ ثابت في حق الصحيح المقيم بإيجاب الصيام عليه لقوله فمن شهد منكم الشهر فليصمه وأما الشيخ الفاني الهرم الذي لا يستطيع الصيام فله أن يفطر ولا قضاء عليه لأنه ليست له حال يصير إليها يتمكن فيها من القضاء ولكن هل يجب عليه إذا أفطر أن يطعم عن كل يوم مسكينا إذا كان ذا جدة فيه قولان للعلماء أحدهما لا يجب عليه إطعام لأنه ضعيف عنه لسنه فلم يجب عليه فدية كالصبي لأن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها وهو أحد قولي الشافعي والثاني وهو الصحيح وعليه أكثر العلماء أنه يجب عليه فدية عن كل يوم كما فسره ابن عباس وغيره من السلف على قراءة من قرأ وعلى الذين يطيقونه أي يتجشمونه كما قاله ابن مسعود وغيره وهو اختيار البخاري فإنه قال وأما الشيخ الكبير إذا لم يطق الصيام فقد أطعم أنس بعد ما كبر عاما أو عامين عن كل يوم مسكينا خبزا ولحما وأفطر وهذا الذي علقه البخاري قد أسنده الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده فقال حدثنا عبد الله بن معاذ حدثنا أبي حدثنا عمران عن أيوب بن أبي تميمة قال ضعف أنس عن الصوم فصنع جفنة من ثريد فدعا ثلاثين مسكينا فأطعمهم ورواه عبد بن حميد عن روح بن عبادة عن عمران وهو ابن جرير عن أيوب به ورواه عبد أيضا من حديث ستة من أصحاب أنس عن أنس بمعناه ومما يلتحق بهذا المعنى الحامل والمرضع إذا خافتا على أنفسهما أو ولديهما ففيهما

الأمر الظاهرة في الوجوب والجمع بين ذكر الله والرب وذكره عقب الأمر بأداء الدين وفيه من التحذير والتخويف ما لا يخفى (ولا تكتموا الشهادة) نهي للشهود أن يكتموا ما تحملوه من الشهادة إذا دعوا للإقامة وهو في حكم التفسير لقوله ولا يضار كاتب أي لا يضارر بكسر الراء الأولى على أحد التفسيرين المتقدمين (ومن يكتمها) يعني الشهادة (فإنه آثم) أي فاجر (قلبه) خص القلب بالذكر لأن الكتم من أفعاله ولكونه رئيس الأعضاء وهو المضغة التي إن صلحت صلح الجسد كله وإن فسدت فسد كله وإسناد الفعل إلى الجارحة التي تعمله أبلغ وهو صريح في مؤاخذة الشخص بأعمال القلب وارتفاع القلب على أنه فاعل أو مبتدأ وآثم خبره على ما تقرر في علم النحو ويجوز أن يكون قلبه بدلا من آثم بدل البعض من الكل ويجوز أيضا أن يكون بدلا من الضمير الذي في آثم الراجع إلى من وقرئ قلبه بالنصب كما في قوله إلا من سفه نفسه (والله بما تعملون عليم) فيه وعيد وتحذير لمن كتم الشهادة ولم يظهرها ويقال إن هذه الآية آية الدين وأخرج البخاري في تاريخه وأبو داود وغيرهما عن أبي سعيد الخدري أنه قرأ هذه الآية وقال هذه نسخت ما قبلها (وأقول) رضي الله عن هذا الصحابي الجليل ليس هذا من باب النسخ فهذا مقيد بالائتمان وما قبله ثابت محكم لم ينسخ وهو مع عدم الائتمان وعن سعيد بن المسيب أنه بلغه أن أحدث القرآن بالعرش آية الدين وعن ابن شهاب قال آخر القرآن عهدا بالعرش آية الربا وآية الدين (لله ما في السموات وما في الأرض) ملكا وأهلها له عبيد وهو مالكهم واستدل بسعة ملكه على سعة علمه (وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله) ظاهره أن الله يحاسب العباد على ما أضمرته أنفسهم وأظهرته من الأمور التي يحاسب عليها (فيغفر لمن يشاء) منهم ما يغفره منها (ويعذب من يشاء) منهم بما أسر وأظهر منها هذا معنى الآية على مقتضى اللغة العربية وقد اختلف أهل العلم في هذه الآية على أقوال الأول أنها وإن كانت عامة فهي مخصوصة بكتمان الشهادة وأن الكاتم للشهادة يحاسب على كتمه سواء أظهر للناس أنه كاتم للشهادة أو لم يظهر وقد روي هذا عن ابن عباس وعكرمة والشعبي ومجاهد وهو مردود بما في الآية من عموم اللفظ ولا يصلح ما تقدم قبل هذه الآية من النهي عن كتم الشهادة أن تكون مختصة به والقول الثاني أن ما في الآية مختص بما يخطر على النفوس من الأمور التي هي بين الشك واليقين قاله مجاهد وهو أيضا

تخصيص

خلاف كثير بين العلماء فمنهم من قال يفطران ويفديان ويقضيان وقيل يفديان فقط ولا قضاء وقيل يجب القضاء بلا فدية وقيل يفطران ولا فدية ولا قضاء وقد بسطنا هذه المسئلة مستقصاة في كتاب الصيام الذي أفردناه ولله الحمد والمنة (شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون) يمدح تعالى شهر الصيام من بين سائر الشهور بأن اختاره من بينهن لانزال القرآن العظيم وكما اختصه بذلك وقد ورد الحديث بأنه الشهر

الذي كانت الكتب الالهية تنزل فيه على الانبياء قال الامام احمد ابن حنبل رحمه الله حدثنا ابو سعيد مولى بني هاشم حدثنا عمران أبو العوام عن قتادة عن ابي فليح عن واثلة يعني ابن الاسقع ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال انزلت صحف ابراهيم في اول ليلة من رمضان وانزلت التوراة لست مضين من رمضان والانجيل لثلاث عشرة خلت من رمضان وانزل الله القرآن لاربع وعشرين خلت من رمضان وقد روي من حديث جابر بن عبد الله وفيه ان الزبور انزل لثنتي عشرة خلت من رمضان والانجيل لثماني عشرة والباقي كما تقدم رواه ابن مردويه واما الصحف والتوراة والزبور والانجيل فنزل كل منها على النبي الذي انزل عليه جملة واحدة واما القرآن فانما انزل جملة واحدة الى بيت العزة من السماء الدنيا وكان ذلك في شهر رمضان في ليلة القدر منه كما قال تعالى انا انزلناه في ليلة القدر وقال انا انزلناه في ليلة مباركة ثم نزل بعد مفرقا بحسب الوقائع على رسول الله صلى الله عليه وسلم هكذا روي من غير وجه عن ابن عباس كما قال اسرائيل عن السدي عن محمد بن ابي المجالد عن مقسم عن ابن عباس انه سأل عطية بن الاسود فقال وقع في قلبي الشك قول الله تعالى شهر رمضان الذي انزل فيه القرآن وقوله انا انزلناه في ليلة مباركة وقوله انا انزلناه في ليلة القدر وقد انزل في شوال وفي ذي القعدة وفي ذي الحجة وفي المحرم وصفر وشهر ربيع فقال ابن عباس انه انزل في رمضان في ليلة القدر وفي ليلة مباركة جملة واحدة ثم انزل على مواقع النجوم ترتيلا في الشهور والايام رواه ابن ابي حاتم وابن مردويه وهذا لفظه وفي رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس قال انزل القرآن في النصف من شهر

تخصيص بلا مخصص والقول الثالث انها محكمة عامة ولكن العذاب على ما في النفس يختص بالكفار والمنافقين حكاه الطبري عن قوم وهو أيضا تخصيص بلا مخصص فان قوله يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء لا يختص ببعض معين الا بدليل والقول الرابع ان هذه الآية منسوخة قاله ابن مسعود وعائشة وأبو هريرة والشعبي وعطاء ومحمد بن سيرين ومحمد بن كعب وموسى بن عبيدة وهو مروي عن ابن عباس وجماعة من الصحابة والتابعين وهذا هو الحق لما سيأتي من التصريح بنسخها ولما ثبت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ان الله غفر لهذه الامة ما حدثت به أنفسها وأخرج البخاري والبيهقي عن مروان الاصغر عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم أحسبه ابن عمر ان تبدوا ما في أنفسكم الآية قال نسختها الآية التي بعدها وأخرج عبد بن حميد والترمذي عن علي نحوه وأخرج أحمد ومسلم وأبو داود في ناسخه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال لما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لله ما في السموات وما في الارض وان تبدوا ما في أنفسكم الآية اشتد ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأتوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم جثوا على الركب فقالوا يا رسول الله كلفنا من الاعمال ما نطيق الصلاة والصيام والجهاد والصدقة وقد أنزل الله عليك هذه الآية ولا نطيقها فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أتريدون ان تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم سمعنا وعصينا بل قولوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير فلما اقترأها القوم وذلت بها ألسنتهم أنزل الله في اثرها آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون الآية فلما فعلوا ذلك نسخها الله فأنزل لا يكلف الله نفسا الا وسعها الى آخرها وأخرج أحمد ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر والحاكم والبيهقي عن ابن عباس مرفوعا نحوه وزاد فأنزل الله ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا قال قد فعلت ربنا ولا تحمل علينا اصرا كما حملته على الذين من قبلنا قال قد فعلت ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به قال قد فعلت واعف عنا واغفر لنا وارحمنا الآية قال قد فعلت وقد رويت هذه القصة عن ابن عباس من طرق وبمجموع ما تقدم يظهر لك ضعف ما روي عن ابن عباس في هذه الآية انه قال نزلت في كتمان الشهادة فانها لو كانت كذلك لم يشتد الامر على الصحابة وعلى كل حال فبعد هذه الاحاديث المصرحة

رمضان الى سماء الدنيا فجعل في بيت العزة ثم انزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم في عشرين سنة لجواب كلام الناس وفي رواية عكرمة عن ابن عباس قال نزل القرآن في شهر رمضان في ليلة القدر الى هذه السماء الدنيا جملة واحدة وكان الله يحدث لنبيه ما يشاء ولا يجيء المشركون بمثل يخاصمون به الا جاءهم الله بجوابه وذلك قوله وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا ولا يأتونك بمثل الا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا وقوله هدى للناس و بينات من الهدى والفرقان هذا امدح للقرآن الذي انزله الله هدى لقلوب العباد ممن آمن به وصدقه واتبعه و بينات اى ودلائل وحجج بينة واضحة جلية لمن فهمها وتدبرها دالة على صحة ما جاء به من الهدى المنافي للضلال والرشد المخالف للغي ومفرقا بين الحق والباطل والحلال والحرام وقد روى عن بعض السلف انه كره ان يقال الا شهر رمضان ولا يقال رمضان قال ابن ابي حاتم حدثنا ابي حدثنا محمد ابن بكار بن الريان حدثنا ابو معشر عن محمد بن كعب القرظي وسعيد هو المقبري عن ابي هريرة قال لا تقولوا رمضان فان رمضان اسم من اسماء الله تعالى ولكن قولوا شهر رمضان قال ابن ابي حاتم وقد روى عن مجاهد ومحمد ابن كعب نحو ذلك و رخص فيه ابن عباس و زيد بن ثابت (قلت) أبو معشر هو نجيح بن عبد الرحمن المدني امام المغازي والسير ولكن فيه ضعف وقد رواه ابنه محمد عنه فجعله مرفوعا عن ابي هريرة وقد انكره عليه الحافظ ابن عدي وهو جدير بالانكار فانه متروك وقد وهم في رفع هذا الحديث وقد انتصر البخاري رحمه الله في كتابه لهذا فقال باب يقال رمضان وساق أحاديث في ذلك منها من صام رمضان ايمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه ونحو ذلك وقوله فمن شهد منكم الشهر فليصمه هذا ايجاب حتم على من شهد استهلال الشهر اى كان مقيما في البلد حين دخل شهر رمضان وهو صحيح في بدنه ان يصوم لا محالة ونسخت هذه الآية الاباحة المتقدمة لمن كان صحيحا مقيما ان يفطر و يفدي باطعام مسكين عن كل يوم كما تقدم بيانه ولما حتم الصيام اعاد ذكر الرخصة للمريض وللمسافر في الافطار بشرط القضاء فقال ومن كان مريضا او على سفر فعدة من أيام اخر معناه ومن كان به مرض في بدنه يشق عليه الصيام معه او يؤذيه او كان على سفر اى في حال السفر فله ان يفطر فاذا افطر فعليه

بالنسخ والناسخ لم يبق مجال لمخالفتها ومما يؤيد ذلك ما ثبت في الصحيحين والسنن الاربع من حديث أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان الله تجاوز لي عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم أو تعمل به وأخرج ابن جرير عن عائشة قالت كل عبد هم بسوء ومعصية وحدث نفسه به حاسبه الله في الدنيا يخاف و يحزن و يشتد همه لا يناله من ذلك شيء كما هم بالسوء ولم يعمل بشيء والاحاديث المتقدمة المصرحة بالنسخ تدفعه عن ابن عباس قال ان الله يقول يوم القيامة ان كتابي لم يكتبوا من أعمالكم الا ما ظهر منها فأما ما أسررتم في أنفسكم فأنا أحاسبكم به اليوم فأغفر لمن شئت وأعذب من شئت وهو مدفوع بما تقدم وقيل محكمة لانه اذا حمل ما في الانفس على خصوص العزم لم يكن نسخ لانه مؤاخذ به وقد نظم بعضهم مراتب القصد بقوله

مراتب القصد خمس هاجس ذكروا * وخاطر فحديث النفس فاستمعا

يليه هم فعزم كلها رفعت * سوى الاخير ففيه الاخذ قد وقعا

(والله على كل شيء قدير) فيغفر للمؤمنين فضلا و يعذب الكافرين عدلا قال ابن عباس يغفر الذنب العظيم و يعذب على الذنب الصغير (آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون) أي بجميع ما أنزل اليه قال الزجاج لما ذكر الله سبحانه في هذه السورة فرض الصلاة والزكاة والصيام و بين أحكام الحج والجهاد وحكم الحيض والطلاق والايلاء وأقاصيص الانبياء و بين حكم الربا ذكر تعظيمه ثم ذكر تصديق نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ثم ذكر تصديق جميع المؤمنين بجميع ذلك فقال آمن الرسول أي صدق الرسول بجميع هذه الاشياء التي جرى ذكرها وكذلك المؤمنون (كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله) أفرد الضمير في آمن لان المراد ايمان كل فرد منهم من غير اعتبار الاجتماع كما اعتبر ذلك في قوله وكل أتوه داخرين وهذه أربع مراتب من أصول الدين وضرورياته وسبب نزولها الآية التي قبلها وقد تقدم بيان ذلك وقوله وملائكته أي من حيث كونهم عباده المكرمين المتوسطين بينه و بين أنبيائه في انزال كتبه وقوله وكتبه لانها المشتملة على الشرائع التي تعبد بها عباده وقوله ورسله لانهم المبلغون لعباده ما نزل اليهم وقرأ ابن عباس وكتابه وقال الكتاب أكثر من الكتب و بينه صاحب الكشاف فقال لانه اذا أريد بالواحد الجنس والجنسية قائمة في وحدان الجنس كلها لم يخرج منه شيء وأما الجمع فلا

يدخل

عدة ما أفطر في السفر من الايام ولهذا قال يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر أي انما رخص لكم في الفطر في حال المرض وفي السفر مع تحتمه في حق المقيم الصحيح تيسيرا عليكم ورحمة بكم وههنا مسائل تتعلق بهذه الآية احداها انه قد ذهب طائفة من السلف الى أن من كان مقيما في أول الشهر ثم سافر في أثنائه فليس له الافطار بعذر السفر والحالة هذه لقوله فمن شهد منكم الشهر فليصمه وانما يباح الافطار لمسافر استهل الشهر وهو مسافر وهذا القول غريب نقله أبو محمد بن حزم في كتابه المحلى عن جماعة من الصحابة والتابعين وفيما حكاه عنهم نظر والله أعلم فانه قد ثبتت السنة عن (٣٧٧) رسول الله صلى الله عليه وسلم انه خرج في شهر رمضان لغزوة الفتح فسار حتى .. بلغ الكديد ثم أفطر وأمر الناس بالفطر أخرجه صاحبا الصحيح الثانية ذهب آخرون من الصحابة والتابعين الى وجوب الافطار في السفر لقوله فعدة من أيام أخر والصحيح قول الجمهور ان الامر في ذلك على التخيير وليس بحتم لانهم كانوا يخرجون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في شهر رمضان قال فمنا الصائم ومنا المفطر فلم يعب الصائم على المفطر ولا المفطر على الصائم فلو كان الافطار هو الواجب لأنكر عليهم الصيام بل الذي ثبت من فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم انه كان في مثل هذه الحالة صائما لما ثبت في الصحيحين عن أبي الدرداء قال خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في شهر رمضان في حر شديد حتى ان كان أحدنا ليضع يده على رأسه من شدة الحر وما فينا صائم الا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعبد الله ابن رواحة الثالثة قالت طائفة منهم الشافعي الصيام في السفر أفضل من الافطار لفعل النبي

صلى الله عليه وسلم كما تقدم وقالت طائفة بل الافطار أفضل أخذا بالرخصة ولما ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه سئل عن الصوم في السفر فقال من أفطر فحسن ومن صام فلا جناح عليه وقال في حديث آخر عليكم برخصة الله التي رخص لكم وقالت طائفة هما سواء لحديث عائشة ان حمزة بن عمرو الاسلمي قال يا رسول الله اني كثير الصيام أفأصوم في السفر فقال ان شئت فصم وان شئت فافطر وهو في الصحيحين وقيل ان شق الصيام فالافطار أفضل لحديث جابر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رجلا قد ظلل عليه فقال ما هذا قالوا صائم فقال ليس من البر الصيام في السفر أخرجاه فأما ان رغب عن

فلا يدخل تحته الا ما فيه الجنسية من المجموع انتهى ومن أراد تحقيق المقام فليرجع الى شرح التلخيص المطول عند قول الماتن واستغراق المفرد أشمل (لا نفرق بين أحد من رسله) فنؤمن ببعض ونكفر ببعض كما فعل اليهود والنصارى لم يقل بين آحاد لان الاحد يتناول الواحد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث كما في قوله تعالى فما منكم من أحد عنه حاجزين فوصفه بقوله حاجزين لكونه في معنى الجمع (وقالوا سمعنا وأطعنا) أي أدركناه باسماعنا وفهمناه وأطعنا ما فيه وقيل معنى سمعنا أجبنا دعوتك (غفرانك ربنا) أي اغفر غفرانك قاله الزجاج وغيره وقيل نسألك غفرانك وقدم السمع والطاعة على طلب المغفرة لكون الوسيلة تتقدم على المتوسل اليه (واليك المصير) أي المرجع والمآب بالبعث (لا يكلف الله نفسا الا وسعها) أي ما تسعه قدرتها فضلا منه ورحمة أو ما دون مدى طاقتها أي غاية طاقتها بحيث يتسع فيه طوقها ويتيسر عليها التكليف هو الامر بما فيه مشقة وكلفة والوسع الطاقة والوسع ما يسع الانسان ولا يضيق عليه وهذه جملة مستقلة جاءت عقب قوله سبحانه ان تبدوا ما في أنفسكم الآية لكشف كربة المسلمين ودفع المشقة عليهم في التكليف بما في الانفس وهي كقوله سبحانه يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر قال ابن عباس وأكثر المفسرين ان هذه الآية نسخت حديث النفس والوسوسة (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) فيه ترغيب وترهيب أي لها ثواب ما كسبت من الخير وعليها وزر ما اكتسبت من الشر وتقديم لها وعليها على الفعلين يفيد ان ذلك لها لا لغيرها وعليها لا على غيرها وهذا مبني على ان كسب للخير فقط واكتسب للشر فقط كما قاله صاحب الكشاف وغيره وقيل كل واحد من الفعلين يصدق على الامرين وانما كرر الفعل وخالف بين التصريفين تحسينا للنظم كما وقع في قوله تعالى فمهل الكافرين أمهلهم رويدا وقيل اللام للخير وعلى للمضرة ولكن ينقض هذا بقوله تعالى ولهم اللعنة وعليهم صلوات ، اللهم الا ان يقال هما يقتضيان ذلك عند الاطلاق بلا ذكر الحسنة والسيئة أو انهما يستعملان لذلك عند تقاربهما كما في هذه الآية (ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا) أي لا تؤاخذنا باثم ما يصدر منا من هذين الامرين وقد استشكل هذا الدعاء جماعة من المفسرين وغيرهم قائلين ان الخطأ والنسيان مغفوران غير مؤاخذ

السنة ورأى أن الفطر مكروه اليه فهذا يتعين عليه الافطار ويحرم عليه الصيام والحالة هذه لما جاء في مسند الامام أحمد وغيره عن ابن عمر وجابر وغيرهما من لم يقبل رخصة الله كان عليه من الاثم مثل جبال عرفة الرابعة القضاء هل يجب متتابعا أو يجوز فيه التفريق فيه قولان أحدهما أنه يجب التتابع لان القضاء يحكى الاداء والثانى لا يجب التتابع بل ان شاء فرق وان شاء تابع وهذا قول جمهور السلف والخلف وعليه ثبتت الدلائل لان التتابع انما وجب في الشهر لضرورة أدائه في الشهر فاما بعد انقضاء رمضان فالمراد صيام أيام عدة ما أفطر ولهذا قال (٣٧٨) تعالى فعدة من أيام أخر ثم قال تعالى يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر قال الامام أحمد حدثنا أبو سلمة الخزاعى حدثنا أبو هلال عن حميد بن هلال العدوى عن أبى قتادة عن الاعرابى الذى سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول ان خير دينكم أيسره ان خير دينكم أيسره وقال أحمد أيضا حدثنا يزيد بن هرون أخبرنا عاصم بن هلال حدثنا عاصم بن عروة الفقيمى حدثنى أبى عروة قال كنا ننتظر النبى صلى الله عليه وسلم فخرج يقطر رأسه من وضوء أو غسل فصلى فلما قضى الصلاة جعل الناس يسألونه علينا حرج فى كذا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان دين الله فى يسر ثلاثا يقولها ورواه الامام أبو بكر بن مردويه فى تفسير هذه الآية من حديث مسلم بن أبى تميم عن عاصم ابن هلال به وقال الامام احمد حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة قال حدثنا أبو التياح سمعت أنس ابن مالك يقول ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يسروا ولا تعسروا وسكنوا ولا تنفروا أخرجاه فى الصحيحين وفى الصحيحين أيضا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ وأبى موسى حين بعثهما الى اليمن بشرا ولا تنفرا ويسرا ولا تعسرا وتطاوعا ولا تختلفا وفى السنن والمسانيد ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال بعثت بالحنيفية السمحة وقال الحافظ ابو بكر بن مردويه فى تفسيره حدثنا عبد الله بن اسحق بن ابراهيم حدثنا يحيى بن أبى طالب حدثنا عبد الوهاب بن عطاء حدثنا أبو مسعود الحريرى عن عبد الله بن شقيق عن محجن بن الادرع ان رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رجلا يصلى فتراآه ببصره ساعة فقال أتراه يصلى صادقا قال قلت يارسول الله هذا اكثر أهل المدينة صلاة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تسمعه فتهلكه وقال ان الله انما أراد

بهما فما معنى الدعاء بذلك فانه من تحصيل الحاصل وأجيب عن ذلك بان المراد طلب عدم المؤاخذة بما صدر عنهم من الاسباب المؤدية الى النسيان والخطا من التفريط وعدم المبالاة لا من نفس النسيان والخطا فانه لا مؤاخذة بهما كما يفيد ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وسيأتى تخريجه وقيل انه يجوز للانسان أن يدعو بحصول ما هو حاصل له قبل الدعاء لقصد استدامته وقيل انه وان ثبت شرعا انه لا مؤاخذة بهما فلا امتناع فى المؤاخذة بهما عقلا وقيل لانهم كانوا على جانب عظيم من التقوى بحيث لا يصدر عنهم الذنب تعمدا وانما يصدر عنهم خطأ أو نسيانا فكانه وصفهم بالدعاء بذلك ايذانا بنزاهة ساحتهم عما يؤاخذون به كانه قيل ان كان النسيان والخطأ مما يؤاخذ به فما منهم سبب المؤاخذة الا الخطأ والنسيان قال القرطبى وهذا لم يختلف فيه ان الاثم مرفوع وانما اختلف فيما يتعلق على ذلك من الاحكام هل ذلك مرفوع ولا يلزم منه شئ أو يلزم أحكام ذلك كله اختلاف فيه والصحيح ان ذلك يختلف بحسب الوقائع فقسم لا يسقط باتفاق كالغرامات والديات والصلوات المفروضات وقسم يسقط باتفاق كالقصاص والنطق بكلمة الكفر وقسم ثالث مختلف فيه كمن أكل ناسيا فى رمضان أو حنث ساهيا وما كان مثله مما يقع خطأ ونسيانا ويعرف ذلك فى الفروع انتهى والآية تعليم من الله لعباده كيفية الدعاء وهذا من غاية الكرم حيث يعلمهم الطلب ليعطيهم المطلوب (ربنا ولا تحمل علينا اصرا) تكرير النداء للايذان بمزيد التضرع واللجا الى الله سبحانه والاصر العبء الثقيل الذى يأصر صاحبه أى يحبسه مكانه لا يستقل به لثقله والمراد به هنا التكليف الشاق والامر الغليظ الصعب وقيل الاصر شدة العمل وما غلظ على بنى اسرائيل من قتل الانفس وقطع موضع النجاسة وقيل الاصر المسخ قردة وخنازير وقيل العهد ومنه قوله تعالى وأخذتم على ذلكم اصرى وهذا الخلاف يرجع الى بيان ما هو الاصر الذى كان على من قبلنا لا الى معنى الاصر فى لغة العرب فانه ما تقدم ذكره بلا نزاع والاصار الحبل الذى يربط به الاحمال ونحوها يقال أصر يأصر أصرا حبس والاصر بكسر الهمزة من ذلك قال الجوهرى والموضع مأصر والجمع مآصر ومعنى الآية انهم طلبوا من الله سبحانه ان لا يحملهم من ثقيل التكاليف ما حمل الامم قبلهم (كما حملته على الذين من قبلنا) يعنى اليهود وذلك ان الله فرض عليهم خمسين

خمسين صلاة وأمرهم بأداء ربع أموالهم زكاة ومن أصاب منهم ثوبه نجاسة قطعها ومن أصاب ذنباً أصبح وذنبه مكتوب على بابه ونحو هذا من الاثقال والآصار (ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به) تكرير النداء للنكتة المذكورة قبل هذا والمعنى لا تحملنا من الاعمال ما لا نطيق وقيل هو عبارة عن انزال العقوبات كأنه قال لا تنزل علينا العقوبات بتفريطنا في المحافظة على تلك التكاليف الشاقة التي كلفت بها من قبلنا وقيل المراد به الشاق الذي لا يكاد يستطاع من التكاليف والطاقة القدرة على الشيء (واعف عنا) أي عن ذنوبنا يقال عفوت عن ذنبه اذا تركته ولم تعاقبه عليه (واغفر لنا) أي استر على ذنوبنا ولا تفضحنا بالمؤاخذة والغفر الستر (وارحمنا) أي تفضل برحمة منك علينا وتعطف بنا (أنت مولانا) أي ولينا وناصرنا وخرج هذا مخرج التعليم كيف يدعون وقيل معناه انت سيدنا ونحن عبيدك (فانصرنا على القوم الكافرين) فان من حق المولى ان ينصر عبيده والمراد عامة الكفرة وفيه اشارة الى اعلاء كلمة الله بالجهاد في سبيله وقد قدمنا في شرح الآية التي قبل هذا أنه ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ان الله تعالى قال عقب كل دعوة من هذه الدعوات قد فعلت فكان ذلك دليلاً على أنه سبحانه لم يؤاخذهم بشيء من الخطا والنسيان ولا حمل عليهم شيأ من الاصر الذي حمله على من قبلهم ولا حملهم ما لا طاقة لهم به وعفا عنهم وغفر لهم ورحمهم ونصرهم على القوم الكافرين والحمد لله رب العالمين وقد أخرج ابن ماجه وابن المنذر وابن حبان في صحيحه والطبراني والدارقطني والحاكم والبيهقي في سننه عن ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال ان الله تجاوز عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه وروى من طرق كثيرة وفي اسانيدها مقال ولكنها يقوى بعضها بعضاً فلا يقصر عن رتبة الحسن لغيره وقد تقدم حديث قد فعلت وهو يشهد لهذا الحديث وقد ورد عن جماعة من الصحابة وغيرهم ان جبريل لقن النبي صلى الله عليه وآله وسلم خاتمة البقرة آمين وقد ثبت عند الشيخين وأهل السنن وغيرهم عن أبي مسعود عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال من قرا الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه وأخرج أحمد والنسائي والطبراني والبيهقي في الشعب بسند صحيح عن حذيفة ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يقول أعطيت هذه الآيات من آخر سورة البقرة من كنز تحت العرش لم يعطها نبي قبلي وأخرج الطبراني بسند جيد عن شداد بن أوس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان الله كتب كتاباً قبل ان يخلق السموات والارض بألفي عام فأنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة لا تقرآن في دار ثلاث ليال فيقربها شيطان وأخرج مسلم والنسائي واللفظ له عن ابن عباس قال بينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعنده جبريل اذ سمع نقيضاً فرفع جبريل بصره الى السماء فقال هذا باب قد فتح من السماء ما فتح قط قال فنزل منه ملك فأتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال ابشر بنورين قد أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لن تقرأ حرفاً منهما الا أوتيته فهذه أحاديث مرفوعة الى النبي

بهذه الامة اليسر ولم يرد بهم العسر ومعنى قوله يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة أي انما أرخص لكم في الافطار للمرض والسفر ونحوهما من الاعذار لارادته بكم اليسر وانما أمركم بالقضاء لتكملوا عدة شهركم وقوله ولتكبروا الله على ما هداكم أي ولتذكروا الله عند انقضاء عبادتكم كما قال فاذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً وقال فاذا قضيت الصلاة فانتشروا في الارض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون وقال فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ومن الليل فسبحه وأدبار السجود ولهذا جاءت السنة باستحباب التسبيح والتحميد والتكبير بعد الصلوات المكتوبات وقال ابن عباس ما كنا نعرف انقضاء صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم الا بالتكبير ولهذا أخذ كثير من العلماء مشروعية التكبير في عيد الفطر من هذه الآية ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم حتى ذهب داود بن علي الاصبهاني الظاهري الى وجوبه في عيد الفطر لظاهر الامر في قوله ولتكبروا الله على ما هداكم وفي مقابلته مذهب أبي حنيفة رحمه الله انه لا يشرع التكبير في عيد الفطر والباقون على استحبابه على اختلاف في تفاصيل بعض الفروع

صلى الله عليه وآله وسلم في فضل هاتين الآيتين وقد
روى في فضلهما من غير المرفوع عن عمر وعلي
وابن مسعود وأبي مسعود وكعب الاحبار
والحسن وأبي قلابة وفي قول النبي
صلى الله عليه وآله وسلم
ما يغني عن غيره
ولله الحمد
تم

ينهم وقوله ولعلكم تشكرون أي اذا قمتم بما أمركم الله من طاعاته بأداء فرائضه وترك محارمه وحفظ حدوده فلعلكم ان تكونوا من الشاكرين بذلك

الى هنا انتهى الجزء الاول ويليه الجزء الثاني وأوله قوله تعالى واذا سألك عبادي عني فاني قريب

(تم طبع الجزء الاول ويليه الجزء الثاني وأوله سورة آل عمران)

ولما انتهى طبع الجزء الاول من تجزئة مؤلفه حفظه الله الذي آخره آخر سورة الانعام قال في خاتمة طبعه الاول بالمطبعة البهوبالية الجناب الافضل والهمام الاكمل الجهبذ النجيب اللوذعي الاديب الشيخ محمد أحسن الطيب ابن الهي بخش الحاجي بوري مقرظا هذا التفسير البديع بهيج الوضع وجميل الصنيع ومؤرخا انتهاء طبع هذا الجزء الجليل المنبئ عن غزارة علم مؤلفه البحر الخضم الشهم النبيل ما نصه

(بسم الله الرحمن الرحيم)

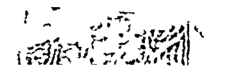
أحمد ملفوظ به أمام كل كلام وأسعد ما يفتخر به كل مأموم وامام حمد الله سبحانه وتعالى بما حمد به في كتابه العزيز وتنزيله الذهب الابريز من جواهر زواهر صيغة الجلالة باسمه اذ لا يشاركه أحد في حده ولا رسمه رب السموات والارض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا وانما هي محامد لذاته الواجب الوجود الموجد لكل موجود ايجادا سويا وأحسن ما تلي به حمده النامي ووصفه السامي التصلية والتسليم على أفضل رسله وخاتم أنبيائه المستل من سلالة عدنان المفضل بالقرآن واللسان والبيان وعلى آله وأصحابه أولي الايمان والعرفان (وبعد) فقد تم طبع هذا الجزء الاول من تفسير فتح البيان في مقاصد القرآن المسفر عن أنوار التنزيل المضيء بأضواء التأويل الذي لم تزل نعام القلوب اليه زفافه ورياح الآمال حوله هفافه وعيون الفحول اليه روامق وأفواههم بتثنيه نواطق لما أودع فيه من كنوز الرواية ورموز الدراية بأسلوب رائق ومسلك فائق يخرس لفصاحته سحبان ويطرح لبلاغته قس في زوايا النسيان ولعمري ان اسمه طابق مسماه ورسمه وافق معناه كما يعرف ذلك الناقد البصير ولا ينبئك مثل خبير بدار الرياسة العلية وبيت الطباعة البهية بلدة بهوبال المحمية المتحلية بنسبتها للدائرة السنية صاحبة الدولة السعيدة ذات المكارم المشهورة الحميدة غرة جبهة الدهر وقرة عين العصر حضرتنا (نواب شاهجهان بيكم)

واليـة المملكة الباهره ومصرها القاهره لازالت بالشـيم الزاهـرة الفاخرة كيف
وبمثل طبع هذا الكتاب تلبس به وبال ثوب تيهها واعجابها وتجرذيل خيلائها واغرابها
وكان ذلك خدمة لحامى ثغورها الاسلامية وماحى بدعها السامية النامية أمجد المفاخر
محمد المـآثر رب السـيف والقلم ذى الرأى والراية والعـلم والعلم عزيز مصر به وبال
ووحيد عصر الدولة والاقبال تاج العترة المكال وطراز المجد الرفيع الاول من شاع
فضله وذاع وتوفرت لشراء تآليفه المفيدة الاسماع بقية أهل القرآن والحديث مستمد
الفتح من حضرة البارى المغيث ذى المجد والعلى والتفاخر نواب عالى الجاه أمير الملك
السـيد محمد صديق حسن خان بهادر لازالت المـآثر الحميدة به تجدد والمعارف الجليلة
اليه تقصد الى أن قال

انه لما وصل فى الحادى عشر من شهر ربيع الاول سـنة احدى وتسـعين ومائتين وألف
هجرية بعـد الحج والزيارة النبوية الى بيت المقـدس بجزء من هذا التفسـير ووقف من
هنالك من أهل العلم عليه أثنوا عليه ثناء بالغا ومدحوه مدحا سائغا وكتب عليه مقرظا
كريم المحتد ذو الفضـل الممتد يوسـف بن أسـعد المفتى بالقـدس سلمهما الله الصمد
ما صورته هكذا

الحمد لله الذى نصب للعلماء العاملين أعـلاما ورفع قدرهم فهم أعز الخلق مقاما جعلهم
حفظـة شرعه القويم وهـداة صراطه المسـتقيم أحلهم منزلة أنبياء بنى اسرائيـل
وأيدهم بالحق فبأقوالهم زهقت الاباطيل وأنزل على رسوله الذى هو أكرم من لحق وسبق
اقرأ باسم ربك الذى خلق وشرف قدره بشهادة قرآن غـير ذى عوج وأزال عن أمتـه
المرحومة عنت الاصر والحرج فصـلى الله عليـه وعلى آله وأصحابه ما تلا تال القرآن
ورتل وغرف من بحور معانيه مفسر فأول (وبعـد) فان أعظم العلوم عنـد الله قدرا
وأعرقها منزلة وأوفاها أجرا علم التفسير لكتاب الله القدير اذ به مناط عبادة المكلفين
وصحـة أصولهم وفروعهم عند المحققين ومن أعظم ماصـنف فيه وتنافس به هذا الزمان
كتاب التفسـير المسمى بفتح البيان فى مقاصد القرآن لوحيد هـذا الدهر وفريد هـذا
الأوان فياله من كتاب تتصاغر عنده فصاحة سحبان وتفوح من عبير رياه حكمة لقمان
تصدر من بحر معناه ونهر مبناه جهابذة النقد ويعجز عن الاتيان بمثله أهل الحل والعقد
الفاظه مهـذبة ومعانيه مسـتعذبة فياله من مؤلف جامع وما أجله من سـفر مانع
فأكرم به من كرم يانع تقتطف منه المعانى الدقيقة وتقتنص منه المبانى الرقيقة كيف
لا وهو تأليف ذى الامارة العلية والعلم والعمل وقطب دائرة السادة الاول مجيد القول
فى التفسـير ومحكم الصياغة الآخذ بمجامع الفصاحة والبلاغة سلالة سـيد المرسلين
وتاج هامة كافة المفسرين ولسان رجال الرواية والمحدثين وميزان اعتدال الافاضـل
والمحققين ومحط رحال أولى الفضل واليقين من ذلت له الرتبة العالية ليرقاها وافتخرت
به الامارة الغالية لما علاها

أتته الخلافة منقادة * اليه تجرر أذيالها
فلم تك تصلح الا له * ولم يك يصلح الا لها



وتفاخرت به بهو پال على غيرها من الاقاليم الدانية والقاصية فلا زالت به مأهولة معمورة
عالية المخاطب بنواب عالى الجاه أمير الملك سيد محمد صديق حسن خان بهادر
أدام الله عليه حلل السعادة والسيادة والتناصر وأعز الله به العلم وأيده
وأعلى كلمته وقوى شوكتـه وأيده بحرمة سـيد المرسلين وآخر
دعوانا أن الحمد لله رب العالمين * الداعى على الدوام يوسف
ابن أسعد المفتى الامام بالمسجد الاقصى
والمدرس به انتهى كلامه سلمه
الله تعالى والحمد لله
أولا وآخرا
آمين